الأمة

مجلة ثقافية شهرية

السنة السابعة
المحرم
1399 هـ
ديسمبر
1978 م
العدد 64

فى هذا العدد

- الامة تكبر فيك تفانيك لبعث دولة لا تزول بزوال الرجال.
- مساهمة ابن خلدون فى تحليل علاقات المدينة والريف.
- الحاج أحمد باى وبايلك قسنطينة 1830 ـ 1837.
- الحلاج والقرامطة.
- واقع الجالية العربية الاسلامية فى أوروبا والاخطار التى تهدد شخصيتها.

الأصالة

مجلة ثقافية شهرية

تصدر عن

وزارة الشؤون الدينية

اسسها :

مولود قاسم نايت بلقاسم

في محرم 1391 هـ - مارس 1971 م

رئيس تحريرها

عثمان شبوب

- هذه المجلة منبر حر ، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن آرائها . وباب المناقشة والرد فيها مفتوح للجميع .
- المقالات التي ترد الى المجلة لا ترد الى أصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

التحرير :

12 ، نهج علي بومنجل - الجزائر

تليفون : 74 - 88 - 64

قيمة الاشتراك السنوي :

في الجزائر : 20د . ج

في الخارج : ما يعادلها

الاشتراك للطلبة : 18

المراسلات الخاصة بـ :

الاشتراكات

التوزيع

ساحة ابن باديس - الجزائر العاصمة

تليفون : 14 - 67 - 62

الحساب الجاري : 09 04 39

صندوق البريد : 93

فهرس العدد

انا لله وانا اليه راجعون		2
الامه تكبر فيك تفانيك لبعد دوله لا تزول بزوال الرجال		4
دراسات وأبحاث		
مساهمه ابن خلدون فى تحليل علاقات المدينة والريف	د. جيلالى صارى	10
الحاج أحمد باي وبايلك قسنطينة 1830 ـ 1837	د. عبد الجليل التميمى	20
عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين	د. عبد الحميد حاجيات	27
الحلاج والفرامطة	د. محمود قاسم	43
حسان بن النعمان ودوره فى نشر الاسلام بالمغرب	صالح بن قربة	58
المكانه التاريخية للشرق الجزائرى فى نهاية القرن 3 الهجرى	محمد الصالح مرمول	107
مناقشات		
حول انتقادات الشيخ حسن بغدادى	أحمد حمانى	127
من محاضرات الملتقى		
الفرآن والشعر ، أو الاسلام والادب	د. عبد الرشيد مصطفاى	139
واقع الجالية العربية الاسلامية فى أوروبا والاخطار التى تهدد شخصيتها	الاستاذ عبد الكريم غريب	148
ابن خلدون والجزائر (الترجمة الفرنسية للاصل العربى)	مولود قاسم نايت بلقاسم	1

انا لله وانا اليه راجعون

فقدت الجزائر احد قادتها الابرار ، الرئيس هوارى بومدين ، الذى كرس حياته المليئة بالكفاح لخدمة الامة ، واشاعة الثورة فى كل مجال .

مات بومدين ، ولكن المبادىء التى ناضل من اجلها ، مبادىء الاشتراكية ، والتقدم ، واسترجاع الاصالة ، ستنمو ، وتتطور ، وتتعمق فى الوجدان الوطنى يوما بعد يوم .

وان المؤسسات المختلفة التى اقيمت فى عهد الفقيد الراحل ، والتى ستقام فى هذا الاطار ، لتمثل ضمانا لسلامة الامة ، واستمرار الدولة ، وحماية مكاسب الثورة ، واطارا امثل ، لكل تطور حقيقى جدى .

واذا كانت اجهزة الاعلام الوطنية قد تكلمت عن النشاط القومى فى مختلف القطاعات خلال عهد الرئيس الراحل. فنحن نكتفى بالاشارة فقط الى جانب لم يطرق، وهو النشاط الاسلامى.

واول ما يتبادر الى الذهن ـ ونحن نتحدث عن هذا النشاط ـ هو تلك الثانويات التى انشئت فى اطار التعليم الاصلى . والتى قامت بدور كبير فى معركة استرجاع الشخصية العربية الاسلامية . وامداد البلاد باطارات لمختلف الوظائف . وانقاذ الآلاف من الشباب وانتشالهم من هوة الضياع ، واعادتهم الى حضيرة النشاط القومى العام ، واستقطاب العديد من الطلبة الافارقه والاسيويين ، من بورندة الى تايلند »

ولمن توحد هذا التعليم مع التعليم العام . فقد تقرر انشاء شعبة اسلامية فى نطاق وزارة التربيه تكون روافد لكليه الشريعة واصول الدين فى قسنطينة ، التى شرع فى بنائها منذ سنوات والتى نرجو ان تفتح ابوابها فى الخريف القادم .

ومن هذا النشاط ايضا . ملتقيات الفكر الاسلامى السنوية التى تطورت واصبحت لها شهرة عالمية تتزاحم عليها نخبة من اساتذة الجامعات . والبعاثة فى شتى فروع المعرفة الانسانية . من القارات الخمس ، مسلمين ، وغير مسلمين .

بالاضافه الى انشاء المركز الثقافى الاسلامى بالعاصمة ، وفروع له فى بعض الولايات ، وما يقوم به من نشاط ثقافى واسع ، ومتنوع ، لايصال الثقافة الى اوسع عدد من المواطنين فى جميع انحاء البلاد .

وهذه المجلة ايضا ، التى قامت وتقوم بدور فى التعريف بالثقافة العربية الاسلامية بمفهومها الواسع . واصبحت اليوم منبرا عالميا لمختلف الاقلام .

ومن هذه المكاسب ايضا ، ترسيم السلك الدينى وما ضمنه له ذلك من حقوق ، من الراتب المتدرج كما هو حال جميع الموظفين ، الى الضمان الاجتماعى ، والاجازة السنوية ، والتقاعد .

بالاضافة الى انشاء مدارس لتكوين الائمة فى مفتاح (ولاية البليدة) وسيدى عبد الرحمن اليلولى (ولاية تيزى وزو) وتلاغمة ، (ولاية قسنطينة) ، وسيدى عقبة (ولاية بسكرة) بعضها بدا يشتغل والاخرى بصدد الانجاز .

هذا جزء من تلك المنجزات التى تحققت فى عهد الرئيس الراحل .

رحم الله الرئيس بومدين . وأسكنه فراديس جناته .

«الأصالة»

فقيـد الامة الرئيس هـوارى بومـدين رحمه اللـه

الامـــة تكبـــر فيـــك تفانيـــك
لبعـــث دولـــة لا تـــزول بزوال الرجـــال

الاخ عبد العزيز بوتفليقة ، عضو مجلس الثورة ووزير الخارجية ، يلقى كلمة **التأبين** أمام جثمان فقيـد الامـة ، الرئيس **هـوارى بومـدين**

- **اسمك برنامـــج عمـل . ومخطط نهضـة ، وأمـــل .**
- **لقد بـــقى منـــك فى كـــل جزائرى عظـــة**
- **لقد كنـــت لا تدخـر جهـدا فى الدفاع عن السيادة الوطنيـــة ، ووحـــدة الامـــــة**

بسم الله والله أكبـر ،

أيهـا القـائد العمـلاق ،

لقد تواضع الاخوة والرفاق وتواضع الاصحاب والخلان ، واتروني على أنفسهم لاقول كلمة الامتنان باسم الجميع ، وباسم شعبك العظيم ، فاين أجد الكلمات يا بومدين ؟ ومع ذلك فانني أقرأها في تماسك شعبنا ووحدته ، وأقرأها في عيون الكادحين الذين جعلت منهم عمالا منتجين ، انني أراها في عيون الفلاحين الذين اخرجتهم من الاكواخ وأسكنتهم ديار الكرامة ، انني اقرأها في طموح الشباب الذى فتحت له طريق الشموخ وطريـق العزة ، انني أراها في هيبة جيشنا الوطني الشعبي الـذى حملته لواء جيش التحريـر الوطني ، يا قائد جيش التحرير ٠

انني أراها في شوارع مدننا المضطربة بمشاعر المحبة والعرفان ، انـــني أراها ، يا بومدين ، في وجه الاشقاء والاصدقاء الذين جاؤوا من كل حدب وصوب ، وفزعـوا من كل فج عميق ليكونوا شهداء عليك ، ولتكون شهيدا عليهم ٠ فبقلوب يعصرها الالم وتخفق بالوفاء ، ويعز عليها فراق واحد من المجاهدين والشهداء ، نقف أمامك أيهـا الرجل الذى قضى حياته بين ساحات الوغى مقاتلا جحافل الشر والعـدوان ، وقائـدا لكتائب النصر والايمان ، وبين ساحات البناء موطدا أركان الدولة ، وذائدا عن حمى الامة ، وجامعا للكلمة ، ومعبئا للطاقات ، ومتفانيا في تحقيق العدل والمساواة ٠

نقف امامك في خشوع لا تحيط به الكلمات ، نقف أمامك في اجـــلال لا تستوفيه العبارات ٠ وكيف نستطيع ان ننعاك وانت دائما ودوما حاضر في القلوب ، وكيف يمكن تأبينك يا بومدين ، واسمك أيها الرئيس الراحل برنامج عمل ، ومخطط نهضة ، وأمل ٠ انها مؤسسات وطيدة الاركان ثابتة البيان ، انه ميثاق أجمع عليه الشعب ، يشـــير الى الخطوات ، ويرشد الى الاهداف والطموحات ٠ انها منجزات هي شواهد بارزة حيـــة ، ومعالم مسيرة أمة كريمة أبية ٠

لقد برزت من صفوف هذا الشعب العظيم ، من بين فلاحيه الفقراء الذين اعتصموا بالجبال ، وقاوموا جحافل الطغاة عبر العصور ، فكانوا قلعة المقاومة وحصن الشخصيـة الوطنية ، وينبوع ثورة فاتح نوفمبر الخالد ، وهذا ما جعلك تابى الضيم وتتعاطف مـع المحرومين ، وتؤاخي المكافحين أينما كانوا ، وتغار على مقومـــات حضارتنا العربيـــة الاسلامية ، ولا تدخر جهدا في الدفاع عن السيادة الوطنية ووحدة الامة ٠

أيها الاخ الرئيس ، أيها الشقيق الحبيب ، يا بن الشعب المفدى ، بأرواحنا نـ
لو كان يقبل منا الفداء • والتضحية الكبرى فى سبيلك وددنا لو أننا نستطيع انقاذا
ولكنه قضاء الله المحتوم ، ولا مرد لقضاء الله •

« فاذا جاء أجلهم لا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون » فلا حول ولا قوة الا بالـ
واننا لقضاء الله لراضون •

لقد كنت يا بومدين مدعم وحدتنا فى كل الظروف ، لقد كنت يا بومدين قائـ
نضالنا ، ونضالاتنا التى ارهبت الاعداء ، وسرت الاصدقاء •

لقد كنت الشعار الذى يلخص بأوضح العبارات ، تطلعنا العميق نحو المستقبل ،
افنيت عمرك فى رسم صورته الزاهية • وها أنت تفارقنا على عجل يا بومدين ، و
ما زلنا فى أشد الحاجة اليك ، وشعبنا ما زال فى أشد الحاجة اليك ، الى روحك المـ
بعزم الشباب ، وحكمة المحنكين الى قلبك الكبير ، الى قلبك السموح ، الى رأيك السد
الى بصرك المديد ، الى موقفك الرشيد •

ان هذه الجماهير التى اقبلت من كل حدب وصوب لتتحسر على فراقك ، وتحترق أسفا
على ارتحالك ، وانما تبكى فيك اصرارك على المبادىء ، ووفاءك للمثـل التى سـ طرها
شهداؤنا الابرار بدمائهم الزكية وضعى فى سبيلها شعبنا بالصفوة من أبنائـه ،
وتكبر فيك تفانيك الى اخر رمق لبعث دولة قويـة لا تزول بزوال الرجال ،
دولة تنتهج طريق الاشتراكية ، وتقوم على المؤسسات الشعبيـة ، وان هـذه الجماهير
لتكبر فيك جهدك الدؤوب بالاعلاء من شأن الجزائر فى المحافل الدولية ، حتى أصبحت
بلادنا كعبة الثوار ، وملجأ الاحرار ، وقدوة فى المواقف المبدئية ، ونموذجا يحتذى فى
شحد الامكانيات الذاتية لتحقيق التقدم والتنمية •

ان شعبا أنجبك يا بومدين لفخور بك ، وأنت بين ظهرانيه تسهر على الامانة ، وهو
ايضا حافظ لذكراك ، ومواصل نهجك ، وأنت أيها القائد فى دار البقاء بعد ان نهضت
مع رفاقك بالرسالة ، وما أثقل حملها • وقدت المسيرة اشواطا بعيدة ، وعبدت شطرا
كبيرا من الطريق ، وقلبك مفعم بالايمان بأصالة شعبك وتطلعه الى الانعتاق ، فكنت
وجيلك على موعد مع القدر ، فالتفت حولك سواعد الفلاحين ، وتكاتفت صفوف العمال
والكادحين ، ورفع الشباب لواء الخدمة الوطنية ، وانتشرت فى ربوع الريف قرى الثورة
الزراعية ، وارتفعت فى سماء المدن منارات الصناعة ، ولاحت فى البلاد بوادر ثـورة

تافية ، فلم يبق هناك مجال لضعاف النفوس من المترددين . ولم تكـــن هناك ثغـــرة متربصين يا بومدين • لقد بقى فى كل قلب منك ومضة . لقد بقى منك فى كل فكر برة . لقد بقى منك فى كل جزائرى عظة . سيرة تلهمنا مثل التضحية والثبات والتفانى ى الواجب ونكران الذات والقوة فى الحق ورباطة الجأش عند الاختبار والابتلاء ، وأمام حنة والامتحان . والحكمة عندما يحتار الآخرون ويتفرقون شيعا وأهواء .

فها هى جموع الشعب يا بومدين تمتزج فى ملامحها الآلام . وتريد أن تقول قولة وفاء ، وترتفع أصواتها بالتكبير والدعاء . جاءت لا لتوديعك • ولكن لتعاهدك يا بومدين لى الفداء ، والاستمرار فى النضال والبناء . وحماية الثورة الاشتراكية . ومكاسبهـا ادية والمعنوية . فى هذا الموكب الرهيب رفاق لـك فى السلاح ، واخـــوة خضت معهم يادين القتال والنضال ، حتى تطهرت أرضنا الغالية من الظلم والاستغلال . وخفقت اية الحرية مخضبة بدماء الشهداء • انهم على العهد لباقون يا بومدين . وعلى اختيارات ثورة ثابتون ، ولن يزيدهم هذا المصاب الجلل سوى الاصرار على تحقيق الاهداف المرسومة حمايـــة مكاســب الثـــورة •

ايها الراحل العظيم . اذا كان شعبنا قد رزىء فيك بما لا يمكن ان يعبر عنه لسان . ن الامة العربية لباكية ومتفجعة عليك ، وقد فقدت فيك ابنها البار ، وقائدا من قادتها خلصين . وصوتا مدويا فى المحافل كلها بمبادئها الراسخة ، وكرامتها الشامخـــة . حقوقها الثابتة ، انها لتبكيك بالانات والحسرات يا زعيم صمودها وتصديها • لقد كنت دى الاوراس فى حيفا والجليل . وكنت غضبة جرجرة والونشريس فى سيناء والجولان . امال المحيط والخليج فى توثبه لليوم الاغر لدى أعتاب المسجد الاقصى وساحات ديـــر سين ، ويبكيك الاحرار هنا فى القارة السمراء ، وفى الصحراء الغربية . وهناك فى ل الارجاء حيث يكتب المناضلون بدمائهم الزكية صفحة أخرى من امجاد الدفاع عـــن كرامة والوقوف فى وجه القهر والطغيان •

ان اصوات الباكين عليك يا ملاك المضطهدين لترتفع اليوم فى أقصى المشـــارق لمغارب ، ان ملايين المعذبين من بنى الانسانية قد فقدت بفقدك المحامى الصلب عـــن ساياها . والمناضل الشهم عن مطالبها • وان هموم بلادك ومقتضيات تشييدها لم تصرفك ن الكفاح المستميت من أجل اقامة العدالة فى هذا العالم ، بين شماله الغنى الغارق فى رف والغارق فى التبذير ، وجنوبه الواقع بين مخالب الفاقة والمجاعة والحرمان . لاجل

ذلك يا بومدين . ولكل ما لك من مآثر خالدة ستبقى فى ضمائرنا حيا على الـــدوام وستسكن فيه ذكراك الطيبة الى الابد ٠

كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة ، وكل ما فى البلاد ينطق باسمك يا بومدين ، كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة وكل ما فى البلاد يرمز اليك ، كيف تغيب عن الاذهان لحظة واحدة وكل ما فى البلاد من اقصاها الى اقصاها ثمرة يانعة مما غرسته يداك ٠

ايها الراحل العزيز ، لا نريد اليوم ان نرثيك لان الرثاء للاموات ، وانت ما زلت بيننا وستبقى بذكراك واثارك ومآثرك الى الابد على قيد الحياة ، و نت حى فى قلـــوب الجماهير . انت باق فى نفوس الملايين . انت خالد فى فصول تاريخنا المجيد ، واننا لنعاهدك عهد الرفاق الاوفياء ، ونعدك وعد الاخوة الاصفياء ، عهد الذين آلوا على البقاء بجانبك فى السراء والضراء ٠

اننا لنعاهدك على ،ننا سنظل على نهجك سائرين ، وخطاك متبعين ، وعلى الامانـــة ساهرين ٠ ويا ايتها الجماهير الباكية بدموع الرحمة والوفاء ، تعزى عن الفقيد الغالى والراحل العظيم الذى لبى نداء ربه ، تعزى بالصبر الجميل . تعزى بالتمسك بالايمـــان الذى انقذك عند كل امتحان . وخلدى ذكرى قائدك الفذ بالترحم على روحه الطاهـــرة ، والتضرع الى الله العلى القدير لتعظيم اجره ، واسكانه فسيح جنانه ، صحبة الاخيـــار الطاهرين ، جزاء ما قدمه للعروبة والاسلام من خدمات ، وما بذله من التضحيات فى ميادين الحرية اينما ذكر اسمها فى العالم كله ، وفى سبيل سعادة هذه الامة وكرامة هذا الوطن ٠ ان اجمل ما نذكر به قائدنا الشهيد ، لهو مواصلة الطريق الذى سار فيه بنـــا اشواطا بعيدة ، والتمسك بالمبادىء التى كانت موضوع جهوده وسبب استشهاده ــ فوداعا يا هوارى بومدين ــ وداعا يا هوارى بومدين يا من كانت حياته الخاصة درسا فى الاخلاق الكريمة ، والعواطف النبيلة ، والسلوك القويم ، والاجتهاد الدائم ، والتواضع الجـم ٠

وداعا يا من علمتنا كيف يموت الانسان العظيم فى صمت ووقار ، وكيف يحترق الى النهاية ليبدد الظلام . وداعا أيها الانسان الذى سقط شهيد الواجب ومات من العياء والارهاق ، حين ضن على نفسه طوال ربع قرن من الزمان بلحظات يسيرة يفرغ فيها مـــن العياء ، ويستريح من العناء ٠ فيا ايها الاخ الرئيس ، لقد اقتحمت بافعالك قلعة الخلـــود ودخلت المجد من بابه العريض ، نم الآن مستريحا فالجماهير بعدك مجندة والجماهير بعدك معبأة بقيادة حزب جبهة التحرير الوطنى لمواصلة الطريق ٠ ويا أيها المجاهد الذى قضى

عمره في النهوض بجلاء المهمات . ثم قرير العين . فان مسيرة الثوار ستواصل وستواصل زحفها تحت راية جبهة التحرير الوطني لتحقيـــق ما كنت تصبو اليه « ويا أيتها النفس المطمئنة أرجعي الى ربك راضية مرضية ، فادخلي في عبادي وادخلي جنتي » فالوداع أيها الرجل الذي كان من أولئك الرجال الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه . فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا .

الوداع ، الوداع أيها الاخ . أيها الرفيق ، ايها الحبيب ، أيها الصديق . ولا حـول ولا قوة الا بالله . وانا لله وانا اليه لراجعون ، الوداع يا بومدين .

مساهمة ابن خلدون
فى تحليل علاقات المدينة والريف

د. جيلالى صارى
معهد الجغرافية
جامعة الجزائر

لا يستطيع أى باحث يشتغل بماضى المغرب العربى حديثا كان أم بعيدا أن يستغنى عن تحليل ابن خلدون الهام اذ أن هذا الكاتب قد تطرق الى المواضيع التى عولجت فى القرن التاسع عشر والقرن العشرين. وهكذا كان من رواد علم جغرافيه المدن بفضل تحليلاته القيمة للعوامل الجغرافية للمدن وكذا العوامل الاخرى الاساسية. كما أن صاحب المقدمة وكتاب العبر قد توصل أيضا الى تحديد اهم خصائص العلاقات الموجودة بين المدن والريف بالمغرب العربى . خاصه التعريف الدقيق الى ظاهرتين بارزتين : وهما تجمع الاراضى لصالح أقلبات لا تخدم الارض بصفة مباشرة ، وتحويل مكاسب الارياف الى المدن ، وهاتان الظاهرتان نصيبان الريف منذ قرون الى وقتنا هذا .

وهكذا يبدو لنا أهميه تحليل ابن خلدون التى يجب أن نعود اليها وأن نعمق دراستها حينا بعد وذلك أن بعض الجوانب منها قد جلبت أنظار بعض الكتاب لاغراض معينة

تبرير الاحتلال وهيمنة الاستعمار عبر المغرب العربى ، وهذه الجوانب تتعلق
م نعمم الحياة البدوية فى المغرب العربى والعداوة الشاملة والمستمرة الموجودة
سكان المدن وسكان الارياف ...

نغتنم هذه الفرصة لمعالجة هذه المشاكل الخطيرة فى الوقت الذى نحاول فيه الجزائر
نلتحق بالبلدان الصناعية وما يتضمنه هذا التحول الجذرى ، أى تغيير العلاقات
حللها ابن خلدون .

هكذا نتعرض الى المواضيع التالية :

- أهمية تحليل ابن خلدون .
- حدود تحليل ابن خلدون .

1 ـ اهمية تحليـــل ابن خلدون

انه لمن الصعب أن نتوسع الى مختلف جوانب هذا التحليل ولذا نكتفى فقط بالمحاور
ثلاثة التاليه أى النقط التى ظلت مهملة غالبا ولم نسترع أنظار الملاحظين ، منـــل
عوامل الاقليمية للاستطانه ، والتحضر وعلاقات المدن والريف بالمغرب العربى .

1) العوامل الاقليمية للاستطانة وتوزيع السكان

ان تاريخ البربر لا يحتوى على معلومات واسعة لتاريخ المغرب العربى فحسب كما
نه لا يقتصر على ذكر الحوادث وسرد الوقائع بل يحاول المؤرخ الكبير أن يربط الحوادث
لابطار الجغرافى وفى بعض الاحيان حتى على المستوى الاقليمى وان كانت الاشارات
درة غالبا وهناك أمثلة كثيرة تبين ذلك مثل الحوادث والتواريخ المتعلقة ببعض القبائل
بنى فاتم ، وزواوة الذين يسكنون بأقاليم بجاية وغيرهم لكن ابن حلدون يضيف الى
حديثه معلومات ثمينة كما يوضحه المثال التالى المتعلق بالقبائل السابقة الذكر عندما
كر « أن أراضيهم كثيرة الاشجار بحيث أنه يصعب على المسافر أن يمر بها » .

لمثل هذه الملاحظة أهمية عظمى وان كانت موجزة اذ أن الاشارة الى كثرة الاشجار
هذه المنطقة المعينة وفى ذلك الزمن لا ترمز الى احترام التشجير فقط بل انها تدل

قبل كل شيء على ظاهره وهي تخصيص السفوح والمنحدرات للاشجار المثمرة من أجل توفير الانتاج من جهة . ووقاية التربة من جهة أخرى .

هذا ومن جهة أخرى استطاع الكاتب بفضل الوصف الدقيق أن يدرك البنيات الاجتماعية وذلك بابراز مميزات القبيلة كما يتجلى ذلك في عدة أمثلة وهكذا نتمكن شيئا فشيئا من ادراك خريطة الاستطانة وتوزيع السكان سواء في التل أم الصحراء بحيث أن هناك فرقا كبيرا بين معطيات ابن حوقل واليعقوبي من جهة ، وتحليل ابن خلدون من جهة أخرى .

ولهذه العبقرية مزايا أخرى جديرة بالذكر كاستعمال الاحصائيات مثلا خاصة فيما يتعلق ببعض الامور في ظروف معينة وفي أقاليم نائية الا انه في مثل هذه الظروف يجب أن نبقى متحفظين عندما نطالع ما جاء في ذكر عدد قرى وادي غير « وهي تبلغ حوالي 300 قرية وهي تتوزع على ضفتي الوادي » وكذلك الامر بعدد مدن اقليم الزيبان « حوالي المائة » . ففي المثالين الغرض من الاحصائيات ومفهوم « القرية والمدينة » أهداف خاصة وهي القاء النظر الى ثروة تلك الاقاليم كما جاء في النص بصدد بسكرة « عاصمة الاقليم واحدى المدن الكبيرة بالمغرب العربي » .

وهكذا كثيرا ما يتجاوز المؤرخ الاحداث ليهتم بالمعاني البارزة مبينا علاقات الاحداث بالعوامل الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية ويتجلى ذلك كله خاصة في تحليله لنشأة المدن وتطورها أي التحضر .

2) التحضر

لتحليل ابن خلدون في هذا المجال أثر عميق يحتاج الى بحث موسع اذ أن مساهمته لا تقتصر على الوصف والتصنيف فقط بل قد اجتهد الكاتب في دراسة الموضوع بصفة منطقية وبالفعل فقد بين دور المحيط في التحضر وكذا دور المناخ وهكذا يتجلى لنا أن التحضر لا يتوقف على العوامل البشرية فحسب أي سلطة الامير .

هذا وقد اشتغل المؤرخ خاصة بالعوامل الجغرافية الاساسية فأكد على أهم العناصر في الوقت الذي لم تكن البيئة تتأثر بالتلوث ، كما انه التفت الى العوامل التي تلعب

دورا رئيسيا فى نشأة وتطور المدن كالموقع الجغرافى والموارد الطبيعية الحيوية كالماء والهواء،والطاقه،والاراضى الزراعية بالاخص فقد قال فانسون مونتاى : (1)

« لابد من تحصيل اشياء شتى لتنظيم الحياة الحضرية بطريقة مفيدة وأولها مشكلة المـــاء » ·

وقد فسر تلك العوامل وتعمق فى مشاكل الهواء مستشهدا بمثال مدينة غابس بتونس · (2)

وما هذا التفكير الا تمهيد للابحاث الحديثة التى يعتمد عليها العلماء المعماريون كما اكد ذلك فانسون مونتاى (3) ، ومن أبرز أفكار ابن خلدون تحليله القيم للعلاقات الموجودة بين المدن والريف وكذا ظروف الاستطانة بالمدينة أى كل العوامل التى لها دور رئيسى فى التحضر ، وهكذا يتجلى لنا فى الاخير تفوق العوامل الديموغرافيـــة والاقتصادية والطبيعية على العوامل السياسية اذ أن المفكر يقول ان كثرة السكان تضاعف النشاط ·

التحضر اذن نتيجة عوامل مختلفة وان كانت هناك رغبة سياسية وذلك أن التطور والنمو يتعلقان بالعوامل المذكورة سابقا فلكل مدينة علاقات وثيقة بالاراضى المحيطة بها غالبا وقد الح على ذلك كثيرا صاحب المقدمة اذ انه بين وحلل ذلك بدقة ولذا يعد من رواد المفكرين للقرن التاسع عشر ·

تلك هى أهم النقط التى عالجها الكاتب سيما وأن تفكيره قد استمر فى زمن الانحطاط وانهيار التحضر بالمغرب العربى ، كما أن له الفضل أيضا فى تحليل جانب مهم وهو جانب العلاقات الموجودة بين المدن والريف ·

3) العلاقات الموجودة بين المدن والريف

فى هذا المجال تبرز أهمية تحليل ابن خلدون خاصة وأن هذه الظواهر لازالت تلاحظ الى يومنا هذا فلقد انتبه المفكر الى تجمع الملكيات لصالح الاقليات ، وكذا

(1) V. Monteil : discours sur l'histoire universelle (al-Muqqadima), Beyrouth, Unesco, 1976 II, p. 720.

(2) خاصة وأن واحة هذه المدينة تأثرت بالتلوث بعد انشاء مركب كيماوى .

(3) "Il va jusqu'à annoncer nos enquêtes urbaines démographiques" - V. Monteil, op. cit., introduction, p. XXIX.

استغلال الدخل الزراعي خارج الارياف ، وبالتالي في تدهور معيشة المزارعين اذ يقول الكاتب : (4)

« اعلم ان تأثير العقار وصناعاته الكثيرة لاهل الامصار والمدن لا يكون دفعة واحدة ولا في عصر واحد » .

ثم يفسر ذلك مبينا بذلك عوامل تدهور معيشة المزارعين

« وان لا يكون ملكهم وبالتالي لها تدريجيا اما بالوراثة من آبائه وذوي رحمه حتى يتأدى املاك الكثيرين منهم الى الواحد واكثر لذلك او ان يكون بحوالة الاسواق فان العقار في آخر الدولة واول الاخرى عند قيام الحامية وخرق السياج وتداعي المصير الى الخراب يقل الغبطة به لقلة المنفعة فيها بتلاشي الاحوال فيرخص قيمها ويتملك بالاثمان اليسيرة » .

وبعد تحليل هذا الشكل يتناول المؤرخ العبقري جانبا آخر كان ولا تزال الظاهرة التي يتميز بها دائما ارياقنا الا وهي تحكم اصحاب ذوي الاموال في الارياف وبالتالي سيطرة المدن على اراضي المزارعين فيعتمد المؤرخ على امثلة بسيطة ولكنها محسوسة فيقول ان اصحاب الارياف لا يملكون الا الموارد التي تتمثل في المنتوجات الزراعية كالحديث مثلا ولا يملكون النقود من الدنانير والدراهم فيتبادلون منتوجاتهم ولكنهم بقوا خاضعين الى اصحاب المدن . هكذا يلتمس الظاهرة الحديثة وهي تفوق وتغلب التجار على المنتجين وقد تعمق صاحب المقدمة في هذه الافكار الحساسة وما هذا التعمق الا مرآة للكلام ابن خلدون على شؤون الارياف والمدن في تلك القرون الغابرة فاستطاع بفضل احساسه ومشاعره ان يلتمس حقيقة وقوانين الركود الاقتصادي والاجتماعي معا ، فصلت حياة المدن وسيطرتها على صالح الارياف ولم تفتح المجال للتفتح الاقتصادي كما وقع ذلك في الغرب المسيحي . وقد اشار الى ذلك حديثا احد المفكرين المطلع على الشؤون المغربية قائلا

(4) ابن خلدون . المقدمة . الطبعة الرابعة – بيروت . بدون تاريخ ، ص 367 .

« فى المغرب العربى ان السيطره على المبادلات والنقود وكذا الانتاج الفلاحى والصناعى والاراضى ظلت خاضعه لنفس الاوساط وكانت الارباح التجاريه تستثمر فى الاراضى فتسحب صاحبها من ارتكاب الحرام المتمثل فى الربا ، الامر الذى لم يتعرض اليه بعد التجار الاوروبيين الذين سرعان ما توصلوا الى مرحلة الرأس المالية » (5) ·

كل ذلك يشير لنا طريق التقهقر والانحطاط خاصه وان السلطه السياسيه ظلت تعانى مشاكل وأزمات متسلسلة فلم يكن هناك بناء اقتصادى متواصل ومبنى على أسس متينه اذ أن السلطه ظلت منعزله ···

وهكذا يتجلى لنا عبر فحص هذه المحاور الثلاثه عبقريه صاحب المقدمه ورائد المفكرين للقرن السابع عشر والقرن العشرين . فتحليلاته القيمة لا زالت لها أصداء الى يومنا هذا ولكنه بالرغم من ذلك علينا أن نشير الى جوانب أخرى لا تخلو من غموض وتناقض ·

2) حدود تحليل ابن خلدون

تقتضى الموضوعية والحقيقه التاريخيه أن نشير الى بعض الهفوات وبعض التقاويم التى لا تتماشى ووافع المغرب العربى ، ألا وهى مشكلة البداوة فلنقتصر فى هذا الباب بالنقطتين التاليتين وهما : قلة وجود المدن بالمغرب العربى وتغلب البداوة ·

1) « قلة » وجود المدن بالمغرب العربى

ذلك هو عنوان فقرة بكاملها يشرح فيها ابن خلدون فكرته الرئيسية بينما انه فى السابق قد أحسن تحليل الحضر واهم جوانبه ، فما هو السبب اذن ؟ فلقد جاء فى نصه ما يلى :

« كان عمران افريقية والمغرب كله أو أكثر بدويا أهل خيام وظواعن وقياطن وكنن فى الحال » · (5) اذن هناك تناقض واضح لكنه لا يكاد يثبته النص نفسه ·

---

(5) وهو فى الفصل السابع : « فى أن المدن والامصار بافريقية والمغرب قليلة » المقدمة ص 357 .

(6) المقدمة ص 357 .

في القرن الرابع عشر والخامس عشر التحضر ليس بقليل وان كان هناك انهيار محسوس بالنسبة للقرون السابقة وللتاكد من ذلك فما علينا الا أن نذكر بعض الاحصائيات ونقوم بتشكل خاص بمقارنة مع الغرب المسيحي في العصر نفسه وهو الامر الذي لم يتوصل اليه بعد ابن خلدون نظرا لانعدام الاحصائيات وعدم تنقله بأوروبا .

ففي المغرب العربي يوجد شبكة من المدن قد ذكر ابن خلدون معظم أسمائها كما أنه يعرف حجمها المتوسط عاليا ، ولبعضها دور هام ، علاوه على مكانة العواصم. فاذا ما تركنا المثال الفريد من نوعه عبر كافة بلدان المغرب العربي ألا وهو مدينة فاس (6) ، فعلينا أن نتعرض ولو بايجاز الى عاصمة الزيانيين أي مدينة تلمسان .

وكذلك الى مواردها الزراعية فقد توسعت شبكة المباني واجتازت المساحة التي كانت تعرفها المدينة الحديثة في أوائل القرن العشرين (7) بحيث أن بعض التقديرات تشير الى حوالي 100000 نسمة من السكان في القرن الخامس عشر (8) ونفس المبلغ يلاحظ بمدينة فسطيلية ومثل هذا المستوى غير موجود في ذلك الزمن بالغرب المسيحي اذ أن كبريات المدن فيه لا تزيد عن 50000 ن ولا توجد الا مدينة واحدة تبلغ 100000 ن وهي مدينة البندقية وحسب المؤرخين ان مدينة ذات 20000 ن كانت تعتبر عظيمة وفي أغلب الاحيان كان عدد السكان يتراوح بين خمسة وعشر الاف (9) .

وفي مثل هذه الظروف ليس لمزاعم ابن خلدون أي أساس من الصحة ، ان التحضر في المغرب العربي وخاصة افريقيه قد لفت أنظار الملاحظين دائما كما عبر عنه الكاتب بونص مثلا (10)

« ... في قارة افريقيه المتسعة للاسلام قد نما اقتصاد جديد ، ومجتمع جديد حول

---

(6) Letourneau : Fès avant le protectorat, Casablanca, 1949

(7) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie du XI au XIVe siècle, Paris et Constantine, 1913.

(8) Y. Lacoste, A. Nouschi et A. Prenant l'Algérie, passé et présent, Paris 1960, p 219

(9) H. Pirenne, G. Cohen et H. Focillon : la civilisation occidentale au Moyen-Age, du XIe au XVe siècle, Paris 1931.

(10) J. Poncet : Géographie historique, multig, Paris 1954, p 22

مدن كبيرة ونشيطة عززت العلاقات المتينة سواء بالارياف المجاوره لها أو ما نسميه الآن بباقي الاشعاع الوطني والدولي » ٠

ومن جهة اخرى يجب أن نلاحظ أيضا الميزة الدائمة لاغلب المواقع منذ اقدم العصور ودلك لسبب اجتماع عوامل طبيعية مساعدة وأما ما يخص الميزة السريعة الزوال ـ نسبيا ـ لاغلب العواصم الدولية فيرجع ذلك الى أسباب سياسية محضة ٠

2) تغلب البداوة

ان هذه الظاهرة المنتشرة فى المشرق الاسلامى كله نظرا الى ميزاته الطبيعية يجب علينا أن ندقق جدودها فى بلاد المغرب العربى حسب المناطق المناخية الثلاثة أى التل والسهوب والصحراء ، فان كان ابن خلدون متأثرا جدا بالبداوة وذلك لاجل الامراء الذين احتك بهم وتعامل معهم طويلا ، فان ذلك ليس بغريب كما ان المؤرخ قد تاثر تأثرا قويا للمظاهر التى نتجت عن توغل قبائل الهلالية عبر الاقاليم وان كانت هذه المظاهر لا تخص الا افريقية ومناطق القطاع القسنطينى وحتى فى هذه الحالة كان لانعكاس المزروعات لصالح تربية المواشى نتائج ايجابية على مستوى عوامل التربة والغطاء النباتى وبالتالى المحيط الطبيعى كله وخاصة ابطاءه مسيرة الانجراف على الاراضى الوعرة ٠

وأما فى اماكن أخرى بقيت المناظر الزراعية كما كانت من قبل بحيث أن التل ظل يتميز بالمزروعات المكثفة كالاشجار الثمارية على السفوح والمزروعات المتنوعة تكثر بالقرب من المدن والجبال الاهلة بالسكان ، وأما السهول فتغلب فيها زراعة الحبوب وتربية المواشى ، تلك هى الخطوط العريضة لاهم أشكال الزراعة باراضى الشمال ٠

وأما ما يتعلق بكيفية استعمال السهول العليا فاننا نجهل ذلك تماما لانه لم تتوفر لدينا معلومات بهذا الصدد وقد تساءل عنها المؤرخ جورج مارسى ٠ ولكن تلك السهول التى لا فائدة فيها أثناء أشهر الصيف تمثل حيوية فى باقى السنة ولذلك تلتجىء اليها معظم مواشى القبائل المجاورة بها كما بين ذلك المؤرخ السابق الذكر ٠ (11)

(11) G. Marçais : Les Arabes en Berbérie, op. cit.

وعلى كل للسهول العليا حسوبه بالنسبه لاقتصاد المغرب العربى اذ أن مراعيها تلعب دورا هاما فى الاقتصاد الزراعى وبالتالى انها عنصر من عناصر الثروة كما ان منتوجاتها من غنم وصوف وجلد وغير ذلك تسوق فى المدن بالشمال . وزيادة على ذلك فان السهول تمثل همزة وصل بين اقتصاد الشمال واقتصاد الجنوب وبالتالى فهى ممر لا مفر منه للتبادلات التجارية ولذلك نلاحظ أن معظم العواصم أنشئت بالقرب من السهول العليا كما يبينه مواقع القيروان ، وقلعه بنى حماد ، وتيهارت وتلمسان ، فكل هذه العواصم تربط التل والسهول العليا .

وهكذا يتجلى لنا أن نظريته حول تعارض البداوه والحضارة فيها مبالغة شديدة وعلينا تتجاوزها خاصه وأننا ندرك فى المغرب العربى عده مراحل بين البداوة والحضاره بل هناك علاقات كثيره تربط الحضاريين ، كالعلاقات الاقتصاديه والعلاقات الثقافية . (12)

وكل هذه الامور تبين لنا وان افكار ابن خلدون تحتاج الى نقد وتحليل فان التحضر فى المغرب لا جدال فيه وهو يعتمد على أسس اقتصادية متينة، خاصه الزراعة وباستطاعتنا أن نركز على ذلك بواسطه نسبه سكان المدن وان كان التاريخ الديموغرافى يحتاج الى ابحاث (13) ، كانت نسبة سكان المدن بالمغرب الاوسط تقدر بحوالى 5 و 6٪فى بدايه القرن السادس عشر وهذا نتيجة الانخفاض المحسوس منذ القرون الوسطى . وربما كانت ترتفع النسبة فى هذه القرون الى حوالى 10 الى 15٪، نظرا الى أهمية سكان مدينة تلمسان وكثافة المدن على وجه العموم . بينما أن فرنسا وقبيل الثورة الصناعية كانت النسبة تقدر بأقل من 15/حسب بيار جورج . (14)

---

(12) علينا أن نشير الى بعض العقود التى تنص على التعاون الاقتصادى بين مختلف القبائل مثلا .

(13) ان المؤرخين فى العهد الاستعمارى حاولوا أن يتجاهلوا الحقيقة الديموغرافية خاصة بالجزائر فأعر خلاصتهم أن سكان الجزائر كان يرتفع الى حوالى 3 ملايين من النسمة فقط عند الاحتلال بينما بحثنا توصلنا أخيرا الى أقل مبلغ يقدر بخمسة ملايين من السكان. وهذا البحث يحمل عنوان Le désastre démographique de 1867-68 وهو تحت الطبع .

(14) P. Géogre · Populations et peuplement, Paris 1972

وهكذا تدل كل هذه الاشارات على وجود اقتصاد متنوع يعتمد قبل كل شيء على انتاج زراعي هام ، **فلولا وجود نشاط زراعي ولولا تعزيز العلاقات التجارية عبر الاقاليم لماتعددت وازدهرت المدن** · ولذا عليبا الا نعمم الحياة البدوية على بلاد المغرب العربى بل ان مثل هذه النظرية قد كانت فى صالح بعض الكتاب فى القرن الماضى مثل : ابرنار الذى كتب حرفيا ما يلى : « ان السكان لا يحرمون الاشجار » (15) بينما أن الحقيقة التاريخية تبين عكس ذلك كما لاحظنا ذلك خلال هذا العرض وكما يشهد عن ذلك تعجب المسافرين الاوروبيين وخاصه ضباط جيش الاحتلال · (16)

الخـــــلاصـة

ان لتفكير ابن خلدون أهمية عظمى وذلك انه يتعلق قبل كل شيء بالانسان ومحيطه الطبيعى والاقتصادى والثقافى وحيث انه يكشف القناع عن تلك القرون المظلمة فانه يكسى قيمه ثمينة خاصه لتكذيب كل الدعايات والمناورات التى سيطرت على تاريخ المغرب والقارة خلال القرن التاسع عشر والقرن العشرين · وللمقدمة مكانة عليا ···

ولكن ككل ابداع بشرى لتحليل ابن خلدون حدود ، وهذا التحليل لا يستطيع وحده أن يجيب عن كل تساؤلاتنا ، فهو كثيرا ما يساعدنا ولكنه يحثنا كذلك بمواصلة البحث والتفكير خاصة وأن سعينا فى هذا المجال يصطدم بعقبات مختلفة تتمثل فى ضياع تراثنا الثقافى نتيجة النهب الاستعمارى ، ولذا لابد من بذل مجهودات جبارة للتغلب على هذه المشاكل ولادراك الحقيقة التاريخية ، وهكذا معركتنا اليوم انما هى معركة واحدة وشاملة من أجل التخلص من قيود الماضى وقيود الاستغلال الامبريالى ·

---

(15) A. Bernard : L'Afrique du Nord, in Géographie universelle, Paris 1937, T. XI, p. 65.

(16) J. Despois : Les cultures en terrasse en Afrique du Nord, Annales, 1956, pp. 42-50
Dj. Sari : L'équilibre économique traditionnelle de l'Ouarsenis, Revue de l'Occident Musulman et de la Méditerranée, Aix-En-Provence, 1971, n° 9, pp 64-89

الحاج أحمد باى وبايلك قسنطينة

1837 ـ 1830

د. عبد الجليل التميمى
أستاذ بكلية الاداب والعلوم
الانسانيه ـ الجامعة التونسية

ان مؤرخى الفترة الاستعمارية قد اهتموا ، متعمدين، ببعض الشخصيات وببعض الاحداث وببعض الفترات التى تتفق مع أهوائهم ، وهذا ما الحق بالتاريخ الغربى مضرة كبيرة .

وبالنسبـــه للتاريخ الجزائرى فان الامير عبد القادر والحاج أحمد باى يمثلان الشخصيتان الهامتان واللتان ظهرتا فى العقد الرابع من القرن التاسع عشر . غير أن شخصية الامير ، فى جميع كتابات الفترة الاستعمارية ، قد حظت باجحاف عن شخصيه الحاج أحمد باى ، ونتيجة لذلك لم يوجد بحث تناول بالدرس ولايه قسنطينة خلال حكم الحاج أحمد باى وحاول أن يدرس مميزات الاحـداث التى كان البايلك مسرحا لها .

ان اهتمامنا الاول فى هذا البحث كان السعى والبحث عن حقيقة حية وملموسة لهذه الفترة من تاريخ ولايه قسنطينة ، ومن خلال تحرياتنا لهذه الحقيقة ، سعينا الى احلال بعض الشخصيات مكانتهم التاريخية التى يستحقونها ٠

ودراستنا تهدف قبل كل شيء الى تقصى واقع الانسان القسنطينى ومعطيات حياته السياسية وانجازاته واختياراته للدفاع عن وطنه ٠

وعلى الرغم من الاعتماد الكبير على الوثائق ، فاننا لا ندعى أننا أحطنا بكل شيء لكل ما يتعلق ببايلك قسنطينة من 1830 الى 1837 ، وذلك ان بعض الاحداث قد أثيرت بايجاز ، وبعض الاحداث الاخرى الهامة قد عرجنا عليها ٠ ومع ذلك فاننا لا ندعى أن الحقيقة التى سعينا الى ابرازها هو شيء نهائى لا يقبل المراجعة ٠

ان ما نقدمه لنا الوثائق من معطيات جديدة هو شيء هام ، ومازلنا نؤمن ان كل مؤرخ مغربى وجب عليه ، فى الظروف الحالية ، أن يركز من الاستفادة من مختلف دور الوثائق ؛ كما اننا نرفض الآن أى عمل لا يستند الى الوثائق التاريخية الام والتى هى أساس تقدم البحث التاريخى اليوم ٠

وبالاضافة الى هذا ، لا يكفى أن نستفيد فقط من الوثائق الجديدة ، تلك الوثائق التى أهملت سابقا ، ولتلعب اليوم دورها فى بلورة العطاء التاريخى ، ذلك أن اعادة كتابة التاريخ لا تتوقف فقط على الوثيقة الجديدة ، بل وجب أن يكون المؤرخ يتمتع برؤية وتحليل جديدين يختلفان عن الرؤية السائدة حتى اليوم ، والتى من المؤلم أن يبقى بعض المؤرخين المغاربة يتمسكون بها ، وهذا ما يفسر انحراف رؤيتهم واحكامهم عن الواقع التاريخى المغربى ٠

وعلى هذا الاساس ، فان أشد ما نحتاجه هو اعادة تحليل وفهم حتى النصوص المعروفة ، ذلك أن المدرسة التاريخية الفرنسية كانت حريصة على عدم تشويه سمعة فرنسا وجيشها وبالتالى غفلت الحديث عن الاحكام المسبقة والظلم والضغوط وعدم الكفاءة التى كان يتحلى بها الحكام الفرنسيون بالجزائر والمستعمرون أو المستخربون كما يحلو للبعض وصفهم بذلك ٠ كذلك كان المغلوب على أمره دوما مخطئا وأقواله

ومواقفه ملطخة بالكذب والخطا والمبالغة والتعصب ، ومع هذا اذا أخذنا بالاعتبار عناد المنتصرين واصرارهم على صرب القيم العربيه ـ الاسلامية وممارسة أساليب الاحتقار والتنقيص من شانهم ، فانه يحق لنا أن نساءل من منا المتعصب واقعا وحقيقة ؟

اننا مقتنعون تماما ان واجبنا يتركز اليوم على الاعتماد على كتابات مواطنينا كما ونرفض مبدأ وشكلا أن يكون تاريخنا ينقولب فقط على ضوء القيم الاوروبية ، بل وجب التركيز على الاستفادة من كل الآراء مهما كان مصدرها مع عدم التسامح ، بشكل واضح وقاطع ، الوصايه والتبعيه والانغلاق ولو أدى ذلك الى صراع واستنكار خصوم البحث العلمي النزيه ·

ان الدراسه التى خصصناها للحاج أحمد باى قسنطينه تسمح بادراك أصالة التاريخ القسنطيني والذى طبع بطابع شخصية رئيسيه ، وأنه من المستحيل فهم او شرح الحياه القسنطينيه لهذه الفترة دون أن يركز على هذا الباى المسلم والوطنى الغيور ، فضلا عن انجازاته · على أن المهم فى اعتقادنا هو التركيز على ما قام به هذا الباى لحماية البايلك المهدد ، وتجاه هذه المجابهة ضد المحتل الاجنبى والمسيحى ، لم يعد هناك مكان المساومات والاستيلاء على السلطة ·

فبعد احتلال الجزائر تمكن الحاج أحمد باى الذى جابه الجيش الفرنسى الغازى من تدبير وتعوفه العسكرى ، وقد فكر الباى بومئذ للعمل على استرجاع الجزائر التى احتلت من طرف قوه مسيحية ، غير أنه لم يكن قادرا على أخذ أى مبادرة هجومية ، اذ وضعه الادارى كان مبارحا على الصعيد العسكرى والسياسى لتحقيق مثل هذه الخطه العسكرية · غير أنه من جهة إخرى ، بعد أن تخلص من الانكشاريين ، أصحاب المشاغب والفتن ، اربط بعلاقات مصاهرة مع أقوى القبائل القسنطينية، واستطاع بذلك أن يعمل على اعادة تنظيم البايلك ، ذلك التنظيم المحكم والذى مكنه من أخذ مبادرات غير عاديه أصيلة فى المغرب العربى ، وهذا على الرغم من بقائه وفيا للباب العالى ·

ومن هذه المبادرات الرائدة انشاؤه الديوان الذى يشرف على تسيير شؤون البايلك ثم الاصطلاحات العسكريه والمقديه والاداريه والغاء النظام الجبائى السابق ، وتعكس

هذه الاصطلاحات الاهتمامات الصعبة التى كانت تشغل الحاج أحمد باى وديوانه ؛ وقد وفق فى تحقيقها فى ظرف وجيز جدا • ثم ان الاجراءات التى تبناها كانت مفيدة لمصلحة البايلك والمواطنين والسلطان العثمانى الذى يعتبر خليفة المسلمين يومئذ • وقد أخذ الحاج أحمد باى على نفسه اعلام الباب العالى بكل مبادراته ونشاطاته ، الا أنه لم يطلب مطلقا ، الاذن أو رأى الباب العالى لكل ما يتعلق بتنظيم ادارته الداخلية . ذلك التنظيم الذى أثبت أن التجربة التى قام بها ، فيما بعد الشاب عبد القادر الجزائرى فى بايلك وهران ، لم تكن جديدة ولا هى فريدة ورائدة •

واذا كان الحاج أحمد باى قد بقى متعلقا بالباب العالى وهذا ما يفسره تربيته وعقيدته الدينية وأصله ، لابد والحالة هذه أن نعترف أن تصرفه كان وطنيا صرفا وسلوكه كان جزائريا . واذا أخذنا بالاعتبار سنه ابان الاحتلال الفرنسى ، فان اعادة تنظيم البايلك كانت تجربه رائدة ومثالية ليعترف له بفضل انجازاته ونضع حدا لهذا النيار الذى نغافل عن الاعتراف به بحجة أنه بقى وفيا للسلطة العليا للاسلام •

واذا حاولنا أن نتلمس الوضع العام الجزائرى فى هذا الظرف وخصوصا لكل ما يتعلق بخصومات القبائل وتحالفها وسريان الاشاعات من كل جهة ، فان الشاب عبد القادر الذى ظهر على المسرح السياسى متاخرا عن الحاج أحمد باى ، لا يمكنه أن يتناسى انجازات هذا الكرغلى • واذا أدركنا كره أهالى بايلك وهران لكل ما هو تركى أو كرغلى ، فاننا نرى أن الشاب عبد القادر الذى أحيط علما بمعطيات الوضع القسنطينى الجديدة ، لا يسعه الا تحقيق نفس التجربة الاستقلالية كما هو الشأن ببايلك قسنطينة ، بل وأفضل • على أننا نلاحظ اذا كان النسج على منوال محمد على والى مصر قد نبه الى كثير من الحقائق ، فان انجازات الحاج أحمد باى قد بلورت لدى الامير تلك الفكرة خاصة وان الحاج أحمد يتحرك بالقرب منه على المسرح السياسى الجزائرى ، هذا فضلا عن عداوته له •

على أننا نؤكد اذا كانت التجربة السياسية أو العبدقادرية بانشاء دولة قد عرفت تطورا ملحوظا ، فان الحاج أحمد فى اطار ومعطيات اصلاحاته وحركته العسكرية يبقى شخصيه مجددة خلاقة ، دافعت عن الجزائر فى نفس مرتبة الامير ان لم تكن أكثر وفاء واخلاصا واصرارا للدفاع عن الذاتية الجزائرية العربية الاسلامية ، رافضا طوال [illegible]

سنوات حتى الاعتراف بالسلطه الفرنسية على الجزائر . ماذا ستكون النتيجة لو تحالف الرجلان اللذان كان يأبيد الجماهير لهما مطلقا ؟

لقد كان الحاج أحمد باى فى هذه الفترة الحرجة شديدا وقاسيا على أعدائه ، وعلى الرغم من الاطماع والطموحات السياسية والنزاعات القبلية التى كانت تهيج الاطراف كلها ، فان الحاج أحمد مع هذا بقى متمسكا بمضمون الفصاص والعدل . ان الحاج أحمد الذى كان يتمتع بتأييد الجماهير القسنطينية له ، استطاع مواجهة مؤامرات الحكام الفرنسيين وبوسيف واعدائه المقلبدين ، فلا المؤمرات ولا الاطماع قد أثرت تاثيرا عميقا على ارتباط القسنطينيين لزعيمهم . ألم يبق بن عيسى ومجموع الشعب وفيا له حتى بعد الاستيلاء على المدينه ؟ وكذلك عدد من المواطنين قد فضل الالتحاق به حتى بعد سقوط عاصمتهم .

وبالاضافه الى هذا ، هناك فئة من الجزائريين فى الخارج قد قامت بدور بطولى للدفاع عن البلاد وحمدان بن عثمان خوجه يعد المثال الرائد لذلك .

ومن المؤسف أن المدرسة التاريخيه الفرنسيه قد نسج حوله الشكوك وشوهته وعمل على التنقيص من قيمته ولم يعترف حتى اليوم لهذه الشخصية بما قامت به من دور للدفاع عن الجزائر ، وقد اكتفى بوصفه عميلا للعثمانيين ومؤاخذته أنه لم يجرؤ على استعمال السلاح . ومع هذا لابد أن نتصور ان سنه قد تجاوز الستين وانه كان شجاعا عندما انصرف فى باريس مع حسونه الدعمس وابراهيم بن مصطفى باشا وغيرهم الى المواجهه والكفاح على أرض العدو مندداً بانتهاكات الفرنسيين ومطالبا بأملاكه التى امتلكت عنوة بطريق الاستيلاء والمصادرة الغير القانونية .

ان فكره المواطن « الوحشى » والبدوى والجاهل والسارق قد وجدت منطلقا لها ابتداء من هذه الفترة بحيث أصبح بعد قرن من الزمن ، من المستحيل تغيير تلك الصورة وحمدان خوجه ، هذه الشخصيه المتميزة ، المثقفة والذكية وذو الاحساس الجمالى بالحياة ، هذا فضلا عن ذوق رفيع ونفسح واع على الغرب ، كانت شخصية تثير القلق والازعاج ، وهذا ما أدى ، متعمدين ، الى تشويه هذه الشخصية ، وقد اعتبروه تارة

عربيا وطورا كرعليا ثم جاسوسا للعثمانيين . ولكنهم لم يعدوه البتة كاحد الوجوه اللامعة الوطنية والمدافعة عن بلاده بفكره وقلمه ·

وعندما التجأ حمدان خوجة الى استانبول فى آخر سنة 1836 ، كان يتابع دوما احداث الجزائر ، وقد أدرك بحدسه السياسى ان فرنسا عاجلا أو آجلا ستحقق أطماع توسعها فى البلاد المغربية شرقا وغربا، غير أن حمدان لم يدرك جيدا ضعف الامبراطورية العثمانيه السياسى والعسكري الا مؤخرا ، وهذا ما جعله يلح بيأس على ارسال اعانات عسكرية فضلا عن التشجيع المعنوى للحاج أحمد باى · والى من غير الامبراطورية العثمانية يستطيع أن يلتجأ ويطلب النجدة ؟

أما الباب العالى ، فمنذ نهاية القرن السابع لم يعد يتحكم فى مصيره ، ولم يبق له الا عظمة انتصاراته الماضية · ان الازمة الداخلية ثم الانهيار الاقتصادى الدورى ، كانا يتطلبان حركة نشيطة للنهوض بالدولة ، وهذا ما لم يقدر عليه المسؤولون العثمانيون يومئذ ، وكان الباب العالى يراقب انحلال امبراطوريته دون أن يقدر على وضع حد لذلك · على أن التسرب الاقتصادى ثم سياسة المسؤولين الغربيين الذين لم يغتفروا للعثمانيين استلائهم على القسطنطينية ، قد كانت وراء هذه السياسة الناعمة والمسمومة والتى مارسها سفراء الدول الغربية والتى أدت مع طول الزمن الى انجاح محاولاتهم الاخطبوطية لخنق مساعى الباب العالى للعمل على المحافظة على بلاد الجزائر فى اطار الدولة العثمانية ، ومما لا شك فيه ان الاسطول العثمانى لا يمكن الفرنسبة بباريس واستانبول ، لا يمكنها أن تؤدى الى نتائج ايجابية ·

ان الحاج أحمد باى الذى حرم من كل المساعدات المادية والعسكرية اضطر الى تحصين البايلك لمواجهة التهديد الفرنسى وخاصة بعد عقد معاهدة تافنا · وقد أصبح من المستحيل عليه ، على الرغم من البطولة الفريدة فى تاريخ البلاد العربية الحديث ، ثم الاصرار الذى أظهره فيما بعد ، أن يقف وحده أمام ضخامة الاستعدادات العسكرية التى أعدها الفرنسيون للقضاء عليه والاستيلاء على عاصمة البايلك ·

ان نتائج الاستيلاء على قسنطينة كانت أكثر خطورة وثقلا من الاستيلاء على الجزائر العاصمة ، وابعادها تتجاوز منطقه واطار بلاد الجزائر • واذا دققنا مليا فى المراسلات السياسية ، فاننا نلمس مدى صراوه وعنف وخبث التملق الفرنسى الذى سعى الى تحقير وتشويه الامبراطوريه العثمانيه وعومل مسؤولوها على أنهم أغبياء •

اننا من خلال ابحاثنا فى هذا الكتاب الذى خصصناه عن بايلك قسنطينة والحاج أحمد باى 1830 ـ 1837 ، لم نسـعى مطلقا الى تبرير البعض واتهام الآخرين ، غير أننا هدفنا من كتابتنا لهذه الفتره الحاسمه جدا من تاريخ الجزائر أن تكون استفادتنا من الكتابات والاحكام التى تعتبر لنا ، موضوعية علمية •

هل نامل ان تكون كتابتنا الذى ظهر هذه الايام ، بعكس الرؤية السليمة للكتابة التاريخيه المغربيه على المستوى المنهجى والاجتهاد التأملى لقضايانا التاريخية المعلقة ؟ ساكون أكثر امتنانا وارتياحا لو يعمل الجيل المغربى من المؤرخين الشباب ، الغير المعقد ، على مواصله البحث والاخلاص له رغم كل المصاعب والعراقيل التى يواجهونها اليوم ، وما ذلك على عزيمتهم وايمانهم واخلاصهم وصبرهم بعزيز • *

د• عبد الجليل التميمى

(*) ظهر كتابنا : بمنشورات **المجلة التاريخية المغربية**، الجزء الاول، 304 ص 24 رسما .

ونؤمل ظهور النسخة العربية فى جزئين قريبا .

e Beylik de Constantine et Hadj Ahmed Bey (1830-1837).

عبد المؤمن بن على مؤسس دولة الموحدين

د٠ عبد الحميد حاجيات
معهد العلوم الاجتماعيـة
جامعة الجزائر

لقد اهتم الباحثون كثيرا ، فى السنوات الاخـيرة ، بتاريخ الدولة الموحدية ٠ ولا غرابة فى ذلك ، اذ ان هذه الدولة تعد بحق أعظم دولة عرفها المغرب الاسلامى فى العصر الوسيط ، للدور الهام الذى لعبته فى تاريخـــه ، بتوحيد أقطارها تحت سلطة سياسية مغربية واحدة ، وبكفاحها البطولى ضد الغزاة الاجانب ٠

والغرض من حديثنا هذا ، هو اقتراح منهجية للبحث تهدف الى عرض موضوعى ونزيه لتاريخ هذه الـــدولة ، ثم التعرض باختصار الى المرحلة الاولى منه ، وهى مرحلة تاسيس الدولة على يد عبد المؤمن بن على الكومى ٠

★ ★ ★

ملاحظات حول منهجية البحث في تاريخ الموحدين

لقد حظيت دولة الموحدين بنصيب وافر من المصادر التاريخية ، ومن بينها كثير من المصادر المعاصرة ، التي يرجع تاريخ تأليفها الى عهد الموحدين ؛ وتعتبر هذه المصادر المادة الخام التي نقل عنها المؤرخون فيما بعد ·

وأقدم تأليف وصل الينا ، من بين هذه المصادر المعاصرة ، كتاب البيذق ، الذي يتحدث عن اخبار المهدي ابن تومرت وابتداء دولة الموحدين · ومؤلفه ، أبو بكر بن علي الصنهاجي ، المتوفى حوالي منتصف القرن السادس الهجري ، كان أحد رفاق ابن تومرت أثناء عودته الى موطنه بعد رحلته الى المشرق ؛ وقد ضمن كتابه معلومات قيمة عن امامة ابن تومرت وخلافة عبد المؤمن ·

والجدير بالملاحظة أن هذا الكتاب ، مثل غيره من الكتب المعاصرة ، قد تعرض لتأثير البيئة الاجتماعية والسياسية ، مما جعله يشتمل على أخبار عديدة لا تمت بأية صلة الى الواقع التاريخي ، وانما هي مجرد خيالات وأوهام ، شاع ذكرها عند القصاص · ويتجلى هذا التأثير بصفة خاصة ، فيما ورد في هذا الكتاب من حكايات وأساطير ، كما يتجلى أيضا في اقتناع المؤلف بصحة دعوة ابن تومرت وسائر ما جاء به من معتقدات وتعاليم ، مثل ما يتعلق بالمهدوية والعصمة ، وكذلك فيما أورده من كرامات نسبها الى ابن تومرت، وتشهد بصحة دعوته ، وجلها من باب العلم بالغيب والتنبؤات ·

ولينضح لنا هذا الجانب الاسطوري من كتاب البيذق ، الذي أخذ عنه كثير من المؤرخين ، بكفينا أن نقرأ ما ورد فيه حول لقاء عبد المؤمن بابن تومرت ، مثلا ، وهو قوله :

« فبينما هو (ابن تومرت) ذات يوم قاعد ، اذ سمعناه يقول : « الحمد لله الذي أنجز وعده ونصر عبده وأنفذ أمره » ، وأقبل نحو المسجد وركع ركعتين ثم قال : « الحمد لله على كل حال ، قد بلغ وقت النصر ، وما النصر الا من عند الله العزيز الحكيم ، نصلكم عدا طالب ، طوبى لمن عرفه وويل لمن أنكره » · فلما سمع الناس : « عدا نصلكم طالب » حاروا في أمره ، وذلك أن الحق تبارك وتعالى قد أزعج أمير

المؤمنين الخليفة عبد المؤمن بن على رضه من بلده نحو المشرق، فجد حتى وصل بجاية هو وعمه بعلو ... ونزلا بها فى مسجد الريحانه . فلما صليا الصبح سمعا الناس يقولون : سر بنا نحو الفقيه . فقال لهم الخليفة أمير المؤمنين رضه : ومن الفقيه ؟ قالوا له : السوسى، هو عالم المشرق والمغرب ، وما مثله انسان ، فقال لعمه : يا عم سر بنا نحوه ... فقال له . سر اليه وأسرع لانا على سفر .

اعلم يا أخى أنه لما جد السير نحو الامام اجتمع مع الطلبة فى طريقه ، فاصطحب حتى بلغ باب المسجد ، فرفع المعصوم رضه رأسه ، فواقفه ، أمامه ، فقال له : ادخل يا شاب ، فدخل ، فأراد أن يقعد فى جمله الناس ، فقال له الامام المعصوم رضه : ادن يا شاب . فلم يزل يدنو من الامام والمعصوم يقربه حتى دنا منه . فقال له المعصوم : ما اسمك يا فتى ؟ فقال عبد المؤمن . فقال له المعصوم : وأبوك على ؟ فقال : نعم . فتعجب الناس من ذلك . فقال له : يا شاب من أين اقبالك ؟ قال له : من نظر تلمسان من ساحل كومبه . فقال له المعصوم : من تاجرا أم لا ؟ فقال له : نعم . فزاد الناس تعجبا . فقال له المعصوم رضه : أبن تريد يا فتى ؟ فقال : يا سيدى نحو المشرق التمس فيه العلم . فقال له المعصوم رضه : العلم الذى تريد اقتباسه بالمشرق قد وجدته بالمغرب .

فلما انصرف الناس من القراءة أراد الخليفة أن ينصرف . فقال له المعصوم رضه : تبيت عندنا يا شاب ؟ فقال له نعم يافقيه . فبات عندنا . فلما جن الليل أخذ الامام المعصوم بيد الخليفة رضهما وسارا . فلما كان نصف الليل ناداني المعصوم : يا أبا بكر ادفع لى الكتاب الذى فى الوعاء الاحمر ، فدفعته له . وقال لى : أسرج لنا سراجا . فكان بقراءه على الخليفة من بعده ، وأنا يومئذ ماسك السراج أسمعه يقول : لا يقوم الامر الذى فيه حياة الدين الا بعبد المؤمن بن على سراج الموحدين . فبكى الخليفة عند سماع هذا القول ، وقال : يا فقيه ، ما كنت فى شيء من هذا ، انما أنا رجل أريد ما يطهرنى من ذنوبى . فقال له المعصوم : انما تطهيرك من ذنوبك صلاح الدنيا على يديك . ثم دفع له الكتاب وقال : طوبى لاقوام كنت أنت مقدمهم ، وويل لقوم خالفوك أولهم وآخرهم ... ثم قال لى المعصوم رضه : يا أبا بكر ، ناد الصبيان للورد يقومون يأخذون حزبهم . فلما أقبلوا ناداهم ، فقال لهم : انما الله اله واحد ، والرسول حق ،

والمهدى حق ، والخليفة حق · فاقرأوا حديث أبى داود تعرفوا الامر ، وعليكم بالسمع والطاعة لربكم والسلام » · (1)

هذا نموذج من التحيز الناتج عن المعاصرة ، وما يمليه ، فى كثير من الاحيان ، الحرص على اقناع القارىء بصحة الدعوة التى قامت عليها الدولة ، وشرعية الحكم الذى يمارسه الامام أو الخليفة · والغرض من ذلك ازالة أى شك أو تردد فى النفوس حول ذلـــك ·

وتشكل المنامات أيضا عنصرا هاما لبلوغ هذا الغرض ، ووسيلة للاقناع بصحة الدعوة وشرعية الحكم ، فهى تحتل مكانة مرموقة فى عرض الاخبار ، ولا سيما فى كتاب البيذق ، حيث نجدها تشكل جل أخبار عبد المؤمن قبل لقائه بابن تومـرت · وها نحن نعود الى نص هذا الكتاب لنتبين جيدا أثر هذا العنصر فى توجيه العرض التاريـــخى ·

يقـــول البيذق فى تاريخـــه : « وذلك أنه لما خرج الخليفـــة أمير المؤمنـــين مع عمه رضهما ، جدا حتى وصلا متيجة ··· اقاما بها اياما حتى أن الله تعالى أرى منامة للخليفة رضه ، وذلك أنه رأى صحفة من طعام على ركبتيه يأكل الناس منها كافة · فلما اصبح قال لعمه : يا عم رأيت كذا وكذا · فقال له عمه : اكتم هذه الرؤيا · وارتحلا حتى وصلا بنى زلدونى ، فرأى المنامة بعينها ، الا أن الصحفة على أرسه والناس أجمع يأكلون منها · فاعلم أيضا عمه بها ··· ولما وصل الخليفة رضه بجاية وجن عليه الليل قرأ حزبه وصلى ورده فى تلك الليلة ، ثم نام فرأى الرؤيا بعينها الا أن الناس يبايعونه · فلما أفاق أعلم عمه بها ·

فقال له : اكتم هذا الامر ، فانه رأت أمك وهى بك حامل كأن النار تخرج منهـا فتحرق المشرق والمغرب والقبلة والجوف ، فقال لها المعبر بتلمسان : لابد لهذه المرأة من مولود يكون أمره ياخذ لمشرق والمغرب والقبلة والجوف ، ولكن اكتم هذا الامر ولا تعرف به انسانا · وكذلك قال لى أبوك على ؛ ولقد رايت فى أمرك موعظة : كنا نحصد الزرع وأمك بك حامل فجاءت للفدان واضطجعت نائمة فاقبل بندان من نحل فنزلا على

(1) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، تحقيق عبد الحميد حاجيات، ص 37 ـ 42

أمك ، فلما خلقت أنت أتت أمك الفدان فلقطت السنبل وتركتك نائما ، فنزل أيضا عليك النحل أكثر مما كان نزل على أمك وأنت فى جوفها • ثم قام النحل عنك وافترق فرقتين ، واحدة للمشرق وأخرى للمغرب ، فقال على : الله أكبر ، هذا هو الذى قال الفقيه بتلمسان • فلما رجعنا من الفدان قال لامك : احفظيه فانه لابد له من الامر الذى ذكر الفقيه المفسر ، فكانوا ينتظرون منه ، حتى بلغ مبلغ الرجال ••• » • (2)

وقد ورد فى « وفيات الاعيان » ، لابن خلكان ، ذكر حكاية قد تكون صدى لما جاء فى كتاب البيذق ؛ يقول ابن خلكان :

« كان والد عبد المؤمن وسيطا فى قومه ، وكان صانعا فى عمل الطين ، يعمل منها الآنية فيبيعها ، وكان عاقلا من الرجال وقورا • ويحكى أن عبد المؤمن فى صباه كان نائما تجاه أبيه ، وأبوه مشتغل بعمله فى الطين ، فسمع أبوه دويا فى السماء ، فرفع رأسه ، فرأى سحابة سوداء من النحل قد هوت مطبقة على الدار ، فنزلت كلها مجتمعة على عبد المؤمن وهو نائم ، فغطته ولم يظهر من تحتها ولا استيقظ لها ، فرأته أمـــه على تلك الحال ، فصاحت خوفا على ولدها ، فأسكتها أبوه ، فقالت : أخاف عليه ، فقال : لا بأس عليه ، بل انى متعجب مما بدل عليه ذلك • ثم انه غسل يديه من الطين ولبس ثيابه ، ووقف ينتظر ما يكون من أمر النحل ، فطار عنه بأجمعه ، فاستيقظ الصبى وما به من ألم • فتفقدت أمه جسده ، فلم تر به أثرا ولا يشك ألما • وكان بالقرب منهم رجل معروف بالزجر ، فمضى أبوه اليه ، فأخبره بما رآه من النحل مع ولده ، فقال الزاجر : يوشك أن يكون له شأن يجتمع على طاعته أهل المغرب • فكان من أمـــره ما اشتهـــر » •

كما ورد فى كتاب « المعجب » لعبد الواحد المراكشى حكاية منامة ، لها شبه باحدى المنامات المذكورة فى كتاب البيذق • يقول المراكشى :

« وبهذه القرية (ملالة) له حكاية طريفة ، وذلك أنه رأى ، وهو بها فى المنام ،

---

(2) أنظر : أخبار المهدى ابن تومرت للبيذق ، ص 38 ــ 40 .

كانه ياكل مع امير المسلمين علي بن يوسف في صحفة واحدة · قال : ثم زاد أكلي على أكله، وأحسست من نفسي شرها الى الطعام · ولم يزل دلك بي الى أن اختطفت الصحفة من بديه وانفردت بها · فلما انتهه قص الرؤيا على رجل كان يقرأ عليه اسمه عبد المنعم بن عشير ، يكنى أبا محمد ··· فلما أتى على آخرها ، قال : يا بني ، يا عبد المؤمن ، هذه الرؤيا لا ينبغي أن تكون لك ، انما هي لرجل ثائر ، يثور على أمير المسلمين ، فيشاركه في بعض بلاده ، ثم يغلبه بعد دلك عليها كلها وينفرد بمملكتها » ·

وقد تحدث الدكتور عبد الله علي علام عن هذا الطابع الاسطوري بالنسبة للقاء الذي تم بين عبد المؤمن وابن تومرت ، فقال : « ويبالغ المؤرخون الاقدمون ، ولا سيما الموحدون منهم ، مبالغة شديدة ، في وصف لقاء المهدي ابن تومرت لتلميذه السعيد عبد المؤمن بن علي الكومي ، وفي تصوير ما نسب لهذا الشاب من علامات وصفات ممتازة ، أخبر بها المهدي ابن تومرت قبل وقوعها ، وعرف بعبد المؤمن قبل أن يلتقي بـــه ، بعلامات كان قد عرفها بطريق السجيم والجفور » · (3)

ولا ينبغي أن يفهم من هذا أن كتب التاريخ المعاصرة للموحدين لا تحتوي الا على هذا النوع من الاساطير والمبالغات وغير ذلك · بل نجد فيها أيضا أخبارا تاريخية وحضارية هامة ، يمكن بفضلها تتبع التطور السياسي والحضاري ، والتعرف على أهم جوانبه · ويعين على الباحث عندئذ تصفية المادة التي يتمكن من جمعها من المصادر المعاصرة ، فيترك جانبا ما هو من قبيل الاسطورة ، ولا يقر الا ما يراه صحيحا أو محتمل الصحـــة ·

وقد قام فعلا المؤرخون (أي الذين عاشوا بعد سقوط دولة الموحدين) بعملية التصفية هذه ، فاغفلوا كثيرا من الاخبار الاسطورية · ولم ينفرد عبد الرحمن بن خلدون بهذه العملية ، التي عمت معظم المؤرخين المتأخرين · الا أن هذه التصفية لم تكن شاملة، حيث ان كثيرا من هؤلاء أبقوا بعض العجائب في تآليفهم · وعلى كل ، فهناك تفاوت بين المؤرخين في التصفية والتحري ·

★ ★ ★

(3) أنظر : عبد الله علي علام ، الدعوة الموحدية في المغرب ، ص 89 .

وبعد ، فانطلاقا من هذه الاعتبارات حول منهجية البحث في تاريخ الدولة الموحدية سنعرض باختصار أخبار عبد المومن بن علي ودوره الهام في تأسيس هذه الدولة .

أما عن حياة عبد المومن قبل لقائه بابن تومرت ، فلا نعرف الا القليل وقد قيل انه لد بقرية تدعى ناجرا ، تقع قرب ساحل تلمسان ، في آخر سنة 487 هـ ، فنشأ بها . م توجه الى تلمسان لطلب العلم ، فدرس فيها على ابن صاحب الصلاة وعبد السلام لتونسي ، وغيرهما من العلماء والصلحاء .

ثم رحل نحو الشرق الى أن وصل بجايه ؛ فسمع طلبه العلم يتحدثون عن فقيه سوسي كان مقيما بقربه ملالة . الواقعه على مسافة 7 كلم منها ، فسار اليها ولقيه والتحق برفاقه . الذين كانوا يأخذون عنه العلم ويصحبونه في تنقلاته ، ويشاركونه في الامر بالمعروف والنهي عن المنكر .

وقد سبق أن أشرنا الى الرواية الاسطورية التي حكاها البيذق عن لقاء ابن تومرت بعبد المومن . أما عبد الواحد المراكشي فانه اقتصر ، في كتابه « المعجب » ، على ذكر ما يلي . « فاستدعى (ابن تومرت) عبد المؤمن وخلا به ، وسأله عن اسمه واسم أبيه ونسبه ، فسمى له وانتسب ، وسأله عن مقصده ، فأخبره أنه راحل في طلب العلم الى الشرق . فقال له ابن تومرت : أو خير من ذلك ؟ قال وما هو ؟ قال : شرف الدنيا والآخرة ، تصحبني وتعينني على ما أنا بصدده ، من اماتة المنكر واحياء العلم واخماد البدع . فأجابه عبد المؤمن الى ما أراده » . (4)

وهذا التصريح يبعثنا الى طرح السؤال التالي : هل اقتصر التحاق عبد المومن بابن تومرت على طلب العلم وتغيير المنكر ، أم هل كان يتضمن أيضا الاتفاق على القيام بدعوة سياسية ودينية تهدف الى القضاء على دولة المرابطين ؟

ليس في المصادر التاريخية ما يساعدنا على الاجابة ، بصفة يقينية ، على هذا السؤال . الا أن التصرفات التي قام بها ابن تومرت ورفاقه ، وخصوصا ميلهم الى

---

(4) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص 181 .

بتغيير المنكر باليد ، أي بالقوة ، يدل على نزعه ثورية ، لا يستبعد أن تكون ناتجة عن رغبة في قلب الاوضاع السياسية ، والقيام ضد الامراء المرابطين .

وقد وصف عبد الواحد المراكشي عبد المومن ، فقال : « وكان أبيض ذا جسم عمم تعلوه حمرة ، شديد سواد الشعر ، معتدل القامة ، وضيء الوجه ، جهوري الصوت ، فصيح الالفاظ ، حزل المنطق ، وكان محببا الى النفوس ، لا يراه أحد الا أحبه بديهة » . (5)

ولعل ابن تومرت ، عندما طلب من عبد المومن أن يلتحق به ، راعى هذه الصفات الضرورية لدعمه الاصلاحية والسياسية التي كان يهم القيام بها ، عندما تكون الظروف مواتية .

دعوة ابن تومرت

أما دعوة ابن تومرت فقد نالت حظا وافرا من الدراسات ، من بينها كتاب « الدعوة الموحدية بالمغرب » لعبد الله علي علام ، الذي شرح فيه طويلا أسسها الاجتماعية، المنحصرة في مبدأ الامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وأسسها الاعتقادية ، وخصوصا نظريته التوحيد ، التي أخذها ابن تومرت عن المعتزلة ، وأسسها السياسية ، التي تدور حول الامامة المهدوية والعصمة .

وكانت تنقلات ابن تومرت وعبد المومن ورفاقهما ، عبر مدن المغربين الاوسط والاقصى ، تسمح بتتبع الاصلاح الاجتماعي والديني ، الى أن بلغوا مراكش ، عاصمة المرابطين ، فلم يجدوا أدنى صاعبة عند أميرها علي بن يوسف بن تاشفين ، ومن كان يحيط به من أمراء وفقهاء . وأخيرا غادروها وتوجهوا نحو جبال السوس الاقصى حيث كانت تقطن قبائل المصامدة ، قوم ابن تومرت .

وعندئذ بدأ ابن تومرت نشر دعوته بين رجال قبيلته وبعض القبائل المجاورة لها . ومما لا شك فيه أنه كان يمتاز بفصاحة نادرة ، ومهارة فائقة في اقناع مواطنيه ، ومقدرة عجيبة على ايجاد الوسائل الكفيلة بتحقيق أهدافه ، ولو تتطلب بعضها ، أحيانا ، استعمال أساليب قاسية .

(5) عبد الواحد المراكشي ، المعجب ، ص 197 .

كان المصامده ، مثل معظم سكان الجبال ، أهل بساطة وسذاجة ، وكان « من طباعهم سفك الدماء » . (6) فعمد ابن تومرت الى عده وسائل لتمكين دعوته فى نفوسهم ، لهم آله مسخره لتنفيذ تعليماته ، والخضوع لطاعته ، والتفانى فى نصرته وحرب عدائه .

وكان فى مرحله أولى ، يحث الناس على الاقتناع بالمعتقدات الصحيحه ، والامتثال امر الى دعا اليها الاسلام ، واجتناب نواهيه ؛ وتولى ، بمساعدة رفاقه المقربين ، ه مواطنيه وتغيير المنكرات ، فالف لهم بلغتهم البربرية عقيدة فى التوحيد ، واهتم سهم أركان الاسلام ، واصلاح دينهم ، وتحسين أخلاقهم . كما منعهم من سفك مـــاء .

ثم ، عندما انتقل الى تينملل ، فرض على مواطنيه تأييد دعوته ، على أساس نصرة سعاد الصحيح ، الذى هو التوحيد ، ومحاربة أعدائه ، الذين سماهم المجسمين ، وعلى اس العمل لنيل سعاده الآخرة ، والنجاة من عذاب جهنم . ثم ادعى أنه المهدى مطر ، الذى ينشر العدل فى الارض بعد أن ملئت جورا ، وأنه من نسل على بن أبى لب ، وان اسمـه محمـد بن عبد اللـــه ، وادعى أيضا العصمه وهى من مقتضيات دوبـــة .

ويبدو أن ابن تومرت كان يدرك جيدا أن ادعاءاته يصعب تصديقها فى ظروف .ته . فبدأ بارسال دعاة من أصحابه الى رؤساء القبائل ، قصد اقناعهم واستمالتهم حابته . ثم عنى بجمع الاحاديث المروية فى شأن المهدى المنتظر ، ومنها ما ينص هوره فى المغرب ، واستدل بها على صحة زعمه ، مدعيا انه مؤيد من عند الله ، وأن ه سينصره على أعدائه .

وبعد أن تمت البيعة سنة 515 هـ ، بتينملل ، صرف ابن تومرت عنايته لتنظيم ركته سياسيا وعسكريا ، فرتب أتباعه حسب الدور الذى لعبوه فيها ، وحســـب رتبهم الاجتماعية ، وصنفهم الى طبقات مختلفة ، أعلاها أهل العشرة ، ويليهم أهـــل مسين ، ثم أهل سبعين . وأسند الى كل من هذه الجماعات ما يناسبها من الاختصاصات، شار اليها ابن القطان بقوله : « وكانوا (أى الموحدون) ، اذا قطعوا الامور العظام ،

(6) عبد الواحد المراكشى ، المعجب ، ص 191 ــ 192 .

يخلون بالعشره . لا يحضر معهم غيرهم ؛ فاذا جاء أمر أهون ، أحضروا الخمسين ؛ فاذا جا
دون ذلك أحضروا السبعين رجلا ؛ وفيما دون ذلك لا يتأخر أحد ممن دخل فى أمر
رضى الله تعالى عنه » . ثم يضيف ابن القطان الى هذه الطبقات الثلاث طبقات أخر
تليها ، وهى الطلبه . الحفاظ (وهم صغار الطلبة) ، أهل الدار ، قبيلة هرغة ، أهل
تيملل (وهم أهل قبائل متعدده) . قبيله جدميوة . قبيلة كنفيسة ، قبيلة هنتاته
أهل القبائل الموحديه المختلفه . الجند . الغراب (وهم العبيد) . (7)

أما النشاط العسكرى . فانه اتخذ اتجاهين رئيسيين .

ـ أولهما اخضاع قبائل السوس الاقصى والنواحى المجاوره ، التى لم تعلن بيعتها لابن تومرت .

ـ وثانيهما التصدى للقاء جيوش المرابطين ، وشن الغارات على الحصون التى كانت تستقر بها حاميتهم .

ويبدو أن ابن تومرت لم يكن واثقا بالكثير من أتباعه ، وأنه لم يقدم على عملياته العسكريه ضد المرابطين قبل ان يجرى تصفيه واسعه النطاق فى صفوف قومه أطلق عليها اسم التمييز .

وقد ذكر ابن الاثير ان التمييز وقع سنه 519 هـ ، وأنه سمع من بعض المغاربة من يقول . فى شأن التمييز « ان ابن تومرت ، لما رأى كثره أهل الشر والفساد فى أهل الجبل ، أحضر شيوخ القبائل وقال لهم انكم لا يصح لكم دين ولا يقوى الا بالامر بالمعروف والنهى عن المنكر . واخراج المفسد من بينكم ، فابحثوا عن كل من عندكم من أهل الشر والفساد ، فانهوهم عن ذلك ، فان انتهوا والا فاكتبوا أسماءهم وارفعوها الى لانظر فى أمرهم ، ففعلوا ذلك ، وكتبوا له أسماءهم من كل قبيلة . ثم أمرهم بذلك مره ثانيه وثالثه . ثم جمع المكتوبات . فأخذ منها ما تكرر من الاسماء فأثبتها عنده . ثم جمع الناس قاطبه ، ورفع الاسماء التى كتبها . ودفعها الى الونشريسى المعروف بالبشير . وأمره أن يعرض القبائل ، ويجعل أولئك المفسدين فى جهة الشمال ومن عداهم فى جهه اليمين . ففعل ذلك . وأمر أن يكتف من على شمال الونشريسى فكتفوا . وقال ان هؤلاء أشقياء ، قد وجب قتلهم . وأمر كل قبيلة أن يقتلوا

(7) أنظر ابن القطان . نظم الجمان . ورقة 23 .

نقياءهم ، فقتلوا عن آخرهم ، فكان يوم التمييز » . ثم أضاف ابن الاثير أن عدد القتلى ان سبعين ألفا ، وقال : « فلما فرغ من ذلك أمن على نفسه وأصحابه واستقام مره » . (8)

وعندئذ رأى ابن تومرت أن يجهز جيشا لمحاربه المرابطين فى ناحية أغمات ، ثم ى غيرها من النواحى المجاورة . وكان يعتمد بالدرجة الاولى على حماس جماعته عابهم ، ولا يخشى من لقائهم عدوا أقوى بوفرة سلاحه وخيله ورجاله . لكن المعارك المناوشات كانت كثيرا ما تنتهى بانهزام الموحدين ؛ فكان ابن تومرت يصبر أنصاره يهدىء روعهم بالوعود ؛ وربما كان يلجأ ، أحيانا ، الى الحيلة ، كما ورد ذكره فى كتاب « روض القرطاس » .

يقول ابن أبى زرع الفاسى : « كانت بين الموحدين والمرابطين حرب ، فقتل من الموحدين خلق كثير ، فعظم ذلك على عشائرهم . فاحتال المهدى بأن انتخب قوما من اتباعه ، ودفنهم أحياء بموضع المعركة ، وجعل لكل واحد منهم متنفسا فى قبره ، وقال لهم : اذا سئلتم عن حالكم ففولوا : قد وجدنا ما وعدنا ربنا حقا . وأن ما دعا اليه الامام المهدى هو الحق ، فجدوا فى جهاد عدوكم ، وقال لهم : اذا فعلتم ذلك أخرجتكم ، وكانت لكم عندى المنزلة العالية . وقصد بذلك أن ينبههم على التمسك بدعوته ، ويهون عليهم مما لاقوا من القتل والجراحات بسببه ، ثم جمع أصحابه عند السحر وقال لهم : أنتم ، يا معشر الموحدين ، حزب الله وأنصار دينه وأعوان الحق ، فجدوا فى قتال عدوكم . فانكم على بصيرة من أمركم ، وان كنتم ترتابون فيما أقوله لكم ، فأتوا موضع المعركة وسلوا من استشهد اليوم من اخوانكم يخبروكم بما لقوا من الثواب عند الله . ثم أتى بهم الى موضع المعركة ونادى : يا معشر الشهداء ، ماذا لقيتم من الله عز وجل ؟ فقالوا : قد أعطانا من الثواب ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر . فافتتن الناس ، وظنوا أن الموتى قد كلموهم ، وحكوا ذلك لبقية اخوانهم ، فازدادوا بصيرة فى أمره ، وثباتا على رأيه » . (9)

(8) ابن الاثير ، الكامل فى التاريخ ، ج 10 ، ص 575 ـ 576 .
(9) أورده الناصرى السلاوى فى كتاب الاستقصا ، ج 2 ، ص 96 ـ 97 .

ثم كانت معركة البحيرة الشهيرة ، سنة 524 هـ ، وفيها منى الموحدون بهزيمة كبرى ، قتل أثناءها وائدهم البشير الونشريسى وعدد كبير من الاتباع ، وجرح عبد المؤمن ، وعاد فل الموحدين الى جبلهم ·

وكان ابن تومرت قد أصيب بمرض حين سير الجيش فى اتجاه مراكش ، وعندما بلغه نبأ الهزيمة اشتد مرضه ، ومات بعد ذلك بقليل ·

خـــلافة عبد المـؤمن

وكانت وفاة ابن تومرت حادثا خطيرا بالنسبة للموحدين ، يخشى منه تصـــدع صفوفهم ، وتفكك وحدتهـم ، واختلاف كلمتهم · وقد رأى رفاقه المقربون اخفاء موته على الاتباع ، وتدبير شؤون الدولة باسمه ، ريثما تسمح الظروف بايجاد حل لمشكل خلافـــه ·

والظاهر أن هذه المرحلة الانتقالية دامت ثلاث سنوات ، تمكن أثناءها المقربون من رفاق ابن تومرت من مواصلة الجهود لبسط نفوذ الدولة الفتية بين القبائل المجاورة للسوس الاقصى ، ومن الاتفاق على تعيين خليفة للمهدى، هو عبد المؤمن بن على · وقد عزا كثير من المؤرخين هذا التعيين الى ما كان يظهره ابن تومرت نفسه من تقدير لعبـــد المؤمن ؛ ومنهم من ذكر أنه عينه خليفة له قبل وفاته · ويبدو أن الجماعة التى وافقت على تعيين عبد المؤمن راعت كونه غريبا عن المنطقة ، وأنه لم يكن يحظى بمساندة قبيلة ، قد تساعده على فرض سيطرته ، أو تنال أوفر قسط من الامتيازات ·

وكان على عبد المؤمن أن يواصل الحركة التى دعا اليها ابن تومرت · وقد أظهر كفاءة حربية نادرة مكنته من مقاومة جيوش المرابطين سنوات عديدة ، وابعاد خطرهم عـلى أتباعه بملازمة الجبال ، بينما كان المرابطون يفضلون اللقاء فى السهول ، ويلازمونها ·

وفى سنة 535 هـ ، بدأت حركة عبد المؤمن الكبرى عبر مناطق المغربين الاقصى والاوسط ، استولى خلالها الموحدون على نواحى تادلا وفازاز ، ثم بلاد الريف ، وكلها

طق جبلية · وكان تاشفين بن على ، بعد وفاة أبيه سنة 537 هـ ، يباشر بنفسه قيادة وش المرابطين ·

ثم حل عبد المؤمن وأتباعه الى تاجرا ، مسقط رأسه · وقد ذكر ذلك البيذق فقال : ثم رحلنا الى آغبالو متاع بنى يزناسن ، وهرب أهله ، وامتنعوا أن يوحدوا ، فرحلنا ها الى ندرومه ، بلاد كوميه ، فوحدوا ، فرحلنا الى تاجرا ، فميزنا فيها » · (10)

وبعث عبد المؤمن العساكر من تاجرا لغزو وهران وتلمسان وغيرهما · ثم سار الى مسان ، وهناك وقع أول لقاء هام بين الموحدين وأعدائهم المرابطين وحلفائهم ، وانتهى نصار الموحدين · فمر تاشفين بن على الى وهران واعتصم بها ، وكان ينوى الجواز ى الاندلس ان غلب على أمره ، ولكنه لم يتمكن من تحقيق خطته هذه ، ومات ليلة 2 رمضان سنه 539 هـ ، عندما غادرالحصن الذى لجأ اليه متوجها الى شاطىء البحر ، سمطا فرسه ، فسقطت به من أعلى جرف ·

وكان لوفاة تاشفين بن على أثر بالغ فى رفع معنويات الموحدين ، وانهيار دولـــة لرابطين · وسرعان ما استولى عبد المؤمن بن على على مدينة وهران ، ثم تلمسان ، ثم اس ، فمكناسة ، وسلا ، وأخيرا مراكش ، التى فتحت فى شوال 541 هـ ، بعد صار دام حوالى 11 شهرا · وبسقوط مراكش ، ومقتل اسحاق بن على بن يوسف ، حر أمراء المرابطين ، انقرضت الدولة المرابطية ، وتم النصر للموحدين ·

ثم كان لعبد المؤمن دور هام فى القضاء على ثورة ابن هود وحلفائه ، فى المغرب لاقصى ، وعلى ثورة قبائل عديدة ، مثل برغواطة ودكالة ، كما وجه عناية خاصة لبسط هوده على جزيرة الاندلس ·

وفى سنة 544 هـ ، وقع حادث الاعتراف ، الذى تحدث عنه البيذق ، ولم يذكره غيره من المؤرخين ، وهو عبارة عن تصفية كبرى ، مثل التمييز فى عهد ابن تومرت ، خلص بفضلها عبد المؤمن من كل من كان يظهر معارضته للدولة الموحدية ، أو لا يمتثل تعاليمها · ومجموع قتلى الاعتراف ، حسبما ورد فى كتاب البيذق ، يبلغ 32·730 شخصـــا ·

(10) البيذق . أخبار المهدى ابن تومرت ، ص 99 ـ 100 .

ولم تتوقف عمليات الموحدين التوسعية في عهد عبد المؤمن عند هذا الحد ، بل نهض سنة 547 هـ ، في اتجاه المغرب الاوسط وافريقية ، ففضى على دولة الحماديين ، واستولى على عاصمتها بجاية ، والمناطق التابعة لها ، وعلى قسطينة وعنابة .

ثم نهض مرة ثانية الى افريقية ، وكان النصارى النورمان قد احتلوا المهدية ومدنا أخرى ، قادمين من صقلية ، فاستولى عبد المؤمن على تونس ، ثم حاصر المهدية ، وأرسل أثناء ذلك ، العساكر لاحتلال باقي مدن المنطقة . وفي محرم 555 هـ ، استسلمت المهدية ، وغادرها العراة النورمان نهائيا .

وباستيلاء عبد المؤمن على سائر اراضي افريقية تم توحيد بلاد المغرب الاسلامي كلها ، وخضوعها ، لاول مرة في التاريخ ، لسلطة مغربية موحدة .

ولاشك أن هذا الحادث يكتسي أهمية عظمى بالنسبة لتاريخ المغرب ، ولتاريخ العالم الاسلامي بصفة عامة ، اذ أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية في العالم الاسلامي ، الذي كان يعاني ، منذ أكثر من نصف قرن ، من خطر الحروب الصليبية . وأصبحت آمال المسلمين تتوجه الى هذه الدولة الجديدة القوية ، وترجو منها أن تدافع عن حوزتهم ، وتساهم في رد عدوان النصارى الصليبيين .

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن عبد المؤمن مر ، أثناء عودته الى المغرب الاقصى ، بعد هذه الحركة الموفقة ، على القرية التي تسمى تاجرا ، لزيارة قبر أمه ، وصلة من هناك من ذوي رحمه « فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين سود وألوية ، وهزت أكثر من مائتي طبل - وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الفخامة ، يخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز وتحس قلبه يكاد ينصدع من شدة دويها - فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة . فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه هكذا تعود العرائب الى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها » . (11)

وفي سنة 557 هـ بدأ عبد المؤمن تجهيز الجيوش والاساطيل لغزو النصارى في

(11) عبد الواحد المراكشي . المعجب ، ص 232 .

لاندلس ، وغادر مراكش الى سلا حيث تجمعت القوات الموحدية منتظرة الجواز الى لاندلس · غير أن عبد المؤمن مرض أثناء ذلك مرضا خطيرا ، توفى من جرائه فى 27 مادى الآخرة سنه 558 هـ ، بعد حكم دام 34 سنة ، قضى نصفها فى محاربة المرابطين ، النصف الآخر فى فمع الثورات وبسط نفوذ الدولة ، وتنظيمها وتسيير شؤونها ·

هذا ولم تنجل عبقرية عبد المؤمن فى المجال السياسى والعسكرى فحسب ، بل لهرت أيضا فى المجال الحضارى والتنظيم الادارى والمالى وغير ذلك · ويؤثر لعبد لمؤمن بناء المسجد الاعظم بتازا ، ومسجد تينملل ، وجامع الكتبية بمراكش · كما أمر بتحصين جبل الفتح بالاندلس (وهو جبل طارق) ، وبناء أسوار تازا وتينملل ·

وعين على الولايات أبناءه ، وجعل بجانبهم أبناء أشياخ الموحدين ، مثلما كان يحتل مجانبه الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى المنزله السامية فى الدوله ··· ثم عين عبد المؤمن حد أبنائه وليا للعهد ، جاعلا بذلك لتعيين الامام نظاما لا يختلف عن بقية الـــدول لاسلاميه ، هو النظام الوراثى ·

ومن جهه أخرى ، فان عبد المؤمن ، عندما عاد من غزو افريقيه سنة 555 هـ ، رأى ضرورة فرض ضرائب أخرى غير الضرائب الشرعية ، فأمر بتكسير بلاد المغرب بالفراسخ لاميال طولا وعرضا ، وأسقط من المساحة الناتج فى الجبـــال والانهار والطـرق لصحارى ، وما بقي قسط عليه الخراج ، والزم كل قبيلة قسطها ·

وقد أدى فرض هذه الضريبة الى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائـــل (ما عدا المصامدة ، الذين أعفوا منها) ، والى حصول الدوله على أموال وافرة ، احتفظ بها الخلفاء الموحدون فى بيت المال لوقت الحاجة ، وصرفوها لما قاموا به من انجازات ضخمه · ولعل هذه الاجراءات قد أغضبت الرعايا ، الا أنها لم تحدث أية ثورة على الدوله ·

★ ★ ★

ولم تتوقف عمليات الموحدين التوسعية في عهد عبد المؤمن عند هذا الحد ، بل نهض سنة 547 هـ ، في اتجاه المغرب الاوسط وافريقية ، فقضى على دولة الحماديين ، واستولى على عاصمتها بجاية ، والمناطق التابعة لها ، وعلى قسنطينة وعنابة .

ثم نهض مرة ثانية الى افريقية ، وكان النصارى النورمان قد احتلوا المهدية ومدنا أخرى ، فاقدمين من صقلية . فاستولى عبد المؤمن على تونس ، ثم حاصر المهدية ، وأرسل أثناء ذلك ، العساكر لاحتلال باقي مدن المنطقة . وفي محرم 555 هـ ، استسلمت المهدية ، وغادرها الغزاة النورمان نهائيا .

وباستيلاء عبد المؤمن على سائر اراضي افريقية تم توحيد بلاد المغرب الاسلامي كلها ، وخضوعها ، لاول مرة في التاريخ ، لسلطة مغربية موحدة .

ولاشك أن هذا الحادث يكتسي أهمية عظمى بالنسبة لتاريخ المغرب ، ولتاريخ العالم الاسلامي بصفة عامة . اذ أن دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوة عسكرية وسياسية في العالم الاسلامي ، الذي كان يعاني ، منذ أكثر من نصف قرن ، من خطر الحروب الصليبية . وأصبحت آمال المسلمين تتوجه الى هذه الدولة الجديدة القوية ، وترجو منها أن تدافع عن ثغورهم ، وتساهم في رد عدوان النصارى الصليبيين .

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن عبد المؤمن مر ، أثناء عودته الى المغرب الاقصى ، بعد هذه الحركة الموفقة ، على القرية التي تسمى تاجرا ، لزيارة قبر أمه ، وصلة من عساكره من ذوي رحمه ، فلما أطل عليها والجيوش قد انتشرت بين يديه ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائة راية ما بين سود وألوية ، وهزت أكثر من مائتي طبل - وطبولهم في نهاية الكبر وغاية الفخامة ، بخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز وتحس فتكاد تتصدع من شدة دويها - فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأة عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه هكذا تعود الغريب الى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها » . (11)

وفي سنة 557 هـ بدأ عبد المؤمن تجهيز الجيوش والاساطيل لغزو النصارى في

(11) عبد الواحد المراكشي . المعجب ، ص 232 .

ندلس ، وغادر مراكش الى سلا حيث تجمعت أفواج الموحدية منتظرة الجواز الى ندلس • غير أن عبد المؤمن مرض أثناء ذلك مرضا خطيرا ، توفى من جرائه فى 27 ادى الآخرة سنه 558 هـ ، بعد حكم دام 34 سنة ، قضى نصفها فى محاربة المرابطين ، نصف الآخر فى جمع الثورات وبسط نفوذ الدولة ، وتنظيمها وتسيير شؤونها •

هذا ولم تتجل عبقريه عبد المؤمن فى المجال السياسى والعسكرى فحسب ، بل رت أيضا فى المجال الحضارى والتنظيم الادارى والمالى وغير ذلك • وبؤثر لعبد من بناء المسجد الاعظم بتازا ، ومسجد تينملل ، وجامع الكتبية بمراكش • كما أمر حصين جبل الفتح بالاندلس (وهو جبل طارق) ، وبناء أسوار تازا وتينملل •

وعين على الولايات أبناءه ، وجعل بجانبهم أبناء أشياخ الموحدين ، متلما كان يحتل ابيه الشيخ أبو حفص عمر الهنتاتى المنزله السامية فى الدوله ••• ثم عين عبد المؤمن د أبنائه ولبا للعهد ، جاعلا بذلك لتعيين الامام نظاما لا يختلف عن بقية الـــدول سلاميه ، هو النظام الوراثى •

ومن جهة أخرى ، فان عبد المؤمن ، عندما عاد من غزو افريقية سنة 555 هـ ، رأى ورة فرض ضرائب أخرى غير الضرائب الشرعية ، فأمر بتكسير بلاد المغرب بالفراسخ لامال طولا وعرضا ، وأسقط من المساحة الثلث فى الجبـــال والانهار والطـرق لصحارى ، وما بقى قسط عليه الخراج ، والزم كل قبيلة قسطها •

وقد أدى فرض هذه الضريبة الى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائـــل ما عدا المصامدة ، الذين أعفوا منها) ، والى حصول الدولة على أموال وافرة ، احتفظ ا الخلفاء الموحدون فى بيت المال لوقت الحاجة ، وصرفوها لما قاموا به من انجازات خمه • ولعل هذه الاجراءات قد أغضبت الرعايا ، الا أنها لم تحدث أية ثورة على دوله •

★ ★ ★

ولم تتوقف عمليات الموحدين التوسعية في عهد عبد المؤمن عند هذا الحد ، بل نهض سنة 547 هـ ، في اتجاه المغرب الاوسط وافريقيه ، فقضى على دولة الحماديين ، واستولى على عاصمتها بجايه ، والمناطق التابعة لها ، وعلى قسنطينه وعنابة .

ثم نهض مره ثانيه الى افريقية . وكان النصارى النورمان قد احتلوا المهدية ومدنا أخرى ، فادميين من صقليه . فاستولى عبد المؤمن على تونس ، ثم حاصر المهدية ، وأرسل أثناء ذلك ، العساكر لاحتلال باقي مدن المنطقه . وفي محرم 555 هـ ، استسلمت المهدية . وغادرها الغزاه النورمان نهائيا .

وباستيلاء عبد المؤمن على سائر اراضي افريقيه تم توحيد بلاد المغرب الاسلامي كلها ، وخضوعها ، لاول مره في التاريخ ، لسلطه مغربية موحده .

ولاشك أن هذا الحادث يكتسي أهمية عظمى بالنسبه لتاريخ المغرب ، ولتاريخ العالم الاسلامي بصفه عامه . اذ ان دولة الموحدين أصبحت تمثل أكبر قوه عسكرية وسياسيه في العالم الاسلامي ، الذي كان يعاني ، منذ أكثر من نصف قرن ، من خطر الحروب الصليبيه . وأصبحت آمال المسلمين تتوجه الى هذه الدولة الجديده القوية ، وترجو منها أن تدافع عن حوزتهم ، وتساهم في رد عدوان النصارى الصليبيين .

وقد ذكر عبد الواحد المراكشي أن عبد المؤمن مر ، أثناء عودته الى المغرب الاقصى ، بعد هذه الحركة الموفقه . على القريه التي تسمى تاجرا ، لزياره قبر أمه ، وصلة من هناك من ذوي رحمه « فلما أطل عليها والخيوش قد انتشرت بين يديه ، وقد خفقت على رأسه أكثر من ثلاثمائه رايه ما بين سود وألوان ، وهزت أكثر من مائتي طبل - وطبولهم في نهايه الكبر وغايه الفخامة ، تخيل لسامعها اذا ضربت ان الارض من تحته تهتز وتحس قلبه يكاد ينصدع من شده دويها - فخرج أهل القرية للقائه والتسليم عليه بالخلافة ، فقالت امرأه عجوز من عجائز القرية ، ممن كانت تصحب أمه هكذا تعود الغريب الى بلده ! تقول ذلك رافعة صوتها » . (11)

وفي سنه 557 هـ بدأ عبد المؤمن تجهيز الجيوش والاساطيل لغزو النصارى في

(11) عبد الواحد المراكشي . المعجب ، ص 232 .

الاندلس ، وغادر مراكش الى سلا حيث تجمعت أفواج الموحدية منتظرة الجواز الى الاندلس • غير أن عبد المؤمن مرض أثناء ذلك مرضا خطيرا ، توفى من جرائه فى 27 حمادى الآخرة سنه 558 هـ ، بعد حكم دام 34 سنة ، قضى نصفها فى محاربة المرابطين ، والنصف الآخر فى قمع الثورات وبسط نفوذ الدولة ، وتنظيمها وتسيير شؤونها •

هذا ولم تتجل عبقريه عبد المؤمن فى المجال السياسى والعسكرى فحسب ، بل ظهرت أيضا فى المجال الحضارى والتنظيم الادارى والمالى وغير ذلك • ويؤثر لعبد المؤمن بناء المسجد الاعظم بتازا ، ومسجد تينملل ، وجامع الكتبية بمراكش • كما أمر بتحصين جبل الفتح بالاندلس (وهو جبل طارق) ، وبناء أسوار تازا وتينملل •

وعين على الولايات أبناءه ، وجعل بجانبهم أبناء أشياخ الموحدين ، مثلما كان يحتل بحانبه الشيخ أبو حفص عمر الهنتانى المنزلة الثانية فى الدولة ••• ثم عين عبد المؤمن أحد أبنائه ولبا للعهد ، حاعلا بذلك لنعبين الامام نظاما لا يختلف عن بقية الـــدول الاسلامية ، هو النظام الوراثى •

ومن جهه أخرى ، فان عبد المؤمن ، عندما عاد من غزو افريقية سنة 555 هـ ، رأى صرورة فرض ضرائب أخرى غير الضرائب الشرعية ، فأمر بتكسير بلاد المغرب بالفراسخ والامال طولا وعرضا ، وأسفط من المساحة الثلث فى الجبـــال والانهار والطـرق والصحارى ، وما بقي قسط عليه الخراج ، والزم كل قبيلة قسطها •

وقد أدى فرض هذه الضريبة الى توزيع عادل للجباية على مختلف القبائـــل (ما عدا المصامدة ، الذين أعفوا منها) ، والى حصول الدولة على أموال وافرة ، احتفظ بها الخلفاء الموحدون فى بيت المال لوقت الحاجة ، وصرفوها لما قاموا به من انجازات ضخمة • ولعل هذه الاجراءات قد أغضبت الرعايا ، الا أنها لم تحدث أية ثورة على الدولة •

★ ★ ★

الخاتمـــة

وختاما لهذا الحديث الموجز ، يجدر بنا أن نتساءل عن دور عبد المؤمن بن على فى تاسيس دولة الموحدين ·

يمكن القول بان تاسيس دوله الموحدين بدأ سنة 515 هـ ، وهو تاريخ بيعـة ابن تومرت بتمنلل · وقد تمكن ابن تومرت من نشر دعوته بين المصامدة ، وبسط نفوذه فى منطقة السوس الاقصى · ثم قام بمحاولات عديدة لمناهضه جيوش المرابطين ، الا أنها لم تكلل بالنجاح المامول منها · ولا جدال أن ابن تومرت هو صاحب الدعوة ، ومفكر الدوله الموحديه ، ومصلحها ، ومعنن نظمها ·

أما عبد المؤمن فقد كان له الدور الاكبر فى مواصله دعوة ابن تومرت . والسـير بالموحدين الى النصر ، فهو مسمم الدعوة ومحقق الانتصار · وقد وجهها توجيها خاصا ، ربما كان لا يتفق تماما مع نظريه ابن تومرت ، اذ جعل نظام تعيين الخلفاء وراثيا ، وعين أحد ابنائه ولبا للعهد ، وفرض الخراج على المسلمين ، ولم يتمسك باستشارة المجالس التى أسسها ابن تومرت ، كمجلس العشره ، وأهل خمسين ، وغير ذلك ·

ولاشك أن تاسيس دوله الموحدين قد غير الاوضاع السياسية فى المغرب الاسلامى تغييرا جذريا . حيث قضى على مختلف الدول القائمه به قبلها ، وعوضها بدولة تضم كل أرجائه تحت سلطة واحده ، محققا بذلك توحيدا سياسيا تحت شعار توحيد عقائـــدى ·

وكان من نصيب الجزائر أن يتولى أحد أبنائها هذه الانجازات الجليلة ، وأن يحقق هذا الهدف العظيم ·

الحـــــلاج والقرامطـــــة

المرحوم د. محمود قاســـم

عميد كلية العلوم (سابقا) جامعة القاهرة

يجب الاعتراف بأن كتابات لويس ماسينيون عن الحلاج تعد المرجع المعاصر الاول الذى يجب الرجوع اليه للكشف عن ملامح تلك الشخصية العجيبة التى كان لها أثرها الدينى فى تاريخ الاسلام ، كما كان لها آثارهـا العميقة فى التاريخ السياسى لهذه الامة ، منذ أواخـر القرن الثالث الهجرى حتى يومنا هذا . كذلك ينبغى أن نشيد بالجهد العظيم الذى بذله ماسينيون فى جمع مادته وحشد النصوص والوقائع من التراث الفكرى فى الاسلام ، فانه جهد ينوء به المختصون ، ويكاد يدفعنا الى القول بأن نوعا من المودة بين ماسينيون وفكر الحلاج هو الذى ساعده على بذل هذا الجهد الخارق للعادة .

غير أن هناك ظاهرة أثارت اهتمامنا فيما كتبه « ماسينيون » ، وبخاصة فى كتابه الضخم عن الحلاج . « شهيد الصوفية فى الاسلام » ، وهى أنه بدا شديد الحرص

على نفي الصلة بين الحلاج والقرامطة . وقد ظل يؤكد لنا أن هذا المتصوف لم يكن داعية سياسيا : بل انتهى به الحب الالهي الى التضحية بنفسه على مذبح هذا الحب . كذلك يؤكد لنا ، دون ملل ، أن الحلاج كان متصوفا سنيا أراد تعميق الروح الدينية في بيئة حقت عاطفتها الروحية ، وتمسكت بقشور الدين دون لبه . وقد ظن « ماسينيون » وبعض تلاميذه ان الحلاج ، الذي قال بحلول الله فيه ، يعد جسرا بين المسيحيـــة والاسلام السني . ومع ذلك ، فان هذا الحرص الشديد على نفي الصلة بين الحلاج والقرامطة قد يؤدي ، على عكس ذلك ، بوجود هذه الصلة بينه وبينهم .

وتلك هي المسألة التي نريد ، نحن ، ان نتبين وجه الحق فيها ، وبخاصة لان « ماسينيون » يعترف في موطن ما من كتابه عن الحلاج بان موقف هذا المتصوف من فريضة الحج كان سنيا في ادانته ومصرعه ، وانه جرد مكة من أفضليتها وقداستها ، مما شجع القرامطة على مهاجمتها والفتك بالحجاج وهدم الكعبة ونزع الحجر الاسود منها ، ثم ارساله الى هجر ، حيث بقي هناك نحوا من اثنين وعشرين سنة ، فلم يعد الى موضعه الا بعد ان استقرت الفاطمية ، وبعد أن ثبت الحكم الفارسي في بغداد بدلا من الحكم العربي .

ولكي نسير على نهج واضح ، ولكيلا نظل الطريق في كثير من الشعاب التي يقفز اليها أحيانا تفكير « لويس ماسينيون » رأينا أن نبدأ بدراسة الافكار الموجهة عند القرامطة وما أدت اليه من أحداث . على أن نقارن فيما بعد بين هذه الحركة وبين ما نجده في كتاب « ماسينيون » من وقائع يوشك أن تفصح عن صلة وثيقة بين الحـــلاج والقرامطة (1) . ونعتقد أن هذا المنهج يتسق مع طبيعة الفترة الزمنية التي عاش فيها الحلاج . فقد عاصر حركتين شعوبيتين هامتين هما ثورة الزنج وثورة القرامطة ، وربما تكشفت لنا خيوط تربط احدى هاتين الثورتين بالاخرى . وذلك أمر يتسق مع طبيعة الاحداث التاريخية والاجتماعية . وسوف نوجز في عرض هذه الاحداث والايديولوجية المرتبطة بها بقدر ما نستطيع ، اي بالقدر الذي يسمح بوضوح الفكرة والمنهج في آن واحـــد .

(1) سنخصص مقالا اخر لمناقشة هذه الوقائع تفصيلا .

ويمكن القول بدءا بأن القرن الثالث الهجرى شهد عدة حركات سياسية ترمى الى تقويض الدولة العباسية والتمهيد لدوله علويه . بعد أن فشلت جهود القرن الثانى فى نقل الخلافه من الامويين الى آل البيت . وكان من الطبيعى أن تصطبغ هذه الحركات بصبغه دينية جلبا للانصار من الجاهيين على الدولة العباسية ، وربما كانت هناك دوافع اجتماعيه وسياسيه وعنصريه توجب الحق على أصحاب هذه الدولة . لكن سارت الثورات السياسية جنبا الى جنب مع ظاهره دينيه ، اذ كان ادعاء النبوه أو الربوبيه امرا مألوفا فى تلك الحقبه الغامضة من تاريخ الدولة العباسيه التى بدأت تتحلل ، تكى تمهد لظهور عصر الدويلات ، منذ اواخر القرن الثالث بصفه خاصه .

اذن لم يكن الحسين بن منصور الحلاج أول من ادعى الالوهيه ولا آخرهم . فقد سبقه كثيرون ، كما تبعه آخرون فيما بعد ، وبعضهم كان من تلاميذه ، ونعنى به أبا عمره الذى عاش فى النصف الثانى من القرن الخامس الهجرى . وليس من هدفنا أن نعرض بالتفصيل لتاريخ هؤلاء **الذين ادعوا الربوبية، تغريرا بالسذج من العامة ومساندة لبعض** الحركات السياسيه ، فذلك أمر يطول سرده ، ويخرجنا عما نحن بصدده من الكشف عن حقيقة الصله بين الحلاج والقرامطه . لكن لنا أن نذكر على سبيل المثال أن رجلا يقال له محمود بن الفرج النيسابورى ظهر فى سامراء سنه 235 هجريه ، فزعم أنه نبى ، واخترع كتابا ادعى أنه قرآن اوحى به اليه ، كما سيفعل الحلاج فيما بعد ، عندما حاول معارضه القرآن بكتاب ادعى أنه وحى الهى . أما ذلك النبى النيسابورى فقد أحضر هو وأصحابه الى الخليفه المتوكل ، وضرب ضربا شديدا فاعترف بكذبه ، وأمر المتوكل أصحابه ، وكانوا سبعه وعشرين رجلا ، أن يصفعه كل واحد منهم عشر صفعات ، وذلك بعد أن « أحدوا له مصحفا فيه كلام قد دبجه » . (2)

وفى سنة 250 هجرية ظهر أحد العلويين بالكوفة وهو يحيى بن عمر ، ودعا الى الرضا من آل محمد أى السبب العلوى فاجتمع الناس اليه وتبعه بعض العامة من أهل بغداد وبايعه جماعه من أهل الكوفة ممن لهم **تدبير وبصيرة** فى تشيعهم ، ودخل فيهم **أخلاط**

(2) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 43 .

لا ديانة لهم ، لكن فشلت تلك الثورة وحملت رأس صاحبها الى الخليفة المستعين . ثم ظهر في السنة نفسها علوي آخر فبايعه « الديلم » **وكثر جمعه وأتاه كل طالب نهب وفتنة** » ثم استولى على الري ، وولى عليها رجلا من شيعته (3) . وهكذا ساعد ضعف السلطة المركزية في بغداد على تتابع الفتن فيها وفي الموصل ، ثم على نجاح ثورة الزنج التي بدأت في سنة 255 هـ ، واستمرت نحوا من خمسة عشر عاما .

وقد بدأت هذه الحركة أيضا تحت لافتة دينية . اذ قام بها رجل تظاهر بالدعوة الى آل البيت ، وهو محمد بن محمد بن عبد الرحيم الذي ولد في الطالقان بخراسان ، وهي المنطقة التي كان تجوب فيها دعاة الاسماعيلية الفاطمية من أبناء ميمون القداح ، والتي حال فيها الحلاج أيضا ، والتي ثارت بعد مصرع هذا الاخير ـ نقول ان هذه الحركة بدأت بمجيء صاحب الزنج من خراسان . وقد ادعى هذا الرجل انه علي بن محمد بن أحمد ابن عيسى من ابناء الحسين ونجح في نسب ثقة الزنج فاجتمعوا حوله . ثم اتجه الى البحرين التي ستكون من اهم المراكز القرمطية فيما بعد . فتبعه جماعة كثيرة من اهلها وغيرها . ثم ادعى **لنفسه النبوة** ، وزعم **أن الوحي ينزل** عليه . وقد نقل عنه أنه قال « أوتيت ، تلك الايام ، بالبادية ، آيات من آيات امامتي ظاهرة للناس ، منها أنني لقيت سورا من القرآن ، فجرى بها لساني في ساعة ، وحفظتها في دفعة واحدة ، منها سبحان ، والكهف ، وصاد ، ومنها أني فكرت في الموضع الذي أقصده ، حيث بنت بي البلاد ، فأطلتني غمامة ، وخوطبت منها ، فقال لي : اقصد البصرة » . وقد استطاع خديعة أهل البادية لفترة من الزمن ، لكنهم انفضوا عنه بعد هزيمة قتل فيها كثير من اخوانهم .

ثم انتقل الى البصرة ومنها الى بغداد « فزعم بها أنه ظهر له آيات عرف بها ما في ضمائر أصحابه ، وما يفعله كل واحد منهم » . وتلك هي الكرامة التي نسبها الحلاج الى نفسه أو نسبها اليه صحابه فيما بعد ، فسمي حلاج الاسرار . ومهما يكن من أمر فقد استطاع صاحب الزنج استمالة جماعة من بغداد ثم انتقل هو وأتباعه الى البصرة في سنة 255 . ومن الطريف أن الحلاج سلك هذا المسلك فقد اقنع جماعة من الاهواز

(3) مروج الذهب ج 4 ص 146 .

بالانتقال معهُ الى بغداد فاستقروا بها ابتداء من سنة 292 هـ . أما صاحب الزنج فقد اختار البصرة مركزا له بعد أن عزل واليها ، فأظهر هو أنه وكيل لولد الواثق لبيع السلاح . ثم أخذ يستدرج العبيد ، وكون منهم جماعات نصب على كل جماعة منها رئيسا من بينهم . وكان يعدهم الجنة . فاجتمع لديه عدد كبيرمن غلمان أهل البصرة الذين أقبلوا عليه خلاصا من الرق والتعب . وأقسم لهم أنه لن يخونهم . ولما جاء أصحاب العبيد يطالبون بارقائهم « نطحهم وأمر عبيدهم بضربهم » لكنه كان يأخذ من كل عبد ينظم اليه خمسة دنانير ، وهو نفس الاسلوب الذى طبقه القرامطة مع أنصارهم فيما بعد . ولما قوى امره سار الى القادسية ونهبها هو واصحابه . ثم عاد بهم وهاجم البصرة ووضع فى أهلها السيف بعد أن هزم جيشها ، فقتل من أهل البصرة خلقا كثيرا . وربما بالغ المسعودى صاحب كتاب مروج الذهب فى تقدير عدد القتلى والغرقى من البصريين ؛ اذ يقول ان عدد هؤلاء كان 300.000 نفس . ثم يرسم لنا المسعودى صورا بشعة لكارثة البصرة فيقول : « واختفى كثير من الناس فى الدور والآبار ، فكانوا يظهرون بالليل . فيأخذون الكلاب فيذبحونها ويأكلونها ، والفئران والسنانير فأفنوها ... فكانوا اذا مات منهم الواحد أكلوه » .

وهكذا لم تلبث حركة الزنج أن كشفت عن وجهها الحقيقى ، فبيعت النساء من نسل الحسن والحسين والعباس وغيرهم من الهاشميين والقرشيين فى اسواق الرقيق « تباع الجارية منهن بالدرهمين والثلاثة ، وينادى عليها بنسبها . هذه ابنة فلان الفلانى . لكل زنجى منهم العشرة والعشرون والثلاثون يطؤهن الزنج ، ويخدمن النســـاء الزنجيـــات .

وكان من عادة صاحب الزنج أن يقتل الاسرى . فأثار الرعب فكانت بعض المدن تسلم حصونها دون قتال ، كما فعل اهل عبادان . وقد دخل الاهواز وخربها ثم أحرقها . ولم يكن يحترم وعدا أو عهدا مع أعدائه . ذلك أنه لما دخل البصرة « أقام يقتل ويحرق يوم الجمعة وليلة السبت ويوم السبت . ولما طلب أهل البصرة الامان أمنهم . فلما تجمعوا فى دار حددت لهم غدر بهم وامر أصحابه بقتلهم ... وأحرقت البصرة فى عدة مواضع ، واتسع الحريق . وقتلوا كل من رأوه بها . فمن كان من اهل اليسار

أخذوا ماله وقتلوه . ومن كان فقيرا قتلوه لوثته » وهذا هو ما فعلوه بمدينة واسط عندما دخلوا اليها في سنة 264 هـ . ولم يتمكن جيوش الدولة العباسية من الصمود أمام طلائع الزنج وصاحبها الا ابتداء من سنه 267 هـ عندما هزمهم أبو العباس الموفق الهزيمة الاولى . فكان هذا هو أول الفتح (4) . ثم كتب الموفق الى صاحب الزنج كتابا يدعوه فيه الى التوبة مما اقترف من سفك الدماء وانتهاك المحارم واخراب البلاد وادعاء النبوة والرسالة . لكن الثائر لم يستجب . فحاصر الموفق مدينته التي سماها «المختارة» وضيق عليه الحصار وأخذ الثائر النفسي في أعوان صاحب الزنج فأخذ هؤلاء يتسللون من المدينة المحاصرة ومن بينهم بعض القواد . وكانوا يطلبون الامان من الموفق فأمنهم ، وطال حصار المدينة حتى اشتد الجوع بمن فيها . فكان الواحد منهم يأكل صاحبه اذا انفرد به .

وأخيرا اقتحم الموفق المدينة المحاصرة وأحرق قصورها وأنقذ النساء والاطفال . واستطاع القضاء على ثورة الزنج في سنة 270 هجرية » . (5)

لكن ما يجب أن نشير اليه ثورة جديدة بعد وفاة الموفق في سنة 278 ، ونعني بها ثورة القرامطة التي اشتد خطرها في الزمان . وقد اتهم الحلاج بأنه من كبار دعاتها والمروجين لها بعد سفره من البصرة وادعاء الالوهية الى جانب المناداة بابطال فرائض الاسلام من صلاة وصيام وحج وزكاة . ويؤكد أيضا . وستري كيف حاول « ماسينيون » جاهدا أن ينفي عنه التهمة السياسية . وان أقر بأن الحلاج نادى باسقاط التكاليف وبأن الولي أعلى مرتبة من النبي ، وله ان يسقط الشريعة وأن يقرر عبادات جديدة . وعلى الرغم من هذا التفاصيل الرسمي بين نهاية ثورة الزنج وبداية ثورة القرامطة فاننا نجد أنفسنا في الواقع أمام ثورة متصلة الحلقات بخطتها والاعداد لها بصور متقاربة . وهذا أمر يشهد المعركة المعاصرة بصدقه . فلقد بدأت هذه الحركة عندما قدم رجل منهم من حوزستان فهبط الى سواد الكوفة . وأظهر الزهد والتقشف ، وأعلم الناس أنه جاء

(4) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 121 .
(5) نفس المصدر ج 7 ص 159 .

يدعو الى امام من آل بيت الرسول . ولما مرض هذا الداعى المتشيع حمله رجل من أهل القرية التى نزل بها ويسمى « قرمط » الى داره ، وعنى به حتى شفى « ودعا أهل تلك الناحية الى مذهبه ، وكان يأخذ من الرجل اذا أجابه دينارا وزعم أنه للامام » ، ثم جعل لرسم لجماعته صلوات خاصه ، كتلك التى رسمها الحلاج فيما بعد حتى يعفيهم من الصلاة بالاعراف « ماسمسون » نفسه ، فاستغل الناس به عن أعمالهم ، ولا سيما بعد أن أقنعهم، هو الآخر ، بأنه صاحب معجزات . أما تلك المعجزة التى نسبت اليه فمرجع الى أن أحد الملاك وجد تقصيرا فى العمل ، فلما بحث عن سببه علم بأمر ذلك الرجل الذى يصرف القوم عن أعمالهم، فاخذه وحبسه فى بيته وأغلق باب البيت بمفتاح ، ووضع المفتاح تحت وسادته . غير أن احدى جواريه رق قلبها للرجل ، فأخذت المفتاح خلسة وأخرجت الرجل من سجنه ، ثم أعادت المفتاح الى مكانه . ولما أراد صاحب الدار الفتك بسجينه لم يجده «وشاع ذلك فى الناس . فافتتن به أهل تلك الناحية، وقالوا : رفع . ثم ظهر فى ناحية أخرى .ولقى جماعة من أصحابه وغيرهم ، فسألوه عن قصته . فقال : لا يمكن أحدا أن يعالنى بسوء ، فعظم فى اعينهم » وشبيه هذه المعجزة التى افتتن بها بعض أهل ذلك العصر ما نسب الى الحلاج فيما بعد من أنه كان يخترق جدران سجنه ثم يعود اليه حسبما يزعمون . ثم ان هذا العلوى المزعوم خاف على نفسه ، فخرج الى الشام واتخذ لنفسه اسم الرجل الذى حمله الى داره عندما أصابه المرض ، وعرف فى موطنه الجديد باسم «قرمط» لكن هناك رواية أخرى تقول ان « قرمط » لقب لرجل كان بسواد الكوفه يحمل غلة الاقليم على ثيران له وكان اسمه حمدان .

وأما ما كان الامر فى نشأة هذه الطائفة فمن المؤكد أنه كانت للقرامطة «ايديولوجية» خاصة لا تتسق مع ما يعرفه المسلمون عن دينهم ، سنية كانوا أم شيعة . فقد ادعى القرمطى الاول أنه داعية المسيح ، وأنه عيسى وهو الكلمة وهو المهدى وهو جبريل . وينم هذا الخلط العجيب عن الطابع التلفيقى للماسونية القرمطية والباطنية بصفة عامة . ثم دكر أن المسيح تصور له فى جسم انسان ، وأخبره أنه هو الحجة . وحدد له أمورا غير منها أن الصلاة أربع ركعات . ركعتان قبل طلوع الشمس ، وركعتان بعد

عروبها (6) ، وأن الرسل أولو العزم هم آدم ونوح وابراهيم وموسى وعيسى ومحمد . وهذا ما نجده عند الاسماعيلية التي لم تكن طائفة القرامطة الا فرعا منها عهد اليه بالاعداد للدولة الفاطمية في المشرق، على نحو ما سيكشف الحوادث عنه فيما بعد عندما دب الخلاف بين الطائفتين في عصر المعز لدين الله . ويخبرنا ابن الاثير ان « قرمطا » اتصل بصاحب ثورة الزنج قبل مقتله واخبره ان معه مائة ألف ضارب بالسيف . لكن لم يتفق الرجلان لبعض الفروق المذهبية . وعلى الرغم من هذه الفروق المذهبية فقد اتفقت أساليب الطائفتين الى حد كبير من سبي النساء والجواري وقتل الاسرى والسلب والنهب ، مما يشعر بوحدة الفكر في التخطيط .

وفي أول الامر ، ظهر نشاط حركة القرامطة بالبحرين سنة 281 هـ . فقد ادعى رسولهم الى هذه المنطقة ، وهو يحيى بن المهدي ، انه رسول المهدي المنتظر ، وأنه جاء ليدعوهم الى مناصرته وأخبرهم انه سيظهر عما قريب « وكان فيمن أجابه أبو سعيد الجنابي ، وكان يبيع للناس الطعام ... ثم غاب عنهم يحيى بن المهدي مدة ، ثم رجع ومعه كتاب يزعم انه من المهدي الى شيعته » وفيه يطلب الى هؤلاء أن يدفع كل رجل منهم ستة دنانير وثلثين لرسوله ، فدفعوها اليه ، ثم رحل عنهم مرة ثانية ، ولما عاد طلب اليهم بكتاب آخر من المهدي ان يدفعوا اليه خمس أموالهم ففعلوا . ولابد من أن يكون الاغراء شديدا حتى يسارع هؤلاء بدفع ما يطلب اليهم عن طيب خاطر . وفيما بعد كان الحمقى في احدى جزائر البصرة يشترون الذراع في الجنة بمائة دينار ، كما يخبرنا الامام الغزالي . وفي أثناء ذلك كله توثقت صلة هذا الرسول بأبي سعيد الجنابي حتى قيل ، على حد ما يرويه لنا ابن الاثير ، ان أبا سعيد طلب الى زوجته أن تعنى عناية خاصة برسول المهدي لو أراد .

ثم انتقل يحيى بن المهدي يدعو بني كلاب وعقيل وغيرهم « فاجتمعوا معه ومع أبي سعيد فعظم أمر أبي سعيد » . وفي سنة 286 حشد هذا الاخير جماعة من الاعراب والقرامطة بالبحرين وجعل يغير على ما حوله من القرى ، ثم سار الى القطيف ، وقتل من

(6) انظر وصفا تفصيليا لفريضتي الصلاة والصوم عند القرامطة في كتاب الكامل لابن الاثير ج 7 ص 16 ـ 161 .

بها ، وأظهر أنه يريد البصرة ، وطبيعي أننا لا نريد أن نغترف هنا من المراجع التاريخية تفاصيل ثورة القرامطة التي لم تكن ثورة اشتراكية كما خيل الى الاستاذ روجيه جارودي في محاضرته بالقاهرة سنة 1969 (7) ، بل كانت حركة سياسية ترمي الى الاطاحة بالدولة العباسية ، لكي تجعل مكانها دولة الفاطميين ، وهم من الاسماعيلية ، وكانت حروبها ، في التحليل الاخير ، اشبه بأساليب السطو وقطع الطريق والتنكيل بالابرياء ٠

لكن ينبغي أن نشير بايجاز الى ان اسلوب القرامطة كان امتدادا لاسلوب صاحب الزنج ، فقد أغار أبو سعيد الجنابي على نواحي هجر ، واقترب هو وأعوانه من البصرة فهزموا قائد المعتضد في سنة 287 هـ ٠ وكان الجنابي يقتل الاسرى ويحرقهم ٠ ولما بدأت جيوش العباسيين تنكل بالقرامطة في سواد الكوفة ، ظهر أحد دعاتهم في الشام في سنة 289 ، وزعم انه محمد بن عبد الله بن محمد بن اسماعيل بن جعفر الصادق ٠ وقد أطلق جماعة من اتباعه على أنفسهم اسم الفاطميين ٠ وبدأ يهاجم العراق وأحرق مسجد الرصافة ، ثم انتشر القرامطة في تلك السنة بسواد بغداد التي ستصبح بعد سنوات قليلة ، مسرحا لاسطورة الحلاج ٠

ومن الطريف أن نجد من بين القرامطة رجلا كان يمكن ان يكون هو أيضا موضوعا لاسطورة كالحلاج ، وهو ابن أبي الفوارس الذي ادعى ان روح الله وروح أنبيائه قد حلت فيه لتعصمه من الزلل ولتوفقه الى صالح العمل ٠ فلما قبض عليه وأحضر بين يدي الخليفة المعتضد قال . « يا هذا ان حلت روح الله فينا فما يضرك ، وان حلت روح ابليس فما ينفعك ؟ فلا تسأل عما لا يعنيك ، وسل عما يخصك » ثم جعل يجبه الخليفة فان العباسيين اغتصبوا الخلافة ، فامر المعتضد بتعذيبه ، وقطع يديه ورجليه ، ثم قتل وصلب (8) ٠ وكان لاهل بغداد في قتل ابن أبي الفوارس أراجيف كثيرة ، فقد قيل انه قال لبعض من حضر مقتله من العوام ، وقد أوصاه بحفظ عمامته ، انه سيعود بعد اربعين يوما ٠ « فكان يجتمع في كل يوم خلائق من العوام تحت خشبته ، ويحصون الايام ، ويقتتلون ، ويتناظرون في الطرق في ذلك » ، ثم تمت الاربعون ليلة فكثر لغط

(7) أنظر ردنا على جارودي ـ الهلال عدد يناير 1971 بعنوان الاسلام والاشتراكية .
(8) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 185 .

العامه » فكان بعضهم يقول هذا جسده ويقول آخر قد مر . وانما السلطان قد قتل رجلا آخر وصلبه موضعه كثير يقتل الناس » وبعد عده أعوام أعاد عوام بغداد هذا الخلاف فيما بينهم . بسبب مقتل الحلاج . فقد سمع أحدهم الحلاج ، وهو فى طريقه الى تنفيذ الحكم ، يقول لاتباعه لا تجزعوا . سأعود اليكم بعد ثلاثين يوما ، وقال ابن زنجى انه سمع انه قال بانه سيعود بعد اربعين يوما (9) . ومهما يكن من أمر فقد ظل أبو الفوارس مصلوبا فترة طويلة من الزمن بعد ان طلى جسمه بالصبر وغيره من الاطلية القابضة والماسكة . ثم ضاق به أهل بغداد فانزله جماعة من العامة من خشبته ، وجعلوا يتراقصون بجثته ويغنون وينادونه باسم الاستاذ . ثم القوه فى النهر ، وألقى بعض العامة بانفسهم وراءه فغرق منهم عدد كبير على نحو ما يروى لنا صاحب مروج الذهب .

ويبدو أن الحلاج الذى كان يجوب خراسان منذ سنة 285 هجرية لفترة امتدت نحوا من خمس سنوات ، كان شديد اللهفة على ظهور المهدى المنتظر فأخذ يقسم بسنة 290 هـ، وهى السنة التى كان يقسم بها بعض دعاة القرامطة فى خراسان أيضا على نحو ما سنفصل القول فيه بعض التفصيل فيما بعد . وأيا ما كان الامر فان تلك السنة هى التى بلغت فيها ثورة القرامطة أوجها من العنف . فقد حاصر القرامطة فيها دمشق وضيقوا على أهلها وأشرف كثير من اهل دمشق على الهلاك .

ولما قتل الحسين شيخ القرامطة فى الشام على باب دمشق اجتمع من بقى منهم على بيعة أخيه الحسن الذى سمى نفسه أحمد . ثم سار الى دمشق وصالح أهلها على خراج دفعوه اليه . فانصرف عنهم ، واتجه الى حمص وقد لقب نفسه بالمهدى أمير المؤمنين «ولما أطاعه أهل حمص وفتحوا له بابها خرقا منه ، سار على حماه ومعره النعمان وغيرهما، فقتل أهلها وقتل النساء والصبيان ، ثم سار الى بعلبك فقتل عامة أهلها ... ثم سار الى سلمية فمنعه أهلها ثم صالحهم ، وأعطاهم الامان ، ففتحوا له بابها ، فبدأ بمن فيها من بنى هاشم وكان جماعة فقتلهم أجمعين . ثم قتل البهائم والصبيان » (على نحو ما يفعل اليهود فى حروبهم) ثم خرج منها وليس بها عين تطرف » وفى الجملة، سلك مسلك صاحب الزنج فجعل يخرب القرى ويسبى ويقتل ويحرق ، حتى جاءت جيوش الخليفة المكتفى وانزلت بالقرامطة بعض الهزائم وأسرت زعيمهم الذى كان يلقب

(9) ماسينيون كتاب الحلاج ج 1 ص 301 .

ابى شامة ، وحمل هذا القرمطى الى بغداد ومعه نفر من اصحابه فقطعت أيديهم وأرجلهم ثم ضربت أعناقهم ، ورفعت رأس أبى شامة على خشبة ونصبت على الجسر .

لكن سرعان ما تجمع القرامطة عندما جاءهم كتاب من أحد زعمائهم ، وهو زكرويه ابن مهرويه يخبرهم فيه انه **قد أوحى اليه** « أن صاحب الشامة واخاه المعروف بالشيخ عملان . وان امامه الذى هو حى يظهر بعدهما ويظفر » وبدأت جيوش القرامطة تغير على دمشق من حديد ، وعلى طبرية . وقد فعلوا بهذه المدينه الاخيرة ما فعلوا بغيرها من قتل وسبى . ثم أعدوا عدتهم للاستيلاء على الكوفة واتجهوا اليها يحملون راياتهم البيضاء وهى تشبه رايات الاسماعيلية فى لونها . فلما عجزوا عن فتحها ساروا الى القادسية ، وقد ادعى زكرويه أنه من اولياء الله ، وكان أتباعه متى رأوه سجدوا له كما كان يفعل اتباع الحلاج . وقد استطاع زكرويه أن يهزم جيش الخليفة فى سنة 293 بعد أن نصب له كمينا وقتل منه عددا كبيرا . ثم جعل القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج من أهل خراسان . وربما أمكن تفسير ذلك بأنهم كانوا حريصين على جعل خراسان مسقط مخافة لدعاتهم هناك حتى يتم كسب الخراسانيين للدعوة الاسماعيلية « وكان نساء القرامطة يطفن بالماء بين القتلى يعرضن عليهم الماء . فمن كلمهن قتلنه » (10) ثم جهز المكتفى الجيوش وقتل من القرامطة خلقا كثيرا ، وأصيب زكرويه بضربة سيف فى رأسه مات بعدها بخمسة أيام فنقلت جثته مع أسرى القرامطة الى بغداد ، وحملت رأسه الى خراسان حتى لا ينقطع الحاج .

وفى أثناء الصراع بين القرامطة وخلفاء بغداد ظهر مدع آخر للربوبية فى سنة 289 ثم قبض على الحلاج فى 301 . ويقول ابن الاثير عنه انه كان « مشعبذا فى قول بعضهم وصاحب حقبقة فى قول بعضهم ، ومعه صاحب له ، فقيل انه يدعى الربوبية » (11) . وقبلهما بعد قال الامام الجوينى امام الحرمين ان الحلاج كان من دعاة القرامطة « وانه اتفق هو والجنابى وابن المقنع على افساد عقائد الناس ، وتفرقوا فى البلاد ، فكان الجنابى

(10) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 195 ـ 196 .
ـ (10) نفس المصدر .
(11) البداية والنهاية ج 11 ص 143 ـ 144 . وماسينيون نفس المصدر ص 70 .

فى هجر والبحرين ، وابن المقفع ببلاد الترك ، ودخل الحلاج العراق » غير أن ابن خلكان الذى نقل كلام الجوينى يلاحظ أن ابن المقفع كان قبل الحلاج بزمن طويل ، أى فى أيام السفاح والمنصور . ولذا نجد ابن كثير صاحب البداية والنهاية يصحح كلام امام الحرمين فيقول ان الثلاثة الذين اجتمعوا فى عصر واحد على اضلال الناس وافساد عقائدهم هم الحلاج وابن الشلمغانى ، وهو أبو جعفر بن محمد بن على ، وأبو طاهر سليمان ابن أبى سعيد بن الحسين بن بهرام الجنابى القرمطى » (12) . ومهما يكن من شىء فقد ظهر امر الحلاج وانتشر ذكره فى سنة 299 هـ .

غير انه لم يكن لعمل ابى سعيد الجنابى ولاربعة من أكابر رؤساء القرامطة على يد أحد خدمه من الصقالبة فى سنة 301 هـ تأثير كبير فى حركة القرامطة التى مدت سلطانها على هجر والاحساء والقطيف والطائف وسائر بلاد البحرين . وأخذ القرامطة يقطعون الطريق على الحجاج بعد خروجهم من مكة . وزادت حركة القرامطة عنفا عندما تزعمها أبو طاهر ابن أبى سعيد الجنابى وكان فى السابعة عشرة من عمره عندما فتك بالحجاج العراقيين فى سنة 313 . وعندئذ خرج نساء العراق ممن قتل أزواجهن فى انتظار العوده من الحج ، وممن ثكلهم ابن الفرات فى بغداد « وجعلن ينادين القرمطى أبو طاهر قتل المسلمين فى طريق مكة . والقرمطى الكبير قد قتل المسلمين فى بغداد . وكاتب صوره فطبعه شمعه . وكسر العامه منابر الجوامع وسودوا المحاريب » (13) وعجز الخليفة وأعوانه عن الوقوف فى وجه القرامطة ، فدخل القرمطى الصغير الى الكوفه وأرسل الى الخليفه يطلب منه البصرة والاهواز . فلما لم يلق جوابا نهب الكوفة ثم عاد الى هجر . وساءت أحوال الحكم فى بغداد . ثم سار أبو طاهر القرمطى الى الكوفة فى سنة 315 وهزم الجيوش التى حاولت الايقاع به وأعوانه .

وهناك ظواهر ذات دلاله خاصة تشير الى وجود صله وثيقة بين القرامطة وبين الفاطميين فى تلك الفترة الغامضه من تاريخ الدولة العباسية وقت احتضارها . فمن ذلك ما نقله لنا ابن الاثير من أن انسانا جاء الى أحد وزراء بغداد وأخبره بأن « فى

(12) الفهرست لابن النديم ص 191 طبعة بيروت . ج فلوجل .
(13) الكامل لابن الاثير ج 7 ص 50 .

جيرانه رجلا من شيراز على مذهب القرامطة يكاتب أبا طاهر بالاخبار · فأحضره وسأله ، واعترف ، وقال ما صحبت أبا طاهر الا لما صح عندى انه على الحق ، وأنت وصاحبك (أى الخليفة) كفار تاخذون ما ليس لكم · ولابد لله من حجة فى أرضه · وامامنا المهدى محمد بن فلان بن فلان بن اسماعيل بن جعفر الصادق المقيم ببلاد المغرب · ولسنا **كالرافضة والاثنا عشرية** الذين يقولون ، بجهلهم ، ان لهم اماما ينتظرونه ويكذب بعضهم بعضا ، فيقول قد رأيته وسمعته وهو يقرأ · ولا ينكرون ، بجهلهم وغباوتهم ، أنه لا يجوز أن يعطى من العمر ما يظنونه · فقال له : قد خالطت عسكرنا وعرفتهم · فمن فيهم على مذهبك ؟ فقال : وأنت بهذا العقل تدبر الوزارة ؟ كيف يطمع منى أن أسلم قوما مؤمنين الى قوم كافرين يقتلونهم ؟ لا أفعل ذلك ! فأمر به فضرب ضربا شديدا ، ومنع الطعام والشراب فمات بعد ثلاثة أيام » ·

ومن ذلك أيضا ما روى من أن المهدى أرسل خطابا الى أبى طاهر القرمطى الصغير يلومه فيه ويعنفه · فان القرمطى هاجم مكة فى سنة 317 هـ فى يوم التروية فنهب هو وأصحابه أموال الحجاج ، وقتلوهم حتى فى المسجد الحرام ، ثم خلع الحجر الاسود وأرسله الى هجر حيث ظل هناك أكثر من عشرين سنة · ثم قتل أمير مكة ومن معه من الاشراف ، وألقى بالقتلى فى بئر زمزم ، ودفن الآخرين فى المسجد الحرام بغير كفن ولا غسل ولا صلى على أحد منهم · ثم انتزع كسوة الكعبة وقسمها على أصحابه ونهب دور مكة · فلما بلغ ذلك المهدى أبا محمد عبيد الله العلوى بافريقية ، كتب اليه ينكر عليه ذلك ويلومه ويعنفه ··· ويقول : قد حقفت على شيعتنا ودعاة دولتنا الكفر والالحاد بما فعلت · وان لم ترد على أهل مكة وعلى الحجاج وغيرهم ما أخذت منهم ، وترد الحجر الاسود الى مكة ، وترد كسوة الكعبة فانا برىء منك فى الدنيا والآخرة ··· (14)

لكن يبدو أن هذا السخط الذى أظهره المهدى لم يكن الا ظاهريا فحسب ؛ بل ربما كان يخفى شيئا آخر اتفق عليه مع دعاة دولته ، ذلك أن الدولة لم تكن قد استقرت تماما للفاطميين فى المغرب · لقد تظاهر أبو طاهر أنه سيرد الحجر الاسود وأنه استرد

(14) نفس المصدر ج 8 ص 79 .

ما يمكنه من أموال مكة أما كسوة الكعبة وأموال الحجاج فقد اقتسمها الناس ولذا فلن نستطيع ردها . ومهما يكن من شيء فقد احتفظ أبو طاهر القرمطي بالحجر الاسود في هجر ، وظل في سنة 332 دون ان يرده . وظل الحجر الاسود في حوزة القرامطة حتى سنة 338 . ولما أعادوه في تلك السنة « قالوا : اخذناه بأمر ، وأعدناه بأمر » وقد ردوه دون عوض ، بعد أن رفضوا رده مقابل 50.000 دينار « فلما أرادوا رده حملوه الى الكوفة وعلقوه بجامعها حتى راه الناس . ثم حملوه الى مكة . وكان مكثه عندهم اثنتين وعشرين سنة » (15) غير أننا نلاحظ انه لم يرد الا بعد القضاء على الدولة العباسية ، اذ لم يعد لهم ما يوجب محاربته فرضخوا اخيرا بعد نجاح الدولة الاسماعيلية .

واذا بقي بعد ذلك ريب في أمر الصلة بين القرامطة والدولة الفاطمية الاسماعيلية في المغرب فيجدر ان نذكر حدثا تاريخيا له دلالته . وهو أن المعز لدين الله كتب الى أحد رؤساء القرامطة في سنة 363 هـ ، أي بعد الانشقاق بين القرامطة والفاطميين ، يذكره بتلك الصلة الوثيقة بين الطائفتين ، وذلك عندما سار القرامطة وعلى رأسهم الحسن ابن احمد بن الاحسائي على مصر لحصارها . « فلما سمع المعز لدين الله صاحب مصر أنه يريد قصد مصر كتب اليه كتابا يذكر فيه فضل نفسه وأهل بيته ، **وأن الدعوة واحدة** ، وأن القرامطة انما كانت دعوتهم اليه والى آبائه من قبله . ووعظه وبالغ في تهديده ، وسير الكتاب اليه . فكتب جوابه « وصل كتابك الذي ول تحصيله ، وكثر تفصيله ، ونحن سائرون اليك على اثره والسلام » . (16)

وهكذا لم تدب الشقاق بين القرامطة والفاطميين الا بعد تحقيق الهدف المشترك وهو القضاء على دولة آل عباس . لكن الذي يهمنا هنا هو أن نفسر عنف القرامطة في محاربة الحجاج والقتل فيهم . وسنرى كيف أظهر « ماسينيون » ، رغم محاولاته العديدة انكار الصلة بين الحلاج والقرامطة ، أن يعترف بأن الحلاج كان يريد ابطال فريضة الحج . ويبدو أن محاولة تدنيس الكعبة كانت هدفا أساسيا من أهداف الدعوة الفاطمية .

(15) نفس المصدر ج 8 ص 175 .
(16) نفس المصدر ج 8 ص 229 .

فقد تجددت هذه المحاوله حتى بعد انتهاء حركه القرامطه بزمن طويل • فقد روى لنا ابن الاثير فى أثناء كلامه عن حوادث سنه 414 هـ أن رجلا من مصر قام بعد صلاة الامام فى المسجد الحرام ، وباحدى يديه سيف مسلول وفى الاخرى دبوس « فقصد ذلك الرجل الحجر الاسود ظانه يستلمه ، فضرب الرجل الحجر ثلاث ضربات بالدبوس وقال : الى متى يعبد الحجر الاسود ومحمد وعلى ؟ فلمعمعى مانع من هذا ! فانى أريد هدم البيت • فحاف أكثر الحاضرين ، وتراجعوا عنه • وكاد يفلت • فثار به رجل فضربه بخنجر . وقطعه الناس وأحرقوه • وفعل ممن انهم بمصاحبته جماعة وأحرقوا • وثارت الفتنة ••• وألح الناس ، ذلك اليوم ، على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب ••• فلما كان الغد ماج الناس واضطربوا ، وأخذوا أربعه من أصحاب ذلك الرجل • فقالوا نحن مانة • فضربت أعناق هؤلاء الاربعة » • (17)

كذلك لم تنقطع ظاهرة ادعاء الربوبية بعد مقتل الحلاج فقد ادعاها الشلمغانى لنفسه • ثم ادعاها احد الحلاجيه فى القرن الخامس الهجرى كما أشرنا الى ذلك من قبل ويمكن القول بان هاتين الظاهرتين ، أعنى ظاهرة ابطال فريضة الحج وظاهرة ادعاء الالوهيه هما الظاهرتان الغالبتان فى المجال الدينى طيلة القرنين الرابع والخامس الهجريين • وقد جمع الحلاج بين هذين الامرين ، ثم اختلف الناس فى تفسير مقتله ، أكان بسبب محاولته اسقاط فريضة الحج ، أم كان بسبب ادعائه الالوهية ؟ لكن يبدو أنه كان يريد الامرين معا . فانه يصرح بأنه يدين بمذهب الحلول ، ويعترف بأنه يريد صرف الناس عن الحج أليس هو الذى يقول :

عـلى دين الصليب يكـون مـوتى ولا البطحـا أريـد ولا المدينة ؟

فهـو ، عندما يجمع بين الامرين ، لا يفعل سوى أن يسير فى الاتجاه العام لكل من حركة القرامطة والدعوة الفاطمية ، وان استعان فى سيرته هذه بالسحر والتصوف **فى الوقت نفسه ، على نحو ما يعترف له بذلك أنصاره وخصومه، وعلى نحو ما كشفنا عنه** من حاننا عن حقيقة صلته بالقرامطة من دراسة ماسينيون •

(17) نفس المصدر ج 9 ص 114 ـ 115 .

(18) أنظر الأصالة عدد 57 .

حســـان بن النعمـــان
ودوره فى نشر الاســـلام بالمغـــرب

صالـح بن قـربة
معهد العلوم الاجتماعية
دائرة الدراسات التاريخيه والآثار
جامعـه الجـزائر

مقـــدمة تاريخية :

لعل أول اتصال بين المغرب العربى ، والحيـاة العربية تم عن طريـق الفتـوح الاسـلامية • هذه الفتوح التى كانت حركة عظيمة الاثر فى تاريخ شمال افريقية ، وغرب افريقية والاندلس • وقد تدفق تيار هذا الفتح الى جنوب فرنسا ، وصقلية فى فترة حـكم الاغالبة ، بل وصل الى جنوب ايطاليا ، وانتشر النفوذ الاسـلامى فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط فى مختلف الجزر المنتشرة فيـــه •

هذه الفتوح التى قد تخللتها معارك حربية فى البـــر مثل (سبيطلة ، وبهودة فى المغرب) ومعارك بحرية حاسمة مثل (قرطاجنه فى تونس وقاعدتى طنجة وسـبتة فى المغرب الاقصى) • هذه المعارك المصيرية التى خرج منها المسلمون منتصرين •

وللوقوف على أسباب هذه الانتصارات ، لا بد من دراسة الاوضاع الحربيه فى بلاد المغرب ساعه اصطدامها بالعرب الفاتحين ·

ولا شك ان هذه الفتوح تلتها هجرات عربيه · وظاهـرة الاختلاط بين شـعوب من سلالات مختلفة ، سينرتب عنها فيما بعد ظهور الثقافه العربيه · ولمعرفة الظواهر التى صاحبت الفتوح الاسلامية فى البلاد ينبغى القاء نظـرة سريعه على الأوضـاع الحربية والدينيه والثقافيه حتى نقف على بعض الصعوبات التى واجهت المسلمين فى الفتح ·

أ ـ النظام الحربى فى شمال افريقية :

من دراستنا للتاريخ البيزنطى فى افريقيه اتضح لنا أن الدفاع عن المغرب ضد أى غزو خارجى كان يعتمد على القواعد البحريه وسلسله من الحصون والقلاع التى تمتد على الساحل من اقليم برقة الى مدينه طنجة · نستـنتج من هذه الظاهرة ان معارك الفتح الاسلامى فى شمال افريقية سنكون بحريه تعتمد على الاسطول القوى أكثر منها معارك برية ، وعليه فان الفريق الأقوى اسطولا والامنع حصونا سنكون له الغلبة ·

ولهذا فان غزوات المسلمين البريه فى افريقية كانت مجرد غارات خاطفة وانتصارات سريعة ·

لقد دخل المسلمون اقليم تونس منجنبين الحصون والقلاع الساحلية ، فانشأوا مدينة القيروان بعيدا عن الشريط الساحلى ، واتخذوها حاضرة للمغرب الاسلامى فيما بعد · ولعل سبب هزيمة عقبـة بن نافع الفهرى ومن بعـده زهير بن قيس البلوى ، يعود الى افتقارهما الى القوة البحرية ، فضلا عن مرارة الكفاح فى شمال افريقية (2) ·

وقد أدرك المسلمون أهمية هـذا العامل فى عهد الخليفة عبد الملك بن مـروان ·

ب ـ الحـالة الثقافيـة :

وهناك حقيقة أخرى جديرة بالدراسـة وهى أن تأثير الثقافة الاغريقية اللاتينية قد بدأ تضعف الى حد بعيد ، بالرغم من جهود البيزنطيين فى احياء هذه الثقافة ·

2 ـ ابراهيم طرخان : المسلمون فى اوروبا ، ص 59 ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 45 ·

ونلاحظ بان ظاهرة الثقافة اللاتينية سادت وانتشرت في المنطقة الساحلية فقط ولم تتوغل نحو الداخل والجنوب . ولعل السبب في ذلك ان البيزنطيين لم يعملوا على نشر الثقافة في قلب البلاد .

وراحوا يقيمون سلسلة من القلاع خلف الشريط الساحلي لحمايتهم من هجمات البربر .

هذا بعكس الثقافة العربية التي تمكنت من المغرب كله ، وصبغت الفتوح الاسلامية الثقافة المغربية بالصبغة الاسلامية الخالصة .

3 ـ الحالة الدينية .

من الحقائق التاريخية التي لا تقل أهمية عما اشرنا اليه سابقا ، ظاهرة تضاؤل شأن الكنيسة المسيحية في بلاد المغرب . هذه الكنيسة التي ابتدت في الماضي البعيد اعلاما أمثال القديس أغسطين Augustine

ولعل من عوامل تضاؤل شأنها أنه لم تنتشر نفوذها الا في المنطقة الساحلية فقط ، بالاضافة الى ما تعرضت له الكنيسة من الاضطهاد في فترة حكم الوندال الذين شردوا اساقفتها وحرموا على المسيحيين ممارسة دياناتهم والجهر بشعائر دينهم ، وعندما استعاد البيزنطيون حكم المغرب عقدوا اجتماعا لم يحضره الا (217) اسقف بعد ان كان عدد الاساقفة قبل سيطرة الوندال لا يقل عن (500) .

ولعل السير توماس جبر من يفسر لنا هذه الظاهرة حيث يقول : « فمن اللازم ان نلتمس الاسباب التي مهدت السبيل الى تدهور المسيحية في شمال افريقية في شيء آخر اكثر مما نلتمسها في تعصب الولاة المسلمين .

ولكن قبل أن نحاول تبسط هذه الاسباب علينا أن نتبين كيف أن عدد الاهالي المسيحيين في نهاية القرن السابع الميلادي كان لا بد ان يكون قليلا جدا ـ وهذه حالة تجعل استمرار بقائهم في ظل الحكم الاسلامي أقوى دلالة على انعدام وسائل العنف والاكراه في التحول الى الاسلام » (3) .

---

3 ـ ارنولد توماس . الدعوة الى الاسلام ، ص 144

وحدث قبل أن يتقدم المسلمون الظافرون من مصر لاخضاع الولاية المغربية بعام أى فى سنة 646 م أن الكنيسة الافريقية التى ناضلت كثيرا فى سبيل تطهير العقيدة المسيحية د انارها الى أبعد حـــد ما قام من صراع بين المذاهب ، ومن المؤكد أن النقص فى عدد إساقفه يدل على نقص كبير فى عدد الاهالى المسيحيين ٠

ومن الاعتبارات التى ذكرناها من قبل يمكن ان نستنتج فى شىء من التأكيد أن الاهالى مسيحيين فى وقت الفتح الاسلامى لم يكن عددهم كبيرا بحال من الاحوال ٠

وقد ظل عدد الاهالى المسيحيين فى خلال الخمسين عاما التى انقضت قبل ان يحـرز مسلمون انتصارهم بنقص سيئا فشيئا من جراء ما أصابهم من أعمال التخريب فى هذا زاع الطويل ٠

وكان من جراء ذلك ان المغاربه ، لم يناضلوا خلف كنيسة قديمة تتفاعل عقدتها فى سهم ، ولعل ذلك يفسر السرعه المذهله لانتشار الاسلام فى البلاد ، فقد كان اقليـم غرب من اسرع الاقاليم دخولا فى الاسلام ٠

ـ سكان المغرب :

استكمالا للموضوع نضيف هنا ظاهره انقسام سكان البلاد الى طائفتين ، لان هـذا صوع سيتيح لنا فهم كثير من ظروف هذا الشعب وسرعة اندماجهم فى الحياة الجديدة ، ك أن أهل البلاد الاصليين كانوا فريقين يختلفان فى كثير من مظاهر الحياة الاجتماعية إقتصادية والدينية وغيرها ، فقد كان فريق منهم يقيم فى المناطق السهلية التى تحف ساحل ومن ثم احتكوا بالمدن وامتهنوا الزراعة والتجارة ٠

كانت دياناتهم المسيحية وثقافتهم الاغريقية اللاتينية ، كما كانوا الحلفاء الطبيعيين زنطيين ، وهم الذين قاوموا الفتوح الاسلاميه ، دفاعا عن تراثهم الدينى والحضارى ، م ينهزموا الا فى معركة قرطاجنة ، ويطلق على هذا الفريق فى المصادر التاريخية اسم لمرانس » ٠ (4)

ـ ارنولد توماس : الدعوة الى الاسلام ، ص 46 و 47

اما العرق البربري الذي يطلق عليه اسم « البتر » (5) · كان يقيم في المناطق الداخلية ، خلف خط القلاع البيزنطية ، وهم بدو يحبون حياة اقرب الى حياة البدو العرب في شبه الجزيرة العربية · وهؤلاء وثنيون والبعض منهم قد اعتنق اليهودية · أي انهم كانوا اعداء طبيعيين للحكم البيزنطي ومؤيدين للفتح الاسلامي ·

وقد رحب المسلمون بعد انتصارهم على البيزنطيين في معركة قرطاجنة الى محالفة هؤلاء البدو واشركوهم في الحقوق والواجبات . فقد كانت استجابة هؤلاء للدعوة الاسلامية عاملا من عوامل انتصار المسلمين ·

وبعد أن القينا على دائر هذه الصورة الموجزة للاوضاع الداخلية في المغرب قبيل الفتوح الاسلامية · نجدر بنا قبل التعرض لموضوع بحثنا « حسان بن النعمان ودوره في نشر الاسلام بالمغرب » ان نعرض في ايجاز للاوضاع الداخلية في الدولة الاسلامية ، التي على ضوئها يمكن فهم طول مدة الفتح لبلاد المغرب · هذه الفتوح التي تميزت بظاهرة المد والجـــزر ·

لعل السبب في ذلك يكمن في الحالة الداخلية للدولة الاسلامية الناشئة ، فالملاحظ من خلال استعراض مراحل الغزوات البرية بين عامي (27 هـ ـ 82 هـ/643 ـ 690 م) ارتباطها بالاوضاع الداخلية للجماعة الاسلامية ·

فالزحف الاسلامي نحو شمال افريقية كان يتوقف حينا ، ثم يستأنف ســـيره حينا آخر · فكان الفتح يتوقف وقت فقدان الوحدة الاسلامية ، وانشـــغال الخلفاء بالاحداث والفتن الداخلية . فكلما توفرت هذه الوحدة نجد الفتوح تتقدم في ظلها ·

لقد بدأت الموجة الاولى من حملات الفتح الاسلامي في عهد الخلفاء الراشـــدين ، واستطاع المسلمون ان يستولوا على الشام والعراق ومصر في ظل الوحدة الاسلامية والايمان الراسخ بالاسلام والجهاد في سبيل الله ·

5 ـ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 261

ثم توقف تيار الفتح عام (35 هـ/655 م) على اثر مقتل الخليفة عثمان بن عفان وحدوث الفتنة الكبرى ، وعندما تمكن الخليفة معاوية بن ابى سفيان (41ـ60 هـ) من استعادة الوحدة ، تواصل الفتح من جديد ٠

ولهذا تعتبر العصر الاموى عصر الفتوح الحقيقية للمغرب ، فهذا معاوية بن أبى سفيان أول الخلفاء الامويين يعهد لمعاوية بن حديج ومن بعده عقبة بن نافع على ولاية افريقيه (50 هـ/670 م) والتى توجتها انتصارات عقبة بتأسيس أول مدينة اسلامية فى افريقية وهى القيروان ٠

ثم توقف الفتح بحدوث الفتنة الثانية (عام الجماعة الثانى) فى الفترة الواقعة بين وفاة الخليفة بن معاوية وتولية الخليفة عبد الملك بن مروان (65 هـ ـ 86 هـ) ـ وكانت الحالة السياسية عندما جاء هذا الخليفة مضطربة وجد سيئة فلم يكن تابعا للدولة الاموية سوى (مصر والشام) اما فيما عدا ذلك فقد تقاسم الدوله ، الزبيريون فى الحجاز والعراق ، والخوارج فى منطقة الاهواز ، واستطاع عبد الملك ان يقضى على الفتن والثورات التى هددت الدولة بالزوال ، واصلح الاوضاع الاداريه والاقتصادية وصبغ الدولة بالصبغة العربية الخالصة ٠

الحالة السياسية فى افريقيه قبل مجيئ حسان بن النعمان :

لقد خلف حادثه مقتل عقبه بن نافع فى معركة تهودة آثارا سيئة فى نفوس المسلمين ، والتى ترتب عنها فقدان المسلمين لافريقية التى سبق لهم أن فتحوها ونشروا الاسلام بين ظهرانيها ، وبالرغم من المشاكل الداخلية التى واجهت الخلافة ، صمم عبد الملك بن مروان ارسال جيش اسلامى الى افريقية واسند قيادته الى زهير بن قيس البلوى (6) لاعادة بسط نفوذ الخلافة على هذه المنطقة التى أظلها الاسلام ٠ ارسل الخليفة عبد الملك الى اشراف العرب ليحشدوا له الناس من الشام ، واوقف لذلك عمال مصر ، فسارع الناس

ـ ابن خلدون : العبر ، ج 4 ، ص 399 ـ Diehl : L'Afrique Byzantine, pp. 578-580.

الى الجهاد في سبيل الله . وأمرهم أن يلحقوا بزهير فلما وصلوا اليه خرج بهم الى افريقيه (7) .

وأما تاريخ هذه الحمله فمعظم المؤرخين بخلاف ابن خلدون (8) فيجعلونها عام 69 هـ .

وكان عمل زهير أعظم الاهميه من الناحيه السياسية ، لانه سار على خطة ثابته واضحه ، قضى على مقاومه الشمال وهم اقوى عناصر المقاومه، الا أن زهير رغم هذا الانتصار الرائع قد اغفل شأن الروم وهم عنصر المقاومة الثانى ، فلم يعمل حسابا لذلك . لان قوتهم قد اضمحلت منذ زمن طويل ، ولم يكن يتوقع أن يستيقظ الروم مرة أخرى ويعودون الى استرداد البلاد من جديد ، ففاجأته هذه المفاجأه التى أودت بحياته فى برقه (9) .

ولهذا كانت طاهره استشهاد زهير بن قيس البلوى على يد الروم عبره لخلفه للعمل على تجنب الاخطاء التى وقع فيها سابقوه . واتخاذ الخطه التى ينبغى أن يسلكها فى فتح افريقيـة .

اذن لقد أدرك المسلمون فى حادث مقتل زهير بن قيس البلوى، أنه لا يتم فتح البلاد الا بالقضاء على مقاومة الروم وتخليص افريقيه من كل آثارهم .

ومن الواضح أن حركه مقاومه البيزنطيين فى شمال افريقية كانت تتأرجح بين القوه والضعف ، نظرا لظروف البيزنطيين فى القسطنطينة وافريقية كذلك .

فعند معركة (سبيطله) التى أحرز فيها المسلمون نصرا عظيما ، توقفت المقاومه البيزنطيه وقتا طويلا ،

وذلك راجع لانشغال البيزنطيين بنزاعهم مع المسلمين فى المشرق .

7 ـ المالكى : رياض النفوس ، ص 9

8 ـ يحدد ابن خلدون سنة 67 ، كتاريخ لهذه الحملة : العبر ، ج 6 ، ص 217

9 ـ الدكتور حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب ، ص 232 .

ولما خفت حدة صراع الروم فى المشرق ، نشطت مقاومتهم فى المغرب ، وهذا ما لوحظ فى حمله عفيه البانية ، وأعقب دلك محـــاولة الامبراطورية البيزنطيـة استعـــادة افريقيه (10) • ووصول الاسطول البحرى الذى صادف زهيرا فى برقه فقضى عليه •

ووصول الاسطول البحرى الذى صادف زهيرا فى برقه فقضى عليه •

ومعنى هذا انتصار الروم على المسلمين ومحاولة اعادة السيطرة على شمال افريقية •

على ضوء ما سبق يتضح لنا ان مهمه الفاتح الجديد لافريقية ستكون صعبة وان يبذل كل قواه لمواجهة خطر الروم ، والذى سيقرر مصير افريقية • ومن ثم تكون حدا فاصلا بين افريقيه البيزنطيه ، وبين افريقيه الاسلامية •

حملة حسان بن النعمان على افريقية :

كان حادث استشهاد زهير بن قيس البلوى فى برقه على يد الروم البيزنطيين عظيم الاثر فى موقف الخلافه الاسلامية فى افريقية ، وستكون هى الباعث على اتمام فتحها والمحافظه على قوة الخلافه وهيبتها أمام الروم ، خاصه بعد ان هزمت جيوش المسلمين وقتل قوادهم على يدى الروم . وهذا هو السبب الرئيسى الذى دفع بالخليفه عبد الملك ارسال الجيوش الى افريقية •

وبعد ان بينا الاوضاع السياســـية فى افريقيـة . ننتقل الآن الى الحديث عن حمله حسان بن النعمان الذى اسندت اليه مهمة اتمام الفتح فى هذه المنطقة النائية •

وتتساءل الآن متى كانت هذه الحمله ؟

لا يختلف المؤرخون العرب فى نسبه هذه الحملة الى حسان بقدر اختلافهم فى الزمن الذى تحـــركت فيـه •

ويمكن الوقوف على طبيعه هذا الاختلاف فى عبارة ابن عذارى التالية : « وغزوات حســان لم تنضـــبط بتاريخ محقق ، ولا فتحه لمدينـــة قرطاجنـــه وتونس ولا قتله الكاهنة » (11) •

ـ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 232 •
ـ ابن عذارى : البيان المغرب ، ج 1 ، ص 39 •

وقد أورد كل من ابن عبد الحكم الذى ذكر أن الحملة قد سارت عام 73 هـ (12 وانتهت عام 76 أو 78 هـ . وابن الاثير حددها بعام 74 هـ (13) .

كما تضاربت آراء المؤرخين الاوروبيين أيضا فى تحديد زمن قيام هذه الحملة .

فلبحث سبب الاختلاف ، ربما يرجع ذلك الى أن حسانا قام بحملتين اثنتين لا حملة واحدة ، فتح فى الاولى قرطاجنه ثم اتجه نحو الكاهنة فانهزم ، واتجه فى الثانية نحو الكاهنه ثم فتح قرطاجنة مره أخرى ، فاختلط الامر على المؤرخين لتشابه أعمال الرجل فى كلتيهما (14) .

فاختلفوا بين السنوات التى انفصلت بين مسيره الاول وحملته الثانيه ، ويبدو أن الخليفه عبد الملك بن مروان قد أعد حمله حسان بن النعمان ، ثم ابقاها فى مصر فترة من الزمن نظرا لما كان يحيط بدولته من اخطار ، ولما استقرت له الامور فى الدولة ، أمر حسانا بالمسير فسار .

اعتقد المؤرخون ان حسان بن النعمان سار الى افريقية بمجرد ما أمره عبد الملك على الجيش . هذا ما ذهب اليه الدكتور حسين مؤنس حول ظاهرة الاختلاف هذه .

والحقيقة ان الخليفة عبد الملك بن مروان لم يفكر فى الاهتمام بشؤون افريقية بجدية الا بعد أن قضى على ثورة ابن الزبير عام (73 هـ) .

اذ ليس من المعقول ان يتخلى الخليفه عن هذا الجيش الكبير الذى بلغ تعداده اربعين الفا ، هذا اذا اضفنا الى ذلك الاخطار التى كانت تحيط بالدولة من جهة الخوارج

12 ـ ابن عبد الحكم : فتوح افريقيا والاندلس ، ص 62

13 ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 31 ، أما ابن خلدون فيجعلها سنة 69 هـ ـ العبر ، ج 6 ، ص 212 ـ ابن عذارى 78 هـ ، البيان المغرب ج 1 ، ص 34 ـ المالكى عام 69 هـ (رياض النفوس ، ص 31) . وأما ابن ناجى والدباغ فيجعلونها سنة 69 هـ ـ واما ابن ابى دينار القيروانى فقد تردد بين سنوات (76 هـ ـ 77ـ79 هـ) المؤنس ، ص 33 ـ النويرى 74 هـ ـ البكرى عام 68 هـ ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب .

14 ـ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 235 .

والشيعة ، لذلك نرجح ان الخليفة قد أعد هذه الحملة وأذن لها بالمسـير الى افريقية فى حدود (76 هـ) بعد ان أخمد الفتن والثورات واعاد الوحدة السياسية للدولة ، يعنى ان تفكير الخليفة فى هذا الامر لم يكن الا بعد عام (74 هـ) ٠

ولعل المؤرخين البيزنطيين نيوفانيس ونقفور اللذين أورد المؤرخ ديل رأيهما يلقيان بعض الضوء على تحديد تاريخ هذه الحمله ، اذ يتفقان على أن حسان بن النعمان هاجم مدينة قرطاجنة للمرة الاولى سنة 695 التى توافق سنة 76 هـ ٠ (15)

ويتفق رأى القيروانى مع رأيهما ، كما أن المؤرخ الفرنسى كودل قد وافق على ذلك التـاريخ (16) ٠

سنخلص من هذه الآراء ان الفتـرة الزمنيه لحمله حسـان تكون بين (76 هـ ـ 78 هـ) (17) ٠

حسان بن النعمان الفاتح الحقيقى للمغرب :

تتصل نسب حسان بن النعمان بالغساسنة الذين استقروا بالشـام قبل ظهور الاسـلام (18) ٠

فالمصادر التى أرخت للفتوح الاسلامية فى شمال افريقية لم تتحدث عنه قبل هـذه الغزوة فالمالكى يقول وهو : « أول من دخلها من أهل الشام فى زمن بنى أمية » (19) ٠

ويفهم من عبارة المالكى ان حسان بن النعمان كان من المقربين للبيت الأموى الذين يثق فيهم ، عرف بالشيخ الأمين كما ذكر بن ناجى والسلاوى ٠

---

(15) Diehl : *L'Afrique Byzantine*, p. 584.

(16) Caudel : p. 150.

17 ـ ابن عذارى : حدد حملة حسان بعام 78 هـ (البيان المغرب ، ج 1 ، ص 34) ٠

18 ـ هو حسان بن النعمان بن عدى بن بكر بن مغيث بن عمرو بن مريقيا بن عامر بـن الأزد : جمهرة انساب العرب ، ص 321 ـ ابن عذارى (البيان ، ج 1 ، ص 34)
ـ ابن خلكان (وفيات الاعيان ، ج 4 ، ص 439) ٠

19 ـ رياض النفوس ، ج 1 ، ص 31 ٠

واختيار حسان كقائد لغزو افريقية يدل على أنه كان قائدا محنكا سبق له ان خاض معارك بطولية طويلة . لان الظروف السياسية والحربية في غرب البحر الابيض المتوسط التي سبب فشل القاده المسلمين في هذا الميدان قبله . ويؤكد هذا الرأى الخليفة عبد الملك بن مروان عندما سئل فيمن يولى أمر افريقية قال . « ما أعلم أحدا أكفأ بافريقية من حسان بن النعمان الغسانى » (20) .

لهذا اختاره لاتمام فتح افريقيه . هذا الفتح الذى انقضت عليه حتى الآن خمسون سنه دون ان يحقق المسلمون أية نتيجه .

وكان اهتمام الخليفه كبيرا بالجيش الذاهب الى شمال افريقية كما يتضح لنا ذلك من قول ابن الاثير الآتى « فلما علم عبد الملك قبله (زهير) عظم عليه وعلى المسلمين وأهمه ذلك وشغله عن افريقية ما كان بينه وبين ابن الزبير ، فلما قتل ابن الزبير ، واجتمع المسلمون عليه جهز جيشا كبيرا واستعمل عليهم وعلى افريقيه حسان بن النعمان الغسانى . وسيرهم اليها فى هذه السنه (74 هـ) فلم يدخل افريقية قط (كذا) جيش مثله » (21) .

لم يبالغ ابن الاثير فى وصف هذا الجيش الذى بلغ عدده أربعين ألفا (22) .

ولا شك أن الخليفه عبد الملك قد أمر قائده حسان ان يتوقف فترة بمصر خوفا من قيام فتن أخرى . وحول هذه النقطه يقول ابن عذارى . « وفى سنه 78 هـ قدم حسان بن النعمان افريقيه اخيره لها عبد الملك بن مروان وقدمه على عسكر فيه اربعون ألفا وأقامه أولا فى مصر بالعسكر ، عده لما يحدث . ثم كتب اليه يامره بالنهوض الى افريقية

20 ـ المالكى : المصدر السابق ص 31 .

21 ـ ابن الأثير . الكامل فى التاريخ ، ج 4 ، ص 31 .

22 ـ يتفق كل من ابن عذارى والنويرى والقيروانى وابن ناجى والسلاوى على ان عدد الجند الذين قدموا الى افريقية مع حسان كان (40 الفا) . بخلاف المالكى الذى ذكر ان عدده ستة آلاف فارس فقط . وتقدير المالكى غير صحيح باتفاق المؤرخين .
ـ انظر أيضا :

G. Marçais : *La Berbérie de l'Orient au Moyen-Age*, pp. 33 - 34

ويقول له : انى اطلقت يدك فى أموال مصر فاعط من معك ومن ورد عليك ، واعط الناس ، واخرج الى بلاد افريقية ، على بركة الله وعونه » (23)

والسؤال الذى يتبادر الى الذهن الآن هو متى أمر الخليفة قائده حسان بالبقاء فى مصر ، وفى أية فترة زمنية أذن له بالمسير الى افريقيه ؟

الواقع ان حسانا لم يقض هذه الفترة فى مصر دون العمل على تجهيز جيشه وأخذ كل الاستعدادات لهذا الدور الهام الذى ينتظره ·

يتجلى ذلك من عباره ابن عذارى السابقة الذكر أن حسانا كان يعمل جاهدا على جمع عدد اكبر من المصريين للانضمام الى هذا الجيش الغازى « فاعط من معك ومن ورد عليك » مما يجعل هذه الحمله أكبر قوة تدخل افريقيه منذ بداية الفتوح الاسلامية لها ، والتى ستقرر مصيرها السياسى والدينى ·

ما يزال الغموض يكتنف تاريخ انطلاق الحملة من مصر الى افريقية ، لان غزوات حسان لم تنضبط بتأريخ محقق كما قال ابن عذارى · وتستحق الدراسة والتحقيق ·

الصراع بين المسلمين والبيزنطيين :

بعد تحرك الحمله من مصر ، سلك حسان نفس الطريق التقليدى ، فاجتاز برقة وطرابلس دون مقاومة ، حتى وصل الى سهل تونس ، ويظهر ان هذا القائد قد رسم الخطه التى سيسلكها ، وهى الاتجاه نحو الشمال ، حيث قرطاجنة مركز نفوذ البيزنطيين ·

ونذكر بان بعض البربر قد انضموا الى جيش حسان بدليل قول ابن عبد الحكم : « مضى فى جيش كبير حتى نزل طرابلس ، واجتمع اليه بها من كان خرج من افريقية وطرابلس فوجه على مقدمته محمد بن ابى بكير ، وهلال بن ثروان اللواتى » (24) ·

وهلال هذا لا نجد له ذكرا فى المصادر الاسلامية ، بانفراد ابن عبد الحكم ، كما ان حفيفة هذا اللواتى لم يبينها لنا هذا المؤرخ ·

23 – ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 34 ·
24 – ابن عبد الحكم : نفس المصدر السابق ، ص 62 ·

ولكن ورود هذا الاسم يلقي الضوء على بعض الحقائق التاريخية . منها ان هلالا اللواتي كان مسلما وانضم الى جانب المسلمين وناصرهم فاعطوه القيادة في جيشهم ، ويدل هذا الاسم كذلك على أن معظم أنصار المسلمين في مسيرهم هذا كانوا من البربر البتر .

واصل حسان مسيره حتى بلغ مدينة القيروان قاعدة الاسلام . ودلت الاحوال السياسية على عدم وجود أية مقاومة بربرية في القيروان ، الامر الذي ساعد العرب على ايجاد خطة حربية للقاء العدو .

وقد ذهب المؤرخ الفرنسي (ديل Diehl) بان البيزنطيين عندما استولوا على برقة استطاعوا ان يعيدوا الولاية الداخلية . ولكن الظروف السياسية تنفي ذلك ، اذا لو كان الروم قد استولت على افريقية لوجد المسلمون مقاومة في طريقهم الى القيروان .

ولعل خطة حسان في الحرب تتجلى في رواية عبيد الله بن صالح حيث يقول : « ... فسار حتى دخل القيروان ، فسأل عن اي ملك عظيم يسوسه بالمغرب الاوسط فقيل له « ملك قرطاجنة » بين تونس وقرطاجنة اثنا عشر ميلا ، وبين تونس والقيروان مائة ميل ، فذهب حسان حتى دخلها بالسيف فجمع من حولها وحربوها » (25) .

ويفهم من رواية عبيد الله بن صالح ان الزعامة ومركز القوة كانا في الشمال حيث قرطاجنة التي استعادت قوتها .

الواقع ان البيزنطيين لم يستوعبوا مفاجاة المسلمين لهم بهذه السرعة . ويبدو أن سير حسان الى قرطاجنة قد أرعب الروم وبعض البربر فأسرعوا نحوها ، وهذا المؤرخ ابن الأبار يصور لقاء المسلمين بالروم أصدق تصوير حيث يقول «فلما ورد القيروان تجهز منها وسار الى قرطاجنة ، وكان صاحبها اعظم ملوك افريقية ولم يكن المسلمون قط حاربوها : فلما وصل اليها رأى بها من الروم والبربر ما لا يحصى كثرة فقاتلهم وحصرهم وقتل منهم كثيرا ، فلما رأوا ذلك اجتمع رأيهم على الهرب فركبوا في مراكبهم وسار بعضهم الى

25 ـ عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد عام 1954 ، ص 221 .

صقلية وبعضهم الى الاندلس ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب وقتلهم قتلا ذريعا . وارسل الجيوش فيما حولها فاسرعوا اليه خـــوفا فأمرهم فهدموا من قرطاجنة ما قدروا عليه ثم بلغه ان الروم والبربر قد اجتمعوا فى صطفورة ، وبنزرت وهما مدينتان فسار اليهم وقاتلهم ولقى منهم شدة » (26) .

ونستنتج من كلام ابن الأثير ظهور عنصرين قويين فى هذه الحرب هما البربر والروم وتحالفهم على حرب المسلمين ، لذلك نرى حسانا يبذل كل مجهوده فى القضاء على هذا التحالف ، فانتصر العرب على البيزنطيين وسقطت قرطاجنة أقوى معقل بيزنطى فى شمال افريقيـــه .

كما يفهم كذلك بان المسلمين لم يسبق لهم أى اتصال بقرطاجنة منذ دخولهم الى شمال افريقيه ، وان حسانا هو أول فاتح مسلم طرق أبواب قرطاجنة .

وبعـــد أن قضى عـــلى فلول الروم والبربـــر ، عـــادر الشمال عائـــدا الى القيروان ، ولكن الروم عادوا الى قرطاجنـــة للاعتصـــــام بها ، ذلك ان البيزنطيين لم يهدفوا باخلاء قرطاجنه تركها الى الابد فى أيدى المسلمين . وانما بنوا فى انفسهم الهجوم عليها مره أخرى بعد خروج حسان منها (27) .

فحصنوا المدينة من جديد للاعتصام بها ، وعندما علم حسان اسرع بمن معه مرة أخرى الى قرطاجنة كما يتضح ذلك من نص ابن عذارى التالى : « فرحل اليها حســـان ونزل عليها فحاصرها حصارا شديدا حتى دخلها بالسيف فقتلهم قتلا ذريعا ، وسباهم ونهبهم، وارسل الى حواليها ، فاجتمعوا اليه مسارعين ، خوفا من عظم سطوته ، وشدة بأســـه ، فلما أتوه ولم يبق منـــهم أحد امرهم بتخريب قرطاجنـــة وهدمها حتى صـــارت كأمس الغـــابر » (28) .

26 ـ ابن الأثير : المصدر السابق ، ج 4 ، ص 31 Diehl op. cit. p. 583.
ـ هنرى ماسيه : الاسلام (مترجم) ، ص 70 .
– Georges Sotrogorsky : *Histoire de l'Etat Byzantin,* pp. 169 - 170.
– *Encyclopédie de l'Islam,* T. 3, p. 279.
27 ـ البكرى : (المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب) ، ص 37 .
28 ـ ابن عذارى : المصدر السابق نفس الصفحة .

ونلاحظ ان ابن عذارى يبالغ كثيرا فى وصف خراب قرطاجنة . ولكن الاحداث التى سيأتى ذكرها تدل على ان المسلمين لم يخربوا المدينة كلها . بل يغلب على درجة كبيرة من الظن ان الروم سيتحصنون خلف اسوارها بعد ذلك فى فترة انشغال المسلمين بحرب الكاهنة . بعد ان تمكن حسان من طرد البيزنطيين والبربر الذين التجأوا الى مدينتى (باغاية وبونة) عاد الى القيروان . ليستريح جنده من هذه الحرب الطويلة ، غير مدرك ان الروم ما داموا يحتلون بعض الحصون على الساحل يمكنهم الاتصال بالامبراطورية البيزنطية لطلب النجدة ، معتقدا بان الناحية الشمالية قد خلصت للمسلمين .

ومن القيروان سينطلق المسلمون نحو المنطقة الداخلية « جبل أوراس » .

موقف السكان من الفاتحين المسلمين الاوائل :

قبل التحدث عن تفاصيل الصراع بين المسلمين والسكان فى شرق الجزائر ، يجدر بنا ان نلقى نظرة سريعة على الحالة السياسية فى هذه المنطقة . لنقف على عنف هذا الصراع الذى سيكون له آثار هامة على مصير هذه البلاد فيما بعد .

ولعل المؤرخ ابن خلدون خير من يصور لنا الحالة السياسية أصدق تصوير حيث يقول « واضطربت افريقية بارا . وافترق أمر البربر وتعدد سلطانهم فى رؤسائهم ، وكان من اعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة دهيا بنت ماتية بن تيفان ملكة جبل أوراس وقومها من جراوة ملوك البتر ورعمائهم » (29) .

اذن هذه صورة الاوضاع السياسية فى المغرب الاوسط ، فماذا عن الوضع السياسى فى القيروان ؟

لم تكن حسانا تعلم بأمر الكاهنة وقومها . ويؤكد هذه الحقيقة المؤرخ ابن عذارى فى النص التالى . « لما دخل القيروان أراح بها أياما . ثم سأل أهلها عمن بقى من أعظم ملوك افريقية . ليسير اليه فيقتله أو يستسلم فدلوه على امرأة بجبل أوراس يقال لها الكاهنة

29 ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، ص 218 .

وجميع من بافريقية من الروم منها خائفون ، وجميع البربر لها مطيعون ، فان قتلتها دان لك المغرب كله ولم يبق لك مضاد ومعاند » (30) ·

ومبل أن نمضي في تحليل أسـباب هذا الصراع ، ينبغي لنا التعريف بهذه الملكة البربرية ·

شـخصية الكاهنـة :

ان هذه الشـخصية التاريخية ما زال يحيطها الكثير من الغموض وتضارب حولها الآراء ، وقد اختلفت وجهات نظر المؤرخين اختلافا بينا حولها ، فهناك من يميل الى انكارها أصلا معتمدا على ما ينسـوب اخبارها من أساطـير · ومن بين هؤلاء ليبو الذي ذهب الى أن الكاهنة ما هي الا البطريق يوحنا (31) · هذا رأي غير صحيح ، ولا تؤيده المصـادر الاسلامية التي اتفقت جميعها على وجود شخصية البطريق يوحنا الذي استولى على مدينة قرطاجـة من جهـة ، وأشارت في وضـوح الى الدور الذي لعبتـه الكاهنة في مقاومة المسلمين الفاتحين من جهة أخرى ·

ويؤكد وجود هذه الشخصية التاريخية ابن خلدون الذي يعتبر من اوثق المؤرخين في تاريخ البربر حيث يقول : « وكانت زناتـة أعظم قبائل البـربر وأكثرها جموعا وبطونا ، وكان موطن جراوة منهم بجبل أوراس ··· وكانت رياستهم للكاهنة دهيا بنت ماتيه ··· وكان لها بنون ثلاثة ، ورثوا رياسـة قومهم عن سـلفهم وربوا في حجرها فاستبدت عليهم وعلى قومها بهم ، وبما كان لها من الكهانة والمعرفة بغيب أحوالهم وعواقب أمورهم فانتهب اليها رياستهم » (32) ·

30 ـ ابن عذارى · نفس المصدر السابق ، ص 37 ·

31 ـ يقول ليبو : « أحاط العرب الذين يغرمون بغريب الحديث غراما شديدا ، قصة هذه الثورة بحور من الخيال فيذهبون كما تزعم روايتهـم الى انه كانت هناك ملكة للبربر تسمى الكاهنة تمكنت من هزيمة العرب أول الامر . وهذه الكاهنة كما استبان لنا من أوثق العلماء ليست الا البطريق يوحنا نفسه : أظهره المؤرخون في شكل امرأة لأنه كان خصيا » ـ حسين مؤنس : (فتح العرب للمغرب) تعليق ، ص 242 ·
ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، 17 و 18 ـ ويعرف ابن الأثير الكاهنة بقوله : « امـرأة تملك البربر تعرف بالكاهنة ـ وكانت تخبرهم باشـياء من الغيب ولهذا سـميت الكاهنة » ـ الكامل ، ج 4 ، ص 32 ·

اذن فلا شك ان الكاهنة حفيدة تاريخية ، كانت في بداية أمرها بالاحداث السياسية زوجة احد رؤساء قبيلة جراوة ، وبعد أن توفي زوجها هـــذا خلف لها ولدين احدهما بربري والآخر بيزنطي (33) أوصى لهما بالرياسة في القبيلة .

وكانت مهابة الجانب ، فاستطاعت أن تتولى الوصاية على ابنيها ، ولم تستأثر بالسلطة من ولديها كما ذكر ابن خلدون ، لان الأحداث التالية تؤكد عكس ذلك اذ كانت شديدة الحب لهما .

وقد ذهب بعض المؤرخين (34) الى وجود علاقة بين الكاهنة وكسيلة الاوربي وأن لها يدا في مقتل عقبة بن نافع الفهري وإذا صح هذا الرأي يكون احتكاكها بالمسلمين قد تم قبل هذه المقاومة .

ولكن الوقائع التاريخية لا تؤيد وجـــود علاقة بينهما ، بدليل ان مقاومة كســـيلة للمسلمين كانت تمثل زعامة البربر البرانس الذين اعتنقوا النصرانية وتشربوا الثقافة اللاتينية ، كما ان حركة كسيلة كانت تتسم بروح الانتقام والثأر لما اصاب زعيم البرانس من المهانة والذل على يد عقبة بن نافع ، في حين كان مضارب قبائـــل البتر بزعامة الكاهنة بعيدة عن النفوذ البيزنطي ، واحتفظت باستقلالها في الجبال والهضاب ، تعيش حياة قريبة خاصة بهم ، ويدين معظم افرادها بالديانة اليهودية (35) .

بعد ان أشرنا الى انعـــدام العلاقة بين حركة زعيمة قبيلة أوربية البرانسية وبين حركة الكاهنة زعيمة قبيلة جراوة ، يجب أن نبين اسباب مقاومة زعيمة جبل الاوراس للمسلمين الفاتحين .

اذن فما هي دوافع حركتها وآثارها على الواقع السياسي في افريقية ؟

33 ـ ابن عذاري نفس المصدر السابق ، ص 27 ـ انظر ايضا :

— *Encyclopédie de l'Islam* , Art « Kahina », T 3. pp 67 68.

— Gautier E F. : *Le Passé de l'Afrique du Nord*, pp 258-262

34 ـ ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 6 ، ص 17 ـ 18 .

35 ـ ابن خلدون نفس المصدر ، ج 6 ، 108 .

لكاهنة زعيمة منطقة أوراس :

من خلال الاحداث والوقائع الماثلة يتضح لنا أن مقاومة السكان بزعامة الكاهنة كانت ذات طابع محلي ، اذ لم تكن قبيلة جراوة تعرف أهداف المسلمين ورسالتهم في شمال بقبة ، الامر الذي جعلها تخوف من اقتراب المسلمين من موطن استقرارها بالاوراس، ما جعلهم يستعدون بكل قوتهم لمقاومة المسلمين دفاعا عن استقلالهم وحريتهم ·

والظاهر أن الكاهنة لم ترفع رايتها العصيان الا عندما بلغتها أخبار قدوم المسلمين صوبهم اليها ·

هذه البطلة البربرية التي يسميها عبيد الله بن صالح بـ « ملكة المغرب » (36) التي ثارت الآراء حول صحة ورفض فصلها والشك في حقيقتها ، لكونها امرأة ، فهذه حجة واهية باطلة ، اذ التاريخ يحدثنا عن بطلات من النساء سجلن أروع الصفحات في التاريخ البشري (37) ·

وقد بالغ كثير من المؤرخين في وصف سلطان هذه البطلة « وجميع من بافريقية من الروم منها خائفون وجميع البربر لها مطيعون ··· فان قتلتها دان لك المغرب كله » (38) ·

ويفهم من رواية ابن عذارى ، أن الكاهنة كانت تفرض سلطانها على كل بلاد المغرب ، كلام ابن خلدون في هذا الشأن أوضح اذ يؤكد لنا معالم حدود هذه المملكة البربرية بقوله . « وكان من اعظمهم شأنا يومئذ الكاهنة ··· ملكة جبل أوراس ويومها جراوة ملوك البربر وزعماؤهم » (39) ·

وأخيرا يحلو لبعض المؤرخين الفرنسيين الذين يعتبرون حركة الكاهنة حركة محلية مثل الخمس البربري الذي أبى الخضوع لسلطان المسلمين · ويذهب المؤرخ (كودل Caudel) بان حركة الكاهنة هذه أثارت شعورا وطنيا (41) ·

36 ـ عبيد الله بن صالح · (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) ، نشره ليفي بروفنسال في مجلة المعهد المصري بمدريد ، ص 228 ·
37 ـ الدكتور حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص 245
38 ـ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 36 ـ الدباغ : معالم الايمان ، ج 1 ، ص 61
39 ـ العبر ، ج 6 ، ص 218 ·
40 ـ حسين مؤنس · نفس المرجع ، ص 246
41 — Mercier, op. cit., pp. 214-215
— Courtel, op. cit., pp. 217-219.

والآن بعد أن عرفنا طبيعة هذه المقاومة وسماتها المحلية ، ننتقل الى الصراع بين الفاتحين المسلمين وسكان البلاد .

معركة وادي نبني :

ولما بلغها نبأ زحف المسلمين اليها أخذت تستعد لمواجهة الزحف المذكور .

ويذكر ابن عذارى بهذا الصدد « وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من الجبل في عدد لا يحصى ، ولا يبلغ بالاستقصاء وسبقته الى مدينة باغاية » (41) .

لقد تعجلت الكاهنة السير بجيشها الى مدينة باغاية الحصينة (التي تقع على سفح الجبل والتحكم في الدروب الموصلة اليه) ، لتكون على مقربة من قبيلتها جراوة في الاوراس كي تستمد منها العون وكانت خطة حسان هي المباغتة في الهجوم قبل أن يتم عدوه استعداداته ، وقد أخذ بهذا الاسلوب في حربه مع الكاهنة .

ولم تطمئن الى موقفها هذا فعمدت الى هدم مدينة باغاية حتى لا يتحصن بها المسلمون .

ويعتقد بعض المؤرخين ان الكاهنة كانت تعمل مع البيزنطيين على طرد المسلمين من افريقية في هذه الفترة .

والحقيقة أن سياسة التخريب هذه التي عزمت الكاهنة على تطبيقها تؤكد في جلاء ووضوح أنها لم تكن على صلة بالروم البيزنطيين اطلاقا ، لان سياسة هدم الحصون والقلاع التي تحيط بمدينة باغاية ، لا تقرها السياسة البيزنطية التي كانت تشجع السكان أثناء تحالفهم السابق الاعتماد على الحصون والمدن المنيعة لصد الزحف الاسلامي (42) .

وأما أسلوب الكاهنة في مقاومة المسلمين ، فهو عدم الاعتماد على الحصون والمعاقل ، وانما تفضل اللقاء في الارض الفضاء ومنازلة خصومها بنفس السلاح بالحراب والسيوف

41 ـ ابن عذارى : نفس المصدر ، ص 35 ـ 36 ـ ويذهب (Mercier) ان الكاهنة في فترة انشغال حسان بحروبه على قرطاجنة ـ كانت تجمع القبائل وتثيرها لقتال المسلمين .

42 ـ ابراهيم العدوى . الأمويون والبيزنطيون ، ص 245 .

وعبرهما، بعمى دلك عنف المقاومة التى سيواجهها المسلمون الفاتحون، اذا أخذنا فى الاعتبار الظروف التى كانت تحيط بجند حسان بن النعمان على اثر عودتهم من حرب قرطاجنة ، فلم يفكر حسان فى الاحتماء بالفلاع ، بل زحف اليها فالتقوا على نهر البلاء (43) ·

وعلى ضوء ما سبق يمكن تصور الطريق الذى سلكه حسان : خرج من القيروان وسار محاذيا « واد فكا » ، وسار حتى وصل تبسه على المجرى الاعلى لواد ملج · ومن تبسة اتجه شمالا نحو شرق واد كبير النهبرات الذى يصب فى « جرعة الطرف » وهناك عسكر وجعل ينتظر الكاهنة (44) ·

وحتى ندرك عنف المقاومة وضراوة القتال بين الفريقين فى هذه المعركة ، نأتى على وصف ابن عذارى لها حيث يقول : « فرحلت الكاهنة حتى نزلت على الوادى المذكور فكان هو يشرب من أعلى الوادى وهى من أسفله · فلما توافت الخيل ، دنا بعضهم من بعض ، فأبى حسان أن يقاتلها آخر النهار ، فبات الفريقان لبئتهم على صفوفهم ، فلما أصبح الصباح ، التقى الجمعان فتقاتلوا قتالا لم يسمع بمثله ؛ وصبر الفريقان صبرا لم يعنه أحد اليه ، الى أن هزم حسان بن النعمان ومن معه من المسلمين وقتلت الكاهنة العرب قتالا ذريعا · واسر من بنى رجلا من اصحابه وسمى ذلك الوادى وادى العذارى واتبعته الكاهنة حتى خرج من كل قابس » (45) ·

43 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، ص 62 ، وقد اختلف المؤرخون حول اسم المكان الذى جرت فيه احداث المعركة ، فابن الأثير يسميه نهر نينى (الكامل ج 4 ، ص 32) وابن خلدون يسميه مسكيانة (العبر ، ج 6 ، ص 28) ، ويروى عبيد الله بن صالح ، أن جيوش حسان والكاهنة « اجتمعوا الى وادى ترضى » · انظر : نص جديد عن فتح العرب للمغرب نشر Lévi - Provençal ، فى صحيفة المعهد المصرى بمدريد عام 1954 ، ص 222 · ويقول ياقوت فى معجم البلدان ، ج 5 ، ص 339 أن « نينى ··· هو نهر مشهور بافريقية فى أقصاها » · ويطلق السلاوى على هذا النهر اسم وادى ترضى (الاستقصا ، ج 1 ، ص 83) ويسميه ابن عذارى بوادى العذارى (البيان ، ج 1 ، 36) · انظر كذلك عن هذا النهر : Ch. A. Julien
— *Histoire de l'Afrique du Nord*, p. 21.

44 ـ حسين مؤنس : نفس المرجع ، ص 247 ·

45 ـ ابن عذارى . نفس المصدر السابق ، ص 36 ـ السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83
— Becker ; in C.M.H., T. 2, p. 370.

اذن انهزم جيش المسلمين أمام الكاهنة فى هذه المعركة، وانتصر البربر على المسلمين؛ وكانت اثار هذه المعركه بالغة الاثر فى نفوس المسلمين كما يفهم من عبارة الدباغ حيث يقول . « وظن المسلمون انه الفناء وانهزم حسان بعد بلاء عظيم وقتل من العرب خلق كثير » (46) ·

وترتب على ذلك خروج المسلمين من افريقية، وأسر ثمانين رجلا من جندهم، وغيابهم عنها طيلة خمس سنين ·

وانتصار البربر على الفاتحين يفسر لنا انعدام الصلة بين حركة الكاهنة وكسيلة : اذ لو كان ذلك صحيحا لما ترددت ، فى احتلال قاعدة القيروان ، قلعة الاسلام ومركز تواجد المسلمين فى افريقيه ·

وهذا الموقف من الكاهنه يعطينا صورة واضحة بان حركتها كانت ذات طابع محلى · فاكتفت بطرد المسلمين وامنت حدود قبيلتها ، وعادت الى جبل أوراس · وهذه السياسة تناقض ما ذهب اليه (كودل Caudel) من ان الكاهنة كانت تريد اقامة امبراطورية (47) ·

الوضع السياسى فى افريقية بعد خروج المسلمين منها :

لا شك ان خروج المسلمين من افريقية على اثر هزيمتهم على يد الكاهنة فى معركة وادى نينى سيترك البلاد تعيش حالة من الفوضى والاضطرابات السياسية ، خاصة على مصير المسلمين فى القيروان فى هذه الفترة الحاسمة ·

ويفهم من رواية ابن عبد الحكم بان القيروان كانت بها قلة من ضعفاء المسلمين ، الذين *تولى شؤونهم ابا صالح ، واستخلف على افريقية أبا صالح* » (48) ·

وكان فى وسع الكاهنة ان تقضى عليهم ساعة تشاء ، « ثم رجعت الكاهنة الى مكانها من الجبل واطلقت اسرى المسلمين سوى خالد فانها اتخذت عنده عهدا بارضاعه مع ولديه

46 ـ الدباغ : معالم الايمان ، ج 1 ، ص 62 ·
(47) Caudel ; op. cit., T. II, p. 160.
48 ـ ابن عبد الحكم : الفتوح ، ص 62 ـ 63 ·

وصيرته أخا لهما واقامت فى سلطان افريقية والبربر خمس سنين بعد هزيمة حسان ، ونفت العرب من بلاد المغرب » (49) ·

وقد اعجبت الكاهنة بخالد بن يزيد ، ونبنته ليكون لها عينا على سياسة وخطط حسان فى الحرب ·

الا ان الكاهنة لم تطمئن الى بقاء المسلمين فى « برقة » فلجات الى سياسة جديدة أدت الى القضاء عليها ، ويلخص ابن عذارى هذه السياسة بقوله : « وملكت الكاهنة المغرب كله بعد حسان خمس سنين ، فلما رأت ابطاء العرب عنها ، قالت للبربر : ان العرب انما يطلبون من افريقية المدائن والذهب والفضة ؛ ونحن انما نريد منها المزارع والمراعى ! فلا ترى لكم الا خراب بلاد افريقية كلها ، حتى ييأس منها العرب ؛ فلا يكون لهم رجوع اليها الى آخر الدهر » (50) ·

هكذا سادت الفوضى منطقة أوراس ، لان السكان أبوا الخضوع لسلطان الكاهنة ولم يستطع أن يكون منهم كتلة ترد هجوم المسلمين فيما بعد · وراحت تعامل السكان بمعاملة سيئة ، حتى عم السخط ربوع البلاد ، فقد أصاب ابن الاثير وصف حالتها فى العبارة التالية : « وملكت افريقية كلها وأساءت السيرة فى أهلها وعسفتهم وظلمتهم » (51) ·

نستخلص من روايه ابن عذارى السابقة الذكر بان حركة انتقاض الكاهنة على المسلمين كانت حركة محلية ، اذ يغلب على قومها الطابع البدوى ، الذين لا يقيمون للمدن وزنا ، ولذلك نفذوا لها ما طلبت منهم ·

ولكننا نجد قلة من طوائف البرانس الذين أخذوا باسباب الحضارة اللاتينية ، واستقروا على مشارف المدن ، هم الذين لفضوا سياستها التخريبية ، وطلبوا المساعدة للانضمام الى جيش حسان بن النعمان ·

- السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83 ·
- ابن عذارى : البيان ج ، 1 ، ص 36 ·
- ابن الأثير : الكامل ، ج 4 ، ص 32 ·

وهذا يجعلنا نعتقد بأن الكاهنه كانت بعيدة عن أحداث الفتح الاسلامى وصراع المسلمين مع البيزنطيين ، كما لم يدرك هدف المسلمين فى شمال افريقية وهو نشر الاسلام والقضاء على نفوذ الروم فى تلك البلاد ·

ظل المسلمون فى طرابلس طوال هذه الفترة بانتظار وصول امدادات الخليفة اليهم ، يعملون على تنظيم امورهم واستعدادهم للمرحله القادمة ·

واقام حسان بعض المنشآت فى برقة كما يتضح ذلك من قول السلاوى « فأقام ببرقة وبنى قصوره المعروفه لهذا العهد بقصور حسان » (52) ·

ولم يكن حسان بن النعمان بعيدا عما يجرى من أحداث فى افريقيا بل كان حريصا على العودة اليها . وقد عبر عن ذلك ابن عذارى حين قال : « فكتب الى امير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك ، وان أمم المغرب ليس لها غاية ولا يقف أحد منها على نهاية ، كلما بادت امه خلفها أمم · وهى من الجفل والكثره كسائمه النعم ، فعاد له جواب أمير المؤمنين بامره أن يهدم حسما واقاه الجواب فورد عليه فى عمل برقة فأقام بها » (53) ·

أما الاحوال السياسيه فى بلاد المشرق فلم يكن يسمح بارسال امدادات جديدة الى افريقية لمساعده جيوش المسلمين ، كما ان الخليفة عبد الملك بن مروان رأى من الأفضل ان يتصرف للقضاء على ثورات الخوارج ، ثم يتفرغ لافريقية ·

أما فى افريقيه ، فقد حدثت تطورات جديدة لصالح المسلمين ، منها اتصال خالد بن يزيد بحسان واطلاعه على ما كان يدور فى معسكر الكاهنة من الأحداث · كما يتضح ذلك من قول ابن عبد الحكم : « فبعث حسان الى خالد رجلا فاتاه ، فقال له ان حسان يقول . ما يمنعك من الكتابه الينا يخبر الكاهنة ، فكتب خالد بن يزيد الى حسان كتابا وجعله فى خبزة مله : ثم دفعها الى الرسول ليخفى منها الكتاب وليظن من رأى الخبزة انها زاد الرجل ، فخرجت الكاهنة وهى تقول : « يا بنى هلاككم فيما تاكله الناس ، فكررت ذلك حتى قدم حسان بالكتاب فيه علم بما يحتاج اليه » (54) ·

52 ـ السلاوى : الاستقصاء ، ج 1 ، ص 83 ·
53 ـ ابن عذارى : نفس المصدر السابق ، ص 36 ·
54 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، 62ـ63 ·

ولا شك ان مراسلات خالد الى حسان كانت من الاسباب التى ساعدته فى انتصاره لاخير على الكاهنة ٠

عودة اهتمام الامبراطورية البيزنطية بافريقية :

ساعدت الاوضاع السياسية فى افريقية الدولة البيزنطية على اعادة نفوذها على منطقة الشمال الافريقى ، عندما انسحب منها المسلمون ٠

فاعد الامبراطور ليونتيوس (55) جيشا كبيرا واسطولا قويا لاسترداد (قرطاجنة) وعهد بقيادة هذه الحملة الى واحد من أبرز قادة الامبراطورية ، وهو البطريق يوحنا (Patricus Jean)

فقد ظهر الاسطول البيزنطى فى البحر الابيض المتوسط من جديد (56) فى عام (697 ـ 78 هـ) ، حيث تمكن الاسطول من الاستيلاء على مدينة قرطاجنة ، دون مقاومة تذكر ٠ فانسحب أبو صالح ومن معه من المسلمين من المدينة ، فدخلها البطريق يوحنا ، وقد اساء معاملة أهلها ومن وقع تحت يده من المسلمين ، حتى لم يستثن قتل (الكفار) بيده كما يصف ذلك نيوفانيس ونقفور (57) ٠ قضى البطريق يوحنا شتاء عام 697 م دون ان يعمل حسابا لعودة المسلمين ٠

وحول استيلاء البيزنطيين على قرطاجنة ، يذهب بعض المؤرخين الفرنسيين الى عدم اهتمام المؤرخين العرب بندوين اخبار استيلاء الروم على قرطاجنة ، بسبب انشغال المسلمين باخبار الكاهنة (58) ٠

وقد فات فورنل ما دونه البكرى عن هذه الحادثة بقوله : « واغارت الروم من البحر على من كان بقى من المسلمين بمدينة تونس (كذا) خرجت اليهم فى المراكب فقتلوا بها وسبوا وغنموا ولم يكن للمسلمين شيء يحصنهم من عدوهم ، انما كانوا معسكرين هناك

ـ ثار ليونتيوس على الامبراطور جستنيان الثانى ، فتمكن من عزله بعد ان حكم سنة وبضعة أشهر ، وأعلن نفسه امبراطورا ٠

(56) Théophanes, op. cit., p. 566 — Diehl, op. cit., p. 583.
— Fournel, op. cit., p. 214.
(57) Théophanes : op. cit., p. 370
— Néciphore : op. cit. p. 39.
— Diehl : op. cit., p. 583.
(58) Fournel : op. cit., p. 213.

وبلغ حسان ذلك فرحل الى تونس ، وارسل اربعين رجلا من اشراف العرب الى عبد الملك بن مروان وكتب اليه بما نال المسلمين من البلاء واقام هناك مرابطا ينتظر رأى عبد الملك » (59) ·

هكذا صارت افريقيه بقاسم النفوذ فيها فوبان ، أهل البلاد فى الداخل ، والبيزنطيون فى الشمال ·

عودة حسان بن النعمان الى افريقية :

لقد طالب هذه عمال المسلمين فى افريقيه خمس سنين · ولعل ذلك يرجع الى ما استجد من أحداث فى شرق الدوله الاسلاميه . وحين فرغ المسلمون من حسم مشاكلهم الداخلية ، قرر عبد الملك بن مروان ارسال المدد الى حسان بن النعمان ببرقة ، وامره بالمسير الى افريقيه فى حدود عام (81 هـ) ·

وبذلك يذكر ابن عذارى هذه الامداد بقوله « ثم ان حسان توافت عليه فرسان العرب ورجالها من قبل أمير المؤمنين عبد الملك · فدعا حسان عند ذلك برجل يثق به ، وبعثه الى خالد بن يزيد بكتاب يقرأه . وكتب فى ظهره : ان البربر متفرقون لا نظام لهم ولا رأى عندهم ، فاطو المراحل وجد فى السير » (60) ·

ومن خلال نص ابن عذارى نتجلى اتصال حسان بخالد بن يزيد ، حيث استفاد من الاوضاع السياسية السيئة فى معسكر الكاهنه . ونظرا للفوضى التى عمت بلاد المغرب آنذاك · الأمر الذى حمل حسان على قتال الكاهنه ·

59 ـ يذكر البكرى فى هذا النص تونس بدلا من قرطاجنة ، ذلك لان تونس لم تكن قد اتخذها المسلمون قاعدة لهم قبل ذلك · كما اخطأ البكرى أيضا عندما قال بان حسان دخل الى تونس ، فى هذه الفترة كان فى برقة ينتظر المدد من الخلافة ·

60 ـ ابن عذارى : نفس المصدر ، ص 37 ·

ولا يهمنا ما ذكره المؤرخون من تنبأ الكاهنة بقدوم المسلمين اليها ، وموتها على يد القائد حسان • فلجأت الى أخذ الأمان لابنها من حسان ، على أن تواصل هى ومن معها من السكان حرب المسلمين (61) •

ولقد اخطأ الكاهنة عندما عمدت الى سياسة تخريب المدن ، وقطع الاشجار ظنا منها أن المسلمين لا يريدون الا ذلك •

وكانت هذه السياسة التخريبية بالغة الاثر فى نفوس السكان ، ويتجلى ذلك بقول ابن خلدون : « وكانت من طرابلس الى طنجة ظلا واحدا وقرى متصلة ، وشـــق ذلك على البربر فاستأمنوا لحسان فأمنهم » (62) •

ونذكر بهذا الصدد تعليق أحد المؤرخين الاوروبيين على هذه الظاهرة بقوله : تنسب التراجع الى الكاهنة فى هذه المناسبة عملا كان موضع تعليق كثير ، وهو أنها قررت ان ترد بلادها الى ما هى مهيأة له بطبيعتها من الرعى ، وذلك بتخريب مراكز التمدن التى ترجع الى العصر الرومانى وقطع اشجار الزيتون ، مصدر ثروتها لكى يتسع الميدان للمراعى وحالات الرحله البدوية ، ومن الواضح أن سبب هذا العمل الذى يخالف طباع البربر ، فان الكاهنه لا بد أن يكون محل سك • ولا ريب فى أن المسلمين المسؤولون الحقيقيون عما اصاب اوربفه من خراب البلاد الاقتصادى الزراعى بعد ذلك بسنوات • هم الذين نسبوا بطله الاوراس هذه الجريمة التى لا بد أن نضيفها الى حسابهم دون أدنى ظل من الشك والتردد (63) •

ـ اشار ابن عذارى الى هذه الحادثة بقوله : « دخل حســـان اليها وبلغ الكاهنة خبره ، فرحلت من جبل اوراس فى خلق عظيم ، ورحل اليها حسان ، فلما كان الليل قالت لابنيها : انى مقتولة وأعلنتهم انها رأت رأسها مقطوعا موضوعا بين يدى ملك العرب الاعظم الذى بعث حسانا ، فقال لها خالد : ارحلى بنا وخلى له من البلاد ؛ فامتنعت ورأته عارا لقومها فقال لها خالد وأولادها : ما نحن صانعون بعدك فقالت : أما أنت يا خالد فتدرك ملكا عظيما عند الملك الاعظم ، واما أولادى فيدركون سلطانا مع هذا الرجل الذى يقتلنى ، ويعقدون للبربر عزا ، ثم قالت : اركبوا واستأمنوا اليه » ـ البيان ج 1 ، ص 38 •

ـ ابن خلدون : العبر ، ج 6 ، 218ـ912 •

ـ انظر رأى جاثيو فى مجلة الدراسات الاسلامية بمدريد عام 1954 ، ص 212 213 •

ـ ابن الأثير : الكامل ، ج 4 ، ص 32 •

ان ما ذكره هذا المؤرخ ، لا تؤكده الادله والوقائع التاريخية . كما انه لو كان صحيحا ما ذهب اليه (جاتو Gateau) ، لما أهملـــه المؤرخـون الذين تحدثوا عن الكاهنة ، واسناد مثـــل هذا العمل الى الفاتحين المسلمين ينتافى وسياستهم التى أقرها الخلفاء الراشدون . وأصبحت دستورا يطبق على كل البلدان المفتوحه ، وهى عدم الحاق الضرر باهـــلها .

وبالعكس نجد أن المؤرخين العرب يسندون هذا العمل الى الكاهنة ، ويذكرون لجوء السكان الى المسلمين لخلاصهم منها .

والخلاصه التى نخرج بها من هذا كله هى ان أوضاع الكاهنـــه قد تدهورت ، فقد ضعفت معنوياتها فاختل التوازن فى نظام جيشها ، وتفرق السكان عنها .

وهذا الوضع يختلف تماما عما ألفه المسلمون ولمسوه عندها فى لقائهم الاول . حيث كانت تسمع كلمة وكلمه مسموعة فى قومها ، وكان البربر يأتمرون بأمرها . فأصبحوا ينصرون الى المسلمين على أنهم منقذون لهم .

وهذا الموقف الجديد سيكون عاملا فعالا ، فيما بعد ، لطرد البيزنطيين نهائيا من شمال افريقية .

المعركه الفاصله (بئر الكاهنـة) :

يصف لنا ابن الاثير مسير حســـان بن النعمان الى افريقيه : « فلما قرب حسان من البلاد لقيه جمع من أهلها من الروم يستغيثون من الكاهنة ويشكون اليه منها فسره ذلك وسار الى قابس فلقيه أهلها بالاموال والطاعه ـ وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الامراء وجعل فيها عاملا ؛ وسار الى قفصه يستقرب الطريق فاطاعه من بها واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة وبلغ الكاهنة قدومه » (64) .

هذه صوره صادقه عن الحالة النفســـية لاهل افريقية الذين ملوا الحرب وكرهوا سياسة الكاهنـة .

لقد بدأت أحداث المعركة فى جبل اوراس ، ولندرك ضراوة وعنف القتال بين الطرفين نورد وصف الدباغ الذى انفرد بالتفاصيل التي تتصـل بالصراع الاخير بين المسلمين

والكاهنة : « لقيته الكاهنة في جيوش عظيمة ، فقاتلهم حسان وهزمهم الله ، وهربت الكاهنة منهزمة بريد قاعة بشر يحصن بها ، فأصبحت الفلعة لاصقة بالأرض ، فمضت بريد جبال أوراس ومعها صنم كبير من خشب بعبده ، فتبعها حسان حتى ادركها وانتصر عليها وقتلها عند بئر الكاهنة . فنزل حسان عند الموضع الذى قتلت فيه ويقال انها قتلت عند طبرقه » (64) .

ويعلل هنرى ماسيه انهزام الكاهنة الى استفاده الفاتحين من اخلاف خصومهم (65) .

وبهذه المعركة التى وقعت بين عامى (81 ـ 82 هـ) ، تم للمسلمين القضاء على المقاومه المحليه التى تزعمتها الكاهنه ، واستطاعوا ان يضيفوا الى افتح العربى الفتح الدينى (66) .

ولعل السبب فى طول وعنف المقاومة أن المسلمين واجهوا قبائل لا تقل عنهم بداوة وبأسا وتمتاز بلادها عن جزيرة العرب بجبالها الشامخه ومسالكها الوعرة مما يهيئ للمدافعين عنها فرصا كثيرة للانتفاع بالتغازى (67) .

نهايه النفوذ البيزنطى بشمال افريقيه :

اما فيما يتعلق بسياسه المسلمين فى الشمال الافريقى ، واستئناف الحرب ضد البيزنطيين فى قرطاجنه ، فان المؤرخين المسلمين لا يعنون بتدوين أحداث هذه الحرب ، اللهم الا بعض الاشارات حول مسير حسان الى قرطاجنه .

64 ـ الدباغ . معالم الايمان ، ج 1 ، 60 61 ـ اتفق معظم المؤرخين على أن الكاهنة قتلت فى موضع يعرف باسم (بئر الكاهنة) بجبال أوراس ، ويستبعد ان تكون قد قتلت فى مدينة طبرقة الواقعة على البحر فى الشمال .
وهذه البئر لم تعرف باسم الكاهنة آنذاك ، ولكن المؤرخين العرب اطلقوا على هذه البئر التى قتلت بالقرب منها الكاهنة ، اسمها ، فصارت تعرف بذلك .

ـ الاسلام ترجمة : بهيج شعبان ، ص 71 .

ـ هنرى ماسيه : نفس المرجع السابق ، ص 71 .

ـ محمد أحمد حسونة اثر العوامل الجغرافية فى الفتوح الاسلامية ، ص 55 .

لعل هذه الفجوة عند المؤرخين العرب فيما يخص العهود البيزنطي في شمال افريقية قد ملأها المؤرخـــان البيزنطيان نيقوفانس ونقفور . اذ يذكران (68) ان الاســـطول البيزنطي قد هزم في معركة كبيرة سقطت على اثرها قرطاجنة في يد حسان فأدرك البأس البطريق يوحنا ، فجمع جنده ورجع الى القسطنطينية ، ليعود منها بقوة أكبر ، ولكنه كان واهما لأن الاحوال لم تسمح له بعد ذلك بالعودة الى قرطاجنة .

ويحدد المؤرخان البيزنطيان هذا الحدث بعام (698 أي 79 هـ) .

والمعروف ان حسان بن النعمان لم يفرغ من أمر الكاهنة الا في رمضان سنة (82 هـ أي عام 699) وهذا هو التاريخ الصحيح لهذا الحدث (69) .

قيام اول قاعدة بحـرية اسلامية في المغرب :

من الاحداث السابقة أدرك المسلمون أهمية الاسطول البحري خاصة بعد وفاة زهير بن قيس البلوي في « برقـة » التي كانت لها أثار بعيدة المـــدى في سياســـة الدولة الاسلامية ، التي رأت ان التغلب على البيزنطيين ، وافتلاع قواعدهم البحرية ، لا يتم الا عن طريق انشاء اسطول بحري في مياه البحر الابيض المتوسط ، تكون مهمته القضـــاء على سيادة الروم البحرية في غرب البحر الابيض المتوسط (70) .

وتولى تنفيذ هذه السياسة البحرية حســـان بن النعـمان منذ دخل افريقيه في عام (76 هـ ـ 695 م) .

فكان أول ما قام به هو الاتجاه نحو الشمال والقضاء على قواعد الروم ، ففاجأ المدن بقوته ، وانسحب الروم وفروا الى جزر صقليه والاندلس كما مر بنا .

لكن الروم انتهزوا فرصة غياب حسان في حروبه ضد الكاهنة وعادوا مرة أخرى الى قرطاجنـــة .

---

68 — Théophanes : op. cit., p. 370.
— Niciphore : op. cit., p. 39.
— Diehl : op. cit., p. 584.
— Becker : in (C.M.H.) T. 2, p. 370

69 ـ حسين مؤنس : المرجع السابق ، ص 260

70 — Georges Ostragorsky : *Histoire de l'Etat Byzantine*, pp. 170-171.
ـ ابراهيم العدوي : الأساطيل العربية ، ص 65 .

نبهت هذه الاغارة انتباه حسان وأدرك ان الروم لهم معاقل على الساحل يتحصنون بها ، ويجعلون منها وسيله لاسعادة قواعدهم البحرية الكبرى · لذلك سارع الى انشاء أول قاعده بحريه فى افريقيه ، تقوم مقام قاعدة الروم « قرطاجنـــه » · ومن ثم قطع أى قطع اى تفكير بيزنطى فى تعمير المدينه واستغلالها كميناء ضد المسلمين فى غرب البحر الابيض المتوسط ، وصارت قاعدة بحرية تحرس القيروان كما ذكر ذلك البكرى (71) ·

وقد اختار حسان مكان قاعدته الى جنوب قرطاجنة ، بحيث يفصلها عن البحر برزخ صغير ، لان وقوعه على شاطىء السبخة يحبب المسلمين فى تعمير المدينة وسكـــانها ، لان المسلمين لم يطمئنوا بعد الى سكنى المدن الواقعة على الساحل · وموقعها هذا جعلها فى مامن من غارات الروم المفاجئه ، اذ تكفى مراقبة مدخل السبخة كى يتنبه أهل المدينة الى الخطر قبل وقوعه ·

وقد كان هذا ميناء بونانيا قديما ، اضمحل أمره ولم يبق منه الا دير يقيم فيه طائفة من الرهبان كما أكد ذلك ابن ابى دينار القيروانى (72) ·

بدأ حسان بحفر البرزخ الذى يفصل البحيره عن البحـــــر ، وحفر فى ماء البحيرة الضحلة ، قناة عميقة تسير فيها السفن حتى تصل الى البلد ، وبذلك تتصـــل البحيرة بالبحر وتصبح تونس ميناء بحريا تحميها البحيرة من أمواج البحر ، ثم شرع فى بنـــاء « دار الصناعه » للمدينة الجديدة ، حتى تستطيع السفن ان ترسو فيها وتقلع فى وقت واحد · هذا ما قصد اليه القيروانى بقوله . « ان حسان هو الذى خـرق البحـــر الى تونس » · (73)

بعد هذه الاجراءات التى قام بها المسلمون ، ارسل حسان الى الخليفة عبد الملك يطلب ارسال أناس ممن لهم دراية وخبرة فى انشاء دور الصناعة وبناء الســـفن ، ويقول

- المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 38 ·
- المؤنس فى أخبار افريقية وتونس ، ص 8 ·
- نفس المصدر السابق ، ص 33 ·

البكرى فى هذا الشأن . « فكتب عبد الملك بن مروان الى أخيه عبد العزيز وهو والى مصر ان يوجه الى معسكر تونس ألف قبطى وأهله وولده وان يحملهم من مصر ويحسن عونهم حتى يصلوا الى ترشيش وهى تونس (74) . وكتب الى ابن النعمان يأمره ان يبنى لهم دار صناعة تكون قوة وعدة للمسلمين الى آخر الدهر وان يجعل على البربر جر الخشب لانشاء المراكب ليكون ذلك جاريا عليهم الى آخر الدهر . وان يصنع بها المراكب ويجاهد الروم من البر والبحر وان يغار منهم على ساحل الروم فيشتغلوا عن القيروان نظرا للمسلمين وتحصينا لشأنهم فوصل القبط الى حسان وهو يقيم بتونس فاجر البحر من مرسى رادس الى دار الصناعة وجر البربر الخشب وجعل فيها المراكب الكثيرة وأمر القبط بعمارتها » (75) .

وقد اثبتت الاحداث حسن اختيار حسان لقاعدة تونس ، اذ ضمن ابتعادها عن البحر فرصة تستطيع فيها الحاميات الاسلامية مقاومة الاساطيل البيزنطية قبل وصولها الميناء الجديد .

كما ان مياه البحيرة الهادئة هيأت للسفن الاسلامية الحماية من عواصف البحر وانوائه (76) .

هكذا اتسع نشاط القاعدة الجديدة منذ وقت مبكر ، وأصبحت مركزا هاما للاسطول الاسلامى فى الحوض الغربى للبحر الابيض المتوسط . وقد شاركت هذه القاعدة بوحدات من اسطولها وبحارتها فى سائر نواحى البحر الابيض المتوسط ، كما أمدت الاسطول الاسلامى اثناء حصاره لمدينة القسطنطينية . وساهمت فى طرد الاسطول الرومى من القواعد المجاورة لبلاد المغرب .

المقاومة المحلية فى جبل أوراس وازالة آخر معقل بيزنطى فى الشمال .

74 ـ اتفق معظم المؤرخين المسلمين على ان اسم « تونس » قبل ان يعمرها العرب كانت تعرف باسم ترشيش Tharsis التى ورد ذكرها فى التوارة . ولم يرد ذكرها عند المؤرخين اليونان اللاتينيين ، ويستبعد وجودها فى افريقية .

75 ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، ص 37ـ38 .

76 ـ ابراهيم العدوى . الأساطيل العربية ، ص 141 .

سنطبع القول بأن الفتح الحربى لشمال افريقيه قد تم على يدى حسان بن النعمان الذى يعتبر بحق الفاتح الحقيقى لشمال افريقية ، فقد اضاف الى جهود المسلمين فى هذه البلاد قاعدة جديدة على البحر ·

فاصبحت للمسلمين قاعدتان (القيروان فى الداخل ، وتونس فى الشمال) · واذا كان دور قاعدة القيروان هو مركز انطلاق الجيوش الاسلامية لفتح بقية انحاء المغرب ونشر الاسلام والثقافة العربية ، فان دور قاعدة تونس هو حراسة القيروان من أى خطر يجيء من البحر . هذا الى جانب قيامها بأعمال البحر العسكرية والتجارية ، وسيكون لها دور بارز فى سياسة البحر الابيض المتوسط ·

لكن الاحوال السياسية عاجلت حسان بالعودة الى المشرق . فلم يتمكن من استكمال تعمير المدينة ، بعد ما وضع بناء مسجدها وخطط دورها ، والذى سيتم هذه الخطوة الخطيرة التى بدأها حسان الوالى عبيد الله بن الحبحاب ولكن بعد ثلاثين سنة كما يقول ابن خلدون (77) ·

آثار قيام قاعدة تونس على الوضع السياسى فى المنطقة :

وبعد أن كانت هذه البلاد تعيش أوضاعا سياسية قلقة بين ثلاثة عناصر مختلفة : البيزنطيون فى الشمال ، والمسلمون فى القيروان ، والبربر فى منطقة أوراس) ، وكانت تابعة للخلافة الاسلامية بدمشق ·

وقيام هذه القاعدة يعنى قطع دابر الوجود البيزنطى من شمال افريقية ، وكان على المسلمين بعد استقرارهم بها ، أن انصرفوا الى ناحية لا تقل أهمية عن الجهاد الحربى ، وهى ناحية تنظيم البلاد وتهيئتها للدخول فى الاسلام والأخذ باسباب الحضارة الاسلامية ·

وقد وفق حسان كل التوفيق فى هذه السياسة التى اتبعها ، وذلك عندما اهتم بتعمير المدينة الجديدة بعنصر جديد من أقباط مصر الذين خبروا فنون الصناعة البحرية

العبر ج 4 ، ص 404 ·

وسيكون لهذا العنصر البشرى الجديد أثر كبير فى بعث حركة صناعة السفن ، حتى تصبح هذه القاعدة ميناء كبيرا . وسيكون لهذا العنصر شأن عظيم فى تاريخ حوض البحر الابيض المتوسط . فمنها خرجت الجيوش لفتح صقلية وسردانيه ، وايطاليا ، وأصبحت النافذة التى أطل منها المغاربه على غربى هذا البحر (78) .

عزل حسان بن النعمان عن افريقية :

ومما يتعلق بنهاية أعمال حسان فى افريقيه ، واسباب عزله وتجريده من الغنائم ، فيشير بعض المؤرخين الى العلاقه السيئه بينه وبين والى مصر عبد العزيز بن مروان « ثم عزله عبد العزيز بن مروان الوالى على مصر » ؛ وكان الوالى على مصر يولى على افريقيه ؛ فعزل حسانا وامره بالقدوم عليه . فعلم حسان ما أراد عبد العزيز بن مروان ، اخو عبد الملك فعمد الى الجوهر والذهب والفضه ، فجعله فى قرب الماء وأظهر ما سوى ذلك من الامتعه . وانواع الدواب والرقيق ، وسائر أنواع الاموال . فلما قدم على أمير مصر عبد العزيز بن مروان أعدى انه مانعى جاريه من بنات ملوك الروم والبربر ، فسلبه عبد العزيز جميع ما كان معه من الحبل والاحمال والامتعة والوصائف والوصفان . ورحل حسان بالاحمال التى تقدم له ، حتى قدم على الوليد ، فشكا له ما صنع عبد العزيز فغضب الوليد على عمه . ثم قال لمن معه « ائتونى بقرب الماء » ففرغ منها الذهب والفضة والجوهر والياقوت ما استعظمه الوليد ، وعجب من أمر حسان ؛ فقال له الوليد : « جزاك الله خيرا (كذا) يا حسان ، فقال : « يا أمير المؤمنين ! انما خرجت مجاهدا فى سبيل الله ، وليس مثلى يحون الله والخليفه » ، فقال له الوليد : « أنا أردك الى عملك وأحسن اليك ، وانوه بك » ، فحلف حسان « لا أولى لمن أمه أبدا » . لقد كان حسان يدرك موقف عبد العزيز ويخاف منه ، ويتجنب كل اتصال معه ما امكن ذلك ، وعندما احتاج الى حماعه من اقاط مصر سأل الخليفه بدمشق بدلا من والى مصر .

ظل عبد العزيز بن مروان يكيد لحسان ويختلق الاسباب لعزله عن ولاية افريقيه . فانتهز فرصه هزيمه حسان أمام الكاهنة وعودته من افريقية ليقلل من مقدرته الحربية ،

78 ـ حسين مؤنس : نفس المرجع السابق ، ص 263 .
79 ـ ابن عذارى : البيان ج 1 ، ص 38ـ39 .

فبعث الى طرابلس عاملا من مصر ليتولى أمورها ، وطلب حسان فى مسيره الثانى الى افريقية من والى مصر « اكتب الى عبدك بالاعراض عن انطابلس فقال له عبد العزيز ما كنت لافعل بعد اذ ضيعتها فاستولت عليها الروم . فقال حسان : اذا ارجع الى امير المؤمنين ، فقال عبد العزيز ارجع » . (80)

هذه أهم الاسباب التى أدت الى عزل حسان بن النعمان .

ولا نعرف عن أخبار عودته الى المشرق الا الشىء القليل ، اذ تعتبر هذه الناحية مجهولة فى حياة هذا القائد ، ولا يشير المؤرخون الى هذه الحادثة أبدا ، اللهم الا ما جاء فى رواية ابن عبد الحكم العبارة التالية : « ثم لم يلبث حسان بن النعمان الا يسيرا حتى توفى » . (81)

وجاء فى دائرة المعارف الاسلامية أن عبد العزيز بن مروان عزل حسان بن النعمان وجرده من جميع أملاكه وتوفى عام (80 هـ ـ 699 ـ 700) . (82) وهذا التاريخ غير صحيح بدليل أن حسانا كان فى القيروان سنة (82 هـ) ، وكانت عودته من افريقية حوالى (85 هـ) ، بعد ان قام باعمال جليلة تؤاته أن يحتل مكانا ناصعا بين قادة الفتح الاسلامى فى المغرب ، ويسجل صفحة : ذهبية فى تاريخ الاسلام . فقد جمع بين الخبرة العسكرية والقدرة على فهم ظروف البلاد ، فهو الفاتح الحقيقى لافريقية ، ومنظم شؤونها وجيشها ، وصاحب فكرة ادخال عنصر جديد فى الجيش الاسلامى الفاتح من أهل البلاد .

وفيما يتعلق بوفاة حسان بالمشرق فيرجح نهاية سنة (85 هـ وبداية 86 هـ) لان ولاية موسى بن نصير على افريقية بدأت فى أواخر حكم الخليفة عبد الملك بن مروان أى فى نهاية (85 هـ) .

نتائج حملة حسان وآثارها على افريقية :

مما لا شك فيه ان الدور الذى لعبه حسان بن النعمان ، فى تغيير الاوضاع السياسية والدينية والحضارية بولاية افريقية كان عظيم الاثر على مصيرها ، اذ ان الفتح النهائى

80 ـ ابن عبد الحكم : فتوح ، ص 68 — F. Mapareja : *Islamologie*, p. 92.
81 ـ فتوح ، ص 68 .
82 ـ المجلد السابع ، ص 378 .

للمغرب لم يتم الا بعد أن خضع سكان أوراس للسياسة الاسلامية . واستقرار النفوذ الاسلامي على الساحل . بفضل نمو المحركة الاسلامية (83) .

وبعد القضاء على المقاومة الداخلية واستقرار الاوضاع الحربية للمسلمين ، بدأت مرحلة جديدة لا تقل عن الفتح الحربي . هي ظهور نواة النظام الاداري لهذه الولاية ، ونشر الاسلام والثقافة العربية بين أهل المغرب .

هذه الخطوة التي بدأها عقبة بن نافع وأبو المهاجر دينار ، سيتمها حسان وتتضح آثارها على المنطقة كما سيأتي ذكره .

تنظيم شؤون افريقية وأهم الاصلاحات التي تمت في عهد حسان :

اهتم حسان خلال المدة التي أقامها في القيروان بعد قضائه على مقاومة الكاهنة ، بتعمير المدينة وتجديد جامعها . لا سيما بعد أن ازداد عدد المسلمين الوافدين من الضواحي ، وقد نص البكري على الاصلاحات بقوله : « ثم قدم القيروان فأمر بتجديد بناء المسجد الجامع فبناه بناء حسنا . وحدده في شهر رمضان سنة 84 هـ » (84) .

واهتمام حسان بالقيروان يعود الى أنها قاعدة الاسلام الاولى في افريقية .

وبالرغم من قلة اشارات المؤرخين الى طابع النظام الاداري الذي وضعه حسان ، يمكننا وضع صورة تقريبية لهذا النظام ، اعتمادا على ما جاء في نص ابن عذارى التالي : « وانصرف حسان الى مدينة القيروان ، بعد ما حسن اسلام البربر وطاعتهم ، وذلك في شهر رمضان سنة 82 . وفي هذه السنة استقامت بلاد افريقية لحسان بن النعمان ، فدون الدواوين ، وصالح على الخوارج ، وكتبه على عجم افريقية وعلى من قام معهم على دين النصرانية » (85) .

83 ـ هـ . سانت موس : ميلاد العصور الوسطى (مترجم) ، ص 254 .

84 ـ رياض النفوس : الجزء الأول ، ص 32ـ33 ـ وانظر كذلك ما قاله البكري عن أعمال حسان في « المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب » .

85 ـ البيان المغرب ج 1 ، ص 38 ـ ابن عبد الحكم (فتوح ، ص 64ـ65) ـ المالكي (رياض النفوس ، ج 1 ، ص 32ـ33) ـ عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) ، نشر وتحقيق : ليفي بروفنسال في صحيفة المعهد المصري بمدريد عام 1954 ، ص 223 .

ونستخلص من هذا النص الحقائق الآتيـــة :

تعريب الدواوين :

شهدت الدوله الاسلامية فى هـــذه الفترة مرحلة حاسمة فى حيـــاتها • هى تعريب الدواوين والنفود فى عهد الخليفه عبد الملك بن مروان ، الذى نجح فى استعادة الوحـدة السياسيه للدوله •

ـ (ومن الواضح أن هذا التعريب قد شمل ولايه افريقيه) ، حيث انشغل المسلمون بواحى التنظيم التى احدثها حسان بن النعمان وترتب عنها ظهور وظائف ادارية تتولى مختلف الاختصاصات ، كالسجلات ، وتعيين الموظفين ، وبواب الاقاليم • وليست لدينا نصوص تاريخيه تشير الى نوع اللغة المستعملة آنذاك . وان كان هذا التنظيم الجديد لولاية افريقيه قد واكب مرحله تعريب الدوله الاسلاميه كما مر بنا ، الا أننا نستبعد ان تكون مكاتباتها قد شملت افريقية فى هذا الوقت المبكر •

الخـــراج :

لقد امتد اهتمام حسان كذلك الى تنظيم الناحية المالية لاهل افريقية ، ففرض الجـزية ، وضعها على الروم وفمائل البرانس ، كما فرض ضريبة الخراج على أراضى غير المسلمين ، وقسم افريقيه الى خطط بين قبائل البربر ، وجعل أهل كل خطة يدفعون ضريبة العشر اذا كانوا مسلمين •

ويؤكد نص المالكى فى هذا الشأن أوضح حيث يقول : « اجتمع الروم والبربر على قتال حسان وقاتلوه فهزمهم الله تعالى ، فخافوه فاستأمنوا اليه فلم يقبل أمانهم حتى اعطوه من كل قبائلهم اثنى عشر الف فارس تكون مع العرب مجاهدين فأجابوه وأســـلموا على ذلك فعقد لولدى الكاهنة بعد اسلامهما عقدا لكل واحد منهما على ستة آلاف فارس من البربر وجعله واليا عليهم ، واخرجهم مع العرب يفتحون افريقية ويقتلون الروم ومن كفر من البربر ، فمن ذلك صارت الخطط للبربر بافريقيـة ، فكان يقســـم الفىء والارض ، ومن لم تطاعتهم فدانت له افريقية ، ودون الدواوين ثم قدم القيروان » (86) •

(86) رياض النفوس : الجزء الأول ، ص 32ـ33 •

وهذا يدل على ان حسان بن النعمان كان يريد ان ينتقل بالبربر خطوة فى طـــريق الاســـــتقرار ·

تنظيم الجيش الاســـلامى الفاتـح :

لا شك أن حسانا اول من ادخل عناصر جديده فى الجيش الاسلامى الفاتح من اهل (المغـــرب) ·

وهذه خطوة فريدة فى السياسة الاسلامية التى كانت حتى ذلك الحين تتجنب تجنيد أهالى البلدان المفتوحه ، على هذا النطاق الواسع

هذا الدم الجديد الذى أضاف قوة الى الجيش الاسلامى بافريقية ، سيكون له دور بارز فى استكمال عمليه فتوح المغرب الاقصى والاندلس فيما بعد · وقد رتب للجند الاعطيات، وسوى بين المسلمين والسكان دون تمييز فى الفيء والارض ، أى أن حسانا لم ينظر الى البربر على أنهم محكومين والعرب حاكمين ، بل اسند قيادة البربر فى الجيش الفاتح الى ولدى الكاهنه ، زعيما قبائل البتر فى منطقة الاوراس ·

وهذا التقسيم يتمشى وطبيعة هذا الشعب الذى يميل الى الاستقلال ، كما يدل على حسن سياسه حسان وفهمه لهذه الظاهره الجديدة ·

ولا بد أن حسان بن النعمان قد فكر فى ضرب عملة على الطراز اللاتينى البيزنطى ، ليدفع بها رواتب الجند ، وتكون وسيله التعامل فى الاسواق والمبادلات اليومية ·

ولا نعلم فيما اذا كان حسان قد عرب السكة فى افريقية وادخل بعض التغييرات على شكلها ونقوشها ، لأن هذه الفترة تعاصر فترة تعريب النقود فى الدولة الاسلامية ، وتكمن الصعوبه فى هذه النقطة أننا لم نعثر على عملة ترجع الى زمن حـــكم هذا الوالى ، كما ان المصادر التاريخية لم تشر الى هذه الناحية ·

ونستحسن المقارنة بين النظام الادارى الذى وضعه المسلمون فى البلدان المفتوحة بالمشرق . والنظام الادارى فى المغرب ، وذلك راجع حسب اعتقادنا الى اختلاف طرا هذا الاقليم عن بقية أقاليم الدولة الاسلامية الاخرى ·

وبعد ان أتينا على ذكر معـــالم النظام الادارى الناشىء فى افريقية ، نتطرق الآن الى مسالة اسلام البربر على يدى هذا القائد ·

اســلام سكان منطقــة الاوراس :

ولكى نفهم ظاهره اقبال سكان الاوراس على الاسلام واندماجهم فى الحضارة الاسلامية، نلقى نظره على ديانتهم قبل دخول الاسلام هذه البلاد ، وهذا السلاوى يلخص لنا ديانة البربر فيقول . « ان البعض من البربر قد دانوا بدين اليهودية وأخذوه من بنى اسرائيل عند استعمال ملكهم لعرب الشام ··· حتى محا ادريس الاكبر جميع ما كان فى نواحيه من بقايا الاديان والملل · ولما أخذ الروم بدين النصرانيه فى زمن قسطنطين الملك وكانت لهم اليد العالية على من جاورهم من الامم مثل الحبشة والقبط والفرنج والقوط وغيرهم حملوهم على الاخذ به فدانوا به معهم وبلقنوه منهم ونشوه فى بلادهم ورعاياهم ·

وكان الفرنج مجاورين للبـــربر فى المغرب الادنى والقوط مجـاورين لهم فى المغرب الاقصى ليس بينهم الا خليج البحر فحملوا أهل السواحل منهم على الاخـذ بذلك الدين فدانوا به أيضا واستمر الحال على ذلك حتى جاء الله بالاسلام فدانت به البربر ، ولهـذا السبب كان كسيلة الاوربى وبليان الغمارى وغيرهما من كبار البربر النصارى » (87) ·

نخرج من هذا النص بشيئين هما :

1 ـ انتشار اليهودية بين بربر شمال افريقية

2 ـ انتشار النصرانية بين بربر شمال افريقية الذين سكنوا الجهات المتاخمة للسواحل وتأثروا بالحضارة الرومانية والبيزنطية ، ويطلق على هؤلاء فى المصـــادر التاريخية اسم « البرانس » ·

فى حين سكنت الطائفة الثانية من البـربر ، المناطق الداخلية كالجبال والهضـــاب وكانت تعتنق الوثنية وشىء من اليهودية ، وتعرف هذه القبائل باسم « البتر » ·

وقد اهتم بعض الاوربيين بدراسة ديانة البربر قبل دخول الاسلام هذه البلاد (88) ·

(87) الاستقصاء ، ج 1 ، ص 59ـ60 ·

(88) Alfred Bel : *La Religion Musulmane en Berbérie*, pp. 71 - 73.
دائرة المعارف الاسلامية مادة « البربر » ، ص 514 ·

وقبل ان نمضي في الحديث عن اسلام البربر ، لا بد لنا من معرفة شيء عن طباع البربر وصفاتهم . لعلنا نجد الاجابة على ذلك في وصف موسى بن نصير للبربر عندما طلب منه الخليفة سليمان ابن عبد الملك ذلك · « هم يا أمير المؤمنين أشبه العجم بالعرب لقاء ، وبحده وفروسية » (89) ·

ونلاحظ مما سبق ان البربر أقرب الامم الى العرب في الطباع وأسلوب الحياة ، ولذلك يرجع بعض الباحثين ظاهرة اسلام البربر الى التشابه الموجود بين الجنسين انفسهما كما يرجعون هذا التشابه أيضا الى الاتفاق في البيئتين اللتين ينتمي اليهما كل من العرب والبربر ، فطبيعة بلاد المغرب التي يغلب عليها الطابع الصحراوي أشبه بطبيعة بلاد العرب وهو الامر الذي ترتب عليه نتائج ذات طبيعة متشابهة من حيث الاجتماع والعمران ··· واتسع هذا التشابه في العمران عادات وتقاليد مؤتلفة ، كما ساعد على خلق عنصريه متجانسة ترتبط بين أصحابها في سرعة ويسر (90) ·

ويحلو لبعض الباحثين تطبيق نظرية ابن خلدون في تأثير الدين الكبير على العرب وتأثرهم به ـ كما طبق على البربر ايضا حيث يقول ابن خلدون في هذا الموضوع · « والسبب في ذلك انهم يخلق الوحشي الذي فيهم اصعب الامم انقياد بعضهم لبعض للحلطه والانفه وبعد الهمة والمنافسه في الرياسه ··· فاذا كان الدين بالنبوة أو الولاية كان الوازع لهم من انفسهم وذهب خلق الكبر والمنافسة منهم ، فسهل انقيادهم واجتماعهم ، وذلك بما يشملهم من الدين المذهب للغلظة والأنفة ··· ويؤلف كلمتهم لاظهار الحق » (91) ·

هذه النظرية تنطبق على البربر لوجود ظاهرتين في العرب والبربر كذلك والتي يعتبر عنهما التأثير العظيم للدين ، هاتان الظاهرتان هما :

1 ـ وجود الدعوة الدينية وتحقق ذلك بمجيء الاسلام اليهم ·

2 ـ وجود قوة كبيرة تبرز هذا الدين وتدافع عنه ·

89 ـ ابن قتيبة · الامامة والسياسة ، ج 1 ، ص 101 ·
90 ـ ابراهيم العدوي · موسى بن نصير مؤسس المغرب العربي ، ص 57 ·
91 ـ العبر ، مج 1 ، ص 266 ·

بعد هذه النظرة السريعة عن طبيعة المغاربة وأحوالهم الدينية واستعدادهم الطبيعي للدخول في الاسلام ، نبحث الآن عن الدور التاريخي الهام الذي لعبه حسان بن النعمان في اسلام البربر واندماجهم في الحياة الاسلامية ٠

تحالف سكان منطقة أوراس مع المسلمين :

هناك عدة أسباب أخرى تفسر انتشار الاسلام في المغرب ، وسرعة تقبل الناس له ، وهو أن بعض هؤلاء العرب اتخذوا سياسة كانت بعيدة الاثر في انتشار الاسلام واقبال أهل المغرب عليه (92) ٠

ان بعض الظواهر في علاقة المسلمين بالبربر على اثر مقتل زعيمة الاوراس في عام (82 هـ) كانت تتخذ شكل الصلح أو الرهن (93) ٠

هذه الظاهرة تعتبر من أهم العوامل الفعالة التي مهدت الطريق الى الاسلام ، ويصف لنا ابن عذارى تفاصيل هذا الصلح بقوله : « وكان مع حسان جماعة من البربر استأمنوا اليه ٠ فلم يقبل أمانهم الا أن يعطوه من قبائلهم اثني عشر يجاهدون مع العرب فأجابوه واسلموا على يديه ٠ فعقد لولدي الكاهنة لكل واحد منهما على سبعة آلاف فارس ، يقاتلون الروم ومن كفر من البربر ٠ وانصرف حسان الى مدينة القيروان ، بعد ما حسن اسلام البربر وطاعتهم » (95) ٠ وتطبيقا لروح الاسلام في المساواة ، عمد حسان الى اعطاء البربر الذين ابدوا الفتح الاسلامي كل المكاسب المادية والمعنوية التي يتمتع بها المسلمون ، كاشراك البربر في الجيش الاسلامي الفاتح واخذهم نصيبهم من الاعطيات ، وترأس ابني الكاهنة قيادة هذا الجيش في منطقة اوراس ٠

92 ـ حسن أحمد محمود : الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، ج 1 ، ص 158 0

93 ـ شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، ص 164 ٠

95 ـ البيان المغرب ، ج 1 ، ص 38 ـ انظر كذلك عن هذه المعاهدة كل من :

— Fournel op. cit., p. 224.

— Gautier : *Le Passé de l'Afrique du Nord,* pp 262-263.

ولما اطمأن حسان على اخلاص البربر لهذا الدين رجع الى القيروان بعد ان « ترك معهم ثلاثة عشر رجلا من علماء التابعين يعلمون لهم القرآن وشرائع دينهم ... فعزموا على الاسلام بنية صحيحة فبنوا المساجد » (96) .

ولا شك ان هذه السياسة الاسلامية التي طبقها حسان بن النعمان في افريقية تخالف ما الفه البربر عن الحكم الروماني حيث كان أهل المغرب مهما بلغت ثقافتهم ومكانتهم من موالي الرومان لهم المرتبة الثانية في المجتمع (97) .

ومما سبق يتضح بطلان دعوى بعض المستشرقين الذين يزعمون بأن مجيء العرب لم يؤثر في حالة البربر الا اثرا ضئيلا (98) وان « المصلحة تغلبت في اسلامهم على الاقناع لان قواد العرب عمدوا الى تجنيدهم في جيوشهم فاسلموا طمعا في الغنائم ... ومع أنهم دخلوا في الاسلام الا انه لم يسبق بينهم وبين العرب » (99) . هؤلاء المستشرقون بالغوا كثيرا في نفي اخلاص البربر للاسلام وجميعهم يكادون يجمعون على رأي واحد هو أن البربر لا يحفلون بالدين وأن اسلامهم كان شكليا .

ولكن الواقع التاريخي المدعم بالنصوص الثابتة يخالف ما ذهبوا اليه هذه الحقيقة التاريخية تفرض نفسها واضحة على تاريخ المغرب (100) ، حيث أن البربر اسلموا عن رغبة واقتناع لوجود عوامل دفعتهم الى اعتناق الاسلام لأنه حقق لهم ما حرموا منه أيام الحكم البيزنطي (101) .

والا كيف يفسر ظاهرة اشراك هؤلاء في الفتوح الاسلامية (فتوح المغرب الاقصى والاندلس) ، واسناد هذه القيادة الى واحد من ابرز قادة البربر (طارق بن زياد فيما .

96 ـ عبيد الله بن صالح (نص جديد عن فتح العرب للمغرب) في مجلة معهد الدراسات الاسلامية بمدريد ، « نشر ليفي بروفنسال » ، عام 1954 ، ص 223 .
97 ـ حسن أحمد محمود الاسلام والثقافة العربية في افريقية ، ج 1 ، ص 159 .
98 ـ دائرة المعارف الاسلامية : مج 3 ، مادة « بربر » ، ص 504 .
99 ـ دائرة المعارف الاسلاميه : مج 3 ، مادة « بربر » كتبها (جـ. يفر) ، ص 514
100ـ رفعت فوزي عبد المطلب . الخلافة والخوارج في المغرب العربي ، ص 34
101ـ ابراهيم العدوي . المسلمون والجرمان ، ص 59

واستكمالا لهذا الموضوع نورد هنا ما دار من نقاش بين الفقهاء والمؤرخين حول أرض المغرب ، هل فتحت عنوة أم صلحا . ان المشكلة التي ثارت في سواد العراق ومصر ، وهل فتحت عنوة أم صلحا ، ثارت هنا من جديد أيضا ولكنها ثارت في عصور متأخرة ، ولا شك في ان الفترات الاولى من الفتح لم تكن في حاجـــه الى أن تتعلق باذيال هـذه المشكلة . فقد كان العرب قلة وكانت الارض واسعة ، وكانوا كذلك لا يكادون يستقرون حتى يسيروا حتى يخرجهم الخوف عن مستقرهم (102) .

أما في ولاية حسان بن النعمان التي امتازت بالعمل والتنظيم الاداري ، الذي يدل على الاستقرار في هذه الولاية الجديدة .

والملاحظ أن حل هذه المشكلة والقضاء فيها قد اتخذ شكلا جـديدا في النقاش الذي دار بين الفقهاء والمؤرخين ، فتحدث ابن عبد الحكم عن مصر فاورد الاقوال المتباينة وجعلها منقسمة بين الذين قالوا انها فتحت صلحا والذين قالوا انها فتحت عنوة ، نجد أن الفقهاء والمؤرخين في المغرب يلتمسون تعبيرا جديدا فلا يتكلمون عن العنوة والصلح وانما يقولون ان « ارض المغرب اسلم عليها أهلها » (103) .

و « يحكى ان احد عمال المنصور بن أبي عامر صاحب الاندلس حين تغلب على أرض فاس قال لهم اخبروني عن أرضكم أصلح هي أم عنوة ؟ فقالوا له : لا جواب لنا حتى نأتي الفقيه ، يعنون أبا جبدة ، فجاء الشيخ المذكور فسأله العامل فقال : ليست بصلح ولا عنوه انما اسلم عليها اهلها ، فقال : خلصكم الرجل » (104) .

وكذلك يقول ابو زكريا يحيى بن ابي بكر : « انه لا خلاف في أن أهل المغرب اسلموا عنه فلم يعز الى عنوه ولا الى صلح » (105) .

102ـ شكري فيصل : المجتمعات الاسلامية في القرن الأول ، ص 166

103ـ زهرة الآس في بناء مدينة فاس (الفريد بل ـ الجزائر عام 1923) ، 5ـ6

104ـ السلاوي . الاستقصاء ج 1 ، ص 41

105ـ يحيى بن خلدون : بغية الرواد ، ج 1 ، ص 72

نستخلص من هذه الروايات السابقة ان المغرب قد اصطبغ بالصبغة الاسلامية الخالصة كما تؤكد كذلك أن أهل المغرب قد اسلموا عن اقتناع وبنية خالصة ورغبة صادقة • الامر الذى جعلهم يقبلون على الاندماج فى الحياة الجديدة •

ولا شك فى أن عملية اسلام البربر كانت يتلوها مباشرة تعليم اللغة ونشر الثقافة العربية •

وان تكون اللغة العربية لغة الدين الاسلامى فذلك يكسبها عنصرا من القوة والقدسية • ولم تستطع أن تقف اللغة البونانية اللاتينية ، لغة الادارة والثقافة آنذاك أمام اللغة العربية ذلك ان اللغة اللاتينية لم تعش كثيرا على ألسنة الناس فقد هاجر اصحابها الى اسبانيا وصقلية من الولايات البيزنطية فى شمال افريقية بعد انتصار المسلمين عليهم وصدق حسان بن النعمان الموقف الحربى • ولقد أصاب أحد المؤرخين الاوربيين عندما قال بان الحضارة البيزنطية قد اختفت من شمال افريقية على اثر خروج الاغريق واللاتين منها الى صقلية والاندلس • (106) فهى لغة دخيلة على المجتمع الافريقى طارئة عليه ليست لها الجذور العميقة التى تمدها بالحياة (107) ، لذلك سرعان ما استطاعت العربية ان تطاردها مع الدين خرجوا عن هذه الولاية •

لا سيما اذا أخذنا فى الاعتبار ان مرحلة الفتح الاسلامى ونشر الاسلام والثقافة العربية بهذه البلاد ، قد واكبت مرحلة تعريب الدواوين وصبغ الدولة الاسلامية بالصبغة العربية الخالصة ، ومن الواضح أن ذلك قد شمل كل البلدان المفتوحة • بما فى ذلك شمال افريقية ، فقد وضع حسان نظاما اداريا وحياه حكومية منظمة • ومن ثم كسبت اللغة العربية حولها المهيدة مع اللغة اللاتينية •

وأصبحت ولاية افريقية بعد رحيل حسان بن النعمان عنها أرضا اسلامية عربية حيث بدأ تعريبها منذ تأسيس القيروان (108) •

107ـ شكرى فيصل : نفس المرجع السابق ، 183ـ184

(106) Becker : in (C.M.H.), T. 2, p. 370.

ـ المصادر والمراجع :

(108) Pellegrin : *Histoire de la Tunisie*, p. 91
— *Essai sur les Noms de Lieux d'Algérie et de Tunisie*, p. 145.

وعندما تولى موسى بن نصير شؤون هـذه الولاية وجـد أن الفتـح قد تم وانتشر الاسلام بها (109) ٠

ان الفتح الاسلامى لمنطقة شمال افريقيه الذى تم على يد القائد حسان بن النعمان ، يعتبر خطوة هامة تركت آثارا عميقة فى حياه سكان هذه المنطقة فى جميع ضروب الحياة السياسيه والدينية والاقتصاديه والثقافيه ، والتى سـتتضح معالمها فى تاريخ المغرب الاسلامى فيما بعد ٠

ان السياسه التى اتبعها حسـان بن النعمان كانت موفقة الى حد بعيد ، فقد ترتب عليها خروج هذه البلاد من نظام قديم لم تنعم فيه بوحدة سياسية أو استقرار ، الى نظام جديد أظلها بروح الاسلام ووفر لها كل مقومات الحياة ، واشركهم فى العمل ، ومنحهم السياده . وسوى بين البربر والعرب ، فبدأ الاستقرار والامتزاج بين الجنسـين ، هذا الامتزاج سينبلور عنه ظهور الحضارة المغربية الاسلامية فيما بعد ٠

(109) Ch. Diehl · *L'Afrique Byzantine*, p. 587

خريطة رقم I «عن حسين مؤنس»

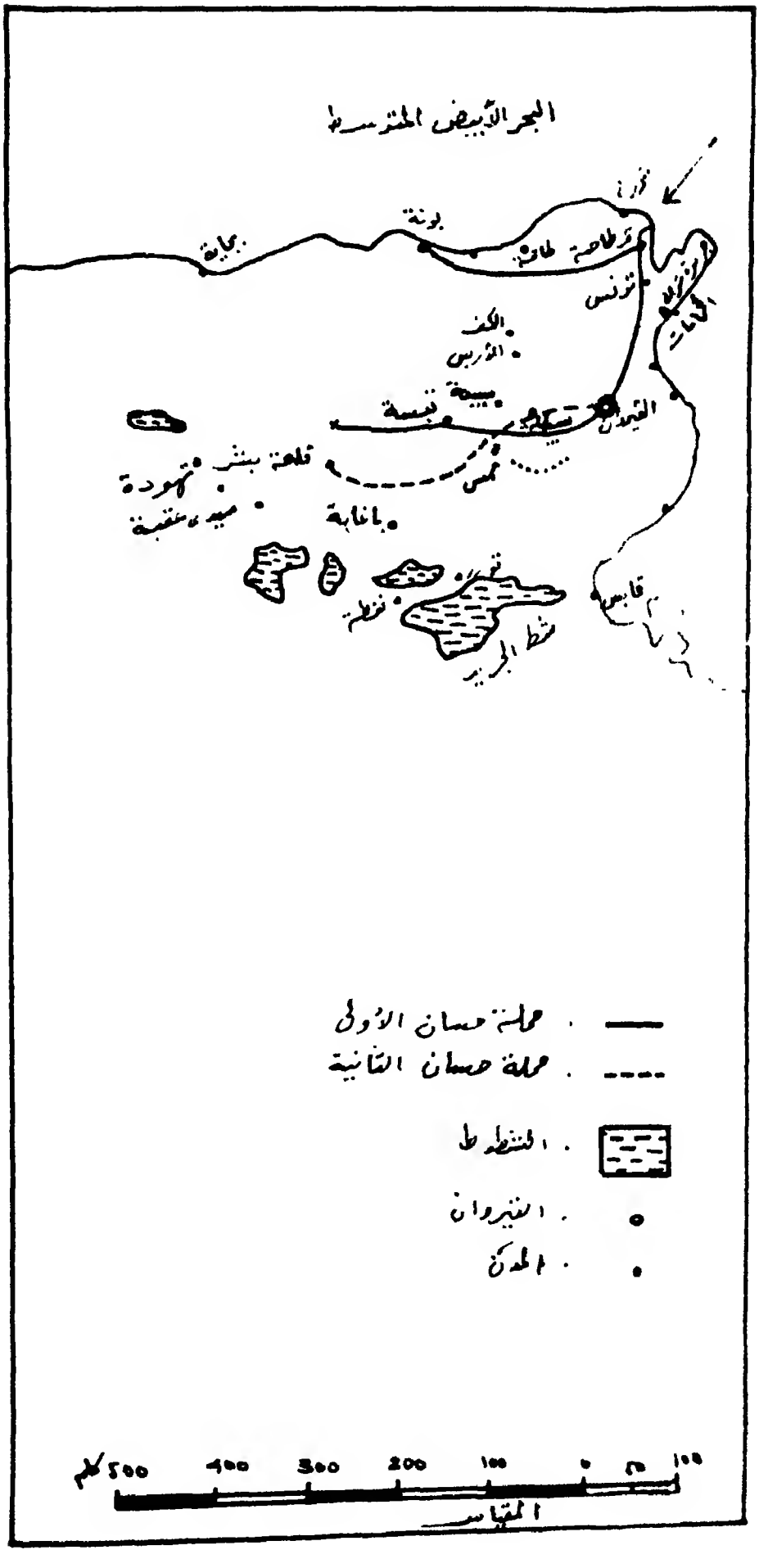

خريطة رقم ٤ تبين موقع معركة وادي نيبغ بين حسان والكاهنة

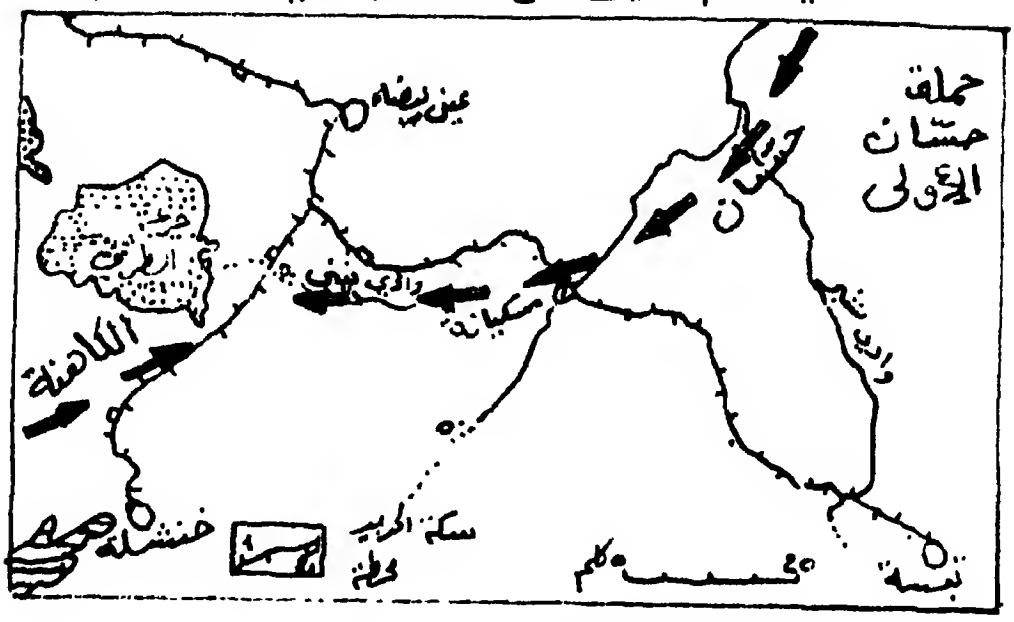

نقلاً عن «أحمد الطالبي»

خريطة رقم ٥ تبين الطريق الذي سلكه حسان في حربه الأخيرة

مصادر ومراجع البحث

1 ـ **ابن أبي دينار** . المؤنس في اخبار افريقيه وتونس ـ المكتبه العتيقة ـ تونس 1967

2 ـ **ابن الاثير** . الكامل في التاريخ ـ بيروت . 1967

3 ـ **البكري (أبو عبيد)** . المغرب في ذكر بلاد افريقيه والمغرب ، نشر دي سلان مطبعه الولاية العامه . الجزائر ، 1857 .

4 ـ **حسن احمد محمود** الاسلام والحضاره العربيه في افريقيه ، ج 1 ، دار النهضه العربيه ـ القاهرة ، 1963

5 ـ **ابن خلدون عبد الرحمن** . العبر ، دار الكتاب اللبناني ـ بيروت 1959

6 ـ **ابن خلدون يحيى** . بغيه الرواد في ذكر الملوك من بني عبد الواد ـ نشر بن شنب 1903

7 ـ **الدباغ** . معالم الايمان في معرفة اهل القيروان ، ج 1

8 ـ **رستم اسد** الروم في سياستهم وحضارتهم ، ج 1 ـ دار الكشوف ـ بيروت 1955

9 ـ **السلاوي الناصري** : الاستقصاء لاخبار دول المغرب الاقصى ، ج 1 ـ الدار البيضاء 1954

10 ـ **سانت موسى** . ميلاد العصور الوسطى (سلسلة الالف كتاب) ، دار الكتب القاهره ، 1967

11 ـ **سير توماس ارنولد** . الدعوة الى الاسلام ، ترجمه : حسن ابراهيم حسن ـ مكتبه النهضه المصريه ، 1971

12 ـ **شكري فيصل** : المجتمعات الاسلاميه في القرن الاول للهجره ، دار العلم للملايين

13 ـ **طرخان ابراهيم علي** . المسلمون في أوربا في العصور الوسطى (الالف كتاب سجل العرب . القاهره ، 1966

15 ـ **عبيد الله بن صالح** : نص جديد عن فتح العرب للمغرب (نشر ليفي بروفنسال في صحيفه المعهد المصري بمدريد ـ المجلد الثاني . 1954

- **ابن عذارى** : البيان المغرب فى أخبـــار الاندلس والمغرب ، دار الثقافة ـ بيروت ، 1958
- **العدوى ابراهيم** : الامويون والبيزنطيون ـ الدار القومية ـ القاهـــرة 1963 ، الاساطيل العربية ، مكتبه نهضة مصر ـ الفاهرة ، 1957
- **فوزى رفعت عبد المطلب** : الخلافة والخوارج فى المغرب العربى ـ القاهرة ، 1973
- **ابن قتيبة** : **الامامه** والسياسة ـ القاهرة ، 1904
- **المالكى** : رياض النفوس ، ج 1 ـ القاهرة ، 1951
- **مؤنس حسين** · فتح العرب للمغرب ـ لجنـه الجامعيين لنشر العلم ، مطبعة مصر ـ الفاهرة ، 1957
- **النـــويرى** . نهايه الارب فى فنون الادب ، ج 22 ، دار الكتب العربيه ـ القاهرة

- Becker : ***Mahomet and Islam*** ; Ch. XII in the Cambridge Medieval History V 2 London 1967.
- Bel, Alfred : *La Religion Musulmane en Berbérie,* T 1, Gauthner, Paris 1938.
- Caudel : * *L'Afrique du Nord, les Byzantins et les Berbères avant les invasions arabes* Paris, 1900.
  * *Les Premières Invasions Arabes de l'Afrique du Nord* Paris, 1900.
- Diehl, Charles · *L'Afrique Byzantine.* Paris, 1896.
- *Encyclopédie de l'Islam.* Art « Kahina ». T. 4. (Paris, 1954)
- Fournel, H · *Les Berbères Etude sur la Conquête de l'Afrique par les Arabes,* 1861
- Gautier, E F · *Le Passé de l'Afrique du Nord* (Siècles obscures) Paris, 1937
- Jülien, Ch A. *Histoire de l'Afrique du Nord (Tunisie Algérie Maroc) de la Conquête Arabe à* 1830. Payot. Paris, 1975
- Mapaneja, F. *Islamologie,* Beyrouth, 1963.
- Marçais, G. . *La Berbérie Musulmane et l'Orient au Moyen-Age Aubier Paris,* 1946.
- Mercier, E . *Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à*
- Mercier, E . * *Histoire de l'Afrique Septentrionale depuis les temps les plus reculés jusqu'à la Conquête Française* Constantine, 1888 - 91
  * *Histoire de l'Etablissement des Arabes dans l'Afrique Septentrionale,* Constantine, 1895.
- Ostrogorsky, G. : *Histoire de l'Etat Byzantin.* Payot Paris, 1969
- Pellegrin, Arthur : * *Histoire de Tunisie* 3 ed Tunis, 1944.
  * *Essai sur les Noms de lieux d'Algérie et de Tunisie.*

المكانة التاريخيـــة للشرق الجـــزائـــرى
فى نهايـــة القرن 3 الهجـــرى

محمد الصـالح مرمول
معهد العلوم الاجتماعية
جـامعة قسنطينة

لقد طوى الشيعي مذهبه أول الامر ، وتظاهر بـانه معلم قرآن ، وباشر تلك المهنة فعلا · ولما جاءوه ببعض المال امتنع من أخذه ، ثم اختلى بزعيم قبيلة بنى سكتان وأخبره قائلا : « لست بمعلم قرآن ·· وانما نحن انصار اهل البيت · وقد جاءت الرواية فيكم يا أهل كتامة بأنكم انصارنا ، والمقيمون لدولتنا وان الله يظهـر بكم دينـه ، ويعز بكم أهل البيت ، وانـــه سيكـون امام منهـم أنتم انصاره ، والباذلون مهجتهم دونه ، وان الله سيفتح بكم تيا كلها · ويكون لكم اجركم مضاعفا ، فيجتمع لكم خير الدنيا والآخرة » (33) · باب الزعيم السكتانى دعوته ، ووعده ببذل ماله ونفسه ، هو ومن اتبعه فى سبيل عوة ، وبذلك صار يدعو أقاربه الى الدخول فى دعوة الشيعى ، فاخذت تنتشر بين تلف نواحى بلاد كتامة ثم خارجها ·

(*) نشر القسم الاول من هذه الدراسة بمجلة الاصالة ، عدد 55/54 ·

لقد شرع الشيعي في تكوين المجتمـــع الذي سيجعلـه مركز انطلاق لنشر الدعوة على نطاق واسع · ولما رأى احترام الناس واقبالهم على رجال الدين استغل هذه الناحية خاصة لانه راها كفيلة بحشد الناس حوله ، فمكن لنفسه عن طريق الجلوس لتعلـيم أمور الدين للكبار ، والصغار · وقد قضى ما يقرب من سبع سنوات في بث العقيدة ، وتمكينها ، وغرسها · واستقطب حوله زعماء بعض القبائل الكتامية ، خاصة التـي لها وزن مثل الحسن بن هارون الغشمي من غشمان تازروت ، وأبو يوسف ماقنون بن ضبارة الاجاني ، وابن أخيه تمام بن معارك · وسلك سياسة التدرج في عرس المذهب ، فحينما حل شهر رمضان دعا صاحبه الى ترك صلاة التراويح ، لانها من سنة عمر ابن الخطاب (ص) : فأجابه الى ذلك ، ودعا أقاربه الى تركها أيضا · وأخذ أمره يزداد وخطره يستفحل · ولما بلغ خبره الى ابراهيم بن الاغلب (237 ـ 289 هـ/851 ـ 902 م) أرسل الى عامله على ميلة يستفسره عنه فقال من شأنه ، وذكر له بأنه رجل متقشف زاهد ، يلبس الخشن من الثياب ويامر بالخير والعبادة ، فسكت عنه · وبسببه تفرقت كلمة كتامة ، وأراد بعضهم قتله فوقع حلاف بينهم ، وقاتل بعضهم البعض من أجله (34).

ومما لاشك فيه فان الكتاميين الذين احتضنوه كانوا يعرفون مسبقا أنهم سيواجهون صعوبات متنوعة بسبب ذلك · اذ كان عليهم أن يواجهوا جيوش بني الاغلب من جهـة وجيوش بعض القبائل الاخرى المناوئة لهم خارج بـــلاد كتامة من جهـــة أخرى · هذا بالاضافة الى وجود بعض خصوم الشيعي بين الكتاميين أنفسهم ، والذين لم يدخلوا في مذهبه . فهذا الوضع فرض عليه ان يربي أتباعه تربية خاصة سياسيـا وعسكريا . كي يتمكن من مواجهة خصومه بطريق الحـرب أو الجوسسة ، أو بواسطة تخذيل الصفـــوف وتشتيت الشمل ، وزرع الشقاق والفرقة بينهم ·

لقد قسم أتباعه من كتامة الى سبعة أقسام · وأسند مسؤولية كل قسم الى واحـد من ثقاته · وسمى أولائك المسؤولين (المشائخ) ، وأبقى أعمال الناس وأموال الدعـوة بأيديهـم ، قصد تطييب خواطرهم وتأليف قلوبهم . فبقـوا على تلك الحـالة يتصرفون بأمره وينفذون تعليماته الى أن قدم عبيد الله المهدي ، فأقصاهم عن المسؤولية ، وانتزع الاموال من أيديهم فكان هذا أحد أسباب النقمة عليه · كما انه فرض على جميع أتباعه المواظبة على أداء مختلف العبادات وعودهم على النظام ، والتحلي بمكارم الاخلاق · ونمى فيهم روح التضحية وتظاهر للناس بأنـه يريد غـــرس مبادىء الدين الصحيحة في النفوس وتعويدها على الاخلاق الفاضلة (35) ·

ومن جهة أخرى فانه سن لاتباعه القواعد التى يسيرون عليها فى حياتهم العامة ، والخاصة من حيث تجنب المعاصى والامر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وعلاقاتهم ببعضهم واشتد فى معاقبة من يستحق العقاب وامتحن أتباعه بأقسى المحن كى يعودهم على الصبر وتحمل المشاق ·

ان طبيعة الاوضاع التى كانت سائدة فى بلاد كتامة ابان القيام بالدعوة فيها حتمت عليه ان يكون من دلك المجتمع مجتمعا منفصلا عمن حوله من المجتمعات الاخرى خارج قبيلة بني سكتان ، وبلاد كتامة بصفة عامة ، أو داخلهما · كما عمل على تغذية الفرقة بين أتباعه ومعارضيه ، وبذلك غرس روح العداء بين أفراد العائلة الواحدة وبين الاقارب والاصهار ، وقد سار الخلفاء الفاطميون على هذه السياسة فيما بعد · كما سار عليها غيرهم (36) · كل ذلك كي يجعل من اتباعه كتلة متراصة قوية التماسك صحيحة البنية بحيث يصعب زرع الفرقة والشقاق بينهم · وقد نجح فى سياسته هذه نجاحا كبيرا حتى أنه كان اذا أراد ان يسلط العقاب على أحد أتباعه أو كل ذلك الى أقرب الناس اليه فقتل الاب ابنه والاخ أخاه وهو راض الامر الذى جعل الناس يبتعدون عن ارتكاب المحالفات اما رغبة أو رهبة ·

ولكي يصبغ على دعوته الصبغة الدينية البحتة ، تظاهر بالنزاهة وصيانة النفس حتى يكون قدوة لاتباعه ويرغب الناس فى الاقبال على دعوته · كما تواضع مع أتباعه حيث كان يشاورهم فى مختلف الامور · ويقرب السباقين منهم لاعتناق مذهبه والمتفانين فى سبيله · ولا ينفق من مال الدعوة الا عند الضرورة · واذا ما بعث أحدا لامر من الامور لا يطلع عليه غيره من أهل ولا ولد الامر الذى جعل بعض الاتباع يقومون بتضحيات مثالية رجالا ونساء · من ذلك أن رجلا اسمه (كور بن قنبر) اللهيص انفق ماله كله فى سبيل الدعوة ، وخرق ثياب زوجة ابنه كله ـ وهي عروس ـ ليعصب بتلك الخرق جراح المعطوبين من الاتباع وعوضها عليه مالا · كما ان امرأة من أتباعه دميت يداها من كثرة طحن الحبوب للاتباع أيضا · كل هذا بفضل روح التضحية التى غرسها فى النفوس مما جعل أتباعه يثقون به الثقة المطلقة حتى أن بعضهم حينما ادركته الوفاة أوصاه على بنيه . ومما يذكر انه كان يصف لهم ما تنكره العقول فيصدقونه . ولا شك أن هذا يدل على مدى ثقتهم به من جهة ومدى بساطة عقولهم من جهة أخرى (37) .

لقد نمى فى الكتاميين الروح العسكرية ونظمها وقواها والزمهم ذلك ليجعل منهم المعول الذى يهدم به النظام السياسى القائم فى بلدهم أولا وخارجه ثانيا . وذلك أن

لمجتمع الذى عمل على تكوينه يجعل سلطة جديدة فوق سلطة رؤساء القبائل وغيرهم وبذلك هدد سلطة بعض الرؤساء الذين لم يدخلوا فى دعوته · وحول مصالح القبائل التى آزرته الى مصالح عامة تعود فائدتها على المجتمع الذى عمل على تكوينه وفق المذهب الاسماعيلى تذوب فيه سلطة الفرد والقبيلة معا · ومن هنا حدث الصدام بين قبائل كتامة ذاتها الموالية له . والمناوئة لدعوته من جهة ، وبين اتباعه ، وخصومه من القبائل الاخرى خارج كتامة من جهة أخرى هذا بالاضافة الى صدامه مع الاغالبة باعتباره متمردا عليهم ·

لقد مرت عليه فى أول مرحلة من دعوته بايكجان ظروف حرجة للغاية مملوءة بالمخاطر والمخاوف ، ولكنه استطاع مواجهتها بكل حزم وصبر ، واستغل كل ما أمكن للتغلب على مختلف المصاعب والاخطار ، حيث استفاد من استراتيجية الاماكن الطبيعية الحصينة التى وفرت له الحماية · كما استعن عنصر الجوسسة الى أبعد حد حيث انتشر جواسيسه داخل بلاد كتامة ، وخارجها لاستطلاع أخبار الاعداء بصورة مستمرة من أجل تدارك الخطر ، والاستعداد الملائم له · وفى المواجهات العسكرية استعمل طريقة حرب الكر والفر وعدم الالتحام مع العدو فى مواجهات كبيرة يفوقه فيها عددا وعدة (38) ·

وقد يلجأ الى استغلال عامل الزمن لصالحه كما فعل مع الجيش الاغلبي أيضا بقيادة الاحول حينما حاصره بتاروت ، كما يعمد أحيانا الى الحرب النفسية وزرع الحيرة والاضطراب بين صفوف الاعداء والمناورة لكسب المعركة حيث نراه يستعمل أسلحة متنوعة ضد خصومه · وكثيرا ما يستفيد من أحداث التاريخ الاسلامى ويقتدى بالرسول (ص) فى عروانه ويتمثل ذلك فى بث البلبلة بين القبائل المحاصرة له فى تازروت وهو يشبه موقف الرسول (ص) مع أهل الاحزاب الذين حاصروا المدينة المنورة (39) ، وهذا يدل على مدى مرونته وحنكته السياسية ، والعسكرية حيث استفاد من أحداث التاريخ الاسلامى لنشر دعوته · وقد استطاع ان يقر الامن والنظام فى المناطق التى سيطر عليها ، وضرب بكل قسوة على أيدى المفسدين فخافه الناس وهابوا جانبه ، حتى قيل ان الحيوانات تضل هائمة فلا يلتفت اليها أحد . وان اللقيطة تسقط فتبقى فى مكانها ، لا يتجرأ أحد على أخذها .

2 ـ التوسع خارج بلاد كتامة واعلان الخلافة الفاطمية :

مر عمل الشيعى فى هذه المرحلة بخطوتين : تتمثل الاولى منهما فى التوسع خارج بلاد كتامة . وتتمثل الثانية فى اقتحام رقادة عاصمة بنى الاغلب ·

أ ـ التوسع خارج بلاد كتامة : كان عمل الشيعي منظما ومدروسا منذ أن دخل ايكجان مع حجاج كتامة بصفته معلم قرآن الى أن دخل رقادة قائدا لجيش عرمرم ، ظافرا منتصرا وقضى على بني الاغلب ، وأقام الخلافة الفاطمية بحيث نراه لا يقوم بأي عمل الا بعدما يخطط له مسبقا ، ويهيء له وسائل النجاح ويدرسه من مختلف الجوانب ، وذلك أنه سلك سياسة التدرج في غرس المذهب ، وتمكينه ، ومر عمله من بدايته الى نهايته بمرحلتين · المرحلة النظرية التي اعتمد فيها على الدعاية · ثم المرحلة العملية التي استخدم فيها امكانياته العسكرية داخل بلاد كتامة وخارجها · كما استخدم وسائل متعددة في مقاومة خصومه كيفما كان نوعهم (40) ·

ولما رأى بأن مرحلة التكوين الداخلي في بلاد كتامة آتت ثمارها بفضل حملة التطهير الداخلية · وانه تغلب على خصومه المحيطين به في ايكجان ، وأصبحت له قوة يمكن ان يعتمد عليها من ناحية العدد والعدة في تحقيق انتصارات جديدة على نطاق أوسع تطلع الى فتح بعض المناطق الهامة ، والمدن الرئيسية التي كثيرا ما هددته في دار هجرته وبذلك بدا مرحلة أخرى من كفاحه أهم وأوسع من السابق ، نظرا لما ترتب عليها من نتائج في تقرير مصير الدعوة الاسماعيلية ببلاد كتامة خاصة وبالمغرب الاسلامي عامة وتعميق جذورها وتمكينها ·

والملاحظ انه فضل ان يتجه في فتوحاته الاولى شرقا نحو عاصمة بني الاغلب ، ولا شك انه رأى بأن اكبر خطر يهدده في المستقبل انما هو خطر بني الاغلب بالدرجة الاولى · ولذلك اراد أن يقضي على ولاء بلدانهم · ثم يمد يده الى عاصمتهم رقادة (41).

وقد اعتمد في هذا على حماس اتباعه من الكتاميين الناقمين عليهم بسبب سوء تصرفاتهم · كما ان هدف الدعوة الاسماعيلية لم يكن ليقتصر على المغرب الاسلامي فقط ، وانما هذه مجرد مرحلة أولى نحو التوسع في المشرق على حساب الخلافة العباسية · ولذا أراد ان يستولي على تونس ، وطرابلس ليصبح في امكانه التطلع الى فتح مصر المكان الحيوي للعباسيين في تلك الفترة · وبامكان الدعوة الاسماعيلية بعد ذلك ان تطمئن الى النتائج التي حصلت عليها في المغرب ، اذا ما سيطرت على تونس وطرابلس أيضا · وذلك لوجود الصحراء الغربية بين مصر وليبيا · والتي تعتبر حاجزا طبيعيا له قيمته في وجه قوات الخلافة العباسية اذا ما أرادت مهاجمة الاسماعيليين برا · وفعلا لما سيطروا على تونس تمكنوا بسهولة من بسط نفوذهم على طرابلس وبرقة ، وهاجموا بعد ذلك مصر منذ وقت مبكر حيث سهل عليهم الدفاع

عن مكتسباتهم فى المغرب ، كما سهل عليهم مهاجمة مصر نفسها فيما بعد والسيطرة عليهـا أخـــيرا ·

وبالاضافة الى ما ذكرنا سابقا فان الشيعي لم يتجه بفتوحاته الاولى غربا لانـه خشى ان يقع بين فكى رحا الاغالبة من الشرق ، والرستميون ، وبنو مدرار والادارسة من المغرب ، خاصة وان قبيلة رناتة من اخطر القبائل واقواها ، ولاشك أنه رأى بـأن الخطر الذى يأتيه من بنى الاغلب ، اكثر من أي خطر آخر اذ بامكانهم ان يتلقوا اعانات من الخلافة العباسية ، ومن ثم يهددون وجوده · ولذا رأى بأن التغلب على خصومه فى المغرب سهل ميسور اذا ما قضى على بني الاغلب وهذا ما وقع فعلا ·

لقد بدأ بفتح بعض المدن القريبة من مركز اقامته فى ايكجان فبدأ بفتح ميلة التى كثيرا ما هدده خطرها وكان عاملها من طرف بني الاغلب هو موسى بن عياش عـدوه اللدود · واعتمد فى فتحها على الجوسسة بالدرجة الاولى حيث تواطأ معه جماعة من وجوهها فى أصلهم من عرب ربيعة ورئيسهم يقال لـــه حسن بـن احمد فأطلعوه على عوراتها ومواطن الضعف فيها · ففتحها وعين عليها أبا يوسف ماكنون بن ضبـارة الاجاني وعاد بجيشه الى دار هجرته · وقد تم له ذلك فى عهد أبى العباس بن ابراهيم بن الاغلب أو فى عهد أبيه ، وبعد فتحها توجه الى سطيف فحاصرها مدة أربعين يوما حتى مات صاحبها على بن عسلوجة فى الحصار · فانحن أمرها ودخلها وهدم سورها ثم عاد الى ايكجان ، ولكن الاغالبة وجهوا جيشا لقتاله بقيادة أبى عبد الله الاحول (42) الذى استعادها منه · غير أن الشيعي فتحها مرة اخرى فى عهد أبى مضر زيادة الله · وبعد سيطرته على سطيف توجه الى طبنة وذلك ان ابن الاغلب لما بلغـــه خبر سقوط سطيف فى يده بعث جيشا لقتاله بقيادة ابراهيم بن حبشى ، وهو أحد أقارب زيادة الله ابن الاغلب ، وقد بلغ عدد هذا الجيش مائة الف حينما وصل الى قسنطينة وبقـــي متمركـزا بها نحو ستة أشهر ولم يلتحم به الشيعى حتى نفد صبره واستهلـــك معظـم ما معه من المؤن واصطر أخيرا الى مهاجمة ابى عبد الله الذى لاقاه بخيار جنـــوده فى مكان يسمى كبونة فدارت الدائرة على جيش بني الاغلب رغم كثرة عدده ، وذلـك نظرا لقلة كفاءة قائـده الذى لم يحطط لهجومه ، ولم يختر المكان والزمان الملائمين . كما ان جيشه خاض المعركة على ظهور خيوله وبغاله وأن المنطقة وعرة بالاضافة الى عدم وجود معسكر له ليضمد فيه جراحات المعطوبين ··· وولى منهزما وغنم الشيعي عتاده ومؤونته ولاحق فلولـه ·

وبعد ذلك قصد طبنة ففتحها وقد حاول ذلك من قبل فلم يستطع · وكان عاملها من بني الاغلب رجل اسمه حسن بن أحمد بن نافذ المعروف بأبي المقارع · وقد استعمل حصارها سلاح الدبابات (43) حتى طلب أهلها الامان فدخلها وولى عليها عاملا من اسمه يحيى بن سلمان · وعاد الى ايكجان أيضا ومعه أبو المقارع · أما جيش عالية فقد التحق بالاربس ·

وبعد فتح طبنة توجه الى بلزمة التى طرقها عدة مرات من قبل · ولم يتمكن منها ، رغم انه استعمل من أجل ذلك سياسة الارض المحروقة حيث اخذ يتلف غلات أهلها كي يضعفهم اقتصاديا فيستسلموا · ودام على هذا المنوال ثلاث سنوات متتالية حتى انقطع الطعام عنهم · وضيق عليهم الحصار بالدبابات ورمى المدينة بالنار ولم يصلهم الا بعد جهود مضنية وذلك بعدما نفذت مؤونتهم من زاد وسلاح من شدة الحصار (44) .

وبعدما فتح طبنة ، وبلزمة جاءه الجباة بأموال العشور ، فأمر برده على أصحابه بعد ان تبين له أنهم أخذوه بطريق غير شرعى · بينما أخذ مالا جبي من أهل الذمة كجزية على طريقة عمر بن الخطاب استحسنه ، وقبله ، مع أنه دعا كتامة الى ترك صلاة التراويح فى رمضان لانها من سنة عمر (ض) كما ذكرنا . وعلى هذا فللمرء أن يتساءل كيف انكر على الناس الاقتداء بفعل عمر فى قيام رمضان ، ثم قبل مال الجزية الذى اخذ على طريقته ؟ ولا يمكن أن يفسر هذا الا على أساس انه كان فى حاجة الى المال لتدعيم الدعوة ، وجلب الانصار ، بعدما تظاهر بالعدل من قبل · فموقفه هذا يأسي بالدرجة الاولى (45) ·

لقد واصل فتح بقية المدن الاخرى باتجاه الشرق ملاحقا فلول جيش بنى الاغلب ، فتح تيجس (46) بتواطؤ بعض أهلها . كما فتح باغاية بمساعدة بعض أهلها أيضا بعد ان اضطر عاملها على الفرار الى الاربس ، ودخلها بالامان وولى عليها ابنا يوسف المعنون بن ضبارة الاجانى الذى استعمله على ميلة من قبل ، وعاد الى ايكجان (47) ·

وفى جولة أخرى فتح تيفاش (48) ثم تبسة التى تمكن من فتحها بعدما عرف بقناعها الداخلية بواسطة بعض الموالين له من أهلها . ومنها توجه الى بلاد قسطيلية وفتح عدة مدن مثل قفصة ونفطة وغيرهما · ثم عاد الى ايكجان · وبعد أن أعد عدته ، وجمع كل امكانياته استعد لاقتحام الاربس التى تعتبر الخط الدفاعى الاخير عن عاصمة بنى الاغلب فجمع لذلك جيشا قويا بلغ عدده مائتى ألف . كما جمع ابن الاغلب من جهته جيشا جرارة أيضا ، حيث بذل كل من الطرفين ما فى وسعه · واستعد للمعركة بما

عدده من الامكانيات · وحينما التحم الجيشان أبدى كل منهما بسالة ، وشجاعة نادرين · ولكن خطط الشيعي العسكرية كانت أكثر تنظيما واحكاما حيث انتقى عشرة آلاف فارس من خيار الدعاة ووجوه القبائل واهل النكاية وجعلهم في مقدمة الجيش · كما امر بعض الجند أن يسلكوا مسيلة يفاجئون منها أفراد جيش العدو كي تجمع خيولهم · وبفضل خططه العسكرية المحكمة تمكن من النجاح ، ودخل الاربس عنوة وحكم على رقاب أهلها السيف · وذكر انه قتل من أهلها ومن بقي بها من الجند الذين التجأوا الى مسجدها ثلاثين ألفا في امسية واحدة من وقت صلاة العصر الى آخر الليل . وذلك في الرابع والعشرين من جمادى الاخيرة سنة 296 هـ/910 م · ولكن ذكر البعض الاخر انه قتل بها ثلاثة آلاف فقط · ويبدو أن الرواية الاولى أصح لان ما ذكره القاضي النعمان في هذا الصدد يؤكدها . حيث ذكر بانه قتل بها عددا لا يحصى (49) ·

وان دل هذا على شيء فانما يدل على مدى قساوة حروب الشيعي ، حيث لم يرع حتى حرمة المساجد ، ولم يسلم من بطشه اللاجئون اليها · وقد أوقع هذه المذبحة بأهل الاربس بعدما فر ابراهيم بن الاغلب قائد جيش ابي مضر زيادة الله الثالث (290 ـ 296 هـ /903 ـ 910 م) · ولما علم هذا الاخير بهزيمة قوته في الاربس اعد عدته ، وجمع ما قدر عليه من أمواله وجواريه وأفراد عائلته وفر الى المشرق تاركا ملكه لداعي الاسماعيلية الذي هدم عرشه وعرش غيره من أمراء المغرب الاسلامي الآخرين · وأقام على انقاض الجميع ملكا للفاطميين . وقد اراد ابراهيم بن الاغلب قائد الجيش المنهزم بالاربس ان يقوم بالامر بعد فرار زيادة الله حيث توجه الى القيروان ونزل دار الامارة ودعا الناس الى طاعته ومقاومة الشيعي · ولكنهم ثاروا في وجهه خوفا من الفتنة وقالوا له : لا طاعة لك في أعناقنا فلحق بزيادة الله (50) . وبذلك انتهى عهد بني الاغلب الذي استمر من 184 هـ الى 296 هـ/800 ـ 910 م ·

وخلاصة القول فان انقراض دولة الاغالبة على يد الشيعي تعود الى أسباب عدة تتمثل أساسا في احتمائه بسبلة كتامة القوية والناقمة على بني الاغلب . وضعف هذه الامارة العام · وسوء سياسة المتأخرين من رجالها وتسلطهم على الرعية · وتهاونهم بأمر الشيعي في البداية . وانحطاط آخرهم وهو زيادة الله الثالث ، واسناده قيادة جيشه لاناس ليست لهم كفاءة القيادة وسداد الرأي · وبالاضافة الى كل ما تقدم قوة الدعاية النفسية التي قام بها الشيعي بين مختلف أوساط بني الاغلب ، وخاصة بين الجيش · وكذلك وجود موطفين في دولتهم يعتنقون المذهب الاسماعيلي ، ويتعاونون معه من الداخل ويدلونه على عورات ونقائص الاغالبة (51) ·

ان كل العوامل السالفة الذكر تفاعلت فيما بينها وأدت اخيرا الى انقراض دولتهم من الاساس وبذلك فسح المجال لقيام نظام اسماعيلى متطرف فى المغرب الاسلامى ·

ب ـ دخول الشيعي رقادة واعلان الخلافة الفاطمية :

بعدما خرج الشيعي من مختلف المعارك العسكرية ظافرا منتصراً داخل بـــلاد قامة وخارجها وقضى على آخر قلعة للاغالبة بالاربس توجه لاقتحام عاصمتهم رقادة قدم بها عرشا للفاطميين · وقد توجـــه اليها فى جيوش عظيمة هال الناس مظهرها دهشتهم كثرتها · ولما قرب من القيروان توجه للاقاته الاعيان من شيـــوخ وفقهاء فناوه بالفتح ، وطلبوا منه الامان ، فأمنهم على أنفسهم وأموالهم ، وسكن من روعهم طمانهم بنشر العدل واقامة الحق · وكان دخوله اليها يوم السبت غرة رجب سنـــة 296 هـ/910 م (52) ، وذلك فى سبعة عساكر عدد من فيها على ما ذكر ثلاثمائة ألـــف ن فارس وراجل وقارئى يقرأ بين يديه (هو الذى اخرج الذين كفروا من أهل الكتاب ن دبارهم لاول الحشر) « سورة الحشر : 2 » ، وكذلك الآية (كم تركوا من جنـــات عيون وزروع ومقام كريم) « سورة الدخان 26 » · وقد استاء الكتاميون من اعطـــاء مان لاهل القيروان ، لان الشيعي وعدهم من قبل بأن يطلق أيديهم فيها · ومن هنـــا ت الشكول تساورهم فى علاقاتهم مما يدل على أن كثيرا من جيشه انما سار معـــه طمعـــا فى السلب والنهب ·

ولما دانت له البلاد وسيطر على الاوضاع فيها ، وجاءه أهلها طائعين قام ببعض تنظيمات الضرورية لاقرار الامن والنظام · فأولى على القيروان حسنا بن أحمد بن حبرير · كما عين على القضاء بها محمد ابن عمر المروزى الذى كان على المذهب سماعيلى من قبل وأسند اليه تولية القصاة والحكام بمختلف المناطق الخاضعة له · ين العمال على مختلف البلدان ونادى بالامان وأمـــر الناس بالعودة الى ديارهم مارسة اعمالهم وأمن بعض من بقي بالقيروان من بني الاغلب وقوادهم · كمـــا بعض البعض من رجالهم ومواليهم · ومنع شرب الخمر وقتل متعاطيه أو حامله · مر بقتل من خرج ليلا ، وجمع أموال زيادة الله وجواريه وسلاحه وأسند النظر ا الى احد ثقاته يقال له أحمد بن فروح الطبني الاحدب ، وعمل على صيانتها وحفظها ى جاء عبيد الله المهدى فسلمها له وارضى الكتاميين خاصة حيث اقطعهم الاقطاعات نحم الهبات · ولما جاء المهدى اعطاهم من جواري زيادة الله وأولاهم الولايات وأسبغ هم العطاء أيضا (53) · ولما حضرت الجمعة أمر الخطباء الا يذكروا فيها اســـم

أحد لانه لم يعرف المهدى بعد ، وأمر بضرب السكة وولى عليها أبا بكـــر الفيلسوف المعروف بابن القمودى ، وسميت (السيدة) ولم يكتب عليها ايضا اسم أحد وكتب على احد وجهيها « بلغت حجة الله » وعلى الوجه الآخر « تفرق أعداء الله » ونقش عـلى السلاح « عدة فى سبيل الله » ووسم الخيل فى أفخاذها « الملك لله » ٠

كما نقش على خاتمه « فتوكل على الله انك على الحق المبين » (سورة النمل : 78) وعـلى خاتم السجلات « وتمت كلمات ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته وهو السميع العليم : سورة الانعام 114 » كما كتب على بنوده « سيهزم الجميـــع ويولون الـدبر سورة القمر . 44 » وأمر بالصلاة بعد النبي (ص) على علي وفاطمة وأبنائهما ، كما أمر بزيادة « حي على خير العمل » فى الاذان ، وترك « الصـلاة خير من النـوم » فى أذان الصبح ، وأظهر المذهب الاسماعيلى والعمل به وترك ما سواه (54) حيث كبت الحرية المذهبية منذ البداية ، ولكن سياسته هذه كونت رد فعل سيء وسميت بالدعوة الى التشريق لانها تهدف الى اتباع رجل مشرقى ، وهو أبو عبد الله الشيعي ٠ وقـد قتل وسجن بعض من لم يستجب اليها ٠

ويبدو لنا مما تقدم انه اتخذ أول امره شعارات براقة كي يجلب الناس اليه حتى يتمكن نفوذه ٠ ولكنه سرعان ما ظهر على حقيقته وبادر بغـرس المذهب الاسماعيلى وفرضه ٠ فلما جـــاء شهر رمضان أمـر باسقاط صلاة التراويح فى مختلف المناطق الخاضعة له ، وانتقد المروزي قاضى القضاة ، الناس فى الاقتداء بفعل عمر بن الخطاب فى قيام رمضان ، وتركهم الاقتداء بفعل على بن أبى طالب فى زيادة « حي على خير العمل » فكان لهذا رد فعل عنيف حيث وقف عليه يوما أحد عامة الناس بالمسجد وقال له ما معناه : لقد احتلت لنا فى ترك قيام رمضان فلو احتلت لنا أيضا فى ترك صيامه لكفيتنا عناءه ، كما كتب مكان جلوسه بالمسجد (ومن اظلم ممن منع مساجد الله أن يذكر فيها الله وسعى فى خرابها) « سورة البقرة 114 » فاضطر ان يجلس فى مكـان آخر (55) ٠ وان دل هذا على شيء فانما يدل على مـــدى غضب الناس من السياسة المذهبية التى طبقها الاسماعيلية منذ بداية عهدهم ، والتى نتج عنها فيما بعد صراع مذهبى حاد ، ومقاومة عنيفة ٠ وخاصة من طرف المالكية ٠

ومهما يكن من أمر فان الشيعي استطاع أن يقضى على امارة بنى الاغلب ، ويعلن قيام الخلافة الفاطمية مكانها ، حيث رفع شعاراتها ، وطبق مذهبها ، ووضع الاسس الاولى لادراتها فى مختلف المجالات ، فسك العملـة ، ونظم القضـاء ، ودون الدواوين ،

تعيين الولاة ، ورسم الخطوط العريضة لسياستها الداخلية فى مختلف المجالات ، من ادارية ، وسياسية ، وقضائية وغيرها . وعبيد الله المهدى الخليفة الاول لا يزال بسجلماسة معتقلا · ولما أقر الامن والنظام ، ووطد أمور الخلافة توجه لاطلاق سراحه ·

ى) **التوجه الى سجلماسة لاطلاق سراح المهدى** : بعدما قام الشيعي بالتنظيمات الضرورية الاولى فى رقادة ، ورسم الخطوط العريضة للسياسة العامة لرجاله كي يسيروا عليها ، استخلف عنه أخاه أبا العباس المخطوم ، وأبا زاكي تمام بن معارك الاجانى (56) . ونهض الى سلجماسة ـ عاصمة بنى مدرار ـ لاخراج عبيد الله المهدى المعتقل بها · ولاشك أنه اعتقد بأن كل ما قام به من مجهود فى سبيل المذهب الاسماعيلى وانشاء الخلافة الفاطمية لا قيمة له ما دام امام الدعوة ، وصاحبها الشرعى معتقلا · ولذا عجل بالمسير اليه ، حيث لم يبق برقادة الا شهرين ونصفا أعد خلالها عدته وهيأ ما يلزم من مال وعتاد ورجال · وقد أخطر مختلف المناطق بذلك ، حيث كتب بشأن خروجه كتابا ، وبعث بنسخ منه الى مختلف مناطق افريقية ليقرأ على منابرها ·

كان انطلاقه من رقادة فى منتصف شهر رمضان ، سنة 296 هـ/910 م فى جيوش كثيرة العدد ، والعدة (كالدبى المنتشر) ، وسبقته شهرته وخافه خصومه ، وخاصة قبيلة رناتة لانها قتلت رسله من قبل الى عبيد الله المهدى · وقد أقام الرباطات فى مختلف المناطق الخاضعة له . وسار البعض معه راجلا احتسابا فى اعتقاده لله تعالى كذلك مثل الفقيه الحنفى أحمد بن محمد بن سيرين وغيره · ولذا عين فيما بعد على قضاء مدينة برقة (57) · ولاشك أن هذا ان دل على شىء فانما يدل على مدى مهارة أبى عبد الله الشيعي فى نشر الدعوة الاسماعيلية ، وتمكينها · كما يدل على مدى القيمة التى أعطاها البعض لعبيد الله المهدى وهو بمعتقله فى سجلماسة ·

لقد أنزلت قواته الجرارة الرعب والفزع فى نفوس خصومه وفى نفوس بعض القبائل التى لا تزال متشككة فى قوته ، حيث اذعنت جميعا لسلطانه · ولما وصل الى تهرت ـ عاصمة الرستميين ـ لم يلق بها مقاومة معتبرة لان دولتهم كانت فى حالة ضعف لعدة أسباب فى مقدمتها انهماك المتأخرين من رجالها فى ملذاتهم ، والتنافس فيما بينهم على السلطة فضعفت هيبتهم وكرهتهم العامة . ولذا لم يستطيعوا مقاومة جيشه الداهم ، فدخل عاصمتهم بالامان ، وقتل آخرهم يقظان بن أبى اليقظان (296 ـ 907/296 هـ ـ 910 م)فى جماعة من أهل بيته وبعث برؤوسهم الى رقادة للتشهير بها فطوفت بالمدينة ثم نصبت على بابها ، وبذلك وضع حدا لنهاية هذه الدولة الاباضية

التي عمرت أكثر من مائة وثلاثين سنة . وأولى على تيهرت دواسا بن صولات اللهيصى وابراهيم بن محمد اليماني المعروف بالهوارى · والملاحظ انه اناب عنه فى رقادة رجلين كما ذكرنا من قبل · وقد يكون المقصود من هذا هو جعل السلطة مشتركة بين الاثنين خوفا من استئثار احدهما بها ومحاولة الاستقلال بالنفوذ ·

وأمام خطره الداهم فر بعض الاباضية من تيهرت الى مراكز عدة فى الجنوب واتخذوها ملجأ لهم مثل ورقلة وصدراتة ، وغيرهما · ومما يذكر انه أتلف ما فى تيهرت من آثار الرستميين الحضارية ومنها « مكتبتها » التى كانت طعمة للنيران كما يذكر البعض وان الدخان بقي يتصاعد منها عدة أيام ، وان تسعة أعشار كتبها احرقت ، واحتفظ الشيعي بما رآه صالحا منها مثل كتب العلوم والفنون ، والطب · واما الكتب الاحرى التى تبرز شخصية الرستميين فى أجلى مظاهرها كالتاريخ والادب ، والفقه فقد احرقت (58) ، ولاشك ان هذا لا يخلو من مبالغة لاننا لم نعثر فى المصادر التى رجعنا اليها مما يدل على ان الشيعي احرق مكتبة الاغالبة فى رقادة من قبل ، وهم من أشد حصومه ، وان الاسماعيليين لحقهم اضطهاد كبير من طرف العباسيين أكثر من غيرهم · وعلى كل فليست لدينا الى حد الآن نصوص مقنعة تثبت صحة هذا الخبر ·

وبعدما سيطر على الاوضاع فى تيهرت ، وترك بها رجال ادارته ، وجيشه ، واصل زحفه على سجلماسة · ولما بلغ خبر الى أميرها اليسع بن مدرار (270 ـ 296 هـ 883 ـ 910 م) ضيق الرقابة على عبيد الله وفرق بينه وبين ابنه أبى القاسم ، وسأله عن علاقته بالشيعي فانكر مصرفته ، وحينما علم الشيعي بذلك بعث الى ابن مدرار يطلب منه اطلاق سراح المهدى ويعده بالانصراف ، ويبين له بأنه لا يقصد حربه ، وانما يريد أمرا هاما عنده سيكشف له عن فحواه حينما يصل . غير أن ابن مدرار قتل رسل الشيعي وامتنع من اطلاق سراح المهدى ، ثم بعث اليه وفدا مرة ثانية فقتل أفراده أيضا وبذلك ازدادت مخاوف الشيعي على عبيد الله وابنه : كما ازداد حقده على ابن مدرار (60) ·

ولما وصل الى سجلماسة يوم السبت سادس ذي الحجة سنة 296 هـ 910 م ، حاصرها حصارا شديدا فقاومه صاحبها ، ولكنه لم يصمد فى وجه الجيش الغازي الا يوما واحدا وذلك نظرا لتفوق خصمه عددا ، وعدة ولم يجد أمامه طريقا الى الخلاص الا الفرار مثل ما فر من قبل زيادة الله بن الاغلب ، وخرج من عاصمة ملكه ليلا ودخلها الشيعي فى اليوم التالى ، واخرج المهدى وابنه من سجنهما · ولما رآه ترجل

احتراما له ، وخضع بين يديه وبكي من كثرة سروره · وقال لمن معـه : (هذا مولاي ومولاكم قد انجز الله له وعده ، واعطاه حقه · واظهر أمره) وانتهب جيشه سجلماسة وذكر البعض انه أمر باحراقها كعادته ، وسلم الامر لعبيد الله المهدى · وبذلك قضى على دولة بني مدرار التى دامت نحو مائة وستين سنة · كما جرد نفسه من النفـوذ الذى كان يتمتع بـه من قبـل (61) ·

وبعد ما سيطر عـلى الوضع فى سلجماسة بعث فى طلب اليسع بن مدرار وتمكن من القاء القبض عليه وقتله مع جماعة من أهل بيته · وقد ذكر خبر فراره وقتله فى الرسالة التى بعث بها الى القيروان يبشر فيها بانتصاره بما نصه · (ثـم قفوت اثـر الخائن بنفسي فى طلبه عشرة أيام حتى امكنني الله منه بلا عقد ولا عهد · فأتيت به فى وثائق الى ولى الله ليكون عضة لاهل الشقاق والنفاق) (62) .

لقد بقي عبيد الله المهدي بسجلماسة أربعين يوما حيث نظم امورها الادارية وعين عليها واليا من قبله هو ابراهيم بن غالب المزاتى · وتـرك معـه حامية من الجيش ، وغادرها الى رقادة ، ولكن أهل سجلماسة بادروا بالثورة على عامله وقتلوه مع عدد من جيشه وذلك بعد خروجه منها بأيام قلائـل وولوا عليهم واسولا بن الامير مدرار المقتول · ولم يستعد المهدي نفوذه عليها الا فى سنة 307 هـ/921 م فى حملة مصالة بن حبـوس العسكرية ·

لقد واصل عبيد الله المهدي طريقه الى رقادة ، عاصمة ملكه الجديد ، ومر بايكجان دار هجرة الشيعي الاولى فأخذ ما بها من الاموال (وجعلها احمالا) ووصل فى نهاية شهر ربيع الآخر سنة 297 هـ/911 م فلاقاه أعيان القيروان وبايعوه البيعة العامة · وبذلك استلم زمام الامور فى رقادة (63) · وقد وجد دولته قائمة تامة الشروط · فأقر كثـيرا من أعمال أبى عبد الله الشيعي الادارية وأمر أن يدعى له بالخلافة على المنابر لمـا حضرت صلاة الجمعة فى كل من رقادة ، والقيروان ، ومختلف الامصار · وبذلك تسلم مقاليد الخلافة الفاطمية بصورة رسمية ·

ولكن الخليفة الاول الفاطمى واجهته ظروف صعبة ، وثورات متعددة منذ وقـت مبكر فى مقدمتها المعارضة التى تزعمها أبو عبد الله الشيعي ، منشىء دولته ومحرره من قبضة بنى مدرار · ورغم ذلك فانه لم يرع حرمته وقتله فى منتصف شهر جمـاد الثانى سنة 298 هـ (64) وقد أحدثت هذه المعارضة هـزة عنيفة وأوشكت أن تحـدث انشطارا خطيرا فى صف الاسماعيلية بالمغرب الاسلامى . وذلك نظرا للسمعة التـى كان يتمتع بها زعيمهـا . غـير أن عبيد الله استطاع أن يقضى عليها فى المهـد ، وذلك بفضل ما أوتي من مكر ودهاء ·

الخلاصة : يمكن أن نستخلص من هذه الدراسة النتائج التالية :

1) ان مركز التكوين السياسى والعسكرى للدعوة الاسماعيلية هو ايكجان ، بفج الاخيار بالشرق الجزائرى وتمتاز هذه المنطقة بحصانتها الطبيعية فهي تنوسط قبيلة كتامة الكثيرة العدد والعدة · وقد كانت دار هجرة الشيعي ما يقرب من ستة عشر سنة وبذلك يمكن القول بأنها العاصمة الاولى لدعوة الاسماعيلية بالمرحلة المغربية قبل غيرها من العواصم الاخرى كالمهدية والمنصورية ·

2) ان نجاح الشيعى فى انشاء الخلافة الفاطمية بالمغرب الاسلامى يعود الى دهائه السياسى ، واخلاصه للمذهب الاسماعيلى · وذلك فى الوقت الذى كانت فيه دويلات المغرب فى حالة ضعف عام نتيجة عوامل متعددة فى مقدمتها سوء سيرة المتأخرين من رجالها ، وكره عامة الشعب لهم ، خاصة وأن الشيعي تظاهر بالعدل والنزاهة وصيانة النفس والغيرة على الدين ·

3) يعتبر الكتاميون بحق الجنود المخلصون فى سبيل الدعوة الاسماعيلية ، حيث كانوا الاداة الفعالة التى استخدمها الشيعي بكل حزم وحنكة · فبفضل سيوفهم وتضحياتهم نجحت هذه الدعوة التى لعبوا الدور الاساسى الاول فيها فى الميدان العسكرى بصفة خاصة ، ليس فى المغرب فقط بل وفى المشرق أيضا · فدور جعفر بن فلاح الكتامى فى قيادة الجيش الفاطمى لمقاومة القرامطة بالشام خير مثال على ذلك (65)

4) لقد سلك الشيعي سياسة «فرق تسد» حيث استعمل الكتاميين الذين أيدوه لضرب من عارضه منهم كما استعمل فيما بعد هذه السياسة لضرب المغاربة ببعضهم البعض من أجل الوصول الى اهدافه وسار على دربه فى هذا المجال الخلفاء الفاطميون خلال المرحلة المغربية · وبذلك كان المغاربة أكباش الفداء على مذبح الدعوة الاسماعيلية ومن اجل رفع رايتها ·

5) ان نجاح الشيعي فى اقامة الخلافة الفاطمية ادى الى تغيير الاوضاع السياسية السائدة بالمغرب الاسلامى وفصله نهائيا عن الخلافة العباسية · وبالتالى انتشر فيه المذهب الاسماعيلى المتطرف بصورة رسمية : وتحقق للاسماعيلية ما عجزت عن تحقيقه بالمشرق مكان الدعوة الاصلى وعمد رجالها الى فرض مذهبهم وسلطانهم بالقوة · ولكن هذه السياسة كان لها رد فعل عنيف من طرف السكان · ومن هنا كان عهدهم مليئا بالثورات والحروب فى مناطق متعددة . وترتبت عليها نتائج سلبية فى مختلف المجالات من سياسية ، واقتصادية ، واجتماعية ، وغيرها ·

التعـــــاليـــق

33 ـ ابن عـذارى ، I : I27 ·

34 ـ القاضى النعمان ، ص 74 ، 78 ، 96 ، ابن عذارى ، I : I28 ·

35 ـ نفســـه ، ص I27 ·

36 ـ ابن الاثير : 6 : I33 : ابن عذارى ، I : 243 ، 244 · مقدمة ابن خلدون ، ص 276

37 ـ القاضى النعمان ، ص I24 ، I32 ، ابن عذارى ، I : I28 ·

38 ـ نفســـه ، ص II4 ، I58 ·

39 ـ نفســـه ، ص I37 ، I45 ، سيرة ابن هشام · 3 ، 229 ·

40 ـ نفســـه ، ص I0I ، I08 ، I26 ·

41 ـ Golvain Le Maghreb Central à l'époque des Zérides, pp. 51-52.

42 ـ القاضى النعمان ، ص I35 ، I66 ، ابن الاثير ، 6 : I28 : I30 ·

43 ـ الدبابة الة حربية تصنع من جـــلد ، وخشب ، ويدخـــل فى وسطها المقاتلون ويتخذونها أداة للهجوم ، حيـــث تقيهم من ضربا تالعـدو . وسميـت دبابـــة لانها تدفع فتدب أنظر ابن منطور ولسان العرب ، 1 : 938 .

44 ـ القاضى النعمان ، ص I64 ، I65 ، ابن الاثير ، 6 : I30 ·

45 ـ ابن عـذارى ، I : I27 ، I4I ·

46 ـ تقع غرب الاربس ، وصفت بانها شامخة البنيان ، البكرى ، المغرب فى ذكـــر بلاد افريقية والمغرب ، ص 53 ·

47 ـ القاضى النعمان ، ص I69 ، البكرى ، ص 50 ·

48 ـ وصفت بانها مدينة أولية ، وتسمى أيضا تيفاش الظالمة ، وتقع بشرق صدراتة ، البكـــرى ، ص 83 ·

49 ـ افتتاح الدعوة ، ص 205 ، البكرى ، ص 46 ، ابن الاثير ، 6 : 132 .
ابن عـذارى ، I : I47 ·

50 ـ القاضى النعمان ، ص 2I0 ، ابن عـذارى ، I : I48 ·

5I ـ نفسه ، ص I58 ، ابن الاثير ، 6 : I23 : ابن عذارى ، I : I35 ·

52 ـ نفسه ، ص 2I3 نفسه ، 6 : I32 ·

53 ـ نفسه ، ص 256 ، ابن عذارى ، 1 ، 150 .

54 ـ ابن الاثير ، 6 ، 132 ، نفسه ـ 1 ، 151 .

55 ـ ابن عذارى ، 1 : 152 .

56 ـ ورد ذكره (الاسجاني) في سيرة الحاجب جعفر ولعل ذلك تصحيف اذبيدو ان الاجاني اصح وذلك نسبة الى اجانة احدى مناطق بلاد كتامة ، انظر مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، م 4 ، ج 2 : 123 .

57 ـ القاضي النعمان ، ص 232 ، ابن عذارى ، 1 : 152 ، 153 .

58 ـ ابن عذارى 1 153 ور الدين حاطوم وجماعة ، موجز تاريخ الحضارة 1 ، 524

59 ـ لقبال موسى ، الحسبة المذهبية في بلاد المغرب العربي ، ص 69 . دبوز ، تاريخ المغرب الكبير ، 3 : 618 .

60 ـ القاضي النعمان ، ص 237 ، ابن الاثير ، 6 . 133 الباحي المسعودي ، الخلاصة النقية في امراء افريقية ، ص 37 ، مجلة كلية الآداب جامعة فؤاد الاول م 4 ، ج 2 : 124 .

61 ـ ابن حماد ، اخبار ملوك بني عبيد ، ص 9 ، خطط المقريزي ، 1 : 350 .

Golvin, p. 52.

62 ـ القاضي النعمان ، ص 244 ، ابن عذارى ، 1 : 154 ، 257 .

63 ـ نفسه ، ص 254 ، ابن الاثير ، 6 : 133 ابن عذارى ، 1 : 153 .

64 ـ المقريزي ، اتعاظ الحفا ، 1 ، 68 .

65 ـ نفسه ، 1 ، 121 ، 122 .

مصـــادر ومـراجـع الدراســـة

1) **الاصطخرى** : أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسى المعروف بالكرخى (ت 346 هـ)

ـ المسالك والممالك ، تحقيق : محمد جابر عبد العال الحينى ·

2) **الادريـــسى** : الشريف (ت 548 هـ) .

ـ وصف افريقيـا الشماليـــة والصحراوية ، تصحيـح : هنرى بـيريس . الجزائر 1376 هـ/1956 م ·

3) **ايفانـوف** (نـاشـر)

ـ سيرة الحاجب جعفر بن على ، مجلة كلية الآداب ، جامعة فؤاد الاول ، مجلد 4 ج 2 ، ديسمبر 1936 م ·

4) **ابن الاثـير** . أبو الحسن على بن ابى الكرم (ت 630 هـ) .

ـ الكامل فى التاريخ جـ 6) ، نشر دار الكتاب العربى ، بيروت 1387 هـ/1967 م ·

5) **البكـرى** أبو عبيد الله بن عبد العزيز (ت 487 هـ) .

ـ المغرب فى ذكر بلاد افريقية والمغرب ، تحقيق دوسلان ، نشر مكتبة المثنى بغداد

6) **ابن خلدون** : أبو زيد عبد الرحمن بن محمد (ت 808 هـ) ·

ـ المقدمة والكتاب ، نشر دار الكتاب اللبنانى ، بيروت ، 1976 م ·

7) **ابن عبد ربه** : أبو عمر أحمد (246 ـ 328 هـ) ·

ـ العقد الفريد (ج 2) تحقيق أحمد أمين وآخرين ، مكتبة النهضة المصرية (ص 27) القـاهرة ، 1962 ·

8) **ابن حوقل** : أبو القاسم النصيبى (ت 367 هـ) ·

ـ صورة الارض ، مكتبة الحياة ، بيروت ·

9) **ابن هشـــام** :

ـ السيرة النبوية (م 3) تحقيق مصطفى السقا وجماعة (ط 2) طبع مصطفى الباي الحـــلى ، القاهـرة ·

10) **ابن منظـــور :**

ـ لســـان العـرب (م 1) ·

11) **بروكلمـــان :** كارل

ـ تاريخ الشعوب الاسلامية . تعريب نبيـه أمـــين فارس ومنير البعلبكى ، ط 5 بـــيروت 1968 ·

12) **ابن عـذارى :** أبو عبد الله محمد المراكشى (ق 8 هـ) ·

ـ البيان المغرب فى أخبار الاندلس والمغرب (ج 1) تحقيق ج· س كولان ، واليفى بروفنسال بـيروت ·

13) **ابن حـزم :** أبو محمد علي بن أحمد (ت 456 هـ) ·

ـ جمهرة انساب العـــرب ، تحقيق عبد الســلام محمد هارون ، دار المعارف ، القاهرة ، 1382 هـ/1962 م ·

14) **أبو الفـداء** : عماد الدين اسماعيل (ت 732 هـ) .

ـ تقويم البلدان ، تصحيح رينود ديسلان ، باريس ، 1840 ·

ـ المختصر فى أحبار البشر (ج 2) المطبعة المسينية ، القاهرة .

15 ـ **البـاجـــي :** محمد المسعودى ت 1253 هـ/1837 م ·

ـ الخلاصة النقية فى أمراء افريقية ، تونس 1323 هـ ·

16 ـ **ابن حمـاد :** أبو عبد الله محمد بن علي الصنهاجى (ت 548 هـ) ·

ـ أخبار ملوك بني عبيد وسيرتهم ، طبع جول كوربونل ، الجزائر ، 1346 هـ ·

17 ـ **القاضى النعمان :** أبو حنيفة النعمان بن أبى عبد الله التميمى المغربى (ت 363 هـ)

ـ افتتاح الدعوة ، تحقيق وداد القاضى ، دار الثقافة ، بيروت ، 1970 ·

18 ـ **لقبال موسى** ·

ـ الحسبة المذهبية فى بلاد المغرب الاسلامى نشأتها ، وتطورها ، نشر الشركة الوطنية ، الجزائر ·

19 ـ **الحمـوى** : شهاب الدين أبو عبد الاله (ت 626 هـ) ·

ـ معجم البلدان (ج) بيروت 1955 ·

20 ـ **الجيـلالى** : عبد الرحمن ·

ـ تاريخ الجزائر العام (ج 1) المطبعة العربية . الجزائر . 1955 م .

21 ـ **حسـن ابراهيم حسن** :

ـ تاريخ الدولة الفاطمية فى المغرب ومصر ، وسوريا وبلاد العرب ، ط 2 مكتبـة النهضة المصرية ، القاهرة ، 1962 ·

22 ـ **جـرجرى زيدان** :

ـ تاريخ التمدن الاسلامى (ج 5) نشر مكتبة الحياة ، بيروت 1967 ·

23 ـ **مـاجـد عبد المنعم** :

ـ ظهور خلافة الفاطميين وسقوطها فى مصر ، دار المعارف ، القاهرة ، 1968 ·

24 ـ **الشهرستانى** : أبو الفتح عبد الكريم (ت 548 هـ) الملل والنحل ؟

25 ـ **النوبختى** : أبو محمد الحسين بن موسى (ت 310 هـ) ·

ـ فرق الشيعة تصحيح زيزر ، مطبعة الدولة اصطمبول 1921 هـ ·

26 ـ **فنسـك وجماعـة**

ـ دائرة المعارف الاسلامية ، تعريب محمد ثابت الفندي ، وجماعة ، 1933 ·

ـ **اليعقوبى** ، احمد بن أبى يعقوب بن واضح (ت 684 هـ) ·

ـ كتـاب البلـدان ·

ـ **المقريزى** ، تقي الدين أبو العباس (ت 845 هـ) ·

كتاب المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار مؤسسة الحلبى وشركائه القاهرة 1967

ـ اتعاظ الحنفا بأخبار الائمة الفاطميين الخلفاء (ج 1) تحقيق جمال الدين الشيال التحرير ، القاهرة 1387 هـ/1967 م ·

ـ **نبـوز محمد علي** :

تاريخ المغرب الكبير (ج 3) طبع عيسى الباي الحلبى ط 1 ، القاهرة 1384 هـ/1964 م

خريطة بلاد كنعان

حول انتقادات الشيخ حسن بغدادى

أحمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى
ـ الجزائر ـ

اطلعنا على الانتقادات الموجهة من الشيخ مولاى حسن بغدادى الى الخطبه الجمعية التى كان موضوعها الكلام على بعض آيات (الفاتحة) ، وزعم أن بها أخطاء كثيرة عد منها 22 ، منها ما هو شنيع وخارج عن الصواب لغة وشرعا . وضرب لها امثله أربعه فى أحدها زعم أننا تقولنا على رسو ل الله (ص) ـ عياذا بالله ـ وفى الآخر اننا استعملنا ما لا تعرفه العرب فى لغتها .

وانا لنستغفر الله ونتوب اليه ونتبرأ من ادعاء العصمة من الخطإ ، ومن دعوى الرسوخ فى علم الدين أو اللغة ، ونستلهمه الصواب ونستعيذ به من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا .

ثم نعاتب هذا الاخ على نهجه الشديد . وبعد ان تأملنا فيما ضربه من أمثلة لما زعمه خطيا وخارجا عن الصواب لغة وشرعا وجدناه أوهاما وادعاءات ناتجة عن قلة تبصر ،

وخبرة بالتفسير ، واطلاع على أقوال الائمه . وعن البضاعة المزجاه ـ كحالنا ـ فى الحديث ، وعن سوء تطبيق قواعد اللغه على النصوص ، وهاكم البيان . وبالله التوفيق :

اولا . النص المسفد فى تفسير (الرحمن الرحيم) هو ما جاء فى قول الشيـــخ : (... من ذلك الاخطاء ما هو سمع وخارج عن الصواب لغه وشرعا كوصف اللـــه **بالرقيق** حيث جاء فى الخطبة هكذا (ولكنه الرحمن الرحيم الرفيق الرفيق على من أحب أن يرحمه والبعيد الشديد على من احب أن يعنف عليه الخ . ومن المعلوم دينا أن الرفيق والبعيد صفتان محال أن توصف بهما تعالى على أى وجه من الوجوه) ا هـ .

وما جاء فى الخطبه كتفسير لقوله تعالى (**الرحمن الرحيم**) من الفاتحه لم يكن من اجتهاد محرر الخطبه ، ولا فصل له فيه . ولا وزر عليه بلزومه ان أخطأ . وانما هو نقل أمين لتفسير حبر الامه وترجمان القرآن عبد الله بن عباس رضى الله عنهما رواه عنه بسنده المتصل سيخ المفسرين وامامهم أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفســـيره الشهير (جامع البيان) . ونقله عن ابن جرير الامام السلفى الكبير الحافظ بن كثير . وعلى تفسير هذين الامامين يقوم كل المفسرين السلفيين ومنهم اسيادنا الشيخ ابن باديس ، وامام المصلحين السيد محمد رشيد رضا رحمهما الله .

قال الامام أبو جعفر محمد بن جرير الطبرى فى تفسيره لقوله تعالى فى البسمله (الرحمن الرحيم) فى الجزء الاول صفحه 44 ـ الطبعه الاولى ما نصه :

(وأما القول الآخر فى تأويله فهو ما حدثنا به أبو كريب قال حدثنا عثمان بن سعيد قال حدثنا بشر بن عماره قال حدثنا ابو روق عن الضحاك عن عبد الله بن عباس قال . والرحمن الفعلان من الرحمه وهو من كلام العرب . قال الرحمن الرحيم الرقيق الرفيق بمن أحب أن يرحمه ، والبعيد الشديد على من أحب أن يعنف عليه وكذلك أسماؤه المهـــا .

وهذا التأويل من ابن عباس يدل على ان الذى به ربنا رحمن هو الذى به رحيم وان كان لقوله الرحمن ما ليس لقوله الرحيم لانه جعل الرحمن بمعنى الرقيق على من رق عليه ومعنى الرحيم بمعنى الرقيق بمن رق به) ا هـ . بالحرف الواحد . فقد نص

ابن جرير على اثبات تفسير الرحمن بالرقيق لحبر الامه ابن عباس ، وتفسير الرحيم بالرفيـــق ٠

ونقل عنه هذا المفسير بن كثير من قوله جدنا الى قوله وكذلك اسماؤه كلها ٠ وابن عباس رضى الله عنهما فسر الرحمن الرحيم بالرقيق الرفيق بعد أن قال : الرحمن الفعلان من الرحمه وهو من كلام العرب) وهو تفسير لغوى لان الرحمة ـ لغة ـ رقة فى القلب وحنان يدفع الى السعفه والعطف والاحسان . ورحمه الله لخلقه تفسر بأثرها وهو الاحسان ، وكذلك البعد من الله والقرب لا يفسران بالبعد والقرب الزمانى أو المكانى ، فالله سبحانه لا يتصف بذلك ، وهو منزه عن الزمان والمكان ، وانما القرب وصول الاحسان والعنايه الربانية والاستجابة (**واذا سألك عبادى عنى فانى قريب أجيب دعوة الداعى اذا دعانى**) ٠

والبعد الحرمان من ذلك والطرد من رحمه الله ، واللعين : الطريد المبعد من رحمة الله ٠ فقول مولاى الحسين ومن المعلوم أن الرفيق والبعيد محال أن يتصف بهما الله تعالى على وجه من الوجوه) جوابه أن ابن عباس وغيره ـ لم يجعلهما من أسماء الله الحسنى ـ حتى نأتى أنت وتجهله بأن لا يعرف معلوما لك من الدين ، وانما هو تفسير ـ بمقتضى اللغة فسر به أسماء من أسمائه مقصد بأنه سبحانه مخالف فى ذاته وصفاته وأسمائه لخلقه جميعا ، ليس كمثله شىء واذا لم تأخذ بتفسير ابن عباس لنص قرآنى ـ لغة وشرعا ـ فهل ننتظر منا تأسينا أنت به يا مولاى ؟

ثانيـــا زعم أن فى الخطبة أحاديث يوجب تصرف فيها بالزياده والنقصان مما يعد تقولا على الرسول المعصوم وذلك لا يجوز فى روايه الحديث مطلقا) ٠

هذا قول مرسل على عواهنه ، ليس له ميزان ٠ ونحن نتحداه أن يذكر لنا حديثا واحدا فعل به ما ادعاءه فضلا عن **أحاديث** وهو جمع كثره . بل هو **من صيغ منتهى الجموع** كما لا يخفى على حضرته وقد بلغ من معرفته باللغة ـ كما يأتى ـ **أن ينكر** استعمالا عربيا صحيحا ويجعله مما لا يعرفه العرب فى لغتها ٠

وأما المثال الذى ذكر من التصرف فى الحديث بالزيادة والنقصان وعده تقولا على

رسول الله صلى الله عليه وسلم ـ والله وكيلنا ونعم الوكيل ـ فانه يدل على استهتار وقلة تدين ، ودعوى عريضه فى علم الحديث ومعرفه متنه وصحيحه وسقيمه .

فهو يقول فى مقاله الذى سبقه نقلا عن الخطيب :

(وفى حديث آخر أن رجلا دخل الجنه فى كلب عطشان ... ولعل محرر الخطبة جعل هذا الحديث مقابل ما صح فى الاثر المشهور (دخلت امرأه النار فى هرة ...) والفرق بينهما واضح وإذ اصحيح مما واسنادا، وذلك لا يصح و لايجوز لماذكرنا) اهـ .

التمس فى هذا مجازفه كبرى ، ورجم بالغيب . وظن سوء باخ . وتأويل فاسد لنص واضح ، واى صله بين حديث المرأه صاحبه النار فى الهره ، وحديث الرجل صاحب الجنه فى الكلب ؟ واى غرور يبلغ الانسان أن يدعى أنه أصبح مطلعا على الحديث كله ، فيقول بداهه ودون بحث هذا (اثر) صحيح متنا واسنادا وهذا لا يصح ؟ . ويعجبنى ما روى ان أحد ائمه الحديث ـ بحق ـ انكر فى مجلس على رجل حديثا رواه فقال الرجل : أنى حديث رسول الله (ص) نرفعه ؟ فلما قال الرجل فاجعل هذا مما لم تعرفه فافحمه .

ان الحديث الذى انكر وجوده من اصح الاحاديث المرويه اتفق عليه الشيخان البخارى ومسلم فى صحيحهما . ورواه مالك فى الموطا ، وأبو داود فى سننه ، وابن ماجة فى صحيحه . وهذا نصه كما ورد فى الموطا : فى باب جامع ما جاء فى الطعام والشراب :

وحدثنى عن مالك عن سمى مولى أبى بكر عن أبى صالح السمان عن أبى هريرة ، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : « بينما رجل يمشى بطريق اذ اشتد عليه العطش فوجد بئرا فنزل فيها فشرب وخرج فاذا كلب يلهث يأكل الثرى من العطش فقال الرجل لقد بلغ هذا الكلب من العطش مثل الذى بلغ منى فنزل البئر فملأ خفة ثم أمسكه بفمه حتى رقى فسقى الكلب فشكر الله له فغفر له فقالوا : يا رسول الله وان لنا فى البهائم لاجرا ؟ فقال « فى كل ذات كبد رطبه أجر » اهـ .

قال الحافظ المنذرى فى كتابه (الترغيب والترهيب) بعد نقل الحديث (رواه البخارى ومسلم وأبو داود وابن حبان فى صحيحه الا أنه قال : (فشكر الله له فأدخله الجنة) اهـ انظره فى كتاب الصدقات .

ومن هذا يتبين صحة نقلنا لمعنى الحديث وأن رجلا دخل الجنة فى كلب عطشان سقاه ، فقد جاء فى نص الحديث عند غير ابن ماجه ان الله شكر له فغفر له ، ومن شكر الله له وغفر دخل الجنة قطعا ، على أن هذا وارد فى رواية ابن ماجة والحمد لله ٠

واذا كان لا يصح عندكم حديث اتفق عليه ـ البخارى ومسلم ، ورواه مالك فى الموطا ـ وهو أمير المؤمنين فى الحديث ـ وأبوداود فى سننه ، وابن ماجة فى صحيحه فأى حديث يصح عندكم ؟ وبأى شىء تردون هذا الحديث أتحكمون بفساد متنه أو سنده أم هما معـــا ؟ !

أما حديث المرأة ـ وليس باثر فحسب كما زعمت ـ التى دخلت النار فى هرة فنصه كما جاء فى الجامع الصغير عن ابن هريرة وابن عمر (دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلم تطعمها ولم تدعها تأكل من خشاش الارض حتى ماتت) اهـ ٠ رواه أحمد والبخارى، ومسلم وابن ماجه من حديث أبى هريرة ورواه البخارى عن أبى عمر ورواه عنه أيضا مسلم بلفظ عذبت امرأة فى هرة أوثقتها الخ (أنظر المناوى فى شرحه للجامع الصغير ج 3 ص 523) فهذان حديثان صحيحان ، مما اتفق عليه الشيخان كل منهما فى باب : رحم الرجل كلبا عطشان ، والكلب مظنة الاذى ـ فرحمه الله وغفر له وأدخله الجنة لانه سبحانه كتب عن نفسه الرحمة ، والراحمون يرحمهم الرحمن ومن رحم من فى الارض يرحمه من فى السماء ٠ وقست المرأة على الهرة ـ وهى صديقة الانسان وأليفته ـ وعذبتها بالجوع حتى ماتت هزالا فدل فعلها على انتفاء الرحمة من قلبها فاستحقت النار ٠

فكيف يسوغ لعاقل أن يضع حديثا من عنده معتمدا على مفهوم حديث فى نقيض موضوعه ويعلن انه حديث ؟ وكيف يبلغ بك سوء الظن بأخيك ـ وبعض الظن اثـم ـ أن تتهمه بقلة الدين وفساد الرأى ، والاستهتار بالاخلاق وسوء التصرف الى درجة وضع الحديث مع انه يعلم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال ـ فى الحديث المتواتر الذى رواه نحو المائة من الصحابة وخرجه جميع أئمة الحديث وكتبه (من كذب على متعمدا فليتبوأ مقعده من النار) ٠

ثـالثـــا : انتقد السيد بغدادى حتى عنوان الخطبة اذ قال :

(كان الخطأ حتى فى عنوان الموضوع : (الله الرحمن الرحيم) ·

واني أسائله أي خطأ في هذا العنوان ؟ ان الكلام على تفسير الفاتحه وقد قال تعالى : (الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم) فالرحمن والرحيم ـ فى الآية ـ صفتان لاسم الجلالة ، او بعبارة باصطلاح النحاة ، وهما من أسماء الله الحسنى وصفاته العليا ، أما فى العنوان المنعقد فاسم الجلالة مبتدأ وهما خبران له ، خبر بعد خبر أو بتقدير مبتدأ للثاني عند من لا يقول بتعدد الخبر ، كما يقول الله الحي القيوم . وفى آية الحشر قال تعالى (**هو الرحمن الرحيم**) ومن المعلوم لاساطين العربيه وصغار الطلبة ان الضمير هو ما كنى به عن الظاهر احضارا فلا فرق بين (الله الرحمن الرحيم) وبين (هو الرحمن الرحيم) فمن هذا الطراز عنوان الخطبه ، وقد جيء بالمسند ـ وهو هنا الخبر ـ معرفه للنكتة البلاغية التى لا تخفى على (مولاى) خليفه عبد القاهر فالرحمن خصيصه انما هو الله ولا يجوز ان يسمى به او بوصف غيره، كالخالق والرازق · ويمكن أن يأتى بالحصر ادعاء مثل قولك : زيد الشاعر ، ومولاى الخطيب الناقد الخ ، وقد أراد محرر الخطبه أن ينبه الائمة أن يركزوا فى دروسهم قبل الصلاة على وصف الرحمة والفضل والاحسان ·

رابعـــا ثم عطف (مولاى) خطأ آخر مزعوما على الخطأ المدعى فى العنوان فقال : (وفى بدايه الخطبه الاولى من قوله الحمد لله الذى أنزل كتابه الينا على رسوله الامين فعل أنزل ـ وهو فعل واحد متعديا بحرفى (الى) و (على) فى آن واحد مما لا تعرفه العرب فى لغتها) اهـ ·

غفر الله لنا ولك يا (مولاى) كنت فى أول رسالتك الانتقاديه اماما فى التفسير بخطىء ـ لغه وشرعا ـ حبر الامه ابن عباس ترجمان القرآن ، ومن اتبع سبيله ـ كابن جرير وابن كثير ـ باحسان ثم كنت اثر ذلك اماما فى الحديث تضعف ما اتفق على تصحيحه الشيخان البخارى ومسلم ، وأبو داود وابن ماجه ، وامامك مالك أمير المؤمنين فى الحديث كما قال عنه الشافعى، ثم كنت من بعد اماما فى البلاغة تجلس مكان عبد القاهر الجرجانى وسادس (الخطيب) القزوينى ، وسعد الدين التفتازانى · وها أنت أخيرا تتطاول الى احتلال مقام أئمة العربيه ، ونزعم أنك خبير بما استعملته العرب جميعه وعرفته وما لم نستعمله وأنكرته ، ليعرف الناس ـ السوقة والوزراء ـ أنك أهل لان تتربع ء

كرسى الخليل بن أحمد وسيبويه ، والجوهرى وابن دريد ، والمبرد و (الاخافيش) وثعلب ، وهو بك أنسب ـ أعنى ثعالة لا أعنى أبا العباس صاحب الفصيح ـ وربما لا يرضيك مقام الزمخشرى وابن هشام وابن منظور لتأخر زمانهم ·

لقد أصبحت بمكان من نقول وبحكم بأن هذا لا تعرفه العرب فى لغتها ! وأى تركيب أستحق منك هذا الحكم الصارم ؟ انه قول محرر الخطبه (الحمد لله الذى أنزل كتابه الينا على رسوله الامين) ·

والقرآن الكريم قد جاء فيه (أنزل الى) و (وأنزل على) قال تعالى يخاطب نبيه (**الر كتاب أنزلناه اليك لتخرج الناس من الظلمات الى النور**) وقال (**وانزلنا اليك الذكر لتبين للناس ما نزل اليهم**) وقال يخاطب الناس (**يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا اليكم نورا مبينا**) وقال (**ولقد أنزلنا اليكم آيات مبينات**) ، فهذا الكتاب المنزل الى محمد والينا نعمه من الله عليه وعلينا أنزله الله (على) محمد بمعنى أوحى به اليه ، ونزل به الروح الامين (على) قلبه كما قال تعالى (**وأنزل الله عليك الكتاب والحكمة وعلمك ما لم تكن تعلم**) وقال (**طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى**) ·

فالمراد من استعمالنا الحرفين فى أول الخطبه حمد الله وشكره على هذه النعمة العظمى والمنه الكبرى بانزاله القرآن الينا نورا مبينا يهدينا به ربنا محمد صلى الله عليه وسلم الى الصراط المستقيم صراط الله ، هذا القرآن اختار الله له أكرم عباده لتبليغه ، فأنزله عليه وأوحاه اليه لينذر به قومه ومن بلغ ، وفى ذكر انزال القرآن على محمد (ص) الشهادة منا له بالرسالة · فأى هذه المعانى تنكرها ؟

أما من ناحية العربية فلا ضروره الى ما زعمته وسجنت فيه ذهنك ومعرفتك ، فالجار والمجرور الثانى يمكن أن يعمل فيه عامل محذوف وتقدير الكلام (الحمد لله الذى أنزل الينا كتابه ···) (أنزله) على رسوله · ويمكن تعلق الجار والمجرور الاول أو الثانى بمحذوف يعرب حالا ، وتقديره (حالة كون الكتاب المنزل على رسوله منزل الينا أو أنزل الينا ، أو حاله كون الكتاب المنزل الينا منزلا على رسوله أو أنزل على رسوله · وليس فى علماء العربية والنحو من ينكر هذا أو يمنع هذا التأويل · فكيف يصح منك

هذا الادعاء العريض وان العرب لا يعرفون هذا مما يتهيب النطق به كبار أئمة اللغة ؟ ٠

خامسا : مقتضى شدة حساسيه مولانا وعظيم غيرته على العربية يوجب التزامه الاسلوب العربى الصحيح الفصيح وتنزهه عن أوهام (العوام) فضلا عن الخواص فى استعمال الفاظ فى غير معناها ٠ ولو التزم هذا لما وقع فى خطا لا يقع فيه الائمة الاعلام أمثاله اذ قال فى ختام رساله نفده النصوح ما يتاتى (٠٠٠ فلكم واسع النظر فى الغاء هذه الخطبة وابدالها باخرى) ، وهذا الكلام على ظاهره متنافض لانه ـ فى آن واحد يرغب فى التمسك بالخطبه المسعده من جهه ، وينصح بالغائها من جهة أخرى ، فمقتضى قوله (الغاء هذه الخطبة) تركها وطرحها واهمالها ، ومقتضى قوله (وابدالها بأخرى) ، يقتضى التمسك بها وترك (الاخرى) واهمالها ، لان المعروف عند أهل اللغة أن الباء فى الابدال والاستبدال تدخل على المتروك المرغوب عنه وغيره هو العوض المرغوب فيه كما فى قوله فى خطاب موسى لبنى اسرائيل (**اتستبدلون الذى هو أدنى بالذى هو خير**) فقد أعطاهم الله المن والسلوى فبرموا بالطيبات منها وقالوا لرسولهم (**ادع لنا ربك يخرج لنا مما تنبت الارض من بقلها وقثائها وفومها وعدسها وبصلها**) ، فرضوا بالبصل وسألوا أن يستبدلوه بالمن والسلوى ٠

وعند امضاء (مولاى) كتبه هكذا (بغدادى م٠ الحسن) فلم يسلم من مؤاخذة أهل اللغه والبلاغة والنحو ٠

ا ـ رمز بحرف م فأبهم على من لا يعرف هذا الاصطلاح الخاص ـ ولا يعرفه فى وطننا الا النادر وأبقى القارىء حائرا بين الاعلام التى تبتدىء بحرف (م) وهى كثيرة جدا مثل : منذر ، منير ـ محمد ـ محسن ـ مصطفى ـ مختار ـ محمود ـ مسعود ـ مدرك ـ منصور ـ مهنى ـ معاويه ـ منجى ـ مشعل ـ مذكور ـ منسى ـ مهلهل ـ مطيش ـ أى والله فانه مما يسمى به فى بعض الجهات ـ وبين الحقيقة وهى (مولاى) ومثل هذا الابهام يخرج الكلام عن الفصاحة ـ ولعله يشمل الامضاءات ـ كما حكموا على (مسرجا) من قوله (ومرسنا مسرجا) بالخروج عن البلاغة لتردده بين الاشتقاق من السراج المنير وبين السيف السريجى البراق ٠

ب ـ قدم لقبه (بغدادى) على اسمه الحسن ، فخالف قاعدة مشهورة معروفة لصغار طلاب العربية والنحو ، فابن هشام يقول فى القطر : (ويؤخر اللقب عن الاسم تابعا له

مطلقا أو مجرورا بالاضافة ان افردا كسعبد كرز) .

وابن مالك يقول فى العلم :

واسمـــا أتى وكنيـــة ولقبـــا وأخـــرن دا ان ســـواه صاحبـــا

والاشارة بذلك الى اللقب فانه يؤخر عن الاسم ان صحبه ، فقد أمر ابن مالك بتأخيره أمرا مؤكدا بنون التوكيد ، وحكم بالندور على ما خالف ذلك كما فى الاشمونى .

ورغم هذه الاوامر المؤكدةمن النحاة ، والنعاليم المسدده من الوزير فان مولانا جنح الى تقديم اللقب عن الاسم لانه الف المعتاد من عهد الاستعمار !

وقد يعتذر بأن هذا مستعمل فى الكلام الفصيح اذا اشتهر ، كما تقدم اللقب عن الاسم فى قوله تعالى (**انما المسيح عيسى بن مريم**) فكذلك قولنا (بغدادى مولاى الحسن) أو (مولاى الحسن بغدادى) أو (الحسن مولاى بغدادى) بواء .

فنقول : الاعتذار غير مقبول ، وقياس فاسد أن يقاس بغدادى بالمسيح أو على المسيح فبغدادى لم ولن يبلغ بصاحبه اشتهار عيسى بالمسيح عليه السلام ، فليس فى الارض ولا فى السماء غير مسيح واحد صحيح والباقى دجاجلة ، وكم فى الدنيا وفى الجزائر بل فى العاصمة نفسها من (بغاديد) يضيع فى مجاهلها مولانا وينيه ! وقد يقول مبررا :

اذا لم يبلغ اشتهار (بغدادى) بلقبه هذا اشتهار عيسى بلقب المسيح فقد استعملت العرب هذا كما يشهد لذلك قول الشاعر الفخور :

انـا ابن مزيقـــيا عمرو وجـــدى
أبـــوه منـــذر مـــاء السمـــاء

وقول جنـوب فى أخيهـــا :

بأن ذا الكلـــب عمـرا خـيرهم حسبـا
ببطـن شريـــان يعـوى حولـه الذيب

فقدم الشاعر المفتخر اللقب ـ وهو مزيقيا ـ على الاسم ـ وهو عمرو ـ ، كما قدمت جنوب اللقب وهو (ذو الكلب) على الاسم وهو عمرو ، وكذلك انا قلت بغـــدادى م. الحســـن .

ونقول · وهذا أيضا قول ضعيف واعتذار واهن ، أشد وهنا وضعفا من تضعيف مولانا لحديث الكلب العطشان مع رواية مالك له . وروايه أربعه من أصحاب الصحاح فيهم الشيخان البخارى ومسلم · فعمرو مزيقيا ملك همام ، جد ملوك عظام ، ليس فى الدنيا غيره فاذا أطلق هذا اللقب انصرف اليه وحده . وكذلك عمر ذو الكلب : كان فارس هذيل وبطلها المغوار . وواحد قومه فاشتهر بلقبه هذا عند العرب حتى لا يزاحمه أحد فيه ، ثم خلدته أخته جنوب ، وقد تكلته ـ بهذه القصيدة الرائعة وهذا البيت الابلق وأجبرت به كل امام عربيه وكل طالب من طلابها صغيرا وكبيرا على حفظه وترديده ، فيذكر مأساتها فى أخيها ذى الكلب عمرو . ثم يجول فكره فى مأساة حياة العرب فى الجاهليه كيف كان يسطو بعضهم ببعض . ويغير احدهم على أخيه بغيا وعدوانا يغتاله ويستبيح دمه وماله وعرضه . وقد يجند له ويتركه صريعا فى الفلوات يعوى حوله الذئب ، حتى جاء الاسلام فحرم الاثم والعدوان وجعل النفس والمال والعرض حرام لتناوله باليد أو اللسان بل حتى بسوء الظن والخاطرة وقال الله فى القرآن **(يا ايها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن ان بعض الظن اثم)** ·

ورغم كل ما جاء بعد عمرو وبعد جنوب عن (ذوى الكلاب أو ذوات الكلب) ـ وهم وهن ألوف فى العد ـ فانه لم يغط أحدهم شهرة عمرو بلقبه واختصاصه به ولم ينزع منه هذا (الملك) لهذا اللقب ، فأين هذا من لقب (بغدادى) الذى يستحقه كل من ولد، أو سكن ، أو مر ببغداد ، يطلقه على نفسه ان شاء وله أو يورثه من جاء بعده من نسله ، وان فات به الدار ، وطال الزمن كما هى الحال مع (مولانا) الحسن) !

ومع اشتهار هذين العمرين بلقبى (مزيقيا) و (وذى الكلب) فان هذا التقديم ، المستعمل فى البيتين محكوم عليه بالندره كما قال الاشمونى . ومن المعلوم أن النادر يحفظ ولا يقاس عليه ويهجر ولا يستعمله الاحرار ولو فرض عليهم من طرف الاستعمار ·

ج ـ فى صدر رسالتكم تقولون مخاطبين المدير المساعد للتوجيه الدينى :

(وبعد فقد وجب انتباهكم بكل أدب واحترام) · ولا ندرى كيف يكون الانتباه وهو فعل ذاتي ـ أعنى فعلا بالمعنى اللغوى لا النحوى ـ بكل أدب واحترام ، وهو واقع

من غافل أو ساه أو نائم أم تريدون تنبيهكم وهو فعل متعمد يمكن صحة هذا الاستعمال معه لان (الخادم) من واجبه أن يكون مؤدبا محترما فى معاملة أسياده وتنبيههم من النوم أو من الغفلة والسهو والا لناله الطرد والتوبيخ واللوم ·

ثم أى احترام وأدب ناله هذا المدير منكم وأنتم تأمرونه بقولكم (انه من الواجب ابلاغكم هذا الى كل من يعنيه الامر) وفى هذا اشاعه للفاحشه فى الذين آمنوا بنسبتهم الى التقول على رسول لله دون أن يقع شىء مما زعمت منهم ، وأى فاحشة أشد من وضع الحديث ؟

سادسا : وبعد فاننى لأود صادقا أن يستمر مولانا على قراءه كل ما يصل اليه من كتاب أو خطاب أو مقال نافعا ، والا يحجم عن بيان ما فيه من خطأ أو خلل أو زلل أو ضلال ، منتقدا انتقاد عالم خبير منقبا فى نقده ، مسرورا فى نظره عف القلم واللسان فى قوله وكتابته ملتزما ما قرره علماؤنا من آداب . منها ما أعلن عنه من قال ·

(وأصلح الفساد بالتأمل) ·

ومنها اجتناب تحريف القول الصحيح ، والتجريح ، والتماس العذر للاخ، واستعمال القول اللين حتى ينتفع بنقده وعلمه فقد أمر بلين القول لاطغى الناس وأشدهم عتوا وشرهم فى قوله تعالى لموسى وهرون عليهما السلام :

(اذهبا الى فرعون انه طغى فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) ·

والله الهادى الى سواء السبيل

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

القـــرآن والشعـــر أو الاســـــلام والادب

د. عبد الرشيد مصطفـاى
أستاذ بكلية الآداب
جامعة الجزائـر

للشعر على العرب سلطان عظيم فلا عجب أن تنزل فيه آيـات في القرآن الكريم وقد كان خصـوم النبي (ص) يبثـون دعايـاتهم الباطلة حوله ليصدوا الناس عنه ومن هذه الدعات التي يريدون بها تحقير النبي (ص) واستصغار شأنه جعلهم القرآ شعرا والنبي (ص) شاعرا فلا ينبغي أن يهتم به الناس أكثر من اهتمامهم باخوانه مـن الشعراء الذين خفت دويهم بعد موتهم ، وهذا ما حكاه الله تعالى في سورة الطور بقوله : « **أم يقولون شـاعر نتربص به ريب المنون** » ، أفترون ان القرآن يسكت عن افتراءاتهم ولا يرد مزاعمهم المغرضة ، كلا ، لقد ورد في سورة يس قوله تعالى : « **وما علمنـاه الشعر ومـا ينبغي له** » ، ثم ورد في سورة الشعـراء قوله تعالى : « **والشعـــراء يتبعهم الغاوون ، الم تر انهم في كل واد يهيمـون ، وانهم يقـولون ما لا يفعلون ، الا الذين آمنوا وعملوا الصالحـات وذكروا الله كثيرا ، وانتصروا من بعد ما ظلموا** » . وهذه الآية الـكريمة تبين لنا بوضوح موقف القرآن من الشعر والشعراء وهذا الموقف عندنا حاسم فلـو يسر للمسلمين أن يقفوه لكان للشعر عندنا شأن آخر كما سنبينـه في هذه المحاضرة (المسامرة) .

اما ان يكون العرب يعرفون حق المعرفة ان القرآن ليس بشعر وان النبي ليس بشاعر فهذا امر يحتاج الى بيان ، انما هي الدعايات الكاذبة يستعملها الخصم المغرض عسى أن تروج عند بسطاء العقول من النـاس .

ولكن المهم في هذه الآية الكريمة أن نرى القرآن يجعل الشعراء كسائر الناس مسؤولين عما يقولونه ويفعلونه وان شعرهم كما قال

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م.

النبى (ص) كلام « **فحسنه حسن ، وقبيحه قبيح** » فحسنه ما كان محافظا على مكارم الاخلاق داعيا اليها ساعيا فى غرسها فى نفوس البشر فيكون الشاعر قد قام بوظيفة فى المجتمع قياما يعود على البشرية بالخير العميم ·

واما قبيحه فما كان هادما للفضائل داعيا للرذائل بتحسينها واستهواء الناس اليها حتى يعم الشر والفساد ·

فنحن اذا أمام نظرية الفن للاخلاق لا الفن للفن ، والآية قد وصفت لنا أصحاب النظريتين بقوله : « **والشعراء يتبعهم الغاوون ، الم تر انهم فى كل واد يهيمون ، وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ، ان اكثر الداعين ان يكون الفن للفن يصدق عليهم وعلى اتباعهم وصف الغواية اذ فصلوا الفن عن الاخلاق ، فالشاعر أو الفنان لا يعنى الا بفنه ، فالاخلاق الفاضلة لا تهمه ولا يرى لها دخلا فى انتاجاته الفنية اذ ليس لنا فى نظره ان نهتم بسيرة الشاعر واخلاقه وانما اهتمامنا ينبغى أن يوجه الى شعره كأنه ليس مسؤولا عما يعمل ويقول ، انما هو مسؤول عن فنه هل أجاد فيه أو لا ، فكأنما أرباب الفن طبقة ممتازة فوق البشر لا نسأل عما يسأل عنه سائر الناس من الاعمال الصالحات ، وقد وجدوا عندنا مبررا لهم فى قوله تعالى : «·· **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ، ومما يوضح لنا هذا ما حكى عن سليمان بن عبد الملك الخليفة الاموى لما سمع الفرزدق ينشد :

فبتن بجانبى مصرعات * وبت افض اغلاق الختام

فقال له : قد وجب عليك الحد ـ لانه اعترف بمعصية وأقر بها ـ فقال يا أمير المؤمنين قد درأ الله تعالى عنى الحد بقوله سبحانه : « **وانهم يقولون ما لا يفعلون** » ·

واما أصحاب نظرية الفن للاخلاق فنستجليهم من قوله تعالى : « ***الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيرا وانتصروا*** **من بعد ما ظلموا** » هذه الجماعة بفضل ايمانها واعمالها الصالحات لا تعادى مكارم الاخلاق بل تسعى فى تدعيمها فى المجتمع ورعايتها بالذود عنها،فهم يعتقدون انهم مسؤولون عما يقولونه ويفعلونه وهذا ما نبه اليه الشعراء عمر بن عبد العزيز لما وقفوا ببابه فلا يأذن لاحدهم بالانشاد عنده حتى يقول له قل ولا تقل الا الحق،انك مسؤول عنه ·

فالنبى (ص) والخلفاء الراشدون وكل أتقياء المسلمين كانـــوا يودون أن يوجه الشعر هذا التوجيه الجديد الذى يريده الله تعـالى له ، وقد أسلفنا حكم النبى فى الشعر فى قوله (ص) «الشعر كـلام حسنه حسن وقبيحه قبيح» ولزيادة الايضـاح نقول ان النبى (ص) يشير الى قوة تأثير الشعر فى النفوس ولا سيما نفوس العرب ولذلك لما اشتد هجاء قريش له انتدب حسان بن ثابت للدفاع عنه وقـال له **اهجهم فوالله لشعرك اشد عليهم من وقع السهام فى غبش الظلام**• انظروا الى قوله أشد عليهم كيف يصور لنا تأثر العرب العظيم بالشعر حتى كان يرفع الخامل ويضع الرفيـع ·

فموثبات البسوس فى اثارة الحرب بين بكر وتغلب وقصه بنى انف الناقة مع الحطيئة وبنى النمير مع جـرير لأدلة قاطعة على مـا للشعر من تأثـير شديد ·

فلا عجب اذا ان يقف المسلمون بعد نزول تلك الآيات فى الشعر والشعراء موقفين فمنهم من اعتدل ومنهم المتورعون الذين شددوا النكير عليهم حتى صاروا يسالون العلماء كابن عباس وابن سيرين عن الغزل الرقيق ما حكم انشاده فى المسجـد ·

نعم ان فى موقفهم لغلوا بينا اذ النبى (ص) انشده فى المسجد كعب بن زهـير قصيدته المشهورة التى افتتحها بالغزل والتى يقول فى مطلعهـا :

بانت سعاد فقلـبى اليـوم متبـول
متيـــم اثـرها لم يفـــد مكـــول

فلم ينكر عليه (ص) بل أثابه بالقاء بردته عليه ·

ولكن اعتـرى الشعر فى صدر الاسـلام فتـور وضعف بسبب اشتغال المسلمين بالفتوحات وكثرة التورع الذى يجعل الشعـــر أشبه شىء بلغو الحديث ، ولا ننس كذلك مقدار تأثر العرب بالقرآن وكيف بهرهم بفصاحته وبلاغته حتى استصغروا شأن الشعر ، كما وقع للبيد لما سأله عمر بن الخطاب ان يرسل اليه ما قاله فى الاسلام فارسل اليه بالفـاتحة وكتب له أن الله تعالى أغناه عن قول الشعر بمدارسة القرآن ، ثم كان القريض يتوجه هذه الوجهة الجديدة وجهة

الاخلاق وصيانتها فكف الشعراء عن ذكر الخمر والسباب والشتم وكان عمر بن الخطاب يعاقب على الهجو وقد سجن الحطيئة حتى تاب.

ولكن لم تدم هذه الفترة الا قليلا .

فلما كانت دولة الامويين عاد الشعر الى سيرته الاول التى عرفناها له فى الجاهلية مع تحفظ قليل ولا سيما ذكر الخمر ووصفها اذ لم يشتهر ذكرها الا عند الاخطل الشاعر النصرانى الذى جرأته السياسة على هجو الانصار بايعاز من يزيد بن معاوية فقال فيهم ذلك البيت المشهور :

ذهبت قريش بالمكارم كلها * واللؤم تحت عمائم الانصار

فجاء معاوية النعمان بن بشير الانصارى فقال وحسر عن جبهته عمامته .. اترى لؤما ، قال معاوية : لا بل خيرا وكرما ، قال : الاخطل يزعم ذلك ، قال : ان فعلها فلك لسانه ، فلما بلغ الخبر الاخطل التجأ الى يزيد وشفع له عند النعمان بن بشير واستوهبه فوهبه له ، وهكذا اخذت السياسة تفعل أفاعيلها فنرى الاخطل لانتصابه مدافعا عن خلافة الامويين يجرأ على هجو الانصار وتعيير المسلمين بتمسكهم بقواعد دينهم بقوله :

ولست بصائم رمضان طوعا
ولست بآكل لحم الاضاحى
ولست بزاجر عنسا بكورا
الى بطحاء مكة للنجاج
ولست مناديا ابدا بليل
كمثل العير حى على الفلاح
ولكنى سأشربها شمولا
واسجد قبل منبلج الصباح

وهكذا يتسع الخرق ويستفحل الشر فتنقسم الوحدة الاسلامية الى عدنانية وقحطانية بسبب السياسة وتنقسم العدنانية الى ربيعية ومضرية ثم المضرية الى قيسية وتميمية وتعصب بنو امية فى أول امرهم الى اليمانية لان القيسية كانت شيعة عبد الله بن الزبير ثم تعصبوا لمضر بعد عصيان أولاد المهلب لهم بخراسان لانهم هم وانصارهم من اليمانية ولكل حزب من هذه الاحزاب شعراء معدودون

وكان بعض أمرائهم وولاتهم يغرى بعض الشعراء ببعض فيقع بينهم التهاجى والتناقض كالذى وقع بين جرير والفرزدق والاخطل حتى صار العرب فى الهجاء الى شر مما كانوا عليه فى الجاهلية حتى أحيوا تلك الحمية الجاهلية والتعصب القبلى ، وقد جاء الاسلام بمحوهما وجمع كلمة المسلمين ، ثم جاءت الدولة العباسية فزاد الخرق اتساعا والشر استفحالا لتأثرها بالمدينة الفارسية اذ كان تأسيس هذه الدولة على يد الفرس فكان لزاما ان يشاركوا العباسيين فى الحكم فكان منهم الوزراء كالبرامكة حتى أبعدهم الرشيد بقتلهم وذلك لاستبدادهم بالملك دون الخليفة ، فلا عجب اذا ان يتأثر بهم كل من يتقرب اليهم من الشعراء والكتاب بل تجاوز ذلك الى جل الحضريين فصارت الاطعمة والملابس والابنية وحتى الاحتفال بالاعياد صار كل ذلك فارسى الصبغة ونقلت الدولة كذلك النظام الكسروى فى تنسيق دواوين الدولة واساليب الحرب ، وانتشرت الآداب الفارسية فى الناس فاتجه الشعر وجهتين وجهة رسمية ووجهة غير رسمية فاما الوجهة الرسمية كانت تظهر فيها المحافظة على الاوضاع القديمة التى ورثها العرب من شعراء الجاهلية من استهلال بالوقوف بالاطلال فذكر الحبائب فوصف الناقة وذكر الصحراء وان لم يركب الشاعر ناقة ولا اخترق صحراء ، وكان الخلفاء جد حريصين على هذه المحافظة التى تربط حاضرهم بماضيهم ، واما اذا خلا الشاعر بنفسه نزع عن هذه الاوضاع واستهجنها واندفع فى تقليد الفرس فى آدابهم ويمثل لنا هاتين الوجهتين أبو نواس أحسن تمثيل فنراه اذا وقف أمام الخليفة أنشد شعرا لا يخالف فى أوضاعه ومتانته وجزالة لفظه شعر من تقدمه من شعراء بنى أمية وشعراء الجاهلية ولكن عند ما يحظى بمنادمة الاصحاب والخلان يعدل عن هذه الاوضاع ويستهجنها وينعى على من يحاكيها الوقوف بالاطلال ووصف الناقة ويحرض معاصريه أن يثوروا معه ضد هذه الرسوم ليعدلوا عنها الى وصف البساتين والقصور وذكر الخمر وركوب السفن ٠

وتعدت هذه الثورة على الاوضاع الشعرية القديمة الى الاخلاق والعقائد الاسلامية وقد كانت جماعات من الفرس الذين لم يسلموا الا رئاء الناس وهم باقون على عقائدهم الفارسية القديمة بفضل الحرية

التى شملتهم يجاهرون بالزندقة والالحاد والفجور ويرون من تمام اللذة أن يجهر المرء بعصيانه وفسوقه كما فعل أبو نواس فى قوله :

الا فاسقني خمرا وقل لى هى الخمر
ولا تسقني سرا اذا امكن الجهر

وقد صدقت فيهم هذه الآية الكريمة : « **بل يريد الانسان ليفجر امامه** » أجل وما هذه الدعوة الشنعاء الى التحرر من الواجبات الدينية والخلقية الا ليتسنى للانسان أن يفجر أمامه وان يأتى من المنكر ما يأتيه لا وازع يردعه ولا قانون يزجره فيندفع فى شهواته اندفاع البهائم وهذا ما جعل ابن عبد ربه يحكى فى العقد الفريد عن بعضهم وهو ينظر فيما ورد فى شعر عنترة من التناهي بمكارم الاخلاق كالذى جاء فى هذا البيت :

واغض طرفى ما بدت لى جارتى * حتى يوارى جارتى مأواها

وفيما ورد فى شعر أبى نواس من التحرر من كل واجب دينى أو خلقى كما فى قوله :

كان الشباب مطية الجهل * ومحسن الضحكات والهزل

قال عند ما نظر فى ذلك.. وددت لو ان مع أسلافنا كرم أخلاق آبائنا فى الجاهلية ، الا ترى أن عنترة الفوارس جاهلى لا دين له والحسن بن هانىء اسلامى له دين، فمنع عنترة كرمه ما لم يمنع الحسن بن هانىء دينه .

وهكذا كلما تقدمت الايام زاد الشعر عند فاسدى الاخلاق من الشعراء امعانا فى الشر والفساد حتى أداهم ذلك الى فساد الذوق وسماجته ، وفى كتاب اليتيمة للثعالبى نماذج تبين الى أى حد تسقط النفوس وتنفسد أذواقها عند ما تذوب الواجبات الدينية والخلقية .

يجدر بنا الآن بعد استعراضنا الوجيز لهذه الوجهة السيئة التى اتجهها الشعر العربى من جراء السياسة والمحاولة للتحرر من الدين والاخلاق أن نعرف موقف المسلمين من الشعر فلا نبعد من الحقيقة اذا قلنا انهم افترقوا فرقتين احداهما مؤلفة من أتقيائهم والوارعين منهم فما زالت منذ صدر الاسلام ولاتزال الىيومنا هذا تعد الشعر كلاما حسنه حسن وقبيحه قبيح كما أسلفنا ذلك فهى تشدد النكير على هذا الشعر السيء الفاسد الذوق المفسد للاخلاق ولكن يا للاسف لم تكن

هذه الجماعة أكثرية حتى نفرض نظريتها على الشعراء والكتاب ولم تكن كذلك في غالب الاحيان من أرباب الفن فنظرها وان كان من حيث الاستقامة الخلقية ذا قيمة عظيمة لم يكن من حيث الشعر والفن شيئا مذكورا ..

واما الفرقة الثانية المؤلفة من أرباب اللغة والادب والشعراء والكتاب فقد وقفت موقفا يكاد يكون خاليا من التاثر بالآية التي وردت في سورة الشعراء والتي تحدد لنا كما رأيناه موقف القرآن من الشعر والشعراء .

فأخذ الناس ينسجون على منوال الشعر الجاهلي ويحاكونه بما فيه من خير وشر وصار النقاد لا ينظرون اليه الا من الوجهة الفنية واللغوية والتاريخية كذكر وقائع العرب ، وأما أخلاق الشاعر فلا تعنيهم وصاروا يفرضون محاكاة الشعر القديم على الشعراء حتى صار أحدهم اذا قال شعرا أو ألف كتابا نسبه الى شاعر أو كاتب قديم ليحظى باستحسان ، وقد يحكى عن الاصمعي في هذا شيء طريف جاء عن اسحاق الموصلي انه أنشد الاصمعي هذين البيتين :

هل الى نظرة اليك سبيل * فيبل الصدى ويشفي الغليل
ان ما قل منك يكثر عندي * وكثيرا ممن تحب القليل

فقال الاصمعي هذا والله الديباج الخسراواني ولمن تنشدني ؟ فقال اسحاق الموصلي انهما لليلتهما فقال لا جرم ان اثر التكلف فيهما ظاهر ، فهذا الموقف من علماء اللغة ضيق المجال على الشعراء بفرض أوضاع الشعر الجاهلي عليهم فلم يتحرروا منها بعض التحرر الا في القرن الرابع مع المتنبي (303 ـ 354) .

ثم تطور نقدهم على الفن جعلهم يلتمسون الاعذار للشعراء فيما يرد في كلامهم من السخافات والحماقات وهذا ما جعل القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة بين المتنبي وخصومه ينتصب مدافعا عن المتنبي لما نعى عليه خصومه سخافاته التي تنم عن فساد العقيدة الدينية والاستخفاف بها وهذا ما جعل في عصرنا كذلك الشيخ محمد عبده في شرحه لمقامات الهمذاني ينظر الى قصيدة لابي نواس وردت في المقامة الابليسية نظرة فضيحة محضة على ما في القصيدة من افساد الاخلاق .

فهذه الامثلة تدلنا دلالة واضحة قاطعة على أن أكثر الشعـــراء والادباء والنقاد وقفوا موقفا مناصرا لنظرية الفن للفن وصرحـــوا تصريحا لا يحتمل التأويل ان لا دخل للدين والاخلاق فى الشعـــر خاصة وفى الفن عامـة ·

فنحن الآن واجدون انفسنا أمام مشكلة عظيمة تجعلنا نتســاءل عما اذا كانت البشرية بعد هذه التجارب العديدة وهذه القرون الطوال التى مارست فيها الفن والادب لا تستطيع أن تنتج فنا أو أدبا الا اذا تحررت من الدين والاخلاق ، فنحكم كما حكم الاصمعى عند ما نظر فى شعر حسان بن ثابت فقال الشعر نكد يقوى فى الشر ويضعف فى الخير قوى فى شر الجاهلية وضعيف فى خير صدر الاسلام ·

ولكن نقول انه من سوء حظ البشرية أن لا يكون لها فى سبيل الفن الا وجهة الفن للفن مع ما فيها من نبذ الدين والاخلاق اذ لا بد لها من الفن ولا بد لها من الدين والاخلاق لتتـم سعادتها ·

فما العمل يا ترى ؟ ان الفصل فى هذه المسالة لعسير جدا ولكن ليس بالمستحيل فنحن نعتقد أن وجهة الفن الاخلاقى هى التى تكفل للبشر سعادتهم مع ارضاء رغبتهم فى الانتاج الفنى انتاجا ساميا ·

ولكن للقائل أن يقول ما نصنع بالشعر الذى قيـل فى الغـزل العفيف والزهد والتصوف فهو لا محالة ينم عن اخلاق فاضلة ·

أجل ، غير انه لم يرق فى جملته أربابه الى درجة الفحول على ما فى الزهديات من قصـور فى ارضاء كل رغبات الناس المختلفـة اذ توجههم الى الآخرة وتصرفهم عن الدنيا وما فيها من الطيبات الـتى أخرجها الله لعباده وجعلها حلالا لهم وما فيها كذلك من المحاسن التى تبتهـج بها النفـوس ·

واما الصوفيات فعيبها جاءها من قبل تمسك اصحابها بالاوضاع المعروفة فى الشعر العادى وتأويلها تأويـلا باطنيا يجعلها غـامضة لا تعنى الا طبقة خاصة من الناس فهى بعيدة عن متناول كل أحد ·

ولكن هذا لا يمنعنا ان نقدر لهذا النـوع من الشعر قـدره فى محافظته على الدين والاخلاق ولا سيما الغـزل العفـيف والزهد بل يجعلنا نعتقد انه متى تظافر على الشاعر وسط مستقيم وتنشئـة قويمة ومزاج سليم استطاع أن يأتينا بروائـع فنيـة ·

وهذا ما فطن له الشاعر الروسى الكبير نيكولا كوكول صـــاحب الارواح الميتة اذ نظر فى أدبه الرائع فوجد نفسه بارعا فى وصـف النفوس الشريرة وتحليلها فحكم أن ذلك أتاه من قبل نفســه التى لم تهذب تهذيبا يوجهها الى الخير وتمكنها من وصف نفوس الابـرار لتكون قدوة صالحة للناس فانبعثت فيه رغبة الى التقوى والاصـلاح فتنسك وانعـزل فى ديـر حتى مـــات ٠

وفى الختام نرى لو أن جمهرة الادباء تمسكوا فى أدبهم بـروح الآية الواردة فى الشعراء وبروح القرآن عامة لخلفوا لنا تراثا نقيـا ساميا انسانيا تنم منه الفضائل التى بدونها لا تستطيع البشريـــة أن تأخذ حظها من السعادة التى تنشدها فى هذه الدنيا ٠

واقـــع الجاليـــة العربية الاســـلاميـــة في أوروبـــــا والاخطـــــار التى تهـــدد شخصيتهـا

الاستاذ عبد الكريم غريـب
رئيس ودادية الجزائريين
فى أوروبـــا

نحدر بنا قبل الدخول فى صميم المشاكل التى تتعرض لهـــا الجالية العربية والاسلامية السارحة فى أوروبا من مخلف أقطـــار العالم الاسلامى أن نتعرض الى حجمها وأنواعها ومراكز هجرتهـــا ومناطق استيطانها ونحاول تبين الدوافع والأسباب التى حدت بها الى مغادرة أوطانها والقبول بالمغامرة الكبيرة التى تعرضها للتمـزق وتهدد شخصيتها بالانحراف والانحلال ضمن المحيط الجديد المناهض الذى يستقبلها ·

يعيش فى مختلف أقطار أوروبا العربية ماينـاهز المليون وسبعمائة الف نسمة من العناصر العربية والاسلامية حسب التقديرات الشبه الرسمية لأن الاحصاءات الدقيقة فى ميدان الهجرة لا تزال غير مضبوطة لأسباب عديدة منها . حركة هذه الهجرة وسرعة تنقلها من منطقة الى أخرى حسب متطلبات العمل الذى تقوم به والذى يفرض عليها عـدم الاستقرار وحسب ظروف الانقسام العائلى الذى يحتم عليها أن تعود الىَ مواطنها لزيارة الأهل فى فترات متقطعة ومتباعدة وحسب نوعيـة السياسة المشجعة أو المعيقة التى تنهجها الدول المستقبلة والـتى تأخذ بعين الاعتبار ظروفها الاقتصادية وحاجتها الى الايد العـاملـة أو انتشار البطالة فى وسط سكانها كما تأخذ بعين الاعتبار طبيعـة العلاقات السياسية مع الدولة التى تقدم منها هذه الجالية بالاضافة الى أسباب أخرى معقدة تتلقى فى مجموعها لتجعل امكانية حصر عـدد المهاجرين عملية غير دقيقة ومهما يكن فان مناطق الهجرة الاساسيـة الى أوروبا يمكن حصرها فى أربع حسب أهمية الاعداد البشريـــة الوافدة منها وهى على التوالى :

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م·

1) ـ **منطقة المغرب العربي** باقسامها الثلاثة (المغرب والجزائر وتونس) والتي تمثل مركزا هاما من جراء الجالية الهامة التي تهاجر منها وتقيم خارج أراضيها وخصوصا الجزائر التي كانت طبيعة الأوضاع السياسية الاستعمارية عاملا أساسيا في تشجيع سكانها على الهجرة ويبلغ عدد هذه الجالية المغربية 880 ألف نسمة يعيش معظمها في فرنسا ·

2) ـ **منطقة آسيا الجنوبية** هي المنطقة الثانية بالنسبة الى عدد مهاجريها ويبلغ عددهم 450 ألف نسمة يتوجهون بالدرجة الأولى الى بريطانيا ثم هولندا بالنسبة للاندونيسيين وأخيرا فرنسا وبلجيكا والمانيا وسويسرا ·

3) ـ **افريقيا الوسطى والشرقية** وتمثل المنطقة الثالثة حيث تعيش جالية اسلامية هامة ويبلغ عدد المهاجرين منها حوالى 220 الف نسمة يستقرون في هجرتهم في بريطانيا ثم فرنسا وأخيرا الدول الأخرى كالمانيا وبلجيكا والبرتغال وسويسرا ·

4) ـ **الشرق الاسط** وتمثل جاليته في أوروبا أعدادا قليلة بالنسبة للمناطق السابقة ما عدا تركيا التي تضاعفت جاليتها منذ سنوات قليلة ترجع الى سنة 1963 وتتجه في اغلبها الى ألمانيا حيث يوجد حاليا ما يفوق 150 ألف نسمة ، ثم فرنسا التي لا يتجاوز عدد الأتراك فيها ثمانية آلاف نسمة ، أما المناطق الأخرى كالبلاد العربية في المشرق فان الجالية المهاجرة منها بأعداد هامة تتوجه أكثر ما تتوجه الى أمريكا بقسميها الشمالي والجنوبي أما أوروبا فعددها لا يزيد في أحسن التقديرات 40 ألفا يفدون اليها من العراق ولبنان وسوريا وفلسطين ومصر ومناطق الخليج وسنرى أن طبيعة هذه الجالية مخالفة في أهدافها عن بقية الجاليات الأخرى الهامة فالقسم الأساسي منها طلبة يأتون للدراسة والقسم الثاني يأتون للعمل والتجارة والقليل جدا من يأتي بنية الاشتغال اليدوي كعمال ·

ويمكن اعطاء الرقم التالي التقريبي لجالية هذه المنطقة الأخيرة فهي تقدر بحوالى 250 ألف نسمة بحيث نتوصل خلال تقديرات مجموعة الجاليات الاربعة السابقة الى حوالى 1،740،000 نسمة موزعة كما يلي بحسب مناطق هجرتها وحسب أهميتها العددية :

بلد المغرب الهجرة العربي	منطقة آسيا الجنوبية			افريقيا السوداء	الشرق الاوسط	
الجزائر المغرب تونس	الهند	باكستان	المناطق الاخرى		تركيا	البلاد العربية
عدد جاليتها						
9000 12000 9/00	200000	120000	100000	250 000	160000	40000

ونظرا لضخامة عدد الجالية المغربية فان المجموعة العربية تمثل وحدها المليون نسمة وتأتي بعدها المجموعة الاسلامية الاسيوية ثم المجموعة الافريقية ·

أما الاقطار التى تستقر فيها فان القسم الكبير من هذه الجالية كما رأينا يتجه نحو فرنسا ثم بريطانيا ثم تأتى بعدها من حيث الاهمية المانيا وبلجيكا وهولندا وسويسرا ·

فرنسا	933 000	نسمة
بريطانيا	535 000	» »
المانيا	180 000	» »

بلجيكا يقدر عدد الجالية العربية الاسلامية فيها بحوالى 50،000 ألف نسمة ، أما سويسرا وهولندا وبقية البلدان الاخرى فان أرقامها مجهولة لدينا ولكن التقديرات التى تعطي لابد أن تتجاوز فى عددها العشرين الف نسمة ·

اسباب هذه الهجرة :

والملاحظة الاولية الهامة التى يمكن استخلاصها من الارقام السابقة واتجاه الهجرة بين مواطنها الاصلية ومراكز عملها هى كون هذه الجالية مرتبطة بالدول الاستعمارية التى خضعت اليها بلدان هذه الجاليات ونظرا لكون الدولتين الهامتين اللتين لعبتا دورا كبيرا فى السيطرة الاستعمارية هما بريطانيا وفرنسا ، لذلك نجدهما يحتلان مرتبة أساسية فى توفر جاليات ضخمة فوق أراضيهما وهذا ما يفسر لنا أحد الاسباب الجوهرية للهجرة القائمة بين العالم الثالث وأوروبا ، فالاستعمار لم يكتف باستغلال ثروات البلاد التى خضعت له ونهبها ولم يرض فقط باحتكار اسواقها لتصريف منتجاته

الصناعية وترويج ثقافته واستعباد سكان المستعمرات بل حاول كذلك أن يجعل من سكانها الذين نشر بين صفوفهم الفقر والبطالة وتركهم فى حالة جهالة كبيرة «مخازن لليد العاملة» حسب تعبيرات خبرائهم ، لاستردادها بأقل التكاليف للقيام بالاعمال الشاقة التى أخذ يستنكف من القيام بها سكانه كما كان يدفع بهم عند الحروب وظروف التمرد أو ضمن المستعمرات الى التجنيد ومواجهة الموت بدلا من مواطنيهم ·

وكلنا يعلم أن الدفعات الاولى التى خرجت من أوطانها من هذه الجالية سواء فى المغرب العربى أو فى آسيا أو فى افريقيا السوداء انما جاءت الى أوروبا خلال مرحلة الاعداد للحرب العالمية الاولى للعمل فى مصانع التسليح أو خلال انفجارها فأولى الهجرات الجزائرية الى فرنسا تمت أثناء 1911 ـ 1914 وقد تضاعف عدد هذه الجالية العربية الاسلامية أثناء الحرب العالمية الثانية حيث شارك فى هذه الحرب الجهنمية كل من المغاربة والعرب والهنود والافارقة وغيرهم من سكان المستعمرات وقد ذهب ضحيتها آلاف من هؤلاء المنكوبين وكلنا يعلم كيف كانت فرنسا وبريطانيا وغيرهما تحاولان اخماد الثورات الوطنية باعتماد جالية مجندة لأجبارها على محاربة اخوتها من المسلمين فقد جلبت الجزائريين واستخدمت هؤلاء فى حرب الهند الصينية الى غير ذلك ·

وبصفة عامة فقد كانت السلطات الاستعمارية مستهينة ، ولا تزال ، بمقومات الانسان العربى الاسلامى وكانت تستخدمه وتسخره فى جميع المجالات والاعمال الشاقة المؤلمة التى غالبا ما تودى بحياته سواء فى بلاده أو بلاد الهجرة التى تنقله اليها حسب احتياجاتها الاقتصادية والعسكرية ·

أما الملاحظة الثانية التى يجب الاهتمام بها والتى تعتبر فى حد ذاتها نتيجة للسابقة فهى ان الاغلبية الساحقة من هذه الجالية تنتمى الى جنس الذكر الفتى ، فحوالى 90٪ من هذه الهجرة من الرجال و6٪ فقط من الاطفال والعمر الاساسى الذى نجده يمثل العمر الوسطى بين عناصر هذه الجالية يتراوح بين 20 و 50 سنة وهى المرحلة الهامة التى يكون فيها الانسان قادرا على الانتاج نشيطا ، فالاستعمار بحكم

حاجته لهذه الايدى العاملة لتجنيدها فى شتى مجالات النشاط المرهق يختارها فتية مملوءة بالحيوية والنشاط فاذا تم له ما أراده أعادها لأوطانها محطمة أو جثثا هامدة وخصوصا وانه يدرك مدى تعلق هذه الجاليات باوطانها ، وبالتالى فلن تكون عبئا عليه عند بلوغها سن الشيخوخة أو اصابتها بأمراض فتاكة ، فالمعروف ان الانسان العربى المسلم يفضل عند شعوره بدنو أجله ان ينتقل الى أرضه حتى يدفن فى تربة اسلامية ٠

ومن المفيد لتوضيح هذه الحقيقة السابقة ان نورد على سبيل المثال طبيعة تكوين الجالية الجزائرية لتوفر الارقام حولها حتى تؤكد ما سبقت الاشارة اليها ٠

فمن مجموع السكان الجزائريين البالغ عددهم 634،616 المعروفين بعد ان تم حصولهم على بطاقة الاقامة نجد فيهم 55،502 نساء و 199 الف أطفالا يقل عمرهم عن 16 سنة والباقى من الذكور ، ويلاحظ أن عدد الاشخاص الذين يتراوح عمرهم بين 20 و 35 سنة يبلغ أكثر من 55٪ فاذا اضيف الى هذه النسبة من تتراوح أعمارهم بين 35 و 60 سنة وهى التى يمكن اعتبارها سنة يصبح صاحبها غير قادر على الانتاج والذين تتراوح أعمارهم بين 20 و 25٪ فى المجموع يتبين لنا أن أكثر من 80٪ يمثلون الجالية القادرة على الانتاج أما المتجاوزون سن 65 سنة فعددهم الاجمالى لا يزيد حسب الاحصاء الاخير (أبريل 1970) عن 2،888 نسمة ٠

والشىء الذى يجدر الانتباه اليه هو ان الجالية الجزائرية قد تميزت عن غيرها بكثرة النساء والاطفال من جراء القرب الجغرافى ونتيجة لسياسة السلطات الاستعمارية الفرنسية التى كانت حريصة على ايجاد شبه استقرار فى اوساطهم طوال فترة القدرة الانتاجية ولذلك شجعت على جلب الاسرة كما ان الدراسات التى أجراها الخبراء النفسيون الاجتماعيون أظهرت عامل العزوبة والانفصال عن الاسرة كأحد الاسباب فى الاضطراب النفسى والميل الى عدم استقرار الايدى العاملة الجزائرية يضاف الى ذلك حرية التنقل السابقة وعدم خضوع هذه الجالية لوضع بطاقات الاقامة مما يجعل العامل قادرا على تحهيز أسرته دون التعرض لرقابة السلطة من حيث تأمين موارد العيش له ٠

ويتبين لنا من كل ما تقدم أن الاسباب الاساسية لانطلاق هذه الهجرة الى أوروبا كانت فى أصلها استعمارية واذا كانت دوافعها الحالية تختلف فى بعض أوجهها القانونية الا ان جذورها العميقة واحدة ، فمن أهم الاسباب الحالية للهجرة كثرة البطالة فى بلاد الهجرة ولكن سبب هذه البطالة ليس حديثا ، فالدول المستقلة وجدت أمامها ميراثا ضخما فى هذا المجال ويكفى الاشارة الى أن الجزائر عند الاستقلال كان لديها أكثر من 2 مليون عاطل عن العمل من جراء توقف الاقتصاد وعودة اللاجئين من تونس والمغرب وتحطيم جميع وسائل العمل فى الارياف ، والامر نفسه فى كل من تونس والمغرب مع اختلاف فى الدرجة لا فى النوع · وهناك سبب آخر مصدره أيضا البلاد الاوروبية المصنعة وهذا السبب هو الدعاية القوية التى تقوم بها وكالاتها فى بلدان العالم الثالث لاستراد الايدى العاملة اللازمة للنهوض باقتصادها ويكفى أن نشير الى أن ألمانيا الغربية قد استوردت أكثر من مليونى نسمة من خارج حدودها منذ سنة 1961 ويبلغ حاليا نسبة الاجانب بالنسبة للعاملين من سكانها 6٪ وهى تسعى حاليا جاهدة لاستيراد أكبر قسط ممكن منهم والامر نفسه بالنسبة لفرنسا اذ يوجد حاليا ما يناهز الثلاثة ملايين أجنبى تعمل فى اقتصادها والامر نفسه صحيح بالنسبة لبريطانيا حيث يعمل فى مصانعها وورشاتها ما يفوق الثلاثة ملايين أجنبى ، فاذا أخذنا الدول الصغيرة كسويسرا ولكسمبورغ نلاحظ أن عدد الاجانب أكثر مما يتصور ، فاذا كانت نسبة الاجانب فى فرنسا تقارب 6٪ فانها فى سويسرا تبلغ حاليا أكثر من 20٪ بعد ان كانت تمثل 18٪ فى سنة 1964 وفى سنة 1955 كانت 9٪ والنسبة المرتفعة جدا نجدها فى لكسمبورغ حيث تزيد عن 30٪ ·

فاذا كانت هذه الجاليات الاجنبية فى عدد كبير منها أوروبية كالايطالية والاسبانية والبرتغالية فان الذى يهمنا فى هذا المجال أن وسائل الدعاية والاتفاقات بين الدول هى التى كانت عاملا كبيرا فى تشجيع الهجرة بالنسبة للبلاد العربية الاسلامية فبعد اتفاق سنة 1961 بين تركيا وألمانيا أخذت هجرة الاتراك تتدفق على معامل الاخيرة حتى بلغت حاليا ما يقارب 200ألف نسمة والامر نفسه صحيح بالنسبة للاقطار الافريقية وغيرها وكل ذلك لان البلدان الاوروبية المصنعة

المندفعة الى ضمان ازدهارها وتقدمها فى حاجة ماسة الى أيد عاملة جاهزة تقوم بأعمال قاسية منحطة وقليلة الدخل مع كثرة الاخطار ، ويستنكف العامل الاوروبى قبول الاشتغال فيها ، أيد عاملة لا تكلفها تكوينا ولا تربية ولا ضمانات اجتماعية قبل بلوغها سن الانتاج كما هو الشان بالنسبة لأبنائها الامر الذى يمثل كسبا هاما «ان الالتجاء الى العمال المهاجرين البالغين يسمح بالتوفير الكامل لنفقات العمل والتربية والتكوين حتى عمر الانتاج» على حد قبول الدراسة التى قدمها نادى جان مولان ونشرت فى «الرجال والهجرة رقم 115» ٠

ولذلك نجد المخططين للاقتصاد الاوروبى ضمن البلد الواحد وعلى مستوى المجموعات كالسوق الاوروبية المشتركة يدخلون نسبة معينة من الجاليات الاجنبية المهاجرة فى حسبانهم كأيد عاملة يجب العمل على ضمانها ، فقد قررت المانيا أنه يلزمها لسنة 1970 مليون نسمة اضافيا وخمسمائة الف اضافية فى سنة 1975 اما فى سنة 1980 فيلزمها فى المجموع ما لا يقل عن مليونين وثلاثمائة الف ، أما فرنسا فقد قررت لنفس السنوات 900 الف ثم 800 الف ثم 2،500 الف نسمة فهذه الارقام كافية وحدها للتدليل على وسائل الدعاية التى ستقوم بها هاتان الدولتان للحصول على هذه الاعداد البشرية الضخمة اللازمة لهما الامر الذى يؤكد رأينا فى كون أسباب الهجرة كثيرا ما تكون مدفوعة بالحاجة الى العمل ولكن هذه الحاجة يزيد فى انعاشها وتشجيعها وسائل الاعلام والاغراء المسلط على سكان المناطق المتخلفة فى العالم ٠

واذا كنا قد ركزنا على اليد العاملة وحاولنا تبيان الاسباب التى تقودها الى الهجرة تاركة أوطانها فلكونها تمثل المجموعة الضخمة من الجالية العربية الاسلامية التى تهمنا فى اوروبا ٠

هجرة الاطارات :

غير ان هناك مجموعة أقل من حيث العدد ولكن أهميتها بالغة بالنسبة لشعوبنا وهذه المجموعة هى الاطارات الجاهزة او التى هى فى دور الاعداد والتى تمثل ثروة هامة للبلدان العربية الاسلامية كالطلبة الذين يذهبون لأتمام دراساتهم العالية كثيرا ما يجدون الاغراءات

المرتفعة بالنسبة لما يتوقعون وجودهم فى بلدانهم وخصوصا ـ بالنسبة للعناصر التى يتوقع فيها النبوغ مما يضيع على بلدانهم المجهودات التى بذلت فى تربيتهم وتوصيلهم الى مستوى التعليم العالى ولا ينالون منهم سوى الجحود والتخلى عن المشاركة فى اعباء بناء مجتمعاتهم وسنرى نوعية الاخطار التى تلحق بشبابنا من جراء الزواج بالاجنبيات سواء رجعوا او استقروا ، ويضاف الى هذه المجموعة أرباب المهن الحرة من أطباء ومحامين وصيادلة ومؤلفين ومنتجين وفنيين ومهندسين وخبراء والذين تعمل وسائل الدعاية الاوروبية على تهريبهم وهذا النوع هو الذى يمكن تسميته بهروب الاطارات أو سرقة العقول التى أصبحت فى العصر الحاضر أهم المشاريع التى تسعى اليها الدول الراقية لضمان تقدمها ، وكلنا يعلم أن العلماء الالمان كان تهريبهم الى أمريكا وروسيا العامل المباشر والاساسى فى تقدم الابحاث العلمية فى مختلف المجالات المعروفة حاليا من طائرات وصواريخ ومركبات فضائية وقنابل ذرية ٠

لقد أصبحت الدول أحرص ما تكون على الحصول على هؤلاء النبغاء الذين يأتونها جاهزين مقتدرين لذلك نجدها تقدم جميع التسهيلات والاغراءات لاستقطابهم وضمان بقائهم ، ان عدد هذا النوع من المهاجرين من العالم العربى الاسلامى قليل فى عدده بالنسبة للعمال لا يزيد عن ١٥٪ من مجموع هذه الجالية ولكن قيمته الفكرية ضخمة جدا ويمكن أن نلحق بهؤلاء بعض أصحاب رؤوس الاموال الذين يقدمون الى أوروبا للتجارة ويستثمرون أموالهم فى بلدان أوروبا بدلا من أوطانهم ليساعدوا على ازدهار بلدان مزدهرة وفقر بلدان فقيرة ٠

هذه صورة عامة طبيعية للهجرة العربية الاسلامية الموجودة حاليا فى أوروبا بأعدادها وأعمارها ، فما هو الواقع الذى تعيشه ؟ وما هى الظروف الاجتماعية والنفسية التى تحيط بها ؟ وما هى الاخطار التى تهددها ؟ هذا ما سنحاول التعرض له الآن لننتهى الى ما يجب أن نقوم به تجاهها وما عمل العالم العربى والاسلامى لانقاذ هذه الجالية المتشردة الضائعة من احتمالات الانحراف والانحلال وفقدان الكرامة٠

الاوضاع التى يعيشون وسطها :

لا يحتاج الامر أن نطيل فى تناول طبيعة الاعمال القاسية المخصصة للجاليات العربية الاسلامية اذ يكفى ايراد نوعية الاعمال التى يقومون بها والنسب التى تشتغل فيها هذه الجالية حتى نتبين خطورة الاوضاع التى يحيونها لتامين عيشهم ونوعية المشاق التى يتحصلونها لضمان الخبز لأسرهم التى تركوها وراءهم ، ان نسبة 42٪ يعملون فى البناء والاشغال العامة كالطرقات وحفر الترع والجسور ومد الانابيب والقنوات وتنظيف الشوارع والنفايات و 26٪ يشتغلون فى تحويل الحديد وصهره فى الافران مع كل ما يتطلبه هذا العمل من معاناة قاسية للحرارة الشديدة والغازات السامة ، وكثيرا ما يتعرضون عند خروجهم من العمل للاصابة بالامراض الصدرية من جراء اختلاف الطقس بين الحرارة الشديدة فى الافران والبرد الشديد خارجها لذلك نجد قسما كبيرا من العمال المهاجرين المرضى مصابين بالسل الذى يظل ينخر فى أجسادهم حتى نهاية حياتهم ، أما المناجم النحمية والحديدية فنسبتهم فيها تقدر بـ 3٪ يضاف اليها الاعمال فى مصانع المحاليل الكيماوية الخانقة والاخرى التى تتطلب فى الغالب تحملا كبيرا وصبرا شديدا ولا بد لها من أجسام قوية حتى يستطيع العاملون فيها تلافى الوقوع فريسة الامراض المضنية الامر الذى لا يتوفر لدى عمالنا فقلة التغذية والجهد المضنى الذى يحتمه الاستمرار فى العمل لتامين وسيلة العيش لهم ولابنائهم يقودهم بعد سنوات قليلة الى الوقوع فى أخطاره .

ان كل هذا معروف للجميع فى قليل أو كثير ولذلك فاننا لن نقف عنده طويلا كما قلنا سابقا وانما الذى يهمنا من ورائه هو الظروف الاجتماعية والثقافية والنفسية التى تتلوه .

ان نظرة المجتمع الاوروبى الى سكان العالم الثالث بصفة عامة والعالم العربى الاسلامى بصفة خاصة تقوم على الكراهية والاحتقار والتعصب ولا نغالى اذا نحن أكدنا بأن المصدر الرئيسى لروح التعصب الاعمى انما انطلق من أوروبا وقد اتخذ أشكالا عديدة منذ أجيال قديمة الى الآن بدات مع الغزوات الرومانية وانتقلت الى الحروب الصليبية لنجد تتويجها فى عهد الاستعمار الذى تدفقت فيه ملايين من الاوروبيين لتحتاج جميع القارات الاخرى وتعمل فيها تقتيلا ونهبا وتشويها

فتوصلت الى افناء مجموعات بشرية بأسرها كالهنود الحمر ولا نزال نشاهد اليوم جرائمها تجاه السكان السود فى أمريكا وجنوب افريقيا من جراء التمييز العنصرى المنطلق من روح الاستعلاء والاحتقار للاجناس الاخرى غير البيضاء وقد توصل الامر بهذا التعصب ان انصب على أوروبا نفسها حيث أخذت أجناس منها كالالمان تدعى تزعمها وأهليتها لتسيير العالم واحتكارها للسلطة على جميع الاجناس الاخرى مما جعلها تعمد الى محاولة طرد غيرها من مستعمراتهم لاستخلافهم مما ترتب عنه اندلاع حربين عالميتين ذهب ضحيتهما ملايين من الابرياء فلا غرابة ان نجد اليوم وراء كل فتنة وكل حرب فى العالم عناصر ودول أوروبية تعمل على سحق السكان والتنكيل بهم لفرض وجهة نظرها عليهم كما هو واقع فى شبه جزيرة الهند الصينية والشرق الاوسط ٠

ان الرجل الاوروبى أصبح لا يقبل بثقافة غير ثقافته ولا بحضارة غير حضارته ولا بلغة غير لغته ولا بدين غير دينه ولا بنظام غير نظامه فاذا وجد جنسا بشريا يرى غير ما يراه تعرض له بالنقد والتبريح وظل يقاومه بجميع الوسائل حتى يتوصل الى تحريفه وتشويه حقيقة وجوده ٠

فلا غرابة أن تجد الجالية العربية الاسلامية مجتمعا مناهضا يرى فيها كائنات متخلفة لا تستحق سوى الاذلال وهذا ما يجعله يخصص لها أحط الاعمال وأقساها وهذا ما يجعله يوفر لها اسوء المعاملة وأوحشها ٠

ولا يراعى سوى مقدار ما توفره لهم من دخل وما تجنبه من نفقات غير مكترث بما يصيبها من أمراض بدنية ونفسية وما يحل بشخصيتها من انحراف وتمزق ٠

ولا نقول هذا كتحامل ورد فعل عاطفى تجاه وضعية المجتمع الاوروبى وانما انطلاقا من حقائق تاريخية معروفة للجميع ومن أحداث يومية شاهدناها بكل ما فيها من عنف ومرارة ٠ وليس غايتنا هنا أن نبحث فى اسبابها فهى عديدة منها ما يرجع الى عوامل تاريخية ومنها ما يرجع الى تقدم العالم الاوروبى ومنها ما يرجع الى تأخرنا

وتراخينا وتفرق شملنا وانما الذى يهمنا أن نلقى بعض الاضواء على الشروط الخانقة التى تعيش فيها جاليتنا

لقد راينا نوعية الاعمال التى تخصص لها مع هضم حقها فى الاجور وقلة العناية بمصيرها الصحى والنفسى وفوق هذا فان ظاهرة التعصب تدفع بالاوروبى الى رفض الايجار للعرب والمسلمين وكثيرا ما نجد الاعلانات فى الجزائر تنص على أن صاحب المسكن لا يؤجر الا الاوروبى أما الملون فهو مرفوض وهذا ما يجعل بعض المهاجرين يضطرون الى التحايل فيدعون جنسية غير جنسيتهم أو يرسلون صديقا اوروبيا يستاجر المحل لهم ، فاذا ذهب العربى أو المسلم الملون الى مطعم أو متجر أو مقهى أو فندق فانهم يعملون بجميع الوسائل لاستنارته حتى يدفعونه الى الهروب أما اذا وقعت مشاداة بين ملون واوروبى وخاصة اذا كان عربيا فان الجميع يناصر الاوروبى ويتالب على الغريب ، ويكفى أن نورد ان الاضطرابات التى وقعت فى فرنسا فى ماى 1968 أو التى قام بها الطلبة الفرنسيون كانت فرصة سانحة لطرد أكبر عدد من الجالية العربية الاسلامية لا لشىء سوى لوجودهم على الرصيف يتفرجون كغيرهم بدافع التطلع فتاتى الشرطة وتقودهم الى مقرها ليبقوا معتقلين حتى يتم اجلاؤهم وكل هذا دون مراعاة للقوانين الدولية التى تنص على عدم طرد الاجنبى ما لم تثبت ادانته ويتم له الدفاع عن نفسه ونفس الامر عند ما وقعت حوادث بالفيل بباريس بين العرب واليهود فى سنتى 69 ـ 1970 وكان سببها تبجح اليهود بانتصار اسرائيل على العرب فلما وقعت المشادات وتدخلت الشرطة نال العرب من المغاربة مظالم كبيرة حيث وضعوهم فى السجون بينما سمح لليهود المستفزين بالبقاء خارجها وهذه ليست سوى أمثلة قليلة من الجو المتوتر الذى تعيش فيه الجالية العربية الاسلامية فى أوروبا ، ومما لا شك فيه أن الدعاية المغرضة المعادية التى تسلطها وسائل الاعلام الغربية والصهيونية ضد هذه الجالية قد لعبت دورا كبيرا فى تغذية هذه الكراهية للعناصر العربية الاسلامية ويرجع السبب الآخر الى وجود عناصر لم تقبل بخروج مستعمراتها من قبضتها فقسم كبير من الفرنسيين مثلا لا يغفرون للجزائريين ولا للعرب والمسلمين استقلال الجزائر لذلك يجدون تعويضا معنويا كبيرا فى هزيمة العرب على يد الاسرائليين ويظهرون

مساندتهم للعصابة الصهيونية ظالمة او مظلومة اذا اضيف ذلك ان بقاء دولة اسرائيل سيجعلهم عند اللزوم يتخلصون من العنـــاصر اليهودية التى خلقت لهم شعورا بالذنب تجاه المجازر التى اقترفوها فى حقها على يد النازية الالمانية والعناصر المتعصبة في بقية مناطق أوروبا فمساندتهم لاسرائيل فيها تكفير عن الجرم وانتقام للشـرف ضد العرب · ومع هذا فانه يجدر فى الصدد القول بأن اتساع نفوذ الحركة الصهيونية ورقة دعايتها يرجع الى تلاحم جاليتها وانتظامهـا وقوة نشاطها وتضامنها الفعال الامر الذى تفقده الجالية العربية ·

وقد قادت هذه الدعاية المعادية للعرب الى نتائج خطيرة حتى انهم في دعايتهم أصبحوا يلصقون التهمة بجاليتنا عند وقوع أى جرم فاذا وقعت سرقة في فرنسا او اعتداء اخلاقى فان الصحف سرعان ما تندد بالمغاربة وتلصقها بهم وكثـيرا ما ياتى التحقيـق فيما بعـد ليثبت براءتهم ولكن الرأى العام لا يتابع التحقيقات وانما يهتم بالتهم بحيث أصبح مهيأ نفسيا للعداء للعرب والمسلمين ، هذا هو الجو الاجتماعى والنفسى الذى تعيش فيه الجالية العربية وقد جاءت تحريات الـرأى العام لتؤكد هذا فقد تبين منها ان موقف الفرنسى من العمال العـرب يأتى فى آخر درجة بعد السود الافارقة وبعد البرتغاليين والاسبانيين والايطـاليـين ·

ولكن الامور لا تقف عند جو التعصب المناهض الذى يدفع هذه الجالية العربية الى الانعزال والشعور بقساوة المحيط زيـادة على غربتها من حيث اللغـة والعـادات والتقـاليد والقيـم التى تزيد فى استيحاشها وضياعها فهناك بالاضافة الى هذا عدة عوامل تهدد وجودها فشعورها بالانعزال يدفعها الى الانغماس فى الشرب وانعدام الجـو العاطفى يقودها الى مخالطة سيئة مما يفقدها صحتها ومالها ويعرضها الى أمراض معدية ، ورغبتها الملحة فى ايجاد مأوى بعد العمل المضنى وللخروج من رتابة الحياة وسد عاطفتها هو الذى يجعلها تقدم عـلى الزواج بالاوروبيات التى غالبا ما تكون من أوساط منحطة وعنـد ما يصبح الفرد رب عائلة تنهال عليه المشاكل فالام تسمى الطفل باسم مسيحى وترغب فى تعميده فى الكنيسة وتلقنه لغة وتربية أوروبيـة بينما يريد والده الحفاظ عليه ضمن القيم الاسلامية والعربية فيخرج

الولد موزع النفس منقسما فى شخصيته منحرفا فى سلوكه يستحى ان يذكر أن والده عربى مسلم ولا يذكر بين أترابه الا انتماءه لامه فاذا قرر رب العائلة الرجوع الى وطنه فان المشاكل تزيد تعقدا وغالبا ما تنتهى بالطلاق وكل ذلك على حساب الولد الذى يجنى ثمار هذا الشذوذ الهجين ضعفا عقليا أو جنوحا يقوده الى مهاوى الحياة .

والادهى من كل هذا هو انعدام أى شكل من التنظيم تقريبا لحماية هذه الجالية والحفاظ على شخصيتها فكثيرا ما يبحثون عن الوسائل التى تساعدهم على التمسك بمقوماتهم الشخصية والقيام بواجباتهم الاخلاقية والدينية تجاه انفسهم وتجاه أسرهم وأولادهم فلا يجدون عونا أو مساعدة ، ويؤكد هذه الرغبة ما ورد فى التحقيق التلفزيونى الفرنسى حول الجالية العربية فى باريس تحت عنوان « باريس العربية » فبعد أن يلقى أضواء على نوعية الحياة المادية السيئة التى تحياها هذه الجالية من حيث السكن واللباس والعمل يتعرض الى وسائل التسلية مظهرا الاهتمام والاقبال الكبير عى الافلام العربية رغم قدمها وضعف مستواها ولقد سئل بعض المشاهدين هل يفهم لغة الافلام العربية ولماذا يختارها فكان الجواب المسيطر هو أنها تعيدنا الى جو الوطن وحتى اذا كنا لا نفهم لغتها فهى شىء نحسه ونعيشه .

وتجدر الملاحظة فى هذا الصدد أن أغلب المستوردين لهذه الافلام هم من اليهود الذين يتاجرون بعواطف هذه الجالية ويكسبون من ورائها مالا كبيرا .

ولكن الاغتراب الثقافى والعاطفى والاجتماعى تقف أخطارها عند حدود الافراد أنفسهم رغم ما فى ذلك من أضرار جسيمة والشىء الاهم من هذا هو تعرض هذه الجالية فى أغلبها من عمال وطلبة واطارات الى التأثيرات الفكرية المنتشرة فى أوروبا فالنقابات والاحزاب والاندية الفكرية المتضاربة تبذل جهدا واسعا وتستغل جميع نقاط الضعف فى الجالية لتنشر بينها أفكارا ومعتقدات قل ما تتماشى مع الاوضاع السياسية والفكرية فى أوطانها وبذلك تعدها لتصبح عامل اضطراب وشذوذ عند عودتها الى أوطانها وكلنا يعلم ان كثيرا من الافكار التى انتقلت الى مجتمعاتنا وكثيرا من العقائد التى تناهض قيمنا وتسعى

لتشويه شخصيتنا انما جاءتنا عن طريق طلبتنا وعمالنا والذين كانوا في الهجرة بالاضافة الى الانحرافات السلوكية المختلفة التي تقلد التيار الاوروبي الجديد .

ان اوضاع هذه الجالية تحتاج منا جميعا بذل جهود كبيرة للحفاظ على مقومات شخصيتها ، فماذا عمل المسؤولون دولا وهيئات ومنظمات لمساعدة هذه الجماعة المشردة التائهة ؟ وماذا يوجد في أوروبا من مشاريع ومؤسسات تقوم بخدمتها والدفاع عنها واستقبالها وتوجيهها ورد المظالم وتغيير الدعاية المغرضة ضدها ؟ ان هناك أكثر من خمسة وعشرين سفارة عربية وإسلامية في كل بلد أوروبي بالاضافة الى القنصليات والبعثات فماذا عملت ؟ نستطيع ان نقول - دون مغالاة - انها لم تستطع حتى أن تقاوم الدعاية الصهيونية الواسعة مما ألب الرأي العام الاوروبي ضدها بينما نجد سفارة اسرائيلية واحدة استطاعت أن تسلم اليهود في البلاد التي توجد بها فينمكنوا من السيطرة على المراكز الحساسة في هذه الدول كالاعلام والاقتصاد ويمكنوا ان يقدموا معونة ضخمة لاسرائيل بالاموال والدعاية . ان عدد المراكز الدينية والثقافية الاسرائيلية في أوروبا لا تحصر بينما لا نجد لدى الجالية الاسلامية والعربية سوى مسجد واحد في فرنسا ويسيره عملاء لا قيمة لهم ، ان أطفال هذه الجالية يقفون 300 الف فهل وجدت مئات مدرسية لتعليمهم اللغة العربية والقيم الاخلاقية الدينية الاسلامية لا شيء من هذا -

ان اللغة العربية ومبادئ الدين الاسلامي التي تدرس في الجامعات الاوروبية يقوم بها اشخاص أوروبيون مستشرقون غالبا ما يحرفون الحقائق عن جهل أو عن قصد ، هذا في الوقت الذي نجد أوروبا تفتح في جميع الاقطار العربية والاسلامية مدارس ليس لجاليتها وحدها وانما لنشر لغتها وحضارتها بين أبنائنا زيادة على البعثات التبشيرية ، ان التبادل الثقافي يجب أن يحترم من الجانبين وعلى الدول العربية الاسلامية اذا كانت تحترم لغتها وتحافظ على مقومات شخصية جاليتها ، ان تطالب بتكوين مؤسسات مدرسية وثقافية لجاليتها أولا ولمن يهتم من الاوروبيين بحضارتنا ، فمن الغريب انك تستطيع أن تسمع لغة جميع أقطار العالم ما عدا اللغة العربية ويمكنك أن تسمع أغاني وموسيقى مختلف الاجناس والاديان الا العربية فمن

النادر أن يقع المذيعون في خطأ اذاعتها وكان سدا من العداء يحـول دونها ، ان مصالح الدول الاوروبية في أقطار هذا العالم الـواسع الاطراف متنوعة وبامكـان المسؤولين أن يجدوا وسائل الاقنـاع الضرورية للسماح للحضارة العربية الاسلامية بان تجد طريقهـا الى نفوس جاليتها والى الرأى العام الاوروبى كما هو واقع مع شعوبنـا ، واننى أغتنم هذه الفرصة الكريمة لاقدم لحضراتكم بعض المساعى التى قمنا بها وما حققته الوداديه . ان وداديه الجزائريين في أوروبا عاشت تجربة هامة فى المنطقة واستطاعت بحكم نشاطها المتواصل أن تتعرف على مشاكل هذه الجالية،ورغم محدودية امكانياتها وضخامة الجالية التى تعنى بها فقد استطاعت أن تقدم بعض الواجبات تجـاه هذه الجالية ، فقد قامت فى نطاق الهجرة الجزائرية بعدة أعمـال ومشاريع فبادرت وحدها الى تعليم العربية للناشئـة الجـزائرية ، واستطاعت أن تؤمن لما يقارب العشرة آلاف طفل ، كما قامت بمكافحة الامية فى اوساط الكبار بالعربية والفرنسية وحرصت على تنظـيم مخيمات صيفية للاطفال فى كل سنة لتمكنهم من التعرف على وطنهم والحفاظ على الروابط التى تربطهم بمجتمعهم وقامت بتنظيم سهرات فنية شعبية بمشاركة فنانين جزائـريين واقيمت فى كل مناسبـة كالاعياد الوطنية والدينية فى مختلف المناطق التى تتجمع فيهـا جاليتنا زيادة على زيارة المرضى وتسليتهم ونقل رفاة المواطنـين ، وكلكم يعلم مدى حساسية هذه العملية الاخيرة بالنسبة للمجموعات الاسلامية ، ولم تدخر جهدا فى تنظيم المنتديات والمحاضرات وحتى تضمن لطلابنا جوا مناسبا يضمن لهم تلقى المعلومات والاخبار عـن بلادهم ويسمـح لهم بالالتقاء والتـلاحم فتحت لهم نـوادى وآخرها ابن باديس فى مطلع سنة 1970 وأوجدت داخل تنظيمها هيئة للشباب تعنى بتوجيههم وأخرى للمرأة لتعريفها بما يجب عمله فى هذا المحيط الغريب وهى الوحيدة من دون جميع المنظمات التى قامت بانشـاء جريدة الجزائرى فى أوروبا لأطلاع الجالية على ما يجرى فى وطنهـا والدفاع عن مصالحها وابلاغ صوتها الى السلطات الوطنية ، والاهم من هذا هو انها كانت المنظمة الوحيدة التى فكرت فى الدفاع عـن الجالية العربية والسهر على مصالحها عند ما اوجدت المجلة الوحيدة

العربية فى أوروبا · وهى آفاق عربية وضعتها تحت تصرف العناصر المثقفة العربية لتكون الناطق الرسمى باسمها ·

غير أن ضخامة المشاكل تتطلب من الجميع بذل مجهودات أكبر حتى نقف فى وجه الاخطار التى تهدد هذه الجالية العربية الاسلامية فى شخصيتها وحتى نجعل منها رسولا واعيا فعالا لنشر الحضارة العربية الاسلامية فى ربوع أوروبا ونعيد اليها مكانتها اللائقة بها ونبين الوجه الانسانى المشرق الذى تحمله بين طياتها ·

Etant donné, par ailleurs, la période assez longue — près d'un quart de siècle — durant laquelle Ibn Khaldoun a exercé les fonctions de magistrat et de législateur en Egypte et l'expérience acquise pour ainsi dire sur le terrain en prononçant sentences et jugements, ne serait-il pas possible demain à un chercheur de dire qu'il fut tout aussi bien un philosophe du droit en matière de législation et de codification des lois, de par la pratique qu'il avait acquise dans l'un et l'autre domaines, sa connaissance de leurs auteurs, auxquels il a tracé la voie grâce à ce qu'il a explicité, précisé ou critiqué ?

Certains ont prétendu qu'il était un novateur en matière économique en préparant la voie à des théories et à des systèmes qui, pour être encore débattus n'en sont pas moins appliqués dans des grands, moyens ou petits Etats. D'autres enfin soutiennent qu'Ibn Khaldoun est, en plus de tout cela, le premier auteur de la théorie de Darwin, et de la légende de l'homme descendant du singe, et [illegible] l'opinion émise par notre maître le docteur Wafi dans ses travaux sur les Prolégomènes.

Il me semble que nous sommes ici d'accord sur un fait, à savoir que Ibn Khaldoun n'a pas été uniquement celui-ci ou celui-là, mais tout cela réuni et [illegible] encore.

L'un des résultats de vos recherches et des recherches de ceux qui vous ont devancés autorise, je crois, à approuver ceux d'entre vous qui ont appelé à la relecture d'Ibn Khaldoun à partir d'une nouvelle optique, et avec un esprit une méthodologie renouvelés, mais tout en restant le plus proche de son époque et en prenant en considération les contextes propres à sa vie scientifique et pratique.

Alors peut-être nous trouverons-nous en présence d'un génie aux multiples facettes, d'un créateur de nombreuses disciplines et non d'une seule et [illegible] terons-nous qu'il fut en fait le dernier de cette lignée de savants aux aspects [illegible] tels Aristote, Al-Farabi, Ibn Sina, Ibn Rochd et d'autres noms de la Renaissance européenne.

Eminents Professeurs,

En vous renouvelant la gratitude de l'Algérie pour les efforts que vous y avez accomplis au service de la science et des savants, permettez-moi de vous féliciter pour vos fructueux travaux et de formuler le souhait de vous retrouver dans d'autres rencontres.

Que le Salut soit sur vous.

(3) Yves Lacoste au colloque

donner ces Prolégomènes « d'une facture originale qui me réussit dans cette retraite ».

Ce sont là certaines parmi les relations qu'a nouées avec l'Algérie Ibn Khaldoun, ce savant génial dont vous avez tenu à célébrer le 6ème centenaire de ses « Prolégomènes », en échangeant vos points de vue à son sujet avant d'en tirer les conclusions

Si vous avez été unanimes à mettre en relief son génie créateur, l'originalité de ses travaux, le sérieux de ses recherches, son rôle de précurseur dans la création d'une science importante, vous n'avez pas manqué d'être en désaccord, comme l'ont été d'autres chercheurs parmi ceux qui sont absents de ces assises, sur la nature de cette science qu'il a inventée et définie, et cela en vertu de vos différentes spécialisations et préoccupations.

Nous avons appris et entendu jusqu'à ce jour que « la discipline créée par Ibn Khaldoun est la sociologie, et cela avant Auguste Comte, l'école de Durkheim et ceux qui les ont précédés, en ont été les contemporains ou les successeurs. Qu'Ibn Khaldoun les a tous surpassés dans cette discipline et a été — bien plus et à juste titre — le premier inventeur de la sociologie Que la sociologie n'a pas ajouté autre chose à ce que Ibn Khaldoun a codifié », ainsi qu'il apparaît à notre maître le docteur Ali Abdel Wahad Wafi

Nous avons entendu ou lu d'autres chercheurs pour qui la science créée par Ibn Khaldoun n'est pas la sociologie, mais l'ethnologie ou l'anthropologie, comme le soutient notre ami le docteur Abdelaziz Lahbabi, si je m'en souviens bien (1).

Voilà que nous entendons ou lisons aujourd'hui qu'Ibn Khaldoun a préparé en réalité l'avènement de la « science des idéologies » ou de la « politologie », comme le conçoit le professeur Georges Labica, d'après les comptes-rendus publiés dans la presse, ou bien qu'il est le créateur de la géographie des cités et des campagnes, selon l'opinion du docteur Djilali Sari

D'aucuns pourraient dire — et cela a peut-être été dit auparavant — qu'Ibn Khaldoun a créé la science des civilisations et de la longévité des Etats, devançant en cela de plusieurs siècles des savants tels que Toynbee et d'autres. Nous pouvons de même avancer qu'il a été le premier inventeur de méthodes pédagogiques en ce qui concerne l'enseignement de nombreuses disciplines, sur la base des conclusions auxquelles il était parvenu après l'examen exhaustif des voies utilisées de son temps et dont il avait eu connaissance dans les pays qu'il avait visités ou dans esquels il avait vécu.

(1) Voir Actes Integraux du VIe Seminaire sur la Pensee Islamique (Alger 1972)

de nombreux éléments ont été rassemblés sur son sol et dont l'intégralité y fut rédigée par un auteur auquel l'unissaient, de surcroît, les liens les plus étroits et les plus intimes.

En vue de résumer, au seuil de la clôture de ce colloque, ce qui a sans doute été dit ici sur la relation étroite entre Ibn Khaldoun et l'Algérie, je citerai seulement le fait que l'auteur lui-même a souligné à maintes reprises, dans son auto-biographie, le mérite des maîtres algériens qu'il a rencontrés ou dont-il fut le disciple aussi bien à Tunis, Fès, Tlemcen ou Bidjaïa, tels les deux fils El-Imam, Abou Zayd Abderrahman et Ibn Moussa Aïssa, originaires de Barichk (1), près de Ténès ; Abou Abd Illah Mohammed Ibn Ibrahim El-Abili, « maître des sciences métaphysiques du Maghrib qui m'a d'ailleurs reconnu l'agrégation dans cette discipline » et qui est né et a vécu à Tlemcen ; Abou el-Abbas Ahmed Ibn Mohammed Ez-Zouaoui, de Bidjaia, « imam des lecteurs (du Coran) de tout le Maghrib, qui m'a décerné le diplôme général » ; Abou el-Abbas Ibn Idriss, « le plus grand des savants de Bidjaïa » ; Abou Abd Illah el-Maqqari, grand-père d'El-Maqqari, l'auteur du « Nefh » ; Abou Ali Ibn Bâdis, le Constantinois, et d'autres encore.

De même qu'Ibn Khaldoun a étudié auprès de maîtres algériens, il a enseigné à son tour dans la Casbah de Bidjaïa et à l'Ecole d'El-Eubbâd de Tlemcen.

Sur le plan de l'expérimentation pratique en Algérie, notre génial penseur a participé à bon nombre d'événements et de bouleversements politiques. Il fut, entre autres, ministre des Finances à Bidjaia dont il fit la connaissance des vallées et des montagnes, lors de ses pérégrinations pour le « recouvrement des impôts et des dîmes ». Il y fut également Grand Chambellan, autrement dit Premier Ministre, « doté d'un pouvoir absolu et omnipotent ».

Lorsque lassé enfin des allégeances, des complots et des terreurs, c'est en Algérie qu'il trouva un hâvre de paix et de tranquillité. Il se maria avec une Constantinoise qui fut son unique épouse jusqu'à sa mort et la mère de ses enfants. Après une période de méditation à Biskra, il se consacra à l'étude et aux travaux de plume dans la Kalaâ des Béni-Salâma, près de Tihert (Tiaret), entouré des siens, libéré des soucis quotidiens, « adonné entièrement à l'enseignement d'une science, à la lecture d'un livre, ou bien à l'exercice de la plume dans une compilation ou une création » durant quatre ans. Il commença dès lors sa carrière d'auteurs pour nous

(1) Barichk, petite ville fondée par des Andalous près de Ténès. Elle fut détruite en 1608 par le corsaire flamand Simon Danser, alias Mourad Raïs, après s'être converti à l'Islam et s'être mis au service de l'Algérie. Il quitta l'Algérie, emportant « deux magnifiques canons en bronze » qu'il remit au Duc de Guise, sous Louis XIII, ce qui provoqua une guerre entre l'Algérie sous Hossein Pacha et la France sous Louis XIII. L'épisode fut clos par le Traité de Tours signé par Louis XIII et Sinan Aglia en 1618, mais les deux canons ne furent restitués à l'Algérie qu'en 1628 (Voir Henri Garrot Histoire Générale de l'Algerie, et Innya wa Açala, de l'auteur de ces lignes).
Sur l'emplacement de la ville il fut construit, pendant l'ère coloniale française, un nouveau village appelé Francis Garnier, s'appelant aujourd'hui Bani Hawwa, près de Ténes. Quant à Simon Danser, alias Mourad Raïs, il nous laissa son nom, déformé, à Alger au quartier s'appelant aujourd'hui Bir Mandreis

IBN KHALDOUN ET L'ALGERIE (1)

par Mouloud Kassim NAIT BELKACEM

Eminents professeurs,

Mesdames et Messieurs,

C'est pour moi un grand honneur de prononcer cette courte allocution pour clôturer les travaux de votre colloque.

Vous remercier pour avoir affronté les fatigues du voyage afin de répondre à l'invitation de l'Algérie et aussi pour les efforts que vous avez déployés dans la préparation de cette rencontre, votre participation aux conférences et aux débats, votre au service de la science, et ce, à l'occasion de ce 6ème centenaire des « Prolégomènes » d'Abu Zayd Wali ed Dine Abderrahman Ibn Khaldoun, l'un des génies du Maghreb, du monde musulman en général et de l'humanité dans son ensemble.

L'Algérie qui a accoutumé depuis le recouvrement de son indépendance et de sa souveraineté de fêter les hommes et leurs œuvres, aussi bien les nationaux et les musulmans en général que ceux appartenant aux divers continents, se devait d'accueillir ce colloque et de célébrer ce 6ème centenaire des « Prolégomènes » dont

(1) Allocution de clôture du Colloque International sur Ibn Khaldoun et le sixième centenaire de ses Prolégomènes organisé par le C.N.R.H. (Alger, 26 juin 1978).

الأصالة

مجلة ثقافية شهرية

السنة الثامنة
صفر ـ ربيع الاول
1399 هـ
جانفي ـ فيفري
1979 م

في هذا العدد

- حزب جبهة التحرير الوطني الحارس الامين للاستمرارية الثورية.
- أعز ما يفخر به الجزائري : دينه ولغته.
- احترام الشرعية الدستورية وتطبيق الميثاق الوطني.
- عروبة واسلام.
- تأكيد أصالتنا وانتمائنا العربي الاسلامي.
- كل من الغرب والشرق (الاوروبي) متخلفان.
- الدين واللغة والتربية عند فيخته.

الأصالة

مجلة ثقافية شهرية

تصدر عن

وزارة الشؤون الدينية

أسسها :

مولود قاسم نايت بلقاسم

في محرم 1391 هـ - مارس 1971 م

رئيس تحريرها

عثمان شبوب

- هذه المجلة منبر حر ، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن آرائها . وباب المناقشة والرد فيها مفتوح للجميع .
- المقالات التي ترد الى المجلة لا ترد الى أصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

التحرير :

12 ، نهج علي بومنجل - الجزائر

تليفون : 74 - 88 - 64

قيمة الاشتراك السنوي :

في الجزائر : 20 د . ج

في الخارج : ما يعادلها

الاشتراك للطلبة : 18 دينارا

المراسلات الخاصة بـ :

الاشتراكات

التوزيع

ساحة ابن باديس - الجزائر العاصمة

تليفون : 14 - 67 - 62

الحساب الجاري : 09 04 39

صندوق البريد : 93

مطبعة البعث - قسنطينة - الجزائر

فهـــرس العـــدد

حزب جبهة التحرير الوطنى الحارس الامين للاستمرارية الثـــورية	رابـح بيطاط	2
أعز ما يفخر به الجزائرى : دينه ولغته	محمد الصالح يعياوى	9
احترام الشرعية الدستورية . وتطبيق الميثاق الوطنى	الشاذلى بن جديد	41
عروبـــة واســـلام	د. بوعلام بن حمودة	42
تأكيد أصالتنا وانتمائنا العربى الاسلامى	الشاذلى بن جديد	46
الرئيس الشاذلى بن جديد يؤدى اليمين الدستورية		50
كل من الغرب والشرق (الاوروبى) متخلفان	مولود قاسم نايت بلقاسم	52
الاسلام فينا عريق . ونحن فيه عريقون		
فهل ستورد حتى الائمة ؟	أحمد حمـــانى	59
● دراسات وابحـــاث		
العلم القسطيلى اثناء حكم الحاج أحمد باى آخـر بايات قسنطينيـــة	د. عبد الجليل التميمى	68
مواقف العائلات الارستوقراطية من محمـد المقرانى وثورته وأحداث أخرى من خلال الوثائق عن ثـورة 1871 .	د. يحيى بوعزيز	76
الثقافة العربية المعاصرة ومصير الوطن العربى	د. الحبيب الجنحانى	96
الدين واللغة والتربية عند فيخته	مولود قاسم نايت بلقاسم	106
● ملف عن الملتقى الثانى للامام المارزى		
الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلامية	عثمان شبوب	117
حول مشكلة القضاء والقدر فى الفكر الاسلامى	د. الحبيب الفقى	118
الجبر والاختيار فى التفكير الاسلامى الحديث	د. محيى الدين عزور	139
الصوفية والعقيدة الجبرية	توفيق بن عامر	155
● باب التفســـير :		
اتصاف أهل الفساد ، بالنفاق والعناد	سليمان المدنى	166
أهل الضلالة ، عمى عن الهداية	سليمان المدنى	171
● من محاضرات الملتـــقى		
موقف الاسلام من العقل	كمال التارزى	176
اللغة العربية فى جنوب شرق آسيا	محمد العربى دمـــاغ العتروس	188
● قصـــة		
الكنـــز . الكنـــز	محمد نسيب	201

حـزب جبهـــة التحريـــر الـــوطنى
الحارس الامـين للاستمرارية الثورية (*)

ايها الاخوة . ايتـها الاخوات ،

وفاء للعهد الذى قطعنـاه لشهدائنا الابـرار . ومواصلة لمسيرة ثورتنا الزاحـفة ، وتتويجا لبناء صرح هذا الوطن المجيد . ها نحن اليوم مجتمعون فى المؤتمر الرابـــع لجبهـة التحرير الـوطنى ·

وبهذه المناسبة التاريخيه ذات الدلالة العميقة بالنسبـــة لمستقبل بلادنا والتى تكتسى أهمية بالغة من حيث القرارات المصيرية التى ستنبثق عن مؤتمرنا هذا يطيب لى ان أرحب بجميع الاخوه المناضلين والاخوات المناضلات ، الذين جاؤوا للمشاركة فى هذا التجمع النضالى العظيم ·

ان مؤتمرنا هذا ، ينعقد بعد ان ودع الشعب الجزائرى منذ شهر ، قائده ورائد ثورته الرئيس الراحل هوارى بومدين ، فى أروع صورة من صور الاكرام والاجلال ، واحسن ما نخلد به ذكرى ابن الجزائر البار . اخينا هوارى بومدين رحمه الله ، هو وضع اللبنة الاخيره ى صرح مؤسسات دولتنا الفتية الا وهو انعقاد هذا المؤتمر ·

(*)كلمة الاخ رابح بيطاط رئيس الدولة فى افتتاح المؤتمر الرابع لحزب جبهـــة التحرير الوطنى ·

وما التلاحم الشديد الذى شهدناه بين الشعب وقائده الراحل الا ضمانا لاستمرارية المسيرة الثورية ·

ان الارث الوحيد والتركة الحقيقية التى يمكن ان نتركها لابنائنا ، هو ان نبث فيهم روح العمل من احل بناء بلد جدى ومحترم يقوم على أسس متينة لا تتصدع بزوال الرجال ولا تتأثر بالأحداث·

ذلكم هو الاتجاه الذى سعت فيه السلطة الثورية خلال السنوات الاخيرة من تاريخ ثورتنا المظفرة ، وذلك من اجل اقامة دعائم متينة لتنمية بلادنا اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا ، من اجل ارساء قواعد راسخة لتنظيمها السياسى ·

وان بناء مجتمع اشتراكى لا يمكن ان يتحقق الا بتنظيم سلطه ثورية تتصهر فى الثورة وتتعهد بالدفاع عنها بكل عزم فعلى هذه السلطه قبل كل شىء ان تكون الضامن الامين لاستمرارية الثورة ، هذه الاستمرارية التى ينبغى أن تتواصل بعد زوال الرجال ، هذه الاستمرارية التى يجب أن تتجاوز أصعب الظروف واقساها ·

ـ اخوانى ، اخوانى :

لقد كان حزب جبهة التحرير الوطنى بالامس ، الضامن القوى لثورتنا المسلحة التى ستحتفل عن قريب بذكراها الخامسة والعشرين ، وسيظل اليوم وغدا والى الابد ، الحارس الامين والوحيد للاستمرارية الثورية ·

وستبقى ثورتنا المجيدة حية قوية على مر الزمن ، رغم الصعاب التى لا مناص منها فى طريق مسيرتنا نحو بناء المجتمع الاشتراكى ·

ان حزب جبهة التحرير الوطنى الذى استطاع ، فى أحلك الظروف التى مرت بها ثورتنا ، ان يتجاوز الصعوبات الظرفية العابرة ، ليفتح من خلال الحوار البناء سبيل الوحدة والعمل ، هو وحده الكفيل فى نظرى بأن يضمن بقاء السلطة بين أيدى رجال مخلصين من أشد المناضلين صرامة فى أداء الواجب وافواهم حرصا على الوفاء بالالتـــزام ·

وبما ان الصراحة والوضوح الصفات اللتان يتميز بهما كل حوار بين مناضلي هذا الحزب العتيد . فانه يجدر بنا ، في هذه المناسبة التاريخية . ان نتعرض لذلكم السؤال الذي طالما تردد على ألسنة المناضلين ، الا وهو ... لماذا هذا الفاصل الزمني الطويل الذي دام خمسة عشرة سنة بين المؤتمر الثالث الذي انعقد في سنة 1964 ومؤتمرنا هذا الذي نعقده اليوم ؟

وللرد على هذا السؤال يتعين قبل كل شيء . التذكير ببعض الحقائق وبعض الظروف التي مرت بها ثورتنا .

فمؤتمر سنة 1964 ، كان ينطوي على بذور كل المشاكل التي شهدتها بلادنا بعده . وبوادر مختلف اشكال المعارضة التي ظهرت ضمن قيادتها طوال تلك الفترة المؤسفـــة .

فعلا ، لقد تمكن انذاك رجل واحد من الانحراف بمجرى الثورة باللجوء الى المناورات الدسائسية وبث البلبلة بين جهاز الدولة وهياكل الحزب والسعي من أجل استعمال الجماهير الشعبية لتدعيم حكمه الفردي .
ذلك هو الدرس القاسي الذي يتعين استخلاصه من تلك المرحلة الحرجة التي مرت بها ثورتنا .

اذ ان عواقب تلك السياسة المبنية على المغامرة الفردية . قد أصابت حزب جبهة التحرير الوطني في صميم قواته الحية وقدراته التنظيمية .
واذا كان من المنطقي أن نتولى قبل كل شيء مهام بناء مؤسسات راسخة للبلاد وخلق هياكل عصرية لدولتنا الفتية . الامر الذي يتطلب طوال سنوات عديدة تعبئة كل طاقاتنا . حيث تمكنا خلال هذه الفترة من تأسيس المجالس الشعبية على مختلـــف المستويات . من المستوى المحلي الى المستوى الوطني ، واستطعنا أن نعقد مؤتمرات كل المنظمات الجماهيرية ، لنصل في نهاية المطاف لارساء قواعد سليمة ومتينة يرتكز عليها مؤتمرنا هذا الذي نعقده اليوم .

كما ان انعقاد المؤتمر الرابع لحزبنا لم يكن ممكنا الا بعد تحديد اسس عقائدية واضحة المعالم . وهو ما تم بالفعل بعد أن صادق الشعب على الميثاق الوطني الذي أصبح الخط الفاصل بين من يقف بجانب الثوره ومن بعاديها ٠

ان الحديث قد يطول حول الاسباب التي حالت دون عقد المؤتمر قبل هذا اليوم وحول دور الحزب في التوجيه الايديولوجي لثورتنا . لكن المهـــم والذي لا يستطيع أي أحد ان ينكره ، هو ان الطريق الذي ابتغيناه قد ادى بنا فعلا الى استكمال بناء المؤسسات الاساسيه للدولة وتتويجها بعقد هذا المؤتمر العظيم ٠

وهكذا يتحقق الوعد الاساسي الذي قطعه بيان 19 جوان 1965 ، رغـــم كل الصعوبات الناجمة عن بناء دوله قويه واقامة اقتصاد عصري يلبيه تلبية حاجات الجماهير الشعبية ، ورغم كل العوائق التي ظهرت تم التغلب عليها بفضل وعي شعبنا وتبصره ،

أيها الاخوه المناضلون :

ان القياده الثورية التي تولت زمام الحكم في البلاد برئاسة قائدها الراحل هواري بومدين ، قد انهت اليوم هذه المهمة الخطيرة التي ادتها بكل كرامة وامانه ويحصل لها الشرف أن يتقدم اعضاؤها في هذه اللحظة التاريخية ، أمام المؤتمر كمناضلين من مناضلي جبهة التحرير الوطني ، وسيشهد التاريخ على ان امتنا المجيدة قد استطاعت ان تواجه أصعب الظروف التي مر بها تطورها السياسي بخضوعها في كنف الانضباط والوحدة لتلك القواعد المقدسه التي سننتها لنفسها ٠

وتلكم هي اهم عبرة يمكن ان نستخلصها بخصوص سلوك شعبنا وتصرف قادته خلال الاشهر الاخيرة حيث تكاتف الجميع من اجل الحفاظ على استمرارية ثورتنـــا الخالـــدة ٠

ـ أيها الاخوة ، أيتها الاخوات :

انه ليس في نسى ان اقيم الانجازات الضخمة ، أو استعرض الشوط الكبير الذى قطعناه على طريق تنمية البلاد منذ انعقاد المؤتمر الاخير ، لان ذلك يبدو جليا لو تفحصنا ميثاق الجزائر وقارنا بين اهتمامات المؤتمرين انذاك وبين ما تم انجازه الى حين صدور الميثاق الوطنى الذى ارتفى بطموحات شعبنا الى اعلى المستويات ٠

ولم يتسن هذا التقدم الكبير الا بفضل تعبئة شعب بأكمله ، وبفضل التلاحم القوى بين قاده البلاد ومواطنيها على كل المستويات ٠

واذا يحق لنا ان نعتز بالمرحله التى بلغناها ، فينبغى أن نتفادى التركيز على الجوانب الايجابية دون ان نتوقف عند اخطائنا لنستخلص منها الدروس المفيدة ، حيث ان التقييم الصحيح لما تحقق من تقدم ، والالمام الدقيق بالنقائص وبجوانب الضعف صفتان حميدتان يجب ان يتحلى بهما كل مناضل واع ٠

ان هذه المنجزات لهى احسن رد على اولئك الذين كانوا داخل البلاد وخارجها يتكهنون بحصول فوضى سياسيه وتغيرات ايديولوجية اثر وفاة رئيسنا الراحل ٠

لقد رد الشعب بكل حزم واعتزاز على هؤلاء المغرضين بأنه لن يكون فى الجزائر اختيار آخر سوى الاختيار الاشتراكى وكما استطعنا ان نخيب آمال هؤلاء الشانئين الحاسدين بان تمكنا من استخلاف القيادة السياسيه للبلاد حسب الطرق التى املاها علينا الدستور ، فانى متأكد من ان المؤتمر سيعرف كذلك كيف يرد على هؤلاء بقراراته الحاسمـــة ٠

كما اننى متيقن من ان مؤتمرنا هذا سيؤكد من جديد تمسكه المطلق بالميثـــاق الوطنى ، الذى صادق عليه الشعب بالاجماع ، وعزمه على تعميق المبادىء والتوجيهات التى جاء بها ٠

فلا بد ان نثق بأن الميثاق الوطنى عنى بما احتواه من وعود صادقة . وغنى بما سطره لابنائنا من طموحات كبيرة ، ولذا لا يمكننا أبدا ان نتخلى عما يأمرنا به ، دون أن ننكث العهود التى قطعناها على أنفسنا ٠

ان المهام الجديدة للحزب التى ستنبثق عن هذا المؤتمر ، ستحتم بدون شك على جميع المسؤولين ان يقدروا اهمية حزب جبهة التحرير الوطنى حق قدرها ، فحزب جبهة التحرير الوطنى يعد بحق الدعامة الاساسية لمؤسساتنا الوطنية ٠

اما تمكين الحزب من القيام بمهامه ووضعه فى المكانة التى خصصها له الميثاق الوطنى والدستور فذلكم اول واجب على كل واحد منا ان يقوم به ، حيث ان الوظيفة السياسية للحزب ، المتمثلة فى التوجيه والمراقبة يجب ان تمارس بصوره فعلية وجدية حتى يكون هذا الحزب الطلائعى فى مستوى المسؤولية الملقاة على عاتقه ٠

وعليه فانه يقع على عاتق جميع مناضلى هذا الحزب أن يجعلوا منه حزبا قويا ، يرتبط مستقبله ارتباطا وثيقا بمستقبل الثورة الاشتراكية ، ويكون فى مستوى الامال التى تعلقها عليه ٠

ايها المؤتمرون الافاضل :

لا يسعنى فى ختام كلمتى هذه ، الا ان ابارك مؤتمركم الذى يعقد عليه شعبنا كل آماله . فليكن فى مستوى الثقة التى وضعها فيه الشعب العظيم . وانى بالنظر الى الدور التاريخى الذى سيلعبه مؤتمرنا هذا اهيب بكم ان يضل الوفاء لرئيسنا الراحل رائدكم ، والتفانى فى بغية الخير والحق مرشدكم ، والتجاوب والانسجام شعاركم ، لان من ورائكم شعب متلهف لسماع قراراتكم التى ستحدد مصيره وترفع كابوس الانتظار والقلـــق ٠

وهناك فى الجانب الآخر ، اخوة لكم فى الصحراء الغربية وبجبهة الصمود مشدودة قلوبهم اليكم ، مرهفة اذانهم للاستماع منكم . وهناك أشقاء واصدقاء يهمهم ان تصلوا

الى ما أنتم عاقدون العزم للوصول اليه . وكذلك كل الشعوب المحبة للسلام والعدل في العالم تعلق آمالها وتطلعاتها فوق ربوع بلادنا ·

اننا ايها المناضلون والمناضلات ، هذه الايام تمثل محط انظار العالم ومجال تكهناته وافتراضاته . لذلك علينا ان نكون مثلما كنا وسنكون ابدا ، رواد سلام وانتصار حق ومحبي خير . ولكننا ايضا حرب على التخلف . حرب على الاستعمار وكل أشكال الاستغلال والعبودية وحرب على التمييز العنصري والظلم ·

يحيى حزب جبهة التحرير الوطني ،

يحيى الثورة الاشتراكية ،

يحيى الجزائر ،

المجد والخلود لشهدائنا الابرار

والله ولي التوفيق ،

والسلام عليكم ·

أعـز ما يفخـر بـه الجزائـــرى :
دينـــه ولغتـــه (*)

الاخ رئيس المؤتـمر ،

الاخ رئيس الدولـة ،

ايها الاخوة المناضلون ، أيتها الاخوات المناضلات ،

ها هى ثورتنا المظفرة تنجز وعدها وتستكمل لبناتها التى شرعت فى ترسيخ دعائمها بخطوات ثابتة تحت لواء حزب جبهة التحرير الوطنى وبقيادة بطلنا الراحل هـــوارى بومدين ، قائد مسيرتنا وملهم طلائعنا النضالية ، فهو الذى سخر كل طاقاته لبنـــاء المؤسسات الشعبية واجهزتها القيادية برؤية سياسية واضحة وبصيرة نافذة تستمـد قوتها من روح الشعب وتعبر عن آماله وتطلعاتـه .

انه لوعد قطعه المناضل العظيم على نفسه فى بيان 19 جوان 1965 بان نعمل جميعا بتفان وبروح من المسؤولية على بناء الحزب والدولة بعيدا عن الديماغوجية والشعارات الخلابة ولم يكد يمضى عقد من السنين حتى ارتفع البنيان منيعا عاليا بحميه ارادة الشعب التى جسدها بكل وضوح الميثاق الوطنى والدستور .

(*) كلمة الاخ محمد الصالح يحياوى ، عضو مجلس الثورة والمسؤول التنفيذى المـكلف بجهاز الحزب ، فى المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى.

لقد آلت القيادة السياسية للبلاد على نفسها أن تفى بالعهد مهما كانت الظروف لتبرهن لمن حامره الشك او تسرب الى نفسه الضعف والوهن ان الثورة بقيادة حزبها العتيد جبهة التحرير الوطنى ـ كانت وما تزال ـ شديدة الاصرار على المضى قدما على طريق تطبيق الميثاق الوطنى والدستور وشديدة التمسك باختيارات ومكاسب لا محيد عنها مهما كانت مصاعب الطريق ...

أيها الاخوة المناضلون .

لقد شاء القدر ان ينعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى بعد ان ودعنا قائدنا المناضل الذى كان يتطلع مع كل المناضلين المخلصين والشرفاء الى هذا اليوم العظيم الذى سيتكمل فيه قمة الهرم السياسى للثورة ... فلم يدخر فقيدنا جهدا فى تعبئة الطاقات وتذليل كل العقبات وتوفير جميع الظروف والامكانيات لكى يلتقى هذا الجمع العظيم ويحقق مؤتمرنا هذا اهدافه المنشودة ، وانى لالمح روحه الطاهرة ترفرف حولنا الآن تبارك مسعانا وتحثنا على الالتزام بمبادئ الثورة واختياراتها الاشتراكية وتدعو المناضلين فى كل المواقع الى اليقظة والتعبئة وتلاحم الصفوف لحماية مكاسب الثورة ومواصلة المسيرة بعزيمة اقوى وايمان اعمق حتى نبقى الثورة من الشعب والى الشعب .

لقد أدرك قائدنا هوارى بومدين بان ما عرفته البلاد من فوضى فى مختلف المجالات تميزت بها السنوات الاولى من الاستقلال نتيجة الصراعات الجانبية والمناورات المختلفة لا يمكن الخروج منها الا بتأسيس الهياكل واقامة دعائم دولة قوية تحكمها قوانين الثورة وتخضع لارادتها فى جميع المجالات وفاء للخط الذى سطرته قوافل الشهداء واستجابة لمطامح الجماهير .

وهكذا كانت حركة 19 جوان 1965 انتفاضة تاريخية اعادت الثورة الى طريقها الصحيح ورسمت معالم البناء الاشتراكى بكل وضوح .

وقد كانت القضية الهامة والعاجلة هي خلق الظروف السياسية وتوفير الشروط الضرورية والامكانيات اللازمه لانطلاق نهضه شاملة وحقيقية فى اطار دولة شعبيـــة وديمقراطية عصريـة تستهدف تحقيق تقدم سريع يستفيد من ثماره كل أفراد الشعب والاكثر حرمانا منهم بوجه خاص لان التنمية السريعة والحازمة التى خاضتها بلادنا لم تكن ـ كما برهنت على ذلك انجازاتها الكثيرة ـ مجرد تشييد مادى للهياكل والمؤسسات بل كانت فوق ذلك استجابه لتطلعات الملايين من الفقراء والكادحين الذين التفوا حول ثورة فاتح نوفمبر الخالدة وقدموا لها أعز ما يملكون فى انتظار ان بنجلى لبل الاستعمار والاستغلال وتشرق شمس العداله الاجتماعيه على الجزائر الحرة ٠

ان هذه المهام ذات الاولوية العاجلة التى تدخل فى اطار منظور شامل لم تنس القيادة السياسية ان دعم بنياننا وحماية مكاسبنا الثورية وتعزيز سلطة الشعب تحتم استكمال حلقات البناء السياسى لحزب جبهه التحرير الوطنى على أسس واضحة وقوية بعيدة عن المزابدات الجوفاء والارتجال والصراعات الهامشية . ولترسيخ تلك الاسس وضمان انطلاقه جديدة سليمة كان من اللازم أن يستند هذا البناء من القاعدة الجماهيرية العريضة المتمثلة فى العمال والفلاحين والشبيبة والجنود . هذه القوى التى هى منبع الثورة الاشتراكية وحصنها المنيع وان يواصل العمل على هذا المنهج وفق مراحل متلاحقه حتى يبلغ البنيان تمامه ، فبهذه الطريقة تضمن الثورة وجود رجال يعبرون باخلاص عن آمال الشعب ومطامحه وتكون هيئات حزب جبهة التحرير الوطنى الضمير الحى الذى يستوعب الاختبارات الكبرى لثورتنا الاشتراكية ويعبر عنها بصدق وامانة فى ميدان التطبيق وبذلك فقط يلتزم بتوجيهات قائـــد الثورة الهوارى بومدين التى أكدها فى عدد من المواقف وفى كبر من المناسبات وخاصة فى قسنطينة وتيزى وزو وتلمسان . ان تلك التوجيهات كلها تحث على ان يضـــم الحزب بين صفوفه وفى مختلف درجات المسؤولية أشد الناس اخلاصا لمبادىء الثورة ووعيا لتاريخها المجيد وأكثرهم تجردا من الاغراض والاهواء وأقدرهم على المسؤولية

وأسبقهم الى التضحيه ونكران الذات وهى صفات لا تعرف الا من خلال الممارسة النضالية وسط الجماهير والسلوك اليومى للذين ينهضون بالمسؤولية · فلا يمكن لاى شخص مهما كانت أهمية الموقع الذى يحتله أن يتجاهل حكم جماهير الشعب أو يقلل من قدرتها على التمييز بين المناضل المخلص والكفء عن غيره ·

ان حدس الشعب لم يخطىء اطلاقا كما انه ان اهمل فانه لن يهمل وتاريخ ثورتنا ملىء بالشواهد والعبر على مدى قدرة حزب جبهة التحرير على فرز الحبيث من الطيب والحكم على الرجال من خلال ما قدموه من أعمال وقد أوضح بطلنا الراحل هذا المنهج عندما قال « ان الثوره فى حاجه الى حزب يضم صفوفه خيرة المناضلين الاشتراكيين ··· واذا كان هناك من يتعالى على الحزب فسيأتى يوم تطرق فيه أمثال هؤلاء باب الحزب ولا تفتح لهم بالسهوله التى يتوقعونها ··· وسيكون الحزب طريقا نحو المسؤوليات القيادية التى لن تسعلها غير المناضلين · اننا لا نحرص على أحد الانخراط فى صفوف الحزب ولكن المناصب القياديه تحتاج الى الاحتكاك بالجماهير الشعبية ومناضل الحزب أقرب الجميع الى القيام بهذا الدور » ·

هذه هى توجيهات رئيسنا الراحل التى تجد فى قانونا هذا كل ابعادها ومغزاها وخاصة بعد ان تعاهد الشعب قاطبة وهو يودع القائد الى مثواه الاخير على مواصلة المسيرة بكل حزم واصرار ·

فبقدر ما عبرت جموع الشعب عن حزنها العميق أكدت وما زالت تؤكد تمسكها بكل ما ناضل من أجله الرئيس الراحل من تعلق بالثوره واختياراتها الاشتراكية واستمراريتها بقيادة حزب جبهة التحرير ·

أيها الاخـوة المناضلون .

أيها الاخوات المناضلات ·

اننا نستحضر فى هذه اللحظات التاريخية ونحن نضع اللمسة الاخيرة فى صرح مؤسساتنا الثورية تراثنا النضالى العريق · المتواصل عبر التاريخ ·

ان شعبنا المكافح وقف في صمود وثبات أمام كل موجات الغزو التى عرفتها المنطقة وقاوم باستمرار وبحد السلاح كل الطغاة فلم تستطع جيوش الرومان والوندال والبيزنطيين اخضاعه وتذويبه فى امبراطوريات أقيمت على العسف والاستعباد بل قاوم الاحتلال ولم يبخل أبدا عن بطلعه الوطنى الى التحرر والانعتاق وقد كان الاسلام أبلغ تعبير عن المثل التى آمن بها شعبنا وأصدق تجسيد لطامحه المتمثلة فى الحرية والعداله والمساواه فانضوى تحت لوائه واعتنق مبادئه التى تحث على العدل والمساواة وتدعو الى الثوره على الاستغلال والتسلط ٠

وهكذا استمد هذا التراث النضالى الضخم الى قيم وتقاليد أصيله تمثلت على مر الاجيال فى الاقدام على التضحية والثبات فى المعارك وطول النفس فى المقاومة والثوره على كل أشكال السيطره والاستغلال ٠

ولقد تجسدت هذه الخصال النضاليه الرائده على الاخص عندما اصطدم شعبنا بأشرس قوة استعمارية استيطانيه وهى فى عنفوان طغيانها ٠

واذا كان عدم التكافؤ فى العدد والعدة قد مكن قوات الغزو من كسب جولة فى سيدى فرج فان ذلك الانتصار لم ينل من اراده الشعب الجزائرى فى مواصلة المقاومة ورفض الهزيمة والاستسلام والدفاع عن كيانه وسيادته التى كانت تجسدها دولة قائمة البنيان تتمتع بهيبه وسياده تجاوزت فى علاقاتها حوض البحر المتوسط الى شمال أوروبا وعرب المحيط الاطلسى والقاره الامريكية دولة مزدهرة اقتصاديا وثقافيا ظلت البعثات الدبلوماسيه تتوافد عليها للحصول على القروض والمعونه أو لطلب الصلح والحماية تلك هى الجزائر التى التف حول الامير عبد القادر ورفعت لواء المقاومة المسلحة طيلة سبعة عشر عاما لم يستطع خلالها الاستعمار الفرنسى على الرغم من سياسة الاباده والبطش والحقد العنصرى ان يخمدها ٠

ولقد بقيت راية المقاومة الشعبية مرفوعة طوال قرن من الاحتلال الاستبدادى دفع خلاله الشعب الجزائرى أكثر من ثلثى سكانه واجه ابشع اساليب التجهيل والتفقير

والمسخ وظلت تلك الرابة تنتقل من قائد الى آخر ومن جيل الى جيل فلا يكاد الكفاح يتوقف فى منطقه ركز فيها الاستعمار كل قواه حتى يندلع على أشده فى منطقـــة أخرى فمن الامير عبد القادر مؤسس المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى الى اولاد سيدى الشيخ الى لالا فاطمة وما تخلل ذلك من انتفاضات أخرى · جسدت ارادة الشعب فى مقاومة الاحتلال ورفض الاستسلام ، وتبين للملاحظ الفاحص ان هذه المقاومة الشعبية فى تاريخنا الحديث الى المقرانى ، الى أولاد سيدى الشيـــخ ، طاقاتها الحية من الريف وسكانه المحرومين والمضطهدين الذين لا يترددون فى تلبية نداء الجهاد من أجل الكرامة الوطنية ومقدسات البلاد ، كما تميزت المقاومة أيضا بقيادتها الشعبية التى كانت تصدر الصفوف الامامية للمواجهة بفضل التجـــاوب الجماهيرى ولم تحدث هذا التجاوب الجماهيرى ولم يحدث هذا التجاوب لغرض آخـر غير اعلان الجهاد وتنظيم المقاومة بل حتى العناصر التى ظن الاستعمار انه جندهـــا نهائيا للسير فى ركابه عادت الى أصولها الجماهيرية فى اللحظات الحاسمة واندمجت فى الانتفاضات الشعبية ·

وقد بقيت هذه الصفة الجماهيرية ملازمة للمقاومة الجزائرية وتبلورت كذلك فى الحركة الوطنية التى ظهرت فى الفترة ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية حيث توهم الاستعمار الفرنسى انه من الممكن ان تصل الى مخططاته الاجرامية بواسطة القهـــر والتجهيل والتفقير فى مرحلة أولى ثـــم الاحتواء والغـاء الوجود الوطنى نهائيا فى مرحلة أخيرة وذلك عن طريق تطبيق مخططاته التى أتخذت محورين أساسيين : أولهما تجريد الفلاحين الجزائريين من أراضيهم وتمليكها للدخلاء من المستوطنين الاوروبيين ·

وثانيهما العمل باصرار على تحطيم البنية الاجتماعية للشعب وتقويض مقوماته الحضاريـــة ·

واذا كان النيل من المقومات الحضارية قد اصطدم بمقاومة عنيفة لم تنقطع أبدا فان انتزاع الاراضى من أصحابها قد أدى الى اقتلاع جماهير الريف من منبتها الاصلى

وافقارها وجعلها تحت رحمة الملاكين الجدد من الدخلاء · وقد أدى كـــل ذلك الى اغتراب الشعب داخل وطنه وتفاقم البطالة واضطهاد **اعز ما يفخر به الجزائرى هو دينه ولغته** فاضطر عدد كبير من الريفيين الى البحث عما يسد الرمق بواسطة العمل فى مزارع الاوروبيين منجرعين مراره الاستغلال والاستعباد ، كما فرض على عـــدد آخر من ابناء الشعب أن يغتربوا بحثا عن الرزق منحملين فى مصانع الرأسمالية أبشع أنواع الاستنزاف والاضطهاد ·

وقد تفاعلت كل تلك العوامل وساعدت على تبلور الحركة الوطنية فى تنظيمات استطاعت ان تعبر عن السخط الشعبى العارم ضد جراءات التجنيد الاجبـــارى وسياسة التجهيل والتعمير المنظم والاضطهاد وتغذيـــة المنازعـات القبليـــة تطبيقـا لسياسة ···/فرق تسد/وقد تجاوبت تلك الحركة الوطنية تعمق مـــع الاتجاهات الاشتراكية وبوادر حركة التحرر العالمية كما تجاوبت الانتفاضات التى عرفتهـــا مقاطعتنا مثل انتفاضة عبد الكريم الخطابى وعمر المختار وغيرهما ومع تيارات النهضة التى مثلها جمال الدين الافغانى ومحمد عبده وغيرهم ·

وهذا ما يفسر أن الحركة الوطنية لم تكن فى مجموعها تناضل من أجل تحريـــر الجزائر من نير الاستعمار فحسب بل كانت تستهدف على المدى البعيد تحقيق نهضـة اجتماعية وثقافية شاملة تحرر الانسان من أغلال التخلف · ويتضح ذلك من خلال سلسلة المؤسسات التعليمية والاجتماعية الشعبية التى نشأت تحت سمـــع وبصر الاستعمار لانقاذ الهوية الوطنية وتحدى حالة الاجتياف المدبر ·

وقد بلغت الهجمة الاستعمارية أقصى درجات الوحشية خلال أحداث ماى 1945 عندما تكالبت أجهزة القمع بعد ان ركعت أمام القوات الالمانية/على الجماهير الشعبية التى خرجت تهلل للحرية وتطالب بحقها فى تقرير المصير والاستقلال فكان جزاؤها أن صب الجيش المهزوم نيران حقده على الصدور العارية ودمر بطائراته ودباباتـه المدن والقرى فى استعراض للقوة لم تشهد له هذه المنطقة نظيرا ·

ولم يكن بد من ان يستخلص الشعب وطلائعه الواعيه الثورية من أحداث ماى 1945 وما سبقها النتائج الحتمية ... فالعمل السياسى وحده سواء أكان داخل ما يسمى بالشرعية أم خارجها قد وصل الى طريق مسدود ولذلك كان من الضرورى العوده من جديد الى صيغه نضاليه عميقة الجذور فى تراثنا الا وهى المقاومة المسلحة التى تنطلق من قواعد شعبية تتسم بالبساطة والفعاليه الثورية . فكان ميلاد جبهة التحرير الوطنى هو المنطلق لتعبئه الجماهير وتنظيمها وتوعيتها وقيادتها فى معركه المصير الفاصلة . وكان جيش التحرير الوطنى الذى يكون أساسا من أكثر فئات الشعب حرمانا وأشدها التصاقا بهذه الارض هو عضلة الشعب العاصفه على الطغيان والاستغلال . ان التحاق جيش التحرير من جماهير الشعب الكادحة فى الارياف والمدن جعله جيشا يعجز أمامه قوات الاستعمار الفرنسى المدعومة بالحلف الاطلسى .

فالانتصار التاريخى الذى حققه الشعب الجزائرى لانتزاع حريته من اعتى قوة استعمارية . كان بفضل التضحيات الجسيمه والهائلة التى قدمها الشعب فى أعظم ملحمه عرفها التاريخ المعاصر من أجل استقلاله الا وهى مليون ونصف مليون من الشهداء

وفى هذه اللحظة التاريخية نقف بكل اجلال وخشوع أمام أرواح شهدائنا الابرار ونحيى تضحيات المجاهدين من رفاق السلاح الذين قدموا أعز ما عندهم فداء لتحرير الوطن . ولما برهنوا عليه من ايمان لم يخامره ضعف وارادة لم يراودها تردد فى مواصلة معركة الشرف حتى التحقيق الكامل لاهداف الثورة .

أيها الاخوه المناضلون ...

ان موقفنا كمناضلين فى أى مستوى كان لا يعفينا من النقد الذاتى وتقييم حصيلتنا النضاليه التى تمتد الآن على أكثر من ربع قرن فليس من المفيد فى شىء أن ننغمى بالانحناءات ونغض الطرف عن السلبيات لاننا بهذه الطريقة قد نخفى على

أحيالنا الصاعدة ما يمكن أن يكون فيه عبرة ولا ننقل اليهم بصدق ما عرفته بلادنا من تجارب ان مثل هذا النفد والتقييم سيرفع بدون شك درجه الوعى والنضـــج السياسيين اذا اتصف بالنزاهة والموضوعية والتجرد النضالى ... فلا يربط بين الاشخاص والافعال ولا يصدر عن حسابات وأهواء شخصية ان أكبر خطر يهـــدد الحزب الثورى هو تكرار الاخطاء أو الاصرار عليها والتغنى بالايجابيات والاحتفاء بها ... واذا كانت ثورتنا التحريرية فى مسيرتها المظفرة قد تعرضت لازمات كثيرة فلانها تجربة انسانية لا تخلو من المحاولة والخطأ . وفى تقديرنا أن تلك الازمات تعود الى العوامل التالية .

1 ـ ان جبهة التحرير الوطنى انطلقت فى عملها الثورى بدون اطار ايديولوجى متكامل يتضمن حلولا مسبقة للمشكلات الراهنة وتصورات نظرية واضحة للمستقبل فقد كانت الممارسة العملية هى التى تفرض حلولا معينة للمصاعب المطروحة ولكن تلك الحلول كثيرا ما تقتصر على معالجة مؤقتة لوضعية يمكن أن تتجدد بشكل آخر وفى ظروف أخرى مشابهة أو مغايرة .

2 ـ أن هياكل جبهة التحرير الوطنى لم تتطور دائما فى تنظيماتها ومحتواها بالقدر الذى تعاظمت به الثورة واتسعت ميادينها وكبـــرت واجباتها مما جعـــل التناقضات تتراكم فى مستوى القمة التى جمعت عددا من الاتجاهات المتعايشة الى حد ما والمتفقة على قضية التحرير الوطنى فقط مع اختلافها فى المحتوى الايديولوجى الذى ينبغى أن يتخذه هذا التحرير فيما بعد .

3 ـ ان جبهة التحرير الوطنى باعتبارها التنظيم السياسى الـــذى قاد ثـــورة التحرير كانت تجمع بين صفوفها القياديه كل المؤمنين بالكفاح المسلح ولم يكـــن لهذا التنظيم قواعد انضباطية مفصلة تشمل القمة والقاعدة على حد سواء فقد كان المرجع الاول هو البيانات العامة التى لا تتضمن فى الغالب تفاصيـــل دقيقة تمنع التأويل والجدل حول الاساليب والاهداف . وقد أدى هذا النقص الى غموض مفهوم السلطة وعدم فهم حدود المسؤولية .

4 ـ لم يكن من السهل ممارسة المركزية الديمقراطية فى حزب خرج من حرب ضروس فقد فيها خيره مناضليه وأقبل على مرحلة البناء وهـو ما يـزال فى دور التأسيس ولذلك لم تكن المراقبة والمحاسبه والمناقشه الديمقراطية البناءه تتم بطريقة عادية داخل تنظيمات جبهة التحرير الوطنى ومستويات المسؤوليه من القاعدة الى القمة وضمن تقاليد مسطره فقد كانت القرارات تتأثر أسلوب وظروف السريـة التى اقتضتها مواجهه العدو والاستعمار تتخذ فى أعلى المستويات أثناء حرب التحرير ولا تشارك فيها القاعده الواسعة لجبهه التحرير الوطنى بالقدر الكافى بل قد تقتصر مشاركتها على مجرد الاعلام وهذا ما جعل الازمات تستفحل فى قمة الهرم وتبقى فى الغالب محصوره فيه ولا تؤثر على القاعده لانها لا تعرف من تلك الازمات سـوى أصداء غامضة وقد ازدادت هذه النقائص حده فى السنوات الاولى للاستقلال نتيجه التسرع والارتجال والاهتمام بالمشاكل الثانوية ٠

ان هذه الملاحظات العامه لا تستهدف نقد أشخاص أو تمجيد آخرين وانما هى محاوله مخلصة لتحليل أوضاعنا من خلال تجربة آن الاوان لتقييمها ودعم ايجابياتها وتفادى ما اعتراها من عثار وهى تشق طريقها طيلة سنوات حـرب التحرير ومـا أعقبها ٠٠٠ وتقول محاولة مخلصة لاننا جميعا كمناضلين سيأتى يوم يقيم فيه غيرنا ما نقوم به من عمل ويحكم التاريخ فيه لنا أو علينا وعندئذ ستجد الاجيال القادمة فى خلاصه تجربتنا النضالية تلك الروح الجريئه التى فجرت ثورة التحرير الكبرى وتلك المعانى السامية والافكار الرائدة التى استمرت منذ ذلك الحين تقود الثـورة وتحميها من الانكسار والتقهقر ٠ وتمدها بعناصر القوه والاستمرار والتجديد ٠

أيها الاخـوة المناضلون

لقد ادركت القيادة السياسية للبلاد ان تشييد حزب جبهة التحرير الوطـنى مرهون بشرطين أساسيين يتمثل أولهما فى القيام بفرز تلقائى يبـرز النخبـه الطلائعية للمناضلين الاكثر التزاما بالثوره الاشتراكية والاقوى ايمانا بالجماهـير

والاشد ارتباطا بواقعها وتجاوبا مع مطامحها لان النضال من أجل تعميق مكاسب الثورة واثرائها لا يمكن أن يكون الا عن اقتناع وطواعيه ومن خلال الاطار النظامي وبروح الالتزام بقضايا الجماهير ٠

وأما الشرط الثاني فهو الانطلاق في بناء حزب جبهه التحرير الوطني ابتداء من القاعدة التي تمثل أساس كل بناء سليم وخلق تيار من التفاعل بين القمة والقاعده وهذا بدل حصر السلطة في القمه وعزل القاعدة وقد وجد هذا المفهوم الثوري تطبيقه الواسع فلم تمض سنوات قليلة حتى نشأت كل قوات الشعب الحيه في المنظمات الجماهيرية التي تجمع بين صفوفها العمال والفلاحين والمجاهدين والشباب والنساء ومختلف القطاعات المهنيه وقد عرفت هذه العملية جدلية منقطعة النظـــير تجاوزت الحوار التقليدي بين مسئوليات المسؤوليه ودرجات السلطة فقد كان كل مؤتمر من مؤتمرات المنظمات الجماهيرية منطلقا جديدا بجدد نفس الثوره وبحكم خطواتها كما تؤكد ذلك اللوائح والتوصيات التي صدرت عنها وعبرت عن اجماع المشاركـــين فيها ٠٠٠ ان هذه الذخيره العظيمة ستكون من بين المكاسب التي يحرص مؤتمرنا على التمسك بها وتمهيد الطريق لوضعها موضع التنفيذ فهي جزء لا ينفصل عن نضـــال حزب جبهة التحرير الوطني كما عبرت قواعده الجماهيرية وهو أيضا ترجمة أمينة لشاكلها ومطامحها ٠

أيها الاخـوة المناضلون ٠٠٠

لم تكد تستلم القيادة السياسية زمام الحكم حتى اتجهت بكل قواها وجندت كل امكانيات البلاد لوضع أسس الدولة العصرية ومؤسساتها القاعدية وانجاز التعهدات التي تضمنها بيان 19 جوان 1965 باقامة دولة اشتراكيه ذات هيبه وسيادة لا تزول بزوال الرجال وتعمل على تحقيق الرفاهية لكل ابناء الشعب ٠٠٠ وبناء على ذلك تم ترتيب الاولويات ووضع في مقدمتها تشييد دولة حديثة تضمن مكاسب الثـــورة وتحمي استقلالنا الوطني وتكون في نفس الوقت الاداة الفعالة للتسيير الشاملـــة ٠

وهكذا عملت القيادة السياسية باشراف المناضل الفقيد وتحت قيادته على استعادة السيطرة على ثرواتنا الوطنية فبادرت بتأميم المناجم والسوق وشركات التأمين واعادة التأمين والوحدات الصناعية وقطاع المحروقات وخاضت في ذلك معارك قاسية خرجت منها منتصرة بالرغم من كل الضغوط والتحديات ومحاولة الحصار والتشكيك في قدرة الجزائر على الاضطلاع بمسؤولية هذه القطاعات الحيوية وقد سجل التاريخ بكل فخر واعتزاز صمود عمالنا واطاراتنا في تلك المعركة الحاسمة ووعيهم بمسؤولياتهم الوطنية ودفعهم التحدي بالتحدي ·

ولقد أعطت هذه العملية الثورية الجريئة استقلالنا السياسي محتواه الحقيقي كما اكد ذلك الرئيس الراحل على اعتبار ان الاستقلال السياسي بدون التحكم في ثرواتنا الوطنية والتخلص من التبعية يظل مجرد استقلال شكلي ·

فكما كان للثورة الجزائرية بعدها العالمي الذي أسهم بنضال الشعوب كان لهذه العملية صداها الواسع وأثرها الفعال على مستوى كفاح العالم الثالث في القضاء على احتكارات الكارتيل العالمي واعادة تقسيم المواد الاولية وتحقيق أقصى الاستفادة منها والمطالبة بنظام اقتصادي دولي جديد يقوم على تبادل المنافع وتوازن المصالح ·

وهكذا فان الجزائر التي خرجت من الحرب منهكة بالجراح قد وفرت الشروط الموضوعية وهيأت الارضية الصلبة لخوض معركة التنمية الشاملة ، في اطار الاختيار الاشتراكي · ولم تكد تمضي بضع سنوات حتى أرست بلادنا قواعد الصناعة وارتفعت المداخن بمئات بعجز الثورة الصناعية وتحولت جميع مناطق البلاد الى ورشة عمل كبرى بفضل سياسة التصنيع الجهوي واعادة توزيع الدخل · فمن ارزيو وسكيكدة الى الحجار وروبية الى الونزة ترتفع منارات الصناعة وتستثمر موادنا الاولية لفصل السواعد الجزائرية ولمصلحة الجماهير الشعبية ·

ان حشد كل الامكانيات وتسخيرها للخروج نهائيا من مرحلة التخلف كان يستلزم حتما أن يحظى الريف باهتمام الثورة فهو الذي تحمل اقصى أعبائها وكان

مهدها الحقيقي الاول · وفضلا عن ذلك فان الاهتمام بالريف يندرج ضمن رؤيـــة شاملة ومتكاملة لعمليه التنمية · باعتبار ان الثوره الزراعية خلافا لبرامج الاصلاح الزراعي التي عرفتها بعض البلدان النامية ستستهدف تغيير ذهنية الانسان ومحيطه في آن واحد فمبدأ الارض لمن يخدمها والقضاء على رواسب الاقطاع واقتلاع جذور النزعات البرجوازية والطفيليه وخلق علاقات جديدة افتضب نصيبه (الخماسة) من ريعنا الى الابد في ميدان الزراعة والرعي فلا يمكن في مجتمع اشتراكي وفي الريف الجزائري بالذات أن يعيش فئه قليلة من الناس في بحبوحة من العيش في المدن وتمتص عرق المزارعين والرعاة الكادحين لان الثوره في هذه الحاله تكون قد بتكرت لنفسها وحادت عن سبيلها ··· ان الثوره الزراعيه لم تكن مجرد اعادة توزيع الارض والغاء الخماسة ···

لقد كان ذلك مجرد بداية لتكوين الانسان الجزائري الجديد الذي يتمتع بحقـه المشروع في حياة كريمه وفاء لعهد الثوره وارواح الشهداء وهكذا انطلق مشروع الالف قرية التي ترتبط عددا كبيرا منها اليوم حزام الرخاء في الريف الجزائري فالقرى الفلاحية التي تنتشر اليوم في ربوع ريفنا انما هي المعالم الكبرى لجزائـــر الثورة الاشتراكية التي لم تلتجيء حتى في أحلك الظروف واقساها الى اختيـــار الحلـــول السهلة ·

أيها الاخوة المناضلون :

ان تشييد هياكل الدولة وتنظيمها على أسس عصرية لا يحقق نتائجه المرجوة الا اذا استكمل ببناء الانسان الذي هو هدف كل تقدم وتنميه ولذلك سخرت الثـورة كل امكانياتها لتطبيق ديمقراطية التعليم وتكوين جيل مؤمن بالثورة ومتشبع بأنبل ما في تراثه من قيم ايجابية وازداد الاقبال على الثقافة والعلم حتى أصبحت الحاجة الى الكتاب لا تقل عن الحاجة الى الخبز وما انتشار المدارس في أقاصي الريف وعـــلى

سفوح الجبال وفي كل شارع من شوارع مدننا وقرانا وتشيد الجامعات والمعاهد لتخريج اطارات في أحدث التخصصات العلمية والتقنية الا دليل على ما حققته الجزائر في هذا الميدان في سنوات قليلة غير ان هذا الاستثمار الكمي للتعليم ينبغي أن يدعم أكثر فأكثر بتحسين الكيف وربط التكوين بالتنمية واحتياجات البلاد . ولن يكون ذلك بالامر الصعب لانه اذا كانت بعض مؤسساتنا الاقتصادية لم تصل في بدايته الامر الى طاقتها القصوى . فانها في طريقها الآن الى الرفع من كفايتها الانتاجية . كما اننا لا نشك في ان مؤسساتنا التعليمية تستطيع بفضل الحزم والعزيمة الصادقة . ان ترفع مردودها . وتحقق التوازن المطلوب بين الكم والكيف . وتواصل العمل على ترقية لغتنا الوطنية ودعمها في كل مجالات الحياة . بدون ان يتسبب ذلك ما يحدث في عالمنا المعاصر من تقدم تسعى عليتنا ان نلاحقه وان نصل الى تحقيقه بأنفسنا في أقرب الاجال .

ان ما اشرنا اليه من اعمال عظيمة . ليس سوى امثلة من الانجازات الضخمة التي حققتها بلادنا في سنوات قليلة رغم المصاعب والتحديات التي واجهتها .

ايها الاخوة المناضلون .

ان المبادئ والمنطلقات التي تضمنها الميثاق وصادق عليها الشعب بالاجماع قد حددت بطريقة صريحة آفاق المستقبل وقطعت الطريق نهائيا على كل المتشككين والمتربصين بمكاسب ثورتنا الاشتراكية ... من الطب المجاني الى التسيير الاشتراكي للمؤسسات الى التطوع والخدمة الوطنية والثورة الزراعية . فقد وصلت ثورتنا كما قال المناضل الراحل نقطة اللارجوع وبلغت أشدها وسلحت بمؤسسات ومواثيق ساهم الشعب مباشرة في وضعها وارسائها وهو أيضا قادر على حمايتها والدفاع عنها في كل الظروف بواسطة مؤسساته الشعبية .

ولقد جاءت هذه المؤسسات تكملة للعمل الواسع الذي قامت به القيادة السياسية في مجال ارساء اسس المجتمع الاشتراكي واستكمال شروط بنائه اذ لا يكفي وضع

تلك الركائز المادية دون ان تتوفر لها وسائل حمايتها والاطر النظامية التى تستوعب جوانب هذه العملية الثورية الكبرى وتحافظ على ديناميكيتها فى خطها السليم · فكانت البداية بانشاء المجالس البلدية شروعا عمليا لتجسيد سلطة القواعد الشعبية باشتراكها فى مسؤوليات التخطيط والتسيير والتنفيذ وحين تواصلت هذه الخطوات بانشاء مجالس الولايات ومجالس العمال فى الوحدات الانتاجية الزراعية والصناعية والمجلس الوطنى فانما كان ذلك تحقيقا لمبدأ ممارسة الشعب للمسؤولية بواسطة ممثليه على مختلف المستويات وهكذا فان الثوره جعلت من القوة العاملة فى المدن والارياف المصدر الذى يصنع القرار الاقتصادى والسياسى من خلال تلك المجالس ويربط الجماهير الكادحة مصلحة ومصيرا بمكاسبها وانجازاتها ذلك ان شكل المؤسسات الاشتراكيه ومجالس العمال الذى اختارته الثوره كاسلوب فى تنظيم الحياه الاقتصادية والاجتماعية والذى حول من كانوا يعرضون قوة عملهم فى أسواق الاستغلال الى منتجين ومسيرين ان هذا الاسلوب قادر على أن يضمن لنفسه الاستمرارية والتجدد ·

ونقول انه قادر على ذلك وعلى حماية نفسه بنفسه على الرغم من النقائص التى ظهرت فى ميدان تطبيق النصوص حيث فسح المجال لاجتهادات حاولت عن قصد احيانا وعن غير قصد أحيانا اخرى النيل من هذا المكسب العظيم ·

ولابد فى هذا المقام من الاعتراف بأن حزب جبهة التحرير الوطنى هو الآخر قد تسبب فى توفير الجو الملائم لظهور تلك النقائص وذلك بتقديمه مرشحين لا تتوفر فيهم كل الشروط والمقاييس المطلوبة وسرعان ما يفتر حماسهم أمام الضغوط وبريق الاغراءات · غير ان كل النقائص التى عرفناها فى هذه التجربة من خلال الممارسة مهما كانت ومهما كان مصدرها لا ينبغى أن تأخذ فى الاذهان ابعادا وتفسيرات مميزة بل ينبغى وضعها فى اطار اثراء التجربة نفسها واعتبارها نتيجة طبيعية لتجربة فتية ·

ولقد برهن التصويت على الدستور والانتخابات الرئاسية على مدى تعلق الشعب بثورته ومؤسساته الشعبية ومدى نضجه السياسي ووعيه بابعاد المعركة التي تخوضها الجزائر ضد التخلف والاستغلال ·

أيها الاخوة المناضلون

ان المعركة المتعددة الجبهات والمليئة بالتحديات لم تمنع الجزائر من القيام بدورها الرائد في الكفاح ضد الامبريالية والرجعية والاستعمار بكل صوره واشكاله فقد عملت بلادنا في كل موقع ودوى صوتها على كل منبر تدافع عن المضطهدين وتنشد ازر المكافحين ولا تخاف في الحق لومة لائم فلم تتردد الجزائر في فتح صدرها للمناضلين من أجل القضايا الانسانية العادلة واعتبرت ان من واجبها كثورة اشتراكية ان تكون قبلة لكل حركات التحرير في الوطن العربي وافريقيا وآسيا وامريكا اللاتينية وحتى أوروبا ·

وكما لم تخف بلادنا يوما من الايام ما قدمته وتقدمه من عون مادي ومعنوي لهذه الحركات التحررية ، فانها تؤمن بأن هذه المساهمة لا تعني تصدير الثورة أو التدخل في شؤون الغير أو المن على أي كان · لانها تعتقد ان قضايا التحرر واحدة اينما كانت على وجه الارض . وان حق تقرير المصير مبدأ انساني أقرته المنظمات الدولية ونصت عليه المواثيق الاممية والجهوية . ومن هذه المنطلقات وتلك المبادىء ساندت بلادنا شعب الصحراء الغربية في كفاحه العادل ضد النزعة الاستعمارية التوسعية وتبنت قضية شعب فلسطين الذي يكافح في صمود ضد الاستعمار الصهيوني الاستيطاني ، كما رفضت سياسة الاستسلام والخنوع التي تدفع الامة العربية ثمنها من أجل كرامتها وحقها المشروع في استعادة كل الاراضي العربية المغتصبة ، وهي لم تأل جهدا في التنديد بالانظمة العنصرية الدموية التي تمارسها الاقليات البيضاء على شعوب ناميبيا وزيمبابوي وجنوب افريقيا تلك الاقليات المتواطئة مع الامبريالية العالمية لاستعباد الشعوب باسم التفوق العرقي ·

ان مساندة هذه الحركات والتعاطف معها لا يرتكز على حسابات تكتيكية مؤقتة ولا يستند الى مواقف عاطفية عابرة بل هو مستمد من صميم تراثنا النضالى العريق وقيم شعبنا وتجاربه فى الكفاح ٠

فهذه المواقف الثورية والتحريرية تشكل منظورا يتجاوز الحدود والمصالح الخاصة ليتناول القضايا الانسانية المشتركة . فلم تكن معركة تأميم المحروقات وكسر شوكة الاحتكارات العالمية والصمود بقوة أمام كارتيل الشركات المتعددة الجنسيات الا حلقة من حلقات النضال الاصيل والمنسجم مع منطلقاتنا السياسية فى الداخل ٠ لقد تصدت الجزائر بقوة ورفعت صوتها المدوى ضد جشع العالم المصنع الذى ينقل المواد الاولية من البلدان النامية بأبخس الاثمان ليعيدها اليها مصنعة فيشتريها باضعاف تكلفتها الحقيقية ٠

ان هذه المعركة التى خاضتها الجزائر تنبع من ايمانها القوى بعدم الانحياز الى المعسكرات وبضرورة اقامة جسر من الحوار والتفاهم بين الشمال والجنوب ودعم التعاون بين الشعوب حتى يسود السلام والامن ونستطيع الدول بغض النظر عن حجمها ، أن تحافظ على استقلالها وسيادتها الوطنيه لان عدم الانحياز لا يعنى البقاء فى موقف المتفرج بل العمل فى اطار السيادة الوطنية على اقامة تعاون دولى خال من كل الاحكام المسبقة والنوايا السيئة وفى هذا النطاق ما فتئت الجزائر تعمل بجد على بناء مغرب الشعوب ولم تتخل ابدا عن انتمائها والتزاماتها تجاه الاشقاء فى الوطن العربى فقد كانت فى مقدمة من لبوا النداء وستبقى وفية لهذه الالتزامات فى جبهة الصمود والتصدى غير معترفة بسياسة الانهزام والاستسلام كما ستبقى بلادنا منتمية الى القارة السمراء ومتضامنة مع شعوبها المناضلة لان هذه المواقف والانتماءات تطابق تجربتها الثورية وتعبر عن اختياراتها الشعبية ومسطرة فى ميثاقها الوطنى ٠

أيها الاخـوة المناضلون ،

لقد انجهت العنايه منذ سنوات الى بناء دولة عصرية فويه تتمتع بالاستقـــرار الداخلي وتحظى بالاحترام على الصعيد الدولي وتهيأت كل القوى لتمهيد الطريق لكي يخرج مجتمعنا من وضعيه التخلف الموروث ولذلك تركز الاهتمام على وضع دعائم الثورة الصناعية وتنظيم اجهزه الدولة والنهوض بالريف في جميع الميادين والشروع في السيطره على التكنولوجيا وبناء المؤسسات الاقتصاديه والاجتماعية والثقافيـــة وتزويدها بالامكانيات الضروريه للعمل. الا ان هذه الهياكل والمؤسسات لا يمكن ان تعطي مردودها وتظهر فعاليتها ودورها الايجابي في التنميه الا اذا وضعت في اطار منظور سياسي متكامل وسارت وفق الاختيارات والمبادىء التي تتبناها البلاد ·

أما وقد اسست الدولة اهم مؤسساتها القاعدية السياسية منها والاقتصادية والثقافيه والاجتماعيه فانه بات من الطبيعي أن تتجه الجهود المكثفة كلها نحو الحزب بغية تنظيمه واقامه هياكله انطلاقا من معطيات المرحلة الحالية واستعدادا لمؤتمـــر حزب جبهه التحرير الوطني الذي يمثل قمه البناء السياسي والايديولوجي والحلقة الرئيسية في سلسلة المؤسسات القيادية ·

وقد جاء تنظيم الحزب واعادة هيكلته انطلاقة جديدة هامة في مسيرته اذ أنـه ساعد على دعم العمل الحزبي واعطائه مفهومه الايديولوجي والتنظيمي المتكامل ذلك انه لم يكن ممكنا بأي حال من الاحوال تصور انفصال هذا العمل عن الواقع السياسي والثقافي والاقتصادي والاجتماعي الذي تعيشه البلاد والذي ينبغي أن يكون انعكاسا لارادة الحزب باعتباره مصدر النشاط الايديولوجي الخلاق وباعتباره دليل الثـــورة وأدائها في مجالات القياده والتخطيط والتنشيط ·

ومن هنا فان الامر لم يكن يعني اعادة تنظيم الحزب وهيكلته كهدف في حد ذاته بل بعني اعطاء الهيكلة والتنظيمات الجديدة الفعالية والحيوية اللازمة لكي تثبـــت

وجودها فى مواقع وساحات العمل الثورى من أجل متابعة وتوجيه مهام البنـــاء الاشتراكى وفق الاهداف التاريخية الثلاثة لثورتنا كما حددها الميثاق الوطنى وهى دعم الاستقلال الوطنى واقامة مجتمع متحرر من استغلال الانسان للانسان وترقيـة الفرد وتوفير أسباب تفتح شخصيته وازدهارها ٠

واذا كانت هذه الاهداف تجسد استراتيجية العمـــل السياسى فى المرحلـــة المستقبلية وعلى المدى البعيد ، فان المرحلة التى انطلقت فيها عمليات تنظيم الحـزب والتى أولاها الرئيس المناضل هوارى بومدين عنايه بالغة ، هذه المرحلة تعد عـــلى الرغم من قصرها مرحله حاسمه فى حياة حزب جبهة التحرير الوطنى ، اذ تطلبت تجنيد كل الطاقات والكفاءات فى هيئات الحزب القاعدية والقيادية وفى المنظمـــات الجماهيرية من أجل مزيد من التعبئة والتوعية فى صفوف المناضلين ، هذا من ناحية ومن ناحية أخرى كان لابد ان نستعد لمؤتمرنا هذا بمراجعة هياكل وتنظيمات الحزب على المستويات المركزية والمحليه واقامة بنيانه على كل الاصعده ضمـــن منظـــور استراتيجى شامل يسمح بتجديد الاعتبار للوظائف الحزبيه واسترجاع الثقة الكاملة فى قدرة جبهة التحرير الوطنى على قيادة الثورة اليوم بنفس القدره التى قادت بها فى الماضى معركة التحرير ، وبما أن البنيات كيفما كانت صلاحيتها للمهام المنوطة بها وكيفما كان تكيفها مع طبيعة العمل المطلوب منها ، انما تستمد قيمتها الكبرى أولا وقبل كل شىء من نوعية العناصر التى تمارس فيها الجهد النضالى ٠

وهكذا تمكننا فى هذه الفترة القصيرة من جعل الحزب ساحة لقاء لكل الطاقات الحية فى البلاد ومركزا يستقطب الكفاءات ويصهرها فى اطار نضالى قوى ومتكامل يمكنها من استيعاب القاعدة النظرية التى تنطلق منها نظرتنا للمجتمع الاشتراكى وتمنحها وحـــدة التصور ٠

وانطلاقا من هذه الاعتبارات كلها تم الشروع فى تنظيم الهياكل الحزبية ضمن منظور شامل لطبيعة المرحلة التى يواجهها العمل السياسى وقد جرى التفكير عـــلى

هذا الصعيد يجب تكون البنيات في مستوى المسؤوليات الجديده متجاوبة مع ما يتطلبه العمل الحزبي من ديناميكية فعاله بعيدا عن أساليب التنظيم العقيمة التي تؤدي حتما اما الى الهامشيه والعزلة أو الى الازدواجية وتداخل الاختصاصات الامر الذي يفضي على الجهود المبذولة ويحول دون تحقيق الاهداف المنتظرة ·

واعتبارا لهذا التحليل ، فقد انشئت اللجان المركزيه للحزب لتغطيه مجموع النشاطات الوطنيه ، وتشكلت من مناضلين للعمل في الحزب ومن عناصر غير متفرغة ممن يتولون مناصب المسؤولية في أجهزه الدوله ، وقطاعات الانتاج أو يمارسون مهمات في المؤسسات الثقافية والاجتماعيه والاقتصاديه تتدخل في اطار صلاحيات اللجان المركزية

ولقد تعاونت عناصر الفئتين باخلاص على تحقيق استفاده قصوى من هذه الصيغة الجديده للعمل وكان من ثمار ذلك الجهد المتكامل تلك الدراسات التي أعدت وقدمت الى اللجنه الوطنية التي كلفت بالاعداد لهذا المؤتمر وهي دراسات شملت قطاعات الاعلام والثقافة والتكوين والشؤون الاقتصاديه والاجتماعية والقضايا التنظيمية والعلاقات الدولية ···

أيها الاخوه المناضلون ·

ان الاهمية الاستراتيجيه لبناء حزب قوي يعكس في محتواه الاجتماعي تقدم الثوره وينشر فكرها الى جميع القطاعات ويكون متواجدا في جميع المجالات جعلتنا نحرص منذ التكليف بهذه المهمة وطبقا لتوجيهات المناضل الكبير هواري بومدين على أن نجعل من هذه الحركه الطلائعيه العتيدة اطارا للقاء جميع الطاقات المناضلة والارادات المخلصة الملتزمة بالميثاق في وحدته وشموله ، ومن هنا كانت الصيغ التنظيمية التي أوجدناها على المستوى المركزي وفي القاعدة ، وهي صيغ مكنت من استيعاب جميع الطاقات الملتزمة والقادرة على المساهمة والاستفادة من امكانياتها في تعزيز دور جبهة التحرير واداء المهام التي حددها الميثاق الوطني ·

ان توسيع القاعدة التنظيمية للحزب وانفتاحه على أوسع الطاقات النضاليـــه وخاصة فى مؤسسات وأجهزة الدولة لا يعنى تغليب الكم على المقاييس الاساسية وانما هو استجابة لضرورة ايصال توجيه الثوره الى مختلف مواقع الفكر والانتاج والتسيير وتحقيق وحدة الفكر والعمل لان نفاء الاطارات المسيرة ـ فى تصورنا ـ خارج الهياكل النظامية للحزب ، خطر على الثورة وعلى الاطارات نفسها . فوجود الاطارات داخـل الهياكل النظامية هو الذى يمكن من تفادى خطر الانحراف والانفصال عن فكر الثورة وسياستها ويتيح لهذه الاطارات بحكم موقعها المجال الطبيعى للابداع والتفاعل بين الفكر والممارسة والمساهمة الفعالة فى اثراء تجربة الثوره .

لان الاطار كما يؤكد الميثاق الوطنى « اما أن يشكل عائقا للجهود المبذولة فى سبيل التنمية واما ان يكون العكس من ذلك قوة دفع للثورة وعلى ضوء تصرفاتهم وسلوكهم تحكم الجماهير على مدى سلامه الحركة الثورية معنويا وسياسيا » .

فالاشتراكية لا يحققها الا وجود اشتراكيين فى مواقع المسؤولية . هنا أوجه تحية تقدير لكل الاطارات التى عملت بجهد مخلص ، وبصمت ، ومن خلال مواقـع المسؤولية والعمل ، على انتصار الثورة فى معركة البناء الاشتراكى ، وكسب التحدى الكبير فى مواجهة التخلف ودعم سياسة الاعتماد على النفس والاستقلال الاقتصادى ، وهكذا وكما انتصرت الثورة فى المعركه التحريرية بفضل عبقرية وتضحية أبنائها ، انتصرت فى معركة البناء الاشتراكى أيضا بفضل العزيمة والارادة المخلصة لابنائها المناضلين وغيرتهم الوطنية على مكانة وسمعة الجزائر .

وقد تواصلت الجهود خلال الفترة التمهيدية لمؤتمرنا هذا من أجل وضع تصور واضح للعمل . وفق طبيعة المرحلة الجديدة ، بما يضمن اعطاء الدور الطبيعى والطليعى للحزب فى قيادة مسيرة الثورة ، والتحكم فى حركتها طبقا لما حدده الميثاق الوطنى من أهداف . ويمكن من دفع أجهزة الثورة الاخرى فى عمل منسق متجانس يقضى على الميوعة والتواكل واللامبالاة وترامى المسؤوليات وبزبل التصور الخاطىء لدى البعض

لمهمة هيئات الحزب وعمل الاجهزة الادارية . يبرى مفهوم اللامركزية واشراك القاعدة في المسؤولية . وحل المشاكل المحلية وبلسة احتياجات الجماهير وتكون في النهاية موصلا جيدا بين القاعدة والاجهزة المركزية للحزب .

ومن هنا اخترنا الصيغة التنظيمية الجديدة المتمثلة في اقامة مجالس على مستوى المحافظات ، وتشكيل لجان حزبية على مستوى القاعدة . تكون امتدادا للاجهزة المركزية التي حرصنا كل الحرص على أن تكون ساحة لقاء ووعاء لاستقطاب جميع القدرات النضالية المؤهلة لاثراء ودعم مهام الحزب في التوجيه والتكوين والرقابة والتنشيط واتخاذ التدابير اللازمة لحل مجموع المشاكل المطروحة على مستوى الولاية سواء كانت ذات طابع سياسي أو اقتصادي أو اجتماعي أو ثقافي ، كل ذلك تم استجابة للمرحلة المتقدمة التي تنشدها الثورة وعظمت أهدافها المتعددة والواسعة بحيث لا تكون هناك قطيعة بين المهمة السياسية والادارية والمهمة التسييرية .

وهكذا اتاحت هذه الصيغة التنظيمية للاطارات الوطنية سواء كانت في الحزب أو في الدولة أن تمارس معا جهد التفكير والتخطيط والتصور في اطار حيوي فعال ، وتمكنت من مد الجسور المتينة بين هياكل الحزب وهياكل الدولة .

وقد عملت هذه اللجان على المستوى المركزي كل منها في اطار اختصاصها على دراسة التدابير الهامة ذات الصبغة الوطنية التي تتخذها مختلف قطاعات النشاط الوطني وابداء الرأي فيها قبل دخولها حيز التطبيق .

أيها الاخوة المناضلون :

لقد كانت المصادقة الشعبية على الميثاق الوطني ايذانا ببدء مرحلة جديدة في مسيرة الثورة وتعميق محتواها الديمقراطي من خلال تنشيط مؤسساتها وهيئاتها وتعبئة وتأطير طاقات الثورة وقواها الحية باعتبار ان هذه القوى هي وسيلة وغاية الثـــورة .

وبدون شك فان هذه النعبئه لا يحققها الا حزب طليعى قادر على استيعاب كل القوى المستعدة للنضال والملتزمة بالميثاق الوطنى ومبادىء جبهة التحرير الوطنى ٠

ومن هنا كان عقد مؤتمر الحزب هدفا بالغ الاهمية لما يعنيه من تتويج صرح بنائها السياسى واعتبارا لهذه الاهمية الاستراتيجيه التى تكتسيها بناء حزب يكون القوه القائدة والموجهة لحركه الثورة كان علينا أن ننطلق انطلاقه سليمه ببناء الاساس فجاءت مؤتمرات المنظمات الجماهيريه التى تعد روافد تكمل وتدعم العمل الحزبى وتوسيع قاعدته النضالية لتشمل كل القوات الاساسية للثورة . ولقد حرصنا كل الحرص فى اطار استعدادنا لهذا الموعد التاريخى العظيم على أن تجرى أشغال تلك المؤتمرات فى جو من الديمقراطية الحقه والتمثيل الواسع للقاعده كما حرصنا على جعل هذه المؤتمرات لقاءا ملائما للحوار البناء والنقد الذاتى النزيه بغية الكشف عن كل الجوانب السلبية والايجابية والتعرف على طموحات وتطلعات الجماهير الشعبية وترجمتها من خلال التوصيات والقرارات ، الى برامج عمل واضحة الاهداف ولم يكن من الممكن تحقيق ما توصلنا اليه من خلال هذه العمليه التحديدية التى أعطت دما ودفعا جديدا لديناميكية الثوره لو لم يتم التمسك بأسلوب الديمقراطية والانفتاح على القاعدة والاصغاء اليها وتأكيد الثقه فى نضجها ومسؤوليتها ، وقد أسندت مهمة السهر على تنفيذ التوصيات الى قيادات انبثقت عن هذه المؤتمرات وتعكس الاهتمامات الحقيقية وتكون فى مستوى مقتضيات البناء الوطنى ٠

وقد أردنا بعقد تلك المؤتمرات جعل المنظمات الجماهيرية لا مجرد واجهات تعيش على هامش القضايا الوطنية الكبرى بل تنشط كل فى ميدانها لتعبئة أوسع فئات الشعب والعمل باستمرار على رفع مستوى الوعى السياسى والثقافى لمناضلينا وترسيخ مفاهيم الثورة لديهم ، وجعلهم معبئين باستمرار من أجل انجاز مهام البناء الاشتراكى ، وكانت النتائج الايجابية المحققه فى مستوى ما كنا نطمح اليه ٠

وبخصوص تجديد الهياكل القاعدية للحزب التي شملتها عمليات الفرز والانخراط وانتخابات مجالس ومكاتب الخلايا والقسمات ، فقد تجنبنا الاعتماد على المفاهيم البالية التي تجعل النضال في الحزب أو النهوض بالمسؤوليات فيه عملية انسابية أو مهمة شرفية ، بل التزمنا بتطبيق الميثاق الوطني نصا وروحا الذي أكد على أن عضوية الحزب لا يستطيع الحصول عليها الا أولئك الذين يكافحون باصرار من أجل انتصار الاختيار الاشتراكي . ومقتنعون بمبادئ حزب جبهة التحرير الوطني، ويلتزمون بتطبيقها ويتذرون انفسهم من أجل تحقيق مثلها العليا .

وقد أمكن بفضل تلك العمليات تنقية القاعدة النضالية من كل العناصر ذات الماضي المشبوه التي تمكنت بطرقه أو بأخرى من التسرب الى صفوف الحزب ، كما أمكن في نفس الوقت فسح المجال أمام كل من تتوفر فيه مقاييس النزاهة والكفاءة والالتزام لتحمل المسؤوليات النضالية في الهياكل القاعدية .

وهكذا فان الجهود التي بذلت في اعادة تنظيم الحزب وبناء هياكله قد مكنت من ارساء أسس متينة لحزب طلائعي يستمد قوته من قوة تنظيمية وانضباط مناضليه وتحليهم باخلاقيات الثورة واستقطابه كل الكفاءات المخلصة الملتزمة لقضايا الجماهير. أيها الاخوة المناضلون .

اذا كانت هذه لمحة سريعة عن الحصيلة العظيمة لما انجزته الثورة وقيادتها وفي فترة قصيرة لابد أن تستحضرها الذاكرة ونحن في هذه الوقفة التاريخية حتى يدرك الجميع أن الثورة كما قال المناضل هواري بومدين « قد كبرت وامتدت الى جميع المجالات » ، وان التفافة فاحصة للماضي لتبعث العزة في النفوس وتعزز الايمان والثقة بالمستقبل المزدهر لخير هذه الثورة .

ولكن كل ذلك أيها الاخوة لا ينبغي أن ينسينا ـ ونحن بصدد دعم قوة الدفع الرئيسية للثورة الا وهي حزب جبهة التحرير الوطني ومؤتمره الذي ستنبثق عنه

يادة السياسية العليا للبلاد ـ ان الاعتزاز والثقة لا تعني الاخلاد للراحة والاستهانة لشاكل الطبيعية الناجمة عن سرعة التنمية ، وتعدد جبهاتها ، والاكتفاء بالمغنى ا تم انجازه لاننا في هذه الحاله قد نقع صرعى الغرور والتواني ، ويفلت من أيدينا ام المبادرة في وقت نحن في أشد الحاجه الى تكثيف الجهد ومسابقه الزمن ٠

وفي هذا السياق نبدو لنا آفاق المستقبل جلية واضحة في محاورها الكبرى هامها الاساسية فقد رسم الميثاق الوطني الاهداف وحدد الوسائل وجعل من شتراكية اختيارا لا رجعه فيه في اطار من الوحدة الوطنية الصلبه والاستمرارية ورية والديمقراطية المركزية ، واننا لواثقون بأن شعبنا الذي برهن دائما على جه السياسي وعبقريته الخلاقه سيكون أكثر تمسكا بتلك الوثيقة يديولوجية التي ارتضاها ووضع فيها خلاصة تجاربه ، وابتل ما في تاريخه ضالي من قيم وحدد فيها آماله ، ان هذا الشعب قد كذب بالنفانه حول حزب جبهة حرير الوطني كل التنبؤات الحاقدة على ثورتنا وحملات التشويه والتشكيك التي وجها الرجعية وعملاؤها حول حزائر الغد بتضخيم النقائص التي لا يخلو منها أي ل ثورى طموح خاصة اذا كان بهذا الحجم الذي حققته الثورة الجزائرية ٠

ان جزائر الغد لن تكون الا امتدادا أفضل لجزائر اليوم وانطلاقا أسرع في تحقيق نجازات واستكمال الاهداف التي وضعت الجزائر أسسها وسارت فيها أشواطا بعيدة ٠

ففي المستوى السياسي نشير الدلائل الى أن تجديد هياكل حزب جبهة التحرير طني وتوسيع قاعدته النضالية وانتخاب قياداته من القاعدة الجماهيرية المناضلة اطير كل قوى الثورة ٠ سيكون دفعا ثوريا قويا لتحقيق الاختيارات الايديولوجية برى المحددة في الميثاق الوطني وتهيئة كل الظروف الموضوعية ليكون حزب هة التحرير الوطني دليل الثورة والقوة المسيرة للمجتمع والكفيلة بنقل الثورة المحتوى الديمقراطي الشعبي الى المحتوى الاشتراكي الكامل ولهذا فان حزب

هة التحرير الوطنى ينبغى أن يضم فى صفوفه أكثر المناضلين كفاءة ووعيا والتزاما نسايا الجماهير . ذلك أن قضية الكم والكيف تطرح اليوم بطريقة صارمة لا مجال يا للخطا ، وسوء التقدير . فبقدر ما يجمع الحزب بين صفوفه من كفاءات ملتزمة درة لابعاد المعركه التى تخوضها الجزائر ضد التخلف والامبريالية بقدر ما تحسم ساكل وتسكر الحلول . وتظهر آثار العمل الجاد وتعطى مردودها المطلوب .

وفى مستوى مهام البناء الاقتصادى يجب أن يكون هدفنا الاول هو التحكم فى ترابيجية التنمية الشاملة فى جوانبها الماديه والاجتماعيه والثقافيه واطلاق العنان اهب الخلق والابتكار والابداع والتجديد وتحقيق توازن كامل بين كل القطاعات عادة ترتيب الاولويات فى اطار المخطط القادم . اننا نعتقد جازمين بأن التنمية تصادية ليست مجرد عمليه تقنيه تلخصها الارقام والاحصاءات فحسب بل هى سا فى نظرنا معركة اجتماعية وسياسية وثقافية لا تعطى ثمرتها الكاملة الا اذا كزت على الجماهير المؤطرة باعسارها الوسيله والغايه ولانها صاحبة المصلحـــة لى فى التنمية .

وفى هذا النطاق يجب أن تواصل العمل حسب توجيهات الميثاق الوطنى لتاكيد تقلالنا الاقتصادى والاعتماد اساسا على امكانياتنا الذاتية واحكام السيطرة على اتنا الوطنية وكل موارد الطاقة وتنميه الصناعات الثقيلة والخفيفه والاستفادة أقصى حد ممكن من احدث ما توصلت اليه الانسانية فى ميادين العلوم والتكنولوجيا صرة مع الاهتمام أكثر بتكييفها مع واقعنا الوطنى واحتياجاتنا الاساسية حتى ل بلادنا مكانها اللائق فى التنافس القائم اليوم فى مجال الاكتشاف والاختراع لويع التقنيات وتشكيل المحيط .

وينبغى أن يندمج التصنيع والتحديث التكنولوجى فى قطاع آخر لا يقل عنـــه ية الا وهو تعزيز مكاسب الريف الجزائرى وتوسيع منجزات الثورة الزراعية بواسطة مة زحف الصحراء واحياء الاراضى واستغلالها والاستفادة القصوى من الثروة المائية

واستخدام التقنيات الحديثة فى العمل الفلاحى كلما تطلب الامر ذلك والوصول بهياكل التوزيع والتسويق والتخزين الى درجة من التنظيم والاتقان تمنع الازمات المفتعلة وتحقق لنا الاستقلال الغذائى الذى يتخذ منه بعض الدول والهيئات ورقة ضغط وأداة تهديد ·

ان القرية الفلاحية وما يدور فيها من نشاط اقتصادى واجتماعى وثقافى سوف لن تكون فى المستقبل مجرد محطه بين مدينتين بل مركز اشعاع ونهضة حقيقية يصنعها انسان الجزائرى وتحمل ملامح شخصيته وتعكس مدى قدرته على التغيير والتعمير ·

وفى المستوى الاجتماعى الثقافى . تتعين على الثورة ان تواصل جهودها لرفع مستوى الحياة للفرد والجماعة والعناية الكاملة بالاسرة الجزائرية وحمايتها ماديا ومعنويا اذ لابد من اعطاء اهتمام خاص للجانب التربوى وبناء الاسرة الجزائرية فى اطار يصون قيمنا الاسلامية النبيلة وتقاليدنا الوطنية الاصيلة ويتسجم مع المثل الاشتراكية وتتيح ازدهار شخصية الفرد والمجتمع بدون جمود وبدون انحلال وتفسخ ·

وبدون شك فان حجر الزاوية فى بناء الاسرة والخلية الاساسية للمجتمع هى المرأة التى بدون ترقيتها وترسيخ رصيدها ومكاسبها فى الثورة تظل جهدنا التربوى ناقصا ومبتورا ·

وهنا لابد من العمل وبدون انقطاع لاستئصال المفاهيم المختلفة تجاه المرأة والتى تؤدى أحيانا الى تعطيل طاقاتها وشل مساهمتها المطلوبة فى الحياة السياسية للبلاد وفى المهام التى تعود اليها بالدرجة الاولى ، كما يجب مكافحة مظاهر السلوك والتصرفات الانحلالية المتناقضة مع القيم الاشتراكية وشن حرب ضد جميع مظاهر الانحراف والتشرد لان الامر يتعلق فى النهاية بتحقيق انسجام وتكامل حقيقيين بين بناء الاساس المادى للمجتمع الاشتراكى وبين بناء انسان هذا المجتمع ·

هذا وستأخذ مشكلات السكن والصحة والنقل طريقها الى الحل بمضاعفة الجهود المبذولة حاليا استجابة لما حدده الميثاق الوطنى من مهام عاجلة وينسحب هذا المجهود

المكلف أيضا على ميدان الثقافه والتعليم ويتجلى ذلك فى ضرورة توفير كل الشروط اللازمة لتعزيز الموروث الثقافى وتشجيع الابداع الوطنى فى الفنون والآداب وابراز أفضل ما فى تراثنا العربى الاسلامى من قيم ومآثر ٠

ان ترقية الثقافة وتحسين أدواتها المقروءة والمسموعه والمرئية وجعلها فى متناول الجماهير الكادحة تعتبر فى نظرنا استثمارا سيكون له نتائجه الايجابية على كل الفئات الاجتماعية ولا ريب ان هذه العملية تسير فى خط مواز لما تبذله الجزائر من جهود لتعميم التعليم ومحو الامية نهائيا بوسائل يتبغى ان تكون أكثر ثورية واعمق تأثيرا وأوسع شمولا . فديمقراطية التعليم ورفع مستواه الكيفى واعطاء أهمية خاصة للتربية والتعليم المستمر والتكوين النفسى فى كل الاختصاصات التى تحتاجها البلاد ستكون شغلنا الشاغل اذ من خلال نصوص الميثاق وتوجيهات القائد الراحل هوارى بومدين سيعمل حزب جبهة التحرير الوطنى على وضع استراتيجية تربوية دقيقة ومفصلة تشمل كل مراحل التعليم وتثرى مضمونه وتجعله يتركز أكثر حول انشغالاتنا الكبرى وتعكس واقعنا وتعطى للثقافة الوطنية ابعادها الحقيقية باعتبارها أداة لاستعاده الهوية الوطنية وطريقا للاخذ والعطاء مع الحضارة الانسانية ٠

ان الطابع الاستيطانى للغزو الفرنسى كلف الشعب الجزائرى تضحيات لا تحصى، فقد تعرض المواطنون لموجات متلاحقة من اغتصاب الاراضى . واجلاء أهلها عنها الى المناطق القاحلة ليعيشوا نهبا للفقر والحرمان وفى ظل هذه الظروف القاسية اضطر العديد من الجزائريين للسفر الى ما وراء البحر طلبا للرزق ، ولكن سياط الاستعمار والتفرقة العنصرية ظل تطاردهم فى ديار المهجر حيث واجهوا ابشع أنواع الاستغلال والاستعباد . وبالرغم من تلك الظروف القاسية التى كانوا يعيشون فيها ظلوا مرتبطين ارتباطا وثيقا بوطنهم ومدركين بان محنتهم هى جزء من المحنة الكبرى التى يعانى منها الشعب بأكمله ٠

ومن أجل ذلك كان عمالنا فى المهجر فى طليعة الذين لبوا نداء جبهة التحرير الوطنى للكفاح من أجل الاستقلال واستعادة السيادة الوطنيه ·

ولقد ظل مشكل الهجره منذ التاسع عسر جوان 1965 من الاهتمامات الاساسية للقيادة الثورية حيث تواصل العمل على المستوى الوطنى من أجل توفير الشروط الموضوعية لعودتهم الى أرض الوطن وادماجهم فى حركة التنمية الاشتراكية التى تشكل الحل الجذرى لمشكلات التخلف والتركه الاستعمارية الثقيلة ·

وفى هذا الصدد ننبغى مضاعفه الجهد لتوفير الامن لهذا القطاع الهام من شعبنا وحماية شخصيته الوطنية من اخطار المسخ والذوبان وهذا بطبيعة الحال يتطلب الاسراع بتوفير وسائل وشروط العوده الكاملة ·

اننا ونحن نتحدث عن الانجازات العظمة والافاق الواسعه لثورتنا ، نسجل بكل فخر واعتزاز الدور الطلائعى الهام الذى قام به الجيش الوطنى الشعبى ـ سليل جيش التحرير الوطنى ـ فى معركه البناء الاشتراكى وترسيخ هياكل الدولة الجزائرية

فلقد ظل هذا الجيش الذى يجسد بحق استمراريه ثوره نوفمبر وعبقرية شعبنا وفيا لاصوله الاجتماعيه ولمهمته التاريخية فلم يكن جيش ثكنات ورتب وألقاب بل كان عليه أن يبقى فى طليعة المعركة لبناء الوطن ودعم وحماية الاستقلال ، انه جيش انبثق من الشعب وسيظل فى خدمة الشعب ولا يمكن ان يكون جيش الثكنات أو يبقى على هامش المجتمع ·

▲ واننى لفى غنى عن سرد المهام التى قام بها الجيش الوطنى الشعبى لان اسمه أصبح مقترنا بجميع معارك البناء التى خاضتها البلاد والمتمثلة فى ثوراتنا الثلاث الزراعية ـ والصناعية ـ والثقافية ·

وفوق هذا كله أصبح الجيش الوطنى الشعبى مدرسة لتكوين الاجيال الصاعدة وتاطيرها وتربيتها وتغذيتها بايديولوجية الثورة وهذا من خلال الخدمة الوطنية التى تستوعب جميع ابناء الشعب ·

ان ثقل واعباء مهام البناء الوطني والدفاع عن الوطن والثورة . لم يجعله يتخلى عن واجباته القوميه . وهكذا شارك جيشكم المغوار في المعركه ضد الصهيونية ، فكان له شهداؤه الذين جسدوا بالتضحية وبالدم وحدة المصير المشترك . كما أكد وحدة المعركه في سبيل الحريه من خلال تقديم الدعم لحركات التحرير المكافحة ضد الاستعمار والعنصرية والغزو في القاره الافريقيه وحتى تعزز دور الجيش الوطني الشعبي كمدرع للثوره الاشتراكيه فانه يحتم مواصلة الجهد الكبير لتقوية قدرات الجيش الوطني الشعبي وتكيفها مع التكنولوجيا الحديثة . وامتلاك كامل القدرة على استخدامها ، وان ترفيه القوى الاجتماعيه للثورة وتوسيع قاعده التعليم لابناء الفلاحين والعمال سيمكن من المحافظة على المنابع الاجتماعية لهذا الجيش ويمده بخامات هامة .

أيها الاخوه المناضلون

لقد حرصنا بتوجيهات من الرئيس الراحل هواري بومدين طوال الفترة القصيرة الماضيه على وضع القواعد الاساسية لحزب جبهه التحرير الوطني وعملنا على توفير الشروط الموضوعيه لانطلاق حوار ديمقراطي بين المناضلين في كل المستويات وتهيئة كل الاسباب الكفيلة بتوسيع القاعدة الحزبية وتقويتها . فاذا كنا قد اديتا الامانه كمناضلين على احسن وجه فان ذلك هو الغاية المثلى التي سعينا اليها ورجونا بلوغها ولقد ظلت الارادة الصادقه هي رائدنا في العمل وظل تحقيق تطلعات الجماهير الشعبية الى حياة أفضل هو المشعل الذي ينير طريق نضالنا .

وها نحن نعد مسيره من النضال الشاق نحمل فيه جيل نوفمبر مسؤوليات ثورة البناء والتشييد وتحدياتها الضخمه قد وصلنا الى هذه اللحظة التاريخية لحظة انعقاد المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني ومعنا خلاصة الجهد الذي بذلناه خلال هذه السنوات الطويلة المليئة بالعمل من أجل تحقيق أهداف الثورة والتي تميزت

بالجهود المتواصلة لتجديد هياكل الحزب ومنظماته الجماهيرية قصد توفير شروط نجاح هـذا المؤتمـر ٠

أيها الاخـــوة المناضلون :

لقد توجت المسيرة بانعقاد هذا المؤتمر الرابع لحزب جبهه التحرير الوطنى الذى يعتبر ـ بحق ـ بداية مرحلة جديدة فى حياة الثورة وباعتبار مؤتمرنا هذا هو صاحب السيادة والسلطة المطلقة فى تقرير مصير البلاد والثورة فان انعقاده اليوم ينهى مهام مجلس الثورة كقيادة سياسية تحملت اعباء البناء الوطنى فى ظروف شاقـــة وصعبة منذ 19 جوان 1965 رغم المصاعب ورغم التركة الاستعمارية الثقيلة استطاعت ان تواجه مع كل المناضلين المخلصين وبحزم التحديات العديدة فى الداخل والخارج، وان تحقق مع كل المخلصين انجازات حضاريه ضخمة ان لم تبلغ بعد كل طموحات الثورة فانها ارست صرح دولة اشتراكية دبمقراطية قوية بمؤسساتها متحررة من سيطرة الاحتكارات ونفوذ الامبريالية ، دولة مهابه ومسموعة الكلمة ٠

ويحضرنى فى هذه اللحظات الخالدة ونحن نتامل مكاسب وانجازات 19 جوان العظيم رفاق لنا مناضلون أوفياء سقطوا شهداء الواجب الذى أدوه بكـــل امانـة واخلاص وتفان ولم يكتب لهم ان يعيشوا معنا هذا الحدث العظيم ٠

وهكذا بعد ان انتهت مهمة القيادة السياسيه فاننى أعلن من هذا المنبر عـــن انتهاء مهام رؤساء اللجان المركزية للحزب واعضائها وكل المعينين فى المهام السياسية بالجهاز المركزى للحزب وسيبقى الآن على الهيئات التى ستنبثق عن مؤتمركم الموقر اختيار الرجال الذين يتحملون مسؤولية قيادة البلاد فى المرحلة القادمة والانتقال بالثورة من ارساء بنياتها القاعدية الى تحقيق الاهداف المرسومة فى الميثاق الوطنى عبر آفاقه القريبة والبعيدة ٠

وفى هذه اللحظات التى تنطلق فيها أشغال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى لا يسعنا الا ان نقف اجلالا وخشوعا لروح فقيدنا المناضل هوارى بومدين

الذى كانت اعز امانيه ان يحضر هذا الحدث الوطنى العظيم ليقدم عصارة جهده وخلاصة تجربته النضالية من أجل تدعيم مكاسب الثورة ، غير انه وان كان غائبا عنا سنبقى ذكراه نحثنا جميعا على التحلى باخلاق الثوره والتمسك بمبادئها والحرص على استمراريتها ·

واذ اتوجه بالشكر لكل الذين ساعدونى على أداء مهمتى كمسؤول تنفيذى لجهاز الحزب وسخروا كل ما فى وسعهم من جهد ووقت . فانى اتوه أيضا بقيادات المنظمات الجماهيريه التى وجدت لديها كل العون والتفهم للتغلب على كل الصعاب التى واجهتنا ونحن نعيد بناء هذه المنظمات ·

وأخيرا أحيى بكل حرارة هذا المؤتمر التاريخى وأتمنى مخلصا ان تكلل أعماله بالنجاح وتنبثق عنه قيادات تكون فى مستوى مهام هذه المرحلة الحاسمة لتواصل السير بخطى ثابتة واثمان راسخ لاستكمال أهداف الثورة وتطبيق الميثاق الوطنى ·

عاش حزب جبهة التحرير الوطنى ،

عاشت الثـــورة الاشتراكيـة ،

المجـد والخلـود لشهدائـنا ·

احترام الشرعية الدستورية
وتطبيق الميثاق الوطنى

القى المناضل الشاذلى بن جديد، اثر انتخابه من قبل المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطنى امينا عاما لحزب جبهة التحرير الوطنى والمرشح لرئاسة الجمهورية ، كلمة شكر فيها المؤتمرين على الثقة التى وضعوها فيه ، واعرب عن تقديره للمسؤولية التى اسندت اليه ، وقال :

ساعمل على مواصلة السير فى الطريق الذى رسمه الرئيس الراحل هوارى بومدين ، من أجل تعميق الاختيار الاشتراكى الذى لا رجعة فيه ، والحفاظ على استقلالنا الوطنى بمفهومه الواسع ·

وأعرب الامين العام للحزب ، عن عزمه على تدعيم حزب جبهة التحرير الوطنى ، والعمل على تطبيق الميثاق الوطنى نصا وروحا ·

وقال : ان اختيارنا الاشتراكى لحكيم وسليم ، والدليل على ذلك اليقظة والوعى بالمسؤولية التى تحلى بها شعبنا خلال الظروف الاليمة التى مر بها ·

وقد برهنت مؤسساتنا الوطنية على أنها تقوم على قواعد متينة وصحيحة ·

واختتم الاخ الشاذلى بن جديد كلمته مؤكدا عزمه على احترام الشرعية الدستورية وتطبيق الميثاق الوطنى الذى يعد الوثيقة الاساسية لايديولوجيه حزب جبهة التحرير الوطنى ، ودعا المناضلين فى كافة المستويات الى مساعدته فى أداء مهمته ·

اختتم الدكتور بوعلام بن حمودة رئيس المؤتمر . وعضو المكتب السياسي ، ووزير الاشغال العمومية . اشغال المؤتمر الرابع لجبهة التحرير الوطني بالكلمة التالية :

ها نحن قد وصلنا الى نهاية اشغالنا بعد خمسة ايام من المداولات وبعد ان استنفدنا جدول اعمال المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني .

فماذا أزيد على خطاب رئيس الدولة والمسؤول التنفيذي لجهاز الحزب والمقررين الـ 41 والمتدخلين في المناقشة العامة وعددهم 65 .

فاذا أردتم أن أضيف شيئا أقول . كلهم طالبوا بتطبيق الميثـــاق الوطـــني والدستور ، وكلهم أعلنوا الوفاء للخطة التي رسمها المرحوم الرئيس هواري بومدين.

فها بومدين ، كملنا المسيرة وبلغنا الهدف الذي كنت نسعى اليه وما زالت ترن في أذاننا الكلمات التي كنت تقولها لنا في مقابلات :«أريد أن أعطي الجزائر مؤسسات لا تزول بزوال الرجال ... » .

المكاسب الثورية لن يستطيع أحد أن يرجع عنها » .

« أمنيتي أن يتوصل المؤتمر الى انتخاب قيادة سياسية قوية منسجمة ترفع مشعل الثورة الاشتراكية لتسلمه تدريجيا من جيل الى جيل » .

ذلك ما كان يكرره الرئيس الراحل .

ومن العدل والانصاف ان ننوه بكل ما قام به رئيس الدولة السيد رابح بيطاط ، والمسؤول السياسي لجهاز الحزب . السيد محمد الصالح يحياوي ، ومجلس الثورة وجهاز الحزب واللجنة الوطنية لتحضير المؤتمر من أجل عقد هذا المؤتمر .

ومن العدل والانصاف أن ننوه و نعترف بالجميل لرئيس الدولة والمسؤول السياسي لجهاز الحزب وأعضاء مجلس الثورة والوزراء والاطارات الذين عملوا جنبا لجنب وبعد 19 جوان 1965 مع المرحوم هواري بومدين ، لكسب المعارك الهامة لصالح الجزائر ولصالح الطبقات الكادحة .

والمؤتمر نجح أيضا بفضلكم أيتها المؤتمرون والروح الديمقراطية التي سادت والجدية والموضوعية التي وسمت التقارير والتدخلات والمشاركة الفعالة في نشاط اللجان إذ ساهم فيها 3000 مؤتمر تقريبا .

وقد عشنا لحظات مؤثرة حينما استمعنا الى النشيد الوطني والى نشيد « من جبالنا » هذين النشيدين اللذين ذكرانا بالرفاق الذين كانوا معنا والكثير منهم الآن تحت الثرى .

وفرحنا بالمؤتمرين وهم يتسابقون الى تسجيل أسمائهم للمساهمة في اللجان أو النقاش . كما تأثرنا بصراحتهم تأثرا عميقا .

باسمكم جميعا أشكر جزيل الشكر كل الذين عملوا ليل نهار لصمان أمننا وأكلنا وتنقلنا وكتابة وتوزيع الوثائق ونشر الاخبار .

بفضل هذا المؤتمر أصبح لدى حزب جبهة التحرير الوطني قانون أساسي منسجم مع الميثاق الوطني . قانون أساسي يحدد طبيعة الحزب وأهدافه ويخضع سيره للمركزية

الديمقراطية والجماعية . التي تقضي الجماعة في المداولة والاغلبية في القرار والوحدة في التنفيذ . قانون أساسي يصف تنظيم الحزب في مستوى الحي ومكان العمل . في مستوى البلدية والولاية، وعلى المستوى الوطني وقد بين القانون الاساسي اختصاصات كل هيئة ، واشار ان أن النشاط السياسي في الحس الوطني الشعبي له نظـــام خاص والى أن المنظمات الجماهيرية امتداد للحزب ومنبع يجسد مناضليه ·

ان مؤتمركم انتخب لجنة مركزية ستكون هي الهيئة العليا للحزب ما بين مؤتمرين وها هي اللجنة المركزية تعاد اليكم بالامين العام الذي انتخبته وهو المجاهد المناضل السيد الشاذلي بن جديد ·

كما صادق المؤتمر على عدد من القرارات السياسية والاقتصادية والاجتماعيـــة والتربوية والاعلامية والثقافية والتنظيمية كلها منبثقة من الميثاق الوطني ، ومن بين القرارات التنظيمية الخ المؤتمر على ضرورة اتمام عملية انتخاب هيئات الحزب على أساس الاحكام الجديدة في القانون الاساسي وذلك قبل تاريخ 19 جوان 1980 ·

فهنيئا للمؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني الذي دعم استمرارية الثورة الاشتراكية وكان وفيا لشعاره « تطبيق الميثاق الوطني والوفاء للخطة التي رسمها المغفور له الرئيس هواري بومدين » ·

باسمكم جميعا نقدم للامين العام ولاعضاء المكتب السياسي واللجنة المركزيـــة تهانينا الخالصة بمناسبة انتخابهم ونتمنى لهم مزيدا من الانتصارات في مسيرة الثورة الاشتراكيـــة ·

واذا راعوا في تنظيم الحزب والدولة مقاييس الالتزام والكفاءة والنزاهة فلا ريب أنهم ناجحون ·

وفي النهاية أرجوكم أن ترددوا معي معالم ثورتنا :

ـ عروبة واســـلام ،

ـ الميثاق الوطني والدستور ،

ـ ثـــورة اشتراكيـــة ،

ـ من الشعب وللشعب .

ـ ثورة زراعية .

ـ ثورة صناعية .

ـ ثوره ثقافيه .

ـ توازن جهوى .

ـ طب مجانى .

ـ خدمه وطنية .

ـ تطوع لخدمه الثوره .

ـ مجالس شعبية .

ـ مجالس عمالية .

ـ جبهه التحرير حزبنا الوحيد .

ـ الجيش الوطنى الشعبى درعه الصلد .

ـ المنظمات الجماهيرية سنده السديد .

ـ الجزائر مكة حركات التحرير .

ـ الجزائر تناهض الامبريالية والصهيونية والعنصرية والرجعية والاستعمار ، والاستعمار الجديد والاستغلال .

أرى أمامى لافته تذكر كلمة للرئيس بومدين منحه الله رحمته الواسعة فرددوها معى :

« لقد كنا ومازلنا وسنبقى مناضلين ، فى جبهة التحرير الوطنى واليوم أكثر من أى وقت مضى » .

ـ رحم الله الشهداء الابرار ،

ـ رحم الله الرئيس هوارى بومدين ،

ـ يحيى حزب جبهة التحرير الوطنى ،

ـ والله أكبر .

تأكيـــد أصالتنـا وانتمائـــنا العـــربى الاســـلامى

قبيل الانتخـابات الرئاسيـة ، وبالضبط يوم الثلاثاء 6 فيفرى 1979 ، أدلى الاخ الشاذلى بن جديد ، الامين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى والمرشح لرئاسة الجمهورية، بحديث الى وكالة الانباء الجزائرية ، ننشر فيما يلى نصه الكامل :

س : عاش شعبنا فى الشهور الاخيرة فترة عصيبة ، ما هى العبر التى نستخرجها من هذه الفترة الصعبة ؟

ج : كانت حقيقة فترة صعبة ، ولكنها اكدت بان الشعب الجزائرى يتمتع بالنضـج السياسى العميق الذى مكنه من تجاوز المحنة ، فاعطى بذلك برهانا جديدا على وعيـه واصالته ، ودليلا ساطعا على فهمه العميق لمعنى الوفاء للمبادىء وللشهداء ، وكان موقفه هذا صفعة جديدة للذين استهانوا بالشعب الجزائرى ولم يقدروه حق قدره .

ومن جهة أخرى فان كل مؤسسات الدولة قامت بدورها كاملا ، فى اطار الشرعية ، وكان هذا دليلا جديدا على ان الجزائر ، منذ التصحيح الثورى بقيادة الرئيس بومدين رحمه الله ، قد نجحت فى بناء دولة حقيقية ، تتوفر على المؤسسات والهياكل الاساسية التى تضمن الاستمرارية ، رغم الاحداث وزوال الرجال ، وهذا مكسب كبير من مكاسب الثورة : اجتاز بنجاح ، المرحلة الصعبة التى مرت بها البلاد .

ورغم الحملات المسمومه والدعايات المغرضة فقد أثبت القيادة السياسية بأنها كانت في مستوى المسؤوليه التاريخيه · وهكذا ، ورغم صعوبة المهمة ، أمكن الوفاء بالعهد . وعقد المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الذى كان بحق ، مؤتمر الاستمرارية الثورية . والوحدة الوطنية . وكان جديرا بالشعار الذى رفعه وهو : « تطبيق الميثاق الوطنى والوفاء للرئيس بومدين » · ولقد قامت القوى الاساسيه للثورة بدورها كاملا، وكان هذا دليلا على ان هذه القوى الاساسيه من عمال وفلاحين ومجاهدين وجنود ونساء وشبيبه هذه القوى أصبحت فعلا الضمانة الرئيسية لاستمراريـــه الثوره ولحمايه مكاسبها ·

س يجب أن نقف قليلا عند تعبير استمرارية الثوره · ما هو مفهومكم له ؟

ج : لقد وصف الثوره ايديولوجيتها من واقع مسيرتها الطويلة المظفرة ، وكان الميثاق الوطنى هو ثمره المسيره التى حققت الاستقلال . ثـم واصلت الجهاد الاكبر بعد انتهاء الجهاد الاصغر ·

وكلنا يذكر المنافسات التى دارت حول الميثاق الوطنى . الذى صادق عليه الشعب الجزائرى فى 1976 . ومن هنا . فان استمرارية الثورة تعنى بكل بساطة ، تطبيـق الميثاق الوطنى نصا وروحا . والخطوه الاولى فى اختيار الرجال الذين يتمتعون بالمقاييس التى نص عليها الميثاق الوطنى ، لان الاشتراكية لا يمكن أن يطبقها الا الاشتراكيون الاكفاء الملتزمون النزهاء ·

استمرارية الثوره . معناها ان يستكمل عمليه التحويل الجذرى للارياف فى اطار الثورة الزراعية ، معناها ان يستكمل الثوره الصناعيه بكل أبعادها لربح معركة الانتاج والانتاجية . على أساس ان العمل حق وشرف وواجب . معناها أن نتحقـق الثورة الثقافية بمفهومها الشامل ، لنتمكن من بناء المجتمع الجديد . مجتمع الرفاهية والعدالة والمساواة . وتكافؤ الفرص بالنسبة لجميع العاملين ، ووضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ·

معناها ان تضمن الثقة للمواطن . والمدرسة للطفل . تسليم المشعل الى الجيـل

الصاعد الذى تشبع بروح نوفمبر ، وبهذا نكون أوفياء لشهداء نوفمبر ·

استمراريه الثورة معناها ممارسة النقد الذاتى الذى يمكننا من تصحيح أى خطأ ، وتلافى أى انحراف، واتخاذ الاجراءات اللازمة لكى لا يذهب النقد البناء صيحة فى واد ·

استمرارية الثورة معناها ، ان نؤكد اصالتنا وانتماءنا العربى الاسلامى ، ونفتحنا على العالم من حولنا · معناها أيضا الا ننسى التزامنا مع القضايا العادلة ، وان نؤكد تعلقنا بعدم الانحياز ، كاختيار رئيسى من اختياراتنا الثوريه · وبجملة واحدة ان نحقق الوفاء للعهد بمنطق الميثاق الوطنى وهذا هو الخط الذى رسمه الرئيس بومدين ، وهذا هو الخط الذى سنسير عليه ، طبقا لارادة شعبنا ·

س : استعملتم فى كلمتكم القصيره أمام المؤتمر تعبير الاستقلال بمعناه الواسع ، ماذا تقصدون ؟

ج : الاستقلال ليس مجرد علم يرفع ، أو نشيد وطنى يعزف ، ولكنه مفهوم عميق يشمل مختلف مجالات الحياة · ولا معنى للاستقلال بدون استقلال اقتصادى ، ولا ضمان للاستقلال الاقتصادى بدون استقلال مالى ·

ومن أهم ضمانات الاستقلال المالى ، ان يكون انتاجنا أكثر من استهلاكنا ، لان الاقتصاد ليس مجرد ادوات تقنية يستعملها الاختصاصيون بل هو حقيقة يومية يعيشها كل مواطن ، ولابد من المحافظة على خيرات البلاد وتنميتها لتتمتع بها الجماهير الكادحة وليجد المواطن فى أسواق بلاده كل احتياجاته الاساسية·

الاستقلال بمعناه الواسع يتنافى مع أى نوع من أنواع التبعية سياسية كانت أم اقتصادية أم فكرية ·

الاستقلال بمفهومه الواسع معناه أن نتعامل مع الجميع واضعين نصب أعيننا مصلحة الشعب الجزائرى أولا وقبل كل شىء ، لا نخضع لاى ضغط ، ولا نستجيب لاية مساومات حول المبادىء التى نؤمن بها ·

كل شىء قابل للنقاش ، الا المبادىء ، ونحن من أجل التعاون مع كل من يرغب فى التعاون معنا على أساس الاحترام المتبادل وضمان المصالح المشتركة ·

س . هل من كلمة للشعب الجزائرى ؟

ج . أعتقد ان الشعب الجزائرى يعرف واجبه جيدا ، واذا كان لابد من كلمة ، فهى كلمة تحية لهذا الشعب ، الذى أعطى العالم كله صورة رائعه للوعى ، والوفاء ، وروح المسؤوليه . واعطى للذين حاولوا التشفى فيه درسا لن ينسوه .

وانى اعتز بالثقة التى منحتنى اياها القوى الحية للامة من عمال وفلاحين وجنود ومثقفين ثوريين ...

والمهمة صعبة وشاقة ولكننى أعتمد على الله ، وعلى ثقه شعبنا ومساعدة الجميع لكى تكون شعار الوفاء للشهداء وتطبيق الميثاق حقيقه واقعه . ولكى نبنى معا جزائر المستقبل كما نريد لها ان تكون . ولكى نتكلم قليلا ونعمل كثيرا .

الرئيس الشاذلى بن جـديد يؤدى اليمين الدستورية (*)

« وفاء للتضحيات الكبرى ولأرواح شهداء ثورتنا المقدسة . اقسم بالله العلي العظيم . أن أحترم الدين الاسلامي وأمجده . وأن أحترم الميثاق الوطني والدستور . وكل قوانين الجمهورية وأحميها . وأن أحترم الاختيار الاشتراكي الذي لا رجعة فيه ، وأن أحافظ على سلامة التراب الوطني ووحدة الشعب والأمة ، وأن أحمي الحقوق والحريات الاساسية للشعب وأعمل بدون هوادة على تطوره وسعادته ، وأن أسعى بكل قواى من أجل تحقيق المثل العليا للعدالة والحرية والسلم في العالم » .

(*) الاخ الشاذلى بن جديد ، رئيس الجمهورية . والامين العام لحزب جبهة التحرير الوطنى يؤدى اليمين الدستورية بعـد انتخـابه

منشـــورات

وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب

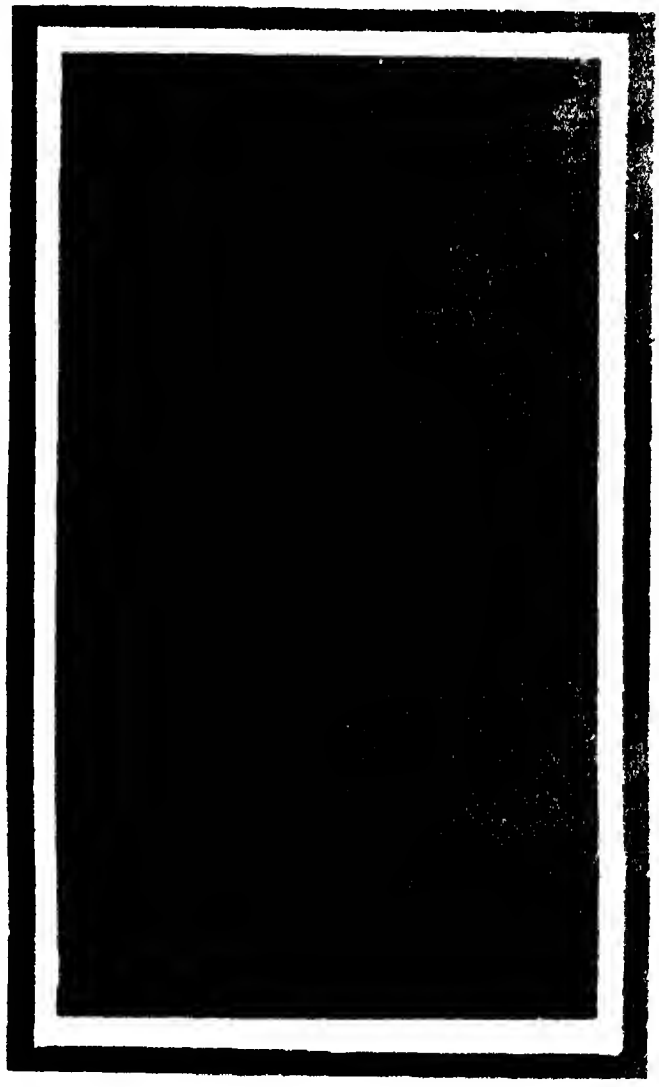

(بالفرنسيـــة) في 3 اجـزاء

كل من الغرب والشرق (الأوروبى) متخلفان (1)

رأي اية الله الخميني فى دور الدين فى الدولة

ترجمة وتعليق

مولود قاسم نايت بلقاسم

لقد سبق لآيه الله الخميني ان عبر عن تصوره للمجتمع الاسلامي بطريقة أوضح مما فعل فى التصريحات الصادرة عنه فى الاشهر الاخيرة والغالب عليها طابع الحذر الدبلوماسي،وذلك فى محاضراته التي كان يلقيها اثناء منفاه العراقي فى رحاب كلية الشريعة فى جامعة النجف الاشرف فى الستينات والتي جمعت باذن منه وصدرت فى بيروت بالعربية كتابا تحت عنوان : « الدولة الاسلامية » ، وهنا ننشر مقتطفات منه :

● **عن السيطرة الاجنبية يقول :**

« ان الاستعمار يريد منا أن نقتصر فى عملنا على الصلاة حتى لا ندخل معه فى صراع سياسي » .

---

1) عن المجلة الاسبوعية الالمانية الغربية « المرآة » (دير شبيغل) فى عددها الصادر فى 22 يناير 1979 . ونحن اذ ننشر هذا المقال نأسف أن نترجمه عن ترجمة المانية لاصل عربي،هو كتاب الامام الخميني ... غير الموجود فى مكتباتنا ... العامرة !

« ان الاستعمار يريد ، ويقول لنا ذلك بكل صراحة · « صل ، أيها المسلم ، مـــا شئت ، إننا لا نريد منك الا نفطك ، أما ما تقنت به من صلاة فى مسجدك فلا يهمنا فى شىء ، ولا نعارض فيه اطلاقا ، اد كل ما يهمنا هي ثرواتك المعدنية وأسواقك لمنتوجاتنا واستثماراتنـــا » ·

● وعـن الدور السياسي للاسلام يقول :

« ان الغزاة الاوروبيين فرضوا علينا قبول قوانين جديدة ، لان الاسلام ، حسـب رايهم ، غير قادر على تنظيم الحياة اليومية ، وعاجز عن تنظيم المجتمع ، وقاصر عـن اقامة حكومـة ، من أى نوع كانت · فالاسلام ، فى نظرهم ، لا يعنى الا بحيض المرأة ، أو بسلوك الرجل مع زوجته فى مخدعهما » وباختصار:يرون ان الاسلام غير قادر على تنظيـم المجتمـع » ·

وفيما يخص التقـــدم يقول :

« عندما تحقق دولة صناعية انجازا جديدا فى الميدان العلمي أو التقني يحـس الكثير منا بعجزهم ويرون أن قصورنا ذلك آت من ديننا . وبالتالي ان ليس لنا مـن

مخرج من ذلك الوضع الا الغاء الاسلام وشريعته . لنلحق بركب الامم المتقدمة ، وعندما نزلت بعض الدول فوق القمر ، تأكد أولئك الضعاف المترددون منا ان ديننا هو الذي منعنا من الوصول الى القمر !

« اني أود أن أقول لاولئك الناس ما يأتي : ليست قوانين الغرب ولا الشرق (الاوروبي) هي التي مكنت أصحابها من الوصول الى القمر ، لانه من المعلوم أنها قوانين متعارضة ومتناقضة من كتلة الى أخرى » .

« وفيما يخصني ، فأقول ان لهؤلاء وأولئك جميعا ان ينزلوا على سطح الزهرة أيضا ، ان شاؤوا ، ومع ذلك سيبقون جميعا،أي مواطنو الغرب والشرق (الاوروبي)، متخلفين ، لانهم غير قادرين على ان يحققوا فى مجتمعاتهم الفضائل الاخلاقية . ان التقدم المادي الذي حققته تلك الشعوب كان على حساب التقدم الروحي ، انهم لا يزالون عاجزين عن حل مشاكلهم الاجتماعية ، لان حل هذه المشاكل والقضاء على بؤس الانسان متوقفان على تلك الفضائل الاخلاقية التي تفقدها مجتمعاتهم » .

● **وعن الدولة الاسلامية يقول :**

« ان الدولة الاسلامية تمتاز على النظم الدولية الاخرى بكون كل من الدول الملكية والجمهورية تتلقى دساتيرها اما من الملوك أو من المجالس النيابية ، بينما الدولة الاسلامية تلقت سلطتها التشريعية من الله سبحانه وتعالى . ان الدولة فى الاسلام معناها : تحقيق الشريعة التي أوحى بها الله الى الرسول ، والخضوع لها » .

« واذا كان الرسول قد توفى ، وهو الذي كان على رأس الدولة الاسلامية ، فمن الذي خلفه ؟ انهم الفقهاء ! انهم الائمة ورثة الانبياء ! » .

● **وعن دور رئيس الدولة يقول :**

« شرطان أساسيان قبل كل شيء ينبغي ان يتوفرا فى رئيس الدولة :

1) ان يكون عارفا بالشريعة الاسلامية ،

2) *ان يكون قادرا على ضمان العدل ، لان هذين الشرطين هما عمودا الامامة ، وسلطة الفقهاء فوق سلطة الملوك ، والفقيه يفقد طهارته الدينية بمجرد تواطئه مع السلطان أو اتباعه* » .

وعن تبرير علو سلطة الفقهاء كقضاة على رئيس الدولة يقول :

« ان الاسلام يحـــرم أن يكون السلطان ظالما ، ومن هنا فمن واجبات الفقهاء ان يكشفوا مثل أولئك الحكام ، ويطردوهم من عروشهم ، ويشحذوا وعي الجماهير حتى لا تهضم حقوقها ، واذا كنتم اليوم عاجزين عن الاطاحة بمثل تلك الدول ، فيجب عليكم على الاقل الا تسكتوا ، ولا أن تغصوا النظر عنها ، بل قاوموا وكافحوا مثـــل ذلك السلطـــان » .

(انتهت المقتطفات التى أوردتها المجلة الالمانية المذكورة).

واننا لنظن ان القارىء يحس معنا ، بقراءتها وباستحضار جهاد قائلها ، وهـــو اية الله روح اللـــه الخميني ، انه ممن يؤمنون حقا بما يقولون ، وانه ليس ممن يقولون ما لا يفعلون ، وانه يستحق فعلا صفته تلك ، الامام ، التي ورثها عن الامام عـــلي ، كرم الله وجهه ، أو سيد علي ، كما كنا نسمع ونقول ، عندما كنا أطفالا ، حول الكانون (الموقد) ، فى ليالي الشتاء القارسة ... ونحن نستمع بتلهف الى القصص التي كانت ترويها لنـــا جداتنا !

واني لاظن ان الامام الاكبر ـ وهو الوحيد الآن فى العالم الاسلامي الذي يستحق هذه الصفة ! ـ آية الله روح الله الخميني قد أزاح جلباب المذلة ، والهوان ، والمسكنة عن جميع الائمة فى العالم الاسلامي ، على مختلف المستويات !

وكم نأمل ان يمتد هذا القبس الالهـــي ، الرباني ، الانساني الـــى جميع الائمة فى جميع انحاء العالم الاسلامي الواسع ، ليهزوا هذا المليار من البشر النائمين ، ذوي الامكانات القصوى اليوم ... ولكن ذوى المنزلة الدنيا فى العالم !

واننا لنكاد نحلم ، ونحن نستمع الى أخبار ايـــران !

وبخصوص استحقاق تسمية الامام ، لاي امام ، عن جدارة ، واحتمال وجود هذه النوعية ، فكم يحلو لنا ان نتمثل هنا ونختم بكلمة سبـــق لنا ان قلناها بهذا الشأن ، كمثل أعلى نرنو اليه ، ونود لو تحقق فى كل احد منا ، اذ كل مسؤول امام ، أي راع ، مسؤول عن رعيته ، عـــلى مختلف المستويات ، وهو الذى يتقـــدم الصفوف ، ويمثل القدوة ، ويـــؤم النـــاس !

ففي لحظة غضب ، وتأثر ، وحزن ، وأكاد أقول : يـأس ـ استغفر اللـــه ! ، لانه لا ييأس من روح الله الا القوم الكافرون ! ـ قلنا منذ سنتين فى اجتماع للائمة بوهران (2). مما قلنا ، ما يلي :

« ،،، ينبغي اذن أن تدركوا عمق هذه المسؤولية ، تدركوا مدى أهمية الواجـب الملقى عليكم ، وان لا تبقوا هكذا سلبيين ، مرتخين ، مفكـكي الاجـــزاء ، منحـلي الاوصال . ان تلك النسوة اللاتي يسمين « الاخوات » لدى النصارى ، « السورات » ، يركبن على الدراجة ، ويقفزن ، ويطرن ، وانتم نائمون ؟ وانتم قاعدون ؟ ولا تطردون حتى الذباب عن أعينكم ؟ تسيرون هكذا مهلهلين ، مخلخلين ، مزعزعين ، مهزورين ؟ لا ! بل ينبعي ان تقفزوا قليـلا ، ينبغي ان تطيروا ، أن تتحركوا ، ان تستيقظوا ! ان مجنونا يطير فى السماء أفضل من النائم المرتخي ! اني أفضل ان أرى كلا منكم بثيابه فى الهواء على ان أراه **مرتخي الاوصال ، مفكك الاجزاء،لا يطـرد الذباب عن عينيه** ، فى المسجد أو غير المسجد ! ينبغي ان تنتعشوا قليلا ! ان تكونوا طبق ذلك المثـل الذي قاله عمر بن الخطاب رضي اللـه عنه لاحد الشباب ، كما روته عائشة ، عندما التقى باحد الشبان ، قال له عمر بن الخطاب ، وما أدراك من هو عمر بن الخطاب ؟ عندما مر به فى احد شوارع المدينة ، والشاب مرتخ، الاوصال ، مفكك الاجزاء ، مثل الكثير منكم ، فضربه بعصاه على أم رأسه ، بدرته المشهورة ، وقال له : « ما لك مرتخ هكذا ، مالك تتماوت فى مشيتك ! فقد أمتم علينا ديننا أماتكم الله ! » ، وأعطاه بالعصا على أم رأسه.

« هذا ما ينبغي ان نستعمله معكم ، مـــا دمتـم هكذا أمواتا ، مفككي الاجزاء ، مرتخي الاوصـال ، محلولين ، مهلهلين ، مخلخلين . ينبغي ان تحيوا قليـــلا ، وان تضربوا المثل ، أن تعطوا القدوة ، أن تكونوا فى حزم الامام علي ! خذوا الصفات التي تتمشى ، التي توافق ، التي تأتي من هذا الامام ! خذوا من الاسم مسماه عنه ، بـل مسمياته العديدة ! خذوا تلك الصفات ، صفة الامام الحـازم ، الجـازم ، القـافز ، النشيط ، الحي ، الذي يحي الاخرين ، الذي يحرك ، الذي يهز ، الذي ينغـــز ، الذي ينعش ، وعند الضرورة ، الذي يصدم الغير ليثير فيهم الرعب حتى يبعث فيهم الحياة !

---

2) فى ليلة المولد النبوى الشريف سنة 1397 هـ (1 مارس 1977 م) ، نشرت فى عدد 46 ـ 47 من الاصالة بتاريخ جمادى الثانية ـ رجب 1397 هـ (يونيو ـ يوليو 1977 م) .

« هذا ما نطلبه منكم ، هكذا ينبغي ان تكونوا ، جسما حيا في الامة ، ولهذا قلنا لكم : كونوا الرعاة الوعاة ، لا الغافلين ، النائمين ، الراقدين،مع الزردة ، والوعدة ، والقعدة ، والرقدة ' (3) تحركوا قليلا ، كونوا الرعاة الوعاة ، والدعاة السعاة ' » .

فاذا كان هذا الكلام الجاد صحيحا بعض الشيء بالنسبة لكثير من أئمتنا هؤلاء في الجزائر ، لا بالنسبة لجميعهم ، وهم الذين لم يتلقوا تكوينا جامعيا في كليات الشريعة أو اصول الدين ، مثل غيرهم من البلدان الاسلامية، والذين أدوا رغم هذا بالنسبة لاغلبهم دورا ايجابيا لا ينكر، فانه ينسحب أكثر وينطبق أكبر على تلك العمائم الغمائم، في هذه الامة العمة (4)، من «شيوخ الاسلام» و «مفاتيه» في عصور الجمود، والجمود، والهمود، وخاصة « علماء » اليوم الذين يطوفون حول القصور الامبرية . أو الملكيـة ، او الامبراطورية ، أو الجمهورية،كالببغاوات ، أو « العلماء الدواجن » كما سماهم الاستاذ عبد المجيد مزيان ، فيما سمعت ، همهـم اصدار الفتاوي الادارية ، وتحـرير البرقيات المنمقة ، تأييدا لخطى وبوادر ، مهما كانت للامة خدعا غوادر ، ولولا طابعها المأساوي لكانت اشبه بالنوادر !

ومن هنا فاننا مهما مجدنا هذا الامام الخميني ، وسابقيه أمثال الامام الكاشاني ، فلن نفيهم حقهم ، فالخميني خاصة قد رد الاعتبار لعلماء الاسلام ، وشيوخه ، ومفاتيه ، ورد الاعتبار لرجال الدين عموما ، ورد الاعتبار للاسلام في نظر الشعوب الاسلامية وغير الاسلامية ، بل والعالم بأسره !

وسوف يسجل له التاريخ هذه المأثرة ، وسيحلد له هذه المفخرة ، فلقـد رد للقيم قيمتها ! واعاد الحق الى نصابه ، والحياة الى مجاريها الطبيعية ! انه القبس الحـي للامام علي ، كرم الله وجهه ! فليحي الخميني ، ولتكثر أمثاله في ديار الاسلام !

نعم ، انهم هنا لآيات الله في أرضه ، أمثال آية الله الشيرازي الذي قاوم الانجليز مدة طويلة ، وآية اللـه الكاشاني ، الذي كان عضد الدكتور مصدق في الخمسينات ، وآية اللـه الخميني بالامس واليوم ، وهو ابن شهيد وأبو شهيد ، وآية الله التلغاني ،

---

3) والهردة ، كما كان يقول امام آخر ، وهو عبد الحميد ابن باديس ، رحمه الله ، في مقال له في الشهاب تحت عنوان « أزردة أم هردة ؟ » !

(4) كما كان يقول المرحوم الشيخ البشير الابراهيمي ، فيما سمعت .

واية الله الاررشهرى . الذى استشهد . وهو يقلى فى الزيت مثل السمك ! وآية الله المنتظرى ، وآية الله شريعة مدرى . وآية الله الروحانى . وعيرهم من آيات الله العديدة أعضاد آية الله روح الله الخميني . الذي أطاح باكبر طغيان فى الشرق الاسلامي ، « وجعل فرائص الغرب ترتعد » ، كما كتبت ذلك الصحافة الغربية أخيرا ، وخاصة منها مجلة الاكسبريس الفرنسية فى عددها الصادر بتاريخ 27 يناير 1979 ·

وان ربك القادر على كل شيء،والذي يرزق الانسان من حيث لا يحتسب ، لقادر على ان ينعم على الاسلام اليوم بجعن آياته هذه تتجلى وتتعدد ، وعهود الاسلام الزاهرة تتجدد ، وحضارته تحيا وتتمدد ، والحواجر والعوائق امامه تزول وتتبدد ، وجميع القوى فى الارض اليه تتحبب وتتودد ، وقبل التعرض له باي شيء ألف مرة تتخوف وتتردد . ورجالات الاسلام بدءا بنفسها ثم مع الغير فى الحق تتصلب وتتشدد . قبل أن تنصح غيرها وتتهدد !

انه لواضح ان الامام الحميني لديه كل فضائل الامام الاول ، صاحب السيف والقلم ، علي كرم الله وجهه ، ولديه الى ذلك التدبر والتدبير المحكمان ، وتلك الحيطة الشديدة ، والتقدير الصحيح للامور ، وذلك الاحتراز الحاد ، والتحليل الدقيق لموقف الخصم ، ومقابلة سوء الظن بمثله ، وتلك هي الامامة والسياسة !

فهو الامام علي ومعاوية هى واحد ، وهو الاشعري وابن العاص متكاملين ! انها لحقيقة ثابتة ان الذين نسميهم الشيعة والمعتزلة والزيدية والخوارج ، أجنح الى قوى الحق ولو كانت تهددهم السيوف والطائرات والبوارج ، فهم دائما أحياء ، وحسهم السياسي مرهف ، وتعلقهم بالعدل والكرامة شديد ، ثم هم بعد ذلك وقبله الى الثورة دوما ميالون !

أما نحن وأنتم يا من نسميهم أهل السنة والجماعة ، المعروف عن أكثرهم بالقراءة والمشاهدة والسماعة (4)،أنهم العلماء الاجلاء الميامين ، المشهورون أخيرا برفع الاكف وقولة آمين . وتأكيدهم دوما لذوى الساعة عميق الولاء . مهما كانوا على شعوبهم هم عين البلاء ، فليلتكم زاهية هنيئة سعيدة ، واحلام لذيذة عن آمال الامة بعيدة ، طاب نومكم ، ولو تعذب قومكم ، الذي ضرب فيه الانحلال اطنابه ، وغرس فيه الاستدمار (5) أذنابه ، ويحرق الاستغلال الفاحش أجنابه ·

وكما يقول أبو زيد . حسما رواه ابن منظور فى لسان العرب :

دعوت الله حتي خفت أن لا يكون الله يسمع ما أقول !

---

4) السماعة على وزن الجماعة:السماع !
5) كالاستمرار ، وزنا ومعنى . ومن حيث المعنى أصدق ·

الاسلام فينا عريق ، ونحن فيه عريقون ، فهل نستورد حتى الأئـمة !

احمد حمانى
رئيس المجلس الاسلامى الاعلى

سيدى الرئيس ، أيها الاخوة المناضلون ،
السلام عليكم ورحمة الله .

فى هذا اليوم التاريخى من ايام شعبنا ، وفى هذا المؤتمر العام الذى يعقده حزبنا ، حزب جبهة التحرير الوطنى الذى قاد امتنا سياسيا ، كما قادها جيش التحرير الوطنى عسكريا ، نحو الانتصار النهائى وطرد الغاصبين من البلاد ، ومحو آثار المستعمرين واستغلالهم للوطن ، وامام الاحياء من هؤلاء القادة والجنود من السياسيين والعسكريين الامجاد ـ فى هذا اليوم يسر المجلس الاسلامى الاعلى ان يتقدم بهذه الكلمة المتواضعة ابلاغا لرأيه ومشاركة فى انجاح هذا المؤتمر . ذلك ان الاسلام لم يكن ـ فى أى يوم من الايام ـ غائبا عن مثل هذا الميدان ، بل ان الاسلام كان بروحه واشعاعه ونوره وبأخلاقه ومثله ـ حاضرا فى ميادين الكفاح ، كامنا فى النفوس ، له السلطة القوية عليها . وكان الحافز لها والوازع الى اعظم

نص الكلمة التى القاها الشيخ أحمد حمانى ، رئيس المجلس الاسلامى الاعلى أمام المؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطنى .

التضحيات والدافع المبين الى احدى الحسنيين : اما النصر فى الجهاد واما المـــوت والاستشهـــــاد ٠

وكانت كلمة (الله أكبر) تنادى بها فى المعركه تفعل فعل السحر فى النفوس وتدفع بها الى استعذاب الموت والاستبسال ٠ وانكم لتعلمون هذا وتشهدون بـــه ٠ فليس اعتباطا أن تكون المادة الثانيه من دستورنا تقول . (الاسلام دين الدولة) ، فان هذه الدولة الجزائريه دوله امة مسلمة ، قد اختارت لها الاسلام دينا ٠ وكانت فى السابقين الاولين اليه من بين الامم . وذلك منذ ما يزيد على ثلاثه عشر قرنا ونصف قرن ، يوم جاء به الاصحاب والتابعون ، وطردوا من بلادنا الروم المستعمرين ، وعرضوا الدين على أجدادنا هنا . فاقبلوا عليه مسلمين ، وكون الاســـلام مـــن العنصرين أمة جديده قويه متينه . متآلفـــه متحده العقيـــده والاخلاق والمبـــادئ والعادات واللغة ـ لغه القرآن ـ والوطن للاحرار جميعا ، يتولى فيهم القيادة الكفؤ منهم . تشهد لذلك ويبرهن عليهم القائد الفاتح طارق بن زياد الذى اجتاز البحر بجنده الاسلامى الى أوروبا ٠ وكان اول من غرس فيها معالم الحضاره والعلم والثقافه ورفع فيها مشعل النور ، وكانت أوروبا غارقة فى ظلام دامس ٠

وهكذا كانت امتنا وحدها ـ بين الامم التى اعتنقت الاسلام من غـــير العـــرب ـ هى التى أمدت الاسلام ـ منذ القرن الاول للهجره ـ وهو خير القرون ـ بأحـــد الفاتحين الاولين ٠

فالاسلام فينا عريق ، ونحن فى الاسلام عريقون . نحن فيه من أقوى شعوبه وأممه ايمـــانا ووفاء واخلاصا واستمساكا وكفاحا وجهادا ٠ وكلما حاولت قـــوة معادية أن تغزونا ماديا وروحيا لتصرفنا عن وجهتنا، أو تذهب بريحنا باءت بالفشل وحاقت بها الهزيمه . واسألوا التاريخ عن الروم ثم النورمان ، وعن الفرنسيـــين بعد الاسبان ، ينبئكم أن غزواتهم انتهت بالهزيمه والخسران ، سواء أقادها أبطال حرب فى الميدان ، أم قادها قسيس يحملون الصلبان ٠

ليس الاسلام مجرد طقوس كهنوتية ، ولا مظاهر زائفة ولا (دروشة) وتخريفا ، وجذبا وعنفا . ولكنه دين الله القويم شرعه للحياه الدنيا وللاخرى وقال فيه : (**ومن كان في هذه أعمى فهو في الآخرة أعمى وأضل سبيلا**) . انه دين الروح كما هو دين المادة ، ودين العلم والحياه ، دين الحرية الكاملة فلا خضوع الا لله وحده . دين الديمقراطية فلا حكم الا بالشورى ، قال تعالى في المؤمنين . (**وامرهم شورى بينهم**) وقال للمعصوم عن الخطأ (**وشاورهم في الامر**) . انه دين العدل المطلق قال (**ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا . اعدلوا هو أقرب للتقوى**) انه دين الكامل والاحسان (**ان الله يأمر بالعدل والاحسان**) .

ان الاسلام حرر العقول من التقليد والجمود ، وفتح قفل قوم دعوا الى الحق وتركه الجمود والى التفكير فيما يقدمون على فعله ويدعون اليه فقالوا : (**انا وجدنا آباءنا على أمة وانا على آثارهم مقتدون**) قال تعالى . (**قل أو لو جئتكم باهدى مما وجدتم عليه آباءكم**) وقال . (**أولو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولا يهتدون**) ؟ .

ان الاسلام أول دين سماوي ـ وقبل كل قانون وضعي ـ حرر المرأة من الاضطهاد والظلم واعتبرها انسانا كاملا وقال فيها (**ولهن مثل الذي عليهن بالمعروف**) ... وقال . (**للرجال نصيب مما اكتسبو وللنساء نصيب مما اكتسبن**) ... وقال فيهن رسول الله(ص):(النساء شقائق الرجال) . ان الاسلام أول قانون حمى الضعفاء من الاقوياء ، والفقراء من الاغنياء، وقرر المساواة في الحقوق والواجبات . الاسلام هو الذي قرر ـ قبل الثوره الفرنسيه . وقبل الامم المتحدة ـ أن الانسان حر في عقيدته لا يكره على تغيير دينه اذ قال الله في قرآنه . (**لا اكراه في الدين**) وقال يأمر نبيه أن يقول للكافرين : (**لكم دينكم ولي دين**) واذا امر الاسلام بقتل المرتد فلانه خائن مارق ، والخائن يقتل في كل ملة وكل امه .

ان الاسلام هو الذي أنكر أن يضطهد الانسان للونه أو جنسه أو طبقته وقرر أن الناس متساوون في الانسانيه لا فضل لاحد على الآخر باللون أو بالجنس وانما التفاضل بصالح الاعمال قال تعالى : (**يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وأنثى**

وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله اتقاكم) وقال نبيه عليه الصلاة والسلام (لا فضل لعربى على عجمى ولا لابيض على اسود الا بالتقوى) . وقد نفذ بالفعل هذه المساواه ـ والغوا كل نعرة عنصريه ـ نبيه وخلفاؤه من بعده . ألم يقتص عمر بن الخطاب للغلام القبطى النصرانى من ابن حاكم مصر والفاتح العظيم عمرو بن العاص . فمكنه من ضربه بحضور أبيه ـ وهو احد الصحابة الكبار ـ ثم قال له يا عمرو متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ؟

حسرونى أين يوجد مثل هذا العدل والنظام اليوم ، أفى الشرق أم فى الغرب ، ان الاسلام قد حل كل مشاكل الحياه ووضع حدا لكل انحطاط . وقمع كل فساد مادى او خلقى أو روحى . شهد بذلك كبار الكتاب والمفكرين من المشارقه والعربيين . القدماء والمعاصرين . وقد ترك فينا رسوله عندما مات ما ان اتمسنا به البشريه فلن نضل أبدا كتاب الله وسنته .

هذا هو الاسلام الذى عاشته أمتنا طيلة الاربعه عشر قرنا الماضية فحماها من الذوبان وصانها . ومنحها المناعه والحياه . والحصانة ضد الآفات . ودفعها الى جهاد فعال ضد كل عوامل الفناء .

بالاسلام نحن ـ فى الجزائر ـ أمه واحده ، وشعب متماسك . وجسد منيع ضد كل النيارات الغريبة الفتاكة التى تهب علينا من أعدائنا فى الداخل والخارج . انه ترياق ضد كل النزعات الجاهليه والجهوية والعنصرية . الاسلام يوحدنا ويقتل فينا نزعات الشيطان . بغير الاسلام سيكون طوائف متشاكسه . فالاسلام فى الجزائر ضرورة قومية . وصفة ـ فى الجزائرى ـ ذاتيه ، ومصلحة وطنية عليا .

واللغة العربيه لساننا القومى ، ولغة دولتنا الرسمية ، ومقوم ذاتى من مقومات شخصيتنا . فهى ـ فضلا عن كونها لغة الدين ـ لغة المعرفة والعلم والحضارة والرقى والثقافه والآداب الرفيعة . هى على كل حال لغتنا .

يستحيل ان نحقق استقلالنا الكامل ـ ونحن نتهاون بلغتنا ، ونشغلها بضرة

تغتصب حقوقها . وان بقيت السياده للغة الاجنبيه فستجد ابناءنا ومثلهم العليا ـ في الصحافة وفي الكتاب . وفي الافلام والاداب ، وفي الفن والاذاعه والتلفزة ـ هي ما يرد من وراء البحار . لا يمكن أن يضعوا الانتاج الاهلي ـ بالفرنسيه ـ مكان الانتاج الاجنبي المتفوق.فالواجب ان تكون لغتنا القومية هي لغه الثقافه والادب والعلم والفن ، كما يجب ان تكون لغة التقنيه والتكنولوجيا والعمل والخبز ، والحديث العادي . وانها للغة سامية راقيه لا تتهمها بالعجز والقصور الاعدواوجاهل اومتجاهل غرور . وانها امام مشاكل التقنيه والتكنولوجيا العصرية مثل غيرها من اللغات التي لم يرق اهلهابعدالىمكانه أمم التكنولوجيه . بل انها افضل وضعيه منهن لانها لغة مرنة غنية في باب الاشتقاق . ومن البديهي أنه لا يمكن نقل شعب كامل الى لغه علم ولكن الممكن العملي هو نقل علوم الامم ـ من كل لغة وكل امة ـ الى الشعب ، وهذا ما تفعله الامم المستقلة الموفقه .

اننا لم نجعل الاسلام في الميثاق الوطني . وفي دستورنا (دين الدولة) الرسمي لمجرد التحليه أو التزيين . أو (تركه) وتميمة فقط . انما معنى ذلك أن يكون الاسلام متغلغلا في نفوسنا ، وفي أسرتنا ومجتمعنا . كما كان منذ حين وفي كل حين .

علينا أن نحافظ على القرآن الكريم غضا طريا فينا . وان نعطي للعلوم والتربية الاسلاميه الاهمية اللائقة بهما في مدارسنا . وفي كل مراحل التعليم لابنائنا ، من مرحلة رياض الاطفال والابتدائي حتى مراحل الجامعات النهائيه.ويجب ان نعطي للتعليم الديني الحصص الكافيه ، وان تكون كل حصة منها أساسية لها اثر في التفوق والنجاح في الامتحان أو الانحطاط والرسوب . ويجب ان نسند الدراسة الى معلمين واساتذة أكفاء ملتزمين ، امناء متدينين، مستقيمين في سلوكهم ، بهذا وحده يكون أبناؤنا عارفين بالاسلام لا يخدعهم من يتحدث عنه بسوء من أعدائه أو من الجاهلين الاغبياء أمثال أولئك الذين يزعمون لهم ان الاسلام دين التخلف ، وان المتمسكين به

من الرجعيين . بل هم عنوان الرجعيه ! واعجبا ! كيف يتهم بالرجعيه دين سفه رأى الذين اذا قيل لهم (**اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما الفينا عليه آباءنا**) أو قالوا (**حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا**) فقال لهم (**او لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ـ ولا يهتدون**) ؟ وقال (**قل أو لو جئتكم بأهدى مما وجدتم عليه آباءكم**) ؟

ان حصه واحده أو حصتين فى الاسبوع او فى الشهر لا تكفى للتعريف بالاسلام لابنائنا . وخصوصا اذا كان لا اثر للمواد الدينية فى النجاح والرسوب. ان ابناءنا ينتهون من المرحلة الابتدائيه وهم لا يحفظون الا قليلا من السور القصيرة .

ان التعليم الدينى كان موجودا فى الجزائر منذ القرن الاول للهجرة ، منذ ان بعث عمر ابن عبد العزيز (99 ـ 101 هـ) الفقهاء العشره لتعليم احداثنا . ومن هذه المعاهد الدينية فى بلادنا وبجانبه ما كان بأيدى الطلبه من أوروبا . ومنها دخلت العلوم والحضاره الينا فى عصر النهضة . وقد نفت هذه المعاهد بؤدى وظيفتها العلمية حتى فى أحلك الظروف سوادا . واشدها بؤسا . وحتى أثناء الثوره كانت تقوم بواجبها. بحميها جيش التحرير . ويؤازرها بالعون والتأييد جبهه التحرير الوطنى .

ثم جاء الميثاق الوطنى فوحد التعليم . وما كان يجول بخاطر أحد ـ اثناء مناقشه الميثاق ـ أن نتيجه التوحيد هى اجهاء التعليم الاسلامى بكل سرعة . وانما كانت ارادة الجماهير ان تعمم برنامج التعليم الاصلى فى التعليم الدينى بجميع مدارس التعليم العام .

ان تصرفا غير حكيم فى كيفية تطبيق توحيد التعليم والقضاء على معاهد التعليم الاصلى بسرعة قد هدد القرآن بالاختفاء . وأصاب طائفه من أبنائنا بظلم فادح .

لقد كان الصغار من حفاظ القرآن الكريم يجدون أمامهم معاهد التعليم الاصلى تحتضنهم لتواصلوا سيرهم عاديا فى كل مراحل التعليم حتى يصلوا الى الباكلوريا ويلجوا الجامعات .

أما اليوم فانهم اذا انتهى الواحد منهم من حفظ القرآن ـ وعمره عشر سنوات أو تضع عشرة سنه ـ وحد جميع مراحل التعليم ومدارسه موصده أمامه ، ولا ذنب لهم الا انهم نذروا أنفسهم للقرآن . فالى أين يذهبون ؟ وما الذى جعله حتى توصد أمامهم معاهد التعليم ؟ وأين هى ديمقراطية التعليم ؟

ان طريقة حفظ القرآن وحده ثم الاقبال على تعلم قواعد العلوم وتحصيل المعارف من بعد هى احدى طرق التعليم قديما . وهى طريقة احتذتها المغاربة فى التعليم ـ كما ذكره ابن خلدون فى مقدمته . وتهدف الطريقة تعلم جميع علمائنا منذ القديم ، حتى عهد ابن باديس ورفاقه . وبها تعلمنا جميعا . واذا كانت مدارسنا العامة لا تستطيع تطبيقها اليوم . وبقدر عليها تحفيظ القرآن للملايين فلا تحور بحال أن تغلق أبوابها فى وجوه من نذروا أنفسهم لحفظ القرآن . ولقد كان الرئيس الراحل رحمه الله يكرمهم ، ويحضر ليله السابع والعشرين من رمضان حفل توزيع الجوائز عليهم . وأشهد انى عرضت عليه مشكلتهم ليلة 27 من رمضان 1398 هـ فتعجب من حرمانهم من مواصلة التعليم . وقال بالحرف (سنحل مشكلتهم) ولكنه لم يشأ ان يفوت صريع المرض ثم لبى نداء ربه ـ رحمه الله ـ وتركهم امانة فى أعناقكم .

وانها لمشكلة رهيبة تهدد هذه الطائفة من أبنائنا ، وتهدد القرآن ـ بالاعراض عنه ـ وتهدد الدين ذلك لانه لا يكفى أن تفتح أقسام فى الكليات والثانويات والجامعات للتعليم الدينى ، اذ لابد لعالم الدين من حفظ القرآن فهذه الاقسام الدينية اما ستبقى شاغرة لا يؤمها أحد لزهده فى دراسة ماده لم يعد لها مادتها الاساسيه ـ وهى حفظ القرآن . واما سيؤمها طلبة اخصاص وهم لا يحفظون شيئا من القرآن ، أو يحفظون قدرا لا يكفى للعالم المختص . ولا شك ان فى ذلك خطرا شديدا على الدين .

ان رئيس الدولة يقسم ـ كما فى الماده 110 من الدستور ـ بالله العظيم أن يحترم الاسلام ويمجده . كما يحترم الميثاق الوطنى والدستور . وهو بهذا القسم ملزم

بحماية الميثاق والدستور من كل عدوان . فمن البديهى ان يكون ملزما بحماية الاسلام وصيانته من كل عدوان · ولهذا يجب ان يخلى من مجتمعنا كل ما يوهن الاسلام واخلاقه فينا . وكل ما يتعارض مع قواعده واحكامه · وكل اطارات الدولة وموظفيها السامين ملزمون بما التزم به رئيس الدوله ·

اننم ـ يا أبناء جبهة التحرير ومناصليها . وبا قياده الجيش وجنوده ـ الذين وضعتم الميثاق والدستور . والزمتم رئيس الدوله بالقسم على حفظ ما جاء فيهما فالتزموا ذلك واحترموا الاسلام ومحدوه وكونوا حماته ·

ان المجلس الاسلامى الاعلى يرى من المقام بواجبه . والوفاء لمهمته أن يتقدم اليكم بالمقترحات الآتية

اولا : ادخال التعليم الاسلامى بعقائده وعباداته ومعاملاته وسلوكه ومبادئه السامية فى جميع مراحل التعليم من رياض الاطفال والابتدائى حتى النهائى فى الجامعات والمعاهد والكليات · بهذا وحده يكون أبناؤنا على معرفة كافية بدينهم ويقتنعون انه دين العلم والتقدم والرقى والحياة ·

ثانيا تعيين أقسام تخصص فى البابوات وشعب فى الجامعات للتعليم الاسلامى اسوه باقسام التخصص الاخرى . واعطاؤها كل المزايا التى تعطى لاقسام التخصص ·

ثالثا : المبادره بفتح الجامعة الاسلامية أو الكليه الاسلامية وتعيين أساتذة أكفاء مختصين وفتح فروع لذلك فى جميع الجامعات وقبول الطلبة الاجانب فيها من ابناء الاقليات الاسلامية فى افريقيا وآسيا وغيرهما ·

رابعا : العناية بحفاظ القرآن الصغار وحل مشكلتهم بما يسمح لهم بمتابعة دروسهم ·

خامسا : العناية بتحفيظ القرآن والاذن لجمعيات شعبية (جمعيات المحافظة على القرآن) بمباشرة نشاطها ومعاونتها فى أداء مهمتها ·

سادسا : اعطاء الحرية التامة للجمعيات الدينية ـ تحت اشراف وزارة الشؤون الدينية ومراقبتها ـ في انشاء المساجد وجمع التبرعات لها والغاء القوانين والقرارات التي تمنعها من اتمام مهمتها،ومنها ذلك الذي يمنعها من جمع التبرعات الا برخصة خاصة تعطى مرة واحدة وليوم واحد في السنة ·

سابعا : تكوين الائمة والعلماء تكوينا علميا كافيا يقدر بقي بحاجة الامة بعضها من النقص وفساد التوجيه وحتى لا تصل الى درجة استيراد الائمة ، و دفع أموالنا بدون صلاة ·

ثامنا زيادة الحصص المسموح بها في التلفزة والاذاعة وكل وسائل الاعلام الخاصة بالتوعية والارشاد والتوجيه الديني الصحيح بتولاها اكفاء من علماء الدين التربية وجعل حصة التلفزة الاسلامية حصة يومية ، فان المتدينين لهم حق يومي اصبح في التلفزة كما لغيرهم ·

تاسعا تحريم رواج أو عرض كل ما يهاجم الاسلام وتعظيم شعائر الله وحمايتها في كل انحاء الوطن من المسؤولين في الدولة ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدولة الذي أقسم على احترام الاسلام وتمجيده ·

عاشرا · احترام قواعد الاسلام ، وتعظيم شعائر الله وحمايتها في كل انحاء الوطن من المسؤولين في الدولة ، ومعاقبة من يستهين بها من الناس ، فان المسؤولين هم نواب رئيس الدوله الذي أقسم على احترام الاسلام وتمجيده ·

العلم القسنطيني أثناء حكم الحاج احمد باى . آخر بايات قسنطينة

د. عبد الجليل التميمي
أستاذ بكلية الآداب والعلوم الانسانية ، الجامعة التونسية

اثر سقوط (*) مدينه قسنطينة فى أكتوبر 1837 . احتل الجيش الفرنسى الغازب القصبة واهم مراكز المدينه وعمد النقيب الاول دوكس (Doxe) من جوقة الشرف الاجنبي (1) لازاحة العلم القسنطينى ذي اللون الاحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ليعوضه بالعلم الفرنسى ذى الثلاثة الوان (2) .

(*) نشرت هذه الدراسة فى المجلة التاريخية المغربية ، عدد 2 ، تونس ، 1974 . ونظرا لنشر الدكتور عبد الجليل التميمي مؤخرا كتابه باللغة الفرنسية عن . بايلك قسنطينة والحاج احمد باي 1830 ـ 1837 ، وادخاله عناصر جديدة على هذه الدراسة . فاننا ننشر النص العربى الكامل لها فى الأصالة . الكاتب.

1) DURIEUX, J. Drapeaux conquis en Algerie de 1830 a 1847, p. 98 in, Mémoires sur l'histoire de l'Algérie au XIX siècle, Paris, 1931.

2) ESQUER, G. Iconographie historique de l'Algérie depuis de XVI siècle jusqu'à 1870, t. 3. fig. 501.

لا نملك عمليا اية دراسة حول الرموز والاختام بالجزائر ، ما عدا نشر عدد من أختام دايات الجزائر ، بدون تعليق من سنة 1515 الى 1745 من طرف .

DELPHIN, G. *Histoire des Pashas d'Alger de 1515 à 1745, in,* Journal Asiatique, Janvier- mars 15 p., Paris, 1925

انظر رسم العلم المصاحب لهذه الدراسة .

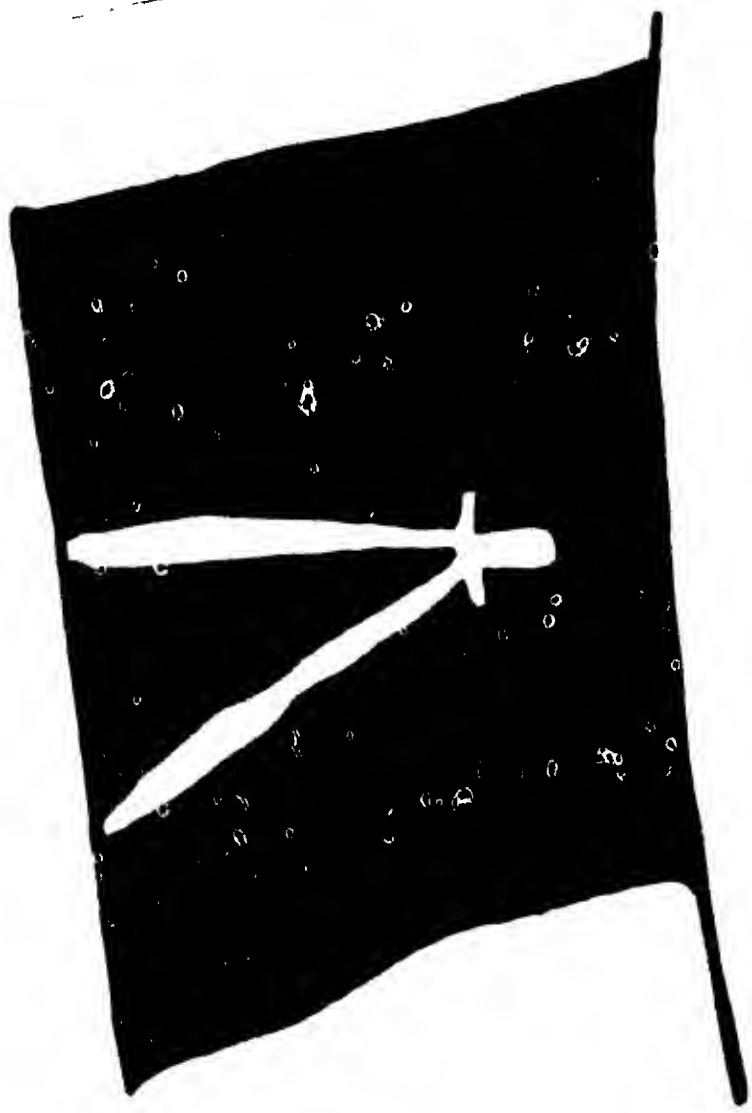

العـــلم القسنطيني

FSQUER, G Iconographie historique de l'Algérie depuis le XVI siècle jusqu'à 1870, t. II planche CCXVII, Paris, 1929

ما هو المعنى الحقيقى البعيد لرمز هذا العلم القسنطيني ؟ لشرح هاته المسألة وجب تحديد بعض النقاط حـول ظهور سيف « ذو الفقـار » واستعمال اللـون الاحمر عند المسلمين الاول ثم بعد ذلك فى الامبراطورية العثمانية وخاصة فى بلدان المغرب العربي ·

يذكر الهلال الصابي (3) ان أشهر سيوف الرسول محمد التسعة هو السيف الذى تحصل عليه الخليفة الرابع على ، وسمي سيف « ذو الفقـار » وهي التسمية الشرفية التى عـرف بهـا (4) ·

لماذا كان سيف الخليفة على ذا حدين (5) ؟

تذهب بعض الروايات الى أن هذا السيف تقلده الخليفة الرابع كعلامة اكـرام وتقدير للمعارك الحربية التى خاضها تحت لواء الاسلام ، وانه عندما استل السيف من غمده ، شق طرفه الى قسمين (6) · وتذهب رواية أخرى ان علي رضي الله عنه ، تمكن من اخراج السيف من غمده بفضل دعاء خاص ، وقيل أيضا ان هذا السيف كان ذا حد واحد عندما غرسه اعداؤه فى العمد ، غير ان عليا قسم طرفه الى حدين عندما استله منه (7) · وقد أصبح سيف « ذو الفقار » معظما فى الاسـلام ورمزا عاليا للحرب والجهـاد (8) ·

(3) هلال الصابى الذي اسلم ، كان احد كبار الكتاب العرب فى القرن الثاني ، راجع سامى ، شمس الدين ، قاموس الاعلام ، ج 6 ، ص 4743 ، استانبول ، 1893 ·

4) HUGON Henri les emblèmes des Beys de Tunis, étude sur les signes de l'autonomie Husseinite, p. 62, Paris, 1913

5) JAMMES René, couleurs, symboles et drapeaux du monde arabe p. 32, étude dactylographiée en 1955. in, Archives Nationales d'Outre-Mer à Aix-en-Provence, 8 X 244

6) HUGON, op. cit, p. 62 · قدم هذا الشرح المرحوم حسن حسنى عبد الوهاب

(7) المصدر نفسه ، ص 63 ·

(8) المصدر السابق ، مـا زال سيف على حتى يومنا هذا مقدسا لدى الشيعة فى الكوفة وكربلاء فى العراق وايران ، حيث نلاحظ سيف « ذو الفقار » مع كل رسـم للخليفة علي ، ويذكر هوقون ، ان نعت « ضربة سيف سيدنا علي » التى أطلق على شق عمودى لصخرة بحمام الانف بتونس ، تبين بوضوح أن أسطورة فضائل سيـف « ذو الفقار » ما زالت منذ زمن بعيد ، حية وعالقة بالاذهان فى ولاية تونس ·

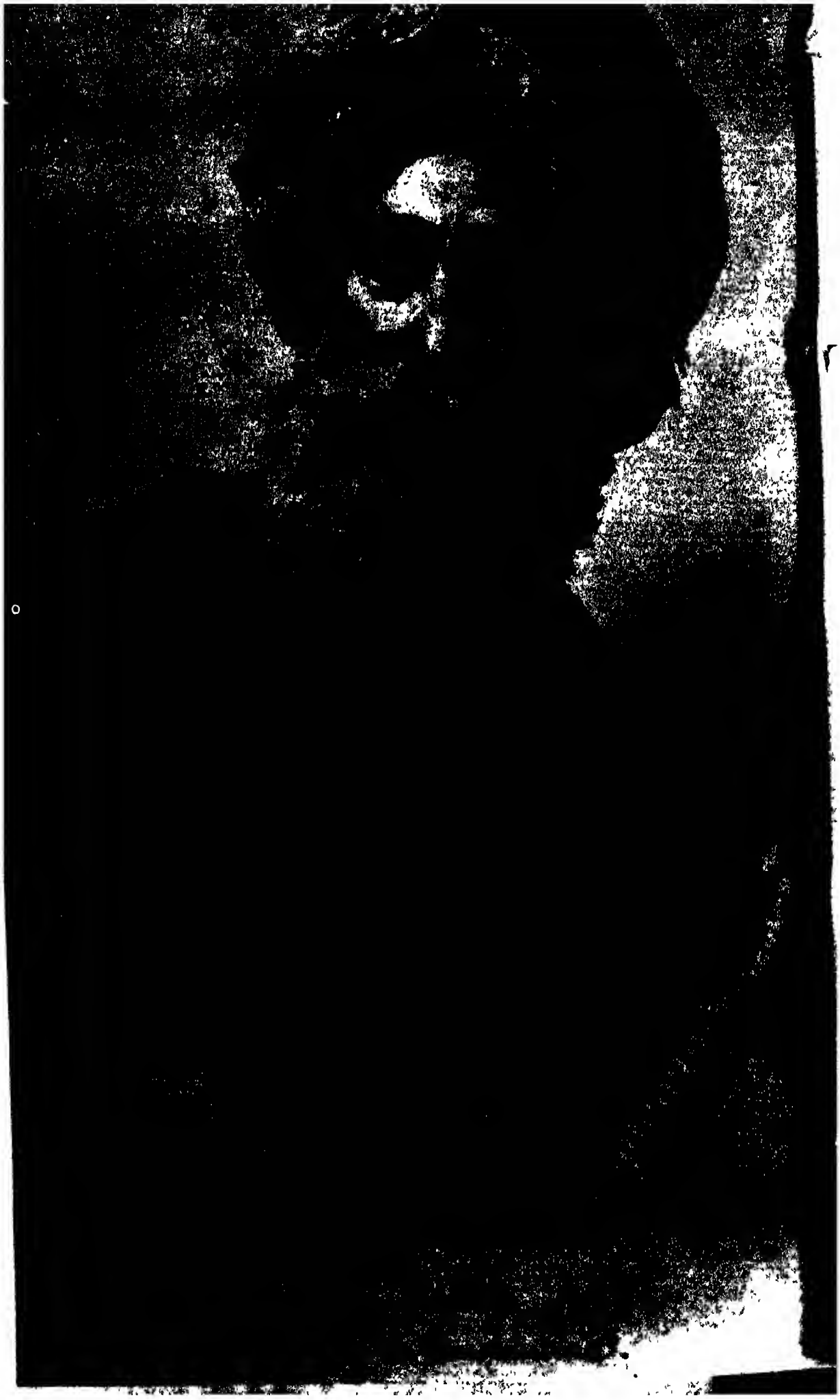

اختار الخليفة عمر والعثمانيون اللـــون الاحمر • وكانت اعلام الصبائحيين فى الامبراطورية العثمانية منذ القرن السادس عشر حمراء (9) • اما السلطان سليم الاول فقد استعمل الاعلام دات اللون الاحمر والابيض عندما فتح مصر سنة 1517 (10) •

وفى القرن السادس عشر ، احتد الصراع بين الامبراطورتين العثمانية والاسبانية وتعددت الحملات البحرية على دول المغرب فى البحر الابيض المتوسط واكتست بطابع ديني ، وقد نشط خير الدين دربروس فى انقاذ مسلمي الاندلس والدفاع عن الساحل المغربي ، ولاكساء هذه الحروب بطابع الجهاد الدينى والدفاع عن المسلمين ضـــد « المشركين » تبنى علما أخضر يتخلله سيف « ذو الفقار » (11) • وكذلك درغوث باشا الذى دافع عن جزيرة جربة ضد الاسطول الاسباني سنة 1560 ، استعمل علما أخضر (12)

أما فى معركة سلنكمان Slankomen على ضفتى الدانوب سنة 1691 والتى تقـابل فيها حلف أود سبورغ (d'Andebourg) صد العتمانيين ، خسـر هؤلاء المعـركة وانسحبوا من الميدان ، وقد استولى الجيش المنتصر على علم تركي يتخلله هـــلال ومنجل والحقيقة هو سيف « ذو الفقار » (13) •

أما السلطان سليم الثالث (1789 ــ 1807) ، فقد ارسل ، عندما استرجع مصر من الفرنسيين ، علما أحمر يتحلله سيف « ذو الفقار » وآمر برفعه على قلعـة الاسكندرية (14) ، مبررا بهذا الاختيار معنى الدفاع عن المسلمين ضد « المشركين » •

وفى الساحات العسكرية العتمانية ، نلاحظ ان كل فيلق له عـــلم ، نصفه أحمر والنصف الآخر أصفر يتخللهما سيف ذو الفقار (15) • وبذلك نرى كيف ان العثمانيين

---

9) KOPROLU, Fuad, Bayrak, in, Islam Ansiklopedisi

(الاعلام) المنشورة فى دائرة المعارف الاسلامية (باللغة التركية) ج 2 ، ص 417 ، استانبول ، 1942 •

(10) المصدر نفسه ، قارن أيضا

ETTINGHAUSEN, Hilal, in, Encyclopédie de l'Islam, nouvelle édition, t. 3, p. 396.

يذكر ان علم سليم الثالث هو عبارة عن منجل ذى اطراف متباعدة ، وتوجد بعض الكتابات القرآنية

(11) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص 417 ، ج 2 • راجع رسم هذا العلم بمجلة Turk Kulturu ص 118 ، عدد 117 ، جويلية/تموز ، 1972 ، انقرة ، 1972 •

12) Eltore Rossi, Storia di Tripoli Tripolitania dalla conquista arabe al 1911, p. 150, Roma 1968.

31) ETTINGHAUSEN, op. cit., p. 396.

(14) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 •

51) N. Weisseman, les Janissaires, p 48, Paris, 1964

والبحارة المغاربة قد عمموا استعمال العلم الاحمر الذى يتخلله سيف «ذو الفقار» فى سواحل البحر الابيض المتوسط لافريقيا · وفى القرن الثامن عشر ، كان علم الجزائر سيف « ذو الفقار » (16) ·

احمر يتخلله مقص أبيض مفتوح أو علم أحمر يتخلله رأس جمجمة أو ذراع عار يحمل

اما فى تونس . فهي الاخرى قد تبنت العلم الاحمر وسيف « ذو الفقار » ، وقد رفع هذا العلم على بواخر الباي محمود الحربية (1814 ـ 1824) (17) · وعندما احتلت قلعة الامبراطور بالجزائر يوم 4 حويلية 1830 ، انزل النقيب قوفروا (Gouvroy) العلم الاحمر الذى يرفرف على القلعة (18) · أما ابراهيم باي ، احد بايات قسنطينة ، فقد رفع علما أحمر ذا نصف هلال على قلعة عنابة يوم دخل قصبتها سرا واستولى عليها يوم 26 سبتمبر 1826 (19) · وشبخ الحنانشة كان يتمتع هو الآخر بامتياز رفع الاعلام والموسيقيين لخدمته (20) ·

أما المسير أحمد باشا ، باي تونس (1837 ـ 1855) المعاصر للحاج أحمد باى قسنطينة ، والذى كان يجرى وراء كل ما يكسبه العظمة والهيبة ، فقد قرر ان يصنع العائلة الحسينية تحت الشعارات الاسلامية عندما اتخذ للولاية علما أحمر يتحلله سيف « ذو الفقار » راهعا اياه على المحمدية واهم البنايات الحكومية (21) ·

ان بايلك قسنطينة الذى كان جزءا تابعا للحفصيين ، لم يفتأ خاضعا للتأثيرات الثقافية الواردة عليه من ولاية تونس . فزيارات القسنطينيين الى مدينة تونس كانت أكثر ترددا منها على مدينة الجزائر ، ثم استمرار القسنطينيين على التعلم بجامع الزيتونة وكذلك الحج الى بيت الله ، كان يتم عادة عن طريق تونس ، وأخيرا العلاقات

(16) كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ج 2 ، ص 417 ·

71) HUGON, op cit., p. 63 قارن أيضا ، كوبرولو ، فؤاد ، نفس المصدر ، ص 418 ـ 419 ويذكر انه فى أواخر عهد الانكشاريين فى مركز الامبراطورية العثمانية كان هؤلاء يستعملون الاعلام الحمراء والبيضاء والملونة يتخللها سيف ذى الفقار (كذا)

81) DURIEUX, op cit., p 92.

(19) أرشيف وزارة الخارجية الفرنسية بباريس ، المراسلات السياسية ، تونس ملف رقم 1 ، رسالة دى ليسبس DE Lesseps قنصل فرنسا بتونس ، الى وزير خارجية فرنسا بتاريخ 14 أكتوبر 1831 ·

(20) أرشيف الحربية الفرنسية بفنسان (Vincennes) H 228 تقرير عن ولاية قسنطينة ·

21) HUGON, op cit., p 64

التجارية (22) التي عرفت نشاطا ملحوظا بعد احتلال الجزائر وعنابة ، كل هذه العوامل ساعدت على خلق اتصالات مفيدة مع التونسيين وجعلت القسنطينيين يعملون دوما على معرفة وتتبع الجديد في تونس ·

ومن جهة أخرى ، كانت المدارس تقوم بدور حساس لهذا الاشعاع الثقافي والذي لم يبارح شهرته احد وحيث ان سمعة علماء واساتذة قسنطينة كانت تجلب عددا كبيرا من الشباب الجاد (23) · ان هذه النخبة القسنطينية التي كسبت ثقافة اسلامية عميقة ، ارتبطت وتعلقت بمبادىء الاسلام والسنة وعملت مع الحاج أحمد باي ، آخر بايات قسنطينة على العمل بكل أوامر الاسلام ومحاربة « اعداء الدين » الذين احتلوا مدينة الجزائر وعنابة وعددا آخر من مدن الساحل الجزائرية · يكتب الحاج أحمد الى كاهية الكاف ، بعد احتلال قسنطينة « بحمد اسلام ومتكئين عليه وانا واقف في باب الجهاد » ·

وعلى هذا الاساس اختار الحاج أحمد باي بالتعاون مع المجموعة القسنطينية علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ، وان الحاج أحمد قد طلب الى احد التجار اليهود أن يطرز له علما بترنس (25) ، وهو العلم الذي يؤكد كلوزال (Clauzel) القائد الفرنسي الذي قدم مهاجما على قسنطينة ، انه رأى علما احمرا (كذا) مرفرفا على القصبة (26) ·

وقد استعمل جيش الحاج أحمد باي الاعلام ورايات الحرب مصحوبة بجوقة

---

22) Tableau de la situation des établissements français dans l'Algérie en 1840, p 364, Paris 1841

يذكر ان قسنطينة كانت تستورد عن طريق تونس من الشرق البضائع التالية : الاقمشة الثمينة من استنابول والزرابي من آسيا الوسطى والحرير من سوريا والقهوة من مصر ·

23) NOUSCHI, André, Constantine à la veille de la conquête française, p. 385, in, Les cahiers de Tunisie, N° 11, 1955.

(24) أرشيف الدولة التونسية ، ملف رقم 384 ، صندوق 223 ، وثيقة رقم 23 ، وهي عبارة عن رسالة موجهة الى صالح بن محمد ، بدون تاريخ ·

(25) أرشيف الحربية الفرنسية رقم H 226 تقرير محرر من طرف روسو بتاريخ 20 ـ 7 ـ 1836 ، ص 14 ·

26) G. ESQUER, correspondance de M. Clauzel, t. 2, p. 296.

رسالة من كلوزال الى وزير الحربية الفرنسي بتاريخ 2 ـ 12 ـ 1836 ·

الموسيقى (27) · وقبيل الحملة الفرنسية الثانية على قسنطينة ، كان الحاج أحمد باي يعلن يوميا انه وجب الدفاع عن المدينة ، وان الفرنسيين اذا نجحوا فى احتلالها ، فان الاهالى سوف يحرمون من بايهم وعلمهم (28) ·

وفى القصر الذى بناه الحاج أحمد (29) كانت رسوم الاعلام التى تزين المبانى مبثوثة على القلاع وذات أحجام كبيرة جدا (30) ·

لم يكن اختيار الحاج أحمد والمجموعة القسنطينية لعلمهم محض صدفة ، اذ هو يعكس الرغبة الروحية والدينية لعدد من القادة المسلمين الورعين والعاملين بمبادىء الاسلام لادارة شؤون شعوبهم · عير انه لا يعيب عنا أيضا ان شرح بعض الاتجاهات الدينية فى الاعلام كسيف « ذو الفقار » مثلا ، يمثل بالنسبة لعموم الشعب ، الصدق والمثل العليا والطريق السوى الذى يجب سلوكه ·

ان الحاج أحمد خلال حكمه فى بايلك قسنطينة من 1826 الى 1837 ، قد حارب التوسع الفرنسى فى ولاية الجزائر ورفض رفضا قطعيا التفاهم أو التراضى مع الفرنسيين ، وفى نفس الوقت اتبع تعاليم الدين الاسلامى بحذافيرها · وقد اعتبر الحاج أحمد نفسه والمجموعة الاسلامية القسنطينية فى حالة جهاد « ضد الفرنسيين » وعليه احتاروا علما أحمر يتخلله سيف « ذو الفقار » ·

ان العلم القسنطيني الذي يتحلله سيف « ذو الفقار » يرمز اذن الى معنى الجهاد ضد « الكفار » والى الايمان العميق بالدين الاسلامي وبمبادئه ويذكر بالانتصارات الحربية للخليفة على وللمسلمين ضد « أعداء الدين » ·

ان وضع الباي الحاج أحمد السياسى وردود فعل المجموعة القسنطينية بعد احتلال الجزائر وقرار الحكومة الفرنسية باحتلال كل الولاية يؤيد بكل وضوح سبب هذا الاختيار الديني بادىء الامر ثم السياسى بعد ذلك لعلم بايلك قسنطينة أثناء حكم الحاج أحمد باشا باي ·

27) M Bonnafont, Douze ans en Algerie p 241

28) G Yver, correspondance du G Damrémont, p 431.

رسالة من المدنى الى الجنرال راباتال (Rapatel) بتاريخ 20 – 3 – 1837 ·

29) Feraud, « Monographie du Palais de Constantine » in, Recueil des notices et memoires de la societe archeologique de Constantine, 1867, pp 1-96

(30) المصدر نفسه ·

مـواقف العائـــلات الارستوقراطيـــة من محمد المقراني وثـورتـــه

وأحـداث اخرى من خـــلال الوثائـق عن ثـــورة 1871

د. يحـيى بوعزيز
معهد العلوم الاجتماعيـة
دائرة التاريخ
جامعة وهـران

عندما تفاقمت مشاكل المقراني ، وتدهورت أوضاعه السياسية والادارية ، وبدأ يفكـر فى الثورة المسلحة ، عمل على تقوية صفه ، بتمتين علاقاته مع رؤساء العائلات الكبيرة فى عدة جهات من البلاد من مليانة غربا الـى الحدود التونسية شرقا ، وشرع فى ذلك منذ أواخر عام 1870 ، وتحمس أكثر بعد صدور نداء كريميو للجزائريين فى جانفي 1871 .

ففى شهر أكتوبر عام 1870 مر بمدينة سور الغزلان عائدا من الجزائر العاصمة ، فاستضافه الآغا يحيى بن فرحات لمدة ثلاثة أيام ، اتصل خلالها بعدد كبير من الشخصيات الهامة وشرح لهم الوضع العام بالجزائر العاصمة وحكى لهم عن تهجمات الصحافة والاوروبيين ضد الجزائريين ، وحاول أن يتعرف على ميولهم فى نفس الوقت ، فتحمس

لافكاره محمد بن شناف وأخوه سليمان ، وتردد الآغا يحيى وتحذر (1) ·

وفور عودته الى مجانة أخذ يوسع اتصالاته ، وأرسل عددا من المبعوثين الى جهات كثيرة من ولايتي الجزائر وقسنطينة (2) · وقد ادعى بوسنر بأن المقراني اقترح على رؤساء العائلات الذين وجه اليهم مبعوثين ، أن يتحدوا معه لتأسيس جبهة قوية لمقاومة النظام المدني ، وحماية سلطاتهم وامتيازاتهم ، فاستجاب له البعض ، وتحفظ البعض ، بينما أبلغ آخرون الامر الى السلطات الفرنسية (3) · وروى ميرسيي بأن المقراني وجه ابن عمه السعيد بن بوداود قائد الحضنة ، مع الشيخ جنان بن دري ، الى بوسعادة لتشبيط الناس ومنعهم من التجند فى صفوف القوات الفرنسية التى كانت تجهز للحرب بأوروبا ، ونجحا فى مسعاهما (4) ، وتذهب بعض الروايات الى أن المقراني كان يتوفر على حوالى تسعمائة مخبر من بني عباس ، يقطنون بالمدن الساحلية ، ويزودونه بانتظام بالاخبار والمعلومات الكافية عن الاوضاع (5) ·

وهو ما أكده فلاح من بنى عباس لأحد المحررين الفرنسيين بعد الثورة حيث ذكر الباشاغا كانت تترجم له بانتظام البرقيات التى ترد عليه من فرنسا والجزائر حول احداث الحرب ، وكان يقرؤها هو على الناس ويشرحها لهم ، ونقل عنه بانه قال لهم فى احدى المرات « ان كل البسكرية والبرانية بالجزائر العاصمة لا ينتظرون الا يوم العيد (6) للقيام بنزع سلاح اليهود ، وأن أصدقائى المخلصين لى هم الذين أكدوا لى ذلك ، واتفقوا معي على ضرورة القيام بالثورة ومنهم اغا مليانة سليمان بن صيام الذي قال لي . كن رجلا وسيطر على المنطقة الشرقية من البلاد ، فى حين أسيطر انا على المنطقة الغربية الى تلمسان · وكذلك أولاد أوفاسى ، وأولاد رعموم ، وأولاد محيى الدين ، وباشاغا تيطري ، وكبار الغرازلة ، الذين كاتبتهم جميعا ، وأجابوني بالموافقة على رأيى » (7) ٥

1) Le Colonel N. ROBIN · L'Insurrection de la grande Kabylie en 1876 (Paris 1901) pp. 85 - 87.

2) LOUIS RINN Histoire de l'insurrection de 1871 en Algérie .Alger - 1891) pp 79 - 86

3) POSENER . Adolphe Cremieux . grand citoyen français, grand défenseur au judaisme. Essai biographie (Paris - 1939) pp. 21 - 22.

4) ERNEST MERCIER : Le Bachaga Mokrani et les causes de l'instrrection de 1871 (Paris 1900) pp. 18 - 19.

5) V° Histoire de l'insurrection. Revue africaine (1871) pp. 29 - 83 et 374.

6) لعله يشير الى عيد الاضحى لعام 1287 (1871) الذى أشيع فيه بأن الجزائريين سيهجمون فيه على مدينة برج بوعريريج ، وكذلك العاصمة ، مما دفع سلطات سطيف الى تكليف الضابط دو شيرون بحفظ الامن فى البرج والاستعداد للطوارىء ·

7) RINN . deux documents indigenes sur l'insurrection de 1871. Revus africaine (Alger 1891) pp 28 - 36.

وقد احتفظ المقراني لنفسه بالدعـــوة لدحرب في غرب عمالة قسنطينة وكلف أخاه بومزراق في منطقة ونوغة وسور الغزلان ، وصهره وابن عمـــه السعيد بن بوداود في منطقة الحضنة وبوسعادة وأولاد نايل الجلفة جنوب شرق سور الغزلان · وكانت لعائلته صلات قوية بسكان التيطري وسور الغزلان . وونوغة . والشرفة ، وأولاد سيدي ابراهيم · وهي كلها مناطق اغلبها كانت تابعة لمنطقة عمله أو مجاورة لها ، وله فيها انصار واتباع كثـيرون (8) ·

وعندما استقر المقراني في جبل مريسان شمال مجانة بعد فشله في السيطرة على مدينة البرج ، شرع في مكاتبة هذه الشخصيات من أجل استمالتها واقناعها بالثورة وحمل السلاح مثله · ومن ضمن هؤلاء شيخ بوجليل البشير بن كابه (9) · وقد أورد رين ترجمة رسالتين له وجههما في اليوم الموالي لاعلانه للثورة . الى كل من باشاغا تيطري بن يحيى بن عيسى ، وقائد قواد أولاد مختار الشراقة ببوغار ، والمدية ، على ابن عبد الرحمن ، احاطهما علما بانه فتح أبواب الجهاد في سبيل الله ، وطلب منهما الا يضيعا هذه الفرصة ، بعد أن تحسر على ضياع حياته وحياتهم هباء في السابق · كمـا أورد رين رسالتين للسعيد بن بوداود قـائد الحضنة وجههما باسم الباشاغا ، احداهما الى علي بن عبد الرحمن قائد أولاد مختار ، والثانية الى باشاغا الجلفة وأولاد نايل بلقاسم بللحرش ، وأخبرهما بثورة المقراني وحصاره لمدينة البرج ، وثورة الناس في كل الجهات من قسنطينة الى سور الغزلان وبوسعادة (10) ·

ورغم أننا لم نعثر في الاشيفات ، على كل رسائل المقراني الا انه يمكن القول أن ثورته كان لها صدى وتاثير في المنطقة الشرقية جنوب مدينة قسنطينة ، وهو ما أشار اليه هو قبل مقتله بايـام قليلة في رسالته الى محمد بن منصور قـائد أولاد بليـل في البويرة ، بعد الصدام الذي حصل حول تلك المدينة ، حيث قال : « وكيف يا عجب من سطيف الى بجاية والساحل جميعا ، ومن باتنة الى عندكم » جميعا حملوا السـلاح وبقيتم أنتم مرادنا منكم تكونوا في عون المسلمين » (11) ·

وقد ادعى رين بأن السلطات الفرنسية عثرت على رسالة للمقراني بمجانة موجهة للكبلوتي ، ولكنه شك في صحتها لانها غير موقعة · وغير مختومة بطـابع الباشاغا

8) ROBIN : pp. 102 - 106.
9) A. M. G. carton : H. 375.
10) RINN : Histoire pp. 190 - 192.
11) A. M. G. carton H. 191 dossier n° 11 lettres arabes.

الذي يعتد بنفسه ولا يتنازل لمراسلة شخص هو «قاطع طريق» حسب رأيي رين طبعا (12) .

غير اننا عثرنا في أرشيف تونس على رسـالة للمسمي احمد بن حميدة بمنطقة الحدود وجهها الى الوزير التونسي خير الدين ذكر فيها . « أن الكبلوتي لا زال يكاتب في أهل الغرب على أنهم يعملون معه فيما يفعل من الفساد » ، وأنه : « قد قيل انه كاتبه بن آغا وبن حداد بعمالة الاجانب وجرت بينهم المكاتب في ذلك ولعله يتم لهم ما ذكر» (13).

وعثرنا في أرشيف قسنطينة على رسالتين لمحمود باش تارزي قائد أولاد سلطان ، وجههما للكابيتان لويس ريـن ، أخبـره في الاولى بوصول أخبـار ثورة المقراني الى المنطقة عن طريق المسافرين من سطيف وغيرها · وأخبره في الثانية بأن سكان عرش أولاد سلطان ثاروا « وعزموا على فعـل الفساد ليحملوا العرش كلـه على النفـاق » بزعامة رجلين من أولاد رحاب هما : سليمان بن علي بن عيسى ، وسحنون بن الغضبان بعد أن وصلتهم أخبار ثورة المقراني والحداد ، وتواطأ معهم كبـار الناس ، وعقدوا اجتماعا في مكان يدعى : « عين البطمة » في جبال أولاد رحاب وأولاد سلطان ، وكانوا « حوالى مائتين من الرجال » (14) ·

ولم يكتف المقراني بمراسلة رؤساء العائلات الجزائرية فقط ، بل انه كاتب صديقه ومقرضه القديم : مسرين ، وشكاله من الضابط بونفالى الذي يضايقه ويؤلب عليـه الصفوف ، ويثير ضده أبناء عمومته من أولاد عبد السلام حتى « لم يبق أمامه سـوى الثورة ، وأكد له بأنه سيضع أنف بونفالي في الرغام ، وأنه : « سيموت حارا ولـن يمـوت بـاردا » (15) ·

---

12) RINN : Histoire pp. 186 - 190.

13) أ· ج· ت· صندوق 212 ملف 240 وثيقة رقم 28 بتاريخ 14 جمادى الاولى 1288 (أوت 1871) · وقد عبر عـن الجزائر بعمالة الاجانب ، واكتفى بذكـر بن آغـه كلقب للمقراني ، وبن حداد كلقب للشيخ الحداد · راجع نص هذه الرسالة في مقالنا بعنوان : مواقف الرسميين التونسيين من ثورة الصبايحية والكبلوتي في منطقة الحدود الشرقية عام 1871 ، الاصالة عدد 61/60 · (الجزائر ـ أوت ـ سبتمبر 1978) ص 157 ـ 202 ·

14) أ· و· ق· ملف سماع الشهود (عام 1871) · رسالة رقم 4 بتاريخ 2 أبريل 1871 ردا على رسالة 27 مارس · ورسالة رقم 7 بتاريخ 18 أبريل 1871 · وعن هذا الموضوع أنظر دراستنا بعنوان : دور الاخوان الرحمانيين في ثورة 1871 بمنطقة باتنة ، وأثـر المقراني والحداد فيها ، مجلة الثقافة ، عدد 38 (الجزائر ـ أبريل ـ ماي 1977) · ص 11 ـ 27 o

15) RINN : Histoire pp. 163 - 165.

وقد أورد الآغا بوزيد فى رسالته الى حاكم دائرة سور الغزلان ، كيف كان المقراني وأخوه بومرزاق يحاولان استمالة الناس الى الثورة بواسطة الرسائل والمبعوثين فى كل الجهات بالمونوغة ، والشرفة ، وواد البرد ، وبني يعلى ، والقصر ، وبني مـدور ، ومـعـدالة ، وتيطري ، وسور الغزلان ، وغيرها (16) ·

بهذا الاسلوب حاول المقراني أن يدعم جبهته ولكن بدون طائل لان معظـم الذين اتصل بهم وراسلهم رفضوا الاستجابة له · فاولاد بن قانة بالصحراء الشرقية أعلنوا معارضتهم له ولثورته فى رسالة وجهوها الى روستان بقسنطينة يوم 18 مارس وأكدوا فيها استعدادهم لمحاربة المقراني الذي وصفوه « بالمجنون » (17) ·

وفعل مثلهم محمد بن هني بـن بوضياف قـائد صحاري بسكرة فى رسالته الى روستان كذلك يوم 21 مارس (18) ، وسلم باشاغا تيطري رسالة المقراني الى الحـاكم الاعلى الفرنسي فى المنطقـة ، وقاد على بن عبد الرحمن حامل الرسالة الى رئيس المكتب العـربي هنـاك ·

وحتى وجهاء قسنطينة الذين نعتوا أنفسهم « بالحضريين » وجهوا أيضا ، حسـب المصادر الفرنسية ، رسالة تاييد الى نائب الاميران الكونت دوقيدون يوم 29 أبـريل استنكروا فيها أعمال المقراني واخوان الحداد الرحمانيين الذين نعتوهم «بالبدويين» المحبين للتخريب وسفك الدماء ، والمعاديين للخير والفلاح ، وطالبوا بانزال العقوبات القاسية صدهم (19) ·

تاريخ الرسالة 10 محرم 1288 (1 أبريل 1871) ·

16) A. M. G. carton H. 375.

17) جريدة المبشر ، عدد 745 (6 أبريل 1871) ·

18) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 21 ابريل 1871 ·

19) لم نعثر على هذه الرسالة ، ولكن رين أورد ترجمة لها فى تاريخه (ص 214 ـ 215) · وكان من بين الموقعين عليها : أعضاء المجلس البلدي الثلاثة لمـدينة قسنطينة وهم : علاوة بن الساسي ، وحموده بن الشيخ ، ومحمد بن باديس ، وقاض المدينة محمد ابن عزوز ، وقاض الضاحية المكي بن باديس ، والمفتى الحنفى سليمان بن سـاردو ، والمفتى المالكي الطيب وادفال ، والنائب الثانى فى المحكمة الابتدائية الاولى الحـاج الصغير بن كوجيك ·

على أن المقراني ، وان فشل فى استمالة رؤساء العائلات الاوروستقراطية اليه ، نه نجح فى استمالة الشيخ الحداد اليه باتباعه ، وهو مكسب هائل عوضه كل مـــا ده فى الآخرين من تأييد نظرا للنفوذ الواسع الذي كان له على سكان جبال : جرجرة البابور ، والبيبان ، وحوض وادي الصومام ، ووادي الساحل ·

المـدخل الى الوثائق :

وثائقنا فى هذه الدراسة ثلاثـة عشر رسالة ، الثلاثة الاولى نشـرت فى جـريدة لبشر خلال القرن الماضي ، والعشرة الاخيرة لم تنشر أصلا · وأحداث هذه الرسائل تنوعة ، ولكنها تتصل كلها بمشاكل ثورة 1871 ·

الاولى : نداء أدولف كريميو اليهودي ، وزير العدل ، والمكلف بشؤون الجزائر فى حكومة الدفاع الوطني الفرنسية بتور فى بوردو ، الى سكان الجزائر حاول فيـــه أن برر لهم الاسباب التى دفعت حكومة الجمهورية الفرنسية الى احداث تغيير فى النظام لمطبق فى الجزائر ، ويقصد بذلك قرارات 24 أكتوبر 1870 التى نصـت على الغـــاء لنظام العسكري ، والمكاتب العربية ، واقامة نظام مدني ، وتجنيس يهود الجزائر بصورة جماعية ، وحتى يقنعهم بآرائه أكد لهم « أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو يصال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مـــع استقامة أحوالهم فلذلك عزمت على تبديل القواعد الماضية والسياسية الجارية بما هو أحسن منها فى انتظام أحـوال لعامة » واعترف لهم بأن « هذه الدولة الجمهورية لا تنسى على مر الزمن خصـــال لمسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا وبذل نفوسهم فى نصرة جيشنا ، وقتال عدونـــا » ووعدهم بأن تملك لهم الدولة الاراضى التى يعملون بها بصورة مطلقة على عكس حكومة الامبراطور التى وعدت بذلك ولم تنجز » (20) ·

الثانية : رسالة أولاد بن قانة الى روستان بقسنطينة أكدوا له فيها بانهم كانوا أول من خدم الدولة الفرنسية منذ عام 1838 ، وسيبقون كذلك ، وأبلغوه بانهم سمعوا بأن ، محمد بن أحمد المقراني نافق » ضد الدولة ، « فما هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون (كذا) منه ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية » وطلبوا فى الاخير نجدة من العساكر حتى يضمنوا أمن بسكرة (21) ·

---

20) صدر النداء بتاريخ 14 جانفى 1871 ونشرته المبشر فى عـدد 735 بتاريخ 21 جانـفى 1871 ·

21) المبشر ، عدد 745 بتاريخ 6 أبريل 1871 ·

الثالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة الى روستان بقسنطينة ذكر له فيها · « اننا سمعنا بباش اغا مجانة محمد بن أحمد خاب ظنه وخسر عمله مع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها » . وأكد له بأنه هو واخوانه يضعون انفسهم تحت تصرفه « لخدمة الدولة الحميدة » و « لقتال من حاربها » ، وانه خدم فرنسا باخلاص منذ ثلاثين عاما دون تبديل أو تغيير ، وساسة فرنسا يعرفون ذلك (22) ·

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي أخبره فيها عن سرقة فرس لاحد الضباط الفرنسيين ، فى نفس الليلة التى اجتمع فيها عدد من القواد الذين حضروا من عمالة الجزائر ، لدى القائد عيسى بن العربي · وذكره بأن الاخير قبض على عدد من الناس يتجرون فى البارود ثم أطلق سراحهم (23) .

الخامسة : رسالة السعيد بن علي أوعيسى الى الجنرال لالمان ، حول الاسرى الاوروبيين الذي اسروا فى احداث قرية بني هيني التى سماها الفرنسيون باليسترو ، وتسمى الآن بقرية الاخضرية · وقد اخبره فيها بأنه اتصل برسالته التى طلب منه فيها أن يحصر الاسرى اليه واعتذر له بقوله : « وفى هذه الساعة لا نطيق نأتيك بهم نخاف عليهم واغتنم الفرصة فطلب منه الامان لنفسه ولقائد حرشاوة أحمد ابن عيسى وأوضح له بان : « عدد الفرانسويين الذين عندى احدى وأربعون نفسا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (24) مسيو أجى واثنى عشر صبيا وأربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت » (25) ·

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكان دائرة دلس يدعوهم فيها الى الاستسلام ، وقد أوضح لهم قائلا : « قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق » وقالوا لكم بانه يمكن ان تسيطروا على المدن التى يقطن بها الاوروبيون · وأكد لهم بأن عكس ذلك هو الصحيح لان فرنسا تملك الاسلحة والعساكر بكثرة ، ودعاهم أن يتبصروا ، وأن يبقوا أصدقاء للامة الفرنسية (26) ·

السابعة : رسالة القائد الهادى الى حاكم المكتب العربى بدللس أخبره بأنه اتصل بخبر من المدعو (الطاهر أوجيوة) يفيد أن الثوار سيقومون بهجوم واسع صباح غد

22) نفس المصدر ، عدد 746 بتاريخ 13 أبريل 1871 ·

23) A. M. G. carton H. 375 documents provenant du colonel Robin.

24) أي ضابط الهندسة العسكرية ·

25) A. M. G. carton H. 375.

26) A. M. G. carton H. 375.

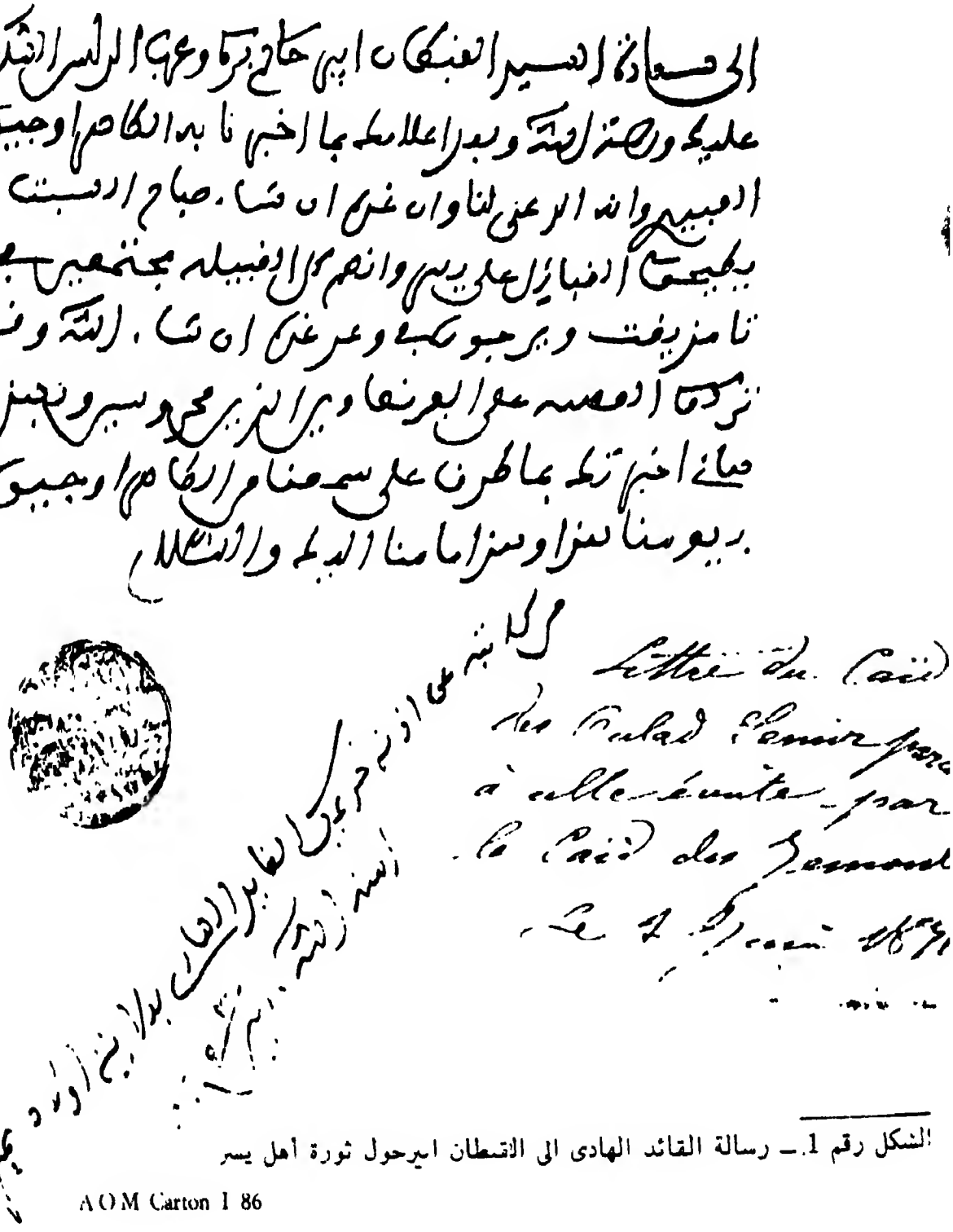

الشكل رقم 1 ـ رسالة القائد الهادى الى القبطان ايرحول ثورة أهل يسر

A O M Carton I 86

السبت على قرية يسر ، وانهم كلهم الآن مجتمعين فى تامزيغت فى انتظار الغد · وأخبره كذلك بانهم تركوا الحراسة على الفرنسيين المحاصرين دون أن يدكر أين (27) ·

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز طلب منه فيها أن يقرأ الرسالة المرفوقة بهذه الرسالة والتى كتبها له بالفرنسية رئيس الكتيبة التى كانت مرابطة بواد أخريص · والتى مفادها انه شارك فى مقاومة بومزراق ورجاله عندما حاول أن يهاجم برج هذا الوادى · وتمادى بعد ذلك فى خدمة السلطات الفرنسية . واشترك فى معركة (السروج) فى نفس المنطقة ضد بومزراق ورجاله ، وبعد عودته وجد منزله ومنزل أخيه أبى زيد الحاج عيسى عدن واد أخريص قد هاجمهما الثوار ، وأخذوا أثاثهما بحضور الضابط الفرنسى الذى كان يعمل معه ، وبشهادته · ومن أجل هذا طلب منه «ن يمنحه وظيفة أو نيشانا « لان كثيرا من الناس الدين خدموا الدولة الفرنصاوية كمثلي سمعت انك انعمت عليهم بنواشين (كذا) أو بواضايف (كذا) » ، وبرر لة ذلك بان عرشه يكرهه ولا يقبله بسبب خدماته للفرنسيين (28) ·

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد علي بن داود كتبها قائد فرقة الحضنة بمعسكر المسلية على لسانهم ، حررت هذه الشهادة يوم 9 أكتوبر 1871 ، ونصت على أن أولاد داود طلبوا الدخول تحت الطاعة ، وهم ينتمون الى منطقة سور الغزلان · وقبل قائد الفرقة العسكرية طلبهم بعد أن دفعوا له ، كعربون ، ألف فرنك نقود ، وخمس بندقيات ، وأربعة رجال كرهائن ، واذن لهم بالعودة الى وطنهم ، على أن يبت فى الامر بصفة نهائية الحاكم العام (29) ·

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون منه التخفيف من ضرائب الحرب · وقد دكروا له فيها بأن الضرائب التى فرضت عليهم تسست فى بيعهم لكل ما يملكون زيادة عن حرق ديارهم ، واتلاف زروعهم من طرف القوات الفرنسية وأعوانها ، فتعرضوا للمجاعة والبؤس ، وطلبوا منه أن يعفيهم مما بقي عليهم من ضرائب الحرب ومبلغه « اثنى عشر الف دورو افرانصية سكة الدولة قد عسرنا فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيع فى خلاصها » · وحتى يستعطفوه أكثر قالوا له : « نخبرك ان الناس ابتدأوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تأمنه من قبلك يتضح

---

27) A. O. M. carton I. 86.
28) A. M. G. carton H. 375.
29) A. M. G. carton H. 375.

حال الجميع » ، وطلبوا منه فى الاخير أن يأذن لهم بالخروج للاعراش العامرة ليبحثوا على مصدر للعيش (30) ·

الحادية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني عباس طلب منهم فيها أن يشرعوا فى حرث أراضيهم ، وأن يجتهدوا فى دفع ضرائب الحرب المفروضة عليهم ومبلغها : « مائتين وثمانية وخمسين الفا وأربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بنـدقية » (31) ·

الثانية عشرة : رسالة رئيس المكتب العربي الى سكان عرش بني مليكش طلـب منهم ان يشرعوا فى حرث أراضيهم ويجتهدوا فى دفع ضريبة الحرب ومبلغها : « اربعة وتسعين واثنا عشر الف فرنكية وخمسمائة من النعن (؟) وثمانمائة بندقية » (32) ·

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى الى حاكم دائـرة اربعاء نايت ايراثن « فورناسيونال سابقا » ، حول مصادرة أرض للزاوية · وقد ذكروا له فيها بان للزاوية أرضا قرب واد بني عباس بجوار قرية أقبو بعقود صحيحة مـن زمن طويل ، يستغلونها فى الحرث والرعى · غير أن حاكم المكتب العربي بتيزي بعث اليهم صبايحيا منعهم من حرثها فاتجهوا اليه واشتكوا له فأعطى لهم ورقة ليحرثـوا ارضهم وقدموها الى حاكم المكتب فلم يقبل منهم ذلك ، ومنعهم مرة أخرى من حـرث الارض · ولذلك اتجهوا اليه مرة أخرى بقولهم : « أن تجعل لنا تأويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبل أن يفوت ابان الحرث » وحتى يزيلوا عنـه الشكوك فى موقفهم من ثورة 1871 قالوا له : « وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقـد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق ، وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعلم ولكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسأل كافة الناس» (33) .

---

30) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 10 أكتوبر 1871
31) A. O. M. carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871
32) A. O. M carton 2 H 75. بتاريخ 11 نوفمبر 1871
33) A. O M. carton 2 H 81.

نصـــوص الـوثـائـق

الاولى : نـداء كريميو الى سكان الجزائر ·

الحمد للـــه وحـــده (33) ،

اعلام من الحكومة القائمة بالدفاع لكافة سكان الاقاليم الجزائرية · لا يخفى على من له عقل سليم ورأي مستقيم أن مقصود الدولة الجمهورية ومرغوبها هو ايصـــال النفع لعموم الناس وجلب الراحة والهناء مع استقامة أحوالهم · فلذلك عزمت عـلى تبديل بعض القواعد الماضية والسياسة الجارية بما هو أحسن منها فى انتظام أحـوال العـــامة فليس الحامل لهذه الدولـــة على التبديل المذكور الا لقصد تقليل المفاسد أو ازالتها · وقد تقرر لدى الدولة وعلم أن أصل كل خير مبني على احترام الناس والمحافظة عليهم فى جميع أمورهم الدينية والدنيوية · وربما يحصل الغلط لمن لا يفهم القوانين الجديدة ويظنها غير مفيدة · فان العاقل لو تأمل حـ ق التأمل فيما بينها وبين القوانين السابقة يظهر له الفرق الواضح بينهما · فان الدولة الجمهورية الفرنسوية لا تـزال جادة فى حسن سيرتها ومعاملتها مع المسلمين بأكثر مما صدر من الاحسان من الدول السابقة ، وهذه الدولة لا تنسى على مـر الزمن خصال المسلمين الحميدة ومفاخرهم العديدة بسبب انتظامهم فى سلك عساكرنا ، وبذل نفوسهم فى نصرة جنسنا وقتـــال عدونا · وقد كان السلطان نابوليون وعد المسلمين فيما مضى بتمليك الاراضى التـى يستغلونها بالحراثة وغيرها ولم يحصل منه تنجيز · فهذه الدولة ستهبها لهم هبـــة منجزة وتملكها لهـم تمليكا مطلقا بحيث يتصرفون فيهـا بأنواع التصرفات من غـير معارض لهم ويتوارثونها توارث الاملاك والاموال ·

كتب بمدينة بوردو بتاريخ 14 جانفي 1871 · وبأمر سعادة السيد كريميو وزيـر الشريعة ورئيس الجماعة المنتخبين للنظـر فى شؤون الدولـة الجمهورية · ومختـوم سعادة السيد شارل دوبوزي والى الجزائر وأقاليمها ·

الثانية : رسالة أولاد بن قانة ضد الباشاغا المقراني ·

سعادة المعظم الارفع (34) الهمام الانفع السيد الجنرال روستان الحاكم الكبـير

---

33) المبشر ، عدد 735 بتاريخ 21 جانفي 1871 ·

34) المبشر عدد 745 بتاريخ 6 ابريل 1871 ·

بقسنطينة وسائر عمالاتها (35) اكرمه الله ورعاه آمين · هذا ايه السيد وانا نحن أول من خدم الدول الفرنسوية منذ سنة 1837 الى الآن ولم نزل على العهد الى وقتنـا هذا ونلازمه بالنصح الخالص والنية الكاملة ما دامت الدولة الفرانصوية ببر الجزائر ولو بقي من الفرنصوية (كذا) الا واحد بيننا ·

وقد سمعنا بمحمد بن أحمد المقراني نافق عنها فان فعل ذلك فمـا هو الا مجنون لا عقل له فها نحن بارئون منه من يومئذ ونقاتله كما تقاتله الفرانصوية فاذا ثبت نفاق هذا المفسد فالمراد منك ومن كريم فضلك أن ترسل لنا نحن الثلاثمائة من العسكر لتكون مع ما في بسكرة من العسكر كـ يتكف ألسنة الناس عن القول (كذا) والقال · وتكون صامنـين في بسكرة بحيث أن لا يمسك من جانبها تشويش · واعمل علينا كما تعمـل على اخوانك الفرانصوية ·

والسلام ممن كتب باذنهم السيد محمد الصغير بن قانة ، والسيد أبو الاخراص ابن قانة ، وسى الحاج بن قانة ، وكافة أولاد بن قانة · بتاريخ 18 مارس 1871 ·

الثالثة : رسالة محمد بن هني بن بوضياف قائد صحاري بسكرة ضد الباشاغا المقراني

الحمد للـه وحـده (36) ،

الاجل الاقبل الزاكى الاشمل سعـادة السيد الجنرال روستان الحـاكم الكبير بقسنطينة وسائر عمالاتها السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة · حالتي السكـون والحركة والسؤال الكثير منا عنك وعن كلية احوالك فاذا كنت بخير فالحمد لله وبعد نعم السيد اننا سمعنا بباش آغا مجانة (37) محمد بن أحمد خاب ظنه وخسـر عمله مـع الدولة الافرنصوية وعاقب خيرها معه بشره اياها · اعلم سيدنا ان أنت استحقيتنا (كذا) فهاني واجد (كذا) مهيىء واخواني وأولادي لخدمة الدولة الحميدة وندور تحت لوائها

35) روستان كان في هذه الفترة يحمل لقب الكابيتان ، وليس الجنرال · وعـين حارسا أداريا لعمالة قسنطينة يوم 2 جانفى 1871 تطبيقا لقرارات 24 أكتربو 1870 التى تقضى بالغاء النظام العسكري ، وتعويضه بنظام مدني جديد ·

36) المبشر ، عدد 746 بتاريخ 13 ابرين 1871 ·

37) ذكر لويس رين بأن محمد بن هني بن بوضياف ، وأخاه الصغرى بن بوضياف من أولاد ماضى وأولاد بوراس كانا عدوين تقليديين لعائلة المقراني بمجانة ، ولـم يذكـر السبب . انظر : Rinn Histoire p 185

حيثما توجه لقتال من حاربها واني ابنكم وخديمكم وخدمت الدولة الافرنصوية بالنية وصفاء المودة منذ ثلاثين سنة دون تبديل ولا تعيير وكل ساداتها أرباب الدولة الذين جالوا فى وطن الجزائر يعرفني ويعرف خدمتي ·

والسلام من ابنك وخديمك محمد بن هني قائد الصحاري وفقه الله ·

حرر بتاريخ 21 مـارس 1871 ·

الرابعة : رسالة محمد البشير قائد أهل العشر الى حاكم سور الغزلان الفرنسي حـول سرقة فرس واجتماع عدد من القواد ·

الحمد لله وحده (38) وصلى الله على سيدنا محمد ·

الى المحترم الفاضل المعظم السيد الكولونيل حـاكم عمالة صور الغزلان (39) ، السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد نخبرك عن جـواد القبطان اللى (كذا) قاطن فى بوسكن سرق ليلة الثلاثاء هذه ليلة 13 من فيفري · ليكن نخبرك عن الاثنين الماضية حيث كنت أنا ثم ، واتيت الى السوق حتى عاد نصف النهار وسمعت بالقايد عيسى بن العربي اقبض رجال من عرش الربعية خيان (كذا) وجدهم يشتروا فى البارود وحين مسكهم طلقهم (كذا) · وأيضا فى هذه الاثنين الاخرى تسوقوا (كذا) جميع القياد (كذا) كمحو القايد النايلي ، والحاج ابو عيشه ، والحاج ابراهيم ، والقايد سى أخميس من عمالة الجزائر ، وعيسى بن العربى ، واتجمعوا عند عيسى بن العربي حتى الـى الليل المذكور سرق الجواد وهانى أرسلت الى كل موضع وعن كل طريق ·

عن اذن السيد محمد البشير قايد أهل العشر ، فى 13 فيفرى 1871 ·

الخامسة : رسالـة السعيد بن علي أعيسى الى الجنرال لالمـان حول الاسـرى الاوروبيين الذين غادروا قرية بن هيني (باليسترو سابقا)

الحمد للـه وحده وبـه استعين (40)

الى طرف سعادة المعظم الارفع المدير الانفع سيادة الجنرال لالمان سلام الله عليك ورحمته وبركاته وتحياته ورضوانه وبعد بلغني كتابك الرفيع متضمن فيه بعض الناس

---

38) A. M. G. carton H 375 document provenant du colonel Robin.

39) قرية سور الغزلان لم تكن عمالة وانما كانت مركز دائرة · ولكن صاحب الرسالة لم يكن يفرق بين الامرين على ما يظهر أو انه أخطا ·

40) A. M. G. carton H 375.

الفرانصويين سكان بن هيني (41) نبعثهم لك الى المحلة أو نأت بهم · نعم سيدنا هاهم محفوظين عندنا على قدر مجهودنا والخير الذي فعلناه معهم نريد ان نتموه (كذا) قدر ما نطيق عليه · وفى هذه الساعة لا نطيق نأتيك بهم نخاف عليهم وعلى نفسى من القتل وكذلك على مالي يفسدوني الاعراش ويوم يتمكن لى بعثهم أو نأتى أنا بهم بنفسى هلا نفرط ولكن نطلب منك الامان لنفسى ولفرنسا وكذلك قائد حرشاوه أحمد بن عيسى لانه رجل عاقل لم يصدر منه تشطين (كذا) الا فوق مجهوده من بعض الناس · وأما عـدد الفرانسويين الذين عندى احدى وأربعون نفسا خمسة عشر رجلا فيهم قبطان الجيني (42) مسيو أجى واثنى عشر صبيا وأربعة عشر نساء فيهن واحدة توفيت والسلام من عبـد ربه سعيد بن محمد بن علي أعيسى وفقه الله آمين فى 20 صفر 1288 (43) ·

السادسة : منشور الجنرال لالمان الى سكان دائرة دللس يطلب منهم الاستسلام ·

من طرف سعادة المعظم الارفع سيادة الجنرال لالمان (44) حـاكم جميع الجيوش بمملكة الجزائر الى كافة القبائل من دائرة الدلس أرشدكم الله وبعد اعلموا قد غلطوكم بعض من الناس الذين آمنتم فيهم من غير حق وقد ذكروا لكم بأن الامـة الفرنصاوية اتعرض لها جميع العساكر وعن هذا تكون لكم قدرة على أخذ مدونهم (كاذ) وبلا مشقة تطردوا الباقى منهم ولا يحفاكم بـأر البرود (كدا) قد تكلـم فى بعض الاماكن وشهدتهم خلاف ما ذكروا لكم وكما تحقق لكم بأن الاحق عندكم لكن لكـم نفقتكم على الامـة الفرنصوية التى عملت فيكم الخير · وثانيا ان آلة الحرب التى هي عندكم لـم تبلغكم للقوة التى تدفع آلتنا الحربية والآن فابصروا وتأملوا لان المحاربة التى تريدونها يكون لكم منها مضرة فضيحة وأما العافية فينتج منها المنفعة الكثيرة لكافة أحوالكم ··· انكم لستم بأعمى لا تبصرون بأن الامة الفرنصاوية تطيق أن تحضر فى مدة قليلـة عدة من عساكر التى تكفى لنصرتها عليكم وان السلاح الذين فى يدها يصير سلاحكم بـلا منفعة وبسبب ما ذكر ارجعوا أصدقاء الامة الفرنصاوية يكون لكم الخير والهنى (كذا) انتشار لكم بهذا كان عليكم حاكما فى السابق وكان يتكلم معكم ولا يخفى عليكم معرفته وحبيبه الكثير منكم الذى الآن فى بلادكم وبيده البارود الذى يحصلها والعافية الذي

---

41) قرية بن هيني تقع بين ثنية بنى عيشة والبويرة · وسماها الفرنسيون باليسطرو وبعد الاستقلال أصبحت تسمى الاخضرية ·

42) ضابط الهندسة العسكرية ·

43) الموافق حوالى 11 ماي 1871 ·

44) A. M. G. carton H 375.

ينفع والسلام بامر سيادة الجنرال المذكور أعلاه الواضع طابعه الرفيع دام عزه وعلاه ·
فى 30 مـاي 1871 ·

السابعة : رسالة القائد الهادي الى القبطان ابير حول ثورة أهالي يسر .

الحمد للـه وحـده (45) ،

الى سعادة السيد القبطان ابير حاكم بيروا وعرب الدلس (46) السلام عليك ورحمة الله وبعد اعلامك بما أخبرنا به الطاهر أوجيوه العبيدى وانه الدعى (كذا) لنا وان غده (كذا) ان شاء الله صباح السبت يطيحوا (كذا) القبائل على يسر وانهم كـل القبيلة مجتمعين فى تامريعت ويرجون فى وعد غـد ان شاء اللـه وقد تركوا العسة على الفرنصاويين الذين محروسين (47) وبهذا هانى (كذا) اخبرتك بما طرق على سمعنا من الطاهر أوجيوه فى يومنا هذا وهذا ما منا اليك والسلام ·

من كاتبه عن اذن خديمك القايد الهادي بولاية أولاد سمير امنه اللـه ءامين فى 20 جـوان (1871) (48) ·

الثامنة : رسالة اسعيد أو بن أبى القاسم الى الجنرال سيريز يطلب وظيفة مقابل خدماته ضد بومزراق وثوار 1871 ·

الحمد للـه وحـده (49) ،

الى سعادة الاوطان المعوم الارفع السيد الجنرال سريز حاكم الجيوش دام عـزك وعلاك والسلام عليك ورحمة الله تعالى وبركاته وبعد ان كنت بخير من اللـه وعافية فالحمد لله وفق مرادك وبعد أيه الاسعد المرجو مـن سيادتك العالية المعظمة المحترمة بالله تعالى أن تنظر هذه الورقة المرقومة بالفرانصوية بخط شيف (رئيس) الشرزمتن ازواو العائنة فى برج واد أخريص يوم قدوم المنافقين المتريس عليهم أحمد أبى مزراق المقراني على البرج المذكور · وبذلت جهدى فى تلك اليوم مع الشرزمة المذكورة وتماديت

---

45) A. O. M. carton I. 86.

46) أي رئيس المكتب العربي من العبارة الفرنسية : Chef de bureau arabe

47) أي المحاصرين ولم يذكر أين ·

48) عبر عن أولاد سمير بالولاية ، وهي عبارة عن عرش فقط ·

49) A. M. G. carton H. 375.

عن تلك الخدمة مع حكام بلادنا الى الآن المطلوب من سعادتك العالية أن لا تنسانى من ذهنك لان كثيرا من الناس الذين خدموا الدولة الفرانصوية كمثلى سمعت انـك انعمت عليهم بنواشين (كذا) الحرمة أو بواضايف (كذا) لان عرشى لم يقبلونى ويكرهوني من جانب حدمتى مع الدولـــة لانى فى يوم قدوم السيد الكولونيل حاكم الصور الى برج واد اخريص وفى الاغد (كذا) قدمت مع السيد الكولونيل الى الفتنة الواقعة بيننا وبين احمد ابى مزراق المقراني فى الموضع المسمى الشروج (السروج) ورجعنا الى الصور هجموا على بيتى وبيت ابن أخى أبى زيد بن الحاج عيسى عـدل واد اخريص ومسكوا اثاثنا بشهادة السيد الكولونيل وهو ينظر لذلك وهذا الامر واقع ، وعليك ألف سلام كتـب بأمر خديمك اسعيد أو بن ابى القاسم قائد أولاد سالم دائرة الصور · فى 27 جوليت سنـة 1871 ·

التاسعة : شهادة استسلام بشروط لاولاد على بن داود ·

فرقة الحضنة ـ معسكر المسيلة (50) ،

فى 9 أكتوبر سنة 1871 احدى وسبعين ومائتين (كذا) والف ان أولاد على بن داود من حكم الصور قدموا وطلبوا الدخول تحت الطاعة وقبلنا منهم ما طلبوا من غـــير شروط o وأناس الفرقة المذكورة دفعوا عربون الخدمة :

1000 فـرنك دراهـم ·

5 وخمسة مكـاحل ·

4 وأربعة رجال مراهن وهم : يحيى بن لحول ، الحناشى بن قويدر ، محمد بن بتقا ، مسعود بن أحمد ·

وبادائهم مـــا ذكر من العربون ظهـــر منهم الدخول تحت الطاعة وبهذا السبب سرحناهم وأمرناهم بالرجوع لوطنهم وأعطيناهم الامان لكن من غير تعيين الشروط بل هي باقية على نظر سعادة السيد القوفيرنور جنرال الحاكم بالمحلة صانه الله بعونه آمين.

50) A. M. G. carton H. 375.

العاشرة : رسالة سكان عرش صنهاجة الى الحاكم العام يطلبون التخفيف من ضرائب الحرب ·

الحمد للـه وحـده (51) ·

حضرة المعظم الارفع الهمام الانفع مولانا السيد المريشال حاكم المحروصة عمالة الجزائر بعد السلام عليك مع دوام الرحمة والبركة هى كل سكون وحركة يليه نعم سيدنا نريد من سعادتك ومن سعادة الدولة الفرنصاوية المنصورة ان خدامك عرش صنهاجة بعمالة صور الغرلان من حين جعلت عليهم الجرية كما هي الجارية على جميع العمالات تراهم سيدنا باقين منكسين القلوب ومحيرين من كل حرقت ديارهم وابتاعت اموالهم باقين بالجوع من كون الزرع الاخصر أكلته المحال (52) وما بقي على مذكر اباعوه (كذا) فى الخطية والآن سيدنا ترانا دفعنا ما تبعنا به جملة وبقيت لنا عن جميع الخطية (53) اثنى عشر الف دور أهرابصية سكة الدولة قد عسرنا (54) فيها ولم نجدوا (كذا) ما نبيع فى خلاصها · والآن سيدنا نطلب من سعادتك تنعم علينا بتركها لانك ذوجود وفضل ورحمة ومودة ونحن خدامك وعار السيد على سيده ونخبرك أن الناس ابتداوا بالموت من الجوع وان أردت سيدنا تبعث من تامنه من قبلك يتضح حال الجميع كما نخبرك به يظهر لك حال خدامك ونريد منك سيدنا التسريح خروجنا للاعراش العامرين لمن أراد ذلك لعيشه يصرح (يسرح) ويخمس (يعمل بالخماسة) من كون بلادنا انقطع عيشها ولك الاجر من الله الخالق الرازق وعليك الف فى الف سلام من كافة خدامك وتراب أقدامك كافة عرش صنهاجة مشايخ وفلاحين وذلك بتاريخ 10 أكتوبر سنة 1871 ·

الحادية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى عباس ·

الحمد للـه تعالى (55) عرش بنى عباس ،

---

51) A. O. M. carton 2 H 75.

52) المراد بالمحال : العساكر والجيوش الفرنسية ·

53) يعنون بالخطية ، والجزية غرامات الحرب التى فرضت عليهم فى ثورة 1871 ·

54) أي عسر عليهم اتمام دفعها ·

55) A. O. M. carton 2 H 75.

كافة شيوخ عرش بنى عباس، السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم وانكم تخبروا ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه · وايضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على كافة عرشكم فالواجب عليكم يعنى على جملة العرش مائتين وثمانية وخمسين ألفا واربعمائة وعشرة الكل فرنكية وثلاثة آلاف بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعليه يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد القبطان شاف بيرو عرب (56) · فى 11 نوفمبر 1871 ·

الثانية عشرة : رسالة حول ضرائب الحرب على عرش بنى مليكش :

الحمد لله وحده تعالى (57) عرش بنى مليكش ،

كافة شيوخ عرش بنى مليكش السلام عليكم وبعد فالذى يكون فى علمكم اكنتم تخبروا جميع ناس فرقكم بأن يشرعوا فى الحرث كالاعوام الماضية كل واحد يحرث ترابه وأيضا لابد منكم أن تعزموا بدفع الخطية والسلاح المضروبين على جملة عرشكم ، فالواجب على جملة العرش أربعة وتسعين واثنا عشر ألف فرنكية وخمسمائة من النعن (2) وثمانمائة بندقية فاحرصوا بالسلاك والدفع وعلى هذا يكون العمل والسلام عن اذن الارفع السيد الكمانده الحاكم الكبير بعمالة بوعريريج ونيابة السيد القبطان شاف بيرو عرب (58) بتاريخ يوم 11 نوفمبر 1871 ·

الثالثة عشرة : رسالة طلبة زاوية السيد عبد الرحمن اليلولى حول مصادرة أرض للزاوية ·

الحمد لله وحده (59) ،

حضرة الارفع سعادة السيد الكمانده حاكم دائر برج فرنسينال السلام اعليكم كثير السلام التام والشامل العام يعمكم ويعم جميع من احتواه مجلسكم الرفيع وبعد يا سيدي اننا عندنا بلد قرب واد بنى عباس فى الموضع المسمى اقبو فى حكم تزى ولنا

---

56) يعني رئيس المكتب العربي · Chef de bureau arabe

57) A. O M. carton 2 H 75.

58) يعني رئيس المكتب العربي : Chef de bureau arabe · وقد عبر عن مدينة برج بوعريريج بالعمالة ، وهي عبارة عن بلدية آنذاك فقط ·

59) A. O. M. carton 2 H 81.

عليه عقود الابتياع الصحيح وكان فى حوزنا واستغلالنا من الزمن الاول ونتصرف فيه التصرف التام مع أنواع التصروفات (كذا) نحو الحرث ورعى الكلاء من غير منـازع ينازعنا فيـه ولا معارض وفى هذه السنة قد قدمنا بأثوارنا (كذا) للموضوع المذكـور اعلاه لنحرثوه كما كانت العادة فاذا بسيد الكمانده حاكم بير عـرب تزى بعث الينـا اصبايحى وتعرض لنا عن الحرث فحينئذ جئنا اليكم واشتكينا لديكم بقضيتنا المرقومة وكتبت لنا كتابة اليه ليتركنا نحرث بلدنا المملوكة لنا بالشراء كما ذكرنا ونمكنا كتابكم بيده ولم يقبل ما فيه واجابنا بقوله ايانا فلا تحرثون بلدكم ابدا والآن يا سيدي فالمطلوب منكم بعد المسامحة أن تجعل لنا تأويلا عن بلدنا ونحرثها كما كنا فارطا وتسعى فى نيل مقصدنا قبلأن يفوت ابان الحرث وأما النفاق ليس مدخل لنا فيه وقد بقينا فى طاعتكم كما كنا فى السابق وليس عندنا من اشتغل فى وقت النفاق بشىء الا بالعلم والتعـلم ولاكن فان حصل لكم شك وريبة فيما قلناه لكم اسأل كافة الناس وهذا ما به الاعـلام وعليكم ألف سلام · كتب عن اذن كافة طلبة السيد عبد الرحمن اليلولى نفعنا اللـــه ببركاته ءامين وعرفه له فى 9 نفمبر سنة 1872 ·

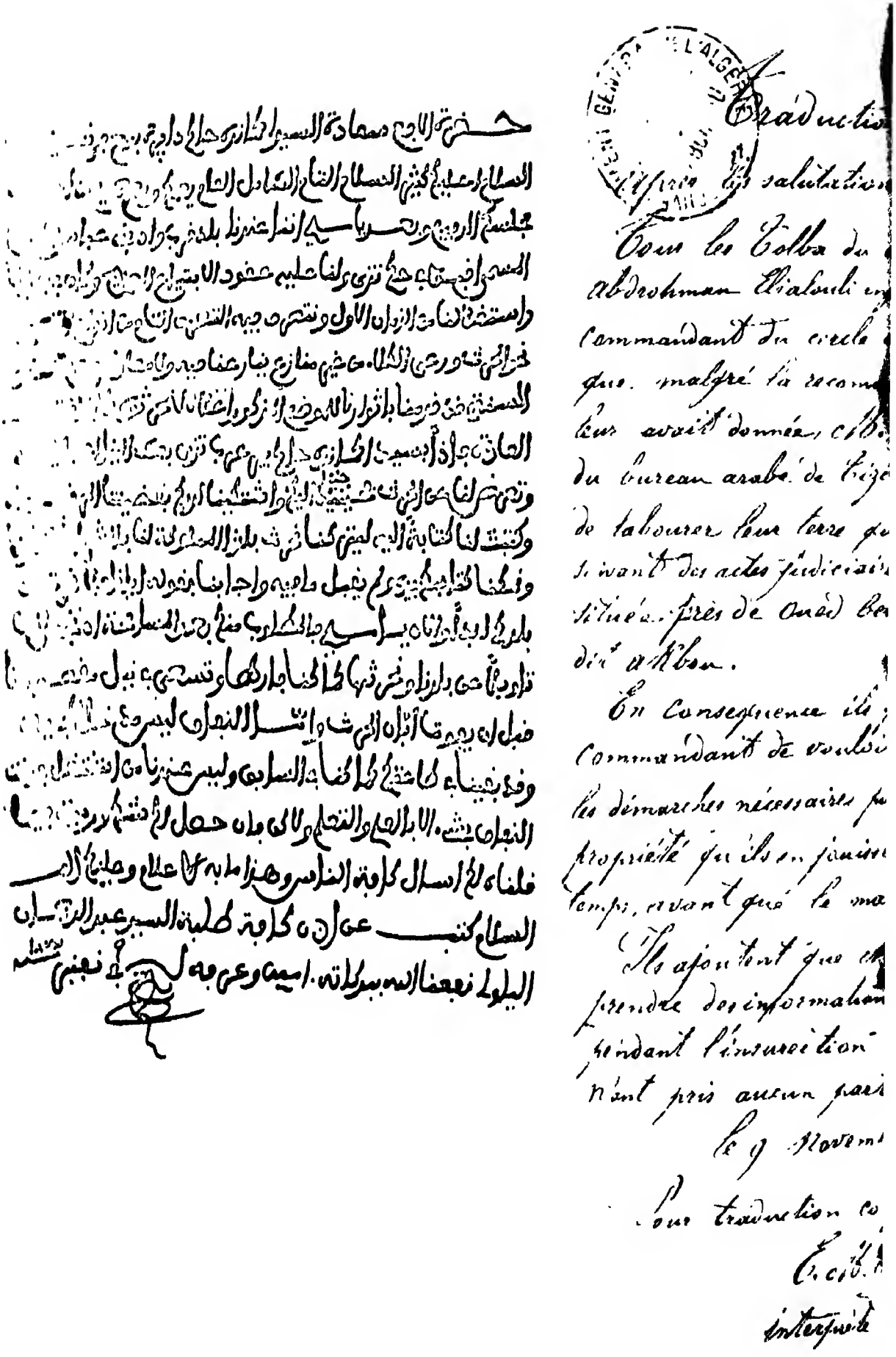

الشكل رقم 2 ـ رسالة طلبة زاوية عبد الرحمن اليلولى الى حاكم دائرة فورنا سيوفال حول أرض للزاوية .

A. O. M. Carton 2 H 81

الثقافة العربيـــة المعاصرة
ومصير الوطن العربى

د. الحبيب الجنحاني
استاذ بكلية الآداب ـ تونس

ان العلاقة بين شتى مظاهر الواقع العربي اليـــوم ، ومصير الوطن العربي متينة ، جدلية ، فهي تعكس الوضع السياسي والاقتصادي والثقافي (1) ، ولكننا نريد التركيز هنا على قضية معينة تتمثل فى مدى تأثير الثقافة العربية المعاصرة فى صقل معالم مستقبل الوطن العربي ، وهو جانب خطير ـ فى نظرنا ـ لما يتميز به التأثير الفكـري من استمرارية ، وقدرة على تجاوز المعطيات الظرفية ، فقد عرف المظهر السياسي فى الواقع العربي المعـاصر ازمات حـادة جعلت روح التشاؤم تسيطـر على ذوي النظـرة القصيرة ، المحدودة ، فيصابون بالتقوقـــع ، واللامبالاة ، ولكن الرؤية الفكرية المستقبلة قد صمدت وواصلت اداء رسالتهـا فى ظروف معقدة وصعبة .

ليس هدفنا الرجوع الى الماضي البعيد للتعرف الى سمات الثقافة العربية المعاصرة بل سنقتصر على مرحلة ما بعـد هزيمـة حزيران 1967 ، وهى مرحلة دقيقة ، ومليئـة

الاحداث ، والمفاجآت فى الواقع العربي بالرغم من قصرها ، فقد مر خلالها الفكر العربي بتجربة خصبة ، وقاسية كانت محكا لدى قدرته على تجاوز المراحل الظرفية ، وتركيز أسس النظرة الشمولية المستقبلية ·

فقد تأثر الفكر العربى بهـذه الاحداث تأثرا عميقـا ، وانعكست عليه ظلال مأساوية الواقع العربي ، وقد أصبح هذا الواقع اثر هزيمة حزيران يشكو أزمة ضياع خانقـة ، أضحى الوعي العربي متمزقا ، ومهزوزا ، فلا غرو ـ اذن ـ أن يلمس المتتبع لحركة الثقافة العربية المعاصرة فى مختلف الاقطار العربية خلال هذه المرحلة مظاهر التشرذم الفكري لدى بعض الفئات من المثقفين العرب ، وصمتا عميقا لدى فئة أخرى ، ومراجعة نقدية جذرية لدى فئـة ثالثة (2) ·

ثم جاءت حرب أكتوبر ، وما حققته من انتصار نسبي فظن الكثير أن الفكر العربي سيتخلص مما أصيب به من تمزق ، وانقسام ، وقد كان الظن مخطئا ، ولم تنجح بعض الاقلام التى حاولت استغلال صمت الفكر العربي فى وقفته النقدية العميقة من اثبـات أن حرب أكتوبر كان لها تأثير ايجابي وعميق فى حياة الفكر العربي أيضا ، ولا يرجع ذلك ـ فى نظرنا ـ الى ما أثير من جدل حول نسبية الانتصار ، أو الى الاحداث السريعة المؤلمة التى عرفها الواقع السياسي العربي ، والتى عصفت بنتائج حرب أكتوبر عصفا شديدا ، ونعني هنا الحرب الاهلية بلبنان ، ونتائجها الخطيرة ، بل يعود أساسا الـى شعور عدد كبير من المثقفين العرب بضرورة مراجعة نقدية جذرية ، واعادة النظر فى كثير من المفاهيم والقيم التى طفحت على سطح الفكر العربي المعاصر ، فقد وعي الكثير أن معركة المستقبل العربي ليست معركه سياسية واقتصادية واجتماعية تحتاج الـى مرحلة معينة ، بل هي معركة حضارية تتطلب مراحل عديدة ، تتمثل نقطة انطلاقها فى تركيز رؤية شمولية معينة لمستقبـل الوطن العربى (3) · انه لا يمكن أن نتحدث عن موقف واحد للنخبة المثقفة العربية تجاه هذه القضايا ، أو حتى عن موقف متشابه ، فقد ابرزت مرحلة ما بعد هزيمة حزيران الفروق العميقة بين التيارات المختصة فى الثقافة العربيـة المعاصرة ؛ فلم يشعر كثـير من المثقفين العرب بحتمية تلك المراجعة الجذرية المشار اليها ، فانتهـز البعض الفرصة لملء الفراغ الذى تركه ممثـلو الفكر الواعى الهادف ، واصبحوا بيدق للقيام بعملية تبريرية فى الميدان الثقافى خدمة لابطال الواقع السياسي العـربي المهزوم ، المأزوم ، وسيطر القلق والتمزق على فئات أخرى وقعت فى خطأ كبير ، حيث خلطت بين سلبيات الاحداث السياسية ، وما تحدثه من هزات ظرفية وبين رسالة الفكر العربي الجديد ، وهي رسالة ثقافية حضارية طويلة المـدى · ونقف فى تتبعنا لمواقف تيارات الفكر العربي المعاصر فى احداث المرحلة الاخيرة على الظاهرة التالية المتمثلة

في أن التيارات التى لم تمسها أزمة التمزق والتشرذم الفكري ، ووقفت مـن الاحداث موقفا نقديا ، ايجابيا هي التيارات المتبنية لرؤية جدلية ، شمولية لآفاق المستقبل العربي والتى تعتمد المنطـق السببي والجدلية التاريخية فى تحليـل حاضر المجتمع العربي ، وبالرغم من هذه الجدلية التى توحد بينها فى استعمال أساليب البحث والتحليل ، فهي متباينة عقائديا ، وتتعادبها تيارات سياسية مختلفة ٠

وبرز ضمن هذه التيارات التى يجمع بينها قاسم مشترك ـ بالرغم من اختلافها تجاه كثير من القضايا العربية ـ يتمثل فى الوعي العميق بصرورة دعم الاتجاهات الرامية الى عقلنة المجتمع العربي ، والى غربلة السلبيات ، والمعوقات التى قادت الى تعـاقب الهزائم تيار يحاول أن يجد المعادلة الصعبة بين مفارقات ، وتناقضات الواقع العـربي السياسي ، والاقتصادي ، والثقافي وبين وضع أسس جديدة لعملية حضارية طـويلة المدى ، وتهدف الى بنـــاء الوحدة العربية بناء سليما ومتينـــا ، انطلاقا من الهياكل التحتية ، والتحول الحضاري الجذري البطيء الذي يحتاج الى عدة مراحل تاريخية موضوعية ،وسيكون لهذا التيار شأن خطير فى المرحلة القادمة ٠ يقف أنصار هذا التيار اليوم مناهضين للنظرة الميكانيكية فى التفسير ، وضد سرد الاحداث فى شتى ميادين المعرفة بطريقة استاتيكية جامدة ، ويناهضون العشوائية فى السياسة ، والاقتصاد ، والتربية ، والثقافة ، ويندون بالواقعية الفوتوغرافية ، أو التسطيح الواقعي الآلي فى الحياة الثقافية العـربية الراهنة ، وبظاهرة تسييس الانتاج الثقافى الذي يوقعـه فى الآنية ، والمباشرة السطحية ، ولكنهم يفضحون فى نفس الوقت التشرذم الاديولوجى ، والمعتقدية (الدوغمائية) التى اساءت الى الفكر العربي الجديد ، واستغلتها بعض النظم العربية عن وعي لتحريف رسالة هذا الفكر الذي ينطلق من معطيات واقـــع المجتمع العربي وقيمه ، رابطا ذلك بالقيم الثابتة فى تراث الحضارة العربية الاسلامية ، ولا سيما بالجوانب المشرقة فى هذا التراث (4) ٠

ان أنصار هذا التيار الفكري الجديد بين تيارات الثقافة العربية المعاصرة يسعـون جاهـدين :

ـ الى عقلنة شتى مظاهر الحياة فى المجتمع العربي ، ويعلقون فى هذا الميـدان بالذات آمالا واسعة على السياسة التربوية ، والعمل الثقافى فى الاقطار العربية

ـ والى بلورة آفاق التحول والحداثة .

ـ والى نشر ثقافة وطنية ، قومية ، انسانية ·

ـ ويجب أن يهدف هذا العمل الثقافى فى مستوياته الثلاثة الى التحرر الوطنى، والتقدم الاجتماعى ، وتحقيق الوحدة العربية .

ـ والى ضرورة التخلص فى الحياة الثقافية العربية من الروح التشاؤمية والانهزامية ·

وهم يشعرون بخطر الهجرة الثقافية عن الارض العربية من جهة ، وبخطر الهجرة الداخلية التى يضطر اليها المثقفون فى كثير من الاقطار العربية ·

ان رسالة الثقافة العربية المعاصرة تتجاوز فى نظرهم الاحداث الظرفية ، وتقلبات الواقع السياسي العربي ، فهي رسالة تعتمد فى أهدافها رؤية مستقبلية تنطلق من تحليل اقتصادي ، واجتماعي ، وثقافى للمرحلة الحالية التى يمر بها المجتمع العربي ·

ان بعض التيارات الفكرية العربية المتطرفة ، ولا سيما التيارات التى تشكو داء المعتقدية تتهم هذا التيار الذى وضعنا بعض معالمه بأنه تيار توفيقى . تلفيقى ، ولكنها لا تمثل خطرا على رسالته الثقافية فى المرحلة التاريخية الراهنة ·

أما الخطر الحقيقى الذي يهدد انصار هذا التيار فى محاولتهم ايجاد المعادلة الصعبة المشار اليها ، وهو خطر قد يضطرهم الى الهجره الداخلية ، كما هو الشأن الآن فى بعض الاقطار العربية فلا يمكن أن يأتى الا من تيار الفكر الفلسفى ، وذلك لسببين رئيسيين :

أولا . ان بعض النظم العربية تدعم هذا التيار لظروف سياسية معينة . وهي نظم تفكر فى الحاضر ، وتسعى بشتى الوسائل للمحافظة على الوضع السياسى الراهن ، وليست لها رؤية مستقبلية وطنيا ، وقوميا ، وكونيا ·

ويدرك قادة هذا التيار الفكرى السفلى أن دعم هذه النظم ليس لوجه الله . بل لحاجة فى نفس يعقوب ، فهي ـ اذن ـ لعبة متبادلة ·

ثانيا : ان هذا التيار يجد أصداء عميقة فى صفوف الجماهير العربية لارتباطه بمعطيات دينية وحضارية عميقة الجذور ·

ومن الصعب على هذه الجماهير ان تدرك الحقيقة . وتفرق بين الاعتزاز بقيمها الثابتة فى تراثها الحضارى ، والاعتزاز بها وبين استعمال هذه القيم لاهداف سياسية .

ومغامرات قد تهدد تحررها الوطني ، وتقدمها الاجتماعى والحضاري ·

ونود فى هذا السياق طرح القضايا التـالية ·

1 ـ ان العلاقـة بـين التحلف الفكرى والتحلف الاقتصادى والاحتماعى عميقـة فانه لا يمكن فصل الثقافة العربية المعاصرة عن البنيات الاقتصادية والاجتماعية فى الوطـن العـربي ·

يقول الكاتب المغربي محمد زفزاف « أنا لا أستطيع أن أفكر تفكيرا ايجابيا اذا لم أجد خبزا آكله ، سوف أفكر فى معدتي أولا » (5) ·

2 ـ انه لا يمكن ـ فى نظرنا ـ فصل الثقافة العربية المعاصرة عن تراث الحضارة العربية الاسلامية ، وليس هنالك تناقض بين ما يسعى اليه الفكر العربي الجديد مـن عقلنة المجتمع العربي ، وترسيخ أسس المعاصرة وبين احيـاء الجوانب المضيئة فى تـراثنـا ·

انه حل سهل ان نلقى تبعة الهزيمة على تراثنـا ، وحضارتنا ، متهمين اياها بأنها « حضارة لفظية » ، ومتهمين انفسنا بأننا شعب يتكلم أكثر مما يفعل دون أن نبحـث الاسباب الحقيقية التى تحول بينه وبين الفعل الخلاق (6) ·

ولكن يجب أن نفصل بين التراث والرجعية الفكرية ، فهناك تيار رجعي محـافظ يعيش فى الماضى ، ويقدس التراث العربي الاسلامي ، ويجمد عنده فيسقط فى عدمية وجودية كاملة فكرا وسلوكا ، ولا يحاول التفتح على الثقافات العالمية ، مجمدا التاريخ عندما السلف ، فهـم وحدهم على صواب مطلق · وهـو تيار يؤكد شكلية التـراث ويضفى عليه مسحة القداسة ، فهو يضر بالتراث ، ويحجره ، وينفر الناس منه ·

وينبغى ان نعترف بأن لهذا التيـار تأثيرا كبيرا فى صفوف الجماهير العـربية . فالرجعية تظهر فى صورة الحاميـة للتراث وحـدها فى المجتمع العربى الاسلامى ·

وهنالك تيار آخر ليس له شأن يذكر فى صفوف الجماهير العربية هو تيار فئـة الرافضين للتراث باسم المعاصرة فهم يرون صورة الحاضر فى المستقبل ، وفى المستقبل فقط ، فقد ارتموا فى احضان الآخرين ، واغتربوا ، وفرضوا على أنفسهم عـزلة فى الواقع العربي ، وهي فئة قليلة تشكو ضروبا من المركبات ، فمنطق نظرتها الاندحارية الى التراث منطق نظري هروبي ·

اما الموقف الثالث من التراث فيمثله أولئك الذين يحاولون خلق المعادلة الصعبة فى الحياة الثقافية العربية المعاصرة ، فهو تيار تقدمي مجدد يختلف فى رؤيته التاريخية كل الاختلاف عن التيارين السابقين ، فهو يسعى جاهدا لتحرير التاريخ والتراث ، وغربلته من مظاهر الخرافة والتزييف ، وتخليصه من نظرة التوثين والقداسة ، واخضاعه لمقاييس المنهجية العلمية ، فهو يقاوم النظرة الطوباوية للتراث التى تستقطب الجوانب المظلمة البلهاء دون انفلات ، ويندد بهذا الموقف الذى يريد ان يحول التراث الى تراث شكلي خال من محتواه الانساني ·

ان المثقف العربي الواعي ، الحامل لرسالة التجديد يتطلع الى التراث العربي الاسلامي فكرا وحضارة من زاوية شمولية متحدة ذات أبعاد تقدمية تسقط من مضامينها كل مظاهر الاندحار ، والانغلاق ، والسوداوية ، وتؤكد على ما فى تراثنا من شك ورفض ، وتمرد عميق ، وفكر عملاق ثوري ، وبذلك يصبح تراثنا وثيقة انسانية رائعة تتقى مع أهداف العمل الثقافى المشار اليه وطنيا ، قوميا ، وانسانيا (7) ·

3 ـ ان الحديث عن الثقافة العربية المعاصرة يجر حتما الى الحديث عن النخبة المثقفة فى الاقطار العربية ، فقد لمحنا الى تياراتها المتباينة ، والى بعض مظاهر التأزم فى صفوفها ·

ونود هنا أن نلاحظ أمرين بارزين ·

أ ـ أن بعض الفئات داخل هذه النخبة تشكو تخلفا مهولا بالرغم من الدور الطلائعى المناط بها ، فهي مطالبة بالمساهمة الفعالة فى معركة الخروج من التخلف فى نفس الوقت الذي تعاني فيه من مظاهر تخلف رهيب !!

ب ـ ان التخلف الذي تشكو منه الاقطار العربية يقتضي منطقيا أن يكون للنخبة المثقفة دور واضح فعال فى تسيير شؤونها ، والمشاركة فى تحديد مصيرها ، ولكننا نجدها فى الواقع تعيش هامشيا فى مجتمعاتها ، بل قل محاصرة تكاد تختنق فى أغلب الاقطار العربية ، فتضطر الى الهجرة الخارجية والداخلية معا ، ونعني بالخصوص المجموعة الفعالة ذات النظرة العميقة المحللة لقضايا بلدانها ، والتى بلغت درجة النضج الفكري ، فأصبحت لها رؤية شمولية كونية ·

اننا نقرأ احيانا ، أو نسمع نقدا لاذعا موجها الى رجال النخبة المثقفة لما يبدو من تباين فى وجهات نظرهم ، واختلافاتهم العقائدية ·

اننا نؤمن ان هذا الصراع الايديولوجي المعروف اليوم في صفوف النخبة المثقفة العربية امر طبيعي ، فهو مرتبط بنظرة افرادها المستقبلية ، وبتحديد رسالتهم في تغيير أوضاع مجتمعاتهم ، فقضية المصير العربي ما تـــزال مطروحة : أي سبيل ينبغي أن تسلك ؟ ولا ننسى أن المثقفين العرب هم أبناء بيئاتهم بتناقضاتها ، ومظاهر تخلفها ٠

ان المؤلم في هذا الصراع الداخلي ليس الاختلاف في الرؤية ، بل انعدامها لـدى عدد كبير من أفراد النخبة المثقفة العربية (8) ٠

ومن المشاكل العويصة التي تواجه المثقفين العرب يوميا ٠

- مشكلة الحرية بمختلف مظاهرها ٠
- وقضية علاقتهم بالسلطة ، فقد روي أن احدهم قال لمعاوية :

« اذا ارضينا الله اغضبناكم ، وان ارضيناكم اغضبنا الله » ، وهي جملة تصور اليوم علاقة النخبة المثقفة بالسلطة ، فاذا حاول المثقفون الواعون اداء رسالتهم الثقافية وطنيا وقوميا ، وهي تهدف أولا وبالذات الى نشر الوعي العميق ، ونقد مظاهر التخلف السياسي ، والاقتصادي ، والاجتماعي اصطدموا بالسلطة ، وان حاولوا الركض وراء ركبها ، والدوران في فلكهـا سقطوا . وفقدوا دورهم الطلائعي الصعب في بيئاتهم ٠

ولعل صعوبـة هذه العلاقة ، وما يحف بها من ملابسـات وأخطار جعل بعض المثقفين يقيمون جدارا برلينيا بين الثقافة والسياسة ، وهو اتجاه مخطىء في رأينا ، فلا يمكن الفصل بـين الثقافة والسياسة ٠

المرحلة الوطنية وآفـاق الوحدة العربية :

انه مـن المعروف ان مفهوم الامة الاسلامية الذي يعد سمـــة أساسية في التفكير الاصلاحي خلال القرن التاسع عشر قد تقلص ظلـه في مطلـع القرن العشرين نتيجة ظروف موضوعية معروفة ليفسـح المجال لمفهـوم الوطنية في مرحلـة تاريخية جديدة دخلتها أكثر الاقطار العربية ، وهو مفهوم متأثـر ـ دون ريـب ـ بالمفهوم الاوروبي للوطنية ، ولكنه ارتبط بالاسلام ، وبمفهوم الجهاد في سبيل الذود عن مميزات الشخصية العـربية الاسـلامية (9) ٠

وقـد كان لهذا المفهوم دور ايجابي في مرحلة التحرير الوطني من جهة ، وتـأثير واضح فيما نلمسه اليوم من مميزات الذاتية الوطنية في مختلف الاقطار العربية ٠

ومن المعروف أن ما يسمى بطبقة البورجوازية الوطنية بفئاتها الوسطى والصغيرة هي التى قـــادت مرحلة التحرير الوطني فى البلدان العـــربية ، وهي مرحلة عـرفت بمميراتها وتناقضاتها · يتحدث الاستاذ فائق محمد عن هذه التناقضات قائلا :

« ١ ـ كان المخاض الاول لحركة الثورة مخاضا بورجوازيا ، عاجزا عن ادراك ، أو تبنّي حتمية الصراع الجدلي بمختلف مدلولاته الطبيعية ، والاجتماعية والاقتصادية والثقافية ، وبالتالي كانت عملية المخاض تتصف بالعمومية ، وباثارة الحواهر القومية وبتزكية المبادرات الفردية فحسب ·

٢ ـ كـان التركيب الاول لحـركة الثوره العربية تركيبا هوقيـا ، قاعدته الطبقات الوسطى ، والبورجوازية الصغيره بجميع تداحلاتها ومشاكلاتها ···

٣ ـ جـــاءت اسهامات البروليتاريا العربية متاخرة فى هذه الحـــركة ونعنـي بالبروليتاريا العمال والفلاحين » (١٥) ·

وان هذه التناقضات جاءت نتيجة طبيعية للاوضاع المعقدة والمتناقصة التى عرفتها مرحلة التحرر الوطني ، ووجدت نفسها الفئات القيادية للمرحلة فى مفترق الطرق غداة الحصول على الاستقلال السياسي ، فقد احتـــدت التناقضات الداحليـة ، واستمرت التناقصات مع البلد المستعمر بالامس القريب ، فقد اتضح ان الاستقلال الحقيقى لا يتم الا بالاستقلال الاقتصادى والثقافى . وقـــد كان لاستمرار التبعية فى هذين الميدانين أثر سلبي ليس وطنيا فحسب ، بل قوميا أيضا ·

وكما فشلت القيادات الوطنية فى كتير من البلدان العربية فى حل مشاكل مرحلة ما بعد الاستقـــلال السياسى . والقيام بعمليه تحول جدرى فى الهياكل الاقتصاديـــة ، والاجتماعية والثقافية ، والتخلص نهائيا من الهياكل البالية المتحجرة التى تحول دون تحديث جذرية فقد فشلت الثورة العربية أيضا فى تحقيق ما طرحته فى اذهـان الجماهير العربية من مفاهيم وشعارات جديدة مثل حرب التحرير الشعبية . الحـرية والعدالة الاجتماعية ، تسريع عملية التحويل الاشتراكي . الارض لمن يفلحها ، القضاء على الفروق الاجتماعية ، تحرير الارض السليبة ، وغيرها من الشعارات · اننا لا ننكر الخطوات الايجابية التى انجزت هنا وهناك . ولكن المهـــم أن تقف الثقـافة العـربية المعاصرة موقف نقد جذري تجاه تلك المفاهيم والقيم ·

وينبغى أن يرى الفكر العربي الجديد فى الوطنية مرحلة تاريخية ضرورية لا تتناقض أبدا مع المصير الوحدوي للوطن العربي بشرط الا تستغل مـن قوى داخلية وخارجية لتعميق هـوة الاختلاف ٠

اننا لا نذيع سرا حين نقول هنا ان كثيرا من القوى المعادية للامـــة العربية فى الداخل والخارج قد استغلت فى الاعوام الاخيرة فشل العمل الوحدوي العربي لاسباب ظرفية موضوعية لتقوية الشعور الوطني ، وابرار المفهوم الاقليمي الضيق ٠

فلابد ـ اذن ـ من التفرقة بين التنوع الثقافى أي السمات المميزة لثقافة وطنية ما وبين مفهوم التعددية الحضارية ، أو الحضارية المتوسطية ، أو النزعة الاقليمية الشوفينية الضيقة لان وراء هذه المفاهيم تكمن فى حقيقة الامر أهداف تجزيئية تحاول أن تـؤجل أكثر ما يمكن بداية مرحلة الانتقال من حالة التجزئة الى الحالة الوحدوية ٠ ان للفكـر العربي المعاصر شانا خطيرا فى هذا الميدان ، فلابد أن يعي معطيات المرحلة ، ويحـدد المفاهيم تحديدا دقيقا ، ويشعر بخطر تيارات العزلة والتقوقع ٠

سئل أخيرا الكاتب المصري الشهير نجيب محفوظ . « الى أي مدى تؤيد الدعـوة التي تنادي بضرورة انعزال مصر عن الوطن العربي ، ومشاكل الامة العربية لتهتـــم بمشاكلها الخـاصة ؟ » ٠

فـاجـاب :

« طبعا ، انا لا أريد هذه الدعوة على الاطـلاق ، فحاضر مصر ومستقبلها مرتبط ارتباطا ارتباطا عضويا بالمجموعة العربية سواء من الناحية السياسية أو الاقتصادية أو الثقـافية » (II) ٠

قد يتساءل المرء فى النهاية عن دور الثقافة العربية المعاصرة فى مصير وحـــدة الـوطن العـربي ؟

انـه دور أساسي ومستقبلي ، فاذا أصيبت الاوضاع السياسية ، أو الاقتصادية بالتعثر ، والتأزم ، فان رسالة العمل الثقافى الوحدوي يجب أن تستمر ، وان تتغلـب على العراقيل الظرفية ، وينبغى على ممثلي تيار الفكـر العربي الجديد فى محاولتهم ايجاد المعادلة الصعبة التوفيق بين التغيير الداخلي ذي الطابع الوطني والعمل الوحدوي العربي الذي سيستفيد من كل تحول جذري يحدث فى أي قطر من الاقطار العربية ٠

يقـول محمد زفـزاف :

« نحن نشـــعر انـنا مدعوون الى التغيير فى نطاق التشبث بماضينا وحاضرنا العربيين ، اذ لا يمكن ان يتم هناك تغيير بعيدا عن الرقعة العربية ، فبقدر مـــا نطمح لتغيـير أوضاعنا الداخلية ، نزداد تشبثـــا بروحنا الوحدوية العربية » (12) ٠

1) انظر : في هذا الصدد ازمة التطور الحضاري في الوطن العربي الكويت 1975 ·

2) انظر مثلا : ملف عبد الناصر بين اليسار المصري وتوفيق الحكيم ، القاهرة 1975

3) راجع دراستنا عن « اختلاف الاتجاهات الادبية وآفاق المستقبل العربي » ضمن كتابنا « من قضايا الفكر » ، تونس ، 1975 ، ص 91 وما بعدها ·

4) انظر دراستنا « احياء تراث الفكر العربي دعامة أساسية لبناء مجتمع عربي حديث » ، ن· م· ، ص 111 وما بعدها ·

5) مجلة «المعرفة» ، كانون الاول ، 1977 ، ص 135 ·

6) راجع دراسة أدونيس : « خواطر حول بعض مظاهر التخلف الفكري في المجتمع العربي » ضمن كتاب « ازمة التطور الحضاري ·· » سبق ذكره ، ولا سيما خلاصة الدراسة ص 192 · وقد عرف بموقفه من التراث في كتابه « الثابت والمتحول » ، انظر نقد الاستاذ يوسف اليوسف « هل الامة العربية معادية للابداع ؟ » الموقف الادبي ، كانون الثاني ، 1978 ، ص 107 وما بعدها ·

7) راجع دراستنا « احياء تراث الفكر العربي ··· » سبق ذكره ، ص 121 وما يليها ·

8) انظر بحثنا : « من قضايا النخبة المثقفة في الاقطار العربية » ، مجلة « آفاق عربية » ، حزيران 1977 ، ص 100 وما يليها ·

9) راجع دراستنا · « التيارات الاصلاحية ومفهوم الامة والوطن » ، أبحاث الندوة الاسلامية الرابعة عن « العالم الاسلامي المعاصر . أوضاعه ومشاكله » ، القيروان ، فيفريّ 1978 ، تحت الطبع ، انظر أيضا تحقيقنا لوثيقة حول عدم مشاركة ممثلين عن اليهود في المؤسسات الدستورية للدولة التونسية قبيل الحماية ، المجلة التاريخية المغربية ، جانفي ، 1978 ، ص 117 وما بعدها ·

10) الموقف الادبي ، تموز ، 1975 ، ص 96 وما يليها ·

11) الموقف الادبي ، آب ، 1977 ، ص 119 ·

12) مجلة « المعرفة » ، كانون الاول ، 1977 ، ص 134 ·

الـــدين و اللغـــة و التـربيـــة
عنـد فيختـه (*)

ترجمة وتعليق من مولود قاسم نايت بلقاسم

يقول الفيلسوف الالماني الكبير يوهان غوتليب فيختـه ، في كتابه الكبير : « نداء الى الامة الالمانية »، فيما يقول، عن العناصر المكونة الامة ، ما يأتي:(1)

« ان وجود أمة من الامم بوجود إنيتها " Ichheit " ، التي هي شخصيتها ، وان هذه الشخصيه تتكون من عناصر ثلاثة : الدين ، واللغة ، وحب الوطن .

« ان تربية الشعب على التمسك بالدين والاخلاق هي أساس كل حكومة ، وعلى الحكومة ان تؤسس معهدا دائما لهذه التربية الدينية ، وهذا المعهد جزء لا يتجزا من مؤسسات كل دولة حكيمة طيلة دوامها » .

(*) هذه الفقرات المقتبسة سبق أن نشرناها فيما مضى . ولكننا نعيدها هنا نظرا لما أثير حول موضوع اللغة في السنوات الاخيرة من نقاش في ألمانيا مثلا ، حيث كتبت الجريدة الالمانية الشهيرة « فرانكفورتر الغماينى تزايتونغ « Frankfurter Allgemeine Zeitung » بتاريخ 12 أغسطس 1978 افتتاحية تحت عنوان « اللغة الالمانية هي المادة الرئيسيـــة « Superfach » أن اللغة الالمانية ينبغي أن تعود هي « مادة المواد » « Fach der Faecher » وكتبت لوموند الفرنسية بتاريخ 15 يوليو 1978 مقالا هاما في الصفحة الاولى تحت عنوان « اللغة هي الجنسية » « La langue, c'est la nationalité » ودار ما دار من أخذ ورد عندنا منذ أقل من عامين عن اللغة هل هي « شكل أم جوهر ؟ » .

نعيد اذن نشر هذه الفقرات من الفيلسوف الالماني متمثلين بقول أبي الطيب :

وليس يصـــح في الاذهـــان شيء اذا احتـــاج النهـــار الى دليـــل !

(1) J. G. Fichte « Reden an die deutsche Nation »

« وان ظن الدولة (أى الالمانية) بأنها فى استطاعتها تسيير الشعب بدون هذه التربية الدينيه والاخلاقيه ، وتهاونها فى هذه المسأله ، هما اللذان أديا بها الى الحالة التى تتخبط فيها اليوم ! » . (1)

« على ان هذه التربية الدينيه والاخلاقيه لا ينبغى أن يكون هدفها العالم السماوى غير الحسى فحسب ، اذ ان الحياة ارضيه وسماوية ، والذى لا يؤمن بالحياة الارضية مصيره الى الزوال السريع » .

« ان الفهم الحقيقى للاشياء هو ان الحياة الارضيه حياة حقيقيه جميله . علينا أن نحياها ونتمتع بها نحو شاكرين ، فى ظل احترام الدين والاخلاق ، وفى انتظار الحياة السماويه التى هى أعلى منها » .

« على انه اذا كانت فى الدين تعزيه للعبد المضطهدين عن عبوديتهم ، فان الروح الدينيه فى الواقع هى التى تسعى أن تحبب هؤلاء العبيد على رفض عبوديتهم تلك ، وعلى تحرير انفسهم . ويجب علينا ان نعمل كل ما يستطيع ضد استغلال الدين وامتهانه الى دركة (أى عكس درجه) جعله تعزية وسلوى للعبيد ! » .

« ان الطغاة يميلون طبعا الى امتهان الدين واستعماله كمخدر لحرمان ضحاياهم من الحياة الارضيه ، بدعوى ان حياة سماوية تنتظرهم . ولكن علينا الا نقبل من الطغاة هذا الامتهان للدين ، كما ان علينا أن نمنعهم من تحويل الارض الى جهنم ، ليشوقونا اكثر الى الحياة السماويه » .

2) ـ « ان اللغة هى رمز وجود الامة . وتقدير أصاله اللغة والمحافظة على اللغه الاصليه (2) أو فقدانها تكون المجموعة البشرية أمه وشعبا أصيلا أو مجرد أشتات فحسب » .

« واللغه أو المحافظه على الاصل تؤثر على التراب ، أى الوطن الجديد . فالالمان الذين هاجروا الى امريكا وكونوا هناك جاليات ومدنا،كامله يتكلمون بلغتهم . ويحيون حياتهم . ويحافظون على تقاليدهم . وبقوا ألمانا رغم تبدل التراب أى رغم حياتهم فى

(1) 1804-1814

(2) Ursprache

بلاد غير بلادهم الاصليه . أما الالمان الذين لو تغلب عليهم المحتل الاجنبى وانساهم لغتهم فهم لن يعودوا المانا رغم انهم نعوا فى ألمانيا » .

« ان اللغة هى التى تكون الانسان ، وليس العكس . وهى التى تؤثر فيه ، وليس العكس . فهى صدى روح الامه ، وتؤثر فى التصورات ، وتصبغ عليها معانى والوانا، وتعكس عليها اشعه أو ظلالا خاصة بها هى التى تجعل الانسان من هو ، وليست مجرد أداة يعبر بها الانسان عن نفسه . بل هى . اى اللغة . الطبيعة الانسانية التى تبرز منه فى شكل أصوات خاصه معينه لا يمكن ان تكون غيرها ، اذ بهذه الاصوات الخاصة التى هى صدى الروح . بما تحمله من شحنات عاطفيه . وتصورات ، ومفاهيم ، وذكريات مشتركة ، يتفاهم الانسان مع من يشاركونه نفس التصورات . ونفس المفاهيم، والطبائع ، والتقاليد ، والعادات . والذكريات . أى مواطنيه ، ولو كانوا ولدوا فى قارات أخرى غير قارته ! » .

« فهى تلك الطبيعه الانسانيه . أى الطبيعه الوطنية المشتركة ، التى تبرز فى شكل اصوات ، هى الالفاظ ، هى اللغه . انها التى تكون الخلية ، وتطبع الانسان بطابعها ، وتشكله بشكلها ، وتؤثر فيه التأثير العميق الذى يجعل منه انسانا آخر ، بمميزاته الخاصة به ! » .

« انها تلك القوة الطبيعية العارمه Naturkraft التى تندفق تلقائيا . وتؤثر فى الانسان والحياة تأثيرا مباشرا فعالا ، بما تشحنه من طاقة كامنة ، وقوة ديناميكيـــة فياضة تدفع الى الامام ! » .

« انها ذلك السيل المتواصل stetiger Fluss» لا بمعنى السيلان الدائم الديمقريطى (1). ى التغير ، بل بمعنى الدوام ، والاستمرار ، والتواصل ! » .

« ان الذى يفقد لغته يمزق الخيط الذى يصله بالاجداد ، ويفقد معها حلقات ماضيه ، يشعر بفجوة عميقة حقيقية فى تطوره ، ينقطع عن أصله ، كجلمود صخر انفصل عن

(1) ديمقريطى . من ديمقريطوس ، الفيلسوف اليونانى الشهير صاحب نظريـــة سيلان الدائم ، أى التغير ، ونظرية الذرة .

لصخره الأم ، وحطه السيل من عل ، فجرفه وقذف به بعيدا الى اعماق الذوبان ، الامحاء ، واللاوجود . لان اللغة الاصلية هى الحياة ، والتى تمد بالحياة ، ولان الامم لمغلوبة التى تفقد لغتها تندمج وتذوب فى جنس اللغة الغالبة ! » .

« ان اللغه تؤثر فى الشعب المتكلم بها تأثيرا لا حد له . تمتد الى تفكيره ، وارادته ، عواطفه ، وتصوراته ، والى أعماق اعماقه ، وان جميع تصرفاته تصبح مشروطه بهذا لتأثير، ومكتنفة به » .

« بل وابعد من هذا : ان الشعب المتأثر بلغه أجنبه يبتلع بدون شعور حتى الشتائم لموجهه اليه ، وبتبناها ، ويوجهها الى نفسه ، رغم انها ضده ، وعندما يعيش من ذلك كل ما يبقى له هو محاولة التجرد من نفسه ، وتقمص شخصيه الامة الغالبه مادبا ، و روحيا ، أو كليهما معا ، حتى تتم اندماجه فيها كلية ولا ينطبق عليه كلمات التحقير لمخصصة لبنى قومه » .

« ولأن اليونان عرسوا فى الرومان مركب النقص وسموهم الموحشين Barbaren ، حاول الرومان طاقة جهدهم تقليد اليونان فى كل شىء ، لتتخلصوا من جلبابهم ، تصبحوا يونانا . ولا ينطبق عليهم صفه الموحشين » .

«وكذلك لان الرومان وصفوا الالمان بهذا النعت بذل هؤلاء الاخيرون كل ما استطاعوا س جهد لتقليد الرومان والاندماج فيهم ، وذهب بهم مركب النقص.والتأثر بالرومان ، والمعلق بهم ، والحرص على التشبه بهم ، الى حد الغاء جميع الكلمات التى تبدو عليها طابع الاصالة الجرمانية ، ليحلوا محلها كلمات لاتينيه ، لان هذه الاخيرة فى نظرهم تنال النبل ، والاناقة ، ورمز الثقافة الرفيعه ! وحتى عندما تفيت هناك كلمات المانية تجانب كلمات لاتينية بنفس المعنى كان أجدادنا الجرمان اولئك يستعملون الكلمات للاتينية طبعا ، ويفضلونها على الالمانية التى كانت فى نظرهم تحكم اندماجهم ومركب لنقص لديهم رمز التأخر ، والدنائية ، والهمجية ! »

« مساكين أولئك المندمجون الهاربون من اصلهم ، اللاجئون الى اعدائهم ! وهذا مرض عميق فى نفوسنا ، نحن الالمان ، حتى جاء مارتين لوتر فأحيا الالمانية من جديد ، وبعث فيها النشاط والقوة ، وأرجع لها مكانتها وأصالتها ! » .

« ان لكل أمة من الامم هى قوتها الطبيعية . كما ذكرنا . وعليها ان تستنفد كل ما فى هذه اللغة من امكانيات ، وملكات ، وقوة طبيعية للتعبير عن نفسها ، مع تنسيق الالفاظ ، واختيار المعانى ، بحيث تصبح كلا متناسقا . منسجما انسجاما منطقيا ، ودالا دلالة واضحة تامة » .

« اما تلك الطبقة التى تتساهل فى لغتها ، او تريد تبسيطها ، وتتوخى السهولة وتتحاشى الالفاظ الصعبة النطق . فهى لا حق لها اطلاقا فى المشاركة معنا فى هذا الموضوع . اذ ان هذه الطبقة نفسها هى التى تتساهى بكل ما هو أجنبى عنا من لغة وعادات ، ولباس . وترى فيه النبل كل النبل ! » .

« وان هذا المرض ، مرض التهافت على كل ما هو من الخارج لدى طائفة من مواطنينا، هو أصل جميع مصائبنا ، وسبب الهوة التى تزداد اتساعا بين هذه الطبقة المترطنة بلغة الاجانب ، والمتباهية بزيهم فى الملبس . والمقلدة لهم فى الاخلاق ، وعامة الشعب الممسك بأخلاق البلاد ، والمحافظ على لغته التى هى قوته الطبيعية ، والضامنة لأصالة شخصيته ، واستمرار وجوده ! » .

« والدولة التى تفرض على الشعب التجنيد الاجبارى لرد الغزو المادى ، مع احترام حقوق الفرد وحريته فى الظروف العادية ، لا تحق لها فقط . بل يجب عليها ، ان تفرض عليه ايضا التربية الصحيحة لتحصينه من الغزو الروحى ، وتضمن له الاستمرار والخلود . **وكل تربية صحيحة سليمة لا يمكن ان تقوم الا على أساس اللغة القومية الاصيلة التى هى القوة الطبيعية الاولى للامة !** » .

« ولان ضمان استمرار الامة متوقف كل التوقف على هذه التربية ، نرى ان حل مشكلة التربية شرط أساسى لحل جميع المشاكل الاخرى ، وان الامة التى تحقق التربية المثلى هى الوحيدة التى تستطيع أن تحقق الدولة المثلى ! » .

« **وفى هذا السياق تتحتم علينا كتابة تاريخ أمتنا** ، تاريخ يلهب ويحمس ، ويدفع بنا الى الامام . تاريخ يكون لدينا مثل الانجيل ، ويقرأ بنفس الحب . والتقديس . والاجلال ، تمجيدا للاجداد . وحثا لأنفسنا على اقتفاء أثرهم ، لنكون جديرين بالانتساب اليهم ، ولنترك شيئا للاجيال المقبلة ، لاستمرار شخصيتنا ! » .

« ان هذا الفسخ والمسخ لروحنا ، وان هذا المحو لشخصيتنا وإنيتنا " Ichheit " **وان هذه التبعية العقلية والعاطفية للاجنبى ، وهذا الانسلاخ عن الشعب،كل هذا يؤدى الى حب التقليد للاجانب** . وترك الشعب بعدا ، **بل يؤدى حتى الى خيانته وغدره، وصراخ فى وجهه اذا ما نادى للرجوع الى اصله واحترام اصالته ! »** .

« وهذه التبعية نجدها احيانا تختفى ، وتتستر ، وترتدى اردية مختلفة تتقنع بها . ولكنها تنكشف فى النهاية ، مهما كان مخبؤها عميقا ! » .

3) وعن العنصر الثالث للشخصية وحياة الامة ، وهو حب الوطن ، يقول فيخته :

« فكما ان الدين هو العنصر الدائم لحياتنا الروحية العليا ، كحياة روحية بمعنى الكلمة ، فان حب الوطن هو العنصر الدائم والاساسى لحياتنا المدنية كمواطنين » .

« ان الوطنى هو الذى يعمل على تحقيق هدف الانسانية فيما **كل شىء فى امته التى هو عضو منها** . ان الوطن خالد ، هذا الوطن الارضى الحسى الذى نحن فيه ، وان الذى لا يحب وطنه ليس له وطن . وانى لأرثى كل الرثاء لمن لا وطن له ! » .

« ان الذى يريد الخلود لنفسه لابد أن يريده لوطنه . وان الوطن لخالد . والحب لا يتعلق الا بالخالدات ، والذى يريد الخلود لوطنه ارادة حقه يدركه لا محالة ! » .

« انظر فقط الى مثل الرومان وتمجيدهم لروما . لانهم كانوا يرون فيها الخلود ، لها ، ولانفسهم من خلالها ، ولكل ما تمثل من قيم فى نظرهم ! وقد تحقق لهم ذلك ! فكل ما فى روما حقيقة خالد ، لانها ارادة شعب كامل اراد لها ذلك الخلود ! » .

« ونحن الالمان ، كيف كنا سنصبح تحت حكم الرومان الذين كانوا يزحفون لاحتلال أرضنا ، ومحو لغتنا ، والقضاء على تقافتنا . لولا حب الوطن هذا ، ولولا رغبة الخلود لدى اسلافنا ، ولولا كفاحهم الطويل المرير ؟ » .

« لقد حاول الرومان أن يغدقوا علينا نعمهم كلها ، التى كانت تتمثل فى الالعاب ، وفى ثقافتهم ، ولغتهم ، وعاداتهم،مع العمودية . لتعويضنا بذلك كله عن حريتنا ، وتقافتنا ، ولغتنا ، وعاداتنا » .

« ولكن اسلافنا اعتبروا جميع تلك النعم نقما ، وقاوموا،وتشبثوا بلغتهـــم ، وثقافتهم ، وعاداتهم ، وحريتهم . وبفضل كفاحهم ورغبتهم في الخلود بقينا من نحن ، أي الالمان الى الابد · ولاسلافنا أولئك ندين أيضا حتى تلك القبائل والشعوب الجرمانية الاخرى التي لم يمحها الرومان من الوجود ! » ·

« وعلينا بقع اليوم عبء ومسؤوليه العمل على ازاله شبح العبوديه الجديدة في شكل الرومان الجدد . الذين يريدون أن يمحوا كياننا ! » · (1)

« علينا ان ندافع عن ثقافتنا ، وأصالتنا ، ولغتنا ، حتى نبقى دائما المانا . ونضمن الخلود لانفسنا وابنائنا ، وأحفاد أحفادنا الى أبد الآبدين ، ولننفى من نحن ، بجميع مقوماتنا وعناصر كياننا . أي ان نبقى ألمانا ! » ·

« وانا سننقلب في النهايه ، لان النصر ليس للقوه المادية ، ولا لكثرة الاسلحة وتنوعها ، بل للقوه الروحيه ، للعزم وارادة الخلود ! » ·

« ارجو ـ وربما اخطأت في هذا الرجاء، ولكن بما اني لا اريد ان ابقى حيا بعد اليوم الا من أجل هذا الرجاء ، لا اريد الا ان اتمسك به . وهو ان اقنع بعض الالمان بان التربية وحدها هي التي ستخرجنا من هذا المازق ، وتنقذنا من جميع هذه المصائب التي بلينا بها ، وليضحك كل من يساوره نفسه بالضحك من هذا الامل ، وليسخر بي من شاء » ·

« ان الاشياء بأسبابها · ونحن نعرف الاسباب التي أدت بنا الى ما نحن عليه الآن ، هو الاهمال والتهاون · ولكن هذا الاهمال كان في الماضي ، ولنترك الماضي ماضيا لانه خارج طاقتنا » ·

« ولئن كان الحاضر أيضا ليس في وسعنا لانه نتيجة لذلك الماضي . فان المستقبل بأيدينا ، وعلينا ابتداء من اليوم ان نعد أنفسنا لمستقبل جدير بنا وبأمتنا · **وكـــل من تتجاوز اهتماماته البحث عن الخبز فقط مطالب بان يساهم في هذا التجنيد لاعداد المستقبل** · وليكن المسؤولون الاولون في الدولة ، ومساعدوهم ، ومستشاروهم ، على

(1) حملة نابليون على المانيا والنمسا ·

راس العاملين لهذا المستقبل ، حتى نرى فى حياتنا ذلك اليوم الذى يمحى فيه العار الذى الحق بالاسم الالمانى وبألمانيا محوا نهائيا والى الابد ! » .

« **ان التربية فقط هى التى تستطيع أن تنقذنا من هذه الهمجية الانحلالية الزاحفة علينا** ، ولذا يتحتم على جميع الالمان **الذين يتمتعون بمعرفة الالمانية . وليس فقط بالجنسية الالمانية** ، ان يعملوا من أجل هذا الهدف الوطنى المشترك بين جميع الدول والدويلات الالمانية اللغة ! » .

« **ان هذه التربية ينبغى طبعا أن تكون باللغة الالمانية . والمعلمون ينبغى ان يعلموا بالالمانية ، والكتب الدراسية تكون بالالمانية . وذلك انى لا اتصور كيف يكون الامر غير ذلك ! انى لا أتصور أن تكون هذه التربية بلغة اخرى غير الالمانية . انى لا اتصور أن يعلم المعلمون وتؤلف الكتب الدراسية بلغة أخرى غير اللغة الالمانية . أية كانت هذه اللغة ! »** .

« **ان هذه التربية يجب أن تكون وطنية** بمعنى الكلمه . **لا مواد اجنبية مترجمة** ، بل باللغة الالمانية ، تتدفق من ينابيعها ، ونستمد قوتها من حياة هذه اللغة ، **التى سميناها القوة الطبيعية للامة ! »** .

« انى ادعو الدول الالمانية الى التسابق فى هذا المجال ، وان الفصل سيكون للتى ستأخذ المبادرة . وستتلوها جميع الدويلات الالمانية الاخرى معترفة لها بالجميل ، والاحترام للجذع المشترك ، وشاكرة لها قصب السبق كاكبر محسن الى الامة كلها ! » .

« ان الموقف خطير ، وانى لا أمزح . ولست هنا لأحكى لكم آخر نكتة . هذه العادة السيئة التى بدأت تتفشى لدينا ! وذلك ان الامة الالمانية أمة مهددة فى كيانها وانتها المميزة لها عن الغير ! » .

« ان اللغة تسير جنبا الى جنب مع الاستقلال ، فالشعب الذى يفقد الاستقلال ، يفقد

لغته بصورة آليه · وحتى اذا لم يفقدها ، فلا يمكن ان يكون لها ادب . وذلك انه اى ادب يمكن أن يكون لشعب فقد استقلاله السياسى ؟ » ·

« كما ان الذى يفقد لغته ينتهى به الامر الى الذوبان ، كما ذكرناه آنفا ، وذلك ان اللغة هى القوة الطبيعية الاولى لأمة ما ، فهى صدى روحها وأصالتها . (1) وهى لسان شخصيتها والحافظة لتراثها ، والضامنة لاستمرارها الروحى . والرابطة بين أجيالها الى آخر الايام ! » ·

« **ان العبد ياخذ لغة سيده** . الا ترى الآن أدباء لنا وقد بدأوا يتسابقون الى الكتابه بلغة المحتل ، للمدح،والملق ، والتقرب ؟ ماذا سيكون المصير بعد جيل ، أو جيلين ، أو ثلاثة ؟ » ·

« ان التاريخ يعلمنا انه كلما وجدت أمه من الامم الا وكانت لها لغتها الخاصة ، وان فقدانها لهذه اللغه يؤدى بها لا محالة الى ففدان وعيها ، وانيتها . وذاتيتها ، لان المحتل يحرص دائما على فصل ضحاياه عن ماضيهم بقطع وسيله الاتصال التى هى صدى اسلافهم ، والقوة الطبيعية الحبه لامتهم ، اذ ان اللغه المكتوبة هى الاسمنت الذى يضمن تماسك الوحدة الوطنية ، وهى العروه الوثقى التى تربط بين الاحياء ، وتصل بالاموات، وبكتب بها سجل الامم ! » ·

« ان شخصيه امة من الامم ليست شيئا اصطناعيا ثانويا . بل هى شجرة تضرب بجذورها فى اعماق تلك الامة · وان عظمة أمة من الامم ليست فى المظاهر العابرة ، وعبقرية الرجال لا تقاس بالتماثيل التى تقام لهم ، ولا بالتصفيق والهتاف اللذين يقابلون بهما ، ولا هى فى الالقاب التى يسبغونها على أنفسهم ، وانما تقاس بالاعمال التى يقومون بها ، وتنمثل فى راحة ضميرهم ، وحكم الاجيال . وسجل التاريخ ! » ·

« ولذا لا أفهم هؤلاء الذين يتملقون هذا العبقرى العظيم (1) الذى يريدون أن

---

(1) يقصد نابليون الذى احتل المانيا ورحب به غوته Goethe مهللا . وهمبولدت Humboldt ، ومولر Mueller ، وهيغل Hegel ،وغيرهم . بينما كان هو ، فيخته ، وبيتهوفن، وصديقهما الشاعر الثورى شيللر Schiller يرفضون كل اتصال به ويقاومونه . كل فى ميدانه ، وينادون الشعب الالمانى الى المقاومة · وعندما كتبت زوجة فيخته الى زوجها تخبره باستقبال نابليون لهمبولدت اجابها فيخته . وهو بعيد عن برلين . « انى لن يحصل لى مثل هذا الشرف المخزى ! » « Hegels Leben » S Rosenkranz «diese schmachvolle Ehre '»

يسندوا اليه مهمة توجيه العالم وتسيير الشؤون الدولية ! » .

« ان هؤلاء المساكين لا يعرفون معنى العظمة والعبقرية ! » .

ويمضى فيخته فيقول لهؤلاء المملقين ـ كما يسميهم ـ . « لا ، أيها الالمان ، أيها المواطنون ، لا نسمح لكم بهذا الهراء ، **ولا نتركم تدنسون لغتنا الى هذا الحد بتملقكم هذا ، وهى التى خلقت للتعبير عن الحقيقة ! »** .

« أيها الامة ، أيها الالمان ، استمروا فى تومكم وتهاونكم ، حتى تفقدوا جنسيتكم ولغتكم . وان أبناءكم هم الذين سيدفعون ثمن تهاونكم هذا ! **افقدوا اعز ما يملكه الانسان ، الخلق ، وذوبوا فى غيركم ! »** .

« لا أيها المواطنون ، بل قوموا ودافعوا عن بلادكم ، وشخصيتكم ، ولغتكم ، وتقوا أن اصوات الاجداد الذين طردوا الرومان من هذه الربوع ، وحرروا هذه الجبال ، والسهول ، والانهار ، تمتزج الآن ، فى هذه اللحظه ، تناديكم هذا البكم ، لتحكم على ابعاد أصالتكم ولغتكم ، واسترجاع حريتكم ، ولا تلحقوا بهم العار والشنار ! » .

« قوموا ، ان مصير الانسانية كلها مرتبط بكم ، وموقوف على مصيركم ، واذا عرفتم فستغرقون الانسانية كلها ! » .

« هل تعرفون شيئا أدهى من الموت ؟ ان الموت ينتظرنا على كل حال ، قمنا أم لم نقم . وقد ضحت شعوب بحياتها لمسائل أقل أهمية بكثير من قضيتنا . وهل هناك قضية أهم من هذه ؟ » .

« هذا ما أردت أن قوله لكم ، وأؤكده ، وكان واجبا على أن أقوله وأؤكده ! » . (1)

يوهان جوتليب فيخته

(1) وبهذا ختم نداءه الى امته وذهب ليتطوع فى الجيش، وتبعه أغلب تلامذته من جامعة برلين ، كما تبعته زوجته ، ولكنه لم يقبل فى الجيش ، ورجع الى الجامعة يحاضر ، ويوجه نداءاته ، وينتقل من جامعة الى أخرى . ثم اعاد الكرة ورفض من جديد ، ولكن زوجته قبلت كممرضة فى احد مراكز الجرحى ومرضى الاعصاب من الجيش فى برلين . فأصيبت بعدوى ومرضت ، وعوض العناية بها ظل فيخته يحاضر ويوجه نداءاته فى جامعة برلين ،

« لينطلى بصوته طبول نابليون ومزاميره وهى تضج حول الجامعة » (2) . وفى احدى المرا
قفل الى البيت مهرولا فوجد زوجته فى حالة سيئة وقد تفاقم مرضها ، فأخذته الشفقة عليه
واقترب منها كثيرا يسألها عن حالها . فأصابته العدوى ومرض بدوره !

وعندما قدم له ابنه دواء قال لـفيخته رافضا : « دع . كفى . (3) انى انتهيت ! »
ومات فى سبيل مبادئه ووطنه بعد أن تحررت بلاده بأيام قليلة ، وذلك فى 27 من يناير
1814 ، مرتاح الضمير . هادئى البال ، راضيا عن نفسه ، ولا يزال يعتبر حتى اليـــو
كاكبر (4) أنصار الحرية من بين الفلاسفة الالمان ، الى جانب استاذه كنط . وصديقه شيللر
وصديق الجميع : الموسيقى الثائر الخالد : لودفيغ فان بيتهوفن . الذى ظل يزمجر بأقواله
ويرعد بالحانه (5) ، ويحرك العزائم والهمم . انتصارا لبلاده . ولقضية الحرية ككل

1) Fichte « Reden an die deutsche Nation »
2) Th Vogt « Fichtes Biographie »
(3) W. O Doering «Fichte »
(4) Th Vogt « Fichtes Biographie »
(5) Pahlen . « Musikgeschichte der Welt »

الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلاميـــة

نظمت وزارة الشؤون الثقافية التونسية بمدينة المنستير ايام 20 ـ 21 ـ 22 أكتوبر 1978 الملتقى الثـانى للامام المازرى وخصص هذه المرة لمعالجة موضوع من اهم المواضيع الفلسفية لا في تاريخ التفكير الفلسفى الاسلامى فحسب ، وانما فى تاريخ التفكير الفلسفى عموما • وهو موضوع : « الحرية والحتمية فى الفلسفة الاسلامية » •

وشاركت فى هذا الملتقى نخبة من رجال الفكر والثقافة فى تونس . من الجامعه ، ومن قطاعات ثقافيـة أخرى ، بالاضافة الى اطارات ولاية المنستير ، وطلبة الثانويات بالجهة •

وبالنسبة للخارج . فقد دعيت الجزائر ، ومثلها كاتب هذه الكلمات ، بالتعقيب والمناقشه • ومن المغرب الاستاذ الدكتور محمد عزيز الحبابى •

واشرف على جلسة الافتتاح الاستاذ محمد اليعلاوى ، وزير الشؤون الثقافيه . والعميد السابق لكليـة الاداب بالجامعة التونسية ، الذى القى كلمة رحب فيها بالوفد الجزائرى والمغربى • وعبر عن امله فى استمرار هذا التعاون الثقافى على المستوى المغاربى (كما يعلو لصديقنا الحبابى ان يقول) . خاصه ، وتنميته عـلى الدوام • ودعا الى تركيز الموضوعات مستقبلا ، على الاهتمامات المشتركـة للبلدان المغربيـة لوحدة تراثنـا الثقـافى •

ثم قدم توجيهات ، وملاحظات حول اسلم السبل لنشر الثقافه فى مختلف المناطـق التونسيـة . وضرورة الانطلاق من مبدا العدالة فى توزيع النشاطات ، او ما يسمى باللامركزية الثقافية والخ ، بصفة خاصة عـلى ضرورة مشاركة اطارات الجهة التى تعقد فيها هذه الملتقيات لان هذه فرصه لابراز المواهب . والكفاءات المتوفرة خارج العاصمـــة •

والملاحظ ان هذه الملتقيات تعقد دائما تحت شعار شخصيه من الشخصيات الثقافيه التونسيه ، ويكـون موضوع الملتقى مستمدا من الاتجاه الثقافى الغالب على هذه الشخصية •

والملاحظ ان التجربة التونسية فى هذا الميدان تقوم على اساس تكوين لجان ثقافيه فى كل ولاية ، تتوفر على تجهيزات مادية من شانها ان تلبى حاجيات السكان فى الاستمتاع بالثقافة بمختلف فنونها • وتتولى تنسيق نشاطات هذه اللجان . لجنة تسمى « اللجنة الثقافية القومية » ، مركزها بالعاصمـــة •

وكل المحاضرات التى تلقى تطبع فى كتب تعميما للفائدة ، العاجلة والآجلة •

ان هذه التجربة التى تتبعها تونس تستحق كل التنويه ، ونتمنى لها التطور المستمر . والفعالية المتزايدة لما فيه خير الثقافة ، وخير المواطنين التونسيين •

ونامل ان تتضافر الجهود . وتتكامل ، بين المسؤولين عن الثقافة فى البلدان المغربية خاصة ، لاشاعـة الثقافة على اوسع نطاق ممكن ، ومجاوزة حالة التخلف التى عرقلت . وتعرقل . كل طموحنا الى الحياة الانسانية الراقيـة •

وفى اطار المساهمة فى خلق هذا المناخ ••• مناخ التفاعل والتكامل تنشر الاصالـة فى هـذا العـدد بعض محاضرات هذا الملتقى الهام ، الملتقى الثانى للامام المازرى •

عثمـان شبـوب

حـول مشكلـة القضـاء والقدر
فى الفكـــر الاســـلامى

د. الحبيب الفقي
أستاذ الفلسفة بالجامعة
التـونسية

ابعـاد المشكلة :

لقد أحس المفكرون المسلمـون بوضعية الانســان الغامضة والمقلقة ، وبالظروف التى يعيش فيها وعلاقاته بنواميس الطبيعة وبالاله · وقد فهموا ان كـل دقيقـة تمر من عمر الانسان الا وتحمل فى طياتها سرا من اسرار القدر المجهـول · نعـم ان وضعية هذا الكائن وتصرفاته وعلاقاته بالآخرين وما تعرض له من أحداث لتبعث على القلق والحيرة وبالتالى على التامل والنظر · فمنـذ القرن الرابـع الهجرى وصف اخوان الصفـاء ملحمة البؤس والشقاء التى يتقلب فيها الانسان فقالوا : « ··· تعيش النفس محبوسة فى عالم الغربة وموضع المحنة والبلوى غريقة فى بحر الهيولى ، مبتلاة فى اسر الطبيعـة مشتعلة فيها نيران الهاويـة الموقـدة · المطلعة على الافئدة من حريق الشهوات ، فاصبح الناس فى الدنيا معذبين فى صورة المنعمين ، مجبورين فى صـــورة المختارين ، مغرورين فى صورة المغبوطين ، أحـــرارا

كراما فى صورة عبيد مهانين ، مسلطا عليهم خمسة حكام يسومونهم سوء العذاب ، ينفذون احكامهم عليهم شاءوا أو ابوا ، ليست لهم حيلة فى الخروج عن أحكامهم ولا دفع سلطانهم ولا الخلاص من جورهم الى الممات ٠

أما الحاكم الاول فهو هذا الفلك الدوار الذى نحن البشر فى جوفه محبوسون ، وكواكبه السيارة التى لا تزال تدور علينا ليلا ونهارا لا تقر ، تارة تجيئنا بالليل وظلمته ، وتارة بالنهار وحرارته ، وتارة بالصيف وسمائه ، وتارة بالشتاء وزمهريره ، وتارة بالرياح العواصف فى زعازعها ، وتارة بالغيوم وامطارها ، وتارة بالرعود والزوابع وصواعقها ، وتارة بالحدث والعلاء والموتار والبلاء ، وتارة بالحروب والفتن ، وتارة بالهموم والاحزان ، ليس منها نجاة الا بجهد وبلوى وكدر وعناء وخوف ورجاء الى الممات ٠

واما الثانى فهو هذه الطبيعة وأمورها المركوزة فى الجبلة ، من حرارة الجوع ولهب العطش ، ونار التوق ، وحريق الشهوات والآلام والامراض والاسقام ، وكثرة الحاجات،وليس لنا شغل ليلا ولا نهارا الا طلب الحيلة لجر المنفعة ، أو لدفع المضرة عن هذه الاجساد المستحيلة التى لا تقف على حالة واحدة طرفة عين ، فنفوسنا منها فى جهد وبلاء ، وكد وعناء ، وبؤس وشقاء ، ليس لنا راحة الى الممات ٠

واما الثالث فهو هذا الناموس ، وأحكامه وحدوده ، وأوامره ونواهيه ، ووعيده وزجره ، وتهديده وتوبيخه ، ان خرجنا من احكامه فضرب الرقاب والحدود ، وان فررنا منه لم نجد لذة العيش ولا صلاح الوجود فى الوحدة ، وان دخلنا تحت حكامه فما نقاسى من الجهد والبلوى ، فى اقامة حدوده ، اكثر مما يحمى من الم الجوع عند الصيام وتعب الابدان عند القيام للصلاة ، ومقاساة برد الماء عند الطهارات ومعاهدة شح النفوس عند اخراج الزكاة والصدقات الواجبات ، ومشقة الاسفار والاحكام عند قضاء الحج والجهاد ، وما نقاسي من الالم عند ترك اللذات والشهوات محرمات ، وان لم ناتمر ولم ننته ، فالحدود والاحكام بحسب الجنايات ، ومع هذه كلها « **كلا سوف تعلمون ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم ثم لترونها عين اليقين ثم لتسألن يومئذ عن النعيم** » ٠ فهذه حالنا ليس لنا منها خلاص ولا نجاة الى الممات ٠

وأما الرابع فهذا السلطان القاتر الذى قد ملك رقاب الناس بالقهر والغلبة ، واستعبدهم جبرا وكرها ، يتحاكم عليهم كما يشاء ، ويرفع ويكرم من يريد ممن يخدمه

ويطيعه ، ويتصرف بين يديه ويتمثل امره ونهيه ، ويضع ويبعد من خالفه ، ويعذب ويقتل من خانه أو غشه · فاذا خرجنا من مملكته ، وفررنا من سلطانه فلا عيش لنا في الوجود في هذه الدنيا . الا عيشا نكدا ، لاننا قد نحتاج في لدة العيش وصلاح المعاش الى الجم الغفير من المتعاونين في المدن والقرى ، في اصلاح أمر المعاش . ولابد لهم من سلطان يملكهم ويراسهم ويحكم بينهم فيما يختلفون فيه ويتنازعون ، ويمنع الظالم القوي من التعدى على الضعيف المظلوم ، ويامن لخوفه السبل ، وياخذ الناس بلزوم سنة الناموس ، وتادية موجبات فرائضه التي في اقامتها وحفظها صلاح الجميع ·

فلهذه العلة وبهذا السبب لا يمكننا الخروج من المملكة ، ولا الفرار من سلطانه فان خدمناه وقمنا بواجب طاعته ، فما نقاسي من الجهد والبلوى أكثر من أن يحصى من تعب الابدان ، وهموم النفوس ، وعناء الارواح وتلف الاجساد ، واحتمال الذل وشماتة الحساد ، ومداراة الاحوان ، وعداوة الاقران ومشقة الاسفار ، ومخاوف الحروب ، وما يتكلف من التعب والعناء في جمع الآلات والاثاث من السلاح والدواب وحوانجها ومرافقها مما لا يحصى عددها كثرة ، وليس لنا منها راحة الى الممات ·

واما الخامس فهو شدة الحاجة الى المواد التي لا قوام لهذا الهيكل الا بها من المأكولات والمشروبات واللباس والمسكن والمركب والاثاث . وما لا بد منه في قوام الحياة الدنيا ، وما نقاسي من الجهد والبلوى في طلبها ، ليلنا ونهارنا ، في تعلم الصنائع والتجارات المتعبة ، والمكاسب المكدة من الحرث والزرع ، والبيع والشراء ، والمناقشة في الحساب ، والحرص والشره ، وجمع الاموال وحفظها من حيل اللصوص ومكابرة القطاع ، وأخذ السلطان لها بالجور والظلم . وحراستها من الآفات العارضة التي لا يحصى عددها · كل ذلك بالكد والعناء والهموم والغموم ، وتعب الابدان وعناء الارواح وشقاء النفوس التي لا راحة لنا منها الى الممات · فهذه حالنا يا أخي وحال أكثر أبناء جنسنا في هذه الحياة الدنيا (I) ·

ان هذا النص الذى يحدد ابعاد المشكلة ليصف الحيرة والقلق الناجمين لا عن قسر الطبيعة وحدها بل وعن الظروف السياسية والاجتماعية وعن ضعف الكائن البشري · وهذا ينطبق تماما مع ما جاء في القرآن : « لقد خلقنا الانسان في كبد » (90 : 4) ·

I) رسائل اخوان الصفاء ج 3 ص 306 ــ 309 ·

وفى هذا المعنى يقول ألفريد نورث وايتهد بعد عشرة قرون : « فان عادات الطبيعة المادية عموما وقوانينها الصارمة هي التى تعد المشهد الصارخ لعذاب البشر ، ونجد ان المولد والموت والحر والبرد والجوع والعراق والمرض والطابع اللاعلمي العام الذى يطبع كل اهدافنا · هذه العوامل كلها هي التى تقيد النساء والرجال ، ولا تستطيع تجربتنا ان تلحق بآمالنا » (2) ·

الحرية والوضع الاسلامي :

لقد ظهرت مشكلة الحرية فى المجتمع الاسلامى فى ظروف الصراع المذهبى حين تسمت الرقعة الاسلامية . ودخل الى الاسلام شعوب متباينة لغة وحضارة . وراحت ان تفهم الاسلام فاختلفت فى فهمها له ، وتحزب كل فريق الى آرائه ومبادئه ، ولعب رجال السياسة دورهم حسب ما تقتضيه مصالحهم · وادى الاحتكاك بين العناصر المختلفة فى الثقافة الى تلاشى مفهوم الحرية فى جو من الجدال لم نجن منه الاحيال غير الحلول المبهمة · · ومن الخطل أن ننظر الى هذه المسألة نظرة جدال وتراع فكرى فحسب فقد لعبت دورا حاسما فى الميدان العلمى · وبنيت عليها مسائل كان لها أكبر المساس بالحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية،لكن هذه المسائل وما دار حولها من نقاش والف فيها من كتب كانت قد اهملت الانسان بما له من قدرات وطاقات خلاقة ، وسلبت منه الاطمئنان وارغمته على قبول ما تشيعه من آراء فى سبيل الحماس الديني الذى كانت بواعثه عداوة الفرق لبعضها ·

واستمرت هذه الآراء التى ظهرت فى القرون الاولى للاسلام والتى تمثل الاتجاهات الكلامية المختلفة ، خلال قرون عديدة ، بل الى اليوم ، وانطقت اقلام كثير من المدافعين عنها على انها صرح حضارة الفكر الاسلامي ، بينما بقي الفرد المسلم فى حيرة ولم تسعفه تعدد التفسيرات الكلامية الغامضة ، كذلك ظهر فريق من المسلمين يرى فى النظام الجديد الذى فرضه الاسلام فى المجتمع الجديد تحديدا لحرية الفرد وكبتا لمشاعره وطمس يمزق الحواجز التى عندها تقف الحرية الانسانية . وينادى بالفوضى متسترا بمبدا القدرة الالهية المطلقة (3) ·

---

2) مغامرات الافكار ، ص 106 ·

3) يروي انه اتي بسارق الى عمر ، فقال له الخليفة · لم سرقت ؟ فقال . قضى الله علي بذلك ، فأمر به عمر فقطعت يده ، وضربه اسواطا ·

اثـر الالوهية والنبوة فى المفكرين واصحاب المذاهب :

غير ان هناك عاملين لعبا دورا حاسما فى معالجة المسائل الاسلامية وفى تحديد وجهة التفكير الاسلامي وهما الالوهية والنبوة ·

ان مسالة الاله كان لها بعيد الاثر فى تحديد نشاط الانسان وبواعث اعماله ، وقد اهتم علمـــاء الاسلام بموضوع الاله وبالشريعة أكثر من اهتمامهم بالفرد الذى لاحلـه نزلت الشريعة ، فاضفوا على الاله صفة الكمال المطلق ، وكل صفة دلـت على معنى الاطلاق وحدوه بها ، وبالتالى اصبحت نظرتهم الى الانسان فاترة ، فحكموا عليه لا من حيث هو الفرد الحائر على التقويم والتكريم بل من حيث هو العبد المقهور المتلقي من الله أوامره والمنفذ لاحكامه دون ارادة منه ، فقضوا عليه بالتبعية ، وسلبوه كل استقلال لذاتيته واضحى دور الفرد مبهما ·

ولاشك ان هذا الاتجاه وبقيصه قد ساهما فى وضـع مجموعة من الاحاديث التي اذا فحصناها فى ضوء الحقائق الدينية بدت متناقضة ، فكانت سببا فى خلق مشاكل عجزت عن حلها اسلم العقول في الاسلام · ولا ريب ان ما نقرأه من مقالات للطوائف المختلفة ليعرض النص القرانى للمسخ ولسوء النية فى النسى المحرر · فبينما يقول الله انه أوحى « قرانا عربيا غير ذي عوج » ، نرى الفرق تبحث عن الاعوجاج فى القرآن فى كـــل صوره مستترة وراء متطلـــبات لغوية وعقائدية وعقلية ، فجورت القول بوجود تناقض فى القران ورأت انها مطالبة بتسوية هذا الخلاف ·

كـل هذا الاختلاف فى وجهات النظر يرجع مـن بعض الجوانب الى ان الحركات الفكرية لم تستطع ان تهضم ما ابتلعته من المؤثرات الاجنبية ، فظهرت فى بعض الاحيان فى أشكال غـير متناسقـة ولا متناغمة فيما بينها . وان كانت دوافعها موجودة ، فمن بـين الحركات ما كان يمثل الفكر الاســلامى ويتماشى مع الاصول العامة للعقيدة ، ومنها حركات متطرفة اتهمت بالزندقة ، بيد ان المعايير التى استخدمت لاخراج بعض الطوائف من الدائـــرة الاسلامية والحكم عليها بالالحاد والكفر لا تعكس فى حد ذاتها الا مواقف جد مشبوهة · فالرمي بالكفر والالحاد والزندقة كان طوال قرون عديدة العملة النافقة للتخلص من الخصوم (4) ·

---

4) انظر مواقف أصحاب كتب الفـــرق مثل البغدادي فى الفـــرق بين الفـــرق والاسفراييني فى التبصير فى الدين ، والغزالي فى فضائح الباطنية ، ازاء فرق الشيعة ·

واما النبوة فقد كان لشخصية النبي الاثر العميق فى توجيه الفكر الاسلامي ، ولا غرو فهو النبي الموحى اليه ، والمعلم المعصوم ، وصاحب الشريعة التى نزلت لتنظيم حياة الانسان ، وهو العقل المسير للشؤون الدينية والدنيوية . وهو الموجه لاعمال الفرد مهما كان نوعها . لذلك كله عز على بعض الفرق الاسلامية أن يتوفى الرسول ولا وكيل على المؤمنين ، منه تصدر السياسة العامة واليه يرجعون فى أمورهم الشخصية . فقالوا بالامام ، وقمصوه شخصية الرسول ، واضفوا اليه كل الصفات التى كان يتحلى بها صاحب الوحي ، وبذلك قبلوا فكرة استمرار هذا العقل المسير فى شخص الامام .

ولا غرو من ان نجد هذه الفكرة التى تبدو باهتة على المستوى الدينى قوية وذات اشراق مباشر على الفرد وسلوكه . فعند الصوفية يرمز الى هذا العقل بالشيخ الذى يطلع على أحوال جماعته العائلية منها والمادية . وعند اخوان الصفاء ومذاهب الشيعة عامة يحتل الداعي الذى هو صورة الامام اكبر مكانة عند أفراد دائرته ، وفى الفلسفة نجد الفارابي يتحدث عن المثال الرائع الذى يراس المدينة ، وعند ابن باجة يهتم المتوحد بازالة الشيلم ، ويبسط سياسة انسانية مثالية ، وهدف كل هذه الطوائف التعليمية هو فى تحديد السلوك وبيان حقول العمل لكل الافراد .

لكن الرسول فى القرآن ليس أكثر من مبلغ عن ربه رسالته ، وقد جرده الدين الاسلامي من كل صفة تخرجه عن دائرة الانسان ، بل ان الله من أجل اثبات هذه الصفة عمد الى اظهار بعض الافعال التى صدرت منه . فهو يلومه عليها ليحدد معالم شخصيته وليبين انها الرسم الحقيقى للانسان . غير ان اغلب المسلمين لم يتقبلوا الافعال التى تستحق التقويم والتى صدرت عن الرسول . وجعلوها من بين الطرق التربوية التى اختارها الله لتعليم البشر حتى لا تذهب بمبدا العصمة . مع ان هذه الافعال التى صدرت عنه لا تمس عصمته . لان العصمة من شأنها ان تحفظ علاقة الرسول بربه . فلا يريد شيئا ولا ينقص اذا ما بلغ عن ربه . ولا يرتاب فى شىء وصل اليه من العالم العلوى . أما علاقته بأفراد المجتمع فلا تخرج عن دائرة الانسان وملابساته . فقد يخطىء وقد يصيب غير انه ربي على ان يعامل أفراد المجتمع بنفس السلوك الذى يعامل به ربه . لكن فريقا من الناس هالهم ان يتحملوا مسؤولية كان الرسول قد تحملها عنهم . اذ كان يرشدهم الى العمل الصالح ويستغفر الله لهم عند المعصية . فكان من بعض الطوائف كما ذكرنا سابقا ان ناصر مبدا الامامة بل ان البعض الآخر بالغ فى ذلك الى درجة ان

أصبح هذا الامام الذى هو صورة الرسول أعلى رتبة منه (5) ، وهذه صورة تعبر أهم مسالة خاض فيها مفكرو الاسلام وهي القضاء والقدر ، اذ ان هؤلاء نظروا أنفسهم نظرة كلها عبودية وتبعية سخيفة ، وتبرأوا من عقولها المميزة لافعالهم ، لـ احتاجوا الى من ينظم أعمالهم ، ويرفع عنهم المسؤولية بالاستغفار ، فاذا كانت ، عقيدة هؤلاء فى الامـــام ، فـلا غرابة ان تكون مسألة الامامة قد لعبت دورا أسا ودينيا من أخطر الادوار ، وفى هذا القول لاحد الخوارج : « وقد قلدوا أهل بيت العرب دينهم ، وزعموا ان موالاتهم لهم تغنيهم عن الاعمال الصالحة وتنجيهم من عة الاعمال السيئة » (6) ما يكفى لبيان مدى تحمل الامام مسؤولية شيعته.ومهما احتـ هذا النص من اسراف فى المبالغـــة فانه قد يقرر عقيدة من يرمون الانسان بالعجز الـ وتلاشيه أمام مسؤولياته عند فقدان الامام ،

الحـرية ومشكلة القضـاء والقـدر :

واذا تتبعنا كتب التاريخ والسير ، فاننا نجد ان مسالة القضاء والقدر قد طرحـ على عهـــد الرسول . ودار حولها نقاش دل على اهتمام المسلمين بها ، ولكن لم يمـ دون ان يغضب الرسول ، وقد أشار القرآن كذلك الى اثارة هذه المشكلة « سيقول الذ اشركوا لو شاء الله ما اشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء ، كذلك كذب الذين مـ قبلهم حتى ذاقوا باسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، ان تتبعون الا الظـ وان انتم الا تخرصون » (6 ـ الانعام ، 148) وورد فى حديث ان القدر خيره وشره ، المسائل التى لا يكمل الايمان الا به ، وكان الصحابة الذين عاشوا تجربة دينية الـ جانب الرسول على وعي تام بهذه المسالة ، ولـــم يشك واحد منهـم فى كونه المصـ الحقيقي لما يقدمه من أعمال ، فكان عمر لا يرحم الذين يتسترون وراء القدر من اجـ افعالهم الشريرة ، فقد أتى بسارق فسأله الخليفة عمر : لم سرقت ؟ فقال : قضى الـ علي بذلك ، فأمر به فقطعت يده وضربه اسواطا ، فقيل له فى ذلك فقال : القطع للسر والجلد لما كذب على الله ـ تعالى.

---

5) أنظر فى الولاية عند الشيعة الغالية وبعض الصوفية ، الصلة بـين التصو والتشيع لكامل مصطفى الشيبى القاهرة 1969 ،

6) جولد زيهر ، العقيدة والشريعة فى الاسلام ص 203 ،

ولعلي محادثات طويلة مع القدريين وردود على دعواهم نجد ذلك مبثوثا في كتاب نهج البلاغة · ومن بين هذه المحادثات ما كان من السؤال الذي وجهه شيخ الى علي في خصوص مسير علي واصحابه الى الشام لمحاربة معاوية أكان ذلك بقضاء الله وقدره ؟ فقال علي : والذي فلق الحب وبرأ النسمة ما وطئنا موطئا ولا هبطنا واديا الا بقضاء الله وقدره — فقال الشيخ — وكان من شيعته — فعند الله احتسب عنائي ما أرى لي من أجر شيئا — فقال الامام أيها الشيخ ، لقد عظم الله أجركم في مسيركم وانتم سائرون ، وفي منصرفكم وانتم منصرفون ، ولم تكونوا في شيء من حالكم مكرهين ولا مضطرين — فقال الشيخ كيف والقضاء والقدر ساقنا — فقال الامام ويحك لعلك ظننت قضاء لازما وقدرا حتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب والوعد الوعيد والامر والنهي ، ولم تأت لائمة من الله لمذنب ولا محمدة لمحسن . ولم يكن المحسن أولى بالمدح من المسيء ولا المسيء أولى بالذم من المحسن ، تلك مقالة عبدة الاوثان وجنود الشيطان وشهود الزور أهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الامة ومجوسها ، ان الله أمر تخييرا ونهى تحذيرا وكلف تيسيرا ولم يعص مغلوبا ولم يطع كارها ولم يرسل الرسل الى خلقه عبثا ··· (7) وأجاب علي الشيخ عن سؤاله · ما القضاء والقدر . فقال هو الامر من الله والحكم . وتلا قوله — تعالى — « **وقضى ربك ألا تعبدوا الا اياه** » · فاذا اسقطنا علاقة النص بالظروف السياسية نستطيع أن نقول بانه يؤكد وعي الصحابة لمشاكل الانسان ·

لكن الغموض الذي عم هذه وغيرها من المسائل جعل تفكير الناس ينقصه الوضوح والدقة بشكل واضح ، فنشأت خلال القرون الاربعة الاولى فئات واتجاهات كبيرة في الحياة الدينية ويمكن لنا ان نرى دوافع الخلاف الاولى تتسع حتى تصبح محاولات فكرية ولكن بعضها يطمح لايجاد تفسير عقلي للفوضى وهذا ما نراه عند الجبرية الذين مروا بظروف سياسية غامضة وربما كانوا من مساعدي خلفاء بني أمية على التمسك بالحكم بدعوى انهم خلفاء الله ولا يصدرون أحكامهم الا بقضائه وقدره · واستطاع الامويون استغلال هذا الرأي ليثبتوا أمرهم ويلجموا السنة المعارضين.وليس أصدق في التعبير عن أهداف هذه الحركة من قول قدري : « ان الملوك يسفكون دماء المسلمين ويأخذون الاموال ويفعلون ويقولون : انما تجري أعمالنا على قدر الله (8) وهذا عبد

7) عن محمد أبو زهرة : الامام الصادق ، ص 141 — 142 وانظر عيون المناظرات للسكوني تحقيق سعد الغراب ، الجامعة التونسية 1975 ، ص 177 ·

8) جولد زيهر . العقيدة ص 98 ·

لك بن مروان ، الخليفة الذهبية ، احضر الى قصره احد نظرائه وخصومه فذبحه استحسان صاحب مشورته وأمر برمي رأسه الى جمهور المخلصين له الذين كانوا نتظرون امام القصر عودته كما أمر باعلامهم ان أمير المؤمنين قد قتل صاحبكم بما ان من القضاء السابق والامر النافذ (9) ·

تستر هذا الفريق وراء فكرة القدر مستندا فى ذلك الى الآيات القرآنية التى ظاهرها صرح بالجبر وهو من وراء ذلك يعلن الثورة ضد القوانين الاخلاقية · بل ان التمسك القدر يعتبر بحق تحديا لكل النواميس مهما كان مصدرها ، لان الاعمال لابد ان تصدر ون سابق علم الانسان بها · وهنا نسجل المفارقة التالية · ففى الوقت الذى فيد القدر معنى الجبر والتقييد ، يفيد أيضا معنى الحرية المطلقة التى تعادل الفوضى ، ذ ان الانسان المجبر لا يختلف عن المجنون الذى لا يقيد عمله شىء ، فهو كالريشة فى هب الريح تتجه بطريقة فوضوية حيثما يسوقها الريح · لكن هذا الموقف يختلف نوعا ما عن موقف الخوارج الذين عبروا عن رأيهم بقولهم : لا حكم الا لله ، ظاهرة هذه لقولة الشهيرة التى وجهت الى علي وهو يخطب من على المنبر ، تحطيم اية سيادة نسان على انسان آخر ، وبالتالى سيادة الرئيس على المرءوسين ، فهذا الشعار وان ل على الفوضوية فانه يجب ان نوجهه وجهة سياسية واجتماعية لا وجهة عقائدية لان لتاريخ سجلها من أجل ظروف سياسية واضحة ·

فهذه الحركة وان كانت بدائية فوضوية الا انها حفزت الهمم ودفعت عقول المسلمين لى النضج والحركة ، وفعلا لعبت الظروف السياسية والاجتماعية والثقافية دورا فى ايجاد حركة مقابلة للحركة الجبرية ، ولعل شعور هذه الفرقة بالواقع السياسي والاجتماعى قد ساهم فى بحث مثل هذه القضايا وان كانت النظرات الكلامية والفلسفية فى دلك العصر باستثناء مسألة الامامة لم تكن على وجه العموم ذات صلة مباشرة بالمشاكل السياسية والاجتماعية المعقدة ، فرأت هذه الفرقة انه من الواجب رعاية الافكار وعزلها عما قد يركبها وتعميمها تعميما واسعا ونتسيقها مع الاساس الدينى ، فدعت الى اقناع العامة من الناس بالاستناد الى ما هو محل ثقة الجميع واليه يتحاكمون وهو القرآن · اعتمد هذا المذهب الجديد الذى عرف باسم المعتزلة مبدا وجود قوة عاقلة فى الانسان ، بها وحدها يقرر افعاله ويتمها · ولقد نجح هذا المذهب فى التعبير عن

9) المصدر السابق ·

القوى الواعية فى الانسان ولاحظت ان الانسان يمثل الطرف المقابل لله فى القرآن ، وقد خصه الله بالخطاب وحمله امانته · ومذهب كهذا من شانه ان يحدث ثورة داخل المحيط الاسلامي ، وان تفهم هذه الثورة فى بداية الامر وعند المحافظين على انها تحد للقوانين الالهية وترك الاخذ بالنصـــوص الدينية . ولا حاجة لنا الى ذكر المبادىء التى تحدد معالم هذا المذهب ، ويكفى ان نشير الى انه كان يرمي الى نشوء أسلوب جديد فى المعتقد الاسلامي ، ووضع قواعد تحضى بثقة العقل لها القدرة على توفير حياة دينية قوية ، وهو فى ذلك يسعى كما ذكرنا الى تقرير وتأكيد ان الدين نظام خص به الانسان · لذلك علينا ان نراجع مبادىء العقيدة فى ضوء مقاييس العقل ، ونزن بـ ما اشتبه من القضايا · وأهم هذه المبادىء هي فكرة الاله التى هي فى صراع دائـم مع الانسان · فنصوص الوحي وكذلك أحكام العقل تقرر ان موقف الانسان من الاله لا يختلف عـــن موقف الاله من الانســـان ، كل ملتزم نحو الآخر بقوانين عليه أن يرعاها · أحس هؤلاء العقليون ان فكرة الالوهية غير واضحة فى عقول المسلمين ، فنشأ عنها لبس واظـلام وتشويه لفكرة التوحيد ، ورأوا تنقية هذه الفكرة مما علقها من أوهام ، كذلك يجب ان نبعد عنه كل التصورات التى تنافي الاعتقاد بعد له ، ولهذه الفكرة نتائج تتعلق بالانسان اذ مفهوم الانسان لا يتحدد الا من خلال الصورة التى تعكسها فكرة الله · وهم فى ذلك يعبرون عن ايمان أكثر جدية وعن حرية لا تقف دونها النصوص التى لم يكن لها معنى عند جميع الفئات الا عن طريق التاويل · ففكرة الله كما وردت فى القرآن لا يمكن ان تقوم الا على أساس مبدأ حرية الانسان وتحمله لمسؤولياته ، لذلك رفضوا كل التهافت الذي احدثه القائلون بمبدا الجبر ، وأوضحوا ان العدالة الالهية تقتضي فرص حـرية كاملة حتى يكون للثواب والعقاب وجه مقبول ، وقد أوجب الله على نفسه ان من عمل صالحا فلنفسه ومن اساء فعليها وما ربك بظلام للعبيد ، لكن هذا الالتزام لا يعـني بحال تقلص النفوذ الالهي ، وان نقصا قد طرأ على استقلاله فى ذاته وافعاله ·

بيد ان هذا الرأي ـ الذى استطاع ان يداعب عقول ثلة من المفكرين ، فاعتبر شيئا طريفا فى المنهـــج والبحث ـ لم يكن له وقع حسن عند المحافظين أو أصحاب الحديث . أو بالاحرى لم يتقبـــل هؤلاء هذه الفلسفة الجـديدة التى تعطى السيادة والقول الفصل للعقل فظهرت طائفة تميل الى التحديد من سلطان العقل وتنادى بالمحافظة على جوهر الاسلام فى صيغته التقليدية مع شيء من التوفيق بين مذاهب مختلفة · هذه الطائفـة يتزعمها أبو الحسن الاشعـــرى الذى كان قبل ارتداده عن المذهـــب العقلى من أكبـــر

مناصريه · كل ما جاء عنه فى خصوص فعل العبد لم يجد قبولا الا عند عامة النـاس ومن اشكلت عليهم نصوص الوحي ، فارتاحوا لحله المبهم لانه رفع سيادة النص على العقل · وانكر ان يكون فى الكون قوانين تحمله على الحركة والفعالية وقرر ان اللـه هو الفاعل ولا فاعل سـواه ، وحتى يفر من فوضوية الجبرية جاء بفكرة مبهمة عبر عنها بالكسب الذى به يثاب الانسان أو يعاقب · ورغم ان آيات عديدة تذكر صراحة كلمـة الكسب إلا ان الاشعري جرده من كل فعالية حقيقية وعبر عن ارادة وقدرة انسانيتين جد محدودتين تشملهما قدرة الله وارادته ويبقى مفهوم الكسب عند التحقيق لا يختلف عن مفهـوم الجبـر ·

ولعـل ابن رشـد الفيلسوف الذى يؤمن بانسانية الدين قد أحسّ بالمغالطات فى التعبـير على الحقيقة الدينية فشوهتها . اهتم فيلسوف قرطبة بنقد المفاهيم الكلامية لاخطر مشكلة فى تاريخ العقيدة الاسلامية · فابان عوار تفكير أصحاب الكلام فى الاستفادة من النصوص الدينية دون تفكير وتدبر وروية فوقع كل فريق ممن ذكرنا فى مزالق لـم يهتد الى الخروج منها ، فلا احد أصحاب الحقيقة : لا الجبرية التى تجعل الانسان مجرد آلة بيد الصانع فجردته من أعظم صفة الابداع الالهي وهو العقل ولا المعتزلة التى تطرفت فى استعمال العقل فجعلت كل فعل صادرا عن الانسان بدافع من ذاتـه دون مراعاة للعوامل الخارجية التى تشارك فى تحقيق الفعل · فابن رشد لم يعب على المعتزلة الا تطرفهم فى استعماله لانه يرى ان الافعال التى يريد العقل تحقيقها معرضة فى نفـس الوقت لقسر الطبيعـة التى يرى فيها مطلق قضاء الله وقدره · فلا تكفى ارادة العقـل حتى يتم المراد ولابد من موافقة الاسباب الخارجية ، وهذا يؤدي بنا حتما الى مسـالة السببيّة التى كانت موضع نقاش طويل ، وهي أيضا من المواضيع التى يصطدم فيهـا العقل بالدين عند الحرفيين · فالمعتزلة لا ينكرون مسالة السببية ولكنهم لـم يعالجوا مسألة الحرية الانسانية على ضوئـها · والسببية فى مفهومها العام تعنى مجموع القوانين التى أودعها الله فى الكون · وهذه الاسباب ـ كما ذكرنا ـ قد تساعدنا على اتمـام أعمالنا وقد تقف دون ذلك ، بل تجبرنا فى بعض الاحيان على أفعال معينة نعجز عـن القيام باضدادها وهي تلك الافعال الاضطرارية مثل السعال والتثاؤب والهرب أمـام الخطر الخ · والافعال الاختيارية التى يتردد المرء فيها بين شيئين تتوقف كذلك عـلى الاسبابَ الخارجية · واذا اخترنا فعلا محددا كانت حريتنا كاملة · وعلى هذا فهناك أساس معقول ومنطقى للتكليف والعقاب أو الثـواب · وهكذا ينتهى ابن رشـد الى ان

الجبر لا يمكن ان يكون محضا ، وان الاختيار لا يمكن ان يكون مطلقا ، بل الحق فى التوسط بين هذين الرايين ، فافعال الناس ليست اختيارية تماما ولا اضطرارية تماما ، وانما تتوقف على عاملين : ارادة حرة ترتبط فى الوقت نفسه باسباب خارجية تجري دائما على نمط واحد (10) .

وننتقل الآن الى ذكر موقف بعض الحركات الفكرية التى اتهمت بالزندقة والالحاد والتى سجلت فى نفس الوقت أروع صفحات فى تاريخ الفكر الانساني ، فكانت هذه الحركة اخوان الصفاء .

ذكرنا فى بداية هذا البحث نصا من رسائلهم يعبر عن حيرة الكائن البشري والواقع المر الذي فرض عليه ان يتجرعه ، وعن مجموعة الظروف التى احدقت به من كل جانب فتلاشى فيها . ومهما كان هذا النص صادقا فى التعبير عن قيمة الفرد فى القرن الرابع ، فاخوان الصفاء لا يقفون هذا الموقف السلبي ، ويرون ان الانسان لا يمكن له ان يضع حدا لهذا القهر ويعطي لذاته استقلالها الا اذا حدد علاقاته من كل الظواهر التى شعر أمامها بالعجز . لذلك لم يرضوا أن يكون الانسان عبدا لقوى تسيطر عليه . فقالوا بحرية الانسان ، وحملوه مسؤولية أعماله ، وما نسبة الاعمال التى تجرى فى هذا العالم الى الله الا كنسبة افعال الملوك التى تتم على أيدي عمالهم ورجال الصنائع وفى هدا يقولون : « واعلم ان هذه الصناعة والافعال التى تجرى على أيدى عباده ، اذا نسبت الى الباري ، فان نسبتها على مثل نسبة أفعال الملوك ، اذا قيل : بني فلان الملك مدينة كذا . وحفر نهر كذا ، وعمر بلد كذا كما يقال بنى الاسكندر الرومى سد يا جوج وما جوج وبني سليمان بن داود ، عليه السلم مسجد ايليا وبنى ابراهيم الخليل ، عليه السلام ، البيت الحرام ، وبنى المنصور مدينة السلام ، اذ كان ذلك بامرهم وازادتهم ومشيئتهم ، لا انهم تاولوا الافعال بانفسهم أو باشروا الاعمال باجسامهم ، وكذلك حكم اضافة أعمال ملائكة الله وانبيائه وعباده ، طبيعية كانت أو احتيارية . فنسبها الله ـ تعالى ـ لنبيه ، عليه السلام . وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » (8 . الانفال . 17) وقوله : « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم » (8 ، الانفال ، 17) وقوله ـ تعالى ـ : « افرايتم ما تمنون أنتم تخلقونه أم نحن الخالقون ؟ » (56 . الواقعة 58) وما شاكل هذه الاضافات من الافعال والاعمال والصنائع والتاليف والتركيب والجمع والتفريق والكون

---

10) ابن رشد ، مناهج الادلة ، ص 119 .

والفساد والنشوء والبلاء ، اذا نسب الى الله ـ تعالى ـ فعلى هذا السبيل تكون تلك النسبة ، لان الله ـ تعالى ـ خلق الفاعلين والصنائع والعمال ، وافعال البشر كانت ، أو الجن والشياطين والملائكة ، أو الطبيعة فحكمها كلها بالاضافة الى الله حكم واحد ، لانهم جميعا عبيده وجنوده وخدمه خلقهم ورباهم وانشاهم وقواهم وعلمهم وهداهم وأمرهم ونهاهم ... » (11) .

ويعرف الاخوان هذه المسالة من خلال الازمة الروحية التى تعكسها الفلسفة اليونانية وغيرها من التيارات الفكرية فيقولون : فان قال قائل من الاطباء والطبيعيين ان هذه كلها افعال الطبيعة فليعلم ان القدماء قد قالت : ان الطبيعة فعل النفس ، وان قال قائل من الشرعيين ان هذه كلها للخالق البارىء يفعل ما يشاء ويصور كما يريد . فليعلم ايضا ان النفس من فعل البارىء ـ تعالى ـ لا يباشر الافعال بذاته ، بل يصدر منه على سبيل الامر (12) فاعمال الانسان من خير وشر ترجع الى جزئيه النير والمظلم، النفس واخلاط الجسد ، فهو بمجموعهما يتحمل نتائج أعماله ، وبحسب ذلك يكون جزاؤه ، « وأن ليس للانسان الا ما سعى وان سعيه سوف يرى » (53 ، النجم ، 40) وكما جاء عن صاحب الرسالة : « انما هي أعمالكم ترد اليكم » (13) .

رأي المحدثين فى علاقة الانسان بالاله والمجتمع وموقفهم من نصوص القرآن :

وفى القرنين التاسع عشر والعشرين ، ظهرت فى العالم الاسلامي عقلية جديدة ساعد على ظهورها جملة عوامل داخلية وخارجية ، فمن جهة توجهت هذه العقلية الى اعادة النظر فى القيم الاسلامية ، دعت الى ذلك الاوضاع المتردية فى النظم الاجتماعية والمفاهيم الخاطئة للمعتقدات الاسلامية ، ومن جهة أخرى تكون نوع من الشعور المعاكس جراء هجمات اعداء الاسلام .

فمن بين مفكري هذا العصر نذكر محمد عبده الذى لاحظ ان الاسلام المعمول به انما هو مقام على التقليد الاعمى وانه يحرم اعتباره مادة خالصة للاسلام . كذلك ذم القيام الآلى بالواجبات الدينية . والاسلام ينبع من العقل ويقع كله تحت الادراك ، وهو فى ثورته هذه لم يتقبل ان ينفذ كلام الجهال الى قلوب الجماهير . فالانسان عنده

---

11) رسائل ج 2 ص 128 ، 153 .
12) رسائل ج 2 ص 394 .
13) أنظر رسائل ج 1 ص 259 ، ج 2 ص 130 ـ 131 .

لم يخلق ليكون مقودا باللجام ، بل كان مطبوعا على انصياعه للعلم والمعرفة ، والاسلام ينهانا عن التسك بما جـــاء به آباؤنا ويعلمنا التفكير والاعتماد على انفسنا بعـــد الاستفادة من سير الماضى والاتعاظ بالاحداث التى طوتها اسداف التاريخ · وهـــو ايضا يطلق العقل من سلاسل قيوده ويحرره من المحاكاة العمياء التى كبتت نشـاطه وحدت من حيويتـــه ، ثم يقيمه حكما يقضى بالقسطاس المستقيم ··· فليس له أن يقف خاضعا الا أمام الله وحده والا أمام أصول الدين التى نزل بها القرآن ··· أما فيما عدا ذلك من حدود وقيود فما من حاجز يحول دون نشاطه ، وما من قوة تمنعه مـــن التامل فيما يعيش فى ظله (I4) ·

عالج محمد عبده وغيره من المصلحين مسالة الحرية الانسانية ضمن المسائـل العامة التى اثيرت لبعث اليقظة الاسلامية ، وكما قلت سابقا ان موقف المصلح المصري اتجه الى ايضاح المعطيات الازلية ودفع الشبهات عنها · ولقد شعر ان العقلية الجديدة اصبحت ترفض بالفعل كل مخلفات الماضى ، ولا تقبـــل القوانين الازلية فى صورها التقليدية . لذلك مالت هذه العقلية الى الفكرة التى تحمل ضمير الانسان نفســـه مسؤولية اعماله بعد ان اصطبغ تفكير العامة مدة قرون بالقدرية الماخوذة من الجبر ، وكانت سببا فى ايجاد مناخ ملائم لانتصار الفكرة التى تنفى الارادة الحرة ، وبحسبها ردت الفضائل والرذائل وكل نوع من الافعال الى ارادة الله وحدها بعد ان اسقطت ارادة الانسان من الحساب · لذلك يقر محمد عبده فى رسالة التوحيد ان الانسان يـــدرك اعماله الاختيارية ويزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ويعد انكار شىء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل (I5) ·

فى القرآن آيات تتضمن المسؤولية ومن ثم الحرية اللازمة ، وكل فرد له من القدرة ما يجعله حرا فى ان يطيع الله أو يعصيه ، وفى كل ظرف من ظروف حياته فرصة له لكـي يبدى ما لـــه من اهلية أو عدمها · ومهما ارتبط الانسان بالقوانين الالهية أو القوانين الدنيوية ، فهو حر حين يعمل بها أو يخرج عليها ، وهو فى كلتا الحالتين اذا خرق القانون تعرض لقضاء السلطة الاخلاقية وعقابها ·

لكن رأي هذا الشيخ الذى عرضناه وان كان يعبر عـن عامل التغيير فى المجتمع الاسلامي الا انه فى عرضه هذه المسالة من خلال القرآن لا يزيد على ان يذكرنا بمنهج

I4) أنظر جيب ، الاتجاهات الحديثة فى الاسلام ص 7I ·
I5) محمد عبده ، رسالة التوحيد ص 69 ·

القدماء ولا يقدم حلا للمعضلة التى كانت من أهم أسباب اختلاف الامة الاسلامية وهو ما عبر عنه بالتناقض فى عرض القرآن لهذه المسألة ·

وقد حاول بعض الباحثين المحدثين النظر الى القرآن على انه وحدة متكاملة كالمحاولة التى ذكرها هارولد سمت فى مسالة الحرية الانسانية ازاء القانون الالهي أو القضاء والقدر · فهذا الكاتب يرى ان فى القرآن آيات صريحة تؤيد مبدأ الجبر وأخرى تؤيد مبدأ الحرية · فحتى يستقيم الجمع بينهما لابد من الملاحظة التالية وهي انه حيث ما يكون الاهتمام موجها الى الله فان سلطانه المطلق الكامل يكون موضع تأكيد · وفى هذا السياق تعتبر أعمال البشر ، خيرها وشرها على السواء مسببة عن الارادة الالهية مباشرة ، اذ انه لا يحدث شيء ما لم يرده الله أو ياذن به ، وان مشيئة الله الازلية الابدية لتنفذ حتى فى مسائل الاعتقاد وعدمه ، فيهدى قوم الى الايمان ويوجه آخرون الى الضلال ··· هذا حين يكون الاهتمام موجها الى الله ، فاما حين يحول الاهتمام الى الانسان فان التأكيد ينصب على ان الانسان قد وهب له الله الحرية والمسؤولية الاخلاقية فكل انسان ذات اخلاقية حرة ، وهو مسؤول أمام الله عن أفكاره وأحكامه وأعماله · وهذا الذى يجعله فردا ذا مشابه من الله الذى هو الموجود الاسمى والله يرشد الانسان عن طريق الوحي الى مبادىء اخلاقية عامة منبعثة عن ارادته الابدية المقدسة · الا ان فى الانسان قوة كامنة ، اذ ان فى استطاعته ان يتقبل هدى الله أو يتحمل عنه (16) ·

اما محاولات اقبال التى ضمنها كتابه « تجديد التفكير الديني فى الاسلام » (17) فهي وان قدمت فى أسلوب فلسفي رائع الا انه سرعان ما نشعر عند قراءتنا لبحثه باننا نغادر عالم اللاهوت الى عالم الفكر حيث نقف على مزيج من أفكار ترجع الى اشهر فلاسفة عصره تطغى عند التحليل على نصوص الوحي · يثبت اقبال خصوصية الذات الفردية وسلطتها ويقرر ان القرآن يؤكد للنفس الانسانية باسلوبه البسيط حريتها وخلودها المفعم بالقوة ، ويقول اقبال : لي فى نظري رأي معين محدد فى مصير الانسان بوصفه وحدة من وحدات الوجود وهذا الرأي فى شخصية الانسان وفرديته رأي

16) الثقافة الاسلايمة والحياة المعاصرة ص 60 ·

17) محمد اقبال · تجديد التفكير الدينى فى الاسلام ترجمة عباس محمود ط 2 القاهرة 1968 ·

يستحيل معه ان تزر وازرة وزر أخرى · بل يقتضي ان كل أمر بما كسب رهين (18) أي ان كل كائن انساني يستقل بمسؤوليته الاخلاقية ويرى اقبال ان علماء المسلمين وغيرهم وقعوا فى اخطاء جسيمة من جراء عدم فهمهم لمعنـــى التقدير الذى ورد فى القرآن فى قوله تعالى : « انا كل شيء خلقناه بقدر » (54 ـ القصر ـ 49) فتقدير شيء اذن ليس قضاء غاشما يؤثر فى الاشياء من خارج ، ولكنه القوة الكامنة التى تحقـق وجود الشيء وممكناته التى تقبل التحقق ، والتى تكمن فى اعماق طبيعته ، وتحقـق وجودها فى الخارج بالتتالى دون اى احساس باكراه من وسيط خارجى ، والآيـــة 49 من السورة 54 تفيد ان كل مخلوق قد وهب امكانية محددة هو حر فى تحقيقها أو عـدم تحقيقها · ويرى اقبال فى قـدرة الانسان على الخلق دليـــلا على حريته اذ يقول : « والواقع ان كل نشاط خالق هو نشاط حر · فالخلق يضـاد التكرار الذى هـو مـن خصائص الفعـــل الآلى » (19) · وهكذا ـ كما يقول سمث ـ يرفض اقبـــال كل الصور المتطرفة من فكرة القضـــاء الازلى سواء انتسبت الى تقدير الله أم الى الضرورة الآلية ·

كل هذه المحاولات لا ترمي الى التبرير كما يرى بعض الباحثين المغرضين ولكـن الهدف منها هو ايجاد قراءة تتفق والمبادىء العقلية الانسانية من جهة ومفهوم التقديس والتعالي لنص الوحي من جهة أخرى · لذلك لن تقف هذه التفسيرات ما دام الفكـــر البشري فى تطور مستمر لاعتقادنا ان ما أتت بـــه الرسل يساعد على وزن المفـاهيم العقلية ولا يمكن الا ان يكون مسايرا لحركة التطور التى هي سنة الطبيعة ·

اننـــا نعتقد ، رغـم وجاهة التفسيرات التى ذكرناها فى مسالة الحـرية ومشكلة القضاء والقدر ، ان الباب ما زال مفتوحا لاستنتاجات أخرى · فالقرآن مادة الهيـــة غزيرة بالمعاني وهو كما قال الامام علي بن أبي طالب : « ظاهره انيق وباطنه عميق » · ومن ذلك اننا لاحظنا من خلال قراءتنا للقرآن ان الاهتمام كله متجه الى الانسان وحده ولكن فى مستويين اثنين : فهناك عالم الانسان وفيـــه يتجلى الله بمظهر الانسان ويتصـور بصورته ، فهـــو الله الادمى الذى بارتياده ثوب الآدمية فى أجلى صورها ينغمس فى الشعور الباطني للانسان المثالي وترتسم فيه صورته ويكون بمثـابة المراقب للسلوك والمساعد على تحمل المسؤوليات ·

---

18) تجـديد ، ص 109 ·

19) أنظر تجديد ص 61 ·

اكد القرآن حضور الاله فى العالم المادي : « ولله المشرق والمغرب فاينما تولوا فثم وجه الله » (2 ـ البقرة ـ 116) . « الم تر ان الله يعلم ما فى السموات وما فى الارض ما يكون من نجـــوى ثلاثة الا هو رابعهم ولا خمسة الا هو سادسهم ولا أدنى من ذلك ولا أكثر الا هو معهم أين ما كانوا » (58 ـ المجادلة ـ 7) . وقولـــه محاطبا موسى وهارون : « قال لا تخافا انني معكما اسمع وأرى » (20 ـ طه ـ 46) . وهذا الحضور فى ضمن الاجتماع البشري يمثل نقطة اللقاء بين الصورة المظهرية للاله وبين الانسان الذى هو خليفة الله فى الارض ، هذا الخليفة يحمل سمات الذات الخالقة ، وهو مع ذلك يحاول أن يكون على أكمل صـــورة تنسبه . وهذه النظرة التمارلية التى تجعل من الله فى صورة ،دمية والتى نجد صداها فى هدا الحـــديث . « حلق الله آدم على صورته } ترمى الى ربطه بالقوانين العامة التى تنظم الكون . ولا عجب ان نرى عند بعض التيارات الفكرية صورة الاله ممثلة فى الشيخ أو الحكيم أو الامـــام (20) الذى ينظـم أعمـــال جماعته فيجازى محسنهم ويردع مسيئهم والله كذلك بالنسبة لمخلوقاته الذين احسن خلقهـــم وسواهم واقدرهم على الخير والشر . فهو الحكيم الذى لا يكلف نفســـا الا وسعها ليجزى كل نفس ما كسبت،وهو القائل . « وما تنفقوا من خـــير يـوف اليكـم وانتم لا تظلمون » (2 ـ البقرة ـ 272) « ثـم توفي كـل نفس مـا كسبت وهـم لا يظلمون » (2 ـ البقرة ـ 281). «دلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد» (3 ـ آل عمران ـ 181).وفى القرآن حوالي 44 آية تحمل الفرد مسؤولية اعماله . وفيها يخاطب اللـــه اناسا قد امتثلوا لسياسته ، لذلك فهو يراقب اعمالهم ولا يظلم منهم أحدا . وما دام الانسان حريصا على احترام ما حدد له الشرع ، فهو داخل فى جملة قول الله : « ولقد كرمنا بني آدم » (17 ـ الاسراء ـ 70)،وفعلا لم تكون غاية الله من هذا الانسان الا ان يحيا وســـط مجموعة من الافراد فيقوم بحقهم ويعاملهم معاملته لنفسه . ويمكن ان نلخص هذه الغاية فى العبارات التالية لاندرية كرسون : « كـف عـن ارضاء جميع نزعاتك وعن الخضوع لها خضوعا فوضويا ، احمل نفسك على ان تحدد بعض رغباتك وان تتخـــلى عن بعضها من أجل مصلحة الآخرين ، ضح بشيء من مطامحك ، ومـــ هواياتك من أجل اشباهـــك أو من أجل بعضهم . كف نفسك . هذب نفسك . لا تهدوء

20) انظر كيف يولد الامام ويتصور بالصورة الربانية عنـد الشيعة والاسماعيل وغيرهما من المذاهب وكذلك مقام الشيخ فى الطرق الصوفية ، وأنظر كذلك ما توج الآية : « وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم ، فلما توفيتنى كنـت أنت الرقيب عليهـم (5 ـ المائدة ـ 120) .

أدنى من الاحترام والتعاون بين الافراد سواء أكان عن طواعية أم عن خوف السلطان لا يمكن لجماعة أن تتابع حياتها » (21) · فاذا التزم الفرد بهذه المبادىء كان الله معه أين ما كان وتجلى باطنيا عليه فى ضميره الاخلاقى ، وهو التواب ذو الرحمة ، ذو الفضل العظيم ، خير الناصرين وخير الرازقين ، غافر الذنب وقابل التوب ، وهو القريب يجيب دعوة الداعي اذا دعاه ، وهو الصورة المظهرية للخير ·

فهذا الحضور لا يمكن ان يفهم على انه ربط علاقة بذات فردية محدودة ، بل بتعداها الى ربط هذه الذات بهيكل المجموع ولان الدين وهو مجموعة القوانين الاسلامية ليس وقفا على الشعائر والطقوس ، ان جميع مظاهر الحياة الجماعية خاضعة لاحكامه وانه ليهدف الى ربط كل عمل من أعمال الفرد بواجباته الدينية.والدين يهدف الى ربط الناحية الفردية بالناحية الجماعية لانه لا يصبح قوة رهيبة فى تكييف المجتمع الا عندما تندمج ناحيته الشخصية بناحيته الاجتماعية اندماجا خالصا ·

أما الذين أرادوا ان يدفعوا بالدين وبالمسائل الدينية خارج الحقل الذى يعمل فيه المجتمع فهم الذين يرون صرف كل القوى فى الفعاليات المعقدة للعصر الصناعي · وهذا الموقف يذكرنا بما جاء فى مقال بادو (22) من موقف المهندس الامريكي الذى يعمل فى مدرسة هندسة النفط بالجزيرة العربية ازاء خروج الطلبة وقت الدروس لاداء الصلاة حيث قال للملك : « ينبغى يا صاحب الجلالة ، ان تقرروا نهائيا ما تريدون من هؤلاء الناشئين هل تريدونهم أن يتعلموا كيف يديرون آلات النفط أو كيف يؤدون الصلاة فى أوقاتها · فهم لا يستطيعون ان يقوموا بالامرين معا فى وقت واحد » · ويذكر صاحب المقال حادثة أخرى جرت هذه المرة فى مصر سنة 1939 عندما هب بعض كبار المسؤولين يناقشون جملة من المقترحات الاجتماعية فسأل احد الحاضرين عن ما يكون موقف الاسلام والمسلمين من امثال هذه المقترحات ، فكان الجواب : « اذا لم يكن بامكاننا ان نحقق هذه الاصلاحات بمساعدة الاسلام فسوف نحققها دون مساعدته » · وغير ذلك من الاحداث مما يدل على ان هؤلاء يرون ان الدين لا ينطوي الا على أهداف وغايات مبهمة غامضة · من أجل ذلك نادى بعض من يسمون بالتقدميين بفصل الدين عن الدولة أو الفصل بين القانون والدين (23) أى بين عقائد الدين ومقرراته وبين مبادىء القانون

---

21) اندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 27 ـ 28 ·
22) دراسات اسلامية بحوث ودراسات لكبار المستشرقين بيروت 1960 ، ص 256 ·
23) اندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 ·

وقواعده · ولاشك ان هذه النظرات مبنية على ان الدين مسالة روحية لا غاية منه الا ربط علاقة بين الله والناس فالاسلام على خلاف ذلك هو دين وهو فى الوقت نفسه دولة وهو قوة اجتماعية وسياسية ، لان الوحي الذى يقرر وحدانية الله ورسالة الرسول يعين ايضا الاهداف الاجتماعية والسياسية للمجتمع الاسلامي ، ولا خير فى دين لا يشمل مجال تطبيقه كل أنواع الفعاليات الاجتماعية ، لان النشاط الديني لا يتمثل فى تحديد الاطار الذى تفعل فيه القوة الالهية بقدر ما يرمي الى تحقيق اسمى مبادىء الانسانية وايجاد نظام اجتماعى أكثر اتفاقا مع المبادىء الاسلامية ·

كل ما حواه القران يخدم الفرد والجماعة ، وحتى تلك الطقوس للدينية التى يرى البعض فيها انها مجرد أعمال تعبدية ، ليس لها معنى أكثر من ذلك ، ولا نجد لها انعكاسا على سلوك الانسان فى المجتمع هي ايضا فى أساسها قوانين اجتماعية كالصلاة التى معناها الحساب والمحاسبة وحفظ مصالح أفراد المجتمع · ونستطيع أن نقول بأن الصلاة كانت أساسا لايجاد أول رابطة ربطت بين أفراد المجتمع الالهي ، وكذلك نقول فى بقية المفروضات الدينية ان لها معنى اجتماعيا ينظم سلوك الفرد ، وليس فيها من معاني التعبد غير المستوى الرفيع للانسانية التى تحاذى فى كمالها عالم الالوهية · فالعلاقة بين الانسان وبين الله فى قيمة الانسانية الكاملة التى لا تختلف فى مظهرها عن الالوهية المتجلية لعالم الانسان . وحديث عيسى « اذا حملت قربانك الى الهيكل ثم تذكرت ان فى نفس أخيك مك شيئا فاترك قربانك أمام الهيكل وعد لتصلح ما بينك وبين أخيك أولا ، وبعد ذلك عد الى الهيكل وقدم القربان (24) ليقرر ان العلاقة الالهية لا تبتدىء الا عند صفاء العلاقة الانسانية وبلوغها مرحلة يتخلى الفرد فيها عن كل ما يخلده الى الارض ، وكلما اقترب الانسان من الله اقترب الله منه وهو التجلى الباطني الذى يشير اليه الحديث : « اذا تقرب العبد الى الله شبرا تقرب اليه ذراعا ، وكلما ازداد هذا التقرب تصبح عملية التجلي أقرب الى الكمال حتى تصل فى النهاية الى أن يكون الله سمعه وبصره ولسانه ورجله (25) ·

أما المظهر الثاني للالوهية تجاه الانسان فهو فى حالة انخارم أسس المجتمع حين يبرز الانسان فرديته وانيته ، عند ذلك يتخلى الله عنه ويتركه وشأنه ، ويتبرأ منه ·

24) أندريه كرسون ، المشكلة الاخلاقية ص 99 ·

25) حيدر آملى ، جامع الاسرار . تحقيق هنرى كربين وعثمان يحيى . طهران 1969 ، ص 675 ·

وهنا يظهر الله له ولامثاله بمظهر القوة والشدة : « اين ما تكونوا يات بكم الله جميعا ، ان الله على كل شيء قدير » (2 ـ البقرة ـ 148) « قل هو القادر على ان يبعث عليكم عذابا من فوقكم أو من تحـــت أرجلكم أو يلبسكم شيعا ويذيق بعضكم باس بعض » (6 ـ الانعام ـ 65) « ان يشـأ يذهبكم ويأت بخلـق جديد ومـا ذلك على الله بعزيز » (35 ـ فاطر ـ 16) « ان **بطش ربك لشديد** » (35 ـ البروج ـ 12) ·

ولا ريب ان خروج الفرد عن الجماعة بانتهاك حرمة أفرادها ليجعل الله يظهـر اليه بمظهر البعد والجفاء ، كذلك كانت حال الامم التى جارت : « الا ان عادا كفـروا ربهم الا بعدا لعاد قوم هود » (11 ـ هود ـ 60) « الا ان ثمودا كفروا ربهم . الا بعدا لثمود » (11 ـ هود ـ 63) « وجعلناهم أحاديث فبعدا لقوم لا يؤمنون » (23 ـ المؤمنون 44) · وهنا تتعارض الانية والغيرة الالهية بانية وغيرة هذا الانسان المتمرد · فتعالى الله عليه وافقده كل اثر وجرده مما يعد أساسا لاكتمال ذاته ، واصبحت أعماله غـير مراعى فيها القوانين · فكل فعل يفعله فهو مقدور الى اللـه ، ولا يستطيع النجاة الا بالرجوع اليه وطلب الهداية والرشد ، لان الله فى هذه الحالة هو القاهر فوق عبـاده لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، « وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة » (28 ـ القصص ـ 68) « قل من ذا الذى يعصمكم من الله ان أراد بكم سوءا أو أراد بكم رحمة » (33ـ الاحزاب ـ 17) · وهذا النوع من السياسة الالهية خاص بالدين فضلوا العمى على الهدى علوا واستكبارا ، فمحق الله كل اثر لهؤلاء وعبر عن ذلك بقـوله : « ساصرف عن آياتي الذين يتكبرون فى الارض بغير الحق ، وان يروا كل آية لا يؤمنوا بها وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيـلا ، وان يروا سبيل الغيّ يتخذوه سبيلا » (7 ـ الاعراف ـ 146) وليعلم هؤلاء ان « ما أصاب من مصيبة الا باذن الله ومن يـؤمن بالله يهد قلبه » (64 ـ التغابن ـ 11) وما نسبة الخير والشر الا فى الهداية والاضلال : « فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للاسلام ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقـا حرجا كأنما يصعد فى السماء » (6 ـ الانعام ـ 125) ·

فأى تغيير فى الطبيعـة الانسانية وأى شعور بالاستقلال والاستغناء عن القـوة الالهية ولو كانت فى مستوى الظن يجر حتما الى اطفاء الذات ومحو كل اثر لقـدرة الانسان · وهذا الجانب من الشعور الباطني تؤكده الآية : « وذا النون اذ ذهب مغاضبا

فظن ان لن نقدر عليه فنادى فى الظلمات ان لا اله الا انت سبحانك إني كنت من الظالمين» (الانبياء ، 87) ·

فليس اذن من باب التناقض ما نجـــده من احتلاف فى السياسة الالهية · وما علينا الا ان نتدبر النصوص الدينية « أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كبيرا » (النساء ، 32) · والقرآن لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فيكون معنى احتـــلاف السياسة الالهية ان الموقف الالهى متصل اتصالا مباشرا بموقـف الانســـان ·

الجبر والاختيار فى التفكير الاسلامى الحديث

معيى الدين عزوز
متفقد أول للفلسفة ـ تونس

1) موقف المسلم المعاصر من الجبر والاختيار :

يتحدد موقف الانسان من القضايا الدينية والفلسفية تبعا لمدى فهمه لها ولما واكبها من ظروف تاريخية مستجدة مضافة الى ما خلفه فيها الماضى من قدرة على التطور والتفاعل ويتحدد هذا الموقف أيضا تبعا للظروف النفسية والاجتماعية التى تحيط بالانسان ولما تحصل عليه من مستوى ثقافى الى غير ذلك من العوامل الاخرى.

والانسان المسلم فى العصر الحديث لم يجد نفسه ازاء قضاياه الدينية ملزما باتباع موقف واحد ولا حتى باتباع أحد موقفين يسهل عليه الاختيار بينهما ؛ فهو على النقيض من ذلك يشعر بالتردد ويحس بالحيرة اذا ما رام ان يبت فى الامر لتعدد الوجهات فالناس حوله يتجاذبهم توالي المواقف المتباينة والآراء المتعارضة ولا يكاد ينحاز الى شق حتى يستهويه الشق الآخر ويشعر بأن الثالث له من الحجج المعقوله ما يجعله جديرا بالاتباع وأن الرابع هو أيضا من المتانة بمكان ...

فاذا ما أخذنا مثلا موضوع الجبر والاختيار فاننا نجد له من الجوانب ما يجعل حصره عسيرا لكثرة ما قيل فيه فقد نشأ فى أحضان مناقشة الجدود لمسألة القضاء والقدر والتشبع بالمعانى التى ولدها أنصار الحرية وخصومهم القائلين بالحتمية فأدى طول البحث فى هذه المعانى الى ربطها بقضايا أخرى لها من أواصر الشبه ومن أسباب الاختلاف ما يجعل اثارتها عملا ضروريا حتى وان كان الموضوع الاصلي نفسه مثقلا بالمعاني التى اكتسبها عبر تاريخه الطويل ·

فقد وصلت للمسلم المعاصر اصداء بحث هذا الموضوع من طرف قدماء المصريين والهنود واليونانيين ومن طرف أصحاب الديانات السابقة كاليهود والمسيحيين ووجد فى القران ايات كثيرة ورد فيها بألفاظ مكررة أو مختلفة ذات معان متقاربة أو متباعدة ذكر قضاء الله وقدره وحرية الانسان واضطرازه وجبره واختياره ·

وأدرك المسلم المعاصر ان السنة عززت ما ورد فى كتاب الله وأعطت لهذا الموضوع أبعادا جديدة كان من نتيجتها أن كيف المسلم فى عهد الصحابة وما تلاه من عصور موقفه بما يتناسب واستعداده للعمل الحر أو جنوحه الى تكبيل نفسه العراقيل وتهيأ لذلك للتفاعل مع بيئته ومع محيطه ·

ففى عصور الفتح جرد كبار العاملين موضوع الجبر والاختيار من كل أهمية فهو « كلام » ولفظ يلفظ لا أثر له يدكر فى القوة الجارفة لتيار الحياة العملية التى استقطبت وحدها عنايتهم · ولاحظ المسلم المعاصر أيضا أن الفتنة الكبرى التى مزقت وحدة الامة وما عقبها من تطورات اجتماعية وسياسية كانت بمثابة البؤرة التى أحاطت بهذا الموضوع ·

فان تقلب الاحوال وتعدد القيادات السياسية وما نجم عن ذلك من مآسى ومحن *اضعف فى الحياة تدفقها السليم مما سمح للجانب الكلامي لهذا الموضوع بأن يتغلب على الجوهر العملي فتعددت المفاهيم وتشابكت المعاني وبلغ توسعها حدا صار فيه من الممكن لكل شخص ان يكون لنفسه رأيا خاصا يتماشى مع درجة اعتقاده او تمدهبه الفلسفي* أو مستواه الثقافى والاجتماعى ·

وبالاضافة الى هذا الرصيد الذى تغلغل فى أعماق لا شعوره وجد المسلم المعاصر حوله خضما من الاراء جادت بها قريحة مفكرى الغرب حول الحرية والحتمية والقضاء والقدر والجبر والاختيار فكان لها انعكاسات سلبية وايجابية فى نفوس المسلمين زادت المسألة تعقيدا ·

فتولد من كل ذلك بناء فلسفي متواصل الشموخ يتغذى باستمرار من الاحداث اليومية المشابهة لهذه الحالة التى سمعنا بها جميعا وهى :

قبل بضعة أسابيع توفى البابا بول السادس « فاختير خلفه » يوحنا بولس الاول وعلل بعضهم سرعة اختيار الكرادلة له بأنه يمثل فى أعينهم « مرشح الله » فالعناية الالهية هي التى اختارته لهذا المنصب ·

وبعد شهر من الزمن مات البابا الجديد قبل أن يشرع فى القيام بأي عمل يذكر وطرح الناس هذا السؤال على الرهبان ان كان الله هو الذى رشحه فلمادا أماته بعد شهر فقط ؟ فكانت مناسبة لانتصاب الحوار بين الكاتوليك حول قضاء الله وقدره أو حول علمه وارادته ·

وتلاقفت المجلات والصحف اليومية أصداء الحوار لتنشره فى أوساط أخرى غير مسيحية (1) ·

فى هذه الحادثة دلالة على أن موضوع القضاء والقدر وما تفرع عنه من قول بالجبر والاختيار لا يزال يحتل مكانته من اهتمامات الناس وتختلف هذه المكانة باختلاف درجة تدين صاحبها ·

أولا : موقف المتدين المعاصر :

ان الاطار الديني هو المجال الاول الذى أثير فيه هذا الموضوع لذا سنبحث الجبر والاختيار من هذه الزاوية قبل أن نستعرضه من جوانبه الفلسفية والسياسية · فالمؤمن يصدق بأنه مخلوق ويسلم بأن خلقه ليس ضربا من العبث أو المحال ويطمئن الى خالقه الذى هو رب السموات والارض ·

قال تعالى : « أفحسبتم انما خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (2) فقد خلقه الله لغاية وهي المعلن عنها فى هذه الآية : « وما خلقت الجن والانس الا ليعبدوني ما أريد منهم من رزق وما أريد أن يطعمونى ، ان الله هو الرزاق ذو القوة المتين » (3) ·

خلق الانسان ليعبد ربه وللعبادة معان كثيرة لغوية واصطلاحية الا اننى أفضل المعنى الذى يتماشى مع التفكير الفلسفى رغم قدمه وهو الذى اختاره الكندى فى شرحه لمعنى آية : « والنجم والشجر يسجدان » فقال بأن ذلك هو تحقيق ارادة البارىء والانتهاء الى أمره وتأدية الوظيفة المعينة للمخلوق فى نظام العالم (4) فالعبادة الحقة هى التى تجعل صاحبها يتفاعل مع نظامه الكوني وتحدد له اتجاهه السليم فى الحياة · فهي حقيقة يعيشها صاحبها وليست مجرد ادعاء أو مظهر سطحي تبعثره الالفاظ ويتلاشى أمام المطامع ·

وعندما يقر المتدين بانه حادث وأنه أحدث لغاية وسبب هي العبادة فهو يتعرف فى نفس الوقت بأن ليست له حرية مطلقة وبأن نشأته خارجة عن ارادته ولا يستطيع الافلات من الزمن الذى ظهر فيه مهما اتجهت مشاعره الى الماضى والحاضر والمستقبل ·

وبعد ما يولد لا يمكنه الاستغناء لمدة قد تطول أو تقصر عمن يوفر له الغذاء والملبس والمسكن ويدفع عنه الخطر ويلقنه اللغة ويدربه على السلوك لضعفه البدني والفكري · فشعوره بالتبعية للظروف البدنية والنفسية والاخلاقية والاقتصادية والثقافية يحتم عليه القول بالجبرية وفى نفس الوقت يرى نفسه حرا لان كل هذه الظروف مما سخره الله له (5) · فبالايمان والعمل الصالح يتحرر من سلطان الحوادث ويسمو عند ربه درجات قال تعالى : « أفنجعل المسلمين كالمجرمين ما لكم كيف تحكمون » (6) وقال أيضا · « أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الارض أم نجعل المتقين كالفجار » (7) ·

فباختياره للاسلام والعمل الصالح تحرر الانسان من الخوف من الله · وقد أعطى الله بوصفه السلطان الاوحد عند المؤمن الحرية للانسان فى اختيار طريقه وعمله وذلك عندما قال : « من عمل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (8) وقوله : « ذلك بما قدمت أيديكم وان الله ليس بظلام للعبيد » (9) · ويطول بنا المقام لو اردنا سرد كل الآيات الدالة على حرية الانسان وعلى عدم ارتباطه الا بالله وحده ·

وكذلك الشأن بالنسبة للاحاديث التى نذكر منها ما يلي : « عن عبد الله ابن عباس قال : كنت خلف النبىء (ص) يوما فقال لي : يا غلام اني أعلمك كلمات : احفظ الله يحفظك · احفظ الله تجده تجاهك · اذا سألت فسل الله ، واذا استعنت فاستعن بالله واعلم ان الامة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشىء لم ينفعوك الا بشىء قد كتبه (لك) وان اجتمعوا على أن يضروك لم يضروك الا بشىء قد كتبه الله عليك · رفعت الاقلام وجف الصحف (10) ·

والحرية المتاحة للانسان فى هذا الاطار هى أكبر مما تتخيله قوى البدنية والعقلية لانها لا تقف عند حد ولو كان ما وراء العرش (11) والآفاق التى فتحها العلم للمعاصرين تدل على أن حريتهم تتجاوز تصوراتهم وخيالاتهم · فلم يحرم الله شيئا الا اذا تأكدت مضرته للفرد أو للجماعة ·

ثانيـــا : موقف المتفلســـف :

شاهد المسلم المعاصر تطعيم ثقافته بتيار قوي من الفلسفة الغربية وبما أحياه من فلسفته الخاصة فتفلسف بدوره على قدر تأثر تفكيره بتلك النظريات مما أدى الى تباين فى المواقـــف التى كانت اما مجارية لما هو قائم بالغرب واما مناهضة له وكان ذلك قبل أن يستقيم تفكيره الخاص · وما دام الامر كذلك فلا مفـر من استعراض بعض الآراء الفلسفية خاصة تلك التى كان لها أكبر حظ من النجاح فى بيئتنا كالعقلانية وكالوجودية وفى هـــذا الصدد يقول انقلز « كان هيقل أول من تمثل بوضوح علاقة الحرية بالضرورة فالحرية عنده هي ادراك الضرورة · وليست الضرورة عمياء الا بالمقدار الذى لا تكون فيه مفهومة · والحرية هي الاخرى ليست استقلالا موهوما عن قوانين الطبيعة بل هي معرفة لهذه القوانين ولامكانية الاستفادة منها بصورة منظمة ، فى غايات معينة · وهذا حق بالنسبة للقوانـــين الخارجية بقدر ما هو حق بالنسبة للتى تنظم الحياة الطبيعيـــة والنفسية للانسان نفسه : وهما صنفان من القوانين قد يمكن الفصل بينهما فى عالم التصورات لا فى عالم الواقع ·

فحرية الارادة لا تدل على شيء آخر أكثر من القدرة على اتخاذ القرارات عـــن بينة (I2) · وتحت دوافع سياسية واقتصادية اتجه الفلاسفة المعاصرون الى بحـث العلاقة بين الضرورة والحرية وبين الحرية والارادة ولا يهمنا من كثرة ما قالوه فى هذا المضمـــار سوى ما له صلة وثيقة بالجبر والاختيار وتأثيره الواضـــح فى العالم الاســلامي ·

ويمكن تصنيف هؤلاء الباحثين الى قسمين أنصار المعقول وأنصار اللا معقول :

أ ـ الفـلاسفة العقلانيـين :

وقد عرض لنا الاستـــاذ يوسف كرم وجهة نظر العقلانيين فقـــال . « الحرية كفاية للعمل باستقلال عن كل ضرورة تكون علة تامة له · أو هي اختيار الكائن العاقل فعله بنفسه دونما اكراه خارجي أو ضرورة داخلية ··· تأتي من جانب فاعل يجبر بالقوة على اتيان الفعل أو على تركه (I3) ·

يرى هؤلاء المفكرون أن الانسان مخير الا أن حرية اختياره وقدرته على ذلك محددة بشروط تأتي من الموضوع نفسه أو تأتي مما فى الانسان من قصور وشعور بالاضطرار

وموقفهم هذا يقربهم كثيرا من الآراء التى يعتمدها المتدينون مع اختلاف فى المقاصد والنظرة الى الاشياء وحتى فى الاساليب ·

ب ـ فلسفة اللا معقول :

لعبت الفلسفة اللا معقولة (I4) دورها فى حياة بعض الشبان المسلمين الذين درسوا بالغرب أو احتكوا بأوروبا عن طريق السياحة أو الاقبال على كتبها أو بواسطة وسائل الاعلام السمعية والبصرية ·

فكانت لثقافة هؤلاء الناس آثارها فى تحديد موقفهم من الجبر والاختيار · وتأتي الوجودية فى طليعة هذه الفلسفات اللا معقولة (I5) ولها فرعان متدين والحادى رغم انتمائهما الى أصل واحد ·

ويعتبر المفكر الدانماركى « صورين كيركيقورد » الاب الروحى للوجودية · وقد انتقد بشدة نظريات هيقل وكل الفلسفة العقلية بصفة عامة · وتطورت الوجودية كثيرا وكانت لها مدارس واتباع فى عدة اقطار من العالم الا اننى سوف لا أستعرض منها الا ما له صلة بالجبر والاختيار تاركا جانبا كل ما عدا ذلك من آرائها ونظرياتها ·

وفى هذا الشأن يكاد يتفق الوجوديون على مقولة أساسية عندهم وهي أن الوجود حدث يدعو كل من تأمل فيه الى الاستغراب والدهشة المشوبة بالقلق ويترك فى نفس صاحبه شعورا بالاشمئزاز والرعب والغثيار والرهبة والقلق ·

وذلك لان فكرة الوجود تحتاج الى تحديد وامعان نظر · ومن حق المرء ان يتساءل لماذا وجد وتساؤله هذا يقلقه · وفى وجود الانسان تحد للحرية وانكار لها · فهو لم يختر ساعة مجيئه الى هذا العالم ولا مسقط رأسه · وبعد ميلاده تفرض عليه لغة من يحيطون به وسلوكهم وطعامهم ولباسهم · وهو مضطر الى قبول سياسة دولته ونظامها الاقتصادى وثقافة مجتمعه الى غير ذلك من الفروض الاجتماعية ·

واذا ما نظر هذا الانسان الى محيطه الطبيعى فان شعوره بالضعف يزداد حدة واستفحالا اذ لا دخل له يذكر فى التأثير على ظواهر الكون المهددة لمصيره كالزلازل والفياضانات والجفاف ·

ورغم صورتها القاتمة فان هذه الاراء استهوت بعض الشبان المثقفين من مسلمي العصر الحديث فقد وجدوا فيها تعبيرا عما كانوا يشعرون به من حقارة الانسان فى

بيئتهم ومن عجزهم عن التفسير المنطقي لعالمهم · فلا شيء عندهم يبرر الحياة فيه ولا شيء فى الحياة نفسها له مغزى · واذا تجردت الحياة من كل معنى فلماذا يعني الحي نفسه باختيار أمر ما وتفضيله عن غيره · ففى مثل هذه الحياة لا قيمة للاختيار ·

ان تطبيق مثل هذه النظريات يؤدى الى القضاء على الفوارق بين الانماط المختلفة للسلوك · فيصبح الشرير فى نفس المرتبة والخير · ولا مجال يذكر للحرية لان القوى اللامعقولة وغطرسة الطبيعة قضت على ارادة الانسان · فهل خلق الانسان نفسه حتى يدعى حريته ؟

وللظروف السياسية والمسكرية دورها الكبير فى نشر مثل هذه الآراء لان الانسان فى مثل تلك الظروف يفقد القدرة على التصرف الحر ويفرض عليه ان ينفذ بكل دقة ما تأمره به السلط العسكرية · لذا نجد الوجودية لا تقوى وتزدهر الا اذا كانت هناك حروب :

فقد ترعرعت وجودية هيدقر أثناء وبعد الحرب العالمية الاولى وترعرعت آراء سارتر بعد الحرب العالمية الثانية وخلالها ·

ومن المعروف تاريخيا أن جبرية جهم بن صفوان نبغت أيام الفتن المتلاحقة التى هزت أركان الدولة الاموية فى أخريات سنواتها ·

وهذا ما يجعل بين الجبرية والوجودية ملامح تشابه وأوجه تقارب ·

ثالثا : الجانب السياسى فى قضية الجبر والاختيار :

لم يكن الجانب المذهبي ، سواء أكان دينيا أم فلسفيا ، هو وحده القاعدة التى انطلقت منها مباحث الجبر والاختيار فى العصر الحديث · فقد كان للجانب السياسي أيضا أثره فى بلورة الموضوع وفى تطويره ·

وذلك أنه فى القرن الماضى تعرف العالم الاسلامى عن مدى البعد الذى يفصله عن قوة الغرب وعن تقدمه الحضارى وأحس بأن تلك القوة باتت تهدده بالاستعمار وربما بالفناء ·

وفى مثل هذه الظروف تحتم على المسلم اعادة النظر فى فهمه لقيمه الروحية التى منها موقفه من موضوع الجبر والاختيار مثلما يسعى الى تحوير مؤسساته السياسة والاجتماعية وتجديده لثقافته ·

وبوصفه رائد الحركة الاصلاحية ومحركها الاصلي اهتم جمال الدين الافغاني بهذه المسألة وتبعه فى عمله هذا محمد عبده وتلاميذه وعنايتهم هذه ناشئة عن يقينهم بأن هذه المسألة وان بدت دينية الا انه لا يمكن فصلها عن ملابساتها السياسية

والاجتماعية والاقتصادية · فقد وجدوا أن بعض أدعيـاء الصلاح استغلوا موضوع الجبر ليخدروا ارادة الجماهير ويبتزوا أموال الناس وحتى ممتلكاتهم ونصبوا أنفسهم وسطاء بين الله وعباده وأقاموا لذلك الغرض روايا وطرق وتكاثر عدد الزوايا والطرق الصوفية واشتد التنافس بينها على اقتسام الجماهير الاسلامية ·

والاحظ هنا أنني أفرق بين سيرة مؤسسى هذه الطرق الذين اتصف أكثرهم بالتقى والصلاح وبين ورثتهم الذين كانوا فى أغلبهم من أعوان الاستعمار والمستبدين ونشروا بين الناس التواكل والاستسلام · طالب المصلحون معاصريهم بنبذ التواكل والاخـــذ بمبدأ الاختيار وبذلك حرضوهم على التفكير الطليق وعلى العمل دون حرج من أجـل ازالة الاستعمار والقضاء على ركائزه وعـدم الاعتماد فى ذلك الا على اللـــه وحده فالنبىء (ص) وهو رسول الله لا يملـــك لنفسه ضرا ولا نفعا ولا يملك لاحد شفاعة الا أن يـأذن اللـــه لـه (16) ·

والناحية المذهبية من مسألة الوساطة بين الله والعبد مشهورة بفضل ما كتبه عنها ابن تيمية ومحمد بن عبد الوهاب وأنصارهما وخصومهما . الا أن الجانب السيـــاسى لهذه القضية فى العصر الحديث لا زال فى حاجة الى مزيد من البحث ·

وأثناء عرض وجهات النظر المتعارضة أثيرت مسألة المسؤولية والدوافع الاخرى التى حدت بالمصلحين الى الاهتمام بهذا الموضوع وهى ادراكهم للترابط الذى اوجده الاسلام بين الناحيتين العقائدية والسياسية مما يجعل مطالبتهم بالاخذ بجانب الحرية فى مسألة دينية سيؤدى حتما الى تعميمها على ميادين السياسة وغيرها وأيضا لان السلطة فى ذلك العصر كانت بأيدي المستعمرين أو الحكام المستبدين الذين لا يسمحون بالحديث عـن التحرر والحرية · وكانت الحركة فى أولها أضعف من مواجهة أعدائها فى موضوع يمكن لها أن تثيره بشكل آخر مع علمهم بأن المتزمتين من خصومهم ربما كانوا عليهم أشد مـن الاستعمار ·

وسواء أثـــير موضوع الجبر والاختيار من جانبه السياسى أو مـــن جانبه المذهبى فنتيجته واحدة وهي التى تتمثل فى تحريض المسلم على ابراز قيمته كشخص موجود يتمسك بحريته ويتحمل مسؤوليته التى هي شرط لازم لذاتيته ·

وتزداد هذه الفكرة وضوحا عندما نستعرض فى شيء من التفصيل بعض الآراء التى صدرت عن أهم من ساهم فى اثارة موضوع الجبر والاختيار فى العصر الحديث ·

رأي جمـال الدين الافغـاني :

طرق جمال الدين الافغاني موضوع الجبر والاختيار لمدة غايات تبرز منها اثنتان · الاولى تبرئة الاسلام مما اتهمه به المغرضون من أعدائه وضعفاء العقول من أبنـائه الذين خلطوا بين الاعتقاد بمذهب الجبرية والاعتناء بالقضاء والقدر فظنوا أن الـدين المحمدي بعقيدته فى القدر يجمد نشاط أتباعه ويخضعهم لارادة عليا تسلبهم خصائصهم النفسية وتقضي على امكانياتهم المادية وبالتالي تطمس وجودهم ·

أما الغاية الثانية فهي تذكير المسلمين بالمفهوم الصحيح للقضاء والقدر وهو المفهوم الذى يتماشى مع ما تحلى به دينهم من رونق وبهاء ·

وخصص لهذا الموضوع رسالة تحمل عنوان « رسالة فى القضاء والقدر » أقتطف لكم منها هذه الفقرة « هكذا ظنت طائفة من الافرنج وذهب مذهبها كثيرون من ضعفاء العقول فى الشرق · ولست أخشى أن أقول : كذب الظان وأخطاء الواهم وأبطل الزاعم وافتروا على الله والمسلمـين كذبا لا يوجد مسلم فى هذا الوقت من سنى وشيعى وزيدى واسماعيلي ووهابي وخارجى يرى مذهب الجبر المحض ويعتقد سلب الاختيار عن نفسه بالمرة ، بل كل من هذه الطوائف المسلمة يعتقدون بأن لهم جزءا اختياريا فى أعمالهم ويسمى بالكسب وهو مناط الثواب والعقاب عند جميعهم وأنهم محاسبون بما وهبهـم الله من هذا الجزء الاختيـارى ومطالبون بامتثال جميع الاوامر الالهية والنواهى الربانية الداعية الى كل خير ، الهادية الى كل فلاح وأن هذا النوع من الاختيار هو مورد التكليف الشرعى وبه تتم الحكمة والعـدل » (17) ·

رأي محمد عبـده ورشيد رضـا :

لم يخصص محمد عبده لموضوع الجبر والاختيار رسالة بعينها كما فعل أستاذه جمال الدين الافغاني وانما تعرض لبحثه فى عدة أبواب من كتابه القـيم : « رسالة التوحيد » وفى تفسير المنار ، وكذلك الشأن بالنسبة لرشيد رضا ·

والمسلم المعاصر مدفوعا دفعا للبحث عن الحـرية التى اغتصبها منه المستعمرون الذين جعلوا لتصرفاته حدودا معينة حرمه منها الظالمون من حكامه الذين تعاونوا مع المغتصب كي يضيقوا عليه أنفاسه · ولم يصل المسلم الى هذه الحالة دفعة واحدة بغتة بل تدريجيـا نتيجة تفكير ضاقت آفاقه تحت ضربات الاحداث المؤلمة التى تلقاها الناس طيلة قرون الاضطرابات والحروب والفتن · وخرج المسلمون من تلك الاحداث منهوكى

القوى عاجزين عن اعطاء الحياة المعنى الذى يريدونه لها وقصرت هممهم عن كتابة التاريخ كما يشاؤون ·

ومما يحسن التأكيد عليه أنه حتى فى مثل هذه الظروف الحالكة لم يشعر المسلمون فى معظمهم بأنهم سلبوا تماما من كل اختيار بل كان لهم ولو على المستوى النظرى احساس بانهم ليسوا ريشة فى مهب الريح ·

وحتى ان وجد من قال بهذا الرأى فقد فعل ذلك عن « احتيار لمذهب فلسفى أو كلامي معين » ·

فبين محمد عبده أن الاختيار ملازم للانسان عندما كتب : « يشهد سليم العقل والحواس من نفسه أنه موجود ولا يحتاج فى ذلك الى دليل يهديه ولا معلم يرشده · كذلك يشهد انه مدرك لاعماله الاحتيارية ، يزن نتائجها بعقله ويقدرها بارادته ثم يصدرها بقدرة ما فيه ·

ويعد انكار شيء من ذلك مساويا لانكار وجوده فى مجافاته لبداهة العقل كما يشهد بذلك فى نفسه يشهده أيضا فى بني نوعه كافة متى كانوا مثله فى سلامة العقل والحواس ·

ومع ذلك فقد يريد ارضاء خليل فيغضبه ، وقد يطلب كسب رزق فيفوته · وربما سعى الى منجاة فسقط فى مهلكة ، فيعود باللائمة على نفسه ان كان لم يحكم النظر فى تقديم فعله ويتخذ من حيبته أول مرة مرشدا له فى الاحرى (18) ·

ويستخلص محمد عبده من ذلك النتيجة المنطقية التى لابد أن يصل اليها كل متدين وكل ذى فكر سليم فيقول « يتجه من ذلك الا أن فى الكون قوة أسمى من أن تحيط بها قدرته وان وراء تدبيره سلطانا لا تصل اليه سلطته » (19) ·

وبالتدرج ينتقل محمد عبده من الناحية المذهبية الى مستلزماتها السياسية والاجتماعية فيلخص كلامه الذى يطول ترديده فى هذه العبارات القصيرة : « تقرير أمرين عظيمين هما ركنا السعادة وقوام الاعمال البشرية : ١) ان العبد يكسب بارادته وقدرته ما هو وسيلة لسعادته · 2) أن قدرة الله هي مرجع لجميع الكائنات وان من آثارها ما يحول بين العبد وبين انفاذ ما يريده . وان لا شيء سوى الله يمكن له أن يمد العبد بالمعونة فيما لم يبلغه كسبه » (20) ·

أما رشيد رضا فانه يتفق مع أستاذه فيما قاله في شأن الجبر والاختيار واعتبر الجبر فسادا للعقيدة وهو من قبيل الخرافات وعلق على كلام محمد عبده الوارد فى هذه الجملة : « وكثر ما ضل قوم وأضلوا ، وكان لمقالاتهم أسوء الاثر فيما عليه حال الامة اليوم » · فكتب رشيد رضا : « هم جهلة أدعياء الولاية بالتصوف التقليدى الذين أفسدوا عقائد العامة بالجبر والخرافات » ·

فالانسان حر بأنه غير محتاج لغيره من البشر وهذا هو المعنى الذى عبر عنه رشيد رضا عند تفسيره لهذه الآية « قل ان صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين » (21) ·

فقال : « ان صلاتي وجميع عباداتي وحياتى وشؤونها ومماتي وما بعده كل ذلك لله وحده أتوجه فيه الى مرضاة غيره ولا أستعين أحدا على شيء منه استعانة معنوية بل اياه أستعين مهتديا بما شرعه من الدين » (22) ·

وهو فى موقفه هذا يسير على منهج أستاذه محمد عبده الذي كتب « ··· تجلت بذلك للانسان نفسه حرة كريمة وأطلقت ارادته من القيود التى كانت تعقدها بارادة غيره ، سواء أكانت ارادة بشرية ظن أنها شعبة من الارادة الالهية وأنها هي كارادة الرؤساء والمسيطرين ، أو ارادة موهومة اخترعها الخيال كما يظن فى القبور واحجار والاشجار والكواكب ونحوها » (23) ·

يبرز الهدف السياسى واضحا جليا فى هذه الفقرة : « ··· بهدا وما سبقه تم للانسان بمقتضى دينه أمران عظيمان طالما حرم منهما انسانيته واستعد لان يبلغ من السعادة ما يهيأه الله بحكم الفطرة التى فطر عليها ·

وقد قال بعض الحكماء الغربيين من متأخريهم ان نشأة المدنية فى أوروبا انما قامت على هذين الاصلين · فلم تنهض النفوس للعمل ولم تتحرك العقول للبحث والنظر الا بعد أن عرف العدد الكثير أنفسهم وان لهم حقا فى تصريف اختيارهم وفى طلب الحقائق بعقولهم » (24) · فكانت دعوته الى التمسك بمبدأ الاختيار تشمل الجوانب الدينية والاجتماعية والسياسية وتهدف أيضا الى اشعار المسلم بان فى أصول عقيدته ما يغنيه عن البحث فى كتب الغربيين · ورغم سمو هده المقاصد فلقد وجدت آراؤه من يعارضها ويقاومها بشدة سواء أكان ذلك بين من عاصره أو بين من تأخر عنه قليلا مثل مصطفى صبري الذي كان يشغل منصب شيخ اسلام بالخلافة العثمانية قبل أن يزيلها مصطفى كمال ·

راي مصطفى صبـري :

يمثل مصطفى صبري طائفة الذين استمروا فى العصر الحديث يدافعون عن نوع من الجبرية ظنها قريبة الصلة بالكسب · والف للدفاع عن نفسه كتابا كبير الحجـــم اسماه « موقف البشر تحت سلطان القدر » ·

ففسر القدر بانه : « عدم التصديق بأن الله تعالى خالق لافعال العباد من خير وشر » وذكر عدة أحاديث واردة فى ذم القدر هذا أحدها : « قال (ص) : أخاف على أمتي من بعدي ثلاثا : حيف الايمة وايمانا بالنجوم وتكذيبا بالقدر » (25) ·

والدافع له على الخوض فى هذا الموضوع هو مقاومة النزعة التى جعلت جانبا من معاصريه يجارون الاوروبيـــين فى قولهم بحرية الانسان · فمجاراة الغرب تـــؤدى الى ظهور نزعات معادية للاسلام كالكمالية مثلا ·

وهو يرى أن الاوروبيين اتخذوا من موضوع القدر ذريعة لمهاجمة الاسلام حتى ان بعضهم ألف كتابا في ثلاثة أجزاء سماه « علم القضاء والقدر أو سر تأخر المسلمين » ·

ان مهاجمة الغربيين للاســـلام الداعي للايمان بالقدر كان الدافع الاول لمصطفى صبرى على تاليف كتابه المشار اليه فهو يقول : « ··· وصفوة الكلام ان القدر الوارد فى الاحاديث بشأن القدر غير متوجه الى مذهب الاشاعرة الكاملي الايمان بالقدر ، بل موجه الى مذهب المعتزلة وأحفادهم المقتفين بآثار الغربيين فان تكلمت أنا فى القدر فلم يكن ذلك مني لانكاره بل لاثباته وتحديد الايمان به · وما كنت بحاجة الى التكلم فيـــه لو لم يتكلم غيري ضـــده ·

وقد كان لا ينظر الى مذهب المعتزلة فى مسألة أفعال العباد بنظر الاعجا بفلماذا عد ذلك بعد تفرنجه حسنا مرغوبا فيه حتى عند علمائنا ؟ (26)

ووضح رأيه فى القضاء والقدر فى هذه الفقرة : « فمذهبي الذى أريد اثباته فى هذا الكتاب أن العباد يفعلون بارادتهم واختيارهم ما يريد الله أن يفعلوه ولا يحيدون عنه

فبالنظر الى أنهم لا يختارون الا ما أراد اللـــه أن يختاروه ولا يحيدون عنه فهـــم مجبرون أو كأنهم مجبرون ·

واني لا أقول كما قال بعض ائمة الدين واختاره المحققون : لا جبر وتفويض ولكن أمر بين أمرين ، بل أقول جبر وتفويض معا ··· فالانسان يفعل ما يشاء ولا يشاء الا ما شاء اللـــه أن يشاءه (27) ·

ويشتد بمصطفى صبري التصرف الى حد الخروج عـــن موقف الاشاعرة الذين نعتهم بكاملي الايمان والقدر للارتماء فى أحضان الجهمية · وذلك عندما يقول : « ان جميع افعال العبـاد التى تدخـل فى استطاعتهم وتحصل بواسطة ارادتهم ، كبيـرها وصغـــيرها ، مما تراهم يقومون به كل يوم من الاعمال المعتادة لهم هى واقعة تحت حكم الله وارادته · وأن ما يقع فى الكون من الخير والشر الذي يكون مصدره الانسان منهما كله من عند اللـه » (28) ·

والعجيب فى الامر أن منطلق مصطفى صبري فى بحثه للقضاء والقدر كان هـو بعينه الذى اعتمد عليه جمال الدين الافغاني من قبل وهو تبرئة الاسلام مما حـاول أن يلصقه به المغرضون فى الغرب والبعض من الشرقيين الا أن مسار كلا الباحثين كـان مخالفا تماما للآخر · فجمال الدين الافغاني دعا الى التحرر ونادى مصطفى صبـري بالجبـرية ·

جبـــر أم اختيـــار :

أدى هذا التناقض العميق بين الآراء وهذا الاطلاع الواسع على مختلف جـوانب الموضوع الى التعرف على الموقف السليم الذي قادتنا اليه مختلف التطورات ·

ويتمثل هذا الموقف فى أن الانسان بما وهبه الله من امكانيات عقلية وجسمية ، وبما أنعم عليه به من المؤهلات يستطيع بارادته الخاصة أن يختار طريقة العيش التى تناسبه ، وأن يقبل على العمل الذى يرتضيه والذى نجح فى تهيئة ما يلزمه من متطلبات وهو الذى يحدد بمفرده المدى الذى تقف عنده منفعته أو مضرته ولا يراعي فى ذلـك الاحترام مصلحة غيره الذى قبل عن طواعية معاشرته ·

وهو وحده المستفيد الاول من عمله عند الصلاح والمتحمل الاصلي لمغبة سعيه عند الفساد · فالله حباه بهـــذه الحرية · والآيات صريحة فى ذلك قال تعالى « من عمـــل صالحا فلنفسه ومن أساء فعليها ، وما ربك بظلام للعبيد » (29) وقال أيضا : « فمـن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمـــل مثقال ذرة شرا يره » (30) · وقال « من يعمل سوءا يُجْزَ بـــه ولا يجد له من دون الله وليا ولا نصيرا » (31) ·

وأما الآيات المعارضة لهذه فهي خاصة ببعض الظروف العابرة والتى لابد للانسان أن يجتازها فى بعض الاوقات · وهذا ما يجعل الجبرية ، وان استهوت بعض الفلاسفة

والمتكلمين ، لا تستساغ الا فى بعض الاحكام العرفية التى وضعها الانسان بنفسه لمواجهة بعض الطوارىء ٠

وفى ما عدى ذلك فانها لم تعد تجد ، بين المعاصرين ، من يدافع عنها بحماس حتى فى الميدان الطبيعى ٠ وذلك لان التقدم العلمي أطلع الناس على كيفية تغيير العناصر وتكييف المبادىء بما فى ذلك الحتمية نفسها التى دخل عليها الاحتمال فأصبحت تخضع لمعطيات النظرية النسبية ٠

ولا يفهم من هذا الكلام أن الانسان أصبحت له الحرية المطلقة فى جميع تصرفاته لان الحرية المطلقة كما عبر عن ذلك الفيلسوف الفرنسى « سآرتر » هي التى تبلغ حدا تنكر فيه حتى وجودها ٠ فلابد اذا أن تكون لها بعض الحدود التى منها ضرورة وجود المقيم ٠

فالانسان وان كان هو المصدر الاول لعمله فلابد له من مقيم لعمله ذاك وهو الحق الذي يرجع الى الله ٠

ومن العبث أن يحاول الانسان أن يكون فى نفس الوقت القائم بالعمل والمقيم له ٠

لذا أسندت الشرائع تلك المهمة الى الله الذى وضع لنا سلما فى ذلك يعد الرضا به أمرا لازما للعمل وان لم يكن من طبيعته ٠ والتسليم بوجود المقيم هو شرط أساسي لكل حياة حرة ٠ ويسر الدين على الناس هذا التسليم عندما طلب منهم الاقتداء بالرسل (ص) أولئك الذين كانت لهم حرية تغيير تفكير وحياة أكثرية أبناء الانسانية وجعلوا من اقتدى بهم ينتمي الى خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر .

التعاليـــــق

1) انظر جريدة La Presse بتاريخ . 8 أكتوبر 1978 :
Vatican A la recherche d'un bon pasteur italien

2) المؤمنـــون : 115

3) الذاريـــات : 56 ·

4) قال الكندى : « نظرا لانه لا يمكن أن يقع من النجم والشجر سجود حقيقى بحسب الاصطلاح الشرعى فمعناه هو انها بجريانها على مجاريها والتزامها حركاتها الثابتة التى تنشأ عنها الظواهر الجوية والحوادث الارضية من كون وفساد وتغير تحقق ارادة بارئها وتنتهى الى أمره . وتؤدى وظيفتها المعينة لها فى نظام العالم » · (رسائل الكندى الفلسفية ص 54) ·

5) قال تعالى : «وسخر لكم ما فى السموات وما فى الارض جميعا منه» (الجاثية : 45) ·

6) القلـــم : 35 ـ 36 ·

7) ص 28 ·

8) فصلت : 46 ·

9) الانفـــال : 51 ·

10) رواه الترمذى وقال حديث حسن صحيح ·

11) يقول النبى (ص) : « لو تعلقت همة المرء بما وراء العرش لناله » ·

12 Engels Anti-Duhring

13) يوسف كرم : كتاب الطبيعة وما بعد الطبيعة ·

14) اللامعقول أى الذى يتجاوز الحدود المشهورة للعقل ·

15) الوجودية نزعة فلسفية تسعى الى معرفة الانسان المفرد المتشخص الممثل ، فى نظرها ، وحده الكائن الحق والموجود الحق وترفض للوصول الى تلك المعرفة الانطلاق من الانسان كجنس لان الانسان الفرد قادر على استخلاص أخلاقه واتجاهاته من مجرد معرفته لنفسه · وهو ما يصاغ فلسفيا فى هذه الكلمة « الوجود سابق للماهية » ·

وتعطى الوجودية أهمية كبرى للوجدان وللمشاعر بوصفها تساعد العقل على حل المشاكل الحياتية · وذهب البعض الآخر من الوجوديين الى حد انكار قدرة العقل على حل تلك المشاكل ·

16) قال تعالى من ذا الذى يشفع عنده الا باذنه (البقرة) ·

17) رسالة فى القضاء والقدر ص 67 ·

18) رسالة التوحيد ص 59 ·

19) « « ص 60 ·

20) « « ص 62 ·

21) الانعام . 162 ·

22) على هامش رسالة التوحيد . ص 155 ·

23) رسالة التوحيد ص 156 ·

24) « « ص 160 ·

25) أخرجه ابن عساكر عن أبى محجن ·

26) مصطفى صبرى · موقف البشر تحت سلطان القدر ص 27 ·

27) « « « « ص 47 ·

28) يتعارض هذا الكلام مع صريح الآية : « ما أصابك من حسنة فمن الله وما أصابك من سيئة فمن نفسك » (النساء) ·

29) فصلـــت ·

30) الزلزلـــة

31) النســـاء·

الصوفية والعقيـدة الجبرية

توفيق بن عامر
أستاذ بدار المعلمين العليا
ـ تونس ـ

تـوطئـة :

تعتبر مسالة الجبر والاختيار من المسائل الهامة التى شغلت حلقات الجدل وعلم الكلام فى تاريخ الاسـلام ، وتبوات مكانة مرموقة بين مشاغل الفرق وارباب الملل والنحل ، وقد اسفر تدارسها عن وجهات نظر مختلفة اذ ذهبت فرقة الى نفي الاختيار واثبات الجبر فسميت بالجبرية فى حين ذهبت أخرى الى الايمان بقدرة الانسان على خلق أفعاله فعرفت باسم القدرية وفضلت مـذاهب أخرى حلولا وسطى بين هذين النقيضين كالحل الذى ارتأته الاشعرية فى اقرارها بمبدا الكسب ٠ ولا حرج فى ان نقول انه ما من فرقة فى تاريخ الاسلام الا وكان لها مـوقف من هذه القضية ورأي تنفرد به عن غيرها أو تشترك معها فيه فلابد اذن ان نحاول التعرف على موقف المتصوفـــة من مشكلة الجبر وهى احد وجهى هذه القضية التى تقوم عليها مسؤولية الانسان وينبنى عليها مصـــيره وعلاقته بخالقه ٠ وقد يكون مـن الطرافة بمكان

كبير ان نبحث عن صدى العقيدة الجبرية في مذهب لا يعد عادة من المذاهب الكلامية لانه لم يؤسس على الحجاج المنطقي والاستدلال النظري وانما عماده الذوق والتجربة الروحية

عـلاقة التصوف بمبـدأ الجبـر :

لم يكن للتصوف الاسلامي فى عهوده الاولى علاقة بمبدأ الجبر والاستسلام بل كان على العكس مـن ذلك مذهبا اخلاقيا ينبني على تهـذيب الـروح وتصفيتها من الصفات المذمومة بشتى الرياضات والمجاهـدات ويتطلب من السالك لطريقه ارادة قوية تمكنه من السيطرة على غرائزه ونزوات نفسه ، وقد نجح الصوفية فى قمع شهواتهم وضربوا على هذا النجـاح أروع الامثلة وادلها على قوة العزيمة وثبات التصميم وابعدها عـن الميوعة والضعف والانحلال وحسبنا شاهدا على موقفهم هذا قول أبى يزيد البسطلمي : (كنت اثني عشر سنة حداد نفسي وخمس سنين مراة قلبي وسنة أنظر فيما بينهما فاذا فى وسطى زنار ظاهر فعملت فى قطعه اثنى عشر سنة ، نظرت فاذا فى باطنى زنار فعملت فى قطعه خمس سنين أنظر كيف أقطع فكشف لي ذلك فنظرت الى الخلق فرأيتهم موتـى فكبرت عليهم أربع تكبيرات) (1) ·

وكان أوائل الزهاد والمتصوفة يشاركون الناس حياتهم ويقومون بدور فعـال فى توجيه المجتمع واصلاحه ويحثون على الجد والعمل ، ومن اليسير علينا ان نجـد فى مواعظ الحسن البصري محاولة جدية لمقاومة الادواء الاجتماعية والسياسية والعقائدية فى عصره وسعيا لتغيير الاوضاع وتحسينها مما لا يدع مجالا للريب فى ان هذا العـلم الذى ينتسب اليه الصوفية غالبا قد كان يؤمن بقدرة الانسان على تقرير مصيره وبـأنه مخير ومكلف وليس مجبرا ومسيرا ، ولم يكن الا وزاعي وسفيان الثورى فى مواجهـة الخليفة المنصور (2) وصالح بن عبد الجليـل فى صراحته مع المهدى (3) وابن السماك فى وعظه للرشيد (4) أقل ايمانا بمسؤولية الانسان وواجبه فى هذه الحياة ·

وقد بات من الثابت ان اسم المتصوفة قد اطلق لاول مرة بمصر على جماعات كانت تأمر بالمعروف وتنهي عن المنكر وتتدخل فى شؤون الحكم متصدية لجور الحكام وعسفهم، ومما اثر عنها فى هذا المجال انها تسببت فى خلع بعض الولاة (5) وقد اقتفى كبـار

1) الرسالة القشيرية ـ ص 48 ـ مصر 1330 هـ ·
2) العقـد الفريد ـ ج 3 ص 65 ·
3) نفس المصدر ـ ج 3 ص 158 ·
4) نفس المصدر ـ ج 3 ص 164 ·
5) هـو أبو اسحاق المعتصم احد ولاة مصر فى عهـد المامون ـ انظر ـ الـولاة للكنـدي ـ ص 445 ·

الصوفية اثر سلفهم فى هذه النـزعة العمنية وفى الايمان بجدوى العمل ولـم يمنعهم تصوفهم من المشاركة الفعلية فى أمور الدنيا واعتبروا التصوف عقيدة وجهادا · ويكفينا دليلا على نظرتهم هذه قول جـلال الدين الرومي : (ان اللـه وهـب الانسان الاعضاء والجوارح ومواهب وطاقات فدل ذلك على انه يريد منه السعي والجهد كما اذا منـح سيد عبده فاسا أو معولا فالظاهر انه يريد منه ان يحفر الارض أو يشق صخرة نطـق بذلك أم لم ينطق ولما أعطانا الله هذه الايدى العاملة والسواعد القوية والاقدام السائرة والطاقات الغنية فانه يريد منا بداهة ان نشتغل ونستخدم قوانا ونكدح فى الحياة ونجاهد فيها ونكسب رزقنا بقوة اليمين وعرق الجبين ··· فالسعي شكر لنعمة القدرة والجبـر كفران لهذه النعمة والله يقول : «**ولئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم ان عذابى لشديد**» (6) فاكسب وصب عرق الجبين ثم توكل على الرازق ذي القوة المتين (7) · فقد آمن جـلال الدين الرومى بعقيدة الاختيار ايمانا جعله يسلـم بها عند الانسان والحيوان ويعتبرها فطرة فطر الله عليها خلقه يقول متحدثا عن الانسان (لو كان الجبر لما توجه الامـر والنهي الى الانسان وما كلف الانسان بالشرائع والاحكام فهل سمع انسان يأمر حجـرا وينهاه ؟) (8) ثم يردف متحثا عن الحيوان : (اذا ضربت كلبا بحجر هجم عليك وأراد أن يعضك ولم يقبل على الحجر وينتقم منه كذلك اذا ضرب السائق بعيرا وهاج البعـير لم يثـر على الهراوة التى ضرب بها ، انما يثور على الجمال المسرف فى ضربه ، فعـار عليك أيها الانسان العاقل ان تنسب الجبر الى الانسان ويفوقك الحيوان غير العاقل فى فهم هذه الحقيقة وادراكها) (9) ·

ويمكن القول فى ايجاز بان كبار الصوفية الذين لم يخرجوا عن سبيل السلف ولـم يخضعوا لتاثير المعتقدات الاجنبية عن الاسلام قد اعتبروا الانسان مكلفا اي مأمـورا ومنهيا لانه قادر على الاختيار بين الخير والشر ولولا ذلك لما كان للامر والنهي الوارد فى القرآن معنى فى رأيهـم ولسنا نريد سرد العديد من الامثلة على هذا الفريق مـن الصوفية وانما نبغى الاجتزاء بقـول الغـزالى مفندا لعقيدة التوكل كما فهمها الجبرية ومبينا لاعمال المتوكلين يقول : (وقد ظن الظانون ان المتوكل ينبغى ان يكون كلحم على

---

6) القرآن ـ السورة ابراهيم الآية 7 ·
7) مثنوى ـ ص 27 ·
8) المصدر نفسه ـ ص 461 ـ 462
9) المصدر نفسه ـ ص 463 ·

وضم وهذا غلط ونحن نبين ذلك فنقول : تلك الاعمال تنقسم الى جلب النافع وحفظه ودفع الضار وقطعه ...) (10) .

نشأة الجبر الصوفي :

الا ان التصوف الاسلامي لم يلبث ان تردى فى هوة الانفصال عن معترك الحياة والاستسلام للاقدار حتى امسى اسم التصوف مرادفا للتواكل والحتمية والسلبية وادى الامر الى نشأة عقيدة جبرية اعتنقها اعلام صوفيون تأثروا بنظريات أجنبية والى ظهور فرق جعلت من الضعف والعجز مبدأ أساسيا وعلمت الانسان الخضوع والخنوع والتغاضى عن المسؤولية بدعوى تفويض الامور الى الخالق فحاد الصوفية بذلك عن طريقهم الاول وصاروا يعرفون التصوف بأنه (الصبر تحت الامر والنهى) بعد أن كانوا يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر .

لكن الاسباب التى حدت بالصوفية الى توخى هذا الاتجاه تبدو معقدة وجديرة بالملاحظة والدرس ولعل بعضها يرجع الى طبيعة التصوف نفسه وما يقوم عليه من ساوك زهدي أساسه نبذ الحياة واعتبارها عرضا زائلا والتعويل على حياة أخرى هي اخلد وابقى وليس من باب الصدفة ان نجد عند أصحاب الطريق نظريات فى الفقر والغنى وتفسيرا اصطلاحيا جديدا لهذين المفهومين وتفضيلا للفقر على الغنى حتى امسى الفقير فى نظرهم هو الغني والغني هو الفقير وحتى اطلق الصوفية على أنفسهم لقب الفقراء . يقول أبو طلب المكى فى مدح الفقر وتفضيله عن الغنى : (ان الفقير الزاهد يدخل الجنة قبل الغني المصلح بخمسمائة عام هؤلاء خصوص الفقراء وان الفقير غير الزاهد يدخل الجنة قبل الاغنياء بأربعين خريفا لاجل فقره فقط فصار الاغنياء مفضولين فى الحالين معا ... وقد روينا عن النبىء صلى الله عليه وسلم : (تحية المؤمن فى الدنيا الفقر) ، فجعل الفقر تحية له من دي التحيات المباركات ، مع الخبر المشهور : (الفقر على المؤمن ارين من العذار على خد الفرس الجواد ، والفقر اختيار رسول الله صلى الله عليه وسلم وشعار الانبياء وطريقة علية الصحابة الاصفياء وروينا فى الخبر (آخر الانبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر اصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لاجل غناه فى الدنيا) وفى الخبر الآخر(رأيته يدخل الجنة زحفا) ولا تعلم فى الامة أفضل من طائفتين المهاجرون وأهل الصفة وجميعا مدح الله تعالى بالفقر فقال للفقراء المهاجرين (الذين احصروا فى سبيل الله) فقدم وصفهم بالفقر على أعمالهم الهجرة

والحصر والله تعالى لا يمدح من يحب الا بما يحب ولا يصفه حتى يحبه (11) ·

وليست هذه الآراء هي وحدها التى بعثت الروح الجبرية فى الكيان الصوفي بل ان من أسباب رسوخ مبدا الجبر فى العقيدة الصوفية هو التأثر بفلسفات دخيلة يؤمن أصحابها بضرورة القضاء على الارادة الانسانية وصهرها فى المشيئة الالهية وبافناء الذات البشرية أو « الانا » فى الذات الالهية أو المطلق على حد قولهم فنجم عن ذلك اتجاه صوفي جديد وظهر متصوفة آمنوا بالحلول ووحدة الوجود وأسقطوا عن العباد كل مؤونة حتى مؤونة التكليف بالواجبات الشرعية ·

ولم يكن التصوف علاوة على ذلك بمعزل من المذاهب الكلامية فقد تأثر اربابه بما كان يخوض المتكلمون فيه من مسائل عقائدية كبحثهم فى الذات والصفات والقدر وسائر القضايا الكلامية ولعل ما نقرؤه اليوم فى مؤلفات الصوفية يشهد بانهم لم يكتفوا بهذا التأثر وتجاوزه الى وضع نظريات خاصة بهم فى هذا الموضوع ردوا بها على اصحاب الآراء المخالفة لهم · فكان تأثرهم بالمعتزلة مثلا واضح المعالم فتكلموا مثلهم فى مشكلة التنزيه وقال أحدهم وهو أبو علي بن الكاتب الصوفى (12) ان المعتزلة نزهوا الله من حيث العقل فأخطأوا والصوفية نزهوه من حيث العلم فاصابوا (13) كما تكلموا فى موضوع الجبر والاختيار وقدرة الانسان على خلق افعاله وهو من المواضيع الجوهرية التى خاض فيها أهل العدل والتوحيد لكنهم اذا ما أخذوا عن المعتزلة طريقة الاستدلال والاحتجاج فانهم قد خالفوهم فى الاعتقاد وان كان هذا الخلاف لا ينفى ذلك التأثر المشار اليه · ومما يؤكد هذه العلاقة بين التصوف والفرق الكلامية اعتناق كثير من المتكلمين مذهب التصوف ويمكننا ان نجد مثالا على ذلك فى اعتزال أبى حيان التوحيدي وتصوفه (14) وكذلك أبى القاسم الزوزنى الشاعر المعتزلي (15) ·

الا أن الصوفية لم يكونوا علماء كلام بالمعنى الاصطلاحى للعبارة وذلك لانهم لم يخوضوا فى التفاصيل والجزئيات الجافة التى تورط فيها أرباب الملل والنحل ولم يقتصروا على المسائل النظرية المجردة فى عقيدتهم بل فضلوا ان يكتفوا من ذلك بما

---

11) قوت القلوب : ج I ص 242 ـ 243 ·
12) توفى سنة 340 هـ ·
13) الرسالة القشيرية ص 27 ـ ط مصر سنة 1346 هـ الحضارة الاسلامية ج 2 ص 42
14) الارشاد لياقوت ج 5 ·
15) يتيمة الدهر ص 324 ·

يوضح موقفهم من جل المسائل التى كانت المذاهب الاخرى تعالجها واختاروا ان يعملوا بعقيدتهم ويعيشوها اكثر مما يتكلمون فيها وهو ما سنلاحظه عندما نتعرض لرايهم فى قضية الجبـر والاختيار ·

الجبـر الصـوفي أو التـوكل :

لقد تظافرت كل هذه العوامل اذن على السير بالصوفية فى طريق الاعتقاد الجبـري واذا ما رمنا البحث عن أول من خط للصوفية نهج الرضى بمشيئة القضاء والتجرد من كل بادرة شخصية وعلمهم الاعتقاد بأن اعتبار المجهود البشري يعد مشاركة لله فى قدرته فاننا نعـد فى اقوال سقيق البلخى (16) ما يدل على انه مؤسس هذه المبادىء ومرسخها حتى تسنى لها الانتشار بعد ذلك · ولعـل كلا من البلخى والمحاسبى (17) قد عمل على نشر مذهب الاستسلام وان كان المحاسبي مع قوله بالتوكل يعتبر السعي وراء الـرزق واجبا ينال الانسان عليه الثواب وينتقد فى كتاب المكاسب موقف البلخى الذى يـرى التـوكل من غير عمـل ·

وتتمثل العقيدة الجبرية عند الصوفية فى أن الله خالق لافعال البشر كلها خـيرها وشرها وان الانسان مسير فى تصرفاته وأعماله بقضاء الله وقدره فلا يتنفس نفسها ولا يطرف طرفة ولا يتحرك حركة الا بارادته ومشيئته واحتجوا لذلك بأن الله لو كان خـالقا للاعيان دون الافعال لما صح قوله : « خالق كل شيء » (18) وقوله : « والله خلقكم وما تعملون » (19) ولكان الانسان أكثر قدرة على الخلق لان الافعال فى الوجود أكثر مـن الاعيان وبرهنوا على خلق الله لفعل الشر بانه لو كان خالقا للخير دون الشر لكان لـه فى خلقه شركاء ولما كان لقولـه (**من شر ما خلق**) (20) معنى كما نظروا فى القضية من طرفها الثانى أى المخلوق فتناولوها هذه المرة من الجانب النفسـانى والجسمانى بعد أن تناولوها من الجانب العقائدي الماورائى فتعرضوا لاحساس الانسان بالقدرة على الفعل وباستطاعته التحكم فى أعضائه التى بها يفعل فاذا هم لا يعترفون له حتى بهذه الاستطاعة ويرونها غير بشرية ولا علاقة لها بسلامة الاعضاء اذ كـم من صاحب أعضاء سليمة لا يقوم بفعل ولا فرق عندهم بين حركة العضو السليم وحركة المرتعش لان كلا منهما من

---

16) توفي سنة 194 هـ انظر الحضارة الاسلامية : هامش ص 46 ، ج 2 ·
17) توفي سنة 243 هـ ·
18) سورة غافر آية 62 سورة الزمراية 62 ـ سورة الانعام آية 102 سورة الرعداية 16
19) سورة الصافات آية 96 ·
20) سورة الفلق آية 2 ·

خلق الله وبأمر منه · وتاويل ذلك فى رأيهم ان الله يكسب العضو قوة عند الفعل تـزول بزواله وهي قوة لا وجود لها قبله ولا استمرار لها بعده اذ هي عرض لا يقوم بنفسه ولا بقاء لـهوبذلك يبقى الانسان دائما مفتقرا الى اللـه وهذا معنى قوله تعـالى (ايـاك نستعـين) (21) ·

لكن العقيدة الجبرية عند الصوفية قد تبلورت خاصة فى مظهر دينـي عملـي وفى ضرب من السلوك يسمونه التوكل ويعتبرونه أحد مقاماتهم التى يمرون بها فى معراجهم الصوفى · ولعلنا لا نعدو الصواب اذا قلنا ان عقيدتهم الجبرية لا تقوم على الاستدلال المنطقى بقدر ما تقوم على هذا النوع من التجربة الروحية التى يعيشها المريد ويؤمن بها عميق الايمان · واذا ما طالعنا بعض التعريفات والحدود التى وضعها المتصوفة للتوكل كقول سري السقطي (22) (التوكل الانخلاع من الحول والقوة) (23) وكقول ابن مسروق (24) التوكـل الاستسـلام لجريـان القضـاء فى الاحكـام (25) · وكقـول التسترى (26) التوكـل الاسترسال بين يـدى الله (27) فهمنا مـدى ما وصـل اليه هؤلاء من الثقة بالله والاستسلام لقدره · وقد حاول الصوفية أن يطبقوا فى حياتهم هذه المبادىء والآراء فوصلوا من ذلك الى محو كل ارادة شخصية واستقبحوا الاعتماد على النفس واعتبروه تقصيرا فى جنب الله وجعلوا (أول مقام التوكل أن يكون العبد بـين يدى الله عز وجل كالميت بـين يدى الغاسل يقلبه كيف شاء لا يكون له حركة ولا تدبير) (28) وأحسن دليل على هذه العقيدة وما تجسدت فيـه مـن تصرف مـا وراه الهجويري من أن درويشا وقع فى دجلة فرآه رجل وأدرك أنه لا يعرف السباحة فقال له

---

21) سورة الفاتحة آية 5 ، راجع كتاب التعرف ، الباب 13 و 14 الصفحات 50 ، 61 ، 62 ، 63 ·

22) هو أبو الحسن سوى بن المغلس المسقطى أستاذ البغداديين وامامهـم فى وقته تـوفي سنة 251 هـ ·

23) التعرف ـ ص 120 ·

24) توفى سنة 299 هـ وصحب السرى والمحاسبى وغـيرهما وكان من كـبار مشائخ القـوم وعلمائهـم ·

25) التعـرف ص 120 ·

26) هو أبو حجر سهل بن عبد الله التستري توفي سنة 283 هـ ·

27) التعـرف ـ ص 120 ·

28) أنظر باب التوكل من الرسالة القشيرية ·

(أتريد أن أرسل اليك من ينقذك ؟ فقال : لا · فقال له الرجل : أفتريد أن تغرق ؟ فقال : لا · فقال له فأي شيء تريد ؟ فقال : أي شيء أريد ؟ أريد ما يريد الله لي) (29) وطبيعي أن يؤدي هذا الضرب من التفكير والسلوك الى عزوف عن السعي والداب وراء الرزق واذا كان بعضهم يرى كالقشيري (ان التوكل محله القلب وانه لا ينافي السعي والحركة لان ما تعسر من الكسب فبتقدير من الله وما اتفق فبتيسير منه)(30) واذا ما كان هؤلاء يتمثلون قول الرسول (اعقلها وتوكل) فان غيرهم يعتبر الكد عديم الجدوى ما دامت الارزاق قد قدرت وقسمت فراحوا يعظون مريديهم ويقنعونهم (بأن لكل عبد رزقا هو تيه لا محالة ولو هرب العبد من رزقه كما لو هرب من الموت لا دركه) (31) (وان من هتم برزق غد وعنده اليوم قوت فهي خطيئة تكتب عليه) (32) وذهب بعضهم الى أن الارزاق قد كتبت في اللوح المحفوظ وخلقت قبل خلق الاجسام بألفي عام (33) وهكذا سلموا انفسهم لعناية الله واعتقدوا أن العلي القدير كفيل بأن يكفيهم حاجتهم فلم يمارسوا تجارة ولا تعاطوا دواء في مرضهم وأيقنوا أن حظهم الذي كتب لهم سيصيبهم حتما كما يصيب الطير ، وقد خاطب شقيق البلخي أحد مريديه قائلا (ليس لك بد من أن تجعل عملك كله لله لا لغيره وأنت لا تجعل عملك لغيره الا طمعا فيه أو حياء أو خوفا منه فاذا حفت أو طمعت في غيره وهو مالك الاشياء ورازقها فقد اتخذت الها غيره) (34) وسأل المنصتين لوعظه مرة (أرأيتم ان أماتكم الله اليوم يطالبكم بصلاة غد ؟ قالوا : لا · يوم لا نعيش فيه كيف يطالبنا بصلاته فقال : فكما لا يطالبكم بصلاة غد فأنتم لا تطلبوا منه رزق غد عسى ألا تصيروا الى غد) (35) وليس غريبا أن يقول بعضهم في شرحه لغاية التوكل (من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا ويدفنها فيه وينسى الدنيا وأهلها لان حقيقة التوكل لا يقوم له أحد من الخلق على كماله)(36) وكأن أبا سعيد الخراز قد شاء تحقيق هذا الكمال فيما رواه عن نفسه قائلا : (دخلت البادية مرة بغير زاد فأصابتني فاقة فرأيت المرحلة من بعيد فسررت بأني وصلت ثم فكرت في

---

29) كشف المحجوب من ص 180 و 379 ـ الصوفية في الاسلام ص 45 ·
30) أنظر باب التوكل من الرسالة القشيرية ·
31) قوة القلوب ج 2 ص 7 ·
32) المصدر نفسه ص 7 ·
33) المصدر نفسه ص 7 ·
34) حلية الاولياء ج 8 ص 64 ·
35) المصدر نفسه ج 3 ص 69 ·
36) اللمع ص 53 ·

نفسى انى سكنت واتكلت على غيرى فأليت الا ادخل المرحلة الا ان أحمل اليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدي فيها الى صدري فسمعوا صوتا فى نصف الليل عاليا : يا أهل المرحلة ان الله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه ، فجاءنى جماعة فأخرجونى وحملونى للقرية (37) ·

هده بعض الامثلة من سلوك القوم وتفكيرهم وهى لا تؤدى فى كل الحالات الا الى خلق صنفين من البشر صنف يعيش كلا على غيره وصنف مسالم لا يبالي بالاذى والعذاب ويعتبرها أحداثا جارية فى مأساة الحظ الابدية (38) ولا يسع الدارس الا أن يستنتج ان الصوفى قد صار درويشا هائما على وجهه فى البلاد بدون زاد حتى لا يفسد التزود اتكاله على الله فكان يحج الى مكة ماشيا على القدمين فارغ الجراب لا يبالي بأن يهلك تعبا وجوعا ومن المرجح على حد قول نيكلسون (أن يكون بعض هؤلاء المتوكيلين قد قضى نحبه على هذا النحو (39) وهو ما دعا سفيان الثوري الى القول بأن (من رفض السؤل فمات جوعا ألقى الله به فى النار) (40) الا أن الصوفية أنفسهم قد عدلوا بمرور الزمن من معنى التوكل نظرا لظروف حياتهم القاسية ولما يمكن أن ينجر عنه من آفات فصاروا يرون أنه لا يتنافى مع الكسب وأمسى بعضهم يرى ضرورة التداوي من الامراض بعد أن كانوا يرفضون التطبب ·

الجبر والتدهور الصوفى :

لكن مذهب التوكل قد أدى فى عصور الانحطاط وعند انتشار الفرق الصوفية الى استفحال ظاهرة الحتمية والاستسلام ومما أعان على انتشار هذه الافة اكرام جمهور العامة لاهل الطرق واسعافهم لهم بالولائم فى كل مناسبة فكانوا بذلك يكفونهم مؤونه التسول والكدية وقد وصف لنا المقدسي ولع الناس باستضافتهم (41) كما وصف لنا غيره من المتأخرين تهالكهم على الطعام حتى أمسوا مشهورين بالنهم فى الاكل بعد أن

---

37) الرسالة القشيرية ص 104 ·
38) الصوفية فى الاسلام ص 50 ·
39) فى التصوف الاسلامي ص 55 ·
40) المرجع نفسه (فى التصوف الاسلامي ص 55) ·
41) أحسن التقاسيم ص 417 ·

كانوا معروفين بالتقلل منه (42) وكانوا وما زالوا يسمـــون بعض أنواع الغذاء المجانى فتوحا لانها باب من أبواب الرزق التى فتحها الله لهم لقاء اعتكافهم وتحنثهم · ومما يذكر عنهم فى باب النهم ما يروي من أن أبا علي الروذباري (43) (اتخذ مرة أحمالا من السكر الابيض ودعا بجماعـة من الحلوانيـين حتى عملوا من السكر جدارا عليـــه شرافات ومحاريب على أعمدة ونقشوهـا كلهـا من سكر ثـم دعا الصوفية حتى هدموها وكسروها وانتهبوها) (44) ولسنا هنا بصدد تعداد الانحرافات التى آل اليها التصوف الاسلامي وانما هدفنا التأكيد على أن هذه العقيدة الجبرية قد تسببت فى تدهور التصوف وفى توجيهه وجهة لم يكن ينحو نحوها فى عهوده الاولى ويبدو أن تاثير هذه العقيدة قد تجاوز الميدان الصوفى ليشمل فى وقت ما حياة المسلمين الدينية بصورة عامة ونحن لا نشك فى أن المجادلات الكلامية فى قضية الجبر والاختيار لم تؤثر فى الاسلام بقدر ما اثرت فيه عقيدة التوكل الصوفى وذلك لان المتصوفة قـــد جعلوا من هذه العقيدة طريقة فى العيش اتبعهم فيها غيرهم وأصبغوا عليها لونا دينيا واعتبروها من طقوس العبادة حتى ظن العوام أنها من صميم الديانة وهكذا انعكس هذا الاعتقاد حتى فى لغة الخطاب وما زلنا الى اليوم نحتفظ فى كلامنا بعبارات هي من وحي الجبر الصوفى الدال على الرضى بمجاري القضاء واعتبار الرزق هبة نازلة من السماء ·

---

42) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 33 ـ 34 ·

43) أحد الصوفية البغداديين توفى سنة 322 او سنة 323 هـ ·

44) الحضارة الاسلامية ج 2 ص 34 ·

المصـــادر والمراجـــع

ـ المصـــار العامـــة :

ـ القـــرآن

ـ العقد الفريد لابن عبد ربه ـ القاهرة 1375/1956 ـ 8 اجزاء ٠

ـ ارشاد الاريب الى معرفة الاديب لياقوت الحموى ـ مصر 1923 ـ 7 أجزاء ٠

ـ يتيمة الدهر للثعالبى ـ القاهرة ـ 1366/1947 ـ 4 اجزاء ٠

ـ أحسن التقاسيم فى معرفة الاقاليم للقدسى ـ ط 2 ـ ليدن ـ 1906 ٠

ـ المصادر الخاصـــة :

الرسالة القشيرية فى علم التصرف لابى القاسم عبد الكريم بن هوان القشيرى ط ٠ مصر ـ 1330 هـ و ط ٠ مصر ـ 1346 ٠

ـ المرشد الامين الى موعظة المؤمنين من احياء علوم الدين لابى حامد الغزالى ط 2 صطفى بابى الحلبى بمصر 1956 ٠

ـ مثوى لجلال الدين الرومى ـ ط 2 لندن 1898 ترجمة هوينفيلد Whinfield

ـ قوت القلوب فى معاملة المحبوب ـ ط القاهرة 1310 هـ (جزان) ٠

ـ التعرف لمذهب أهل التصوف لابى بكر محمد الكلابادى ط 1 ـ مصر بدون تاريـــخ ٠

ـ اللمع لابى نصر السراج الطوسى ـ مصر 1380 هـ ـ 1960 م ٠

ـ حلية الاولياء وطبقات الاصفياء لابى نعيم الاصفهانى ط 1 مصر 1357 هـ 1938 م

ـ المراجـــع العامـــة :

ـ الحضارات الاسلامية فى القرن الرابع الهجرى لآدم متز ـ ترجمة محمد عبد الهادى أبو ريدة ط 4 بيروت 1387 هـ ـ 1967 م ج 2 ٠

ـ المعجم المفهرس لالفاظ القرآن الكريم محمد فؤاد عبد الباقى ـ كتاب الشعب مطابع الشعب 1278 هـ ٠

٠ المراجـــع الخاصـــة :

ـ الصوفية فى الاسلام : ر ـ أ ـ نيكلسون ترجمة نور الدين شريبة ـ مصر 1951

ـ فى التصوف الاسلامى وتاريخه : ر ـ أ ـ نيكلسون ـ ترجمة أبو العلاء عفيفى القاهرة 1956 ٠

اتصـــاف أهـــل الفســـاد بالنفـــاق والعنـــاد

سليمـــان المـــدنى
عضو هيئة التوجيه الدينى
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائـر

بدانا فى عدد 40/39 من الاصالة بتاريخ ذى القعدة ذي الحجة 1396 هـ نوفمبر ـ ديسمبر 1976 م بتفسير القرآن فى خطب الجمعة تفسيرا مبسطا نستقيه من آخر ما وصلت اليه التفاسير ، وما صار اليه البحث العلمى ـ بقدر الامكان ـ ! ، وذلك تعميما للفائدة كما يقال ، وكلمة التعميم هنا فى الصميم يطابق فيها الحال المقال ، حيث ان الخطبة نفسها تذاع على امواج الاثير من الجامع مباشرة ، فيستفيد منها لا جمهور المصلين فحسب ، بل جميع من يستمع الى المذياع داخل البلاد وخارجها ، من أستاذ جامعـى يساعد زوجته فى المطبخ وقد عن صلاة الجمعة ، الى الفلاح ، والراعى ، فى حقـل هذا وغاية ذاك ، بفضل هذه الآله العجيبه التى تسمى الترانزيستور · «الأصـالة»

الحمد لله الذى وجهنا الى الخير والاسعاد ، وحذر وانذر مروحى الفتنه بين العباد . وأشهد أن لا اله الا الله الذى نهى عن الكذب والفساد ، وعن الغش والمراوغة والمكر والعناد ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاء لتصحيح الاعتقاد ، ونبذ النفاق والتذبذب والالحاد ، صلى الله عليه وعلى آله وصحابته الذين رفعوا منار الاسلام ، وطبقوا الاحكام . رضى الله عنهم أجمعين ·

أما بعد أيها المسلمون ، فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم من سورة البقره موضحا صفة المنافقين الذين اتصفوا بالفساد ، والعناد والالحاد · « **واذا قيـل لهم لا تفسدوا فى الارض ، قالوا انما نحن مصلحون** » ، هؤلاء هم المنافقون المكابرون ، اذا نهوا عن الفساد فى الارض لم ينتهوا . واذا حذروا أو نبهوا ، تمادوا وموهوا ، وعاثوا وشوهوا، وقالوا مكابره ومغالطة : « **انما نحن مصلحون** » يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم، ويتظاهرون بالاصلاح والرغبه فيه ، اخفاء لحبهم وتلونهم حينما يتقابلون مع المؤمنين · فتلمس فيهم حلاوة اللسان ، ومظاهر الايمان ، حرصا منهم على اخفاء سمة العصيان ·

(*) خطبة الجمعة ليوم 03 رجب 1398 هـ (09 يونيو 1978 م) ·

ا بالغوا فان قلوبهم منطويه على الخديعه والعداوة والعدوان . وقد رد الله عليهم حهم بقوله . « **ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون** » انهم قد جمعوا الى صفه ، رذائل الخبث والمكر ، وتلك هى صفه أهل النفاق الذين يضمرون للمؤمنين والحسد ، وقد وصفهم القرآن بأوضح بيان فقال « **قد بدت البغضاء من أفواههم خفى صدورهم أكبر** » . وقال « **ها أنتم هؤلاء تحبونهم ولا يحبونكم ، وتؤمنون اب كله . واذا لقوكم قالوا آمنا واذا خلوا عضوا عليكم الانامل من الغيظ ، قل بغيظكم ان الله عليم بذات الصدور** » واذا عوتبوا عادوا الى اظهار الاسلام والندم، وا بالله عليه كما أخبر الله عنهم بقوله « **يحلفون بالله ما قالوا ، ولقد قالوا كلمة** » وقوله « **يحلفون لكم لترضوا عنهم** » . واذا كان (الفساد) خروجا عن الطاعة، العقيده الاسلاميه ، واشاره الفتن والانجرار الى الجهه المعاديه ، فكيف يقولون . ا **نحن مصلحون** » وانما يعتدون عن سوابق الفساد،وانما يريد الاصلاح والتوفيق، حهم القرآن فى كل ميدان ، لانهم حاولوا تجاهل الشيطان . اذ قالوا . « **ان أردنا حسانا وتوفيقا** » انهم يؤمنون « **وجه النهار ويكفرون آخره** » ، اتخذوا لانفسهم ى : يقابلون هؤلاء بوجه ، وهؤلاء بوجه ، « **مذبذبين بين ذلك لا الى هؤلاء ولا الى** » ، « **وان يروا سبيل الرشد لا يتخذوه سبيلا . وان يروا سبيل الغيى يتخذوه** ، **ذلك بأنهم كذبوا بآياتنا وكانوا عنها غافلين** » « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن** ، **قالوا أنؤمن كما آمن السفهاء الا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » .

الآيه الاولى نهت عن الفساد فى الارض ، والكفر فساد وعناد ، وعصيان والحاد . ت الآية الثانية داعيه للايمان كافه العباد . « **واذا قيل لهم آمنوا كما آمن الناس** » خالصا كايمان من أنعم الله عليهم ورضى عنهم . كما آمن رسول الله صلى الله وسلم ومن معه وهم معروفون لديكم ومعهودون عندكم ، وقد هاجروا اليكم وهم ظهركم ، أو كايمان عبد الله بن سلام واشياعه وهم من أبناء جنسكم،ومواطنون ،وهذه الدعوة موجهة اليكم : « **آمنوا كما آمن الناس** » ايمان المخلصين الذين فى السلم كافة ، وأسلموا وجوههم لله ، وفتحوا صدورهم لرسول الله ، صلى

الله عليه وسلم ، بوجههم فبسجيون مخلصين ، فلماذا لم نكونوا مثلهم مؤمنين صادقين، ملتفين حول رسول الله صلى الله عليه وسلم . قالوا مكابرة واستهزاء : « **انؤمن كما آمن السفهاء** » ، فالوها منكرين منطاولين متعالين ، كيف يسوى بيننا وبين فقراء المدينة، نحن أهل الرياسة والصدارة ، وهم من السوقة وأوساط العامة !؟ فكان الرد عليهم من الله جل جلاله حازما وصارما : « **ألا انهم هم السفهاء ولكن لا يعلمون** » وذلك لفساد طبعهم ، وقله انتباههم ، وخفه عقولهم . وطيشهم وعدم ايمانهم ، وقد باعوا آخرتهم بدنياهم ، وذلك هو الخسران المبين، وكانت منزلتهم عند الله أسوأ دار ، فقال تعالى . « **ان المنافقين فى الدرك الاسفل من النار** » . وذلك لتذبذبهم وعدم ثباتهم، ومالانهم للكفار والمشركين ، وللهود الحاقدين . فاكتسبوا من الكفار عنادا وتصلبا . ومن اليهود خبثا ومراوغه وكذبا ، وهؤلاء وأولئك كان ارتباطهم . والتردد عليهم، والرجوع اليهم للاخذ منهم، والاسرار اليهم بما جد عند المسلمين . « **واذا لقوا الذين آمنوا قالوا : آمنا ، واذا خلوا الى شياطينهم قالوا : انا معكم ، انما نحن مستهزءون** » انها صفة من أضله الله ، فأتبع هواه . وكان أمره قد بلغ منتهاه ، فى الخسة وفساد الطوية ، والتلون بكل صفه ، وعلى أية حالة ، من المقت والدناءة ، والذل والمهانة ، والمكر والمخادعـــة .

نجانا الله واياكم من مكر الماكرين ، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين .

الخطبـــة الثانيـــة

الحمد لله الذى أحيى قلوب المتقين بالعبادة ، وأمات قلوب الكافرين بالمعصيـة ، وارتكاب الفاحشة ، واشهد ان لا اله الا الله الذى جعل الايمان طريقا الى السعادة ، والعصيان طريقا محفوفا بأنواع الشقاوة ، وأشهد أن سيدنا محمدا عبده ورسوله

الذى كانت رسالته رحمة للعالمين، صلى الله عليه وعلى آله، ورضى الله عن التابعين وتابعيهم باحسان الى يوم الدين ٠

أما بعد أيها المسلمون : فان المنافقين وهم الذين فسد باطنهم كالكافرين ، ولكنهم قد ظهروا بين المسلمين كالمسلمين . قالوا كلمة التوحيد كما يقولون ، وصلوا كما يصلون ، وظنوا انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين ، ظهرت هذه الطائفة بالمدينة ، بعد أن أصبح الاسلام فى عزه ، والدعوه سائره بقوه ، ووفود الايمان تسير بسرعة ، وأفواج القبائل تدخل فى الاسلام بكثرة ٠

وهنا قد أحس المنافقون بالخطر ، وتوقعوا من المسلمين الضرر ، فلم يستطيعوا مجابهه والجهر ، ومن عادة الجبناء ان يلجأوا الى الكتمان والسر ، فهم يسايرون المسلمين فى المظهر ، ويخالفونهم اذا انفردوا وزال الخطر ، واذا لقي هؤلاء المنافقون المؤمنين المخلصين قالوا : آمنا بما آمنتم به فنحن مؤمنون نصدق الرسول ودعوته ، ونحن معكم فى الاعتقاد ، وطاعة رب العباد ، واذا انصرفوا عنهم واجتمعوا بأصحابهم الذين يشبهون الشياطين فى الفتنة ، والفساد والمخادعة ، قالوا لهم : انا معكم على طريقتكم وعملكم ، وانما كان قولنا للمؤمنين ما قلناه لهم استخفافا بهم ، واستهزاء بحالهم، وسخرية منهم ، وقد لعبنا لعبه الخبث معهم . اذا واجهناهم نبتسم لهم ، واذا انصرفوا عنا وانفردنا سخطنا عليهم ، فكنا غمازين لمازين ، ننهش الاعراض ، نهش الحانق المغتاظ ٠ وقد رد الله عليهم وأوعدهم بأشد العقاب ، وسوء العذاب ، فقال : « **الله يستهزئ بهم ويمدهم فى طغيانهم يعمهون** » فمدعهم الله يتخبطون على غير هدى، تتعذب ضمائرهم وتكتب عليهم الشقاء والهوان ، ويمهلهم فى تيه الضلال عميا لا يجتون الا غيا ، جزاء خيانتهم التى كانت تدبر المكايد ، وتروج الاكاذيب ، وتزعزع المؤمنين ، وتفسد روابط المحبين ، فهؤلاء هم أرذل المنافقين الذين نزلت فيهم سورة كاملة وسميت باسمهم، وقد اهتم القرآن بالحديث عنهم ، والتحذير منهم ، ولفت الانظار اليهم ، لمعرفة أوصافهم، قال تعالى : « **ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنهم**

فى لحن القول ، هذه أفعالهم فى الدنيا، أما جزاؤهم فى الآخرة قال ابن عباس رضى الله عنهما : (اذا دخل المؤمنون الجنه ، والكافرون النار ، فتح الله من الجنة بابا على الجحيم فى الموضع الذى هو مسكن المنافقين ، فاذا رأى المنافقون الباب مفتوحا أخذو يخرجون من الجحيم ويسرعون الى الجنه ، وأهل الجنه ينظرون اليهم ، فاذا وصلوا الى باب الجنه فهناك تغلق دونهم الباب، فذلك قوله تعالى . « **ان الذين أجرموا كانوا من الذين آمنوا يضحكون ، واذا مروا بهم يتغامزون** » الآيه ·

ربنا لا تزغ قلوبنا بعد اذ هديتنا وهب لنا من لدنك رحمة انك أنت الوهاب ، وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين ·

أهـــل الضـــــلالة
عمي عـن الهدايـــة

سليمـــان المـــدني
عضو هيئة التوجيه الديني
بوزارة الشؤون الدينية ـ الجزائـر

الحمد لله الذى أمرنا باتباع السنة والكتاب ، فقال . « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » وأشهد أن لا اله الا الله الذى توعد أهل الضلاله بالعقاب ، وكل من حاد عن الصواب ، واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الذى جاءنا بالشريعة المطهرة ، للقضاء على الضلاله ، وما يفضى الى الكفر والجهاله .

أما بعد أيها المسلمون، فيقول الله تعالى فى كتابه الكريم . « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » هؤلاء هم المنافقون المشار اليهم ، وقد تأصل النفاق فيهم . فلا يطلق الا عليهم ، ولا ينصرف الا اليهم . فاختص بهذا الاسم بهم ، واستقر فيهم ، فمارسوه أبا عن جد . فأصبح الالحاد ، نسخة من الالحاد ، وعرفوا جميعا بالمكر والفساد . وبالحسد والالحاد ، ونشر الفتن لتمزيق الروابط بين العباد ، وقد أعماهم التعصب والطغيان ، وأمد الله فى ضلالهم فكانوا سماعا للشيطان ، وتحجرت قلوبهم فلبس فيها شيء من الرحمة أو الايمان ، ومن كانوا كذلك فهم عرضة للافلاس والخسران . « **ذلك بانهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم** » ،

(*) خطبة الجمعة ليوم : 10 رجب 1398 هـ (16 يونيو 1978 م) .

ها هم استحبوا الضلاله على الهدى لانهم عمي البصيره ، فاسدو العقيدة ، مرضى لعقول بالتشكك والوسوسة ، وقد شبه الله حال تلك الجماعة ، بمن أفلس فى التجارة، حين عدلوا عن الايمان الى الضلالة ، فصدق فيهم قول الله . « **أولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى** » أى الكفر بالايمان ، اذ أخذوا الضلاله وتركوا الهدى ، فهم بذلك قد شبهوا بأهل ثمود ، فى الكفر والجحود « **واما ثمود فهديناهم فاستحبوا العمى على الهدى** » هكذا كان اخبار المنافقين الضلاله على الايمان ، وان تباعد بين هؤلاء واولئك من فواصل الزمان ، فقد تشابه الفريقان ، فى الكذب والبهتان ، وفى التعصب وعدم الايمان ، فلا علاج فيمن فسد طبعهم . وأعمى الله بصائرهم ، وظلموا لجهلهم ، انهم يخادعون الله ورسوله والمؤمنين . فاتخذوا من الايمان المزور رداء ، ومن النشاشة المصطنعة ذكاء ، ومن عنوان الاصلاح مداهنة ودهاء ، ومن مظاهر روح الاستقامة ثناء ، ومن المجامله اطراء وطلاء، واذا خلوا الى شياطينهم قدموا لهم ولاء ، وعهدا صادقا ووفاء ، قائلين لهم فاطمئنوا ، ان ما جاء وفى حال المسلمين كان سخريه واستهزاء ، جعلوا النفاق وسيله لتحقيق الاطماع ، فكتموا حسيما تمليه الاوضاع ، وبعود عليهم الانتفاع ، وآثروا الصمت على الكلام ، ليتمكنوا من الانتقام ، وآثروا السعى فى الظلام ، وهكذا فضل المنافقون الاختفاء على الظهور ، والظلام على النور ، للمزيد فى الكيد والحسد والشرور ، « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » فباءت تجارتهم بالخسران ، وما انتفعوا بما انزل الله على نبيه من آى القرآن ، فكانت خسارتهم من اثنين : ناحية خيبة الآمال ، فى تحقيق الارباح وزياده الاموال ، وناحية الفشل فى ضياع رأس المال ، وما أسوأ ذلك المآل ، الذى يفقد الانسان فيه رشده ، ويشقى بالضلال ، ونقل ابن جرير هذه الاستفادة ، التى رواها ابن ابى حاتم عن قتادة ، فى قوله تعالى : « **فما ربحت تجارتهم وما كانوا مهتدين** » (قد والله رأيتموهم خرجوا من الهدى الى الضلاله ، ومن الجماعه الى الفرقة ، ومن الامن الى الخوف ، ومن السنة الى البدعه) « **فقطع دابر القوم الذين ظلموا والحمد لله رب العالمين** » .

ربنا آمنا بما أنزلت واتبعنا الرسول فاكتبنا مع الشاهدين .

الخطبـــة الثانيـــة

الحمد لله الذى هدانا الى اليقين،وأكرمنا بالاسلام الذى هو أفضل دين،وأشهد أن لا اله الا هو الحى القيوم ، لا تأخذه سنه ولا نوم · واشهد ان سيدنا محمدا عبده ورسوله الصادق الامين،صلى الله عليه وعلى آله وصحبه ومن والاه ·

أما بعد أيها المسلمون،فقد سبق لنا فى الآيه السابقه ما عرفناه عن حاله المنافقين ، الذين اتخذوا من الاسلام شعارا . وودائه لهم وستارا ، وظفروا بعملون سرا أو جهارا ، فهؤلاء قد وصفهم القرآن بالتذبذب والخذلان ، وضرب مثلا شبيها بحالهم فقال تعالى : (**مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون صم بكم عمى فهم لا يرجعون**) شبه الله حال تلك الجماعة المنافقه السابحه فى ضلالها . الغالسة فى اثمانها . المتلاعبه بدينها ، المحتارة فى اختيار طريقها، العاجزه فى تحديد اتجاهها،فحال هؤلاء فى نفاقهم كحال من أوقد نارا لينتفع بها مع قومه ، فلما أنارت ما حوله من الاشياء ذهب الله بنورهم،وترك الذين أوقدوها قصد الانتفاع بها فى ظلمات كثيفة لا يبصرون شيئا مما حولهم من الكائنات ، لأن الله قدم اليهم أسباب الهدايه فلم يتمسكوا بها . فصارت بصائرهم مطموسة ، فاستحقوا أن يبقوا فى الحيرة والضلال جزاء نفاقهم وكيدهم للمسلمين · وبكفهم عقابا انهم أصبحوا كالصم ، لانهم قد فقدوا منفعه السمع ، اذ لا يسمعون الحق سماع قبول واستجابة ، وهم كالبكم الخرس ، لانهم لا ينطقون بالهدى أو الحق . وهم كالذين فقدوا ابصارهم لانهم لا ينتفعون بها فى اعتبار و انزجار ، فهم لا يرجعون الى الحق ، ولا يؤوبون الى الرشد ، ولا يهتدون الى النور ، لانهم اختاروا الضلاله على الهدى ، والنفاق والبهتان،على ما جاء به الرسول من سنة وقرآن . فكان اختيارهم هذا شؤما عليهم ، ومثارا لاتعابهم ، وقد نبه الله رسوله والمؤمنين الى ان يحترسوا من هذه الفئة الضالة ، وان لا يغتروا بها أو بمظهرها وان لا ينخدعوا بأكاذيبها وتمويهها ·

وفي هذا المثل العضه البالغه والاعتبار ، لمن تذكر واعتبر من أولى الابصار ، كما أرشد الله سبحانه وتعالى الى ذلك فقال (**ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون**) وقال:(**هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون انما يتذكر اولوا الالباب**) وقال:(**فويل للقاسية قلوبهم من ذكر الله أولئك فى ضلال مبين**) ٠

اللهم أعنا على معرفه طريقك المستقيم، واهدنا الى سواء السبيل، واعنا على ذكرك وشكرك وحسن عبادتك يا أرحم الراحمين يا رب العالمين، ولا حول ولا قوة الا بالله العلى العظيم، وسلام على المرسلين والحمد لله رب العالمين ٠

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

قالوا حسبنا ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعلمون شيئا ولا يهتدون » ، وهذا الاتجاه فى الاعتماد على العقل لا عهد للانسانية بـه الا فى العلوم الكونية ، فليس على المسلم بموجب الاصل الاسلامى أن يناول عقيدة بدون أن يحكم عقله فيها ويدلل عليها حتى ساغ لاصحاب الاصول من المسلمين أن يفرضوا أن ايمان المقلد لا يقبل منه ، لان العقل من صفاته التمييز لان صفات التمييز بين الحـق والباطل ، والحسن والقبيح ، والخير والشر كما أناطوا التكليف فى جميع الفروع الشرعية بالعقـل فاذا تعطل فلا تكليف ، ولهذا وصف الاسلام بأنه دين الفطرة اذ هو يتماشى مع النظام الذى أوجده الله فى كل مخلوق كامل فهو يساير مقومات الانسان الجسمية والعقلية فى آن واحد ، بل يعمل على تقويتها وبروزها حتى تقوم بواجبها الفطرى فلا يعطل غريزة ولا يقف سدا أمام الطاقات الفطرية بل يقوى فيهـا نوازع الخير ، ويكشف عما فى الحياة من نفع وضر وبذلك امتاز الاسلام على غيره من الاديان ، لانه دين العدل بين مطالب الـروح ومطالب الجسد ، فهو لا يأمر الآخذ به أن يحرم نفسه من متعة مادية ولا ملذة جسدية ما دام يتناولها عن طريقها المشروع وبحدها المعتدل حتى أن أكثر الآيات القرآنية التى تحض على نيل منزلة روحية ، تحض فى آن واحد على نيل مكانة مادية ، الله سبحانه وتعالى يقول : « **وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كمـا احسن الله اليك** » فانّ انحرفت النفوس عن الفطرة عمل هذا الـدين بتشريعاته الجالية على وفق ما يدركه العقل ويشهد به ليرجع تلـك النفوس الضالة الى حضيرة الفطرة السليمة ويهدى الى اتباع الطريق المستقيم ، قال تعالى : « **فاقم وجهك للدين حنيفا فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القـيم ولكن اكثر الناس لا يعلمون** » ، والفطرة المرادة فى قوله تعالى : « **فطرة اللـه التى فطر الناس عليها** » هى كما عـرفها شيخنا العلامة الطاهر بن عاشور هى الحالة التى خلق الله عليها عقل النوع الانسانى سالما من الاختلاط بالعادات الفاسدة ، والاوهام والاباطيل ، صالحا لصدور الفضائل عنه كما شهد به قوله تعالى : « **لقد خلقنا الانسان فى احسن تقويم ثم رددناه اسفل سافلين الا الذين آمنوا وعملوا الصالحات** » ، فالتقويم المراد فى الآية انما هو تقويم العقل الذى هو مصدر العقائد الحقة والاعمـال

الصالحة وأن المراد برده : (أسفل سافلين) انقال الناس الى اكتساب الرذائل بالعقائد الباطلة والاعمال الذميمة ، واذا كان العقل السليم هو طريق الاهتداء الى العقائد الحقة والمنهج الصحيح بادراك معنى الخير والشر والحق ، والباطل ، والحسن ، والقبيح ، فان دور الدين فى تقرير هذه المعانى هو المحافظة على الفطرة السليمة ، وابراز المعانى المثالية وتحقيق الحياة الفاضلة واحاطتها بالثواب والعقاب لان العقل وان كان من صفاته التمييز بين الحق والباطل ، والحسن والسيىء ، لكنه فى حاجة الى نور خارجى يهتدى به وتظهر له الامور على ماهى عليه فى الواقع ، وتقيه شر الانحراف وتبعده عما ركن اليه من الاهواء والشهوات والاباطيل ، وللعقل والفكر منزلة سامية فى القرآن ، الله كرم ابن آدم بما أعطاه من عقل وحمله الامانة التى أبت السماوات والارض حملها ، واختاره للخلافة فى الارض لما له من قوة التمييز والادراك والحكم ، أما عدم التدبير فهو جمود وانغلاق ، والله تعالى يقول : « **افلا يتدبرون القرآن ام على قلوب اقفالها** » ، ولذلك جاءت الدعوة الاسلامية تحمل حملة واحدة على ما كان عليه الناس من عقائد ومقاييس للخير والشر حتى يتأملوا وينظروا هل فيما اعتبروه عقيدة يصح أن يكون عقيدة حقة أم فيما أعتبروه تقليدا ماهو جدير بأن يؤخذ به ويحافظ عليه ، وهل فيما اعتبروه شر هو شر فى نظر الحق ، وكانت هذه الدعوة التى نادى بها الاسلام دعوة واقعية أساسها المعرفة ، تلك المعرفة التى تعتمد على العقل ، ولا تنعزل عن الواقع الحسى ، لان جميع المدركات العقلية عنده تستند الى المداركات الحسية ، اذ علم الانسان ليس مصدره العقل فقط ، بل العقل المعتمد على المشاهدة الصحيحة والاختبار ، لان العقل لا يستطيع أن يقوم بوظيفته من التفرقة بين الامور الفاضلة وغير الفاضلة والشؤون النافعة والضارة الا اذا ارتكز على أمرين أساسيين هما :

اولا : المعارف بجميع فروعها ،

ثانيا : التجارب على اختلاف أنواعها ،

لان العقل الخالى من العلم والمجرد من التجارب يتعقل الاشياء تعقلا ساذجا ، ولا يميز بين الحسن والقبح الا تمييزا سطحيا ولذلك تباين الناس فى عقائدهم وشرائعهم ومبادئهم على النحو الذى هم عليه اليوم .

ومن اجل هذا حث الاسلام على وجوب طلب العلم ، قال تعالى : « **هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون** » ، وصرح بأن بين المؤمن الجاهل والمؤمن العالم درجات فقال تعالى : **يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين اوتوا العلم درجات** » ، قال البيضاوى : يرفع الله الذين آمنوا منكم بالنصر وحسن الذكر فى الدنيا وايوائهم فى غرف الجنان فى الآخرة ، وقال فى قوله تعالى : « **والذين أوتوا العلم درجات** » ويرفع العلماء منهم خاصة درجات بما جمعوا من العلم والعمل فان العلم مع علو درجاته يقتضى العمل المقرون به مزيد الرفعة ، ولذلك يقتدى بالعالم فى أفعاله ولا يقتدى بغيره ، وفى الحديث الشريف قال (ص) «**فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب**» ، وكلما انحرف الناس عن الفطرة السليمة وحادوا عن الجادة وانطمست فيهم البصيرة بعث الله رسلا من حين الى حين ليرجعوهم الى الجادة وعبادة الله ، قال تعالى : **لقد أرسلنا رسلنا بالبينات وانزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط** » ، وتتابعت الرسالات وسايرت الطور البشرى فكان الرسول يبعث الى قومه يختصهم بدعوته ويرشدهم بهديه ، قال تعالى : « **لقد ارسلنا نوحا الى قومه ، والى عاد أخاهم هودا ، والى ثمود اخاهم صالحا ، والى مدين أخاهم شعيبا ، وابراهيم اذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه ، ثم بعثنا من بعدهم موسى بآياتنا الى فرعون وملائه ، واذ قال عيسى بن مريم يا بنى اسرائيل انى رسول الله اليكم** » ولما تطورت البشرية فى بوتقة العقل والآداب بعث الله محمدا (ص) بدين الاسلام الى الناس كافة يهدى للتى هى أقوم فى جميع مسالك الحياة وينظم حياة الانسان فى مختلف أجورها وعامة نواحيها ، قال تعالى : « **قل يا ايها الناس انى رسول الله اليكم جميعا** » ، ولهذا يعتبر الامام الغزالى الانبياء أطباء العقول وله فهم خاص لكلمة الميزان الواردة فى القرآن الكريم فى قوله تعالى : « **الله الذى أنزل الكتاب بالحق والميزان** » ، فهو يفهم انها ميزان الآراء ويرى أن الوحى لا بد أن يشتمل على ميزان يميز بين الحق والباطل ، وقد خص الغزالى كتابه «القسطاس المستقيم» لبيان ان القرآن قد تضمن أشكال القياس المعروفة ، وكان من الطبيعى ألا يحكم هذا الدين الخالد الا الى العقل والمنطق والعلم ، اذ هو آيات

بينات فى صدور الذين أوتوا العلم ، واذا نظرنا الى مصدرى التشريع الاسلامى وهما الكتاب والسنة نلاحظ مدى اهتمام هذين المصدرين بالعقل والفكر ، أما القرآن فمن سماته انه لفت أنظار الباحثين من المسلمين وغيرهم الى شدة العناية بالعقل ، فقد دعا القرآن الكريم بطريق مباشر وغير مباشر الى تعظيم العقل والرجوع اليه ، كما تناول مسائل العقيدة او التكاليف او التشريعات او المواعظ ، بينما تشير كتب الاديان الكبرى الى العقل بكامل التحفظ ، فالقرآن لا يذكر العقل الا فى مقام التعظيم والتنبيه الى وجوب العمل به والرجوع اليه ويشير القرآن الى العقل بمعانيه المختلفة مستخدما فى ذلك الالفاظ التى تدل عليه أو تشير اليه من قريب أو بعيد عن : التفكر ، والفقه، والذكر ، والرأى ، والتدبير ، والقلب ، وأولى الالباب ، الى غير ذلك من الالفاظ التى تدور حول الوظائف العقلية على اختلاف معانيها وخصائصها ، وأرى من المناسب أن نلقى نظرة احصائية على عدد الكلمات الموحية أو الدالة على العقل فى القرآن حتى تعطينا صورة واضحة عن هذا الموضوع لاعتقادى ان عمليات الاحصاء أصبحت فى هذا العصر من الدعائم التى يرتكز عليها الحكم على الاشياء فى البحث العلمى ، وأهم هذه الكلمات هى العقل : وردت هذه المادة بصيغة المضارع فى خمسين (50) آية من القرآن • التفكر : وردت مادة التفكر فى سبعة عشر آية من القرآن•التدبر : وردت بصيغة المضارع فى أربع آيات • أولى الالباب : وردت كلمة أولى الالباب فى ستة عشر آية بصيغ مختلفة كقوله تعالى : « **وهىء لنا من أمرنا رشدا** » الحكمة : وردت كلمة الحكمة فى ستة عشر آية • الفقه : وردت كلمة الفقه فى عشرين آية • مذكر : وردت كلمة مذكر وهى من صيغ الذكر أو التذكر ست مراتُ فى القرآن • الرأى : بمعنى التفكر ويزيد عدد الآيات التى وردت بهذا المعنى عن الثمانين • العلم : وردت كلمة العلم فى القرآن فى أكثر من خمسمائة آية ، وليس المفهوم بها علم خاص وانما قصدت بها كل علم نافع يفتح آفاق العقل ويمكن الانسان من ادراك الحق •

هذه بعض الالفاظ التى وردت فى القرآن الكريم لها صلة وثيقة بالعقل والتفكير ، وهى فى مجموعها تقيم الدليل بطريقة محسوسة لا شك فيها ولا غبار عليها ، ان الشريعة الاسلامية استطاعت أن

تؤاخي بين الدين والعقل وان تجعل من هذه الفطرة فطرة مستقيمة سليمـــة .

أما موقف السنة من العقل فقد وردت فيه أحاديث كثيرة عـن الرسول (ص) جمعها الامام الغزالى فى كتابه «احياء علوم الدين» فى باب شرح العقل ، ولا نتكلم فى أسانيد هذه الاحاديث فان ما ذكرنا من الآيات القرآنية يساعد المعنى الذى اتجهت اليه صحت هـــذه الاحاديث أم لم تصح ، فمن هذه الاحاديث ما رواه أبو أمامة وأبو معين عن عائشة رضى الله عنها قالت : قال رسول الله (ص) : **أول ما خلق الله العقل ، فقال له أقبل فاقبل ، ثم قال له ادبر فادبر ، ثم قال الله عز وجل وجلالى ما خلقت خلقا أكرم على منك ، بك آخذ وبك أعطى وبك أثيب وبك أعاقب**» ، وعن أبى سعيد الخدرى رضى الله عنه قال: قال رسول الله (ص) : «**لكل شىء دعـامة ودعامة المـؤمن عقلـــه ، فبقدر عقله تكون عبادته ، أما سمعتم قول الفجار فى النار : «لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير** » ، بتلك الآيات القرآنية وما جرى مجراها من الاحاديث النبوية الشريفة والهدى المحمـدى تمكن الاسلام من أن يوجه العقل الى التفكير والى التأمل والنـــدبر حتى تزول الحجب الكثيفة التى تحول بينه وبين الرؤية الصحيحة فى الاشياء ، وأمكنه كذلك أن يبعث أمة جديدة تعتمد العقل والتفكير والبحث وتستخدمها فى مختلف شؤونها الحياتية ، فتفتحت بذلـك أمامها آفاق غير محدودة فى هذا العالم الكبير، وكيف يتعارض الاسلام مع العقل وهو يشتمل فى جملته على ثلاث شعب رئيسية :

أولها : العقـــائد :

ثانيها : محاسن الآداب والاخلاق ،

ثالثها : الاعمال المتعلقة بأفعال المكلفين .

أما العقائد وقد أسسها الاسلام على أوطد الدعائم وأعلى المثـل فى التوحيد الخالص ، والالوهية الحقة مثبتا بذلك وحدة الالوهيـة ومبطلا التعدد ، قال تعالى : ((فاعلـم أنه لا الـه الا هـو)) ، وقال : « **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئا** » ، وهكذا اهتم القـرآن بأمـــر العقيدة فوصف الله تعالى بكل كمال ونزهه عن كل نقص ، كما اهتم بما وراء هذه الحياة من حياة أخرى وما فيها من ثواب وعقاب ، قال

تعالى : « **يومئذ يصدر الناس اشتاتا ليروا أعمالهم ، فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** » .

أما محاسن الآداب ومكارم الاخلاق فقد عنى بها الاسلام عناية شديدة وطلب الى المسلمين أن يتخلقوا بأخلاقها ويخالطوا النـــاس بأحسنها وأجملها وان يكونوا جميعا أمثلة حية وصورا ناطقـــــة بالعدل والاحسان والوفاء بالعهد والصبر فى الشدائد والعفو عنـد المغفرة ، وما الى ذلك من الخصال الجليلة ، وهذا النمط العـالى من التهذيب الكامل والادب السامى لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقـل لانه هو عين الفطرة السليمـــة .

وأما ثالث الشعب : وهى الاعمال المتعلقة بأفعال المكلفين فقد شرع الاسلام منها ما كان خير مظهر من مظاهـر الانقيـاد لله تعالى وأكفل وسيلة لمساعدة الفقراء والمعوزين والترفيه عنهم،والمساهمة فى مصالح المسلمين العامة ، والقيام بأعباء ما تتطلبه حالة الجماعة ، فلا غرو ان الاسلام فى كل ناحية من هذه النواحى الاساسية الثـلاث قد أتى بأرقى النظم ورسم أعلى المثل ووضع خير الاسس موافقـــة لطبيعة العمران وروح الاجتماع وهذا أيضا لا يمكن أن يتناقض بحال مع العقل لانه يتماشى مع الفطرة السليمة ، والله سبحانه وتعـالى يقول : « **فمن اتبع هداى فلا يضل ولا يشقى** » ، وقد أحيطت كـــل المعاملات فى الاسلام برباط أخلاقى من العدل والتيسير والرحمـة ودفع أسباب التشاحن والبغض وربط أفراد المجتمع برباط المحبة والتعاون على البر والتقوى ، لا على الاثم والعدوان .

ولجميع هذه الاعتبارات المتعددة اعتبر العقل من المصـــالح الضرورية فى الاسلام تلك المصالح التى لا يستقيم عمران الكـون وازدهاره ورقيه الا بها ، فكان حفظ العقل ثالث المقاصد الضرورية التى عناها الشارع بعد حفظ الدين والنفس ، ولذلك أوجب علينـا تنميته بالتمرين والتفكير الصحيح وصقله بالتوجيه السليم حتى تتكون له قوة التمييز بين الحق والباطل ، وقوة التفريق بين الحسن والقبيح، كما أوجب علينا من ناحية أخرى حمايته من كل ما يدخل عليه خلـلا فى سيره أو اضطرابا فى عمله ، لذلك حرمت الشريعة شرب الخمر وتعاطى المخدرات وبيعها وترويجها لان الخمر مذهب للعقل ، محطم لآلـة التمييز عند الانســان .

نستطيع ان الدين يعتمد على العقل الصحيح في جميع أحكامه وتوجيهاته ، بل هو يفتح أمام العقل آفاقا بعيدة للتطلع والاستطلاع ، ويكشف له جوانب الحياة للبحث والدرس ، ويدفعه دفعا الى التجديد والابتكار ، فهل يسوغ لنا بعد ذلك أن نعتبر أن الاسلام دين جامد كبقية الاديان ؟ وهل يصح بعد ذلك أن نشك في كونه يستطيع أن يساير التطور البشرى وانه يساير كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته، وانه لا يعرقل سير تقدمه،لان من خصائص هذا الدين الدعوة الى كل ما يحقق سعادة الانسان وكرامته ليتبوأ مركز خلافة الله في الارض ، ومع الاسف الشديد فان كثيرا من شبابنا من طلاب الجامعات او من غيرهم الذين أغشتهم حضارة الغرب وتقدمه الصناعي والمادى وفكروا في التخلص من رواسب الماضى أصبحوا يتساءلون : هل ان الشريعة الاسلامية تستطيع أن تواجه تيار التقدم المادى في عصرنا الحاضر ؟ هل انها شريعة الحياة تستطيع أن تحقق للانسان سعادته في الدنيا كما وعدته بسعادة الآخرة ؟ أو بالاحرى هل الاسلام قابل للتطور والتجديد ؟ ما دمنا نرى ان الحياة قد تطورت في جميع مظاهرها وان رواسب العهد الماضى قد أخذت تتقلص شيئا فشيئا ، وهنا يجب على كل رجال الفكر الاسلامى ألا يبقوا متفرجين ، فعليهم أن يعالجوا المشكل من أساسه، ويواجهوا هذا الخطر بما يستحقه من عناية وحكمة ، لأن التطور سنة من سنن الله تعالى ، وهو قانون من قوانين الحياة التي لا مفر منها والتي تجرى علينا وان لم نرد ، فالخير ان نريد هذا ونعمل له جادين ، وان نوضح ضوابط التطور في الاسلام وأماكن التجديد منه حتى نمنع عبث العابثين ونقطع دابر المفسدين ، فالتطور في التشريع هو حركة الانسان المستنير القادر على ابتكار أحكام لحوادث جديدة ملائمة والظروف التي تمر بتطور الزمان مستندا الى كتاب الله وسنة رسوله ومبادئ الاسلام العامة ، وهو ما سماه الفقهاء من قبل: «الاجتهاد» وهو الموضوع الذى حلله بعض المحاضرين من قبلى ، فليس التطور اذن هو تغيير الدين ، أو التحول عن مبادئه وأهدافه القارة ، أو التبعية لجميع التيارات الفكرية أو المادية ، أو الذهاب مع الاهواء والشهوات ، لان هذا لا يسمى تطورا أو تجديدا بل يسمى هدما وتحللا وتفككا وذوبانا ، وموتا والحادا ، واذا كانت الاحزاب

السياسية والمذاهب الاجتماعية الكبرى الموجودة فى العصر الحاضر لا تقبل التحول عن الاهداف والمبـادىء التى رسمتها لنفسها ، ولا تبيح لأى شخص من أتباعها الانفلات عما يسمونه دستور الحـزب ، ويعدون كل من تحدثه نفسه بمخالفة بعض فصوله أو مبادئه،منحرفا أو منهدما أو مهدما ، وتعقد له المجالس التأديبية مع العلم أن كل ما فى هذه الدساتير موضوع من طرف عقول خاصة متأثـرة بالزمان والمكان والظروف والتيارات ، وكيف يسوغ لنا أن نبيح لمن لـم يدرس الاسلام أن يتطاول علينا ؟ ولمن لا يشم له رائحة أن ينتقـده أو ينتصب له خصما أو معارضا تحت ستار حرية الفكر ودعوة التطور والتجديد ومحاكمة العقل ، فيجب أن نتفق أولا لا فى هذا المستوى فحسب ، بل حتى فى المستوى الادارى والحكومى ، على أن احترام الدين أمر واجب لانه عقيدتنا وشريعتنا فلا يجوز فيه الا من كـان عارفا به ، عالما بأحكامه ومبادئه ، مدركا لأحكامه الصريحة الواضحة التى دلت عليها نصوص القرآن والسنة ، والاحكام الاجتهادية المبنية على علة متبدلة أو عرف متغير أو تحقيق مصلحة او دفع مفسد ٠

فميدان التطور والتجديد لا يمكن أن يتناول كل ما جاءت بـه الشريعة الاسلامية من مبادىء وأحكام ، لان العقيدة مثلا وهى قائمة على العقل لا مجال للتطور فيها اذ هى مؤسسة على مبادىء ثابتـة ، وحقائق لا تقبل التغيير والتبديل بحال ٠ الايمان بوحدانية اللـه مثلا مبدأ أصيل وحقيقة يقينية لا مجال لتغييرها ، والعبادات كذلك كلها قربات لله تعالى ، وقد حدد الله بواسطة الوحى وعمل النـبى (ص) الطرق التى يرتضيها من المسلمين فى تقربهم اليه ، فتغييرها يعتبر خروجا عما رسمه سبحانه من الطرق الخاصة التى ارتضـاها لعباده ، أما أحكام المعاملات والاحكام الدستورية فان مجال الاجتهاد فيها مفتوح فيما لا نص فيه لان الوقائع والحـوادث لا تنحصـر ، والادلة التى وردت فى الكتاب والسنة أو نص عليها العلماء منحصرة، وأما تقرير حكم الله فيما سيحدث من المسائل لا يمكن أن يبت فيه الا اولوا العلم من المسلمين ، المخلصون فى دينهم ، الذين يعملون على أن تكون شريعة الله حاكمة لا محكومة ، وموجهة لا موجهـة ، وهادية لا مهدية ، والله تعالى يقول : « **فلا وربك لا يؤمنـون حـتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا فى انفسهم حرجا مما قضيت**

ويسلموا تسليما » ، ومجال هذا العمل الفسيح الذى بقى أمـــامنـا يحتاج بدون شك الى استخدام قوة العقل التى وهبها الله لنا فنكون بالاعتماد عليها ناظرين كما أمرنا الشارع باحثين فى الاحكام ومناطها ونصوص ومجالات تطبيقها ، والمستحدثات وما يليق بنا فى دستور الشريعة الاسلامية من وجهات النظر التى تحقـق مصلحـة الامـــة الاسلامية وتدرأ المفاسد عنها ، وليطمئن شبابنا فاننا لسنا ممـن يقول بغلق باب الاجتهاد ما دمنا قد قررنا أن الاسلام يدعو الى العقل واعمال الفكر فان باب الاجتهاد مفتوح على مصراعيه ، وشريعـــة الاسلام متطورة ، والذى أعتقده ان الاجتهاد اليوم أيسر منـه فـــى العصور السابقة اذ ضبطت قواعد العربية ودونت الاحاديث وفسر القرآن الكريم ، ونشرت الكتب بين الناس ، وأصبحت فى متنـاول كل باحث ، ولو قارنا حالتنا اليوم بما كان يتكلفه العلماء من رحلـة وقطع مسافات لجمع الحديث وروايته أو الرجوع الى القبائل العربية لفهم لفظة أو تصحيح اعراب بما نملكه من امكانيات ثقافة اليوم لقلنا من غير شك ان الفقيه اليوم أقدر على الاجتهاد مما مـضى ٠

والواقع أيها الشباب أن باب الاجتهاد لم ينغلق ولكن الهمـة العلمية فقدت وزهد الناس فى التبحر فى هذه العلوم ، وفقد العالم القادر على غوص غمار التشريع الاسلامى ، وهذا هو الذى دفـع ابن قيم الجوزية والمراغى الى القول بأن الاجتهاد يتجزأ وهو الذى دعـا اليه علامتنا الشيخ الطاهر بن عاشور فى كتابه «المقاصد الشرعية» منذ ما يزيد عن أربعين سنة وسماه «الاجتهاد الجماعى» لان ما اتسم به هذا العصر من الاختصاص يدفعنا على أن ينكب جماعة من العلماء الثقاة يكمل اختصاص كل واحد منهم اختصـــاص الآخـرين وينكبوا على المسائل المستحدثة دراسة وتتبعا واستنباطا ، وهذا يستجيب فى نظرى لمطالب الحياة والتطور السريع الذى يجرى فيه العـــالم الاسلامى اليوم ، وهذا تقريبا هو ما يقوم به مجمع البحوث الاسلامية بالازهر الشريف منذ ست سنوات تقريبا فقد أفتى هذا المجمـع فى عدة مسائل كالتامين ورؤية الهلال وتوحيد الشهور ، وهو نفس المبدأ الذى حاولته دولة ماليزيا فى مؤتمرها الاسلامى الدولى الذى انعقـد فى السنة الماضية فى مدينة كوالا لمبـور ٠٠

وبهذا نعلم ـ أيها الاخوان ـ ان الذى ينقصنا هو المجامع العلمية

التى ستخرج هذا النوع من العلماء ، وينقصنا اخبار النخبة على هـذا النوع من التعليم ، وتحمس الحكومات الاسلامية للعمل بالتشريـع الاسلامى حتى يكـون دين الـدولة فى الحيـاة وفى الخـارج ، وفى اعتقادى ان هذا اللقاء وأمثاله من اللقاءات فى البلدان الاسلاميـة الاخرى سيعمـل من غير شك على ازالة الشبهات أمام الشبـاب ، وسيدفعهم حتما الى مراجعة موقفهم من التفكير الاسلامى ، ومستقبل الحضارة الاسلامية ، فعلى الحكومات الاسلامية أن تراجع اختياراتها فى الثقافة والتعليم حول البرامج الدينية من المدرسة الابتدائية الى الجامعة ، وحول المربى والواعظ وامام الجمعة والاذاعة ، والتلفزة ، والمسرح ، والسينما ، والنوادى ، والملتقيات وكل وسائل الاعلام لان كل هذه الاشياء مجتمعة تكون المجتمع الاسـلامى فى نظرى وان كل انحلال او انحراف فى أى عنصر من هذه العناصر يكون له أثـره من قريب أو بعيد فى مستقبل تفكيرنا ، فاذا استطاعت أى حكومة اسلامية أن تتحكم فى اختياراتها حسب مبادىء الاسلام الصحيـح نكون قد حققنا بهذا اللقاء خطوة ايجابية موفقة فى تصحيح التفـكير الاسلامى وتركيز الثقافة الاسـلامية ٠

والسـلام عليكم ورحمـة اللـه ٠

اللغـــة العربيـــة
فى جنـــوب شرق آسيـــا

الاستاذ محمد العربى دماغ العتروس
سفير الجزائر فى يوغوسلافيا

بســـم اللـه الرحمـن الرحـيم

سيدى الاخ الوزير

أيها الضيوف المحترمون

أيها الاساتذة الاجلاء

أيها الاخوة الاحباء

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ٠

انى حقيقة وصدقا أشعر بمزيد من الفرحة والابتهاج لحضورى هذا الملتقى الرابع للتعريف بالفكر الاسلامى اذ لم تتح لى الفرصـة فى السنوات السابقة لحضور مثل هذه الاجتماعات ولم أتمكن مـن متابعة أعمالها والنتائج الطيبة التى كانت تسفر عنها دائما ، الا أن أصداء هذا المؤتمر وهذه الكلمات كانت تصلنا الى جنـوب شرقى آسيا ، وكانت هذه الكلمات والقضايا التى تطرح تهم كذلك وأحيانا بالدرجة الاولى اخواننا فى العقيدة وفى الثقافة وفى الحضارة هناك فى جنوبى شرقى آسيا وهم يعدون كما تعلمون لا بعشرات المـلايـين بل بمآت الملايين ، ويخيل الى أن هذا المؤتمر الرابع اكتسى صبغـة تميزه عن سابقيه ، والدليل على ذلك ان الكلمات التى قيلت والقضايا التى أثيرت لاسيما ما جاء منها فى كلمة الاخ الفاضل الوزير ، تلـك الكلمة التى أقل ما يقال فيها انها نقلت حبة القلوب وأطربت المسامع، *وجعلتنا نشعر شعورا عميقا بأن ثورتنا المظفرة لا زالت تسـير فى طريقها السوى متجهة نحو تحقيق أهدافها العاجلة والآجلة* ، حفاظا منها على القيم التى جعلتها تنتصر ، ايمانا بقيادة هذه الثورة الرشيدة

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م٠

وايمانا بان من الواجب الاوكد أن يبقى بلدنا العزيز هذا الغالى المحبوب دائما وأبدا الى أن يرث الله الارض ومن عليها مترشحا بنور العربية والاســـلام ٠

وبعد هذا أحاول على حد تعبير اخواني المشارقة ، (أحاول على الماشى) يعنى من دون أن يستعد الانسان او يتهى. أو أن يقوم بعملية تجميع لعناصر الموضوع ، ولكن لا أعتقد بأن مؤتمرا مثل هذا يعنى بالتعريف بالفكر الاسلامى لا يخوض ولو بطريقة مختصرة فى وضع الوجه الثانى من هذه العملة الذهبية ، الوجه الثانى للفكر الاسلامى والاسلام ، أعنى به اللغة العربية ، وانا اذ أحاول أن أبذل جهـــدا متواضعا لاحدثكم اليوم بعض الشىء عن مكانة لغة الضاد فى جنـوب شرقى آسيا اذ أحاول أن أعمل هذا ، فبغيتى أن يدرك اخواننا العرب فى المشرق وفى المغرب مدى ما قام به وما بذل فى سبيله اخـوان لنا فى العقيدة اخوان لنا فى الايمان عبر القرون وعبر الاجيال فـى الحفاظ على لغة القرآن وأنا طبعا فى حديثى عن جنوب شرقى آسيا وانتم تعلمون أن جنوب شرقى آسيا هو اصطلاح غربى أطلـق على البلدان التي تمتد من باكستان غربا الى زلندا الجديدة شرقا ويشمل باكستان الغربية ، والهند ، وباكستان الشرقية ، وبورمة وسيلان وتايـلانـد وماليـزية والهنـد واندونيسيا والفليبـــين واستـراليا ونيوزيلانده ، وهناك مثل الامريكان من يضيفوا اليها حتى اليابان ٠

ففى هذه الرقعة الممتدة على آلاف من الاميال توجد هناك أمكنة تعيش فيها اللغة العربية ولها مكانتها ولها قدسيتها ، وذلك لانهـا لغة الاسلام٠اللغة العربية هى كما تعلمون ، والاسلام فى ظنى أمران جميلان حسب المشاهدة والاختبـار ، ظل كل منهما عبر القـرون والاجيال يناغم الآخر ويستصحبه بل يستلزمه ولا غرابة فى ذلـك ، لو لم يكن هناك قرآن ولم يكن مثلما قال فضيلة الشيخ أمس بالليل مستشهدا بان الله سبحانه وتعالى تكفل بأن يحفظ الى يوم الـدين ما نزله على رسوله الامين اذ يقول : « **انا نحن نزلنا الذكـر وانا لـه لحافظـــون** »

اذن فبالرغم من الكوارث ومن المهالك التى حلت بالمسلمـين من أواخر القرن الخامس عشر الى أن أهل فجر الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية بالرغم من كل هذا فالعربية والاسلام بقيا على قيـد

الحياه وتراهما اليوم يتمتعان بمنزله مرموقه ذلك بان الحكومات والدول والاسر حسب نظرية ابن خلدون والكندى وغيره من علماء الاجتماع أو المؤرخين تزول الا أن كلمة الله (القرآن) باق حى لايموت.

ولا يخالنى أغلو فى حديثى هذا ، وقد أجد سندا مؤيدا لما أقوله الآن وأجمع حوله بحضور عالمين فاضلين من علماء الشام أتيح لهما زيارة أندونيسيا ، وجنوب شرقى آسيا ومنها فضيلة مفتى الديار الشامية الذى منح وكان شرفا له ولنا ولجميع المسلمين دكتوراه فخرية فى حفل بهيج فى جامعة اسلامية من ضواحى جاكارتا، لقد شاهد فضيلته مثلما شاهدت أنا أن دين الاسلام هناك قوى ، وان العربية قد بسنلذ الانسان ويستمتع بسماعها فى كل مكان من جنوب شرقى آسيا لاسيما فى ماليزية وفى اندونيسيا ، ومكانة اللغة العربية بما أنها لغة القرآن مكانة يشار اليها بالبنان بالرغم من أن هذه البلاد ذات ثقافة عريقة وذات حضارة مؤثلة وذات لغة قائمة بذاتها لغة انتصرت بعد ان انتصرت البلاد على المستعمر الدخيل وأصبحت لغة المدرسة ولغة الجيش ولغة الحكومة ولغة الادارة ولغة الجامعات الى غير ذلك ، هى اللغة الملاوية التى بحكم اعتناق الملويين والاندنسيين وكلهم من أصل ملوى بحكم اعتناقهم للاسلام فلغتهم تحوى العديد من الالفاظ العربية من الولاية ودائرة الى استراحة الى منفعة الى كرسى الى مائدة الى غير ذلك بصرف النظر عن المفردات والالفاظ الدبنية وغير ذلك ، وقد يتساءل سائل عند ما نشاهد مدى حماس اخواننا سواء كانوا من جنوب الفيلبين فى جزيرة (مندوناو) التى يسكنها ما يناهز الاربعة ملايين من المسلمين أو من ماليزيا أو من أندونيسيا أو من باكستان أو غير ذلك عند ما يرى حماسهم واندفاعهم للدفاع عن اللغة العربية ، ومحاولة جعلها لغة عالمية ولغة دولية ، قد يتساءل المرء أو يتساءل العربى لماذا هذا الحماس وهذا الاندفاع لجعل اللغة العربية لغة رسمية فى هيئة الامم المتحدة أو فى هيئة البريد العالمى ، فى منظمة الصحة العالمية،أو فى اليونيسكو خاصة ، ولعلكم تتذكرون بانه بناء على مبادرة جزائرية ، مبادرة قام بها وزير تربيتنا السابق ، الدكتور أحمد طالب اذ تقدم باقتراح ، بمجرد انضمام الجزائر الى هيئة اليونيسكو بجعل اللغة العربية لغة رسمية فصودق على هذا الاقتراح ـ وأكثر الذين تولوا الدفاع عنه

باستماتة وصدق واخلاص ليسوا هم العرب اذا ما رجعتم الى الكلمات التى قيلت فى تلك المناسبة ، بل هم الفرس ، هم ممثلوا الباكستان هم بالخصوص ممثلوا اندونيسيا وماليزيا ٠

فهؤلاء الناس مؤمنون ايمانا لا يرقى اليه الشك بحكم اسلامهم وما داموا مسلمين فهم لا يتصورون الوجود الا مبنيا على مفاهيم الاسلام ولا يمكن بأى وجه من الوجوه مهما كانت حضارتهم السالفة وكنوز تراثهم وغير ذلك ، لا يمكن أن يستمروا أو يصبروا أن يروا الاسلام وتعاليم الاسلام تتوطد وتترسخ وتينع من دون أن يكون هناك لسان عربى مبين ، وهم اذ يفعلون هذا لا يفعلونه بصورة ذاتية ، بل يقومون به عن وعى وبصيرة وارادة اعتقادا منهم أن الحضارة العربية الاسلامية التى ينتمون اليها ، والى هم من حملتها اذا ما أرادوها أن تنتصر وتحتل مكانتها فى العالم من جديد بعد ان حاول المستعمرون وحاولت السيطرة الغربية فى شتى صورها وأشكالها أن تجتثها من الاصول ، هم يعتقدون اعتقادا جازما بأن دفاعهم عن اللغة العربية وأعمالهم المخلصة فى سبيل احيائها هو عمل شريف بغية احياء الحضارة والثقافة العربية الاسلامية ٠

قد يظن ظان بمراجعته للتاريخ أن العرب لاسيما الحضارمة الذين نشروا الاسلام هناك والعربية ، يظن ظان بانهم عند ما حلت بهم الكارثة وغزاهم البرتغاليون والاسبان ، وغزو البرتغال والاسبان كما نعلمون ما هى الا عملية صليبية جديدة ، كانت ترمى الى القيام بحركة التفاف استراتيجية حول الجناح الاسيوى من الدولة الاسلامية وانكم تذكرون جيدا وهذا لم يكتبه عرب ولا مسلمون بل كتبه من لا يكن كثيرا من العطف على الاسلام ، مثل الهندوس وغير ذلك ، تذكرون بأن أول ما احتل البرتغاليون شبه جزيرة (ملقة) أول عمل أقدموا عليه هو جمع كل من هناك له نسب بالعرب وأجهزوا عليهم الى آخرهم ، وبعثوا برؤوسهم الى أمبراطور البرتغال فى ذلك الوقت، ولكن قتلوا الاجسام وأفنوا الرجال ولكن الغرسة المباركة التى غرسها هؤلاء ومنهم من أجدادنا من سافر بالرغم من المخاطر من المغرب ومن الاندلس ومن شمال افريقيا ، ومنهم من يسمى الشيخ عبد العزيز المغربى الذى نزل فى سنة 1272 ٠٠ على الشط الغربى من جزيرة (ملقة) وهو أول من نشر الاسلام ، والآن فماذا تراه والبذور التى

زرعها لازالت الى يومنا هذا تاتي أكلها ، وما الروح الاسلامية والعقيدة الاسلامية بالرغم مما أصابها وبالرغم مما ذاقت وبالرغم من كل ما شوه بعض جوانبها لازالت هناك حية ولازالت هناك تعمل وهذا ما يفسر لنا حب هؤلاء المسلمين من غير العرب للغة العربية لانها لغة الاسلام ولانها لغة القرآن .

فاللغة كما تعلمون ان لم تكن لغة حضارة ولغة ثقافة ولغة فلسفة فاقت الفلسفة التى كانت متطورة جدا قبل الاسلام مثل الفلسفة الهندية والبوذية وغير ذلك ، ولكن صفاء التعاليم الاسلامية ونقاءها ووقعها فى النفوس فى أول الاستماع اليها جعلت كل الفلسفات أو تلك المذاهب تنزوى وتعتزل لانها لا تقوى على مواجهة الاسلام وتعاليم الاسلام وروح الاسلام وزكاء الاسلام وصفاء الاسلام وعطاء الاسلام لان الاسلام والمسلم المتشبع بروح الاسلام علة وجوده العطاء،فهذا كله يفسر لنا لماذا المالزيين ولماذا الاندونيسيين وغيرهم ولماذا حتى أهل الفيلبين فى الجنوب بالرغم من أنهم ولربما هم أبعد الناس شيئا ما عن التعاليم الاسلامية السليمة بالرغم من الكوارث ومن الاستعمار الاسبانى وتذكرون ان الفليين كانت كلها مسلمة وان حل بها الاسبان ، واما كل الجزر بما فى ذلك جزيرة (لوزن) وهى أعلى وفى المنتهى الشمالى وكانت بوصول الاسبان سنة 1572 م كلها مسلمة بفضل ما يسمى بالاخوة السبعة ، وهم ليسوا بأخوة من صلب واحد أو من أم واحدة ، أو من أب واحد ، وانما كانوا اخوة فى الدين وفى العقيدة الاسلامية ... الى ان وصلوا الى تلك الشطوط وراحوا بسيرتهم وبتعبدهم وبمحاولتهم ، فهم الناس وبتقواهم وبجهودهم فراحوا يعملون على نشر الاسلام ، وهم نشروا الاسلام فى أواخر القرن الرابع عشر على ما أذكر ان لم تخنى ذاكرتى ، فهم يحبون ويجلون العربية ويدافعون عنها ، ويطالبون حكومتهم بأن يكون لهم شيخ من الشيوخ يعنى «سيناتور» فى حكومة مانيلا من الجنوب من مندوناو ، ويطالبون دائما حكوماتهم بأن تؤيد القضايا العربية ، ولا أكشف لكم سرا أو اطلعكم على شىء جديد اذا ما قلت لكم ، فبعد الهزيمة التى حلت بنا فى حزيران 1967 م هناك آلاف من المتطوعين سجلوا اسمهم وارادوا ان يسافروا للقتال ، لا دفاعا عن عرق ا دفاعا عن الاسلام وعن عالميه ، فكل هؤلاء الناس مجند

لدفاع عن الوطن ولكن يعتقدون بأن مصالحهم ومصيرهم مربط ارتباطا عضويا بالاسلام والمسلمين ، لا كأفراد مثلما قال لى أحد الاسيويين المسلمين المتصلعين فى اللغة العربية ، لا تظننا أيها السمير بأننا نحب اللغة العربية لانها لغة أبى جهل ولكن نحب العربية ونقدسها ونموت دونها لانها لغة محمد ولغة سلمان الفارسى ولغة بلال.

وهنا عالمية الاسلام L'UNIVERSALISME هذا هو السر حسبما شاهدت وحسبما خبرت وربما توجد من الافاضل ومن العلماء من أعرف وأدرى منى بالاسلام وانتشاره وغير ذلك ، أعرف وأدرى بكثير ، وربما كذلك قد توصلوا الى نفس النتيجة التى توصلت اليها أنا بجهد متواضع ، فأقول كل هذا لا لألقى عليكم درسا حاشا ماعدا الله،فأنا أعرفكم فأنا أولى بأن أتلقى عليكم كثيرا من الدروس ويعلمنى كثيرا من الاشياء أجهلها جهلا تاما ، وقد تعلمت زيادة على الشيء القليل الذى تعلمته من الفقه المالكى أن اخواننا هناك على مذهب محمد بن ادريس الشافعى الذى قال رضى الله عنه كلما تعلمت ازددت علما بجهلى ، فاحوانى ، أقول لهذا ولربما لحاجه فى نفس يعقوب ، أقوله لابنى جزائرى فنحن عرب وعند ما نقول عرب عندنا فهو مسلم بالضرورة ، وعامسا الى أمد قريب جدا لا تفرق بين العربى والمسلم عند ما يأتى أى أحد يعمل لا بليق يقول «هم ليسوا عرب أم كيف ؟ » يعنى «أليسوا مسلمين ؟» فحبهم هذا للعربية لانهم يؤمنون ومتمكنون منها كل التمكن ويبذلون جهودا جبارة لتعلمها الى جانب لغتهم ، لانها لغة الحضارة ، ولغة القبلة ، ولغة الفلسفة وغير ذلك ، وكثير منهم تعلم عند ما يتحدث وينتقل من لغته الى اللغة العربيه ، هم مثل من قال فى حقهم الجاحظ عند ما تصدى للحديث عن أحد الائمة والعلماء فى فارس فى وقت من الاوقات وكان يلقى دروسه بالعربية وبالفارسية ، وننتقل من هذه الى تلك ، ومن تلك الى هذه حتى كان لا يدرى بأى لسان هو أبين ، فحقيقه نجد هناك من اخواننا غير العرب ومن الاسيويين بصرف النظر عن من هم مولدون ومن أصل عربى من فى قدرته وفى امكانه أن يعلمنا لغتنا ، ولا يشك فى صلاحيتها اطلاقا أن تكون لغة العلم ، ولغة الحضارة ، ولغة الثقافة والتكنولوجية ، أو لغة الفلسفة والعلوم والتشريع وغير ذلك ، لا يخامره شك مثلما ـ والعياذ بالله ـ كثيرا من اخواننا وهم ينتسبون الى العربية،

وأنا أقول مثلما قال أحد المصلحين أعتقد أنه الامـام محمد عبـده رضى الله عنه قال : أرز، ما يبلى به الاسلام هم المنتسبون اليه ، وأزء ما يصيب العربية فى كثير من الاحيان هو بسبب المنتسبين اليها ٠

فاللغة العربية بحكم الاسلام كما قلت لكم أيها السادة والسيدات أيها الاحباء لها مكانتها ولها مركزها، وقد يجد الانسان فى أصغـر قرية من قرى أندونيسيا وماليزيا من يجيد قراءة القرآن أو شيء من الفقه ، بل كذلك من يجيد اللغة العربية ويتكلمها وكثير منهم من يكتب بها نثرا وشعرا ، ويتلهفون الى ما يصدر من العالم العربى ، وأنـا أذكر جيدا بأننى أوزع فى نطاق المطبوعات التى تصلنى من بلـدى كالمجاهد الثقافى ومجلة القبس كعدد محدود وكلما وصلت الى احد عرفها الى الآخرين ، وتهاطلت على سفارتنا عشرات الرسائل تطلـب أن نزودهم بهذه المجلات ، وبهذه المطبوعات العربية حتى نكون على صلة ، ونكون على بينة من التطور العلمى والعقلى وغير ذلك ، وهـذا دليل على مدى اهتمامهم باللغة العربية ، وانكم مثلما شاهدتم يافضيلة مفتى الديار الشامية انه بالرغم من وجود اختلافات سياسية فالشيء الدائم السرمدى الذى لا يمكن لأى أحد أن يفرط فيه هو صلة الاسلام والعربية ، وان كثيرا من الاسر والعائلات يتجشمون صعابا ومتاعب كثيرة ليعلموا أبناءهم العربية وليرسلوهم سواء الى القـاهرة أو الى المدينة المنورة ، او الى بغداد ، وأعتقد أن دور ومسؤوليات الحكومات المدينة المنورة ، أو الى بغداد ، وأعتقد ان دور ومسؤوليـات الحكومات عن تطوير وعن تدعيم هذه العلاقات لانها هى الدائمة ، أما الحكومـات أما الاتجاهات فهى تزول أو تتحور أو تتغير،ومن مصلحتنا نحن العرب وانتصار العربية والاسلام فى تلك الربوع على ايدى عشرات ومئـات الملايين هو بلا شك انتصار نبع من معنى ، وبالنسبة لاخـواننـا الجزائريين أريد أن أروى لكم رواية لانكم أنتم مثل الذين يقولون فى الشرق أو غير ذلك «اذا اردت أن تتعلم الفرنسية روح الى الجزائر» نعم نحن نعرف الفرنسية بحكم ظروف كثيرة ، نعرف الفرنسيـة تخاصمنا بها وجادلنا بها ودافعنا بها عن انفسنا ، ومن عرف لغة قوم أمن شرهم ، وأنا كذلك طبعا من انصار اللغة العربية ومن المنتصرين اليها بدون تحفظ ، هذا الحديث معروف جدا ، وكالاخ الوزير طبعا والحمد لله ان الرئيس الذى أعطى للغة العربية ووفى لها حقها ولانها

مطلب شعبى ومن أعز أمانى أمتنا وشعبنا ، فبالرغم من هذا كما قلت لكم باننى أنتصر اليها فانا كذلك من دعاة معرفة اللغات الاخـــرى لا الفرنسية وحدها بل الانجليزية وغير ذلك ، وتعلمون أن الفرنسى مثل الجزائرى الذى لا يعرف سوى الفرنسية ، أو التونسى أو المغربى المتوسط وجاء الى لبنان ومر على سوريا ووصل الى العراق ، فبحكـم معرفته للفرنسية وحدها يصير أميا أوتوماتيكيا أميا بأتم معنى الكلمة فالفرنسيون أنفسهم مضطرون الى أن يتعلموا اللغة الانجليـزية أو لغات أهل تلك البلاد حتى يتمكنوا من التفاهم أو من الدفاع عـــن مصالحهم ، أو من بث دعاياتهم وغير ذلك ، وليس أدل على هذا قبل سنتين كان (طبعا فرنسا بالنسبة لنا دولة أوروبية ولها من الامكانيات مالم يتسن لأى بلد عربى آخر) فالى جانب سفارتها هنا كانت عندها مركز ثقافى فرنسى ، كان عندها مركز ثقافى ، فهم يدعون النـاس ويعطون المنح ويعرضون أفلاما ومغريات كثيرة ،ولكن ليس هنـاك الا بضعة سيدات متحذلقات من الطبقة الراقية تريد أن تتفاصح بشىء من اللغة الفرنسية لانها سمعت أشياء كثيرة عنها ما عدا هذا لا تسمع للغة الفرنسية ولمن يتحدث لك بها لا نسمع لها ذكرا على الاطلاق ، أما العربية فانك تستطيع أن نجد مترجما اذا أردت أن تعمل اعلانا فينرجم لك من العربية الى الاندونيسية أو الهلندية أو الالمانيـة أو اليابانية ، أما الفرنسية يجب أن تبحث عليه بالمجهر حتى يأتيـك وتحصل عليه وفى بعض الاحيان ينسا.لون : الجزائر دولة عربيـة تنتمى الىالامة العربية ولغتها الرسمية الوطنية اللغة العربية فلماذا يبحثون عمن ينقل لهم من الاندونيسية والانجليزية أو الفرنسية وغير ذلك ولكن هذه الدهشة نزول عند ما نشرح ونفسر لانهم ليسوا على اطلاع بما أصابنا فى مدة من الظلام والتسلط الاجنبى طولها كمـــا تعلمون مائة واثنان وثلاثون عامـا ٠

قلت لكم بانه على الرغم من ان العلاقات طيبة فى العهد القـديم وفى العهد الجديد ، فاللغة الفرنسية ما كان لها وزن ولا قيمـة ولا يحتاجها الناس ، واذن يستغربون كيف يضيع الناس أوقـــاتهـــم فى تعلم اللغة الفرنسية ، فمنذ سنة تقريبا عينوا مستشرقا هـــو معروف ، والحمد لله ، فالمستشرق هذا من المستشرقين الفرنسيين ومن الاساتذة الذين لهم دراية غير قليلة باللغة العربية ، بل كـــان

اساذا للغة العربية،وهو من تلاميذ «ماسينيون» وكان هنا فى الجزائر ومن المنتصرين للقضايا العربية واثبتت أفعاله ومواقفه انه يكن مودة للغة العربية ، وعلى ذكر يكنون المودة للعربية ، يخطر الى ذهنى بيت من الشعر :

ولا يقتل اللـه من دامت مودتـــه
والله يقتـل أهل الغـدر أحيـــانا

بالفعل من الامكان استعمال اللغة العربية لغة عمل مثلما تستعمل الفرنسية والانجليزية وغير ذلك . فأنا لا أعرف شخصيا أعضاء هذه اللجنة التى كلفت وأنيط بها العمل للنظر فى هذه الامور ، ولكن يخيل الى بعد نشر تقريرها بأنها فعلا أرادت أن تلغى باللغة العربية مـــن النافذة بعد أن دخلت من الباب الواسع الى اليونيسكو ، والعربيـــة وأبناء اللغة العربية عليهم أن يدافعوا وان يحوصوا معارك للدفاع عنها ولحمل الغير على احترامها ، اننا لا نريد من الغير أن يحبنا لان الحياة الدولية والعلاقات بين الدول وبين البشر ليست مسألة غرام أو خصام نحن لا نريد من أحد أن يحبنا ، بل نريد الاحترام كما نحترم الغيـر فجاءت اللجنة وأصدرت تقريرا بأن العربية تشغل عندما نترجم مثلا . . . واستشهدوا على صحة أقوالهم المزعومة بأن سجل الميزانية للعام الماضى لليونيسكو المكتوب بالفرنسية والانجليزية نقلوه الى العربية وقالوا انظروا الى ما هو موجود فى ثلاثمائة صفحة بالفرنسية أو فى مائة وخمسة وسبعين أو ثمانين بالانجليزية لابد من ثمانمائة صفحة بالعربية ـ لا اله الا الله ـ سبحان الذى يقدر أن يجعل الحبة قبة فى لمح البصر ، وهؤلاء طبعا مثل ماليزيا مثل أندنيسيا لهـــا ممثلين فى اليونيسكو وغير ذلك ، فالحمد لله أن العرب ما سكتوا عن هذه الدسيسة على هذا الغدر باللغة العربية ، وأعتقـد أنـه قـامت مشاورات وأعمال بين المجمع العلمى بدمشق والمجمع العلمى فى القاهرة وفى بغداد والادارة الثقافية للغة العربية ، ووضعوا تقريرا هادئا لا دعاية ولا تهريج ولا تسويف ، وهذا من علامات الخير بالنسبة للتفكير العربى ، وأثبتوا فعلا بالدليل القاطع الدليل العلمى والدليل العملى بأن ما قيل فى تقرير الخبراء هو افتيات على اللغة العربية وانه اذا سلمنا بأن استعمال اللغة الانجليزية أكثر ايجازا واختصارا مـن الفرنسية ، فاللغة العربية لا من حيث الايجاز ولا من حيث التركيب

ولا من حيث البنية ولا من حيث شغل المساحة لجمله معينة مقابل الفرنسية وبخير مساحتها دائما أضيق وأقل ، فكلماتها وألفاضها مثل الجواهر لا تنتشر يكفيها أن تحتل حيزا ومنه تظهر وتبرز ، ولا يمكن الا أن نراها كل عين ، فوضعوا تقريرا يأخذون فيه وينبئون عن اللغه العربية على ما أعتقد وقالوا ثلاث قضايا . قضية طبيعة اللغة العربية وقضية الطباعة باللغة العربية ، وقضية الترجمة والمترجمين ، طبعا يقال أن قيمة الشرائع بقيمة القائمين عليها ، وقيمة الترجمة هى مرهونة بقيمة المترجمين ، فأى واحد قادر أن يترجم وأن ينقل ، وكل واحد قادر على أن يستوعب معانيها ويصبها ويصوغها الصياغة اللائقة وأكبر دليل على هذا ما قاله الاستاذ مالك بن نبى يعرف هذا من المستشرق الانجليزى «جيب» من كتابه «الاتجاهات الحديثة فى الاسلام» فالانسان يحار فى التركيب العربى واللغة القرآنية ، وأعتقد أنه لو جاء شكسبير وغير ذلك على أن ينقل اللغة العربية لا سيما لغه القرآن الى اللغة الانجليزية لعجز كل العجز واستشهد بالآية الكريمة « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » فقال هذا التكرار « **انا نحن نزلنا** » بهذا التكرار ، ولم يقل نحن نزلنا الذكر فقط ، فقال بأن هذا التكرار وهذه الاعادة ، من أوجه الاعجاز فى القرآن الكريم « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » وهذا التكرار له من الرنة وله من المعانى وتنبجس منه أفكار وينبجس منه شىء فريد من الخصوبة للخيال ما يعجز الانسان بالفعل وينحنى اعجابا ان لم يكن ايمانا عاما .

لا أعتقد أن من يجيد لغة القرآن ويعرفها وهو متمكن منها يعجز عن ترجمة سجل ميزانية اليونيسكو فى صفحات أقل من الصفحات التى نشر فيها باللغات الاخرى ففندوها ودحضوها بطريقة علمية مركزة واستشهدوا بأشياء كثيرة كالطباعة مثلا وأوردوا كلمات باللغة الفرنسية وما يقابلها من الكلمات العربية ليتبين بأن الكلمات الفرنسية أطول والمساحة التى تشغلها أضيق من الفرنسية ، ونكتفى بهذا ومن ناحية الطباعة وغير ذلك ، وقالوا فى ختامها ، وهذا الختام هو التقرير الذى تبناه الاندنيسيون ، وراحوا يتداورون فيما بينهم من اندونيسيين وغير ذلك يدافعون عن اللغة العربية ويريدون رفع عقيرتهم ضد من يريد أن ينزل بها الاذى والضرر ويغمط حقها ويستمر فى أجحافها وفى وزنها،وأنا ما سمعت عن هذا التقرير ولاسمعت عنه

سنسكريتي وغير ذلك ، وراحوا يدافعون ويستشهدون بفقرات مما جاء في هذا التقرير حتى تعود اليونيسكو عن غيها وتفسح المكان للغة العربية مكانها التي تستحقه عن جدارة ، لا يمكن أن يجادل فيه أحد ومن جملة ما نشروه وما علقوه عليه ، وما كان حديث الناس في بيوتهم وفي المساجد وغير ذلك هي تلك الفقرة التي تقول : «ومن هذا كله نخرج بنتيجة واضحة هي أن اللغة العربية تنحو الى الاختصار في بناء كلماتها والاقتصار في بناء جملها» وإذا كان الامر فان هذه الجملة المركزة التي اكتسبتها اللغة العربية بكلماتها وجملها حتى أصبحت جزءا من طبيعتها تؤدي بالضرورة الى اختصار الزمن الذي يستغرق الاستعمال الشفهي لها حديثا أو خطابة أو ترجمة فوريا تؤدي الى اختصار الحيز الذي يستغرق الاستعمال الكتابي لها باليد أو بالآلة الكاتبة أو المطبعة وغير ذلك وهلم جرا .

وكذلك ركزوا وأنا سمعت بأنهم أثاروا هذه القضية مع لجنتهم الوطنية في اليونيسكو حتى يبعثوا بتعليمات لمن يمثل أندونيسيا في اليونيسكو ويدافع عن اللغة العربية وعن هذا التقرير وحتى يكفوا عن الغمز واللمز ، وافتعال الاسباب لابعاد اللغة العربية عن مكانها واستشهدوا بالخصوص بهذه الفقرة الاخيرة من ذلك التقرير .

وأخيرا ولعل تلك الدراسة التي جمعت بين البحث الاكاديمي والدراسة المقارنة والتطبيق العلمي تقدم الدليل الموضوعي على أن اللغة العربية ذات كلمة موجزة المنبة وجملة مختصرة التركيب ، وكتابة قصيرة الحروف وعلى أن لها من الخصائص والصيغ الاشتقاقية وفي استخدام الضمائر وفي استعمال أساليب التعبير ما يفسح المجال للاختصار على نحو قد لا تنسى لغيرها من اللغات ، ولعلها ان لم تكن لغة اختزال حقيقي فهي على الاقل لغة ايجاز فعلي وعلى أنها ان لم تفق غيرها من اللغات في الوفاء بالتعبير الموجز السريع فلا أقل من ان تساويها وتقف معها على قدم المساواة وعلى أنها نتيجة لذلك كله أصلح ما تكون لغة الترجمة بوجه عام والترجمة الفورية بوجه خاص على المستوى الدولي والعالمي ، يشهد بذلك ويدل عليه خبرة المؤتمرات الكثيرة التي عقدت في أفريقيا وآسيا واستخدمت فيها اللغة العربية لغة عمل فكانت لا تستغرق وقتا أطول من الوقت الذي

تستغرقه الترجمة الى اللغة الانجليزية أو اللغة الفرنسية ، فهذا كله طبيعي جدا بالنسبة الى لغة لا تزال الحياة تتناولها منذ مـآت السنين بالاستعمال للتعبير عن مطالبها العادية اليومية حديثا وحوارا وخطابا وعن أغراضها العلمية زراعة وتجارة وصناعة وسياسة، وحكما ، وحربا وسلاما • وعن حاجاتها العلمية بحثا وعلما ونفلسفا وعن أنشطتها الوجدانيـة دينا وتصوفا ، وهكذا ركزوا على هذه الكلمة التـى لفتت الانظار فعلا وكانت دليلا على حبهم وعلى تشبثهم وتمسكهم بلغة القرآن وباحياء سلطانها في العالم ، وهكذا نستطيع أن نرفع الصوت ونطالب عن ثقة واطمئنان عن ضرورة استعمال اللغة العربية لغة عمل لا في منظمة اليونيسكو وحدها بل في سائر المنظمات الدولية مؤكدين عن يقين وبرهان أنها من أصلح ان لم تكن أصلح اللغات لاداء هذه المهمة ، هذا ما ركز عليه والحمد لله ولحسن الحظ ان كانت هذه الوريقة معى استصحبتها لانه من الصعب على لان ذاكرتى بـــدأت تخوننى كثيرا . لان أؤكد على مدى حب اللغة العربية والدفاع عنها وأقول كيف هؤلاء الناس، لان لغتهم وهى لغة الجامعة ، ولغة الادارة ولغة العلم ، ولغة الجيش وغير ذلك فهى لغة أجنبية أو لغة دين عندما يريد الانسان أن يتعبد أو يعتقد بأن دعاءه يصل بطريقـة أسلـم أو أسرع الى الله سبحانه وتعالى ، عليه أن يدعو ويتكلم باللغة العربيـة لكن ايمانا منهم بأن أكثر من هذا فهى لغة حضارة ولغة ثقافة ، ولغة وجودها وظهورها ، واحتلالها المكان اللائق بها هو افصاح وتعبير عن مفهوم للوجود وعن مفهوم للحياة والعلاقات البشرية والاجتماعية فقد أطلت عليكم كثيرا في الحديث وطبعا هذا الفضل في نشر اللغة العربية ، وفي جعلها محبوبة عند شعوب تربطنا واياها وشائج العقيدة والثقافة والحضارة والتاريخ ، فهذه الامور كلها طبعا وهذه الاشياء التى نرى ثمارها وقد زرعها المصلحون من أجدادنا ومن سلفنا ، فبدأنا نحصد نحن ، وفى اعتقادى أن علينا وعلى قادتنا المصلحيـن وعلمائنا العاملين الذين سيكون لهم اليد الطولى ولا شك فى القيـام بهذا العمل الشريف أن يزرعوا لمن يأتى بعدهم جزاء وفاقا •

وختاما أقول بايجاز أن شعورى والحالة هذه أن أعرب عن رجائى ولا شك رجاء الجميع والجزائريين ألا يكون اهتمامنا بالتعريف بالفكر الاسلامى فى هذا الظرف الحرج من تاريخ أمتنا أقل من اهتمامنـا

بالنظر الجدى فى الوجه الآخر من هذه الحضارة والثقافة وهى اللغة العربية وما يكون نظرا حائرا فى متاهات المناظرات بل يكون استفسارا تتبعه عزيمة تنبجس عنها أعمال من شأنها استكمال انبعاث المجتمع الاسلامى الذى لا ينشده الشعب الجزائرى وحده بل تنشده جميع المجتمعات الاسلامية التى يقدر أهلها بما لا يقل عن 600 مليون نسمة فى العالم اقتناعا من هذه المجتمعات ، اقتناعا لا يرقى اليه الشك بأن قيام هذا المجتمع ولو على المدى البعيد ضرورة انسانية وحتمية تاريخية وخصوصا تلبية لنداء السواد الاعظم من البشرية فى ساعة العسرة هذه وشكرا ، ٠

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ٠

قصـــة

الكنـــز ، الكنـــز

محمـــد نسيب
نائب مـــدير
المركز الثقافي بالجزائر

كان علال رجلا ثريا يحب المال حبا شديدا .

لقد طغى عليه هذا الحب وهيمن على قلبه وسيطر على حياته واستولى على تفكيره وشعوره واحاسيسه وامتزج بدمائه ، حتى صار المال هدفه وأمله المنشود في هذا الوجود . لا يفكر الا في تكوين الثروه وتكديس الاوراق النقديه عن طريق الربا والحرام . ويستغل عرق العمال الكادحين ويشيد بنيانه على ضحايا البؤس والحرمان .

لقد كان علال مضرب الامثال في البخل والتقتير . ويشار اليه بالبنان وهو لا يسمع الا لرنين الدينار ، ولا ينقاد الا للطمع شره لا يعرف القناعه وله مقهى يشرف عليه هو نفسه فاذا دخلته لاحظت تسبح العنكبوت في كل زواياه والكراسي مرفعه بالمسامير و مربوطة بالخيوط والاسلاك وهو قابع خلف الدرج يحسب ويعد في اصابعه تنور من حين لآخر . ويتفعل لاتفه الاسباب . ويسمع صياحه من الشارع ، تارة مع عماله وتارة مع الزبائن .

انه خشن الطبع غليظ الجسم قاسى القلب شرس الاخلاق موسوس القلب كثير الشكوك والظنون يسىء فى زوجته وفى أولاده لا يثق بأى انسان مهما كان صادقا واخلاصه ويعد فى نظر علال لصا خائنا .

ليس له صديـــق ولا قريب .

ان زميله وقريبه ورفيقه يجمعون كلهم فى شخص واحد فى نظر علال هو المال نراه طول النهار قابعا حول درج الدراهم لا يكاد يفارقه كأنه مغروس على الكرسى مشدود الى ذلك الدرج الذى كان يلتهمه بنظراته الجائعة .

أما عمال المقهى فلا يدفع لهم أجرهم الا بعد الالحاح والمعارك أحيانا . فالدراهم دخلت خزانته فلا تعود ترى النور ولا تخرج للحياة مرة أخرى فيحكم عليها بالسجن طول العمر ، اذا سألته عن حالته أجابك حالا فى حزن وانكسار .

أنا أشقى الناس فوق الارض وافقر العباد فى هذا الوجود ، وهو يشكو دائما الفقر والعوز حتى لا يطمع فيه أحد .

غلبه الجشع واستبد به الطمع فلا يعرف الشبع ولا القناعة لا يملأ جوفه الا التراب والحجـــارة .

وكانت عصابة الشالين ترصد علال وتنصب له الكمائن فى كل مرة .

وكان رئيس هذه العصابة من أمهر السالبين فى العاصمة وأخطرهم يحتال كـــل الحيل للاستيلاء على ثروة علال ولكن علال ينفلت من قبضة الشالين فى كل مرة وينجو من خطرهم ويخرج من الورطة ظافرا منتصرا وتفشل العصابة وتخيب آمالها .

وتعجب الشالون من أمر هذا الرجل ، وعندما يئسوا من الوصول الى ثروة علال قال رئيس العصابة لرفقائه .

مستحيل أن نصل الى أهدافنا ونحصل على أدنى شىء من مال علال بهذه الطريقة العقيمـــة .

لقد فشلت جميع الحيل والمحاولات ، فلم يبق لنا سوى تجربة واحدة وصاح رفقاؤه جميعـــا :

ما هى التجربـــه ؟

وقال لهم . بقوا اننا لا نحصل على ثروة علال الا عن طريق السحر والشعوده ٠

قالوا كيف ذلك ؟

قال لهم : يجب علينا أن نتدرب أسابيع على التكلم باللهجه المغربية واستعمال بعض الرموز السحرية ونعرف أسماء العقاقير والبخور ونرسل اللحيه ونرتدى القشاشيب ونتزى بزى المغاربه ونتظاهر بأننا جئنا من فاس أو مراكش ، ثم نذهب الى علال ٠

واتفق النشالون على هذه الخطة وتدربوا على تنفيذها ٠

وها هم النشالون فى مقهى علال وهم فى زى المغاربة يتحدثون باللهجه المغربيه ، وهم يسألون عن علال ثم تقدموا اليه وهو قابع خلف الدرج كعادته وسأله رئيس العصابه وقال له :

أنت هو علال صاحـــب الكنز يا مولاى ؟

وثار علال فى وجهه وقال لـــه

اخـــرج من هنـــا ٠

واجابه النشال : بهدوء وبروده يلتمس منه العذر ٠

عفوا يا مولاى لا تغضب ولا تقلق أهدأ نفسك ولا ترهق أعصابك نحن مبعوثون اليك من مدينة فاس ٠

كم تحملنا من أتعاب ومشاق من أجلك يا مولاى لتستخرج لك الكنز وتغنيك اذا أغناك الله يا مولاى وتصبح فى أقرب وقت من الاثرياء الكبار فوق هذه الارض بعد ما كنت من أفقر الناس لن تعود بعد ذلك علال صاحب المقهى بل تصبح علال صاحب الكنـز صاحب الذهب الوهاج والجواهر الثمينة ٠

واندهش علال من هذا الخبر العجيب وقال له .

اقترب منى واخفض صوتك حتى لا يسمك أحد

وتقدم اليه النشال وقال له :

ادن أنت علال ؟ وقال له :

نعـــم .

تسكن فى حى الابيار .

نعـــم .

شارع الفـــلان .

نعـــم .

رقـم كـــذا ...

نعـــم .

فيلا كـــذا ...

نعـــم .

فيها حديقه و ...

نعـــم .

فيها فوارة وبقربها كرمة كبيره لها جذع غليظ .!!

وقال عـــلال :

من أخبرك بهذا يا سيدى ، وانبسم النشال ابتسامة النصر والفرح وأخرج الكتاب من المحفظة وقال له :

هذا يا مولاى الذى أخبرنى عنك ودلنى على الكنز .

ثم خرج اليهم علال وصافحهم ورحب بهم ، فقادهم الى احدى زوايا المقهى وتداوروا هناك على المنضدة لمواصلوا حديثهم فى سر وكتمان حتى لا يسمع لهم أحد واحضر لهم ابريقا من الشاى ، واستأنفوا الحديث وكلما أفرغوا الكؤوس ملأها من جديد ،

وعلال يتابع حديث السالين المشوق بعنايه واهتمام وكلما سمع كلمه الكنز سال اللعاب من فمه حتى صار عجينه مريه فى أيديهم يصنعون بها ما يشاؤون ٠

ثم فتح رئيس العصابه كتابا وقال لعلال ٠

لقد وجدنا اسمك فى التاريخ مقرونا بهذا الكنز العظيم المملوء بالذهب الوهاج والجواهر الثمينه لو علمت يا مولاى ما لقيناه من أجلك من تعب وعناء وما انفقناه من مال وما ضحيناه من وقت وما قطعناه من مسافات وما سهرنا من ليال وما لقيناه من شدائد وأهوال بحثا عنك فى كل مكان ٠

وقلب علال تكاد نبضاته تسمع من بعيد من شده الفرح ، وتفتحت فى قلبه شهيه المال ٠

لم يعد يتحكم فى نفسه وصار كل شىء فيه يرقص ويتحرك لان الفرحه هزته هزا ، حتى كاد كأس الشاى يسقط من يده ، وقال له رئيس العصابة .

والآن يا مولاى يجب أن يبدأ العمل ٠

وقال له علال هيا بنا الى المنزل ، وامتطوا سياره الاجرة ولاول مره يركب علال سياره الاجره ويدفع ثمن الركوب . وعندما وصلوا الى المنزل تناولوا الغداء ثم استراحوا حتى جاء الليل وخرجوا الى الحديقة يبحرون ويحرقون العقاقير ، وهم يتخاطبون بلغه غريبة ليست عربية ، ولا عبريه ولا صينيه بل ليست لغة البشر . واستمرت العمليه حتى الصباح ٠ ونفدت لهم العقاقير وقالوا لعلال :

ان القضيه صعبة تتطلب العقاقير كثيرة لان الكنز استولى عليه رئيس العفاريت لا نزحزحه ولا نبعده عن الكنز الا بكثرة البخور واحراق العقاقير وهذا يتطلب مالا كثيرا ٠

وقال لهم علال : فالمال لا يمنعكم عن مواصلة العمل خذوا ما تشاؤون ٠٠٠ المهم أن نحصل على الكنز مهما كانت التكاليف ٠

وقالوا له نعم يا مولاى ان الكنز كنزك ونحن فى خدمتك لا نغادر هذا المكان الا اذا استخرجناه لك ٠

ثم قدم لهم مبلغا كبيرا من المال لشراء العقاقير ونزلوا الى المدينة . وفي المساء عادو الى دار علال لمواصلوا عملهم كالعاده ·

وهكذا استعرضوا أسبوعا كاملا في المعازن والمحور وحرق العقاقير وعلال في كل يوم يدفع لهم مبلغ ضخما من المال لشراء العقاقير ، وقد نسي تجارته وأهمل مقهاه ولا يفكر الا في الكنز ·

أما النشالون فعندما حصلوا على حرز كبير من ثروه علال ، قالوا له .

الآن كدنا ان نصل الى الكنز ولكن ينقصنا يا مولاي بعض العقاقير ، اذا حصلنا عليها انتهى المشكل ووصلنا الى الكنز وطردنا العفريت عنه طردا نهائيا · -

وقال لهم علال ماذا يمنعكم من الحصول على العقاقير .

فقالوا له يتطلب مالا كبيرا يقدر بالملايين لان هذه العقاقيرغير موجودة في الجزائر بل يحضرها من المغرب بعضها من مدينه فاس وأخرى من مدينه مكناس ·

وصـــاح عـــلال

المال موجود المهم أن تجدوا العقاقير وتحضروها حالا اذا كان الكنز ذهبا وجواهـر لا حاجه لي بهذه الاوراق ·

وصاح النشالون جميعا أفي ذلك شك يا مولاي ؟

وفتح علال خزانته وأعطى لهم ما طلبوه ثم زودهم بزاد وودعهم على أمل اللقاء القريب ·

وغادر النشالون دار علال بعد انتهاء المهمه وحصلوا على ثروته التي قضى أيـــام شبابه في جمعها وبقي علال ينتظر عودتهم في شوق وقلق ، وهو بعد الساعـــات والايـــام ·

مضى أسبوع على سفر المغاربة فلم يعودوا ولم يأت نبأهم واخذ القلق يساور علال ولكنه لم ييأس وانسلخت الاسابيع تلو بعضها بعضا وعلال لا يزداد الا قلقا وحيرة واضطـــرابا ···

وطال الانتظـــار ·

وخرج الى المدينه وراح يجول فى شوارعها ويدور فى أحيائها يفحص الوجوه فحصا ، ويسأل عن المغاربة ، وكلما لمح رجلا لبس الفشابة او مسترسل اللحية هرع اليه يسأله ·

أنت (مروكى ؟)

من أين قدمـــت ؟

من فاس ؟ من مكناس ؟

وهكذا حتى يئس من العثور عليهم ، وعاد الى منزله بعد أن فقد ثروته وراح يحفر الارض باحثا عن الكنز المدفون فى الحديقه وكلما اصتدم الفاس بالحجاره اتقدت النار ، وطارت الشرارات وقلب علال يخفق طمعا وفرحا ورمى الفاس على الارض وأسرع يبحث التراب بكفيه بدافع ظنا انه وصل الى الكنز وعثر على الجواهر ·

وقضى أياما وأسابيع وهو يحفر ويبحث وكلما سألته زوجته ·

ما تصنع يا علال ؟ أجابها .

الكنـــــز ·

الكنز ، ولكن زوجته لم تفهم منه شيئا سوى انه يخرب الحديقة ·

فعلا لقد خربها وصارت كلها حفائر كأنها جبهه المعركه ولبست حديقه المنـــزل عمل مستمر لا تبسم الخير ولا تفقه الظلام تعمل والعرق يتصبب من جبينه لا يشتكى جوعا ولا عطشا ولا عناء ، ولا تسمع من علال الا كلمة (الكنز) (الكنز) ·

وهكذا حتى فقد عقله وذهب وعيه ثم خرج الى الشارع يجرى خلف السراب ويطارد الاشباح وهو يصيح :

(الكنـز الكنز) ·

الأصالة

مجلة ثقافية شهرية

السنة الثامنة
ربيع الثانى
1399 هـ
مارس
1979 م
العدد 67

فى هذا العدد

- أسلوب جديد فى الصراع الثقافى .
- تقييدات ابن عيسى عن حصارى قسنطينة .
- فى ضرورة المعجم الفلسفى والاجتماعى باللغة العربية .
- خواطر حول موضوع الحرية .
- الامامة والزعامة الدينية .
- فلسطين أرض العروبة والاسلام .

ایران نامه

مجلهٔ تحقیقات ایران شناسی

و انتشارات بنیاد مطالعات ایران

دبیران دورهٔ دوازدهم:

شاهرخ مسکوب،

احمد کریمی حکّاک،

علی بنوعریزی و جهانگیر آمورگار

دبیر نقد و بررسی کتاب:

احمد کریمی حکاک

مدیر:

هرمز حکمت

گروه مشاوران

گیتی ادریس، دانشگاه کالیفرنیا ـ برکلی

پیتر چلکوسکی، دانشگاه نیویورک

راحر سیوری، دانشگاه تورنتو

ریچارد فرای، دانشگاه هاروارد

محمدجعفر محجوب

سیدحسین نصر، دانشگاه جورج واشینگتن

بنیاد مطالعات ایران که در سال ۱۳۶۰ (۱۹۸۱ م) بر طبق قوانین ایالت نیویورک تشکیل شده و به ثبت رسیده، مؤسسه‌ای است غیرانتفاعی و غیرسیاسی برای پژوهش دربارهٔ میراث فرهنگی و شناساندن جلوه‌های عالی هنر، ادب، تاریخ و تمدن ایران

این بنیاد مشمول قوانین «معافیت مالیاتی» ایالات متحدهٔ آمریکاست

مقالات معرف آراء نویسندگان آنهاست

نقل مطالب «ایران نامه» با ذکر مأخذ مجاز است. برای تحدید چاپ تمام یا بخشی از هریک از مقالات موافقت کتبی مجله لازم است

نامه‌ها به‌عنوان سردبیر مجله به نشانی زیر فرستاده شود

Editor, Iran Nameh

4343 Montgomery Ave., Suite 200

Bethesda, MD 20814, U.S.A.

تلفن ۱۹۹۰-۶۵۷(۳۰۱)

بهای اشتراک

در ایالات متحدهٔ امریکا، با احتساب هزینهٔ پست

سالانه (چهار شماره) ۳۵ دلار، برای دانشجویان ۲۰ دلار، برای مؤسسات ۶۵ دلار

برای سایر کشورها هزینهٔ پست به‌شرح زیر افزوده می شود

با پست عادی ۶/۸۰ دلار

با پست هوایی کانادا ۱۲ دلار، اروپا ۲۲ دلار، آسیا و آفریقا ۲۹/۵ دلار

فهرست

سال دوازدهم، شمارهٔ ۱، زمستان ۱۳۷۲

با همکاری احمد کریمی حکاک

مقاله ها:

نقد ادبی در ایران معاصر: فرضیه ها، فضاها، و فرآورده ها	احمد کریمی حکاک	۳
نکته ای چند دربارهٔ وضع کنونی تاریخ ادبی در ایران	جروم کلینتون	۳۵
از نگار تا نگارنده، از مکتوب تا کاتب	فرزانه میلانی	۵۱
دشواری های نگارش تاریخ زنان در ایران	حامد شهیدیان	۸۱
تأملی در نقد روانشناختی و رابطهٔ روانکاوی و ادبیات در ایران	حورا یاوری	۱۲۹
نقدهای دو زبانه: مسئلهٔ بازگردان واژگان	مایکل بیرد	۱۵۹
داستان بی پایان	آذر نفیسی	۱۶۹

گزیده ها:

«قرتیقا»	فتحعلی آخوند زاده	۱۸۹
انتقاد ادبی	عباس اقبال آشتیانی	۱۹۰
وظایف انتقاد معاصر ایران	فاطمه سیاح	۱۹۴
تعریف نقد ادبی	عبدالحسین زرین کوب	۱۹۶

نقد و بررسی کتاب:

تاریخ نگاری ایستا	حمید نفیسی	۱۹۹
بازنگری در قلمرو جنسیت	نیره توحیدی	۲۰۵
ما و نظریه پردازان ادبی غرب	احمد کریمی حکاک	۲۱۸

بنیاد مطالعات ایران در سالی که گذشت ۲۲۶

کتاب ها و نشریات رسیده ۲۲۹

خلاصهٔ مقاله ها به زبان انگلیسی

اثری که باید در خانه هر ایرانی فرهنگ دوستی موجود باشد

ENCYCLOPAEDIA IRANICA

دانشنامه ایرانیکا

جلد ششم

Volume VI

دفاتر ۱، ۲، ۳ و ٤

Fascicle 1 (Coffee House -- Communism IV)
Fascicle 2 (Communism IV -- Contracts II)
Fascicle 3 (Contracts III -- Cotton II)
Fascicle 4 (Cotton II -- Čūb-Bāzī)

منتشر شد

Mazda Publishers
P. O. Box 2603
Costa Mesa, CA 92626
U. S.A.
Tel: (714) 751-5252

فهرست

سال دوازدهم، شمارهٔ ۲، بهار ۱۳۷۳

مقاله‌ها :

نقد ادب ایدئولوژیک	**علی قیصری**	۲۳۳
میرزا حسین خان دیوانسالار و عشق زیبای شهرآشوب	**شاهرخ مسکوب**	۲۵۹
دو متن، دو انسان، دو جهان	**حورا یاوری**	۲۹۷
تجدّد و تجدّدطلبی در موسیقی ایرانی	**خسرو جعفر زاده**	۳۱۹

گذری و نظری

مصاحبهٔ رامین جهانبگلو با داریوش شایگان	**داریوش شایگان**	۳۴۳

نقد و بررسی کتاب:

دانشنامهٔ ایران	**حبیب برجیان**	۳۶۹
نگاهی دیگر بر انقلاب ایران	**پرواند آبراهامیان**	۳۸۱
ایدئولوژی و انقلاب اسلامی	**سعید امیرارجمند**	۳۸۵
فضا، زمان، مذهب	**علی کیافر**	۳۸۹
داستان غربت	**کامبیز محمودی**	۴۰۳

نامه ها ۴۰۹

کتاب ها و نشریات رسیده ۴۱۳

ترجمهٔ خلاصهٔ مقاله ها به انگلیسی

اثری که باید در خانه هر ایرانی فرهنگ دوستی موجود باشد

ENCYCLOPAEDIA IRANICA

دانشنامه ایرانیکا

جلد هفتم

Volume VII

Fascicle 1: DĀRĀ(B)I- *Dastūr al-Afāżel*

منتشر شد

Mazda Publishers
P. O. Box 2603
Costa Mesa, CA 92626
U. S.A.
Tel: (714) 751-5252

فهرست

سال دوازدهم، شمارهٔ ۳، تابستان ۱۳۷۳

با همکاری

علی بنوعزیزی

مقاله ها:

پیشگفتار	**علی بنوعزیزی**	۴۱۷
هویّت ایرانی	**احسان یار شاطر**	۴۲۳
هویّت ایرانی در دوران باستان	**ریچارد ن. فرای**	۴۳۱
ایرانیان: یکّه سواران دوگانگی	**نادر نادرپور**	۴۳۹
هویّت ایرانیان از سامانیان تا قاجاریه	**ویلیام هنوی**	۴۷۳
ملی گرائی، تمرکز و فرهنگ در غروب قاجاریه و طلوع پهلوی	**شاهرخ مسکوب**	۴۷۹
هویّت ایرانی: وهم یا واقعیّت؟	**جلیل دوستخواه**	۵۰۹
بحران هویّت ملّی و قومی در ایران	**احمد اشرف**	۵۲۱

گزیده:

«ایدهٔ ایرانی»	**جراردو نولی**	۵۵۱

نقد و بررسی کتاب:

خاطره های پراکنده (گلی ترقی)	**نسرین رحیمیه**	۵۶۱
«تلویزیون و فرهنگ ایرانی در لوس آنجلس» (حمید نفیسی)	**مجید تهرانیان**	۵۶۴
«حماسه و نافرمانی» (دیک دیویس)	**امین بنانی**	۵۶۸

کتاب ها و نشریات رسیده ۵۷۵

ترجمهٔ خلاصهٔ مقاله ها به انگلیسی

اثری که باید در خانه هر ایرانی فرهنگ دوستی موجود باشد

ENCYCLOPAEDIA IRANICA

دانشنامه ایرانیکا

جلد هفتم

Volume VII

Fascicle 1: DĀRĀ(B)I- *Dastūr al-Afāżel*

منتشر شد

Mazda Publishers
P. O. Box 2603
Costa Mesa, CA 92626
U. S.A.
Tel: (714) 751-5252

فهرست

سال دوازدهم، شمارهٔ ۴، پاییز ۱۳۷۳

با همکاری

علی بنوعزیزی

مقاله ها:

تاریخ پردازی و ایران آرایی — **محمد توکلی طرقی** ۵۸۳

هویت ملّی تاجیکان — **موریل اتکین** ۶۲۹

چگونه می توان بیرون از وطن ایرانی بود؟ — **نسرین رحیمیه** ۶۴۱

حفّاری های زاغه، هفت تپّه، مارلیک — **عزت الله نگهبان** ۶۴۹

مباحثه (نقد ادبی):

گفتار در بارهٔ بعضی مستفرنگان و فرنگان — **محمد جعفر محجوب** ۶۷۳

آموزگاران ما: آموخته ها و نیاموخته های ما — **احمد کریمی حکّاک** ۷۱۵

گزیده:

«شارستان چمن» — **بهرام ابن فرهاد** ۷۳۵

نقد و بررسی کتاب:

«تحولات اجتماعی در افغانستان، ایران، و پاکستان» — **سیّد ولی رضا نصر** ۷۴۱

(به ویرایش **علی بنوعزیزی ، مایرون وینر**)

«سرگذشت سینمای ایران» (**شاهرخ گلستان**) — **پرویز دوائی** ۷۴۹

یاد رفتگان:

علی اکبر سعیدی سیرجانی ۷۵۳

مهرداد بهار ۷۵۵

کتاب ها و نشریات رسیده ۷۵۶

فهرست سال دوازدهم ۷۵۸

ترجمهٔ خلاصهٔ مقاله ها به انگلیسی

اثری که باید در خانه هر ایرانی فرهنگ دوستی موجود باشد

ENCYCLOPAEDIA IRANICA

دانشنامه ایرانیکا

جلد هفتم

Volume VII

Fascicle 1: DĀRĀ(B)I- *Dastūr al-Afāżel*

منتشر شد

Mazda Publishers
P. O. Box 2603
Costa Mesa, CA 92626
U. S.A.
Tel: (714) 751-5252

ایران نامه

مجلهٔ تحقیقات ایران شناسی

سال دوازدهم، شمارهٔ ۱ زمستان ۱۳۷۲ (۱۹۹۴)

احمد کریمی حکّاک*

نقد ادبی در ایران معاصر:
فرضیه‌ها، فضاها، و فرآورده‌ها

مطالب این شمارهٔ **ایران نامه** به "نقد ادبی در ایران" اختصاص دارد، به موضوعی که از دیرباز فکر بسیاری از پژوهشگران زبان و ادبیّات فارسی و فرهنگ و تمدّن ایرانی را به خود مشغول داشته است. دو پرسش ویژه‌ای که در کارگزینش مقاله‌ها و بررسی‌ها و گزیده‌های این شماره برخود گذاشته‌ام این است که اوّلاً وضع کنونی اندیشیدن دربارهٔ ادبیّات و سنجش آثار ادبی در ایران چگونه پدید آمده و درحال حاضر چگونه است، و دوّم این‌که راه اعتلا بخشیدن به کار نقد و نظر ادبی، به مثابهٔ حیطهٔ مشخّص و مهمّی از فعّالیت فکری چیست. این دو پرسش را در سال ۱۹۹۰ به عنوان موضوعی برای مباحثه در میز گردی که در بارهٔ نقد ادبی، به کوشش بنیاد مطالعات ایران، در کنفرانس سالانهٔ مجمع مطالعات خاورمیانهٔ آمریکا تشکیل شده بود پیشنهاد کردم استقبالی که از این بحث به عمل آمد موجب شد تا موضوع در اجلاس ۱۹۹۲ مجمع نیز پی گرفته شود. این شماره شامل گزینشی است از مقالات ارائه شده در این دو میزگرد که با نوشته‌های دیگری ترکیب و تکمیل شده است.

---

* دانشیار زبان و ادبیات فارسی و فرهنگ و تمدن ایران در دانشگاه واشنگتن، در شهر سیاتل.

طبیعی است مقوله ای مانند"نقد ادبی درایران" به مراتب وسیع تر از آن است که همهٔ گوشه های آن در یک شمارهٔ ایران نامه بگنجد. آنچه در این شماره می خوانید در واقع نمونه هائی است از تلاشی مستمر در راه باز اندیشی دراین مقوله، و شاید در برگیرندهٔ نظریاتی مشخّص درخصوص راه های تعالی این شاخه از فعالیت ادبی درآینده. هدف این مقالهٔ آغازین نیز آن است که عقاید و نظریاتی را که از پی خواهد آمد بر بستری از سیر تاریخی اندیشهٔ انتقادی دربارهٔ ادبیّات و نقش اجتماعی آن در صدسالهٔ اخیر قرار دهد. امید این است که با این کار زمینهٔ لازم برای درک آراء و نظریات ارائه شده دراین جا در متن تحوّلات اجتماعی، آموزشی و ادبی جامعهٔ ایران در عصر حاضر فراهم آید. در این مقاله ابتدا فرایند شکل گیری و رشد هسته های نخستین درک جدیدی از مفهوم ادبیّات و نقش و ارزش اجتماعی آثار ادبی را از نظر خواهیم گذراند. آن‌گاه بحثی دربارهٔ فضاهای اجتماعی عمدهٔ هر دوران ارائه خواهد گردید؛ فضاهایی که درآن ها فکر نقّادی و ارزش گذاری بر ادبیّات پرورده شده است. در پایان نیز نمونه وار به وضع کنونی نقد ادبی و موانع موجود در راه اعتلای آن اشاره خواهد رفت، و مرتبهٔ مقالات مندرج در این شماره از این دیدگاه تعیین خواهد گردید. در سر تاسر مقاله نیز بر ضرورت اعتنای بیشتر به حیطه های خاصی از نقد ادبی اشاره خواهد شد، و پرسش هایی طرح خواهد گردید که پرداختن به آن ها شاید به اعتلای کار نقد یاری رساند. هدف از این همه آن است که باب جدیدی دربحث درموضوع "نقد ادبی در ایران" گشوده شود، تا شاید این رشته از فعّالیت فکری در ایران نیز رواج و روالی دیگر یابد، و بر گستردگی و ژرفای آن ، و در نهایت بر اهمیّت اجتماعی آن، افزوده گردد.

شاید بهتر باشد بررسی فرایند تفکّر جدید دربارهٔ ادبیّات در ایران را با ذکر نکته ای بدیهی آغاز کنیم، و آن این که آشنائی ایرانیان با اروپا در سرنوشت زبان و ادب فارسی نیز اثراتی داشت. از رواج تدریجی صنعت چاپ گرفته تا تأسیس دارالفنون، از ابتدای کار ترجمهٔ آثار اروپائی گرفته تا پیدایش و رشد گونه‌های نوظهوری از آثار ادبی، و از آغاز کار اندیشیدن به شیوهٔ ادارهٔ امور در جامعهٔ ایران گرفته تا شیوع شیوه های جدید تأمّل در حرکت تاریخ و معنای آن برای معاصران، سیر تفکّر در ایران در مسیری افتاد که با روال سابق متفاوت بود. حرکت تفکّر در این مسیر جدید موجب جابجائی بسیاری از پدیده‌ها و ایده‌های رایج و جاری در جامعهٔ ایران گردید. مفهوم ادبیّات و ارزش میراث ادبی زبان فارسی نیز دراین حرکت جای دیگری را در ذهن ایرانیان اشغال

کرد. در گزیده هایی که در بخش پایانی این ویژه نامه آمده خواهید دید که کار باز اندیشی در ادبیّات و میراث ادبی را عمدتاً نه شاعران و ادیبان که مصلحان اجتماعی و سیاسی آغاز کردند، و اینان کسانی بودند که به ادبیات نیز همچون پدیده ای اجتماعی می‌نگریستند، و برای آن نقشی سازنده در سیر تحوّل جامعه قائل بودند.[۱] افرادی همچون فتحعلی آخوند زاده، میرزا آقاخان کرمانی، ملکم خان، زین العابدین مراغه ای و عبدالرحیم طالبوف، آن گاه که درسنّت هزار سالهٔ شعر فارسی می‌نگریستند نگاهی جز آن داشتند که، مثلاً سعدی بر افکار فردوسی، یا حافظ به سخن سعدی، یا صائب به شعر حافظ. اینان از شیوهٔ سخن گفتن اروپائیان در بارهٔ شعر اروپا آموخته بودند که شعر می‌تواند جامعه را اصلاح کند، یا دست کم حاوی نظر شاعر دربارهٔ جامعهٔ خویش باشد. و هم اینان، آنگاه که در شعر سروش یا قاآنی یا دیگر شاعران دوران خویش ـ یا در بعضی موارد وقتی درتمامی سنّت شعر فارسی از آغاز تا آن روز ـ می‌نگریستند آن را آئینهٔ افکار و آمال خویش نمی‌یافتند، و از همین رو دگرگون شدن آن را خواستار می‌شدند. آن گاه که آخوندزاده شعر سروش را بی معنا و بی لذّت می‌خواند، یا آقاخان کرمانی شعر فارسی را "علّت" اصلی رواج فساد در جامعهٔ ایران از عصر سامانیان تا دوران خویش می‌شمارد، یا ملکم خان از زبان "حوان هرره درای" خود درحکایت "سیّاحی می‌گوید" شاعری را با یاوه سرایی یکسان می‌شمارد و شاعران را از شمار کج بینان می خواند می توان نطفه بندی تحوّلی عمیق را در اندیشیدن ایرانیان به ادبیّات فارسی، بلکه آرزوی پدید آمدن ادبیّاتی دیگرگونه را در سخنان ایشان جست. وجه مشترک درک جدید اینان از ادبیّات ساحت "اجتماعی ـ سیاسی" این پدیده است در گسترده ترین مفهوم آن.

این تحوّل در مفهوم ادبیّات، که ظهور آن را در سال های میان تأسیس دارالفنون (۱۸۵۱) و آغاز کار نخستین انجمن معارف (۱۸۹۸) می توان نشان داد، درتمام طول قرن بیستم دوام یافته است. از جدل های سازندهٔ محمدتقی رفعت با محمدتقی بهار درسال های ۱۹-۱۹۱۸[۲] (که بخشی از آن را آذر بیسی درمقالهٔ خود نقل می‌کند) تا ستیزهای نومیدانهٔ احمد کسروی با محمّدعلی فروغی و دیگران در آخرین دههٔ حیات او،[۳] و از طرح پرسش سادهٔ **راهنمای کتاب** در خصوص فایده یا ضرر چاپ و نشر آثار صوفیانه تا منازعات گاه بسیار پیچیدهٔ سی سال اخیر بر سر حافظ، همه و همه بر بستر توافقی ضمنی دربارهٔ ادبیّات انجام گرفته است که، گاه نفیاً و گاه اثباتاً، آثار ادبی را دارای عواقبی اجتماعی می‌داند یا می‌خواهد. همین برداشت بر تفسیر و تعبیر

امروزیان از مشغله‌های فکری پیشینیان نیز تعمیم یافته و تصوّری را از ادب کهن فارسی پدید آورده است که بر اساس آن شاعران گذشته به دلیل ماهیت و نوع مناسبات اجتماعی که از شعر آنان مستفاد می‌شود مورد ارزیابی قرار می‌گیرند. در چشم بسیاری از شاعران و ادیبان امروزی حافظ شاعر آزاده ای است، چرا که امیر مبارزالدّین را "محتسب" می خواند، و رسیدن "دوره شاه شجاع" را خوش می‌دارد.[۴] هفتادو اندی سال پیش، یعنی درسال ۱۹۱۸ نیز، محمّدتقی بهار عنوان "انتقادو سیاست" را برای قصیدهٔ معروف مسعود سعد سلمان، با مطلع «هیچکس راغم ولایت نیست/کار اسلام را رعایت نیست»، برگزید و جملات زیر را در زیر عنوانی که خود برای آن قصیده ساخته بود نگاشت:

> مسعود سعد سلمان دربارهٔ خرابی و وضع حکومت غزنویین، با آن همه استبداد و فرعونیّت سلاطین و صدور، قصیده‌ای ساخته و صدر اعظم وقت را طرف حمله قرار می‌دهد. و می توان گفت این اولین قصیده ای است که در ادبیات ایران راجع به خرابی و فساد مملکت با زبان صریح و ساده با شجاعت ادبی گفته شده است و همین قبیل قصاید که وطن پرستی و بیداری مرز او را ثابت می نماید باعث دستگیری و حبس طولانی وی گردید[۵]

در این گونه فرافکنی های عام است که می توان نیاز به باز آفرینی توازی های تاریخی را میان قاضی عمیدحسن،"صدر اعظم" غزنویان در دوران مسعود سعد با وثوق الدوله، و میان مسعود سعد و محمّدتقی بهار پی‌گرفت، و بر"شجاعت ادبی" و "وطن پرستی و بیدارمغزی" هر دو آفرین گفت. از فراسوی چنین خواست های انسانی، امّا، می توان به شکل‌های مشخّص آرزوی دیرپای امروزیان برای سخن گفتن و ایجاد پیوند با گذشتگان نیز در جامعهٔ ایران در سراسر قرن بیستم دست یافت. همین موضوع یکی از نقاط اتّکای جروم کلینتون است در مقاله ای که در بارهٔ «تاریخ ادبیّات در ایران» نوشته است. او در این مقاله به خوبی نشان می‌دهد که مقال ناسیونالیزم به چه صورتی نگرش استاد ذبیح الله صفا را به سیر تکوین ادبیّات "در ایران" شکل داده، و اثری را پدید آورده که، درعین حال که بسیاری از پرسش های مشروع ما را دربارهٔ سنّت ادبی زبان فارسی بی جواب می‌گذارد، مصرّانه می خواهد ما را به ایمان آوردن به "عظمت" این "ادبیات"، و به تعلّق آن به "ما" (یعنی ایرانیان امروز) وادارد، و عرق ملی ما را برای حراست ار آن میراث گرانبها به حرکت آورد.

و امّا درهمان دوران نطفه بندی تجدّد، یعنی در نیمهٔ دوّم قرن نوزدهم، دو

پدیدهٔ دیگر نیز درجامعهٔ ایران ظهور کرد که هریک به نوبهٔ خود اثر تعیین‌کننده ای بر شیوهٔ اندیشیدن ایرانیان به ادبیّات و نیز بر معیارهای سنجش آثار ادبی گذاشت. این دو پدیده عبارتند از تبدیل زبان به شاخصی از هویّت ملّی و استقرار و استمرار ترجمه (به ویژه ترجمهٔ ادبی) به عنوان راهی برای ایجاد تحول در ادبیات ایران. این دوپدیده، که در تمام طول قرن بیستم با هم ارتباطی تنگاتنگ داشته و بریکدیگر اثر متقابل گذاشته اند، در مجاورت با پدیده های بسیار دیگری نیز اندیشهٔ نقّادی را در ایران شکل داده و هدایت کرده‌اند، و این همه در فضاها و با وسایلی صورت گرفته است که در این جا مختصراً به شرح آن ها خواهیم پرداخت.

در دهه‌هایی که از پی تأسیس دارالفنون در ایران آمد مقام زبان فارسی نیز از وسیلهٔ ثبت وقایع و عقاید و بیان افکار و عواطف درمیان مردمی که از دهلی تا استانبول و از سمرقند تا بغداد را سرزمین بومی خویش می‌شمردند به درآمد و به والاترین نشانهٔ هویّت "ایرانی" (درمفهوم کشور امروزی ایران) بدل گردید، و درهمین راستا هم تحوّل یافت. ایرانیان، آن‌گاه که در زبان فارسی نیز می‌نگریستند، تحوّلات تاریخی آن را به دلخواه خویش نمی یافتند. درنظر ایشان **شاهنامه** دارای زبانی فاخر و درعین حال ساده می‌نمود، حال آن که زبان زمان خودشان را آمیخته با واژگان عربی (یعنی غیرخودی) و به این دلیل آلوده می‌دیدند.[۶] بدین‌سان، سرچشمهٔ روایت سیر نزولی زبان فارسی به روایت انحطاط در ادبیات فارسی می آمیخت، و حکایتی ناخوش فرجام می‌ساخت، که دخالت در آن را هر ایرانی میهن دوستی غایت وظیفهٔ اجتماعی خود می‌شمرد. حسن تقی زاده درسال های ۱۹۱۶ تا ۱۹۲۲ نوشته هایی را در کاوه نشر داد که گرچه عنوان‌های متفاوت داشتند، امّا موضوع اصلی آن ها حول تبدیل "زبان فارسی فصیح" به "فارسی عهد پارلمانی" یا "فارسی خان والده"، یعنی زبانی نارسا و نازیبا و ناگویا دور مـی‌زد.[۷] کمتر از دو دههٔ بعد، با تأسیس فرهنگستان، بازگرداندن زیبائی و رسائی وگویائی مفروض زبان فارسی، از یک‌سو، و تجهیز آن به زبانی بسنده برای جهان امروز ازسوی دیگر، به صورت وظیفه‌ای فرهنگی بر دوش ارکان دولت نهاده‌شد. از آن زمان تا به‌امروز تیمار خواری و چاره اندیشی برای زبان فارسی به مشغلهٔ همیشگی اندیشمندان و به ویژه ادیبان ایرانی بدل شده است.[۸] درهمین راستاست‌که درکار عملی نقد ادبی بسیار دیده می‌شود که اثر مورد نقد نه از دیدگاه کارکردهای درونی آن بلکه با عنایت به مهارت آفرینندهٔ آن در کاربرد زبان نوشتاری فارسی مورد ارزیابی قرارمی‌گیرد.

پدیدهٔ دوّم، یعنی نهضت ترجمه به فارسی (عمدتاً از زبان های اروپائی) که درنیمهٔ دوم قرن نوزدهم در ایران آغاز شد، در خلال صدو چهل سال گذشته به حضور همزمان بخش بزرگی از میراث مکتوب سه هزار سال تفکّر فلسفی، علمی، اخلاقی، سیاسی، اجتماعی، تاریخی و ادبی اروپا و آمریکا در زبان فارسی انجامیده است. این جریان فزاینده در موج های پی در پی خود نظام اندیشیدن ایرانیان را در باره ادبیّات چنان زیر تأثیر خودگرفته که به جرئت می‌توان آن را با فرایند تحوّل درجوامع فارسی زبان در سده های نخستین راهیابی اسلام به آن جوامع قابل مقایسه شمرد. مهم ترین پیامد ترجمهٔ ادبی را باید در دگرگونی گونه های ادبی دوران کلاسیک جست وجو کرد. پیدایش تدریجی سفرنامه ها و خاطرات، داستان کوتاه و رمان، و نیز ظهور شعر نو ـ در گسترده ترین مفهوم آن را می‌توان، مستقیم یا غیر مستقیم، به تأثیر ترجمهٔ ادبی ربط داد. امّا برای یافتن نخستین فضاهای موجود برای عرضهٔ ترجمه های ادبی باید به سراغ قدیمی ترین نشریّات ادبی ایران رفت. البتّه نمونه‌های پراکنده‌ای از ترجمهٔ آثار ادبی را می‌توان در روزنامه‌ها و نشریّات سیاسی یا خبری صدر مشروطه یافت. امّا درسال ۱۹۱۰ و در صفحات مجلّهٔ **بهار** است که نخستین جوانه‌های ارتباط میان ترجمهٔ ادبی و ادبیّات فارسی به چشم می‌خورد، و این پدیده بی تردید مربوط به علاقه و حرفهٔ اصلی مدیر و مؤسّس آن مجلّه، یوسف اعتصام الملک است. او خود مترجم پُرکار و زبردستی بود، و ترجمه های شایان توجّهی از خود به یادگار گذاشت. کار ترجمهٔ ادبی از زبان های اروپایی بعدها کمابیش در کلّیهٔ نشریّات ادبی ایران ادامه یافت. در دههٔ دوّم قرن بیستم مجلّهٔ **دانشکده** کار ترجمهٔ ادبی را پیش برد، و ترجمهٔ آثاری از بودلر، گوته، لامارتین، شیللر، لافونتن، دانته، روسو، و دیگران را نشر داد. ده دوازده سالی پس از **دانشکده** مجلّه **شرق** به مدیریّت سعید نفیسی ترجمه های مسعود فرزاد، عبدالحسین میکده، بزرگ علوی، محمّدعلی گلشائیان، دکتر کاویانی، و نصرالله فلسفی و دیگران را از برخی آثار رابرت براونینگ، رابرت بوکانان، ادگارآلن پو، شیللر، لاروشفوکو، اسکار وایلد و گوته نشر داد. درفاصلهٔ تابستان ۱۳۲۰ تا زمستان ۱۳۲۴ نیز مجلّهٔ **روزگار نو**، که به همّت گروهی از ادیبان ایرانی و مشرق شناسان انگلیسی در لندن منتشر می‌شد، بخش بزرگی از کار خود را به ترجمهٔ آثار ادبی انگلیسیان اختصاص داد در صفحات همین مجلّه بود که ترجمه های نامداری از قبیل "یوزخدا" اثر فرانسیس تامپسون، و قطعهٔ "بودن یا نبودن" از **هاملت** شکسپیر ـزیر عنوان "مردن یا زیستن" به قلم مجتبی مینوی ـ و منظومهٔ " دریانورد فرتوت"

اثر ساموئل تیلر کلریج به قلم مسعود فرزاد برای بار نخست نشر یافت. در همین مجله بود، نیز، که سروده های برخی از شاعران معاصر ایران ـ بهار، ایرج، شهریار، و دیگران ـ توسط آربری و سایر ایران‌شناسان انگلیسی به آن زبان ترجمه شد، و محمد معین و مهدی بیانی و دیگران طی نوشته هایی نظر خود را در بارهٔ کتاب های انگلیسی که باید به زبان فارسی ترجمه شوند بیان داشتند. امّا این مشربه نیز درسال پنجم تعطیل شد، و از آن پس به مدتی قریب به سی‌سال کلّیهٔ مجلّات ادبی ایران کم و بیش حاشیه نشینان میدانی گشتند که در میانهٔ آن مجلّهٔ سخن جلوه‌گری می‌کرد. غرض از این همه آن است که تاریخچهٔ ترجمهٔ ادبی درنشریّات ادبی ایران نیز باید، مانند تاریخ خود این نشریّات، از زمینه‌های تحقیق نشدهٔ سیر ادبیّات در ایران قرن بیستم محسوب می‌گردد.

از سوی دیگر، امّا، ترجمهٔ ادبی هم از آغاز نه تنها شوق و ذوق که مقاومت نیز آفرید. بسیاری از ادیبان سنّت گرا، که در هم ریختن رده بندی های مألوف و دیرپای ادب فارسی را خوش نمی‌داشتند، به درستی ترجمهٔ ادبی را یکی از علل پیدایش نوعی از نوشتار می‌شمردند که در نظام سنّتی ادب فارسی نه نامی داشت و نه جایی. هرگاه سفرنامه ها و زندگینامه ها و خاطرات سیاسی جدید را می‌شد به شکلی تداوم سنّت سفرنامه نگاری و تذکره نویسی دانست، برای "قطعات ادبی" و "مقالات ادبی" و" اقتراح ادبی" نمی‌شد پیشینه ای فرض کرد. ازسوی دیگر، کار ترجمه به تصرّفاتی در بافت زبان فارسی منجر شد و دغدغهٔ دیگری ـ با ابعادی که از موضوع سخن ما در این مقاله خارج است ـ به دغدغهٔ زبان افزوده گردید. از همان آغاز توجّه به نویسندگان اروپائی و آثار آنان ـ آن هم در زمانی که ایرانیان در کار بازیابی و بازسازی سنّت ادب کلاسیک فارسی و ثبت آن به نام خود بودند ـ مقاومتی غریزی وخود جوش را در ادیبان محافظه‌کار پدید آورد؛ مقاومتی که شاعران و نویسندگان و مترجمان نوگرا را به موضع تدافعی انداخت. ، مجلّه دانشکده، در شمارهٔ دوم خود در پاسخ به انتقادات ادیبان عصر نوشت: «ما بزرگان خودمان را می شناسیم، بگذار بزرگان سایرین را هم بشناسیم. همان طور که اروپاییان بزرگان ما را شناخته اند.»[۹] و دو سال بعد یوسف اعتصام الملک در توجیه توجه بیشتر خود، در دورهٔ جدید مجلّهٔ بهار، به آثار اروپائیان استدلال مشابهی را پیش کشید:

درصورتی که آثار شعرا و نویسندگان بزرگ ما به السنهٔ خارجه نقل شده، کتابخانهٔ معرفت دنیا را به پیرایهٔ وجود خویش آراسته اند، آیا مناسب نیست ما نیز تاحدّی شعرا و نویسندگان

غرب را بشناسیم؟ اگر آسیائی از طرز نگارش اروپائی آگاه شود، و در ادبیات ملل تتبعی کند به جای سود زیان می‌برد؟ . . شما که عاشق بیقرار تجدد هستید و از کلاسیک و رمانتیک و سایر چیزها مذاکره می‌نمایید، از نفایس ادبیات غرب برای شرق چه ارمغان آورده اید؟ از خزاین درایت و دانش آن سامان کدام تحفهٔ ادبی را به معرض استفادهٔ مشتاقان گذاشته اید؟[۱۰]

از این گونه واکنش ها پیداست که فضای ترجمهٔ ادبی از آغاز با دو دلی هایی همراه بوده که ریشه در هراس ایرانیان از گم کردن هویّت ادبی خویش و غرقه شدن در سنّتی دارد که دیگر "خودی" اش نمی توان خواند. نگرانی از این‌که رخنهٔ عناصر و عوامل "بیگانه" بافت منسجم ادب کلاسیک فارسی را از هم بگسلد و نظام بیانی آن را، همان گونه که رویدادهای سیاسی و اجتماعی بافتِ جامعهٔ سنّتی را گسسته است. دستخوش تحوّل کند نگرانی مشروعی بود. این نگرانی و دلهره امروز نیز نه به صورت بحثی در سود یا زیان ترجمه بلکه به صورت استدلال هایی علیه "تقلیدهای بی رویه" و "بلع بدون هضم" آثار غربی سر برمی‌کند. تداوم این دغدغه ها را در انتقادهایی نیز میتوان دید که هم اکنون در نشریّات ادبی ایران از آثاری می‌شود که در آن‌ها جای پای گرایش‌هایی همچون «"جریان سیّال ذهن" یا "واقعگرایی جادوئی" به چشم می‌خورد. در دوران هفتادساله ای که از گفت و شنود میان بهار و اعتصام الملک از یک سو و ادیبان معاصر ایشان از سوی دیگر گذشته، مرزهای "خودی" و "غیر" البتّه تغییر کرده است. امّا تخالف میان آن چه بومی یا خودی است با آنچه بیگانه یا خارجی است همچنان معتبر مانده، و هنوز بومی بودن، یعنی" ایرانی" بودن اثری امتیاز محسوب می‌شود بی آنکه واقعیّت تغییر پذیری مداوم مرزهای میان بومی و بیگانه، به صورت فرایندی همواره جاری و ناگزیر در تاریخ، پذیرفته شده باشد.

درهرحال، برخورد میان درک اجتماعی از مفهوم ادبیّات و پدیده هایی همچون ادبیّات به مثابهٔ والاترین تجلّی‌گاه زبان (زبانی که شاخص هویّت ملی است)، و حضور مستمر احساسی از ادبیّات "دیگری" که می تواند رابطهٔ ما را با ادبیّات خودمان تعیین کند، به تنش هایی انجامیده که موتور حرکت اندیشیدن به نقد ادبی در ایران قرن بیستم بوده، و بر کار سنجش آثار اثر گذاشته است. در این دوران، هرنسل از ایرانیان میدان ها و محیط های ویژهٔ خود را برای این کار پدید آورده، و نتیجهٔ افکار خود را درعرصه های معینی عرضه کرده است. به دیگر سخن، شیوه های گردش افکار و آثار ادبی درجامعه نیز همواره در تحوّل بوده است. در جوامع سنّتی، و از جمله درجوامع فارسی زبان قدیم، تولید و

عرضهٔ آثار ادبی به فضاهای مشخّصی از قبیل دربارها و دیوان ها، خانقاه ها و خرابات‌خانه‌ها، و مجالس مشاعره و محافل ادبی وابسته بود. بقای آثار نیز نیازمند توجّهی بود که از راه سپردن متن به حافظه، یا کتابت مکرّر آن، یا ذکر آن ها در تذکره ها و شرح و تفسیر آن ها در کتاب‌های دیگر میسر می‌شد. و نهایت آن که گردش نوشتار در جامعه و حفظ آن در تاریخ در تیول مراکز قدرت سیاسی و مذهبی بود. هدف از نسخه برداری و نشر آثار نیز تنها حفظ بهترین آثار پیشینیان نبود، بلکه حفظ و اشاعهٔ آثاری بود که ارزش های نهفته درآن اعم از مذهبی، اخلاقی، حِکمی یا ادبی- معرّف ارزش های مورد نظر کاتبان و نسخه برداران بوده باشد، یا دست کم آشکارا با افکار و آمال آنان مغایر ننماید. اگر جز این بود، ای بسا یا تنها نامی از اثر باقی می‌ماند یا بکلّی از صحنهٔ خاطر آدمیان، و نهایتاً از صفحهٔ روزگار محو می‌شد. روشی را که حامد شهیدیان در مقالهٔ خود در بارهٔ نگارش تاریخ زنان در دوران حاضر به صورتی سامانمند و مستدل باز می‌نماید می توان در تمامی دوران ها رایج دانست، و به تمامی گروه هایی که ازمسند قدرت برکنارند تعمیم داد. با ظهور صنعت چاپ و نظام جدید معارف و شیوه‌های تازهٔ تعاطی اجتماعی، البتّه، این ساختار نیز درهم ریخت و فضاهای جدیدی برای نشر افکار ادبی پدید آمد. پژوهش در این فضاها و سیر تکوین آن‌ها در قرن بیستم، درعین حال که برای شناخت ماهیّت اندیشیدن دربارهٔ ادبیّات امری است حیاتی، البته از عهدهٔ مقاله ای مختصر خارج است آن‌چه در اینجا به آن اشاره خواهد رفت خطوطی کلّی است از چند فضای مهم و مرتبط اجتماعی که در سیر اندیشیدن به ادبیّات و ارزشگذاری بر آثار نقش مهمّی برعهده داشته اند. برای سهولت بحث، این فضاها را به ترتیب ورود به صحنهٔ ادبی ایران به چهار گروه تقسیم می‌کنیم که عبارتند از انجمن های ادبی، نشریّات ادبی، کلاس های تدریس و تعلیم ادبی، و نوشتار ادبی. پیداست که این تقسیم بندی تنها برای تسهیل کار بررسی تاریخی انجام می‌گیرد. و جدا کردن این گونه حوزه های فعالیت -که عمیقاً به یکدیگر وابسته اند- درعمل کاری است ناممکن و عبث.

از یکی دو انجمن قدیمی مانند انجمن مشتاق و انجمن خاقان که بگذریم، انجمن های ادبی را می توان از مظاهر زندگی شهری درایران قرن بیستم دانست.[۱۱] پیدایش این انجمن‌ها در سال های پس از انقلاب مشروطه فضاهای جدیدی را پدید آورد که درآن مسائل مربوط به ادبیّات به طور کلی و راه ها و روش های نو به ویژه برای نخستین بار در محک آزمایش و مطمح نظرگروهی

مشاكـــل البحـــث العلـــمي في الجـزائـــر

د· يحيى بوعزيز
جامعة وهران

يواجه البحث العلمي في الجزائر عراقيل ، وصعوبات كثيرة ، ومتنوعة ، تعود كلها الى طبيعة المعركة التـي تخوضها بـلادنا ، والتي جعلت الاولوية فيها للميادين الاقتصادية ، الفلاحية ، والصناعية ، ولثقافة الحـرف . في حين ترك أمر البحث العلمي ، في أوسـع معانيه ، للجهد الشخصي ، وللارادات الخاصة بصفة عـامة · وهو أمر طبيعي في كل بلد نامي حديث العهد في التصرف في مصيره ، ما لم يتجاوز الحدود المعقولة ، والا سيصبح خطرا ، وأمرا غير طبيعي ·

والجزائر التي عانت أكثر من غيرها ، مسخا استعماريا لا نظير له ، شمل كـل جوانب الحياة الحضارية ، والتاريخية ، وأورثها تخلفا وتقهقرا كبيرين ، وجعل الهوة سحيقة بينها وبين ركب التقدم الحضاري · هذه الجزائر ، مطلوب منها أن تجعـــل البحث العلمي في مقدمة اهتماماتها ، ولكن المشاكل الصعبة والعويصة التي ورثتها من حرب التحرير ، ومخلفات العهد الاستعماري الثقيلة ، حالت ، على ما يظهر ، دون ذلك لعدة سنوات · وفي الاعوام الاخيرة من عقد السبعينات ، أدركت قيادة البلاد أهمية

البحث العلمي وأخذت تعمل على تنظيمه ، وتدعيمه بقواعد وأسس جديدة ، سوف لا تظهر نتائجها الا بعد مرور عدة سنوات · ولعل أهم هذه الاسس والقواعد : انشاء المركز الوطني للدراسات التاريخية ، والبحث عن الوثائق الجزائرية واستعادتها داخل البلد وخارجه ، والعمل على تنظيمها وفهرستها حتى يسهل على الباحثين الجزائريين القيام بالبحث والتحقيق فيها لتصحيح الاخطاء ، واكمال النقص ، وابراز الامجاد الوطنية والحضارية على مر التاريخ ·

ولكي تكون الصورة واضحة ، عن مصاعب البحث العلمي فى بلادنا ، نستعرض فيما يلي بعض النماذج التى عشناها نحن ، ويعيشها الكثير من زملائنا الباحثين الجزائريين ، مع التأكيد على أن هذه الصعوبات مرحلية فرضتها المرحلة الانتقالية التى تعيشها بلادنا بصفة عامة ·

مشكلة المشرف :

ان العثور على مشرف للبحث العلمي فى جامعاتنا الجزائرية من المشاكل العويصة والمعقدة ، نظرا لقلة الاطارات بصفة عامة ، خاصة الكفأة ، والمؤهلة للاشراف · وعدم وجود سياسة منظمة مدروسة لتوفير مثل هذه الاطارات الضرورية لتكوين اطارات جزائرية صميمة · وحتى بعض الاطارات التى وفرت يلاحظ عليها قلة الكفاءة من جهة ، وعدم الاستقرار من جهة أخرى بحيث تنقطع فجأة عن البلد وتترك الباحثين فى منتصف الطريق أو فى بدايتها · وبذلك تضيع الجهود وتكل الهمم ، وكل ذلك على حساب تطور البلاد وتنميتها ، فكم من باحث لم يجد مشرفا أصلا ، وكم من باحث توقف عن البحث نتيجة غياب المشرف ، وانقطاعه عن البلد بصفة نهائية ، والنماذج فى هذا الميدان كثيرة ·

ان الجامعات الجزائرية من واجبها عندما تفتح أي فرع للدراسة أن توفر له الاطارات اللازمة ، وتحرص على خلق اطارات جزائرية بسرعة لتحل محل تلك الاطارات الاجنبية ، والا تكون متناقضة مع نفسها ومع الواقع · وكل التبريرات التى تقدم اليوم لا تكفى حجة لتبرير ما يعانيه الباحثون الجزائريون فيما يخص مشكلة المشرفين ·

وقد تأخرت أنا شخصيا عن التسجيل فى جامعة الجزائر حتى عام 1969 بسبب عدم وجود مشرف · وكان المشرف الذي اخترته ، ولم يكن أحد غيره آنذاك ، وهو زميلي فى الدراسة بتونس والقاهرة ، الدكتور ابو القاسم سعد الله الذي رحب بي ، وشجعنى

على اقتحام ميدان البحث العلمي ، والجامعة الجزائرية ، لانه يعرف نشاطي السابق في حقل الصحافة والدراسة ·

ولم اتعرض لصعوبات كثيرة معه في البداية ، فقد اقترح علي تقديم مجموعة من المواضيع ، ليرجح هو احداها ، وتم الاتفاق على موضوع : ثورة المقراني والحداد عام 1871 ، بعد أن قدمت اليه مخططا مؤقتا عنه ، ومجموعة من المصادر الاولية التي بحثت فيه · وفي ربيع عام 1970 ، اجتزت امتحان الانتقال من السنة الاولى الى السنة الثانية ، حيث تفرغت بعد ذلك للبحث ، وجمع المعلومات ، داخل الجزائر وخارجها ، وحصلت على عدد من الوثائق ذات أهمية في مختلف دور المحفوظات الجزائرية ، والفرنسية ، والتونسية ·

وعندما شرعت في التحرير بدأت الصعوبات تظهر بيني وبين السيد المشرف · وكان التحرير الاول صدمة له ولي معا · فهو لم يكن يتوقع مني مثل ذلك الاسلوب ، وانا لم اكن اتوقع منه مثل ذلك التشدد في أمور كنت أرى أنها شكلية وهامشية ·

ان الدكتور سعد الله يحاسب على الفواصل ، والضمائر ، وتركيب الجمل ، وتكرار الافكار ، ومدلول الالفاظ ، والضمائر العائدة ، وأسلوب التهميش ، ونوع الهوامش ، والتقديم ، والتأخير للكلمات والجمل ، وما الى ذلك · وقد شعرت في البداية ببضايقات كثيرة ، ولم أستطع أن أتحمل أسلوب ملاحظاته هذه ، وصارحته في احدى المرات كتابة بأن يقبل النصوص كما هي ، أو يرفضها ، ويخطر ادارة الجامعة بتخليه عن الاشراف ، غير أنه كان على غاية من التعقل ، والرزانة · فقدرا حسابا لظروفي النفسية ، ولجهودي المتواصلة معه ، حتى شعرت فيما بعد بالحرج ، بل ووخز الضمير ، خاصة وانه كان يستضيفني في منزله ، ويكرمني ، ويبقى معي الساعات الطوال ، في البحث ، والمراجعة ، والتحقيق ، والتعديل ، والتوضيح ·

لقد حررت الاطروحة وقرأها ، اكثر من ثلاث مرات ، وأصر على الا يقدم للجامعة عملا لا يرضى به أبدا · وانصفته فيما بعد عندما اكتشفت أني أجهل أساليب البحث العلمي الحقيقية ، رغم تدربي على الكتابة ، والعمل الصحفي ، وتأليفي لاكثر من كتاب قبل ذلك · لان الكتابة الصحافية ، والانشائية شيء ، والبحث العلمي في حقائق التاريخ شيء آخر · وهنا أسجل امتناني للدكتور سعد الله الذي اخذ بيدي ، وأرشدني الى أساليب ، وطرق البحث العلمي الحديثة على حقيقتها ·

وقد تعددت رحلاتي ، وسفراتي اليه من وهران الى العاصمة ، للجلوس والنقاش ، حـــول التحرير ، والحقائق التاريخية ، والمصادر ، والتهميش · أحيانا في منزله ، وأحيانا في مكتبة الجامعة ، وأحيانا في المكتبة الوطنية ، وأحيانا في الجامعة نفسها ·

وفي التحرير الثالث حسم الموضوع ، حيث جلسنا معا عدة ساعات ، في قـاعة عمل الاساتذة بمكتبة الجامعة ، واستعرضنا الاطروحة من أولها الى آخرها ، وقارناها بالتحرير الذي قبله للتأكد من العمل بالملاحظات السابقة ، وتم تعديل بعض العناوين ، وانتهت الجلسة بأخذ الاذن بالطبع · فتنفست الصعداء لاول مرة وشعرت بنوع مـــن الخفة لثقل الحمل ، وبالاطمئنان · ولابد في الاخير من التسجيل بأن معظم الصعوبات التي واجهتني ، تعود الى بعد المسافة بيني وبينه ، ولولا ذلك لقلت المشاكل والصعوبات ولاختصر الزمن كثيرا ، الذي قضيته في اعداد هذه الدراسة · وهذا ما يحتم فتـــح الدراسات في كل الجامعات الجزائرية حتى لا يتعب الباحثون مثلي ·

روتـين اعـادة التسجيل :

والى جانب مشاكل المشرف ، هناك مشكل اعادة التسجيل كل سنة ، وفي مواعيد محددة لا يـجوز تجاوزها · وقد كلفني هذا الروتين الاداري التـردد شخصيا عـلى العاصمة طوال مدة اعداد الدراسة ، وكثيرا ما كان ذلك على حساب مهنتي التربوية · ومما زاد في تعقيد التسجيل كونه لا يتم في مكان واحد ، وزمان واحد ، وانما يتطلب احضار موافقة المشرف كل سنة كتابة ، وعقد الازدياد ، والصور الشمسية · ثم بعد كل هذا يسلم الباحث وصلا ليذهب به الى الخزينة العامة لدفع الرسوم المطلوبة ، والعودة بعد ذلك الى ادارة التسجيل لتسلم شهادة التسجيل · وهذه العملية نادرا ما تتم في يوم واحد لان الاشخاص المشرفين على التسجيل قد يحضرون الـىمكاتبهم ، وقـــد يغيبون ، وأيام التسجيل محدودة ، وفي الصباح فقط · والضحية دائما هم الباحثون · إن روتين اعادة التسجيل منهك ، ومقلق ، ومضيعة للوقت ، وبيروقراطية زائدة وممقوتة فلماذا لا يكتفى بتسجيل واحد فقط ؟ ولماذا لا يتم بالمراسلة مثلا ؟ أو في البنوك الجهوية ؟ ولماذا لا يكتفى بتقارير المشرفين الدورية عن طلبتهم ؟ ولماذا على الاقل لا تبسط وسائل التسجيل ، فتقلل الاوراق المطلوبة ، ويتم في مكان واحد ، ووقت واحد ، تخفيف لاعباء العمـــل ·

ان مسيرة التنمية التى تخوضها بـلادنا تتطلب التقليل من مثـل هذه الاجراءات الزائدة التى تدخل فى اطار البيروقراطية وأمراضها ، والوقت ثمين جدا ، ويجب أن نقدر قيمته ، ونحسن استغلاله ٠

قضيـة البحث عـن الوثائق :

وهناك أيضا مشكلة البحث عن الوثائق فيما يخص بعض البحوث والدراسات ، كالتاريخ مثـــلا ، فالذى يبحث فى تاريخ الجزائر الحديث والمعاصر ، لا يستطيع أن يتحصل فى عين المكان على الوثائق المطلوبة ، لان الاستعمار الفرنسى أخذ كل شىء بعد رحيله ، ونقله الى ما وراء البحر ، الى دور المحفوظات الفرنسية ٠ وتسرب البعض منها الى بعض البلدان الشقيقة المجاورة ، والصديقة ، كالمغرب الاقصى ، وتـونس ، وتركيا ، ومصر وبلدان جنوب أوروبا الغربية ٠

وكل باحث فى هذه الفترة من تاريخ الجزائر ، لا يستطيع أن يأتى بجديد ما لـم يقم بزيارة هذه البلدان ، أو بعضها ، للبحث فى دور محفوظاتها ، ومكاتبها العـــامة والخاصة ٠ والزيارة تتطلب رخصة وامكانيات مادية لا تتوفر لكل الباحثين ، والاجهزة التى تشرف على البحث العلمى فى الجزائر لا تقدم المساعدة المطلوبة للباحثين ، واذا قدمت فانها تقدم للبعض فقط ، وفى حدود غير كافية ، وبمقاييس هي محل نظر ، وبحاجة الى اعـادة النظر فيها ٠

فلقد قمت أنا شخصيا بخمس رحلات الى الخارج : أربعة الى فرنسا ، وخامسة الى تونس ، كلفتنى خمسة وعشرين ألف دينار ، وصرفت فى جولاتى داخل الوطن لنفس الغرض أكثر من خمسة آلاف دينار ، يضاف اليها تكاليف الطباعة ، والسحب ، وتصوير الوثائق ، وصنع الرسوم والاشكال ، والصور ، وشراء ورق الحرير ، وورق السحب ، فالطبع بمبلغ خمسة دنانير للورقة ، والسحب دينار للورقة ، وثمن الورق الحريري دينار ان للورقة الواحدة ، وتصوير الوثائق دينار ونصف للورقـة ، وورق السحب خمسة عشر دينارا لعلبة ذات خمسمائة ورقة ، ومبلغ صنع الرسوم والاشكال والخرائط الضرورية زاد على ألفي دينار بسعر المعرفة والاخوة ٠ وتسفير النسخ عشرون دينارا للنسخة الواحدة ٠ ويعلم الله فقط ، وأنا كباحث ، مدى المشاكل والاتعاب المادية التى عانيتها فى سبيل اعداد مثل هذه الدراسة التى بلغت تكلفة الورقة الواحدة منها مائة دينار ، وعدد صفحاتها حوالى أربعمائة صفحة ٠ وقد اعتبرت نفسى نموذجا لكـ

الباحثين أو جلهم ، وذكرت مثل هذه التفاصيل ليعرف القراء الكرام بأن البحث العلمي في أي ميدان ليس سهلا ، وأن ما نقدمه لهم من دراسات وانتاج فكري ، يكلفنا ثمنا باهضا جدا ، وليس هذا منا ، وانما للعبرة والتأمل ·

مشاكل مناقشة الاطروحة :

ان أية جامعة ، عندما تأذن لاحد بحق الاشراف على البحوث العلمية ، تكون قد وضعت فيه الثقة ، واعترفت بكفاءته العلمية استنادا الى مؤهلاته العلمية · وهو عندما يشرف على عمل ما ، ويتابعه الى نهايته ويأذن بتقديمه الى المناقشة يكون قد تأكد من جديته ، وأهمية مستواه ، شكلا ومحتوى · وتبقى بعد ذلك قضية تقديمه الى المناقشة ، صورة شكلية من أجل منح صاحبه التقدير الذى يستحقه على عمله ·

ولكن الوضع فى جامعاتنا الجزائرية ، شيء آخر ، فنقاش الاطروحات تتحكم فيه الاهواء ، والاشخاص ، ولربما المجموعات · فهناك نوع العلاقة بين المشرف والباحث ، وبين المشرف والجهاز الاداري ، وطبيعة الموضوع نفسه ، وكون الباحث معربا ، أو مفرنسا ، ونوع الشخص أو الجهاز المشرف على البحث العلمي ، ونوع الاشخاص الذين اختيروا لقراءة الاطروحة ، وابداء رأيهم فيها ، ومشاركتهم فى النقاش ، وكونهم داخل البلد ، أو خارجه ، كل هذه الاشياء لها دخل فى موضوع النقاش ·

فلقد قدمت الاطروحة الى ادارة الكلية بجامعة الجزائر فى منتصف شهر نوفمبر 1975 · وبقيت انتظر عاما كاملا تقريبا حتى أواخر شهر أكتوبر 1976 · وقد بذل كل من السيد المشرف ، والاخ الفاضل الدكتور عبد القادر زبادية رئيس قسم التاريخ ، جهودا يشكر ان عليها من أجل التعجيل بالنقاش ، ومع ذلك امتد الاجل قرابة عام كامل ، وكانت فترة الانتظار مقلقة حقا ، ومثيرة للاعصاب ، خاصة عندما تأجل الموعد الاول للنقاش فى شهر جوان 1976 بسبب تفضيل المشرف للمشاركة فى رحلة الى المشرق العربي لغرض خاص بالجامعة ، وأسجل هنا أنه رغم انتظارى عاما كاملا ، فقد كنت محظوظا بالنسبة للبعض الذين انتظروا أكثر من عام ·

أزمة الدكتور التميمي :

وعندما حضر موعد المناقشة مساء الاثنين 18 أكتوبر 1976 بالطابق الرابع من مبنى كلية الآداب ، كانت اللجنة تتألف من السادة : الدكتور عبد القادر زبادية رئيسا ، والدكتور أبو القاسم سعد الله مشرفا ومقررا ، والدكتور برو السورى ، والدكتور عبد

الجليل التميمي التونسى ، عضوين · وعلمت من السيد المشرف بأن أكثر الاعضاء الذين سيناقشوننى ، هو التميمي باعتباره شبه متخصص فى الموضوع والفترة ، وعندما جاء دوره ، وكان ما قبل الاخير ، حاول أن يستأسد ، ولكن فى غير ميادين الاسود ، فناقش واطال النقاش ، وشعرت خلال ذلك برغبته فى الاحراج ، ولكنى مسكت أعصابي ، والتزمت الهدوء خاصة وان السيد المشرف أوصاني بذلك ، ثم ان الموقف يتطلب الهدوء وبرودة الدم ·

ويمكن حصر ملاحظاته فى الامور التالية

اولا : طول التمهيد ·

ثانيا : عدم كتابة الاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية فى النص ·

ثالثا : وجود اخطاء فى الفهارس ، وبعض التهميشات ·

رابعا : ايراد مصادر فى البيبليوغرافية لم تستغل فى الدراسة ·

خامسا : عدم استغلال الوثائق الاجنبية ·

وقد حاولت فى جلسة النقاش أن أجيب ، ولكن الظرف والزمن ، لم يسمحا لى بالتوسع ، وأود هنا أن أوضح الامور على حقيقتها انصافا للواقع من جهة ، ولكي تكون درسا لغيرى من الباحثين ، وتجربة لهم ·

فالتمهيد كان طويلا بعض الشيء ، ولاحظ على المشرف ذلك خلال الاعداد والتحرير فاختصرت منه ما امكن ، والذى بقي كان ضروريا كمدخل للدراسة ، على الاقل فى نظري أنا ، وشرحت ذلك للمشرف فقبل ، واقتنع ·

وعدم كتابة الاسماء الاجنبية بالحروف اللاتينية فى النص ، يرجع الى صعوبة الضرب على الآلة الكاتبة · وكانت مكتوبة بحروفها اللاتينية فى التحريرين الاول والثانى ثم الغيت · ومع ذلك توجد كلها فى الهوامش بحروفها اللاتينية ضمن المصادر · وقد اشار علي المشرف أن أنبه على ذلك فى المقدمة فنسيت ·

والاخطاء التى أشار اليها فى الهوامش ، والفهارس ، محدودة ، وترجع الى السهو وليس الى الجهل بقواعد البحث العلمي ·

واثبات بعض المصادر فى البيبليوغرافية مع عدم استعلالها فى البحث ، يعود الى انى اطلعت عليها كلها ، ولها صلة بالموضوع ، وعددها لا يزيد على تسعة وعشرين مصدرا من ضمن حوالى مائتين ، ومع ذلك فانى اعترف بأنه نبهني الى أسلوب غاب

عن ذهني ، أشكره عليه وهو اثباتها فى ورقة مستقلة بدلا من اقحامها فى البيبليوغرافية العـــامـــة ٠

تبقى بعد ذلك قضية عدم استغلال الوثائق الاجنبية ، كما ادعى وزعم ٠ ولابد هنا من أن أقف عندها قليـــلا ، لقد تعرفت على الدكتور التميمي بواسطة السيد المشرف الدكتور سعد الله ، وقرأت له بعض كتبه التى كتبها بنفسه أو ترجمها لغيره عن المغرب العربي ، والتقيت به صدفة فى أرشيف فانسان بباريس خلال ترددي الى هناك للبحث والتنقيب عـــن الوثائق ٠ وعندما زرت تونس أواخر عـام 1974 للبحث في موضوع الاطروحة ، أخذت اليه رسالة من السيد المشرف ، فسهل علي العمل ، مشكورا ، فى أرشيف الحكومة التونسية بالوزارة الاولى ٠ وأخذت بعد ذلك التقى به فى ملتقيـات التعرف على الفكر الاسلامي ببلادنا ، ولاحظت عليه أنا وغيرى أنه مريض بالحديث عن الوثائق ، وتعدادها ، وتراكمها بالملايين (كذا) فى دور المحفوظات الاجنبية ، ففى كـل ملتقى يشير الى ذلك أو يثيره ، ويتأوه ، ويتحسر على الباحثين العرب والمسلمين الذين لا يولونها ، فى زعمـــه ، الاهتمام الـــلازم ، ويفرد بالتقدير الباحثين الاجانب الـذين يقدرونها ، فى زعمه ، ويهتمون بها ونسي أو تناسى أنهم اختلسوها اختلاسا مـــن بلداننا ٠ ويظهر نفسه على أنه الوحيد الذى اطلع عليها ، والذى يبذل جهده لانقاذها ، وبعثهـــا ٠

وقد أثار بالحاحه هذا عددا من الباحثين الاشقاء الذين تصدوا للرد عليه ، ومنهم الدكتور احسان عباس الفلسطيني ، فى ملتقى عنابة عام 1976 ٠

وفى موضوع دراستى واطروحتى ، آخذ علي عدم استغلال الوثائق الاجنبية التى قال انها تعد بالملايين ، وعندما شعر بالحرج من شدة المبالغة تراجع بابتسامة وقـال انها تعد بالآلاف ٠ وفى نفس الوقت اعترف بان الفصل الذى وضعته فى آخر الاطروحة لدراسة هذه الوثائق ، وتعدادها ، وذكر مصادرها ، وأماكنها ، هو فى حد ذاته كشفا علميـا هاما وقيمـا ٠

وفى ردي عليه آنذاك قلت لـــه بأني حاولت اكتشاف الوثيقة العربية واستغلالها كغيرها ، لان هذه الثورة تدرس اليوم من وجهة النظر الوطنية ، ولابد للوثيقة الوطنية أن تستغل ويثبت رأيها فيها ٠ ولكن هذا لا يعني أننى لـــم استغل الوثيقة الاجنبية ، والدليل أنى اطلعت عليها كلها تقريبا ، ووضعت عنها دراسة خاصة ، وفهرسا ، ضمن المصادر والوثائق اعترف التميمي نفسه بأهميتها ، واستغل الكثير منها فى الاطروحة وأشير اليها فى النص والهوامش ، ولست أدري كيف غاب ذلك عنه ٠

وقلت له كذلك بان هذه الوثائق الاجنبية مكدسة فى عشرات من الصناديق باعداد كبيرة تعد بالاطنان (وقد اثرت ضحك أعضاء اللجنة وجمهور الحاضرين عندما ذكرت بانها مكدسة بالاطنان) ودراستها كلها بفوق جهدى وطاقتى انا وحدى ، ويتطلب جيلا من الباحثين والدارسين . وفترة من الزمن طويلة ، ويكفينى انا فى هذه الدراسة انـنى حاولت كشف اماكنها ، ووضع فهرس وبيبليوغرافية لمعظمها ·

وأضيف هنا بأن الوثائق الاجنبية التى يشير اليها التميمي ، استغلت لمدة قـــرن كامل من الزمن ، من طرف الدارسين لهذه الثورة فى غياب الوثيقة العربية · ودورى انا ابراز هذه الوثيقة العربية . واستغلالها للوصول الى حقيقة الاحداث والمشاكل من وجهة النظر الوطنية كذلك . هل فى هذا ضير ؟

حكـاية القـارد دى سـو : LE GARDE DES SCEAUX

على ان الدكتور التميمي ، لدافع لا اعرفه حتى الآن ، حاول أن يحرجنى ، وأراد أن يثبت عدم معرفتى للغة الاجنبية ، عندما حاول أن يختبرني بتوجيه بعض الاسئلة فى ذلك ، فتحول من مناقش لعمل جامعي ، الى معلم اللغة الفرنسية ، والتركية · فسألنى عن معنى . le garde des Sceaux الذى ترجمته بحافظ الاختام . ويعنى طبعـــا وزير العدل ، أو وزير الشريعة كما كان يعبر عنه الجزائريون خلال عهد ثورة 1871 ، وهـو اللقب الذى كان يحمله أدولف كريميو اليهودي فى حكومة تور الفرنسية عام 1870 · وكان التميمي يعتقد اننى لا أعرف ذلك ، وسألنى كذلك عن معنى كلمة (الباشاغا) التى هي لقب تركي حافظ الفرنسيون على استعماله فى عهدهم · وهنا بدأت أفقد بعـض الشيء هدوئى ، فرددت عليه بلهجة مشوبة بنوع من العضب ، وتفطن لذلك ، ودعانى الى التـزام الهـدوء ·

وبودى هنا أن أوضح أنى لم أدرس قط فى مدرسة فرنسية ، ولم أتعلم اية لغـــة أجنبية خلال مراحل دراستى الابتدائية والثانوية · وفى المرحلة الجامعية درســـت بعض مبادىء اللغات : الفرنسية ، والانجليزية ، واللاتينية · وعلى هذا فانا معـــرب الـف فى المـائة ·

ولكنني عندما اقتحمت ميدان البحث العلمي فى التاريخ الحديث والمعاصر ، الزمـ نفسي بدراسة اللغة الفرنسية ، واعتكفت على ذلك حتى كونت لنفسى القدرة على القرا

والكتابة ، والاستفادة من كل نص أو وثيقة فرنسية ، وما زلت حتى اليوم أقرأ و.. س هذه اللغة ، وبحوثي العلمية ، واطروحتي الجامعية خير دليل على ذلك ٠

وحتى لو كنت لا أعرف أطلاقا اللغة الاجنبية ، فانى لن أصاب بحمرة الخدين من الخجل كما يحصل للبعض ، ولست أنا الاول أو الاخير ، من الباحثين الذين لا يعرفون اللغة الاجنبية ، ومع ذلك قاموا ببحوث قيمة ، وجادة ، ومعتبرة ٠

بعد هذا الاستطراد الذى كان ضروريا ، أعود الى موضوع المناقشة ، حيث ان اللجنة انسحبت فى نهايتها من القاعة للمداولة ، وطال أمد غيابها كثيرا حتى ان الكثيرين ممن حضروا المناقشة انسحبوا بعد أن تأخر الوقت كثيرا ، والسبب فى هذا الغياب الطويل هو اختلاف أعضائها على الدرجة ، وكانت النتيجة فى الاخيرة منح درجة جيدا للاطروحة بالاغلبية ، وهي أعلى درجة تمنح لشهادة دكتوراه للطور الثالث ٠ وكان الشاذ عن الاغلبية هو التميمي ٠ ولم استغرب ، ولم أتأثر ، ولكنى لم أكن أتوقع من التميمي مثل ذلك الموقف طبعا ٠

وكان السيد المشرف يرغب فى أن يصحبني معه الى منزله لتناول طعام العشاء مع أعضاء اللجنة الذين عزمهم ، ولكن رغبته فى عدم احراجهم فيما اذا أرادوا احياء النقاش من جديد ، جعله يودعنى على أمل اللقاء فى اليوم الموالى ، حيث أبلغنى أنه عانى كثيرا من أجل الحصول على درجة جيدا جدا ، دون أن يذكر لى من المعارض ، فشكرته ، وقدرت موقفه وموقف الدكتور زبادية ، والدكتور بسرو ٠

حكاية الرسالة الغريبة :

وكان من المفروض أن تنتهى الامور عند هذا الحد ، لو كان التميمى منطقيا مع نفسه ، وفى مستوى رجال البحث العلمى ، ولكنه واصل سعيه للاحراج ، فقام بخطوة أخرى كشفت عن مرض فى نفسه ، ودلت على أنه ليس أهلا للمهمة التى شرفته بها جامعة الجزائر ٠ فاشاع لدى بعض أصدقائه بان الاطروحة ضعيفة وهزيلة ، ولا تستحق التقدير الذى أعطي لها ٠ ولولا حسن اللياقة لذكرنا اسماء بعض من ذكر لهم ذلك ٠

وعندما عاد الى تونس قام بخطوة ثالثة أكثر غرابة ، فكتب رسالة الى مسؤول البحث العلمى بكلية الآداب فى جامعة الجزائر ، أخبره فيها أنه غير راض عن الدرجة

التى منحت للاطروحة ، وانه امضى على المحضر بتاثير من باقى اعضاء اللجنة خاصة السيد المشرف ، واكد انها لا تستحق اكثر من (قريب من المستحسن) ٠

اننى اسأل الدكتور التميمى عن الدوافع التى حملته على هذا الموقف ، خاصة وأن اعضاء اللجنة اقترحوا عليه أن يسجل اعتراضه فى المحضر ، ويوقع عليه ٠ وكان بامكانه أن يرفض اصلا المشاركة فى المناقشة ، ويقدم تعليلا لذلك بواسطة تقرير مكتوب ويترك الامر للجهات المسؤولة ان تتصرف ، وهو أمر معمول به فى كل جامعات الدنيا ٠

ان الحكم الفصل بيننا هم القراء عندما تصل الاطروحة الى أيديهم ليقولوا فيها كلمتهم ورايهم ٠ وانا متاكد من انهم كلهم ، سيكونون مع أعضا ءاللجنة الشرفاء ، بأنها تستحق تقدير « جيد جدا » ، وأكثر من جيد جدا ٠

وبعد كل هذا ، فليس هناك أي شيء بينى وبين التميمى ، عندما ذكرته ، وكان لابد من ذكره ، لاؤكد له بأننى أنا ، وكل الزملاء الباحثين هنا بالجزائر ، دخلنا الى ميدان البحث العلمى من أوسع أبوابه ، ولا نخشى أن نعلن النقائص التى توجد فينا ان كانت هناك نقائص ، ولدينا القدرة والشجاعة على فعل ذلك ، ما دام الكمال لله وحده فقط ٠

مشكلة البحث فى الوثائق المعاصرة :

ان الدراسات التاريخية الحديثة والمعاصرة ، تعتبر الوثيقة أساسا ، لكل عمل ، أو بحث ٠ وبما أن الاحداث المعاصرة تتصل بمشاكل قائمة ، وباشخاص أحياء ، بأنفسهم أو باتباعهم ، ومدارسهم ، فقد جرت العادة على ان يحتفظ بوثائق هذا العهد ربع قرن على الاقل حتى يتقادم الزمن ، وهناك من اقترح نصف قرن ، حتى لا تبرز الحساسيات مع نشر هذه الوثائق ٠ وهذه العادة تصلح فى بعض الاحداث ، ولا تصلح فى أخرى ٠ أما الاحداث التى مر عليها قرن فأكثر ، فنشر وثائقها أمر هام لخدمة التاريخ الوطني والعالمي ٠ ومرور مثل هذا الزمن يسمح للباحثين بالعمل بحرية ، ويجنبهم من الوقوع فى مزالق ، ومتاهات ، ويبعد عنهم الحساسيات ، والمشاكل ٠

وفى تاريخ بلادنا المعاصر ، أحداث مر عليها قرن وزيادة ، ومع ذلك يبدو أن الحساسيات ما تزال قائمة حولها ، خاصة ما يتصل بزعماء المقاومة المسلحة فى القرن الماضى ، وعلى راسهم الامير عبد القادر ، والحاج أحمد باي ، والمقراني ، والحداد ، وأولاد سيدي الشيخ ، وغيرهم ٠

ويبدو أن الدراسات الوثائقية التى نشرتها عن الامير عبد القادر قد أسيء فهمها لدى البعض ، ولابد من ازالة اللبس ودفع الغموض · فالامير عبد القادر رائد لكفاح الجزائر المسلح ، ورمز لمقاومتها الوطنية · وهو أب الجميع ، وفى جيوب الجميع · فالذى يحاول أن ينال منه كمن يحاول أن يهدم جبلا باظافره · وفى نفس الوقت هو فى غنى عن دفاع أي أحد بتاريخه الوطني ، وكفاحه البطولى ·

وما كتبته من دراسات عنه ، هو ابراز لبعض مواقف معينة له ، حاولت جهدي أن أجد مبررا لها ، وذلك فى اطار البحث العلمى فى أحداث التاريخ ، وأي ضير فى ذلك ! هل الامير عبد القادر معصوم عن الخطأ ؟ أقول لا ! وألف كلا ؟ وهل ابراز مثل هذه المواقف ينال من سمعة الامير ومكانته ؟ أقول لا لا ! وألف مليون كلا !

ان أي زعيم ، أو مفكر ، مهما كانت مكانته ، هو غير منزه عن الخطأ · فالتاريخ فيه الحلو ، وفيه المر · وليس شرطا ، بل وغير ممكن ، أن تكون كل مواقف الامير عبد القادر صوابا ، وكذلك غيره من الزعماء والابطال ·

وأول باكورة تأليف لى هو كتاب عن الامير عبد القادر بعنوان : بطل الكفاح الامير عبد القادر الجزائرى ، وذلك عام 1957 · وخلال بحوثى المختلفة فى المواضيع المتصلة بثورة المقراني والحداد عام 1871 ، عثرت على عدد من الوثائق للامير عبد القادر وغيره ، تعتبر جزءا من كفاحه ، ونشاطه السياسى ، ونشرتها فى عدة دراسات وثائقية منها :

- مواقف بايات تونس من ثورة الامير عبد القادر ·
- الامير عبد القادر والبحر الافريقى ·
- دور محيى بن الامير عبد القادر فى ثورة 1871 وموقف أبيه والسلطات التونسية منه ·
- موقف الامير عبد القادر والدولة العثمانية من الثوار المقرانيين عام 1871 ·
- دور الامير عبد القادر وخلفائه فى تدعيم الجبهة الشرقية القسنطينية ·

وقد تضمن مقال : البحر الافريقى ابراز عدم تفطن الأمير لما كان يهدف اليه الفرنسيون من استغلال نفوذه لصالح مشاريعهم الاستعمارية · وذلك عن طريق تكليفه بتوجيه نداء الى سكان منطقة الجريد ، ووادسوف ، ليقبلوا مشروع البحث وما ينجر عنه من غمر أراضيهم وقراهم بالمياه ·

وتضمن موضوع دور محيى الدين فى ثورة 1871 ، ابراز معارضة ابن الامير عبد القادر له ، وذلك من خلال نشر رسائله التى نسبها الفرنسيون اليه ، ونشرتها المبشر فى القرن الماضى ، وقد حاولت شخصيا أن أدافع على الامير واحد له مبررا مثـــل . ضغط الفرنسيين عليه ، الى جانب عاطفة الابوة ، والخوف من النهاية المحزنة لابنـه التى سبق ان انتهى هو اليها ·

وهذه الاحداث التاريخية لا تنـــال من مركز الامير ، وسمعته ، ومكانته الوطنية والقومية ، ولا تضعه فى قفص الاتهام · فرصيده الوطنى والتاريخى أضخم ، وأقوى ، وأصلب من أن ينال منه شىء ، وعملنا يدخل فى اطار البحث العلمى التاريخى المحض والنزيه ، وفى الخط العام الذى حددته قيادة البلاد لاعادة صياغة تاريخنا الوطني العام .

فى ضرورة المعجـــم الفلســـفى والاجتمـــاعى باللغـــة العربيـــة (1)

المرحوم د. عثمان أمين
عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة
وأستاذ فلسفة بجامعة القاهرة

لكل علم، ولكل فن، لسانه ومصطلحاته، وللمتخصصين وحدهم قدرة على فهم تخصصهم واستعمالها فى بحوثهم وكلامهم · يستطيع الرياضيون مثلا أن يتحدثوا فيما بينهم عن « منحنى الداله » وعن « الاحداثيين » ، أو عن العدد «المنطوق» والعدد «الاصم» أو عن «سيوماتيك» الهندسات و «سيوماتيك» الاعداد الخ ، دون أن يكون كلامهم مفهوما ممن ليس له دراية بالعلوم الرياضية · ويستطيع الاطباء أن يتحدثوا فيما بينهم عن مرض معين، دون أن يفهم عنهم المرضى شيئا ···

لكن أحدا لا يستطيع أن يستغنى عن فهم اللغة الخاصة التي يستعملها الفلاسفة : فالمسائل الفلسفية ـ بطبيعتها ـ عامة وهذه العمومية من شانها أن تمنع اي كائن مفكر من الوقوف منها موقف اللامبالاة ويستحيل على الانسان المفكر أن يتكلم فى الادب أو فى الفن أو فى العلم دون أن يلتقي بعلم النفس أو علم المنطق ، ويستحيل عليه أن يشتغل بالسياسة دون أن يخوض ـ عن قصد أو غير قصد ـ فى مناقشات علم الاخلاق

1) كان المرحوم د· عثمان امين ارسل الينا هذه الدراسة القيمة قبل وفاته بشهور ، وتأخر نشرها حتى الآن بسبب الاعداد الخاصة التى اصدرناها ·

وعلم الاجتماع · ويستحيل عليه عموما أن يـرى الفكـر فى أي خطوة مـن خطوات الحياة ، دون أن يضع مشكلة من مشكلات الحق والخير والجمال · ان الفلسفة ركيزة كل ثقافة حية عميقة باقية · واذا كان ارسطو قد قال قديما : ان الفلسفة «علم كلي» · لانها تبحث فى «الوجود المطلق» ، فانا نستطيع اليـوم أن نقول دون اسـراف ، انهـا « العلم الانساني على الاصالة » لانها تشتغل بدراسة المسائل العامة التي تشغل بـال الانسانية المفكرة ، والتي لا يفلت أحد من أهل الوعي من ضرورة الادلاء فيها برأي ، أو ضرورة اتخاذ « موقف » كما يقول الوجوديون المعاصرون ·

ونحن اينمـــا ولينا وجوهنا فى مجتمعنا الحـــاضر وجدنا أنفسنا أمام المسائل الفلسفية وجها لوجه ، والتقينا معها باللغة الخاصة التي لم يكن للفلاسفة بـد من أن يبتدعوها لاستعمالها فيما يقولون وفيما يكتبون · ومرة أخرى نقول ان الادباء والفنانين والعلماء والسياسيين ورجال الاعمال ـ جميعهم يتفلسفون على طريقتهم ربما دون أن يشعروا ، واحيانا على الرغم منهم ، وكل انسان محتاج الى ان يفهم لغة الفلسفة ، لكي يقرأ ما بين السطور فى جريدته اليومية ·

* * *

ولقد كان للصفوة من النظار الاقدمين ، المعنيين بنمو الثقافة فى كنف الاســـلام فضل لا ينكر فى تطويع اللغـــة العربية للتعبير عن حاجات العصـــر وشحـــذ الاذهان المفتحة للوفاء بمطالب الفكر · وكانت ثمرة جهودهم الدائبة فى هذا المجال اثـــراء للغة والفكر معا ، اذ كانت عنايتهم بالالفاظ عناية بالمعاني ايضا ، وفى الوقت عينه · فلا ريب انهم حين زودوا لغة الضاد بذخيرة من المصطلحات الدالة فى مختلف ضروب المعرفة ، بين عربية ومعربة واعجمية ، قد زودوا الفكر العربي بمفاهيم جديدة ، ونقلوه من مرحلة الدلالة الواحدة بالمترادفات العديدة الى مرحلة الرؤية الواضحة للفـروق الدقيقة بين المعاني المتداولة أو المألوفة · ولذلك صح للعلامة ابن جنى ان يقول فى الرد على من ادعى على العرب عنايتهم بالالفاظ واغفالهم أمر المعاني : « فاذا رأيت العـرب قد اصلحوا الفاظها وحسنوها وحموا حواشيها وهذبوها وصقلوا غروبها وارهفوها ، فلا ترين ان العناية اذ ذاك انما هي بالالفاظ ، بل هي عندنا خدمة منهم للمعاني وتنويه وتشـريف » ·

واذا كانت هذه نظرة علماء العربية الى العلاقة الوثيقة بين اللغة والفكر ، فلا عجب ان نراهـــم يعكفون على فنـــون المعارف فى عصرهم يرتبونها ويصنفونها ويضعون

المعاجم الجامعة لمصطلحاتها الشارحة لمفرداتها ، واستطاعوا بذلك ان يـؤدوا ، في اخلاص وأمانة ، خدمة مذكورة مشكورة للمتأدبين والدارسين من أبناء هذه الامـة الناهضة ، اذ جعلوهم يشعرون عن طريق اللغة المقدودة على قد الفكر بسيطرة الانسان على الطبيعة أو بسيادة (الذات) على (الموضوعات) كما يقول المثاليون المحدثون ·

ولكن حين طوى الفكر جناحيه ، وفترت نوازع البحـث والتنقيب باغتراب روح السيادة والاستقلال ، تخلف أبنـاء العربية عن اللحاق بركـب الحضارة الانسانية ، فتخلفت اللغـة عـن مسايرة الفكـر في تصعيده وتحليقه فمنذ « احصاء العلوم ، للفارابي ، « والرسائل » لاخوان الصفا ، و « رسالة الحدود » لابن سينا ، و « مفاتيح العلوم » للخوارزمي ، و « ارشاد القاصد » للاحفاني ، و « التعريفات » للجرجاني ، و « كشاف اصطلاحات الفنون » للتهانوي ، انصرف أغلـب علمائنا عـن التاليف في العلوم العقلية . واهملوا التصنيف في المعاجم العلمية · واقتصر المحدثون منهم على النقل عن اللغات الاروبية ، دون ان ينتبهوا الى الافادة من التراث العربي القديم ·

ولكن نود ان نسجل تنويهنا بالجهود القيمة التي بذلها مجمع اللغـة العـربية في العشرين سنة الاخيرة ، لوضع المعجم الفلسفي الذي ظهرت منه الى الآن ست كراسات ، وتحتوي على المصطلحات الفلسفية باللغتـين الفرنسية والانجليزية ، مـع مرادفاتها العربية ، وتعريفاتها الموجزة (I) ، ونود أن ننوه أيضا بمجموعة «مصطلحات الفلسفة» اصدرتها لجنة الفلسفة للمجلس الاعلى لرعاية الفنون والآداب سنة 1961 · وكتـاب «المعجم الفلسفي» ليوسف كرم ومراد وهبه ، (1966) (2) وهي كلها مشاركات عربية نافعة لتحديد أصول الفكر المعاصر وبيان ركائزه الفلسفية ·

(I) ويوالي المجمع اصداره ابتداء من سنة 1962 ·

2) ينبغي أن نضيف الـى ان صديقنا الاستاذ الدكتور عبد العزيز الحبابي اصـدر معجما فلسفيا باسم المعين الاصالة ·

دروس يمليهـــا عثمـــان أمـــــين

- جاه العلـم والفلسفة فوق كل جـــاه
- جمال الحقيقة وجلالهـا فوق كل جمـال وجـــلال

د· ابراهـيم مدكـور
رئيس مجمع اللغـة العربية بالقاهرة
ورئيس اتحـاد المجامع العربية

كم املى عثمان امين في حياته علينا وعليكم دروسا واعية ، روى فيها مـا روى ، وامعن مـا امعن ، روى بعقله ، وامعن بقلبه · فجلا امورا غامضة ، وحل مشاكل معقدة ، وكشف عن حقائق ثابتة ، وادلى بارراء صائبة · وفي وسعه اليوم ان يلقي علينا دروسا اخرى كلها عظة وعبرة ، وتوجيه وحكمة · وما اجدرنا ان نصغي اليها ونعيها ، وان نفيد منها ونعمل بها · وانا على يقين من انكم كنتم تستطيبون دائما حديثه وتعجبون ببحثه · وما دمنا هنـا في قاعة الدرس ، فانه يروق لي ان اعرض عليكم نماذج من هذه الدروس ، وهي كلها مستمدة من حياة عثمان امـين ومسلكه وشخصه ·

---

1) القيت بكلية الآداب ـ جامعة القاهرة ـ مساء الاثنين 4 ديسمبر 1978 ·
وقد ارسلها الينا الاستاذ مدكور ، ضمن وقائع الجلسة العلنية التي اقامها مجمـع اللغة العربية بالقاهرة لتأبين الفقيد عثمان امين ، للنشر في الأصالة ·

واولها حبه لعمله ، وتفرغه له . واقباله عليه ، حب عميق أكيد ، ينبعث من القلب ، ويقوم على الايمان واليقين · حب للقراءة والاطلاع ، للافادة والاستفادة ، ومـا كان أسعده يوم أن يقف على بحث ممتع أو كتاب قيم ، أو يوم أن يخرج مؤلفا يفيـد منـه الباحثون والدارسون ، واني لاعلم أن أحب الاوقات اليه هي تلك التي كان يقضيها في مكتبته بين كتبه ومراجعه ، قارئا أو كاتبا باحثا أو مؤلفا . ولا أشك في أن هذه المكتبة قد خففت عنه كثيرا من هموم الدنيا والامها · وكلكم يعرف حبه لتلاميذه وطلاب درسه ، فكان يأنس لهـم كـل الانس ، ويطيب لـــه أن يحاورهم ويناقشهم ، ويحـرص على أن يوجههم ويرشدهم ، ويباهي بنبوغهم وتفوقهم . ويسعد بأن ينزلوا منه منزلة الزملاء والاصدقاء . فكان المربي الحق والمعلم الرائد ·

وشأن المحب أن يشقى من أجل مـا يحـــب ، وأن يعاني ما يعاني ، وأن يبذل في سبيله ما يستطيع من وقت وجهد ، وينفق ما يملك من صحة وعافية · وقد شقي عثمان أمين فعلا في عمله ومنحه الكثير · فقد بصره أو كاد ، وأصيب في سنواته الاخـيرة بعلة كانت دون نزاع ولبدة جهوده الطائلة المستمرة ، ومعاناته القاسية · وكم كنـت أود أن ازوره مترددا في مرضه ، وأن اقضي بعض الوقت الى جانبه ، ولكني كنـت اتحاشى ذلك اشفاقا عليه · وكم عز عليه أنه لا يستطيع متابعة درسه وبحثه ، والاتصال بتلاميذه وابنائه حتى آخر لحظة من حياته ·

أحب عثمان أمين الدرس والبحث ، فوقف نفسه عليهما ، وتفرغ لهما ، وصرفاه عن زخرف الدنيا ومباهجها · فلم يطلب مالا ، وكان في وسعه أن يفعل وأن يحصل منه على ما يريد · دعته الى الدرس والمحاضرة جامعات شتى عربية وغير عربية ، ولـم يستجب الا لقليل منها ، ولم يخرج من رحلاته بشيء يذكر · ولعل أقسى هذه الرحلات سفره السنوي الى لقاء الجزائر ، تلبية لرغبة تلميذ عزيز عليه ، ومـا كان أشبهه في هذه السفرات بالمتطوعين والمجاهدين في سبيل الله · واذكر أني كلفت مرة ان أرجوه في أن يقضي عاما دراسيا في باكستان ، وما كان يرفض لي طلبا ، فلبى وقضى عامه في حدود الكفاف ، ونحن نعلم ظروف باكستان الاقتصادية والمالية · ولم يتردد عثمان أمين في المعاونة والمساعدة ، وفي أن يؤدي ضريبة العلم والمعرفة عـن طيب خاطر · وأغلب الظن أنه رفض العروض المغرية التي كانت توجه اليه مؤثرا البقاء قريبا مـــن مكتبته ، لكي يستطيع متابعة الدرس والبحث ، وما أغناها من مكتبة متخصصة ، وأنا على يقين من أنه سعيد الآن في قبره كل السعادة ، لان هذه المكتبة أهديت الى جامعته ،

وستبقى موردا عذبا للدارسين والباحثين · ولا أشك فى أن كليته تقدر هذا الاهـداء الكريم ، وتسجله بما يستحق من تكريم ورعاية ·

ولم يسـع عثمان أمـين الى جاه ، وكانت أبوابه مفتحة أمامه ، ومن بين تلاميذه وأصدقائه القادة والرؤساء · ولكنه كان يتحرر من ذوى النفوذ والسلطان ، فلا يقترب منهم ولا يسعى اليهم · وكانت كلمة الحق عنده فوق كل كلمة ، ولابد له أن ينطق بها ، رضي الناس أو غضبوا ·

وقديما قيل . « ان قول الحق لم يدع لى صديقا » ومهما يكن من أمر فان فقيدنا كان يؤمن فيما يبدو بأن جاه العلم والفلسفة فوق كل جاه . وان آمن بهذا فليكون ·

☆ ☆ ☆

والدرس الذي نخرج به من كل هذا هو أن عثمان أمين يدعو شباب اليوم دعـوة مخلصة الى أن يحبوا عملهم فى صدق · وأن يلتزموا به فى امانة ، وأن يقبلوا عليه اقبالا تاما ، والدهر يجد ولا محل لان نهزل · وفى حبهم ما يذلل الصعاب ، ويشـق الطريق ، ويقود الى النجاح · واياهم أن يكون هدفهم مجرد أداء الواجب ، أو سـد الخانة كما يقال ، أو دفع المسؤولية · انهم ان أحبوا عملهم سعدوا به ، وجنوا ثماره على خـير وجـه ·

☆ ☆ ☆

لقد تسلح عثمان أمين لعمله بأسلحة شتى ، أخصها صبر وجلد ، وقد رزقه الله صبرا يغبط عليه ، وجلدا مكنه من تحمل كثير من المصاعب · نفسه طويل ، ومثابرته لا تنقطع ،ومتابعته دائمة لم يتعجل نشرا ، ولم يبتغ قط اعلانا ولا دعاية · وقد أولـع بالتجويد الى أقصى درجة : تجويد فى خطه ، تجويد فى أسلوبه ، تجويد فى درسـه وبحثه ، تجويد فى مظر مؤلفاته وكتبه . واستحق عن جدارة لقب الفيلسوف الفنان · كان يحب الجمال فى كل شيء ، وجمال الحقيقة وجلالها عنده فوق كل جمال وجلال · وكثيرا ما دفعه التجويد الى اعادة النظر فيما كتب وألف وقل أن يعيد طبع كتاب مـن كتبه ، دون تنقيح وتمحيض · يبدأ البحث فى شبابه ، ويتابعه فى عمق وتحقيق سنين طوالا ، ولا يكاد يخرجه للناس الا فى كهولته ، وان بدأه كهلا روى فيه زمنـا ، وربما لا ينشره الا فى شيخوخته · وأنا أعلم أن بين مخطوطاته معجما فلسفيا يرجع الى ربع

رن أو يزيد وفى مخلفاته مذكرات ودراسات أر جو أن تخرج الى النور · ولن اقف لآن عند انتاجه القيم الغزير ولا عند آرائه وفلسفته · وقد عرضت لشيء من ذلك فى صدير « الكتاب التذكاري » لبلوغه سن السبعين الذي قدم للمطبعة مع الاسف منذ يام فقط ، وكان ينبغي أن يظهر منذ زمن لكي تقدم التحية فى حينها لمن هو جدير بها ، كانما شاء القدر أن يكون هذا الكتاب تذكارا لرحيله عنا · وكم يذكرني صنيع عثمان مين فى تأليفه وانتاجه بما جرى عليه نفر من شيوخ المستشرقين الالمان فى أخريات لقرن الماضي وأوائل هذا القرن ، فقد كانوا يقفون عند الموضوع الواحد عدة سنين ، اذكر من بينهم اللغوي الكبير فيشر الذي قضى نحو نصف قرن فى اعداد معجم اريخي للغة العربية ·

ولسوء الحظ جاءت الحرب العالمية الثانية ، فاعترضت جهوده ، وعاجلته المنية ، حرمنا من ثمار هذا النفس الطويل ·

* * *

وهنا ايضا يوجه عثمان امين دعوة أخرى الى أبنائه وتلاميذه بالتأني والتجويد ، أن لا يؤدي الى كسل أو تباطؤ ، وتجويد يكشف عن هممهم ومواهبهم ، ويضعهم فى صاف شباب العالم المتقدم · حقا أنا نعيش فى عصر السرعة ، ولكننا نعيش أيضا فى عصر الاجادة والاتقان وسرعة بلا تجويد جهد ضائع ، وعمل لا قيمة له ·

* * *

تسلح عثمان أمين لعمله بسلاح آخر له وزنه وقيمته ، الا وهو زاده اللغوي الوافر لثمين · فقد تعلم العربية فى صباه ، واستمر يجودها طوال حياته · عنى بالوضوح والسهولة ، والاناقة والدقة ، وعرف كيف يقدم فلسفته فى ثوب قشيب جذاب · وكان يؤمن بأن العربية قادرة على أداء شتى المعاني واعقد النظريات ، ومن بين ما كتب ما يسمو الى مستوى الادب الرفيع · واستطاع فى مرحلة التعليم العام أن يدرس أيضا اللغة الانجليزية ، وتابع قراءاته فيها أثناء تعليمه الجامعي حتى تمكن منها · وكانت كلية الآداب تحرص قديما على أن يدرس طلاب الفلسفة لغة حية ، ففتح أمامه باب اللغة الفرنسية على مصراعيه ، وأولع بها ، واستمع فيها الى دروس ومحاضرات من أساتذته الفرنسيين شيوخ الفلاسفة المعاصرين ، أمثال بريبه ولالند · وكان لبعثته

الطويلة بباريس ما مكنه من أن يجود لغته الفرنسية تجويدا تاما ، فأحاط بتاريخها ، ووقف على كتابها وأدبائها القدامى والمعاصرين ، ودرس أدبها عامة درسا مستفيضا ، وكتب بها وألف · وكان لكلية الآداب تقليد آخر يخيل الى أنه اندثر تماما ، وهو توجيه نظر طلاب الفلسفة نحو اللغات الاروبية القديمة · فكان للاتينية درس منتظم طوال أعوام الدراسة ، واحتفظ لليونانية بمكان فى دراسات الامتياز · وقد نمى عثمان أمين زاده من هاتين اللغتين نموا واضحا أثناء مقامه فى فرنسا ، وكثيرا ما استمع مجلس مجمع اللغة العربية فى انصات الى تحليلاته ومقارناته الدقيقة للاصول اللاتينية واليونانية لبعض المصطلحات العلمية · وهذا الزاد هو أنجع وسيلة لبحث علمي أو فلسفي دقيق مكتمل ، وهكذا كانت بحوث عثمان أمين ، فى تأليف أو ترجمة أو تحقيق ويكفي أن نشير من بينها الى مثل واحد ، هو : « كتاب الفلسفة الرواقية » ، وفيه خير شاهد على ذلك ·

* * *

ومن هذا نستلهم درسا ثالثا نقف عنده ، وان لم يكن الدرس الاخير من دروس عثمان أمين ، فقد كان يرى أن المثقف الحق لابد له أن يتمكن من لغته القومية تمكنا تاما ، وان يتذوقها تذوقا صحيحا ، وأن يعبر بها تعبيرا سليما · ويرى أيضا أنه لا يقبل بحال من جامعي طالبا كان أو أستاذا ، أن يقف عند لغته الوطنية وان جودها · بل لابد له من لغة أجنبية على الاقل يجودها تجويدا يمكنه من القراءة والكتابة والتعبير السليم · وبذا يستطيع الاتصال بالفكر الانساني فيأخذ عنه فى صدق ويعطيه فى وضوح وجلاء ، والعلم لا وطن له ·

* * *

لقد أعطى عثمان أمين فى حياته عطاء سخيا ، وها هو ذا يعطي اليوم بعد موته بنفس الروح السخية الكريمة · فقد كان ولا يزال قدوة مثلى ، ورائدا حقا ، ومعلما صادقا ، ومربيا أمينا ·

تغمده الله برحمته وجزاه جزاء وفاقا على ما قدم لوطنه وأمته ·

والسلام عليكم ورحمة الله ·

خواطـــر حـــول موضـوع الحريـــة (1)

اعـد هذا البحـث
عبد الكريم المـراق
متفقد الفلسفة ـ تونس

قـــد يبـــدو ان الحـديث فى هـــذا الموضـوع هو من السهولة بمكان خاصة وان كلمة الحرية قـــد اصبحت متداولة عند جميع الناس حتى انه لا يكـــاد يخلو مجلس او مؤسسة صغر شانها او عظم من الحديث عن الحرية غير ان شيوع استعمال هذه الكلمة كان عاملا مساعدا جـــدا عـــلى ان تتعـدد حولها المفاهيم تبعـا لاستعمالات النـــاس ، والاوضاع الثقافية ، والاجتماعية التى هم عليها وبالتالى تبعا للزاوية التى تتعـــدد من خلالها رؤية هذا الموضوع . ولذلك فان السؤال الذى يطرح نفسه هو الى اي مـدى يتلاقى الناس حول مفهوم موحد لكلمة الحرية ؟

فنحن اذا ما نظرنا مثلا فى تركيب مؤسسة العائلة ودرسنا نوع العلاقات السائدة بين العناصر التى تساهم فى هذا التركيب من علاقات بين الابوين وعلاقات بين الابناء ثم العلاقات بين الآباء من جهة والابناء من جهة اخرى ، ان التعرف على الطريقة التى

(1) بحث القى فى الملتـقى الثانى للامام المازرى بالمنستير بالجمهورية التونسية .

تبني بواسطتها هذه العلاقات يقودنا حتما الى الحديث عن نوع التربية السائدة داخل هذه المؤسسة . هل ان اسلوب الكبت والقهر هو السائد أم إن طريقة الاهمال والحرية الكاملة هي المعمول بها أم ان الابوين يوفران الجو السليم الذى يضمن المناخ الملائم لتنشئة الاطفال تنشئة حرة مع اشعارهم بقيم المجتمع التى هم مدعوون للتقيد بها حتى ينشأوا نشاة اجتماعية سليمة ؟

ومن هنا يتبين كيف ان موضوع الحرية يلعب دورا أساسيا فى ميدان حيوي هو ميدان التربية . وما قيل فى هذا الموضوع عن العلاقات داخل الاسرة يصح ان يقال عن المدرسة هذه المؤسسة التى كانت على موعد مع قضية الحرية فى التربية منذ نشأتها . وقد ذهب المعنيون بشؤون التربية فى هذه القضية مذاهب شتى بين مؤيد ومعارض أو من هم من اصحاب الحلول الوسطى،ولا اعتقد ان الحوار سينتهي يوما الى حل بات فى هذه القضية .

وشبيه بهذا ، بل وعلى نطاق اكثر اتساعا واكثر حيوية الحديث بمختلف الوسائل من مقروءة ومسموعة ومرئية حول ما يعرف بالحرية المدنية التى لا معنى لوجودها الا فى اطار الحياة الاجتماعية ، علما بأن هذا النوع من الحريات تقيده شروط خارجة عن نطاق الفرد وتحدده القوانين والانظمة الموضوعة للمصلحة العامة ، أي اننا لا يمكن أن نتصور حرية مدنية مطلقة الا اذا سلمنا مثلا مع ابن الطفيل بأن بطل قصته حي ابن يقظان كان بالفعل يعيش لوحده فى جزيرته النائية .

ان هذه الحرية المدنية هى اذن وفى الاصل حق طبيعى يتمتع به الانسان داخل المجتمع فى اطار القوانين وهذا مثل : حرية القول وحرية العمل وحرية الاجتماع وحرية التملك ، وحرية البيع والشراء ، وحرية التعلم ، واختيار الزوجة ، ونوع المهنة وكذلك حق التنازل عن الملك بالمعاوضة أو بالهبة أو بالوصية .

ثم وبجانب هذا الطابع الاجتماعى المدنى للحرية نجد أن لها مظهرا سياسيا يتمثل فى المطالبة بضمان حق الاشتراك فى الاعمال العامة مثل الحق الانتخابى وحق مراقبة أعمال السلطة المدنية وهذا هو ما يعرف بالحرية السياسية التى لا تتحقق الا فى ظل النظام الديمقراطي الذى يمارس فيه جميع الافراد حقوقهم فى وضع القوانين والسهر على تطبيقها إما بصورة مباشرة أو غير مباشرة.ومعلوم ان هذا المعنى لا يتحقق فى ظل النظم الاستبدادية التى تحرم افرادها هذا الحق؛مع العلم بانه من طبيعة النظام

الاستبدادي ان يكون مصحوبا بالظلم ، كما أن زوال الحرية السياسية يصحبه زوال الحرية المدنية ·

ثم انه من المدلولات الشائعة لهذه الكلمة المدلول الاخلاقي المتمثل في حرية واستقلال ارادة الانسان عن الضغوط والمؤثرات الادبية سواء كانت خارجية مثل تأثير العادات والآراء والاوهام وغيرها من الميول الاجتماعية الاخرى التي تقيد الشخصية الفردية ، ام كانت ذاتية في الفرد نفسه مثل تأثير الاهواء والغرائز والعادات الفردية)ذلك ان هذه البواعث من شأنها أن تؤثر في شخصية الفرد وتمنعه من الاتجاه نحو الغايات السامية ، خاصة وان الحرية الاخلاقية تقتضي ان يكون الفعل صادرا عن تفكير وتأمل وعلم · وهذا يحرر شخصية الفرد من سيطرة الاهواء والحاجات الطبيعية · وبذلك يسمو درجات في تحرير نفسه من الجهل ويترقى الى درجة الكمال ، وهذا هو ما يعرف بحرية الكمال التي يقيدها العقل ومبدأ الخير · ان هذا الصنف من الحرية هو مثل أعلى يتطلع اليه الحكيم باستمرار · ويؤكد « ليبنتز » هذا المعنى في قوله « كلما كان سلوكنا أكثر مطابقة لاحكام العقل كانت حريتنا أوسع وكلما كان خضوعنا لاهوائنا أقوى كانت عبوديتنا أعظم » ·

ومن المؤيدات الدالة على حرية الارادة ان قراراتها واحكامها تأتي بعد تفكير وتردد وبذلك يكون الفعل الصادر عن الارادة مستقلا عن الشرائط الخارجية وكذلك عن البواعث الداخلية من تصورات وعواطف أي ان فكرة الحرية تحتمل إمكان وقوع الفعل أو عدم وقوعه على السواء · وفي حالة تساوي الاسباب المتعارضة تكون الفعل أو عدم وقوعه على السواء · وفي حالة تساوي الاسباب المتعارضة تكون حرية اللامبالاة · فهذه الحرية هي القدرة على أخذ القرارات رغم عدم وجود المرجح وهي غير حرية الاختيار التي هي القدرة على فعل الشيء أو عدم فعله ·

وقد شغلت هذه القضية العقل الانساني منذ أقدم العصور وحتى اليوم · منذ ذلك الحين ان «ارستيبوس» القوريني نظر الى الحرية الانسانية في اطار ما يمارسه من لذات مادية حسية آنية فكان شعاره « ولك اللحظة التي انت فيها فاغتنمها قبل ان تفوت » في حين أن أبقور قد فضل لذة أدوم وأبقى هي اللذة العقلية في ظل التحرر من المخاوف حتى ننعم بالسعادة · فالالهة لا يعنون بالعالم ، والعالم مادة وحركة من غير ، ومن هنا فلا معنى للقدر · ويتبين من هذا ان مذهب ابقور مادي صرف

وذلك انطلاقا من فلسفته الطبيعية التى اعتمد فيها فلسفة ديموقريطس فى الجوهر الفرد ، وبنى عليها آراءه فى الاخلاق والسياسة والاجتماع ٠

وفى مقابل هذا الاتجاه الذى ينفى القول بوجود القدر نجد نزعة معاكسة كان قد مثلها زينون الرواقى ٠ فبالرغم عن ان الرواقيين ماديون على مذهب هرقليطس الطبيعى ، أى انهم يتفقون فى هذه النقطة مع الابيقوريين فانهم يخالفونهم فى تصور المادة ذلك ان الرواقيين لا يعتقدون فى الجوهر الفرد أى فى الجزء الذى لا يتجزء من المادة بل يرون بأن المادة متجزئة بالفعل الى غير نهاية وأن النار هي التى تمسك اجزاء الجسم الواحد وتجعله واحدا،كما انها هي التى تربط اجزاء العالم وتجعل منه كلا متماسكا ٠ ورأيهم فى النار هو رأي « هرقليطس » من انها شيء حي فيه قانون أو قدر أو عقل تعمل بموجبه وان العالم جسم حي نفسه النار العاقلة ٠ ثم انهم أصحاب نزعة حلولية اي لا يفصلون بين الله والعالم،فالعالم هو الله ، وبذلك فهم يجعلون الله فى العالم ويجعلونهما موجودا واحدا يتطور من النار الصرفة الى مظاهر الكون المختلفة ، ثم تخلص النار من هذه المظاهر فيحدث « الاحتراق العام » ، وتعود فتطور على نفس هذا النسق وهكذا الى ما لا نهاية ٠ واذا كان فى الطبيعة قانون وعقل وكان الانسان جزءا من الطبيعة ، فوظيفته ان يحيا وفقا للطبيعة وللعقل والا كان متمردا على القانون الكلى متوهما نفسه مستقلا عن سائر الوجود وهو جزء منه مرتبط به كل الارتباط ٠

هذا ويتعرف الانسان على قانون سيرته بالرجوع الى ميوله الاساسية ، وقد وضعت الطبيعة فيه هذه الميول لتدله على ماذا تريد منه ٠

ويعتبر حب البقاء الميل الاولي الذي يهديه الى التمييز بين ما يوافقه ويحفظ كيانه وما يضاده ويعمل على افنائه ٠

واذا كانت الطبيعة فى الجماد والنبات تتجه الى غايتها عفوا دون تصور ولا شعور واذا كانت فى الحيوان تتجه الى غايتها بالغريزة دون تصور أو شعور فانها فى الانسان تتخذ طريق العقل الذى هو اكمل الطرق لتحقيق اسمى الغيات ، والانسان مدعو لان يستكشف فى نفسه العقل الطبيعى وان يترجم عنه بأفعاله . أى أن يحيي وفق الطبيعة والعقل ، كما أن الحكيم هو الذى يصنع الحكمة والخير فى مطابقة ارادته للارادة الكلية ٠ ذلك ان الارادة الصالحة هى شيء مطلق كالارادة الكلية، والانسان الكامل هو الذى يعلم ان كل شيء فى الطبيعة انما يقع بالعقل الكلى أو بالارادة الإلاهية أى

بالقدر؛ بحيث يعتبر ميوله بمثابة الوظائف لتحقيق هذه الارادة الكلية ويقبل ما اراده القـــدر ٠

فاذا ابتلي الانسان بمرض أو أصابته مصيبة آثر ذلك لعلمه انه مقدر عليه فيتوفر له الخير الحقيقى فى كل حال ٠ اللهم الا اذا نزلت بـــه فوادح لا تطاق فله حينئذ ان ينتحر ليتخلص من حياة لم يعد فيها شيء مطابق للطبيعة ، وفيما عدا هذه الشدائد فانه يصمد للدهر ، لا يخاف ولا يرجو ولا يأسف ولا يندم بل يرتفع بنفسه فـــوق كل شيء ويحتفظ بحريته وينعـم بفضيلته ٠

اما الانسان الشرير أو الضال فهو الذى غابت عنه فكرة الطبيعة الكلية فاتخـذ نفسه مركزا للوجود وانحرفت ميوله عن استقامتها الاولى فعارض الخير الكلي باشباح من الخيرات الجزئية أو المنافع وحصر سعادته فيها فتعرض لشتى الهموم والآلام لان افعاله مناقضة للحكمة كل المناقضة وكلها عصيان للطبيعة وللعقل ٠

ان نفس هذا المعنى يكاد ان يكون قد ظهر من جديد على يد خصوم المعتزلة مـن اتباع « جهم ابن صفوان » مع الفارق الجوهري فى المنطلق ذلك انه فى حين ان منطلق الرواقيين هو المادة نجد ان منطلق الجبرية هو الله بما له من قدرة مطلقة وارادة مطلقة وشاملة ٠ فقد ذهبوا الى القول بان الانسان مجبور ، وليست له ارادة حرة ولا قـدرة خاصة به على خلق أفعاله ، انه كالريشة فى مهب الرياح أو كالخشبة تتقاذفها الامواج وانما يخلق الله الاعمال على يديه ، وتنسب الافعال الى الانسان مجازا ، كأن يقـــال : ضرب فلان وكتب واساء وهذا مثل قولك : اثمرت الشجرة وتحرك الحجر ، وطلعـت الشمس ، وامطر السحاب ٠ ومن أدلتهم ٠ ان الانسان ان كان موجدا لافعاله وخالقا لها وجب ان تكون هناك أفعال لا تجرى على مشيئة الله واختياره ، ويكون هناك خالق غير الله وكذلك استدلوا بآيات من القرآن تدعم موقفهم مثل قوله تعالى : « اللـه خالق كل شيء » ٠ « والله خلقكم وما تعملون » ٠

وفى مقابل هذا الاتجاه الجبري نجد النزعة العقلية الاعتزالية المتحررة التى أقامت مذهبها على القول بأن ارادة الانسان حرة وان له قدرة خاصة به يخلق بها أفعاله ، ذلك لان أفعال العباد مخلوقة لهم ، ومن عملهم هم وليست من عمل الله ، وباختيارهم المحض، ففي مقدورهم ان يفعلوها وان يتركوها من غير دخل لارادة الله وقدرته ٠ ان الحركة الارادية مرادة للانسان مقدورة له بخلاف الحركة الاضطرارية فلا دخل له فيها ٠

ثم انه لو لم يكن الانسان خالقا لأفعاله لأبطل التكليف ، اذ لو لم يكن قادرا على ان يفعل والا يفعل ما صح عقلا ان يقال له افعل ولا تفعل ولما كان هناك محل للمدح والذم والثواب والعقاب بل ما كان لنبوة النبيء واصلاح المصلح فائدة · وفوق هذا فقد استدلوا بكثير من الآيات القرآنية لتأييد موقفهم من هذه القضية من ذلك مثلا قوله تعالى . « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم » · ومن حججهم ايضا انه : ان كان الله خلق أعمال الناس فهو اذن لا يرضى عما يفعل ويغضب مما خلق ودبر ·

وامام هذين الاتجاهين المتعارضين حاول ابو الحسن الاشعري العثور على حل وسط فاخترع ما اسماه « الكسب » واساسه أن الله تعالى اجرى العادة بخلق الفعل عند قدرة العبد وارادته لا بقدرة العبد وارادته-فهذا الافتراض هو الكسب وهو في الحقيقة جبرية مقنعة لان القدرة الحادثة لا تؤثر في المقدور ·

وكذلك حاول ابن رشد أن يتقدم بحل جديد له طرافته الخاصة فقال : « يظهر أن الله تبارك وتعالى قد خلق لنا قوة نقدر بها أن نكتسب اشياء هي أضداد ، لكن لما كان الاكتساب لتلك الاشياء ليس يتم لنا الا بمواتاة الاسباب التي سخرها الله لنا من خارج وزوال العوائق عنها كانت الافعال المنسوبة الينا تتم بالامرين جميعا » ثم يضيف ابن رشد بعد أن يؤكد ان هذه الاسباب التي سخرها من خارج ليست هي متممة للافعال التي نروم فعلها أو عائقة عنها فقط ، بل هي السبب في أن نريد أحد المتقابلين · يضيف قائلا « فان الارادة انما هي شوق يحدث لنا عن تخيل ما أو تصديق لشيء · وهذا التصديق ليس هو لاختيارنا ، بل هو شيء يعرض لنا عن الامور التي من خارج · مثال ذلك اذا ورد علينا أمر مشتهى من خارج استهيناه بالضرورة من غير اختيار، وكذلك اذا طرأ علينا أمر مهروب عنه من خارج كرهناه باضطرار فهربنا منه واذا كان هكذا فارادتنا محفوظة بالامور التي من خارج ومربوطة بها » ·

ثم ان ما نقوم به من أعمال هو نتيجة أمرين : « أسباب خارجية وارادة ذاتية ، ولما كانت هذه الاسباب الخارجية تجرى على نظام محدود وترتيب منضود لا تختل ابدا . وكانت ارادتنا الداخلية معلولة بهذه الاسباب كانت ارادتنا كذلك جارية على نظام محدود » والنظام المحدود الذى فى الاسباب الخارجية والداخلية هو القضاء والقدر الذى كتبه الله على عباده وهو اللوح المحفوظ « بحيث اذا نحن نظرنا الى الاسباب الخارجية وحدها قلنا ان الانسان مجبور واذا نظرنا الى الارادة وحدها قلنا : ان الانسان مختار وبهذا يمكن الجمع بين الآيات التي يدل ظاهرها على التعارض : « وبهذا

تنحل جميع الشكوك التى قيلت فى ذلك أعني الحجج المتعارضة العقلية ، أعني ان كون الاشياء الموجودة عن ارادتنا يتم وجودها بالامرين جميعا أعني بارادتنا وبالاسباب التى من خارج · فاذا نسبت الافعال الى واحد من هذين على الاطـــلاق لحقت الشكـوك المتقـدمة » (I) ·

وهكذا نرى كيف أن ابن رشد مال الى تقديم حل هو أقرب الى التسليم بالضرورة الفلسفية · وهنا نصل الى طرح المشكل بهذه الصيغة : هل يمكن القول بعد هذا بأن للانسان حـرية مطلقـة ؟

ان هذا التساؤل يبقى غير ذي موضوع بعد أن تبين الى أي مدى يكون الانســان معرضا لعوامل وأسباب تعمل على الحد من هذه الحرية . الامر الذى يؤكـــد نستهـــا فى مقابل حرية مطلقة تبقى خاصة بالمطلق وحده أى بالاله · وفى هدا المعنى يقول «لنيتز» ان الله وحده كامل الحرية ، أما النفوس المخلوقة فلا حرية لها الا من حيث هي قادرة على التخلص من الاهواء ·

أعتقد انـــه يجب النظـــر فى موضوع الحرية من ناحيتين : الناحية النفسانية الشعورية والناحية الكونية،ذلك أن هذا الموضوع قد بحث من حيث هو ظاهرة مـــن ظواهر الشعور كما بحث باعتباره يمثل حادثة تتنافى مع التقيد الطبيعى ·

لقد أكد العديد من الدارسين على أن الشعور الفردى شاهد على وجود الحرية ، ذلك اننا نشعر خلال الفعل الارادى بأننا أحرار ، حتى قال « هنرى برڤسون » بأن الحرية هى احدى ظواهر الشعور ، كما قال « بوسويه » « كل ما يصغي لصوت قلبه ويستشير نفسه يشعر بأنه حر الارادة بقدر ما يشعر بأنه مدرك وعاقل » بحيث كل انسان فى مقدوره أن يدرك هذه الدرجة من الشعور اذا كان عاقلا مدركا ·

ثم ان الحرية فى نظر « ديكارت » يدركها الانسان ادراكا حدسيا دون ما حاجة الى برهان عقلى ، ذلك ان الانسان يشعر بها فى داخله حتى انه من رأي «بوسويه» . ان الانسان السليم العقل لا يحتاج الى البرهان على حريته لأنه يشعر بها فى داخله قبل الفعل واثناءه وبعـــده ·

---

(1) الكشف مناهج الادلة ـ ابن رشد ·

فنحن نشعر بالحرية قبل الفعل لما لنا من حرية النظر بالاسباب واخضاع نزعتنا لميـزان العقـــل ٠

كما نشعر بالحرية اثناء الفعل لان العقل يدرك حركة الفعل من داخل فيطلع عـلى عفوية الارادة فى تصور الغاية ويدرك أن الحرية فى المذاكرة وأخذ القرارات ، بحيـث نشعر بأن التأمل يوجه الانتباه الى الاسباب المعقولة ويجمعها حول الغاية المقصودة من غير أن يكون مقيدا كل التقيد بالعوامل القوية ، ثم اننا أثناء أخذ القرارات نشعر بأننا أحرار فى اتباع الاسباب أو الامتناع عنها ، اي انه يمكن القول بأن الانسان يشعـــر بأنه قادر علي الفعل بقدر ما يشعر بأنه عاقل حيث يشعر فى الحالة الثانية أنه مفكر ٠

ثم اننا نشعر بالحرية بعد الفعل ، عن طريق الشعور بالمسؤولية الناشئة عن الفعل فلولا أننا أحرار لما شعرنا بالمسؤولية ولا بارتياح الضمير أو تبكيته بعد الاحسان أو الاساءة ٠ فنحن نشعر بالحرية لاننا نعلم أن مباشرة الفعل أو اتمامه أو الانصراف عنه كل ذلك متعلق بنا كما أن الندم عن افعالنا السيئة هو ندم على سوء الاختيار وهو حالة شعورية ولا ريب،ان الفعل الحر بهذا المعنى مشابه للكشف العلمي أو الاختراع الفني ، فما الكشوف العلمية والاختراعات الفنية الا ظاهرة من ظواهر الفاعلية النفسية المـــرة حتى أن الفيلسوف الالماني « كانط » جعل من الحرية أساسا للحياة الاخلاقية فقـال : « الواجب يتضمن الاستطاعة والحرية ليســت أمـــرا تجريبيا بل هو موضوعة من موضوعات العقل العلمى ولا وجود لها فى عالم الحـــوادث لان هـــذا العالم لا يدل على تقيد الحـركات الطبيعية فحسب بل يدل أيضا على تقيـد الحركات الارادية أما الشيء بذاته فيشتمل على الحـــرية كما يشتمل على الاختيار فالحرية خارجة عن العـــالم المحسوس غير مقيدة بالزمان والمكان ٠ ومن هنا فهي شرط للواجب والمسؤولية معـا » ذلك أن معاقبة المضطر شبيهة بمعاقبة الحجر على السقوط أو معاقبة المعدة على الهضم .

ان هذا الموقف الكنطي يؤكـــد بوضوح على القول بأن الحرية قيمة تستمد وجودها من عالم خارج عن اطار مقولتي الزمان والمكان اي هي قيمة مطلقة وعامة ٠ ولكن مـا هو موقف الفلسفة الوجودية من هذا ؟ ان الحرية ليست موضوعا خارجا عن الانسان ولكنها معاناة يعيشها صاحبها أثناء العمل ومن خلال هذا يثبت وجود الانسان وتتقرر شخصيته ٠ ذلك ان الحرية فى نظر الوجودى ليست موضوعا محددا يمكن اثباته بالبرهان المنطقي كما هو الشأن بالنسبة للنظريات الرياضية لان الانسان ما هو الا مجموعة مـن

اعمال حرة ومتجددة باستمرار . ذلك ان ماهيته هي الحرية نفسها . فالحرية عند الانسان هي حرية فردية كما أن ماهيته هي الحرية نفسها حتى انه كان شعاره · « انا حر فانا اذن موجود » وانطلاقا من أن الانسان هو وحده من دون سائر الموجودات يقوم بأفعاله عن وعي وتلقائية فهو الكائن الوحيد الذى يتصف بالحرية دون بقية الموجودات التى تخضع فى تكوينها للقوانين الطبيعية ·

ثم ان الوجود سابق عن الماهية ولذا فان الانسان يصنع ماهيته الخاصة به عن طريق وعيه واختياراته الحرة وبذلك يحقق النموذج الذى يراه ملائما لشخصيته ومن هنا كانت الحرية ظاهرة شخصية وهي وحدها المعبرة عن وجود الانسان،هذا الانسان الذى رمي به فى هذا العالم دون ارادة منه وحكم عليه بأن يكون حرا وأن يتحمل نتائج اختياراته ·

كانت هذه نظرة سريعة حول موضوع الحرية باعتبارها حالة شعورية ثم شعورية واعية ان صح التعبير كما هو رأى الوجوديين · ولكن اذا كان الشعور دليلا على الحرية فان هذا ينبغى أن لا ينسينا بأن العلم يقوم على التقيد الطبيعى ، ذلك أن الانسان نفسه ظاهرة طبيعية ، فهو يخضع فى الكثير من أنماط سلوكه الى طبيعة تركيبه البيولوجى بحيث يمكن القول بأن الشعور بالحرية لا يعدو كونه وهما ينشأ عن جهلنا للضرورة · أليس المائم والمستهوى والسكران يتوهمون انهم يمارسون أفعالهم بحرية ؟ ثم انه لو كانت الابرة المغنطة أو المروحه أو دوامه الماء واعية وشعرت بدورانها وهى تجهل سببه أليست تتوهم أنها تدور من تلقاء نفسها حرة مختارة ·

ومن هنا هل يمكن التأكيد بأن الحرية بمعناها المطلق غير ممكنة الوجود بالنسبة للانسان؟و فى حالة التسليم بهذه الحقيقة على أساس أن الحرية كصورة مجردة هي حرية كاذبة وصورة وهمية من صور الحرية « هيقل » وفى هذه الحالة اذن يمكن القول مع هيقل بأن الحرية هي وعي للضرورة؟أن هذا الوعي للضرورة يتمثل فى معرفة القوانين التى تقف حائلا دون تحقيق الحرية سواء أكانت هذه القوانين ذات طابع اقتصادي أو اجتماعي أو طبيعي أو نفسي أو بيولوجى ·

ومن هنا يكون الهدف من عملية التحرر ليس فى ازالة هذه القوانين والتخلص منها أي ليس فى تغيير الطبيعة ولكن فى استغلال هذه المعرفة بمهارة فى سبيل تحقيق أهداف الانسان وبهذا تكون الحرية الانسانية أمرا نسبيا ناميا ومتطورا ، وهذا هو ما عرف بعملية التحرر الذى تجسمه محاولات الانسان فى أن يلائم بين متطلبات الضوابط

الاجتماعية ومتطلبات توق الانسان نحو ارضاء ميله لان يعيش حـــرا · وبهذا تكون الحرية سعيا متواصلا نحو ايجاد ظرف أفضل من العيش وفى شتى مجالات الحياة ·

ومن هنا تكون الحرية وعيا بالوجود وممارسة شاملة فى اطار لا نتجاوز فيـه حدود الآخرين · ومما يؤكد هذا ان الانسانية على احتلاف أجيالها وفى شتى بقاع الدنيا كانت وما تزال تصارع من أجل فك القيود ورفع الضيم؛وفى هذا ارضاء لنزعة طبيعية فى الانسان تدفع به الى التحرر ·

غير أن هذه النزعة قد يعتريها شىء من الفتور فتضمر وتختفى نتيجـة لتواصل عملية القمع والكبت لمدة طويلة الامر الذى يؤدي الى أن يعتاد الناس العبودية و!! رق فيحبوا الاغلال التى تقيدهم وبهذا تعوض ظاهرة العبودية كشىء مكتسب ظاهرة التحرر كاستعداد طبيعى ومن أجل هذا فان الحذر الدائم واليقضة المستمرة هما أمر لازم فى سبيل الحفاظ على الحرية وحمايتها ·

سياسة الخلافة الاموية تجاه المغرب ولا سيما في الميدان المالي

د. الحبيب الجنحاني
كلية الآداب والعلوم الانسانية
- تونس -

ان الجوانب التي تهمنا في هذه الدراسة هي ما يتصل منها بالسياسة الاقتصادية والجبائية ، ولكن السياسة التي اتبعتها الخلافة الاموية في المغرب في هذا الميدان تعكس سياسة مالية عامة للخلافة ، ومن هنا فانه لا يمكن فهم هذه السياسة الا في نطاق رؤية كلية شاملة لقضايا المجتمع العربي الاسلامي خلال العصر الاموي ·

ان لتاريخ المغرب الاسلامي ميزاته الخاصة - دون ريب - ولكن للاختيارات الاساسية للحكم المركزي في المشرق تأثيرها الواضح ، وصداها العميق في شؤون المغرب ، فليس من الغريب - اذن - أن يلمس المرء نقاط ضعف ، أو يقف على هنات تلفت النظر في بعض الدراسات التاريخية حول المغرب الاسلامي في العصر الوسيط تكمن وراءها معرفة سطحية بتاريخ المشرق الاسلامي ، أو فصل لاحداث المغرب عن أحداث المشرق ·

ونلاحظ بادىء ذي بدء :

أولا - أن المصادر التي تروي لنا أخبار الحكم الاموي لبلاد المغرب تعد متأخرة عن زمن الاحداث حيث أن أقدم نص بلغنا قد ألف بعد مرور ما يربو عن قرن من سقوط

الخلافة الاموية ، ونعني هنا « فتوح مصر واخبارها » لابن عبد الحكم (182 ـ 257 هـ 798 ـ 9 ـ 871 م) (1) ، وهو أمر يضع أمام الدارس بعض الصعوبات ، ولكن هذه المصادر المتأخرة نسبيا تعد أساسية ، لانها تنقل عن مصادر لم تصل الينا ·

ثانيا ـ ان معلوماتنا عن تأثير ذلك التحول الجذري الذي عرفته الحياة الاقتصادية والاجتماعية فى المجتمع الاسلامي ، وقد بدأت تبرز معالمه منذ عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفان (2) ، وتبلورت مع اتساع نطاق الفتوحات الاسلامية ، وتحول العالم الاسلامي الى مركز رئيسي للدورة التجارية العالمية ، وأدى ذلك الى ازدهار فئات اجتماعية ، ولا سيما فئتي أصحاب الملكيات العقارية الضخمة والتجار ، فى الحياة الاقتصادية والاجتماعية للمجتمع المغربي فى العصر الاموي قليلة جدا ، ومن المعروف أن بروز حركات المعارضة السياسية ـ الدينية مرتبطة وثيق الارتباط بذلك التحول ، فمن القضايا المتصلة بالتحول المذكور نوع التغيير الذي تم فى ميدان الملكية العقارية فى العصر الاموي وتنظيم شؤون الخراج ، وأساليب جمع أنواع الجباية ، ولكن الاخبار حول هذه المسائل نادرة جدا · قد يتساءل المرء هنا قائلا : الا يمكن قياس وضع الملكية العقارية فى المغرب فى العهد الاموي بوضعية أراضي السواد فى العراق ، أو اراضي بلاد الشام ؟

قد يقبل المرء ذلك بالنسبة للاراضي التي كانت بيد طبقة النبلاء البيزنطيين ، ولا سيما فى افريقية ، ولكننا نعتقد ان الوضع يختلف فى المغربين : الاوسط والاقصى ، وهي المنطقة التي عرفت بكثافتها السكانية ، وبسيطرة القبائل الكبرى عليها ، وعرفت أيضا باهمية الملكية المشاعية فيها ·

ثالثا ـ أن النصوص ذات المحتوى الاقتصادي التي تشير الى الغنائم ، والى الهدايا التي كان يرسل بها ولاة المغرب الى دمشق نادرة ، أما مبالغ الجباية من خراج وجزية وصدقات ، ومدى انتظام ارسالها الى بيت المال فى عاصمة الخلافة فاننا لا نعرف عنها شيئا ، أو نكاد ·

ان جمع الاموال وارسالها لم يتم بصفة منتظمة ، فمن المعروف أن أحداث المغرب لم تنته بانتهاء ولاية موسى بن نصير (86 ـ 96 هـ) ، وفتح الاندلس ، بل اشتد أمرها اثر بداية انتفاضات الخوارج سنة 122 هـ ، وسنرى أن ذلك لم يحدث صدفة ، بل جاء تعبيرا عن معارضة لسياسة معينة سلكها ولاة بني أمية فى المغرب ، ولا سيما فى ميدان السياسة الجبائية ·

تعتمد السياسة المالية للدولة الاموية على تنظيم سياسي عسكري ، واداري دعامته سلطة الولاة فى أجزاء الخلافة ، وهي سلطة تستند الى قوة عسكرية تتألف نواتها ـ فى اكثر الاحايين ـ من جند الشام ، ولا سيما فى فترة الاضطرابات ، ولما تتازم الاوضاع ، وتصبح مهددة لسلطة بني أمية فانهم يجندون من عشيرتهم ، ثم من سائر العرب ، وقد حدث ذلك بالخصوص فى المغرب أيام حركات الخوارج ، فلما قدم كلثوم بن عياض القشيري سنة 123 هـ لملاقاة جيش خالد بن حميد الزناتي على ضفاف وادي سبوكان يقود جيشا يتألف من ثلاثين ألفا « قال ابن القطان : فيهم عشرة آلاف من صلب بني أمية ، وعشرون ألفا من سائر العرب » (3) ، وتعتمد فى نفس الوقت على الصراع القبلي ، ولا سيما الصراع بين اليمانية والمضرية ، وقد اشتهر الامويون باذكاء ناره ، واستغلاله لفائدة حكمهم ·

كان الولاة يتمتعون بنفوذ كبير فى ولاياتهم ، فهم المسؤولون عن الشؤون السياسية والعسكرية والادارية والمالية ويعينون بدورهم قادة للجيش وعمالا ينوبون عنهم فى مناطق تابعة لولايتهم (4) ، وقد يعين الخليفة عاملا على الخراج يرجع بالنظر اليه مباشرة ، ولم يقع الفصل فى المغرب بين والي الحرب ، أو الصلاة ووالي الخراج ، كما حدث ذلك فى مصر (5) ·

ويبلغ نفوذهم فى بعض الحالات شانا يتجاوز فيه الامر السلطة المطلقة لخدمة النظام الاموي فيصل الى كسب عدد كبير من الانصار والموالي ، وجمع ثروة ضخمة تثير حنق الخلفاء انفسهم ، وتبعث فى نفوسهم الغيرة ، ويمكن هنا أن نذكر مثالين ، مثال خالد بن عبد الله القسري عامل العراق (105 ـ 120 هـ) ، ومثال موسى بن نصير عامل المغرب والاندلس . فقد جمع الاول ثروة ضخمة ، ولا سيما من دخل الاراضي الزراعية الشاسعة التي أصبح يملكها بالعراق ، وأطلق يد عماله فى المناطق التي ترجع اليه بالنظر شرقي العراق ، واصبح يزاحم انتاج ضيعات هشام بن عبد الملك فى الاسواق . فقد اضطر الخليفة أن يكتب اليه قائلا : « لا تبيعن من الغلات شيئا حتى تباع غلات أمير المؤمنين » (7) ، ولما ختن طارق ابن أبي زياد خليفة خالد بن عبد الله القسري بالكوفة ولده اهدى اليه « الف وصيف ووصيفة سوى الاموال والثياب » (8) ·

أما نفوذ موسى بن نصير أيام ولايته للمغرب والاندلس فقد تجاوز جمع ثروة أخرى من الغنائم لم يدخل المشرق قبلها أعظم وأنفس ، وقد تسببت هذه الثروة بعد

نكبته فى تتبع أسرته وأنصاره بالمغرب ، وتغريمهم مبالغ طائلة (9) الى بعث قوة سياسية فى بلاد المغرب تعتمد على آلاف من الموالي والخدام ، ولعل هذا الحزب السياسي من الموالي والانصار الذي ركز أسسه فى بلاد المغرب هو الذي أثار خوف الخليفة الجديد فى دمشق ، وغضبه ، وأدى فى النهاية الى نكبته ، ومطاردة أسرته وأنصاره ببلاد المغرب والاندلس ، يخبرنا ابن عذاري عن أهمية هذه القوة قائلا : (ثم ان يزيد ابن المهلب سهر ليلة مع الامير موسى) ، فقال له : « يا أبا عبد الرحمن ، فى كم كنت تعتد أنت وأهل بيتك من الموالي والخدام ؟ أتكونون فى ألف ؟ » فقال : « نعم وألف ألف الى منقطع النفس ! » قال : « فلم ألقيت بنفسك الى التهلكة ؟ أفلا أقمت فى قرار عزك ، وموضع سلطانك ؟ » فقال : « والله ! لو أردت ذلك لما نالوا من أطرافي شيئا ! ، ولكني آثرت الله ـ عز وجل ـ ورسوله ولم أر الخروج عن الطاعة » (10) .

ان الامثلة كثيرة حول النفوذ الكبير الذي كان يتمتع به الولاة الامويون فى مناطقهم ، وقد كانت ولاية بلاد المغرب من الولايات الحساسة نظرا للصعوبات الكبرى التي واجهت الفتح الاسلامي للمغرب ، ولما اتسم به من هياكل اجتماعية ، ومعطيات ديمغرافية خاصة ، دعامتها الاولى العصبية القبلية ، وما يتصل بها من ميزات معينة ، فقد عين الامويون خلال فترة الفتح (27 هـ ـ 96 هـ) لادارة شؤون المغرب قادة مشهورين فى تاريخ الدولة الاسلامية مثل عقبة بن نافع ، وحسان بن النعمان الغساني ، وموسى ابن نصير ، ثم تعاقب الولاة الامويون على القيروان ، فبلغ عددهم تسعة فى الحقبة الممتدة من 96 هـ الى استقلال عبد الرحمن بن حبيب الفهري عن مركز الخلافة سنة 127 هـ (11) .

ونلمس فى تتبعنا لتراجم هؤلاء الولاة أنهم مشهورون بولائهم للامويين ، وقد تولى الكثير منهم مناصب عليا قبل تسميتهم فى المغرب (11 أ) ، فقد كان يزيد بن أبي مسلم أحد تلامذة الحجاج ، فعمل لديه كاتبا ، ثم سماه صاحب شرطة ، وشغل بشر بن صفوان منصب والي مصر قبل تعيينه واليا على بلاد المغرب ، أما عبيدة بن عبد الرحمن السلمي فهو « ابن أخي أبي الاعور السلمي صاحب خيل معاوية بصفين » (12) ، وكان عبيد الله بن الحبحاب ابن الحارث ، قيسيا بالولاء ، اذ كان مولى لبني سلول ، بارعا فى الفصاحة والخطابة ، حافظا لايام العرب واشعارها ووقائعها » (13) ، وتقلب فى وظائف ادارية مختلفة الى أن سمي عاملا على خراج مصر سنة 109 هـ (14) ، وكان كلثوم بن عياض القشيري شيخا من أعيان القيسية الخلص ، وتولى منصب صاحب

الشرطة بعاصمة الخلافة الاموية دمشق ، ثم عين هشام بن عبد الملك بعده على بلاد المغرب حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر ٠

ان اختيار ولاة المغرب من بين مشاهير القادة والموظفين يقيم الدليل على ما لمحنا اليه من اهمية هذه الولاية فى سياسة مركز الخلافة ، وهي الاهمية التي نلمسها فى تسمية أمراء الجيوش فى مرحلة الفتح ٠

ويتساءل المرء هنا عن السياسة التي اتبعها هؤلاء الولاة فى المغرب ؟

ان ادارتهم لشؤون المغرب لا تختلف عن الاساليب التي استعملها ولاة بني امية فى بقية اجزاء العالم الاسلامي ، فقد ارتكبوا أخطاء فادحة كانت لها نتائج خطيرة فى حياة المغرب . وقد كان رد الفعل فى المغرب تجاه هذه الاخطاء سريعا وعنيفا ، ولا سيما فى المناطق الريفية لما تمتاز به من هياكل قبلية ، شانها فى ذلك شان منطقة شرقي الجزيرة العربية (15) ٠

وبلغ تعسف الادارة الاموية لشؤون بلاد المغرب درجة قصوى أيام ولاية تلميذ الحجاج يزيد بن أبي مسلم الذي حاول تطبيق السياسة التي اتبعها معلمه فى العراق ، يتحدث الطبري عن سبب قتله فيقول « وكان سبب ذلك انه كان ـ فيما ذكر ـ عزم أن يسير بهم بسيرة الحجاج ابن يوسف فى أهل الاسلام الذين سكنوا الامصار ، ممن كان أصله من السواد من أهل الذمة ، فأسلم بالعراق ممن ردهم الى قراهم ورساتيقهم ووضع الجزية على رقابهم على نحو ما كانت تؤخذ منهم وهم على كفرهم ، فلما عزم على ذلك تآمروا فى أمره ، فأجمع رأيهم ـ فيما ذكر ـ على قتله فقتلوه » (16) ، ويورد ابن عذاري رواية أخرى فى سبب قتله (17) ، ولكن الروايتين تشيران الى أن السكان الاصليين هم الذين ثاروا ضد سياسته التعسفية ، ودبروا خطة التخلص منه . وحرصوا فى نفس الوقت أن يخبروا الخليفة الاموي يزيد بن عبد الملك بأن ذلك لا يعني أبدا خلع الايدي من الطاعة ، وانما هو رد فعل ضد سلوك معين يتنافى مع ابسط مبادىء الاسلام « انا لم نخلع أيدينا من الطاعة ، ولكن يزيد بن ابي مسلم سامنا ما لا يرضي الله والمسلمين ، فقتلناه ، واعدنا عاملك » (18) . اما الفترة الثانية التي اشتد فيها تعسف السياسة الاموية فهي أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب ، وسنرى مدى الظلم والارهاق الذي بلغته السياسة الجبائية بصفة خاصة ٠

وقد اشتهرت فترة قصيرة فى تاريخ ولاة بني أمية بالمغرب بحسن السياسة ، وتطبيق مبادىء الاسلام ، وهي فترة خلافة عمر بن عبد العزيز فقد قام بعزل محمد بن

يزيد القرشي ، وسمى مكانه اسماعيل بن عبيد الله ابن أبى المهاجر سنة 100 هـ على حربها ، وخراجها ، وصدقاتها ، « وكان حسن السيرة ، فأسلم البربر فى أيامه جميعهم » (19) ، ونلاحظ من جديد أن صدى سياسة الولاة يبرز فى صفوف البربر بصفة خاصة ، ولكننا نجد أكثر من اشارة الى ردود فعل صادرة عن السكان العرب تجاه سلوك معين يبدو فى تصرف الولأة الجدد ، ويمس هذا السلوك قادة مشهورين بين الاسر العربية التي استقرت بالمغرب (20) .

ولنحاول الآن التعرف الى مميزات السياسة المالية للادارة الاموية فى المغرب رابطين اياها بذلك التحول الجذري الذي بدأت تبرز معالمه فى المجتمع العربي الاسلامي منذ نهاية خلافة عثمان ، وهو تحول جاء نتيجة حتمية لظروف موضوعية ، وخضع لدينامية جديدة هي دينامية العالم الاسلامي الجديد الذي بدأ يحل عمرانيا واقتصاديا محل قوتين اقتصاديتين من قوى العالم القديم : القوة البيزنطية ، والقوة الساسانية ، لخص المعارضون للسياسة العثمانية يومئذ مظاهر التحول الاقتصادي والاجتماعي فى جملة ردوا بها عليه فى محاولته تبرير موقفه ، وهو محاصر فى داره من طرف الثوار « لانك غيرت وبدلت » ، ولكن ماذا غير الخليفة التالث ؟ يخبرنا ابن قتيبة قائلا : « وذكروا انه اجتمع ناس من أصحاب النبي عليه الصلاة والسلام ، فكتبوا كتابا ذكروا فيه ما خالف فيه عثمان من سنة رسول الله ، وسنة صاحبيه ، وما كان من هبته خمس افريقية لمروان ، وفيه حق الله ورسوله ، ومنهم ذوو القربى واليتامى والمساكين ، وما كان من تطاوله فى البنيان حتى عدوا سبع دور بناها بالمدينة : دارا لنائلة ودارا لعائشة وغيرهما من أهله وبناته ، وبنيان مروان القصور بذي خشب ، وعمارة الاموال بها من الخمس الواجب لله ولرسوله ، وما كان من انشائه العمل والولايات فى أهله ، وبني عمه من بني امية أحداث وغلمة لا صحبة لهم من الرسول ، ولا تجربة لهم بالامور ، وما كان من الوليد بن عقبة بالكوفة اذ صلى بهم الصبح ، وهو أمير عليها ، سكران اربع ركعات ، ثم قال لهم : ان شئتم زيدكم صلاة زدتكم ، وتعطيله اقامة الحد عليه ، وتأخيره ذلك عنه ، وتركه المهاجرين والانصار لا يستعملهم على شيء ولا يستشيرهم ، واستغنى برايه عن رأيهم ، وما كان من الحمى الذي حمى حول المدينة ، وما كان من ادارة القطائع والارزاق والاعطيات على أقوام بالمدينة ليست لهم صحبة من النبي عليه الصلاة والسلام ، ثم لا يغزون ولا يذبون ، وما كان من مجاوزته الخيزران الى السوط ،

وانه أول من ضـرب بالسياط ظهور الناس ، وانما كان ضرب الخليفتين قبله بالـدرة والخيـزران » (21) ·

نلاحظ من خلال نص ابن قتيبة أن أهم مظاهر التحول الجديد الذي انكره النـاس على عثمان ما يتصل منه بالملكية ، ومظاهر الثراء لدى فئـة اجتماعية جديدة سماها طه حسين «طبقة الارستقراطية العليا ذات المولد والثراء الضخم والسلطان الواسع» (22).

قد كان لهذا التحول الاقتصادي والاجتماعي الذي تبلور مع مرور الزمن تأثيره في المجتمع المغربي ، فمن المعروف في ميدان الملكية العقارية أن الامويين كانوا يهبـون أراضي الصوافي (القطائع) (23) ، وأسندت في المشـرق أراضي الموات الى أفـراد الاسرة الحاكمة ، والى أنصارها ، والى رجال الخلافة بعنوان « القطائع » ، وأقـام المالكون الجـدد في الامصار ، وتـركوا الفـلاحين القدامى يخدمون الارض ، وكانوا يتعهدون مقابل هذا الاسناد باحيائها ، وجمع الضرائب ، وتسليمها للجباة ، ثم أصبحت مع مرور الزمن ملكا يتصرفون فيه بالبيع والشراء ، وبرزت فئة جديدة من كبار الملاكين الزراعيين ، وقد اشترى العرب المسلمون كثيرا من أراضي الخراج التي كان يملكهـا غير المسلمين ، وأصبحت تؤدي العشر فقط ، ومن المعروف أن تطور الملكية الزراعية واتساعها لفائدة فئة جديدة أدى الى تضاؤل دخل الدولة الاموية من الجباية عـلى الارض ، وهو مورد أساسي مع الجزية ، وهذا التطور هو الذي يكمن وراء التفكير في توظيف ضرائب جديدة ـ بعد انتهاء غنائم الفتوحات ـ غير شرعية . وما آل اليه الامر من ردود فعـل السكان ، ومناصرة حركات المعارضة (24) ·

ان معلوماتنا عن نظام القطائع تتعلق بالمشرق . ولا سيما بأراضي العراق ، وبلاد الشام ، ولكن لا شك أن هذا النظام قد عرفته افريقية مثل بلاد المغرب في العصر الاموي فقد وزعت أراضي النبلاء البيزنطيين على العشائر والاسر العربية تشجيعا لها عـلى الاستقرار (25) ، ولكنه يبدو أن قضية التحول في نظام الملكية العقارية في المغرب لـم تكن لها أهمية تذكر في العصر الاموي ·

أما القضايا التي تشير اليها النصوص حول السياسة الاقتصادية والمالية للادارة الاموية في المغرب فهي :

أولا ـ أهمية الغنائم والهدايا التي يرسل بها الولاة الى المشرق بعد انتهاء مرحلة الفتح . ورجوع موسى بن نصير مـن الاندلس والمغـرب بثروات ضخمة (26) ، وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها الى عامل افريقية ، فيبعثون

لهم البربريات السنيات » (27) ، وأصبح الولاة يتسابقون فى كسب ود حكام دمشق بارسال الهدايا والطرائف ، واستعملوا شتى الاساليب لجمعها من السكان · يحدثنا ابن عبد الحكم عن هدايا عبيدة بن عبد الرحمن القيسي الى هشام بن عبد الملك قائلا : « وكان فيما خرج به من العبيد والاماء ومن الجواري المتخيرة سبع مائة جارية وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية » (28) ·

ثانيا ـ السبي ، فلما انتهت مرحلة الفتح ، وارسال آلاف السبايا من المغرب الى مركز الخلافة (29) ، واعتنق البربر الاسلام التجأ الولاة الى طرق تعسفية لضمان السبي ، وارساله الى المشرق · اننا نميل الى الاعتقاد بأن عبيد الله بن الحبحاب قد جهز حملات عسكرية الى مناطق نائية من بلاد المغرب لجلب السبي ، وارساله الى دمشق ، فقد بعث قائده العسكري حبيب بن أبي عبدة غازيا الى السوس الاقصى ليعود بسبي كبير (30) ، لان المصادر تشير الى أن ابن الحبحاب منى خلفاء المشرق بالكثير لما افضى الامر اليه ، « وتكلف لهم أو كلفوه أكثر مما كان ، فاضطر الى التعسف ، وسوء السيرة ، فحينئذ عدت البرابر على عاملهم ، فقتلوه ، وثاروا بأجمعهم على ابن الحبحاب » (31) ·

ان الحقيقة التي راسل بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري الخليفة العباسي أبا جعفر المنصور قائلا : « ان افريقية اليوم اسلامية كلها ، وقد انقطع السبي منها » (32) حقيقة قديمة تعبر عن وضع يعود الى نهاية القرن الاول الهجري ، وقد تجاهل الولاة الامويون هذه الحقيقة طيلة ربع قرن ، واتبعوا شتى الاساليب لمواصلة مد المشرق بهدايا المغرب ، وسبيه ·

ثالثا ـ وبلغت هذه السياسة التعسفية للادارة الاموية ذروتها القصوى بسن سياسة تخميس البربر لضمان مورد قار وثري لبضاعة ثمينة من بضائع العصر : الرقيق ، وقد اصبحت الحاجة اليه ملحة نتيجة التطور الاقتصادي والاجتماعي الذي أشرنا اليه ، يقول ابن عذاري : « ثم ان عمر بن عبد الله المرادي عامل طنجة وما والاها أساء السيرة ، وتعدى الصدقات والعشر ، وأراد تخميس البربر ، وزعم أنهم فيء المسلمين ، وذلك ما لم يرتكبه عامل قبله ، وانما كان الولاة يخمسون من لم يجب للاسلام ، فكان فعله الذميم هذا سببا لنقض البلاد ، ووقوع الفتن العظيمة المؤدية الى كثير القتل فى العباد نعوذ بالله من الظلم الذي هو وبال على أهله » (33) · ان هذه السياسة تدل على مدى النفوذ الذي كان يتمتع به الولاة فى مناطقهم ، وقد كان واسعا

في الميدان المالي ، فكانوا يستعملون أموال بيت المال لكسب الانصار (34) ، كما كانوا يتذرعون بمقاومة المعارضين السياسيين لاتباع طريقة التغريم ، واستئصال الاموال ، وهو ـ في نظرنا ـ مظهر من مظاهر السياسة المالية في حياة الخلافة الاموية في المشرق والمغـرب (35) ·

ان تصرف العمال في أموال المسلمين يعكس نظرة بني أمية الى الشؤون المالية ، وقد بدأت تبرز هذه النظرة الجديدة منذ نهاية خلافة عثمان ، فنجد عبيدة بن هـــلال الخارجي يخطب سنة 64 هـ محللا نقاط الضعف ، وسوء التصرف أيام عثمان ، فيقول : « ثم أخذ فيء الله الذي أفاءه عليهم فقسمه بين فساق قريش ، ومجان العرب » (36) ·

اننا نستطيع أن نؤكد في هذا السياق أن نفوذ ولاة المغرب في الميدان المالي كان كبيرا فتجاوز جمع الهدايا ، واستنباط أساليب ضمان السبي ، ليبلغ الميدان الجبائي بسن ضريبة متنافية مـع المبادىء الاسلامية مثـل ضريبة التخميس ، وميدان ضـرب العملـــة (37) ·

أما في ميدان السياسة الجبائية فمن المعروف أن هذه القضية أصبحت تمثل سمة بارزة في سياسة الخلافة الاموية بصفة عامة ، فبعد ان توقف تدفق الغنائم على مركز الخلافة بتوقف الفتوحات ، وذلك في نفس الفترة التي ازدادت فيها تكاليف بناء جهاز الدولة الجديدة ، ولا سيما تكاليف الجند ، بدأ البحث عن موارد مالية جديدة بسـن نظام جبائي مرهق يعتمد أساسا على الخراج والجزية ، وقد حاول الخليفة عمر بن عبد العزيز أن يدخل اصلاحا جذريا على النظام المالي للدولـة الامويـة (38) ، ولكن هذا الاصلاح لم يؤت اكله ، فقد كانت خلافته قصيرة ، ثم سرعان ما تراجع الخلفاء بعـده عن النظام المالي الجديد الذي حاول وضع أسسه ، فقد أخذ يزيد بن عبد الملك « أهـل السغد الذين دخلوا الاسلام بأداء الجزية بعد أن كان عمر بن عبد العزيز قد وعدهم بأن يسقطها عنهم ، وفعل مثل ذلك مع البربر يزيد بن أبي مسلم عامله على افريقية » (39) ·

فهل يمكن ـ بعد التعرف الى ملامح هذه السياسة المالية ـ تفسير حركات المعارضة والانتفاضات المسلحة ضـد الخلافة الاموية بدون بحـث الاسباب الاقتصادية ، وهي أسباب قد دعمت المعارضة الدينية والاجتماعية كما لمحنا الى ذلك أكثر من مرة (40) ·

قد يلاحظ المـرء قائلا : ان بعض النصوص تشـير الى محاولة الخلفاء الامويين التحري في قبول أموال الجباية القادمة من المغرب ، ولكن هذه النصوص نفسها تكشف

عن عدم احترام الاصول الشرعية فى جمع أموال الجباية ، وينقل لنا مؤلف « أخبار مجموعة » نصا ثمينا فى هذا الميدان حيث يقول : « وذلك أن الخلفاء كانوا اذا جاءتهم جبايات الامصار والآفاق يأتيهم مع كل جباية عشرة رجال من وجوه الناس ، وأجنادها فلا يدخل بيت المال من الجباية دينار ولا درهم حتى يحلف الوفد بالله الذي لا اله الا هو ما فيها دينار ولا درهم الا أخذ بحقه ، وانه فضل اعطيات أهـــل البلد من المقاتلة والذرية بعد أن أخذ كل ذي حق حقه فأتى وفد افريقية بخراجها ، وذلك أنها لـــم تكن يومئذ ثغرا ، فكان ما فضل بعد أعطيات الاجناد وفرائض الناس ينقل الى الخليفة فلما وفدوا بخراج افريقية فى زمان سليمان أمروا بأن يحلفوا فحلف الثمانية ، ونكل اسماعيل ابن عبيد اللـــه مولى بني مخزوم ، ونكل بنكوله السمح بن ملك الخولاني فأعجب ذلك عمر بن عبد العزيز من فعلهما ، ثم ضمهما الى نفســـه فاختبر منهما صلاحا وفضلا ، فلما ولي عمر ولى اسماعيل افريقية ، وولي السمح بن ملك الاندلس وأمره أن يخمس أرضها ، ويخرج منها ما كان عنوة خمسا لله من أرضها وعقارها ، ويقر القرى فى يدي غنامها بعد أن يأخذ الخمس » (41) ·

ان رفض رجلين مـــن أعضاء الوفـــد عرفا بأمانتهما اداء اليمين يثبت أن أمـــوال الجباية المنقولة قد استعملت فى جمعها أساليب غير شرعية ·

أما تعيين الرجلين على ولايتي المغرب والاندلس فيما بعد فهو يندرج ضمن خطـة الاصلاح المالي الذي حاول عمر بن عبد العزيز ادخاله على الهياكل الاقتصادية للخلافة الاموية ، ولكننا نعرف أن هذه المحاولة لم تنجح ، واشتد عبء النظام الجبائي الاموي على المسلمين فى المشرق والمغرب ، ولا سيما أيام خلافة هشام بن عبد الملك (41 أ) ·

ويتساءل المرء فى هذا السياق عن نتائج هذه السياسة الجبائية والمالية بصفة عامة ·

ان هذه النتائج معروفة نسبيا ، فقد كانت من العوامل الحاسمة فى اندلاع حركات المعارضة هنا وهناك ضد السياسة الاموية ، وفى سقوط الخلافة فى خاتمة المطاف ، ولكننا نريد أن نؤكد من جديد أن انتفاضات الخوارج فى بلاد المغرب تعبر عن معارضة ضد سياسة اقتصادية واجتماعية معينة ، فقد اكتسبت خطورة كبرى ضمن حركـات المعارضة الاخرى حيث التحمت الدعوة الدينية ، شعار المعارضة السياسية والاجتماعية بالعصبية القبلية ، ولكنها لا تختلف كثيرا عن انتفاضات أخرى اندلعت ضد اخطـاء السياسة الاموية ، فقد تزعم المختار بن أبي عبيد حركة معارضة فى الكوفة سنة 66 هـ

اعتمدت أساسا على مناصرة الموالي ، وقد التفوا حولها أملا فى التخلص من جور الادارة الاموية ، وقد عبر اشراف الكوفة عن سبب منامضتهم لحركة المختار قائلين : « ... ولقد أدنى موالينا ، فحملهم على الدواب ، وأعطاهم ، وأطعمهم فيئنا ، ولقد عصتنا عبيدنا » (42) ، وقالوا له : « عمدت الى موالينا ، وهم فيء أفاءه الله علينا ، وهذه البلاد جميعا فاعتقنا رقابهم ، نأمل الاجر فى ذلك والثواب والشكر ، فلم ترض لهم بذلك حتى جعلتهم شركاءنا فى فيئنـــا » (43) ، وكانوا يشكون من وثـــوب عبيدهم وموالـيهـم عليهم (44) ، وقبل سنة من انتفاضة الخوارج بمنطقة طنجـة بزعامة ميسرة السقـاء اندلعت فى الكوفة سنة 121 هـ حركة معارضة مسلحة بقيادة زيد بن علي ، وكانت بيعته التي يبايع عليها الناس : « انا ندعوكم الى كتاب الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم ، وجهاد الظالمين ، والدفع عن المستضعفين ، واعطاء المحرومين ، وقسم هذا الفيء بين أهله بالسواء ، ورد الظالمين ، واقفال المجمر ، ونصرنا أهل البيت على من نصب لنـا وجهل حقنا » (45) ، وفى نفس المدة ثار أهل السفد ضد جور السياسة الاموية ، وكلما قمع جند الشام انتفاضة حاول الولاة الانتقام من السكان فاشتد حنق الناس ، خطـب يوسف بن عمر بعد هزيمة زيد بن علي سنة 122 هـ فى الكوفة قائلا : «... ابشروا يا أهل الكوفة بالصغار والهوان ، لاعطاء لكم عندنا ولا رزق ، ولقد هممت أن اخرب بلادكم ودوركم ، واحرمكم أموالكم ، أما والله ما علوت منبري الا اسمعتكم ما تكرهون عليه ، فانكم أهـل بغي وخلاف ، ما منكم الا مـن حارب اللـه ورسوله ، الا حكيم بن شريك المحاربي ، ولقد سألت أمير المؤمنين أن يأذن لي فيكم ، ولو أذن لقتلت مقاتلتكم وسبيت ذراريكم » (46) ، فاذا كان هذا الكـــلام يوجه الى سكان مدينة اسلامية مثل الكوفة ، فيمكن أن نتصور معاملة الامويين للمعارضين لسياستهم فى مناطق نائية مثل بـلاد المغـــرب .

ولم تمض سوى بضع سنوات على حركات الخوارج فى المغرب ، وثورة أهل السفد وانتفاضة سكان الكوفة بزعامة زيد بن علي حتى اندلعت حركة أخرى فى المدينة نفسها سنة 130 هـ بقيادة أبي حمزة الخارجي (47) .

فلا يمكن ـ اذن ـ فهم حركات الخوارج فى المغرب ضد أخطاء الادارة الاموية ، ولا سيما فى الميدان الجبائى اذا عزلت عن حركات المعارضة الاخرى فى بقية منـاطق العالم الاسلامي عصرئذ ، ومنها الجزيرة العربية نفسها .

ان هذه الرؤية الشمولية هي التي تدحض ذلك الاتجاه الذي يذهب أصحابه الـى التركيز على مقاومة بربرية للحكـــم العـربي فى تفسيرهم لانتفاضات الخـوارج فى المغـــرب (48) .

1) انظر دائرة المعارف الاسلامية . 2 ، ج 3 ، ص 696 .

R Brunschvig, Ibn Abdalhakam et la conquête de l'Afrique du Nord par les Arabes, Annales de l'Institut d'Etudes Orientales, t VI, 1942-7, pp. 110-55.

2) راجع دراستنا عن حركات الخوارج في المغرب وفي منطقة الخليج خلال العصر الاسلامي الاول ، أبحاث المؤتمر العالمي لتاريخ شرقي الجزيرة ، الدوحة ، مارس 1977 تحت الطبـــع .

3) ابن عذاري ، البيان المغرب ، ليدن ، 1948 ، ج 1 ، ص 55 .

4) راجع عن التنظيم الاداري ، وعن المؤسسات في المغرب في عصر الولاة :

Hicham Djait, Le Wilaya d'Ifriqiya au II'-VIII' siècle Etude institutionnelle, Studia Islamica t XXVII, 1967, pp 77-121, t XXVIII, pp. 79-107

5) ن ، م ، ج 27 ، ص 98 .

6) انظر الطبري ، تاريخ الرسل والملوك ، القاهرة ، 1966 ، ج 7 ، ص 26 وما بعدها ، ص 142 وما بعدها .

7) ن ، م ، ج 7 ، ص 154 .

8) ابن الاثير ، الكامل في التاريخ ، بيروت ، 1965 ، ج 5 ، ص 221 .

9) انظر . البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج 1 ، ص 47 .

10) ن ، م ، ج 1 ، ص 46 .

11) هؤلاء الولاة هم : محمد بن يزيد القرشي (96 ــ 100 هـ) ، اسماعيل بن عبيد الله بن أبي المهاجر (100 ــ 102 هـ) ، يزيد بن أبي مسلم (102 ــ 102 هـ) ، محمد بن أوس الانصاري (102 ــ 102 هـ) ، بشر بن صفوان الكلبي (103 ــ 109) ، عبيدة بن عبد الرحمن السلمي (110 ــ 114 هـ) ، عبيد الله بن الحبحاب (116 ــ 123 هـ) ، كلثوم بن عياض القشيري (123 ــ 124 هـ) ، حنظلة بن صفوان (124 ــ 127) .

11أ) وكان بعض الخلفاء الامويين يعطون أهمية لتسمية ولاة من أصل قرشي ، فلما ثار سكان القيروان على يزيد بن أبي مســـلم وقتلوه سمـــوا مكانه محمد بن أوس الانصاري ، وأرسلوا خالد بن أبي عمران لاعلام الخليفة « قال خالد ودعاني يزيد خاليا فقال أي رجل محمد بن أوس فقلت رجل من أهـــل الدين والفضل معروف بالفقه قال فما كان بها قرشي قلت بلى المغيرة بن أبي بردة قال قد عرفته فماله لم يقم قلت أبى ذلك واحب العزلة فسكت » ، ابن عبد الحكم ، فتوح مصر واخبارها ، ليدن ، 1920 ، ص 215 .

12) البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج I ، ص 50 .
13) ن ، م ، ج I ، ص 51 .
14) انظر : سعد زغلول عبد الحميد ، تاريخ المغـــرب العربي ، القاهرة ، 1965 ، ص 248 ، تعليق رقم 4 .
15) راجع دراستنا عن حركات الخوارج ، سبق ذكرها .
16) الطبري ، سبق ذكره ، ج 6 ، ص 617 ، ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 101 .
17) البيان ، سبق ذكره ، ج I ، ص 48 .
18) الطبري ، ج 6 ، ص 617 .
19) ابن الأثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 23 .
20) انظر : البيان المغرب ، سبق ذكره ، ج I ، ص 54 وما يليها .
21) الامامة والسياسة ، القاهرة ، 1963 ، ص 32 ، انظر أيضا : الطبري ، سبق ذكره . ج 4 ، ص 330 وما بعدها .
22) الفتنة الكبرى ضمن « اسلاميات » ، بيروت ، 1967 ، ص 743 ، راجع أيضا : دراستنا عن حركات الخوارج فى المغرب وفى منطقة الخليج ، سبق ذكرها .
23) فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، ترجمة أبو ريده ، القاهرة ، 1968 ، ص 280 وما بعدها ، انظر أيضا : عبد العزيز الدوري ، نشأة الاقطاع فى المجتمعات الاسلامية ، مجلة المجمع العلمي العراقي ، المجلد 20 ، 1970 .
24) R. Mantran, L'expansion musulmane, Paris, 1969, p. 140 ———————
25) يبدو أن توزيع الاراضي فى افريقية على الجيش لم يتـــم فى العهد الاموي ، انظر : دراسة هشام جعيط ، سبق ذكرها ، مجلد 27 ، ص 109 وما يليها :
نلاحـظ فى هذا الصدد أن حسان بن النعمان الغساني قـد صالح سنـة 82 هـ على الخراج ، وكتبه على عجم افريقية ، وعلى من أقـــام معهم على دين النصرانية فقط ، البيان ، سبق ذكره ، ج I ، ص 38 .
ويتساءل المرء عن معاملته لاراضي القبائل البربرية فهل اعتبرت أراض فتحت عنوة أم تركت لاصحابها ؟
26) ن ، م ، ج I ، ص 43 وما بعدها .
27) ن ، م ، ج I ، ص 52 .
28) فتوح مصر وأخبارها ، سبق ذكره ، ص 217 ، انظر أيضا عـن هدايـا الولاة

ن ، م ، ص 215 ، البيان ، سبق ذكره ، ج I ، ص 51 ، ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج ص 191 .

29) راجع عن سبايا حسان : البيان ، سبق ذكره ، ج I ، ص 39 ، وقـــد اشتهر فترة موسى بن نصير في مرحلة الفتح بكثرة السبايا حتى روي أن الليث بن سعد ق قال : « لم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير في الاسلام » ن ، م ، ج I ، ص 3

30) ن ، م ، ج I ، ص 51 .

31) ن ، م ، ج I ، ص 52 .

32) ن ، م ، ج I ، ص 67 وفي رواية ابن الاثير : « وقد انقطع السبي منها والمال فلا تطلب مني مالا » ، الكامل ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 314 .

33) البيان ، ج I ، ص 51 وما يليها .

34) مثلا عبيد الله بن زياد والي البصرة ، الطبري ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 505 حنظلة بن صفوان في المغرب ، البيان ، سبق ذكره ، ج I ، ص 58 .

35) راجع مثلا عن تغريم أسرة موسى بن نصير : ن ، م ، ج I ، ص 47 .

36) الطبري ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 566

37) راجع : هشام جعيط ، سبق ذكره ، مجلد 27 ، ص 100 وما بعدها .

38) راجع في هذا الصدد :

Cl. Cahen, l'Islam des origines au début de l'Empire Ottoman, Paris, 1970, pp. 39-42 ; فلهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، سبق ذكره ، ص 276 وما بعدها .

39) ن ، م ، ص 312 وما يليها .

40) انظر : دراستنا عن حركات الخوارج » ، سبق ذكرها ،

Mantran, op cit., p. 144

41) اخبار مجموعة ، مدريد ، 1867 ، ص 22 وما يليها .

راجع في هذا الصدد سبب تولية عمر بـن عبد العزيز سنة 99 عبد اللـه بن المغ ابن أبي بردة الكناني قضاء القيروان : الدباغ ـ ابن ناجي ، معالم الايمان ، القاهرة 1968 ، ج I ، ص 210 .

41) انظـــر :

Hamed Talbi, Rapports de l'Ifriqiya et de l'Orient au VIIIe siècle, Les Cahiers de Tunisie, 26-27, 1959, p. 301 suiv.

42) الطبري ، سبق ذكره ، ج 6 ، ص 43 .

43) ن ، م ، ج 6 ، ص 44 .

44) ن ، م ، ج 6 ، ص 94 .

45) ن ، م ، ج 7 ، ص 172 ، انظر أيضا : ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 5 ، ص 233 ، لهوزن ، تاريخ الدولة العربية ، سبق ذكره ، ص 326 .

46) الطبري ، سبق ذكره ، ج 7 ، ص 191 .

47) راجع دراستنا عن حركات الخوارج ... ، سبق ذكرها .

48) ركزنا في الدراسة المذكورة على خطأ هذا التفسير الذي لم يلفت النظر ، ولم ير الاستغراب طيلة نصف قرن ، وما يزال البعض يتمسك به رغم النصوص الواضحة للفندة ، ولعل اثمن نص ، وأدقه في تفسير ثورات البربر الخوارج ضد السياسة الاموية في المغرب هو وثيقة الشكوى التي سلمها وفدهم في دمشق الى الابرش الكلبي بعد أن رفض هشام ابن عبد الملك استقبالهم ، أنظر : ابن الاثير ، سبق ذكره ، ج 3 ، ص 92 وما يليها ، راجع أيضا ن ، م ، ج 6 ، ص 191 ، أخبار مجموعة ، سبق ذكره ، ص 31 وما يليها .

ونشير هنا الى أن الاستاذ كلود كاهن ما يزال متأثرا بالتفسير القديم لانتفاضات الخوارج ، وهو تفسير نلمسه بالخصوص في دراسات كثير من المستشرقين الفرنسيين وقد جعله هذا التأثر يقع في شيء من التناقض راجع :

Cl Cahen, L'Islam .. op. cit , pp 45-46

الامامـــة والزعامـــة الدينيـــة

د· المنجـي الكعبي
كلية الآداب ـ الجامعة التونسية
نائب في مجلس الامة التونسي

واجه الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية بعثته نوعين مـن المعارضة ، معـارضة سياسية ومعـارضة دينية · ونعتقد أن المعارضة السياسية كانت أشد وأسبق من المعارضة الدينية · وكانت المعارضتان ربما تتحدان أحيانا ، وأحيانا أخرى تفترقان ·

وكانـت المعـــارضة السياسية شخصيـة في بعض الحالات ، كما في حالة أبي سفيان خصوصا أثناء فتـح مكة ، وفي حالات أخرى معارضة قبلية ، كما في حالة المواجهة بين قريش ، قبيلة الرسول المستظهرة بالدعوة . وبين القبائل المكيـة الاخرى المنافسة لهـا في السلطـة ، وفي بعض الحالات الاخرى معارضة قومية بين القبـائل المضرية ، التي منها قريش والقبائل القيسية ، أي بين عرب الشمال وعرب الجنوب · وبطبيعة الحال كانت هناك مستويات أخرى دون ذلك من المعارضات السياسية ولدهـ الوضع القبلي في الجزيرة على عهد البعثة النبوية ·

وما واجهه الرسول (ص) واجهه تقريبا قادة الفتح الاسلامي فى سائر الامصار والممالك التي دخلها الدين الجديد صلحا أو عنوة ٠

ولا نستطيع فى الحقيقة أن نتحدث عن معارضة دينية خالصة للاسلام الا من خلال معارضة اتباع الاديان السابقة لاتباع الدين الجديد ، لان الاديان فى حقيقتها السماوية لا تتعارض ، وانما تتناسخ وتتكامل ويسلم بعضها الى بعض ٠

ولذلك فالمعارضة قائمة فى حقيقة الامر والواقع فى اشخاص قادة تلك الديانات القديمة لاستحكام نزعة التسلط والنفوذ فى نفوسهم ـ وهي نزعة بشرية ـ الى جانب ظاهرة اجتماعية نفسية تتمثل فى صعوبة انقياد السلف للخلف ، أو بعبارة أخرى اذعان المتقدمين للمتأخرين ، الا أن يكون ذلك بسبب نزول اديان أو حدوث ثورات كبرى فيقع عندها خرق القاعدة العامة ٠

وكان لابد للتغلب على المعارضة السياسية من أن يستظهر الرسول (ص) تباعا بعصبيته فى بيته وفى عشيرته وقبيلته وقومه ، ذلك ان العصبية هي أمر قدره الله فى طبيعة الاجتماع الانساني وما كان للرسول أن يقضي على قوة ضرورية للعمران البشري ، بل يسره الله الى اخضاع تلك العصبية لعصبية اقوى واشمل هي العصبية الدينية ، أو الرابطة الدينية المقدسة ، وتمثل ذلك فى حركة المؤاخاة التي قام بها صلى الله عليه وسلم لبناء مجموعته الانسانية الجديدة المتجانسة ، التي هي الامة الاسلامية .

ومعلوم أن نواة الامة الاسلامية نشأت فى المدينة ، ونشأت بنشأتها الدولة الاسلامية خصوصا بعد أن تحددت دار الاسلام ودار الكفر بحدود جغرافية وسياسية هي حدود الفتح الاسلامي التي كانت دائرته فى توسع مطرد ، وبعد أن أصبحت تلك المجموعة ينتظمها نظام واحد متميز يسير شؤونها الدينية وغير الدينية ٠

ومن الثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يشاور أصحابه فيما يعرض للمسلمين فى شؤون حياتهم ، وكان يفضل بعضهم على بعض بما قدموا لنصرته على أعدائه غير أن جماعة منهم على رأسهم ابو بكر وعمر وعثمان وعلي ـ رضهم ـ كانوا جميعا فى المقام الافضل عنده ٠ وربما لم يمنع ذلك من شعور كل منهم بزيادة فضل له على واحد أو أكثر من الآخرين ولذلك فعندما عرض المسلمون ، بعد وفاة الرسول (ص) للخوض فى تقديم أحدهم للخلافة افترقوا ، فقدم بعضهم عليا وقدم بعضهم أبا بكر وقدم آخرون غيرهما ٠

ولقد كتب أدب كثير حول ما حدث فى سقيفة بني ساعدة بعد موت الرسول ، أغلبه قائم على التهويل والمبالغة وأقله لا يخلو من التوجيه والمعارضة ٠

ومهما يكن من أمر فالمؤكد فى نظرنا أن اجتماع السقيفة يمثل قيام أول معارضة سياسية بين المسلمين أنفسهم ، معارضة سياسية ومعارضة دينية كذلك ٠

فالخلاف الذي دب بين المهاجرين والانصار يومئذ يمكن اعتباره مجرد نزاع على النفوذ السياسي ، وفيه مشابه قوية من المنازعات القبلية المعهودة ، فقد كانت كل من الطائفتين تستظهر من أجل استحقاقها الخلافة بما قدمته فى سبيل الدين الجديد ٠

أما المعارضة الدينية فلا تعدو فى الحقيقة موقف علي بن أبى طالب ـ رضه ـ وان كان لم يشهد اجتماع السقيفة ، غير أن موقفه لم يكن ليخفى على الحاضرين ، ولا يبعد أن يكون له من بين أعضاء السقيفة أكثر من مؤيد ، ولا نعتقد أن فكرة الوصية بالخلافة ظهرت متأخرة عن زمن الرسول أو هي فكرة آل البيت وحدهم ، فقد كانت على الاقل احتمالا قائما فى الاذهان آنذاك الى جانب فكرة الاختيار فى دائرة الشورى ٠

ونعلم ما افضى اليه اجتماع السقيفة ، فقد بويع لابي بكر بعد نزول الانصار للمهاجرين عن الخلافة ، وحسمت المعارضة بينهما لكن لم يحسم مشكل الخلافة أصلا ٠ فقد ظل تفكير طائفة من المسلمين منصرفا الى وجوب رد الخلافة بالوصية فى آل بيت النبي قطعا لاسباب الخلاف السياسي بين الاحزاب ، سواء بين المهاجرين وبين الانصار كما حدث فى السقيفة أو بينهم وبين غيرهم ٠ لكن فكرة الوصية لو ظلت بهذا المفهوم لكانت تدبيرا سياسيا صرفا لا يشفع لها بالغلبة على التيارات السياسية الاخرى المتعددة ، ولذلك فهي ليست هي فكرة آل البيت ، لان الوصية عند هؤلاء ليست فكرة سياسية أو فكرة المقصود منها التبرك بالنبوة بل هي فكرة دينية خالصة ، قوامها أن الهداية الالهية ضرورية للاجتماع البشري ٠ وهاته الهداية تكون بواسطة الانبياء والمرسلين وتكون من بعدهم بواسطة الحواريين والائمة ، فهم الاوصياء ، وكل امام ينص عمن بعده الهاما من الله وحكمة ٠

ولذلك فالتفكير الشيعي ، وهو أكثر تدينا من هذه الناحية ، قائم على كون علي ـ عم ـ هو الذي اختاره النبي (ص) للامامة بعده ، ونص عليه نصا صريحا فى حديث غدير خم المشهور : « من كنت مولاه فعلي مولاه ، اللهم وال من والاه وعاد من عاداه » ، وربط الشيعة هذا الحديث بقوله تعالى : « أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم » ، وقالوا قرن الله عز وجل طاعة الائمة عليهم السلام بطاعته وطاعة رسوله ،

فلو كان للناس أن يقيموا اماما تجب طاعته باقامتهم اياه ، لوجب كذلك أن يقيموا نبيا والها كما فعلت الجاهلية !

ونحن نعتقد أن الشيعة كانوا يؤمنون اقوى واقوى اعتقادا من سائر المسلمين لتفكيرهم ذاك بالامامة ·

وقد يقال كما قيل فى الرد على فكرة الامامة لو كان اللـــه سبحانه وتعالى اراد الامامة بعد النبوة لوضح ذلك توصيحا ما بعده توضيح ، ولما وقع خلاف بين المسلمين فى الامامة بعد وفاة الرسول · لكن الـــرد على ذلك القول يمكن أن يكون بسيطا فى بساطة الاعتراض ، وهو أن ارادة الله أسمى من كل افتراض منطقي ، ومن يدرينا انه جعل فى ذلك الخلاف وفى الامور الخلافية الاخرى سعادة المحقين وشقاوة المبطلين ·

ولذلك قلنا ان اجتماع السقيفة وقع تهويل كثير لما حدث فيه ، واتخذ باطلا حجـة للتشنيع علي الصحابة وعامة العرب والمسلمين طـــوال تاريخهم ، بينما فى الحقيقة لا يعدو اجتماعا سياسية ، وككل اجتماع سياسي يمكن ان تخرج الاطراف المتقابلة منه باتفاق عام أو بنصف اتفاق أو بالانفضاض منه على غير اتفاق ··

وقد وقع الخلاف والافتراق حتى بين الشيعة أنفسهم دون أن يمس ذلك بمبدأ الامامة فى جوهره ، مما يدل على أن اجتماع السقيفة ليس بدعا من الاجتماعات ولا اســـوأ اثـــرا ·

ولقد ولد ذلك الخلاف فى الحقيقة حركة فكرية قوية ، يشبه أن يكون ذلك الاجتماع منطلقا لها وبداية لظهور الفلسفة السياسية فى الاسلام · ولم تكن كل الاحداث المتصلة بقضية الخلافة وما صاحبها من ثورات الا أحداثا زادت الفكر الاسلامي حدة ونفـاذا لتعمق مشكلة الحكم ، تلك القضية الدائمة التي شغلت جميع المجتمعات فى جميـــع الاقطار والازمان ·

ذلك أن نظام الحكم ليس هدفا فى حد ذاته وانما سعادة الشعب هي الهدف ، ولمـا كانت الشعوب فى تفاعل مستمر مـــع نفسها ومـــع غيرها ويعتريها مـــا يعتري الكائن البشري من التطور والنمو والانبعاث ، لزم أن تختلف النظم التي تتعاقب عليها لصلاحها بحسب أحوالها وازمانها ·

ولقد قرر ابن خلدون بحق أن العصبية الدموية وما التحق بهـــا من ولاء وحلف وارتزاق تنزع بطبيعتها الى الغلبة ، والغلبة تكون الملك فالدولة ، والدولة لا تستقر الا بتأييد العصبية التي كونتها ، أو بعصبية جديدة تستعيض بها عن عصبيتها القديمة ·

وقرر كذلك أن الدين وكل دعوة حق بصورة عامة تكسب العصبية قوة الى قوتها الطبيعية وتزيد في اتساع ملكها والتمكين لها في الارض ، وقرر ايضا أن الدول العامة الملك تستمر وتطول أعمارها بتجدد العصبية فيها ، أي القوى السياسية التي تعضدها ولا تزال نظريته في انتقال الخلافة في الاسرات التي حكمت العالم الاسلامي أو أطرافا منه صحيحة · فقد رد استقرار الخلافة في العرب طيلة قرون عديدة ببقاء الغلبة لقريش في العرب ، وبذلك علل صاحب المقدمة ما وجده من اشتراط النسب القرشي في كتب الاحكام السلطانية في باب الامامة والخلافة ·

ونفى أن يكون ذلك الشرط من باب التبرك بقبيلة النبي (ص) وعليه فقد اعتبر ذلك الشرط هو شرط العصبية بصورة عامة وأداه استقراؤه للتاريخ الأسلامي الى أن عامل العصبية كان وراء كل الانتفاضات والثورات والدول التي قامت في الاسلام · ولذلك حمل محمل التهور خروج كل داعية أو ثائر دون حساب لقانون العصبية قبل الاعلان عن دعوته أو القيام بثورته ·

اذن ، فعلاقة العصبية بالخلافة أو علاقة الخلافة بالعصبية هي علاقة طبيعية قديمة قائمة بينهما بصورة جدلية منذ بداية الحكم في الاسلام ، وليس في تقرير ذلك أدنى غضاضة على منصب الخلافة ، اذ النبوة نفسها على ذلك ، فقد قضى الله سبحانه وتعالى الا يبعث رسولا الا في منعة من قومه أي في عصبية وقوة ·

وقد تقرر من الوهلة الاولى في اذهان المسلمين أن الخلافة هي خلافة رسول الله على رأس الدولة الاسلامية في شؤون الدين والدنيا معا · ولم يقم كما نعلم تفريق في البداية بين الامامة والخلافة أو فصل بينهما ·

الا أن الشيعة بعدما تبلورت عقيدتهم في الامامة جعلوها ـ أي الامامة ـ أعم من الخلافة وتصوروا امكانية أن تخرج الخلافة من الشيعة دون أن تنقطع الامامة عنهم أي عن آل البيت ·

ونحن نعتقد أن الخلافة والامامة لو ظلتا امرا واحدا قبل التفكير الشيعي وبعده لما سقطت الخلافة كنظام ، ولما قام التصور في الفكر الاسلامي عامة بانفصال الامامة عن الخلافة · لان نظرية الحكم في الاسلام ارتبطت بالدين من البداية ، وحتى بعد سقوط الخلافة العثمانية وظهور دعوات فصل الدين عن الدولة لم تستطع المجتمعات الاسلامية أن تخضع لمنطق فصل الدولة عن الدين ·

وفى الحقيقة يمكن أن نعتبر ، لا من باب التصور ولكن من باب الواقع ، أن الخلافة لم تسقط بسقوطها على يد مصطفى كمال أتاترك ، وانما سقط لفظها فقط أو مفهوم من مفاهيمها الكثيرة لدى الفقهاء · ذلك أن الشيعة الزيدية ، فضلا عن أهل السنة ، جوزوا امكانية قيام أكثر من خلافة فى بلاد الاسلام ، كما جوزوا خلافة المفضول مع وجـــود الافضل · ولما قام حكم الشيعة هنا بالقيروان ، ظن حكما بدون خلافة طيلة نصف قرن تقـريبـا ·

ولذلك فالتلقب بالخليفة أو الامير أو الامام أو السلطان او غيره جائز ولا عبرة الا بما وراءه وهو اعتبار الصفة الدينية والسياسية للحاكم المنتصب على رأس الدولة كما هي فى نفسه وكما يراها له دستور بلاده ·

ولو ذهبنا نستقرىء الانظمة السائدة فى البلاد العربية والاسلامية الحديثة لوقفنا على سيطرة العامل الديني فيها ، سواء فى مستوى القيادة أو فى مستوى التشريع ، وكذلك فى الرؤيا المستقبلية التي تراها تلك النظم للعالم ·

فالزعامات السياسية التي عرفتها تلك البلدان فى مضمار كفاحها ضد الاستعمار لم يظفر منها بقيادة الجماهير وتعبئتها للحصول على الاستقلال الا الزعامات الدينية أو المعتضدة بالدين ، بينما الزعامات الشيوعية واللائكية ظلت هامشية وقليلة التاثير .

وفى عهد ما بعد الاستقلال بادرت كل القيادات السياسية الحاكمة بالاعلان عـن تأكيد انتمائها للامـــة الاسلامية وارتباطها ارتباطا عضويا بمجموعة مـن مجموعاتها القـوميـــة ·

وعادت من جديد الى السطح فكرة الوحدة العربية أو الوحدة الاسلامية كاختيار أساسي فى سياسة تلـك البلدان لمجابهة التكتـلات الاقتصادية والاجتماعية والدينيـــة والمذهبية السائدة فى عـالم اليوم ، بينما كانت الوحدة حلمـا يراود بعض الزعماء والمصلحين أيام فترات كفاحهم العصبية · وكل الحكومات القائمة اليوم فى البـــلاد الاسلامية ملتزمة فى تشاريعها بمبادىء الدين الحنيف ، واخشى ما تخشاه هو ظهـور معارضات دينية فى وجهها لسبب من الاسباب ·

وما تأقلم الشيوعية فى كثير من البلدان العربية والاسلامية وانكفاؤها عن مناهضة الدين الا دليل على تجذر الوازع الديني وقدرته الخارقة على أحداث كل تغيير حاسم فى المجتمعات الاسلامية ·

وكل الاشتراكيات التي ظهرت فى العالم العربي والاسلامي كان عليها قبل كل شيء أن تعرف نفسها بالنسبة للاسلام ، ولعل فيما حدث أخيرا لحزب البعث من تراجع الى ايمان صريح بالاسلام بعد تجاربه المريرة فى الحكم أبلغ دليل على حتمية أن يستلهم كل حزب ، يريد لنفسه النجاح ، القيم الاصيلة والمتجذرة فى وجدان أمته ٠

ان عددا من الزعماء السياسيين اليوم فى البلاد الاسلامية الحديثة عهدا بالاستقلال يدركون أن الاستعمار قد تخلى عن الكثير من مستعمراته مناورة لا هزيمة ، حتى لا ينتظر بحركات الكفاح الشعبي الاصيلة أن تجتثه من جذوره فى تلك البلدان ، وحتى لا يترك فرصة للشيوعية للتغلغل فى صفوف المقاومة الوطنية ، ولو كمجرد تكتيك واستراتيجية وحتى يمهد لعهد جديد من الاستعمار المقنع فى تلك البلدان ٠

وأصبحت صورة الاستعمار الجديد واضحة مكشوفة فى أكثر من بلد من بلاد العالم الاسلامي ، ومن قال : « الدين أفيون الشعوب » ، فبالنظر للاستخدامات الرأسمالية والامبريالية له ، هو على حق ، ذلك أن من أسلحة الصراع الدائر اليوم بين الشيوعية العالمية والرأسمالية الدولية هو تدعيم الرجعية الدينية من قبل هذه ومقاومة التخدير الديني من قبل تلك ٠

ولذلك فان رد الفعل لدى تلك الشعوب المسلمة لم ينتظر طويلا ٠ فقد ظهرت قيادات سياسية حديثة أسست حركة عدم الانحياز ، وتطور رد الفعل ، على يد قيادات ثورية أحدث عهدا ، الى الاعلان عن قيام نظرية ثالثة بين الشيوعية والرأسمالية هي النظرية الاسلامية ٠ وذلك لوضع حد للعبة الدين فى أيدي الرأسمالية والشيوعية وحتى يصبح الاسلام عاملا ايجابيا ثوريا فى تقدم المجتمعات وتجديد الحضارة ٠

وليس من قبيل الصدفة ظهور تلك الزعامات السياسية الدينية الجديدة فى دول بترولية غنية ، ذلك أن كل الدعوات بما فيها الدعوات الدينية تتطلب مناخا ملائما للظهور فيه والنجاح والا فانها تبقى رهينة فى الاذهان والكتب حتى يقدر لها من ينهض لتنفيذها من المتحمسين لها ، وحتى يقدر الله لهم سببا يقوون به على عدوهم ٠

ولقد تطلبت الدعوة الاسلامية نفسها أموالا لنشرها ، وكان عدد من الصحابة من كبار أغنياء قريش وكلهم نزلوا عن أموالهم ومكاسبهم للرسول (ص) لاقامة دعوته وتجهيز الغزوات وتمويل جيوش الفتح ، مصداقا لقوله تعالى : « وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ٠٠ » ٠

ومعلوم من ناحية أخرى أن الهدف الذي تسعى اليه العصبية هو القـوة والمنعـة والغلبة ، وهذه كلها أمور لا تكون الا بالمال ، فالمال هو قوام الاعمال !

ولذلك فليس من باب الصدفة كذلك أن نـرى القيادات السياسية الدينية الحديثة تبادر أول ما تبادر به بعد انتصابها بالسيطرة على موارد الثروة فى بلدانها وتـأميم الاحتكارات البترولية العالمية فى أرضها ·· وأخر ما حدث من هذا القبيل ما صرح به منذ أيام أحد مساعدي الزعيم الايراني الامام آية اللـه الخميني بانه سيبادر اذا وقع تعيينه وزيرا للاقتصاد بتأميم الشركات البترولية فى ايران ··

ولم تتردد الزعامات الدينية المعاصرة ، سواء كانت امامية أو غير امامية ، مـن احتضان أو استقطاب المعارضات السياسية التي تسعى مثلها الى اقامة مجتمع العدالة والاشتـراكية ·

وتشهد المجتمعات الاسلامية الحديثة تغييرا جذريا فى أنظمة الحكم التي أسلمتها اليها عصور الانحطاط والتدخل الاجنبي ، فبعد المحاولات الاولى التي قامت فى سبيل تقييد الحكم المطلق دون الرجوع به الى الخلافة ، لان الخلافة كما يعتبرها بحق الوزير المصلح ابن أبي الضياف صورة استثنائية قامت وانتهت فى مدة وجيزة هي مدة الخلفاء الراشدين ، أما ما ظهر بعدها فقد اتخذ اسمها فقط ـ بعد تلك المحاولات فى تقييد الحكم الملكي المطلق تقلص عصـــر الملكيات الاسلامية بقيام ثورات عديدة أعلنت الحكم الجمهوري ، وهي صورة من الحكم احترر بشأنها المصلحون القدامى مثل خير الدين وابن أبي الضياف باعتبار أن النظام الجمهوري فى أصل تعريفه لا يعتبر غير القوانين الوضعية ، لكن ذلك الاحتراز زال بزوال مقتضياته ، وشهدنا قيام جمهوريات اسلامية اسمـا ودستورا ·

وجابهت الزعامات السياسية الجديدة فى الانظمة للجمهورية العربية والاسلامية الحديثة مشكلة انتقال الحكم بدون انتفاضات وانتكاسات ·

ويظهر أن مبدأ الوصية هو المبدأ الذي نال ثقة أغلب الزعماء مؤسسي الجمهوريات الحديثة عهدا بالاستقلال ، لضمان الاستمرارية لمذهبهم بعدهم ، فيجعلون الدستـور ينص بالصفة على من يريدونه لخلافتهم (الوزير الاول كما فى حالة نظامنا البورقيبي ونائب رئيس الجمهورية كما فى انظمة أخرى ··) ·

ومذهبهم ذاك فى الوصية قريب جدا من المذهب الشيعي ، ذلك أن الامـام يوصي بالامامة من بعده لاحد أبنائه ممن يختاره منهم ، ويعتبر اختياره الهاما من الله لا حرية لـــه فيـــه ·

وهنا ينتفي كل احتمال للنزاع بين وُلْده ـ أي بين أبناء الامام ـ وينتفي كذلك كل احتمال للاختلاف بين أتباع الامام فيمن يولي من وُلْـــده بعـــده ، ويعوض القداسة والعصمة فى مبدأ الوصية الشيعية أمران مقابلان فى الوصية الجمهورية هما حـرمة الدستور وسداد نظر القائد ٠

وقضية تولي الرئاسة مدى الحياة نفسها هي صورة لا نجدها الا فى الامامة مدى الحياة ، واذا كان الزعيم الذي يمنح هذه الولاية هو حالة استثنائية فى نظر شعبه وفى الدستور ، فالامام هو بالاحرى حالة استثنائية فى نظر أتباعه وبمقتضى الدين ٠

واذا كان حب الرئاسة غريزي فى البشر ، فهو فى العرب أقوى وأشد للانفة التي تميزهم بسبب عراقتهم فى البداوة ، وقد أدرك ذلك ابن خلدون قبلنا ، ولذلك قرر أنهم لا ينقادون الا بسبب الهي كالنبوة أو الامامة أو نحوها ٠

ولذلك فالزعامة الدينية اليوم قد بدأت فى عدد من بلدان العالم الاسلامي تستعيد اعتبارها القديم بعد أن فشلت ألوان مـــن الزعامات السياسية فى تحقيـــق مطامح الجماهير ورغائبها ، وفشلت كذلك فى تأمين مستقبل الدول والشعوب من الانتفاضات العسكرية ونحوها ٠

ولذلك فقد يكون أخطأ الرئيس السنغالي ليوبولد سنغور عندما وصـــم الزعامة الدينية الثائرة اليوم فى ايران بالرجعية والعودة بالبلاد الى حكم العصور الوسطى ٠ وقد يكون خطؤه صادرا عن جهل بالاسلام ، ولا يعيبه ذلك رغم ثقافته الواسعة ، لانـــه قبل كل شيء رجل مسيحي مطبوع بالثقافة الفرنسية ، أو قد يكون تقديره راجعا الى أسباب تتعلق بميزان القوى السياسية فى بلاده ذات الاغلبية المسلمة ٠

وربما لا يختلف موقفه كثيرا عن موقف بعض الحكام العرب ممن لا يرتاحون لمـا يجري فى ايران ، ذلك أن التعارض بين الزعامة الدينية والزعامة السياسية هو تعارض قديم مزمن ، ولم يستطع الحكام فى العالم العربي والاسلامي امكانية تصور حركـات دينية غير ذات هدف سياسي ، لان امكانية الفصل بين الدين والسياسة امكانية غـير قائمة الا فى عقول الزعماء عندما يصبحون حكاما والا على لسـان الزعماء الدينيين عندما يكونون فى المعارضة السياسية ٠

ومن الامثلة على ذلك مـن تاريخنا القومي بعد الاستقلال مـا حـدث فى الواقعة المشهورة بانتفاضة القيروان ، وما نشهده فى السنوات الاخيرة من تصاعد الحركات

الدينية وخشية الحزب من احتمال وجود علاقة بينها وبين المعارضات السياسية في الداخل والخارج واحتمال تأثرها بما يجرى على الساحة الدينية في ايران وغيرها ·

ولا تزال القيروان العاصمة الدينية لبلادنا ، ولا تزال كعبة افريقيا المسلمة ولا يزال رئيس الدولة يخصها بزياراته الدينية وممثله بها يشهد بحرص صلاة الجمعة وصلاة العيدين والمواسم ، حتى ليبدو كأن ذلك أصبح من واجباته الرسمية ، ربما دونه في ذلك بعض ولاة جهات أخرى من الجمهورية ·

وبينما الحكومة لا تفتأ تؤكد تمسكها وتعلقها بمبادىء الاسلام وباشرافها على الشؤون الدينية ، بواسطة ادارة ملحقة بالوزارة الاولى ، تعمد بعض المجموعات من المواطنين الى خرق رزنامة الاعياد الدينية المسطرة وفق الحسابات الفلكية ·

ولم تسكت الحكومة عن ذلك بل أكدت عدم تنازلها عن تحمل مسؤوليتها باعتبارها وحدها المتولية شؤون الدين في البلاد ، بحكم النص في الدستور على دين الدولة ، ولذلك فهي تعتبر أنه من واجب المسلم أن يلتزم باوامرها ، فهي بمثابة امامه . ومخالفة المسلم امامه تلزمه عقابه ·

هذه بعض قضايا ومشاكل تتعلق بالزعامة الدينية في القديم وفي عالم اليوم في البلاد الاسلامية بسطناها بقدر اجتهادنا والله أعلم ·

الشيـــخ طـاهـــر الجزائـــرى
رائـد النهضـــة الفكريـة الحديثة
فى بـــلاد الشـــام

محمود الارنـاؤوط
ـ دمشـق ـ

ولد العلامة الشيخ طاهر بن محمد صالح بن أحمد بن موهوب الادريسي الحسيني بعد خمسة أعوام من قدوم أسرته الى دمشق الشـام من الجزائر (من جبال بجاية) ومن هنا عرف الشيخ بالجزائري نسبة الى الجزائر من بلاد المغرب العربي ، وكان والده آخر الادارسة قدومـا الى بـلاد الشام سنة 1263 هـ واشتهر فيهـا بتبحره فى العلوم والمعارف والتزامه مكارم الاخلاق وفى سنة 1285 هـ توفي تاركا عدة أولاد اشهرهم الشيخ طاهر الجزائري موضوع بحثنا هذا ·

وقد تلقى الشيخ طاهر علوم العربية وآدابها على مشاهير العلماء فى عصره حتى تزود بما يؤهله لان يستمر فى طريق البحث والتنقيب فى كتب مختلف الفنون ، وهذا ما دفعه الى التعلق بكتب التراث التي خلفها الاسلاف من متقدمين ومتأخرين · فنشأت عنده رغبة قوية الى جمع المخطوطات منذ حداثة سنه ، ومن أجل هذه الرغبة سافر الى العديد من البلاد لجمع نفائسها ، فأكسبته رحلاته معارف جمة ، وتوثقت صلاته بكثير من العلماء والادباء فى البـــلاد التي زارها ، وصار مرجعا يعتد به فى فـــن وصف المخطوطات ومعرفة مظانها وتسهيل البحث فيها واليه رحمه اللـــه يرجع الفضل فى

السعي الحثيث الى انشاء كثير من المؤسسات النافعة فى دمشق وفى مقدمتها الجمعية الخيرية التي انضم اليها مشاهير العلماء والوجهاء الدمشقيين بشكل خاص والسوريين بشكل عام والى هذه الجمعية يرجع الفضل فى انشاء العديد من المدارس ، كما انشات مطبعة قامت بطبع الكثير من الكتب المدرسية والى الجزائري يرجع الفضل فى تاسيس المدرسة الظاهرية بدمشق ، وانشاء مكتبتها العامرة التي جمع فيها ما كان مبعثرا من الكتب والمخطوطات القيمة فى المساجد والمدارس ، ودور الدمشقيين وغيرهم من اهالي بلاد الشام ، فحفظها بذلك من الضياع ويسر بذلك على طلبة العلم درب البحث والانتفاع بها (1) · واليه رحمه الله يرجع الفضل فى انشاء المكتبة الخالدية بالقدس الشريف · والى جانب هذا كله ، عكف رحمه الله على جمع نفائس المخطوطات ونوادر المطبوعات، وواصل جهوده فى التاليف والترجمة ، وكانت له رحلات عدة الى الحجاز وغيرها من بلاد المشرق العربي ، ثم اعقبها برحلات الى الاستانة ومصر وعدد من البلاد الاروبية ·

وفى سنة 1316 هـ عينه الوالي العثماني مفتشا لمكاتب الشام ، ولبث فى هذا المنصب اربع سنوات قدم خلالها خدمات جليلة لتنظيم هذه المكاتب والنهوض بها ·

وقد عرف الشيخ بتحرره الفكري من العصبية العمياء والبعد عن التزمت وسعة الافق لهذا التف حوله عدد من الشبان ممن أصابوا من بعد شهرة واسعة عمت الآفاق منهم محمد كـرد علي (2) ، وخـير الدين الزركلي (3) ، والامير شكيب ارسلان (4) ، وغيرهم ، حيث يقول عنه العلامة كرد على كان الشيخ العامل الاكبر فى توجيه ارادتي نحو الدعوة الى الاصلاح الاجتماعي ، والاقدام على التاليف والنشر واشرابي محبة الاجداد والتناغي بآثارهم ، والحرص على تراث حضارتهم لهذا فهو أستاذي الاكبر ، وحسب الشيخ طاهر فخرا أن يترك من بعده تلامذة أمثال هؤلاء الاعلام الذين تـركوا آثارا خالدة ينتفع بها العام والخاص على حد سواء ·

وكما كان للسيد جمـال الدين الافغاني وتلميذه الامـام الشيخ محمد عبده دورا اصلاحيا واسع النطاق فى مصر ، فقد كان للشيخ طـاهر الجزائري دورا مماثلا فى

---

1) دار الكتب الظاهرية هي اليوم من أشهر دور الكتـب على الساحة العربية ، اذ فيها عدد كبير من المخطوطات تنفرد فيها دون غيرها فى العالم ·

2) محمد كرد علي هو رئيس المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب خطط الشام

3) خير الدين الزركلي عضو المجمع العلمي العربي ، اشهر مؤلفاته كتاب الاعلام فى تراجم الرجال والنساء ·

4) الامير شكيب ارسلان نعت بامير البيان ، عضو المجمع العلمي بدمشق ، اشهـر مؤلفاته كتاب حاضر العالم الاسلامي ·

الشام ، حيث شرع من الاساس ، والاساس عنـد الشيخ كان المدرسة ، فأخذ ينشيء المدارس الابتدائية والوسطى بمعاضدة الحكومة ويوهمها انه لا يقصد من مدارسه الا نشر العلم البسيط ليكون ممن يتخرجون فيها خداما للدولة في المستقبل ! ويحبب الـى الناس الرجوع الى كتب الاسلاف واتقان اللغة العربية ، ويحث على الاخذ من كتـب شيخ الاسلام ابن تيمية ، وتلميذه الامام ابن قيم الجوزية ، لان فيها بحوثا ضافية تنبه من شر البدع التي الصقت بالاسلام وما هي منه بسبيل ، ويحض الناشئة على تعـلم العلوم الرياضية والطبيعية والسياسية والتاريخية ويؤلف لهـم أسفارا في مبادئها ويزين الى من حذقوا لغات العلم أن ينقلوا منها ما أمكن الى لغتهم ليستفيد منها العرب عامة ، وينشروا الجيد الصحيح من كتب الاقدمين ، ويحمل كل من يأنس منه استعدادا على الطبع والنشر ، وعلى شغل ذهنه بما يفيده ، وكان يقول السياسة تأتي بعد اعداد المعدات لها من علم وصناعة ، وكان غرامه أن يتعلم كل طالب صناعة ما ، وهو عملي في علمه وسيره ولطالما قال : ان الاشتغال بالعلم مضمون النتائج يأمـن العاملون في ظله عتوا العاتين وما كان يخلو من استعمال شيء من التقية مخافة الاخفاق في دعوته اذا عرفت حقيقة مقاصده ، وهواه أبدا التوفيق بين أرباب المذاهب المختلفة في الاسلام والتقريب فيما بينهم ٠

ورأي الشيخ طاهر الجزائري كرأي السيد جمال الدين الافغاني والامام محـمد عبده بأنه قام بين القرنين الثالث والرابع أقوام ظهروا بمظهر الدين فأبدعوا فيه البدع وخلطوا بأصوله ما ليس منها فانتشرت قواعد الجبر وامتزجت بالنفوس حتى أمسكت بعنانها عن الاعمال وأن الزنادقة ـ والفسطائية أضروا بالدين ضررا بالغا لم يقل عن ضرر من وضعوا أحاديث نسبوها الى رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم وأثبتوها في الكتب وفيها السم القاتل لروح الغيرة والاقدام ٠

لهذا اعتبره البعض أحد رواد الفكر النير المتحرر في نهاية القرن التاسع عشـر وبداية القرن العشرين بينما قال فيه آخرون انه خزانة علم متنقلة ، وقد أثار دهشتي الشيخ محمد جميل الشطي في كتابه أعيـان دمشق في القـرن الثالث عشر ومنتصف القرن الرابع عشر حين اكتفى بتسجيل كلمتين فقط الى جانب اسمه (عـالم مؤلف) بينما أفرد صفحات لبعض الذين لم يتركوا لنا أي اثر علمي على الاطلاق مما يدل على ضيق في أفق الشطي ، أو تجاهل متعمد للشيخ الجزائري ٠

ولم يقتصر تمكن الشيخ على اللغة العربية بل تعداها الى اللغات التركية والفارسية والسريانية الى جانب المامه ببعض اللغات الشرقية الاخرى كالعبرية والحبشية والزاوية وهي لغة قبائل الجزائر المغربية ٠

ولم تمنع مكانة الشيخ الرفيعة فى قلوب الدمشقيين السلطات العثمانية من الدخول الى داره وتفتيشها اثناء رحلة له الى فلسطين سنة 1322 هـ ومصادرة كتبه واوراقه والتحفظ عليها فى مكتبه الخاص بمدرسة عبد الله باشا العظم ، فاستاء الشيخ من هذه المعاملة واستقر رايه على الهجرة الى مصر ، وتم له ذلك سنة 1323 هـ ، وحمل معه اليها اشهر محتويات مكتبته الثمينة ، تاركا بقيتها فى المكتبة الظاهرية بدمشق بعد ان وقفها عليها ، وحين وصوله الى مصر رحب به علماؤها وادباؤها وبقي فيها محوطا بالاجلال والتكريم ، حتى اصيب بمرض طال علاجه ، ولما كانت سنة 1336 هـ ، قرر العودة الى دمشق حيث عين مديرا للمكتبة الظاهرية وانتخب عضوا فى المجمع العلمي العربي (مجمع اللغة العربية) ولكن مرضه ما لبث أن اشتد ، فاسلم روحه الطاهرة الى بارئها سنة 1338 هـ فشيعته دمشق كلها فى موكب مهيب ٠

هذا وقد ترك الشيخ مؤلفات عديدة اليك ملحقا بها ٠

مؤلفاته المطبوعة ٠

1 ـ بديع التلخيص وتلخيص البديع ، طبع عام 1878 م ٠

2 ـ منية الاذكياء فى قصص الانبياء ، طبع عام 1881 م ٠

3 ـ الفوائد الجسام فى معرفة خواص الاجسام ، طبع عام 1883 م ٠

4 ـ عقود اللآلي فى الاسانيد العوالي ، طبع عام 1885 م ٠

5 ـ مدخل الطلاب الى فن الحساب ، طبع عام 1886 م ٠

6 ـ التمهيد الى فن العروض ، طبع عام 1886 م ٠

اما مؤلفاته المخطوطة فهي :

1 ـ التفسير الكبير ، مخطوط

2 ـ المعجم العربي ، »

3 ـ السيرة النبوية ، »

4 ـ جلاء الطبع فى معرفة مقاصد الشرع ، مخطوط ٠

5 ـ موسوعة التذكرة فى عدة مجلدات ضمنها ما أختاره من فرائد المخطوطات والكتـب النـادرة ٠

6 ـ مبتدأ الخبر فى مبادىء علم الاثر ، مخطوط ٠

7 ـ توجيه النظر الى أصول الاثر » »

8 ـ تدريب اللسان على تجويد البيان » »

9 ـ البيان لبعض مباحث القرآن » »

10 ـ مـراقي عـلم الادب » »

11 ـ التقريب لاصول التعريب » »

مصـادر البحـث :

ـ أعلام الفكر الاسلامي فى العصر الحديث لاحمد تيمور ٠

ـ كنوز الاجداد ، أقوالنا وأفعالنا . خطط الشام لمحمد كرد علي ، الاعلام لخـير الدين الزركلي ، معجم المؤلفين لعمر رضا كحالة ، الحركة الادبية فى دمشق للدكتور اسكندر لوقـا ، أعيان دمشق لجميل الشطي ٠

الحضـــارة الاســـلاميـــة
ودور الايرانيـــين فى نشرهـــا

د. جعفـر شهيدي
أستاذ الادب والفقـه الجعفري
وعميد كلية الآداب
جامعة طهـران ـ ايـران

كانت جزيرة العرب الدائرة الاولى التي تمركز فيهـا الاسلام ، وبما ان الاسلام لم يكن دين العرب وحدهم ، وانما هو دين الانسان والفطرة الانسانية فكان لابد ان يتجاوز حدود الجزيرة الى نطـاقه الاوسع ونتكلم فى هذا المقال عن نطاق معين مـن هذه الحركة التوسعية ، وهذا النطاق هو الجزء الخاص بايران أو بلاد الفرس من هذه الانطلاقة العظيمة ٠

ولابد لنا ان نقول أولا أن موقف الامة الايرانية أمام الاسلام لم يكن كموقفها أمام الروم لقد كانت الحرب سجالا بين الفرس والروم وكانت كما يقال يوم لك ويوم عليك ولم تهن الامة الفارسية يوما أمام الـروم لان الحرب كانت تقوم على أسـاس الكرامة والشعور القومي والعزة والوطنية ، وكانت صراعا على زعامة العالم ٠

اما موقفها أمام الاسلام فقد كان شيئا آخر ٠ كان بعيدا عن هذا كله . نعم وقـع التشابك بين العرب والامة الايرانية ووقعت الحروب الدامية فى بعض الثغور ، ولكـن

كل ذلك كان قبل ان تعرف الامة الايرانية الاسلام وحقيقة الدعوة المحمدية · فلما عرفوا الاسلام حق المعرفة استقبلوه واعتنقوه من أعماق قلوبهم ·

فكان ذلك الموقف اذا استجابة الى داعي الحق لا خضوعا للسيف أو تسليما للقوة . وليس أدل على ذلك من السرعة الخاطفة التي انتشر بها الاسلام فى ايران ·

والفتح الاسلامي مكن المسلمين من الدخول فى بلدان كثيرة واسعة على يد حفن من الرجال لا يزيد عدد الحفنة منهم عن حامية ثغر من هذه الثغور مع ما كان عليه العرب يومئذ من سذاجة المعيشة وقلة الدربة ، كل ذلك لان تقدير عنصر القوة لم يكن فى حساب المسلمين مطلقا ، ولم تكن القوة عاملا فى انتشار القرآن ، والا ما ترك العرب المغلوبين أحرارا فى أديانهم ، فاذا حدث ان اعتنق بعض الاقوام النصرانية الاسلام واتخذوا العربية لغة لهم ، فذلك لما رأوا من عدل العرب الغالبين مما لم يروا مثله من سادتهم السابقين ، ولما كان عليه الاسلام من السهولة التي لم يعرفوها من قبل ، ولم ينتشر القرآن اذن بالسيف بل انتشر بالدعوة وحدها وبالدعوة وحدها اعتنقته الشعوب التي قهرت العرب مؤخرا كالترك والمغول ·

فنقول دخل أكثر البلاد الايرانية فى حكم الاسلام من باب الصلح والتفاهم لا من باب الهزيمة والارغام ، وفتحت ايران ذراعيها للاسلام فى قولها ، وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ·

فان سئل سائل وما السبب فى ذلك ولم يكن ما أوردناه كافيا · قلنا ان السبب يرجع الى عاملين أساسيين ·

الاول هو ان هذا الانقلاب العجيب الذي حدث فى الجزيرة العربية واظهر المعجزة فى توحيدها بعدما ظل مستحيلا طول الزمان ، كان أهم العوامل الجذب التي لفتت انظار الفرس الى الحقيقة الاسلامية · فماذا رأت الامة الفارسية على ضوء ذلك ؟ وهنا يأتي السبب الثاني · فنقول ان الامة الايرانية كانت أمة كتابية أي كان لها اذ ذاك نبيها وكتابها ومن هنا كانت آذانها معتادة على نغمة السماء والايمان بالله ومن هنا لم يكن ظهور النبي غريبا على الفرس بل كان وصول هذا النبا الى اسماعهم مدعاة الى ازدياد شوقهم وتشوقهم اليه ومعرفة حقيقة الدعوة المحمدية ، فلما سمعوا القرآن يقول : « قل يا أهل الكتاب تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم الا نعبد الا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا اربابا من دون الله» (I)· ويقول عز من قائل : « يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عند الله

تاكم » (2) ، ثم يسمعون النبي صلى الله عليه وآله وسلم يقول : « لا فضل لعربي على جمي الا بالتقوى » (3) ويقول : « سلمان منا أهل البيت » (3) ، وكانه يخاطبهم بالذات انه يحدد لهم مهمة معينة يلقيها كنوع من المسؤولية على عاتقهم بقوله صلى الله يه وآله وسلم : « لو كان العلم معلقا بالثريا لتناوله قوم من ابنـاء فـارس » (5) ، سم الله ذهبت عصبيتهم القومية واصبحوا بنعمة الله اخوانا وصار كتاب الله اعـز ليهم من انفسهم وأولادهم كما لا يزال الى اليوم والغد بفضل الله ·

نعم لقد عرف الايرانيون دورهم فى الحركة الاسلامية وكان لهم مخططات ايجابية ى سبيل توطيد هذا الدين ولا يخامرني شك فى انه لا يخفى على القارىء الكريم ـ ان ران فى ذلك الوقت كانت الامبراطورية العظيمة التي تخضع لسلطانها شعوب كثـيرة تباينة الاجناس مارست فيها الحكم ونظمه والسياسيات والحروب وفنونها كما مضمت حضارات والمدنيات واستقطبت الامكانيات والكفاءات · فيوم ان دخل الاسلام هذه بلاد قدمت تجربة لالفي سنة من الحكم بانواعه وفروعه ونظمه وتقاليده كهدية للعرب ى وقت كانوا أشد ما يكونون حاجة الى تلك التجربة لسياسة هذا العـالم الجديد · اتجهت انظار الفرس كغيرهم من الشعوب الاخرى الى مهبط الوحي ، وارتبطت قلوبهم ركز الدائرة ، بالكعبة وكان لابد من حدوث عملية المزج والانصهار على صعيد الامة واحدة فبادروا الى واجبهم الاول وهو التفقـه فى الدين ودراسته دراسة استيعابية شيلية واعية ، وكان لابد من الاخذ بالاسباب الى ذلك الهدف ، فاقبلوا على الوسيلة · لى اللغة العربية ، والمثل يقول من أحب انسانا خاطبه بلغته ، فكيف بمن يحب الله · د اقبلوا على اللغة العربية بحب بالغ وشوق عظيم ،شوق من يريد ان يسمع السماء عرف السماء ويناجى بما علمته السماء يؤدي حق عبادة الله فرائضها وسننها أداء ليما ، وأولا وأخيرا شوق من يريد ان يكون حائزا على صفة العضوية الصحيحة فى جتمع الاسلامي ، مما حث بعض رجال الفرس فى الصـدر الاول الى تـرك بيوتهم التوجه الى مكـة والمدينة مهاجرين فى سبيل اللـه ، ومن ثم الى عواصم الخلافة حواضر العلم الاسلامية من بعد ، وكانت الحركة الاسلامية تتطور بكل ازدهار وتوفيق بدأ الفرس يفرغون كل ما فى جعبتهم من خبرة فى دوائر الحكم والسياسة والعـلم الادب والفن والعمارة والصناعة ونظم المجتمع ·

اما موقفهم التاريخي من نشـر الدعوة الاسلامية ، فاذا كان العـرب قد انطلقوا الاسلام غربا وشب الحصان على قدميه لعبد الرحمن الداخل شاهرا سيفه فى وجـه

الاطلس قائلا كلمته المشهورة « والله لو علمت ان وراء هذا البحر ناسا لقاتلتهم د كلمة التوحيد » فان دور الفرس وسلاطينهم فى توسعة النطاق الاسلامي شرقا لا ي عن هذه العظمة فقد اعتبروا أنفسهم الجناح الشرقي للنشر الاسلامي ، وانطلقوا باعا الاسلام يحملون القرآن الى قلب آسيا الوثنية مبشرين ومنذرين ، ولم يكن موقف الداه غير موقف محمود الغزنوى مثلا عن الغيـرة على الاسلام فى نشره الدين فى الغـر وبـلاد الهنـــد ·

يقـول الجرفادقانى فى ترجمته لتاريخ عتبى المعروف بتاريخ يمينى مـا ترجم « لقد اشتغل بال السلطان بالغور واخذته الانفة من تمرد السكان على حدود مملكت وثقل عليه ترصدهم للقوافل ، ولم يرق فى نظره ان تتطاول طائفة مشركة كافرة عل الملك بسبب غرورهم لحصانة الجبال وساعة القلل فعزم على تاديبهم » ، وبعد وصد المعركة حق التوصيف يقول « ولما راى ابن موزى استيلاء المسلمين كان فى أصبع خاتم فيه فـص مسموم فامتصه ومات » (6) ·

هكذا كانت ايران المنطلق الشرقى للاسلام ، وكان هذا دأبها فى كل فتراتها مـ مد الغربي ، فلما انتهت عصور الملاحم الحربية ظلت هذه الاصقاع الشرقية من العا الاسلامي ايرانية النبوة تحمل الطابع الايراني فى كل ما هو اسلامي ، وظلت تمثـر القصة التي تنحدر منها الانهار الروحية تروي هذه الاراضي بسلسلال الاسلام بمـ تجود به قرائح مدارسها الفكرية ومعاهدها الدينية والعلمية ·

لقد تعرض العالم الاسلامي الى تغيرات جغرافية كثيرة بين الاتساع الى الاندل والبلقان وأروبا الوسطى وآسيا الوسطى والهند حتى حدود الصين ، وبين الانكماش الذي بلغ حد اختطاف بعض أقاليمه ، ولكن الواقع هو ان الاساس الذي وضعه هذ المنطلق الشرقي كان من المتانة والمنعة بحيث استعصى على أشـــد الانـــواء المعاديـ والحركات المعارضة ·

هـذا وقـــد ساهمـت الامـــة الايـرانيـة فى تـــوطيد دعـــائم الحضـــا الاسلامية التي هضمت جميع الحضارات الموجودة حتى اليوم وسادت عليها سيـادة تامة اعترفت بها الامم فى الازمنة التالية حتى اليوم · واذا انطلق الحديث بنـا الـ الحضارة الاسلامية لا أرى مانعا من ان نتجول قليلا فى افياء هذا الجو الفسيح الممتع

قلنا ان الشمول الاسلامي كان الجاذبية الفعالة فى اقبال الانسان على الاسلا واعتناقه اياه أينما كان وكيفما كان فلما ادرك الانسان بلسم جراحه فى دين « أحـ

خيك المسلم ما تحب لنفسك » (7) ، خلـع الاثواب الضيقة وارتـدى الثـوب الجديد جلست الامـم والشعوب على صعيد الوحدة ، وحدة الدين ووحدة المجتمـع ووحدة رمة الانسان وكرامته ·

كان هذا الحجم الهائل من البشر فى حد ذاته يتكون من كتل مختلفة كان لكل عنصر نها امكانياته وكفاياته قبل الاسلام فما ان وحد الاسلام هذا الحجم الا نتجت نتيجـة هذه الوحدة آثار كلية وتغييرات جذرية فى غاية الاهمية للحياة والتاريخ البشـري كذلك التقت هذه الحضارات الواحدة بالاخرى داخل الاطار الاسلامي وتفاعلت جميعا احدثت فيما بينها وحدة حضارية متكاملة هي مـا تعـرف بالحضارة الاسلامية التي فت الى حد اثبتت بذاقتها عمليا انها اسمى الحضارات وساهمت فى تكوينها كـل شعوب فهي ليست قاصرة على نوع معين من الفكر أو لون معين من الحياة ·

قيل فى تعريف الحضارة انها أحوال عـادية زائدة عن ضروري الحيـاة زيـادة تفاوت بتفاوت الرفاهية وتفاوت الامن من القلة والكثرة ، وأساس كل تقدم حضاري و المعارف حتى اصبحت أم كل عمل ، فالحضارة هي القلة الكبرى التي رفعت الانسان لى الدرجة التي يستحقها فى الارض وجعلت بينه وبين الحيوانات غير الناطقة بـونا ظيما وتختلف أسباب ذلك باختلاف نظام الهيئات الاجتماعية وقوانين المدنية وطبـاع شعـــوب ·

فاذا كان ذلك كذلك ، وكان العلم أساس كل تقدم وجب علينا أن نولى العلم المقام لاول من حديثنا ، وذلك بان نحدد الاسلام بالنسبة للعلم فنقول :

ان القرآن فى حد ذاته كتاب بعث به رسول من الاميين للاميين ، وكانت أول سورة زلت منه بمثابة افتتاحية الكتاب أو مقدمته المعرفة له المحددة لموضوعه وهي : « اقـرأ اسم ربك الذي خلق خلق الانسان من علق اقرأ وربك الاكرم الذي علم بالقلم » (8) · ون تكليف هو القراءة ، هو العلم بما يجهله الانسان ، فالاساس فى القرآن هو العلم الاساس فى الامة الاسلامية هو القرآن فهو فى حد ذاته درس سماوى استاذه النبى مادته المعرفة وطلابه المسلمون ، هذا ولا اظن ان احدا من أصحاب الشرائع كان أعظم عتناء بالعلم واكثر اهتماما بشانه كصاحب الشريعة الاسلامية ، ولو أردنا ان نعدد ا ورد عن النبي فى موضوع العلم لنفد البحر قبل ان تنفد كلماته ، ومع هذا فانـه سعدني ولو على سبيل التيمن ان أورد نبذا من هذه الاخبار : روى ابن عبد البر عن نس عن النبي (ص) انه قال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » (9) · واخـرج و نعيم عن عـلي عليه السلام انه قال : « العـلم خـزائن ومفتاحها السؤال فاسألوا

يرحمكم الله فانه يؤجر فيه اربعة السائل والمعلم والمستمع والمحب لهم » (10) · واما عن العلماء فيكفي ان نشير الى المبدا العام عند المحدثين من التزام قاعدة تقليدية منهجية لم تتغير حتى اليوم وذلك بان يستهل عالم الحديث كتابه بباب فى تعريف العلم .

واما عن طبقة الخلفاء والامراء والحكام من المسلمين فقد رأوا فى العلم تزكية ومكنة وشرفا فاقبلوا عليه بشوق بالغ واعتنوا بشانه وتنافسوا واحتفلوا باهله · يقول ابن قتيبة : « خرج الوليد بن يزيد حاجا ومعه عبد الله بن معاوية بن عبد الله ابن جعفر فكانا ببعض الطريق يلعبان بالشطرنج فاستاذن عليه رجل من ثقيف فاذن له وستر الشطرنج بمنديل فلما دخل سلم عليه وساله حاجته · فقال له الوليد اقرات القرآن قال لا يا امير المؤمنين شغلتني عنه امور وهنات · فقال افتعرف الفقه ، قال لا ، قال افرويت من الشعر شيئا ، قال لا ، قال فكشف المنديل عن الشطرنج ، وقال شاهك » اي كش ملك بالمعنى الاصطلاحي · فقال له عبد الله بن معاوية يا امير المؤمنين !! واشار الى الرجل ، قال اسكت فما معنا احد (11) ·

والذي احب ان اضيفه الى هذه الرواية ان هذه العلوم التي ساله عنها كانت علوم العرب فى ذلك الوقت ·

ويتمدح المقدسي بسيرة آل سامان فيقول « انهم من احسن الملوك سيرة ونظرا واجلالا للعلم واهله (12) ·

وكان السلاطين والامراء يتفاخرون بتقريب العلماء اليهم وتاليف الكتب باسمائهم ويأخذهم الزهو فى ان يقال ان العالم الفلاني عند الملك الفلاني فكان العلماء والادباء والشعراء واهل الفضل يدلون عليهم ويتعززون بهم ، وقد يقترح الامير على العالم ان يؤلف باسمه كتابا فلا يقبل بالغا ما بلغ العطاء يحكي صاحب نفح الطيب : ان ابا غالب اللغوي القرطبي المتوفي سنة اربعمائة وست وثلاثين لما الف كتابه فى اللغة بعث اليه ابو الجيش مجاهد العامري ملك حرانية الف دينار ومركوبا وكساء على ان يطرز الكتاب المذكور باسمه فيزيد عليه جملة بسيطة هي « ان هذا الكتاب مما الفه ابو غالب لابي الجيش مجاهد » فقال أبو غالب : كتاب الفقه ينتفع الناس به واخلد فيه ممتي اجعل فى صدره اسم غيري ؟ واصرف له الفخر ؟ فابى ورد الدنانير فلما بلغ هذا مجاهدا استحسن الفته وضاعف له العطاء ·

ويقول النظامى العروضى فى كتابه مجمع النوادر المشهور باسم جهار مقاله : جرى الرسم بين الملوك على التفاخر بالعلم فكان الملك منهم يبعث رسولا الى الملك »

الأخر يساله غموض الحكم فيجمع هذا علماء بلده ويتشاورون ويدلى كل بدلوه حتى يعثر على الجواب اللازم وظل هذا التقليد باقيا الى عهد سيكتكين فلما استولى السلاجقة على الحكم ، عفى هذا الرسم وانطمس كثير من معالم العلوم (I3) ·

ويقول أبو حيان التوحيدى ان ابن عباد (أي الصاحب اسماعيل بن عباد) كان اذا قدم عليه احد من أهل العلم يقول له : يا أخي تكلم واستانس وانبسط وافرح ولا ترع ولا يروعك هذا الحشم والخدم فان سلطان العلم فوق سلطان الحكم ، وكان كثيرا ما يقول لجلسائه فمن باليوم السلطان وبالليل الاخوان (I4) · واني وان كنت قد اطلت فى مقام العلم عند الخلفاء والحكام الا انني فى الواقع قد كبحت جماح القلم لان تنافسهم على شرف العلم هو الذي ملأ المكتبة الاسلامية بهذه الثروات الطائلة · لقد كانت النتيجة لهذا المقام الذي أولاه الاسلام ورجاله للعلم ان بلغ الرواة والمحدثون فى القرنين الاولين للهجرة عددا لا يحصيه الا الله ويندر وجود قرية صغيرة على خريطة العالم الاسلامي لم يخرج منها عالم أو محدث أو مفكر كان لجهوده اثر ملحوظ فى دفع عجلة التطور الى الامام ·

واما البيئة العامة والحالة العلمية للمجتمع بمعناه الاوسع فيكفى ان نشير الى العرف المتوارث الذي لا زال جاريا فى ذلك الزمان · فالبسطاء الذين لم يساعدهم الحظ حتى يحققوا لانفسهم قدرا من العلم ، كانوا يحلمون بتحقيق هذه الامنية فى أولادهم ، حتى يسعدوا سلالاتهم وأسراتهم باقتناء كنز العلم وهم بذلك من اكبر المساهمين والمؤسسين للكيان العلمي ، فاذا ما مر العالم بهم جعل ايامهم نورا على نور · وكان المحدث أو الفقيه يهاجر فى طلب العلم فينتقل من شاش سمرقند فى أقصى الشرق الى قرطبة فى أقصى الغرب ، فما ان يدخل بلدا فى طريقه الا ويحتفل به علماؤه ويعظموه ويغتنمون وجوده ، فالعربي والعجمي والبربري والتركي والهندي سواء بسواء فى هذا الحق وامام هذا الواجب فالكل مسلم واخ للاخر ، وكانت المدارس والزوايا والمنازل والارزاق وكل ما يلزم من أسباب الاقامة والرحيل حاضرا لان العلم كان العبادة العقلية ووسيلة التقرب الى الله عن طريق الفهم والاقناع ·

كان هذا مركز العلم فى نظر الاسلام ودور المسلمين بالنسبة له بصورة عامة ولهذا لا عجب فى ان تصل الحضارة الاسلامية الى أوج ازدهارها وتترقى الامة فى كل قطاعاتها وكوادرها · وكان لانبساط الدولة العباسية ووفرة ثروتها ورواج تجارتها اثر كبير فى خلق نهضة ثقافية لم يشهدها الشرق من قبل حتى لقد بدأ الناس جميعا من

الخليفة الى أقل أفراد العامة شانا غذوا فجاة طلابا للعلم وكانوا يردون موارد العلم ليعودوا الى بلادهم كالنحل يجحطون الشهد الى جموع التلامذة المتلهفين ، ثم يصنفون بفضل ما بذلوه من جهد متواصل ، هذه المصنفات التي هي أشبه بدوائر المعارف والتي كان لها أكبر الفضل في ايصال هذه العلوم الينا ٠

وقد يخطر على الذهن انني أقتصر القول على العلوم الدينية فاقول مع ان أشرف العلم ما وصل الى الحقيقة وما ربط الانسان بخالقه الا ان الدين كان في خدمة المجتمع وكان الدين هو القاعدة التي نشأت عليها العلوم نقلية وعقلية أصلية وفرعية ، فالى جانب التفسير والحديث والفقه والكلام والاخلاق والنحو والصرف والفنون البلاغية والادب والتاريخ والجغرافيا كانت الفلسفة والرياضيات والطبيعات والكيميا والصيدلة والنجوم واحكامها والطب والادارة والسياسة والحرب وحتى فنون اللعب والصيد والحرف على اختلاف أنواعها ٠ واذا كنا قد اثبتنا ان الاسلام دين حضاري يعتبر أول ما يعتبر بالعلم والتطور العلمي ، يحلو لنا ان نرى مظهرا من مظاهر هذه الحضارة المتطورة وذلك المظهر هذه الناحية الاقتصادية ٠

لقد كانت التجارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري مظهرا من مظاهر عظمة الاسلام ، فقد صارت السيدة المطلقة في بلادنا وكانت سفن المسلمين وقوافلهم تجوب كل البحار والبلاد كما احتلت تجارة المسلمين المكان الاول في التجارة العالمية ، كانت الاسكندرية وبغداد هما اللتان تحددان الاسعار العالمية في ذلك العصر فكان التجار المسلمون حوالي القرن الرابع الهجري يقطعون الاقطار برا وبحرا ينقلون البضائع من بلد الى بلد بين شواطىء فارس وسواحل افريقيا والحبشة واليمن وسواحل الهند والصين وشائر الشرق ويقطعون صحارى خرأسان وتركستان وارمينية وافغانستان والهند والشام ومصر والسودان وشمال افريقيا والاندلس ، ينقلون اصناف التجارة كانهم هم وحدهم تجار الارض ، وليس في الشرق مركز للتجارة الا البصرة بحرا وبغداد برا فظهرت في عهد ذلك التمدن علاقات تجارية جمعت الاموال حتى تجاوزت ثروتها الملايين من الدنانير (I5) ٠

قرات في سيرة نظام الملك ان ملاحي نهر جيحون طالبوه باجورهم السنوية فاحالهم الى انطاكية في الشام فشق عليهم الامر ورفعوا أمرهم الى السلطان ملكشاه السلجوقي فساله السلطان عن الحكمة في هذا الامر الغريب فأجاب نظام الملك ، لقد اردت أن يعلم من يتولى الحكم من بعدنا الى أي حد من العظمة بلغ ملكنا ٠ ان هذا القول من

نظام الملك لما يحسن السكوت عليه الا ان ما تبقى من القصة أعظم من هذا بكثير · قال ملكشاه نعم ، ولكن ما لهؤلاء المساكين وكيف يقطعون هذه المسافة البعيدة ؟ قال نظام الملك ولماذا يشقون على أنفسهم بالسفر اذا كان فى امكانهم ان يأخذوا حقوقهم من تجار بلدهم مقابل التنازل عن نصف عشر فى المائة (16) ·

وقيل ان عضد الدولة لما صمم على تجديد عمارة بغداد الـــرم ارباب العقارات بالعمارة فمن قصرت يده عن ذلك اقترض من بيت المال ومعنى هذا ان راس مـــال الدولة أو الدولة براسمالها كانت تضمن مشاريع الافراد الخاصة (17) ·

اعتقد ان التحدث عن المظاهر الاخرى لهذه الحضارة الخالدة كالعمارة والفـن ونظم المجتمع من حيث التقاليد والمعاملات وان كان فى حد ذاته طريفا الا انه يخرج عن حوصلة هذا الحديث · الا ان ما لا يدرت كله لا يترك جله فلنأخذ ما يلزمنا وما يؤيده هدفنا الاصلي مـن الطابع العـام للوحدة الاسلامية كمظهر من مظـاهر الشمول فى الاسلام · اما ازدهار العمارة والفن فهذا امر لا يحتاج الى ادنى دليل لانه يقدم نفسه بنفسه فى كل مكان وزمان لقد هضم الاسلام الفنون المعمارية مـن فارسية وبيزنطية ، مكونا فنا اسلاميا صرفا متدرجا من المسجد الى المنزل الى القصر الى المدينة على اننا نلاحظ ان فى الطابع الاسلامي قاسما مشتـركا بينهما جميعا وان فيهـا على اختلاف اشكالها وأماكنها وحدة مشتركة فالمسجد بطبيعة الحال يوجه قبلته نحو الكعبة فقبلته جنوبية اذا وقع شمال الكعبة وشرقية اذا وقـع غـربها والعكس بالعكس ، والمنـازل والقصور فى غالبيتها تخفيض حوائطها واسوارها المواجهة للكعبة وما يقال عن المنازل والقصور يطلق على المدن ، وذلك لان الاتجاه الاول للمسلم فى حياته هـو الكعبـة فالعمارة فى العالم الاسلامي اذ ذاك قبل ان تتدخل هندسة المدينة الحديثة كانت فى وحدة الاتجاه الى مركز الدائرة مهما كان وضعها على مساحة الدائرة ، وهذا ما احدثه الشمول فى الاسلام من اثر العمارة الاسلامية من سبكها بوحدة الاتجـــاه والهدف · والكلام عن الحضارة الاسلامية لا ينتهي ولو اقتصرنا على هذه القلائل من النماذج ، ولكن يجب أن نذكر كلمة تكون كنتيجة نهائية لهذا البحث وهي ان حضارتنا الاسلامية التي بلغت فى ذلك الزمان الى غايتها الاسمى ، وان كانت قد اثرت فى تكوينها علـــل عديدة وعوامل شتى الا انه يمكننا ان نوحد على ضوء التفكـــير الفلسفي والتجـريد العلمي ، هذه العلل مع كثرتها فى علة واحدة أو فى شتى واحد يكون كجزء الاخـير للعلة التامة حسب ما يقوله الفلاسفة ، وهذه العلة الوحيدة أو هذا الجزء الاصـلي

لم يكن شيئا الا الايمان ، ايمان المسلم باللـــه اولا ، وايمانه بالمجتمع الاسلامي الذي يعيش فيه ويتمتع به ويكون عضوا له ثانيا ، وايمانه بنفسه وبالقوة التي أودعها الله فيه ثالثا ، فمهما تكن هذه العلة موجودة ومهما تكمن قلوبنا من الايمان ومهما يكبر هذا الشعور حيا ، فليس لنا ان نشك فى ان الله معنا والله ناصرنا ولو افتقدنا لا سمح الله هذا الايمان ، اذا ليس لنا ان نطمح فى شىء من العـزة والمنعة ، بـل ليس لنا ان نطمع فى حياة سعيدة وعيشة راضية يقول الله عز وجل : « ولو ان أهل القرى آمنوا واتقوا لفتحنا عليهم بركات مـن السماء والارض ، ولكن كذبوا فاخذناهم بمـا كانوا يكسبـون » (18) .

حول آراء ومواقف الفيلسوف الفقيد الدكتور عثمان أمـين

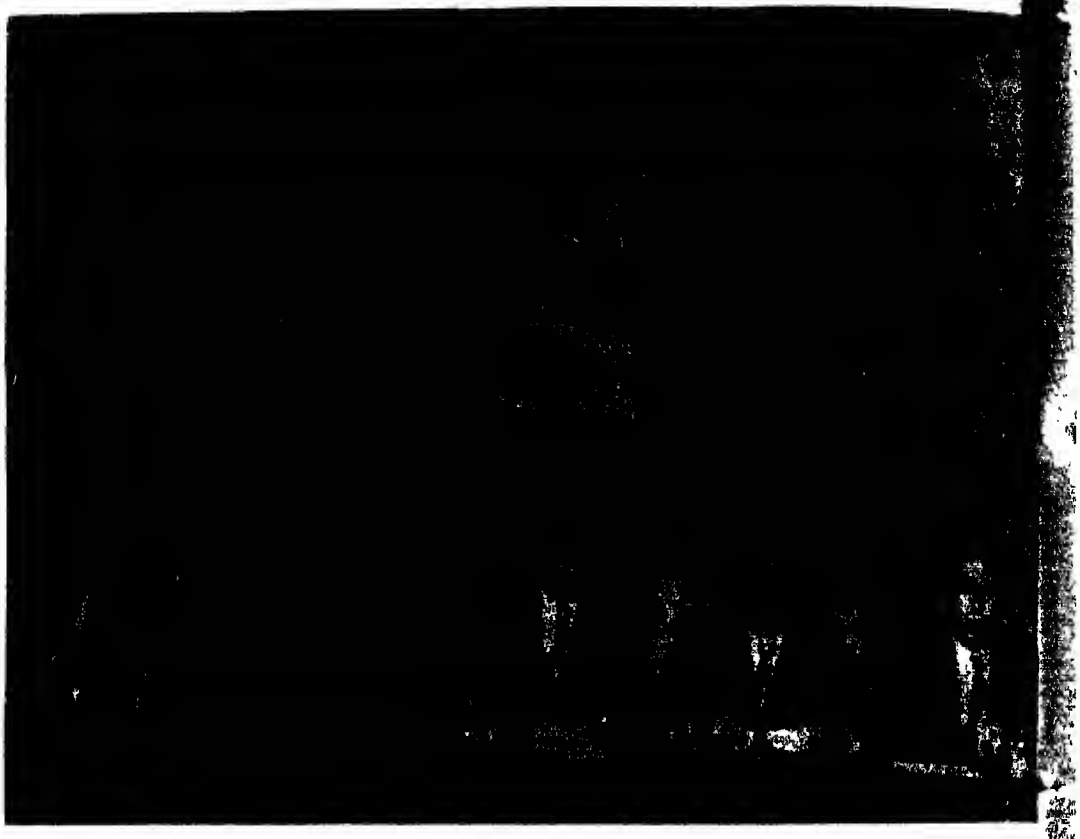

الاستاذ مولود قاسم نايت بلقاسم يلقى كلمة الافتتاح وعلى يساره الاستاذ اسماعيل العربى ، وعلى يمينه كـل من الاساتذة عمـر بوحزار ، والربيع ميمون ، والبخارى عمـانة .

فى اطار النشاط الثقافي لوزارة الشؤون الدينيه ، وبمناسبة ذكرى مرور ستـــة أشهر على وفاة الفيلسوف المرحوم الدكتور عثمان أمين ، أستاذ ورئيس قسم الفلسفة سابقا بجامعة القاهرة ، وعضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة ، نظـم المركز الثقـافي الاسلامي ندوة بالعربية حول آراء ومواقف الفيلسوف الفقيد الدكتور عثمان أمـين ، بمشاركة عدد من تلاميذه وأصدقائه مع عرض نماذج من فكره وروحه بصوته مما سجل له خلال ملتقيات الفكر الاسلامي من الرابع الى العاشر ، وذلك يوم الاربعاء 14 ذى الحجة 1308 هـ (15 نوفمبر 1978 م) .

وفيما يلي ننشر نصوص الكلمات التي القيت بهذه المناسبة .

هذا ، ونشير الى أن مجمع اللغة العربية بالقاهرة قد عقد بداره جلسة علنية لتابيد الفقيد د. عثمان أمين ، وتفضل ـ مشكورا ـ الاستاذ الدكتور ابراهيم مدكور ، رئيس هذا المجلس ، ورئيس اتحاد المجامع العربية بارسال وقـائع هذه الجلسة ، والكلمات التى قيلت فيها الى السيد مولود قاسم نايت بلقاسم . وننشرها فى هذا العدد ، مـع الندوة التى عقدنا فى الجزائر ، كما ننشر الكلمة القيمة التى القاها الاستاذ مدكور فى كلية الآداب ، جامعة القاهرة حـول المرحوم عثمان أمـين ، والتى ارسلها الينا ضمن وقائع جلسة المجمع . انظر صفحة 34 من هذا العدد.

كان فقيـــدنا الوحيـــد
ممن كانوا يذكرون اسـم الجـزائـر

آراء ومواقـــف الفيلســـوف
عثمـــان أمـــين (*)

مولود قاسم نايت بلقاسم

بسـم اللـه الرحمن الرحيم ،

يقول الشاعر الاندلسي عبد المجيد بن عبدون فى رثاء المتوكل بن الافطس :

الدهـــر يفجـــع بعـد العـين بالاثـــر
فمـــا البكـاء عـلى الاشبـاح والصـور ؟

هكذا الوضع الآن مع الصورة المعلقة أمامكم ووراءنا للمرحوم عثمان أمين ، الذى كان كما يعرفه الكثير منكم ممن درس عليـــه ، أو ممـن عرفـه فى ملتقيات الفكـر الاسلامي فى الجزائر ، هكذا كان حيا ، يتدفق حيوية فى فكـــره ، وفى مشيته ، وفى كلامه ، ولم يكن من ذلك النوع السبهلل ، كما كان يقول ، من ذلك النـوع الذى أسميه المرتخى الأوصال، المفكك الاجزاء ، لا ، لم يكن ذلك ، بل كان الحيوية بعينها ، وكان الحياة مركزة ، كان الحياة مجسمة • هكذا كان الدكتور عثمان أمـــين كما عرفناه من بداية الخمسينات •

(*) كلمة السيد مولود قاسم نايت بلقاسم المرتجة فى افتتاح الندوة.

نحن اذ نحتفل الليلة بذكراه ، بهذه الذكرى بعد مرور ستة أشهر بالضبط · لى وفاته ، فانما نبقى أوفياء لما اعلنا عنه من بضع وقت من اننا سنحتفل بالمناسبات الوطنية الجزائرية ، من شخصيات ، واحداث تاريخية هامة ، ونحتفل بالشخصيات والاحداث الاسلامية ، كما هو الحال الآن بالنسبة له ، وبالنسبة للصادق بسيس بعد يام ، وبالنسبة لآخرين فيما مضى ، كالشيخ أبو زهرة رحمه الله ، وعثمان الكعاك رحمه الله ، والشاذلى بلقاضى رحمه الله الخ... رنحتفل أيضا بالشخصيات العالمية بصفة امة ، كما احتفلنا ببيتهوفن مثلا وغيره ممن يمثلون فيما فى اعلى مستوى الحضارة نسانية ، والفكر الانساني ·

وفقيدنا الاستاذ عثمان أمين يهمنا كجزائريين ، (وليسمح لي الاخوان غير لجزائريين اذا كانوا هنا حاضرين) ، يهمنا فى ناحية خاصة جدا · عندما وصلنا الى صر . لم تكن عن الجزائر ، كما يعرف الكثير منكم ممن عاش فى مصر اذ ذاك . فى طر الكثير فكرة ، وكان الكثير هناك سألوننا عن الجزائر اين هي ، الخ ··· هل فيها ترموای ، وهل فيها نيل ··· وهل هى جزر أندونيسيا . أم البليار ، أم واق واق ؟

وكان فقيدنا الوحيد رحمه الله ، الوحيد من بين الاساتذة وواحدا من القلة القليلة بدا من شخصيات أخرى ، ممن كانوا يذكرون اسم الجزائر ! فكان ينتهز كل فرصة ، كل سياق فى بداية الخمسينات ليتكلم من الجزائر ، ويشير الى وضعها اذ ذاك ، فكان لك يوثر فينا كثيرا جدا ، ومن هنا يهمنا ، كما قلنا ، عثمان أمين وطنيا ، أي كجزائريين ، ويهمنا اسلاميا ، لانه مهتم بالفكر الاسلامي ومن قادته ، واهتم طوال حياته بشخصياته ، سواء كان يكتب أو فى محاضراته (I) فى مناسبات مختلفة ، مثل بن سينا ، وابن رشد ، والفارابى ، وجمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، ومحمد قبال ، وعبد الحميد بن باديس ، ويهمنا عالميا وانسانيا عالميا لانه كان يهتم بالفكر الانساني ، عموما ، بقادة للفكر الانساني ولو من غير المسلمين مثل : ديكارت ، وكنط ، وفيخته ، وآخرين · وكانت تهمه فيهم القيم العليا ، القيم السامية ، الحرية ، والتحرر ، والعقل ، والاخلاق ·

هذا هو عثمان أمين الذى نحتفى الليلة بذكراه · وسيعطيكم الاخوان هنا ، نبذا عن شخصيته ، وفلسفته ، تكملها وتجسمها وتبلورها المقتطفات التى ستعرض عليكم ذلك من كلامه ، وفكره ، وعواطفه ، لانه كان فيلسوفا ، وكان فى الوقت نفسه يتكلم

بعواطفه ، لانه لم يكن يسمو ، لم يكن يتعالى ، مثل كثير من ادعياء العقل ، عن العاطفة فهذا الرسول صلى اللـه عليه وسلم بكى عندما عـاد الى مكة ، كما تعلمون ، بالفتح المبـين !

ستعرض عليكم اذن نبذ من حياته ، من روحـه ، وعواطفه ، بصوته في تسجيلات في مختلف ملتقيات الفكر الاسلامي ، من الرابع الى العاشر · واننا لنعتز كل الاعتزاز بحضوره المنتظم ذاك ! اما النصوص التى اقتطفت منها هذه النبذ ، فهي موجودة في كتب الملتقيات المطبوعة ، والبعض الآخر في طريق النشر ان شاء الله ·

(وهنا اختنق المتحدث وتوقف عن الكلام) ·

انظر تكملة لهذه الكلمات ، مقالة له في تأبين المرحوم في العدد 61/60 من الاصالة تحت عنوان : مات عثمان أمين !) ·

I) انظر مثلا كتبه عن : الرواقية ، وديكارت ، وكنط ، ومحمد عبده ، والجوانية ، وعبقرية اللغة العربية ، ومحاضراته ومناقشاته في كتـب ملتقيات الفكر الاسلامي في الجزائر ، من الرابع الى العاشر : 1970 ـ 1976 م ·

عثمـــان أمـــين فيلســوفـا

البخاري حمـانه

اذا كان الموت هو الصخرة التي تتحطم عليها امـال الانسـان ٠

واذا كان يستطيع باعتباره امكانية الاستحالة عـلى حد تعبير Heiddesis **، اذ يحول بالتالي حياتنا الـى مصـير كمـا يقـول** Malraux **وامكانياتنا المتعـددة واللامحدودة الى استحالة مطلقة ٠**

فان افضل وسيلة انسانية ممكنة لمواجهته هو عـدم كف الانسان ولو للحظة واحدة عن التفكير فيه ، كمـا يلاحظ الفيلسوف اليوناني Sénèque ٠

يمثل هذا الموقف ، وبـــه وحده يستطيع الانسان أن يفلـــت من مفاجأة المـــوت ومداهمته ، عن طريق العمل المستمر والجاد الذي يحول حياته الى سيمفونية مكتملة ، ويعطيها نهاية طبيعية تضفي عليها صورتها المشرقة ٠

وكأني بالفقيد الاستاذ والصديق ، د٠ عثمان أمين قد آمـن بهذه الحقيقة وحرص بالتالي على أن يكون لحياته أو لسمفنيته ـ كما يقول ـ صورتها المكتملة التي تفلت من مباغتة الموت ومفاجاته ٠

فقد كانت حياته كلها عمل متواصل وعطاء مستمر لامته العربية الاسلامية · كما توكد ذلك مؤلفاته العديدة ، ونشاطه الذي لا يعرف التوقف ·

كان رحمه الله يؤمن ايمانا صادقا بمسؤولية الانسان تجاه امته ومجتمعه مسؤولية الوعي والحرية من أجل المجتمع والقيم النبيلة ·

وكان يردد لنا دائما فى محاضراته وطيلة السنوات الدراسية الاربع التي كان لي شرف قضائها تلميذا له بجامعة القاهرة · قول الفيلسوف الالماني الاشهر وهو : ان كل ما هو عظيم وما هو حسن فى عصرنا هذا يرجع الى ان رجال الماضى النبلاء الاقوياء قد ضحوا من أجل المبادىء والافكار بجميع مباهج الحياة ·

على ضوء هذه الملاحظات نستطيع ان نتعرف على بعض الجوانب من شخصية الفقيد ، وعلى ضوئها كذلك نستطيع أن نفهم بصورة أوضح « فلسفته الجوانية » التي كرس حياته من أجل ايصالها الى الجماهير العربية والاسلامية ·

يشرح الفقيد الظروف التى دفعته الى الفلسفة ، بل الى التفلسف فيقول « ان هذه الطريقة فى التفلسف ولدت عندي حينما لاحظت أن الوسطية الاسلامية فى كهنتها الحقيقي تنوسيت على مر الايام ولم يبق منها الا رسومها الظاهرة ·· ومن هنا كان شيوع البرانية بين الناس تبدى فى ذلك الاختلاف الصارخ بين الاقوال والاعمال ·· بين المظاهر والنيات ، وافتراق العبادات عن العقيدة السمحاء واستغلال أحكام الدين الحنيف فى تحقيق المآرب وتبرير النزوات » ·

وأمام هذا الوضع المزرى للامة العربية الاسلامية آمن الفقيد ان لا طريق لخلاص العالم الاسلامي والعربي الا بالتوعية والوعي هدفا ، وبالفلسفة أو التفلسف وسيلة ·

فالفلسفة صانعة التاريخ كما يقول ·· لان تاريخ الانسانية كله تاريخ فلسفات ·

وعلى أولئك الذين يعترضون بحجة أن الفلسفة لا تصنع خبزا يجيب ، بانها اذا كانت لا تصنع خبزا فانها تصنع الافكار ·· ومن ثم فهي تصنع التاريخ · ويكفي تدليلا على ذلك فيخته Fichte الذى استطاع بنداءاته الى الامة الالمانية أن يسهم بقدر غير بسيط فى دحض الجيوش النابلونية العازية لالمانيا ·

وفى هذا دليل على ان الفكرة ، والفكرة بذاتها وبمحض طاقتها الروحية تستطيع ان تغير مجرى التاريخ ·· فهي توقظ الامة من طول الرقاد وتفجر فيها روح الجهاد ·

في ضـــوء هذا الوضع المزرى للامـــة العربية والاسلامية ، وبهذا المفهوم للفلسفة لحقيقتها ولدورها فى التاريخ الانساني وتقدمه طـــرح الفقيد « فلسفته الجوانية » ٠ طريق للوعي ، وللخلاص والتقدم للامة العربية والاسلامية ٠ فى وقت كانت أصوات تعريب لكل تراثنا يملأ الدنيا ضجيجا ٠

وما أظن ان الوقت يسمح لي بشرح هذه الفلسفة تفصيلا ، أو التحدث عن جوانب لاصالة فيها فذاك ما اتمنى ان تتاح لي فرصة القيام به ٠٠٠ قريبا ٠٠ وفاء لاستاذي كبـــير ٠

على انه يمكن التعريف بهذه الطريقة الاسلامية فى التفلسف ، لا بهذه الفلسفة بانها ست فلسفة ولكنها طريقة للتفلسف فهي فلسفة تابى الركون الى مذهب ، أو الانغلاق ى نسق معين ، بل هي طريقة للتفكير مفتوحة نبتت عند الفقيد ، كما يقول ، من تامله ، نذ صباه ، لروح الدين والاخلاق عامة ، وللقرآن والاحاديث النبوية بصورة خاصة ٠

من هنا أوجه أصالتها ، واتصالها بماضينا قدر ارتباطها بحاضرنا ٠

اما أهداف هذه الفلسفة فان الفقيد يلخصها فيما يلي :

ـ تزكية الوعي الانساني بالانية الذاتية للوصول الى الرؤية الواعية الواضحة لاشياء ولمجاوزة المظهر الى المخبر ٠

ـ وتحقيق الامكانيات اللا محققة لدى كل فرد ٠

ـ باستثمار قوة الروح فى العمـــل الصالح للمجتمع الاسلامي بصورة خـــاصة الانساني بصورة عامة ، لتحقيق الافضل ٠

فهي فلسفة أساسها الوعي ، ووسيلتها الطاقة الروحية ، وهدفها الوصول بالانسان تحقيق أسمى ما فيه من مثالية وقيـــم ٠

وقد يظن البعض انها فلسفة مغرقة فى المثالية الى حد تنسى وتهمل فيه العمـــل ، الـــواقع ٠

وذلك ما ينبهنا الفقيد اليه ويحذرنا منه حين يؤكد ٠ أن الجوانية تدعو الى العمل بناء المؤسس على النظر الواعي ٠٠٠ وتزكية الحرية الانسانية ٠٠ وهي من حيـث ي فى صميمها وعي قد اتخذت لنفسها الشعار الاسلامي « الامر بالمعروف والنهـــي ن المنكر » ورات هذا المبدأ فرض عين لا فرض كفاية وجعلته مبدأ من مبادىء الوعـــي لانساني ٠٠

لذلك نجـد الفقيد قد حرص على تطبيـق هذه الفلسفة فى مختلف المجالات التـ حددهـا لها ·· ابتداء مـن دراسـة اللغـة العـربية · لغـة القـرآن ، وايجازه والعفة والحرية والشعور بالمسؤولية وصفاء الضمير ودعوتها الى الحركة فى نفس الوقت الى الاخـلاق الاسلامية ودعوتها الى الكرامـ .

أيها الاخوة ·· كان بودي ·· ولكن ان هذا التكريم للفقيد يأتي فى اليـوم الذي بدأت فيه وزارة الشؤون الدينية والجزائر التحضير للاحتفالات بحلول القرن I5 ··· احتفالات نقيم فيها ما عملناه فى ظروف استخراب حالكة فى القرن المنصرم ، ونستفيد فيها لهذا القرن ، واظن ان الفقيد الذى اسهم بقدر كبير فى هذه الانجازات جدير بمثل هذا التكـريم .

فلقد عاش من أجل الامة الاسلامية العربية ··· وعمل حتى آخر حياته من أجـل وعيها ونهضتها وتقدمها ..

فالى تلك الروح الزاكية ·· الطاهرة تحيـة ، والى المفكـر الاسلامي الكبير ، الى الاستاذ والصديق الذي ارتحل عنا الى دار الخلد ، وداعا .

فى ذكـــرى الفيلســـوف عثمـــان أمـــين

اسماعيل العربي

سيدي الوزير ، ايها السيدات والسادة ،

نعي الينا منذ ستة أشهر شخصية اسلامية ، شخصية علمية من الطراز الاول وتألمنا لهذا الحدث الجلل بصفتنا ننتمي الى الثقافة الاسلامية التي خدمها بكل جد ونشاط ، ونتألم ايضالان الرحيل ، كان من خير من عرف بلدنا وعرف بها • ونتألم خصوصا لاننا عرفناه معرفة شخصية •

أتيحت لي الفرصة لان أعرف الراحل معرفة شخصية وأن اقترب منه كما يقترب التلميذ من الاستاذ • عرفته أول ما عرفته من خلال أبحاثه وكتبه ، وهذا الجانب يشاركني فيه كل قراء الثقافة العربية ، ولكن الجانب الذي جعلني أشعر نحوه بعلاقة خاصة ، هي روحه الدينية التي تشكل خلفية متينة لابحاثه الفلسفية ، وبصفة خاصة ارتباطه بل والتزامه بمبادىء الحركة الاصلاحية التي كان جمال الدين الافغاني ومحمد عبده ورشيد رضا فى مصر والاستاذ عبد الحميد بن باديس عندنا أكبر أعلامه ودعاته ، وكم كنت سعيدا حينما قدمني اليه الاستاذ محمد الدراز مدير الادارة بجامع الازهر ، لقد أتيح لي ان أحضر محاضرات للاستاذ الراحل فى كلية الآداب بالجامعة المصرية ،

ولكن معرفتي الشخصية بالراحل كانت هي التي اتاحها لي الشيخ دراز · فقد كان مكتبه الواسع والعامر ملتقى لعدد من رجال الثقافة المصريين وبعض الطلبة المسلمين الاجانب الذين يتلقون العلم في مصر والذين اتاح لي الحظ أن أكون من بينهم · ان هذه الفرصة لا تسمح لي بالحديث عما كان يجري في هذه الاجتماعات الاسبوعية من الاحاديث الطيبة التي تتناول الدين والفلسفة والادب وبصفة خاصة شؤون العالم الاسلامي ، ولكنني مع ذلك أستطيع ان اقول أن الدكتور عثمان أمين وأستاذي محمد البهي فرقر وأستاذي عبد الحليم محمود ، شيخ الازهر الذي وردت الاخبار المحزنة بنعيه مؤخرا ، كانوا هم الذين يقودون المناقشات التي كان يديرها الشيخ دراز بلباقة ومعرفة نادرة بمقدرة كل واحد من زواره وميوله واختصاصاته وذلك في جو ·

ايها السيدات والسادة ، اليكم الآن كلمة مساهمة في احياء ذكرى الفقيد الدكتور عثمان امين الذي تظللنا روحه الزكية ·

في ذكرى الفيلسوف عثمان امين

ان مساهمة الفلسفة الاسلامية في تنمية الفلسفة الاروبية لا تزال مشكلة ومثار النقاش بين الباحثين ، والمتطرفون في هذا الحوار طائفتان : طائفة ترى ان الفلاسفة الاروبيين لم يكن دورهم يتجاوز الاخذ والاقتباس ، أو بلورة المواضيع التي تدور حولها الفلسفة الاسلامية · فنظرية النبوة والتفرقة بين النبي والفيلسوف التي عالجها سبينوزا في كتابه : « الرسالة اللاهوتية » في نظر هؤلاء لم تكن الا توسيعا وتجديدا للنظرية التي شرحها الفارابي قبل ذلك بسبعة قرون في كتاب آراء أهل المدينة الفاضلة · وحجة ديكارت القائلة : «أنا افكر ، فانا اذا موجود» ، ليست سوى النتيجة التي توصل إليها أبو حامد الغزالي في كتاب المنقذ من الضلال ، بعد فترة طويلة من الشك والمعاناة الروحية ، ونظريات روجر بيكون في البصريات ، انما هي اقتباس بالحرف أو بالمعنى لاراء ابن الهيثم ، وهكذا ، وليقس ما لم يقل ·

والفئة الاخرى تنكر على الفلسفة الاسلامية أي وجود مستقل عن الفلسفة اليونانية فهؤلاء يرون أن دور المسلمين لم يزد عن القيام بترجمة واقتباس آراء الفلاسفة اليونانيين مثل اريسطو وافلاطون ومزجها في بعض الحالات بالافكار الشائعة بين الطوائف المسيحية التي كانت تعيش في سوريا وآراء الوثنيين من أهل حران · وبعبارة أخرى فان فضل المسلمين يقتصر على نقل التراث القديم الى اروبا في العصور الوسطى مهضوما جزئيا ، اي انهم انما قاموا بدور الانسان العادي الذي يشكل جسرا لتعبر

الانسانية عليه الى الانسان المتفوق ، أي « السوبرمان » كما يصفه الفيلسوف نيتشه في نظريته المشهورة ·

من البديهي أن هؤلاء المتطرفين انما يعتمدون على العموميات وعلى السهل من الحجج ، بل وعلى ما يشبه الحجج ، ولا يكلفون أنفسهم عناء الدرس المتعمق والتحليل. والملاحظ هو ان الاتجاه الاول شائع بين طائفة من المسلمين الذين ينكرون كل أصالة للحضارة الغربية ، بينما يردد آراء الفئة الاخيرة غلاة الجاحدين الذين ينكرون فضل الاسلام ولا يعترفون بصرح الحضارة الذي شيده المسلمون في ثلاث قارات من القارات الخمس ·

طرح عثمان أمين الراحل هذه القضية بمنهجية المعلم التي تعتمد على الشرح والتوضيح وتبسيط المشاكل العويصة ، في المساهمة القيمة التي قدمها في نطاق الملتقى الثامن للتعرف على الفكر الاسلامي في بجاية ، فاختط لنفسه طريقا سويا في العرض والتحليل وصاغ رأيه في عبارات تتسم بالرزانة والصدق والالتزام للحقيقة · فما هو موقف عثمان أمين من هذه القضية الخطيرة الشأن ؟

يرى الفيلسوف الراحل أنه لكي نكون منصفين يجب ان نعترف بان الفلسفة الاسلامية (أو الفلسفة العربية ، كما يرى البعض ، لانها كتبت باللغة العربية) تحتوي على عناصر هامة من الفكر اليوناني · وكلمة عناصر التي استعملها عثمان امين تعجبني بصفة خاصة ، لانها تثبت منذ مقدمة الاستدلال وجود الفلسفة الاسلامية ، لان كل كائن حي ، بل وكل نبات له شخصية متميزة ووجود مستقل ، يحتوي على عناصر مختلفة ، والفرق واضح بين العناصر المحفوظة ، وكلا على حدة والعناصر المهضومة التي تكون مع غيرها كائنا حيا مستقلا ·

على أن الاستاذ الراحل لا يقف في بحثه واستدلاله عند القول بان العرب هضموا عناصر الفلسفة اليونانية ، بل هو يذهب خطوة أخرى أبعد من ذلك حين يقول :

« ولكننا نقرر مع ذلك أن الفلسفة العربية والاسلامية شيء ، ومجرد الهضم والتمثيل للفلسفة اليونانية شيء آخر » ·

ما معنى هذا التقرير ؟ معناه أن الفلسفة الاسلامية مرت بمرحلة أولى وهي مرحلة النقل والهضم والتمثيل ثم دخلت في مرحلة ثانية ، وهي مرحلة الانتاج الاصيل الذي يعكس موقف المسلمين من المشاكل الميتافيزيقية التي يواجهونها في عصرهم بمنهجية تعترف بالتطورات التي عرفها الانسان خلال القرون التي تلت عهد الفلسفة اليونانية ·

وبهذا المنطق فقط يمكننا ان نعترف بدورنا بالمذاهب الفلسفية الكبرى التي ظهر في أروبا في العصور الحديثة · فان زعماء هذه المذاهب مثل الفلاسفة بيكون وديكار واسبينوزا ولايبنيتس ، قد تغذوا هـم أيضا بعناصر مـن الفلسفة اليونانية والفلسفة المسيحية والفلسفة الاسلامية ، ولكنه كان لكل منهم مع ذلك شخصيته ونظامه الفلسفي الذي يلتقي أو يفترق مع نظم الآخرين ·

وعلى ضوء هذا التحليل البارع يستنتج عثمان أمين نتيجة تكاد تكون بديهية فيقول

« واذا ، فكيف صاغ البعض ان يظنوا ان عقلا كعقل الفارابي وابن سينا والغزالي وابن رشد كان عقلا جديدا لم ينتج في الفلسفة شيئا أصيلا ، وانـه لم يكن الا مقلـدا لليونـان ؟··

ويمضي الباحث فيصرح بمضمون نتيجته قائلا :

«أبادر فاقول ان للفلسفة الاسلامية مكانتها التي يشهد بها الواقفون على أسرارها» .

ان اطار المحاضرة لا يتسـع لمعالجة مشكلة كبيرة مثـل مشكلة أصـالة الفلسفة والتفكير الاسلامي من جميع جوانبها · ولو تناولها الكاتب الراحل في اطار أوسـع لفصل ما أجمله ولاتسع افق تحليله ليشمل مختلف العوامل التي ساهمت في تكوين الرأي الذي ينكر وجود الفلسفة الاسلامية وفضل المسلمين بصفة عامة على الحضارة الحديثة · ولكن بعض هذه العوامل يمكن استخلاصه من سياق هذه المحاضرة القيمة ومن القراءة بين السطور ·

وفي رأيي أن أهم هذه العوامل هـو الجهـل المزدوج : أولا جهل العرب بتراثهم الفلسفي · فاذا استثنينا دراسات جـدية لا يكاد عددها يتجاوز عدد أصابع اليـد الواحدة ، فان الباحثين لم يعكفوا على درس ذا التراث · والصعوبة الاساسية في ذلك مرجعها الى ندرة الوثائق حيث أن الاغلبية الساحقة من المؤلفات الفلسفية لا تزال في حالة مخطوطات لم تمسها يد بالتحقيق فضلا عن الشرح والتعليق ـ وهي موزعـة في مختلف مكتبات العالم في الشرق والغرب ، هذا اذا لم تكن قد ضاعت كلية · بـل ان بعض مؤلفات الفلاسفة العرب لا توجد الا في ترجمة لاتينية · ومن ثـم ، فان مهمة الباحث الصادق العزم والمخلص في عمله مهمة شاقة للغاية من حيث انه يتحتم عليه ان يعرف الى جانب اشياء أخرى اللاتينية واليونانية ، وأن يتاح له وقت فسيح ومـال وفير وتسهيلات فوق العادة حتى يتمكن من التنقل بين مختلف مـدن العـالم للبحث

وللاطلاع عن نصوص خطية نادرة وهي فى حالة المادة الخـام · ومتـــى انتهى هذا الباحث من عمله المضنى الذي قد يستغرق جزءا مهما من عمره ، سيواجه مشاكل النشر أو تمويل نشر كتابه ، بالاضافة الى مشاكل التوزيع وعدم وجود عدد كاف من القـراء فى البلد الذي ينشر فيه ، لان توزيع كتاب فى جميع البلدان العربية بما يعترضه مـن الحواجز الجمركية وغير الجمركية وقيود العملة الخ ، اصبح امرا غير ممكن الا فى احلام الكتاب ·

والجهل الثاني الذي ادى الى انكار قيمة الفلسفة الاسلامية ، هو جهل المستشرقين باسرار اللغة العربية ، وبصفة خاصة بالمصطلحات الفلسفية ، الامر الذي يجعل مـن الصعب عليهم الخوض فى البحث والمناقشة وتقويم الافكار الفلسفية · هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان متطلبات عصر الاستشراق كانت تتركز فى الجغرافيا والتـاريخ والتشريع ، وهي امور وثيقة الصلة بالسياسة وبمحاولات الاستعمار لفهم أوضـــاع سكان المستعمرات · واما تحقيق الكتب الفلسفية وترجمتها والتعليق عليها ، فهو مجهود ليس له مردود سياسي على الاطلاق ، وبالتالي ، فان احدا لم يتجه اليه بصورة جدية · على ان ملتقى ابن رشد الذي عقد مؤخرا فى الجزائر ، يبشر باتجاه جديد ويدل عـلى الشعور بهذا النقص الخطير ، ان لـم نقـل هذه الفجوة فى تنميتنا الثقافية · والاستاذ الراحل ، عثمان امين قد خط لنا الطريق ووضع معالمه وزودنا بارشاداته وآرائه القيمة بشان الاتجاه الذي ينبغي ان نتجهه ·

عثمـان أمـــين فيلســـوف الجوانيـــة بـــين اللغـــة والـديكارتيـــة

د. الربيع ميمـون

سيدي الوزير المستشار برئاسة الجمهورية ،
اخواني الاساتذة ،
سيداتي ، سادتي ،
يمتاز استاذنا الكبير عثمان امين ، رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ، بحس فلسفي عميق ، نافذ ، جعله يجمـع بين تعاليم الاسـلام الكونية ، وتفتـح النزعة الفلسفية الانسانية فى فلسفة خاصة به ، غايتها الانسان وكرامته وسيادة المثل العليا بين افراده ·

لقد كانت فلسفته التي أعطاها اسم الجوانية تقوم على الدعوة الى تنمية الانسان لقواه الروحية تنمية يشعر معها بانه متآزر مع افراد الانسانية المؤتلفة الواعية بصرف النظر عن اختلافهم فى اللغات والاجناس والاوطان (I) ·

I) عثمان امين ، محاولات فلسفية ، مكتبـة الانجلو المصرية ، القاهـرة ، 1967 ، ص 29 ·

ولهذا تقتضى من الانسان أن يكون صاحب وعي بالدرجة الاولى : صاحب وعي بانه انسان اي مخلوق كريم ، وصاحب وعي بانه يجب عليه أن يعيش كانسان ، وأن يحافظ على انسانيته ، ويحميها بكل قواه مما يمكن أن يحط منها ·

ويظهر لنا بدون عناء أن أستاذنا المرحوم كان من كبار الوعاة الذين لا يرون اي شيء كاي شيء بلا اختلاف ولا اتفاق اذ كانت وضعية الامة الاسلامية تؤلمه نقائضها ، ويحز فى قلبه تأخرها ، وكانت حضارة الغرب تجذبه اليها بايجابيتها فيميل اليها ، ولكن احتكاكه بها سرعان ما كان يذكره بأمجاد الاسلاف فيتركها الى حين ، ويرجع الى حضارة أجداده ليتفهم روحها ، ويشيد بها ، ويجعلها جنة يحتمى بها ، وحاجزا بينه وبين اي ذوبان كان ·

لقد كان يعتز بشخصيته العربية الاسلامية ايما اعتزاز ، وكان يرى فى المتجنسين بالسلوك والعقلية ، واللباس - ناسا يمتازون بضعف عقولهم ، وانحرافهم ·

ولهذا كان يدعو بالحاح الى التمسك بالاصالة الذاتية والمحافظة عليها ، وكان يرى ان قيمة الانسان الحقيقية كامنة فيها ، وأن التقدم الصحيح لا يمكن أن يكون الا انطلاقا منهـا (2) ·

ان الجوانية التي نشأت نوازعها لديه فى أيام الصبا ، وتأكد انطباعها فى ايام الشباب واكتمل وعيها فى أيام الكهولة (3) بين مواطنيه البسطاء من أهل قريته التي بقي يحن اليها طوال حياته (4) ، فلسفة ترجع أصولها الى تأملاته فى روح الدين والاخلاق بصفة عامة ، وتأملاته فى اي الذكر الحكيم ، والحديث الشريف بصفة خاصة (5) ·

فهي ليست مذهبا أو نسقا فلسفيا مغلقـا ، ولكنها فلسفة أو طريقة فى التفلسف تمتاز بتفتحها ·

ويمكننا أن نقول عنها ، ومن بعده ، رحمة الله عليه ، « انها عبارة عن استعداد أوحال نفسانية ، ثم هي نظرة الى الاشياء ، وتقديم لها تقديما لا يقف عند ظاهرها ، ويحاول أن يكتنه أسرارها وخفاياها » (6) ·

---

2) مولود قاسم نايت بلقاسم ، مات عثمان أمين فيلسوف الجوانية ومفند الخواجات الاصالة ، سبتمبر 1978 م ، العدد 61/60 ، ص 2 وما بعدها ·
3) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، ص 17 ·
4) المرجع نفسه ، ص 19 ·
5) المرجع نفسه ، ص 17 ·
6) المرجع نفسه ، ص 32 ·

ولهذا فهي تجمع بين الحيـــاة الروحية والحيـــاة الدنيوية ، ولا تجعل حا. بينهمـا (7) ·

ان الغاية التي ترمي اليها دائما هي الروح أو ما يمكننا أن نعبر عنه بالحقيقة ، السر الذي يقوم عليه وجود كل شيء ·

فالحقيقة ، فى نظر أستاذنا الكبير ، يجب أن لا تلتمس فى المظهر ، بل وراءه (8)

ولهذا ، يطلب منا أن لا نقتصر فى درسنا للفلسفات على الاقوال التي صرح بها أصحابها ، وأن نحاول دائما استشفاف المعنى المستور وراءها من جهة ·

ويطلب منا أن ننتبه الى أن مفاهيم بعض الفاظ اللغة التي نكثر من استعمالها مثل الامة ، والجماعة ، والشخصية ، والفكر ، والصداقة ، والولاء ، والايمان ، لا يمكن أن تكون الا جوانية من جهة أخرى (9) ·

وهو يرى من بعد هذا كله أن تناسي المسلمين « للوسطية الاسلامية » على مـــر الايـــام جعـــل « البرانية » تطغى فى المجتمع الاسلامي ، وتسود كما يتجـــلى ذلك فى التخالف بين الاقوال والافعال الذي صار المسلمون يمتازون به (IO) ·

ان « البراني » ، اذ اطغى صعب على الانسان أن يتحرر منه ، ولا يمكنه أن يتحرر منه الا بكفاح وعراك مستمرين (II) ، أو بعبارة اسلامية ، الا بجهاد دائم للنفس ·

فالجواني هو الذي يمنح الانسان وغيره قيمتهما فى نظر أستاذنا الكبير ·

ولذلك جعل منه الزاوية التي ينظر منها الى اللغة العربية ، والفلسفة ، وكل قضية يتناولها بالبحث فتكتسي آراؤه بسبب ذلك حلـــة من الطرافة والكمال لا نجدهما الا فى آراء الفلاسفة العظـــام ·

ان اللغة العربية ، فى نظر أستاذنا رحمة الله عليه ، لغة وعي وشهادة يجب الدفاع عنها والمحافظة عليها ، والرقى بها من غير تشويه لاصالتها (I2) ·

---

7) المرجع نفســه ، ص 40 ·
8) المرجع نفســه ، ص 23 ·
9) المرجع نفســه ، ص 35 ·
IO) المرجع نفســه ، ص 20 ·
II) المرجع نفســه ، ص 40 ·
I2) عثمان أمين ، فلسفة اللغة العربية ، الاصالة ، ماي 1978 م ، العدد 57 ص IIO

ولذلك كان يرى فى تأخرها سببا من أسباب تأخر المسلمين كما كان يرى فى هجوم تعمرين عليها ، وفى دعوتهم الى ترجمة القرآن الكريم مخططا مرسوما غايته القضاء ا ، وعلى الهوية العربية ، وبالتالي على الاسلام والمسلمين (13) ·

فاللغة العربية لغة تمتاز فى نظره بمثاليتها وجوانيتها ، وباعرابها وصدارة المعنى تراكيبها ، وبظلال رسومها وألوانها ، وبحرصها على الايجاز والتركيز ، وبدعوتها الحركة وتوخى الوعي والفهم قبل المنطق ، والسمع ، والكتابة فى خطابها (14) ·

ولذلك ، فهي ذات عبقرية فائقة لا نجدها لغيرها من اللغات على الرغم من اهمالنا بسبب ما صرنا اليه من التدهور والانحطاط ·

وهي عبقرية فريدة فى نوعها ضمنت لها البروز والخلود ، وجعلت منها اللغة التى طيع ، دون غيرها ، أن تحمل معاني الوحى وأسراره ·

هذا ، ويبدو لفيلسوفنا الاصيل أن الديكارتية أقرب الفلسفات الغربية الى روح ة العربية (15) ·

لقد كان ، رحمة الله عليه ، يسرف في حبه لديكارت ولغيره من الفلاسفة الذين فل بهم ، وكتب عنهم (16) لانه كان يرى أن الفلاسفة والمفكرين الوعاة جديرون ندير مهما كانت أجناسهم (17) ، وكان يرى أنه لا يمكن أن تكون لنا معرفة صحيحة من غير مشاركة روحية ، أو « تعاطف عقلي » معهم (18) ·

ولهذا نجده يلتزم ، دائما ، بدراسة المذاهب الفلسفية من ناحية صلتها الوثقى سة من أبدعوها (19) ·

هو لا ينسى ، أبدا ، لدى دراسته للفلاسفة الغربيين أن يبرز سبق الفلاسفة المسلمين لهم على الفلاسفة المحدثين فى نظرياتهم كلما سنحت له الفرصة (20) ·

---

1) المرجع نفسه ، ص 101 و ص 103 ·
1) المرجع نفسه ، ص 101 وما بعدها ·
1) المرجع نفسه ، ص 107 ·
1) عثمان أمين ، ديكارت ، القاهرة ، دار الطباعة الحديثة ، 1969 م ، ص 13 ·
1) مولود قاسم نايت بلقاسم ، الاصالة ، العدد 61/60 ، ص 4 ·
1) عثمان أمين ، ديكارت ، ص 13 ·
1) المرجع نفسه ، ص 7 ·
2) مولود قاسم نايت بلقاسم ، الاصالة ، العدد 61/60 ، ص 3 وما بعدها ·

ولا ينسى ، أيضا ، أن يطبق المنهج الجواني في عرضه للقضايا الفلسفية عـ اختلاف أنواعها ·

ففلسفة ديكارت ، في نظره ، جوانية مثل حياته (2I) · وذلك لانها فلسفة تقـو على الدفاع عن بداهة العقل في كل قول ، وكل معرفة وكل يقين ، والدفاع عن النـو الفطري الذي هو مناط كرامة الانسان (22) ·

ان فضل ديكارت على الانسانية يظهر في قوله بأن المثل الاعلى للانسان ماثل في تحقيقه وعيه لذاته ، ولمكانه في العالم بحيث يـرد جميع آرائه الي افكـار واضحة ومتميـزة (23) ·

لقد أعرض ديكارت عن المعرفة المحيطة الشاملة تواضعا لله ، واكتفى بالبحث عن انفع المعارف في هذه الحياة جاعلا مطمحه وضوح الرؤية في العمل ، وطمانينة السير في الحيـاة (24) ·

ولقد كان العقل قائده في البلوغ الى هذه الغاية السامية بعد أن ذلل العقبات التي كانت تعترضه سواء كانت ذات علاقة بداخل النفس مثل الاهواء ، أو بخارجها مثـل العوائق الاجتماعية (25) ·

فالعلم ، في نظر ديكارت ، يجب أن تكون له غايات عملية تعـين الانسان عـلى التحلي باسمى الكمالات التي تسمح له بها طبيعته ·

ولهذا ، فهو يرى فيه العلم الذي يستطيع أن يجعل منه مثل سيد ومالك للطبيعة ، والعلم الذي يستطيع أن يحرره من المرض ، وأن يجعل منه انسانا صاحب أخلاق سامية وحكمة عميقة في النهاية (26) ·

فالفلسفة الديكارتية غايتها اصلاح جوانية الانسان ·

ولعلـه لهذا السبب نجـد أستاذنا الكبير يشتغل بهـا فيترجم لصاحبها كتابيه الاساسيين اللذين هما كتاب « التأملات في الفلسفة الاولى » وكتاب « مبادىء الفلسفة

2I) عثمان أمين ، ديكارت ، ص 22 ·
22) المرجع نفسـه ، ص 23 ·
23) المرجع نفسـه ، ص I5 ·
24) المرجع نفسـه ، ص 24 ·
25) المرجع نفسـه ، ص 23 ·
26) المرجع نفسـه ، ص 24 ·

من جهة ، ويكتب في التعريف وبفلسفته كتابا لا زال أحسن ما كتب عن ديكارت باللغة العربية على ما أعرف ، من جهة أخرى » ٠

ويظهر لنا أن اهتمام أستاذنا الكبير بالفيلسوف ديكارت كان اهتماما موفقا سواء في كتابه عنه ، أو في ترجمته لكتبه لان « الجوانية » التي اعتمدها كطريقة للتفلسف البناء فتحت أمامه باب الديكارتية على مصراعيه ، ومكنته من أسرارها فصار يجول في رحابها ، وكأنه أحد اتباعها المتعصبين ٠

لقد كان أستاذنا فيلسوفا في عرضه لآرائه وفي كتابته عن غيره من الفلاسفة ، وفي ترجمته لآثارهم ٠

ولم يبلغ ، في نظرنا ، هذه الدرجة من النضج الا لانه تحرر بتفكيره النافذ ، وشعوره المرهف من حدود الزمان والمكان فصار انسانا صالحا لكل زمان ومكان ٠

ان الفلسفة ، في نظره ، « عمل أخلاقي » يقوم به الفيلسوف (27) ، ولا يمكن أن يستغني الناس عنه لانه محرك نهوضهم وتقدمهم ٠

ولعله لهذا السبب نجده يقول : « ان الفلسفة لا تستطيع أن تصنع الخبز ٠ ولكنها تستطيع دائما أن تصنع الافكار ٠ ومن ثم تستطيع أن تصنع التاريخ ٠ وليس هذا بالشيء اليسير في حياة الانسان الواعية » (28) ٠

هذه جملة من الافكار يشرفني أن أقدمها اليكم ، سيداتي ، سادتي ، مشاركة متواضعة مني في احياء ذكرى وفاة علم من أعلام الفلسفة العربية الاسلامية المعاصرة فارقنا الى جوار ربه راضيا مرضيا ، بعد أن قام بواجبه على أكمل وجه ، وأبقى لنا من بعده انتاجه المتنوع العظيم لدراسته ، واستلهامه ، والسير في خطاه لاثرائه ٠

وهو انتاج جدير بنا أن نهتم به ، وأن نبرز جوانبه المتعددة ، وأن نكشف عن قوته ، ندل على أبعاده وفاء لصاحبه الذى أحب هذه اللغة التي هي قوام أصالتنا ، وهذا لدين الذي هو منارة عزنا ، وأخلص في خدمته لهما اخلاصا يراه الله ورسوله المؤمنون ٠

لقد مات الاستاذ عثمان أمين رحمه الله وأسكنه فسيح جنانه ، ولكن انتاجه الاصيل ق بيننا ، وسيبقى بيننا دليلا نهتدى به ما بقيت هذه اللغة ، وما بقي هذا الدين ٠

---

27) المرجع نفسه ، ص 9 ٠
28) عثمان أمين ، محاولات فلسفية ، ص 55 ٠

الجلسة العلنية
لمجمع اللغة العربية بالقاهرة
لتابين المرحوم عثمان أمين

اقيمت يوم الاربعاء 23 من ذي القعدة سنة 1398 هـ (الموافق 25 من أكتوبر سنة 1978 م) جلسة علنية بدار مجمع اللغة العربية بالقاهرة لتابين فقيده المغفور له الدكتور عثمان أمين (الذى توفى الى رحمة الله فى 17 ـ 5 ـ 1978) ٠

وكان فى مقدمة المحاضرين والمتكلمين الدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع ، والسادة اعضاء المجمع ولفيف من كبار العلماء وأساتذة الجامعات وجمع من طلابها ورجال الاعلام من صحافة واذاعة وتلفزيون ٠

ثم أعقبه الدكتور سليمان حزين فالقى كلمة المجمع فى تأبين فقيده ٠

وتلاه الاستاذ محمد عز الدين أمين شقيق الفقيد فالقى كلمة الاسرة ٠

وبعد ذلك اختتم الدكتور الرئيس الجلسة بكلمة شكر فيها السادة الذين شاركوا جمع فى تأبين فقيده ٠

وفيما يلى ننشر اهم وقائع هذه الجلسة التى تفضل الاستاذ الدكتور ابراهيم ور بارسالها للنشر فى الاصالة ٠

1 ـ كلمة الافتتاح للدكتور ابراهيم مدكور رئيس المجمع
« انـــا وعثمـان أمـــين »

ايهـا السيدات والسـادة :

يفقد المرء نفسه شيئا فشيئا حين يفقد الاخوان الاعزاء والزملاء الاوفياء ، ولقـد كان عثمان امين منى فى مقدمة هؤلاء ، عرفته شابا ، وصاحبته كهلا وشيخا ـ عرفته فى باريس بين الرعيل الاول من مبعوثي كلية الآداب بجامعة القاهرة ، وفى باريس مجال فسيح للجد واللهو · واشهد أن فقيدنا رحمه اللـه كان جادا دائما · اتيحت له موارد البحث والدرس فنهل ما وسعه ، قرأ فى الادب والفن ، كما قـرأ فى العلم والفلسفة ، وتابع كبار الاساتذة ، وتتلمذ لشيوخهم ، وجود لغته الفرنسية الى جانب لغته الانجليزية وضم اليهما حظا غير قليل من اليونانية واللاتينية · وتوفر له فى مصر قبل سفره زاد كبير من العربية ادبا وعلما وفلسفة ، ولم يصرفه تعمقه فى دراسة الفكر الغربي قديمه ومتوسطه وحديثه ومعاصره ، عن أن يتابع النظر فى الفكر الاسلامي · ويكفي أن أشير الى أنه استطاع اثناء بعثته أن يحقق كتابا من اهـم كتب المعلم الثاني ، وهـو كتاب « احصاء العلوم » لابي نصر الفارابي ، وجاءت طبعته الاولى وليدة هذه الجهود · وفى حرصه على التجويد ألحق بها الطبعة الثانية والثالثة ·

وزاملته فى مصر منذ عودته من أروبا ، فالتقينا على مائدة التدريس فى كليـة الآداب بجامعة القاهرة ، واشتركنا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بمجمعنا هذا اشترك معنا خبيرا ، ثـم عضوا وزميـلا ، والمعجم الفلسفي الذي يخرجه المجمع الآن مدين له بقسط كبير من تمحيصه وتحقيقه · واشتركنا أيضا فى لجنة الفلسفة والعلوم الاجتماعية بالمجلس الاعلى للآداب والفنون وجمعت بيننا ندوات ومؤتمرات متلاحقة · ولا أذكر أننا اختلفنا قط فى الحكم والتقدير ، أو تباعدنا فى التوجيه ورسم السياسة · وقد رميت يوما بممالاته والتعصب له ، ويعلم اللـه انى لم أرشحه لامر ، ولـم أختره لموقف الا وهو به جـد جدير ·

واليوم وقد رحل عنا وخلف ما خلف من فراغ ، فان الواقع يقتضينا أن نسجـل انه يعد بحق من بناة الفكر الفلسفي المصري المعاصر · كون رعيلا مرموقا من الباحثين والدارسين ، وزود المكتبة العربية بزاد وفير سيبقى على الدهر · ولم يفته أن يكتـب ويؤلف باللغتين الفرنسية والانجليزية · تغمده الله برحمته ، وجزاه خير الجزاء عما قـدم للغتـه وثقافتـه ·

2 ـ كلمـة المجمع فى تأبين فقيده الدكتور عثمان أمـين

للدكتور سليمان حـزين عضو المجمع

بسم الله الاول والآخر ، كانت الساعة ساعة الضباء ، وكان الفصل من السنـة فصل الربيع ، وكان النهر الذي نقف على شاطئه نهر دجلة ، وهذا النهر يفيض فيضانه فى وقت الربيع حين تذوب الثلوج القادمة من جبال بلوخستان ، وكانت القافلة قافلة طلاب كلية الآداب من الجامعة المصرية فى عام 1930 م ٠ كانت القافلة بسيارتها العتيقة التي انهكها الزمن قد قطعت طريقا عبر بادية الشام التي كانت فى ذلك الوقت خالية من الطرق المعبدة ، سارت القافلة على درب قوافل الجمـال ، حتى اذا ما وصلت شاطىء دجلة ألفينا هذا النهر العاتي بمياهه الصاخبة ، ولم يكن فى ذلك الوقت من جسر عبر هذا النهر ، وانما كان العبور فوق جسر هو فى أساسه قرب هواء منفوخة شد بعضها الى بعض ، ونسجت من فوقها قطع الخشب مشدودة بعضها الى بعض ، واشفق قائد الرحلة على الطلاب من أن يعبروا فـوقه بسياراتهم ، فأشار الى أن ننـزل ، وعبـرت السيارات خالية ، ثم بدانا العبور على الاقدام ، وكان من بين هؤلاء الطلاب طالـب ربعة فى طوله ، مشرب وجهه بحمرة تعلوها طيبة المحيا ، يلبس طربوشا طويلا كمـا كانت عادتنا فى تلك الايام ، ويمسك فى يده بعصا معقوفة اليد ، وكانت تلك العصا قد لازمته طوال الوقت ، ذلك هو عثمان امـين ، وكان عثمان أمـــين منذ تلك الايام يبهره الجمال الرائع فوقف على الشاطىء مأخوذا بجماله ، ويرى فى ذلك الشاطىء لونـــا من الجمال الذي تمسك به طوال حياته ، وفى تأمله ذاك زلت قدمـــه عندما بدانا نعبر جسر القرب المنفوخة ، وسقطت قدمه ، وظننا انه سقط ، ولكنه تمسك ونهض قائمـا مرفوع القامة كما كان دائما بشخصيته هذه التي يبهرها جمال الطبيعة ، قام وأبى الا أن يستمر على الجسر مستندا الى عصاه ، وكان زميلا لنا فى كلية الآداب ، ولكننا كنا ننظر اليه على انه طالب فلسفة ، وعلى أنه فيلسوف أيضا ، نوع جديد بين من يدرسون الفلسفة ، وكان فى كل تصرفاته منذ اليوم الاول فى كلية الآداب فريدا ٠ كنا نحـاول دائما أن نتلقى الفكر والادب والعلم عن أساتذتنا فى كلية الآداب ، ولكنه اختلف عنـا جميعا ، فى أنه أبى الا أن يتتلمذ على أساتذة قدامى سبقوا عصرنا بقرون كثيرة ، منهم أفلاطون الذي أخذ عنه قوله ان الفلسفة محبة الفكر ، والفلسفة حارسة لهذا الفكـر ،

حارسة للدنيا كلها ، وأخذ عنه ان الفلسفة جمال فى الرأي · ومنذ ذلك الوقت أخـذ عثمان أمين يعشق الجمال ، الجمال الحي والجمال المعنوي ، وانعكس ذلك كلـه على شخصيته التى أصبحت وبقيت الى آخر أيامه شخصية جمالية بكل ما يحويه الجمـال من معنى رقيق ، وكان الى جوار ذلك مؤمنا ايمانا قويا ، وكان يكرر دائما أن اللـه سبحانه مالك الجمال المطلق ، وهو يعشق هذه الصفة من صفات الله تعالى ، وحاول أن يتأسى بها فى كل تصرفاته ·

وانتقل به الزمن والفكر من الفلاسفة القدامى الى الفلاسفة العرب ومنهم الغزالي ، الذي رأى أن الحياة حواس ثلاث منبعها القلب ، فكان يـرى أن الانسان انمـا يسمـع ويبصر ويحس باللمس ويحس بالذوق ، ويحس بالشم كل ذلك عن طريق القلب · وهكذا بقى عثمان أمين طوال حياته متأسيا بهذا القول الرائع من اقوال الغزالي ، فرأيناه فى كل حياته بيننا يسمع بقلبه ويرى بقلبه ويحس الاشياء بشعاف قلبه ، وأكاد أقول انـه كان يشم رائحة الخير ورائحة الجمال فى الحياة بقلبه أيضا ، من هنا انتقل الى التأثر بأقوال كثيرين من أهل الكلام والمتحدثين والفلاسفة وأهل الفن والفكر العربي كالفارابي وغيره متأثرا بهذا كله فى حياته حتى خرج منها آخر الامر بفلسفته الجوانية ، كـان دائما يقول ان الحياة البرانية للانسان انما هي دائما حياة شكـل ، أما المضمون فى الانسان فهو الجوانية ، ومن هنا رأيناه يهذب جمـال حياته ، ويعلـم نفسه ، ويثقـف نفسه ، فلقد عنى بالغريزة فيه ، وعنى بالعقل والفكر ، وعنى بالنفس والضمير ، وعنى بالشخصية ، غريزته كانت مهذبة ، استطاع أن يهذبها وأن يغلبها فى كل شىء فعـاش العيشة البسيطة ، لم تبهره الحياة أبدا ، وانما بقى دائما مثال الاستاذ المتواضع ، وأهل التربية يقولون ان تهذيب الغريزة يخرج حيوانا من حيوان كلنا حيوان ، ولكن الذيـن يستطيعون تهذيب غرائزهم هم حيوان آخر ، وأهـل التربية يقولون ان تهذيب العقـل والفكر يخرج بشرا من حيوان ، وقد استطاع عثمان أمين أن يهذب فكره فى مجـالات الجمال ، وقد استطاع بجهده الخاص أن يخرج بنفسه مـن الحيوانية الى البشرية · وأهل التربية يقولون ان تربية الضمير تخرج الانسان من بشر ، وقد استطاع عثمـان أمين أن يحيا بضميره وأن يتحكم فى سلوكه دائما ، ومن هنا فانه كان واحدا من أولئك القلائل الذين انتقلوا بأنفسهم وبذواتهم مـن البشرية الى الانسانية · وأهـل التـربية يقولون ان تهذيب النفس يخرج الانسان الارقى انسانية من الانسان ، وقد استطـاع

عثمان أمين بتهذيب نفسه ، بل بما عرفناه عنه منذ كان طالبا فى كلية الآداب ، استطاع أن يخرج فى ذاته الانسان الارقى انسانية من الانسان ٠

هكذا كانت شخصية عثمان أمين وبقيت حتى فارقنا الى دار الخلود ، وقد امتد فكر عثمان أمين فى العقدين الاخيرين من حياته ، استطاع أن يبرز نظرية الجوانية ، هذه النظرية التي خرجت من طور الحيوانية الى البشرية ثم الى الانسانية ، ثم من الانسانية الى انسانية أعلى هذه الجوانية هي التي جعلت معالم شخصيته ، وأنا أذكر اننا عندما اخترناه زميلا لنا فى المجمع العلمي المصري ، وجاء يقدم نفسه فى بحث فلسفي ، حاول أن يتحدث الينا عن هذه الجوانية وبهرنا جميعا ، لقد سمعت عثمان أمين أكثر من مرة ، وقرأت له أكثر من مرة ، تحدثت اليه أكثر من مرة ولكني لم أسمعه بمثل هذه الروعة عندما تحدث الينا فى المجمع العلمي ٠

وامتازت حياة عثمان أمين بجانب ثان هو جانب اللغة العربية ، كنا فى الكلية نختلف الى بعض دروس الادب ، وكان جانب منا من الطلاب الذين تخصصوا فى الادب العربي الى جانب آخر تخصص فى الجغرافيا او الاجتماع أو الفلسفة ، ولكننا مع ذلك كنا نحاول أن نستمع الى دروس أستاذنا الدكتور طه حسين ، وكنا ننتظر عثمان أمين وبعض زملائه فى قسم اللغة العربية ، لاننا مثلنا كمثل عابر السبيل فى قسم اللغة العربية ، وأظن انني قرأت لعثمان أمين عندما جاء الى هذا المجمع وقد قدم نفسه على انه عابر السبيل فى اللغة العربية ، ولا أظن ذلك الا انه كان من جانب التواضع من جانب عثمان أمين ، لقد كان أصيلا على طريق اللغة العربية لانه عنى بالجانب الجمالى فى اللغة العربية ، وتعميق فهم الجمال فيها ٠

فاللغة جانب منعكس من الانسان ، واللغة العربية بالذات أعرق اللغات الحية ، من هنا فاننا اذا أردنا أن نلتمس أسباب البقاء والخلود فى اللغة العربية فانما ينبغي البحث عن أصولها الجمالية ، وكان عثمان أمين سباقا فى هذا ، أتعب حياته منذ اليوم الاول فى كلية الآداب فى البحث عن جوانب الجمال ، وتلمس عثمان أمين طرق البحث عن جوانب الجمال فى اللغة العربية من الطريق المباشر ، طريق الجمال فى اللغة ، واستطاع عثمان أمين أن يتجه هذا الاتجاه ، هذا الاتجاه الفذ الفريد الذي فقدنا ذلكم كان عثمان أمين الاخ والصديق فى تلك الفئة الصغيرة قليلة العدد فى كلية الآداب ، تلك كانت مجموعة من الاخوة ، ومن هنا فأننا نفقد جانبا من جوانب أنفسنا ، كما قال الرئيس حين نفتقد واحدا من اخواننا ٠

كان عثمان أمين شخصية فذة ، ترك طابعه الجمالي فى كلية الآداب وفى سلوك ابنـاء كلية الآداب من أبنـاء ذلك الرعيل الاول ، وقفة عثمان أمـين تلك البعيدة على شاطىء دجلة مبهورا بالجمال ، جمال الطبيعة الرائع ، الذي أدخل فى نفوس زملائه ، جميعا الاشفاق والخوف ، عثمان أمين لم ير فى دلك الموقف الذي ينطوى على الخطـر كله الا جذب الجميع لينبهر به ، وكادت قدمه أن تزل فى قاع اليم ، عثمان أمين هو هو عثمان أمين الذي عرفناه فى أواخر أيامه لا يرى فى الحياة الا الجمال ، ولايـرى فى الفلسفة الا الحكمة ولا يرى فى معاملة زملائه جميعا من أحسن اليه ومن أساء اليه ـ الا المحبة ، ذلكم كان عثمان أمين الذي دخل الآن الى دار الخلود ، وما أرى الا انـه قد يحمل معه منظار الجمال الذي رأى الدنيا منه ، منظار الجمال الذي سيرى به آخر الدارين حب فى حب ، وجمال فى جمال .

توضيـــح حـــول نشر محـاضرات الملتـــقى

ننشر هذه المحاضرات طبقا لمبدأ نشر كل محاضرات الملتقى الذى أعلنا عنه فى العدد الاول من « الاصالة » تعميما للفائـدة ، ولطلب الكثير ممن تصلهم المجلة ولا تصلهم كتب الملتقيات .

وقدقررنا أن ندرج فى كل عدد على الاقل مقالين .

ونرجو أن يكون السادة الاساتـذة الذين أرسلوا الينا بمقالات لم نصل بعد الى نشرها وعاتبونا على نشر القديم المتمثل فى هذه المحاضرات من ملتقيـــات سابقة،وترك الجديد من الانتاج ، قد فهموا الآن قصدنا مـن هـذا .

كما سندرج فى المستقبل فى كل عدد ، بانتظام ، نصا أو نصين من المحاضرات التى درجت الوزارة على تنظيمها خلال القطـــر منذ سنوات باسم المركز الثقافى الاســـلامى .

فلسطين
أرض العروبة والاسلام

أحمد وافي أبو خليل
ممثل حركة فتح في الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

والصلاة والسلام على أشرف المرسلين سيدنا محمد الامين وعلى من تبعه باحسان الى يوم الدين ،

معالي الوزير ،

الاخوة أعضاء الملتقى الاسلامي الكبير ٠ ٠ السلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته ٠

يسعدني وأنا التقي بكم أن أنقل لكم تحية الثورة الفلسطينية ، وتحية اخوتنا في القيادة العامة لـ «فتح» واخوتنا المجاهدين الذين يذودون بأرواحهم عن حياض الوطن ، يدافعون عن كرامة هذه الامة عن حضارتها ، عن وجودها ، يدافعون عن المقدسات وقد ديست قداستها ، وعن الاوطان وقد امتهنت كرامتها ، وعن الامة وقد سلبت ارادتها وحريتها ، أنقل لكم تحياتهم متمنين لكم مؤتمرا ناجحا ، وقرارات حاسمة لخدمة القضية الفلسطينية، والفكر الاسلامي العظيم٠
أيها الاخوة :

المطلوب منا الآن أن نتحدث عن فلسطين في وضعها الراهن ، وعن التطورات التي تعيشها الثورة الفلسطينية ، ولكن في الواقع نحن نريد اذا اتخذنا مواقف أن نتخذها مواقف علمية على أسس علمية واضحة فاسمحوا لي أن نتحدث في نبذة عن تاريخ الشعب الفلسطيني وتاريخ العروبة في فلسطين ، وتاريخ الاسلام في فلسطين ، حتى نستطيع أن نستخلص النتيجة الموجودة وهي أن فلسطين لنا ولا بد أن تعود لنا مهما كانت الصعاب ومهما كانت العقبات ٠

(*)محاضرة القاها في الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامي المنعقد بقسنطينة في 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م٠

أيها الاخوة :

فلسطين وطننا العزيز الغالى جزء طبيعى من بلاد الشام ، فلسطين التى شهدت طلعة موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام ، تمتاز مع موقعها الروحى العزيز بموقعها الجغرافى الفريد ، فهى تقع فى مكان متوسط تقريبا من الوطن العربى ، وتربط بين أطرافه من ثلاث جهات برية ، ومما يزيد الموضوع اهمية أن هذه الاطراف تكون ثلاثة من الاقسام الجغرافية الاربعة التى يتكون الوطن العربى منها ، الهلال الخصيب ، وشبه الجزيرة العربية ، ووادى النيل ، جناح واحد فقط من الوطن العربى وهو المغرب العربى لا يتصل بفلسطين اتصالا ماديا مباشرا ، ففلسطين اذن تقوم مقام الجسر بين ثلاثة أرباع الوطن العربى الشاسع ، هذا بالاضافة الى أن هذا البلد فلسطين هو الذى يربط بين القارتين اللتين يتوزع العرب عليهما : آسيا وافريقيا ، وهو الجسر البرى الوحيد بينهما وهو أقصر جسر بين الاماكن المقدسة الاسلامية فى شبه الجزيرة العربية ، ثم ان فلسطين التى تتوسط العالم العربى تماما انما هى تتوسط العالم الاسلامى تمام التوسط وتجعل من الاماكن المقدسة فى القدس قلب العالم الاسلامى ، جغرافيا مثلما هو قلبه ماديا وروحيا ، فهى اذن ملتقى وسطيا لقارات آسيا وافريقيا عن طريق البر ، وأوروبا عن طريق البحر المتوسط ، فموقعها هذا كون تاريخها ، اذ أن موقعها بين الدول العظيمة القديمة ، جعلها مسرحا لجيوش العالم القديم ، فقد وقعت فيها أهم الوقائع الحربية لاكبر الفاتحين كـ «تحسمس» و «نبوخذ نصر» و «قمبيز» و «الاكسندر المقدونى» ثم ابن العاص وخالد بن الوليد وصلاح الدين الايوبى ، ثم نابليون ومن جاء بعدهم ، يقول «جورج آدم» المؤرخ المشهور : ليس فى الدنيا من بقعة جرت فيها الحوادث التاريخية الحربية ما جرى فى فلسطين ومثلما هى معرض للجيوش لتكون ميادين للقتال ابان الحرب كذلك فهى الطريق التجارى الهام والشريان الحيوى الذى تمر منه القوافل التجارية بين الشرق والغرب قديما وحديثا،وموقع فلسطين عند مجمع السبل وصيرورتها ميادين للقتال واتخاذها طرقا للتجارة كل ذلك أكسبها فوائد التمدن والصنائع والعلوم .

116 يقول «بريستد» فى كتابه «العصور القديمة» : وقد تسنى لفلسطين أن يتألب فى أسواقها أناس من كل بلاد وأمة ، وبعد أن يتحدث عن

تعدد البضائع وجودة المعروضات وتعدد مصادرها يقول · وكما التقى في أسواق فلسطين تجارات الامم المحيطة بها تتبارى في مضمار السلم ، كذلك تلاقت جيوشها في ساحات الوغى تتقابل وتتطاحن لان موقعها بين جارتيها القويتين في ذلك اوقت مصر ، وبلاد ما بين النهرين جعلها معتركا حربيا لقرون عديدة ، ولقد منيت فلسطين مرارا في تلك الحروب ما منيت به بلاد البلجيك في الحروب العالمية ما بين المانيا وفرنسا ، سنة 1914 فاستولت عليها مصر مئات السنين ثم استولى عليها الآشريون ثم الكلدانيون ثم الفرس ، ولما آل جزء منها الى العبرانيين لم يؤملوا أن يبقوا فيها أمدا طويلا سالمين · والثورة الفلسطينية اليوم تؤكد لكم أن الاسرائيليين لم ولن نسمح لهم أن يؤملوا أن يبقوا فيها أمدا طويلا سالمين ·

وعن أهمية فلسطين في الشؤون الدولية في العصر الحاضر يقول تقرير وضعته اللجنة الانجليزية الامريكية ، احدى اللجان المكلفة للتحقيق في الاضطرابات في فلسطين سنة 1946 ، وتستمد فلسطين أهميتها في الشؤون الدولية الى حد كبير ، من وقوعها على خطوط المواصلات الرئيسية للطرق والسكك الحديدية ، وهي تقع على الخط الممتد بين مركزي الثقافة العربية العظيمين القاهرة ودمشق ، وبين مصر مقر الجامعة العربية والدول الاخرى المنتمية الى عضويتها ، وبين العراق وشرق الاردن المستقلتين حديثا ونافذتها على البحر المتوسط ومن الجدير بالذكر أن نلاحظ أن قرب فلسطين من بادية العرب التي تحيط بها من الجنوب والشرق جعل أهل الجزيرة العربية ينزلونها منذ أقدم ازمنة التاريخ ، فاكتسحوها حينا واستقروا على الحدود أحيانا ثم تدريجيا نزحوا الى الداخل وانشأوا فيها دويلات كثيرة ، وتوالى هبوطهم وانتقالهم اليها الى أن اصطبغت البلاد بالصبغة العربية الحديثة وأصبح التمدن فيها عربيا ، فحب الحرية والاستقلال والمناظرة الشديدة بين القبائل والعائلات هي من جملة مميزات تاريخ فلسطين الناتج عن قربها من الصحراء فمن أين جاء انسان فلسطين أيها الملتقى الكريم ؟ لقد كانت فلسطين آهلة بالسكان قبل عصور ما قبل التاريخ ، وتدلنا حفريات الباحثين أن الهياكل البشرية التي عثر عليها مؤخرا في مغارات وكهوف وأودية فلسطين ، تدلنا على أن الانسان الذي على مقربة من كهف الطابون في جبل الكرمل بفلسطين

كان حلقة بين الانسان البدائي والانسان الحالي والذي نسميه اليوم بالانسان العاقل ، وتقول الابحاث التي أجريت على جمجمة الانسان اكتشفت قرب طبريا بفلسطين سنة 1925، أما انسانها عاش قبل مائتي الف عام،ويقول حول ذلك الاستاذ مصطفى الدباغ المؤرخ الفلسطيني المشهور في كتابه «بلادنا فلسطين» يقول : ان فلسطين من أقدم مواطن الانسان ، وأنها كانت مأهولة قبل مائتي الف عام • ويقول المؤرخ الفرنسي «رابو بورد» يرجع وجود السكان في فلسطين الى عهد قديم جدا وقبل أن يضع اليهود أول قدم لهم في هذه البلاد ، كان مستوطنا بها أقوام ذووا حضارة ومجد كالكنعانيين والفلسطينيين ، واقتضت سنة التطور أن يمر انسان هذه البلاد بمراحل التطور الطبيعي للبشرية منذ بدء الخليقة حتى اليوم ، فمر بمرحلة جمع القوت وعاش الحياة البدائية الهمجية الاولى ثم تدرج الى حياة مرحلة انتاج القوت بعد اكتشاف النار والزراعة ، ويذكر بعض المؤرخين أن شعب هذه البلاد ربما يكون أول من عرف الزراعة في العالم ، ثم تدرجوا في بناء المدن وكانت مدينة اريحا أول مدينة بنيت حوالي 7000 ق • م ، وكانت مبانيها وتحصيناتها حسب الحفريات تدل على أنها ربما تكون نواة أول حكومة في العالم ، وهذا مما يؤكد رأي المؤرخين ، وأما العرق السكاني لهذه البلاد فيقول «حتي» : ان العرق البشري الذي تنتمي اليه هذه الشعوب هو العرق المعروف بعرق البحر الابيض المتوسط ، ثم جاءت موجات بسيطة من آسيا يقال أنها تنتمي الى السامية ثم اثرت في السكان الاصليين وتاثرت بهم الى أن جاءت في نهاية الالف الرابع وبداية الالف الثالث قبل الميلاد ، موجات من الجزيرة العربية حيث حل الكنعانيون الساميون العرب بفلسطين وذلك حوالي 3000 ق • م • وتبدأ في الحقيقة جذور التاريخ المعروف بحضارة الكنعانيين الساميين العرب ، والذين كانوا هم العنصر السائد في فلسطين القديمة رغم موجات الغزو المتتالية ، وكانوا يعيشون لقرون طويلة في مدن فلسطينية قطعت أشواطا بعيدة في ميادين الحضارة والمدنية والتقدم •

هذا ولقد وفدت على فلسطين بعد ذلك وفي حوالي القرن الرابع عشر قبل الميلاد قبائل قليلة العدد من الآراميين من وراء البحر واستقرت على ساحلها الجنوبي ، وكانت البلاد في ذلك الوقت ذات

حضارة تاثرت بها هذه القبائل ، والتى سميت فلسطين باسمهم فيما بعد ، تاثرت تاثرا كبيرا بالحضارة الموجودة فى فلسطين وذابوا فيها مع مرور الزمن مكونين شعبا واحدا متحدا هو شعب فلسطين العربى ولقد أسس الكنعانيون كثيرا من المدن فى فلسطين مثل القـــدس التى كانت تسمى «يبوس» أو «أورساليم» ومنها اكتسبت الاســـم العبرى «أورشليم» هذا بالاضافة الى الكثير من المدن الكبيرة الهامة الاخرى ٠

وفى القرن الحادى عشر قبل الميلاد هاجمت قبائل عبرانية جاءت من بلاد ما بين النهرين وعبرت غرب نهر الاردن الى فلسطين هاجمت فلسطين واحتلت جزء منها حيث قامت دولة اسسها داوود عليه السلام عام 1056 ق ٠ م ٠ ولم تكن سيطرتها سوى على جزء من البلاد بينما بقى الجزء الاكبر من البلاد فى أيدى السكان الاصليين من الكنعانيين الفلسطينيين ، ولم يقص التاريخ على أن اليهود سيطروا على فلسطين جميعها ، أو حتى على الجزء الغالب منها فى أية حقبة حتى خلال قيام مملكتهم الموحدة التى لم تعمر طويلا ، فمثلا لم يملك اليهود آنذاك من الساحل الطويل الفلسطينى ، كما ذكر الدكتور «غوستاف لوبون» سوى القسم الممتد من يافا الى الكرمل ، وذلك كما أورد فى كتابه «اليهود فى تاريخ الحضارات» وانقسمت هذه الى مملكة اسرائيل التى اقيمت فى الشمال ، وكانت عاصمتها «السامرة نابلس» وقـد دامت حتى سنة 751 ق ٠ م ٠ حيث دك الاشوريون عرشهم بقيـــادة «شلما نصر» وبمساعدة السكان الفلسطينيين الاصليين، ومملكة يهوذا فى الجنوب التى كانت عاصمتها «القدس» وقد دامت حتى عام 586 ق م حيث دمرها «نبوخذ نصر» البابلى وبمساعدة السكان الاصليين كذلك وقد أحرق الهيكل وسبى سكانها من اليهود الى بابل ، وتفرق الباقى ولم يبق منهم الا عدد ضئيل ، ومنذ ذلك التاريخ انتهت صلتهـــم بفلسطين بانتهاء غزوتهم التى احتلوا ابانها جزءا صغيرا من البلاد ما لبثوا أن أخرجوا منه ، وبقى فى فلسطين شعبها العربى الاصلى ٠

ويقول «غوستاف لوبون» فى كتابه السالف الذكر يصف اليهود فى خلال الفترة القصيرة التى قضوها فى فلسطين ، ان اليهود ضلوا حتى فى عهد مملكتهم بدويين افاقين مفاجئين مغيرين ، سفاكين ، مولعين بقطعانهم الى خيال رخيص تائهة أبصارهم فى الفضاء ، كسالى

خاليين من الفكر كانعامهم التي يحرسونها ، وكانت صورهم ووحشيتهم وتعطشهم لسفك الدماء تبرز من وصايا قائدهم يشوع بن نون حين قال لهم:احرقوا كل ما فى المدينة واقتلوا كل رجل وامرأة وكل طفل وشيخ حتى البقر والغنم بحد السيف ، أحرقوا المدينة بالنار ولا تستبقوا منها نسمة ما ٠ يقول الكاتب المؤرخ اليهودى «مانوحييم موشي» فى كتابه «انحلال اليهودية» منذ أكثر من أربعة آلاف سنة عاش الكنعانيون فى فلسطين ، ان عرب فلسطين اليوم الذين يعيشون كلاجئين مشردين فى الخيام والاكواخ خارج وطنهم ، هم من نسل أولئك الكنعانيين ، لقد بنى الكنعانيون المدن والقصور واستعملوا الجص والعربات ، وأقاموا المعابد والاصنام ، لقد عبدوا الطبيعة وكان من أكبر آلهتهم «العاصفة» كانت بيوتهم متقنة بشكل جيد وبصورة فريدة فى ذلك الزمان ٠ ويقول الكاتب نفسه : «لقد عاصر الكنعانيون حروب الغزو التى شنها العبرانيون الاوائل وشهدوا القادمين الغزاة يربحون ويخسرون ، وتبين أثناء ذلك ظل الشعب الكنعانى مستقرا يواصل أعماله واعتنق بعضه اليهودية وبعضه المسيحية ، وحين خرج محمد النبى من الجزيرة العربية اعتنق معظم هذا الشعب الدين الاسلامى ، فسكلوا مجتمعا عربيا واحدا متحدا ، ولهذا نرى اليوم عرب فلسطين يشكلون الغالبية الساحقة من السكان منذ تلك الايام» ٠

أيها الاخوة :

لقد تعرضت فلسطين كذلك الى حكم الأشوريين ثم الى حكم الفرس ، جاء حكم الرومان سنة 65 ق ٠ م ٠ وفى كل مرة كان سكان البلاد يثورون أو يتعاونون مع جيرانهم للقضاء على الغازى الدخيل ، ولم يستقر قرار لدولة غازية غريبة عن فلسطين على مر التاريخ حتى جاء الفتح الاسلامى ذلك الفتح الذى عمق عروبة فلسطين وذلك بعد معركة اليرموك الشهررة ، الفتح الذى أتاح للخليفة عمر بن الخطاب أن يتسلم مفاتيح القدس ويعطى عهده المشهور للمسيحيين حول القدس بتامين سكانها ، وكما قال «ميلون موشي» : فقد تجاوب الشعب الاصلى العربى كثيرا مع الفتح الاسلامى وساعدوهم أيضا على تسهيل الفتح وطردوا الروم ، ومنذ ذلك التاريخ والبلاد تنعم بأمن واستقرار حتى جاءت الحروب الصليبية فى القرن الحادى عشر ، حيث وقعت

فى قبضة الاحتلال الذى لم يستمر طويلا ، وهزم الصليبيون على يد القائد المشهور صلاح الدين الايوبى وذلك فى موقعة «حطين» الشهيرة ومنذ تلك العصور وفلسطين نعيش حياتها العربية الاسلامية رغم الغزوات الطارئة التى تعرضت وتتعرض لها مدى مرور السنين حتى كانت الهجمة الاستعمارية الغاصبة التى تمثلت فى الاغتصاب الصهيونى الحالى فى فلسطين ، تلك الغزوة التى لم نعدها فى حسابنا الا كاحدى الغزوات التى تعرضت لها بلادنا على مر التاريخ ، وبذلك حافظت فلسطين على عروبتها ، وحافظت فلسطين على دينها الاسلامى رغم كل المحن التى تعرضت لها ، وسيحافظ شعب فلسطين اليوم كذلك على عروبته ، وسيحافظ شعب فلسطين كذلك على دينه رغم المحنة القاسية التى مرت بها فلسطين ، ويمر بها اليوم شعب فلسطين وثورة شعب فلسطين ٠

أيها الاخوة رجال الفكر وطلاب العلم : يا من يبحثون عن الحقيقة من أجل العمل ، لتعملوا من أجل الحقيقة ، اننى أرى وأنا أتحدث معكم اليوم أنه من واجبى أن أذكر أنه فى هذا الوقت الذى نلتقى فيه ونتحدث يمر بفلسطين حدثان هامان :

الحدث الاول : هو مناسبة مرور عام على حريق المسجد الاقصى فى القدس ٠

والحدث الثانى : هو المحنة القاسية التى تتعرض لها الثورة الفلسطينية اليوم ، ثورة شعب فلسطين ثورتكم أنتم ، من أجل تصحيح انحراف التاريخ ، المحنة التى يتعرض لها شعب فلسطين نفسه ، عندما يتعرض لظلم الاشقاء الذين نصبوا أنفسهم أوصياء عليه دون أن يكون هو قاصرا ، ودون أن يكونوا هم اكفاء أو أمناء على هذه الوصاية ، أقول هذا وقد تحدثت عن فلسطين أرض العروبة ، فماذا عن فلسطين أرض الاسلام ؟ وموطن الفداسان ، حتى نرى ماذا عن حق العروبة والاسلام فى فلسطين ، لنرى ما هو حق فلسطين على العروبة والاسلام ، فلسطين أيها الاخوة هى أرض الاسراء ، حيث أسرى بالرسول الكريم من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى ، قال تعالى فى كتابه العزيز : « **سبحان الذى أسرى بعبده ليلا من المسجد الحرام الى المسجد الاقصى الذى باركنا حوله لنريه من آياتنا** »، وفلسطين

هى أرض المعراج حيث عرج بمحمد صلوات الله عليه الى العلا ، من الصخرة المشرفة بيت المقدس فى الليلة التى كان فيها الاسراء ، ورأى الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم سيد الملائكة جبريل عليه السلام حيث فرضت الصلوات الخمس على المسلمين قال تعالى : **ولقد رآه نزلة اخرى عند سدرة المنتهى عندها جنة المأوى اذ يغشى السدرة ما يغشى ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى** » ، وفلسطين أيها الاخوة أرض القبلة ، اليها كان يتوجه الرسول الكريم وأصحابه فى صلاتهم ، حيث بيت المقدس عندما كانو بمكة قبل الهجرة الى المدينة النورة ، ولا زال مسجد القبلتين فى المدينة فى يثرب يضم قبلتين الاولى منهما متجهة نحو الشمال حيث بيت المقدس فى فلسطين والثانية الى الجنوب وتتجه الى مكة ، وفلسطين هى الارض المباركة هى الارض التى وجد عليها ابراهيم عليه السلام مأمنه ممن لم تنفعهم نصائحه من قومه فى بلاد ما بين النهرين فأرادوا قتله قال تعالى : « **ونجيناه ولوطا الى الارض التى باركنا فيها للعالمين**» وفلسطين هى الارض المقدسة ، فقد حدثنا القرآن أن موسى عليه السلام وقومه لما دخلوا صحراء التيه طلب منهم أن ينشجعوا ويدخلوا فلسطين ولكنهم كانوا قد الفوا الذل والمسكنة فى أرض الفراعنة فتمكن الصغار من نفوسهم فلم تكن لهم قوة فى دخول فلسطين ، قال تعالى : **يا قوم ادخلوا الارض المقدسة التى كتب الله لكم ولا ترتدوا على ادباركم فتنقلبوا خاسرين ، قالوا يا موسى ان فيها قوما جبارين وانا لن ندخلها حتى يخرجوا منها فان يخرجوا منها فانا داخلون**»ولقد قدست فلسطين كذلك بتطهيرها من الشرك ، وجعلت مسكنا للانبياء وعدها الله عباده الصالحين حيث قال : «**ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادى الصالحون** » ،ولما ابتدأ هيرودس بقتل كل طفل يولد فى بيت لحم أوحى الله عز وجل سيدنا عيسى عليه السلام وأمه الى بيت المقدس الى فلسطين حيث قال : **وجعلنا ابن مريم وامه آية وآويناهما الى ربوة ذات قرار ومعين**» وعن سور القدس قال تعالى : **فضرب بينهم بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب** » قال أبو العوام مؤذن بيت المقدس : سمعت عبد الله بن عمر يقول : ان السور الذى ذكره الله فى القرآن هو سور بيت المقدس الشرقى باطنه فيه الرحمة (المسجد) وظاهره من قبله العذاب وادى جهنم .

أيها الملتقى الكريم : هذه هى فلسطين الاسلامية التى ذكرها القرآن فى مواضيع كثيرة من كتابه الكريم ، وكرمها الرسول الكريم بأحاديث كثيرة تدل على مدى اهتمام الاسلام بها والمسلمين ، وقيمة هذه البقعة من الدنيا عند المولى عز وجل، ، قال واثلة بن الاصقع ان رسول الله (ص) قال : **«يجند الناس أجنادا فجندا بالشام وجندا باليمن وجندا بالعراق ، وجندا بالمغرب ، فقلت يارسول الله : انى رجل حديث السن فان ادركت ذلك الزمان فايها تامرنى يا رسول الله ؟ قال عليكم بالشام ، فانها صفوة الله تعالى فى ارضه يسوق اليها صفوته من خلقه ، فاذا ابيتم فعليكم باليمن فاسقوا بفديره وقد تكفل الله تعالى لى بالشام واهله»** وقال الرسول صلى الله عليه وسلم : **«انزلت على النبوة .... بيت المقدس واكناف بيت المقدس»** ،وعن عطاء أنه قال كذلك : **لا تقوم الساعة حتى يسوق الله عز وجل خيار عباده الى بيت المقدس والى الارض المقدسة فيسكنهم اياها** • وعن السلف الصالح أن سلمة بن نفيل جاء الى رسول الله (ص) فقال : اننى سيبت الخيل ووضعت السلاح ووضعت الحرب أوزارها وقال : ألا قتال ؟ فقال له النبى **«لان جا. القتال لا تزال طائفة من امتى ظاهرين على الناس يزيغ الله قلوب اقوام فيقاتلونهم ويرزقهم الله منهم حتى ياتى امر الله وهم على ذلك ، الا ان عقر دار المؤمنين الشام ، والخيل معقود فى نواصيها الخير الى يوم القيامة»** • وفلسطين أيها الاخوة هى البلد الذى رحل اليه أكثر من عشرة آلاف من الصحابة ممن رأوا النبى رأى العين وذلك بعد معرفتهم لفضائل هذه البلاد المقدسة على ما رواه الوليد بن مسلم •

أيها الملتقى الكريم :

قال **عمر بن الخطاب** لجلسائه يوما : **أى الناس اعظم اجرا ؟** فجعلوا يذكرون له الصلاة والصوم ويقولون له فلان وفلان بعد أمير المؤمنين ، فقال : ألا أخبركم باعظم الناس أجرا ممن ذكرتم ومن أمير المؤمنين ؟ قالوا بلى ، قال : **رويجل بالشام اخذ بلجام فرسه يكلأ من وراء بيضة المسلمين لا يدرى اسبع يفترس ام هامة تلدغه او عدو يغشاه ، فذلك اعظم اجرا ممن ذكرتم ومن امير المؤمنين»** ، ورصف أحد الحكماء بلاد الشام ومنها فلسطين لعمر بن الخطاب قال : والشام يا امير المؤمنين مرج خصب ووابل سكب كثرت أشجاره واطردت

انهاره وغمرت أعشاره وبه منازل الانبياء والقدس ، وفيه جل خلق الله من الصالحين المتعبدين وجباله مكان المجتهدين والمنفردين ، وقال القزويني : والشام هي الارض المقدسة التي جعلها الله منزل الانبياء ومهبط الوحي ومحل الانبياء والاولياء ، هواؤها طيب ، وماؤها عذب واهلها أحسن الناس خلقا وخلقا وزيا وريا، هذا وقد ورد ذكر جل المدن الفلسطينية في أحاديث نبوية شريفة أو أحاديث قدسية نخص بالذكر مدينة القدس التي نحن بصدد مرور عام على حريقها الذي يناسب 21 من الشهر الجاري ، قال تعالى في حديث قدسي لبيت المقدس «**انت جنتي وقدسي وصفوتي من بلادي من سكنك فبرحمة مني ، ومن خرج منك فبسخط مني عليه**» ، وفي الحديث الشريف «**ان فضائل بيت المقدس هي أرض المحشر والمنشر ائتوه فصلوا فيه فان صلاة فيه كالف صلاة في غيره**» ، وفي حديث آخر «**من مات في بيت المقدس فكانه مات في السماء**» ، وفي حديث ثالث : «**ان الجنة تحن شوقا الى بيت المقدس وصخرة بيت المقدس من جنة الفردوس وهي مسرة الدنيا**» .

أيها الملتقى الكريم :

هذه هي فلسطين أرض العروبة والاسلام قلب الامة العربيـــة ، وجزء من مقدسات عقيدتنا الدينية ، هذه البلاد فلسطين تعرضت قبل نيف وعشرين سنة لهجمة صهيونية غادرة تدعمها كل قوى البغي والظلم في العالم من أجل اغتصاب فلسطين ، من أجل أغتصـــاب عروبتها وانتهاك حرمة مقدساتها ، هجمة امتدت جذورها منذ وعـد بلفور الذي وقف شعبنا ضده وقاومه بامكانياته البسيطة في ظروفه الصعبة حيث كان يئن تحت وطأة الاستعمار الاستعمار الانجليزي ، وكانت الاصطدامات الدامية المتكررة ، وكانت ثورة 1936 ثم كانت ثورة 1947 ضد قرار تقسيم فلسطين ،ثم كانت انطلاقة الرصاصة الكاشفة الواعية في أول جانفي 1965 حيث كانت انطلاقة العاصفـــة في كل هذه المراحل أيها الاخوة الكرام قدم شعبنا الصغير الصامـد الكثير من الشهداء والكثير من التضحيات ، ولكن في كل ثورة كان يثورها شعبنا كانت تتصدى له أمتنا العربية عن طريق حكامها ، ففي سنة 1936 توجه أحد الملوك العرب باسم جميع الملوك والرؤســاء العرب الى الشعب الفلسطيني ليوقف الثورة ويلقي السلاح اعتمــادا على حسن نوايا الصديقة بريطانيا التي وعدت بحل المشكل ومنـع

الهجرة اليهودية الى فلسطين مما أجهض ثورة شعبنا ثم كان مشروع التقسيم الذى قاومه شعبنا لينفذ على أيدى سبع جيوش عربية دخل حكامها الى فلسطين لانقاذها ، فعندما وصلت اذا باسرائيل تعلن دولة فيها وما أشبه اليوم بالبارحة ، فعندما وصلت ثورة شعبنا اليوم الى مرحلة أزعج فيها عدونا ، والى مرحلة اسماع صوتنا للعالم أجمع ، وأصبح العالم يحس بوجود شعب فلسطين بعد فترة الوصابة فترة التجهيل وبعد تلك النكسة النكراء التى منيت بها الامة العربية والعالم الاسلامى فى سنة 1967 على يد دويلة اسرائيل نسمع اليوم نفس الصوت يطلب منا الخلود الى الهدوء والسكينة حتى يسهل على عدونا أن يهضم ما ازدرد ، نفس الاصوات نسمعها اليوم تعلن عن قبولها لمشاريع استسلام ومذلة ، ففى الوقت الذى يحمل فيه اخوتكم السلاح كل يوم يقدمون أرواحهم على أكفهم من أجل تحرير فلسطينهم ، فلسطين العروبة ، فلسطين الاسلام ، فلسطين التاريخ والحضارة ، فلسطين العزة والكرامة ، نجد أناسا يذهبون الى موائد المفاوضات مع العدو مساومين بذلك على تاريخنا وعلى حضارتنا ، وأصبح ينطبق عليهم ما انطبق على قوم موسى وهم فى صحراء التيه .

أيها الاخوة :

انه انطلاقا من تاريخنا العربى العريق ، وانطلاقا من ايماننا بقداسة وطننا وقداسة قضيتنا ، وايمانا منا بصحة عقيدتنا الاسلامية وايمانا منا على أن الاستشهاد على الحق خير الف مرة من حياة الذل انطلقنا نحو التحرير انطلقنا من أول يناير 1965 لن يفت فى عضدنا ظلم الاشقياء ، ولن يهز فى نفوسنا تجاهل اخوتنا لواجبهم العربى والدينى ، انطلقنا ونحن نملك أرواحنا ولن نسمح لاحد أن يملك ارادتنا التى ملكناها ، ولن نتنازل عنها ، لقد رفضنا فى السابق وعد بلفور ، ورفضنا التقسيم ، ورفضنا قرار مجلس الامن فى سنة 1967 واليوم نرفض بشدة مشروع الاستسلام الروجيرسى ، ونأسف لكل الذين يفلسفون معنى قبوله لا من ناحية التكتيك ولا من ناحية الاستراتيجية المفقودة ، واننا نعلن اننا نفضل أن نبقى فى حرب مع عدونا مئات السنين على لحظة استسلام نلطخ فيها كل تاريخ أمتنا ، ونزرع فيها المآسى للأجيال القادمة من ابنائنا ، ونخون دماء رفاقنا من الشهداء الذين سبقونا ، اننا نتيجة قبول بعض الدول العربية للمشروعات المذلة والاستسلام أصبحنا نسمع كل يوم عن

الخصـــائص الحضاريـــة فى الاســـلام

عمر بهاء الدين الاميرى
(سوريـــا)
استاذ كلية الآداب ـ جامعة الرباط

بسم الله خير الاسماء فى الارض وفى السماء ، وصلاة وسلاما على امامنا وزعيمنا وقائدنا محمد خاتم الرسل والانبياء وسلاما على ابن باديس فى الشهداء والصالحين ، السابقين واللاحقين منذ آل ياسر حتى جمال الدين ، والبنا ، وقطب ، والابراهيمى ، واخوانهم الابرار ومدد الله المهين العزيز الجبار المتكبر ، لفتح والعاصفة ، وأبطال فلسطين والمجاهدين المؤمنين فى دنيا العروبة والاسلام ٠

أيها الاخ الوزير الشاب الوثاب ، المؤمن الغيور الجسور ،

أيها السادة الاساتذة والعلماء الاجلاء ،

أيها الحفل الكريم ،

أحييكم بتحية الاسلام الطيبة الخالصة ، فسلام اللـه عليكـم ورحمته وبركاته ٠

منذ خلق الله الانسان ، عاقلا ، عاملا ، مسؤولا ، وشرع له من الحق ما يستقيم معه أمر الخلـق ، جعل له نافذة من نـور لا يحور ، مفتوحة بينه ، وبينه سبحانه ، وبينه وبين العوالم كافة ، يتحلل بها من الاغلاق ، ويسمو وينطلق الى الآفاق ، حتى اذا سدها على نفسه ، أو تقاصر عن مشارفها انغلق فاختنق ، وتعطل معناه الانسانى ، تلك النافذة هى الحوار ، الحوار الهادف المشرئب ، تطلعا الى المعرفـة واستزادة من الخير ، الحوار بين الانسان والديان ، والحوار بـــين الانسان والاقوام ، والحوار بين الانسان والانسان ٠ وقد كنت شديد الحرص لذلك ، أيها الاخوة الاحباب ، على أن أستجيب للدعوة الكريمة فاسعى اليكم ، وأسعد بلقائكم ، ليكون الحديث بيننا حوارا مفيدا ، وليكون لقاؤنا فى اطار اللقاء الرابع للفكر الاسلامى ، تبادلا لوجهات

(*)محاضرة القاها فى الملتقى الرابع للتعرف على الفكر الاسلامى المنعقد بقسنطينة فى 17/8 جمادى الثانية 1390 هـ ـ 19/10 اوت 1970 م٠

النظر ، والتماسا بالرأى ، وتقليبا للفكر فى المشاكل والاوضـــاع الانسانية والاسلامية التى نعيشها اليوم ، والتى لا بد لنا أن نتخـذ منها مواقف واضحة ، فى الفهم والعلم والعمل ، وان يكون لنا حيالها سلوك فردى وجماعى مدروس ممنهج ، والا ذهبت طاقتنا هدرا وجرفتنا عشوائية حياتنا ، فلبثنا عاطلين عن المضى الصاعد ، قوى مغلولة مبددة ، أحوج ما تكون دعوتنا وأمتنا وامننا وانسانيتنا الينا ، على اننى تساءلت وانا متوجه الى جزائر المجد والبطولة،والى قسنطينة بالذات ، هذه البلدة العريم ، ما محل من الاعراب بينكم ، أنتـم فى ريعان الشباب ، وانا فى قمة الكهولة ، أنتم فى الاقبال على الحياة فى النهل من موارد العلم ، فى القدرة على مضاء العمل ، فى الحيلة عـلى توفير الوسائل ، أنتم فى كل هذا وسواه ، تحرك وممدودية ، وأنا تحرق ومحدودية ، وكان الجواب واضحا فى نفسى ، مبدأ واحـد ، وايمان واحد ، وهدف واحد ، وثمة سابقة معانات ومكابدة ، لهـــا حصيلة من تجارب ، وعبرة من اخطاء ، وبصيرة فى تقدير العواقب ، مما لا يملك المسلم حبسه على نفسه ، فضلا عن تطلب علم جـديد من أساتذة أجلاء ، وجمع جديد من فتيان أشداء أرمم بهما كيـانى ، وأزيد شعلة روحى التهابا ، بزيت مبارك حى اريحى لامـضى محـاولا ما استطعت ان أبقى مستعيدا مفيدا ، الى أن ألقى وجه الله ، أمضى ولا أننمى ، والله يحفظنى ولا أبالى بآمالى وآلامى ، الارض أكبر من عمرى، وأصغر من طموح نفسى ، وايمانى واسلامى ، ومن توثب روحى فى مشارفها الى الجهاد ، وهذا سر اقبـــالى ٠

ينعقد هذا اللقاء ــ أيها الاخوة الاشقاء ــ للتعـريف بالفـــكر الاسلامى ، ولكن لا لمجـرد المعرفة فيما أرى ، بل لتكون المعرفـة طريقنا الاجتماعى فى الاعتناق ، ثم للسلوك والدعوة،ثم للعمل الصابر المثابر على اقامة الحياة وبناء الحضارة على أسس من الاسلام الحق ، بشكل حكيم سليم يؤمن لأمتنا فى اطار الانسانية سيادتها وسعادتها ويحقق رسالتها الهادية رحمة للعالمـين ٠

وفى هذا الاطار سيكون الحديث بيننا هذا اليوم ، عن الخصائص الحضارية فى الاسلام ، وهو موضوع واسع شائق حى ، لم يتسـع الوقت لايفائه كل حقه ، ولذا فاننى آمل أن نتعاون معا فى الخروج من معالجة له بثمرة مفيدة ان شاء الله ، منى البيان المكثف والايجاز

المركز ، ومنكم ـ ياشباب ـ فضل الاصغاء واكمال البحث ، بما لديكم من حسن فهم وعلم ، وقبل الخوض فى البحث تنفيذ أمر كريم لأخ حميم ، طلب الى الاستاذ الصديق مالك بن نبى اثر حديث ظهر اليوم بين رهط من أساتذة اللقاء أن ألفت نظركم تعقيبا على ما كان قاله فى محاضرة الصباح القيمة المجلية ، الى انه ثبت لديه أن كلمة الحضارة ولا شك مدلولها الخاص فى الاصطلاح المعاصر ، وان هذا المدلول ليتغير فى حد ذاته بين باحث وآخر ، وحضارة وسواها ، فبالنسبة للحضارة الاسلامية مثلا ، ومن وجهة نظرى الخاصة ، أرى أنها كيان انسانى عام ، له شخصيته الاعتبارية المعنوية ، فيه جانب التراث المجيد ، الى جانب الحياة القائمة المتنامية الى جانب الامل الممتد المشحون بالحوافز الايجابية البناءة ، بمستقبل دائم والارتقاء نحو الافضل ، لا لخير القوم الذين يتحقق على أيديهم فحسب ، بل لخير الاسرة البشرية جمعاء ، ولوضعها فى مقام الفعالية الهادية والجدارة الانسانية بخلافة الله فى الارض ، وهكذا نكون للحضارة فى التصور الاسلامى حياة مستمرة ، تصاحب حياة الانسانية ، ويمدها بهذا العمر الطويل تلاق كامل مع الفطرة الانسانية ، وقابلية للنماء المتكيف مع الزمن ، تكييف الفطرة الانسانية ، مع السرقى والتطلع نحو الامثل ، بحيث تحافظ الحضارة على شباب دائم يعايش شباب الحياة السوية فى كل عصر ومصر ٠

وبعد :

فاسمحوا لى يا فتيان اللقاء الاعزاء ، بأن أشرع معكم من بداية بديهية واضحة نعرفونها جميعا ، وان نتدرج بعد ذلك الى تقديم بعض الزاد الذى ينفع كثيرا منا فى حواره مع نفسه ، وفى حواره مع أبناء أمنه الحيارى ، وفى حواره مع الاغيار الغافلين المكابرين،من مسلمات العقل الاولى ، ان لا خليقة بلا خالق ، وان الخالق أعظم من مخلوقاته، فلا بد أن تكون الصلة بينهما متناسبة مع تبعية المخلوق وأساسية الخالق وقد أدرك الانسان منذ وعى ذاته أنهومن حوله الحياة الطبيعية بكل أبعادها،ابداع قوةعليا، واردةهادية، علىأنالتصورات والفلسفات المتباينة تختلف فىالتعبير عن هذه القوة ووصفها، وتسمية هذه الارادة وتقييمها ، كما يختلف الاعتقاد والسلوك ، لدى بنى البشر تبعا لذلك ، والتصور الربانى للحياة الذى ننطلق من قواعده ، يضيف

الخلق كله والحياة الطبيعية ومظاهرها ، الى الذات الالهية المبدعة ، التي يتنزه خلقها عن العبث والاعتباط والاسفاف ، وبالتالى فان أجزاء الحياة الطبيعية التى هذه هى صفاتها ، لا بد أن تكون لها قيمهـــا الايجابية الخاصة بها والتى يتعايش معها الانسان بشكل او بآخـر ، تبعا لعصره وفكره وعقيدته ، وفلسفته الحضارية ، فحين تنطلـــق المخلوقات وفق ارادة خالقها ، على النسق الذى رسمه لها ، يستقيم أمر الحياة ، وأمر مظاهرها ، والانسان بخاصة ، وهو محور الخليقـة فى الارض ، حين يسلك سبيله فى العيش بتجاوب مع الفطرة واذعان من الناموس الالهى ، يكون قد استقام كما أمر ، وانطلق عن طاعـة واسلام ، فالاسلام اذن بالنسبة للانسان ، أى انسان ، هو اســـلام نفسه للفطرة ، وتكييف سلوكه مع نواميس الحياة ، كما شرعها الله، خيرا لا شر فيه ، تكييفا يحقق الحكمة الربانية ، من خلـق الانسان فى هذه الارض ، يعمرها ويكون خليفة الله فيهـا .

وهكذا فان قاعدة الاسلام الازلية الابدية الاولى ، هى الاعتقاد الايجابى ، بالخالق الاحد ، الله الحق ، الراسخ ، الذى لا يحور ولا يتحير ، لا فى ذاته ، ولا فى صفاته ، مهما تغير الزمان والمكـــان ، واعجاز الاسلام الاكبر هو استعابه للكلية الانسانية المطلقة ، فهو يمثل البعد الصمد ، فى نفس الانسان وحياته ، فردا وجنسا منـذ كان ، وأنى كان ، والى أن ينتهى ، وهذا البعد سيفقد قواه وفحواه ، اذا لم يستوعب سائر الابعاد الزمانية والمكانية ، التى يمتد اليهـا الوجود البشرى ، أما التصورات والفلسفات التى لا تصدر عن هـذه الحقيقة الام الربانية ، أو التى تفهم الاله فى ذاته أو فى صفاته فهما آخر ، تبعا لزيغ أصحابها عن المحجة السوية ، والتى تكيف حياتها انطلاقا من ذلك ، فانها على اختلاف ما بينها فى الزمان ، والمكـــان والانسان ، جاهلية تصورا وفلسفة وسلوكا ، وبذلك فليست صفة الجاهلية قاصرة على الازمنة المتقدمة ، بل انها موجودة اليوم وغـدا ، وبعد غد ، وقد تكون فى صميم حضارات سائدة لا بائـدة ، فهناك اذن ، اسلام من عهد آدم حتى يرث الله الارض ومن عليها ، وهو دين الله ، وهدى الانسانية ، وشريعة الانبياء والمرسلين ، تقابله جاهلية من عهد آدم حتى يرث الله الارض ومن عليها،وهى كل ما ليس اسلاما .

ومن هنا كانت المواجهة الدائمة بين الاسلام وبين الجاهلية ،

عبر التاريخ الطويل ، حتى يظهر الله الهدى ودين الحق ، على الدين كله • ان المتتبع لهذه المواجهة ، ليجد شريطها المسلسل الممتد في قصص الانبياء وفي حياة الامم ، وفي تاريخ الملل والنحل ، وهي تاخذ حينا شكل الفتن ، والمعانفة المادية والحروب ، وتاخذ حينا آخر شكل الجدل الفلسفي والتحزب الفكرى ، والاختلافات العقائدية، وينعكس أثر كل ذلك على حياة بنى الانسان ، سعادة أو شقاء ، سموا أو تخلفا ، ولم تكن الديانات السماوية ، ولا جاء الانبياء وبعث الرسل الا لهداية البشرية الى الاسلام ، وانقاذها من الجاهلية ، لتستريح من لأواء المهاترات العارمة ، وقلق العراك الدائم • يقول السر توماس (ارنولد) فى كتابه «**الدعوة الى الاسلام**» : ان الاسلام كان الدين السماوى **الذى اختاره الله للجنس البشرى كافة ، ثم أوحى به من جديد على لسان محمد خاتم النبيين** ، كما أوحى به من قبل على لسان غيره من الرسل ، وفى (لسان العرب) عند تفسير قوله تعالى : «**يحكم بها النبيون الذين اسلموا**» ، عن ثعلب قال : **كل نبى بعث بالاسلام ، غير أن الشرائع تختلف** ، «**ان الدين عند الله الاسلام**» ، وليس الدين فى الاصطلاح القرآنى ما نفهمه من كلمة أى الطقوس العبادية ، وانما هو الدستور العام ، أو الناموس ، فالاسلام هو دستور الله للحياة ، وشريعة أنبيائه ورسله ، لهداية البشرية جمعاء ، كل فى حدود زمانه ، ومكانه وانسانيته ، فلما بعث محمد (ص) خاتما للانبياء والمرسلين ، مصدقا لما بين يديه ومهيمنا عليه ، أصبح الاسلام علما على دينه العالمى الممتد ، المستوعب الذى لا دين بعده ، وهذا هو اعجاز الاسلام الاكبر كما أسلفنا ، انه يمثل البعد الازلى ، فى كيان الانسان الخليفة ، ومدارج سعيه فى الحياة ، وان الباحث الانسانى الممحص ليجد أن المواجهة اليوم بين الجاهلية والاسلام ، قد أخذت شكلا أعمق وأشمل ، وأظهر وأخطر ، لأن انسان الحضارة النمادية المعاصرة ، وقد اشتط به غروره ، وسلحته كشوفه العليمة ، ومنجزاته الصناعية ، وطاقاته التقنية ، بما سلحته من معطيات باهرة ، غلا واستعلى ، ونصب نفسه فى دعواه ، كمصدر للقدرة الخلاقة ، وأخذ يستعيد عن الديانة السماوية الالهية ، بديانات ارضية مادية ، لها فلسفتها وتصوراتها الخاصة ، وتعايشها حضارتها التى أخذت تفرض وجودها منذ توقف المد الاسلامى ، وما زالت

سائدة حتى هذا الزمان ، وان هذه المواجهة لتكتسب اليوم معنى المعركة والتحدى ، ومن أخطر ما فيها ، أنها بعد أن كانت تستهدف غزو العقل الانسانى ، بتكوين قناعات جديدة وعقائديات فلسفية ، الى جانب ما فيها من استعمار واستثمار ، أخذت فى مراحلها الاخيرة تتناول الحياة كلها ، وتريد أن تزلزل وتقتلع الجذور ، باخلاقية أهوائية ، هى فى الحقيقة لا أخلاقية ، تقيم روابط المجتمع ، وموازين الخير والشر ، على أساس من اللذات ، والشهوات الحيوانية ، ومن المصالح الارضية المادية ، وقد جعلت منها سهولة المواصلات ، ووسائلها المبذولة فى الاعلام والتثقيف،وازدياد التشابك الاجتماعى بين أبناء الارض ، جعلت منها غزوا جماعيا أشبه بالسيل المنقض ، والطوفان الجارف الذى يوشك أن يجتاح كل شىء ، وأصابت الامة الاسلامية منها داهية دهماء ، فى السياسة والاقتصاد ، والاجتماع والاخلاق ، وقد لا نبالغ اذا قلنا ، انه لم يكد ينجو من بلائها أحد ، بشكل أو بآخر ، بنفسه أو بأسرته ، وا نوباءها لآخذ بالانتشار أكثر فأكثر ، الى أجل من حياة البشرية يتحدد طوله أو قصره ، تبعا للمواقف الجادة ، القوية المخططة المستمرة ، التى يقفها المصلحون المجاهدون ، تساعدهم الاحداث العالمية بقصد ، أو دون قصد من جهة ،وء لى الانهيارات التى تصيب الانسانية،والضياع ألذى سيتفاقم فى أجيال هذه الحضارة الجاهلية ، والتداعى الذى سيلحق بناءها ، من ذات أبنائها من جهة أخرى ·

هنا ـ أيها الاخوة الشباب ـ هنا ينتصب الاسلام من جديد ليثبت وجوده العملاق ، فى تدارك أمته وانبعاثها ، وفى انقاذ الانسانية جمعاء ، من فك جاهلية الناكوث الهدام ، الصهيونية ، والصليبية ، والاستعمار ، بكل اجنحته وألوانه . وهنا أيضا ، تبرز حتمية مبادرة أبناء الامة الاسلامية الى البحث عن الاسلام وجدارته ، وحضارته ، وأخذهم انفسهم بهديه وسلوكه ، أخذا يمد خطاهم بالمضى والسداد، ويعطيهم اليوم من تجارب الامس ، منهاج الغد المشرق المجيد ، دول وأيام ، هى الدنيا ، فلا بد أن تتداول الايام تاريخنا سيعيد سيرة مجده الاولى ، وللاسلام طحن الهاه وقدر سيمضى فى البرية أمره ، طوى الكتاب وجفت الاقلام ·

ان بين الاسلام والحضارة التى اقامتها أمته من التفاعل والتلاز
مالا يوجد بين أى دين وحضارة أخرى عايشت ظهوره وانتشاره
فقد أثر الاسلام فى الحضارة الاسلامية تاثيرا عميقا يجعل نسبتها
اليه ، انبثاقا صادقا من الواقع الحى ، فثمة حضارة اسلامية حقا ،
وليست هناك حضارة كنفوشية أو بوذية ، أو يهودية أو مسيحية ،
أو سوى ذلك ، مع أن تلك الاديان ، قد قامت بالفعل ، واعتنقها
الملايين ، وعايشتها حضارات ، فما هو السر الذى يجعل فى الاسلام
دون سواه من عقائد الامم ، طاقة من البث الحضارى ، بحيث نجده
حقا روح الحضارة الاسلامية ومدد حياتها،وحافز انتشارها وازدهارها
(أرنولد) فى كتابه «الدعوة» ، أزولد شفانجلر ان التركيب الداخلى لأية
يدعى الفيلسوف الالمانى البحضارات الاخرى ، وقد فاته الانتباه الى
حضارة هو ذات التركيب للدكما ، ها عن سواها ، ان جميع الحضارات
خاصة فى الحضارة الاسلامية تميزد تفد كن الحضارة الاسلامية تنفرد
قد تتشابه فى أبعاد الطول والعرض ، ولد كر
ببعد ثالث هو العمق الذى ينشأ من انبثاقهم عن الاسلام المطلق ،
فى امتداداته الانسانية من قبل ومن بعد ، وعن ار تقائها الى المشارف
الربانية وحيا وهديا ، اننا لنجد فى الحقيقة خصائص ذات شأن
تفرد بها الاسلام كدين ، وتميز عن سائر الاديان ، والمعتقدات
وبفعل هذه الخصائص ، تميزت الحضارة التى نسبت اليه عن بقية
الحضارات ، وسنتلبث فى وقفات قصيرة عند أهم هذه الخصائص ،
لنخلص من ذلك الى استجلاء الملامح الكبرى للحضارة الاسلامية ،
ولو ترسلنا فى الحديث عن كل خاصة ، لكان موضوع كل خاصة ،
موضوع محاضرة مستقلة ، ولجاء بحثنا عن ذلك كتابا ٠

اولا : جاء الاسلام يهندس الانسانية من جديد ، فقد كان منذ
يومه الاول انقلابا عاما ، ولا أقول ثورة ، بل بالاحرى ، بناء انسانيا
كاملا شاملا ، استوعب الحياة من كل جوانبها ، فى المعتقدات
والعبادات ، والمعاملات ، وسياسة الحكم ، ولم يتناول كل ذلك ،
تناولا سطحيا أو جزئيا ، جامل فيه وداور ، ورقع ورنق ، وانما كان
انطلاقه.كما قلنا بنيانا كاملا ، واصلاحا جذريا يتناول لباب العقائد
والاوضاع فى حياة الناس الاولى والآخرة ، أفرادا وجماعات ، شعوبا
وقبائل ، حكومات ودولا ، مبتدئا بالكائن البشرى ، وهو جنين ،
فرضيع ، فطفل ، مرتقيا الى الشخص فى ذاته ، فاسرته فمجتمعه ،

منطلقا الى أوضاع الامة ، فالامم والدول ، فالانسانية جمعاء · وقد توفر الاسلام لذلك على طاقة فذة ، روحية وعلمية ، واشتمل على قوة من الدفع الدينى ، متلاقية مع الفترة الانسانية الاصلية ، نهضت الشجرة الطيبة ، أصلها ثابت وفرعها فى السماء ، على قواعد أساسية راسخة من ركنين :

اولا : حتمية العمل ،

ثانيا : منهجية السعى فيه ، لان مرادا عزيزا جسيما ،كمراده، لا يتحقق بمجرد الامل والدعوة والدعاء،كما لا يستقيم أمره بالاعتباط والعفوية والارتجال والتسويف ، وهكذا كانت عقيدة الاسلام المنبثقة من الله وتوحيده ، المسلمة له كل شيء ، المبنية على صفاته الالهية الايجابية ، واشعاعاتها الحافزة فى هداية الحياة الانسانية ، كانت عقيدة الاسلام هذه ، مقرونة دائما بالعمل والحث عليه ، ومهدية فى عملها بمنهجية تطبيقية مسددة ، هى السنة النبوية ، قولا وعملا ، وقرارا · يقول ميخائيل نعيمة : **«اما معجزة العرب الكبرى فهى القرآن ، وهى وحدها التى تستطيع ان تجعل من العرب قوة ، اين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية ، والقنابل الجهنمية ، واين منها قوة المال والرجال ، فالاساطيل للصدع ، والرجال للموت ، والمال للزوال ، اما معجزة القرآن فللبقاء ، ذلك انها اقامت للعرب ولغير العرب ، هدفا من حياتهم وكانوا بغير هدف ، واختطت لهم طريقا الى الهدف وكانوا بغير طريق ، وبرهنت لهم بحياة النبى وصحبه ، ان الهدف مستطاع بلوغه على من سار فى الطريق ولولا لم يترجم النبى (ص) وصحبه القرآن الى افعال ، لما كانت المعجزة معجزة ، اجل ، ان معجزة العرب هى القرآن ، الا انها اصبحت اليوم وكانها عندهم ليست بمعجزة ، بكثرة ما الفتها الشفاه والآذان والعيون ، واغلقت امامها القلوب بعد ان حكم العرب دنياهم فى دينهم فهم اليوم يؤمنون بالراديو ، والدبابة ، والطائرة ، ثم بالفلس ، يبتاع كل هذه يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح الى الراحة ، والهناء ، والسلام ، والحرية والكرامة الانسانية»** · انتهى كلام ميخائيل نعيمة ·

ثانيا : الاسلام

اولا : الاسلام يهندس الانسانية من جديد ·

ثانيا:الاسلام ينبثق منالفطرة ويلبيها،لقد اقام الحياة علىاساس

من خلافة الانسان لله في الارض،فكل ما تقتضيه هذه الخلافة ، من سلطة في الوجود ، وعلى سائر المخلوقات ، أمنه الله له ، وقد وطد الاسلام بذلك الاساس الصحيح الاول للانطلاق الحضارى ، من الحياة الانسانية الكريمة الجديرة القديرة ، وهذه هى الفطرة التى فطر الله الكون عليها ، وقد قصد الله بالانسان جنسه عموما ، النساء شقائق الرجال ، لا فضل لعربى على أعجمى ، ولا لأبيض على أسود ، ولا لغنى على فقير ، الا بالتقوى . ومن هذا المنطلق مضى الاسلام يقيم حضارته على أساس الابداع الانسانى المسؤول المترتب من جهة أولى ، على ما فى الانسان من روح الله ، حيث تكون المثل الايمانية العليا النابعة من عقيدته الربانية ، والمترتب من جهة ثانية على ما فى الانسانية من ترابية تجعل مدارج سعى الانسان على هذه الارض الترابية وذلك فى امتزاج منسجم مبدع ، بين عناصر التكوين البشرى جميعا ، يميز الانسان كجنس عن سائر المخلوقات الحية ، كما يميزه كفرد عن سائر أفراد بنى الانسان ، بحيث تكون لكل كائن انسانى بذاته شخصيته الخاصة ، التى يختلف بها عن سواه ، فالانسان الجزء ليس نسخة مكررة من طبعة الانسان الاصل ، ولا هو فرد فى قطيع ، ولكنه خلقة سوية فعالة منفعلة ، مكلفة مسؤولة ، فى أسرة الانسان العامة كجنس ، ومتميزة على سائر المخلوقات الحية بتفوق مستمر ، خلافا لرأى داروين الذى يقول بمبدأ : «البقاء هو المقياس الوحيد للنجاح التطورى» ، وقد شرح كريسى موريسون فى كتابه «العلم يدعو الى الايمان» كيف بلغ العلم التقدم درجة تكفى لان يوقن بأن الله قد منح الانسان قبسا من نوره ، وكيف أنه بجعله خليفة فى الارض ارتفع من مرتبة الغريزة الحيوانية الى مستوى من التفكير يدرك عظمة الكون فى اشتباكاته ، ويشعر بجلال الله نافذا فى خلقه ، ويؤكد موريسون ، أن الحضارة دون ايمان لا بد أن تنتهى الى الافلاس ، ينقلب النظام فوضى ، وتهدر الضوابط والزواجر ، ويسود الشر العالم .

ان الاسلام وقد تلاقى مع الفطرة البشرية فى هذين الركنين الهامين ، ليتلاقى بعد ذلك تلقائيا ، مع كل جوانب الفطرة الاخرى من غرائز وحاجات ، ويلبيها أحكم تلبية وأسماها . لان الجدارة القديرة، تتنافى مع الحرمان ، والروحانية البشرية تتنزه عن الاسفاف والتردى

ومن هنا لم ينقص رفض الاسلام الرهبانية ، شيئا من سمو معتنقيه ، لان ايجابيته تنزه الله عن أن يخلق شيئا ويأمر بخلقه وازهاقه ، وانما يرسم له المسالك المشروعة التى تلبيها نلبية سليمة كريمة ، وهكذا يشعر الانسان فى ظل الاسلام بانفتاحه الحضارى على الكون، وتعايشه معه ، فى كل مرافق حياته الخاصة والعامة .

من طرائف ما قرأت على ذكر الرهبانية ، أن جماعة من رهبان النصارى ، ألفوا ان يربوا أبناء ديورهم ، ورهبانهم على الانقطاع والانعزال التام ، عن الحياة بحيث ينشأ الانسان منذ ولادته حتى شبابه ، حتى شيخوخته ، دون أن ينطلق فى الحياة ودون أن يرى امرأة ، وقد حدث لراهب شاب ، أن دعته ضرورة الى أن يخرج للقاء رئيس الدير والاساقفة ، وفى طريقه رأى صدفة امرأة فتعجب،وسأل رئيس الاساقفة ما هذا المخلوق الذى لم أره فى حياتى ؟ قال له : انه الشيطان ! قال : لا شك أنه أبدع ما يمكن أن يوجد فى الكون .

ثالثا : الاسلام دعوة ونبشير ، وهذا من مستلزمات عالميته لان طبيعة الرسالة تستتبع التبشير بها ، وكلما استطاع الاسلام بحضارته وعقيدته وأمته ، أن يتبنى تحت لوائه عددا أكبر ، يكون قد مارس ذاته بمدى أوسع وهو فى ذلك مناقض تماما لواقع اليهودية التى تريد السيطرة على العالم ، لا بنشر رسالتها فيه واكثار عدد معتنقيها ، بل بتدمير العالم ، وافساده ، والتسلط عليه ، بزعم أن اليهود شعب الله المختار .

وحين ينتشر الاسلام دعوة ، ينتشر لغته التى لا تصح العبادة ، ولا يفهم القرآن الا بها ، فتنتشر ثقافته ويسود طابعه الحضارى عقيدة ونظاما ، وفلسفة ، ومنهجا اجتماعيا ، فى الحياة العامة والخاصة ، بشكل يصبح فيه الاسلام رباطا ، انسانيا عاما ، بين أبناء الحضارة الاسلامية على تباعد الازمنة والامكنة ، مما لم يأت لأى دين آخر ، بالنسبة لأى حضارة أخرى .

رابعا : الاسلام مواجهة وبساطة ويسر ، انطلاقا من الجدارة والكرامة الانسانيتين ، وقد قررهما الاسلام فى أصوله الهامة ، كما مر بنا ، تقرير العقيدة الاسلامية الانسان فى حقوقه ، وواجباته ، وتكليفه ومسؤوليته ، وجهه وجها لوجه ، أمام الله تعالى ، دون وساطة

الكنسية ، فالانسان الفرد فى الاسلام مسؤول عن الاسلام جميعا فى حدود قدرته ومؤيد من الله سبحانه ، حسب نواميسه ، يمده بالنصر ما دام يتبع سبيله ، ولا فرق فى ذلك بين انسان وانسان ، من حيث انتماؤه الى اسرة أو طبقة ، أو عنصر ، أو جنس ، أو لون ٠

فالاسلام يقرر لكل من أفراده ساحته الوظيفية ، ومسؤولية قطاعه الخاص «**كلكم راع وكل راع مسؤول عن رعيته**» كما يبين له ركنتيه فى أمته ، ومسؤوليته فى قطاعه العام «**انت على ثغرة من ثغرات الاسلام فحاذر ان يؤتين من قبلك**» ، فينشأ المسلم مستشعرا ركننيه فى أمته ، واعيا لتبعاته فيها ، ولكن الاسلام لا يكلف نفسا الا وسعها وما آتاها ، وانسانه فى تكليفه لا يؤدى مهمته فحسب ،بل يمارس تقوى ، ويحقق لنفسه كرامة ، وبغير العمل لا يسلم له مقامه أيا كان ، «**يابنى هاشم لا ياتينى الناس يوم القيامة باعمالهم وتاتونى بانسابكم ، فالذى نفس محمد بيده انى لا اغنى عنكم من الله شيئا**» ثم ان المسلم فى الاسلام غير مهدور الجهد ، واثق من النصر ما سار فى طريقه «**ان تنصروا الله ينصركم ٠ ولينصرن الله من ينصره ٠ وكان حقا علينا نصر المؤمنين**» ٠

وآفاق المسلم فى فهم النصر بعيدة ، تستوعب القضية استيعابا حضاريا ، فى الزمان والمكان ، والانسان ، فهو يبذل جهده لننتصر قضيته حيث كانت ، اليوم أو غدا ، أو بعد غد ، هنا أوفى أية بقعة من الارض ، لان العالم كله ساحة دعوته ، وسواء عليه جنى بنفسه حصيلة جهده ، أو جناها سواه من أبناء أسرته الايمانية والانسانية ، فعمله الموصول بالله ، ربح مؤكد كله ، لا خسارة فيه أبدا ، وهو لذلك مندفع فيه ولو أدى الامر الى بذل روحه ، لان بذل الروح فى سبيل الله هو الربح الاكبر ، والشهادة ليست موتا ، بل هى مرتبة عليا فى الحياة ، أسمى من الحياة الدنيا ، ولذلك يتنافس عليها المسلمون المؤمنون حقا ، ويسالون الله لانفسهم ولمحبيهم نوالها ومنازلها ، وعقيدة المسلم سهلة واضحة لا تعقيد فيها ، ولا ابهام ، ولا تعمية ، «**لا اله الا الله محمد رسول الله**» أعمق فكرة وأجلها فى أبسط عبارة وأجلاها ، والدين يسر والاسلام يجب ما قبله ، فهو ولادة جديدة لمن يدخل فى دين الله ، تملا روح صاحبها طمانينة ، وفكره رضا وسكينة والقرآن الذى تولى الله حفظه ، هو دعاة العقيدة ، وقد حفظه للحضارة

الاسلامية على اختلاف زمانها ومكانها ، وانسانها ، صفاء ينبوعهـــا ووحدة مصدرها ، وانسجامها في مختلف منطلقاتها ، بشكل لا نظير له في أية حضارة أخرى ٠

واسمحوا لى كما قلت لكم ، اذا كثفت واختصرت حتى نستوعب الموضوع في حدود الوقت المحدد ٠

خامسا : الاسلام رحابة حضارية ، والتماس للحكمة ، وأخـذ بالاجتهاد ؛ لم ينغلق الاسلام على نفسه ، ولا قطع أمنه وحضارته عن سابق الدنيا ولاحقها ؛ وهو مع أنه جاء بانقلاب عام ، وشاد بنيانا انسانيا كاملا ، على هندسة جديدة للحياة ، فقد ظـل في سيـــره الحضارى الطويل ، منطلقا من قواعد الحق والعقل والضمير ، متوخيا للحكمة والعلم والفهم ، تقوم دعوته على التفتح الفكرى البصير ، سواء في ذاتها أو في استشرافها الحضارى ، وهكذا حافظ الاسلام لحضارته على أصالتها وشخصيتها المنطلقة من سلم خاص ، في نفس الوقت الذى امتص فيه لها ، كل ما وجده صالحا سائغا من عطاء الحضارات الاخرى القديمة والقائمة على عهده ، يتمثله ويتفاعل معه ، ويخصب فيه وينجب ويولد ويجتهد ويتطلع ويبدع ويستزيد ، لقد أبرز عقيدة التوحيد على أصالتها ، رسخ لها جذورها وانطلق بها من قاعدة وحيه ومهد دعوته ، الى المشارق والمغارب ، فأنار بهديها العقول ، وشحذ بحوافزها الافكار والعزائم ، واحترم الرأى وأثاب على الاجتهاد ، ونادى بأن الحكمة ضالة المؤمن أينما وجدها التقطها ، وهكذا فان الاسلام الى جانب ما ولد وجدد ، قد استقطب واستوعب ألوان الحضارة في مختلف البيئات والبلاد التى سادها ، وهضمها واجراها في مسالـك حضارته ، مصبغا عليها طابعه الاسلامى العام ، الشامل ٠

سادسا : الاسلام شمول ، وقصد وتوفيق ، **﴿وابتغ فيما آتاك الله الدار الآخرة ولا تنس نصيبك من الدنيا واحسن كما احسن الله اليك ﴿اعمل لدنياك كأنك تعيش ابدا واعمل لآخرتك كأنـك تموت غدا** ، دمج الاسلام الحياة في برزخيها على أنها حياة الكل لها آخـرة وأولى ، وليس على أنها عمر محدود ، ثم فناء ممدود ، أمم ثم عدم ، فجاء الاسلام بذلك حيا ملائما للحياة ، ثانيا : يرتقى بالانسان عن محد جسمه وحدود عمره في الارض ، والدنيا مطية الآخرة ، والعقيدة

تشمل الحياة الكل ، وتمد البناء الحضارى فى سائر مجالاته المادية العمرانية ، والايمانية الروحية والعقلية الثقافيـة ، والانسانيـة الاجتماعية والاخلاقية ، وساعد جمع الاسلام للحياة بجناحيها ، على جذب أمم الحضارات المادية ، وأمم الحضارات الروحية الى صعيده على السواء ، لان كل منها وجد فى الاسلام وحضارته سببا يصله بمالوفه الحضارى ، ثم تلبية لما كانت تستشعره ذاته الانسـانية فى اعماق فطرتها من حرمان ، ونقص ، المادى للروح ، والروحـى للمادة ، وكل ذلك باعتبار لا يطغى فيه جانب على جانب ، ولا يعطـل نشاط وظيفة حضارية ، نشاط وضيفة حضارية أخرى ، فالقصد أساس ، والاعتدال مقياس ، والتوفيق بين كل التطلبات والحاجات والحقول ، والواجبات توفيق الهى ، وضع موازينهالقسط الخلاق العليم الذى صنع الكون فهو خبير به ، وأطلقه لسيره حسب نواميسه ، فهو قدير عليه **(صبغة الله الذى اعطى كل شىء خلقه ثـم هدى)** ، وكان ذلك من اهم ما نفع به الاسلام حضارته من عبقريات استيعاب ، حفظت لها حياة دائمة التفتح للنمو ، والتجدد من جهة وطابعا أصيلا مميزا من جهة أخرى .

سابعا : الاسلام توسط ووصل وتوفيق **(وكذلك جعلناكم امة وسطا)** ، وسطا فى كل شىء بين الناس فى مخالطتهم ، لا كبرياء ولا غلواء ، ولا حزازة ، فالمسلم آلف مالوف ، ولا خير فى من لا يالف ولا يؤلف ، وسطا فى الارض ، لا تبتعد بكم مناطقها المترامية عن صميم الحياة ، وفى الجو ، والمناخ ، لا تقعد بكم قساوة الطبيعة عن الحركة والنشاط ، ووسطا فى العقيدة لا تشرد بكم الروحيات فى تجريدها ولا تجمد بكم الماديات فى سطحيتها ، وفى التاريخ بعد أن تطورت الانسانية فى مسيرتها الطويلة ، وتكاملت بتجارب أقوامها وتفانى انبيائها ، ورسل أممها ، وليس فى آخر عمر الارض حيث يتقـاصر مدى الانطلاق الحضارى ، فضلا عما فى التوسط من معنى العراقة والناى عن أى تطرف مشين ، وهكذا بنى الاسلام مسؤولية أمته ، ورسالة حضارته انطلاقا من هذا الاعتدال والجدارة فقال **(لتكونوا شهداء على الناس)** ولم يجعلها مسؤولية قهر واكراه ، بل وجه فيها الى النقد الذاتى : **(وكفى بنفسك اليوم عليك حسيبا)** ، **(بل الانسان على نفسه بصيرة)** ، **«حاسبوا انفسكم قبل ان تحاسبوا»** كمـا لـم

يجعلها مسؤولية مسيبة لا رقابة عليها أصلا ، بل نصب عليها قيما عزيما رحيما (ويكون الرسول عليكم شهيدا) ،شهيدا بنفسه فى حياته وبأحكام شريعته وسنته بعد انتقاله الى الرفيق الاعلى ، لقد جعل توسط الاسلام هذا حضارته ، مفتوحة الابواب ، للتعامل والتفاعل البشريين بأوسع نطاق ، وساعد على ذلك نظام الاسلام الاقتصادى الذى يعتمد على التجارة الى أبعد مدى ، والتجارة ترابط وتعاط ، وتبادل واتصال دائم ، بين أفراد وطبقات المجتمعات من جهة ، وبين الدول ولاقطار والمواهب والانتاجات من جهة أخرى ، وهى من أكبر وسائل التبادل الفكرى والاستشراف الحضارى ، وقد كان بها تنويه فى القرآن ، وأثر فى حياة الرسول عليه السلام ، وعمل كبير فى نشر الدين الجديد فى الآفاق ، ولا سيما اذا أخذنا بعين الاعتبار ، روح الاسلام الانسانية ؛ البعيدة عن طغيان المادة بشرعه القرض الحسن ورفضه الباقى والتعامل الربوى ، مما كان من أكبر وسائل الوصل بين الاسلام والناس ، واصباغ طابعه الحضارى المشترط على الحضارة الاسلامية ٠

ثامنا واخيرا : الاسلام مشاركة وقيم ، واخلاق انسانية عامة ، فهو ليس فرديا اعتزاليا ، ولا اعتباطى السلوك ، ونيست قيمه وأخلاقه لابنائه فحسب ، بل هى للانسانية جمعاء ، وما يعايشها من كل ذى حياة ، يصدر الاسلام عن قيمه الاصلية ، متوفرا على الضوابط المادية والمعنوية من جهة وعلى التضامنية البناءة من جهة أخرى ، بشكل يحقق لهذه القيم حياة ايجابية ، فعالة معنوية فى وجود الافراد والجماعات ، ولما كانت الحضارة أى حضارة لا بد لها من نسق عام تجرى عليه حياة الناس فى ظلها ، وانما تتفاوت الحضارات بعضها عن بعض ، فيما تتفاوت به تبعا لاختلاف هذا النسق فى حضارة عنه فى أخرى ، وكانت جدارة النسق تختلف باختلاف القيم والاخلاق الانسانية التى ينبثق عنها ، وبسعة مداه الحيوى ، فكلما كان النسق صادر عن الفطرة الانسانية ، ملبيا لحاجاتها وكل ما كان مداه الحيوى متنامى المرونة بشكل ، يستطيع معه استيعاب أبناء الحضارة كلها ، جاذبا الى أسرتها متمثلا لها أكبر عدد من بنى الانسان استيعابا منسجما يجعل منهم كيانا حضاريا قاصدا ، متسما بنفس السمات فى موازنة لا تحول معها قوة شخصية أفراده . فى نشاطاتهم ، دون

ترابطهم جماعيا ، متماسكين كالبنيان يشد بعضه بعضا ، كلما تحققت في الحضارة هذه الجدارة في النسق ، والسعة الجازمة المرينة في المدى الحيوى بمقدار أكثر ، كانت الحضارة أكبر ، وأجدى وأخلد وأثمر ، وخصائص الاسلام في الواقع قد تفاعلت مع أفراده ومجتمعاته تفاعلا ميز حضارته بظهور نسقها العام ، بشكل بارز على ملامح الحياة الاسلامية ، شخصية وعامة ، لقد أقام الاسلام نظامه انطلاقا من الاصل الاصيل ، خلافة الانسان لله في الارض ، وما تقتضيه من الكرامة المخولة ، والجدارة المسؤولة ، كما مر بنا ، فكان من أبرز القيم التي وطدها اعتبار الشائبة الذاتية للانسان السوى اعتمادا على مبدا مسؤولية الفرد ، في نطاق الاختيار المركب في أساس خلقته ، **(ونفس وما سواها فالهمها فجورها وتقواها قد افلح من زكاها وقد خاب من دساها)** ، وجنبا الى جنب مع اعتبار ذاتية الفرد الانساني عامة والمسلم خاصة ، يوطد الاسلام نظامه على أساس الشمولية الانسانية فكثيرا ما يخاطب القرآن الناس كافة ، ولا عجب فهم سواسية كأسنان المشط ، وقد بعث رسوله رحمة للعالمين ثم يؤكد الاخاء بشكل أخص بين المؤمنين : «**انما المؤمنون اخوة**» ، «**لافرق بين عربي وعجمي ، وابيض واسود ، وانثى ، وذكر وغنى وفقير مثلهم في توادهم وتراحمهم كمثل الجسد الواحد اذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى**» يسعى بهمتهم أدناهم ، الامر الذى يشعر ابن الحضارة الاسلامية وهو في أوج ممارسته لذاتيته الحرة في نطاق النظام العام أنه جزء من كل ، عمله مشدود الازر بعمل سواه ، وقدرته المحدودة ممدودة بقوة أمته ، لا تهضمه ولا تسلمه ،فهو عزيز الجانب أبدا ، في المساوات المطلقة ، لا يتفاوت الناس معها الا بالتقوى والعمل ، وقد كان لذلك مردودان حضاريان هامان ، أحدهما اقامة الحياة في ظل العدل والانصاف على أساس من الطمأنينة التي هي ركن الازدهار الحضارى ، وقد شجع ذلك الناس من مختلف الاديان والاجناس على الدخول في الاسلام أفواجا ، مستشعرين منذ بداية هذا الدخول حيازة كامل وضع المسلم ، من حقوق وواجبات واعتبار ، بصرف النظر عن كل ما فرط منهم من قبل ، وثانيهما اثارة روح التنافس في الخير ، علما ، وعملا ، وتقوى ، للتحقق بمراكب الامتياز والكرامة ،مما جعله الله في تطلعات الانسان السوى

منذ نفخ فيه من روحه ، الامر الذى يمد الحضارة دائما بعطاء خصيب ونماء مستمر ، ولم يكتف الاسلام باقامة العدل ، ولم يقصره على المسلمين ، بل جعله الحد الادنى للتعايش الانسانى ، يشمل حتى الاعداء والمشركين **(ولا يجرمنكم شنآن قوم على الا تعدلوا ، اعدلوا هو اقرب للتقوى)** ، وفى الحديث : **«اجعل بينك وبين صديقك الرضا وبينك وبين عدوك العدل»** ، لان العدل ككل الاخلاق الايجابية جدارة اصيلة لازمة فى ممارسة بصرف النظر عن الجهة التى ينصب عليها ، وقد حض الاسلام بعد ذلك فوق العدل على الخدم ، الربا كما مر بنا والرحمة والعفو ، والايثار ففى الاسرة : **(وجعل بينكم مودة ورحمة)** وفى المجتمع : **(جنة عرضها السماوات والارض اعدت للكاضمين الغيض والعافين عن الناس)** ، ومن هذه الاسس فى الفضل والعدل نشأ فى الاسلام الضمان الجماعى وتوزعت تطبيقه الدولة الحاكمة وأفراد الجماعة الاسلامية ، كل فى نطاق قدرته واختصاصه ، حتى يسمو الانسان الامثل الى مرتبة تفضيل الآخرين على نفسه ولو كان محتاجا **(ويؤثرون على انفسهم ولو كان بهم خصاصة)** .

أيها الاخوة والأخوات الاحباب :

من معين هذه الخصائص الحضارية فى الاسلام ، هندسة جديدة للكون ، وانبثاقا من الفطرة وتلبية لها ، وانطلاقا فى آفاق الدعوة والتبشير ، ومواجهة للحياة فى بساطة ويسر ، والتماسا للحكمة وأخذا بالاجتهاد فى رحابة حضارية مستوعبة ، وتمسكا بالاعتدال مع شمول وتوفيق ، وتوسطا فى كل شىء ، ووصلا وتوثيقا للروابط الانسانية ، واقامة للحياة على أسس من القيم والاخلاق السامية ، لمشاركة يمارس فيها الفرد ذاته ، فى نطاق الجماعة وتحقق الجماعة مصالحها مراعية كل فرد من معين هذه الخصائص نفح الاسلام حضارته لنظام جامع مانع ، رحبا . . . كم لله فى الارض بمستوى لانجده ولا قريبا منه فى أية حضارة أخرى من الحضارات الانسانية.

أيها الشباب :

هذه الحضارة الاسلامية كون كامل مستمر الزمان ، ممدود المكان سوى الانسان ، والحديث المستوفى عن هذا الاسم خصيب مثمر ، ولا يتسع الوقت لاكثر مما كان منه الآن ، ومن أبرز ملامحها تعددا لا

شرحا ، الملاءمة الانسانية ، وعبقرية الاستيعاب ، ومرونة التكيف الالتقائي ، وقوة الارتباط والانضباط ، وحسبي في مرونة التكيف الالتقائي وردا على ما قيل عن الفقه الاسلامي في نقاش الامس ، أن أورد فقرة قصيرة من مؤتمر الفقه الاسلامي الذي كان عقد في جامعة السربون في باريس ، استجابة لتوجيه المؤتمر الدولي للقانون المقارن ، وضم أصاطين علماء التشريع والقانون في العالم ٠

لقد استخلص بجلاء أن مبادىء التشريع الاسلامي لها قيمة حقوقية تشريعية ، وأن تعدد المدارس والمذاهب الفقهية ضمن هذا النظام الحقوقي الضخم ، ينطوي على ثروة من المبادىء الحقوقية والفنية المرموقة ، والتي تتيح لهذا التشريع الاسلامي أن يلبي جميع ضرورات التكيف التي تطلبها الحياة العصرية ٠

أيها الحفل الكريم :

هذه الحضارة الاسلامية صنعها الله ، وحفظ لها ينابيعها أصيلة صافية ، وخصها بلغة مرنة تنفرد بين لغات البشر بالاستقرار والاستمرار ، مع التجديد والتوليد ، ونفحها من الاسلام بخصائص ليس في سواها ، انها حضارة ربانية وهذا ما يمدها بقدرة البقاء ، صاعدة في الظروف الملائمة للتألق الحضاري ، وصامدة في الاحوال التي تقهر على الانكماش والتوقف ٠ وذلك في ترقب جو مناسب يساعدها على التألق والصعود من جديد ، لقد مرت بنا عهود وويلات فمزقت خلالها وحدة الامة الاسلامية ، وتوقف مداها الحضاري ، وسطا عليها الاستعمار بمختلف أشكاله ، وخيل للجهلاء الغافلين أنها نهاية الاسلام ، وظهور الجاهلية عليه ، ولكن الله يأبى الا أن يتم نوره ٠

فبالاسلام وروحه قامت حروب التحرير ، وقهر الاستعمار وتقهقر بالاسلام قامت حرب الجزائر المجاهدة ، وفي سبيل الله مات الشهداء المليون ، وبنصر الله كان النصر فكان ردا لاعتبار الامة العربية الاسلامية في هذا العصر ، وما زال الجهاد مستمرا مع رواسب الاستعمار الكثيرة ، وقد كان من أخطر ما أصاب الاسلام خلال معارك التحرير الحضاري الطويلة هذا الداء المريع في شخصية كثير من أبنائه وزيغهم عن أصالتهم ، وان هذا الخطر ليزداد اليوم شدة وضراوة

كما بينا فى بداية هذه المحاضرة ، بحيث ابتعد التفكير والسلوك فى حياة جيل المسلمين عن العقيدة الاسلامية ومثلها العليا ، وكثيرا ما كان ذلك بزعم أو بوهم المدنية والرقى حتى صار العدد الكبير من أبنائها أعزم من خطر أعدائها ، لقد غاب عن أجيالنا المضللة ان أو الرأسمالي مثلهم الاعلى وأما الاسلام فمسكوت عنه على الاقل وقد يقدر كتراث قديم هذا اذا لم يتصد له ولدعاته بالبغى والعدوان،ومن أهم أسباب ذلك تسلط الجاهلية العدوة على مناهج التعليم ووسائل الاعلام فى بلادنا ، فنشأت بذلك أجيال تجهل وتجحد أصالتنا وجدارتنا حتى أصبح الخطر الذى يواجه الحضارة الاسلامية من بعد أبنائنا يرون فى الحضارة المادية المعاصرة بأحد جناحيها الشيوعى حضارتنا الاسلامية حضارة صراط مستقيم أقصر خط بين نقطتين بدايته اسلام وروح ، مسيرته سلام وحاضره وحافزه صدق مطلق وقمته حق يقين لانها كما قلنا ربانية ، فهى تنبثق من كينونة الهية وأما الحضارة المادية الصناعية المعاصرة التى تعتمد على الانسان وكشوفه العلمية والتقنية فانها تخضع للضروف البشرية وملابساتها غير المستقرة وتتقلب فى بينونتها بين الامة الاله ، والعنصر الاله والعلم الاله ، والعقل الاله ، والحزب الاله ، والانتاج الاله ، الى آخر ما هنالك من الآلهة الآفلين تصير اليهم واحدا بعد آخر كى تتوزعهم فى أوطاننا وأجنحتها المختلفة وتبقى على كل حال حضارة أرضية تنبثق من صيرورة بشرية ، وواضح فى الميزان أن العقيدة التى تنطلق من الكينونة الالهية تثمر فى الحياة سعيا ووعيا فيهما من الاستقرار ما يهب الانسان هذه العقيدة سكينة الاعمار ويجعل حضارته ايجابية متنامية ملبية لكل جوانب الفطرة مسعدة للبشرية وهكذا كانت بالفعل وشهادة التاريخ والحضارة الاسلامية وحياة الانسانية فى ضلالها وأن العقيدة التى تقوم على أسس الصيرورة البشرية تثمر فى الحياة سعيا ووعيا فيهما من التهاتر والتضارب ما يجعل انسان هذه العقيدة يعيش فى قلق ونصب وتوتر أعصاب فى ضل حضارة الطين الطاغية التى تسخر الانسان وتسخر منه تعلى له البنيان لتهدمه فوق راسه وتكتشف بعقله وعلمه وبحثه أسرار الطبيعة وقواها لتدمره بها ، تبالغ فى تجنيده للكسب والحرب حتى لتكاد تجعل منه آلة وتسرف فى تحريره وحريته تحرير عقوق

وحرية فسوق حتى تكاد تجعل منه حيوانا فيعيش شقيا حائرا متمردا قلقا كما نشاهده بأم العين فى الاجيال المعاصرة وليدة هذه الحضارة الصناعية المادية ، وكما يعيش كثيرمن أبنائنا فى ظل سيطرتهـــا ونقوشها المبهموط على الارض بمعسكريها الشيوعى الملحد والرأسمالى المدعى الايمان زورا سواء بسواء ، تعيش هذه الحضارة الضارة الضالة فى انسياق وعجز أو غفلة وافتتان غير منتبهين الى انهيـــار المعنى الانسانى فيها بحيث تزداد الجرائم وتنحط الاخلاق وتنحل الروابط الانسانية ويتفاقم القلق والمرض والانهيار العصبى ، وادمان المخدرات وينتحر مثلا فى أمريكا وحدها حسب احصاءاتها الرسمية أربعون الف نسمة سنويا انها الحضارة التى لا تلائم الانسان كانسان كما يقول اليكسيس كاريل ، وان توقعه ليتحقق «ان المجموعات والامم التى بلغت فيها الحضارة الصناعية أعظم نمو وتقدم هى الآخذة فى الضعف والتى ستكون عودتها الى الهمجية والوحشية أسرع مـن سواها» ، «اننا قوم تعساء لاننا ننحط أخلاقيا» ، ويعطى كاريل حكمة فى كتابه «الانسان ذلك المجهول» : لا بد من قلب الحضارة الصناعية الحاضرة وظهور فكرة أخرى للتقدم البشرى .

يا شباب هذا اللقاء المبارك ، وشباب الاسلام فى كل مكان :

قد أفلس العلم عن اسعاد عالمه
هـا نحن رغم اعطـاء العلم فى رهـق

حضارة الطيـن تستـوفى نهايتها
تريق زاكية الانسان فى رهـــق

عاشت وعشنا بها القـرنين فى كبـد
حرب الفنـاء وسلـم الهم والارق

نطوى مراحلها النكـــداء فى قلق
وقـد نخنـوه بالخمـر والشبق

السمت منقلب والامـر مضـطرب
والجسـم فى نصب والعقـــل فى برق

وما تفيـــد ... ان ترفهنـــا بهـا
سوى مـا يفيـد الميت من حبـق

لا راسمال ولا دعوى التشـــارك فى الارزاق
تسعـــد والارواح فى غلـــق
يـا ابن الهدى يـا فتى القـرآن
دعـك من الاوهام جلجل امر الله ان الق
انت الـــوريث لما اتته من اكـل
انت الطهور عـلى ادرانها انبثـــق
ونقها واغضها خيرا ومرحمـــة
اسعـد بها الكون انت النـور فانبثق
مكبلـــون ولا تنفى غـــدا نبـــأ
يا نجم مـزق ظلام الليـل واعتنـق
لسنـا نبـالى وللقـــرآن فى دمنـا
جذوى من العزم فاطو شقـة اللحـق
وطالب الحق لا يخشى غوائله فى الله
كـــم طالب للحق فيه لقـــى
هى الطريق طريـــق الله واحده
واشقيـاء غرور العقل فى الطـرق
غدا سيشرق بـالاسـلام طالعنا
رغم الصعاب وتجلوا غرة الفلـــق
والنصـر بالصبر والايمان معقده
والمجد بالعـزم والاعداد والصـــدق

أيها الحفل الكريم :

ونكبة فلسطين أليست ضربة الهية مسدودة لنتوب الى رشدنا ونعود الىالله ، ولو نحت وطأة المصائب والنوائب فنحمل الامانة بعزم ونؤدى رسالتنا المقدسة بيضاء ، أليست نكبة فلسطين بداية تحول حضارى خطير ينقذنا وبنفذ الانسانية بنا ، من فنك الثالوث الهدام الصهيانية والصليبية والشيوعية ارهاصا لتحقيق أمر الله **(هو الذى ارسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله)** نكبة فلسطين ولا سيما فى مراحلها الاخيرة المريرة ، أما هتكت زيوفا وشرعت سيوفا وأعدت للجانبين حتوفا ولكن شتـان شتـان

فشرع الخنوع الى الاستسلام في جهنم خالدين فيها أبدا ، وشهداء الزحف المقدس في سبيل الله مع اخوانهم من شهداء الجزائر البررة وشهداء الاسلام في كل زمان ومكان أحياء عند ربهم يرزقون ·

أنسيغ الحياة في رهج الزيف
ونلوى عن المخاطر عنقا

وكأنا قد أزمن البطل فينا
فغدونا لا نعرف الحق حقا

الشعارات للخداع هتافات
وزور نرقى بها شر مرقى

ويساق الشعب المكلل بالاغلال
في موكب التحرر سوقا

موهوا النكبة الضروس عليه
خنقوا ثورة الجماهير خنقا

أيها الصم عن دواهي حزيران
بكمتم فلا تطيقون النطق

قد كفانا يا أشقياء هواكم
أن نسام الهوان فيكم ونشقى

سيرى الكون من تمردنا الجبار
ما يسحق الطواغيت سحقا

ان للفتح موعدا راسخ العزم
وسعيا الى الفداء وسبقا

بيعة في الجهاد شقت من القدس
الى الخلد دربها الوعر شقا

يطول الطريق لكن نصر الله آت
وعروة الله وثقى

أيها الحفل الكريم :

عذرا لمنابر الفكر من شطحات الشعر وعذرا مرة أخرى اذا كنت استشهدت وسأستشهد بأقوال باحثين أجانب ، فما هي والله عقدة نقص ولكني أريد أن أجعل بين يدى شبابنا لمؤمن نماذج من آراء

الاغيار الى جانب ما يتوفرون عليه أصلا من أبحاث علماء الاسلام لتكون حججا لهم وبراهين فى مجالات الدعوة والحوار ولا سيما فى أوساط أنصار الحضارة الغربية وأبناء الثقافة الاجنبية من شبابنا وما عددهم بقليل ، عسى أن يهز ذلك أوتار قلوبهم ويجلوا غبار عقولهم ويردهم الى علميتهم وأصالتهم ردا جوانيا ، واسمحوا لى وقد استعرت هذه الاصطلاحات من السيد الوزير والدكتور عثمان أمين ، أن أتبنى الى جانب ذلك ، الصيحة المؤمنة والمطالب الواعية الهادئة التى جاءت فى محاضرة الاستاذ الجليل الحبيب بلخوجة وأن أشيد بهذا اللقاء الهادف المبارك وأشكر العاملين له والداعين له شكر المستفيد المستزيد سعيدا بمشاركتى فيه ، ضارعا الى الله أن يتولى الاسلام ورجاله بالتأييد والتسديد لنكون على مستوى أعدائنا وأعبائنا بل على مستوى رسالتنا الخالدة الرائدة المقدسة خير أمة أخرجت للناس رحمة للعلمين ، يقول فيليب حتى :**ان الشرق الاسلامى اليوم فى مطلع دور جديد فى حياته العلمية كما انه فى فجر طور نسميه دور الابداع والابتكار ضمن اطار الميراث الخالد من القيم الدينية والادبية ولنا ان نتكهن بأن ابناء الثقافة الاسلامية على اختلاف بيئاتهم سيكونون بقسطهم فى خدمة المدنية الانسانية بما يجعلهم خلفاء جديرين بالميراث الذى تركه لهم أسلافهم)** • ويقول الدكتور غوستاف غرومبون الاستاذ بجامعة فينا ثم فى جامعة شيكاغو اليس من المؤسف أن الشعور الثقافي الاسلامى لم يزل بعد متخلفا عن التحرر السياسى الاسلامى ، وأن نصيب العالم الاسلامى الجديد فى ميدان البحث العلمى الانسانى لم يرتفع بعد الى مستوى يناسب ان البحث التاريخى عن الطرق العلمية الغربية قد قبل نظريا ولكن المسافة لاتزال واسعة بين تبنى المنهج وبين التعديل المناسب فى القيم والخطط التقليدية ، ولا يعنى هذا طبعا التخلى عن الاصالة وانما هى الخطط والاساليب، فغوربون نفسه يقول: ان حركة داخلية ـ اسمعوا ياشباب لحركة احياء دين فى بيئة ثقافية تكون عاملا منشطا فعالا فى اعادة تنظيم نموذج الحياة كله لتلك الجماعة ،أكبر أثر من الاتصال بمدنيات أخرى مهما كانت الاقدمية الحقيقية أو المتخيلة للثقافة المؤثرة ، ومهما كان الحرص على التكييف بها ، ويقول ، ان الحقائق والاوامر التى جاء بها الوحى والتى تمثلت فى حياة الرسول وفى تنظيم

الجماعة الاسلامية الاولى لا تحتاج الى أكثر من جلاء الاصداء التى علقت بها خلال التاريخ لتصبح صالحة للاستعمال . في أيامنا الحاضرة غرومبون هو الذى يقول : ومادة الوحى لا تنفذ ولكن النقص في فهم الانسان اياها ، غير أن حاجات العصر الحاضر سنفتح عيون المؤمنين للحل الناجع الذى احتواه نص القرآن وبينه عمل الرسول .

أيها الاخوة والاخوات الاحباب :

لابد أن توجه الجهود كل الجهود فى سائر مرافق الحياة لاقامة معنى الاسلام من جديد على أصالته الصرمدية التى تجعل منه عالم حقائق وفضائل ايجابية فعالة لا يتغير جوهرها وان تغيرت صورها فى الزمان والمكان والانسان ، هذا التجديد المستمر لحقيقة الاسلام الثابتة التى يجب أن يكون لفاؤنا المبارك خطوة جديدة صادقة ثابتة ماضية فيه ، هو الذى سيحرك الحضارة الاسلامية وينقذ فلسطين ويحقق وحدة أمتنا مرة أخرى وينفذها وتنفذ بها الانسانية بنواميس الله وحوله وقوته :

الهون الهون فى دربى وفى هدفى

أظل أمضى غير مضطرب

ما كنت من نفسى على حذر

أو كنت من رب على ريب

ما فى المنايا ما أحاذره

الله ملء القصد والاربة

بسم الله الرحمن الرحيم «ثم جعلناك على شريعة من الامر فاتبعها ، ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون انهم لن يغنوا عنك من الله شيئا وان الظالمين بعضهم اولياء بعض والله ولى المتقين ، هذا بصائر للناس وهدى ورحمة لقوم يؤمنون صدق الله العظيم .

والسلام عليكم ورحمة الله تعالى وبركاته.

منشـــورات
وزارة التعليم الأصلي والشؤون الدينيـة

صـدر كتـــاب

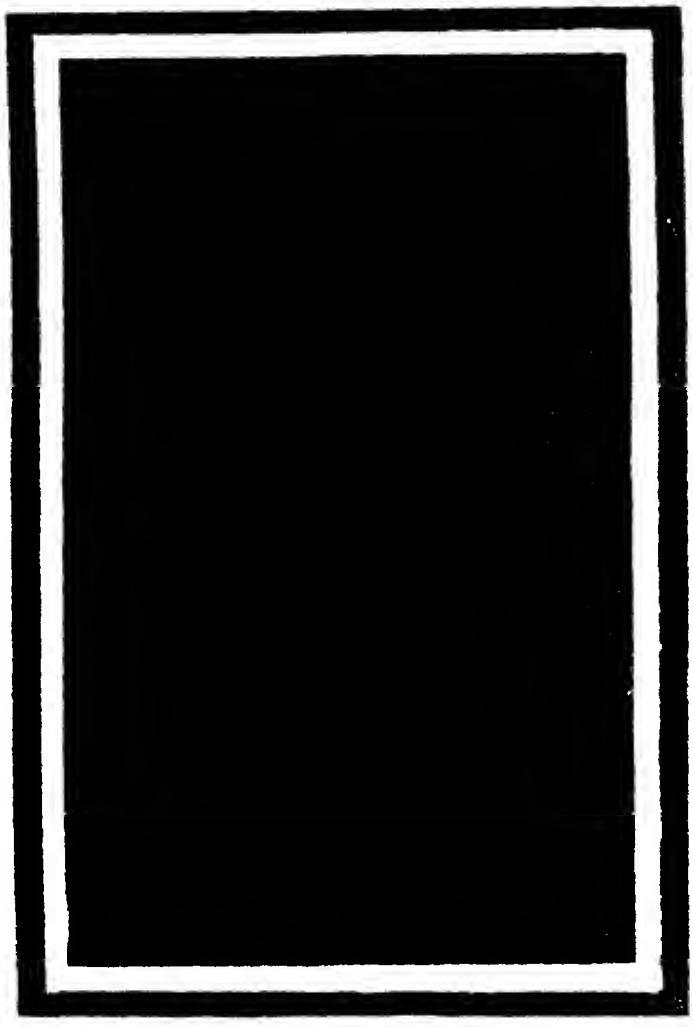

(بالفرنسيـــة) في 3 اجـزاء

الأصالة

الثمن 2 دينار

عدد خاص بالقرن الخامس عشر الهجري

الأمة

مجلة ثقافية شهرية

السنة 8 و 9
ذو العجة 1399 هـ
محرم ـ صفر ـ
ربيع الاول ـ 1400 هـ
نوفمبر ـ ديسمبر
1979 م
جانفي ـ فيفري
1980 م

الأصالة

مجلة ثقافية شهرية

تصدر عن :

وزارة الشؤون الدينية

أسسها :

مولود قاسم نايت بلقاسم

في محرم 1391 هـ ـ مارس 1971 م

- هذه المجلة مسرحر ، وليس كل ما ينشر فيها معبرا بالضرورة عن آرائهـا ، وباب المناقشة والرد فيها مفتوح للجميع .
- المقالات التي ترد الى المجلة لا ترد الى أصحابها ، نشرت أو لم تنشر .

التحرير :

12 ، نهج علي بومنجل ـ الجزائر

تليفون : 74 ـ 88 ـ 64

قيمة الاشتراك السنوي :

في الجزائر : 20د . ج

في الخارج : ما يعادلها

الاشتراك للطلبة : 18 دينارا

المراسلات الخاصة بـ :

الاشتراكات : ساحة ابن باديس ـ الجزائر العاصمة

تليفون : 14 ـ 67 ـ 62

التوزيع : الحساب الجاري : 09 04 39

صندوق البريد : 93

الثمن 2 دينار

مطبعة البعث ـ قسنطينة ـ الجزائر

بسم الله الرحمن الرحيم

فهرس العدد

الافتتاحية	بوعلام باقى	2
المعجزة الخالدة	محمد الصالح الصديق	13
بداية مظلمة ونهاية مشرقة	احمد حمانى	81
الوحى والعقل فى الاسلام عند المعتزلة وبعض المفكرين المتأخرين	د. أبو عمران الشيخ	102
ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين فى الغرب الاسلامى ودورهما فى نهضة اوروبا ويقظتها	د. يحيى بوعزيز	113
مجهودات المسلمين فى علم الجغرافيا	د. عبد القادر حلمى	145
[illegible] عشر قرنا حافلة من تاريخ الاسلام فى افريقيا والتطورات الجديدة	د. عبد القادر زبادية	181
تأملات [illegible] فى الذكرى الهجرية	د. أحمد بن نعمان	194
الفن الاسلامى أصوله وخصائصه	صالح بن قربة	202
التجديد والمجددون فى الاسلام	عبد الرحمن الجيلالى	165
نحو منهج اسلامى افضل	د. عبد الرزاق قسوم	271
من قواعد البناء لمنهج العمل فى القرن الخامس عشر	انور الجندى	279
الاسلام والنهضة الحديثة	عبود علواش	282
العالم الاسلامى بين مواجهة التحدى والخلق الحضارى	عبد اللطيف عبادة	291
هل يصبح العالم الاسلامى كتلة دولية تالية فى القرن الخامس عشر ؟	اسماعيل العربى	298
الاخلاق والنظم الاسلامية أسس عقيدية وآفاق	د. أحمد عروة	307
هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟	محمد الهادى الحسنى	324
الاسلام عامل رئيسى لاثبات الشخصية الجزائرية أمام محاولات الاندماج خلال القرن 19	د. صارى الجيلالى	330
[illegible] من تاريخ الهجرة النبوية ، وبيده من حياة عمر بن الخطاب	على مرحوم	338
[illegible] السنة الهجرية	احمد بن ذباب	357

الإفتتاحية

السيد بوعلام بساقي

وداع القرن الرابع عشر واستقبال القرن الخامس عشر

بسم الله الرحمن الرحيم

وصلى الله على سيدنا محمد خاتم النبيين وعلى آله وصحبه ومن والاهم باحسان إلى يوم الدين،

ما نحن نودع قرنا مضى، ونستقبل آخر أتى :

فوداعا- أيها القرن الرابع عشر- بما مضى فيك من احداث وعبر، وحلو ومر،

وأهلا وسهلا بك- أيها القرن الخامس عشر- فقد أشرقت علينا أيامك بالأمل الباسم، المبشّر بالمستقبل العظيم، نسأل الله أن يجعل أيامك وشهورك وأعوامك ظروفا للعمل الصالح، والرقيّ والازدهار في أمة الاسلام، وللسلام والوئام بين جميع أبناء الانام.

القرون والعقود في حياة الأمم والشعوب انما تعد بمثابة السنوات والشهور في حياة الافراد. ولقد أتى على أمة الاسلام - وشعب الجزائر من أركانها - أربعة عشر قرنا من تاريخ حافل، وما تزال فتية، قوية متطلعة. تملك من الطاقات الروحية والمادية، ومن المبادىء السامية ما يجعلها تنظر الى المستقبل بتفاؤل كبير. وأمل عظيم، لتقوم بدور بناء في حضارة الانسان وأمنه ورخائه.

وأثناء القرون الماضية من تاريخها الطويل مرت عليها أيام عز ورخاء ويسر. وأيام هوان وبؤس وعسر وشقاء، فلم تبطر أيام النعمة، ولم تيأس أيام المحنة. بل ثبتت مؤمنة صابرة رصينة في كلتا الحالتين. وقوفا عند قول رب العالمين: "لِكَيْلا تأسَوا على مَا فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم". وقد وجدت عناية الله تحفّ بها كلما توجهت اليه، واعتصمت بحبله.

لقد اختارت أمة الاسلام - بإجماع الصحابة أيام عمر بن الخطاب في السنة 17 هـ - هجرة النبي (ص) من مكة الى المدينة مبدأ لتاريخها، وروي عن عمر - رضى الله عنه - عبارة ستظل خالدة خلود مواقفه، حيث قال: " الهجرة فرقت بين الحق والباطل فأرخوا بها " انها كلمة صدق وادراك عميق لايقولها الا مثله، لان الهجرة بالفعل كانت للاسلام أعظم انتصار، وللكفر والعدوان أكبر اندحار، وبفضلها نشأت الأمة الاسلامية.

وما جاء الاسلام الا بإيمان عميق، وتصحيح للعقيدة عريق، واستقامة في السلوك، وعمل صالح لخير الدنيا وسعادة الآخرة، وتعاون بين الناس على البر والتقوى، وكف عن الاثم والعدوان، واحسان كامل، يعم الناس، وعدل مطلق شامل بينهم كلهم، فلا فضل لعربي على أعجمي ولا لأبيض على أسود الا بالتقوى. فقضى الاسلام بتعاليمه الخالدة السمحاء على الطبقية، ورفع شأن المرأة، وجعل أمر الناس شورى بينهم.

وكان الاسلام حريا أن يجد قبولا وتفهما من بنى الانسان فى كل زمان ومكان . ولكن العقوق شنشنة طوائف من البشر منذ كانوا على ظهر الأرض، لقد بعث الله بمكة فى الأميّين رسولا منهم يتلو عليهم آيات الله ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة، ويخرجهم من الظلمات الى النور. غير أن المترفين من قومه كبر عليهم ما كان يدعو إليه، فأعلنوا الكفر والعصيان، وبادروا بالاثم والعدوان، ولم يكتفوا بالكفر لانفسهم بل تجاوزوا به الى غيرهم، وصدّوا الناس عن الايمان، وعذّبوا مَنْ قَبِل الاسلام، فمن قتيل وجريح، ومن سجين وسليب، ومن عار وجائع ومفتون، لم يكد ينجو أحد من أذاهم، وبلغوا الى الرسول وذويه اذ وقفوا دونه ولم يسلموه اليهم ليقتلوه. واستمر عدوانهم يستشري مدة ثلاث عشرة سنة. حتى اذ استيقن المجرمون أن نور الله لا يطفئونه

بأفواههم. وأن الإيمان سطع نوره بيثرب، اجتمع كبراؤهم بدار الندوة وردّدوا الرأي في واحدة من المكر الكبّار يقترفونه: إما أن يسجنوه سجنا أبديا حتى الموت، وإما أن يخرجوه من مكة مشردًا، وإما أن يقتلوه، فأجمعوا على قتله بكيفية شيطانية بحيث يهدر دمه، وبادروا بحصار بيته "وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ، وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ، وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَاكِرِينَ" فأي جريمة عظمى لو تمّ مكرهم؟

لقد خرج الرسول إلى الهجرة بإذن ربه - ليلا - من بينهم، فأعمى الله أبصارهم عنه، والتجأ - مع صاحبه أبي بكر الصديق - إلى الغار بجبل ثور جنوبي مكة، واشتد الطلب وبلغ الاعداء الى فم الغار بحيث لو طأطأوا رؤوسهم لأبصروه. وخفق قلب الصديق أن يصاب رسول الله صلى الله عليه وسلم

بأذى، وكان قلب الرسول في اطمئنان الى ربه ونصيره "إلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا، فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُ بِجُنُودٍ لَمْ تَرَوْهَا، وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى، وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا، وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ" ومن ينصره الله فلا غالب له. ووصل الى المدينة بأمان وسلام في يوم الاثنين 12 من ربيع الأول، فوجد جند الله مدججين بالسلاح مستعدين لدفع العدوان بالعدوان.

لقد كانت الهجرة نصرًا عظيما للاسلام: بنجاة الرسول عليه الصلاة والسلام، وببناء الدولة الاسلامية الأولى، واتخاذ المدينة عاصمةً لها يجب على كل مسلم أن يهاجر اليها للتجمع فيها تاركا أرضه وأهله وماله إن حال شيء من ذلك بينه وبين الهجرة. وبإنشاء جيش قوي لحماية الدعوة، وتنفيذ الأحكام، وسيادة النظام

وضمان الامن، والدفاع عن الأمة. وببناء المسجد ليكون معبدا وبيتا لله يذكر فيه اسمه ويسبّح له فيه بالغدو والآصال، وليكون مدرسة جامعة للفقه في الدين، وتعلم العلم المطلق، وفهم الحياة، وليكون مجلس أمة تجتمع فيه وتدبّر شؤونها وتتشاور في أمورها من الخوف والأمن. فالهجرة حققت وجود أمة الاسلام ودولتِه الأولى، وبيّن رسول الله صلى الله عليه وسلم كيف يكون التعايش بين الجماعات المتخالفة من المتساكنين متحدين فى الدين أو مختلفين. آخى بين المسلمين من الانصار والمهاجرين، وعقد لليهود بالمدينة عقودا ينالون بها حرية عقيدتهم وتدينهم، والأمن فى أموالهم وأنفسهم وأهليهم، على أن لا يعينوا عدوًّا على المسلمين، لقد طبّق بالفعل ما كان قد أُنزل عليه "لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِيَ دِينِ" وما أُنزل عليه من بعد "لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ"

ولكن اليهود خانوا وغدروا، فنالوا جزاء الغادرين الخائنين.

لهذا اتخذ المسلمون سنة الهجرة، من أول المحرم مبدأ لتاريخهم،

ومنذ السنة الأولى من الهجرة توالت على المسلمين الدروس والعبر بعناية من ربهم الذي وعدهم النصر المبين ما اعتصموا بحبله المتين، وما ساروا على سنة الله في الخلق أجمعين، وإنّ الحياة دفاع ومغالبة وجهاد، "ولولا دفاع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض ولكن الله ذو فضل على العالمين". وان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم، وانه قد جعل العاقبة للمتقين الصابرين، وقد اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم ليكونوا أبدًا مجاهدين الجهاد الأصغر في ميادين القتال، والجهاد الأكبر في ميادين الحياة، يدفعون بقوة وعزم كيد الأعداء وشهوات النفس الأمارة بالسوء

إن السنوات العشر بعد الهجرة كوّنت من المسلمين أمة قوية متينة متماسكة لا تقهر. وما كانت وفاة رسول الله الا محنة زادتها صلابة وقوة، واستطاعت ان تقهر المرتدين، وتخمد فتنة المنحرفين، ثم أسّست جمهورية الخلفاء الراشدين جمهورية مثالية لم يعرف البشر على مختلف الأزمان أقوم ولا أعدل ولا أرحم من حكامها. وفي زمنها انتشر الاسلام واتسعت حدود دولته، وبلغ وطننا في بلاد المغرب: حمله اليه أجدادنا من الصحابة والتابعين، وتقبّله منهم أجدادنا من الأحرار الامازيغ، وانصهر الفريقان في بوتقة الاسلام، وألّف الله بين قلوبهم "لَوْ أَنْفَقْتَ مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا مَا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ".

إنّ تاريخ الاسلام تاريخنا، وأمجاد أمته أمجادنا. وعزته عزتنا. "وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ"

وبفضل الاسلام تماسكت أمتنا، واحتفظت بشخصيتها القوية، واستطاعت أن تخرج من المحنة سالمة قوية. وها هي دولتنا قائمة، ورايتنا مرفوعة، وأمتنا صامدة، رغم أن قرنا وثلث قرن من تاريخها كان ظلما وظلاما وعوامل فتنة وانحلال.

أيها الشعب الجزائري المسلم،

لقد كان جزء من القرن الثالث عشر، ومعظم القرن الرابع عشر من الهجرة أيام بلاء وجهاد وعسر وظلم وظلام في تاريخنا، لكننا لم نيأس من رحمة الله، وما اليأس من طبيعة المؤمن، فجاهدنا وثبتنا وصبرنا حتى جاءنا نصر الله. فالحمد لله والشكر.

وقد ودعنا القرن الرابع عشر، واستقبلنا القرن الخامس عشر فعلينا أن نحقق في هذا القرن ما تصبو إليه أمتنا، بمتابعة الجهاد في كل الميادين، وان ميادين الجهاد في داخل البلاد كثيرة، ومن أعظم

اعدائنا الجهل والتخلف، والفساد، والانحلال، والانحراف، والأنانية، والكسل.

وهي في الخارج ذود عن الكيان، ونصرة للمستضعفين في كل مكان حتى لا يحرموا حقهم في الحياة الذي كتبه الله لهم يوم أن خلق الأرض ومن عليها فاستخلفهم فيها مثل ما استخلف غيرهم. ورحم الله عمر بن الخطاب صاحب المقولة المشهورة "متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم امهاتهم أحرارًا".

ونحن لا نريد لأحد شرًا، وانما نريد لشعبنا وأمتنا الاسلامية الأمن والرخاء والحرية والرقي والازدهار.

ومن الله نستمد العون والنصر.

وهنيئًا لأمة الاسلام عامة وللمسلمين بالجزائر خاصة بالقرن الخامس عشر هـ

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته

المعجزة الخالدة

الاستاذ محمد الصالح الصديق

تمهيـــد :

عندما طلبت منى مجلة (الأصالة) الغراء ـ مشكورة ـ أن اكتب عن القران الكريم بمناسبة حلول القرن الخامس عشر الهجرى قبلت الطلب مبتهجا ورأيت انها فرصة ثمينة للمساهمه فى هذه المناسبه العلويه ، والسانحه المباركه ، التى تهل على المسلمين وهم فى حاجه اكيدة منحه الى هذا الكتاب العظيم الذى أحدث اكبر انقلاب عرفته البشريه فى مختلف عصورها ، ليستمدوا به عزائمهم ، وعقولهم ، ويقوموا اخلاقهم وسلوكهم ، ويوحدوا صفوفهم وكلمهم ، ويجمعوا فى ظله كل ما فيهم من عناصر القوة استعدادا لنجهاد اكبر من اجل حياه افضل نجتمع فيها عزة الاسلام وعزة الاوطان .

ولكنى عندما فكرت فى الموضوع تضاءلت امام عظمته ، وشعرت برهبة الموقف وقلت فى نفسى مبادا عسى أن اقول عن هذا الكتاب الذى وصل الارض بالسماء ، ورفعها اليها ، وانار طريقها ، وفجر فيها الحياة .. وايقظ الشعور العالى ، ونهض بالبشرية الى المستوى اللائق بها بعد أن كانت فى الدرك الاسفل من الانحطاط .

ولكنى عندما تصديت للموضوع وامسكت بالقلم تشجعت وجمعت قواي ، ولكن بداخلى الغرور واعترانى ما يعترى الانسان فى بعض الاحيان وقلت فى نفسى لعلى قد عشت على هذا الكتاب منذ طفولة الاطفال وكتبت عنه كثيرا وما زال الكتب ، فلتكن كلمتى عن القران جامعة وافية تليق بالمناسبة .

ولكن سرعان ما أفقت الى نفسى ، وانفلت من غرورى ، وتبينت خطاى ، وتخيلت طيرا صغيرا ، يحوم عشى شاطىء البحر ، يتسامى ويتدانى ، ويسرح بصره فى عرض البحر وطوله ، وأحيانا يركز بصره فى أعماقه . وهو فى كل ذلك يريد أن يتعرف على هذا المخلوق العجيب بكل ما عليه من الافلاك والسفن العظيمة ، وبكل ما فيه من الحيوان ، والنبات والزهر ، والنؤلؤ ، وان يدرك ما يعكسه من روعة الجمال الطبيعى ، وما ينطق به من حكمة المبدع ، وعظمة الخالق ... وعسى الطير المسكين انه بجانب البحر ضعيف عاجز ، ان رأى شيئا حجبت عنه اشياء ، وان علم أمرا غابت عنه أمور ، وان أدرك سرا دقت عنه أسرار ، فأنا الطير .. والقرآن البحر .. ان أنا حاولت أن أفى بما يستحق هذا الموضوع ، وان أقدم عنه دراسة جامعة ..

ولكن ان تعذر ذلك فلا أقل من أن أقدم محاولة دراسية لبعض جوانب القرآن وموضوعاته فان وفقت فذلك غايتى ، وان تجافانى التوفيق فعزائى ان لى اجر من اجتهد وأخطأ .

القرآن الكريم:

القرآن هو كتاب المسلمين الاكبر ، ودستور البشرية الاعظم ، ووحى السماء الذى نزل به الروح الامين على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان اعظم معجزة لاعظم نبي .

وأقل ما يوصف به هذا الكتاب انه المعلم النصوح ، والمربى المخلص والمعيار الصحيح ، والحجة القاطعة والبرهان الساطع ، والنبراس الهادى . يثبت العقول المضطربة ، ويداوى القلوب المريضة . ويروى النفوس المتعطشة ويندى الجوانح الصادية ، ويهدى الانسانية الضالة ، ويحيى الضمائر ويجلو صدأ الارواح ، ويريى ما ران على الافئدة ، بالبراهين الواضحة والايات البينة . ويحقق لمن اهتدى بهديه وسار على ضوئه سعادة الدنيا وسعادة الآخرة .

(وليس فى وسع القلم أو اللسان مهما كانت مقدرته البيانية أن يحيط بشأن القرآن ووصف ما احتواه من الدقائق والحقائق والاسرار ، اذ هو كتاب الدهر كله ، وما الفرد فى جنب الا ذرة فى فضاء ، وما الجيل فى زمن الا لبنة فى بناء ، وما الزمن او الدهر الا مقدمة محدودة لعالم البقاء ، فكيف الاحاطة به وعقول البشر جميعا تلتقى عليه فتجد نفسها مع الكون جميعه ومع الدهر كله) .

فلنترك وصف القرآن اذن ليصفه من انزله ، ووصفه أبين وأفصح ، وأدل واوضح ، وأصدق وأقوم ، قال الله تعالى . « **كتاب أحكمت آياته ثم فصلت من لدن حكيم خبير** » وقال . « **هذا بلاغ**

للناس ولينذروا به وليعلموا انما هو الله واحد وليذكر اولوا الالباب » وقال **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ويهديهم الى صراط مستقيم** وقال « **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** » وقال « **كتاب انزلناه اليك مبارك ليدبروا اياته وليتذكر اولوا الالباب** » وقال « **ان هذا القران يهدى للتى هي اقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات ان لهم أجرا كبيرا** » وقال « **انه لقول فصل وما هو بالهزل** » .

اما من نزل عليه القران فقد وصفه بابلغ وصف ، وصوره أصدق تصوير، اخرج الترمذى فى سننه عن علي بن ابى طالب كرم الله وجهه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول

(اما انها تكون فتنة . قلت : فما المخرج منها يا رسول الله ؟ قال : كتاب الله تعالى ، فيه نبأ ما قبلكم ، وخبر ما بعدكم ، وحكم ما بينكم ، هو الفصل ليس بالهزل ، من تركه من جبار قصمه الله تعالى ، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله تعالى ، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم ، وهو الصراط المستقيم ، وهو الذى لا تزيغ به الاهواء، ولا تلتبس به الالسنة ، ولا تشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه ، وهو الذى لم تنته الجن اذ سمعته حتى قالوا « **انا سمعنا قرانا عجبا يهدى الى الرشد فآمنا به** » من قال به صدق ، ومن عمل به أجر ، ومن حكم به عدل ، ومن دعا اليه ، هدي الى صراط مستقيم) .

فالقران اذن حافل بالرسم كله ، ماضيه وما حوى ، ومستقبله بما سيحدث منه مما يخطر على بال ومما لا يخطر ، وحاضره بما يقع ويحيش من مشاكل مختلفة ، وقضايا متنوعة ، يقف منها جميعها موقف الطبيب الناصح ، والحكم العدل ، والقائد الامين ، والموجه الرشيد، فيعالج المرض ، ويحل المشكل ، ويضع الحدود ، ويرفع معالم الهدى ، ويثير دوافع الرحمة ، ونوازع الوئام والاخوة والتضامن .

اسمه :

اسمه القران ، وللقراء فى أداء هذه الكلمة طريقان تحقيق الهمزة فيها ، واهمالها منها .. فمنهم من يقرأها (القران) بالهمزة ، ومنهم من يقرأها (القران) فهذا اللفظ اذا همز ـ وهو الاكثر ـ مأخوذ من قرأ بمعنى تلا . وتنص بعض المعاجم العربية على أن القران مهموزا مأخوذ من (قرأ) بمعنى جمع لانه يضم السور ، بعضها الى بعض . وقد ذهب الى هذا الرأي كثير من المفسرين ، وهو قول يرجح النقد وبالتالى للبطلان .

وذلك لان القران سمي قرانا لاول مرة فى سورة (المرسلات) فى قوله تعالى « **ان علينا جمعه وقرآنه** » وهي السورة

الثالثة بحسب النزول فلم يكن قد جمع السور حينئذ ·

والرأي المنطقي المختار الذي نرتاح اليه هو انه مأخوذ من قرأ بمعنى تلا ، فيكون القرآن هو كتاب الله تعالى المتلو ·· وعلى هذا قول الشاعر العربي في مرثية عثمان :

ضحو باشمط عنوان السجود به
يقطع الليل تسبيحا وقرآنا

واذا لم يهمز هذا اللفظ فهو من (قرن) بمعنى ضم لضمه السور والآيات والحروف بعضها الى بعض ، وقيل من القرائن لان الآيات يصدق بعضها بعضا، ويشابهه ، وقد نسب الى الفراء ·

والراي المختار ان اللفظ مهموز ويحذف همزه للتخفيف ·

ويعبر عن القران أيضا بأسماء أخرى كـ (الفرقان) و (الكتاب) و (الذكر) وقد تبلغ أسماء القرآن نيفا وتسعين اسما ، ولعلماء القرآن ورجال اللغة في معاني هذه الاسماء واشتقاقها وتصرفها أبحاث وتآليف ·

وهذه الاسماء في الغالب ليست الا صفات للتنزيل كالهدى ، والشفاء ، والرحمة ، والموعظة ، والحكمة ، والبركة ··

نزوله :

جاء التعبير بمادة (نزول القرآن) وما تصرف منها في الكتاب والسنة قال تعالى : « **وبالحق انزلناه وبالحق نزل** » وقال صلى الله عليه وسلم (ان هذا القرآن انزل على سبعة أحرف)

وشرف الله القرآن بأن جعل له ثلاثة تنزلات ·

التنزل الاول الى اللوح المحفوظ ويدل عليه قوله تعالى « **بل هو قرآن مجيد في لوح محفوظ** » وكان ذلك جملة لا مفرقا ، لانه الظاهر من اللفظ عند الاطلاق ، ولا صارف عنه ، ولان أسرار التنجيم لا يعقل تحققها في هذا التنزل ·

التنزل الثاني الى بيت العزة في السماء الدنيا ، ويدل على ذلك قوله تعالى (في سورة الدخان) « **انا انزلناه في ليلة مباركة** » وفي سورة القدر « **انا أنزلناه في ليلة القدر** وفي سورة البقرة « **شهر رمضان الذي انزل فيه القرآن** » ·

التنزل الثالث الى العالم الارضي بواسطة امين الوحي جبريل عليه السلام ، ينزل به على قلب محمد صلى الله عليه وسلم ، ودليله قوله تعالى « **نزل به الروح الامين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين** » (1) ·

وكيفية أخذ جبريل للقرآن من الله تعالى قضية تناولها كتاب ومفكرون بالبحث ، ولكن الذي ينبغي التسليم به انها من قضايا الغيب التي لا يعلمها الا الله ، وكل ما قيل من الآراء يعوزه الدليل عن المعصوم ، على ان الذي يهمنا أكثر في موضوع التنزيل هو ما نزل به جبريل من رب العالمين هل هو

القرآن بلفظه ومعناه ، أو هو بمعناه دون لفظه ؟

الذي لا مجال للشك فيه هو أن ما نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وسلم هو القرآن بلفظه ومعناه .

أما المعنى فأمر لم يرتق اليه شك عاقل منذ نزل القرآن ، وأما اللفظ فقد زعم بعض المتقولين المسفين أن اللفظ لجبريل وأن الله كان يوحي اليه المعنى فقط ، ومنهم من ذهب الى أن جبريل كان يلقن بمعاني القرآن على الرسول وهو يصرفها في قالب عربي . والقولان باطلان ، بل هما سخيفان لا يقول بهما عاقل منصف ، لانهما يعارضان صريح الكتاب والسنة والاجماع .

فجبريل نزل بالقرآن لفظا ومعنى لا دخل له ولا لمحمد في لفظ من ألفاظه ، وإذا كان معجزا ، وانما جبريل أوحاه الى محمد ، ومحمد وعاه وحفظه ، ثم بينه وفسره ، وطبقه ونفذه ، وفي القرآن الكريم نصوص كثيرة على ذلك منها . **« واذا لم تاتهم بآية قالوا لو اجتبيتها . قل انما اتبع ما يوحى الي من ربي »** **« وانك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم»** **«واذا تتلى عليهم اياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله ، قل ما يكون لي ان ابدله من تلقاء نفسي أن اتبع الا ما يوحى الي اني اخاف ان عصيت ربي عذاب يوم عظيم»** .

ونزل القرآن الكريم منجما (مفرقا) في المناسبات التي تتطلب ذلك ، واستغرق هذا النزول مدة تبتدئ بمبعثه صلى الله عليه وسلم وتنتهي بقرب انتقاله الى الرفيق الاعلى ، وتقدر هذه المدة بتسعة وعشرين عاما .

ودليل التنجيم قوله تعالى في سورة الاسراء « **وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا**» وقوله في سورة الفرقان «**وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ، كذلك ، لنثبت به فؤادك ، ورتلناه ترتيلا ، ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا** » .

ولنزول القرآن منجما حكم واسرار يمكن اجمالها فيما يلي

١) تثبيت النبي صلى الله عليه وسلم وتقوية قلبه ، لان في تجديد الوحي وتكرار نزول الامين من قبل الله تعالى على نبيه سرورا يملأ قلب الرسول ، وبهجة تشرح صدره ، وانسا يعمره بالطمأنينة والامن ، وفي كل نوبة من نوبات التنزيل المنجم معجزة جديدة تقرع اذان المشركين ، وتتحداهم ، وتحمل في كل كلمة ، وفي كل معنى سرا دقيقا ، وحكمة بليغة ، وحجة واعجازا ، ولا ريب ان المعجزة تقوي عزمه ، وتشد ازره ، وتضاعف صبره ، باعتبارها مؤيدة له ، ومشجعة ، وخاذلة لخصومه ومخزية .

وقد يكون لكشف حال المنافقين ، ورفع الستار عن وجوههم الحقيقية ، ليأخذ الرسول منهم حذره ويعاملهم حسب وضعهم الحقيقي ، وحتى يتوب من يشاء منهم أن يتوب ·

وتجد هذا في مثل قوله تعالى من سورة البقرة « **ومن الناس من يقول امنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخادعون الا انفسهم وما يشعرون** » (الآيات) ·

وهذه الآيات وهي ثلاثة عشره اية **فضحت المنافقين ، وهتكت استارهم ، وكشفت للرسول سرائرهم ، كما فضحتهم** آيات كثيرة من سورة التوبة وسور أخرى من القرآن ·

ونستشف كل هذا من قوله تعالى في سورة الفرقان . « **ولا يأتونك بمثل الا جئناك بالحق واحسن تفسيرا** » ·

4) الدس والتقرير بان هذا القرآن كلام خالق ولا يمكن ان يكون لمحمد او مخلوق اخر ·

وهنا نلاحظ في عمره من الدهشة والاعجاب سمة الاعجاز الالهي في هذا التصنيف والتنظيم ، وهذا التناسق والتسلسل ، وهذه الملاءمة الكاملة التامة بين الايات والاحوال ، والدواعي والاحكام ·

وتتضخم سمة الربوبية ، وتبرز أكثر عندما نلاحظ ان مدة التنزيل تجاوزت العشرين سنة ، وان دواعي التنزيل ، مختلفة متنوعة ·

وبديهي ان الانفصال الزماني والاختلاف بين تلك الدواعي، يستلزمان عادة التفكك والانحلال ، ولكن ذلك في كلام المخلوق ··· اما في كلام الخالق فلا تجد الا الترابط والانسجام ، والوحدة والانتظام ، والترتيب والاتساق · فسبحان من قال . « **ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافا كثيرا** » وقال « **قل انزله الذي يعلم السر في السماوات والارض انه كان غفورا رحيما** » ·

الوحي وكيفيته وانواعه :

ان الحديث عن القرآن الكريم يتقاضانا التعرض للوحي ولو بكلمة قصيرة ، فكل ما يذكر عن القرآن من قريب أو بعيد ، لا يقبله ولا يسلم به الا من آمن بالوحي وصدق بالاتصالات الروحية بالملا الاعلى ·· وهو موضوع هام وخطير خاضت غماره عقول عباقرة ومفكرين من مختلف المذاهب والاديان ··

واذا كان اعلام الفكر الذين يؤمنون بالشرع يتبنون الوحي ويرونه ممكن الوقوع فان العقلية العصرية المتلوثة بالالحاد والاباحة ، والمرتكسة في حمأة المادة ، تستبعد الوحي وتعتبره نوعا من الوهم والخرافة ، او ظاهرة من ظواهر الهوس ، وتنظر الى من يؤمن به نظرة احتقار وازدراء ·

واذا كان هذا الموضوع يتطلب بحثا خاصا وتاليفا منفردا فلا أقل ـ ونحن نكتب عن القرآن بمناسبة مضي أربعة

عسر قربا على هجرة من نزل عليه ـ أن نلم به ولو المامة خاطفة ·

ولنقف أولا عند الوحي من حيث مدلوله ·

اذا تتبعنا القرآن الكريم وجدنا لفظ الوحي يرد مفيدا لمعان كثيرة منها (الالهام الفطرى) يقول الله تعالى · « **وأوحى ربك الى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون**» اى الهمها وعلمها تنظيم شئونها على ذلك الوجه العجيب ، والصنعة الدقيقة، **التى تحير العقول وتشهد بقدرة الخالق** سبحانه وتعالى · **ومن معانيها** (الايماء والاشارة) يقول الله تعالى فى شأن زكرياء عليه السلام « **فخرج على قومه من المحراب فأوحى اليهم أن سبحوا بكرة وعشيا** » اي أشار اليهم · ومنها (الالهام) الذى يقع فى النفس وهو اخفى من الايماء يقول الله تعالى « **واوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنّا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين** » اي الهمناها · ومنها الوسوسة وفى ذلك يقول الله تعالى « **وان الشياطين ليوحون الى اوليائهم ليجادلوكم وان اطعتموهم انكم لمشركون**» اي ليوسوسون اليهم ·

ويرد الوحي فى القرآن بمعنى الموحى به وهو القران الكريم الذى نزل على محمد صلى الله عليه وسلم كقوله تعالى « **ان هو إلا وحي يوحى** » (2) ·

ويجيء الوحي بمعنى الكتابة والرسالة والكلام الخفى والمكتوب والامر والصوت كما ذكر اللغويون ، وهذا هو المعنى العام للوحي · أما معناه الخاص فهو اعلام الله تعالى لنبيه كل ما أراد اطلاعه عليه من الوان الهداية والمعرفة· وهو المراد فى قوله تعالى . « **انا أوحينا اليك كما أوحينا الى نوح والنبيئين من بعده** » ·

وعرفه الامام محمد عبده بقوله · (ان الوحي عرفان يجده الشخص من نفسه مع اليقين بانه من قبل الله بواسطة أو بغير واسطة ، والاول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت ، ويفرق بينه وبين الالهام ، بأن الالهام وجدان تستقيه النفس وتناسق ما يطلب على غير شعور منها من أين أتى ، وهو اشبه بوجدان الجوع والعطش والحزن والسرور (3) ·

وهذا التعريف يشمل انواع الوحى الثلاثة التى أوردها القرآن الكريم فى هذه الآية « **وما كان لبشر أن يكلمه الله الا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى باذنه ما يشاء انه علي حكيم** » ·

والآية الكريمة تقرر صورا ثلاثة للوحي

الاولى أن يكون الاتصال بين الله ورسوله وحيا ، أي القاء المعنى فى القلب ، وهو المعبر عنه بالنفث فى الروح بحيث لا يعرف دلالة ما أوحي به الا الرسول وحده ، وفى الحديث ان الرسول

صلى الله عليه وسلم قال (ان روح القدس ، نفث في روعي، ان نفسا لن تموت حتى تستكمل رزقها ، فاتقوا الله واجملوا في الطلب) .

الثانية ان يكون الاتصال بين الله ورسوله بالكلام من وراء حجاب ، اي ان يسمع الموحى اليه كلام الله من غير ان يراه ، حيث لا يمكن أن تقع الرؤية للبصر المحدود الذي لا يتعامل الا مع ما هو محدود ، والله تعالى منزه عن التجسد والحد ، ولذا كان قول الله لموسى عندما قال « **رب ارني انظر اليك ، قال لن تراني ولكن انظر الى الجبل ، فان استقر مكانه فسوف تراني، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا ، فلما افاق ، قال سبحانك تبت اليك وانا اول المؤمنين** » .

ومثل هذا النوع من الوحي ما وقع للرسول ليلة الاسراء والمعراج ، ولموسى لما سمع النداء من وراء السجرة ، وسجله القرآن في قوله « **قال لأهله امكثوا اني آنست نارا لعلي آتيكم منها بخبر او جذوة من النار لعلكم تصطلون، فلما اتاها نودي من شاطىء الواد الايمن في البقعة المباركة من الشجرة ان يا موسى اني انا الله رب العالمين** » .

الصورة الثالثة ان يكون الاتصال بواسطة ملك من عالم الروح يرسله الله الى نبيه حاملا اياته وكلماته ، فيتلقاها منه النبي . وقد روي ان الرسول صلى الله عليه وسلم سئل يوما ، كيف يأتيك الوحي ؟ فقال : (أحيانا يأتيني مثل صلصلة الجرس ، وهو اشد علي فيفصم عني وقد وعيت عنه ، ما قال ، وأحيانا يتمثل لي الملك رجلا فيكلمني فأعي ما يقول) قالت عائشة رضي الله عنها : (ولقد رأيته ينزل عليه الوحي في اليوم الشديد البرد فيفصم عنه وان جبينه ليتفصد عرقا) .

وهناك طريق اخر للوحي غير هذه الطرق الثلاثة وهو ما يراه النبي في منامه فان رؤيا الانبياء حق ، ومن هذا القبيل ما راه ابراهيم عليه السلام في منامه بشأن ذبح ولده ، وحكاه القرآن الكريم في قوله « **فلما بلغ معه السعي قال يابني اني ارى في المنام اني اذبحك فانظر ماذا ترى ؟ قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدني ان شاء الله من الصابرين** » .

وفي صحيح البخاري عن عائشة رضي الله عنها انها قالت (اول ما بدىء رسول الله من الوحي الرويا الصالحة في النوم فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) .

الوحي من الناحيتين : العلمية والعقلية :

ذلك هو الوحي وكيفيته وأنواعه . اما الوحي من الناحيتين العلمية والعقلية فنوجز القول عنه فيما يلي .

ان الذين ينكرون الوحي لا يؤمنون الا بالعقل على الطريقة التي يستسيغونها وبالعالم الذي تواضعوا عليه في

اصطلاحهم الحديث وهو جملة المعارف التى انتجها دستور البحث الجديد فى الوجود وكائناته من جعل الشك أساسا للبحث والاستناد الى القاطع الذى يريده الحس دون سواه . فهم يضعون الشك مقدمة لكل شيء ويعتمدونه أساسا للبحث ثم لا يعترفون الا بالحساسيات ، ومن ثم كانوا سجناء المادة لا وجود فى نظرهم لما وراء جدرانها ، والالهيات والنبوات والوحى وكل ما يدور فى هذه الافلاك يعد عندهم من الوهم لا يبوىء من يؤمن به الا فى مصاف الخرافيين المتجمدين (4) وظلوا فى سجنهم هذا حتى باغتهم بحقائق ناصعة عندما ظهرت اية الارواح فى امريكا سنة 1846 وسرت منها الى أوروبا كلها واثبت الناس بدليل محسوس وجود عالم روحانى آهل بالعقول الكبيرة والافكار الثاقبة ، فتغير رأيهم فى المسائل الروحانية ، وحييت مسالة الوحي بعد أن كانت فى عداد الاضاليل القديمة ، واعاد العلماء البحث فيها على قاعدة العلم التجريبى المقررة على اسلوب التقليد الدينى ، فوصلوا الى نتائج وان كانت غير ما قرره علماء الاسلام، الا انها خطوة كبيرة فى هذا السبيل (5)

ولقد تغير بهذا النظر الجديد موقف العلماء مما وراء المادة ولم يبق الا ضحايا العناد والغطرسة ، وضحايا الكفر والجحود ، وصرعى المذاهب المتطرفة فى العالم يلجون فى الغواية . ويتهافتون جريا وراء السراب يحسبونه ماء .

ولا يتسع المقام لعرض ادلة الوحى العلمية والعقلية مع الملاحظة والتعليل، لان ذلك يتطلب مؤلفا خاصا ولكن حسبنا أن نعرضها مجردة ، فعلى من يريد التوسع والاستقاصة أن يراجعها فى مظانها .

ادلة الوحي العلمية :

ان هذه الادلة تقرب العقل من الوحي وتجعله يؤمن بامكان وقوعه ، واستساغة العقل للوحي خطوة ايجابية اولى فى الموضوع ، فالدليل الاول التجريبى المغناطيسى وهو من المقررات العلمية الثابتة كشفه الدكتور الالمانى الشهير (مسمير) فى القرن الثامن عشر وبذل هو واتباعه جهودا كبيرة طوال قرن كامل من الزمن ، فى سبيل اثباته وارساء قواعده ، ونجحوا فى ذلك نجاحا باهرا، واعترف العلماء به علميا ، وقد أثبتوا به حقائق تدعو الى الدهشة والاعجاب . وممن نبغوا فى هذا العلم واشتهروا بتجارب فيما وراء المادة (جون لوك) و (جلاد ستون) و (باركس) و (هود دسن) و (كاميل فلامريون) و (ساردون) و (فرولبى) و (رولنز) و غيرهم كثير .

الدليل العلمي الثانى :

الاختراعات الحديثة .. ان العلم الحديث استطاع أن يخترع عجائب لم

تكن تخطر على بال الاقدمين . فلـــو بعث احدهم اليوم وراها لاستبد به الذهول وحسب انه في الحلـــم لا في اليقظة . فالطيارة والسيارة والقطـار والتلغـراف والتيليفـون والمكروفـون والراديو . والحاكي . والتليـفزيون . والمراكب الفضائية المختلفة . والعقـول الالكترونيـة .. كل ذلك مخترع حديث . وبـواسطـــة هـــذه المخترعـــات العجيبة أمكن للانسان أن يقرب المسافات النائية ويعيش في مختلف أرجاء الدنيا وهو جـالس في بيتـه بيـن أولاده ، ويكشف عوالم وحقائـق وهـــو في مختبـره ..

فهل يعقل بعد حدوث هذه المخترعات المادية المدهشة وتحققا لما لم يكـــن يحلم به احدا ان يعجز الاله الحق خالق السماوات والارض على ان يوحي الى بعض عباده مما شاء بواسطـة أو بغير واسطة ؟ تعالى الله عن ذلك علوا كبيـــرا .

الدليل الثالث العلمي :

اشرطة التسجيل والاسـطوانـات ، انها جامدة جاهلة ، ولكن العلم الحديث استطاع أن يملأها اصواتا وانغاما واغاني وكلاما ، على كيفية تجعلها تنطق بهـا بدقة واتقان ... وقد كان مما لا يخطر على العقل أن يحتفظ بصوت شخص مده بعد موته ، وأصبح الآن بهذا المختـرع امرا ميسورا بل بديهيا ، فقد يسمـــع الحفيد صوت جده الذي واراه التراب قبل ولادته بعشرات السنين ، كما كان مما لا يخطر على بال أحد أن تبقى صورة المرء بعد موته بسنين تتكلم وتقوم بأدوار كما لو كان حيا . واصبح الآن بمخترع (التليفزيون) أمرا عاديا بديهيا .

ابعد هذا يستبعد على الله تعـالى ـ خالق هذه المخترعات كلها ـ ان يملأ بعض نفوس بشرية صافية من خواص عباده بكلام مقدس على وجه يجعل ذلك الكلام منتقشا على قلب رسوله يحكيه بدقة واتقان ؟

تلك بعض الادلة العلمية ولا نـــرى ضرورة لايراد الادلة الاخرى لان المقام سيتمدد بها ويتسع ، ولان همنا أيضا الايجاز والاكتفاء بما يضيء جوانـــب الموضوع لا التقصي والاستقراء (5) .

اما الوحي من الناحية العقليـــة فحسبنا مما طفحت به الكتب من الابحاث والاقوال عن هذا الموضوع ان نلاحـظ ان الوحي الذي ثبت امكان وقوعه قد وقع بالفعل ، واخبر به الصادق المعصـوم محمد صلى الله عليه وسلم ، وكـــل ما اخبر به الصادق المعصوم حق ثابت لا يتطرق اليه شك .

واي امرىء له مسكة من العقل يشك في ان هذا الكتاب أوحي الى محمد من الله عندما يعلم انه نشأ أميا لا يقـــرأ ولا يكتب ، ثم أتى قومه وهم أئمـــة الفصاحة ، وفرسان البلاغة ، بكتـاب معجز ، كل آية منه حجة قاطعة ، وبرهان ساطع ؟

يضاف الى ذلك ان هذا الذى أوحي اليه هذا الكتاب جمعت فى نفسه كل خلال الخير التى يستحيل أن يتصور العاقل معها ادعاء أو كذبا أو مبالغة · من الصدق والامانة والحلم والصبر والمروءة والعدل والنزاهة والتواضع والشجاعة والحياء والجود والرحمة ، حتى كان له من كل هذه الصفات قوة تخر أمامها الجبابرة ، ونور ساطع سار فى ضوئه الدانى والقاصى ، ودليل قاطع صدق نبوته ·

أما من يؤمن بان للعالم خالقا مدبرا، وصانعا حكيما وفاعلا مختارا ، فلا مناص له من الايمان بأن القران كلامه اوحي به الى خاتم انبيائه ، ليهديهم به الى أقوم طريق ، ويكون به أقوى وأفضل مجتمع عرفه التاريخ فى مختلف عصوره ·

والمنصفون من ذوى العقول الحرة من مختلف المذاهب والنزعات يعترفون بمعجزة القرآن الخالدة · ويعجبنى فى هذا المقام قول الفيلسوف الدكتور شبلى شميل :

دع من (محمد) فى صدى قرآنه
ما قد نحاد للحمة العايات
انى ، وان اك قد كفرت بدينه
هل اكفرن بمحكم الآيات ،
ومواعظ لو انهم عملوا بها
ما قيدوا العمران بالعادات
من دونه الابطال فى كل الورى
من غائب أو حاضر أو آتى (7)

أول القرآن واخره نزولا :

أصح الاقوال وأرجحها ان أول آية نزلت من القرآن على النبى صلى الله عليه وسلم وهو يتعبد فى غار حراء محكمة قوله تعالى « **اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الانسان من علق ، اقرأ وربك الاكرم الذى علم بالقلم ، علم الانسان ما لم يعلم** » من سورة العلق، وعن عائشة ام المومنين ـ فيما رواه البخارى وغيره ـ انها قالت (أول ما بدىء به رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا الا جاءت مثل فلق الصبح) ثم حبب اليه الخلاء وكان يخلو بغار حراء فيتحنث فيه (وهو التعبد) الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع الى اهله ويتزود لذلك ثم يرجع الى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء فجاءه الملك فقال : اقرأ ، قال : ما أنا بقارىء قال : فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال · اقرأ ، قلت · ما أنا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال · اقرأ ، فقلت ما انا بقارىء ، فأخذنى فغطنى الثالثة.ثم أرسلنى فقال : « **اقرأ باسم ربك** ··· الآيات) ·

والعبرة الضخمة ، والدرس العظيم الذى تأخذه البشرية من هذه الكلمة التى بدىء بها الوحي ان المادة الاولى من الدستور الاسلامى تأمر بالقراءة

القراءة ـ الكتابة ـ العلم وفى ذلك عبرة وأية عبرة لاولى الابصار ..

أما اخر ما نزل من القران فهو مثار اختلاف العلماء ، فمن قائل انه خاتمة سوره النساء « **يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة** » ومن قائل انها اية الدين فى سورة البقرة « **يا أيها الذين آمنوا اذا تداينتم بدين الى أجل مسمى فاكتبوه** » . ومن قائل انها قوله تعالى فى ال عمران « **فاستجاب لهم ربهم انى لا اضيع عمل عامل منكم من ذكر او انثى ...** » . ومن قائل انها قوله تعالى فى سوره المائده « **واتقوا يوما ترجعون فيه الى الله ...** » .

والقول الفصل انه لا سبيل الى القطع باخر اية نزلت من القران وان كان النفس تستريح الى ان اخر القران نزولا قوله تعالى من سوره المائده « **اليوم اكملت لكم دينكم واتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الاسلام دينا** » .

اسباب نزوله :

القران الكريم قسمان قسم أنزله الله تعالى غير مرتبط بسبب من الاسباب، بل هو لمحض هداية البشرية الى الحق وارشادها الى خير الدنيا ، وسعاده الآخرة ، وهذا القسم كثير يدركه المتتبع للقران بالتلاوة والدراسة . وقسم نزل مرتبطا بسبب من الاسباب .

وأسباب النزول هو مانسميه اليوم فى اللغة العصرية بما حول النص من ملابسات ومناسبات وظروف مختلفة بالنص الادبى الذى ندرسه .

وسبب النزول اذن هو ما نزلت الآية أو الآيات منحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه ، أي ان الآية أو الآيات انما تنزل لمناسبة من واقعات حياة الاسلام والمسلمين .

ولمعرفة أسباب النزول أهمية كبيرة فى فهم القران ، وقد قدر القدماء هذه الاهمية . فكان منهم من قال (بأن سبب النزول طريق قوي فى فهم معنى القران (8) وقد اخطأ من زعم انه لا فائدة فى معرفة الاسباب لانها لا تعدو ان تكون جارية مجرى التاريخ .

والطريق الى معرفة أسباب النزول هو النقل الصحيح لا غير ، (ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن عللها (9) فقد روى الواحدى بسنده عن ابن عباس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : (اتقوا الحديث الا ما علمتم ، فانه من كذب علي متعمدا فليتبوا مقعده من النار ، ومن كذب على القران من غير علم فليتبوا مقعده من النار) ومن هنا لا يحل القول فى أسباب النزول الا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ووقفوا على الاسباب وبحثوا عن علمها (10) .

زوله على سبعة أحرف :

كثيرا ما سئلت عن هذا الموضـــوع
صة من طرف الطلبة الوعاة المعنيين
ران ، وهو موضوع خطير شائك ،
ت رحالت فيه أقلام الفرسان مـــن
اء الثقافة الاسلامية من مختلـــف
ء العالم ، ومن المحققين الكبار من
بالموضوع وأفرده بالتأليف قديمـا
يثا ، نذكر منهم العلامة أبا شامـة
محققي القرن الســابع الهجـرى ،
لامة الشيخ محمد بخيت من محققي
ن الرابع عشر الهجرى ·

ليس لى من الشجاعة والســلاح
سمح لى بالنزول الى ميدان هـؤلاء
المسلحون بأقوى سلاح ، والمتفرغون
هذا الكفاح ، فحسبى أن أعرض هنا
أقوال المحققين ما يسلـط عـــلى
ضوع ولو بصيصا من نور

روى البخارى ومسلم ان عمر بـــن
طاب رضي الله عنه يقول (سمعت
ام بن حكيم ، يقرأ سورة الفرقـان
حياة الرسول صلى الله عليه وسلم
تمعت لقراءته فاذا هو يقرأها على
ف كثيرة لم يقرئنيها رسول الله صلى
عليه وسلم فكدت أساوره فى الصلاة
ظرته حتى سلم ، ثم لببته بردائـــه
ردائى ، فقلت . من أقرأك هـــذه
وره ؟ قال · اقرأنيها رسول الله (ص)
له . كذبت فوالله ان رسول الله (ص)
نى هذه السورة التى سمعتك تقرأها.
لقت أقوده الى رسول الله (ص)
فقلت يا رسول الله انى سمعت هـــذا
قرأ بسورة الفرقان على حروف لـــم
تقرئنيها ، وانت اقرأتنى سورة الفرقان
قال رسول الله (ص) ارسله يا عمـر
اقرأ يا هشام ، فقرأ هذه القراءة التى
سمعته يقرأها · قال رسول الله (ص)
هكذا انزلت ثم قال رسول الله (ص) ان
هذا القرآن انزل على سبعة احرف) ·
والاحرف جمع حرف وهو يطلـق فى
اللغة على معان كثيرة ذكرها صـاحب
القاموس . والحرف اذن من قبيل المشترك
اللفظى (والمشترك اللفظى يـراد بـــه
احد معانيه التى تعنيها القرائن وتناسب
المقام ، وانسب المعانى ـ التى ذكرهـا
اللغويون ـ بالمقام هنا الوجـــه فيكـون
المراد بقوله صلى الله عليه وسلم (انزل
القرآن على سبعة أحرف) على سبعـة
اوجه وهو مظهر من مظاهر رحمة اللـه
تعالى وتخفيفه على عباده ، وتيسيـره
لكتابه على كافة الشعوب الاسلامية مـن
كل جيل وقبيل ·

والوجوه السبعة على ماذكرالامـام
ابو الفضل الرازى فى (اللوائح) وهي
كما يـــلى .

الكلام لا يخرج عن سبعة أحرف فى
الاختلاف

1) اختلاف الاسماء من إفراد ، وتثنية ،
وجمع ، وتذكير ، وتأنيث ·

2) اختلاف تصريف الافعال من ماض
ومضارع وأمر ·

3) اختلاف وجوه الاعراب ·

4) الاختلاف بالنقص والزيادة ·

5) الاختلاف بالتقديم والتأخير ·

6) الاختلاف بالابدال ·

7) اختلاف اللغات (يريد اللهجات) كالفتح والامالة ، والتفخيم ، والترقيق ، والاظهار والادغام ، الى غير ذلك · وقد عد العلماء لهذه السبعة حسب ترتيبها بالامثلة التالية

فللاول بقوله تعالى « **والذين هم لاماناتهم وعهدهم راعون** » قرىء (لاماناتهم) (وأمانتهم) بالجمع والافراد ·

وللثانى بقوله تعالى « **فقالوا ربنا باعد بين أسفارنا** » قرىء (ربنا) بالنصب على انه منادى ، وقرىء (ربنا بعد) بالرفع على انه مبتدا وبتشديد عين بعد على انه ماض مضعف العين والجملة الفعلية خبر ·

وللثالث بقوله تعالى « **ولا يضار كاتب ولا شهيد** » قرىء بفتح الراء على ان لا ناهية والفعل مجزوم وانما فتحت الراء للادغام ، وقرىء بالضم على ان (لا) نافية فالفعل مرفوع ·

وللرابع بقوله تعالى . « **وما خلق الذكر والانثى** » قرىء هكذا بزيادة (ما خلق) وقرىء بنقصها (والذكر والانثى) ·

وللخامس بقوله تعالى : « **وجاءت سكرة الموت بالحق** » قرىء هكذا وقرىء (وجاءت سكرة الحق بالموت) ·

وللسادس بقوله تعالى « **وانظر الى العظام كيف ننشرها** » قرىء (ننشزها بالزاي) و (ننشرها) بالراء ·

وللسابع بقوله تعالى « **وهل اتاك حديث موسى** » تقرأ بالفتح والامالة (هى اتى ـ ولفظ ـ موسى) (11) ·

وتلك هي الوجوه السبعة التى نزل عليها القران · وللمحققين كلام طويل فى الموضوع (كما قدمنا) ، وما ذكرناه عنهم هو الخلاصة المختارة ·

كتّاب الوحي :

اتخذ الرسول صلى الله عليه وسلم كتابا يسجلون ما ينزل من القرآن وهم فضلاء الصحابة أشهرهم الخلفاء الاربعة (أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي) فكانوا يحفظونه فى الصدور كما يحفظونه فى السطور ، ولم يكن الورق معروفا فى عهدهم فكانوا يكتبونه على ما اتفق لهم من الجلود ، وجريد النخل ، وصفيح الحجارة ، وعريض العظام ·

القرآن مكى ومدنى :

لعلماء القران فى معنى المكى والمدنى كلام طويل ، وأهم ما يجدر بنا ذكره هو ان المكى ما نزل قبل الهجرة النبوية الى المدينة ولو نزل بغير مكة ، والمدنى ما نزل بعد الهجرة وان نزل بمكة ، وهذا ما ذهب اليه المحققون من العلماء ، وهو أضبط فى التقسيم ، وأحصر ، بحيث لا يرد عليه اعتراض ولا ترتقى اليه شبهة ·

ويبتدىء الدور المكى من (17) رمضان سنة 41 من ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم الى سنة 54 من ميلاده ايضا · وأما الدور المدنى فينتهى بوفاة الرسول ، ونسبة المدنى الى المكى كنسبة 11/30 نسبة كلية ·· والطريق الى معرفة المكى والمدنى من القران فمرده الى السماع عن الصحابة والتابعين · اذ لم يرد عن الرسول صلى الله عليه وسلم بيان للمكى والمدنى ، لان المسلمين لم يكونوا فى عهده بحاجة الى هذا البيان ، حيث كانوا يعيشون بأنفسهم الوحي والتنزيل ، ويعينون مكانه وزمانه · قال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه : (والله الذى لا اله غيره ، ما نزلت سورة من كتاب الله الا وأنا اعلم أين نزلت ؟ ولا نزلت آية من كتاب الله الا وانا اعلم فيما نزلت ؟ ولو أعلم أن أحدا اعلم منى بكتاب الله تبلغه الابل لركبت اليه) ·

ولكن هذا لا يمنع من معرفة المكى والمدنى ببعض الضوابط والعلامات ، فقد قالوا ـ مثلا ـ

ان كل سورة فيها لفظ (كلا) أو فيها سجدة فهي مكية ، وكل سورة فيها قصص الانبياء والامم السابقة فهي مكية سوى البقرة ، وكل سورة فيها قصة آدم وابليس فهي مكية سوى البقرة أيضا ·

وقالوا فى معرفة المدنى كل سورة فيها الحدود والفرائض ، أو فيها اذن بالجهاد ، وبيان لاحكامه ، فهي مدنية ، وهي بعض الضوابط والعلامات الكثيرة التى يهتدى بها الى المكى والمدنى ، ومن اراد استيفاء القول فيها فعليه بمظانها فى ابحاث القران ، وهي كثيرة ·

جمعه وتدوينه :

جمع القران فى الصدور ، وانتقش فى القلوب الواعية عندما كان ينزل منجما ، فقد كان النبى صلى الله عليه وسلم يأمر الصحابة بوضع كل اية فى موضعها ، فيقول لهم مثلا (ضعوها قبل اية كذا ، او بعد آية كذا ، حتى تتم السورة) ويعرضها على جبريل عليه السلام فيعارضه بها ، ثم يعرضها الرسول بعد ذلك على أصحابه ، وكان جبريل يعارضه بالقرآن فى كل عام مرة حتى عام الوداع فعارضه به مرتين ·

ويتضح من هذا ان ترتيب الآيات فى سورها كان بتوجيه من الرسول عن جبريل عن ربه ·

وانتقل الرسول الى الرفيق الاعلى والقران لم يجمع فى مصحف واحد ، وان كان كتّاب الوحي قد دونوه مفرقا فى الرقاع والالواح والعظام . كما تقدم انفا ·

وكان جماعة من الصحابة قد حفظوه على ظهر قلب فى عهد النبى · وقد نظم بعض العلماء أسماء عشرة منهم فقال

لقد حفظ القرآن فى عهد أحمد
علي ، وعثمان ، وزيد بن ثابت

أبيّ ، أبو زيد ، معاذ ، وحالد
تميم، أبو الدرداء، وابنٌ لصامت

وفى خلافة الصديق بعد وفاة الرسول (ص) وقعت حروب أهل الردة التى منها غزوة اليمامة ، وكان أكثر المحاربين فيها من الصحابة ومن حفظة القرآن فقتل فى هذه الغزوة كثير من الحفظة ، وخيف على القرآن من الضياع ، فأشار عمر بن الخطاب على أبى بكر الصديق بجمع القرآن فى مصحف خشية أن يذهب بذهاب الحفظة ، فتوقف فى بادىء الأمر ، فلم ير به عمر حتى اقتنع بسداد الرأى وصواب الفكر فدعا زيد بن ثابت ، لأنه كان ألزم الصحابة لمجلس الرسول ومن أحفظهم للقرآن ، فكلفه بجمعه ، فجمع كل الصحف ، فى مصحف واحد عبر مرتب السور ، واحتفظ أبو بكر بتلك الصحف الى أن توفى ، فانتقلت الى عمر بن الخطاب ثم جمعها عند بنته حفصة ...

وفى عهد عثمان رضى الله عنه انتشر المسلمون فى الآفاق ، واختلط العرب بالعجم ، وكثر قراء القرآن فى مختلف الاقاليم التى فتحها المسلمون ، واختلفت لهجاتهم حتى صار بعضهم يخطىء الآخر فى قراءته ، أو يقول قراءتى خير من قراءتك ، فأشار حذيفة بن اليمان على عثمان بتدارك الأمر ، فوقف عثمان عند مشورته ، وأمر باستحضار الصحف ، ووكل الى زيد بن ثابت وجماعة ممن اشتهروا بالحفظ والضبط والدقة فجمعوه ، ونسخوا منه صورة رتبوا سورها على الذى نقرأه الآن ، وكتبوا من هذه الصورة خمس نسخ ، أبقوا فى عثمان واحدة بالمدينة ، وبعث بأربعة الى مكة ، والكوفة ، والبصرة ، والشام ، وهذا هو المشهور ، خلافا لمن رأى انها أربعة .

ومما نقدم عرضه - من ظروف التدوين ، وعناية الصحابة بالقرآن حفظا ، وفهما وكتابة - تتجلى لنا أصالة القرآن وصحة نصوصه ، تلك الميزة التى انفرد بها هذا الكتاب دون غيره من الكتب السماوية الاخرى . وهي ميزة سجلها كثير من الكتاب الغربيين باعجاب ، حيث قالوا (ان لأصالة نص القرآن مكانة منفردة بين كتب الوحي لا ينازعه فيها العهد القديم ولا الجديد) (12) .

القرآن آيات وسور :

تطلق الآية فى اللغة ويراد بها عدة معان

(المعجزة) قال الله تعالى **سل بنى اسرائيل كم آتيناهم من آية بينة** » .

(العلامة) قال الله تعالى **ان آية ملكه ان يأتيكم التابوت فيه سكينة من ربكم** » .

(العبرة) قال الله تعالى « **ان فى ذلك لآية ...** » .

(الأمر العجيب) قال الله تعالى « **وجعلنا ابن مريم وأمه آية** » .

(البرهان والدليل) قال الله تعالى « **ومن اياته خلق السماوات والارض** » ·

(الجماعة) ومنه قول الشاعر

خرجنا من النقيبين لا حي مثلنا
بآياتنا نرجى اللقاح المطافلا

اي خرجنا (بجماعتنا) نسوق سوق النوق وصغارها ·

والاية من القرآن جماعة من الحروف مكونة بتراتيب خاصة وصور مستقلة تحدث البشر فاعجزته · والمناسبة بين هذا المعنى والمعانى اللغوية المذكورة واضحة . فالاية القرآنية معجزة وعلامة على صدق من جاء بها . وعبرة لمن اراد ان يتذكر ويعتبر . وهي من الامور العجيبة (سموها واعجازها واثرها وحلاوتها) . وفيها ايضا معنى الجماعة ـ كما قدمنا ـ لانها مولفة من الحروف ·

اما السورة فلاهل اللغة والتفسير كلام طويل في اصلها واشتقاقها ومعناها. وبعضهم همزها . وبعضهم ترك همزها. ويرجح انها من أصل سامى ، اشترك فيها العرب وغيرهم (13) · وقيل انها من أصل (صورت) السريانى تسربت الى العرب الحجازيين عن طريق السريانيين (14) اللاجئين الى الحجاز، ولا تزال الى اليوم عندهم تدل على الوحي المنزل المجهور به · وقد افاض العلماء فى هذه المباحث حتى المستشرقون (15) ·

وفى لسان العرب . السورة هي كل منزلة من البناء ، ومنه سور القرآن الكريم لانها منزلة مقطوعة بعد منزلة مقطوعة عن الاخرى ·

ولكل سورة من القرآن اسم خاص بها . فهي اما ان تسمى بأول كلمة فيها مثل سورة طه ، ويس ، والصافات ، و ص ، والفجر ، والضحى ، والشمس. والليل ، والتين ، والقارعة ، والعاديات. والعصر ، الخ ·

واما ان تسمى باسم شيء أو لفظ له ذكر وارد فى اثناء السورة بعد أوائل اياتها ، مثل سورة ، البقرة ، والنساء . والنحل . والكهف ، ومريم ، وابراهيم ، ومحمد ، الخ ·

واما أن تسمى بلفظ له منطوق فى أوائل اياتها كسورة الاسراء ، والانفال، وعافر ، وفصلت ، وفاطر ، الخ ··

واما ان تسمى بمعنى خاص ملحوظ فيها من غير ان يكون له ملفوظ مذكور فى اياتها ، مثل سورة الفاتحة ، سميت بذلك لانها أول الكتاب وفاتحته ، وسورة الاخلاص لانها فى جملتها داعية الى الاخلاص لله وحده لا شريك له ـ وليس فى القرآن غير هاتين السورتين شيء آخر من السور بمعنى ملحوظ لا بلفظ ملفوظ ·

واما أن تسمى بأسماء مواضيعها كسورة الطلاق. والتحريم، ونحو ذلك ··

أما معانى فواتح السور القرانية فقد قيل فيها كلام طويل ، وما يزال المجال واسعا امام المفكرين والباحثين من جميع

النحو والمذاهب · ولاهمية الموضـــوع
لاحظ ان من العلماء من راى ان بعـض
لفواتح رمز لاسماء الله تعالى ، ومنهم
من قال انها للدلالة على ان القران مؤلف
من مثل الحروف (الم) (حم) (يس ،
ق) و (ص) التى عرفها العرب . ومع
ذلك فقد عجزوا عن الاتيان باقصر ســورة
منه · وبهذا الراي اخذ المبرد وتبعه كثير
من العلماء (16) . كما اخذ به العــراء
ايضا (17) · وقال الكلبى انها قســم ·
ويرى ابن قتيبة فى ذلك أن يكون اللــــه
اقسم بالحروف المقطعة كلها ، واقتصــر
على بعضها من ذكر جميعها ، وهــو
يريد جميع الحروف المقطعه كما يقول
القائل تعلمت ا ، ب ، ت ، وهــو
لا يريد تعلم هذه الحروف الاربعة فقــط
دون غيرها · وتقول (فــرات الحمــد)
وتريد الفاتحة (18) · وتناول ابن ابى
الاصبع فواتح السور بالتحليل والتفسير
واتى بالعجب العجاب ، حيث بحثها بعقل
الفلكى الريــاضى ، فبيــن عددهــا ،
واقسامها ، وأصولــها من الحروف ·
وينتهى (الدكتور حفنى محمد شرف)
فى تعليق له على راي هذا النابغــة ·
ان بعض الفواتح بسورها وحروفهــا
والعدد الذى يحصها مشيره الى الصانع
والمصنوعات من جميع أحوال الدنيــا
والآخره وعوالمها وكل موجود فيهمــا
الآن وما وجد من قديم الزمان وما يوجد
بعد فناء الاكوان (19) · وتوضيح ذلك
كله لا يسعه المقام ·

اما العالم الكيميائى المصرى الدكتور
رشاد خليفة الذى يعيش فى أمريكا فان
له رايا جديدا فى هذه الحروف توصــل
اليه بعد تجربة طويلة مثيرة . استخدم
فيها العقــول الالكترونــية . وهي اول
تجربة من نوعها وتعد جريئة فى محاولة
تفسير هذه الحروف ·

وقد قام الدكتور رشاد بتسجيل نتائج
ابحاثه فى مكتبة الكونجرس الامريــكى
تحت رقم (27386) ، وكان من اهــم
اعتراضه فى هذه المحاولة الفذة أن يطلع
العالم الغربى على نتائج ابحاثه الــتى
اكدت معجزه القران الكريم ·

ولقد سئل الدكتور رشاد بعد انتهائه
من هذه التجربة عما اذا كان قد وجد
تفسيرا لفواتح السور فقال

(ان العمليات الحسابية التى قام بها
العقل الالكترونى خلال ثلاث سنوات قد
أثبتت ان القرآن الكريم قد وضع للناس
طبقا لحساب غاية فى الدقة والتعقيد ،
بحيث يستحيل ان يكون من صنع البشر ··
كما ثبت ان كــل حــرف من الحروف
الابجدية فى كلماته قد تم اختيار زمانه
طبقا لعــدد من القواعد الحسابيــة
المتداخلة ·· وان القرآن كتاب أحكمت
اياته ثــم فصــلت مــن لــدن حكيــم
خبير) · (20)

ودلت عملية الاحصاء الاليكترونيــة
ان استهلال (سورة بحروف معينة يقابله
دائما تفوق حسابى لمعدل توارد وتكرا

هذه الحروف فى نفس السورة) فحرف (الصاد) مثلا متفوق حسابيا فى سورة (ص) وحرف (القاف) متفوق حسابيا فى سورة (ق) وحرف (النون) متفوق حسابيا فى سورة (القلم) وهي (ن والقلم وما يسطرون) ·

ويطول بنا المقام اذا نحن تتبعنا السور المبدوءة بحرف والمبدوءة باكثر من حرف · (الم) (المر) (يس) (حم) الخ · فيكفى أن نلاحظ ان العقل الالكترونى أثبت ان الاحرف فى هذه الفاتحة (كهيعص) التى بدأت بها سورة مريم تتفوق فيها الاحرف (ك ـ هـ ـ ي ـ ع ـ ص) على بقية أحرف فى غيرها فى سور القرآن المختلفة ·

عناية المسلمين بالقرآن :

لم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره امة فى العالم عنيت بكتاب سماوى أو أرضى كالامة الاسلامية ، ولا سيما فى العهود الاولى ، ولم يعرف التاريخ فى مختلف عصوره كتابا سماويا أو أرضيا أحيط بسياج من الرعاية والتقديس بمثل ما أحيط به القرآن الكريم ·

فقد كانت تنزل الآية أو الآيات فيحفظها النبى ثم يتلوها عند نزولها على المحيطين به ، ثم يأمر عشرة بتدوينها ، فلما جمع القرآن وارسلت منه مصاحف الى مكة والكوفة والبصرة والشام (21) أقبل المسلمون فى ظما وتلهف على تلك المصاحف ينسخون عنها مصاحفهم · وقد كتب عبد العزيز بن مروان (أمير مصر) مصحفا بالغ فى ضبطه ، وأعلن ان من وجد فيه خطأ كان له فرس وثلاثون دينارا ، فوجد فيه أحد القراء كلمة (نجعة) مكان (معجة) فماز الجائزة (22) ·

أما تعلق السلف بالقران وشدة حرصهم على حفظه وتلاوته واستظهاره واستماعه ، فشيء يكاد لا يرتقى اليه الخيال · قال الامام الشافعى رضي الله عنه (رأيت سفيان بن عيينة قائما على باب كتاب فقلت له ما تصنع هنا ؟ قال . أحب أن أسمع كلام ربى من فم هذا الغلام) ·

وبلغ تعلق المسلمين بالقرآن وعنايتهم به فى مختلف العصور أقصى الحدود ، فلم يكتفوا بحفظه وفهمه والكشف عما فيه من علوم ومعارف واسرار ، واحصاء كلماته وحروفه ، بل أحصوا ايضا المرار التى ورد فيها كل حرف من أحرف الهجاء · ونحن نورد ذلك فيما يلى ، ليعتبر ابناؤنا وبناتنا الذين لا يعرفون حتى عدد سور القرآن الكريم وأجزاءه

الكلمات	73440
الحروف	722332
الالفات	40792
الباءات	1140
التاءات	1299
الثاءات	1891
الجيمات	3293
الحاءات	1179
الخاءات	2419

الدالات	4399
الذالات	4840
الراءات	10903
الزايات	9583
السينات	4591
الشينات	25133
الصادات	1284
الضادات	1200
الطاءات	840
الظاءات	9320
العينات	1020
الغينات	7499
الفاءات	2500
القافات	5230
الكافات	22000
اللامات	14591
الميمات	205610
النونات	2036
الواوات	13700
الهاءات	700
الياءات	502

ترجمة القرآن :

اشتد الجدل ، وكثر النقاش بين أهل العلم قديما وحديثا حول ترجمة القرآن الى اللغات الاجنبية ، فذهب جمع منهم الى التحريم محتجين بأن ذلك بدعة يترتب عليها ضرر كبير ، اذ ان ذلك يؤدى الى ترك المسلمين ـ من غير العرب ـ تعلم اللغة العربية ، ويقتصرون فى تعلم القرآن على الترجمة ، وهذا سيفضى حتما الى الاختلاف فيه ، لان الترجمات قد لا تتفق ، فيحدث بذلك للمسلمين ما حدث لبنى اسرائيل من اختلاف نسخ التوراة السامرية والعبرانية والسريانية واليونانية ، بالاضافة الى ان معانى القرآن الكريم كثيرة عميقة ، فيتعذر على المترجم أن يحيط بها حتى يترجمها ترجمة دقيقة وافية تتسم بسمة القرآن ، وتحمل طابعه فى اعجازه اللفظى والمعنوى ، وتعوص فى اعماقه ، لتصور دقائقه واسراره . وقد قالوا :

ان أشهر وأدق ترجمة للقران فى اللغة الفرنسية ترجمت فيها هذه الآية « **أحل لكم ليلة الصيام الرفث الى نسائكم هن لباس لكم وانتم لباس لهن** » فكانت الترجمة هكذا . (هن بنطلونات لكم وانتم بنطلونات لهن) وكيف يمكن أن نترجم هذه الكنايات الدقيقة بشرح وبسط ، تؤدى فيه الكلمة الواحدة بجمل طويلة (24) وامثال هذه الكنايات وجه من وجوه اعجاز القرآن للغات العالم كله .

وذهب آخرون الى جواز ترجمة القرآن ، بل دعوا الى ذلك فى حث وترغيب ، فمنهم الامام أبو حنيفة الذى يقول بترجمة القرآن وبصحة الصلاة بالترجمة ، وعلى هذا الدرب سار كافة الحنفية ، ومنهم الامام الشاطبى الذى استدل فى الموافقات على جواز الترجمة بالقياس على ما أجمعت عليه الامة من تفسيره للعامة ، ومنهم الامام البخارى

الذى استدل فى صحيحه على جـــواز ترجمة القرآن الى لغات الاعاجم بالقياس على ما كان من ترجمـــة التـــوراة الى العربية بحضرة الرسول صلى الله عليه وسلم · (25)

هذا موقف القدماء من ترجمة القرآن، فما هو موقف العلماء المعاصرين منها ؟

لقد ثارت مناقشات حادة منذ ما يقرب من نصف قرن بين علمـــاء الازهـــر ، واحتدمت بينهم معركة جدلية عنيفة كان السلاح فيها العقل والقلم واللسان ، وانتهت بأن قررت مشيخة الازهر ترجمة تفسير القرآن ، وتألفت لجنة من كبـــار العلماء ورجـــال مـــن وزارة المعـــارف المصرية لوضـــع تفسير عربى دقيـــق ، ووضعت دستورا تسير عليه لتحقيـــق هذا العمل الضخم الجليل ، وبعثت به الى كبار العلماء والجماعات الاسلامية فى أرجاء العالم الاســـلامى ليدلـــوا بآرائهم فى هذا الدستور (27) · وقـــد نشرت مجلة الازهر هذا الدستـــــور وقواعده فى عددها (648 ـ 649) ·

والرأي الصحيح الذى يركن اليـــه العقل ويستسغيه ، وترتاح اليه النفس وتطمئن اليه ، وتقتضيه الدعوة الاسلامية بطبعها العالمى ، هو جواز ترجمـــــة القرآن بل وجوبها الضرورى الاكيـــد ، لما يترتب على ذلك من فائدة تختـــفى بجانبها المضرة ولكن بشروط لابد مـــن توفرها فى المترجم ، وهذه أهمها :

ـ أن يكون على دراية تامة، ومعرفة مستبحرة باللغة العربية واللغة الـــتى يترجم اليهـــا ·

ـ أن يكون عليما بدقائق العربيـــــة وأسرارها من نحو وصرف واشتقـــاق وبلاغـــة ·

ـ وان يكون واسع الافق باسبـــاب النزول مع تمكنه من اللغـــة الاجنبيـــة من حيث أحوالها وقواعدها وأساليبها والفاظها وادابها ، حتى تتهيأ لـــه امكانيات الترجمة المنشودة ·

بل هناك من رجال العلم فى العصـــر الحاضر من افتى بجواز ترجمة القران الكريم مطلقا ولو كانت الترجمة مقتصرة على بيان أصل المعنى المدلول عليـــه بالصراحة ، أو بالظاهـــر للجملـــة المترجمة ، ولو خلت من بيان الدقائق والمعانى التى لا يتفطن لها الا مهـــرة العلماء ·

ومن ارتأوا هذا الراي العالم المغربى الاستاذ محمد بن الحسن الحجـــوى ، من علماء العصـــر الحديـــث ويقـــول بالخصـــوص ·

(ان ترجمته من الامور المرغـــوب فيها ، وانها من فروض الكفاية التـــى يجب على الامة القيام بها ، فاذا قـــام بها البعض سقط عن الباقين القيام بها. ولم يكن عليهم حرج ، وان لم يقم بهـــا احد أثم الكل) (30) ·

وبالرغم من الصعوبات الكثيرة المتنوعة التي تواجه من يتصدى لترجمة القرآن ويمارسها . فقد ترجم الى عدة لغات شرقية وغربية تجاوزت أربعين ترجمة ..

وقد دخل القرآن الكريم الى أوروبا عن طريق الاندلس (اسبانيا) . وأول ترجمة له هي التي ترجمها العلامة (روبرت كنت) الى اللغة اللاتينية (لغة العلم والادب انذاك في أوروبا سنة 1143) واستعان على ترجمته بعالمين عربيين هما بطرس الطليطلي ، وسمعان المالطي ، ولكن الكنيسة ورجال الحكم لم يسمحوا للقراء باقتنائه ومداولته الا مصحوبا بالردود عليه. (31) واصدر (هنكلمان) ترجمة سنة 1594 ، ثم جاءت على الاثر سنة 1598 طبعة (مراتشي) مصحوبة بالردود ، وبعد هذا أخذ القرآن في الظهور مترجما الى اللغات الاوروبية الحديثة (انجليزية ، وفرنسية ، والمانية ، وايطالية ، وهولندية ، وروسية ، حتى لا تخلو الآن لغة من ترجمة أو ترجمات للقرآن . (32)

ومن أقدم هذه الترجمات ترجمة (سالى) الى الانجليزية سنة 1734 ، ثم ترجمتها القاديانية والاحمدية اللاهورية في القرن العشرين باللغة الانجليزية .

ومن التراجم الحديثة للقرآن ترجمة ايطالية لبوللى (ميلانو 1929 وأخرى باللغة التشيكية) ا. رنكيل 1934 وثالثة باللغة الانجليزية (مولاي شير على بباكستان 1955) .

وينبغي بعد هذا العرض الوجيز لتراجم القرآن ألا ننسى ان نلاحظ ملاحظتين

الاولى ـ ان ترجمة القرآن في بداية الامر لم تكن الا للرد والتمكن من الطعن فيه . فان أعداء الاسلام الكثيرين جندوا وما يزالون يجندون عقولهم وأقلامهم لمحاربة الاسلام والطعن في دستوره . وأمامي الآن عشرات من الكتب والابحاث والدراسات التي تفيض سما وحقدا على القرآن ، كتبها أمثال (ادوارد فرمان) و (ادوين كالفرني) و (ارثر جيفري) و (ارنولد توينبي) .

الثانية ـ ان بعض التراجم ـ المذكورة وغير المذكورة ـ بعيدة عن الروح العلمية التي يجب أن يتسم بها الباحث وخادم الحقيقة ، فكانت مشوهة بالتحريف والتزييف .

محتويات القرآن :

من تتبع القرآن الكريم بتأمل ووعي، وجده كتاب البشرية جمعاء في مختلف الامكنة والازمنة ، في حالها العاجل ، ومصيرها الآجل ، في حضارتها وبداوتها، في قصورها وخيامها ، ويحتوى من الآيات ما يفتح العيون ، ويقرع الآذان، ويهز المشاعر ، ويوقظ القلوب ، ويحيي الضمائر ، ويشرح الصدور ، ويهذب النفوس ، ويلقح العقول ، ويرقى

المدارك ، ويجلو الصدأ عن الارواح ، ويضمن العزة والكرامة ، ويقى من التردى والضياع · غير انه يمكن حصر محتوياته فى ثلاثة أصول أساسية ، تتفرع عليها سائر الاغراض والمقاصد الاخرى :

1) العقائد وما يتعلق بها من أصول الدين كالايمان بالله ، وملائكته ، وكتبه، ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة ، والنار ، والصراط ، والميزان ، والحشر، والنشر ، والثواب ، والعقاب · وقد جاء ذلك كله فى أسلوب محكم وآيات مفصلات ·

2) الشرائع وكل ما يتعلق بافعال الجوارح من الاوامر والنواهى ، وهما قسمان : العبادات والمعاملات ، فالاولى هي التى تتعلق بصلة العبد بربه ، وأما الثانية فهي التى تتعلق بصلة العباد والافراد بعضهم ببعض ، وكلا القسمين معروض فى مختلف السور القرآنية ، فى عبارات بليغة ، وأسلوب مشرق ، وآيات بينات ·

3) الفضائل الخلقية والآداب الاجتماعية، ، التى بها تسمو الارواح ، وتتهذب النفوس ، وتستقيم الطباع ، وتحسن الشمائل والخلال ، فتنتظم المجتمعات البشرية ، ويسودها التفاهم، والمحبة ، والعدل ، والجمال ·

وقد فصل ذلك كله فى آيات بينات كانت منطلق علماء الاخلاق فى ابحاثهم وكتبهم وأعمالهم ·· كما كانت آيات العقائد والشرائع ارضية لكل اعمالهم الفكرية ، وثمارهم العقلية ، التى تزخر بها المكتبات الغنية فى مختلف أنحاء العالم ·

وقد أقر مؤتمر المستشرقين المنعقد بأكسفورد سنة 1347 هـ النظم القرآنية وهي كما يلى · (33)

1) العقائد، 2) الفرائض الدينية ، 3) الاوامر والنواهي ، 4) الانذار والتبشير ، 5) الجدل والتحدى ، 6) القصص ، 7) التشريع ، وهو أقسام أ) التشريع السياسى ، ب) التشريع الجنائى ، ج) التشريع الحربى ، 8) المواعظ والارشاد ·

ومن تأملها وجدها ترجع الى الاصول الاساسية المذكورة ·

قراءات القرآن :

القراءات جمع قراءة وهي الطريقة التى يتلى عليها القرآن وينطق بالفاظه، مخففة ، أو مشددة ممالة ، أو مشمومة، ممدودة ، أو مقصورة ·

ولابد فى القراءة من التلقى والسماع ··

والقراءات على نوعين : 1 مقبولة ، وهي التى ثبتت بالاجماع والتواتر ووافقت رسم المصاحف العثمانية ، ومنها القراءات السبع الصحيحة ـ ، وهي قراءات (أبو عمرو بن سليمان) شيخ الرواة المعروف بحفص ، وحمزة، والكسائى ، وعاصم ، وابن عامر ، وابن كثير ، ونافع ·

وقراءات هؤلاء السبعة هي المتفق عليها اجماعا ولكل منهم سنـــد فى روايته وطريق فى الرواية عنه ، وكـــل ذلك محفوظ مثبت فى كتب هذا العلـــم (فن القراءات) ٠

وقد يضاف الى هذه القراءات ثلاث فتصبح عشرا وهي رواية ابى جعفـــر يزيد بن القعقاع المدنى ، ويعقوب بـــن اسحاق الحضرمى ، وخلف بن هشام بن ثعلب ٠٠ وقراءة هؤلاء صحيحة متواترة ايضا (34) ٠

التفسير والمفسرون :

التفسير هو الايضاح والتبيين ومنـه قوله تعالى ٠ « **ولا يأتونـك بمثـــل الا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا** » ويطلق على الكتب التى تشرح كتبا أخـــرى (كشروح كتب أرسطو ـ مثلا ـ الـتى ترجمت الى العربية ٠

ويراد بالتفسير عند الاطلاق العلـم الذى يوضح كتاب الله ، ويبين معانيه ، ويستخرج أحكـامـه ، وحكـمـه ٠٠٠ والتأويل مرادف للتفسير فى أشهـــر معانيه اللغوية يقال ٠ اول الكلام تأويلا، وتأوله : تدبره وقدره وفسره ومنه قوله تعالى : « **فاما الذين فى قلوبهم زيـــغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنـــة وابتغاء تأويله ، وما يعلم تأويله الا الله**» ويرى الماتريدى ان التفسير مبايـــن للتأويل : فالتفسير هو القطع بأن مراد الله تعالى من الآية كذا ، والتأويـــل ترجيح أحد المحتملات بدون قطع، والذى يبدو ان التفسير للالفاظ ، والتأويـــل للمعانى البعيدة المستنبطة وهناك أقوال كثيرة فى الموضوع يراجعها فى مظانها من يريد التوسع ٠ (36)

والتفسير على نوعين ٠ تفسير جاف عقيم هامشى لا يتجاوز شرح الالفاظ واعراب الجمل وبيان ما يحتويه نظـــم القرآن من صور البلاغة واشارات فنية، وهذا النوع من التفسير لا يختلف كثيرا عن التطبيقات العربية ، ولا يشعر قارئها الا بما يشعر به قارىء كتب القواعـــد العربية ٠

وتفسير تتموج فيه روح الحياة، وتتهلل عليه اشراقات الهداية ، وتبثق منه أنوار الحكمة والرشد والخير ٠٠٠ تفسيـــر خصب مشرق يتجاوز هذه الحدود أو يمر عليها كجسر الى الآفاق العليـا . فيجعل هدفه الكشف عن تعاليم القـرآن، والغوص على أسـراره ومكنوناتـــه . واستجلاء كنوزه ودفائنه ، على طريقة تفتح القلوب ، وتجتذب الارواح وتجلو البصائر ، وهذا النوع من التفسير هو الجدير بالاقتناء ثم بالعناية والاهتمام، والعالم به حقيق بكل تقدير ، لانـــه استطاع بقدرته العلمية والبيانية أن يرفع الستار عن كنـوز القرآن وذخائـــرد ، ويقدمها الى الافهام واضحة مجلوة ، فيها هدى ونور ، وفيها شفاء لمـا فى الصدور (فالقرآن الكريم حجة اللـــه البالغة على دينه الحق ، فلا بقـــاء

للاسلام الا بفهم القرآن فهما صحيحا ، ولا بقاء لفهمه الا بحياة اللغة العربية · (37)

والقرآن الكريم وان نزل بلغة العرب الا انها تعلو عن مستوى العامة من العرب ، ولذلك كان الناس فى العهد الاول من الاسلام يسألون كبار الصحابة عن تفسيره ، وشرح الغريب من الفاظه ·

فهذا الصحابى الجليل عبد الله بن عباس كان يسأل عن ألفاظ من القرآن ، فيفسرها للسائلين ، ويستشهد على تفسيرها بالشعر العربى ، فلقد قال الامام السيوطى فى كتابه (الاتقان فى علوم القرآن) انه (بينما عبد الله بن عباس جالس بفناء الكعبة قد اكتنفه الناس يسألونه عن تفسير القرآن · فقام نافع بن الازرق لنجدة بن عويمر : قم بنا الى هذا الذى يجترىء على تفسير القرآن بما لا علم له به ، فقاما اليه ، فقالا انا نريد أن نسألك عن أشياء من كتاب الله فتفسرها لنا وتاتينا بمصادقة من كلام العرب ، فان الله تعالى انما أنزل القرآن بلسان عربي مبين فقال ابن عباس : سلانى عما بدا لكما · فقال نافع · اخبرنى عن قول الله تعالى : « عن اليمين وعن الشمال عزين » قال . (العزون) حلق الرفاق · قال : وهل تعرف العرب ذلك ؟ قال : نعم · أما سمعت عبيد بن الابرص وهو يقول ·

فجاءوا يهرعون اليه حتى
يكونوا حول منبره عزينا

قال : اخبرنى عن قوله تعالى : ، وابتغوا اليه الوسيلة ، قال : (الوسيلة) الحاجة · قال : وهل تعرف العرب ذلك قال : نعم ، أما سمعت عنترة وهو يقول :

ان الرجال لهم اليك وسيلة
ان يأخذوك تكحلى وتخضبى

ويمضى نافع بن الازرق يسأل وابن عباس يشرح ويفسر ويستشهد على ما يقول بأبيات من الشعر العربى فى حوالى مائتي لفظة من ألفاظ القرآن الكريم · (38)

ومن هنا تتبين لنا أهمية الشعر العربى فى فهم الغريب من ألفاظ القرآن ، كما يتبين لنا خطأ بعض المتشدقين من المعاصرين الذين ينعون علينا تمسكنا بالشعر العربى القديم وروايته وحفظه ، ويرون فى ذلك اضاعة للوقت فى شىء قد مضى عهده ، وفاتهم ان الشعر العربى مفتاح مغاليق الالفاظ والاساليب الغريبة فى كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم · وقد قال ابو حاتم الرازى : (ولولا ما بالناس من الحاجة الى معرفة لغة العرب والاستعانة بالشعر على العلم بغريب القرآن وأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة والتابعين والائمة الماضين ، لبطل الشعر ، وانقرض ذكر الشعراء، ولعفى الدهر على آثارهم ونسي الناس أيامهم · (39)

ويقول ابن عباس : (الشعر ديوان العرب فاذا خفى علينا الحرف من القرآن الذى أنزله الله بلغة العرب ،

رجعنا الى ديوانها فالتمسنا معرفة ذلك منـــه · (40)

واشتهر بالتفسير عشرة من الصحابة الكرام . الخلفاء الراشدون ، وابـــن مسعود . وابن عباس ، وأبي بن كعب. وزيد بن ثابت ، وابو موسى الاشعرى . وعبد الله بن الزبير ·

اما الخلفاء فاكثر من روى عنه منهم علي بن ابى طالب كرم اللـه وجهـه . والرواية عن الثلاثة قليلة جدا ، وكان السبب فى ذلك تقـدم وفاتهـم · وورد تفسير عن طائفة من الصحابة منهم أنس وابو هريرة وابن عمر وجابر وعمرو ابن العاص وام المؤمنين عائشة رضي الله عنهم أجمعين ، ولكنه قليل · (41)

واكثر الصحابة تفسيرا للقرآن الكريم ابن عباس أيضا ، ولعل ذلك لتأخر الزمان به ، حتى امتد ظلال الاسلام ، واستبحر العمران ، واشتدت الحاجة الى الاخـذ عنه ، ولتفرغه ايضا للدعوة والتعليـم والارشـــاد ·

ويعتبر ابن عباس ترجمان القـــرآن الكريم ، ويشهد بذلك من نزل عليـــه الوحي · فعن مجاهد قال : ابن عباس . قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم (نعم ترجمان الفرآن أنت) واخرج البيهقى فى الدلائل عن ابن مسعود رضي اللـه عنه قال : (نعم ترجمان القرآن عبد الله بن عباس) وقد دعا له النبى (ص) بقوله : (اللهم فقهه فى الدين وعلمه التأويل)

ثم جاء مفسرون كثيرن يتعاقبون على مسرح الحياة كل بطريقته ومنهاجـه ، وكل بكفاءته ومقدرته ، وكل قد ساهـم بالجهد المستطاع فى استخراج كنـــوز هذا الكتاب وذخائره ، لتوضع للانسانية اسسا واصولا لحضارتها المجيدة الحقة·

أشهر التفاسير :

ومـن أشهـــر التفاسيـــر فى القديـم والحديث (تفسير ابن جرير الطبرى) 224 ـ 310 قال النـووى فى تهذيبـــه (كتاب ابن جرير فى التفسير لم يصنف أحد مثله ·

وقال أبو حامد الاسفراييني شيـــخ الشافعية « لو رحل أحد الى الصيـــن ليحصل تفسير ابن جرير لم يكن ذلـــك كثيرا عليه » ·

تفسير الامام جلال الدين السيوطى (الـدر المنثور فى التفسير بالمأثور) وقد ذكر فى مقدمته انه لخصه من كتاب (ترجمان القرآن) وهو التفسير المسند الى الرسول صلى الله عليه وسلم ·

تفسير ابن كثير (وهو من أصـــح التفاسير بالمأثور ان لم يكن أصحهـــا جميعـــا) ·

تفسير بقى بـن مخلـــد الانـدلسى القرطبى وهو من أعلام الثقافة الاسلامية المشاهير قال ابن حزم (اقطع انه لـــم يؤلف فى الاسلام مثل تفسيره، لا تفسير ابن جرير ولا غيره) ولكن المؤسف انـه لم يكتب له البقاء ولم يحظ بما حـظي به تفسير ابن جرير من البقاء والخلود ولم نعرفه الا على ضوء ما كتب عنـــه العلمـــاء ·

تفسير (الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل) للامام العلامة جار اللـــه

محمود الزمخشرى · قال الامام السيوطى فى (شواهد الابكار) بعد ذكر قدماء المفسرين . ثم جاءت فرقة أصحاب نظر فى علوم البلاغة التى بها يدرك وجه الاعجاز وصاحب الكشاف هو سلطان هذه الطريقة) ·

وقد جاء تفسيره آية فى البيان العربى الاصيل ، ولذا نال الشهرة الواسعة، والصيت الذائع فى مختلف أنحاء العالم الاسلامى · وقد أدرك الزمخشرى هذه الحظوة الكبيرة التى حظي بها تفسيره فسجل ذلك فى هذين البيتين تحدثا بنعمة ربه وشكرا له على مننه ·

ان التفاسير فى الدنيا بلا عدد
وليس فيها لعمرى مثل كشافى
ان كنت تبغى الهدى فالزم قراءته
فالجهل كالداء والكشاف كالشافى (41)

تفسير (روح المعانى) المشهور بتفسير الالوسى لعمدة المحققين مفتى بغداد وامام أهل العراق العلامة شهاب الدين محمود الالوسى وهو من أعظم التفاسير الحديثة ان لم نقل أعظمها علما ، واجادة وبراعة ودقة وصحة ولا بدع فى ذلك (وكم ترك الاول للآخر) ·

تفسير المنار . لفريد عصره وعلامة زمانه الامام المصلح السيد رشيد رضا ، وقد جرى فيه على الطريقة التى سلكها فى التفسير حكيم الاسلام الامام محمد عبده ، وقد كانت دروسه فى التفسير فتحا جديدا فى الدين حيث كان يلفت أنظار المسلمين الى هداية القرآن ، ويوقظ ضمائرهم ، ويثير عقولهم بصيحاته التى تدوى فى أرجاء الجامع الازهر ·

وقد كانت أغلى أمنيات الاستاذ رشيد رضا أن يتمدد أجله حتى يكتمل تفسيره ويراه كالمصباح المنير يبدد الظلام ، وينير الطريق أمام المدلجين ، ولكن الشيخ اختفى ولم تتحقق له هذه الامنية فترك تفسيره ينتظر من أعلام الاسلام من يتقدم اليه بفكر ثاقب ، وعلم واسع، وهمة عالية ، وجد دائب ، فيتمه على النهج الذى سار عليه صاحبه ·

ولكن يبدو ـ لحد الآن ـ ألا أحد يأنس فى نفسه الشجاعة والكفاءة والقدرة على التضحية بالوقت والراحة والجهد· ولذلك سيبقى هذا التفسير ينتظر حتى يمن الله على المسلمين بمن يخلف الرشيد فى رشده وعلمه وجهاده ، وعزيمته ورغبته الشديدة فى خدمة المسلمين ودستورهم ·

وصدق الكاتب الاسلامى الكبير محب الدين الخطيب فى قوله من كلمة أبن بها المرحوم الاستاذ رشيد رضا . (آفتنا نحن ـ المسلمين ـ فى هذا العصر أن تموت أعمالنا بموت مؤسسيها . فالخطب الذى نزل بنا بوفاة السيد رشيد كنا نعرف انه سينزل وان لم نعلم متى ينزل ، أما الخطب الذى لا يزول الله فهو ان يكون الميدان خاليا الآن ممن يعتمد عليه فى نماء الاعمال التى أسسها السيد ، ولا سيما اكمال التفسير الذى

أصدر منه هذا الراحل الكبير (12) جزءا وشرع فى جزئه (13) ، وما أظن ان مسلما خدم الاسلام فى هذا العصر مثل ما خدمه السيد رشيد بهذا التفسير العظيم · (43)

والحديث عن التفسير والمفسرين يطول ويتشعب ، ولا يسع الاسهاب والافاضة فيه الا سجلدات ضخام ، حسبك ـ قارئى الكريم ـ ان التفاسير تعد بالآلاف ، وكل تفسير له منهاجه ، وله خصائصه ، ومميزاته ، وكل هذا دليل واضح على عظمة هذا الكتاب المعجز واهميته عند المسلمين ، وادراكهم انه نزل لاصلاح البشر ، وانقاذ الناس ، والكشف عن حقائق الكون ·

وكلما تقدم الزمن وازدهرت الحياة العلمية ، واتسعت المدارك الفكرية ، ونبغ المخترعون والمكتشفون . واستقام العقل السليم على جادة الانصاف ـ كلما ظهر جلال القرآن وعظمته ، وبدت افاق جديدة ، لم يتطلع اليها متطلع ، ومجالات فسيحة لم يجل فيها جائل ، وقمم شامخة لم يرن اليها ران، ولم يوجد على وجه الارض ولا يرجى ان يوجد كتاب حظي أو يحظى بمثل ما حظي به القرآن من العناية والاهتمام والتقديس ·

وهنا ملاحظة يجب الانتباه اليها وهي ان هناك تفاسير لا ينبغى أن يعول عليها ولا أن يركن اليها لما تحتويه من الاسرائيليات التى ابتدعها واضعوها ، فكلفوا كتاب الله تعالى من التاويلات وغريب الروايات ، وسخيف الاخبار ما أحرجه فى بعض آياته عن الغرض الذى أنزل من أجله ، وجعله مثار الطعن والنقد أمام أعداء الاسلام وخصومه وأما ذوو الطوايا النقية ، والعقول النيرة ، والافئدة الذكية ، فانهم يعلمون أو يدركون ان القرآن أجل واكرم من أن يكون وعاء لتلك الاباطيل السخيفة التى لا يقبلها العقل البصير ·

واذا اردت أن تعرف هذه السفاسف التى أضلت بسطاء المسلمين وكانت منار استهزاء وسخرية الاجانب ـ كما قدمنا ـ فارجع الى ما ذكره بعض المفسرين فى شرح (**ارم ذات العماد**) (**وثمود الذين جابوا الصخر بالواد وفرعون ذى الاوتاد**) والى ما ذكروه فى الزلازل والثور الحامل للارض وياجوج وما جوج) وما عللوا ما يشعر به الانسان من سخونة مياه الآبار ، فى الشتاء ، وبرودتها فى الصيف حيث عللوا ذلك بأن ليالى الشتاء طويلة ، ولما كانت الشمس تغرب ، فتدخل فى جوف الارض ، كان تاثيرها فى المياه التى فى جوف الارض ، خلال الشتاء ، أشد من تاثيرها فى أثناء الصيف !!

ومما يبعث على التحسر والاسى ان من المفسرين المشهورين من وقع فى هذا الافك المبين وفى هذا الجهل الفاضح · فقد جاء فى الجزء الثانى عشر من تفسير الطبرى على قوله

تعالى : « **وقيل يا ارض ابلعى مـــاءك ويا سماء اقلعى وغيض الماء وقضـي الامر واستوت على الجودي وقيل بعدا للقوم الظالمين** » حديث موضـــوع فى وصف سفينة نوح حيث قال عن ابـــن جريج انه قال : كانت السفينة ، اعلاهـا للطير ، ووسطها للناس ، وفى اسفلها السباع ، وكان طولها فى الجو ثلاثـين ذراعا ، ودفعت من عين وردة يـــوم الجمعة لعشر ليال مضين من رجـــب وارسلت على الجودى يوم عاشـوراء، ومرت بالبيت فطافت به سبعا ، وقـــد رفعه الله من الغرق ثم جاءت اليمن ثم رجعت ..

وجاء فى كثير من التفاسيـر فى شرح قوله تعالى : « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله** » ذكر حديث روي عن كنانة العـدوى قال دخل عثمان بن عفان على رسول اللـه صلى الله عليه وسلم فقال . اخبـــرنى عن العبد كم معه من ملك ؟ قال . ملك عن يمينك على حسناتك ، وهو أمين على الذى على الشمال . وملكان من بيـــن يدك ومن خلفك يقول الله تعالى . « **له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من امر الله** » وملك قابض على ناصيتك فاذا تواضعت لله رفعك ، واذا تجبـرت على الله قصمك ، وملكان على شفتيك ليس يحفظان عليك الا الصلاة على محمد صلى الله عليه وسلم ، وملك على فيك لا يدع الحية تدخل اليه ، وملكان عـلى يمينك . فهؤلاء عشرة املاك على كل آدمى ، وابليس بالنهار وولده بالليل . هذا نص الحديث كما روي . . وواضح انه افتراء وبهتان على من نزل عليـــه الوحي . بالاضافـة الى انـــه سخيف العباره ، يتبرأ منه سياق الآية الكريمة، وكل من له معرفة بطبيعة القرآن ، وذوق بجو بيانه يشفق من أن يشوه جـــو الخفاء والرهبة والتعقب الذى يشيعـه السياق وتوحيه هذه الجملة (**لـــه معقبات**) .

والحفظة التى تتعقب كـل انسان ، وتحفظ كل شاردة ، وكل واردة ، وكل خاطرة ، وكل خالجة ، والتى هي مـن أمر الله لا يتعرض لها السياق بوصف ولا تعريف ولا اشارة ، فلا نتعرض لها نحن بتساؤلات غيـر مجدية . ما هي ، وما صفاتها ؟ وكم عددها ؟ وكيف تتعقب؟ وأين تكون ؟ ولا نشوه ذلك الجو المثير بالتحليلات والتاويلات والتفصيـــلات فضلا عن تلك السخافات الى تحط من قيمة القران ، وتذهب بجلاله وروحه . (44)

ومن هذه السخافات ما قاله بعضهم فى شرح قوله تعالى . « **تنزل الملائكـة والروح فيها** » حيث فسر الروح بانه ملك لو التقم السـمـوات السـبع ، والارضين السبع ، كانت له لقمة واحدة، أو هو ملك رأسه تحت العرش ، ورجلاه فى آخر الارض السابعة ، ولـــه الف رأس كل رأس اعظم من الدنيا ، وفى كل

وجه ألف فم ، الى آخر هذه الاباطيل والخرعبلات التى يفسر بها كلام الله ·

قل لى بربك ألا يكون كل هذا مثارا لسخرية خصوم الاسلام ، وداعيا الى القول بأن هذا الدين خرافى يؤدى الى جياد الركود والجمود والضعف ، وشاغلا عن القيام بجوهر الدين الصحيح الذى من أجله جاء ، وباعثا على عدم التأثر بروعة الاسلام والاخلاص فى التقيد بأحكامه ؟

ذكر الاستاذ المرحوم الشيخ عبد العزيز جاويش انه رأى ترجمة للقرآن بالانجليزية أتى واضعها بما سطر أولئك الجهلة المتعالمون ، ثم أعقب ذلك بما شاء من الانتقاد والتشهير بدين ذلك الكتاب · (45)

وهذا كله مما يفسر لنا شيوع استخفاف بعض الناس بالاسلام لانهم لم يفهموا جوهره وروحه وانما فهموه كما يصفه هؤلاء المتنطعون وكما يصورونه ·

ولن ينتفع المسلمون بالقرآن الا اذا فهموه فهما صحيحا ولن يفهموه كذلك حتى يقرأوه كما نزل بعيدا عن الخرافات والاوهام ، التى تشدهم الى الوراء ، وتنشر الضعف والارتخاء فى أجسامهم ، وتبعد بهم عن الحادة المثلى التى يهدى اليها القرآن ··

أسلوب القرآن الكريم :

اذا عدنا الى المعاجم العربية وجدنا هذا اللفظ (الاسلوب) يطلق فى لغة العرب على معان مختلفة ، منها الفن والوجه والمذهب والطريق بين الاشجار والشموخ بالانف وطريقة المتكلم فى كلامه ، وهذا الاخير هو الانسب بالاصطلاح ·

وأسلوب القرآن هو الطريقة التى امتاز بها فى تأليف كلامه ··

وواضح ان الاسلوب غير المفردات والتراكيب التى يتألف منها الكلام ··· وأساليب المتكلمين فى عرض كلامهم تتعدد بتعدد أشخاصهم وقد تتعدد فى الشخص الواحد بتعدد الموضوعات التى يطرقها والفنون التى يتناولها ·

وبالرغم من أن المفردات التى يوظفها الجميع واحدة ، والتراكيب فى جملتها واحدة ، والقواعد المرعية فى صوغ الجمل واحدة ، فان الاساليب تختلف من متكلم الى آخر ، ومن ثم كان للقرآن الكريم أسلوبه الخاص الذى انفرد به عن سائر الاساليب ·

فهو من حيث الحروف والمفردات والحمل والقواعد جار على النهج العربى المألوف ، ولكنه من حيث أسلوبه الفذ ومذهبه الكلامى خارج عن المعهود ، ومباين للمألوف (فما هو شعر ولا هو سجع · متكلف ملتزم ، ولا ازدواج متعمد دائم ، ولا نثر مرسل ارسال الحديث ، ولا خطابة طانة

متفيهقة ، وانما هو نهج بديع من الكلام العذب المحكم البالغ الروعة فى أدائه الشريف غاية الشـــرف فى معانيـــه ومقاصـــده · (46)

وقد سمع أعرابى رجلا مسلما يقرأ قوله تعالى : « **فلما استيأسوا منـــه خلصوا نجيا** » فقال : اشهد ان مخلوقا لا يقدر على مثل هذا الكلام ·

وسمع عمر بن الخطاب آيات مـــن سورة (طـه) فاهتزت مشـــاعره ، وارتعدت فرائصه ، وتحول من ذلـــك الرجل الجاهل الكافر الغليظ الذى جاء ليقتـل منقـذ البشرية ، وسيد الخلـق محمدا صلى الله عليه وسلم ويقتـرف أكبر الجرائم فى حياة الانسانية ـ تحول الى عمر المسلم الصادق ، والمؤمـــن القوي ، والعبقرى العظيم الذى اصبح يدير وحده احدى عشرة دولة من دول اليوم ، وكان القاضى فيها والامام ووزير المالية ووزيـر الداخليـة والمحتسب ، وكان قائد (ثلاث جبهات) ، وكان الى ذلك يحمل الدقيق على ظهره ويطبـــخ للمرأة الفقيرة ويطعم أولادها ··

وقال الاصمعى سمعت : بنتا مـــن الاعراب خماسيـة أو سداسيـة ـ أي بنت خمس سنوات أو ست ـ تقول ·

استغفـــر اللـــه لذنـب كلـــــه
قتلـت انســـانـــا بغيـر حلـــه

مثـــل غـــزال ناعـــم فى دلـــه
وانتصـ ـف الليـــل ولـــم أصلـه

فقلت لها : قاتلك الله ، ما افصحـك فقالت . ويحك ، أيعد هذا فصاحة ؟ مع قوله تعالى : « **وأوحينا الى أم موسى أن ارضعيه فاذا خفت عليه فالقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحـزنى انا رادوه اليك وجاعلوه من المرسلين** » فجمع فى آية واحدة بين خبريـــن ، وأمريـــن ، ونهيين ، وبشارتين · (47)

وبذلك الاسلوب الفذ أعجز القران العرب وهم أمراء البيان ، وأربـــاب الفصاحة ، وافحمهم وهم أساطيـــن البلاغة وفرسان النظم والنثر ·

خصائص أسلوب القرآن ·

والخصائص التى امتاز بها أسلوب القرآن كثيرة يمكن أن نلخص أهمهـــا فى الامور التالية :

1) مسحة القرآن اللفظية ، فانهـــا جذابة اخاذة تتجلى فى الاتساق والائتلاف على طريقة عجيبة لا يمكن ان يرتقى اليها كلام بشر مهما توفر له من عوامـــل الابداع ·

2) ارصاؤه العام ، ومعنى ذلك انه اذا تلي على العامة شعروا بجلالـــه ، وأحسوا بعظمته ، وذاقوا حـــلاوته ، وانصاعوا بعقولهم على قدر استعدادهم، وكذلك الخاصة اذا قراوه أو قرىء عليهم انقطعوا اليه بقلوبهم وعقولهم يستروحون فى ظلاله ، ويستشعرون روح الطمأنينة والثقة فى حماه ، فتشيع فى صدورهم أنوار الايمان والانس بالله تعالى ·

3) ارضاؤه العقل والعاطفة، فالقرآن يخاطب العقل والقلب معا ، ويجمع الحق والجمال معا ، وهي غاية صعبة المرتقى. عزيزة المنال · فارهف أذنيك ـ قارئى الكريم ـ واستمع اليه وهو يسوق الاستدلال العقلى على البعث كيف يهز القلوب ، ويمتع العاطفة معا · قال الله تعالى · « **ومن آياته انك ترى الارض خاشعة فاذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت ، ان الذى أحياها لمحيى الموتى انه على كل شيء قدير** » · وقال فى سورة (ق) « **أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج والارض مددناها والقينا فيها رواسي وانبتنا فيها من زوج بهيج ، تبصرة وذكرى لكل عبد منيب ، ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد والنخل باسقات لها طلع نضيد رزقا للعباد ، وأحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج** » أرأيت كيف جمع بين مخاطبة العقل والقلب معا ، وبين الاستدلال المنطقى والامتاع العاطفى ·

4) جودة السبك ، فالقرآن الكريم بلغ أقصى الدرجات ، وأبعد الغايات فى ترابط كلماته ، وتماسك جمله ، وتعانق آياته ، مع طول نفسه ، وتنوع مقاصده ، فاذا فتحت المصحف دون أن يكون لك قصد او غرض بآية معينة فقرأت ما وقعت عليه عيناك وتأملته ، وجدته وحدة متماسكة الاجزاء ، متآلفة الاعضاء ، متآخية الاوصال ، فحل من قال · « **ولقد ضربنا للناس فى هذا القرآن من كل مثل لعلهم يتذكرون ، قرآنا عربيا غير ذى عوج لعلهم يتقون** » ·

5) البراعة فى تصوير القول وثروته فى أفانين الكلام ، أي ان القرآن يورد المعنى الواحد بالفاظ وبطرق مختلفة ، بمقدرة فائقة خارقة . تنبهر أمامها أنفاس الفصحاء والبلغاء · والامثلة على ذلك واضحة لا تعزب عن الذكى البصير ، وهو يتلو القرآن الكريم ·

وبكفى دليلا على ان القرآن معجز باسلوبه ، ان التاليف فى البيان العربى ولد ونشأ وأيفع وترعرع فى جو القرآن ·

سأل ابراهيم بن اسماعيل من كتاب الوزير الفضل بن الربيع ومن جلسائه سأل أبا عبيدة معمر بن المثنى عن قول الله تعالى « **طلعها كأنه رؤوس الشياطين** » كيف وقع هذا التشبيه والمشبه به غير معروف ، وانما يقع الوعد والايعاد بما عرف مثله · فقال أبو عبيدة انما كلم الله العرب على قدر كلامهم · أما سمعت قول امرىء القيس .

أيقتلنى والمشرفى مضاجعى
ومسنونة زرق كأنياب أغوال ،

وهم لم يروا الغول قط ، ولكنهم لما كان أمر الغول يهولهم أوعدوا به ·

وعزم أبو عبيدة منذ ذلك الحين أن يصنع كتابا فى القرآن ، فى أشباه هذا، وما يحتاج اليه من علمه ، ثم وضع

كتابه (المجاز) فكان أول كتاب ألف في البلاغة (48) ·

اعجاز القرآن المعجزة هي أمر خارق للعادة خارج عن حدود الاسباب المعروفة ، يجريه الله تعالى على يد أنبيائه مقرونا بالتحدى ودعوى الرسالة، وطلب المعارضة ، وهي فوق مستوى العقول والافهام · أما ان تأتى أمرا خارقا للعادة على العموم كمعجزة سيدنا ابراهيم الذى لم تحرقه النار ، وكمعجزة سيدنا صالح فى الناقة الى تشرب النهر · واما أن تأتى من جنس شيء اشتهر عند المرسل اليهم ، كاشتهار السحر فى عهد موسى ، والطب فى عهد عيسى ، والبلاغة فى عهد محمد ·

وقد تدرج هذا النوع من الاعجاز حسب تدرج العقل البشرى فى سلم العلم والمعرفة والادراك ·

ففى زمن فرعون موسى (منفتاح) بمصر كان السحر عدة العلماء وزادهم، ومثار فخرهم واعتزازهم ، فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد موسى حينما تقابل مع علماء السحر عصا تلقف ما صنعوا ·· حيث القوا عصيهم وحبالهم فاذا هي حيات وثعابين ، فأوجس موسى فى نفسه خيفة ، فأمره الله أن يلقى عصاه فاذا هي حية تزحف وتسعى ، واذا هي تبتلع حيات السحرة وتلقفها (49) فأصابهم العي وادركوا ان ذلك من صنع الله تعالى فخروا له ساجدين ·

ثم مضت قرون وتطورت العقول والافهام ، وانتشر فن التحنيط ، وارتقى علم الطب ، وظهرت الكيمياء ،فكانت المعجزة التى أظهرها الله على يد سيدنا عيسى فوق ما نبغ فيه قومه من الطب والكيمياء والتحنيط ، انها احياء الموتى وابراء الاكمه والابرص ، والنفخ فى قطعة من طين فتكون طيرا باذن الله ·

ثم مضت قرون ، وتطورت الانسانية، وانطلق العقل البشرى فى باحات النظر ، والتأمل والتفكير ، فكان العرب فى هذا العهد النبوغ المطلق فى الفصاحة والبلاغة والعبقرية الفذة فى فن الكلام نثره ونظمه . فكانت المعجزة التى اظهرها الله على يد سيدنا محمد من جنس ما اشتهروا به ، وتفوقوا فيه ، انه القرآن الكريم ، الذى « **لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد** » ·

واذا كانت معجزات الانبياء جميعها محدودة بقوم معينين ، وموقتة بزمان معين ، فان معجزة محمد صلى الله عليه وسلم عامة وخالدة ·

وبالرغم من حرص العرب على تكذيب محمد ، وتكالبهم على اخفاء أمره ، وتألبهم على اطفاء نوره ، ورفضهم الصارم لدعوته . لانه سفه أحلامهم ، ونعى عليهم زيغهم وضلالهم، وتحداهم بلسان القرآن ، بان يعارضوه او يأتوا بعشر سور مثله مفتريات . لا يلتزمون فيها الحكمة ولا الحقيقة ،

وليس الا النظم والاسلوب (50) ولـــن تضيق أساطيرهم وعلومهم أن تسعهـا عشر سور ، ثم قرن التحدى بالتأنيـب والتقريع ، ثم استفزهم بعد ذلك ، جمله واحدة فقال « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله، وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين ، فان لم تفعلوا ولن تفعلوا ، فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين** » ·

بالرغم من كل ذلك عجز العرب عـن معارضة القران بسورة من مثله، وقامت عليهم الحجة ، فهي قائمة على غيرهم (لان عجز الجماعات وهم متعاونون افرادا ومجتمعين عن معارضة عمـل جاء على يد بشر مثلهم وهو وحـده لا معين له دليل على ان ما جاء به هذا الفرد الوحيد من عند الله ، لا يقدر أحد أو جماعة على معارضته ، فافحم كـل حجة ، واسكت كل لسان ، وأعيا كـل بيان ، وأبطل كل محاولة ، وهزم كـل مكابر ، وحطم كل عناد وجداء ، فظـل القران وسيظل فى فم الدنيا لسانا ناطقا، وآية باهرة ، و (معجزة خالدة) ·

وسيبقى هذا التحدى المثير المدهش « **وان كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فاتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله ان كنتم صادقين** » ـ سيبقى قائما ما بقيت الحياة ، فكل انسان مـن يوم أن نزل القرآن الى نهاية الحياة على هذا الكوكب السفلى يواجه هذا التحدى وبالتالى هو محكوم عليها مسبقا بالعجز والفشل والاخفاق ·

وفى كتب التاريخ محاولات ممـــن طاشت عقولهم ، واستبد بهم الغـرور، فتصدوا لمواجهة هذا التحدى ، ومـا دروا انهم فى ذلك كمن أراد أن يقطع المحيط سبحا ، أو يسابق النفاثـــة مشيـا ·

ومن هذه المحاولات ما وقع مـــن الشاعر العربى لبيد بن ربيعة الشهيـر ببلاغة منطقه وفصاحة لسانه ، ورصانة شعره (فعندما سمع أن محمدا يتحدى الناس بكلامه ، قام بعض الابيات ردا على ما سمع ، وعلقها على باب الكعبة وكان التعليق على باب الكعبة امتيازا لم تدركه الا فئة قليلة من كبار الشعراء العرب ، وحين رأى أحد المسلمين هـذا أخذته العزة ، فكتب بعض آيات الكتاب الكريم ، وعلقها الى جوار ابيـات لبيد ، ومر لبيد بباب الكعبة فى اليـوم التالى ولم يكن قد اسلم بعد فأذهلتـه الايات القرانية ، حتى انه صرخ من فوره قائلا · والله ما هذا بقول بشر ، واما من المسلمين) (51) وكان من نتيجـة تاثر هذا الشاعر العربى العملاق ببلاغة القرآن انه هجر الشعر · وقد قال لـه عمر بن الخطاب رضي الله عنه يومـا يا أبا عقيل ، انشدنى شيئا من شعرك · فقرأ سورة البقرة وقال : **ما كنت لاقول شعرا بعد اذ علمنى الله سورة البقرة وآل عمران** ·

وهناك محاولة أخرى أغرب من هذه وبطلها الكاتب الشهير عبد الله بن المقفع ، وخلاصتها ان جماعة من الملاحدة والزنادقة أزعجهم تأثير القرآن الكبير فى عامة الناس ، وهيمنته على قلوبهم ، فقرروا مواجهة تحدى القرآن ، واتصلوا لاتمام خطتهم بابن المقفع ، وكان معتدا بقدرته الادبية الواسعة ، فقبل الدعوة للقيام بالمهمة ، وأخبرهم ان هذا العمل سوف يستغرق سنة كاملة ، واشترط عليهم أن يتكلفوا بكل ما يحتاج اليه خلال هذه المدة ..

ولما مضى على الاتفاق نصف عام عادوا اليه وفى أنفسهم تلهف وشوق ، وتطلع الى معرفة ما حققه الكاتب العملاق لمواجهة تحدى القران . وحين دخلوا عرفة الاديب وجدوه جالسا والقلم فى يده وهو مستغرق فى تفكير عميق .. واوراق الكتابة متناثرة أمامه على الارض ، بينما امتلات غرفته باوراق كثيرة ثم مزقها .

لقد حاول الكاتب العبقرى ، وبذل أقصى جهوده من أجل أن يتم له ما أراد ، ويحقق للزنادقة والملاحدة أمنيتهم الغالية ، ولكنه أصيب بالفشل الذريع ، فلم يستطع أن ياتى باية واحدة من طراز القرآن ، بالرغم من مضي ستة أشهر . (52)

والذى يعنى بهذا الموضوع ويتتبع مظانه فى كتب التاريخ ، يجد أمثلة لمحاولات مواجهة هذا التحدى القائم المثير على ممر الدهور والعصور، فممن حاولوا ذلك واخفقوا ـ طبعا ـ وتحطمت آمالهم على صخرة الاعجاز ، مسيلمة الكذاب ، والنضر بن الحارث ، وطليحة بن خويلد الاسدى ، والاسود العنسى .

وان شئت ـ قارئى الكريم ـ ان تعرف لونا من هذه المعارضات السخيفة المخجلة لتدرك ضياع البلاغة ، وفشل البيان ، وتفاهة التصوير عند هؤلاء المغرورين المتطاولين على وحي السماء، فدونك فقرة من (قرآن) مسيلمة الكذاب فاقرأها ثم العنه ، وارث لبلاغته وبيانه .

(والمبذرات زرعا ، والحاصدات حصدا ، والذاريات قمحا ، والطاحنات طحنا ، والعاجنات عجنا ، والخابزات خبزا ، والثاردات ثردا ، واللاقمات لقما. اهالة وسمنا .. لقد فضلتم على أهل الوبر ، وما سبقكم اهل المدر ، ريفكم فامنعوه ، والمعتر فأووه ، والباغى فناوئوه) .

وممن عارضوا القران ، أو حاولوا ، أبو الحسين المعروف بابن الراوندى ، وأبو الطيب المتنبى ، وأبو العلاء المعرى، وقد أدرك هذا الاخير ان القرآن كلام الله الذى لا يجارى ولا يعارض ، والوحي السماوى الذى لا يتسامى اليه بيان . فقال من رسالته فى الرد على ابن الراوندى .

(واجمع ملحد ومهتد ، وناكب عن المحجة ومقتد ، ان هذا الكتاب الذى جاء به محمد صلى الله عليه وسلم

كتاب بهر بالاعجاز ، ولقى عدوه بالارجاز ، ما حذى على مثال ، ولا أشبه غريب الامثال ، ما هو من القصيد الموزون ، ولا فى الرجز من سهل وحزون ، ولا شاكل خطابة العرب ، ولا سجع الكهنة ، ذوى الارب ... وان الآية منه أو بعض الآية لتعترض فى أفصح كلم ، يقدر عليه المخلوقون، فتكون فيه ما لشهاب المتلالئ فى جنح غسق والزهرة البادية فى جدوب ذات نسق).

وروعة الاعجاز قد فعلت فعلها حتى فى غلاة المشركين وأشدهم عدواة للقرآن، فكان أبو جهل وأبو سفيان والاخنس بن شريق من ألد أعداء النبى صلى الله عليه وسلم وأشدهم بغضا للقران ، ومع ذلك فقد كانوا يتسللون فى الليل فرادى الى جدار بيت الارقم ليتسمعوا من النوافذ والكوى الى النبى وهو يتلو القرآن .

كان كل واحد من هؤلاء يجلس فى مكان مظلم حيث لا تراه العيون ، وهو يظن انه وحده الذى جاء ليستمع ، حتى وقعت المفاجأة ذات ليلة ، حيث التقى الثلاثة وجها لوجه وهم يهمون بالانصراف بعد أن انتهى الرسول صلى الله عليه وسلم من التلاوة ، وسأل كل واحد منهم صاحبه من أين جئت ؟

فأطرق الجميع برؤوسهم ولم يحر احدهم الجواب ، وجميعهم متهمون ، ولم يسعهم امام ما فعلوا الا أن يقسموا لا يعودوا مرة أخرى خشية أن يؤدى بهم سماع القرآن الى الايمان واتباع محمد .

وفى الليلة الثانية فكر كل واحد من الثلاثة فى الموضوع، وتحدث الى نفسه، ان أحدا لن يذهب الليلة لسماع القرآن من محمد ، فماذا لو حنثت فى قسمى وذهبت وحدى ..

وذهب الثلاثة واستمعوا ، ولما انتهى الرسول من التلاوة أخذ كل منهم يطوف حول دار الارقم ليستيقن من أنه جاء وحده ، فكانت المفاجأة ... وكان التلاحم والتشاجر ، وكاد الخصام ينقلب الى التقاتل ..

وهكذا ظل الثلاثة يقسمون ويحنثون ويستمعون .. ولم يقدروا على مغالبة هذه النوازع الجياشة ، وكبت هذه الرغبة الملحاحة .. فاتفقوا على أن يجتمعوا كل ليلة فى بيت أحدهم ليراقب بعضهم بعضا حتى لا يذهب منهم أحد .

الى هذاالحد بلغ تأثير القرآن فى نفوس الكفار والمشركين ، أعداء الرحمن وأعداء من نزل عليه ...

وهل أتاك ـ قارئى الكريم ـ نبأ الوليد ابن المغيرة أحد فرسان البلاغة وسادة البيان العربى ؟

لقد سمع آيات من القرآن فهاله اعجازه ، واستبدت به روعته ، فسارع الى قومه ليقول لهم : (لقد سمعت من محمد كلاما ما هو من كلام الانس ولا من كلام الجن . ان له لحلاوة ، وان

عليه لطلاوة ، وان أعلاه لمثمر ، وان أسفله لمغدق ، وانه ليعلو ولا يعلى عليه.

وهكذا عجز خصوم القرآن عن مواجهة تحديه ، وسيظل ما بقيت الحياة معجزا للانسان والجن ، وهو ما سجله الوحي في قوله تعالى : « **قل لئن اجتمعت الانس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ، ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا** » .

وجوه الاعجاز :

لاهل العلم في بيان اعجاز القرآن كتب ودراسات ، وأبحاث لا يحصرها العدد ، وممن خاضوا هذا البحر الباقلاني ، والسكاكي ، وعبد القاهر الجرجاني ، والزمخشري ، والقاضي عياض والرافعي ، وما تزال أقلام الكاتبين مغموسة في الحبر ، وأوراقهم مبسوطة ، ولكل باحث وكاتب رأيه واجتهاده .

والدارس لابحاث هؤلاء والواقف على آرائهم يرى أولا ان هناك خلافا في اظهار السر الكامن من وراء اعجاز القرآن ، فمنهم من ارتأى ان القرآن فوق طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالقوة والفعل ، وهو رأي العلامة الباقلاني في كتابه (اعجاز القرآن) .

وذهب اخرون الى أن القرآن تحت طاقة البشر ومقدورهم ، وهم عاجزون عن معارضته ومجاراته بالفعل لا بالقوة، فالله تعالى هو الذي أعجزهم عن مناظرته ومباراته . وممن ذهب الى هذا الرأي ابراهيم النظام .

والرأي الاول أقرب الى العقل وأدعى الى الرضى والاقتناع . ولا يتسع المجال لعرض أدلة الترجيح ، وهي مبسوطة في المطولات .

أما وجوه الاعجاز فكثيرة يمكن عرض طائفة منها فيما يلي .

ذكر القاضي في كتابه (الشفاء) وجوها كثيرة منها

1) حسن تأليفه ، والتئام كلمه ، وفصاحته ووجوه ايجازه وبلاغته الخارقة عادة العرب فيما يأتون من بيان .

2) صورة نظمه العجيب ، وأسلوبه الغريب ، المخالف لاساليب العرب ومناهج نظمها ونثرها ، فلم يوجد قبله ولا بعده نظير له ، ولا استطاع أحد مماثلة شيء منه في فواصله ، وما انتهت اليه مقاطع آيه .

وذكر الباقلاني من وجوه الاعجاز ثلاثة .

أولا ـ ما تضمن من الاخبار عن الغيوب بما لا يقدر البشر عليه ولا سبيل لهم اليه .

ثانيا ـ اتيانه بجملة ما وقع وحدث من عظيمات الامور ، ومهمات السير ، من حين خلق الله آدم الى حين مبعثه ، صلى الله عليه وسلم ، مع انه كان أميا لا يقرأ ولا يكتب ، ولم يقع له شيء من

كتب المتقدمين وأقاصيصهم وأنبائهم وسيرهم ، ومن أمثلة ذلك قصص الانبياء، وأصحاب الكهف وذى القرنين ، وياجوج وماجوج الخ ·

ثالثا ـ انه بديع النظم ، عجيب التاليف ، متناه فى البلاغة الى الحد الذى عجز الخلق عنه · (53)

ويعجبنى فى موضوع اعجاز القرآن قول السكاكى (ان اعجاز القران يدرك ولا يمكن وصفه) ولكن هذا الادراك لا يتهيأ الا لارباب الفصاحة والبيان · ومن هنا يتبين ان غير العرب الفصحاء من سائر الناس أعيا وأعجز فى ميدان المعارضة ·

ويقول الامام محمد عبده عن معجزة القران (معجزة القران جامعة من القوى والعلم ، وكل منهما ما يتناوله العقل بالفهم هو معجزة عرضت على العقل وعرفته القاضى فيها ، وأطلقت له حق النظر فى أنحائها ، ونشر ما انطوى فى اثنائها ، وله منها حظه الذى لا ينقضى ، فهو معجزة أعجزت كل طوق ان ياتى بمثلها ولكنها دعت كل قدرة أن تتناول ما تشاء منه) · (54)

ووجه اعجاز القران فى نظرى هي (روحانيته) اي انه روح من رب العالمين « ***وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان*** » · وهذا وحده كاف فى ارشادنا الى جهة اعجازه وقصور الانس والجن عن دراسته واستخراج ما فيه من الكنوز محاكاته ، وبقائه خالدا يمد البشرية نورا وهداية ·

والحقيقة الجديرة بالملاحظة هي ان معجزة القرآن لا تستمد خلودها من كون القران معجزة فقط بل من كونه أيضا قد جاء بتخطيط محكم سليم للانسانية فى مختلف العصور وفى مختلف أنحاء المعمورة ·

انه هدية الخالق للمخلوق ، وصلة السماء بالارض ، ومنهج السلوك للانسان ، فما من كبيرة أو صغيرة، دنيوية أو اخروية ، فردية أو اجتماعية، الا وفى هذا الكتاب الخالد تصريح لها أو اشارة ··· واتسع مجاله ، وبعد افقه ، فى كل فن وفى كل نظام ··

ولئن كانت شمس الكون لها مع الناس فى هذه الارض حدود ، فان شمس القرآن لا تعرف الحدود ولا السدود ، ولا تعرف زمنا دون زمن ، ولا وجودا دون وجود ، فهي مع الناس فى كل مكان وفى كل زمان وفى كل حال، فى حضارتهم وبداوتهم ، فى قصورهم واكواخهم ، فى سلمهم وحربهم ، فى صحتهم ومرضهم ، فى صغرهم وكبرهم، فى ليلهم ونهارهم ، فى حياتهم وبعد موتهم ·· انها شمس القرآن ·

وهذا ما جعل رجال الغرب فى نهضتهم الحديثة يعنون بهذا الكتاب ويهتمون ، حتى تخصص فيه علماء أجلاء وقفوا عقولهم وأقلامهم على

والذخائر ، واستوحوا منه نظريات واستلهموه دروسا وعبرا فى الحق والجمال ، والخير والشر ، وغيرها من المفاهيم والنظريات ·

صحيح ان هناك من الغربيين من تخصصوا فى دراسة القرآن لا لغرض شريف ، وانما من أجل الطعن والنقد · ولكن حتى هؤلاء لم يقدموا على دراسته الا تحت تأثيره ، والايمان بأنه شىء عظيم يدعو الى النظر فيه ، والانقطاع لدراسته ، فخدموه خدمة جلى بما كتبوا عنه من دراسات وأبحاث كشفت عن عجزهم ، وأكدت سمو القرآن ، وانه وحي من الله لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ، فمنهم من آمن ومنهم من انطوى على نفسه فى خجل ··· الا عملاء التبشير الذين ارتكسوا فى حمأة الحقد والحسد والبغضاء فهم عمي الابصار ، وطمس العقول ، لا يؤمنون بالحق لانهم أعداؤه ·

وستظل العقول المفكرة الناضجة الجبارة التى تكتشف وتستنتج وتخترع·· وتبحث عن الحق من أي جنس ومن أي بلد تعلن اعجابها الى حد الدهشة بهذا الكتاب الخالد المعجز ··

يقول الفيلسوف الفرنسى (الكسى لوازون) فى كتابه (حياة محمد) : (خلف محمد للعالم كتابا ، هو آية البلاغة وسجل الاخلاق ، وكتاب مقدس، وليس بين المسائل العلمية المكتشفة حديثا ، والمكتشفات الحديثة مسألة تتعارض مع الاسس الاسلامية . فالانسجام تام بين تعاليم القران والقوانين الطبيعية ·

ويقول العلامة (فريد وجدى) : لا ترى قاعدة دلت عليها التجارب ، ولا نظرية تأسست بشهادة المشاعر ، يكون لها أثر فى رفي الانسان ، وتحسين بناء العمران ، الا وهي صدى صوت اية قرآنية ، أو حديث من الاحاديث النبوية، حتى يخيل للرائى ان كل جد ونشاط يحصل من علماء الكرة الارضية فى سبيل رفع شأن الانسانية لا يقصد به الا اقامة الحجج التجريبية على صحة قواعد الديانة الاسلامية ·

وجماع القول ان القرآن الكريم . معجزة بحروفه ، وكلماته ، وتراكيبه ، ··· معجز بطلاوته ولذاذته معجز بتأليفه ، والتئامه ، وتناسقه ··· معجز بسلامته من التعارض ··· معجز بأسلوبه ، ونظمه ، وفواصله ، ومقاطع آياته ··· معجز برموزه العجيبة المدهشة فى فواتح السور ، معجز بموسيقاه ، وفصاحته ، النادرة ··· معجز بأنبائه الغيبية عن كوامن الزمن وقضايا الامور ··· معجز بأسراره الدقيقة ، وقوانينه المحكمة ، وخطابياته البديعة ، وطرق اقناعه الفذة ·

معجز باشاراته ، واستعاراته ،··· معجز بالاسرار العلمية التى هدى اليها ولم تهتد اليها العقول البصيرة فى العصر

الحديث الا بالآلات الدقيقة والمخترعات الحديثة المدهشة ...

معجز بجذباته الروحية للمشاعر والاحاسيس ... معجز بالتحويلات الجذرية والانقلابات التاريخية عبر التاريخ ... معجز بمثله العليا التى بلغت الذروة فى ديموقراطيتها وانسانيتها ..

وأخيرا ان القرآن معجز لانه (قرآن) وكفى .. والقرآن كلام رب العزة ، نزل به الروح الامين على قلب محمد صلى الله عليه وسلم .

تلاوة القرآن :

القرآن الكريم كتاب الله تعالى ، تفضل به على هذه الامة المحمدية ، ليخرج الناس من الظلمات الى النور ، ويهدى للتى هي أقوم . ورسالة القرآن اذن علمية عالمية ، عظيمة صخمة ، لا يفى بوصفها قلم أو لسان . مهما أوتيا من مقدرة فى الفصاحة والبيان .

فاذا تتبعنا الآيات الكريمة التى تصف القرآن وتحدد رسالته وجدناها تنص أو تشير الى انه يحيى القلوب ، ويرقق الاحاسيس ، ويحقق الاخوة الصادقة ، وينظم العلاقات بين الافراد والجماعات ، ويصىء العالم بتعاليمه السمحة ، ويضمن سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، وهذا بعض ما تنطق به آيات من هذا الكتاب الكريم ، فارهف أذنك ـ عزيزى القارىء ـ واستمع الى الله جل وعز يقول :

« ان هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا كبيرا » ويقول **« وكذلك أوحينا اليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الايمان ، ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ، وانك لتهدى الى صراط مستقيم ، صراط الله الذى له ما فى السموات وما فى الارض، ألا الى الله تصير الامور »** .

ويقول . **« يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وانزلنا اليكم نورا مبينا، فأما الذين آمنوا بالله واعتصموا به فسيدخلهم فى رحمة منه وفضل ، ويهديهم اليه صراطا مستقيما »** ويقول . **« ولقد جئناهم بكتاب فصلناه على علم هدى ورحمة لقوم يؤمنون »** ويقول **« ويرى الذين أوتوا العلم الذى أنزل اليك من ربك هو الحق ، ويهدى الى صراط العزيز الحميد »** ويقول . **«ونزلنا عليك الكتاب تبيانا لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين »** .

والحقيقة التى ننتهى اليها من هذه المقدمة ، ونخرج بها من دراستنا لهذه الآيات ، وآيات أخرى فى مجراها ونسقها . ان القرآن لم ينزل لمجرد التلاوة ، كما انه لم ينزل ليقرأ فى المآتم والجنازات ، ولا لقضاء الحاجات ، ولا ليكتب فى التمائم ، وانما أنزل لغرض أجل وأهم ، ليكون مدرسة تربوية

يتخرج منها بناة الحياة الفاضلة ، وصناع التاريخ الماجد ، الذين أراد الله أن يعمر بهم هذه الارض « **ولقد كتبنا في الزبور من بعد الذكر ان الارض يرثها عبادي الصالحون** » ٠

مدرسة فريدة في نوعها يتلقى فيها المخلوق عن خالقه دروسا لا كالدروس، وعلوما لا كالعلوم ، ومعارف لا كالمعارف فاذا كان احضار العقل ، والتأمل والتدبر عوامل ضرورية لفهم كتاب تقرأه ، فانها مع كتاب الله تعالى أوجب وأوكد ٠

ومن ثم وجب أن تكون تلاوة القرآن تلاوة تأمل وتدبر ، وتلاوة نظر واعتبار، وتلاوة خشوع وانفعال ، وتلاوة درس واستنباط واهتداء ، يقول الله تعالى « **الذين آتيناهم الكتاب يتلونه حق تلاوته ، أولئك يؤمنون به** » ٠ ويقول : « **كتاب أنزلناه اليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولوا الالباب** » ٠ ويقول « **هذا بلاغ للناس ، ولينذروا به ، وليعلموا انما هو اله واحد ، وليذكر اولوا الالباب** » ٠

فهداية القرآن اذن متوقفة على أمرين هامين لابد منهما لمن يبتغي الهداية والانتفاع بالقرآن : تلاوته بتأمل وتدبر، وفهمه فهما صحيحا ٠

هذان الامران لابد منهما لمن يريد ان يصلح بالقرآن وينتفع ، به وبدونهما لا صلاح ولا انتفاع ٠٠٠

وفهم القرآن امر ميسور ، خلافا لمن يعتقد انه صعب عسير ، أنزل للخاصة لا للعامة ٠٠ ولقد أثبتت التجربة وأثبت الواقع انه يفهم بشيء من العناية والاهتمام ، لان بعضه يفسر بعضا ، ولان معانيه أيضا تتسابق واضحة الى القلوب والاذهان ٠ يقول الله تعالى : « **ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر** » ٠

فالقرآن يلتقى مع حقائق الوجود ، ويتفق وسماحة الفطرة ، ولم يكن ما في القرآن من الآيات مبهما أو مغلقا أو معمى مع ما يرى الانسان في الكون تفاسير وشروحا ٠٠ بالاضافة الى أن القرآن الكريم يواكب الانسان من مرحلته الاولى من تكوينه الى ان يفارق هذا الوجود ، بل القرآن مع الانسان فيبن هذه المرحلة حيث يعتنى بالتربة التى ينشأ فيها ، والرحم التى يتطور فيها ، ثم يرافقه في طفولته ، وفي شبابه ، وفي كهولته ، وفي شيخوخته ٠٠ ثم في موته الذى هو نهاية وبداية ٠

فالقرآن اذن ميسور للفهم ، لانه كتاب الكون وكتاب الانسان ٠٠٠ وان حاد بعضهم عن الجادة وظنوا انه كتاب صعب عسير ٠٠٠ وكيف لا وهو مع الانسان في جميع مراحل حياته في هذا الكون ؟

ومما لا أزال أذكره بأسف وتحسر ، ما كان يتقوله بعض مشائخ الزوايا من أن القرآن يجب حفظه ، ولا يجوز شرحه ، وكانت العبارة التى يرددونها وسمعتها غير مرة من شيخ علمني القرآن (من أصاب في تفسير القرآن

فقد اخطأ ، ومن أخطأ فقد كفر) مما جعل كثيرا من طلبة الروايا بالخصوص على الاكتفاء بحفظه . والحذر من محاولة فهمه ، فالبقاء على الجهل بمعانى القران خير من الكفر فى نظرهم ·

وقراءة القرآن النافعة هي التى تستهدف المعنى ، وتتجاوز اللفظ الى ما وراءه من سر وروح ··

صحيح ان التلاوة نفسها عبادة تقرب المرء من خالقه ، ولكن الاجر يتضاعف ويعظم على قدر ما فى التلاوة من التأمل والتدبر ، وعلى قدر ما يحقق التأمل والتدبر من الغايات المطلوبة · تأمل جيدا هذه الآية الكريمة « **فبشر عبادى الذين يستمعون القول فيتبعون أحسنه، أولئك الذين هداهم الله ، وأولئك هم أولوا الالباب** » ·· « **الله نزل أحسن الحديث كتابا متشابها مثانى تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم ثم تلين جلودهم وقلوبهم الى ذكر الله . ذلك هدى الله يهدى به من يشاء** » ·

فالذين يتلون القرآن (حق تلاوته) هم الذين يقرأونه وطنية وأخلاقا واحتماعا وعبادة ··

وما أشد حاجة البشرية اليوم الى هداية القرآن فى هذه المجالات بالخصوص : فالقرآن ضرورة وطنية لان الوطن فى حاجة ملحة الى ابنائه المخلصين ، والى سواعدهم وكفاءاتهم وتضحياتهم وامكانياتهم المتنوعة · وليس كالقرآن عامل قوي يبعث فى نفوس المثقفين ، وكافة طبقات الامة ، حب الوطن ، وحب التضحية فى سبيله ، والذود عن كيانه وحماه · وما حياة المسلمين الاوائل الملآى بأروع معانى التضحية والايثار الا صورة ناطقة بما فعل القرآن فى أنفسهم ·

والقرآن ضرورة اجتماعية ، فجميع الذين يحملون قلوبا حية وضمائر يقظة، ويغارون على مصالح الامة وكرامتها ، يشعرون بان المجتمع الاسلامى ملىء بالنقائص والمفاسد والعيوب ، وان القرآن خير وسيلة لمعالجة هذه الامراض، لانه الكتاب الوحيد الذى يكفل لكل مواطن حده فى العلم والعقيدة والعبادة والحياة الكريمة ·

والقرآن ضرورة انسانية ، فانه امر بالتعاون بين الشعوب على أساس الحق والكرامة ، وعلى مبادىء العدالة المطلقة التى لا تتاثر بالمصالح الشخصية، ولا ترضخ للفروق الجنسية ، وقد نزل من السماء ليقول للناس فى صوت عال « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى ، وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا، ان أكرمكم عند الله أتقاكم** » ·

وبهذا المفهوم الواضح استأصل القرآن الفلسفة التى تمزق شمل الناس ، وتجعل عواطفهم رهنا بأراضيهم وحدودها · (55)

والانسان عندما ينقطع الى القرآن الكريم يتلوه بعقله وقلبه وروحه، يشعر بلذة لا تعادلها لذة ، وتغمره مشاعر

وأحاسيس لا يرتقى الى وصفها بيان ، ويحس من الاعماق انه يعبىء النفس بفيض متدفق يملأ عليه كل وجوده ، ذلك لانه يعيش مع الله خالقه وخالق الكون · ومن أسعد ممن يعيش مع الله يناجيه ويستهديه ؛

(من أجل ذلك يوصى الرسول صلى الله عليه وسلم المؤمنين بمداومة التلاوة والذكر ، ويحذر من الجفوة والقطيعة بين المسلم وكتاب الله ، لكيلا تنقطع تلك الصلة الحية ، ولا ينقطع الرباط الذى يربط القلب المؤمن بالله ، ·· لكيلا يرين الران على القلوب ·· يغشاها ما يغشاها من جراء تعرضها الدائم (للتراب) المتناثر فى جو الحياة ·· سواء هو تراب (الجسد) أو تراب (المادة) وما يدور حولها من الصراع ·· وهو تراب يتراكم ويتراكم ان لم يمسحه الانسان عن نفسه وروحه ، حتى يتغبش صفاء النفس ، وتعتم شفافية الروح ، وتنطمس فى النهاية ، فلا ينفذ منها النور · والقرآن يمسح عن النفس ذلك الران حين يعيش الانسان فيه مع الله ، فتنطلق الروح من اسارها تقبس من النور العلوى · وينسرب الحديث المتصل عن الله فى أعماق النفس فيشيع فيها النور · (56) قال الله تعالى :

«الله نور السموات والارض مثل نوره كمشكاة فيها مصباح المصباح فى زجاجة الزجاجة كانها كوكب دري يوقد من شجرة مباركة زيتونة لا شرقية ولا غربية يكاد زيتها يضيء ولو لم تمسسه نار نور على نور يهدى الله لنوره من يشاء ، ويضرب الله الامثال للناس والله بكل شيء عليم » سورة النور ·

وتجدر الاشاره الى ان هناك اداب وشروطا تجب مراعاتها عند قراءة القرآن الكريم .

ومنها الجلوس فى تواضع وتأدب وخشوع ، ومنها استحضار عظمة من أنزل القرآن على حال من يراه (فان لم يكن القارىء يرى ربه فانه سبحانه يراه) ومنها قراءته بتؤدة وتمهل وتفكر ، واعطاء الحروف ما تستحقه من حسن الاداء ، والبكاء لمن استطاع ذلك ··

فقد روى ابن ماجه باسناد جيد عن سعد بن أبى وقاص رضي الله عنه ان الرسول صلى الله عليه وسلم قال · (اتلوا القرآن وابكوا ، فان لم تبكوا فتباكوا) ·

ومما تجب مراعاته فى قراءة القرآن تحسين الصوت بشرط أن يكون ذلك فى حدود الواجب شرعا بأن يخرج كل حرف من مخرجه موفى حقه من الصفات والاحكام ، قال الله تعالى : « **ورتلناه ترتيلا** » وقال « **ورتل القرآن ترتيلا** » والترتيل : تلاوة باداء صحيح بحيث يقرأ على تؤدة وتمهل وتبيين حروف ·

قال الامام النووى : اجمع العلماء من السلف والخلف من الصحابة والتابعين وعلماء الانصار وائمة المسلمين على استحباب تحسين الصوت بالقرآن · وقال الامام القسطلانى فى كتابه (لطائف الاشارات) قال البراء وكان صلى الله عليه وسلم يقرأ فى العشاء (والتين والزيتون) فما رأيت أحدا أحسن صوتا منه أو قراءة) · وقد امتدح النبى صلى الله عليه وسلم قراءة أبى موسى الاشعرى حين مر عليه وهو يقرأ فى بيته فأصغى اليه وقال له فى الصباح (يا أبا موسى لقد أوتيت مزمارا من مزامير ال داود) وكان داود عليه السلام أحسن الناس، فشبه حسن صوت أبى موسى وحلاوة نغمته بصوت الة المزمار ·

أما ما عليه كثير من قراء اليوم حتى المشهورون منهم بالتغنى المجنح بالقران والتمطيط والافراط فى المد واشباع الحركات حتى يتولد منها احرف لم ينزل بها القرآن ، واضاعة صفات الحروف كالشدة والجهر فى الباء والدال واخراج الحروف من غير مخارجها ·· والترقيص والترعيد والتطنين فى الغنات ·· واضعاف بعض الحروف وقتلها ، وقياس قراءة القرآن على القطع الموسيقية بادخال النغمات والاصوات المخزية المنكرة كالاصوات الرقيقة المخنثة ـ أما هذا فحرام ، لانه يخرج بالقران العظيم الى الهزل واللعب ، ويتنافى أيضا مع قدسية كلام الله ويحط من مستوى القرآن الى مستوى الالحان المطربة ، وفى من يفعلون هذا يقول صلى الله عليه وسلم (مفتونة قلوبهم ، وقلوب من يعجبهم شأنهم) ·

اما ما رواه البخارى عن أبى هريرة رضي الله عنه من قول الرسول صلى الله عليه وسلم :

(ليس منا من لم يتغن بالقرآن) ·

وما رواه أبو داود والنسائى وابن ماجة والحاكم وصححه ، وابن حبان من حديث البراء بن عازب رضي الله عنه ، من قول الرسول صلى الله عليه وسلم : (رينوا القرآن بأصواتكم) ـ فالمراد منه مد الصوت ، وحسن الترتيل ، ومراعة قواعد التجويد ـ كما قدمنا ـ وابراز الحروف والكلمات فى صورة قوية مؤثرة ، تستولى على القلوب ، وتأخذ بالالباب ، مع الخشوع والتعظيم والتوقير ·

يضاف الى ما تقدم وجوب مراعاة المعنى عند التلاوة ، فيلون القارىء صوته باللحن الموسيقى الذى يناسبه ، فالنغمة التى تناسب مواضع القوة والعظمة والقدرة غير النغمة التى تناسب مواضع أخرى · كالضعف والعطف والحنان مثلا ·

فقوله تعالى : « **قال كذلك قال ربك هو علي هين** » من سورة مريم تناسبه نغمة تشعر بالقوة ، لان هذا المقطع من القرآن يتحدث عن قدرة الله تعالى

فى خلق عيسى من غير أب ، فيجب على القارىء أن يراعى ذلك فى صوته ·

أما قوله تعالى فى نفس السورة عن مريم عليها السلام

« **يا ليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا** » ·

فالنعمة التى تناسب المقام هي نعمة الحسرة والحزن ·

وما ازال أذكر زيارة الدكتور طاهر الحميرى الى جامع الزيتونة بتونس وكان ذلك سنة 1950 وكنت حينذاك طالبا فيه ، فدخل ووجدنا محلقين حول شيخ يجود القرآن وهو من مشاهير المقرئين، فوقف ردحا من الزمن يستمع باهتمام . ثم انطلق وهو يهز راسه ، ويمط شفته ، شأن المتعجب أو المنكر ··

وبعد ثلاثة أيام حضرت له محاضرة القاها بقصر الجمعيات . لا أذكر الآن موضوعها بالضبط ، ولكنها حول (الموسيقية اللغوية) لاحظ فيها انه زار الجامع فجذبه صوت مجود ، فوقف يستمع ، ولكنه اطلع بعد حين انه ــ وان كان يحسن الابتداء والوقوف ، وله صوت رخيم مؤثر ــ لا يحسن استعمال الالحان فى قراءته حيث لا يفرق بين النغمة التى تمثل القوة ، والتى تمثل الضعف ، والحزن والحسرة ··

وهذا اللون من التلاوة أو هذه الطريقة هي المطلوبة والمرغوب فيها لانها تجتذب القلوب ، وتستميل النفوس ، فتقبل على القرآن بلهفة وشغف (وربما أثمر ذلك فى تدبر آياته ، والتفكر فى عوامضها ، والغوص على أسرارها ، فيحصل بذلك الامتثال لاوامر القرآن والانتهاء عن نواهيه) ·

وتلك هي الحكمة فى مشروعية الانصات الى تلاوة القران فى الصلاة او غيرها قال الله تعالى

« **واذا قرىء القران فاستمعوا له وانصتوا لعلكم ترحمون** » ·

ثورية القرآن :

اذا كانت الثورة من أجل التحرر، وتغيير الاوضاع الفاسدة التى لا تستقر معها حياة الفرد والمجتمع من أبرز مميزات هذا العصر الى حد اننا نفخر بأنه عصر الثورات ، فان الثورة من أبرز مميزات القرآن الكريم ·

وهذه الخاصة من مميزات القران أيضا عن سائر الكتب السماوية ،·· وهي التى ضمنت الخلود للاسلام، وبالتالى ضمنت مواكبته للبشرية فى تطورها وتجددها وتقدمها ·

وقد يتبادر الى الذهن من عنوان هذا المحور ما يتشدق به المستشرقون المتعصبون وضعاف العقول من انصاف المتعلمين من ان الاسلام لم ينتشر ولم تثبت قدمه فى هذا الوجود الا بحد السيف الذى كان يمهد له الطريق ، ويذلل أمامه الرقاب ···

وهذا ـ طبعا ـ من لوثات المتعصبين وتشكيكاتهم ، لا يقوى بها ذكي الفؤاد ، ونقي الطوية ، وسليم العقل ، وانما نعنى بثورة القرآن ، (وتورية الاسلام) طبيعته في المواجهة ..

فالملاحظ أولا ان القرآن الكريم لا يرضى بالصور الباهتة ، ولا المظاهر الخادعة ، ولا الالوان البراقة ، ولا الاشكال الخلابة ، ولا المعاني التافهة ، ولا التماثيل الكاذبة ، ولا الظلال التي تخفي وراءها حقائق مموهة .

ولا يرضى للانسان ـ هذا الذي استخلفه في الارض ـ ان يكون (ضعيفا في طلب ، أو مريضا في عزم ، أو هزيلا في هدف ، او مقصرا في غاية ، أو متأخرا في ركب ، أو قانعا في خير ، او نائما عن مجد ، أو متهاونا في كسب ، أو متوانيا في واجب ..

بل يريد القرآن من الانسان ويطلب منه بالحاح أن يكون قويا في كل شيء .

قويا في بدنه ، قويا في تفكيره ، قويا في ايمانه ، قويا في أخلاقه ، قويا في سلوكه ، قويا في عمله ، قويا في كل جانب من جوانبه ، وفي كل حالة من حالاته ، وان يكون طوال عمره كما يقول أبو فراس .

وانا أناس لا توسط بيننا
لنا الصدر دون العالمين أو القبر

وهكذا .. فالقرآن لا يرضى الا أن يكون أهله (أصحاب عضلات مفتولة ، وسيوف مسلولة . (57) ولكن لا على أساس أن يستخدموها للتدمير ، ويسخروها للعدوان ، ويوجهوها للشر ، ويرصدوها لاقلاق راحة الآمنين الوادعين ، وانما من اجل حراسة الحق ، وصيانة الحدود ، ورعاية الحرمات ، ونصرة الفضيلة ، وارساء مكارم الاخلاق ، وبناء حياة كريمة عزيزة) وهو الذي يقول **« وتعاونوا على البر والتقوى ، ولا تعاونوا على الاثم والعدوان »** .

ونتبين بوضوح ثورية القرآن من هذه الآيات التي نكتفي بها عن مجموعة كبيرة موزعة في مختلف أجزاء القرآن **« يا أيها المدثر قم فأنذر »** .. **« يا أيها الذين آمنوا اذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون »** .. **« فإما تثقفنهم في الحرب فشرد بهم من خلفهم لعلهم يذكرون »** .. **« يا أيها النبيء حرض المؤمنين على القتال ان يكن منكم عشرون صابرون يغلبوا مائتين وان تكن منكم مائة يغلبوا ألفا من الذين كفروا بأنهم قوم لا يفقهون »** .. **«قاتلوا الذين يلونكم من الكفار وليجدوا فيكم غلظة »** .. **« فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب »** .. **« ان الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا كأنهم بنيان مرصوص »** .

ونحس بثورة القرآن في الآية الاولى التي قيل انها أول ما نزل من القرآن على محمد صلى الله عليه وسلم (**يا أيها المدثر**) (58) وندرك عظمة النداء العلوي

وجلالته وقوته (**يا أيها المدثر**) وندرك ايثار الخالق الكريم «في انتداب محمد لمهمة عظيمة خطيرة شاقة هي انقاذ البشرية من الضلال والعصيان والتمرد والعتو والهلاك ·

وندرك خطورة الموقف ، وعظمة المهمة، التى انتدب لها محمد من انتزاعه من النوم والتدثر والدفء الى اليقظة والاستعداد ، والكفاح والجهاد ، والسهر والمشقة « **يا أيها المدثر قم فأنذر** » ·

وندرك من وراء الامر بالقيام وهجران النوم والراحة الى السهر والتعب ما يتطلبه الموقف العظيم من التهيؤ والاستعداد ، وصرامة الارادة ، وقوة العزم ، وشجاعة النفس ، واستقرار القلب ، والحزم والاصرار ···

واي وضع أشد وأخطر من الوضع الذى انتدب محمد صلى الله عليه وسلم لتغييره ؟

يجب اذن أخذ العدة ، ويجب هجر النوم والراحة ، ويجب اعلانها ثورة لا لين فيها ولا هوادة ، وذلك لعمرى ما فعله رجل القران محمد صلى الله عليه وسلم ·

انها ثورة على الوثنية والشرك ، وثورة على الظلم والجور ، وثورة على الاخلاق الفاسدة والاوضاع العفنة ·

واننا لنلاحظ ثورية القرآن فى الاساليب التي استعملها فى تغيير الوضع المتعفن الذى أصابه الانهيار والاساليب التى استعملها فى طريقه للدفع بالانسانية الى الانطلاق من الاسار :

فالقرآن يهدد « **ذرنى ومن خلقت وحيدا** »

والقران ينذر « **سأرهقه صعودا** » ·

والقران يدعو بقطع اليدين « **تبت يدا أبي لهب وتب** ··

والقران يزجر « **كلا انه كان لآياتنا عنيدا** »

والقران يلعن الخراصين الذين يقدرون الاشياء بحدسهم وظنهم من غير تعقل وتدبر ودون ان يستندوا فى ذلك الى وعى وعلم وادراك « **قتل الخراصون الذين هم فى غمرة ساهون**»·

ويكشف عما يلقاه أهل الكفر والضلال من العذاب الاليم فى الآخرة ، ويعبر عنهم بالمجرمين ، لانهم أهل جنايات جنوها على أنفسهم وعلى غيرهم · « **ان المجرمين فى عذاب جهنم خالدون، لا يفتر عنهم وهم فيه مبلسون** » ·

ويهدد بالويل والبلاء لمن يسمع ايات الله تتلى عليه ثم يضيق بها ويتنكر لها ويستعلى عليها · « **ويل لكل أفاك أثيم ، يسمع آيات الله تتلى عليه ثم يصر مستكبرا كأن لم يسمعها ، فبشره بعذاب أليم** » ·

ويستفهم للسخرية وينبه للقوة : « **واذا بشر أحدهم بالانثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم ، يتوارى من القوم**

من سوء ما بشر به ، أيمسكه على هون، أم يدسه في التراب ، ألا ساء ما يحكمون » ٠

ويستهجن العقيدة الحائرة ، الملعونة في جعل الملائكة اناثا « **وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن اناثا ، أشهدوا خلقهم ؟ ستكتب شهادتهم ويسألون** » ٠

ويعرض بأخلاق المرأة الجاهلية عن طريق التنويه بفضائل المرأة المسلمة ومحاسنها « **محصنات غير مسافحات ولا متخذات أخدان** » ٠

ويوعد المتلاعبين بالكيل والوزن فيغشون وينحرفون عن القسطاس ويبخسون الناس أشياءهم « **ويل للمطففين ، الذين اذا اكتالوا على الناس يستوفون ، واذا كالوهم أو وزنوهم يخسرون ، ألا يظن أولئك انهم مبعوثون ليوم عظيم ، يوم يقوم الناس لرب العالمين** » ٠

ويحكم على الذين يحاربون الله ورسوله ، ويفسدون في الارض بالسلب والنهب ، واهلاك الحرث والنسل ، أو اثارة القلق والفزع ـ بالقتل أو الصلب أو بتقطيع الايدى والارجل من خلاف « **انما جزاء الذين يحاربون الله ورسوله ، ويسعون في الارض فسادا ان يقتّلوا أو يصلّبوا أو تقطّع أيديهم وأرجلهم من خلاف أو يُنفوا من الارض، ذلك لهم خزي في الدنيا ، ولهم في الآخرة عذاب عظيم** » ٠

ويشبه الكافرين بالانعام « **والذين كفروا يتمتعون ويأكلون كما تأكل الانعام والنار مثوى لهم** » ٠

وبمثل هذه الاساليب الثورية واجه القرآن الكريم عناد الكفار وتعصبهم وتمردهم وعتوهم ، واصرارهم على الماضي في الظلام الدامس ، وعلى الطريق الملتوى ٠٠

وبهذه الثورة العرمة غير الوضع العربي المتعفن الى وضع آخر لم يكن يحلم به الفلاسفة المصلحون ٠٠ وانتشل الانسانية من وهدة الانحطاط الفكرى والعقيدى والاجتماعى ، ونقل الاجلاف العربية من حمأة الصغار والضياع الى أعلى الذرى ٠٠ الى « **خير أمة أخرجت للناس** »

وتهدأ ثورة القرآن عندما يخاطب المسلمين الذين شبوا على الجاهلية ، فيجمع لهم بين الشدة واللين ، والتأديب والتهذيب ، حتى يألفوا حياة الاسلام الجديدة ، ويتطبع بطابعها ، فتراه يلفت أنظارهم الى نعمة الاسلام ، نعمة تأليف القلوب ، ورأب الصدوع ، تلك النعمة التى حولت شتات العرب في جاهليتهم وحدة وعداوتهم في الجاهلية مودة ، ويدعوهم الى الاعتصام بحبل الله من خطر الفرقة ، ومن التيه في متاهات الشهوات والعداوات والحزازات :

« **واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا ، واذكروا نعمة الله عليكم إذ**

كنتم اعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا ، وكنتم على شفا حفرة من النار فانقذكم منها » ٠

وينصحهم بالتخلى عن بقايا الجاهلية ومساوئها « **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ، ولا نساء من نساء عسى أن يكن خيرا منهن** » « **يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون** » ٠

ويهديهم وفق ما تتطلبه الحياة الجديدة من ضرورة التعاون ودوام الصفاء ونبذ الفوارق الطبقية وجعل معيار الفضيلة الطاعة والتقوى « **يا أيها الناس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ، ان اكرمكم عند الله اتقاكم** » ٠

ونلمس هذه الثورة القرانية نفسها فيمن نزل عليه الوحي محمد صلى الله عليه وسلم عندما توسط عمه أبو طالب بينه وبين المشركين ، فاندفع فى صدق وحراة ايمان، وفى لهجة قوية صارمة وقال قولته المشهورة : (والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى ما تركت هذا الامر أو اهلك دونه) ٠

ولما حطم بيده آخر صنم للمشركين فى الكعبة يوم فتح مكة هدات ثورته ولان أسلوبه ، وقال فى جمع من أعدائه الالداء الذين آذوه وأخرجوه من بلده العزيز وهموا بقتله مرارا وقاتلوه : (يا معشر قريش ما ترون انى فاعل بكم ؟ فقالوا : خيرا ٠ أخ كريم ، وابن أخ كريم ، فقال : اذهبوا فأنتم الطلقاء) ٠

من هذه المدرسة القرآنية الكبرى التى كان يعلم فيها نبي الانسانية ، تخرجت افواج من الرجال الاقوياء الصادقين الذين فتحوا الدنيا وعمروها ، وكان فيها سادة العالم ، تدين لهم رقاب الجبابرة، وتنحنى لعظمتهم هامات المتغطرسين ، وبذلك الاسلوب الحكيم فى الدعوة (ثورة وسلم ، وشدة ولين ،) انتصرت دعوة الاسلام ٠

وسيظل القران ينتصر بثوريته وعمق ارشاده وسماحة تعاليمه ، وسيبقى المنهج القويم لتربية البشرية وتوجيهها خير توجيه الى الحياة الكريمة المثلى ٠

ولها الطابع الثورى الذى امتاز به القرآن عن سائر الكتب السماوية ، وتميز به الاسلام عن كافة الاديان ٠٠ (كان الاسلام ولا يزال المعين الاول للبطولة ، والمنبع الاول للشجاعة ، فهو مصنع البطولة والابطال ، ومعرض الشجاعة والشجعان) ٠

اثر القرآن :

حدث القرآن الكريم عن فعله وتاثيره فقال : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه ، ويهديهم الى صراط مستقيم** » ٠

فالقرآن اذن كتاب هداية ـ وقد تقدمت الاشارة الى هذا ـ يهدى به الله من يؤمن به ، ويبحث عنه ، ويعمل بآياته وتعاليمه ..

والى اين يهديه ؟ يهديه الى سبل السلام

سبل السلام الروحى : وذلك بالاطمئنان الى العقيدة الواضحة التى لا غموض فيها ولا تعقيد . وقد طلب القرآن الكريم الايمان بالله والالتجاء اليه فى كل شىء ، وافراده بالعبادة ، والاستعانة والدعاء .. والانسان فى حاجة الى هذه العقيدة فى كل وقت وخاصة فى عصرنا هذا ، وهو يعيش فى ظلام المادة ويكتوى بلهيبها المسعور ، ليحيا امنا مطمئنا .

سبل السلام الدينى : وذلك باخلاص العبادة لله تعالى ، فالانسان ضعيف عاجز ، بل ما هو فى هذا الكون الهائل الا ذرة تائهة ليس لها كيان ولا وجود ، ولكنه باتصاله بالخالق ، واخلاص العبادة له يصبح قويا لا يغلب ، خالدا لا يفنى ، عزيزا لا يذل .

وسبل السلام الاجتماعى . وذلك بالتواد ، والتكافل ، والتلاحم ، حتى يكون المؤمنون بالقرآن أينما كانوا ومن أي لون أو جنس كانوا أسرة واحدة أو جسدا واحدا ..

تلك هي السبل التى يهدى اليها القرآن الكريم : « **كتاب مبين يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام** » وهكذا .

فمن آمن بالقرآن واهتدى بهديه فانه يخلص لله فى عبادته ، لانه يحس بقربه منه ، ومراقبته له فى جميع حركاته وسكناته ، وذلك يبعثه دوما على السير فى الجادة نحو الغاية المثلى التى من أجلها خلق ...

ومن امن بالقران واهتدى بهديه تنقى قلبه من شوائب الخيانة والغدر والبغضاء والختل والرياء ، وبذلك يعيش فى المجتمع عضوا محبوبا ، وعنصرا نافعا ..

ومن امن بالقران واهتدى بهديه خرج من ظلام الجهالة ، وظلام الشبهات ، وظلام العداوات ، وظلام الشهوات ، الى نور العلم والمعرفة ، الى نور الادراك واليقين ، فى دنيا التفكير الصحيح .. الى آفاق الحقيقة فى عالم العقل والقلب والضمير .. : « **ويخرجهم من الظلمات الى النور** » .

وأي انسان يتفاعل مع القرآن الكريم . مع نظمه وتوجيهاته ، مع أحكامه وحكمه ، الا ويهتدى ويستقيم على الجادة ، ويكون منه عضو صالح ينفع نفسه ، وينفع غيره ، ويتكون منه ومن أمثاله مجتمع قوي فاضل . فالقضية قضية ايمان وتفاعل ، واستقبال .

فاذا قوي ايمان المرء بالقرآن ، وأحسن القلب استقبال آيات الله بتفرغه اليها وتفاعله معها ، ـ ارتبط بالملا الاعلى .

وعاش زمنا فى الصفاء المؤنس، وأحس من الاعماق انه مع الله ، يمده بطاقات من العون ، وشحنات من الارادة ، والعزم ، ويؤنسه ، ويضىء نفسه وقلبه ، ويثير فى أعماقه عالما من المشاعر والاحاسيس ، لا سبيل الى وصفها ·· فينزل بعد ذلك الى الميدان مزودا بسلاح لا يفل ، وقوة لا تغلب ، ونور لا يخبو ·· وهكذا يعيش محمى العقل والضمير ، والنفس ، فلا يحيد عن الحق ، ولا يميل عن الصدق ، ولا ينحرف عن الجادة ·

واية واحدة من كتاب الله الخالد اذا انفعل معها القلب ، والتقت مع أسراره المشاعر والاحاسيس ·· وعملت موجاتها الاثيرية عملها فى النفس ، تفتح القلب لحياة جديدة ، وتغير السلوك ، وتحول الانسان من شخص الى آخر ·

وهذا أثر القرآن وتلك هدايته ··

واذا أردنا أن نتبين أثر القران الكريم فى صورة أوسع وأوضح ، وفى صورة ناطقة من واقع الحياة فلنعد الى التاريخ نسأله عن حياة جاهلية كانت فيها البشرية ممزقة الاوصال ، ضاربة فى مهامة الضلالة ، تعانى الجهود الشاقة فى صراعها مع الحياة ، بعيدة عن نور القرآن الهادى ··· وعن حياة انسانية اشرق فيها وحي الله بما يحمل من التوحيد ، والعبادة الصحيحة ، والحب، والشفقة ، والعدل ، والرحمة ، والحياة الكريمة لبنى الانسان ···

نسأل التاريخ عن ذلك فينبئنا بما يثير دهشتنا ، ويحبس اللفظ فى أفواهنا ، ويضاعف ايماننا بأن هذا القرآن يهدى للتى هي أقوم · واليك البيان :

لو قدر لاحد أن يرى شبه الجزيرة العربية منذ أربعة عشر قرنا فماذا يرى ؟ وماذا كان يتوقع لذلك الجزء من العالم ؟

انه يرى القبائل المنتثرة هنا وهناك فوق رمال الصحراء القاحلة ، قد طغت عليها الجاهلية فسلختها من انسانيتها، وتملكها حب المادة فباعد بينها وبين سماء الرحمة ، وكانت من العقائد فى غواية ، ومن الاخلاق فى همجية ، ومن الدين فى وثنية ، ومن العادات فى وحشية ، ومن الاجتماع فى انقسامات قبلية ، وتحزبات عصبية ، لا دين يجمعها ، ولا قانون يردعها ، ولا قيم تؤلف بينها ·

وكانت جميع معالم الحياة الفكرية والسياسية والاخلاقية والاجتماعية تنذر بسوء المصير ، وتدل من يراها لاول وهلة ان بقاء الانسانية على تلك الحالة الشاذة لابد أن يفضى بها الى التلاشى العاجل ، وتريه بوضوح ان تلك العقول الجامدة ، والقلوب المتحجرة ، والعواطف الجافة ، والفطر الفاسدة ، لابد لها من صيحة توقظها ، وهزة تنفض عنها غبار الماضى : غبار الوثنية والهمجية والعبودية ، وروح سماوية تردها عن

غبها ، وتكبح جماحها . وتردهـــا الى الطريق السوي · (58)

بالاصافة الى ان العالم فى ذلك الحين كان كله يتخبط فى ظلام دامس ، وغيوم معتمة من الاضطرابات والفتن والقلاقل·

(كتب (ج · هـ · دينسون) فى كتابه (العواطف كأساس للحضارة) يصف الفترة التى سبقت بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم يقول

(ففى القرنين الخامس والسادس كان العالم المتمدن على شفا جرف مـــن الفوضى ، لان العقائد التى كانت تعين على اقامة الحضارة كانت قد انهارت، ولم يك ثم ما يعتد به مما يقوم مقامها ،، وكان يبدو ان المدنية الكبرى التى تكلف بناؤها جهود اربعة آلاف سنة مشرفة على التفكك والانحلال ، وان البشرية توشك ان ترجع ثانية الى ما كانت عليه مـن الهمجيـة ، اذ القبائـل تتحارب وتتناحر . لا قانون ولا نظام ، أمـــا النظم التى حلقتها المسيحية فكانت تعمل على الفرقة والانهيار ، بدلا من الاتحاد والنظام ، وكانت المدنية كشجرة ضخمة متفرعة امتد ظلها الى العالـــم كلـه ـ واقفة تترنح وقد تسرب اليها العطب حتى اللباب ··· وبين مظاهر هـــذا الفساد الشامل ولد الرجل الذى وحـد العالم جميعه · (59)

وهكذا كانت البشرية قبل مجـــىء القرآن تتيه فى ظلام دامس مـــوحش ، وتتخبط فى حمأة مسنونة . وتوشك أن تنهار وتضيع ·

فكان نزول القرآن الى الدنيا ، كما قال أحد المفكرين المعاصرين ، كالضوء ينبثق فى أعقاب الليل شيئا فشيئـــا فيبدد ظلمة الكون تدريجيا ، ثـم تكون اشراقة الصبح ، مؤذنة بانجلاء الظلام وانحسار الليل ، عن طلائع النهـــار وتبتدىء الشمس فى بهجتها فتنير جوانب الدنيا وتكشف للابصار عن مسالـــك الحياة فى آفاقها الواسعة ·

غير ان ضوء القرآن لم يكن يتضاءل بعد بزوغه ، أو ينكمش بعد اشراقـه كما يتضاءل وهج الشمس وهي تجـرى الى مستقرها فى السماء ···

وظلت آيات القرآن تتوالى عن طريق الوحي ، وهي تبدد الظلام ، وتقشـــع السحاب ، وتحـرر العـــقول ، وتحيى القلوب ، وتوقظ الضمائـر ، وتصنـع الانسان الذى يليق بالحياة وتليق بـه الحياة ·

وتمسك المسلمون بالقرآن فحفظـوه وتأملوه وتدبروه وغاصوا على ما فيه من حقائق وذخائر وأسرار ··· وطبقوه على أنفسهم وعلى ذويهم بدقة ، لانهم ادركوا انه دستور دينهم ، وأســـاس عقائدهم ، وشرائعهم ، وانه أنزل لصلاح الدنيا وصلاح الآخرة · فأعزهم بعد ذل وحررهم بعد عبودية وبدلهم بالضعـــف قوة ، وبالانحطاط رفعة ، وبعبادة الاوثان عبادة الله ، وانتظمـهـم فى وحـــد

الانسانية اخوانا متحابين متراحمين ، ينصر بعضهم بعضا ، ويعين بعضهم بعضا ، فى ايثار وانكار ذات ·

واستماتوا فى سبيل اعلاء كلمة الله ، ورفع شأن الوطن ، وباعوا أنفسهم فى سبيل المبادىء والقيم ، وصغرت الدنيا فى أعينهم فلم يفكروا فى دواتهم ، وانما فكروا فى مبادئهم وأهدافهم وأوطانهم ، فضحوا فى سبيلها ، وهزموا بايمانهم مع قلتهم الفرس والروم مع كثرة عددهم وعدتهم ، وحققوا النصر المبين ، وبسطوا ظل العدل والمحبة والاخاء فى كل بلد فتحوه ، وكل قطر حلوا به ، حتى قال الفيلسوف الهولندى الكبير (ديوتش) :

(كان القرآن الكتاب الذى استعان به العرب على فتح عالم كبير ، من العالم الذى قهره الاسكندر الاكبر ، بل أكبر من عالم الرومان ·· لقد جاء العرب مع قرآنهم الى أوروبا كملوك ، وهنا رفعوا مشعل النور ، ليضيئوا الطريق امام البشرية التى كانت منغمسة فى غياهب الظلمة ، وليعلموا الناس الحكمة والعلم والمعرفة والفلسفة والطب وعلم الفلك والفنون · (60)

وكان المسلمون اذا فتحوا بلدا كان هدفهم اعلاء كلمة الله ، وتطبيق نظم القرآن ، والقضاء على الفساد ··

وكيف لا والقرآن قد حدد لهم هذا الهدف فى قوله : « **الذين ان مكناهم فى الارض أقاموا الصلاة وآتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر ، ولله عاقبة الامور** » ·

وكانت أخلاق القرآن التى طبقها المسلمون على أنفسهم تغزو القلوب والنفوس قبل أن تغزو الجنود والجيوش

(لما بلغ الجيش الاسلامى وادى الاردن ، وعسكر أبو عبيدة فى فحص ، كتب الاهالى المسيحيون فى هذه البلاد الى العرب يقولون .

(يا معشر المسلمين ، أنتم أحب الينا من الروم ، وان كانوا على ديننا أنتم أوفى لنا ، وارأف بنا ، واكف عن ظلمنا ، واحسن ولاية علينا ، ولكنهم غلبونا على أمرنا وعلى منازلنا · (61)

وأغلق أهل حمص أبواب مدينتهم دون جيش هرقل ، وأبلغوا المسلمين ان ولايتهم وعدلهم أحب اليهم من ظلم الروم (62)

وكل هذا من أثر القرآن وفعله وصنعه وهدايته ···

أجل ـ قارئى الكريم ـ ان هذا الانقلاب الجذرى الذى حدث فى حياة العرب ، وهذا التحول الغريب الذى غير مجرى التاريخ ، وتلك الحضارة الزاهرة التى لم يشهد التاريخ نظيرا لها فى مختلف العصور ، وذلك المجتمع القوي الفاضل الذى اصبح طاقة زهر لا شوك فيها ، واسرة واحدة لا فضل لاحد على آخر الا بالتقوى ـ ان ذلك كله من اثر القرآن وفعله وصنعه

وهدايته . هذا الكتاب الذى « **يهدى به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ، ويخرجهم من الظلمات الى النور باذنه، ويهديهم الى صراط مستقيم** » .

تلك صورة مجملة عن أثر القرآن الكريم فى العرب وفى سائر المؤمنين به. ويعنينا بعد هذا الاجمال أن نصنف هذا التأثير ونوعه. ونكتفى منه بالاهم فى ايجاز خاطف

أثر القرآن فى الحياة العقلية :

لقد غير القرآن الكريم من طابع الحياة الجاهلية . فبعد ان كانت عقلية الأمة الباعثة ، والعزة الحمقاء ، الطاغية ، والحمية الجاهلية ، جعلها القرآن عقلية الاسلام تقوم على المحبة والسلام ، وطاعة الله تعالى ، وامتثال أوامره ونواهيه .

اثره فى الحياة العقائدية :

غير القرآن مفاهيم الالوهية لدى العرب ، فبعد ان كانت عقيدتهم الدينية تقوم على تعدد الالهة وعبادة الاوثان ، والتقرب بها الى الله ، جعلهم يخلصون ايمانهم وعبادتهم لله وحده ، هو رب كل شيء .

اثره فى الحياة الاخلاقية :

استبدل العرب بالاخلاق الجاهلية المقيتة أخلاقا اسلامية فاضلة ، تقوم على التضامن والتعاون والتضحية والعمل الصالح المثمر .

أثره فى الحياة الاجتماعية :

ابطل القرآن الكريم القوانين والنظم الجائرة الفاشية بين العرب التى تقوم عليها القومية العربية ، ورسم لهم نظما وقوانين يسعد بها الفرد ، وتنتظم بها الاسرة والمجتمع ، ووضع نظاما لوسائل العيش ، وكسب القوت فى عزة وكرامة، كما سوى بين الجميع فى الحقوق والواجبات الدنيوية ، والشعائر والتكاليف الدينية ، وفى أنواع العقوبات والجزاء الخ ...

اثره فى نفسية العرب :

فبعد ان احتبست نفوس العرب فى الجزيرة الضيقة ، فلا يستوحون من الرسوم والاطلال والاودية والجبال والصخور والرمال والناقة والبعير والبيد والسراب ـ لا يستوحون الا ما يلبى نوازعهم فى وصف المرأة أو الناقة أو غيرها من المعانى الفطرية البدوية ، ولا يدرون ما وراء الكون من وجود، ولا ما فى الوجود من سر وحكمة ـ جاء القرآن يدعو الى النظر والتفكير فى الكائنات وفى النفس البشرية، فصفت قلوبهم ، وذكت عقولهم ، وسمت مداركهم ، وكبرت نفوسهم ، واتسعت امامهم آفاق الجلال ، وعوالم الجمال، وباحات الكمال .

أثره فى اللغة العربية :

أدى القرآن الكريم رسالة لغوية أدبية لم يؤدها أي كتاب سماوى أو

صى ، فلولا القرآن الكريم لاندثرت لغة العربية كما اندثر غيرهـــا مـــن لغـــات ·

ويمكن اجمال أهم مظاهر هذا التأثير ى أمور أربعة

بقاء اللغة العربية هذا الامد الطويل وحد لهجاتها ، وروان ما كـان فيهـــا ن تناكـــر ·

جعلها لغة رسمية فى جميع الممالك لتى دخلها الاسلام ·

جعلها لغة تعليمية بعد ان كانت ملكة اسخة · وتفصيل هذه الامور يتطلـب كتابا مستقلا (62) ، وحسبنا أن نسوق هنا جواب العالم الشهير الدكتـــور ستينجاس) الذى أجاب به عن هـــذا لتساؤل

(ماذا كان يكون مصير هذه اللغـة لعربية لو لم يكن القران ؟) فقال

(نحن لا ننكر ان اللغة العربية انتجت بل الاسلام ألوانا عديدة من الشعـــر هي غاية فى الحسن والرقة ، الا انها كانت كلها محفوظة فى أذهان النـاس ىير مكتوبة ، زد على ذلك ان الشعـر يس هو الادب كله ، وكان العرب فيما بينهم منقسمين الى قبائل متفرقـــة ، ختلفين فيما بينهم ، فى ظروف طاحنة دائمة مما أثر على كيانهم وعلى ألسنتهم المختلفة ، ولولا القرآن لذهبوا ، وذهب معهم لسانهم وشعرهم المليء بالغـزل والحرب ، وكان للسائح المجازف مجال للبحث والمخاطرة فى سبيل جمع ما باد من هذه الكنوز ، وزاد بسبب شحنائهم وتعاملهم ، فلما جاء القرآن ابقى بطبيعته على هذا التراث ، وأوجد من مختلـف اللهجات العربية لغة موحدة مكتوبـــة هي لغة الادب العربى الى اليوم ، وزاد على ما كان موجودا من الشعر شيئـا كثيرا ، وجعل له أساسا يرتكز عليـه ، بل انه نظم الحياة العامة والخاصـــة للمسلمين فى صور كلها أدب ، وحكمة، ونثر عذب ، لا يزال حتى يومنا نبراسا للادب العربى فى أعلى صوره) · (63)

وهكذا وحد القرآن اللغة العربيـة ، فجعلها لغة الدولة الاسلامية ، وجعلها لغة سرمدية باقـية ما بقى القـــرآن ، والقرآن باق خالد ، بالاضافـة الى ان القرآن هذب العربية وسما بها الى أعلى المستويات ، ووسع نطاقها وحملها الى البلدان التى دخلها ·

والخلاصة ان القرآن الكريم قـــد أحدث أعظم انقلاب فى تاريخ البشـــر ، أحدثه فى نفوس المسلمين ، واحـداثـه بواسطتهم فى المجتمع الانسانى ، وكان هذا الانقلاب غريبا فى كل شىء (غريبا فى سرعته ، غريبا فى عمقه ، غريبا فى سعته وشموله ، عريبا فى وضوحه) ذلك سر القرآن ، وذلك أثره ، وذلـــك عمل منهجه التربوى فى صنع الافراد والامـــم ·

خلود القرآن وسلامته من التحريف :

أعلن الله تعالى عن خلود القرآن وسلامته من التحريف في هذه الآية الكريمة : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ·

كتاب باق خالد ، كتاب محفوظ لا يندثر ، ولا يتبدل ، ولا يلتبس بالباطل، ولا يمسه التحريف ، ولا تنال منه حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ، ومحاولات خصوم الاسلام ·

وكم بذل أعداء القرآن من حيل وجهود ، وكم انفقوا من أعمار في سبيل البحث عن مطاعن في القرآن أو لاثبات نقص أو زيادة أو لنفي الاعجاز له ، أو لنفي قداسته ، أو للتقليل من قيمته ، أو للحط من اثره ، فكانوا والقرآن كما قال الشاعر العربي ·

كناطح صخرة يوما ليوهنها
فلم يهدها وأوهى قرنه الوعل

فضاعت حيل الزنادقة ، وجهود المبشرين ،وخصوم الاسلام في اختراع المزاعم وتلفيق الاوهام والاباطيل ، فبقي القرآن ·

والسبب واضح جلي ، هو ان الله تعالى هو الذي تولى حفظه ، وسيظل يتولاه ، لانه كتاب الانسان ، وكتاب الكون ، وكتاب الدنيا ، وكتاب الآخرة ··

والذي أصبح من البديهيات ان التاريخ لم يعرف طوال عمره أمة في هذا الوجود عنيت بكتاب سماوي أو أرضي كالامة الاسلامية في عنايتها بالقرآن · ولم يحظ كلام الهي أو بشري بمثل ما أحيط به القرآن من وسائل الحفظ والرعاية والتقديس ، حتى ان الرسول صلى الله عليه وسلم نهى أن يكتب حديثه حتى لا يختلط بالقرآن ، وتم تدوينه كاملا باشراف الرسول وتحت رقابته ـ كما أشرنا الى ذلك في موضع من هذه الدراسة ـ ·

والسبب في بقاء القرآن محفوظا من كل ما من شأنه أن يعرضه للتحريف أو التبديل أو التغيير أمران :

1) طريقة نزوله ·

2) شيوع القرآن بين عامة الناس ، وهذا من الفوارق الاساسية بينه وبين الكتب المقدسة التي سبقته ، فالقرآن عام شامل بين سائر المسلمين ، يتعبدون بتلاوته ، ويتلوه الطفل في كتّابه ، والصبي في مدرسته ، والطالب في معهده ، والاستاذ في درسه ، بالاضافة الى انه الحكم الذي يحتكم في الشؤون الدينية والاجتماعية ·

ولا يعقل ـ والحالة هذه ـ أن يتطرق اليه تبديل أو تحريف ·

كما نلاحظ ـ بازاء ذلك ـ انتشار القرآن في مختلف أنحاء العالم عن طريق الترجمة ، وهذا ما لم نعرفه عن أي كتاب آخر سماويا كان أو أرضيا ·

فقد ترجم القرآن الى اكثر من أربعين لغة وهي ظاهرة تعد من معجزاته البارزة ·

كتاب ينفرد بهذه العناية ، والاهتمام، وينتشر هذا الانتشار المدهش ، ويبقى كيوم نزل من السماء نصا ومعنى بالرغم من المزاعم الباطلة ، والحيل المخترعة ، والمساعى المبذولة ، والسفاهات والبذاءات التى توجه الى القران الكريم طعنا ، ونقدا ، وتجريحا ، وتشكيكا ... أليس ذلك من معجزات هذا الكتاب ؟

وكم تقول كفار مكة ، وتشدق يهود يثرب ، وقالوا انه شعر ، أو انه سحر، أو انه أساطير الاولين ، فذهبت الاقوال وذهب أصحابها أدراج الرياح وبقى القران ، كالحياة ، كالزمان ، كالشمس ...

وكم من معارك ضارية ، وهجومات عنيفة طائشة شنها الاستعمار الثقافى ، والصليبية الفكرية ، وطوائف من المستشرقين والمبشرين والكاتبين ، ضد القرآن الكريم ، فقالوا فيه ـ حقدا وبغضا ـ انه بشرى ، وانه مادى ، وانه يدعو الى الحيوانية ، ويدعو الى الاستغراق فى الملذات الدنيا ، وانه يدعو الى الاعتداء والاغتيال ، ويحرض على القسوة على غير المسلمين ، ويدعو الى الدنيا ، ولا يدعو الى صفاء النفوس والمحبة الخ . ولكن القران بقى قويا صامدا كالطود الاشم ، لم تنل منه هجوماتهم المسمومة الا كما ينال نباح الكلاب من الشمس المشرقة الساطعة .

وظهرت منذ بضع سنوات فى بعض الاوساط الفكرية والثقافية مقالات باقلام انصاف المسلمين وانصاف المتعلمين ، تزعم ان القرآن نزل بالمعنى وان النبى والصحابة كانوا مفوضين فى أن يقرأوه كيف شاءوا ، يغيرون لفظا بآخر يؤدى معناه . وراد الطين بلة ـ كما يقولون ـ ان مهزورى العديده وصعاف الايمان، يتأثرون بهذه الاباطيل . ومن شطحات المراهقة (ان طالبة عربية مسلمة تقدمت ـ منذ سنوات ـ الى جامعة الاسكندرية برسالة لنيل (الماجستير) كان موضوعها اثبات (تلك الشبهات والترهات التى نشرها انصاف المتعلمين) ولم تعدم الطالبة المغرورة أن تجد لها من صغار النفوس ومرضى الاقلام من يدافع عن عملها هذا باسم حرية الرأي والبحث والدرس . (64)

ولكن القرآن بالرغم من هذه الهجومات التى تتوالى عليه من أعداء الاسلام وانصاف المسلمين بقى قويا ثابتا ناصعا مشرقا .

فاذا كانت الشمس منذ أمد سحيق هي الشمس فى مرأى العين ، بشعاعها الوهاج ، وشكلها الفرصى ، ومكانتها العليا ، لم تتبدل ولم تتغير ولم تنل منها اية قوة . فكذلك القران ...

وجل من قال : « انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون » .

والعوامل التى جعلت القرآن يحتفظ بنفسه ، ويبقى غالبا غير مغلوب ، ويظل خالدا يمد الانسانية بطاقة لا تنفد مدى الحياة ـ كثيرة ولكن اهمها وأبرزها

ن القرآن الكريم انفرد بخصائص جعلت نزوله يأخذ منهجا طبيعيا ، ونسقا منطقيا ، يرتبط بأحوال الحياة ، وشؤون الناس فترة كافية للاحاطة بكل دقيق منها وجليل ·

(فالمدة التى استغرقها نزول القرآن وهي ثلاث وعشرون سنة ـ كما قدمنا ـ يمكن اعتبارها دورة اجتماعية كاملة (65) ، تم فيها البيان الالهى لسياسة الحياة والاحياء ، وليس ما تقد به القرون بعد ذلك من احوال نفسية واجتماعية الا صورة مكررة لما سبق ان جاء به القرآن) ·

ولقد قضى القرآن من عمره الطويل الخالد اربعة عشر قرنا وهو يساير الانسان فى حياته وفى تطوره ، فى بداوته وحضارته ، فى طفولته وشبابه وكهولته وشيخوخته ، وما من شأن من شؤونه الفردية او الاجتماعية ، الا ووجد له فى القرآن مبداه وقانونه ·

ومهما تقدم الانسان وتطور ، ومهما اتسعت افاق علمه ومعرفته ، ومهما اكتشف من قوانين لتنظيم الاسرة ، كلبنة فى المجتمع وتنظيم المجتمع ، كوحدة بشرية ، وتنظيم العالم كوحدة انسانية · ففكره القرآن عن الكون والحياة والانسان أكبر منها وارحب واعظم قابلية للنمو والتجدد ، وأكثرها توازنا ومراعاة للفطرة البشرية · (66)

ومن أجل ذلك بقى القرآن أربعة عشر قرنا كما نزل (نصا ومعنى) · وعلة بقائه هذه المدة هي نفسها علة خلوده الدائم ·

والسر اذن فى (حفظ الله تعالى للقرآن) يكمن فى الحقائق الثابتة ، التى احتواها ، (67) فاذا كانت هنا معارف قد يطرا عليها تعبير او تبديل او خطأ فان معارف القرآن ـ سواء فى ذات الكونيات ، او الاسس والعبر ، او النظم والتوجيهات المختلفة ـ فاذا ثبوت الحقائق التى لا يعض من شأنها قدم ، وهي قديمة وجديدة فى ان واحد ، تتناسب مع تقدم الحضارة الانسانية فى شتى مجالات الحياة ·

وجل من قال : « **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** » ·

الى القرآن الكريم :

لقد كان القرآن الكريم هدى للمسلمين ، منه استمدوا قوتهم ونشاطهم وحيويتهم وعزتهم وسلطانهم ، يوم جعلوه قبلتهم ، وامامهم ، وقائدهم ، وعدتهم وزادهم ··

وكانت عناية المسلمين بالقرآن فوق كل عناية يتنافس فى استظهاره ، وحفظه المسلمون ، ويتسابقون الى مدارسته ، وتفهمه ، ويتفاضلون فيما بينهم على مقدار ما يحفظون منه ، وكانوا يتجافون عن المضاجع ايثارا للدة القرآن الكريم ، يتلونه فى الليل والناس نيام . وكان من يمر ببيوت الصحابة فى جوف الليل يسمع فيها دويا كدوي النحل ، بالقرآن ، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

يرغب فى تعليمه ونشره ، وفى تدبره وتفهمه ، ويرسل بعثات القراء الى كل بلد يعلمون أهلها القرآن ، (وربما كانت قرة عين السيدة أن يكون مهرها فى زواجها سورة من القرآن يعلمها اياها روحها) ·

وعلى هذا الدرب سار المسلمون فى مشارق الارض ومغاربها ، حتى ان حفظ القرآن واستظهاره شرط ضرورى لدراسة اللغة والعلوم ، فلاحق لاحد فى طلب العلم حتى يكون قد وضع القرآن أساسا له وأرضية ·

وانتشرت المعاهد والزوايا فى مختلف البلدان الاسلامية لتحفيظ القرآن ومدارسته . وما من عالم أو مصلح أو مفكر ، أو كاتب أو فيلسوف ، الا وقد حفظ القرآن الكريم فى هذه المعاهد والروايا ·

فاقرأ تاريخ من شئت من علماء الجزائر ـ مثلا ـ فانك تجده قد حفظ القرآن فى زاوية أو معهد أو على والده فى بيته ، ثم اتجه الى مناهل العلم يعترف ويكرع ، فابن باديس ، والابراهيمى ، والعقبى ، والميلى ، والتبسى ، والشرفاوى ، والحافظى ، والورتلانى ، وغيرهم من العلماء ورجال الدين ، وابطال المقاومة الجزائرية ، كلهم خريجو هذه المدرسة (المدرسة القرآنية) ·

فخلف من بعدهم خلف قل اهتمامهم بالقرآن ، وصار أكثرهم عناية واهتماما من يحفظ طائفة من السور القصار . واصبح أبناؤنا ، لبعدهم عن القرآن ، لا يفرقون بين كلام الله وكلام الرسول، ومنهم من لا يفرق بين القرآن ، والامثال، والحكم العربية ·

وقد قال لى يوما طالب جامعى يعمل مراقبا باحدى الثانويات. انه لم يعرف ان قوله تعالى · « **وكلوا واشربوا ولا تسرفوا. انه لا يحب المسرفين** » من القرآن حتى دله على ذلك أستاذ ، وذكرنى هذا بما قاله الاستاذ عبد السميع البطل أحد محررى (منبر الاسلام) ، انه صلى اماما باحد المساجد بالقاهرة ، وشرح فى الخطبة قوله تعالى فى تربية البيوت « **يا أيها الذين آمنوا ليستاذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر** ـ الخ » ثم قرأها فى الصلاة وعند الانتهاء منها تقدم اليه موظف كبير فقال له · لم أعرف ان الآيات التى شرحتها فى الخطبة ، من القرآن الا حين سمعتها منك فى الصلاة ···

فاهتمام المسلمين بالقرآن قليل جدا فى أغلب البلدان الاسلامية ، وقد صليت الجمعة منذ أسبوعين فى جامع صاحب الطابع بتونس ، وتعاقب على تلاوة القرآن خمسة قراء ، فأثار عجبى أن يخطئوا جميعا فى القراءة مرة او مرات ، فأين الاهتمام بالقرآن والحرص على حفظه ، وخاصة فى المغرب العربى

وقد سرنا قرار اللجنة المركزية في احتماعها الاخير بالجزائر بانشاء المعاهد لتحفيظ القران ودراسته ، وبجعل المادة الدينية من المواد الضرورية الاساسية ·

وجدير بالملاحظة ان القران كتاب العامة والخاصة ، ومن ثم يجب أن يهيأ لهم جميعا ، فالائمة في المساجد ـ مثلا ـ يجب أن يقرأوا في الصلاة من مختلف أجزاء القرآن ، لتتعود أذن المسلم على القرآن كله · ولكن الغريب في الامر ان جلهم ـ ان لم نقل كلهم ـ لا يقراون الا السور القصيرة المشهورة ، حتى صار القرآن غريبا عن المسلمين ، واستماع المسلمين الى القران كثيرا في المساجد والمدارس والاذاعات ، مما يقربهم منه، ويجعلهم يالفونه ولا يستغربونه ·

هذا من حيث العناية بالقران حفظا ودراسة ···

أما من حيث العناية به تفهما وعملا واهتداء ، فللمسلمين فيه شأن احر ··

فقد كان القران اماما يتبع ، وفيصلا يحكم ، ونورا يهدى ، ومعلما يوجه ويرشد ، وطبيبا يداوى النفوس والارواح، حتى ساد الجهل ، وأخذ من المسلمين مأخذه ، فاستعملوا آيات القرآن للتطبيب، والفتك بالاعداء ، وكشف عالم الغيب، وقضاء الحاجات ، وحل الطلسمات ، وتسخير الجن ، وتوسيع الرزق ، والتعاويذ والتمائم ، ولم يقفوا عند هذا الحد المخجل المخزى ، بل سولت لهم أنفسهم أن يتجرأوا على جلالة القران ومكانته ، فاولوه طبقا لاهوائهم واغراضهم السافلة ، واخرجوا اياته عن معناها ، فأولوه وحرفوه ليلبوا به نزعات (المشرعين) المفسدين · والقرآن حجة على غيره وليس غيره حجة عليه، والقرآن لا يرضخ لرغبة غيره ، وانما غيره يرضخ لرغبته ، فهو مسير وغيره مسير ، وهو قائد وغيره مقود ··

و (ما أضاع المسلمين ومزق جامعتهم ونزل بهم الى هذا الدرك من الهوان الا بعدهم عن هداية القرآن ، وجعلهم اياد عضين ، وعدم تحكيمهم له في أهواء النفوس ، ليكفكف منها ، وفي مزالق الآراء ليأخذ بيدهم الى صوابها ، وفي نواجم الفتن ليجلي غماءها ، وفي معترك الشهوات ليكسر شرتها ، وفي مفارق سبل الحياة ليهدى الى اقومها، وفي أسواق المصالح والمفاسد ليميز هذه من تلك ، وفي مجامع العقائد ليميز حقها من باطلها ، وفي شعب الاحكام ليقطع فيها بفصل الخطاب · وان ذلك كله لموجود في القرآن بالنص أو بالظاهر أو بالاشارة والاقتضاء مع مريد تعجز عنه عقول البشر ، مهما ارتقت ، وهو تعقيب كل حكم بحكمة ، وكل أمر بما يثبته في النفس ، وكل نهي بما ينفر عنه ، لان القرآن كلام خالق النفوس ، وعالم ما تكن وما تبدى ، ومركب الطبائع ، وعالم ما يصلح وما يفسد وبارىء الانسان وسطا بين عالمين · أحدهما خير محض ، والآخر

شر محض ، فجعله ذا قابلية لهما من غير أن يكون أحدهما ذاتيا فيه ، ليبتليه ايشكر ام يكفر ، وليمتحنه اي الطريقين يختار ، كل ذلك ليجعل سعادته بيده، وعاقبته باختياره ، وتركيته أو تدليسه من كسبه ، وحتى يهلك عن بينة أو يحيا عن بينة · (68)

وامام المذاهب الفكرية المتعارضة ، والفلسفات السياسية المتناقضة ، والتيارات المختلفة المنافية للاسلام وما استحدثه المسلمون من البدع والخرافات والاوهام ، وما ألحقوه بدينهم من مظاهر واشكال ، و (عبادات) وعادات، صار القرآن عزيبا ، واصبحت بينه وبين المسلمين هاوية سحيقة واسعة ، حتى انك لتجد القرآن في واد والمسلمين في واد آخر ·

ولن يكون المسلمون بخير ، ولن تكون لهم مكانة تحت الشمس ، الا اذا عادوا الى القرآن ، وتواردوا على الاستمساك به ، وتدبروه ، وتفهموه ، وعملوا بسننه ونظمه وقوانينه في مختلف الميادين ، في نظم الحكم والاقتصاد والمال ، في اكتشاف أسرار الكون ، بل في الحياة الخاصة لكل فرد ، وفي الحياة الاجتماعية لكل مجتمع ، وفي الصلات بين الشعوب في كل مكان ·

على انه قد يكون هناك من يجهل طبيعة القرآن ، ويجهل رسالته ، ويستهين بدوره في الحياة، ويتساءل هذا التساؤل

ماذا يصنع القرآن اليوم ، وقد بلغت الانسانية بالعلم درجة لم تكن تخطر بالبال ، واصبحت تحقق بين فينة وأخرى ما كان يعد بالامس القريب حلما وخيالا

والجواب عن هذا السؤال ان الحقائق التي احتواها الدستور السماوي لا تتعارض مع هذا التقدم العلمي الرائع المدهش ، بل ترحب به ، وتشجع عليه، وتدعو اليه ·

الم يحرر القرآن الكريم الفكر من الوهم والخرافة ؟

ألم يطلق العقل يرتاد الآفاق العليا ؟

ألم يكن حربا على الجهل والخمول والجمود والكسل والبطالة ؟

أليس أول ما نزل من القرآن « اقرأ باسم ربك » ؟

ألم يطلب الايمان بالله عن طريق النظر والتأمل ، لا عن طريق التقاليد والمحاكاة ؟

ألم يعد البحث القائم على العقل والعلم عبادة ؟ ألم ير العلم في روح البحث الحر جوهر الحياة ؟

ألم يقر للبشرية اصول الحق، وانار لها مسالك الحياة ، ووضع لكل داء من ادوائها دواء ناجعا ؟

هل يحسب أصحاب النعمات الناشزة المرتفعة هنا وهناك ان القرآن لو نزل في هذا العصر ، عصر البخار والكهرباء، عصر الذرة والصواريخ ، ينقص مبدأ من مبادئه أو يعدل عن رأي من آرائه ؟

ماذا ينقص ؟ أينقص مبدأ الاخـــوة في المجتمع ؟ أو ينقص مبدأ التعارف بين الامم ؟ أو ينقص مبدأ العدالة في الاحكام ، ومبدأ التواطو بين القـــوى والعمل ، أو مبدأ حرية الفكر ، وحرية العقيدة ، أو مبدأ التوازن بين الجسم والروح ، أو مبدأ السلوك القويم الذي خططه للفرد والمجتمع في المعاملات ؟

هل يحسب هؤلاء المتفيقهون انه ينقص أو يعدل من ذلك شيئا ؟؟

أو يحسبون انه يعدل عن تلك الفضائل العلمية الواقعية التي قدمها في مجال الفضيلة والاخلاق ، وفي مجال التربية الصادقة لانشاء جيل مثالي ؟؟؟

القرآن في مرآة الفكر الغربي :

ولقد أدرك الاجانب المفكرون الذين انصفوا القرآن فاشادوا به في تقديـر واعجاب ، وأكدوا ان المسلمين لن ينهضوا الا اذا عادوا الى القرآن ، يهتدون به ، ويسيرون على ضوئه . فهذا (ريتشارد وود) يقول

(ان كثيرا من المستشرقين يزعمـون ان المسلمين لن يتقدموا ما زالـــوا مقيدين بنصوص القرآن التي لا تتلاءم – في زعمهم – مع المعارف والفنـون الحديثة . وهذا وهم باطل نشأ عـــن الجهل بمقاصد القرآن . ويكفي برهانا على بطلانه تاريخ صدر الاسلام، وعناية علماء العرب بالعلوم والفنون ، ودراستهم لكتب الحكماء الاقدمين . (69)

ويقول الدكتور (بنوه) الفرنسي : (ان نصوص بعض آي الكتاب الموحى به الى محمد منذ ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا ، تتناسب واحداث مبادىء العلوم العصرية . وكـان من جراء هـــذه الملاحظات ان آمنت نهائيا (70) .

ويقول (فون بابن) مستشار الرايخ الالماني قبل هتلر :

(اننا نقف على حافة هاوية ، ذلـك لاننا تعلقنا باهداب العلم وظننا انه كـل شيء .. حتى استبعدنا العلم وبالعدنا في الاله والاختراع حتى صرنا عبيد الآلة والاختراع ، ولم تبق الا بارقـة أمل وحيدة في النجاة ، وهو ان نومن . ان هذا الكون له خالق ، وان هذا الخالق قد وضع لنا سننا وقوانين ، فان سرنا على هدى من هذه السنن والقوانيـن سخر لنا العلم ، وسخر لنا الاختراع ، ونجونا ولم نسقط في الهاوية . (71)

ويقول الاستاذ (ادوار جيبـون) (أن القرآن معترف بـه من حـــدود الاوقيانوس الاطلنطي الى نهر الكانج انه الدستور الاساسي ليس لاصـول الدين فحسب ، بل للاحكام الجنائيـة والمدنية والشرائع التي عليها مدار حياة البشر وترتيب شؤونهم . (72)

ويقول (غوستـــاف لوبون) : ان التعاليم الاخلاقية التي جاء بها القرآن هي صفوة الآداب العالمية والمبـادىء الخلقية الكريمة) . (73) ووقف رئيس

الحكومة البريطانية فى عهد الملكة فيكتوريا (غلادستون) وأعلن فى مجلس العموم البريطانى وهو ممسك فى يده بالقرآن الكريم : قائلا :

(انه ما دام هذا الكتاب باقيافى الارض فلن يقر لنا قرار فى بلادهم · (74)

تلك ـ قارئى الكريم ـ هي المعجزة الخالدة ، التى من الله بها على هذه الارض ، ففعلت فعلها ، وصنعت صنعها ، وأحدثت العجب العجاب ···

وذلك هو القرآن الكريم الذى نقل العرب من الجزيرة الضيقة التى يتناحرون فيها ، الى العالم الفسيح الواسع ·

نقلهم الى العالم ليقودوه من ناصيته ، على أساس العقيدة الواحدة ، والايمان العميق ، والصلة الروحية القوية ·

وذلك هو القرآن الكريم ، فى اعجازه واثره ، وفى هدايته ورسالته ، وفى تحولاته الجذرية العميقة التى عبر بها مجرى التاريخ فى العالم ···

فليقرأه المسلمون قراءة تدبر وتفهم ، وليعملوا بمبادئه وقوانينه ، وليعلموا ان المسلمين الاولين لم يكونوا صالحين بالجبلة والطبع ، وانما أصلحهم القرآن لما اعتصموا به ، واهتدوا بهديه ، وساروا على نهجه ، ولن يصلحنا القرآن الا اذا فهمناه وطبقناه ··· اذن ، الى القرآن الكريم ·

الى القرآن الكريم ، نستضيء به ، ونسير على هداه ، ونمضي على سننه ، ونحيا فى ظلاله ، ونتسلح به ، ثم ننزل الى الميدان ونحن المنتصرون بحول الله ·

وهنا ، اقف بفكرى ، وقد اتعبه الغوص فى هذا البحر الواسع الذى لا ساحل له ، والتحلق فى هذا الفضاء الرحب الذى لا حد له ، وأرفع هذا القلم الذى أحفاه احصاء ما لا يحصى ، وحصر ما لا يحصر ، ووصف ما لا يوصف ··

وانى اذ أقف هنا ، اعترف اننى لم أف الموضوع حقه ، فالحديث عن (المعجزة الخالدة) فى كل جانب من جوانبها مع الاجادة والاتقان أمر ستظل جهود الانسانية متضافرة عليه الى يوم القيامة ، (وتجد نفسها دائما أمام بحر زاخر واسع لا تنقضى عجائبه ، ولا تنفد خوارقه ، ولا تنتهى كنوزه وذخائره) ·

وأودعك ـ قارئى الكريم ـ وأملنا أن يشاهد القرن الجديد ، الخامس عشر الهجرى ما شاهده القرن الاول من التطور العظيم الذى أحدثه القران الكريم فى جميع الميادين ···

وطريق المسلمين الى ذلك هو الطريق الذى جربه أجدادهم من قبل (العقيدة الصحيحة ، والايمان القوي ، والعمل من أجل مستقبل أفضل فى ظل الاسلام ، وتحت راية القرآن) ·

(المصـــــادر والمـراجـــع)

1) انظر مناهل العرفان ـ محمد عبد العظيم الزرقانى ، ج 1 ص 36 ·

2) تفسير المنار والالوسى ·

3) رسالة التوحيد للامام محمد عبده ص 125 ·

4) انظر مناهل العرفان ج 1 ص 58 ·

5) دائرة المعارف ـ فريد وجدى ·

6) يراجع فى الموضوع مثل (الاسلام فى عصر العلم) لفريد وجدى و (ارتفاع الجسم الانسانى) للعالم الانجليزى الذ فى علم الكيمياء (وليم كروكس) وكتاب (الحادثة الروحية) للاستاذ (دولن) ·

7) ثورة الاسلام للدكتور ابى شادى ص 235 ·

8) الاتقان فى علوم القران للسيوطى ·

9) السيوطى فى الاتقان نقلا عن الواحدى ·

10) مناهل العرفان للزرقانى ص 107 ج 1 ·

11) انظر العرفان للزرقانى 6

11) انظر المرجع السابق ، والانتصار لنقل القران ـ لابى على الباقلانى ·

12) التوراة والانجيل والقرآن للكاتب الفرنسى (موريس بوكاي) ص 119 ·

13) معجم القران لعبد الرؤوف المصرى ص 181 ·

14) الاب مرمرجى ، فى (معلمته) ·

15) المعلمة الاسلامية م 4 ـ 5890 ·

16) مفاتيح الغيب ـ 1 ـ 156 ·

17) الجامع لاحكام القران ـ 1 ـ 155 ·

18) انظر (مشكلة القران) 1 ـ 23 ·

19) منير الاسلام ـ العدد الثالث ص 21 ـ اغسطس 1963 ·

20) يراجع اخر ساعة ـ العدد 1996 ـ 24 يناير ـ 1973 ويراجع ايضا كتـــاب (من اسرار القران) للدكتور مصطفى محمود ·

21) المصاحف خمسة ـ كما قدمنا ـ خلافا لمن قال انها اربعة ·

22) الاخلاق والواجبات ـ عبد القادر المغربى ص 8 ·

23) الهلال ـ ج 18 س 10 ـ يونيو سنة 1902 ·

24) أطوار الثقافة ج 1 ص 316 لجماعة من المؤلفين ·

25) ينظر فى أمهات الكتب الاسلامية ومنها مناهل العرفان فى علوم القـــرآن للـزرقـــانى ·

26) وهو الاسم الذى أطلق على المخطط المتفق عليه ·

30) أطوار الثقافة 1 ص 320 .

31) معجم القرآن لعبد الرؤوف ج 2 ص 92 ·

32) المصدر السابـــق ·

33) المصدر نفسه ج 2 ص 93 ·

34) يراجع (اعجاز القران) للرافعى و (مناهل العرفان) للزرقانى وللموضوع مراجع كثيرة ·

35 يراجع (طبقات القراء) لابن الجزرى الذى عنى به المستشـــرق الالمـانى ج· برجستراس ·

36) مقدمة تفسير المنار ·

37) المنار ـ محمد عبده ·

38) الاتقان ـ 1 ـ 120 ·

39) كتاب الزينة 1 ـ 116 ·

40) الاتقان 1ـ 119 ·

41) انظر نفس المرجع ·

42) نموذج من الاعمال الخيرية فى ادارة الطباعة المنيريـة ـ محمـــد منيـــر عبـــــده ص 166 ·

43) الشهاب نقلا عن مجلة الفتح ـ جانفى سنة 1935 ·

44) انظر (الاسلام دين الفطرة والحرية) ـ عبد العزيز جاويش ص 21 ·

45) المرجـــع السابـــق ص 26 ·

46) أطوار الثقافـــة ·

47) نموذج من الاعمال الخيرية ، منير عبده ص 297 ·

48) مجلة (رسالة الاسلام) العدد الثانى ـ ابريل سنة 1954 ·

49) في التاج العروس ، وفي المحكم (اللقف سرعة الاخذ لما يرمى اليك باليـــد أو باللســـان) ·

50) اعجاز القرآن ـ الرافعي ·

51) الاسلام يتحدى ـ لوحيد الدين خان 109 نقلا عن المؤرخ (ج · ساروار) ·

52) المصدر نفسه نقلا عن المستشرق (ولاستن) ·

53) انظر (الشفاء) للقاضي عياض و (نكت الانصار لنقل القرآن) للامـــام الباقـــلاني ·

54) العلم بين الاسلام والنصرانية ·

55) انظر مجلة (المسلمون) العدد الثامن ـ يونيو 1953 ·

56) دراسات قرانية ـ محمد قطب ص 488 ·

57) والراجح ان أول القران نزولا قوله تعالى (**اقرا باسم ربك** ···) كما قدمنا ·

58) راجع في هذا الموضوع (ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين) لابي الحسن النـــدوى ·

59) (المسلمون) العدد العاشر ـ يولية 1953 ·

60) منبر الاسلام العدد الخامس يوليو 1968 ·

61) (الدعوة الى الاسلام) ارنولد ·

62) انظر بسطة تفصيلية عن هذا الموضوع في كتاب (أثر القرآن الكريم) في اللغـــة العربية) ، للباقلاني ·

63) أطوار الثقافة والفكر ص 285 ج 2 ·

64) منبر الاسلام العدد الخامس ـ أوت سنة 1966 ·

65) يراجع في مظانه من كتب التفسير ·

66) يراجع كتاب (الدعوة الاسلامية) دعوة عالمية) لمحمد الراوى ·

67) تنطق بهذه الحقائق المختلفة المتنوعة آيات القرآن ·

68) المسلمون ـ العدد العاشر يوليو سنة 1953 ـ كاتبه المقال البشير ابراهيمي

69/70) على مائدة القرآن ـ للدكتور أحمد محمد جمال ·

71) الدعوة الاسلامية للاستاذ محمد الراوى ص 526 نقلا عن محاضرة للدكتور مصطفى الحفنـــاوى ·

72) على مائدة القرآن ·

73/74) منبر الاسلام ـ العدد الثالث ـ مايو 1968 ·

بداية مظلمة ونهاية مشرقة

الشيخ أحمد حماني
نائب المجلس الإسلامي الأعلى

البداية المظلمة 1300 ـ 1341 هـ :

كانت بداية القرن الرابع عشر الهجرى بداية مظلمة ، ثم كانت آخرته نهاية مشرقة بالآمال العريضة والامانى الجميلة.

اطل علينا هذا القرن الذى مضى بما فيه ـ باهلال المحرم من عام 1300 الموافق 12 نوفمبر 1882 ، ثم اختفى بنهاية يوم الثلاثاء 30 ذى الحجة 1399 هـ الموافق 20 نوفمبر 1979 م • وكانت احوال المسلمين يوم البداية كلها تنذر بالويل والثبور ، وعظائم الامور ، دينية كانت أو اجتماعية أو سياسية • وحتى الاربعين منه كانت تزداد سوءا على سوء ، فلا يوم الا كان الذى قبله خيرا منه ، ولا تزيد الهاوية فيه الا عمقا واتساعا ، ولا الامال فى النجاة الا بعدا وعسرا • ثم طلعت بشائر فى الافق ، واخذ الظلام ينجاب شيئا شيئا ، وادركتنا نهايته ـ والحمد لله ـ وقد تحررت معظم اوطان الاسلام ، وتطلعت أممه الى المستقبل البسام ، الملىء بالاحلام •

وقد كان القرن الثالث عشر الهجرى اسوأ القرون فى حياة المسلمين ، واظلم فترة فى تاريخهم ، خسروا فيها مساحات شاسعة من أراضيهم ، واطبح بدول عزيزة من دولهم ، وكانوا ـ كما قال عنهم مؤلف (أطلس التاريخ الاسلامى) السيد هارى . و• هارارد : فى هذه الفترة قد « احرز الاوروبيون فيها نجاحا باهرا على العالم الاسلامى . وكان الفضل فيما بقى لهذا العالم من استقلال سياسى يرجع الى تنافس الدول » ثم عدد خسائر الاسلام فيها من الاوطان ، فحسب فيها سقوط دولة الجزائر بين مخالب فرنسا ابتداء من عام 1246 هـ (1830 م) واقسام بريطانيا ، والمانيا ، وايطاليا ، والبرتغال سواحل افريقيا الشرقية ، وسكانها مسلمون ، وامتداد نفوذ بريطانيا الى الجزيرة العربية نفسها ، فاحتلت جنوبها وحزائرها ، وبسطت حمايتها على بعض

سواحلها . وتعرض بلاد فارس والافغان للضغط الشديد من بريطانيا . وروسيا ، التى استولت على آسيا الوسطى وانتلاعها أوطان ما وراء القوقاز ، واحتلالها بسارابيا (رومانيا) ، ومساعدة دول أوروبا النصرانية على انفصال ما كان تابعا للدولة العثمانية (دولة الخلافة) من رومانيا ، وبلغاريا والعرب والمجر واليونان (1) ·

هذه بعض خسائر العالم الاسلامى فيه ولم يشاء هذا القرن ان يودع دون ان يسجل ضحيتين غاليتين يصبغهما الى قائمة الخسائر الطويله فى أواخر ايامه : تونس ومصر ، فقد أهل القرن الرابع عشر على العالم فوجد تونس قد سقطت بين مخالب فرنسا ابنة الكنيسة البكر فى ربيع عام 1298 هـ (1881 م) وبدأت ايامه والفريسة تتخبط بين يدى الوحش الاستعمارى يشد وثاقها باتفاقيات ومعاهدات ليس لتونس منها الا الامضاء وعليه الوضع والاملاء . كما وجد مصر قد وثب عليها الاسد البريطانى الذى لا يشبع . فعصف بامنها وغصب استقلالها ، واستعبد شعبها ووثب منها الى السودان يقطع أوصاله ويستبيح حلاله وحرامه · وبسقوط تونس ومصر فتح فى الجسم الاسلامى جرح جديد عميق وثلم فى حصونه ثغرة واسعة خطيرة ، واصبح الطريق ممهدا أمام الاستعمار الصليبى للقيام بهجمات مسعورة على بلاد الاسلام وضد شعوبه ليعيث فى الارض فسادا . ويجوس خلال ديارة فى بلاد السودان شرقا وغربا وجنوبا يفتك بدوله ، ويبطش بأمنه ، ويروع الآمنين من أهله ، ويعلن فى زهو وخيلاء بتمكينه من الاسلام والانتصار عليه ، ثم يخيل اليه انه من القوة والتمكن بحيث يستطيع الاجهاز عليه واذلال بيه نهائيا وتسخيرهم لدولته ·

يعرب عن ذلك بوضوح قول وزير خارجيه فرنسا المسيو هانوتو فى جريدة الجرنال الباريسية بعد بضعة عشر عاما من حلول القرن ما نصه :

(صارت فرنسا بكل مكان فى صلة من الاسلام ، **بل صارت فى صدر الاسلام وكبده حيث فتحت أراضيه ، واخضعت لسطوتها شعوبه** ، وقامت تجاهه مقام رؤسائه الاولين وهى **تدبر اليوم شؤونه وتجبى ضرائبه ، وتحشد شبابه لخدمة** الجندية، واتخذت منهم عساكر يذبون عنها فى مواقف الطعان ، ومواطن القتال) (2).

---

(1) اطلس التاريخ الاسلامى ، ص 30 ·

(2) من مقال لهانوتو نشر فى جريدة الجرنال الباريسية ترجمة العلامة محمد مسعود ونشرته جريدة (المؤيد القاهرية عام 1317) وهو موجود فى تاريخ الاستاذ الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 ·

واى فرنسا هذه التى صارت فى صدر الاسلام وكبده ؟ انها فرنسا الصليبية التى ردت العرب عن أوروبا ، والتى نواجه الاسلام وهلاله الذى (لا يزال طرفاه ينتهى احدهما من جهة بمدينة اسطمبول والآخر ببلدة فاس فى المغرب الاقصى ، معانقا بذلك الغرب كله · فى تلك البقعة الافريقية التى اصبحت مقر ملك الاسلام جاءت الدولة الفرنسية لمباغتته : جاء القديس لويس الذى ينتمى الى اسبانيا بوالدته ليضرم نيران القتال فى مصر وتونس ، وتلاه لويس الرابع عشر فى تهديده بالايالات الافريقية ، وعاود هذا الخاطر نابوليون الاول · فلم يوفق الى تحقيقه الفرنسيون الا فى القرن التاسع عشر حيث اخذوا على دولة الاسلام التى كانت لا تنى فى متابعة الغارات على القارة الاوروبية فاصبحت الجزائر فى أيديهم منذ 70 عاما ، وكذلك القطر التونسى منذ 20 عاما وقد وصلت طلائع قوانا الآن الى اصقاع من الصحراء تنتهى اليها كثبانها الرملية فعظم اندهاش الباقين من خصومنا وتزايد ذهولهم ··· وقد حلق عليهم الاوروبيون من جميع الجهات 3) · وفى هذا المقال ذكر الوزير ما أصاب ـ أو سيصيب ـ السينغال ، ومالى ، والنيجر ، وتشاد والكونغو وكل أقطار وسط وغربى افريقيا الاسلامية ·

فهذا الوزير مزهو بان فرنسا حققت أحلام القديس لويس الصليبية فى حرب الاسلام واطماع من جاء بعده من ملوك فرنسا وساستها ، شامت بالاسلام الذى صارت حراب فرنسا مغروسة فى صدره وكبده ، متفائل بدوام تدبير فرنسا لبلاده واستغلال ثرواته ، واذلال شعوبه ، باحث عن أمر الوسائل التى بها (يخلس) فرنسا الاسلام من قلوب وعقول المسلمين ، وصرفهم نهائيا عن مكة · وقد زعم ـ افكا ـ انهم توصلوا فى تونس بحسن السياسة فى أحكام الحيلة والتدبير من استغفال أهلها وصرفهم عن الاسلام (نمكنا بواسطة ما أدخلناه من التعديلات الطفيفة شيئا فشيئا وأجريناه من المراقبة على الامور الادارية والسياسية من التدخل فى شؤون البلاد والقبض على أزمنه بدون شعور من أهلها · ثم هذا الانقلاب بسرعة ولين فلم يتالم منه الاهلون ، ولم ينخدش منه احساساتهم ··· اذا يوجد الآن بلد من بلاد الاسلام قد ارتخى بل انفصل الحبل بينه وبين البلاد الاسلامية الاخرى الشديدة الاتصال

---

(3) انظر تاريخ الاستاذ،الامام محمد رشيد رضا ، ج 2 ص 401 وما بعدها ·

بعضها ببعض . اذا توجد أرض تتفلت نبتا فشيئا من مكة ومن الماضى الاسيوى ... أرض يصح ان نتخذ مثالا يقاس عليه . ونموذجا نسبح على منواله الا وهى لبلاد التونسية (4) .

والوزير الفرنسى فى هذا الرأى الذى يزهو بان فرنسا توصلت به الى فصل بلد من بلاد الاسلام عن القافلة وصرفته عن مكة الى باريس انما يرد على رأى آخر يذهب أصحابه الى اخذ المسلمين بالعنف والشدة ، فقد قال مواطنه المسيوكيون فيما نقل عنه من كتابه (باثولوجيا الاسلام) :

« ان الديانة المحمدية جذام نشأ بين الناس واخذ يفتك بهم فتكا ذريعا ، بل هى مرض مريع وشلل عام ، وجنون ذهولى ، يبعث الانسان على الخمول والكسل ... والمسلمون وحوش ضارية وحيوانات مفترسة كالفهد والضبع ... والواجب ابادة خمسهم ، والحكم على الباقى بالاشغال الشاقة ، وتدمير الكعبة ووضع ضريح محمد فى متحف اللوفر (5) » . والمسيو هانوتو الوزير الكبير لا يمانع ـ مبدئيا ـ فى هذا الحل ولا يسفه هذه الاحكام على المسلمين ، الا لمحاطر المتوقعة من تنفيذه اذ يقول : (وهو حل بسيط ، وفيه مصلحة للجنس البشرى ... أليس كذلك ؟ وقد برح عن خاطر الكاتب انه يوجد 130 مليون مسلم ، وان من الجائز ان يهب هؤلاء المحاربين للدفاع عن أنفسهم والذود عن بيضة دينهم (6)) . فمحو الاسلام كدين والقضاء على دوله ، وابادة أهله لم يكن ـ حتى مطلع القرن العشرين الميلادى ـ فكرة شعبية عند الاوروبيين فحسب ، وانما كانت فكرة فى أذهان (المؤلفين) من الكتاب والعلماء والمفكرين ، وخطة عند الوزراء والسياسيين ، وغاية للدول والقادة المسيرين ، وقد كانوا يسمون دولة الخلافة ـ رمز الاسلام ـ (الرجل المريض) ويعملون بكل حقدهم ودسائسهم للتعجيل بوفاته لقسمة تركته . بل يخططون ـ بمعاهدات سرية أو علنية ـ لتوزيع أجزاء مملكته . ولم تستول فرنسا على تونس ولا بريطانيا على مصر الا بالرضى والقبول من الاخرى عن صمع صاحبتها وقد باركت المانيا

---

(4) المصدر المذكور ، ص : 413 ـ 414 .

(5) المصدر المذكور ، ص 409 .

(6) المصدر المذكور ، ص : 409 ـ 410 .

فعل فرنسا فى تونس ودفعتها اليه حتى سكت لها عن الالزاس واللورين ، وكادت فرنسا وبريطانيا تصطدمان فى السودان ، ثم اتفقتا واصطلحتا .

ولما أنهى الجيش التركى عهد السلطان عبد الحميد رحمه الله عام 1908 واستلم الحكم ضباط شبان كان ينتظر منهم تجديد شباب الدولة ، والنهوض بالجيش والقضاء على الفساد ـ تألب ضدهم الدول الاوروبية الحاقدة ، وأعرفهم فى مشاكل ومصائب لا نهاية لها ، بل بادرت بالفعل الى غزو أرضها ، واقتطاع أطرافها وانتهزت الفرصة فى البقية الباقية من البلدان فى أيدى المسلمين ، ففى عام 1911 سلطت ايطاليا على طرابلس الغرب ، وانزلت جيوشها بسواحلها ، وارتكبت اثناء حربها من الموبقات والفظائع ما تقشعر من هوله الابدان ، وكل ذلك مباح فى عرف أمم النصرانية ضد الاسلام .

وكان فى مؤازرتها كل الدول الاوروبية الصليبية كى تنال ايطاليا حصتها تحت الشمس من افريقيا الاسلامية ، وفى السنة الموالية عام 1912 امتدت يد فرنسا بالعدوان الى المغرب الاقصى ، وقبضت على الطرف الغربى من الهلال الاسلامى ، كما لمح الى ذلك من قبل الوزير الفرنسى هانوتو . وفى هذه السنة نفسها (1912) دفعت أوروبا دول البلقان الى اعلان الحرب على دولة بنى عثمان ، محققين سياسة صليبية رهيبة اعتنوا بها ولم يحفوها (ما أخذه الصليب من الهلال فلن يرجع الى الهلال ، وما أخذه الهلال من الصليب فلابد أن يرجع الى الصليب) وهكذا فرزوا عاقبة الحرب ومآلها وبدروا من جسم الاسلام كل اراضيه فى شبه جزيرة البلقان ما عدا مساحة ضئيلة من ضواحى القسطنطينية الشرقية ، وأثناء هذه الحرب القذرة ارتكب البلغار والصرب واليونان من الفظائع ما لا يتصوره انسان له دين وخلق يقول كاتب تركى : « الجيش البلغارى قد علمنا درسا لا ننساه ، وهو انه يجب على كل جندى فى ساحة الحرب ان يقاتل مقاتلة البربرية والوحشية ، ويشرب الدماء كالماء ، ويذبح النساء والاطفال والشيوخ الشيب تذبيحا ، ويسلب وينهب السكان الآمنين ، ويمنعهن حرمتهم وشرفهم ويزهق أرواحهم » (7) . وقد حققت بعثة جمعيه أمريكيه الى البلقان (ما روى من الفظائع التى ارتكبها البلغار واليونان والصرب بالمسلمين سنة 1912 فنبت لديها كل ما قيل بل زيادة على ما شاع .

---

(7) لوتروب ستودار فى كتابه حاضر العالم الاسلامى ، ج 4 ص 17 .

وحررت خلاصة الفحص وقررت ان الترك ارحم جدا وارأف واشرف فى حربهم من الامم السلفانة المسيحة . ولكن الصحف الاوروبية لم تنشر هذا التحقيق ولا اشارت اليه . وكان اكثر الاوروبيين ينظرون الى ما حل بمسلمى الروميلى بنظر الشماته » (8) ٠

وهكذا نرى ان عام 1912 كان من أسوا الفترات فى تاريخ الاسلام بما تحقق فيه من خسارة جسيمة فى بلاده ، وهزائم ساحقه لجيوشه ، وتسلط الاعداء على أمته . وزياده عما ضاع فعلا ، فان أمم الاستعمار الصليبى كانت تتعاقد فيما بينها على اقتسام ما بقى من اجزائه وتدبر الخطط لاحتلاله . ولم يكن هذا حافزا على ساسة المسلمين ووزراء دولهم وانما كان فصارى همهم ان يحاولوا الانفلات والتملص من شباكهم . يقول الامير شكيب ارسلان رحمه الله ـ وهو بترجم للمرحوم أنور باشا احد قادة الانقلاب فى تركيا ، ورجال الحرب والسياسة فيها فيما بين 1908 ـ 1918 م ما نصه : (كان أنور يرى ان الحلفاء تقاسموا بلاد الدولة فيما بينهم شق الابلمة قبل الحرب العامة . ففرنسا وانفلتيرا تقاسموا سرا سوريا وفلسطين منذ سنه 1912 كما اعترف بذلك المسيو بوانكرى فى مجلس الشيوخ الفرنسى » (9) ٠ وما خفى عن السلطان ما كان يدبره الامير حسين ضد حكم الدولة فى الجزيرة العربية وانذر بذلك وزراءه ٠

وقد سعى هذا الامير ـ بواسطة أمير من أمراء البيت المالك فى مصر ـ لدى حكومه الانقلنز فى لندره عام 1912 لتمده بالسلاح والعناد قصد (تحرير) بلاد العرب من الترك فرفضت ذلك (ولم نكتم السبب فى رفضها هذا المشروع وهو ان انفلتيرا تريد هى الاستيلاء على بلاد العرب . فلا يوافقها أن تعطى جزيره العرب سلاحا) (10) ٠ وكانت انقلتيرا تمنع دخول السلاح الى الجزيرة العربية منذ زمان بل حاولت جمعه من أيدى العرب بواسطة شراء ما عندهم بضعف ثمنه . كما حاولت جمعه من سكان اماره

---

(8) شكيب أرسلان (حاشية) فى المصدر المذكور وفى الصفحة نفسها ٠

(9) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان . ج 4 ص 375 ٠

(10) حاضر العالم الاسلامى . شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 ٠

عمان بالقوه بواسطة أميرهم فنشبت ثورة عارمة أجبرتها على العدول عن تنفيذ مشروعها بالقوة (11) ٠

ثم اضطروا من بعد نشوب الحرب الى محالفة الامير حسين ، ومنوه الامانى ، وضربوا به الدولة من الخلف ، ولكنهم خانوا عهوده ، واقتسموا البلاد العربية ، واستعملوه وابناءه لخدمة سياستهم واعراضهم ٠

وكما عرض حسين صداقته على الحلفاء والدخول فى صفوفهم منذ عام 1912 فان دولة فارس فعلت ذلك فى مستهل الحرب لاتقاء شرهم فكان الجواب الرفض ، وعرضت ذلك مصر اثناء الحرب بشرط ان يجلوا الانفليز من بلادهم فرفض الطلب لان فى المحالفة مشاركة توجب حفا وتفرض وفاء ، وتمنع اساءة وما كان هدفهم الا اقتسام بلاد الاسلام واحتلالها ٠

وقبل دخول تركيا الحرب العالمية الاولى بجانب الالمان وحلفائهم (عرضت على الحلفاء ان تكون معهم بشرط ان تامن شرورهم فى المستقبل ، فابى الحلفاء محالفة تركيا لهم ، وكل ما طلبوه منها كان التزام الحياد التام ، وبمقابلة ذلك تتعهد الروسية بان لا تهاجم تركية مدة ثلاثين سنة (12)) ٠٠٠ و « بديهى ان رفض الحلفاء هذه المساعدات من دول العالم الاسلامى مبنى على أساس واحد ، وهو ان الحلفاء لو قبلوا مساعدات الحكومات الاسلامية اثناء الحرب العامة لما كان لائقا ان يقتسموا فيما بعد الحرب بلاد الاسلام الباقية الاقتسام الاخير كما كانوا ينوونه اثناء الحرب ، وكما فعلوا بعد الحرب ولو رضوا دخول تركية معهم وقبلوا عضدها ٠٠٠ لما كان يجوز بعد الحرب انفاذ برنامج التقسم الذى كان مقررا بين انقلترا وفرنسا منذ عام 1912 م ٠٠٠ ولو رضوا بدخول العجم (فارس) فى الحلف لما كان يحل لهم ان يحهزوا عليها الاجهاز الاخير ـ بعد الحرب ـ كما كانت النية منهم مبيتة ، ولو قبلوا افتراح مصر لتعين عليهم الجلاء عن مصر بعد الحرب على وجه المكافأة » (13) ٠ فاقتسام بلاد الاسلام التى كانت ما تزال محتفظة على استقلالها كان من اهداف نشوب الحرب العالمية الأولى وقد رأينا ما اتفق عليه الانفليز والفرنسيون ومثلهم غيرهم (مما لا ينكر أن الاستيلاء

(11) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ج 4 ص 391 و صفحة 445 ٠
(12) حاضر العالم الاسلامى ، شكيب أرسلان ، ص 329 ، ج 1 ٠
(13) نفس المصدر ، ص : 329 ـ 330 ٠

على الاستانه كان أول أهداف الروسية في دخولها هذه الحرب . ومع ذهاب الاستانة بذهب الاناضول » (14) ... ولو خرجت الروسية من الحرب العامة عالمة لكانت السلطنه العثمانية أثرا بعد عين (15) (وكذلك بدت ان بعض الدول الغربية الكبرى كانت عرضت على المانيا تقسيم السلطنة العثمانيه وان تكون حصة هذه الاناضول) (16) . فتقسيم العالم الاسلامي واستعباد أهله . واستباحه حماه كان قدرا مشتركا بين الدول الاوروبية الشرقية منها والغربية . وقد ظن الحلفاء انهم بانتصارهم في هذه الحرب الكونية ستطيعون ان يحققوا كل احلامهم في القضاء على الاسلام ودوله ، ووسوس لهم شياطين اطماعهم انهم فاب قوسين أو ادنى من الوصول الى اهدافهم الصليبية ، ولم يخف ذلك فادتهم فان الجنرال اللنبي لما دخل القدس عام 1917 قال : (الآن انتهت الحروب الصليبية) ولما دخل الجنرال الفرنسي المغرور غورو دمشق من بعد وقف فوق قبر صلاح الدين الايوبي وقال : (صلاح الدين ها نحن احفاد عود فروى فاين احفادك ؟) . لقد انسلت روسيا من الحرب عام 1917 اثر ثورة أكتوبر الاشتراكية . ثم خرج منها الالمان وحلفاؤهم ـ ومنهم دولة الخلافة ـ عام 1918 خاسرين . وخرج الحلفاء الفرنسيون منها ظافرين بعد ان رجحت الولايات المتحده الامريكية كفتهم بوضعها كل ثقلها المادي الرهيب ، وثقلها السياسي الخلاب في ميزانهم ، باعلان رئيسها ويلسون مبادئه الاربعة عشر لتكون قاعدة السياسه بين الامم ، ومنها اعلان حق الشعوب المغلوبة في تقرير مصيرها بيدها ، فاستبشرت الانسانية ، وتفاءلت الشعوب خيرا .

ولكن الحلفاء الغربيين ، دهاقين الاستعمار الطامعين ، والصليبيين الحقودين كانوا من وراء اطماعهم يهرعون ، فقد احتلوا من تركيا تراقيا الشرقية وهي البقعة الباقية من تركية أوروبا . كما احتلوا المضائق التركية ، والاستانة (اسطمبول) عاصمة الخلافة الاسلاميه ، وتعففوا عن احتلال برلين ، وفيينا ، وبودابست ، وصوفيا عواصم المانيا وبقية حلفائها ، ثم اخذوا يقتسمون بلاد الاسلام غنائم ، يوزعونها بينهم ، ويمنحون منها ما شاء ولمن شاءوا من

(14) شكيب أرسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، ج 4 ص 376 .

(15) نفس المصدر ونفس الصفحه .

(16) المصدر السابق والصفحة السابقة .

اصدقائهم ، ولم يبقوا منها شبرا واحدا لاهله ينعمون فيه باستقلال حقيقي يليق بانسان حر ، وقد ولدت الناس أمهاتهم أحرارا • كان من جملة ما صنعوا انه ليس لتركيا أي حق فيما قرب من شواطئها وما بعد من جزر البحر الابيض المتوسط أو بحر ايجي . ووزعت هذه الجزر منذ 1912 ما بين ايطاليا واليونان وكانت جزيرة قريطس (كريت) قد سلخت من جسم الدولة العثمانية عام 1898 م (1300 هـ) ومنحت لليونان . كما ان قبرص سطت عليها بريطانيا منذ عام 1878 فاحتلتها ، ثم أخذت تعمرها باليونان . واعلنت الحافها بستعمرات التاج عام 1914 . كما أجبرت تركيا على ان تتخلى عن كل مطلب فيما كان تابعا لها أو مرتبطا معها من الدول والاقطار العربية . ومنها طرابلس ومصر وبقية البلاد العربية . حتى يكون احتلالهم لها شرعيا . وميراثهم اياها سائغا •

ومع ان الملك حسين وابناءه ومن تبعهم من العرب حاربوا اخوانهم في الدين منخدعين بوعود الحلفاء التي امضاها ملك الانقليز أو نوابه المفوضون فان الحلفاء خانوا عهدهم ولم يوفوا بشيء من عقودهم ، و (عومل العرب بعد الحرب معاملة الاعداء . وقسمت بلادهم غنائم والذي هو باق اليوم بدون احتلال فعلا . فالنمسه وضع اليد عليه عند أول فرصة (17) • ثم ظهرت نياتهم المبيتة في جعل وطن الاتراك مستعمرة لونانيه اذ حرصوا دولة اليونان على النزول بسواطىء تركيا في آسيا . واحتلال مدنه ، ثم الزحف منها على الاناضول واحتلوا ازمير وزحفوا على الاناضول . واحتلوا العاصمه العتيقه لدولة آل عثمان (بروسا) حتى توجد صريح مؤسس دوله الخلافة العظمى وابنائه من عظماء السلاطين واخذوا يعيثون في الارض فسادا . بحث سمع الحلفاء وبصرهم بل وبحث حمايه اساطيلهم . وباسلحتهم . واهازيج النصر والغبطة العارمه في أوروبا كلها وجميع بلاد النصرانيه • ثم كانت اراده الشعب التركي المسلم الذي ابى الاستسلام الذليل الذي قبلته حكومته ، وكانت معركه مستفاية التي دفنت فيها أحلام النصرانية •

لقد كانت فترة 1337 ـ 1341 هـ (18 ـ 1922) اظلم فتره في تاريخ الاسلام . اذ لم يبق له فيها دولة مستقلة الاستقلال

---

(16) شكيب ارسلان ، حاضر العالم الاسلامي ، ج 1 ، ص 335 •

التام بعد ان أصبح بالاسانة (حليفتهم) في ففص يقول ما له يقال . وحول دولة فارس والافغان كانت المؤامرات تحاك لمحوه والحاقه سائر الاوطان في الذل والهوان . ولكن بقي الايمان في الصدور وما بقي الايمان فلا يأس ولا خسران ·

النهاية المشرقة :

انتهى القرن الرابع عشر . وقد اشرقت شمس الحرية على معظم بلاد الاسلام ، وتطلع المسلمون الى مستقبل تتوحد فيه كلمتهم وتعتز دينهم ، وتتخلص البقية الباقية منهم تحت الاغلال التي تكبلهم ـ من أغلالهم ·

ولقد كان سقوط دولتهم نتيجة انحطاطهم وتاخرهم عن ركب الامم المتحضرة في كل مناحي الحياة : الدينية والاخلاقية والعلمية والثقافية والسياسية والعسكرية والاقتصادية والمادية والفلاحية فما ظلمهم الله ، ولكن ظلموا أنفسهم · وبينما يوجب عليهم دينهم ان يكونوا خير أمة اخرجت للناس ـ أصبحوا في الحضيض الاوهد ، حجة على دينهم وفتنة للذين كفروا قد هجروا القرآن وانحرفوا عن هديه ، واتخذوه وراء ظهورهم · فلم يكن بد من تسلط عدوهم عليهم ، ثم استيقظوا وارادوا ان يغيروا ما بانفسهم فانجز الله وعده لهم ·

بداية النهضة :

أول نذير لهم كان من بيت النبوة ومعدن الرسالة ، وهو السيد جمال الدين الافغاني الذي عاش نشاطه العلمي والثقافي والسياسي أواخر القرن الثالث عشر وأوائل القرن الرابع عشر ومات عام 1314 · يقول المستشرق الامريكي لوتروب ستودار في كتابه حاضر العالم الاسلامي · ج 1 ص 305 ـ 306 ما نصه ·

(ان السيد جمال الدين الافغاني أول مسلم أيقن بخطر السيطرة الغربية المنتشرة في الشرق الاسلامي وتمثل عواقبها فيما اذا طال عهدها وامتدت حياتها ··· وادرك شؤم المستقبل وما سينزل بساحة الاسلام والمسلمين من النائبة الكبرى اذا لبث الشرق الاسلامي على حال مثل حاله التي كان عليها · فهب جمال الدين يضحي نفسه ويفني حياته في سبيل ايقاظ العالم الاسلامي وانذاره بسوء العقبى ويدعوه الى اعداد ذرائع الدفاع لساعة يصيح فيها النفير · فلما اشتهر شأن جمال الدين خشيت الحكومات الاستعمارية أمره وحسبت له ألف حساب فنفته بحجة أنه هائج المسلمين) ·

وقد بدأ جمال الدين حياته العمليه في بلاده الافغان حيث تولى رئاسه الوزارة في أول شبابه اثناء الربع الاخير من القرن الثالث عشر وحاول

اصلاح الحكم فيها والنهوض بالمسلمين فلم يرق عمله للطامعين فيها فاصطدم بهم ، وكان الانقلبز من الجنوب ، وقياصرة روسيا من الشمال ، يطمعون فى الاستيلاء على الافغان ، ويعمل كل منهم لنفائها فى تأخر وانحطاط ليسهل ابتلاعها فقد علموا انه لا يتم لهم مرادهم اذا استيقظ الشعب ، فكادوا لجمال الدين ـ وخصوصا الانقليز ـ واسقطوا حكومته والامير الذى استوزره واضطروه الى الهجرة ، ولم يسمحوا له باستيطان الهند فقصد دولة الخلافة وحاول هنالك الاصلاح فطارده اذنابهم ، فرجع الى مصر واستقر بها فى عهد اسماعيل حينا من الدهر فى غفلة الرقيب فبذر فيها بذور النهضة العربية الاسلامية والثورة الشعبية وهذا ما يقوله الاستاذ الامام محمد عبده رحمه الله :

« حرت سنة الله فى خلقه بان عظائم الامور تتولد من صغارها ، كما ان ضخام الاشجار تبسق من بذورها ، جاء الى هذه الديار فى سنة 1286 هـ رجل عربب بصير فى الدين عارف بأحوال الامم واسع الاطلاع جم المعارف جرىء القلب وهو المعروف بالسيد جمال الدين الافغانى وركن الى الاقامة بمصر فتعرف اليه بادىء الامر ـ يعظ طلبة العلم ثم اختلف اليه كثير من الموظفين والاعيان ثم انتشر عنه ما نخالفت آراء الناس فيه من افكار وعقائد فكان ذلك داعما لطلب الاحتماع به ... وكان بحضر دروسه كثير من طلبة العلم وبتردد على مجلسه كثير من العلماء وغيرهم وهو فى حميع أوقات اجتماعه لا يسأم من الكلام فيما بثير العقول أو يطهر العقبدة أو بذهب بالنفس الى معالى الامور أو يستلفت الفكر الى النظر فى الشؤون العامة مما بمس مصلحة البلاد وسكانها فاستيقظت مشاعر وانتبهت عقول وخف حجاب الغفلة فى أطراف متعددة من البلاد» (18) وصادف وجوده بمصر قيام الحرب بين الدولة العثمانية وروسيا عام 1293 هـ وكانت روسيا قد فضت قرونا فى عداوة الدولة واقتصت من أطرافها مساحات شاسعة ، وكان هدفها احتلال العاصمة (اسطمبول) والاستيلاء على المضائق لتصل الى البحر الابيض المتوسط لتسيطر على مصير أوروبا وآسيا الغربية فاستغل جمال الدين هذه الحرب لبث الوعى والهاب مشاعر المسلمين وتنبيهم الى الخطر العظيم فأخذ فى انشاء جرائد وتكوين كتاب قادرين (على التحرير

---

(18) تاريخ الاستاذ الامام للشيخ رشيد رضا ، ج 1 ، ص 37 .

وانشاء الفصول الادبية والعلمية في مواضيع مختلفة ... فسابقت الكتاب وسارت الاقلام واخذت الحربه الفكرية تظهر في الجرائد الى درجة يظن الناظر فيها انه في عالم خيال (19) . واشتد ساعد الحركه التي كونها بمصر وأسس حزبا سياسيا يعمل لانشاء مجلس شعبي يحاسب الحكومات ، ويضع قوانين الاصلاح والحكم النيابي الدستوري . ولم يرق هذا للحكومات الاستعماريه الطامعة في احتلال مصر - وخصوصا انجلترا - فضغطت على الخديو توفيق - وكان قبل تولية الحكم من تلامذته فأمر بنفيه أواسط رمضان 1296 هـ (سبتمبر 1879 م) بتهمه افساد البلاد . واذا كان توفيق واسياده قد استطاعوا نفي جمال الدين فانهم لم يقدروا ان ينفوا مبادئه التي غرسها . وقامت الثوره العرابيه اثر خروجه بقودها تلميذه ، فاستنجد توفيق بالانجليز فاحتلوا مصر عام 1882 فلم يطب لهم فيها مقام حتى طردوا منها وتخلصت مصر من مكرهم نهائيا بعد أكثر من خمسين سنه ، وكان الذي قاد المقاومة لمدة طويلة هو سعد زغلول وحزبه وهو تلميذ جمال الدين ومحمد عبده .

واذا كان جمال الدين هو مؤسس النهضة الثوريه في مصر فانه هو المؤجج لنيرانها ببلاد فارس . فقد عرفه الشاه ناصر الدين في أوروبا والح عليه ان يصحبه الى ايران ليوليه رئاسة الحكومة وقال عنه « هذا رجل العالم السياسي الحربي الجدير بان يكون رئيس وزارة ويقوم بتدبير الشعب » (20) . ونجح في اقناعه ، ولم يكن جمال الدين راغبا في ذلك . ولكن لما حل بطهران انصرف الشاه عن وعده . واتصل جمال الدين بالعلماء ، والمثقفين والشعب واخذ ينشر بالمبادىء الثورية وآرائه في اصلاح حالة المسلمين . وبناء الحكم على قاعدة الدستور والشورى وازعجت حركته الشاه ، وهم بالقبض عليه فالتجأ الى حرم آمن عند الشعبة هو مقام عبد العظيم ومضى فيه سبعة أشهر يؤجج الثورة ضد الحكم الفاسد وممثله وهو الشاه حتى احرج منه - وهو مريض يرتعد من الحمى - مسحوبا مهانا فاقسم أن ينتقم من الشاه وقد فعل ، وكانت رحلته هذه بداية النهضه الثورية في ايران - يقول السيد صاحب حسن الصادق في كتاب له صدر حديثا عن ثورة ايران عنوانه :

---

(19) المصدر المذكور ، ص 38 من الجزء الاول .
(20) المصدر المذكور ، ص 55 من الجزء الاول .

(الثورة والقائد) فى صفحتى 7 ـ 8 ما نصه (مع ظهور جمال الدين الاسد ابادى المعروف بالافغانى بدأت موجة التحرر تتصاعد فى المسرح السياسى فى ايران وبلدان الشرق عموما . مصحوبة بالفكر الاسلامى الاصيل واخذ المسلمون الذين استعادوا صحوتهم الاسلامية يخطون خطوات كبيرة فى ساحة النضال والنهضة التحررية ضد الاستبداد والاستعمار . وكان أول موقف سياسى وشعبى للفكر الاسلامى المناضل الذى عم ايران من ادناها الى أقصاها هو فتوى المرحوم آية الله ميرزا حسن الشيرازى بتحريم التنباك عام 1892 مصحوبا بجهود السيد جمال الدين فى تهيئة الارضية المناسبة ، وفى هذه القضية وجد ناصر الدين شاه ـ الذى كان قد باع امتياز التنباك للغزاة الانقليز بثمن بخس ـ نفسه ـ ولاول مرة ـ مع المستعمرين الانقليز مهزومين ومفضوحين ومن المعلوم ان جمال الدين هو الذى كشف لحجة الله الشيرازى تغلغل نفوذ الانقليز وسيطرتهم الاستعمارية على دولة ايران وطلب منه اصدار هذه الفتوى . ثم يقول صاحب الكتاب (وطرد جمال الدين مرتين من ايران وبأسوا الاشكال . وكان ناصر الدين شاه ـ من خلال عمليات القمع والمطاردة الوحشية لدعاة التحرر ـ ان يضاعف الاستبداد ويضيق الخناق على البلاد ، لكنه فى النهاية قتل على يد (ميرزا رضا كرمانى) احد تلاميذ السيد جمال الدين وباشارة منه والذى كان قد لاقى اقسى عمليات التعذيب فى سجون ناصر الدين شاه وكان ذلك عام 1897 م) اهـ .

وانتشر احتلال مصر انتقل الى اوروبا من الهند ـ التى كان معتقلا بها ـ واستدعى الى باريس تلميذه محمد عبده حيث انشأ حزب (العروة الوثقى) وحمل جريدة (العروة الوثقى) لسان حاله . وأضرما الحرب ضد الاستعمار ، وكان « الغرض البعيد منها اعادة الحكم الاسلامى وهدايه الدين الى ما كان عليه من الطهارة والعدل والكمال فى العصر الاول بتأسيس حكومة اسلامية على قاعده الخلافة الراشدة فى الدين وما تقتضيه حالة العصر لمجد الاسلام من أمور الدنيا وبنتج هذا انقاذ المسلمين وغيرهم من الشرقيين من الاستعمار المذل لهم . واما الغرض القريب فهو انقاذ مصر والسودان من الاحتلال » (21) . وقد ناصرت جريدة (العروة الوثقى)

---

(21) حياة الاستاذ الامام ، ج 1 ، ص 283 .

ثورة المهدى بالسودان . والذى انتصر جيشه على جيش الانقليز مرارا وامده حزب (العروة الوثقى) . بالعون المادى والادبى · وشهد كاتب انقليزى بما أصاب قومه هناك فقال : ـ بعد ان بين ما أصاب السودان من رزايا من ففد الرجال وسفك الدماء ـ ما نصه :

« ولم يكن نصيب الانقليز من الرزية أقل من نصيب تلك البلاد فانفقوا أموالا وافره وفقدوا رجالا من أعز ابطالهم واشجع رجالهم وهتكوا استار قوتهم الحربيه ، ثم عادوا بالخيبة والفشل والصق بهم عار الهزيمة وسوء المفر» (22)

لقد كان جمال الدين يبث فى مبادئه ان (العالم النصرانى على اختلاف اممه وشعوبه عرقا وجنسية هو عدو مقاوم مناهض للشرق على العموم وللاسلام على الخصوص . فجميع الدول النصرانية متحدة معا على دك الممالك الاسلامية ما استطاعت الى ذلك سبيلا . والروح الصليبيه لم تبرح كامنه فى صدور النصارى كمون النار فى الرماد وروح الصليبية لم تنفك حية معتلجة فى قلوبهم حتى اليوم ··· وهى أبدا ناظره الى الاسلام نظرة العداء والحقد والتعصب الدينى الممقوت ··· ان العالم الاسلامى جميعه يجب عليه ان يتحد اتحادا دفاعيا عاما متمسك الاطراف وثيق العرى ليستطيع بذلك الذبادة عن كيانه ووقاية نفسه من الفناء المقبل . وللوصول الى هذه الغاية الكبرى يجب عليه اكتناه أسباب تقدم الغرب والوقوف على تفوقه وقدرته (23) هذه هى دعوته التى افنى حياته فى سبيل نشرها ·

ولم يكن وحده فى الميدان ، فقد (بات اعتداء الدول الفرنجية وعدوانها وبغيها منتشرا فى كل قطر من أقطار العالم الاسلامى (24) · وبعد احتلال ايطاليا طرابلس الغرب عام 1911 ، وفرنسا المغرب عام 1912 وتالب دول البلقان على تركيا وافتكاكها منها جميع أراضيها فى البلقان عام 1912 واتفاق الانقليز وروسيا على خنق الثورة الفارسية (اخذ العالم الاسلامى فى المشرق والمغرب يقوم ويقعد مشمعلا غضبا ··· وقد تحقق للمسلمين الآن ما كان تنبأ به ـ على غير انقطاع ـ دعاة الجامعة الاسلامية منذ 50 سنة : الحرب الصليبية لدك الممالك

(22) من مقال للسير صمويل باكر عرب ونشر فى جريدة ثمرات الفنون فى 14 ذى القعدة 1302 · انظر تاريخ الاستاذ الامام ، ج 2 . ص 355 ·
(23) لوثروب ستودار ، حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص : 306 ـ 307 ·
(24) المصدر المذكور . ص 308 ·

الاسلامية دكا · وصدق جميع ما كان يديعه جمال الدين الافغانى الحكيم العظيم (25) ·

ومن نالب دول النصارى على الاسلام وأرضه أخذ المسلمون وزعماؤهم دروسا مهمة ، وعدلوا موقفهم من أهل الكتاب ، واخذوا يتآزرون ـ ضدهم ـ مع الهندوس والبودية والوثنية ، وذلك منذ الحرب الروسية اليابانية عام 1904 التى انتصرت فيها دولة بوذية على دولة نصرانية (فهب غالب المسلمين يبتهجون لانتصار اليابان هذا ابتهاجا ملؤه الفخر الشرقى والحماسة الاسلامية (26) · ووضع المسلمون ايديهم فى ايدى الهندوس لمقاومة الانكليز فى الهند (27) وتآزر الصينيون المسلمون مع غير المسلمين فقالت صحيفة اسلامية من صحف تركستان تدعو الى اتحاد الصينيين قاطبة للوقوف فى وجه الغرب المعتدى ! « ان أوروبا قد بلغت من الطغيان والجور مبلغا لاحد له فهى لا تنفك تنازعنا على حريتنا التى هى اقدس شىء لدينا وأوروبا ثم أوروبا ضاربتنا الضربة القاضيه ، اذا لم يستنصر بعضنا بعضا ونهب معا فى يوم آت هبه المدافعين عن الاوطان دفاع الابطال » (28) · وكان شيوخ السياسه ودهاتها من الاوروبيين يدركون الخطر الشديد من هذه الهجمات ويخشون رد الفعل من عالم الاسلام · فقد كتب وزير الخارجيه الفرنسى هانوتو يستنكر هجمة ايطاليا على طرابلس . « لماذا وجدت ايطاليا طرابلس كوكر الزنابير ؟ أقلبس دلك لانها لا تحارب تركيا وحدها بل العالم الاسلامى اجمع · فايطاليا جنت على نفسها وعلينا جناية لا يعلم غير الله عاقبتها ومنتهاها » (29).

ومع تكالب المستعمرين وزحفهم على اقطار الاسلام واحتلالها واستعباد أهلها واختلاس خيراتها حتى لم يبق اثر الحرب العالمية الاولى قطر يصدق عليه انه يملك تمام حريته واستقلاله كانت اليقظة تهب ، والحركات الثورية والفكرية والسياسية تمند وتخترق الحدود . ونهز الجماهير من الشعوب · وبينما كان المستعمرون ـ اثناء هذه الحرب . تم فى مؤتمر فرساى للصلح

(25) المصدر المذكور ، ص 314 ·
(26) المصدر السابق ، ص 314 ·
(27) المصدر السابق ، ص 315 ·
(28) المصدر السابق ، ص 312 ·
(29) حاضر العالم الاسلامى ، ج 1 ، ص 312 ·

ـ يقتسمون بقية أراضى الاسلام بينهم بمقتضى معاهدات سرية واتفاقات دولية ـ كانت آمال المستضعفين تتضاءف فى الخلاص من نير استعبادهم وطردهم من بلادهم . وقد أجج الثورة فى صدورهم مبادىء ولسون رئيس الولايات المتحدة التى تعلن حق الشعوب المغلوبة فى تقرير مصيرها . وانتشار هذه المبادىء بين شعوب العالم ، والمصادقة المبدئية من الدول الكبرى عليها وتأسيس (عصبة الامم) فى حنف للسهر على تطبيقها ثم خيانه هذه الدول لها وافتسامها فيما بينها أراضى تركيا والشعوب التى كانت مرتبطة بها ، والمستعمرات الالمانية الالمانية ·

وانفجرت الثورات فى كل مكان ، وعمت اليقظة كل الشعوب المستعمرة قديما أو حديثا واغلبها من المسلمين ·

فى تركيا : وأول ثورة اثر الحرب العالمية الاولى كانت فى تركيا بقيادة الغازى مصطفى كمال ، وتمكن الشعب التركى من طرد (الحلفاء) من عاصمة دولته ، وسحق الغزاة اليونانيين المتوغلين فى الاناضول ، والقائهم فى البحر ، وتوصل الانراك الى ذلك بصدق ايمانهم ثم بالعون الذى جاءهم من جارتهم الكبرى دولة الاتحاد السوفييتى لا حبا فى سواد عيون الاتراك . ولكن رغبة فى طرد الانقليز والفرنسيين من مضائق البسفور والدردنيل ·

وفرح المسلمون بنصر الله فى كل أنحاء الارض ، وتحفزوا للجهاد ، ولكن مصطفى كمال الذى احيى انتصاره الآمال سرعان ما خيب الظنون ، وانحرف عن الاسلام وأخذ يعمل على عزل الشعب التركى عن العالم الاسلامى ، فالغى الخلافة عام 1924 والغى مجله القوانين الاسلامية واستبدل بها القوانين الوضعيه السويسرية ، الايطالية ، واجتهد فى الفصل بين العرب والترك خصوصا . فمنع قراءة القرآن بالعربية وكتابة اللغة بالحروف العربية ، والاذان بها وحاول ان يلصق تركيا بأوروبا فى الاخلاق والعادات واللباس ففرض البذلة الاوروبية والقبعه على الشعب ولولا صدق الاتراك فى ايمانهم وصلابتهم فى دينهم لمحى الاسلام من تركيا · وأخطر ما فى عمله ان اعداء الاسلام طبلوا له وزمروا ودعوه اصلاحا ، وجعلوا مصطفى كمال من كبار المصلحين لانه تنكر للاسلام واحكام شريعة القرآن ولا رقى ـ فى زعمهم ـ الا بالتخلص من القرآن ! واغتر بذلك كثير من (الزعماء) والكتاب فى بلاد الاسلام فاخذوا يروجون لهذا

« الاصلاح » وينفذونه اذا وصلوا الى الحكم . وتركيا الى اليوم ما تزال من دول العالم الثالث سبقتها أكثر الامم التي كانت دونها مع تمسكها بالدين . واخلاصها لتاريخها .

ولم تلبث شعب مصر ان ثار على (الحماية) المعلنة عام 1914 م . وعلى الاحتلال الجاثم فوقها منذ عام 1882 . فطالب وفد بزعامة سعد زغلول برفع الحماية وانسحاب جيش الاستقلال فلقي من المندوب السامي صلفا وعجرفة وسجنا وابعادا . ولم يجد الوفد المسافر الى فرساي من المؤتمرين من يسمعه منهم ولا يعرض عنه اعراضا فانفجرت الثورة عام 1919 واستمرت حتى اعلنت بريطانيا اصدار تصريح في 1922/2/28 من طرف واحد تعطي فيه مصر «استقلالا» وتحتفظ لنفسها باربعة نقاط تفرغ هذا الاستقلال من كل معنى واستمر الكفاح والثورة حتى بدت علامات الحرب العالمية الثانية في الافق منذ عام 1935 م ، فاضطرت لمفاوضة المصريين بزعامة حزب الوفد وعقدت معهم معاهدة الاستقلال التي امضيت عام 1936 م . وجاءت حرب 39 ـ 1945 م . فوجدت مصر نفسها محتلة اشنع احتلال ثم استؤنف الكفاح من بعد واجبرت بريطانيا على سحب آخر جند لها من مصر عام 1956 م .

وحاولت بعد ذلك بشهور ان تعود ليس وحدها ولكن مع فرنسا واسرائيل باحتلال قناة السويس فباءت بالفشل وطردت مذمومة مدحورة . ونشبت في المغرب ثورة الامير عبد الكريم الخطابي عام 1925 م . والحق بالجيش الاسباني الهزائم المتكررة ، فسارعت فرنسا لانجادها وبعثت مارشالها بيتان وزحف عبد الكريم حتى أشرف على فاس . كما نشبت الثورة في دمشق ونال الانكليز هزائم متكررة في العراق. وطرد صنائعهم آل حسين بن علي من الحجاز . فاطمأن المسلمون على اماكنهم المقدسة بزحف السعوديين وتحريرها من نفوذ الحسين وابنائه . وتأججت ثورة عظمى في وسط آسيا بقيادة أنور باشا رحمه الله لتحرير بلاد المسلمين . واستعرت الحرب في طرابلس بقيادة الشهيد عمر المختار عدة سنين وتأزم وضع الانكليز في الهند . وتحالف المسلمون والهندوس ضدهم فذاقوا مرارة كفاح الاحرار. والعذاب المهمس . ونهض شعب اندونيسيا يطالب بحقه في استقلال بلاده . وهكذا وجد المستعمرون انفسهم ـ في كل مكان ـ مفضوحين عراة امام العالم اجمع قد انكشفت سوءاتهم . وتابت عوراتهم . ثم جاءت هجمة ايطاليا على الحبشة عام 1935 م فضيحة

عظمى للاستعمار وتهديدا خطيرا لدولـه الهرمة · فاشتد النكير عـلى ايطاليا . واربعت بريطانيا وفـرنسا خوفا مـن توسع موسولنى على حسابهم . وقـد صرح بهذا وما اخفاه . فاخذوا ينكرون عمله ويؤلبون العالم عليه ، فساعد كل ذلك مساعدة عظمى فى استيقاظ الشعوب واشتداد الرأى العالمى فى حكمه ضـد الاستعمار ·

ثم كانت الحرب العالميـة الثانيـه واساسها « المنسع الحيوى » الذى كان يطالب به هتلر لشعب ألمانيا . وامتاز النازيون عن غيرهم بما دهوا اليه من ان (استعمار) شعوب أوروبا ممكن واحتلال الاراضى لا ينبغى ان يختص بافريقيـا وآسيا وانما يجـوز أيضا فى أوروبا وهكذا آذنوا لجيشهم ان يتوجـه نحـو تشيكوسلوفاكيا ثم بلونيا زحفا نحـو أوكرانيا وبترول القوقاز · وبعد قليل من بداية الحرب ، وجدت أوروبا نفسها ـ الا قليلا ـ محتلة من الجيوش النازية بذيق شعوبها « نعم » الاحتلال وطعم الاستعمار ولذائذ نزوات قادة وساسة المحتلين · لقد قدم النازيون للشعـوب المستعمرة الضعيفة خدمة جليلة مـن حيث لا يشعرون فقد أذاقوا شعوب أوربا مـن البلاء وألوان العذاب مما أفهمهم حيدا قيمة الاحتلال الاجنبى وفسـاوة المستعمرين ونعمة الحرية والاستقـلال الوطنى وفهم الفرنسيون والهولانديون والبلجكيون والانكليز ـ وان لم يحتلوا ـ ما يصيب الشعوب المستعمرة من جراء احتلالهم وفقدان استقلالهـم واضطـر ساستهم ان يقبحوا الاحتلال ويحكمـوا ضد استعبـاد الشعوب رغم ارادتهـا ويصادموا على ميثاق المحيـط الاطلسى أولا ثم على ميثاق الامم المتحدة ـ فى سان فرانسيسكو ـ ثانيا التى تخول لكـل شعب حقه فى الحرية والاستقلال ·

ومع ذلك فان قادة الاستعمار وساسته كانوا يبرون خيانة العهود بمجرد نهاية الحرب والعوده الى تركيز نفوذهم مـن جديد · ففى أول أيـام النصر ، فى 8 مايو 1945 م ، وثبت فرنسا على الجزائر لتبطش بشعبها لانه تجرأ على رفـع الراية والمناداة بالاستقلال ، وفى نفس هذا الشهر وثبت على دمشق عاصمـة سوريا ، واستعادت جيوشهم بلاد الهند الصينى بعد انسحاب اليابان كما استعاد الانكليـز برمانيا ، وساعدوا هولانده بجيوشهم واساطيلهم فى النزول مـن حديد بجزر اندونيسيا التى اعلنت ـ من قبل ـ جمهوريتها وعملت لطرد اليابان من بلادها وحاولت ايطاليا ان تعود بأى سبيل ـ على الاقل ـ الى ليبيا والصومال.

جيدا . ورات اندحار فرنسا وايطاليا وخروج بريطانيا هزيلة من الحرب ـ رغم انتصارها ـ أبت ان تقر الضيم من حديد وان تخضع للاحتلال اذ أخلدت الى الثورة العارمة في كل مكان وقد يمكن بعضها بيسير من التضحيات من الاعتراف له باستقلاله ، وبذل بعضها أعلى التضحيات قبل ان يجبر الاعداء . والاصدقاء على الاعتراف بالاستقلال .

ان المسلمين الذين خرجوا من حرب 14 ـ 18 19 بدون دولة مستقلة ، نال بعضهم ما كانوا يصبون اليه من حرية واستقلال ، وأصبح لهم في المجتمع الدولي كلمة مسموعة ونفوذ قوي : لقد طردت جيوش المحتلين اثر الحرب مباشرة من العراق وسوريا ولبنان عام 1945 م، كما اعترف باستقلال اندونسيا وخرجت جنود بريطانيا من الهند عام 1948 بعد ان اعترفت للمسلمين بدولة الباكستان، واعترف باستقلال ليبيا اثر ذلك ، وشبت الثورة في المغرب وتونس ، وفي كينيا ومدغشقر ، وفي الفيتنام ، وقبلهم كانت قد نشبت في الجزائر في مايو 1945 م ، ومع اخفاقها ظاهرا فان هذا الاخفاق كان درسا مهما جعل القادة يدبرون لها جيدا ويستعدون لها في يوم 6 ربيع الاول 1374 هـ (أول نفامبر 1954 م) وجد العدو نفسه امام جيش ، وشعب يريد الحياة . حدثني المرحوم الحاج مصطفى بن باحمد انه ذهب الى مقابلة الجنرال دوفول عام 1956 م ، مبعوثا من جبهة التحرير ليوضح له ما يرتكبه الجيش الفرنسي من فظائع فانصت له الجنرال جيدا ـ وهو المحامي اللبق ـ فلما انتهى من بيانه رفع دوقول راسه وقال له : (ليس لكم حق في الشكوى من اعمال الجيش فقد كلف باخماد الثورة ولابد ان يرتكب في سبيل الوصول الى غايته ما تشكون منه ومع ذلك فاني اوكد لكم بانكم ستنالون الاستقلال لانكم قبلتم ان تموتوا من أجله وكل أمة تستقل اذا فبلت الموت ، واننم قد قبلتم ذلك فلابد ان تستقلوا ، لا أقول لكم ان ذلك قريب او بعيد ولكنه آت لا ريب فيه » .

وقد جاء الاستقلال للجزائر بعد تضحيات دامت سبع سنوات وخمسة أشهر . وبعد نحو مليون ونصف مليون من الشهداء . ولم يكن هؤلاء الشهداء فداء لاستقلال الجزائر فحسب ولكنهم دعموا استقلال تونس (الوهمي) . واستقلال المغرب (الخيالي) فحملوا من كل منهما استقلالا حقيقيا . كما اجبروا

فرنسا على ان (تمنح) الاستقلال للدول الافريقية التى كانت تحت استعمارها · المسلمه منها وغير المسلمة ، ومن هذه موريطانيا، والسنيغال، ومالى، والغابون، وغينيا ، والكامرون ، والنيجر ، وتشاد وفولتا العليا ، ثم جزر القمر، وجيبوتى· [illegible] اسلامية · كما نال هذه المنحة الداهومى (بنين) والطوغو ـ والكونغو ـ وافريقيا الوسطى ، وساحل العاج ومدغشقر ·

وتفعل الثورة فى الجزائر (منحت) بريطانيا الاستقلال لنيجيريا المسلمه ، وتنجانيقا وزنزبار (تانزانيا) وأغلب السكان فيهما من المسلمين ، واوغانده واضطرت بلجيكا الى الاعتراف باستقلال زائير (الكونغو) وأورندى وبوروندى واعانت الجزائر اعانه فعاله انغولا وموزنبيق ، كما عاونت على احباط المكيدة ضد وحده نيجيريا ·

ان الثورة الجزائرية كانت معجزة القرن الرابع عشر حقا (القرن العشرين) وقد ضرب الشعب الجزائرى أروع الامثلة فى الثبات والصبر والاحتمال والتضحية الى حد العناد فجاء استقلاله حقيقيا لا وهميا بفضل الله ثم بفضل الاخلاص والوعى الكامل فى القيادة واليقظة فى الجماهير ·

واذا كان الثلثان من المسلمين قد تحررت بلادهم ، واطمأنوا تحت رايات دولهم فان الامل القوى فى الله وفى جهاد المسلمين ان يتحرر الباقون اثناء القرن الخامس عشر وان ينفض المسلمون اثناءه كل غبار الخمول والكسل والتخلف عن ركب الامم الراقية ، وان يتجنبوا فى نهضتهم الوقوع فيما وقعت فيه الحضارة الغربية من ماديه بحتة ، لتكون حضارتهم اسلاميه جامعة بين الماده والروح مرتبطه بالدين من غير جمود ولا تزمت وعليهم ان يوحدوا صفوفهم ، ويعتبروا أنفسهم أمه واحدة لا تدل الا لله كما حكم الله فى قوله « **ان هذه امتكم أمة واحدة وانا ربكم فاعبدون** » · وان الله لفى عونهم ونصرهم اذا أوفوا بعهد الله ·

ولهم عبرة فى (جهاد شعب الجزائر) القائم على أساس الدين ، ثم فى ثورة شعب ايران التى أعلنها (ثوره اسلاميه لا شرقية ولا غربية) بعيده عن المذهبية وعزه الجاهليه (ثورة اسلامية لا شيعية ولا سنية) فاستطاعوا ـ بالاسلام ـ ان يحطموا كل الاصنام وان يطيحوا بالشاه الذى لم يغن عنه ما جمعه من مال وما حشده من جند كلهم (سفاك) للدماء سفاح · وخذله حمايه

س الصهاينة والامريكان وحنسوا عمه
فعل الوسواس الخناس . فعلى الايمان
والعمل الصالح للدنيا وللدين . والاتحاد
نبين بين جميع المسلمين والتعاون على
البر والتقوى ونفى التنازع والاختلاف
والتخاذل بحسب ان يسمى المسلمون

مستقبل حياتهم . ذلك هو سر قوتهم
وحر ضمان لانتصارهم « **ولينصرن الله
من ينصره ان الله لقوى عزيز** » .

وكان للاسلام فى القرن الرابع عشر
دمعه وابتسامه : بداية مظلمه . ونهاية
مشرقه .

الوحي والعقل في الإسلام
عند المعتزلة وبعض المفكرين المتأخرين

د. بوعمران الشيخ
أستاذ الفلسفة بجامعة الجزائر

قد برزت صله الوحى بالعقـــل فى الاسلام منذ القرن الهجرى الاول (القرن السابع الميلادى) وخاصـــة فى بدايـة المدرسة الاعتزالية • ثم انضحت هـذه الصله من خلال المناظرات التى انتشرت فيما بعد ، حين التقى الاسلام بنظريات حديثة • وفى الواقع ان هذه المسالـة كانت لها أهمية دينية وأخلاقية عظيمه فى الاعتزال حيث تميز بها هذا المذهب عن بقية المدارس الاسلامية المعاصرة له واللاحقة به •

أجمع كبار المعتزلة على وحدة الوحى والعقل • فيرى أبو على الجبائى وهـو رئيس الاعتزال فى القـــرن الثالـــث الهجرى (القرن 9 بعد الميلاد) أن كل معرفة هى عقليـــة وسمعيـــة فى آن واحد (1) • ويؤكد عبد الجبار (المتوفى سنة 415 هـ ـ 1025 م) هذا الرأى (2) ويضيف أحد تلاميذته أن الافعال الـتى حرمها الوحى هى بالذات التى يرفضها العقل (3) • وينجم عن هذا كله أن من ينحرف عن العقل يبتعد عن الشريعـة فى نفس الوقت ، اذ الشريعة لا يمكن ان تناقض العقل • والشىء الذى يعلمه الله مخالفا للعقل لا يمكن وجوده ، مثل وجود الدائرة المربعة أو عقوبة الاطفال فى جهنم (4) •

وتؤدى هذه النظرية الى طرح عدد من التساؤلات . هل التوفيق بـين الوحى والعقل يناسب الاسلام ؟ واذا حصـل هذا التوفيق الاساسى لماذا الوحى ؟ ألا يكفى العقل وحده ؟ وفى حالة الخلاف بينهما ما هو الذى يجب أن تكون له الاسبقية ؟ سنحاول فى هذا البحث أن ندرس هذه المسائل ونعرض الحلـول

التي توصل اليها المعتزله وميزات آرائهم عن آراء خصومهم ·

(1) ـ اعتماد المعتزلة على العقل :

يعتمد المعتزلة على العقل انطلاقا من القرآن والسنة النبوية ، فيستشهد المرتضى (ت 436 هـ/1045) بالآية الكريمة : « **ويجعل الرجس على الذين لا يعقلون** » (سورة يونس 10/100) . كما يذكر يحيى بن الحسين (ت 298/ 910) الآية · «**ان في السموات والارض لآيات للمؤمنين** » (سورة الجاثية · 2/ 45) · ويروى الماوردي (ت 450 هـ 1058) حديثا شريفا يشير الى مكانه العقل في سلوك الانسان : « لكل شيء عمل دعامة ، ودعامة عمل المرء عقله » (6) ·

والعقل هو أساس جميع المعارف والافعال ، فجعله الله أساس الحياة الاجتماعية والدينية ، وبالعقل جعلنا الله مسؤولين عن أعمالنا ، والعقل هو الذي يسود وجودنا ويفسر تضامننا مع بني البشر ، رغم اختلاف الحاجات والمصالح ، والعقل هبة من الله للانسان (8) · وعملنا بمقتضى معرفة الله ، وهي تسير لنا الشعور بحدود حريتنا وتبين لنا الواجبات ، غير أن معرفة الله لا تكسب الا بالعقل (9) ·

ان العقل شيء مشترك بين جميع الناس الذين يمتعون بقدراتهم الفكرية ، ولكن بعضهم يملونه أكثر من غيرهم (10) · والمعرفة العقلية واجبة على كل انسان لانها تضمن المسؤولية . واستعمال العقل يساعد على تجنب الخطأ والخوف (11) . وذلك لانه لا يصدر عن سلطة ظالمة أو عاتية . والله ذاته لا يغير قيمة العمل ما الا لسبب مشروع ، فانه لا يأمر الانسان بفعل معين ثم يعاقبه لتنفيذه ذلك الامر · ويحصر أبو علي الجبائي وظيفة العقل العملية في العلم الذي يبعد عن الشر ويحض على الخير ·

أما افعال الانسان فهي تنقسم الى ثلاثة أقسام الافعال العقلية والافعال الشرعية والافعال التي يمكن أن تساهم في احكام أفعال أخرى (12) ·

الاول على حرية الاختيار والتأمل ، فيعلم الفاعل مثلا أن من واجبه أن يرد الامانة الى صاحبها كما يعلم أنه يتعين عليه أن يعترف بالجميل لمن أحسن اليه ويستطيع كل انسان أن يقوم بهذه الافعال · فهي تقرب الانسان من الله ويشترط فيها معرفة الله أولا ، وذلك بفضل التأمل والاستدلال العقلي . ويذكر من هذه الافعال الصلاة والصيام (13) ·

والعقل عند المعتزلة نوعان : العقل الفطري الذي يظهر في البديهيات الاولى

مثل ان « الشيء موجود او معدم » ، و « توجد المتناقضين مستحيل » و « والواحد أقل من الاثنين » . والعقل المكتسب يتطلق من البديهيات ويتطور ويتحسن بالعمل والتجربة المستمرة(14). وعلى هذا الاساس تميز المعتزلة بين نوعين من الافعال العادية وهي الافعال التي تصدر عن العقل الفطري والافعال التي تستند على التامل والاجتهاد (15) .

ويرى النظام (231 هـ/846 م) أن العقل هو الذي يوجه الفعل ويرشده . ويتجلى دوره خاصة في حرية الاختيار التي تشترط فيها دافعان متعارضان . واحد يحض على الفعل وآخر يمنعه (16). فيسمح العقل باختيار أحد الدافعين(17). وفي القرآن الكريم أكثر من آية تدل على ذلك منها « **وهديناه النجدين** » (سورة البلد . 10/90) وقد بين السجستاني ـ أستاذ التوحيدي ـ معنى النجدين وهو طريق الخير وطريق الشر (18) .

(2) صلة الوحي بالعقل :

أكد المعتزلة صلة الوحي بالعقل منذ نشأة المدرسة كما أشرنا الى ذلك سابقا الا انه وقع شيء من التطور في نظرتهم الى طبيعة هذه الصلة . بدأ تركيزهم أولا على ربط الدين بالعقل من أجل فهم القرآن ، اذ العقل هو الوسيلة لادراك معنى النص . ثم اتجهت عنايتهم في مرحلة ثانية الى التوفيق بين الوحي والعقل فسموا بأنهما متكاملان ومرتبطان على الرغم من أن كل واحد منهما متميز ومستقل عن الآخر . وفي النهاية جعلوا الاسبقية للعقل .

ولكن هل يكفي العقل البشري في توجيه سلوكنا توجيها حسنا دون الوحي ؟ كان هذا هو رأي جل المعتزلة لانهم اعتمدوا على العقل بالدرجة الاولى وبنوا عليه صحة الافعال الانسانية . فذهبوا الى أن الله أمر بالافعال الحسنة لحسنها ونهى عن الافعال القبيحة لقبحها ولم تكن الامر هكذا بمحض ارادته تعالى (19) . وقالوا اننا لا نعرف الاسباب الالهية عندما نقوم بفعل ما ، فلا نحسب لها حسابا . وفي الواقع ان الناس تأملوا وفكروا قبل نزول الوحي ، فيمكن اذن أن نميز بين الخير والشر ونختار أحدهما عن بصيرة ، وذلك بفضل عقلنا ، وندرك أن علينا واجبات فنؤديها كما انه يتحتم علينا أن نتجنب الشر والظلم والكذب (21) .

ولا يقوم حسن الفعل على ارادة الله وحدها كما تزعم الجبرية ، ولو صحت نظريتهم لترتبت عليها نتائج غريبة ، اذا أمرنا مثلا بالكذب أو الظلم كان فعلنا

سنا ، واذا نهينا عن الصدق والعدل
ان فعلنا قبيحا ، فيكون الفعل الواحد
سنا وقبيحا في آن واحد ، لانه يجوز
ي الحالة الاولى ويحرم في الحالة
نانيه (22) ومن جهة اخرى كيف
عل ان يضفي النص القرآني قيمة
خلاقيه على فعل هو خال منها ؟ وهذا
ر مستحيل لانه ليس هناك فرق
اسي بين الافعال العقليه والافعال
شرعية من الناحية الاخلاقية (23) ·

غير أنه لا يجوز أن نخلط بين القانون
طبيعي والقانون الالهي · قد لاحظنا
مما سبق أن كل انسان مسؤول عن
عماله وان كان لا يؤمن بالوحي · ومن
لمعلوم أن الملاحدة والملحدين يميزون
ملا بين الخير والشر (24) · واذا زعم
حد أن هذا ليس في مقدورهم حقا
هو بعيد عن الصواب كل البعد · وهل
كن أن يقال أيضا أنهم لا يميزون بين
ابيض والاسود ؟ هذا رأى غير
مقبول (25) · والواقع أن البرهمانيين
يؤمنون بالنبوة ورغم ذلك نلاحظ أن
لوكهم حسن (26) ·

ان العقل البشرى يدرك بطبيعته ان
بعض الافعال حسنة أو قبيحة كما انه
درك بعض الواجبات . فيعرف مثلا من
لافعال الحسنة الفعل الصالح ويعترف
لجميل ورد الامانة لصاحبها ومن الافعال
القبيحه يعرف الظلم والنكران والكذب
بدون مرر ويدرك أيضا ان السلوك
الطيب ممدوح والسلوك القبيح
مذموم (27) · ولذا لا يرضى
بالعقوبة التي لا يستحقها الفاعل
مثل التي تسلط على انسان يرى
في مكان انسان ظالم لان كل عاقل يرفض
المسؤوليه الجماعيه (28) · وهذه اشاره
الى موقف الخوارج الازارقة وكان المعتزله
يعارضونهم بشدة · فيرى ابو هاشم
الجبائي ان الفعل الحسن يجب أن يقصد
لذاته كما يجب أن يجتنب الفعل القبيح
لذاته (29) · والظلم مذموم ولو كان
صادرا عن الله تعالى وهذا الرأى يخالف
موقف الجبريه بوضوح (30) · وهكذا
نتبين أن الفعل البشرى يكتسى قيمة
اخلاقية لذاته وهذا ما يقره العقل ·

(3) الوحي يدعم العقل :

اذا كان العقل هو الاساس في حياة
الانسان ما هي وظيفه الوحي ؟ هل نحن
في حاجة اليه والى أي حد ؟ يرى المعتزلة
**أن السلوك العقلي يتميز عن الوحي فأثارت
نظريتهم اعتراضات كثيرة من المعارضين
سنقف عندها فيما بعد · ويتعين علينا
هنا أن نبين آراء المعتزلة كما عبرت عنها
كتبهم ·**

ان الرساله النبوية ضروريه وذلك
لسببين رئيسيين · انها تدعم أولا ما جاء

بـه العقل اذ كل انسان يعرف بطبيعته ما يجب أن يفعله من خير وما يجب أن يتجنبه من شر لمصلحته . غير أنه لا يستطيع أن يضبط كل هذه الافعال ، فحددها له الانبياء والرسل بالوحي ، والله بعث بهم عند الحاجة (31) ليذكروا الناس بواجباتهم . والشرعيات لا تختلف في جوهرها عن العقليات لان مصدرها واحد وهو الله (32) .

ويرى السجستاني ـ وهو من المدرسة الاعتزالية ـ أن الوحي يأتي تارة ليؤكد العقليات وتارة ليدعم الافعال التي يأذن بها العقل للمصلحة العامة والمقصود من الافعال كلها سعادة الانسان . والنص يكون اما ظاهرا واما باطنا ، فعلى العقل أن يؤول النص الباطن . ويبين القرآن ما هو واجب وما هو محظور ، فتفسره السنة النبوية واجتهاد العلماء والصالحين (33) . والنبي افضل من الفيلسوف لانه يتلقى الوحي في حين أن الفيلسوف يعد من الذين يوجه لهم النبي ما أنزل عليه (34) .

واذا وقع خلاف في الظاهر بين النص والعقل يرى المعتزلة أن التوفيق يحصل بالتأويل العقلي . لانه يجب علينا أن نفهم القرآن على ضوء العقل . وهذا المنهج سليم لان الوحي يدعم العقل (35) كما أشرنا الى ذلك سابقا . مثلا اذا جاء في الآية أن الله « قريب » من عباده لا يمكن أن نفهم من « القرب » الوجود في مكان لان هذا « تجسيم » والله سبحانه لا يوجد في مكان معين . وانما المقصود من كلمه (قريب) هو أن الله عليم باقوالنا وأفعالنا (36) وفي نهاية الامر تكون الصدارة للعقل ولا يمكن أن نجد في القرآن نصا يعارض العقل ، أو بعبارة أخرى ، اذا وقع الخلاف فلابد من اعطاء الاولوية للعقل .

(4) اعتراضات الخصوم :

عارض آراء المعتزلة مجموعتان من الخصوم وهما أهل السنة والاشاعرة من ناحية والملاحدة والفلاسفة العقليون من ناحية أخرى . ان الانسان في رأي المجموعة الاولى لا يستطيع أن يتحرر من الارادة الالهية ، فالله هو الذي يريد أفعال الانسان أو لا يريدها . فتكون هذه الافعال محمودة اذا امتثلت للارادة الالهية ومذمومة اذا خالفتها . ولذا رفض أهل السنة نظرية المعتزلة وخرج عليهم الاشعري (ت 330 هـ/941) فأسس مدرسة جديدة غير متطرفة .

ان الاشعري وتلامذته لا ينفون مكانة العقل ، غير انهم لا يجعلون منه دعامة للواجبات الاخلاقية (37) ويعترض

الباقلاني (ت 403 هـ/1013) على المعتزلة ـان العقل لا يمكنه أن يوجه الافعـال البشريه توجيها خلقيا ، اذ المصدر الوحيد لهذا التوجيه هو الشريعة الالهية ولا دخل فيها للعقل ولا توجد أيـه وسيلة عقلية تستطيع اجبار الانسان على فعل ما ، أو الامتناع عنـه . والجـدير بالملاحظة أن الكثير مـن الناس لا يمتثلون للعقل في تصرفاتهم . ولو صح رأى المعتزلة في أن اللـه وهب العقل الكامل لكـل انسان لفقدت النبوة وظيفتها (38) . ويضيف الشهرستاني (ت 548 هـ/1153) أنـه ليس هناك خير عقلي ولا شر عقلي والاخلاق تعتمد عـلى الـوحي فقـط (39) . واذا تحدثنا عن الوحي فلابد أن نأخذ بعين الاعتبـار عـادات كـل الشعـوب وتقاليدها (40) .

وتعارض الصوفية أيضا رأى المعتزله خاصة منهجهم العقلي . وتعتبر أن تأويل القرآن لا يخلـو مـن الخطـأ . ويحصر المحاسبي (ت 243 هـ/848) واجب العقل في المساعدة على فهم النص والبرهنة على صحته (41) ويعتقد أن المنهج الصوفي هو المسلم لا منهـج التأويل العقـلي ، لان الاول يعتمد عـلى الحدس ويـوصل الى الحقيقة والثاني لا يتحرر كليه من الخيال الفردي . ويحـذر الشعراني (ت 973 هـ 1566) من خطر التأويل العقلي للقرآن لانه قد يفقدنا الايمان . فيجب أن نساير الوحي لا العقل (42) .

وينتمي الى المجموعة الثانيه من خصوم المعتزله عدد من المفكرين والفلاسفة نذكر منهم بعض الشخصيات البارزه . ينتقد ابن الراوندي الملحد (ت 298 هـ/910) الوحي ويرى انه لا يفيد في شيء ويتمسك بالعقل وحده اذ هو الذي يميز بين الخير والشر . فالانسان ليـس في حـاجة الى النبوه ولا الى المعجزات وذلك لانها تخالف القوانين الطبيعية . وقد رد عليه أبو علي الجبائي الذي كان من معاصريه ، ثـم أبو الحسين الخياط في (كتاب الانتصار) ومن خصوم المعتزلة الطبيب الفيلسوف أبو بكر الرازي (ت 313 هـ/925) الذي أيـد مواقف ابن الراوندي ، ورفـض التوفيق بين الوحي والعقل بل رأى أن الفلسفة وحـدها هـي التي ستطيع أن تضمن السعاده للانسان والتقدم للمجتمع ولذا هاجم الرسالة النبوية وناظر كثيرا فيها أحد مواطنيه . وهو أبو حاتم الرازي (ت 330 هـ/941) المنتمي الى الشيعـه والمعتزله . فالف هذا الاخير في الموضوع كتاب (اعلام النبوة) وقد فيه رأي أبي بكر الرازي .

(5) تطور الآراء فيما بعد

وتطورت آراء بعض الخصوم فيما بعد وتقبلوا الى حد كبير ما رفضه المتقدمون . نلاحظ هـذا التطور عند الحنابله أولا بعدما كان الامام ابن حنبل (ت 241 هـ 855) من أشهـر المعارضين للمذهب المعتزلي . فمبنى ابن عقيل (ت 513 هـ

1119) الحنبلي المأوبل العقلي (43) كما فعل بعده ابن الجوزي (د 597 هـ 1200) الذي رد على المجسمة . معتمدا على النص والعقل (44) . وصرح ابن تيميه (د 728 هـ/1328) بالتوفيق بين العقل والوحي مؤكدا انهما متكاملان وبين ان الدليل العقلي لا يناقض الدليل الشرعي ، وفعا لما اشار اليه القاضي عبد الجبار من قبل (45) . واضاف ان الشريعة لها اسس عقليه (46) . وقد رأى تلميذه ابن قيم الجوزيه (د 751 هـ/1350) نفس الرأي (47) .

أما الاشاعره المتأخرون فانهم قالوا أيضا بالتوفيق بين الدين والعقل ورأى الغزالي (د 505 هـ/1111) « أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ... فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المعرض لنور الشمس مغمضا للاجفان . فلا فرق بينه وبين الممياني . فالعقل مع الشرع نور على نور » (48) ، ان العقل يدعم الايمان ويوصل الى اليقين (49) . ويؤيد فخر الدين الرازي (د 606 هـ/1209) هذا الرأي ويتوسع فيه . غير أنه لا يفضل العقل على الوحي ، لان الوحي هو اساس العقل (50) .

وأقر الفلاسفة المسلمون سواء كانوا من أهل السنة أو من الشيعة التوفيق بين الوحي والعقل . فنرى «اخوان الصفاء» ان ضرورة العقل لا يمكن الشك فيها ، لانه الدليل الذي يستدل به الله تعالى والحكم المعترف به في المعاملات الاجتماعيه . ويؤيد الدين والعقل من دعائم فلسفتهم (51) . ويؤكد رأي المعتزله كل من الفلسوفين الكندي (د 260 هـ/873) وابن رشد (د 595 هـ 1198) . فيقول الاول بتكامل العقل والنبوه . ولكنه لا يفضل العقل عليها وخصص ابن رشد رسالته المشهوره ـ (فصل المقال) ـ لتقرير ما بين الشريعه والحكمة من الاتصال (52) . فيذهب الى أن مصدرهما واحد وهو الحقيقة ، ولذا لا يمكن الخلاف بينهما . فالحقيقة لا تعارض الحقيقة (53) .

وعند ظهور حركة النهضة الاسلامية الحديثة نلاحظ انها تمسكت ببعض الآراء من مذهب الاعتزال . ويكفينا هنا وقفة عند رائدي هذه النهضة وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . قارن الافغاني (توفي سنة 1897) بين النبوة والحكمه ، فبين أن الاولى يهبها الله لمن يشاء ، في حين ان الثانية تكتسب بالعقل ولكنه فضل النبي على الفيلسوف كما فعل المعتزلة قبله . فالنبي معصوم والفيلسوف معرض للخطأ . ولذا يجب الامتثال لاوامر الاول ويسمع للثاني أو لا يسمع له (54) . والاسلام في رأيه كان

أن يكون من بين الديانات الاخرى الدين الوحيد الذى يعتمد على العقل ويذم من يؤمن بدون دليل (55) . وافندى محمد عبده بآراء الافغانى وقال هو الآخر بالتوفيق بين الدين والعقل مؤكدا أن العقل هو أساس الاخلاق كما قال المعتزلة من قبل . فيستطيع كل انسان أن يهتدى الى الاخلاق بقطع النظر عن الوحى . انه يميز بين الخير والشر بفضل التأمل وبه يكتشف القواعد الاخلاقية ولا تقل قيمة هذه القواعد فى الواقع عن تعاليم الشريعة الالهية (56) فيقول محمد عبده فى هذا المعنى : « جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن وبصوصه يؤيد ذلك » (57) . والفعل يعتبر حسنا لذاته والله يقره لحسنه ولا يصير الفعل القبيح حسنا لان الله أقره (58) ... وأما النبوة فانها تدعم العقليات وتكملها ، والانبياء « يبينون ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم . وتنازعته مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة . ولا تفوت به المنافع الخاصة » (59) .

وهكذا يبدو لنا تأثير آراء المعتزلة والعلماء المتأخرين واضحا فى الفكر الاسلامى الحديث بعدما تطورت مواقف أهل السنة نحو الاعتزال ، فرأينا ما توصل اليه اجتهاد العلماء الذين أرادوا أن يسايروا العصر ، فتجاوزوا الخلافات القديمة وراجعوا الكثير منها . واستمر هذا الاجتهاد الى يومنا هذا فى مختلف الاقطار الاسلامية ، بغية الوصول الى نظريات تناسب العقل من ناحية وتدعم الوحى من ناحية اخرى . ونلاحظ أن القضية الاساسية التى يجب مناقشتها الآن هى صلة العلم بالدين اذ تبلورت اليوم قدرة العقل البشرى فى مجالات العلم والتكنولوجيا . وهذا موضوع بحث آخر نرجو ان نقوم به عبرنا فى مناسبة من المناسبات . فنكتفى بالاشارة اليه هنا ولا نخرج عن اطار موضوعنا .

الهوامش :

(1) على خشيم . **الجبائيان** . طرابلس (ليبيا) . 1967 ص 282 .

(2) عبد الجبار . شرح **الاصول الخمسة** . مكتبة وهبة . القاهرة 1965 . ص 142 .

(3) ابن متويه . **المحيط بالتكليف** . الجزء الاول . القاهرة بدون تاريخ ص 235 .

1119) الحسنى التأويل العقلي (43) كما فعل بعده ابن الجوزي (د 597 هـ 1200) الذي رد على المجسمة ، معتمدا على النص والعقل (44) . وصرح ابن تيميه (د 728 هـ/1328) بالتوفيق بين العقل والوحي مؤكدا انهما متكاملان وبين أن الدليل العقلي لا يناقض الدليل الشرعي ، وهذا لما أشار اليه القاضي عبد الجبار من قبل (45) . وأضاف ان الشريعة لها أسس عقليه (46) . وقد رأى تلميذه ابن قيم الجوزيه (د 751 هـ/1350) نفس الرأي (47) .

أما الاشاعره المتأخرون فانهم قالوا أيضا بالتوفيق بين الدين والعقل ورأى الغزالي (د 505 هـ/1111) « أن لا معاندة بين الشرع المنقول والحق المعقول ... فالمعرض عن العقل مكتفيا بنور القرآن مثاله المعرض لنور الشمس مغمضا للاجفان . فلا فرق بينه وبين العميان فالعقل مع الشرع نور على نور » (48) ، ان العقل يدعم الايمان ويوصل الى اليقين (49) . ويؤيد فخر الدين الرازي (د 606 هـ/1209) هذا الرأي ويتوسع فيه ، غير أنه لا يفضل العقل على الوحي ، لان الوحي هو اساس العقل (50) .

وأقر الفلاسفة المسلمون سواء كانوا من أهل السنة أو من الشيعة التوفيق بين الوحي والعقل . فنرى «اخوان الصفاء» أن ضرورة العقل لا يمكن الشك فيها لانه الدليل الذي يستدل به الله تعالى والحكم المعترف به في المعاملات الاجتماعيه ، وتوحيد الدين والعقل من دعائم فلسفتهم (51) . ويؤكد رأي المعتزله كل من الفيلسوفين الكندي (د 260 هـ/873) وابن رشد (د 595 هـ 1198) . فيقول الاول بتكامل العقل والنبوه ، ولكنه لا يفضل العقل عليها وخصص ابن رشد رسالته المشهوره ـ (فصل المقال) ـ لتقرير ما بين الشريعه والحكمة من الاتصال (52) . فيذهب الى أن مصدرهما واحد وهو الحقيقة ، ولذا لا يمكن الخلاف بينهما : فالحقيقه لا تعارض الحقيقة (53) .

وعند ظهور حركة النهضه الاسلامية الحديثة نلاحظ انها تمسكت ببعض الآراء من مذهب الاعتزال . ونكتفينا هنا بوقفة عند رائدي هذه النهضة وهما جمال الدين الافغاني ومحمد عبده . قارن الافغاني (توفي سنة 1897) بين النبوة والحكمه ، فبين أن الاولى يهبها الله لمن يشاء ، في حين ان الثانية تكتسب بالنظر ولكنه فضل النبي على الفيلسوف كما فعل المعتزله قبله ، فالنبي معصوم والفيلسوف معرض للخطأ ، ولذا يجب الامتثال لاوامر الاول ويستمع للثاني أو لا يستمع له (54) . والاسلام في رأيه كان

ان تكون من بين الديانات الاخرى الدين الوحيد الذى يعتمد على العقل ويذم من يؤمن بدون دليل (55) . واقتدى محمد عبده بآراء الافغانى وقال هو الآخر بالتوفيق بين الدين والعقل مؤكدا أن العقل هو اساس الاخلاق كما قال المعتزله من قبل . فيستطيع كل انسان أن يهتدى الى الاخلاق بقطع النظر عن الوحى ، انه يميز بين الخير والشر بفضل التأمل وبه يكتشف القواعد الاخلاقية ولا تقل قيمة هذه القواعد فى الواقع عن تعاليم الشريعه الالهيه (56) فيقول محمد عبده فى هذا المعنى : « جاء الشرع مبينا للواقع ، فهو ليس محدث الحسن . ونصوصه تؤيد ذلك » (57) والفعل يعتبر حسنا لذاته والله يقره لحسنه ولا يصير الفعل القبيح حسنا لان الله أقره (58) ... وأما النبوه فانها تدعم العقليات وتكملها ، والانبياء « يبينون ما اختلفت عليه عقولهم وشهواتهم . وتنازعته مصالحهم ولذاتهم . فيفصلون فى تلك المخاصمات بأمر الله الصادع ويؤدون بما يبلغون عنه ما تقوم به المصالح العامة . ولا تفوت به المنافع الخاصه » (59) .

وهكذا يبدو لنا تأثير آراء المعتزله والعلماء المتأخرين واضحا فى الفكر الاسلامى الحديث بعدما تطورت مواقف أهل السنه نحو الاعتزال . فرأينا ما توصل اليه اجتهاد العلماء الذين أرادوا أن يسايروا العصر . فتجاوزوا الخلافات القديمه وراجعوا الكثير منها . واستمر هذا الاجتهاد الى يومنا هذا فى مختلف الاقطار الاسلاميه . بغيه الوصول الى نظريات تناسب العقل من ناحيه وتدعم الوحى من ناحية أخرى . ويلاحظ أن القضية الاساسيه التى يجب مناقشتها الآن هى صله العلم بالدين اذ تبلورت اليوم قدره العقل البشرى فى مجالات العلم والتكنولوجيا . وهذا موضوع بحث آخر نرجو ان نقوم به عبرنا فى مناسبة من المناسبات فنكتفى بالاشاره اليه هنا ولا نخرج عن اطار موضوعنا .

الهوامش :

(1) على خشيم ، **الجبائيان** ، طرابلس (ليبيا) ، 1967 ، ص 282 .

(2) عبد الجبار ، شرح **الاصول الخمسة** ، مكتبة وهبة ، القاهرة 1965 ص 142 .

(3) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، الجزء الاول ، القاهرة بدون تاريخ ص 235 .

(4) البير نادر ، **فلسفة المعتزلة** ، فى جزئين، الاسكندرية 1950 ـ 1951 ، ج 1 ، ص 65 ·

(5) **رسائل العدل والتوحيد** ، تحقيق محمد عمارة ـ دار الهلال ، القاهرة 1971 ج 2 ، ص 178 ·

(6) الماوردى ، **ادب الدنيا والدين** ، مكتبة الحلبى ، القاهرة، 1965 ، ص 3 ·

(7) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ص 111 ·

(8) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، بيروت ، بدون تاريخ ، ج 2 ، ص 9 ·

(9) عبد الجبار ، **شـرح** ، ص 88 ·

(10) **رسائل العدل والتوحيد** ، ج 2 ، ص 177 ـ 178 ·

(11) عبد الجبار ، **شـرح** ، ص 68 ·

(12) أبو الحسن البصرى ، **المعتـمد** ، المعهد الفرنسى ، دمشق 1964 ، ج 1 ص 363 ـ 364 ·

(13) عبد الجبار ، **شـرح** ، ص 70 و 327 ·

(14) الماوردى ، **ادب الدنيا والدين** ، ص 5 ·

(15) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام فى علم الكلام** ، مكتبة المتنبى ، بغداد ، بدون تاريخ ، ص 371 ·

(16) الشهرستانى ، **الملـل والنحـل** ، تحقيق الكيلانى ، القـاهرة، 1961 ، ج 1 ص 158 ·

(17) أبو ريدة ، **النظام** ، مطبعة لجنة التاليف ، القاهرة، 1946، ص 172 ·

(18) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 19 ·

(19) التهاناوى ، **كشـاف مصطلحات الفنـون** ، طبعـة القـاهرة ، ج 2، 1969 ، ص 149 ـ 150 ·

(20) عبد الجبار ، **شـرح** ، ص 313 ·

(21) أبو ريدة ، **النظـام** ، ص 16 ·

(22) عبد الجبار ، **شـرح** ، ص 311 ـ 312 ·

(23) » ، **المغنى** ، ج 6 ، 1 القاهرة، 1962، ص 24 و 123 ·

(24) عبد الجبار **المغنى** ، ج 6 ، 2، القاهرة، بدون تاريخ ، ص 232 ·

(25) » ، **شـــرح** ، ص 72 و 479 ·

(26) » **المغنى** ، ج 15 ، القاهرة،1965 ، ص 97 ·

(27) » ، **المغنى** ، ج 11 ، القاهرة،1965 ص 384 ·

(28) » ، **شـــرح** ، ص 321 ·

(29) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 66 ·

(30) » ، **المغنى** ، ج 6 ، 1،ص 128 ·

(31) » ، **شـــرح** ، ص 564 ·

(32) » ، **المغنى** ، ج 15 ، ص 45 ـ 46 و 110 ·

(33) التوحيدى ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 12 ـ 14 ·

(34) » ، **الامتاع والمؤانسة** ، ج 2 ، ص 9 ـ 10 ·

(35) ابن متويه ، **المحيط بالتكليف** ، ج 1 ، ص 25 ·

(36) عبد الجبار ، **تنزيه القرآن عن المطاعن** ، ص 41 ـ 42 ·

(37) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 371 ·

(38) الباقلانى ، **كتاب التمهيد** ، دار الفكر ، القاهرة،1947 ، ص 371 ـ 372 ·

(39) الشهرستانى ، **نهاية الاقدام** ، ص 223 و 370 ·

(40) » » » » ص 373 ·

(41) عبد الحليم محمود ، **المحاسبى** ، مكتبة غوتنير ، باريس،1940 ، ص 88 ·

(42) روجير ارنالديز ، **ابن حزم** ، مكتبة فران ، باريس،1956 ، ص 27 ·

(43) جورج مقدسى ، **ابن عقيل** ، المعهد الفرنسى ، دمشق،1963 ص 508 ـ 509 ·

(44) ابن الجوزى ، **صيد الخاطر** ، دار الفكر ، دمشق،1960 ، ج 1 ، ص 128 ·

(45) ابن تيمية ، **التفسير** ، بومباى،1964 ، ص 96،353،386 ·

(46) » **مجموعة الرسائل** ، القاهرة،1341 هـ ، ج 5 ، ص 30 ·

(47) ابن قيم الجوزية ، **شفاء العليل** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ص 79 و 248 ·

(48) الغزالى ، **الاقتصاد فى الاعتقاد** ، القاهرة ، 1962 ، ص 3 ·

(49) » ، **احياء علوم الدين** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 3 ، ص 410 .

(50) فخر الدين الرازى ، **التفسير** ، القاهرة ، بدون تاريخ ، ج 2 ص 177 178 ·

(51) اخوان الصفا **رسائل** . القاهرة،1928 . ج 4 . 1 . ص 391 .

(52) ابن رشد . **فصل المقال** طبعة الجزائر،1978 .

(53) ابن رشد . **فصل المقال** طبعة الجزائر،1978 . ص 34 و 64 .

(54) الافغاني . **خاطرات** . دار حراء . القاهرة،1963 . ص 16 .

(55) » . **الرد على الدهريين** . **دار الهلال** . القاهره ، ص 166 .

(56) محمد عبده . **رسالة التوحيد** . مكتبة القاهرة . 1960 . ص 80 ـ 81 .

(57) » » . ، ص 81 .

(58) عثمان أمين . **محمد عبده** القاهرة،1944 ص 99 .

(59) محمد عبده **رسالة التوحيد** ص 120 .

ازدهار الحضارة والفكر الإسلاميين في المغرب الإسلامي ودورهما في نهضة أوروبا ويقظتها

د. يحيى بوعزيز

ان الحديث عن ازدهار الحضارة والفكر الاسلاميين باقليم المغرب الاسلامي، وجناحيه الاوروبيين ، ودورهما في نهضة اوروبا ويقظتها ، يتطلب العودة دليلا الى الوراء ، للتعرف على الاوضاع قبل ذلك · فقد كان اقليم شمالي افريقيا الغربي ،أو شبه جزيرة المغرب ، قبيل الفتح الاسلامي ، يعيش في دوامة من الاضطرابات الخطيرة التي عرضته للتمزق ، والتشتت ، والتحطيم ، في معظم المجالات · لانه بلي بالاستعمار الروماني الجائر ، والشرس ، ذي الطابع العسكري كما يتضح من آثاره الباقية حتى اليوم في لامبيس ، وتيمقاد، وجميلة ، وتبسة ، وتيبازة ،وشرشال ، وبطيوة ، وغيرها · والذي كان كل همه تسخير امكانيات الاقليم الاقتصادية والبشرية ، لخدمة مصالح روما ، وايطاليا ·

وبعد رحيل الرومان ، تسلط الوندال على الاقليم ، وكانوا بداة متوحشين ، فارتكبوا المزيد من التخريب ، والحرق ، والتحطيم ، لمظاهر العمران ، والاقتصاد، والثقافة ، في اطار مطاردة بقايا الرومان من جهة ، ومواجهة مقاومة شعب الاقليم الباسلة من جهة أخرى · وليس هذا بالشيء الغريب عن الوندال ، لانهم جبلوا على التخريب في أوروبا وشبه جزيره ايبيريا ، قبل ان يعبروا الى هنا، ولم تسلم منهم حتى المسيحية ورجالها الذين اضطهدوهم وقاتلوهم ، ومنهم القديس اوغسطين السوق أهراسي ، العنابي ، الذي تزعم مقاومتهم حتى توفي عام 430 م بعنابة ·

وبعد حوالي قرن من الزمن ، حل البيزنطيون محلهم في استعمار هذا الاقليم ،وواصلوا نفس سياسة اسلافهم الرومان في ممارسة سياسة الارهاب ، والتقتيل ، والتشريد ، والتحريب

(*) ألقي هذا الموضوع في الملتقى العاشر للفكر الاسلامي بعنابة خلال شهر جويلية 1975 ·

للعمران ، والاقتصاد ، ودخلوا فيما بينهم فى صراعات ، وتصاحب حول السلطة والنفوذ ، واشترك فى ذلك رجال الدين والعسكريون والاداريون المدنيون. وامتد هذا التطاحن الى عاصمة بيزنطة نفسها على ضفاف البحر الاسود الجنوبية العربية ، فى شرق البحر المتوسط ·

وخلال هذا كله ، عانى شعب هذا الاقليم أعباء شاقة : اقتصاديا ، واجتماعيا ، وسياسيا ، تذكرنا بما عاناه حديثا خلال الاحتلال الفرنسى الذى يمثل المرحلة الثالثة والاخيرة للاحتلال الرومانى لهذه البلاد · ولم يجد وسيلة للتخلص سوى التمرد ، والثورة ، بأشكال حد عنيفة ، وبصورة متواصلة، فاندلعت الثورات وتوالت هذه وراء الاخرى ، ومد زعماؤها أيديهم الى حلفاء خارج الاقليم تمثلوا فى المسلمين العرب الوافدين من شبه الجزيرة العربية فى القرن السابع الميلادى ·

وكان مما ساعد على فك عرى الارتباط بين شعوب شمال افريقيا الغربى ، والادارة البيزنطية ، هو انعدام وجود الانسجام بينهما رغم القرون الطويلة التى قضاها العراة البيزنطيون فى هذه البلاد · وهذا يذكرنا أيضا بالعهد الفرنسى حديثا الذى قضى قرنا وثلاثين عاما هنا ، ولكنه لم ينجح حتى فى أحكام مجرد الصلة مع شعب هذا الاقليم ·

ما قدمه الاسلام لهذا الاقليم :

وهكذا استطاع المسلمون العرب ، بسهولة ويسر ، وفى وقت قصير ، أن يفرضوا سيطرتهم السياسية على هذه البلاد . ويندمجوا مع سكانها ، ويؤثروا فيهم . بفضل المبادىء السمحة للدين الاسلامى الجديد الذى جاؤوا به ، ومن أجله ، الى هذه البلاد · وأعاد هذا الاندماج السريع بين المسلمين والوافدين الجدد ، والسكان الوطنيين ، الوحدة الوطنية ، والقومية للاقليم ، وازال ذلك التفتت والتمزق الذى خلقه العهد البيزنطى وما قبله · وبذلك انسجمت الوحدة الجغرافية والتاريخية للاقليم ، مع وحدته السياسية ، والدينية ، واللغوية ·

وبعد تحقيق هذه الوحدة السياسية، فى اطار الدين الاسلامى الجديد الوافد، ربط الاقليم بالخلافة الاسلامية فى دمشق أولا ، وبغداد ثانيا ، وبقي الوضع هكذا حتى عهد هارون الرشيد ، ثم حدثت تطورات جديدة ، فرضتها الاحداث الجارية ، تتمثل فى بروز الزعامات المحلية الاقليمية من جديد ، وسعيها لتحقيق استقلالها وانفصالها عن الخلافة بالمشرق · ولكن فى اطار الاسلام دائما على أي حال ، وهذا موضوع آخر ليس هذا مكان تفصيله ·

وكان أهم شىء قدمه الاسلام الجديد الوافد لهذا الاقليم ، وشعبه ، هو وحدة العقيدة ، واللغة ، الى جانب الوحدة السياسية ، والعرقية ، والتاريخية ، التى كانت له قبل ذلك ، وهو أمر هام

جدا لم يستطع الرومان ، ولا مسيحية بيزنطة ، أن تقدمه وتوفره لهما ، وبفضل وحدة العقيدة واللغة هذه، انكب شعب الاقليم على الخلق ، والابداع ، والبناء الحضارى ، في جو من الحرية السياسية ، والبحبحة الاقتصادية . وقامت بالاقليم مراكز حضارية هائلة لا تقل مكانة عن مراكز الشرق الاسلامى مثل . القيروان وفاس ، وتيهرت ، وقلعة بنى حماد ، وبجاية ، ومراكش وتلمسان، الى جانب حواضر الاندلس الكبرى ، وصقلية ، التى تعتبر جزءا من هذا الاقليم ، ومن خلقه هو،وقد أخصب فيها الفكر ، ونفقت التجارة ، وتطور العمران، وازدهرت الفلاحة والحياة الاقتصادية فى معظم مجالاتها ، وتطورت الحياة الاجتماعية ، وانجب الاقليم أبطالا من عظماء الرجال ، وذوى مكانة عالمية ، أمثال ، طارق بن زياد ، وأسد بن الفرات وجوهر الصقلى ، وجعفر بن فلاح ، وبلكين بن زيرى ، وحماد بن بلكين وعبد المؤمن بن على ، وياغمراسن ، امتد أثرهم الى خارج الاقليم ، وكان من نتيجة أعمالهم ، خلق الاندلس ، وصقلية الاسلاميتين بأوروبا ، وتأسيس القاهرة والازهر ، فى أرض الكنانة ، اللذين تحولا الى قلعة منذ ذلك اليوم للاشعاع الحضارى الاسلامى .

كما أنجب الاقليم فطاحل الشعراء ، والادباء ،والكتاب ، والمفكرين ، والفقهاء ، أمثال ابن رشيق المسيلى ، وسحنون القيروانى ، وابن عرفة التونسى ، والقاضى عياض السبتى ، والشريف السبتى الادريسى ، وابن مرزوق الخطيب ، والحفيد ، والمقرى التلمسانيين ، والغبرينى الحرجرى ، والثعالبى ، وابن معطى ، والشيخ ابن مروان العنابى ، وغيرهم . شاركوا كلهم فى بناء صرح تلك الحضارة الرائدة التى ستكون أهم رافد لنهضة أوروبا . ويقظتها (1) ، لان حضارة هذا الاقليم الاسلامية هي التى حملها شعب هذا الاقليم نفسه الى أوروبا عبر جناحيه : شبه جزيرة ايبيريا فى شماله الغربى ، وجزيرة صقلية ، وجنوب ايطاليا فى شماله الشرقى ، ومن هناك انتقلت وتسربت الى معظم أنحاء أوروبا الغربية والوسطى كما سياتى ، وهو صلب هذا الموضوع .

حالة اوروبا فى العصر الوسيط :

وفى الوقت الذى كان فيه الغرب الاسلامى ، وشرقه ، يعيشان هذه النهضة الواسعة سياسيا ، واقتصاديا، وثقافيا ، واجتماعيا ، كانت أوروبا تمر بأزمة تخلف حادة ، وواسعة ، كثيرا ما يعبر عنها وعن زمانها ، بالعصر المظلم ، شملت معظم ميادين الحياة .

ففى الميدان السياسى ، كانت صفات الاستبداد، والجور، والظلم ، هي الطابع

---

(1) يحيى بوعزيز : جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربية «**الاصالة**» عدد 19 . (الجزائر ـ مارس ـ أبريل 1974) ص 287 ـ 301 .

الذى يمير الحكام ، والامراء ، والاباطرة . وكان الشكل الامبراطورى هو السائد على معظم شعوب أوروبا التى حشرت قسرا تحته ، رغم كونها تختلف فيما بينها عرقا . ولغة ، وتاريخا ، وعادات ، وتقاليد . ونتج عن كل ذلك انتشار الحروب والثورات والقلاقل ، فيما بينها حقبا طويلة من الزمن (2) .

وفى الميدان الاقتصادى كان الفقر هو الظاهرة العالمة على شعوب أوروبا ، لان الارض التى هي مصدر الثروة والغنى ، فى العصر الوسيط ، كانت ملكيتها احتكارا لفئة صغيرة واقلية من الناس ، يدعون . رجال الاقطاع ، ويتمثلون فى الامراء والملوك ، وحاشياتهم . اما اغلبية المجتمعات الاوروبية ، فكانت فقيرة معدمة ، سخرها هؤلاء الاقطاعيون لخدمة اراضيهم باجور زهيدة جدا . وبما ان هذه المجتمعات لا مجال لها للعمل الا فى اراضى الاقطاعيين ، فقد أصبح يعبر عن أفرادها باقنان الارض ، أو رقيق الارض لارتباط حياتهم بها . ولكن لصالح غيرهم . ومن هذا كثر فيما بينهم تفشى الامراض المعدية ، والاوبئة ، والمجاعات الحادة (3) .

وفى الميدان الثقافى كان الجهل هو الطابع المميز لاوروبا نظرا لانتشار الفقر من الناحية الاقتصادية ، ولتحكم الكنيسة فى الفكر ، واحتكارها له وفرضها اتجاها خاصا لا يتلاءم الا مع مصالحها وسياستها الخاصة . وفى نفس الوقت حرمان الطبقة المثقفة من استعمال فكرها . وبذلك حبست الكنيسة اذهان الاوروبيين فى اقفاص مظلمة عدة قرون ، ومنعت شعوب اوروبا من التطور الفكرى والثقافى . وزاد فى الطين بلة جهل اوروبا بالوسائل التى تساعد على انتشار العلم ، كالورق الذى انتشرت صناعته بالعالم الاسلامى غربه وشرقه (4) . يضاف الى هذا أن أوروبا لم تكن تملك لغة للعلم مشتركة ، لان اللاتينية كانت لغة الكنيسة فقط واحتكارا لرجال الدين فيها وفى الاديرة .

وفى الميدان الدينى احتكرت الكنيسة لنفسها تفسير الكتاب المقدس ، وادعت لشعوب اوروبا بان تعاليمها آلهية من عند الله ، وليس من حق أحد أن يناقشها أو يحاسبها على اعمالها . وعلى هذا الاساس خلقت فى الدين المسيحى ما ليس فيه ، وفرضت سيطرتها حتى على الاطار السياسى المتمثل فى الامراء والملوك ، واستغل رجال الدين الامور

(2) د. محمد فؤاد شكرى ، د. محمد انيس . أوروبا فى العصور الحديثة (القاهرة 1956 ـ 1957) ص 17 ـ 33 .

(3) د. سعيد عبد الفتاح عاشور . أوروبا فى العصور الوسطى . الجزء الثانى . نظم وحضارة . (القاهرة ـ 1959) ص 43 ـ 91 .

(4) نفس المصدر . ص 123 ـ 1550 .

الطائلة التي ترد على الكنيسة في حياة اللهو والمجون والخلاعة ، وراغوا عن الطريق المستقيم ، وتحولوا الى رجال أعمال بدلا من صبغتهم الدينية (5) .

وفي الميدان الاجتماعي كانت الطبقية هي السائدة في مجتمعات اوروبا التي تنقسم الى ثلاثة فئات متفاوتة . فالنبلاء والاشراف رقم ١ ، ورجال الدين رقم ٢ ، هم الذين كانوا يتمتعون بكل الحقوق ويحتكرون لانفسهم كل الامتيازات ، السياسية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والثقافية رغم كونهم يمثلون اقلية صغيرة جدا ، بينما الطبقة العامة رقم ٣ ، التي تمثل الغالبية العظمى للشعوب الاوروبية ، كانت محرومة من كل الحقوق ، وعليها فقط الواجبات والاعباء ، لخدمة الطبقتين الاولى والثانية ، النبلاء والاشراف ، ورجال الدين ، ودفع الضرائب التي لا تتناسب مع امكانياتها المادية المحدودة ، لهما وللدولة (6) . ان ظاهرة الطبقية هذه من اسوأ خصائص تاريخ اوروبا العصور الوسطى ، في حين كانت المجتمعات الاسلامية في العرب الاسلامي وشرقه ، يسودها العدل ، والاخاء ، والمساواة الكاملة في الحقوق والواجبات .

معابر الحضارة الاسلامية الى أوروبا :

هكذا يتضح أن هناك عدم توازن من الناحية الحضارية بين العالم الاسلامي غربه وشرقه ، والعالم الاوروبي في العصر الوسيط . فبينما بلغ الاول شأوا عاليا في التطور والتقدم في أوسع مجالاته ، انحط الثاني الى أقصى درجات التخلف . ومع ذلك لا ينبغي المبالغة في هذا الميدان ، لانه ليس معنى ذلك أن اوروبا ليس لها تراث اصلا ، وكل ما في الامر انه عند المقارنة نجد فرقا كبيرا جدا ، ولا سيما ان للعالم الاسلامي ، بحضارته وتقدمه ، تأثيرا كبيرا على العالم الاوروبي في العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث .

وقد وصل هذا التأثير الاسلامي اليه عن طريق معابر اربعة أهمها معبرا العرب الاسلامي المتمثلان في الاندلس ، وصقلية ، اما معبر مصر والشام ، ومعبر آسيا الصغرى ، خلال توسع العثمانيين في شرق اوروبا ، فقد حالت الحروب الكثيرة ، والطويلة على أديمها دون ايصال هذا التأثير الاسلامي بشكل بارز ، وهذا لا يعني التقليل من دورهما على اي حال ، غير ان الاندلس وصقلية سيبقى دورهما باررا ، ورئيسيا مع المغرب العربي ، في تحضير اوروبا ، وتمدينها ، وايقاظها ، فعن طريقهما دخلت العلوم والمعارف العربية الاسلامية الاصيلة والاغريقية المترجمة الى اوروبا ابتداء من القرن الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين بواسطة تجار

(5) نفس المصدر ، ص ١ ـ ٤٧ .

(6) ج ، و ، كوبلاند ، ب ، فينوجرادوف الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ، ترجمة محمد مصطفى زيادة ، (القاهرة 1962) ص 47 ـ 133 ، عاشور ص 63 ـ 91 .

ايطاليا ، والبندقية ، وجنوة ، وبيزا . قال ديورانت ، فان النقل فى الحضارة كشأن التناسل فى الحياة (7) .

فبلاد الاندلس الاسلامية ، التى تمثل المعبر الاول ، هي التى قدمت لغرب أوروبا خلاصة الفكر الاسلامى فى الآداب والعلوم ، والفنون ، والفلسفة ، وعرفته بكثير من تراث الاغريق القديم الذى حفظه المسلمون من الاندثار ، وحموه من الضياع بفضل نقلهم له وترجمته الى اللغة العربية ، لغة العلم والحضارة فى العصر الوسيط (8) .

والعجيب فى الامر أن شبه جزيرة ايبيريا (الاندلس) هذه قبل دخول الاسلام اليها كانت تعيش فى جو من الفوضى ، والاضطراب ، الدينى ، والسياسى ، والطبقية الاجتماعية، وذلك لسوء سياسة العناصر القوطية الحاكمة هناك . والتى هي صنوة الوندال المتوحشين الراحلين ، غير أن شعوب المغرب العربى الاسلامى ، حملت اليها الاسلام ، وأصلحت أحوالها ، السياسية والاجتماعية ، ونشرت فى ربوعها وبين أهلها ، الامن والاستقرار ، ووجهت شعبها بعد ذلك الى عمل البناء والتشييد الحضارى كاحياء الاراضى ، وتنشيط التجارة ، وانعاش الصناعات ، وتطوير حركة العمران ، حتى اصبحت فى ظل الخلافة الاموية من أغنى بلدان أوروبا واكثرها كثافة وسكانا . ثم انكب بعد ذلك ، ومن ورائه دائما ، شعوب المغرب العربى التى تعتبر معينا له ، على الخلق والابداع فى ميادين . العلوم والآداب ، والفنون ، وفتح بأعماله وجهوده ، افاقا كبيرة ، وواسعة ، لاوروبا خاصة ايطاليا التى ظلت تستفيد منه منذ أواخر القرن الحادى عشر الى ما بعد القرن السابع عشر .

وكانت طريقة الشعب الاندلسى المسلم فى الحصول على العلوم والمعارف ، فى بداية أمره ، من المغرب والمشرق الاسلاميين ، تتم اما باستدعاء بعض العلماء من هناك مثل أبى علي القالى ، أو بتسفير بعثات علمية الى هناك مثل بعثة يحيى بن يحيى الليثى (9) .

واما بجمع الكتب التى هي أهم وسائل النشاط العلمى والثقافى ، كما فعل الحكم الثانى المستنصر (10) .

وبعد أن تشبع المجتمع الاندلسى بالثقافة والحضارة العربية الاسلامية عن طريق شعوب المغرب العربى ، شرع

(7) ول . ديورانت : قصة الحضارة . ترجمة محمد بدران . ج 17 . ط 2 (القاهرة 1966) ص 169 .

(8) د . جمال الدين السيال . اثر الاسلام والعرب فى النهضة الاوروبية . (القاهرة 1970) ص 365 ـ 378 .

(9) عبد الحميد العبادى . المجمل فى تاريخ الاندلس . (القاهرة 1958) ص 97 ـ 109 .

(10) نفس المصدر . ص 140 ـ 144 .

في الخلق والابداع والابتكار في نفس الحظ والاطار . ولم يحن النصف الثاني من القرن العاشر الميلادي حتى بلغت الحضارة الاسلامية أوجها بالاندلس وعدت قرطبة احدى عواصم العالم الكبرى بسكانها الذين زادوا على مليون نسمة ، ومنازلها التي زادت على مائتي الف مسكن ، وبأضواء شوارعها الليلية التي لم تعرف مثلها مدينة لندن الا بعد سبعة قرون من ذلك (11) .

ومن أسباب وعوامل ازدهار النهضة الاسلامية بالاندلس ، تسامح الاسلام والمسلمين بها ، تجاه أهل الذمة من اليهود والنصارى ، واقبال المستعمرين الاسبان على تعلم العربية واستعمالها في نشاطاتهم المختلفة ، خاصة التأليف والترجمة ، باعتبارها لغة العلم والحضارة آنذاك ، ثم قيامهم بعد ذلك بدور الوسيط بين هذه الحضارة الاسلامية من جهة ، وشعوب غرب أوروبا وجنوبها الغربي ، ووسطها من جهة أخرى .

وعندما سقطت طليطلة عاصمة الثغر الاوسط في يد النصارى الاسبان عام 1085 م ، تقاطر اليها الاوروبيون من كل الانحاء للاستفادة من الدراسات الاسلامية ، وثقافة المسلمين ، فنشطت حركة الترجمة من العربية الى الاسبانية القشتالية ، والى اللاتينية ، بشكل واسع منقطع النظير ، واستمرت كذلك الى ما بعد القرن الخامس عشر والسادس عشر ، سواء من العلوم العربية ، أو اليونانية المترجمة اليها مثل جالينوس ، وأبقراط ، وافلاطون ، واقليدس (أبوكليد) . ووجد من حكام اسبانيا المسيحيين من قدر الثقافة العربية الاسلامية مثل الفونسو العاشر الحكيم (1252 ـ 1284) الذي أسس مدرسة خاصة للدراسات الشرقية ، استخدم فيها أبا بكر الراقوطي كأستاذ ومدرس لاجيال من المسيحيين واليهود على ما فيه ، وكان هذا الرجل اعلم علماء عصره على ما قيل أيضا (12) .

وقد عاد هؤلاء الذين تقاطروا على الاندلس الى اوروبا بالعلوم والمعارف الاسلامية التي فتحت آفاق المستقبل لهم ، وأحدثوا في الحياة الذهنية الاوروبية انقلابا عظيما اثر على التطور الاوروبي (13) .

وبعد الاندلس تأتي جزيرة صقلية كجسر تان ومعبر ، لحضارة المسلمين في الغرب الاسلامي ، الى اوروبا . وهي شبه جزيرة متلثة الشكل ، تقسم البحر المتوسط الى قسمين ، ولا تبعد عن الحذاء الايطالي الا بمضيق مسينا

(11) ريغريد هونكه . شمس العرب تسطع على الغرب . اثر الحضارة العربية في أوروبا . ترجمة : فاروق بيضون ، وكمال دسوقي (بيروت 1964) ص 499 ـ 502 .

أحمد أمين : ظهر الاسلام . (القاهرة 1953) ج 3 ص 22 ـ 23 .

(12) الفريد قيوم : تراث الاسلام . تعريب . جرجيس فتح الله . (القاهرة ط 2 أكتوبر ـ 1972) ص 354 .

(13) ديورانت : نفس المصدر . ص 14 .

الصغير الذى لا يزيد عرضه على ثلاث كيلو مترات · وفتحها الاغالبة من القيروان بالمغرب الادنى أوائل القرن التاسع الميلادى ، (817 م) وبقيت تحت سيطرتهم حوالى قرنين ونصف قرن حتى عام 1060 م ، فاهتموا بالاعمال الفلاحية بها · وتطوير وسائل الري ، واصلاح الاراضى ، والترع ، والسدود، وأنشأوا المجارى المائية المعقوفة ، وأدخلوا اليها زراعة القطن ، وقصب السكر ، واستغلوا ثرواتها المعدنية كالحديد ، والنحاس ، والفضة ، فى صناعة العملات ، وبعض الآلات والادوات الاخرى ، كما ادخلوا صناعة الحرير ، وبعثوا الحركة التجارية وطوروها ، ونشطوها ، ثم اتجهوا الى النشاط العلمى والثقافى ، حتى حولوا الجزيرة الى معقل للعلوم والمعارف ، وتغنى الجغرافى الادريسى ، والرحالة ابن جبير ، بمفاخر هذه الجزيرة العمرانية، والاقتصادية الفلاحية والتجارية وبقصور ، ومساجد ، ومتنزهات ، ومباهج ، وأحياء مدن . باليرمو ، وسرقوسة ، ومازرة ، ومرسى على ، وغيرها (14) ·

وعندما سقطت هذه الجزيرة فى أيدى النورمان فى مطلع النصف الثانى من القرن الحادى عشر الميلادى ، اهتم ملوكهم بالتراث الاسلامى على عكس الاسبان بالاندلس ، فشجع روجر الاول Roger I مظاهر الحركة الاسلامية ، برعايته الجالية الاسلامية الافريقية ، وكتب على مراسيمه بالعربية الى جانب اللاتينية ، واليونانية ، كما كتب بالعربية على نقوده أيضا · وكذلك فعل روجر الثانى ، فكلف الشريف الادريسى بتأليف كتاب له فى جغرافية الارض ، وما يزال حتى اليوم فى متحف نورمبورج ، الرداء الحريرى الذى اعتاد ملوك النورمان على لباسه ، وهو مطرز بكتابات عربية بالخط الكوفى يرجع الى عام 1133 م · وحتى فريدريك الثانى فى القرن الثالث عشر ، أحاط نفسه بالمظاهر العربية الاسلامية وبحاشية اسلامية افريقية حتى دعى بالامبراطور نصف الشرقى · وشجع العلماء ، والجغرافيين ، والفلكيين والادباء المسلمين كثيرا (15) ·

ومن هذه الجزيرة الصغيرة حجما والعظيمة تقدما ، أخذت الحضارة الاسلامية الافريقية طريقها الى مدن الحذاء الايطالى مثل · أمالفى ، وبيزا، وجنوة ، ومنها الى فرنسا وغرب أوروبا، ووسطها ·

ومن دلائل تأثير الغرب الاسلامى على أوروبا ، حضاريا ، ان الملك الانجليزى جورج الثانى أرسل وفدا من ثمانية عشرة فتاة من بنات أمراء وأشراف انجلترا على رأسهن ابنة أخيه الاميرة دوبانت ، ورئيس ديوانه ، الى بلاط هشام الثالث

(14) الشباك : نفس المصدر · ص 379 — 389 ·

(15) أحمد توفيق المدنى المسلمون فى جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا · (الجزائر — 12 ربيع الاول 1365) ط 1 · ص 284 ·

الاموى بالاندلس لدراسة نظم الحكم والدولة وآداب السلوك وكل ما يؤدى الى تهذيب المرأة ، وأرسل مع هذا الوفد هدية ورسالة ، نصها المهندس زكريا هاشم زكريا (16) ·

وعلى غراره فعل الملك الجرمانى ، فارسل وفدا برئاسة وزيره الاول ويليمين الذى سماه الاندلسيون وليم الامين ، للتعلم والتزود بالثقافة الاسلامية · وأرسل ملك بافاريا بعثة الى الاندلس ، بعد أن استأذن من الخليفة هشام الاول، لدراسة نظم التعليم ومناهجه ، وأساليب الادارة والحكم · وعند عودته زوده الخليفة بوفد من المسلمين كمستشارين وخبراء ليساعدوا الملك فيليب فى كل ما يراه · واخذ ملوك اوروبا الاخرون يفعلون مثلهم وعلى غرارهم حتى ان كثيرا من الاعمال العمرانية باوروبا كالسدود والجسور ، اقامها مهندسون مسلمون اندلسيون من ضمنها جسر هشام على نهر التايمز بانجلترا الذى سمي باسم الخليفة هشام الثانى على ما ذكره زكريا هاشم (17) ·

وقد أكد لوبون بأنه لا يوجد فى اسبانيا المعاصرة من أعمال الري الا ما انشأه المسلمون وخلفوه وراءهم رغم ما حاوله الاسبان من أجل محو وطمس اثار المسلمين بها (18) ·

لقد كان دور المسلمين فى الغرب الاسلامى وشرقه عظيما جدا ، فى ميدان الحضارة بالنسبة لاوروبا ، فقد حفظوا التراث من الاندثار ، وترجموه ونقلوه الى العربية ، لينقل بعد ذلك الى اللاتينية وباقى اللغات الاوروبية الحديثة ، فى أواخر العصر الوسيط ، ومطلع العصر الحديث ، وقاموا بدور الوسيط بعد ذلك بين الحضارات القديمة والحديثة من جهة ، وبين الشرق الاسلامى والاسيوى ، والغرب الاوروبى من جهة اخرى ·

هكذا وجد الاوروبيون عندما استيقظوا من نومهم ، تراثا هائلا ومعينا لا ينضب من المؤلفات العربية الاسلامية فى شتى العلوم والفنون فمالوا الى استغلالها بمختلف الوسائل خاصة بعد ان اشتد عليهم ثقل الكنيسة وكابوسها ، وترمتها الشديد القاتل ، الذى حاول أن يفرض عليهم دائرة ثقافية خاصة وضيقة ، فأصبحوا يتطلعون الى حياة علمية وفكرية أكثر خصبا ، وتنوعا ، وفى جو من الحرية التى اعتاد عليها ابن رشد وأمثاله من المفكرين والفلاسفة المسلمين ، فانكبوا على دراسة مظاهر الحضارة الاسلامية بشغف وحماس ، ونهم ، وشراهة ، منقطعى النظير ، ترك

(16) زكريا هاشم زكريا فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم (القاهرة 1970) · ص 24 – 25 ·

(17) نفس المصدر · ص 25 ·

(18) غوستاف لوبون حضارة العرب · ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1964) ص 294 ·

اثارا واضحة فى الحياة الفكرية الاوروبية ، وفى جامعات أوروبا منذ أواخر القرن الثانى عشر الميلادى · فقد اهتموا بتعلم اللغة العربية التى تساعدهم على فهم وترجمة ذلك التراث الى لغاتهم . مما جعل روجى باكون (1215 ــ 1292) ، يؤكد بأن الفلسفة مستمدة كلها من العربية ، ولذلك لا يمكن لاي شخص أوروبى لاتينى ، أن يفهم فلسفة العلم ، الا اذا تعلم العربية التى أصبحت شرطا أساسيا للمثقف الاوروبى · فأولت الجامعات الاوروبية عناية بها فائقة حتى القرن الثامن عشر، بل وأوائل القرن التاسع عشر · وثبت اراء ابن رشد المحور الاساسى فى تدريس الفلسفة بفرنسا منذ القرن الثالث عشر ، واعترف لويس 15 بذلك عندما نظم التعليم فى بلاده أواخر القرن 15 ، وأكد غوستاف لوبون بأن أساتذة جامعة مونبيلى Montpellier لم يكفوا عن شرح كتابات ابن سينا فى الطب الا منذ نصف قرن فقط (19) ·

وحتى فى جامعات ايطاليا ، خاصة بادوا ، كان نفوذ الفكر العربى الاسلامى لا يقل شأنا عنه فى فرنسا ، وأصبحت الدراسات الاسلامية ذات شأن كبير ، جعلت بيترارك يصيح فى وجه مواطنيه قائلا : يا للعجب ! لقد استطاع شيشرون Ciceron أن ينبغ فى الخطابة بعد ديموستين Démosthène واستطاع فرجيل Vergil أن ينبغ فى قرض الشعر بعد هيوم ، فهل قدر علينا نحن الا نكتب بعد العرب ! لقد أدركنا الاغريق وجميع الشعوب ، وسبقناها فى بعض الاحيان ما عدا العرب (المسلمين) ، فيا للحماقة، ويا للجهل ، ويا للعبقرية الايطالية الخامدة (20) ·

حركه الترجمه ودورها فى نهضة أوروبا :

والذى ساعد على ازدهار هذه النهضة، هو نجاح تيار حركة الترجمة الواسعة من العربية الى اللاتينية بواسطة جيش من العلماء والمثقفين ينتمون الى عدد فئات متنوعة · وهي نفس العملية التى قام بها المسلمون فى بداية نهضتهم العلمية فى المغرب والمشرق الاسلاميين، فالتاريخ يعيد نفسه هنا فى هذه القضية ·

لقد ترجم يوسف قمحى اليهودى (1105 ــ 1190) ، فى ناربونة كتاب « المرشد الى واجبات القلب » للفيلسوف اليهودى بهية · وترجم صمويل بن طبون اليهودى « دليل الحيران » لابن ميمون · وترجم موسى بن طبون كتاب : العناصر لاقليدس، وكتاب القانون ، لابن سينا ، والترياق للرازى ، وشروح ابن رشد لارسطو ، ومؤلفات ابن ميمون · وترجم الطبيب والفيلسوف شم طب (1264) كتاب المنصورى ، للرازى ، فى مرسيليا · كما

(19) د· غوستاف لوبون : (ص 518) ·
(20) نفس المصدر · ص 591 ·
(21) ديورانت : ج 17 ، ص 15 ــ 16 ·

ترجمت كتب اخرى مثلها من العربية الى العبرية مثل كتاب اليسير لابن رهر فى بادوا (1280) ، وكليلة ودمنة . وذلك من طرف هذه الفئة اليهودية التى تعرف العربية وهاجر البعض منها الى جنوب فرنسا .

غير ان التيار الرئيسى للفكر الاوروبى من التراث الاسلامى ، كان عن طريق ترجمة الكتب العربية الى اللاتينية . فجمع ريموند المستنير المتسامح (1130) كبير أساقفة طليطلة ، عددا كبيرا من المترجمين برئاسة دومينكو جنديلسقى، وعهد اليهم بترجمة الكتب العربية فى الفلسفة والعلوم الطبيعية ، وكان من بينهم يهود يعرفون العربية ويتقنونها الى جانب العبرية واللاتينية ، مثل حنا الاشبيلى ابن داود الذى ترجم عددا هائلا من المؤلفات العربية لابن سينا ، والفارابى ، والغزالى ، والخوارزمى . ومثل جيرارد الكريمونى الذى قدم الى طليطلة عام 1165 وأعجب بتراث المسلمين فى العلوم والفلسفة ، فترجم احدى وسبعين كتابا عربيا على ما قيل لعدد كبير من المفكرين المسلمين فى مختلف العلوم والفنون والآداب (22) .

ويلى الاندلس فى الاهمية ، فى تزويد اوروبا بالثقافة الاسلامية ، صقلية الاسلامية كذلك ، لان النورمان بعد أن سيطروا عليها حافظوا على التراث العربى الاسلامى ، وشجعوه ، واستعمل فريدريك الثانى فى بلاطه المفكر ميخايل اسكوت الاسكتلندى الاصل للترجمة ، وعاش فى طليطلة ، وبولونيا ، وروما ، ثم فى فوجيا (نابولى) . وقام بحركة ترجمة واسعة للتراث العربى على غرار جيرارد الكريمونى فى اسبانيا ، ففتح بذلك آفاقا لروجى باكون Roger Bacon والبرت ماجنا ، فى القرن الثالث عشر . وواصل شارل صاحب انجو عمل الترجمة ، وشجعها فى جنوب ايطاليا ، واستعمل العالم اليهودى موسى من أهل سالرنو فى هذه الحركة ، كما استعمل اليهودى فرج بن سالم الحرجنتى ، الذى ترجم كتاب الحاوى للرازى ، وعددا آخر من المؤلفات العربية الاصلية او المترجمة من اللاتينية . ولعب نفس الدور ، قسطنطين الافريقى، والحسن الوزان ، الذى يلقب بليون الافريقى ، فألفا وترجما عددا كبيرا من المؤلفات العربية الى اللاتينية (23) .

نماذج مما قدمه الغرب الاسلامى الى أوروبا من مظاهر حضارية . ودورها فى يقظتها ونهضتها .

لقد شملت جهود المسلمين الحضارية ميادين كثيرة ، فى الآداب ، والفلسفة، والرياضيات ، والفلك ، والعلوم الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والفنون ، والصناعات ، وغيرها . وكان لشعوب الغرب الاسلامى دور بارز فى

(22) نفس المصدر . ص 16 ـ 17 .
(23) نفس المصدر . ص 18 ـ 22 .

ذلك ، خلقا وابداعا من جهة ، وتأثيرا وايصالا الى أوروبا من جهة أخرى ·

ففى ميدان الآداب ، كان الفكر اللاتينى ، يتصف بالجفاف ، والجمود ، فى حين تتصف الآداب الاسلامية بالخصوبة والابداع ، ولذلك اتجه اليها الاوروبيون ، ليشفوا غليلهم ، ويشبعوا نهمهم ، وليريلوا الجمود الذى سيطر على عقولهم حقبا طويلة من الزمن ، مما جعل روسكين جب يقول « ولعل خير ما أسدته الآداب الاسلامية لآداب اوروبا انها اثرت بثقافتها وفكرها العربى ، فى شعر ونثر العصور الوسطى » (24) · فتمكنوا بفضلها من خلق نزعة جديده فى آدابهم الاوروبية تتمثل فى النزعة الرومانتيكية خاصة فى ميدان الغزل الرقيق ، والرثاء الباكى (25) ·

لقد أثر الادب العربى الاسلامى المعربى ، تأثيرا كبيرا ، وبالغا ، فى الدراسات النثرية الاوروبية ، خاصة القصص الخرافية ذات المغزى والهدف الاخلاقى التى تتخذ الحيوان موضوعا لها · وكان الادب الاسبانى أول من تأثر به ، فنقل بطرس الفنونس اليهودى مجموعة قصص هندية من العربية الى الاسبانية عرفت باسم التعاليم المسيحيه · وترجمت كليلة ودمنة الى الاسبانية عام 1251 · وقصة الحكماء السبعة (سندباد البحرى) سنة 1253 · وتوالى بعد ذلك ترجمة الكتب والدراسات الادبية فى معظم انحاء أوروبا · وأكد جب بانه لا يستطيع أحد أن ينكر أن ما تمتاز به آداب جنوب أوروبا من انبساط وخيال خصب انما يرجع الى تأثرها بالبيئة العربية ، والى ما خلفته الثقافة العربية فى اهل الاندلس من تأثير (26) ·

وبفحص هذا التأثير ، برز وجه الشبه بين بعض القصص العربية الخيالية ، ومثيلاتها الاوروبية فى العصرين الوسيط والحديث ، مثل قصة ايرولد ذات اليد البيضاء Isolde Blanche Main وفلوار والزهرة البيضاء Flore et Fleure Blanche والقاسيني نيكولت Au Cassinet Nicolette الذى لا يرقى الشك الى اصلها العربى الذى حرف من القاسم الى قاسينى (27) ·

وتبدو روح الادب الاسلامى الاندلسى واضحة فى قصة اماديس دوقوالا Amadis de Gaula التى كتبت فى القرن 15 ، كما تبدو فى غيرها من القصص الاوروبية، وقصص الموريسكيين، وبلغت الذروة فى قصة «الحرب الاهلية»

(24) السير ها ملتون اليكساندر روسكين جب تراث الاسلام · (دار الطليعة للطباعة والنشر – بيروت 1972) ص 189 – 190 ·
(25) أحمد أمين ظهر الاسلام ، ج 3 · ص 308 ·
(27) لوبون ، حضارة العرب ، ص 474 · وروسكين جب · تراث الاسلام · ص 277 – 270 ·

لحيربيزير الهيتى Gines Pérez de Hitar وهي كلها تشكل مجموعة من الثقافة العربية الاندلسية التى قدر لها أن تصبح نقطة تحول فى تاريخ الاداب الاوروبية الحديثة ، أدت الى ميلاد الرواية الحديثة ·

وقد ذكر دبريسكوت Prescott الامريكى بان قصة دون كيشوت Don Quichotte للكاتب الاسبانى الشهير ميقيل سيرفانتيس Miguel Cervantès (1547 ـ 1616) ، الذى كانت العربية فى عهده ما تزال متداولة بالاندلس ، تعتبر اندلسية قلبا وقالبا ، بأناقتها ، وحبكتها (28) · وأضاف تراند بانها كتبت أصلا بالعربية ، وهي لمؤرخ عربى جغرافى اسمه سيدى حامد بنقالى Sidi Hamed Benguel وذلك لان جميع قصص الفروسية قد أثر عنها بانها أخذت من اصل عربى (29) · وهذا الحكم على قصة سيرفانتيس يسرى على قصص أخرى لا تقل شأنا عنها فى ميدان الادب مثل قصة روبنسون كروس Rodinson Crusoe التى اقتبست من قصة حي ابن يقظان للكاتب الاندلسى المشهور ابن طفيل التى ترجمت الى اللاتينية عام 1671 ، والى الانجليزية عام 1708 (30) ·

وكان للموشحات والازجال الاندلسية تأثير كبير على الاداب الاوروبية الحديثة ، وبدأت تظهر أواخر القرن التاسع الميلادى على يد محمد بن حمود القبرى الصريرى المدعو كدلك مقدم دير معافر القبرى ، وهي السبب فى ظهور ما سمي بشعر التروبادور ، أو الاداء الغنائى فى القرن الثانى عشر بشمال اسبانيا ، وجنوب فرنسا قبل أن ينتقل الى جهات اخرى فى جنوب ووسط وغرب اوروبا وتولد عن هذا الشعر ، او ادب التروبادور ، ما عرف بشعر الجونقلور Jhon Glours أو أدب الصعاليك (31) والمشردين مثل قصة الفارس ثيقار Elcavallero Cifar ذات الروح العربية (32) ·

وأحسن مثل لتأثير الاداب الاسلامية العربية على الاداب الاوروبية ، قصة الكوميديا الالهية الشعرية لدانتى ، التى استقاها واقتبسها على ما يظهر ، من قصة ابن عربى واستاذه ابن مسره ، خاصة القسم المعروف بالفردوس والمعراج ، كما أكد ذلك القس بلاثيوس · اذ لا يوجد أي اختلاف بينهما سوى ان ابن عربى استعمل فى روايته بطلين ، ودانتى استعمل بطلا واحدا فقط هو

(28) روسكين جب · ص 194 و 287 ·
(29) جون برنارد قراند تراث الاسلام ، ص 71 ـ 74 ·
(30) جورج يعقوب أثر الشرق · ترجمة فؤاد حسنين علي (القاهرة 1940) ص 81 ـ 84 ·
(31) د· سهير القلماوى ، د· محمود علي مكى أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · (القاهرة 1970) ص 36 ـ 58 ·
(32) روسكين جب · ص 188 ·

شخصه مقرونا مرة بفرجيل ، وأخرى بعشيقته بياتريسى · ولقصة دانتى هذه الشعرية ، شبه كذلك برسالة الغفران للمعرى (33) ·

وكذلك قصة الدوكاميرون Decamerone

النثرية المشهورة لجيوفان بوكاشيو Giovanni Bocaccio أو الليالى العشرة، التى كتبها على لسان عشرة أشخاص . سبعة رجال ، وثلاثة نساء ، هربوا من الطاعون الذى تفشى فى ايطاليا وكس بلدان البحر المتوسط عام 1348 ، والذى خصه الكاتبان الاندلسيان لسان الدين ابن الخطيب القرطبى ، وتلميذه ابن خاتمة الميرى ، برسالتين ما تزالان مخطوطتين على ما قيل حتى اليوم · وكذلك كتاب . Ilcorbaccio الذى وضعه بوكاشيو فى مثالب النساء وكيدهن ، وخيانتهن ، على غرار القصص العربية الاسلامية مما يدل على تاثير الادب العربى فيها (34) ·

وكما اثرت الآداب العربية الاسلامية للغرب الاسلامى ، فى الآداب الغربية الاوروبية ، اثرت كذلك فلسفة الغرب الاسلامى فى الفكر الاوروبى ، وكان لها باع طويل فى تطويره خلال العصرين الوسيط والحديث عن طريق الاندلس الاسلامية ومفكريها الكبار الذين اعتز العرب الاوروبى نفسه بقدرتهم ، وبدرو الكبير ، وأكد بيرنارد تراند بأن اعظ ما خلفه المسلمون للفكر الاوروبى هـ أعمال فلاسفتهم (35) · ذلك أن الفلس الاسلامية فى العرب الاسلامى فتح أمام اوروبا آفاقا واسعة وجديدة ووجهت أنظارهم نحو ثقافات لم يكونو يأبهون لها ، حببتهم فى الثقافة العربيا فحدوا فى طلبها ، والاخذ منها وبواسطتها نفذوا الى ثقافة اليونا القديمة ، وعملوا على كشف ذخائرها (36) ·

فقد اهتم فلاسفة المسلمين بنقل فلسفة الاغريق الى العربية ، وشرحها ونقدها ، وبفضلهم تعرف الغرب عليها واشتد حماسه للتعرف عليها ويتذوقونها حتى ظهر فلاسفة المسلمين ، ونقلوها الى العربية وشرحوها ، وعرضوها بصورة شاملة · وأهم فلاسفة المسلمين الطبيعية ، والطب ، والجغرافية ، والفنون، الذين أثروا فى الفلسفة الاوروبية ، فلاسفة الغرب الاسلامى ، وعلى رأسهم ابن باجة السرقسطى (1106) وابن طفيل (1107 ـ 1185) ، وابن رشد الذى علقت تعاليمه بتعاليم فلسفة أرسطو (37) ·

(33) سهير القلماوى · محمود علي مكى أثر العرب والاسلام · ص 114 ـ 118
(34) نفس المصدر · ص 118 ـ 120 ·
(35) جون بيرنارد تراند · نفس المصدر · ص 55 ·
(36) د· ابراهيم بيومى : أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية· ص 191
(37) الفريد قيوم : تراث الاسلام · ص 240 ·

ان ابن رشد أبا الوليد (1126 ـ 1198) او افيروايز Averoès يعتبر أكبر شارح لفلسفة أرسطو التى أعجب بها أيما اعجاب ، ووضع لها ثلاثة شروح مما جعل أرنست رينان يقول بأن ارسطو ألقى على الكون نظرة صائبة ففسره وشرح ما غمض فيه · وأن ابن رشد عندما جاء ألقى على فلسفة أرسطو نظرة خاصة ففسرها وشرح ما غمض منها (38) ، ولذلك اعتبر شارحا أعظم فى حين اعتبر أرسطو فيلسوفا أكبر · ويمتاز ابن رشد بالصراحة ، والجرأة فى النقد . وفى اعلان آرائه التى عرضته بتهم الكفر والزندقة . فقد انتقد بطليموس ، وهاجم ابن سينا ، ورد على الفارابى ، والغزالى ، وكان شديدا فى نقده قاسى اللهجة (39) ·

ولم يحاول أن يقلب بين آراء أرسطو ، والمبادىء الدينية ، كما فعل ابن سينا ، وابن ميمون · بل عبر عن تعاليم أرسطو بصورة صادقة ، وقال بأن العقل العام المطلق أبدي قابل للانفصال عن الجسم ، وانكر الخلود والبعث ، وصرح بأن على المرء ألا ينتظر ثوابا أو عقابا غير ما يلقاه فى هذه الحياة الدنيا ، واستنكر الاستبداد ، وأوضح بأنه لا فرق بين الرجال والنساء فى الطبع ، وانما فى الكم (40) ·

وقد أثرت فلسفة ابن رشد تأثيرا كبيرا ، فى فلسفة أوروبا . ومنها اقتبس الغرب كل أفكاره الفلسفية · وكان من حسناتها انها حلت عقال الفكر الاوروبى ، وفتحت امامه أبواب البحث والمناقشة على مصاريعها (41) · غير ان أفكار ابن رشد عارضت اتجاه الكنيسة المسيحية وتعاليمها ، فنقمت عليه ، وعلى ارسطو بالتبعية ، واصدرت عدة قرارات فى القرن 13 حرمت بها تعليم وتداول آرائها مع توقيع قرار الحرمان ضد كل من يردد فلسفتهما ، ومع ذلك فان تأثير ابن رشد وأساتذته بقى حتى القرن 16 وما بعدهما · وأكد دانتى اليجرى الشاعر الايطالى ، بأن ابن رشد يعتبر من عظماء الفلاسفة الذين تشهد لهم التاريخ ·

ان تعاليم ابن رشد الفلسفية هي التى دفعت الاوروبيين الى عصيان تعاليم الكنيسة ، والاخذ بمبدأ الفكر ، وتحكيم العقل ، على أساس المشاهدة والتجربة ، كما أثرت فى فلسفة توما الاكوينى (1225 ـ 1274) ، تأثيرا كبيرا لدرجة أن الفصول التى كتبها عن العقل والعقيدة ، وعن عجز العقل عن ادراك الاسرار الالهية ، عبارة عن مقابلة لما كتبه ابن رشد فى باب . « فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة » · وأكثر

(38) E. Renan Averroès et l'averroïsme (Paris 1866) p. 12

(39) قدرى حافظ طوقان : العلوم عند العرب · (القاهرة 1960) ص 206 ـ 207

(40) د· سعيد عبد الفتاح عاشور . فضل العرب على الحضارة الاوروبية · (مكتبة النهضة المصرية 1957) · ص 24 ـ 29 ·

(41) طوقان : نفس المصدر · 207 ـ 210 ·

من هذا فان طريقته فى معالجة وجود الله هي طريقة ابن رشد نفسه ، ويحوى كتابه الخلاصة ، مذاهب اسلامية الاصل مما يثبت ان الاثر الذى تركه ابن رشد فى عقلية الغرب لم يكن مجرد شروح لكتابات أرسطو ، وانما كان ابعد واعمق من ذلك بكثير (42) · ويعود ذلك الى تاثير ابن رشد ، وكتبه المختلفة مثل الكليات فى الطب ، وكتاب الترياق ، اللذين ترجما وطبعا عام 1552 بالبندقية، وكتاب السموم الذى ترجم وطبع فى بوغدونى عام 1517 ، وتوالى بعد ذلك طبعها مرات عديدة (43) ·

وفى ميدان الرياضيات ، خطا المسلمون خطوات هائلة ، فى تطوير علوم الحساب والهندسة ، والجبر ، والميكانيكا ، وحساب المثلثات ، والفلك · فنقلوا اصول هذه العلوم من الاغريق والهنود ، ثم عكفوا على دراستها ، والاستفادة منها ، فاصلحوا ما بها من أخطاء ، واكملوا ما بها من نقص ، واضافوا اليها بعد ذلك معلومات جديدة، خاصة مادة الحساب ، لم يكن الاوروبيون على علم بها ، ولم يتعرفوا عليها الا منهم وبواسطتهم · فهم الذين عرفوا بنظام الاعداد الهندسية ، والصفر ، اللذين يمثلان ثورة بحق فى علم الحساب، واستطاعوا بهما أن يزيلوا ذلك التعقيد الذى كان فى النظام العددى الرومانى، واستعملوا نظام الترقيم بدلا من حساب الجمل الذى كان سائدا فى العصور القديمة خاصة عند الرومان ·

لقد تمكن المسلمون من ايجاد خانات للاعداد ، ووضع صفوف الآحاد والعشرات ، والمئات ، والآلاف ، وما بعدها · وصار بالامكان تغيير قيمة الرقم الواحد حسب الرتبة التى يوجد بها بينما فى النظام الرومانى لا يتغير ابدا حتى ولو غير مكانه · فالارقام التالية تكتب فى النظام العربى الحديث بشكل يختلف عن النظام اللاتينى

CCCLXXXVII = 487
CCCLXXXIII = 383
MMMDCCCCLII = 3952
DCCCXXXVIII = 998

وذلك على أساس أن كل شكل له قيمة خاصة مثل

I = 1 , V = 5 , X = 10 , L = 50 , C = 100 , D = 500 , M = 1000 (44)

ولما كان لدى الهنود اشكال مختلفة للترقيم فقد اختاروا من عندهم سلسلتين عرفت احداهما بالارقام الهندية (١,٢,٣,٤,٥) وهي التى تستعمل فى المشرق العربى الاسلامى ، حتى اليوم · وعرفت الثانية باسم الارقام العبارية وهي التى استعملت فى بلاد المغرب الاسلامى ، وسادت فى بلاد الاندلس بعد ذلك ، ومنها انتقلت الى أوروبا ، وعرفت باسم الارقام العربية ويرى البعض أنها مرتبة على أساس الزوايا · فرقم 1 يشتمل على زاوية

(42) Renan ص 237 ـ 246 ·
(43) لوبون : ص 628 ـ 629 ·
(44) زيغريد هونكه · ص 70 ـ 73 ـ و 91 ·

واحدة ، و 2 على زاويتين ، و 3 على ثلاث زوايا وهكذا على الشكل التالى

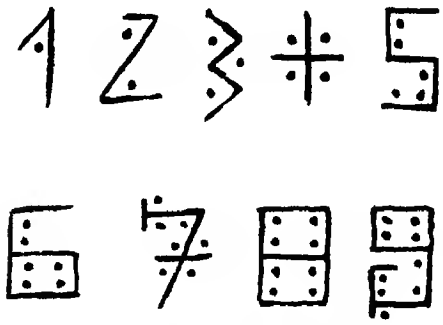

ثم دخل عليها تحريف وتعديل حتى اصبحت على ما هي عليها الأن · وفيما يخص الصفر استعمل الهنود نقطة (·) للدلالة عليه ، واسمه عندهم (سونيا) ، واستعملوا الدائرة (0) للدلالة على النقطة، فأخذ المسلمون النقطة بدلا من الدائرة حتى لا يلتبس رقم (0) عليهم ، ولكن مسلمى المغرب والاندلس استعملوا رقم الدائرة (0) صفرا ، وعنهم انتقل استعماله كذلك الى أوروبا (45) ·

والاصل فى تسمية هذه الارقام غبارية فى السلسلة الثانية هو أن الهنود كانوا ينثرون غبارا على لوح الخشب الذى يرسمون عليه هذه الارقام · وتاتى أهميتها هي والسلسلة الاولى من سهولة تركيب أي عدد منها مهما كان كبيرا لانها تقوم على النظام العشرى ، بحيث تتغير قيمة العدد أو الرقم حسب موقعه · فهو فى خانة الآحاد غيره فى خانة العشرات ، او المائات . وهكذا · واعطى الصفر لهذا النظام ميزة خاصة بعد أن نقله المسلمون عن الهنود (46) ·

ومن أعلام المسلمين فى العلوم الرياضية بالغرب الاسلامى مسلمة المجريطى ، الذى يعتبر امام الرياضيين بالاندلس ، وتوفي عام 1007 م · وقد تتلمذ كل من ابن السمح ، وابن الصفار والكرمانى ، وابن بسة بن أبى الصلت ، وغيرهم (47) ·

ومن ضمن الذين نقلوا نظام الحساب العبارى ، ونظام الصفر ، الى أوروبا من الاندلس ، البابا سلفستر الذى يدعى جربرت قبل أن يصل الى منصب البابوية ، وذلك خلال عهد الحكم الاموى أواخر القرن العاشر الميلادى (48) ·

ومن الذين نقلوه من الجزائر بالمغرب العربى ، الرياضى الديرى ليوناردو فيبوناتشى الذى كان ابوه الطديس Bonacio رئيسا للمركز التجارى البيزى ببجاية · فقد ولد ليوناردو فى بيزا بايطاليا عام 1180 م ، والتحق بأبيه فى بجاية فى صدر شبابه فاهتم بتثقيفه، وأسند مهمة تعليمه الى أستاذ بجائى اسمه سيدى عمر ، يدعى فى البداية باسم ليوناردو فيليوش بونانتشى Léonardo Filius BUNACCI ثم اصبح

(45) جرجيس فتح الله . تراث الاسلام · ص 593 ـ 594 ·
(46) د· عبد الحليم منتصر · أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية · ص 216 ـ 217 ·
(47) أحمد أمين : ظهور الاسلام · ج 3 ص 270 ـ 273 ·
(48) زيغريد هونكه : ص 80 ـ 84 ·

يدعى بعد ذلك باسم ليوناردو فيبوناتشى LIONARDO FIBONACCI وأهتم الطفل منذ صغره بعلوم الرياضيات ، وساعده اختلاطه بالتجار البجائيين ، وغيرهم، على تعلم ما سماه · طريقة العد السريعة بوسيلة عجيبة ، استخدم فيها الارقام الهندية الغبارية التسعة · ودفعه شغفه هذا الى القيام برحلة طويلة الى كل بلدان المغرب العربى ، ومصر والشام ، واليونان ، وصقلية ، اطلع خلالها على جهود المسلمين فى العلوم الرياضية · وفى الاخير وضع عدة كتب من ضمنها · كتاب العد : Liber Abaci عام 1202 م وكتاب الهندسة التطبيقية .
Protica Geomitrica عام 1220 م ، وكتابان آخران ابتكر فيهما طرقا جديدة لحل معادلات حسابية وهندسية من الدرجة الاولى والثانية · وبذلك كان من الرواد الاوائل الذين ادخلوا الى أوروبا الارقام الهندية ، والصفر ، والطريقة العشرية، والحساب ، والجبر ، والهندسة العربية (49) ·

وكان لتقدم المسلمين فى الرياضيات، اثر كبير فى تقدمهم فى علم الفلك ، الذى نقلوا أصوله الاولى من اليونان ، فصححوا النظريات الخاطئة لبطليموس السكندرى (50) · وأقاموا مراصد بشرق العالم الاسلامى وغربه لرصد النجوم من ضمنها مراصد فاس ، وقرطبة ، والقيروان ·

ومن اعلام الفلكيين المسلمين فى الغرب الاسلامى أبو ابراهيم الزرقالى (1029 ـ 1087) الطليطلى الذى اخترع الازياج الفلكية التى هي عبارة عن جداول فلكية تعتمد على قوانين عديدة فيما يخص كل كوكب وحركاته ، ووضعه، وسرعته ، وانتقاله ، ورجوعه ، وما الى ذلك · وصنع اصطرلابا جديدا دعي « بصفيحة الزرقالى » تحدث عنها راجيو مونتانوس ، ونشر عنها دراسة فى القرن 15 ، وتحدث عنها الفلكى البافارى يعقوب زيقلر Iacob Ziegler عام 1504 م · وكتب عنها ترجمة جديدة ، يوحنا شونر Johan Schoner باللغة اللاتينية عام 1534 م ، تحت عنوان فى عالم أبى العلوم الفلكية الزرقالى (51) ·

ومما يدل على تأثير الزرقالى ، ان الفونسو العاشر القشتالى أخذ أزجاله الفلكية وحاول أن ينسبها لنفسه ، وصارت تعرف فى الغرب الاوروبى باسم : الازياج الالفونشية (52) ، وحتى المرصد الذى أقامه في قشتالة اعتمد

---

(49) نفس المصدر · ص 88 ـ 94 · ديورانت · ج 17 · ص 170 ـ 171 ·
(50) M Delambre · Histoire de l'Astronomie du Moyen Age. (Paris 1819). pp. 10-60.
(51) زيغريد هونكه : ص 152 ـ 153 ·
(52) حيدر بامات (ج · بريفوار) : مجالى الاسلام · ترجمة عادل زعيتر (القاهرة 1956) · ص 133 ·

فيه على الخبرة العربية المغربية ، والاتها الدقيقـــة (53) ·

وتمكن ابراهيم السهلى البلنسى عام 1081 ، من صنع أقدم كرة معروفـة فى التاريخ ، على ما يظهر ، من النحـاس الاصفر طولها 209 مليم (8،5 بوصة)، وحفر على سطحها 1015 نجما مقسمـة الى 47 كوكبة ، تبدو النجوم فيها حسب اقدارها · وجعلت خيـــرالدة اشبيليـة منارة ومرصدا فى آن واحد استعملهـا جابر ابن أفلح الاشبيلى فى أرصـــاده الفلكية التى نشرها فى كتابه : اصـلاح المجسيطى عام 1240 الذى انتقـد فيـــه بعض آراء بطليموس ، واثبت أن المريخ والزهرة أقرب الى الارض من الشمس · واليه ينسب اختراع بعض الآلات الفلكية، وبعض النظريـات فى حسـاب المثلثات الكروية (54) ·

وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتاب · المناظر ، وغيره ، من تراث ابن افلح الى اللاتينية عام 1270 ، وطبع فى نور مبورج سنة 1533 (55) ، ومعلـــوم أن ابن أفلح كان ضمن من اشرف على بناء صومعة اشبيلية ، او برج الخيرالدا الدى اعتبر من المراصد الاولى والكبرى بالاندلس (56) ·

وفى عام 1229 م نشر الحسن المراكشى جداول فلكية تشمل جيوب الروابا لكل درجة من الدرجات ، وجداول لجيـوب التمام ، وجيوب الاقواس ، والاقـواس المتماسـة · وذلك فى كتابه « جامـع المبادى والغايات فى علم الميقات » الذى ترجم سيديو بعضه فى القرن المـاضى عـــام 1843 ·

وحتى أبـو اسحـاق البطـروجى ، الاشبيلى الذى أصبح يعرف عند العرب باسم البتراجيوس Alpetragius انتقد نظريات بطليموس السكندرى الفلكية ، التى ادعى فيهـا بان حركـات النجوم ومساراتها تنبنى عـلى نظريـة أفـلاك التدوير ، والدوائر المختلفة المركـز · وبانتقاده هذا مهد الطريق لكوبر نيكوس رائد الفلكيين الاوروبيين فى عصـــر النهضة ليخطو بهذا العلـم خطـوات أخرى الى الامام (57) ·

وللبطروجى كتاب فى هذا العلـــم سماه . كتاب الهيئة ، ترجمة ميشيـل اسكوت الى اللاتينية عام 1217 ، وترجمه الى العبرية موسى بن ميمون حـــوالى عام 1529 ·

ان الفلكيين المسلميـن فى الغـــرب الاســـلامى هـم الذين زودوا أوروبـا

(53) زيغريد هونكه : ص 136 ــ 152 و 181 ــ 194 · تراث الاسلام · ص 566 ·
(54) ديورانت · ج 13 · ص 356 ــ 357 ·
(55) لوبون : ص 631 ·
(56) جلال مظهر : أثر العرب فى الحضارة الاوروبية · نهاية عصر الظـــلام وتأسيس الحضارة الحديثة (بيروت 1967) ص 201 ·
(57) زيغريد هونكه : ص 191 ــ 192 و 201 ، ديورانت · ج 13 · ص 357 · اثر الاسلام · ص 566 ·

بالمعلومات والنتائج الفلكية الهامة التي توصلوا اليها · وما يزال حتى اليوم علم الفلك مليئا بالاصطلاحات العربية ، وأسماء الابراج ، والنجوم، والكواكب . كما هي دون تحريف مثل الطرف Aharef وكرسي الجوزاء Cursa والكف Caph والارنب Arneb والبطين Botein والوزن ، Wezn وسعد السعود Saadisud والراعي Errai وقرن الثور Tauri والسمت Azimuth وغيرها (58) ·

وفي علم الطبيعة والكيمياء ، لعب العرب الاسلامي ايضا دوره الكبير ، خاصة في اختراع واستغلال القوة الناجمة عن انفجار مادة البارود الذي كان الصينيون أول من اهتدى اليه على ما قيل · وذلك بفضل استغلال ملح البارود اونترات البوتاسيوم ، والفحم ، والكبريت · وفي أواخر القرن 13 ألف حسن الرماح كتابا عن الاسلحة النارية، وملح البارود ، أشار الى اختراع ما يمكن تسميته بالقنبلة أو الطوربيد ، وذكر بأنها · « بيضة تخرج وتحترق » (59) ·

وأشار ابن خلدون الى ما يفيد استعمال المدافع النارية بالمغرب العربي منذ القرن 13 خلال استعراضه لحادثة استيلاء السلطان أبي يوسف على سلجماسة عام 1273 فقال « نصب عليها آلات الحصار من المجانيق والعرادات . وهندام النفط القاذف بحصى الحديد ينبعث من خزانة أمام النار الموقدة في البارود بطبيعة غريبة ترد الافعال الى قوة باريها » ·

وسرعان ما تعلم الاوروبيون هذا الاكتشاف الجديد ، فكتب مرقص جريكوس بيانا بمسحوق ملح البارود والكبريت والفحم ، تحت التأثير العربي في القرن 13 ، وعندما هاجم الفونسو الحادي عشر مدينة الجزيرة الخضراء في جنوب الاندلس عام 1342 استعمل المسلمون ضده الاسلحة النارية ، وكان حاضرا انذاك معه كونت دربي Derby وكونت سالسبوري Salisbury الانجليزيان ، فشاهدا نتائج هذا المخترع وأسرعا في نقل كيفية صنعه واستعماله الى بلادهم ، واستخدمه الانجليز بعد أربع سنوات في معركة كريسي Crecy (60) ضد الفرنسيين · كما استعمله الفرنسيون قبلهم عام 1339 للدفاع عن كامبري Cambri (61) ·

ولا شك أن اكتشاف البارود واستغلاله من طرف المسلمين في الشرق وفي الغرب الاسلامي كان له أهمية في تاريخ العالم من جهة ، وتأثير على نهضة اوروبا الحديثة سواء في الحروب أو في المشاريع العمرانية الهائلة والمختلفة الانواع والاشكال · كما أن تقدم المسلمين وتفوقهم في علم الكيمياء كان سببا في

(58) عاشور · فضل العرب · ص 42 ·
(60) نفس المصدر · ص 52 – 54 · وجلال مظهر · ص 343 – 351 ·
(61) حيدر بامات · ص 141 ·

حدفهم لصناعات الدباغة ، واعداد الجلود ، وتنقية المعادن ، وسببا فى الشهرة العالمية لحرير غرناطة المتموج الالوان ، وموصلى قرطبة الابلق ، ونصال طليطلة · وما تزال المصطلحات العربية فى هذا العلم كثيرة فى اللغات الاوروبية حتى اليوم ومن ضمنها · الكحول Alcool و Alcohol والقلويات Alcail وغيرها ·

وكان للمسلمين دور بارز وهام فى علم الطب والجراحة · فبعد أن ترجموا تراث اليونان الى العربية ، اهتموا بدراسته وتطويره ، وتصدى لذلك جيل من العلماء خصص لهم ابن أبى صنيعة مجلدا خاصا من كتابه عيون الانباء فى طبقات الاطباء · للتعريف بهم ، وقد انصبت جهودهم على تعديل الكثير من الحقائق الطبية ، وتصحيح غيرها ، واضافة أبواب جديدة فى الطب والصيدلة ، لم يسبقهم اليها أحد قبلهم ، وذلك فى الوقت الذى كان رجال الدين بأوروبا يعتبرون المرض نوعا من الجزاء والعقاب الالهى لا ينبغى للانسان أن يعالجه بحيث اذا انتاب أحد منهم مرض أو حمى يهرع الى أقرب كنيسة أو دير اليه ، ويبقى هناك منتظرا حدوث معجزة تشفيه · وروى أسامة بن منقذ حوادث ونماذج كثيرة توضح الفرق الكبير بين مستوى المسلمين الرفيع فى ميدان الطب ، ومستوى الفرنجة المنحط حتى لابسط مبادىء الطب خلال الحروب الصليبية (63) ·

ومن أبرز أطباء المغرب والاندلس ، افراد عائلة ابن زهر بمؤلفاتهم ، وابن رشد ، وابن البيطار المالقى ، وابن اندراس البجائى ، وابن حزم الاندلسى ، وغيرهم ، الذين ترجمت كتبهم عدة مرات الى اللاتينية منذ 1509 م الى منتصف القرن 16 ، وظلت مرجعا هاما للاوروبيين فى أبحاثهم الطبية طوال هذه الفترة ·

فابن اندراس أبو القاسم أحمد بن محمد المرسى ، استقر ببجاية فى بحر العشرية السادسة من القرن السابع الهجرى (حوالى 1252 ـ 1260) وتصدى للتطبيب فى قصر الامارة ، واشتهر بخبرته الواسعة فى العلاج ، واستحضار الادوية ، مما جعل الامير المستنصر بتونس يستدعيه اليه ويضمه الى هيئة أطباء قصره · وله أرجوزة فى أسماء أدوية الطب المفردة المختلفة (64) ·

ويعتبر أبو القاسم الزهراوى القرطبى (936 ـ 1013) من الجراحين والاطباء الكبار ، بالغرب الاسلامى ، ابتكر عدة عمليات جراحية دقيقة فى العيون ، والاسنان ، والولادة ، اهمها سحق الحصاة فى المثانة واستخراجها بوكى الجراحات ، ولزوم تشريح الاجسام الحية والميتة · وهو الذى اقترح عندما

(63) نفس المصدر · ص 55 ·

(64) أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله العبرينى عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية · تحقيق محمد بن ابى شنب · (الجزائر 1910) ص 45 ـ 47 ·

كان طبيبا فى قصر الحكم الثانى ، استحدام مساعدات ، وممرضات ، فى حالات اجراء العمليات الجراحية للنساء ، لان ذلك ادعى فى نظره للرأفة، والحنان ، والاطمئنان ·

ويشتمل كتابه : « التصريف لمن عجز عن التاليف » المؤلف من ثلاثين فصلا ، على وصف لاكثر من مائة آلة جراحية الكثير منها من صنعه هو ، كان لها أبلغ الاثر فى الجراحة الاوروبية خاصة فى القرن 16 (65) · وقد قام جيرارد الكريمونى بترجمة كتابه هذا فى وقت مبكر ، وبقي مرجعا وعمدة فى الطب لاوروبا اكثر من خمسة قرون حتى عصر امبرواريارى Ambroisepare المتوفى حوالى 1500 (66) ، وذلك فى مدرستى سالرنو Salerno الايطالية ، ومونبيلى Montpellier الفرنسية ، الطبيتين (67)، وهو مقسم الى ثلاثة اقسام أ) ـ الطب الداخلى · ب) ـ والاقرباذين والكيمياء · حـ) ـ والجراحة (68) · ويقال ان مدرسة سالرنو التى أسسها أربعة أشخاص كان من بينهم واحد عربى يدعى عبد الله وحرف اسمه الى عفلة (69) ·

وتعتبر أسرة ابن زهر من العائلات المشهورة فى ميدان الطب ، والعلوم الطبيعية ، والكيمياء بالمغرب والاندلس · أنجبت ستة من مشاهير الاطباء كان كل واحد منهم علما على رأس القائمة فى عصره ، نخص بالذكر ثلاثة منهم وهم عبد الملك ابن محمد الايادى الذى درس بالاندلس ، ومصر ، والقيروان ، وأولى عنايته بالطب · ومن بعده جاء ابنه ابو الفداء زهر الذى أولع بالطب والعلوم الطبيعية · وفى الاخير يأتى ابنه ابو مروان الثالث عبد المالك زهر الذى طارت شهرته الطبية فى الاندلس كخالد الرازى فى المشرق الاسلامى · لقد امتاز ابو مروان او Avenzoar كما كان يسمى فى الغرب ، بالتخصص فى دراسة الطب على عكس غيره الذين جمعوا بين الطب والعلوم الاخرى · ومن تفوقه فى الطب الاكلينيكى بعد الرازى (70) · والف كتاب « التيسير فى المداواة والتدبير » استجابة لرغبة صديقه وتلميذه الفيلسوف ابن رشد سرح فيه فى الاستشفاء ، والعلاج والاحتماء (اتباع أعذبة الحمية) واهتم بدراسة انواع مختلفة من الاغذية والادوية البسيطة ، والصحية ، وخلد مآثر هامة فى وصف الامراض ، وترك تحليلات اثرت عنه فى الورم المحرمى ، والالتهاب التاموزى ، والسل المعوى والشلل البلعومى ·

(65) جلال مظهر ، ص 248 ـ 260 ·
(66) لوبون · ص 519 ·
(67) طوقان · ص 154 ـ 155 ·
(68) زيغريد هونكه · ص 277 ـ 291 و 340 ـ 347 ·
(69) د· محمد كامل حسين · ص 283 ·
(70) ديورانت ج 13 · ص 360 ·

وتدين له الجراحة بأول فكرة عن جراحة الجهاز التنفسي ، وبتعليماته الدقيقة عن انتقاء العظام ، والكسور ، وقد عارض جالينوس في آرائه التشريحية وبعض نظرياته الطبية . وبذلك أصبح عمدا لأطباء أوروبا الذين عملوا على بناء علم التشريح على أسس جديدة في القرن 16 وما بعده ، ومنهم فيساليوس (71) . ونظرا لأهمية آرائه الطبية ترجم الأوروبيون كتابه الى اللاتينية والعبرية منذ القرن 13 ، وظهرت أول طبعة له بالبندقية عام 1490م كان لها تأثير كبير في عالم الطب . ومن كتب ابن زهر الأخرى ، كتاب الاقتصار في اصلاح الأجساد . الذي ألفه الى الأمير المرابطي أبي اسحاق بن يوسف ابن تاشفين ، أثناء وجوده بمراكش .

ويعتبر الطبيب ابن الجزار (أحمد ابن ابراهيم بن أبي خالد أبو جعفر) الذي عاش في القيروان حتى توفي عام 1004 م) ، من رواد الطب في العرب الاسلامي ، تضلع فيه واتخذ لنفسه عيادة لاستقبال الناس ومعالجتهم في الفصول الباردة . أما في فصل الصيف فانه يغلقها ويذهب مع الاساطيل الاسلامية الغازية في البحار لمعالجة المرضى ، والجرحى . وساعده ذلك على تطوير معلوماته الطبية ، والصيدلية . ومن مؤلفاته الطبية قوت الحاضر » و « طب الفقراء والمساكين » و « كتاب الاقرباذين » و « كتاب الاعتماد » و « كتاب الأدوار ترجم معظمها الى اللاتينية وما زال البعض منها في الاسكوريال ، ودرسدن ، وباريس ، واكسفورد ، والجزائر (72) . وترجم الطبيب ستيفان Stephan كتاب الاقرباذين بعنوان زاد المسافرين Via Tacum Peregrinantis

ومن ابرز الاطباء الأفارقة الذين لهم دور كبير في اسداد الطب الاوروبي بالخبرة الطبية الاسلامية . قسطنطين القرطاجي الذي ولد بقرطاجنة في تونس حوالي عام 400 هـ (1000 م) . فقد قام برحلات واسعة في الشرق والغرب بعد أن تزود بالمعلومات الواسعة في مسقط رأسه بتونس . وذلك من أجل الاستزادة بالعلوم والمعارف . ثم رجع الى تونس ، ولظروف غامضة تنكر ، واتجه الى صقلية واتخذ الأمير النورماني روبير جيسكار Robert Guiscard كاتبا له مدة من الوقت ، ثم اعتزل منصبه ، واعتكف في ديرمونت كاسينو Monte Cassino وأخذ يهتم بالتأليف والترجمة من العربية الى اللاتينية في ميدان الطب غير أنه أهمل ذكر أسماء أصحاب هذه المؤلفات ، وحاول أن ينسبها الى نفسه ، كما ان ترجمته كانت رديئة . ومن الكتب التي ترجمها زاد المسافرين لابن الجزار باسم Viaticus وكتاب علي بن العباس باسم Pratica Pantegni وكتب الرازي . واسحاق بن سليمان

(71) جلال مظهر . ص 244 ـ 245 و 262 ـ 263 .
(72) زيغريد هونكه . ص 288 ـ 348 .

الاسرائيلى ، وألف نحو 22 كتابا فى مختلف فروع الطب وطريقة الوقاية من الامراض ، والعلاج . طبعت كلها بين سنتي 1536 و 1539 (73) ·

وقد اعتبر قسطنطين أول الرواد الذين قدموا الطب العربى الى أوروبا اللاتينية . وهو الذى فتح الطريق لجيرارد الكريمونى (1114 ــ 1176) ، وأدى الى ظهور وقيام مدرسة وجامعة مونبيلى التى اصبحت فيما بعد احدى المراكز الهامة للثقافة بأوروبا الى جانب مدرسة سالرنو (74) ·

ومن الاطباء الآخرين الذين اشتهر بهم الغرب الاسلامى وأدوا دورهم بارزا . أبو بكر بن باجة السرقسطى · والطبيب علي بن عبد الرحمن الطليطلى صاحب الشهرة الواسعة فى طرق العلاج للمرضى · والطبيب الفلكى امية ابن أبى الصلت الدانى الذى رحل الى القاهرة واعتقل عدة سنوات هناك من طرف الحكومة الفاطمية · ومن مؤلفاته · رسالة العمل بالاسطرلاب ، وكتاب الوجيز فى الهيئة ، وكتاب الادوية المفردة ، وكتاب تقوية الذهن · وقد نفي الى تونس واستقر بالمهدية وألف لاميرها عدة كتب · والطبيب الفيلسوف ابو بكر ابن طفيل صاحب رسالة « حى بن يقظان » و « أسرار الحكمة المشرقية » و « الارجوزة الطبية المجهولة » و « رسالة فى النفس » · والطبيب الفيلسوف ابن رشد الذى نكبه المنصور ونفاه الى قرية اليشانة مدة من الزمن قبل ان يسفر الى مراكش · والطبيب الفيلسوف ابو عمران موسى ابن ميمون القرطبى الذى عاش بالاندلس ، ثم بمراكش ، ثم بالقاهرة ، حيث تولى مهنة الطب للقائد الاسلامى الكبير صلاح الدين الايوبى (75) · والطبيب الكاتب والوزير لسان الدين ابن الخطيب الذى نشر رسالة عن العدوى وانتشارها بواسطة الاتصال والاختلاط بالمرضى وذلك عام 1348 م ذلك العام الذى كان أكثر هولا وفضاعة فى الامراض والاوبئة (76) ·

هكذا يتضح أن الطب الاسلامى قدم لاوروبا فوائد كثيرة كان للغرب الاسلامى دور بارز فيها من ضمنها الكتب الجامعة التى تناولت معظم فروع الطب ، والمادة العلمية الغزيرة المتعلقة بالطب الاكلينيكى ، والمعرفة الواسعة للعقاقير والادوية المركبة والمفردة ، والخبرة الواسعة فى ميدان الجراحة ، ونظام البيماريستانات (77) ·

وقد اثبت الباحثون الاوروبيون انفسهم أن الدورة الدموية التى يدعى الايطاليون أن مكتشفها هو ميقيل سيرفيد Miguel

---

(73) أحمد توفيق المدنى : ص 223 ــ 226 ·
(74) جلال مظهر · ص 184 ــ 191 ·
(75) زيغريد هونكه · ص 340 ــ 342 ·
(76) نفس المصدر · ص 263 ــ 269 ·
(77) د· محمد كامل حسين · ص 299 ــ 302 ·

Servet المولود فى فيلانوفا Villanouva من أعمال أرغون عام 1509 ، انما اكتشفها فى الحقيقة والواقع الطبيب العربى ابن النفيس البصرى المولود عام 1210 والذى كان كبير الاطباء فى مصر عشرات السنين · · وعنه أخذها واقتبسها ميقيل ، ونسبها لنفسه (78) ·

وفى ميدان علم النبات برز ابن البيطار المالقى ، وأبو العباس الاشبيلى الذى اهتم بدراسة أنواع النباتات المختلفة التى تنمو فى المنطقة الممتدة بين المحيط الاطلسى والبحر الاحمر ·

ويعتبر أبو محمد بن البيطار المالقى (1190 ــ 1248) رائد هذا العلم الى جانب خبرته الطبية · تنقل فى عواصم الاندلس الكبرى ، وبلدان المغرب العربى ، ومصر والشام ، واهتم بدراسة الاعشاب والنباتات الطبية والصيدلية. حتى لقب فى مصر برئيس العشابين ، وبالطبيب الحاذق . والعشاب البارع (79) · وعني بذكر ماهيات الادوية ، وقوامها، ومنافعها، ومضارها، واصلاح ضررها ، والمقدار المستعمل فى حرمها ، أو عصارتها ، أو طبخها ، والبدل منها عند عدمها · ووصف ما يقرب من 1400 نباتا ، وغذاء منها ما لم يكن معروفا اطلاقا قبل ذلك ، وحلل تركيباتها الكيمياوية وخصائصها العلاجية وطرق استخدامها ، ورتبها ترتيبا ابجديا . وذكر أسماءها بعدة لغات (80) ·

ومن كتبه التى ألفها فى هذا الميدان كتاب الجامع فى مفردات الادوية والاغذية ، وكتاب المعنى فى الادوية. وكتاب الاقرباذين · ويعتبر كتابه الاول. موسوعة كبيرة ، غزيرة المادة ، عظيمة الفائدة، بقيت مرجعا وحيدا لاوروبا حتى القرن 16 وما بعده . وجعلت ابن البيطار من عظماء علماء النبات ، لانه جمع كل ما ذكره جالينوس وديسقوريدوس اليونانيان وكل ما عرفه المسلمون قبله · وترجمت أجزاء من كتابه الجامع الى اللاتينية ، وطبعت فى البندقية عام 1598 ، ثم فى باريس ، وكريمونا ، والمانيا بعد ذلك (81) · وترجمه لوكلرك كاملا وطبعه فى باريس عامي 1877 ــ 1881 ·

وكما اعتنى ابن البيطار بعلم النباتات اهتم أيضا بوصف كثير من انواع الحيوانات التى تستخلص منها بعض العقاقير العلاجية (82) · والى جانب نشاط ابن البيطار وغيره فى علم النبات والحيوان نجد علماء اخرين بالعرب الاسلامى يهتمون بدراسة انواع الترب ، والاسمدة ، وعلى راسهم

(78) هونكه ص · 275 ــ 276 ·
(79) د· محمد كامل حسين . أثر العرب والاسلام · ص 242 ــ 243 ·
(80) زيغريد هونكه · ص 322 ــ 323 · طوقان ص 218 ــ 221 ·
(81) جلال مظهر · أثر العرب · ص 273 ــ 275 ·
(82) محمد كامل حسين · ص 246 ·

ابو زكرياء بن العوام الاشبيلي في القرن 12 م ، الذي ألف « كتاب الفلاحة » ووصف فيه طريقة زرع 585 نوعا من النباتات و 50 نوعا من الاشجار المثمرة، وشرح طرق التطعيم ، وأغراض الامراض في الفلاحة ، فجاء كتابه اكمل البحوث في العصور الوسطى، وبقيت أهميته حتى القرن التاسع عشر مما دفع كليمان هوار الى ترجمته وطبعه في باريس عام 1806 (83) .

وفي ميدان الجغرافية ، كان قصب المسلمين عظيما على اوروبا ، لانهم نقلوا تراث اليونان ، الجغرافي واعتكفوا على دراسته وتطويره فصححوا الاخطاء الموجودة به ، واضافوا له معلومات وخصائص جديدة ، بفضل رحلاتهم الكثيرة ، ومشاهداتهم الواسعة خلالها لتلك البلدان والامصار التي زاروها .

ومن الرحالة المسلمين بالعرب الاسلامي ، ابن بطوطة ، ومن الجغرافيين اللامعين ، الشريف السبتي الادريسي، الذي اسهم هو وغيره بجهد كبير وفعال في بناء علم الجغرافيه ، وفي انرائه بالمعلومات والبحوث النافعة التي استفاد منها الاوروبيون ، وترجموها الى لغاتهم اللاتينية والاوروبية الحديثة . وظل المسلمون في هذا الميدان ، كما في غيره ، أساتذة أوروبا عدة قرون وجاءت المعلومات التي توصلوا اليها هي عين الحقيقة ، او قريبة منها ، في حين أخطأ بطليموس الاسكندري ، وكذلك غيره من علماء الاغريق ، في تقدير طول البحر المتوسط بحوالي 400 فرسخا على عكس المسلمين (84) .

ويعتبر الشريف الادريسي (100 ـ 1150) رائد الجغرافيين المسلمين في الغرب الاسلامي ، ولد في مدينة سبتة بالمغرب الاقصى ، واعتكف على الدراسة والتحصيل ، ثم قام بعدة رحلات الى الاندلس ، وبلدان المغرب العربي وجنوب فرنسا ، وايطاليا ، واليونان وآسيا الصغرى ، وحتى انجلترا ، وفي الاخير استقر به المقام في باليرمو بصقلية ، وحظي بالتقدير لدى ملكها روجر الثاني Roger II (1101 ـ 1154م)، بفضل نبوغه وتضلعه في علم الجغرافيا، فكلفه بوضع كتاب له في هذه المادة فجرد بسرعة ، وسماه « نزهة المشتاق في ذكر الامصار والاقطار والاقاليم والبلدان والجزر والمدائن والآفاق » (85)، وأصبح يعرف بالكتاب الرجاري نسبة الى روجر فيما بعد . وقد زوده الادريسي بحوالي سبعين خريطة كانت أحسن من خرائط الجغرافيين السابقين له . وجمع بين الجغرافية الوصفية والفلكية (86)

---

(83) ديورانت ج 13 ، ص 358 .
(84) عاشور فضل العرب ، ص 44 ـ 45 .
(85) ديورانت ، ج 13 ، ص 58 ، طوقان ، ص 197 ـ 200 .
(86) ج . ش . كرامرز تراث الاسلام ، ص 141 ـ 143 .

وقسم الارض الى سبعة أقاليم عرضية ، ووضع خريطة جامعة للكرة الارضية رسمها على كرة من الفضة وزنها 1800 اوقية ، وخطط عليها تلك الاقاليم السبعة المتوازية عرضيا ابتداء من خط الاستواء (87) .

ولاهمية كتاب الادريسى اعتنى الاوروبيون به فترجموه الى اللاتينية فى وقت مبكر وطبع فى روما عام 1619 لاول مره بصورة مختصرة ، وبقي مرجعا لعلماء أوروبا الجغرافيين طوال ثلاثة قرون وزيادة .

وقد أشار الادريسى الى ما يثبت أن مسلمى الغرب الاسلامى كانوا أسبق فى اكتشاف أمريكا ، وعبور الاطلنطى ، من كولومبوس ، وذلك عند حديثه عن الاخوة المغرورين الذين خرجوا من اسبونة واتجهوا الى المحيط الاطلنطى غربا حتى اكتشفوا أكثر من جزيرة (88) .

وحتى فاسكو داجاما الايطالى لم يستطع أن يصل الى الهند عبر سواحل افريقيا الشرقية الا بفضل الملاح العربى شهاب الدين بن ماجد الذى لا يشير اليه الاوروبيون ، وقد اندهش فاسكو عندما وجد لدى ابن ماجد اصطرلابا من النحاس ، وخريطة بحرية دقيقة ، وعددا من الادوات البحرية الهامة ، بينما هو لم يكن يملك سوى اصطرلاب خشبى صغير وغير دقيق (89) .

ومما ساعد المسلمين بالمغرب والشرق الاسلاميين ، على تطوير علم الجغرافية ، ودون الملاحة البحرية اهتداؤهم ، منذ وقت مبكر ، من نهضتهم ، للوصلة او بيت الابرة واستعمالهم لها استعمالا علميا ، رغم ان مبتكريها الاولين هم الصينيون على ما قيل ، وعن المسلمين نقله الاوروبيون الى أوروبا ليستعين بعد ذلك فى النشاط البحرى الاوروبى أواخر العصر الوسيط ومطلع الحديث . وليس صحيحا ما قيل من ان المسمى فلافيوجيودا الايطالى الامالفى هو الذى اخترع هذه الآلة ، رغم أن كراسرز يميل الى ذلك (90) . لان بطرس فون ماريكور Petrus Ven Maricourt هو الذى تفن عن العرب عام 1269 ، معلوماته عن المغناطيس ، وعن كيفية استعمال البوصلة التى اشار اليها الادريسى فى كتابه قبل ذلك فى القرن الثانى عشر . وادخل الاوروبيون استعمالها الى أوروبا ، واشار اليها ماريكور فى رسالة خاصة سماها Epistole de Magnete وبعده بحوالى خمسين عاما ، أى حوالى عام 1320 اكتشف فلافيوجيوبا البوصلة كما زعموا ، وهى الحقيقة احد اسرار استعمالها من عنده (91) .

(87) توفيق المدنى . ص 236 – 237 .
(88) أحمد أمين ظهر الاسلام ج 3 .
(89) زيغريد هونكه . ص 416 – 423 .
(90) كراسرز . ص 152 – 153 .
(91) زيغريد هونكه . ص 47 – 48 .
. جلال مظهر . ص 111 – 120 .
. ص 202 – 206 .
. كراسرز تراث الاسلام . ص 130 – 131 .

ومثلما انتفع الاوروبيون بتـــراث الادريسى الجغرافى المغربى ، استفادوا أيضا من تراث الحسن بن محمد الوزان الزياتى ، او ليون الافريقى ، الذى ألف كتاب : وصف افريقيا ، فاعتمدوه عدة قرون للتعرف على شمال هذه القارة · وقد كتبه الحسن الوزان بالعربيـة ثـم ترجم الى اللاتينية ، عندما كان مقيما بالفاتيكان خلال بابوية ليو العاشر (92) · وبقي هذا الكتاب مرجعا كذلك لاوروبا حتى القرن التاسع عشر · وما تـزال حتى اليوم مصطلحات بحرية وتجارية فى اللغات الاوروبية مش · Admiral من أمير الماء (البحر) و Arsenal من دار الصناع (صناعة)، و Felouque من الفلك ، و Calfate من القلفطة، و Boussol من البوصله ، و Tare من طرح السعيرة ، و Fregar من الفرقاطة · وغيرها (93) ·

وفى ميدان الصناعة ، كان للمغرب الاسلامى دور بارز فى تعريف الاوروبيين بعدد هائل من الصناعات وفنونهـــا كـــالورق ، والنسيـــج ، والحـــرف ، والرحاج، والسكر، والبارود، والزخرفة، وغيرهـــا ·

فصناعة الورق الـتى احترعهـــا الصينيون أول مرة ، وصلت الى أوروبا عن طريق مسـلمى الغرب الاسلامى · وكان لمصنع شاطبة الاندلسى ، شهرة واسعة فى صناعة الورق الجيد الـذى امتدحـه الشريـف الادريسى فى القرن 12 م ، وأطلق عليه اسم رقائق القماش تمييزا له عن رقائق الجلد لانه يصنع من أسمال القطن ، والقنب ، والكتان ، بدلا من الحرير · ومن الاندلس وصقلية والمغرب العربى ، انتقلت صناعة الورق الى ايطاليا ، وباقى أوروبا ، وأقيم أول مصنع فى فبريانوا بايطاليا عام 1276 ، ثم فى بادوا عام 1340 ، ثم فى المانيا بعد ذلك (94) ، وساعد ذلك على تطوير التعليم وتوفير الكتاب ·

وقد تعرف الايطاليون على صناعتـه عندما كانوا يترددون على الانـدلس فى القرن 12 ، خاصة الذين كانوا يذهبون الى زيـارة قبـر القـديس يعقـوب فى سانتيوغادى كومبوستيلا Santiogadi Compostala شمال غرب اسبانيا · وكان ذلك سببا فى انتشاره بايطاليا ثـم فى اوروبا (95) · وحتى القطن الذى يستعمل فى صناعة الورق ازدهرت زراعته فى بلدان المغرب العربى والاندلس وصقلية، ومن هناك انتقل الى باقى بلدان أوروبا العربية ليستغل فى صناعـة الـورق والنسيج كذلك (96) · وكان بفـاس

(92) د· محمد محمود الصياد : أثر العرب والاسلام · ص 317 ــ 318 ·
(93) السير أرنست باركر : تراث الاسلام · ص 96 ــ 98 · لوبون ٥ ص 441 ــ 442
(94) جلال مظهر · أثر الاسلام · ص 337 ــ 340 ·
(95) حيدر بامات · ص 106 ــ 108 ·
(96) زيغريد هونكه · ص 32 ــ 41 ·

وحدها حوالى 400 حجرة لصناعة الورق ، وكذلك الامر فى طرابلس الغرب، وبجاية ، والقيروان . ومسلمو الغرب الاسلامى هم الذين عرفوا أوروبا بزراعة قصب السكر ، وصناعة السكر ، أو الملح الهندى ، الذى كانت صناعته شائعة فى المغرب الاسلامى ، مثل طرابلس الغرب ، والقيروان ، وبجاية ، ومراكش، وفاس ، وعواصم الاندلس الكبرى ، وصقلية . ومن هناك انتقل الى جنوب أوروبا ، وغربها ، والى جزر ماديرا حوالى عام 1420 ، وجزر الكنارى حوالى عام 1503 ، ومن هناك انتقلت الى العالم الجديد (97) .

وقد أشرنا فى السابق الى دور المسلمين فى الغرب الاسلامى ، فى صناعة البارود ، نظرا لخبرتهم الواسعة فى علم الكيمياء والطبيعيات ، ونضيف هنا دورهم فى صناعة الزجاج ، والخزف، بمدن المغرب الكبرى ، والاندلس ، وصقلية ، وفى نقلهما بعد ذلك الى اوروبا باشكالهما ورسومهما المختلفة، وزخرفتهما الجميلة التى كان يستعمل فيها حتى الخط العربى خاصة الكوفى، واثارت اعجاب الاوروبيين الذين قلدوا ذلك بشكل واسع ما تزال بعض آثاره حتى اليوم فى بعض التحف .

والصلبان (98) . ومن بجاية تعلم الاوروبيون صناعة الشمع ونقلوها الى اوروبا ، واصبحوا يطلقون عليه اسم هذه المدينة Bougie (99) .

هكذا يمكن القول ان الغرب الاسلامى باقاليمه الواسعة ، هو الذى بعث الحياة فى اوروبا الجنوبية والغربية ، وعرفها بالعلوم والصنائع الاسلامية ، ومكنها من استغلال مزروعات لم تكن معروفة لديها قبل ذلك كالقطن ، وقصب السكر، والبرقوق والزعرور ، والياسمين ، والزعفران ، والقرمز ، والعنبر ، والقنب ، والزنجبيل (100) . ومن اقوال الدكتورة زيغريد هونكة فى هذا المقام قولها

فى الواقع ان كثيرا من الكتاب الغرب فى القرن العاشر الميلادى يشهدون بوجود تجارة مزدهرة بين غرب شمال افريقيا من جهة ، وبين كل من البندقية، وامالفى وباليرمو ، من جهة اخرى تحمل سفنها الستائر الحريرية النادرة، واكسية الهياكل ، والاوشحة السوداء والاردية ذات الالوان السماوية الجميلة، وسلال سكر طرابلس الغرب واكياسه من القيروان وسوسة وفاس وطرابلس الغرب ، الى اوروبا، انها تحف عربية شائقة تستقر بعد طواف مديد فى

---

(97) جلال مظهر . ص 331 – 334 . زيغريد هونكة . ص 40 – 51 .
(98) كريستى تراث الاسلام . ص 96 – 99 .
(99) الجيلالى . ج 1 . ص 328 .
(100) حيدر بامات . ص 106 – 108 .

مونت كاسينو Monte Cassino وفى ديرة شبه الجزيرة الايطالية، وكنائسها، بدليل أنها لا تزال حتى يومنا هذا (101) ·

هذه لمحات مختصرة ، عن مركز هذا الغرب الاسلامى ، وجهوده فى بنـــاء الحضارة الاسلامية من جهة ، وعن دوره فى تحضير أوروبا ، وتأثيره فى تطورها وتقدمها ، بمـا قدمـه لهـا مـن أسس حضارية هامة ، حية ، ومتنوعة، بعثت فيها دماء الحياة ، ودفعتها الى الامام بخطوات عمـلاقـــة ·

(101 زيغريد هونكه · ص 32 ·

بعض مراجع البحث المعتمدة

ـ أثر العرب والاسلام فى النهضة الاوروبية ·

أعدت الدراسة باشراف مركز تبادل القيم الثقافية بالتعاون مع منظمة الامـــم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (اليونسكو) · (القاهرة ـ 1970) · 466 ص ·

ـ أرنولـد (سيرتوماس) .

تراث الاسلام · تعريب فتح الله (جرجيس) · ط 2 (بيروت ـ 1972) · 616 ص

ـ أميـــن (أحمـد) :

ظهر الاسلام · ج 3 (القاهرة ـ 1973) ·

ـ بوعزيـــز (يحيى) :

جهود الجزائر الفكرية فى موكب الحضارة العربيـة · الاصالـــة · عدد 19 (الجـزائـر ـ مارس ـ ابريل 1974) ص 278 ـ 301 ·

ـ حيدر بامات (ج · ريقوار) :

مجالى الاسلام · ترجمة رعيتر (عادل) · (القاهرة ـ 1956) · 450 ص ·

ـ ديـــورانت (ول) :

قصة الحضارة · ترجمة بدران (محـمـد) · ج 13 و 17 (القاهرة ـ 1964 ـ 1966) · 398 ـ 365 ص ·

ـ زكريا (المهندس زكريا هاشم) .

فضل الحضارة الاسلامية والعربية على العالم · (القاهرة ـ 1970) 610 ص ·

ـ شكرى (د· محمد فؤاد) · أنيس (د· محمد)

أوروبا فى العصور الحديثة · الجزء الأول من النهضة الايطالية الى الثورة الفرنسية (القاهرة ـ 1956 ـ 1957) · 255 ص ·

ـ طوقان (قدرى حافظ) :

العلوم عند العرب · (القاهرة ـ 1960) · 238 ص ·

ـ عاشور (د· سعيد عبد الفتاح) ·

أ) فضل العرب على الحضارة الاوروبية · (القاهرة ـ 1957) · 107 ص ·

ب) أوروبا العصور الوسطى · ح 2 · نظم وحضارة · (القاهرة ـ 1959) · 316 ص ·

ـ عاشـــور (د· سعيد عبد الفتاح) · أنيس (د· محمد)

النهضات الاوروبية فى العصور الوسطى وبداية الحديثة · (القاهرة ـ 1959) · 202 ص ·

ـ العبـــادى (عبد الحميد) ·

المجمل فى تاريخ الاندلس · (القاهرة ـ 1958) · 216 ص ·

ـ العقـــاد (عباس محمد) :

أثر العرب فى الحضارة الاوروبية · ط 4 · (دار المعارف بمصر ـ 1965) · 170 ص ·

ـ عنـــان (عبد الله)

أ) دول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطى (القاهرة ـ 1960) 407 ص ·

ب) عصر المرابطين والموحدين فى المغرب والاندلس · مجلدان · (القاهـــرة ـ 1964) 566 ـ 806 ص ·

ـ الغبرينى (أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبد الله) ·

عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء فى المائة السابعة ببجاية · تحقيق بن أبى شنب (محمد) · ط 1 (الجزائر 1910) · 236 + 8 ص ·

ـ كوبلانـــد (ج· و) · فينوجردوف (ب) ·

الاقطاع والعصور الوسطى فى غرب أوروبا · ترجمة زيادة (محمد مصطفى) ط 2 (القاهرة ـ 1958) · 140 ص ·

ـ لوبون (غوستاف) :

حضارة العرب · ترجمة زعيتر (عادل) · (القاهرة ـ 1964) · 650 ص ·

ـ المدني (أحمد توفيق) .
المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب ايطاليا (الجزائر ـ ربيع الاول 1365) ، 284 ص .

ـ مظهـــر (جلال) .
أثر العرب في الحضارة الاوروبية نهاية عصر الظلام وتاسيس الحضـــارة الحديثة . (بيروت ـ 1967) . 439 ص .

ـ هونكـــه (زيغريد)
شمس العرب تسطع على الغرب . اثر الحضارة العربية في اوروبا . ترجمة بيصون (فاروق) ، دسوقي (كمال) . (بيروت ـ 1964) . 563 ص .

ـ يعقـــوب (جورج)
أثر الشرق . ترجمة علي (فؤاد حسنين) . (القاهرة 1940) .

— De Lambre (M.) . Histoire de l'astronomie du Moyen Age (Paris 1819)
— Renan (Ernest) Averroes et l'Averroïsme (Paris 1866).

مجهودات المسلمين في علم الجغرافيا

د. عبد القادر حليمي
أستاذ الجغرافيا - جامعة الجزائر

1 ـ المجهودات الجغرافية السابقة للاسلام

مقدمة :

لفهم مدى مساهمة المسلمين فى تطوير علم الجغرافيه يجب البحث فيما وصل اليه هذا العلم قبل ظهور الاسلام سنة 570 م ، الموافقة لميلاد الرسول عليه السلام او لهجرته سنه 622 م . وذلك حتى يمكن التمييز بين ما هو موروث وما هو مستحدث . أو ما كان لهم وما كان لغيرهم .

والحقيقه العلميه التى لا ينكرها الباحثون هى ان كل علم من العلوم مهما كان نوعه أو شعبه هو عبارة عن ارث بشرى لحلقات متواصلة من الابحاث والتجارب التى اجراها الانسان ولا يزال يجربها بغية الوصول الى التفسير الخالص والصحيح لمركب الحياه المعقدة . وهذا العمل المستمر ناتج عن ان البحث عن المعرفه من طبيعة البشر بل هو جزء منه منذ نشأته الاولى . ولا يمكن ان يتخلى عنه طالما بقى حيا .

ومن ماهيه البحث انه شديد التنوع وان ليس هناك بحث يتصف بالكمال الذى لا يمكن ان يأتى بعده بحث اصح منه اذ كما يقال .

قل لمن يدعى فى العلم معرفة
علمت شيئا وغابت عنك اشياء

كما ان ليست كل نتائج البحث صحيحه صحة كامله وليست كلها مخطئه خطأ كاملا . بل ان نسبه الصواب والخطأ تختلف باختلاف الزمان والمكان والمركب البشرى او انها خاضعه للظروف الطبيعية والبشريه التى اجريت فيها هذه الابحاث وهى ظروف كثيرا ما دفعت بالانسان الباحث نحو وجهة معينة .

والانطلاق من هذه المفاهيم يدفع الى القول بان علم الجغرافيه مثله مثل سائر

بقيه العلوم بجد وصوله فى الانسان الاول الذى ولا شك انه فكر أول ما فكر فيما يحيط به من اشياء وحاول تفهمها أو ان يجد لها تفسيرا . وعندئذ أصاب بعض المرات واخطأ مرات أخرى ، وبتقادم العهد أدت التكرارات فى التفكير والتأمل الى نشأة ما يعرف بسلسلة التجارب والمعرفة التى ينبنى عليها الحضارات القديمة مثل حضارات بلاد ما بين الرافدين واليمن ووادى النيل وبحر ايجه . وسنعرض بايجاز فيما يلى الى الجانب الجغرافى الذى ورثه المسلمون من هذه الحضارات .

1 ـ الجغرافية عند العرب فى الجاهلية :

ولعل شبه الجزيرة العربية بموقعها الفلكى كانت تمثل منذ القدم منطقة الاحتكاك والاتصال للحضارات القديمة التى ازدهرت فى شرقها وفى غربها ، بل كذلك فى شمالها وفى جنوبها ، والمنطق يفرض ان نقول ان العرب لم يقوموا بدور الوسيط فقط بل كانت لهم آراء وردت فى اشعارهم ، آراء منها المقتبسة ومنها الاصيلة التى ولا شك انها اضافت معلومات لا بأس بها الى علم الجغرافية .

كما ان الانصاف يفرض ان نقول ان البيئة الطبيعية لشبه الجزيرة العربية قد علمت الانسان العربى اشياء كثيرة لم يعلمها انسان بحر ايجي مثلا . فشبه الجزيرة العربية كثيرة القحط ، عديمة الانهار ، قليلة العيون ، نادرة الامطار ، فقيرة الاعشاب لذلك علمت ساكنها طول الدربة ودوام التفقد فى بطون الاودية عن منابت الشجر ، والطواف للبحث عن مواقع القطر والكلأ لعلف دوابه ولتلبية سائر حاجياته .

ولا شك ان هذا التجوال المستمر قد اكسبه خبرة فى تحديد المواقع ومعرفة المواضع وفهم الانواء ، والتمييز بين السحب الممطرة وغير الممطرة ، والتفريق بين البرق الخلب عن سواه ، ووصف المطر والغيث باقسامه ، والوقوف على الرياح وخواصها ، وادراك ما يعقبها من حوادث ، من غير اسناد الى آلة حديثه ، بل كانت قوة شمه للمراعى والنبات كثيرا ما أهدته الى مواقع المياه حتى ولو كانت فى باطن الارض ، وقوة بصره وبصيرته لحركات بعض الحيوانات البرية والطيور المعينة قادته أو ارشدته الى معرفة اشياء كثيرة ، منها على الاقل معرفة بقاع المياه والعيون والاعشاب . هذا من جهة ومن جهة أخرى فان هذه البيئة الجذباء المترامية الاطراف والواسعة الارجاء والمتيهة فى بعض

الانسان قد دفعت بالعربي الى كثرة الترحال الذي يفرض بدوره على الانسان الاسترشاد ببعض المعالم . لذلك نظر الى سطح الارض نهارا للاسترشاد بجبالها ووهادها وتلالها التي جاءت في اشعاره . ثم قلب وجهه نحو السماء ليلا وراح يبحث عن طلوع وافول كواكبها ، وحركات نجومها . وهنا حاول الربط بين ما يجري في السماء وما يجري على الارض في اقامته وظعنه . وفي مكاسبه ومعاشه . وفي سائر متصرفاته من غزو واستباحة وابتجاع وبحارة . بل ذهب الى ابعد من ذلك حين حاول الربط بين حوادث الارض وما يجري في السماء في بحثه عن المستقبل والظفر بالمقصود والمطلوب . فامن بالسحر والكهنوت . واعتقد في الارواح الخفية مثل الجن واللاهوت .

تلك هي الملامح الاصيلة التي سلكها علم الجغرافية عند سكان شبه الجزيرة العربية لكن هذه الملامح لم تكن خالية مما وصل اليه الانسان في الحضارات العريقة مثل بابل وآشور واليمن وفارس حيث يحدثنا التاريخ ان هناك هجرات عديدة كان فيها الانسان المغلوب يلجأ الى ديار العرب مثل هجرة الآشوريين الذين فروا من بلادهم بعد ان تغلب عليهم الفرس . وهجرة اليمنيين بعد ان خرب السيول سدهم المعروف بسد مأرب الخ ... ولا شك ان سكان شبه الجزيرة العربية قد تعلموا الكثير أو القليل من هؤلاء المهاجرين . فاخذوا مثلا عن الآشوريين اسماء عديدة من النجوم . وتعلموا منهم مواقع الابراج ومنازلها . وحساب السنين والشهور . كما ولا شك انهم فكروا في شكل الارض وابعادها وتعلموا اشياء أخرى في رحلاتهم التجارية بين الشمال والجنوب .

هذا بايجاز عن مدى مساهمة العرب الجاهلية في تطور علم الجغرافية الذي جاء في اشعارهم ومعلقاتهم وايامهم المشهورة . وهي مساهمة محدودة اذا ما قورنت بما ورثه المسلمون من الحضارات القديمة .

2 ـ الجغرافية عند المصريين والبابليين :

لقد حاول المصريون والبابليون القدماء في عصور فجر التاريخ معرفة سر الكون والحوادث التي تجري به . وظنوا ان العالم على شكل مستطيل واعتقد المصريون ان مصر هي وسط الدنيا وبالمثل اعتقد البابليون الذين زعموا ان العراق وسط الدنيا وان الارض قد انسلخت من البحر أو المحيط وان السماء التي تحيط بهذه الارض

نظهر على شكل قبة تتحكم فيها قوة خفية كامنة وراء المحيط . ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان البابلى والمصرى فى تلك الفترة المبكرة من التاريخ لم تكن له اتصالات الا بجيرانه أو بمحيطه المعمور . لذلك ظن ان العالم ينتهى حيث انتهى به الطواف وان كان طوافه هذا محدودا نظرا لصعوبة السفر وركوب المخاطر لمن حاول ان يتجاوز الحدود المعمورة . فالمصريون القدماء مثلا لم يعرفوا أكثر من بلاد الحبشة وبونت جنوبا ، وبلاد كوش غربا . وبلاد اليونان شمالا وما بين الرافدين شرقا . أما البابليون فلم يتركوا لنا آثارا قيمة عن البلدان التى كانت تمتد الى الشرق منهم مثل بلاد الهند والصين . لكن هذا لا يمنع من القول ان كل من المصريين والبابليين قد ساهموا مساهمة قيمة فى تطور علم الجغرافية بمفهومه الواسع . ذلك ان علم الجغرافيه لا يشمل جانب الاستكشافات ومعرفة البلدان فقط بل له الجانب العلمى البحت مثل الجانب الرياضى والفلكى والاستصلاح الاقليمى والتنظيم العمرانى ولقد كان كل من المصرى والبابلى بارعين فى هذا المجال حيث جاءوا بنظريات عديدة واستحدثوا علوما جديدة كانت نورا واستنارة لمن جاء من بعدهم . اذ هم الاولون الذين ابدعوا فى حساب السنة وقسموها الى اثنى عشر قسما بحسب ما كانت لهم من معلومات بالنجوم وفيضانات النيل ودجلة والفرات ، ورسموا خرائط استغلال الارض والملكيات . ورسوما بين الابعاد بين النقطتين أو الاقليمين وطرق سفرهم وتنقلاتهم البريه والبحرية .

3 ـ الجغرافية عند الفينيقيين :

لقد اشتهر الفينيقيون بركوب البحر وطول الاسفار للتجارة والبحث عن الرزق . وهذا طبيعى فى الانسان الذى اذا اكتمل عقله راح يبحث فى نفسه ثم فى بيئته ثم فى البيئة المجاوره لبيئته الخ ... فالتاجر الفينيقى هو جزء لا يتجزأ من الحضارة المصرية وحضاره بلاد ما بين الرافدين أولا وقبل كل شىء . لذلك راح انسان حضاره الشرق الاوسط الممثلة فى الفينيقى الذى بعد ان اكتسب خبرة محلية كصناعة السفن وضبط النقط . وحساب الابعاد راح طبيعيا يبحث عما وراء عالمه المعروف . فخرج من فينيقيا نحو الغرب وركب البحر المتوسط من سواحله الشرقية قصد المعرفة لسواحله الغربية وبذلك جاب سواحل شمال افريقيا

حتى جبل طارق وكذلك جزءا كبيرا من الشواطىء لشبه الجزيرة ايبيريا وبلاد الغال . بل حاول ان يخرج الى المحيط الاطلسى . حيث قام بأول رحلة تاريخية الى السواحل الغربية للقارة الافريقية . واعنى بذلك رحلة هانو Hanno الذى ابحر من مدينة قرطاجنة سنة 520 ق.م متوجها نحو الغرب فعبر مضيق جبل طارق ثم توجه جنوبا على طول السواحل الاطلنطية الى ان وصل الى الجزائر الخالدات ومنها تابع سيره حتى مصب نهر السنغال وقيل دون ذلك . لكن هذه الجهات اصبحت بمرور الزمن كقاعدة منها خرج الفينيقيون فى عديد من الرحلات الاستكشافية صوب الجنوب وربما وصلوا حتى بلاد الكامرون . ولقد دون هانو رحلاته هذه على لوح وضع فى معبد بقرطاجنة فيه ذكر عجائب وغرائب الطبيعة والمشاكل التى اعترضت سبيله . وهى مشاكل لم تسلم من الجبال والتخمينات .

ومن هذا العرض السريع نخلص الى ان أهل فينيقية قد أدوا دورا هاما فى ميدان الكشف الجغرافى . وهم على الرغم من احتفاظهم بأسرار مهنتهم لانفسهم فقد مهدوا بلا شك هذا الميدان أمام اليونان الذين عاصروهم والذين جاءوا من بعدهم .

4 ـ الجغرافية عند اليونانيين قبل بطليموس :

لقد ساعدهم موقعهم البحرى على ركوب البحر منذ القديم وذلك للتجارة او للبحث عن المستعمرات . ولا شك ان اتصالاتهم بسكان مصر وبلاد ما بين الرافدين كانت قوية . وبالخصوص احتكاكهم بالفينيقيين الذين بادلوهم التجارة وبافسوهم فى المستعمرات . وقد قام اليونانيون برحلات استكشافية فى البحر المتوسط والمحيط الهندى بل وصلوا مثل الفينيقيين الى السواحل الشرقية للمحيط الاطلسى بعد ان عبروا مضيق جبل طارق . ومن أهم رحالتهم سكيلاكس Scylax الذى أرسله ملك الفرس داريوس سنة 510 ق.م . لاكتشاف نهر السند . ورحلة نيورخاس 327 ق.م Nearchus أحد قواد الاسكندر الاكبر لنقل جزء من الجيوش اليونانية من بلاد الهند الى بلاد فارس وقد كانت لديه أوامر من الاسكندر بان يدرس طريق رحلته بدقة وان يأتى بتقرير مفصل عن كل الاماكن التى مر بها . ولعل أهم ما قدمه اليونانيون لعلم الاكتشافات الجغرافية هو ما صحب الحملات العديدة للاسكندر الاكبر ذلك ان هذا الرجل قد مكن من التقاء العالمين

الشرقي والغـــربي وجها لوجه عـــلى مساحات واسعة من وجه هذه المسكونة ومزج بين الحضارات القديمة بعضهـا بعض ومكن اليونانيين من الاطلاع على ما لدى الغير من أخبار ومشاهدة البلدان بالعيان بدلا من افواه القصاصين والسياح والملاحين . وتصحيح ما جاء في اساطير أجدادهم مثل اسطورة الالياذه والاوديسة لهوميروس Homer (القرن 9 ق٠م) التي مزج فيها الخيال بالواقع ٠ وبعـد ان فتح الاسكندر المقدوني أو الاكبر مصر سنة 332 ق٠م . أسست بها مدينة اطلق عليها اسمه وهي الاسكندرية الحالـة عند مصب وادي النيل المقدس في البحر الابيض المتوسط . فعمرتها عناصر مثقفه ومختلفة الاجناس من مصريين ويونانيين ويهود وبذلك أصبحت مركزا علميا عالميا لم يدانه مركز عالمي مـن قبـل . كمـا جمعت فيها الآثار الحضارية القديمـة . وأسست بها مكتبة الاسكندرية الشهيرة التي غرف منها عدد كثير مـــن العلماء وتخرج منها اساتذة كان لهم دور عظيم في تطوير العلوم الدينية والدنيوية ٠

وعلى العموم فقد ظل كل من الفلاسفة والمفكرين اليونانيين قبـــل الاسكنـدر الاكبر وبعده يحاولون تفسير ثـــلاث مشاكل جغرافية أساسية هي :

أ ـ شكل الارض وابعادها ووضـع البحار بالنسبة لها ٠

ب ـ ثبوت الارض في الفراغ ٠

جـ ـ علاقـــة الارض بالاجـــرام السماوية ٠

وحسب ما وصلتنا مـــن آثار تبـدأ سلسلة تفكير هؤلاء الفلاسفة والباحثين بالشـاعر أو القصاص هوميروس فـي القرن التاسع قبل الميلاد لتنتهي بالفلكي الرياضي بطلميوس كلاديوس خلال القرن الثاني للميلاد اذ ولد هذا الاخير خلال سنة 168 ميلادية ٠

أما هوميروس فقد تخيـل ان الارض عبارة عن قرص مستدير تحيط به المياه من كل جهة في شكل حزام اطلق عليه النهر المحيط في بعض الاحيان . وانها تابعة تسكنها الآلهة والبشر . وقد ظـل معظم هذه الفكرة سائدا لدى الشعب اليوناني أكثر من أربعة قرون حيث ظن طاليس دي ميلي (640 ـ 648 ق٠م) . أيضا ان الارض عبارة عن قرص أو طبق مسطح يطفو فوق الماء . والماء فـــوق الهواء . وكذلك كان اعتقاد أنا كسمندر الذي عاش فيما بين 610 و 547 ق٠م . في ان الارض في البداية كانت عبارة عن جزء من اسطوانة كبيرة في الفضاء تـم استلحت منها لتبقى محافظة على شكلها٠

ولم يعاد بكروية الارض ودورانها لاول مره الا فيثاغور (570 ـ 496 ق·م) الذى اعتقد ان الارض على شكل كره تحيط بها الكواكب التى تدور حول حلقة من النار هى الشمس . وتابعه فى ذلك هيكاتى ذى ملى سنة 517 ق·م . الذى رسم أول خريطه جيده للعالم المعروف حين ذاك ووضع عليها الشمال فى الجهة العليا والجنوب فى الجهه السفلى والشرق على يمين القارئ، والغرب على يساره مثل خرائطنا الحالية . اما بحر قزوين فقد أوصله بالمحيط او الاقيانوس (**شكل 1**) . لكن هذه الفكره ظلت محل شك حتى ان عددا كبيرا من المفكرين اليونانيين الذين جاءوا من بعد فيثاغور امثال هيرودوت(480 ـ 425ق·م) الذى ظن ان العالم عباره عن صندوقه تحف بها المحيط من كل جهة . وان السماء عباره عن غطاء يغطى هذه الصندوقة

ولم يتأكد المفكرون اليونانيون من كروية الارض الا بعد ان بلغوا شوطا بعيدا فى علم الفلك والرياضيات وزاد اتصالهم بالعالم خارج بحر ايجة فى القرن الثالث قبل الميلاد وهى الفتره الموافقة للفتوحات الكبرى للاسكندر المقدونى (356 ـ 323 ق·م) الذى بعد ان اعتلى عرش مقدونيه سنه 336 ق·م .

وحد بين اليونانيين ثم خرج بهم غازيا بلاد الشام والفرس الى ان وصل بهم الى بلاد الهند ثم قفل راجعا الى مصر حيث استولى عليها أيضا وبذلك استطاع ان يمزج بين الحضارات القديمه واطلاع اليونانيين على ما فى بلدان واسعة من العالم لم يكن لهم بها عهد . ورغم ان امبراطورية الاسكندر قد تمزقت سياسيا بعد وفاته الا ان اثارها بقى عاملا من عوامل الدفع نحو تطوير العلوم حيث نجد ان ارشميدس السامورى (110 ـ 250 ق·م) يقوم لاول مره فى التاريخ البشرى بتقدير أو حساب البعد بين الارض والقمر والشمس . وابراطوستين (275 ـ 194 ق·م) الليبى المولد واليونانى الاصل والامين لمكتبه الاسكندريه يقوم لاول مره فى التاريخ بقياس ابعاد الارض وتقويم محيطها برقم يقرب من الرقم الذى نعرفه حاليا . ان هذا الرياضى العظيم والفلكى المشهور طبق علم الهندسه والفلك فى حساباته الجغرافيه . فقد لاحظ فى يوم من ايام السنه وهو يوم 21 يونية ان الشمس تكون عموديه وقت الزوال اى على الساعة 12 على مطلعه اسوان بدليل ان اشعتها تصل الى اعماق المياه لبئر عميق فى هذه المطلعه وان هذه الظاهرة

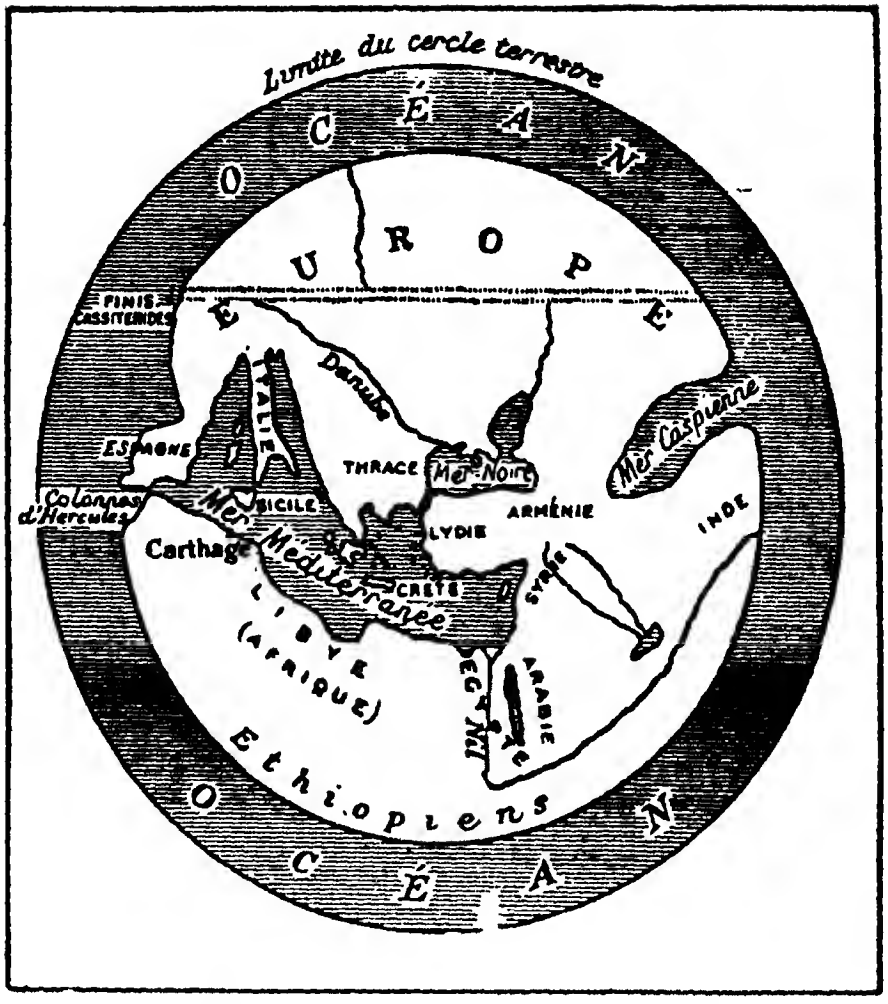

(شكل 1) خريطة العالم حسب هيكاتي (517 ق.م)

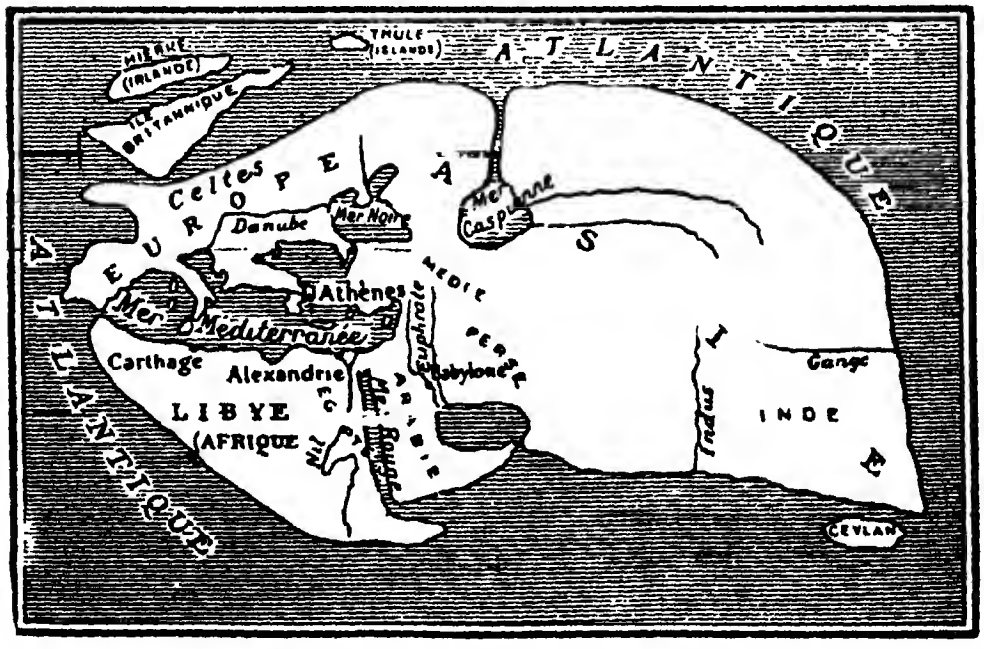

(شكل 3) خريطة العالم حسب ما جاء عن اراطوسثنان (250 ق.م)

لا تتم في غير ذلك اليوم من شهور السنة حتى ولو كانت الشمس في سمتها لانها لا تكون عمودية على رأس الراصد . كما لاحظ ان ظل الاشياء ينعدم تماما على الساعه 12 من يوم 21 يونيه في منطقه اسوان . اما في مدينه الاسكندريه التي تبعد بحوالي 800 كيلومتر الى الشمال من مدينه اسوان فان الشمس لا تظهر عموديه على راس الراصد في أي يوم من أيام السنة . وبالتالي فان الاشياء لها ظل في اليوم الذي لا يكون لها ظل في منطقة اسوان ومعنى هذا اذا نصبنا عمودا في الارض بمدينة الاسكندرية ونظرنا الى ظله وقت الزوال (الساعة 12) من يوم 21 يونيه لاحظنا ان هذا الظل يكون زاويه قدرها سبع درجات ونصف الدرجة كما في الصوره رقم 2 . واذا كانت أشعه الشمس تصل الى سطح الارض وهي متوازية معناه ان الاشعه الواصله بين طرفي قوس (الاسكندريه واسوان) مركزه الارض . تكون زاوية قدرها

واذا كان محيط الدائره المصطلح عليه هو 360 فان زاوية سبع درجات ونصف تمثل قيمة أقل من قيمة الدائره الكامله بحوالي 50 مره . ويتضح من هذا ان محيط الارض يساوي 50 × 800 = 40.000 كلم هكذا كان تفكير ارابوسيين في الوصول الى معرفه محيط الارض ثم قدر شعاعها باستعمال وسيلة لارشميدس (287 ـ 212 ق م) كالتالي $2 \times \frac{1}{7} 3 \times$ ش = 6400 كلم

وبعد ان قدر ارابوسيين ابعاد الارض راح يرسم لها خريطه تمتد من الشرق الى الغرب أو من أعمده هرقل المعروفه بجبل طارق حاليا ومن الشمال الى الجنوب او من جزيره ثول أي اسلندا الى مصب نهر الكانج تسول الى خط الاستواء تقريبا (شكل 3) وهي خريطه رغم ما كان بها من عيوب مثل اتصال بحر قزوين بالمحيط وامتداد القاره الاسيوية الى الشرق أكثر من اللازم فانها تعد من اوائل الخرائط المعروفه للعالم القديم ظل معمولا بها لعده قرون . بل حتى مطالع العهد الاسلامي حيث ان خريطة اسطرابون الروماني (63 ق م ـ 25 م) لم تختلف كثيرا عن خريطة ارابوسين . وكذلك خريطه بطلميوس (90 ـ 168 م) في العهد الروماني (شكل 4) الذي قال بكرويه الارض ورغم انها لا تدور وانها تحتل مركز الكون ولكن رغم ذلك فان خريطته تعد أحسن خريطة للعالم في القديم واقرب للواقع

(a) *Eratosthène*

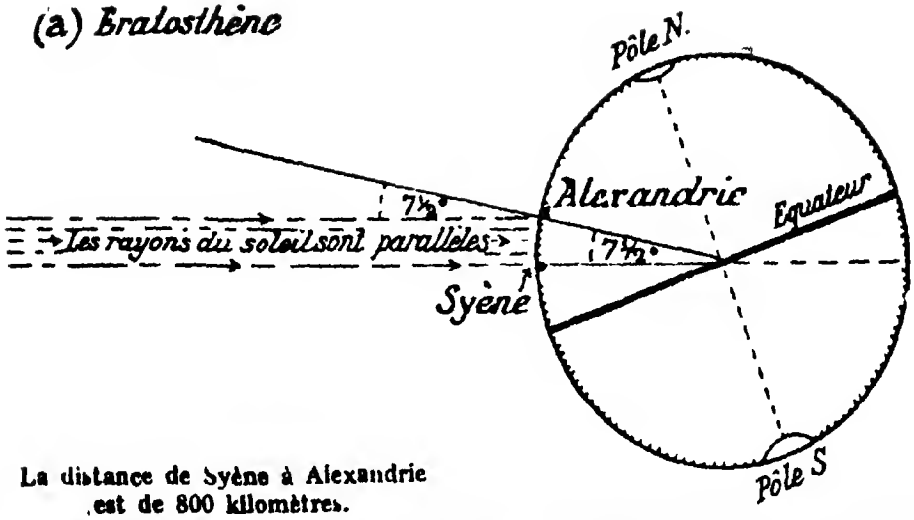

La distance de Syène à Alexandrie est de 800 kilomètres.

Remarquons que dans cette figure l'angle entre Alexandrie et Syène, de même que l'angle entre Alexandrie et Rhodes dans la figure qui est au-dessous, est exagéré pour rendre les figures plus claires.

(b) *En utilisant l'Etoile polaire*

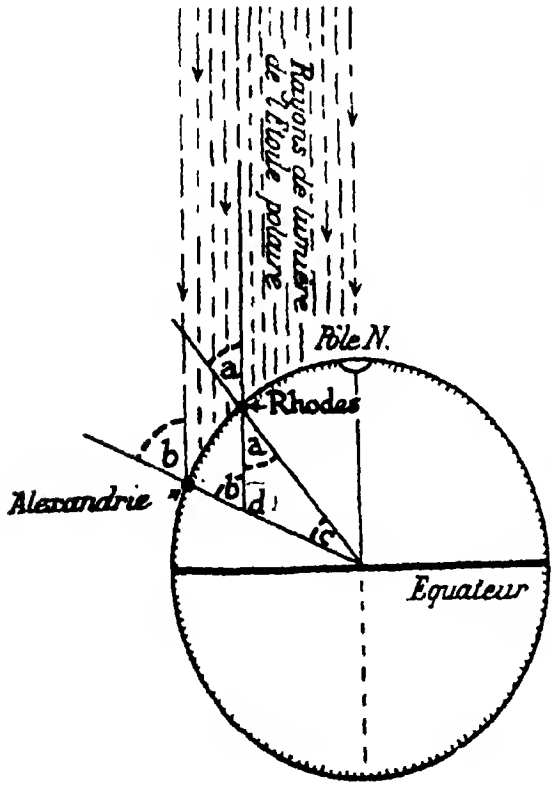

$a + d + c = 180°$ (Dém. 5)

$a + c = 180° - d = b$

d'ou

$a + c = b$ ou $c = b - a$

Par suite, l'angle au centre de la terre ayant même mesure que l'arc dont les extrémités sont Rhodes et Alexandrie (ou deux autres points quelconques) est la différence entre les hauteurs de l'étoile polaire au-dessus de l'horizon en ces deux points. Si D est la longueur de l'axe de méridien compris entre ces deux points, la longueur de la circonférence terrestre est

$$\frac{D \times 360}{c}.$$

(شكل 2) قياس الأرض.

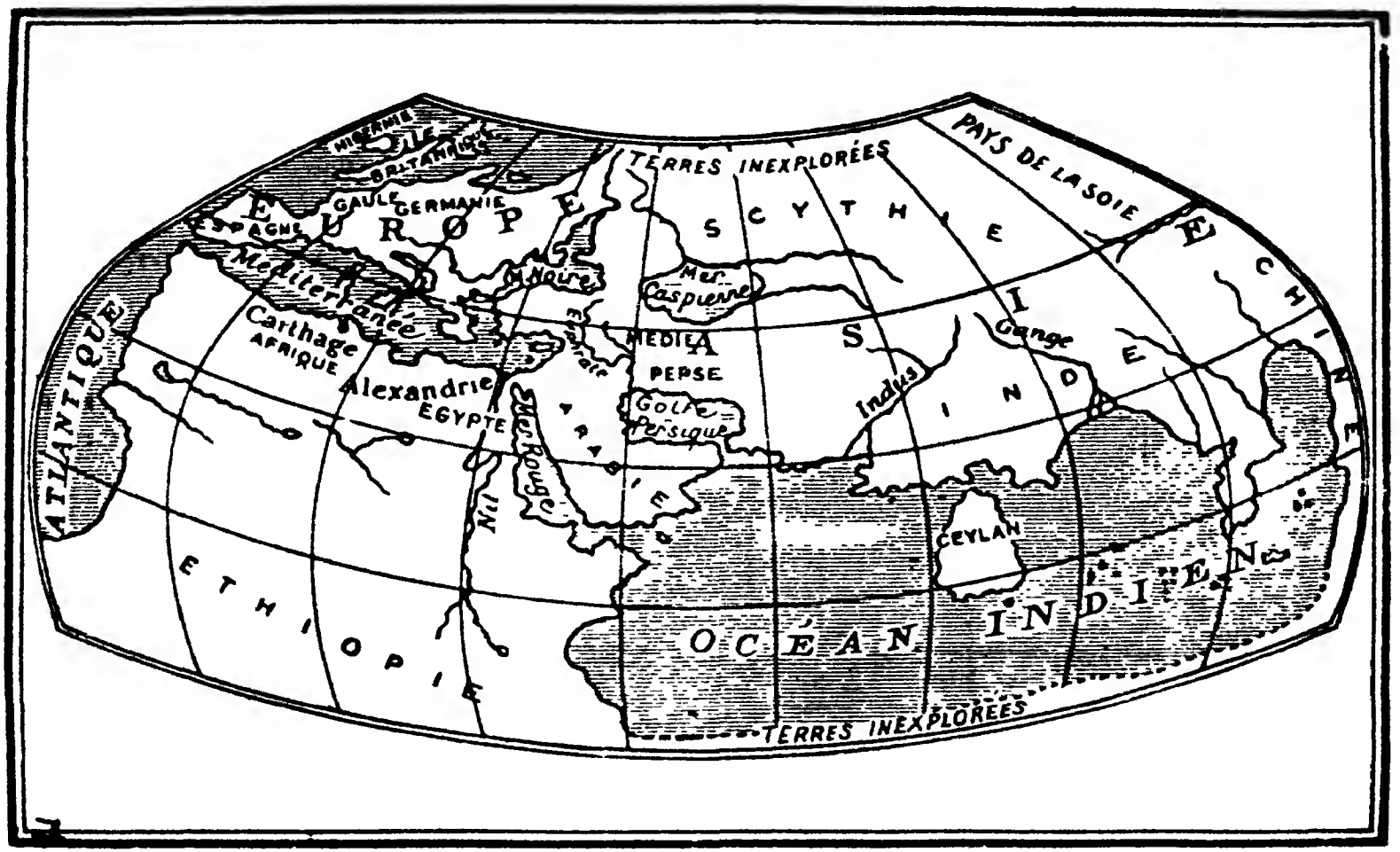

(شكل 4) خريطة العالم لبطلميوس (حوالى 168 ميلادية)

5 ـ الجغرافية بعد بطليموس :

بعد كتابي الجغرافية والمجسطى لبطلميوس آخر صيحة تتطور علم الجغرافيه فيما قبل الاسلام . اذ بعد بطليموس أخذ هذا العلم فى التراجع والافول وبدأت انجازات الخرائط تفل شيئا فشيئا أو تأخذ طريقها نحو الضياع والاهمال . بل أخذ الدين يسيطر على البحث وراح المفكرون يتقيدون بما جاء فى الكتاب المقدس الذى ادخلت عليه تعاليم عربية ما انزل الله بها من سلطان . فاعتقد كوزماس (547 م) فى كتابه الكوزموغرافية ان الارض منبسطه وليست بكروية الشكل وان بيت المقدس هى مركز الدنيا وان الجنة تقع فيما وراء بلاد آسيا وانه يوجد بها كل أنواع الاخشاب وأشجار الفاكهة وأشجار الحياة . ولا يوجد بها حر ولا برد بل ربيعها دائما . كما حرم رجال الدين المسيحى القول بدوران الارض بزعمهم ان هذا كفر . ومخالف للعقيدة لذلك لا ينبغى الخوض فيه بل يجب تسليم هذا الامر لله وحده . اما صناعة الخرائط فقد تدهورت على يد الرومان الذين صرفوا جل اهتمامهم للسيطرة والاستعمار دون الاستزادة فى العلم . فقد كان العالم فى نظرهم عبارة عن قرص مستدير تتوسطه مدينة روما عاصمة الامبراطورية الرومانية . ولم يهتموا بعلم الفلك ولا بالرياضيات الا بقدر ما يخدم مصلحتهم .

وقد زاد تدهور علم الجغرافيه فى أوروبا فى فتره انهيار الامبراطوريه الرومانية وانقسامها سنة 395 م . وبالخصوص فى تلك الفترة التى اعقبت زحف الجماعات البربرية من وسط آسيا الى قلب أوروبا حاملة معها الدمار والخراب . فقضت على حضارة حوض البحر الابيض المتوسط باستيلاء القوط على وسط أوروبا والبلقان فى القرن الرابع للميلاد وزحف الوندال الى اسبانيا سنة 414 م . ومنها الى شمال افريقيا . ثم قضى الاستراقوت على مدينة روما سنة 476 م . وهكذا تحول التطور الجغرافى الى اوهام وضلالات وخرافات سادت المعمورة من الارض كما توقفت حوافز الرحله والمشاهدة نظرا لعدم الامن الى ان تمكن أهل شبه الجزيره العربيه بعد اسلامهم من تكوين امبراطورية ضخمة امتدت اطرافها فى أقل من قرنين من بلاد الهند الى المحيط الاطلسى فساد الامن مرة أخرى وعاد التطور الحضارى الى مجراه الطبيعى .

٢ المجهودات الجغرافية لدى المسلمين :

1 ـ العوامل التى ساعدت على تقدم علم الجغرافية لدى المسلمين

ان العوامل التى أدت الى تقدم علم الجغرافيه عند المسلمين كثيره ومتنوعة منها ما هى أصيله أصالة الانسان العربى الذى تعرضنا اليه سابقا . ومنها ما يرجع الى اتساع رقعة الاسلام وما صحبه من حركة لترجمة الكتب اليونانيه والهندية والآثار القديمة بصفه عامة . بضاف الى هذا التعاليم الدينية الاسلامية التى تحث على العلم والمعرفة والبحث عن الحقيقه .

أ ـ التعاليم الاسلامية

ان الدين الاسلامى ليس دين للتزمت والانزواء بل هو دين يدعو الى البحث واستعمال الفكر للوصول الى الحقائق وفهم اسرار الحياة . وبذلك يكون الانسان القوى المتمتع عن اقناع النفس والعقل . وفى مجال استعمال الفكر لادراك الخالق من صوره مخلوقاته يقول سبحانه عز وجل فى سوره الغاشيه «**أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت. والى السماء كيف رفعت . والى الجبال كيف نصبت . والى الارض كيف سطحت** » . ويقول تعالى فى سوره ق : « **افلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج . والارض مددناها والقينا فيها رواسى وانبتنا فيها من كل زوج بهيج** » ويقول فى آيه أخرى . سوره الملك « **الذى خلق سبع سماوات طباقا ما ترى فى خلق الرحمان من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور** » ويقول فى نفس السوره (الآيه 14) « **هو الذى جعل لكم الارض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه واليه النشور** » . والمتمع لسور القرآن يجد بها آيات كثيره تحث المسلم على استعمال الفكر . والترحال طلبا للمعرفه والرزق اذ يقول تعالى « **فاذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الارض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** » (سوره الجمعه ـ الآيه التاسعة) . كما ان بعض الشعائر الدينية تدعوا الى معرفه الفلك والترحال مثل فريضه الحج التى تسهل فيها المسلم بين موطنه وبيت الله الحرام « **واذن فى الناس بالحج يأتوك رجالا وعلى كل ضامر يأتين من كل فج عميق ليشهدوا منافع لهم ويذكروا اسم الله فى ايام معلومات على ما رزقهم من بهيمة الانعام فكلوا منها وأطعموا البائس الفقير** » (سوره الحج الآيات 24 . 25) . واداء الصلاة يدعو الى معرفة حلول الوقت « **والقى فى الارض رواسى ان تميد بكم وانهارا وسبلا لعلكم تهتدون وعلامات وبالنجم هم**

يهتدون » (سورة النحل . الآيتين 14 و 15) . وفى سورة الاسراء نقرأ فى الآية 11 ما يلى : « **وجعلنا الليل والنهار آيتين ، فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة لتبتغوا فضلا من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا** » . ويقول تعالى أيضا فى سوره البقرة . الآية 187 ما يلى : « **يسالونك عن الاهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بان تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى واتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون** » . ومجمل القول ان كلا من الاسلام والايمان يدعوان الى التعرف على علم الفلك والبحث فيه للتعرف على الخالق .

ب ـ اتساع الامبراطورية الاسلامية :

لقد بدأت الفتوحات الاسلامية بعد وفاة الرسول عليه السلام مباشرة ، ولا شك ان نجاح المسلمين فى توسيع نفوذهم الى ان أصبح يشمل الامبراطورية الفارسية شرقا وجزءا كبيرا من الامبراطورية الرومانية غربا يعود الى الاوضاع الاجتماعية والسياسية والظلم الذى كان سائدا لدى مجتمع القرن الخامس والسادس والسابع للميلاد ، لذا وجدت الامم المضطهدة من التعاليم الاسلامية عهدا للخروج من الظلمات الى النور . فدخلوا فى الدين الجديد أفواجا وبذلك لم يصادف المسلمون فى طريق فتوحاتهم الا مقاومة ضئيلة ، على عكس ما حدث للاسكندر المقدونى فى القرن الرابع قبل الميلاد عندما أراد نشر النفوذ اليونانى فى الشرق . وكذلك التعاليم الاسلامية التى لم يكن الهدف منها الاستعمار ، ولكن السلم والامن فى ربوع العالم ، وفى هذا المعنى يقول تعالى فى سورة البقرة . « **وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا ان الله لا يحب المعتدين** » (الآية 188) . وعلى أى حال فان اتساع الامبراطورية الاسلامية أدى الى اتساع العالم المعمور واحتكاك المسلمين ببعضهم وبغيرهم وامتزاج الحضارات القديمة وبعضها من جديد هذا من جهة ومن جهة أخرى اتساع افق المعرفة باستقدام الحكام والامراء للعلماء من كل حدب وصوب .

جـ ـ حركة الترجمة :

لا شك ان المسلمين فى انتشارهم وتوسعهم قد وجدوا أمما لها آثار قيمة فى الحضارة والتقدم وقد خالطوا مجتمعات تتصف بالرقى والمعرفة وهى آثار وعلوم لا تتنافى فى معظمها والدين الاسلامى بل ان هذا الدين يحث المسلم على الخوض فيها والاخذ بما حسن منها واستعمالها وسيلة لتثبيت الدين ومعرفة

الخالق والمخلوق واستثمار الدنيا ولقد بدا اهتمام المسلمين بالآثار القديمة بعد ان استتب لهم الامر واطمأنوا على دينهم وكان هذا بالخصوص في العصر العباسي حيث أحد الخلفاء العباسيون في ارسال البعثات للبحث عن الكتب والمؤلفات باي لغة كانت وباي ثمن كان ، واستمر المسلمون ينقبون في تلك الكنوز العلمية بصبر . وللاستفادة من هذه الكنوز كان لابد من ترجمتها الى لغة السيادة او لغة المسلمين التي هي لغة القرآن . فظهرت حركة الترجمة من اللغات الاجنبية الى اللغة العربية ونشطت هذه الحركة في عصر العباسيين أيضا . وفي هذا الشأن تطالعنا كتب التاريخ ان احد اعضاء السفارة الهندية اسمه مانك جاء الى بلاط المنصور سنة 154 هـ الموافق سنة 771 م بكتاب قيم عن علم الفلك لدى الهندوس اسمه كتاب **السند هند** . ونظرا لما لهذا الكتاب من فوائد قيمة أمر الخليفة العباسي بترجمته الى اللغة العربية واوكل المهمة الى الفزاري الذي قام بترجمته .

ومن المتعارف عليه ان حركة الترجمة وجدت التشجيع الكامل لدى الخلفاء العباسيين ابتداء من عهد هارون الرشيد بالخصوص (170 ـ 193 هـ . 786 ـ 809 م) الذي أمر بانشاء بيت الحكمة . واهتم بهذا الجانب العظيم من بعد الرشيد ابنه المأمون الذي قرب اليه العلماء دون النظر الى دينهم بل قومهم حسب ما لديهم من علم وجعل من بيت الحكمة بحسب اسراف الدولة مباشرة واستقدم لها العلماء من قوميات مختلفة وديانات عديدة . كما بعث من ينقب له عن الوان المعرفة أو الكتب في خزائن الامبراطورية البيزنطية وعاد اليه هذه البعثة بكتب قيمة لمختلف التخصصات العلمية باللغة اليونانية . فأمر بترجمتها الى اللغة العربية .

وكان من نتائج هذا الاهتمام العباسي للبحث العلمي ان ترجم كتاب **الزيج** للمهرنجار الفارسي . وكلمة الزيج فارسية الاصل تطلق عادة على الجداول الفلكية . كما ترجم يحيى بن خالد البرمكي (190 هـ ـ 805 م) كتاب المجسطي لبطليموس وهو كتاب قيم اذ جمع فيه بطليموس السابق الذكر ما وصل اليه البحث اليوناني في هذا الميدان . ونظرا لما لهذا الكتاب من قيمة فقد ترجم عدة مرات منها ترجمة حنين ابن اسحق (195 هـ ـ 260 م) ثم الحجاج ابن مطر سنة 212 هـ . الموافق لسنة 827 ميلادية ثم ترجمه ايضا الى العربية ثابت بن قرة (288 هـ) .

ومن أمهات الكتب فى الجغرافية التى ترجمت في هـذه الفترة نجد كتاب الجغرافيه لبطلموس الذى يطلق عليه أيضا اسم دليل الجغرافية وهو يشتمل على مبادىء أولية فى الرياضيات ، وفيه تحديد لصورة الارض وعظمتها وأوضاعها ومكانها فى الكون ، وجداول ملكية لعروض واطوال النقط من الجزء المعمور من الارض · وقد قام بترجمه هذا الكتاب ، أبو يوسف يعقوب ابن اسحق الكندى المتوفى سنة 255 هـ (868 م) ثم ثابت بن قرة كما ترجمه محمد بن موسى الخوارزمى المتوفى سنة 232 هـ (846 م) ·

والملاحظ على هذه الترجمة انها كثيرا ما كانت تستعمل فيها بعض المصطلحات الاجنبية التى لا توجد لها مقابل فى العربيه ، اذ المدار على الفهم ، وما اللغة الا وسيله من وسائل أداء المعرفة بامانة ·

2 ـ مجهودات جغرافية فيما بين القرن الاول والثالث هجرى :

أن القرن الاول للهجرة بعد قرن الفتوحات وخروج الاسلام من شبه الجزيرة العربية الى بقية انحاء العالم ، اذ الغرض الاول لدى المسلمين فى هذا القرن هو نشر الاسلام والسلام وتمكين الانسان من الاطلاع على هذا الدين الجديد ذى المبادىء السامية الذى يدعو الى الاخوة وحق الحياة فى ظل الامان لكل فرد على وجه المعموره ·

اما القرنين الثانى والثالث فقد اتسم بحركة الترجمة وتمكين الامم من اللغه العربية لغه القرآن والدين الاسلامى ولغة الاداره والمعاملات الدنيوية ، اذ بعد ان عمرت بغداد التى بناها المنصور سنه 145 هـ ـ 770 م ، فتحت أبوابها لكل وافد من جميع جهات المعمورة ، فجاءها التجار من كل الجنسيات ووصل اليها العلماء والاطباء من اليهود والصابئه والنصارى والمجوس والبوذيين الى ان أصبحت اغنى عواصم المعمورة واكثرها صيتا ·

وتمكن التعرف على التقدم الجغرافى لهذه الفترة فيما وصل اليه علم الفلك وفى الرحلات التى قام بها المسلمون ·

أ ـ علم الفلك :

لقد نشأ هذا العلم لدى المسلمين فى بدايه الامر نشأة بسيطة اذ اهتم المسلمون فى أول الامر بمعرفة حركة الشمس والقمر لانبات الفصول الاربعة التى تتعلق بالفلاحة ، وكذلك أداء الشعائر الدينية على أكمل وجه · ولم يخوضوا فى علم الفلك فى أول الامر

حسبه الخلط بينه وبين علم السحر والكهنوت الذى عرف عليه قديما بعلم العرب ولكن بعد ان ميزوا بين هذا وذاك واطمأنوا على عقيدتهم اداروا انظارهم نحو السماء لملاحظة طلوع الكواكب وغروبها والاستفادة من هذه الحركة فى زمن البحار وقطع القفار . ثم زاد شوقهم الى معرفة الامور الفلكية لاستعمالها فى تحديد النقط على سطح الارض والمسافات ورسم الخرائط والطرق ومعالم الارض لتسهيل الجباية وادارة الدولة وخدمة الانسانية بصفة عامة . لذلك انشئت المراصد على غرار مراصد الاسكندرية فى العهد البوناني ومراصد جند يسابور بخوزستان فى العهد الفارسى . وكان من اشهر فلكى هذه المراصد الاسلامية أحمد الفهاوندى الذى قام باعداد زيج اطلق عليه الزيج المشتمل سنة 188 هجرية (803 م) . اما أشهر المراصد فهو المرصد الذى انشأه المأمون سنة 214 هـ (728 م) عند باب الشماسية وهى احدى الابواب الاربعة لمدينة بغداد . ثم تلته مراصد اخرى منها مرصد سند بن على (165 ـ 229 هـ) ومرصد يحيى بن ابى منصور المتوفى سنة 215 هـ . ويذكر المؤرخون ان من مرصد باب الشماسية قام الفلكيون المسلمون برصد منظم لحركات الاجرام السماوية . وصححوا ما جاء فى كتاب المجسطى اليونانى من براهين للنظريات الفلكية العديدة . من بينها دوران الارض حول الشمس وحول نفسها . وطول السنة الشمسية . ومما يذكر ان المأمون طلب من هؤلاء الفلكيين القائمين على هذه المراصد ومن علماء اخرين فى الرياضيات والهندسة من بينهم الحكيم ان يحققوا من آلات الرصد الواردة ذكرها فى الآثار اليونانية والفارسية والهندية . وان يقوموا بصناعة ما يشابهها او ما هى احسن منها لاستعمالها فى ارصادهم . وقد تمكن هؤلاء العلماء فى النهاية من الحصول على معلومات كثيرة فى هذا الميدان جمعوها فى كتاب ضخم اطلق عليه اسم **الرصد المأمونى** او **الزيج المأمونى الممتحن** . ولم يكتف المأمون بمراصد بغداد فقط بل امر بانشاء مراصد اخرى فى ارجاء المعمورة حيث انشأ مرصدا على جبل قاسيون المشرف على مدينة دمشق ومرصدا فى مدينة اصفهان .

اما آلات الرصد التى استعملت فى هذه المراصد فهى كثيرة ومتنوعة منها ذات الاصل الاغريقى كالكرة ، والحلقة الاعتدالية ومنها المستحدث مثل ذات

الاوتار ، وذات السمت والارتفاع . والحلقه الكبرى والحلقة الصغرى . والمزاول الشمسية والمنوعة . واهمها آله الاسطرلاب التى ارتبطت صناعتها عند المسلمين باسم ابراهيم الفزارى اذ هو أول مسلم اخترع اسطرلابا وألف فيه كتابا باسمه وهو كتاب العمل بالاسطرلاب . والاسطرلاب عباره عن صوره مصغره لقبه السماء . وكانت صناعته تحتاج الى مهاره فائقه لما ترتسم على هذه الآلة من خطوط ترتسبه حتى يتم تحديد مواقع النجوم عليها . ولهذا ابتكر نوع آخر أكثر بساطة من هذه الآله وهو الاسطرلاب المسطوى .

ووظيف الاسطرلاب اذا كانت صورته هى معرفة ارتفاع النجوم والكواكب وبالتالى معرفه ما انقضى من ساعات الليل والنهار . وقد ظلت هذه الآله منتشرة فى العالم الاسلامى طيلة العصور الاسلامية ومنها انتقلت الى اوروبا حيث بقى الاوروبيون يعملون بها حتى نهايه القرن 17 م . كما اعتمدوا عن المسلمين طريقه استعمال البوصله فى رحلاتهم البحرية والبرية .

ولم يكتف المسلمون فى ابحاثهم الفلكية المبكرة بمعرفة حركة الاجرام السماويه فقط بل طبقوها على قياس الابعاد كقياس محيط الكره الارضيه مثلا وذلك بعد ان برهنوا على كرويتها وحركتها وفى هذا المعنى يقول ابن سينا (290 هـ) فى كتابه الاعلاق النفيسة ان الشمس والقمر وسائر الكواكب لا توجد طلوعها ولا غروبها على جميع من فى نواحى الارض فى وقت واحد . بل ان طلوعها على المواضع المشرقة من الارض اسبق من طلوعها على المواضع المغربية وغيوبتها عن الجهات الشرقيه اسبق منها عن الجهات المغربيه . وايضا انه توجد فيما بين المواضع المتباعده الى الشمال والجنوب مثل هذه الظاهرة فانه اذا سار احد فى الارض من ناحية الجنوب الى الشمال رأى انه يظهر له من ناحيه الشمال بعض الكواكب التى لها غروب فيكون ابدى الظهور . وبحسب دليل يخفى عنه من ناحيه الجنوب بعض الكواكب التى كان لها طلوع فيصير ابدى الخفاء . وللارض حركة يومية تدليل وجود الليل والنهار . ومن نزل تحت القبه فالليل والنهار ابدا عليه مستويان الليل اثنتا عشرة ساعة والنهار اثنتا عشرة ساعة . وكلما ابتعدنا عن وسط السماء (القبة) نحو الشمال حيث المعمورة من الارض ـ المنقسم الى اقاليم سبعه ـ يطول نهار الصيف . وليل الشتاء حتى 66 درجة شمالا تنتهى

النهار في الطول ما يكون أربعا وعشرين ساعة . ويذهب الليل في أول الصيف ، وفي أول الشتاء الليل ينتهي الى 24 25 ساعة ويذهب النهار . وما زاد في النهار نقص من ساعات الليل .

اما الحركات الثانية السنوية للارض فينتج عنها فصول السنة الاربعة والتي تبدأ كل منها في مواقيت معروفة فلكيا . ويذكر ابن رشته انه كما ان الارض مستديرة الشكل . فالسماء أيضا تتخذ نفس الشكل . وهو يورد عدة أدلة تبرهن على ذلك وابرزها ظهور بعض الكواكب التي لا تكون بدرجة واحدة . « فلو كانت السماء مسطحة على ما يقول بعض الناس لما كان يجب ان يكون بعض نواحي السماء منا على قدر واحد بل كان يجب ان يكون أقرب مواضع السماء منا ما كان محاذيا لرؤوسنا » . اما موضع كرة الارض فهي مثبتة في وسط السماء « كالمركز وقدرها عند قدر السماء كقدر النقطة من الدائرة صفرا » فالخلاصة مما تقدم « ان الارض في وسط العالم كالمركز . والهواء يحيط بها من جميع الجهات . والسماء محيطة بالهواء على مثال الكرة .

اما عن قياس محيط الارض فيذكر التاريخ ان المأمون أمر سند بن علي وخالد بن عبد الملك بقياس مقدار طول الدرجة . ولتحقيق ذلك سار الرجلان من بغداد نحو مكان بعيد الى ان وصلا الى منطقة تدمر . كما سار رجلان آخران هما علي بن عيسى الاسطرلابي وعلي ابن البحتري في اتجاه آخر . وقام الرجال الاربعة بقياس طول الدرجة من درجات اعظم دوائر تمر بسطح الارض . فكانت 111.61 كيلومتر ومعنى هذا ان محيط الارض – حسب هذه التجربة المأمونية – يساوي 40251.6 كلم وهو رقم أقرب الى الرقم المعروف حاليا . والقياس المأموني أول قياس حقيقي اجري على الطبيعة بل يعد من الاعمال الجبارة التي ساهم بها المسلمون في تطوير علم الجغرافية وتصحيح العلوم القديمة .

ب – الرحلات :

لم يهتم المسلمون في هذه الفترة المبكرة من تاريخهم بعلم الفلك وتطبيقاته فقط بل راحوا يجوبون انحاء الارض للتعرف على معالمها الطبيعية والبشرية . وتصحيح ما جاء في كتب الاولين . وممن اشتهروا بالرحلات والاكتشافات الجغرافية يذكر سليمان التاجر (237هـ) الذي ترك لنا معلومات قيمة عن بلاد الشرق الاقصى حسب ما ورد فيما ترجم

له الى اللغه الفرنسيه بواسطه المستشرق الفرنسى رينودوت تحت عنوان سلسلة التواريخ • ويذكر سليمان التاجر فى رسالته واخباره التى نقلها عنه أبو زيد الحسن السيرافى اسباء كثيره عن بلاد الهند والصين، والبحار الشرقية والموانى مثل ميناء حانفو ، والجزر مثل جزيـــرة سيلان أو سرنديب ، وظاهره المد والجزر وارتباطهما بحركة القمر . وهو ارتباط سليم انبمه العلم الحديث ، كما وصـــف فى رسالته رياح النيفون بالمطقة وعادات وتقاليد سكان الصين والهند بشيء من التفصيل •

ورحلة سلام الترجمان الى الجهـات الشمالية من بلاد الصين ذلك فى عهـد الخليفة العباسى الواثق بالله (227 ـ 232 هـ) الذى أرسل سلام الترجمان الى بلاد الصين • وفى هذه الرحلة انطلق سلام الترجمان من مدينة سامرا الى أرمينيا ومنها الى بلاد الخزر شمال غرب بحر قزوين ومنها الى بلاد الصين بعد ان احتاز سد ذى القرنين ، وقد صحبه فى هذه الرحلة خمسون رجلا من بينهـم محمد بن موسى المنجم عادوا الى عاصمة الدولة العباسية بمعلومات قيمة عـــن الاراضى الممتدة من بحر قزوين الى بلاد الصين •

ولما كانت الجهات الشمالية من البحر الاسود غير معروفة حتى لدى الاقدمين مثل بطلموس واسترابون وبلينى ، فقد اهتم المسلمون باكتشافها ، لذلك أوفد الخلفاء العباسيون بعثات كثيرة الى هذه الاصقاع ، ومن بينها بعثه ابن فضلان الى بلاد البلغـار (309 هـ ـ 921 م) الذى أرسل لنشر الاسلام بطلب مـــن حاكم البلاد بالفلجا ، وقد عاد هـــذا الرحالة بعد حوالى السنه بملاحظـــات ضمنها كتابه الذى يعد أول مصـــدر موثوق به عن بلاد تلك الاصقاع •

ولم يقتصر المسلمون فى رحلاتهـــم واكتشافاتهم على الجهـــات الشرقيـــة والشماليه فقط بل منهم من خرج مـــن بلاد المغرب ليكشف السواحل الشماليه للمحيط الاطلسى وبلـــدان أوروبـــا الشمالية الشرقية • ومن بين هـــؤلاء الرحاله نذكر رحلة يحيى بن الحكـــم الغزالى (حوالى 230 هـ ـ 844 م) الى بلاد الدانمارك وقبل الى جزر ايرلندا وقد أرسل فيها هذا الرحل من قبل الخليفة الاموى عبد الرحمن بن عبـد الحكم الذى كان بالاندلس وخرج الغزالى من قرطبه الى شلب التى انشىء له فيها مركب حسن كما يذكر ، ومنها ركـب المحيط الاطلسى المعروف حين ذاك بحر

الظلمات الى أوروبا الشمالية وقد رجع بعد عامين من رحلته الى بلاد الاندلس بمعلومات قيمة ·

ومن المجهودات التي قام بها المسلمون في العصور لكشف ما وراء المحيط الاطلسي نذكر رحلة سماها الادريسي برحلة الفصة المغرورين ذلك ان ثمانية رجال كلهم ابناء عم عزموا على ركوب بحر الظلمات فاستاوا لذلك مركبا ووضعوا فيه ما يكفيهم من الزاد والماء لعدة شهر ثم انطلقوا من مدينة لشبونه نحو الجهات الجنوبية الى ان وصلوا الى جزر أزور ومنها اطلقوا شراعهم للرياح المجارية التي ربما قد أوصلتهم الى العالم الجديد · واذا صحت هذه الرواية يمكن القول انهم أول من اكتشف امريكا قبل كلومبس بحوالي السبعة قرون ·

ج ـ الجغرافية الوصفية :

ويعني بها تلك المؤلفات في مادة الجغرافية التي ظهرت لدى المسلمين فيما بين القرن الاول والثالث للهجرة وهي مؤلفات عديدة ومتنوعة لذلك سنقتصر على البعض منها فقط · وهي مؤلفات تغلب عليها الطابع الوصفي والخلط بين العلوم المختلفة ·

1 ـ كتاب الاوطان والبلدان لعمر ابن بحر بن محبوب المعروف بأبي عثمان الجاحظ (150 هـ ـ 255 هـ . 767 ـ 868 م) وهو عالم جليل له مؤلفات عديدة منها البيان والتبيين وكتاب البخلاء والحيوان وكتب أخرى عديدة لا يمكن حصرها · ويعتبر مؤلفات الجاحظ كنزا ثمينا استفاد منها من جاءوا من بعده مثل ابن الفقيه وابن خرداذبة ، وابن حوقل والمسعودي والمقدسي الخ·· ممن كتبوا في الجغرافية ·

2 ـ كتاب صورة الارض لابي جعفر أبي عبد الله محمد بن موسى المشهور بالخوارزمي وقد الف كتابه في النصف الاول من القرن التاسع للميلاد وفضل سنة (232 هـ ـ 846 م) وليس في وسعنا القطع بتاريخ محدد ، ولكن ومما لا شك فيه ان الخوارزمي قد شارك في النشاط العلمي الذي ازدهر في ايان عهد المأمون (813 ـ 833 م) ويعتقد ان هناك صلة بين هذا الكتاب وبين خريطة العالم المشهورة التي تعاون على رسمها نفر من الباحثين بتشجيعا لرغبة الخليفة المأمون اطلق عليها الصورة المأمونية · وهي أول خريطة للعالم نشره ونشره وعامره وغامره وضعت في العهد العباسي · ويعتبر كتاب صورة الارض

احسن ما انتجته القريحة الاسلامية في فجر نشاطها العلمي . فيه أورد الخوارزمي الاسماء القديمة للبلدان والمواقع والاسماء المتداولة في العصر الاسلامي .

3 ـ مصنفات المسالك والممالك وهي مؤلفات عديدة جاءت بلبية لحاجة الادارة الاسلامية كمعرفة الطرق . لايصال البريد وجمع الضرائب . وتنقلات الجيش . والتجارة الخ ... وهي مصنفات وصفية بحق اذ ان أصحابها لم يتعرضوا الى التحليل والتعليل الجغرافي بل اكتفوا بوصف المظاهر الطبيعية وصورها وذكر الطرق وابعادها وربما كان مرد هذا الى حكم الوظيفة التي كان يشغلها صاحب المسالك والممالك كما هو الشأن لدى ابن خرداذبه الذي كان موظفا رسميا في الدولة حيث كان يشغل منصب صاحب بريد وخبر في عهد أحمد بن جعفر المتوكل (256 ـ 279 هـ . 869 ـ 892 م) وبذلك كان عمل ابن خرداذبه مرتبطا اشد الارتباط بالمسالك وشؤونها ثم ان اطلاعه على وثائق الدولة العباسية قد سهل له الحصول على اخبار عديدة ومعلومات كثيرة عن اصقاع العالم الاسلامي اذ ذاك فضمنها كتابه المسالك والممالك الذي انجزه وهو بمدينة سامرا على نهر دجلة فيما بين عامي 230 ـ 234 هـ . 844 ـ 849 م . فيه ذكر الطرق التجارية الرئيسية في العالم الاسلامي بحرية وصفه لجهات قاصية مثل الصين وكوريا واليابان عبر انه كثيرا ما خلط بين الحقيقة والخيال . ومهما يكن فان هذا الكتاب يعد من المصادر القيمة التي اعتمد عليها الجغرافيون الذين اعقبوا ابن خرداذبة مثل اليعقوبي وناقوت الحموي والاصطخري وكلهم أصحاب مسالك وممالك .

والخلاصة ان الدراسات الجغرافية لدى المسلمين فيما بين القرن الاول والثالث للهجرة تتميز بالآتي

أ ـ عدم التخصص . فالذين كتبوا فيها متخصصين في الجغرافية فقط لذا لم يكتبوا في الجغرافية فقط بل كتبوا في فنون أخرى فابن خرداذبه مثلا كان موسيقيا وأديبا في اول الامر قبل ان يشغل وظيفة صاحب البريد والخوارزمي اشتهر بالرياضيات والفلك بالخصوص . والجاحظ عرف بالفلاسفة قبل ان يعرف بالجغرافيه . ولعل هذا من سمات العلوم القديمة التي كان فيها الحكيم والعالم هو الذي له من كل فن بطرف .

ب ـ الخلط بين الحقيقة والخيال في بعض الاحيان وربما مرد هذا الى ا

البعض ممن كتبوا في هذا الفن اكتفوا بالاخبار المنقوله دون ان يتحركوا عن مكانهم للمشاهدة والاطلاع في عين المكان عما قيل او روى فلان عن فلان .

ولكن رغم هذه النقائص التي تعد جزءا من عدم الكمال لطبيعة البشر فان المسلمين في هذه الفترة المبكرة من التاريخ قد أتوا بما لم تأت به امة في فجر تاريخها . ويكفي ان نذكر في هذا ان هناك فصلا عظيما يرجع للمسلمين في جمع التراث البشري القديم ونعته من جديد سواء كان هذا التراث يوناني او فارسي او هندي او فرعوني . فلولا المسلمين لاندثرت تلك المجهودات العقلانية البشرية ولما عثر عليها الى الابد . وكذلك يرجع الفضل الى المسلمين في المزج بين الحضارات القديمة وتصحيح النظريات العتيقة وتوسيع رقعة العالم المعروف .

3 ـ مجهودات جغرافية فيما بعد القرن الثالث هجري :

يذكر المؤرخون ان اتساع الدولة الاسلامية ودخول عناصر اجنبية فيها وانحلالها كانت من الاسباب التي ادت الى انقسامها الى دويلات منها دولة الصفارية في خراسان على يد يعقوب بن الليث الصفار سنة 254 هـ التي استمرت الى سنة 290 هـ . ودولة السامانيين في تركستان سنة 216 هـ واستمرت الى سنة 389 هـ . والدولة الغرناوية في بلاد الافغان والبنجاب سنة 351 واستمرت حتى 582 هـ . والدولة البويهية في فارس سنة 320 هـ واستمرت حتى 447 هـ . والدولة الحمدانية في الموصل والشام من 317 الى 393 هـ . ودولة الامويين في الاندلس من سنة 138 الى 424 هـ والدولة الطولونية في مصر من 254 الى 292 هـ . والدولة الاخشيدية في مصر والشام من 323 الى 358 هـ . والدولة الفاطمية في شمال افريقية ثم في مصر من سنة 297 الى 567 هـ . ودولة الاغالب في تونس من 184 الى 296 هـ ودولة الادارسة في المغرب من سنة 172 الى 375 هـ . الخ الخ ... مما يطول ذكره . وانا لم نستعرض هذه الدويلات الا لبيان مدى الانقسام السياسي الذي اصاب الامة الاسلامية وان هذا الانقسام ظل يشتد في بعض الاحيان حتى ادى الى الحروب بينهم مما اضعف شوكتهم واذهب ريحهم باستيلاء التتار على معظم ديارهم وحرب جنكيز خان عاصمتهم بغداد سنة 656 هـ ـ 1258 م . ولكن واحسن الحظ فان هذا الانقسام السياسي لم يؤثر في المدى القصير على

الاقل . على المسعودى الحصارى . بل انه قد زاد من التنافس فى البحث عن المعرفة ويتجلى هذا فى ظهور مراكز ثقافية اخرى مثل قرطبة والقاهره وبخارى وهى مراكز ظلت تنافس مدينه بغداد فى المعارف والعلوم أكثر من خمسة قرون وأصبح كل منها قبلة للعلماء والشعراء والكتاب فى مختلف الفنون الذين كانوا يتنقلون بكل حريه بين هذه العواصم طلبا للاستزاده فى العلم أو ابتغاء الكسب أو الجاه . هذا من جهه ومن جهة أخرى فان الامراء والملوك المسلمين بحكم عقيدتهم أخذوا يشجعون ويقدرون العلم ويقربون اليهم العلماء اسوة لمن سبقهم أو منافسة للخلفاء العباسيين ، فزدهرت بخارى فى عهد الدوله السامانيه الى ان أصبحت محطة رجال الادب والعلم . وفى القاهرة اهتم الفاطميون وخاصة فى عهد العزيز بالله (365 ـ 386 هـ) والحاكم بامر الله (386 ـ 411) بالعلم والعلماء . وفى قرطبه كان اهتمام الحكم الثانى المستنصر بالله (350 ـ 366 هـ) بالعلم والعلماء كبيرا حتى وصف قصره بانه كان حافلا بالكتب وأهلها حتى بدا وكأنه مصنع لا يرى فيه الا النساخون والمجلدون والرسامون .

ومهما يكن من أمر فان علم الجغرافيا فيما بعد القرن الثالث للهجره قد شهد دفعة أخرى نحو الامام وتطورا ملحوظا يتجلى فى كثرة ما كتب فيه وذلك حتى القرن السابع للهجره . ولا بأس أن نستعرض فيما يلى البعض من هذه الآثار القيمة :

1 ـ كتاب المسالك والممالك **للبلخى** وهو أبو زيد احمد بن سهل البلخى من مواليد بلخ بشامستان . قصد العراق وهو صغير فتتلمذ على الفيلسوف المشهور الكندى الذى علمه التاريخ والجغرافيا والفلسفة . ولما رجع الى وطنه استخدمه أمير بلخ فى الدوله . والبلخى هو احد الرواد المسلمين فى صناعة الخرائط اذ ان معظم كتبه تحوى صورا وأشكالا ورسوما للاقاليم التى تحدث عنها وقد انجز كتابه المذكور سنه 309 هـ 921 م وتوفى سنه 322 هـ ـ 934 م . ويذكر المقدسى ان البلخى قد سبقه فى تصوير الخرائط . ومما تجدر الاشارة اليه ان البلخى كان أيضا طبيبا ماهرا وفقيها جليلا ، وانه ممن هجموا على اسرار علم التنجيم والهيئة .

2 ـ المسالك والممالك **للاصطخرى** وهو أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الاصطخرى الفارسى . ربما عاش فى النصف الاول من القرن الرابع الهجرى . وقد عاصر

ن حوقل واتصل سنة 340 هـ .
وقد كتب الاصطخرى كتابه المسالك والممالك معتمدا على مؤلف البلخى الذى تقدم بنفس العنوان . والملاحظ على الاصطخرى انه ذكر بالتفصيل بلاد فارس وذلك لمعرفته بها اما عن بلاد المغرب فقد اوجز كل الايجاز . وقد اهتم برسم الخرائط عن الاقاليم التى ذكرها .

3 ـ كتاب صورة الارض لابن حوقل ، وهو ابو القاسم محمد بن حوقل النصيبى البغدادى الموصلى النصيبى . ويذكر فى كتابه هذا ان الدافع الى تاليفه كان شغفا بالعلم وتكملا لما قصر عنه غيره . ثم يقول واغانى عليه تواصل السفر ، وارتياحى عن وطنى مع ما سبق له بقدر الاستطاعة الزرق والاثر . والسهوة بموضع الوطر . بحور البسيطان وكثب الرمان . وتواصل السنابك على أهل الشرق والعدوان . واستيناس بلاطيه بالحور عين العدل والطمأنينة وكثرة سوانح والنوائب وتعاقب الكتب والمصائب . واحتلال النعم وفحط الدين

وهنا يجدر الاشارة انه ان ابن حوقل تعلم رحاله . حيث ضرب الرقم القياسى فى التجوال . خرج من بغداد يوم الخميس لسبع خلون من شهر رمضان سنة 331 هـ وعبر فى اتجاه الشرق

وعبر به . وفى عنفوان الشباب وسكرته . وظل يطوف بمشارق الارض ومغاربها لمدة 30 عاما الى ان جمع اكداسا من المعارف والتجارب ضمنها كتابه المذكور . والعجب انه لم يركب البحار بل ظل طيلة تلك المدة يتحول على اليابس فقط .

وقد فصل ابن حوقل فى كتابه البلاد الاسلامية اقليما اقليما ووصفها صفحة وكورة كورة . كما رسم عدة خرائط منها خريطة للعالم التى تظهر فى شكل 5 . وفيها يلاحظ الشمال فى اسفل الخريطة والجنوب فى اعلاها على عكس ما نعرفه الآن فى خرائطنا والخرائط اليونانية القديمة وقد زادت خريطته غموضا لعدم استعماله لخطوط العرض والطول فى تحديد المواقع ويظهر ان هذه الخريطة غير منقولة وانها من اجتهاده الخاص وفيها يظهر سواحل البحار فى اشكال خطوط مستقيمة ولعل السبب فى ذلك يرجع الى ان ابن حوقل لم يركب البحار حتى يمكنه ان ينسبه الى تعرجاتها كما انه يبالغ فى رسم القارة الافريقية . ويفصل بين القارة الاسيوية والاوروبية فى هذه للبحر الاسود نحو الشمال حتى المحيط الشمالى .

ـ مروج الذهب ومعادن الجوهر للمسعودى . هو ابو الحسن على ابن الحسين بن على ولد فى بغداد سنة

287 هـ وتوفي بمصر سنة 345 هـ . وهو من ابرز المؤرخين والجغرافيين على السواء . أحب التجوال منذ صغره لذا امضى معظم حياته في الترحال الى بلاد الهند والسند والبنجاب وملتان وسيلان والصين ثم رجع الى زنجبار وزار مدغشقر . فقفل راجعا الى عمان ومنها رجع الى بغداد لكن حنينه الى السفر عاوده مره اخرى لذلك خرج نحو الجهات الشماليه فزار البلدان التي تحيط ببحر قزوين والشام وفلسطين ثم مصر التي ادركته فيها الوفاة . والمسعودي واسع الاطلاع والمعرفة ومن حسن الحظ ان كتابه متيسر للقارىء حيث اعيد طبعه عدة مرات ويحتوي على جزئين . وقد رسم صورة للارض انظر شكل 6 .

5 ـ احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم للمقدسي وهو شمس الدين ابو عبد الله محمد بن أحمد المقدسي ولد ببيت المقدس حوالي 335 هـ . ومن هنا كانت تسميته توفي سنة 381 تقريبا . وشهرته معروفة في العرب الى حد كبير . وقد طاف بانحاء العالم الاسلامي ما عدا الهند والاندلس وقضى في ذلك حوالي 20 سنة . ويمتاز المقدسي بالتجربة فيما يقول والصدق فيما يذكر والامانة فيما ينقل . والنظرة الثاقبة فيما يلاحظ ويقدر .

وقد صنف مؤلفه في سن الاربعين بمدينة شيراز بفارس سنة 375 هـ ـ 985 م . ويرى المقدسي ان الجغرافية لم تكن تلقى عناية كبيرة لدى من سبقوه من رجال العلم ومن هنا أخذ على عاتقه ان يضطلع بجمع مادته العلمية من شتى انحاء العالم الاسلامي معتمدا على رحلاته وملاحظاته الشخصية . وفي هذا الشأن يقول « فرأيت ان اقصد علما قد اغفلوه (أي من سبقوه) وانفرد بفن لم يذكروه الا على الاجلال » وهو ذكر الاقاليم الاسلامية وما فيها من المفاوز والبحار والبحيرات والانهار ووصف امصارها المشهورة ومدنها المذكورة ومنازلها المسلوكة وطرقها المستعملة . وعناصر العقاقير والالات . ومعادن الحمل والبخارات واختلاف أهل البلدان في كلامهم واصواتهم والسنتهم والوانهم ومذاهبهم ومكاييلهم واوزانهم . ونقودهم وحروفهم . وصفة طعامهم وشرابهم وثمارهم ومياههم . ومعرفة مفاخرهم وعيوبهم وما يحمل من عندهم واليهم الخ ... الى ان يقول « وعلمت انه (أي علم الجغرافية) باب لابد منه للمسافرين والتجار ولا غنى عنه للصالحين والاخيار . اذ هو علم يرغب فيه الملوك والكبراء ويطلبه القضاة

والفقهاء ونعبه العامة والرؤساء ، وفى هذا الرحز الملمح ببين أهميه الجغرافية من بين العلوم .

وقد استعمل الخرائط قسما بفـــول حيب قسم العالم الاسلامى الى 14 قسما أو اقليما لكل اقليم خريطته المفصلـة استخدم فيها الرموز والالوان لبيـان المظاهر الطبيعية . كاستعمال اللـون الاحمر للطرق والاصفر للرمال والاخضر للبحار والازرق للانهار والاغبر للجبال ، وهى تقريبا نفس الالوان المستعملة فى خرائطنا الحالية . والارض عند المقدسى كروبة الشكل بقسمها خط الاستواء الى قسمين متساويين ومحيطها 360 . وان نصفها الجنوبى يغلب عليه الماء على عكس نصفها الشمالى .

6 ـ تحقيق ما للهند من مقولـــة فى العقل أو مردولـــة للبـــيرونى وهـــو أبو الريحان محمد بن أحمد المولـــود باحدى ضواحى خوارزم سنة 362 هـ ، والمتوفى سنة 440 هـ . والبيرونى من اشهر العلماء المسلمين فى التاريخ وله مكانة مرموقة فى علم الجغرافية والطبيعة والجيولوجية والفلك والرياضيات كمـا انه درس التقاويم والطب وبذلك تثير سعة افقه الدهشة بحق . وقيل انـــه توفى سنه 442 هـ الموافق لسنة 1050 م بعد ان خلد آثارا قيمة لم يصلنا منه الا النزر اليسير . وقد اكتسب شهرة واسعه كصاحب فى الفترة التى سبقت عام 407 وهو العام الذى وقع فـــيه البيرونى أسيرا بين ايدى السلطان محمد الخزنوى عند سقوط حيوه مسقط رأسه ثم اطلق سراحه وقربه السلطان محمود اليه وصاحبه فى حملاته على بلاد الهند واغتنم البيرونى هذه الفرص لتعليـــم اللغة السنسكرينية وكرس جهوده لدرس علوم الهندوس التى أودعهـا كتابـــه المذكور اعلاه . ومن اشهر كتب البيرونى فى الجغرافيه : الآثار الباقية من القرون الخالية ، وكتاب الهند الذى يعتبر نحو احدى المجهودات العظيمـــة فى حقـــل الجغرافية الاقليمية اذ تناول فيه حتى حمولوجية الارض وعلم المعادن . اذ هو يذكر ان سهل الهندستان كان قديما عباره عن قاع البحر ثم أخذت تترسب فيه جزئيات الطمى الى ان سوت منـــه سهلا . وهى الفكرة الشائعة حاليا فى تكوين معظم السهول الرسوبية .

وعندما يتعرض البيرونى الى ما جاء عن بطليموس فيقول انه أصاب فى خطوط الطول والعرض ولكن ما أورده من ذكر لاقوام قـد يشوبه الشـك نظـرا لان بطليموس لم يزر هذه البلدان . هـــذا

من جهة ومن جهة أخرى فان الترحال في عهد الرومان لم يكن ميسورا وان ونوح بالراضي لم يكن مستـــورا في الماضي بعض السفن المثل الذي هو كثير عصة في تسهيل السفر بين البلدان فهناك قوم من اليهود يظنون انهم يتقربون الى الله عندما يغدرون بمن كان على غير دينهم . والرومان يسترقون من جاء في قبضتهم، وهناك أمم ترد المسافرين على اعقابهم لانهم غرباء . وآخرون يقتلون الغرباء .

ولهذا ربما ما ورد عن بطليموس عباره عن روايات . اما في العهد الاسـلامي فالظروف قد تغيرت تماما حيث اطمأن المسافر وتوسعت دار الاسلام . وتفهم الكفار معنى السلام واصبح الجميع يدعون بالسلام وعلى هذا النحو صار الحصول على معلومات تتعلق بالاماكن المختلفه على سطح الارض اكثر يسرا واقرب الى درجه لا تقارن بما كان عليه الحال من قبل .

7 ـ معجم ما استعجم للبكري وهـو ابو عبيد الله بن عبد العزيز المولـود بقرطبة سنه 432 والمتوفى هناك سنه 487 وله كتب اخرى مثل المسالـك والممالك الذي ضمنه ما شاهده في رحلته في المغرب وأرض الحجاز واوروبا .

8 ـ تحفة الالباب ونخبة الاعجـاب لابي حامد الغرناطي وهو ابو عبد الله محمد بن عبد الرحيم المازنـي القيسي الاندلسي . ولد بغرناطه سنة 473 ومنها رحل الى بغداد سنة 557 بغية الاستزادة في التعلم ومنها انتقـل الى خراسـان للاتصال بعلمائها والاستفاده منهم ثم قفل راجعا الى حلب للتدريس والدراسة حتى توفي بدمشق سنه 565 الموافـق لسنه 1161 م . وله كتب عديدة في جغرافيه بلدان المغرب وبلاد الاندلس بالخصوص كتاب تحفه الاذهـان في عجائب البلدان التي ذكر فيها ما شاهده في رحلاته من بلاد الاندلس حتى بلاد الخزر .

9 ـ رحلة ابن جبير لابن جبير وهـو ابو الحسين محمد بن أحمـد الكناني الاندلسي الاصل (المولود سنه 540 هـ والمتوفى سنة 614 هـ) وقد تمتع بين مواطنيه بشهره عاليه في الادب والشعر حيث تولى التدريس في مالقا وفاس وغرناطه ببلاد المغرب . وله جهد عظيـم في ميدان الجغرافيه حيث سجـل في رحلته رغم في طريقه الى الحج كـل ما لاحظه على بلاد الاسلام ابتداء مـن موطنه بالاندلس الى سنه جزيره العرب . ومـا ان آب مـن حجـه الى الاندلس حتى نشر هذه المذكرات تحت عنـوان رحلة بن جبير وذلك بعد تنسيقها ووفقـا لمراحل رحلته . وقد لقي كتابه هـذا

رواجا في الشرق وفي الغرب على السواء واستفاد منه من جاء من بعده من الكتاب والمؤرخين امثال العبدري البلنسي في كتابه عن رحلته في افريقيا الشمالية سنة 688 هـ ـ 1289 م . وابن بطوطه الذي تجول في بلدان العالم الاسلامي لمدة تزيد عن 28 سنة (725 ـ 753 هـ 1325 ـ 1353 م) صاحب كتاب رحلة ابن بطوطه الشهيرة التي قطع فيها ما يزيد عن 75 الف ميل . وهذا الرقم لم يكن يتجاوزه احد كما يبدو قبل عصر البخار . وبذلك يكون قد ضرب الرقم القياسي في التجوال

10 ـ نزهة المشتاق في اختراق الآفاق للادريسي وهو أبو عبد الله محمد بن محمد ابن عبد الله بن الادريسي الشريف وهو من اشهر الجغرافيين المسلمين لدى الاوروبيين . ولعل السبب في ذلك يرجع الى انه تجول كثيرا في أوروبا وأنه خدم لمدة طويلة من الزمن بلاط روجي الثاني ملك صقلية الذي رسم له كرة أرضية وخرائط في قرطبة ثم رحل طويلا في ارجاء العالم الاسلامي ثم أوروبا الى ان استقر بصقلية حيث اعزاه ملكها للاقامة وهناك صنف كتابه سنة 549 هـ ـ 1144 م . ويعتبر الادريسي كبير جغرافي انجبته العصور الوسطى حيث ان كتابه حافل بالمعلومات الصحيحة واجتهاداته الخاصة وتجاربه المكتسبة . أجل لقد كانت له بعض الاخطاء في وضع خرائطه مثل الشمال الذي وضعه في اسفل الصورة والجنوب في اعلاها . انظر شكل 7 . وبعض الخرائط التي أوردها في كتابه وهي أوسع ما يكون انتشارا في عصره .

11 ـ معجم البلدان لياقوت الحموي . وهو من اسرة رومية ولد سنة 574 هـ ـ 1179 م باليونان ووقع في الاسر وهو لا يزال صبيا . واشتراه تاجر بغدادي من قبيلة حموية ومن هنا جاءت تسميته بالحموي . وياقوت الحموي من مشاهير الجغرافيين المسلمين وبالخصوص اذا نظرنا اليه وهو يصور العالم الاسلامي قبل ان تصيبه الخراب على يد التتر بقيادة هولاكو خان . وقد بدأ حياته بالتجارة لصاحبه ثم انفصل عنه بالترحال واكتساب الرزق والعلم الى المناطق البعيدة وعمره 26 سنة وبعد ان اكتسب قدرا من التجربة خرج في رحلته التالية سنة 610 هـ ـ 1213 م ، فاتجه اولا الى تبريز ومنها الى الموصل فالشام فمصر ، ثم عاد نحو المشرق الى ان بلغ نيسابور ثم دخل مرو التي عكف فيها على دراسة الكثير من الكتب القيمة . وبذلك تهيأ للكتابة والتأليف لكن دوى

خريطة الإدريسي للعالم

(حوالي ١١٥٤ م)

صوب السر على هذه الجهات دفع به الى الخروج منها مسرعا نحو الموصل سنة 1220 م . وقد انجز كتابه المذكور سنة 1224 ثم توفى بعد ذلك فى حلب سنة 627 هـ ـ 1229 م . والنار على أبواب العراق . وكتاب معجم البلدان يصور العالم الاسلامى بالتفصيل من بلاد الاندلس الى بلاد ما وراء النهر والهند. كما تعرض فيه الى صرد جمهرة من الادباء والعارفين واهل الفكر والجغرافيين كما يذكر تآليف عديدة لم يعد متيسرا الحصول عليها . ولعل اهم ما يمتاز به فى كتابه معجم البلدان انه قد استعمل طريقة النقد والتمحيص التى يأخذ بها الجغرافى الحديث . وهذا ان دل على شىء فانما يدل على سعة اطلاعه .

12 ـ عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات للقزوينى وهو زكريا بن محمد ابن محمود ابو يحيى القزوينى نسبه الى مدينة قزوين شمال فارس التى ولد فيها سنة 600 هـ ـ 1203 م . وفى عهد الخليفة المستعصم آخر خلفاء عباسى كان القزوينى يعيش بالعراق ويشغل منصب قاض على واسط والحلة . واذا صحت وفاته سنة 682 هـ ـ 1283 كما يذكر المؤرخون فلا شك انه شاهد الكبير صما حربه النار وعاصر احراق جنكيز خان لمدينة بغداد سنة 656 هـ ـ 1259 م . واغراق نهر دجلة بالمؤلفات . وللقزوينى تآليف عديدة منها الكتاب المذكور الذى بقى معروفا حتى العصور الحديثة فيه تناول الاشياء السماوية مثل الشمس والكواكب والافلاك والبروج والاشياء السفلية مثل كره الانير أى الغلاف الغازى وكره الماء وعجائب بحارها وكره الارض وسعتها وقرارها ورسوخ جبالها وامداد انهارها وفوائد معادنها وخواص اشجارها .

وقد روى فيه كل ما قرأ او رأى او سمع دون ان ينقد ما كتب واثبت . وله كتاب آخر فى الجغرافية عنوانه آثار البلاد واخبار العباد ألفه سنة 1250 م . وفيه تتابع التقسيم البطليموسى السباعى للاقاليم . والكتاب يفيض مادة غزيرة فى التاريخ والتراجم وبه مجموعة من الرسوم والصور . وقد رجع القزوينى فى مؤلفاته الى مصادر عديدة منها مؤلفات الغرناطى والعذرى والاندلسى وابراهيم الطرطوشى والجاحظ وابن فضلان ومسعد بن المهلهل والمليانى وغيرهم كثيرين .

13 ـ رسائل اخوان الصفاء . وهى مقالات عديدة لجماعة من الصوفية والفلاسفة المسلمين الذين سموا أنفسهم باخوان الصفاء وخلان الوفاء . ومن اهم مؤلفاتهم تلك التى كتبت فى القرن

الرابع للهجره وتناولت جوانب علميه عديده منها علم الجغرافيه حيث تعرضوا في كتاباتهم لكسوف الشمس وخسوف القمر كما تعرضوا لدوره الفصول تبعا لحركة الشمس الظاهرية وتصوروا ان الارض كروية الشكل وقالوا بوجود غلاف جوى يحيط بالكرة الارضيه وينقسم الى ثلاثه اقسام أو ثلاث طبقات (أ) اعلاها واشدها حراره هي الاثير (ب) والطبقه الوسطى فارسه البروده وتسمى الزمهرير (3) والطبقه الاخيره وهي ادنى الطبقات الى الارض وتسمى النسيم لاعتدال درجه حرارتها . وهذا ما وصل اليه العلم الحديث في عصر الاقمار الصناعية ويقوم بتدريسه في الجامعات . حيث ان درجة الحراره . تنعقد تعلان بالارتفاع الى ان تصل الى نهايه طبقه البروتوسفير فتنعكس الاية النسبية للحراره التي تأخذ في الزياده ... فيستمر في النقصان الخ .. وبذلك تناولت مسائل احوال الضياء التي تعتبر آثارا من آثار الحضارة الاسلاميه ظاهره السحب وكيف انها عباره عن مياه للبحار التي تتحول الى بخار فتتصاعد في الهواء ثم تسوقها الرياح ثم تتكاثف فتسقط مطرا . وعلى هذا النحو تنصرف كثير من هذا الماء الى الانهار . ووجهوا اهتمامهم الى اثر التعريه والنحات والى العمليات الجيولوجيه كما لم يغفلوا عن علم النبات والحيوان . اما فيما يخص العمليات الجيولوجيه فذكروا ان الجبال أصلها رواسب نزلت باعماق المحيطات وان البحر ليس بثابت الشواطئ وانها عرضه للارتفاع والانخفاض . فقد يطغى البحر وينقض على السهول والمراعي حتى تصير السهول بحارا وتصير البحر يابسا على مرور الايام . وعلى سطح الارض التي برزت من البحر تتساقط المطر وتتكون المجاري المائيه التي تحمل معها التربة والرمال وعليها تنمو النبات والمراعي والشجر . ولعمري ان هذا لمن صميم الجغرافيه الطبيعية ودوره التعرية النهريه وتكوين السواحل التي تدرسها لابنائنا حاليا في الجامعات .

14 ـ تحفة النظار في غرائب الامصار . عجائب الاسفار لابن بطوطه السابق الذكر وهو ابو عبد الله محمد بن بطوطه المعروف ايضا بشمس الدين من مواليد سنه 704 هـ ـ 1304 م بطنجه ببلاد المغرب . توفي في فارس سنه 771 هـ ـ 1369 م . وابن بطوطة من اشهر الرحاله المسلمين في القرن 14 ميلادي اذ طاف بكل البلدان الاسلاميه من طنجة الى بلاد الصين . ذلك انه لما بلغ الثانية والعشرين من عمره خرج من مسقط رأسه مهاجرا

في سبيل الله . فزار أولا بلدان المغرب العربي المغرب والجزائر وتونس وليبيا ومنها انتقل الى مصر ففلسطين فالشام فمكة التي نزل بها لاداء فريضة الحج ومنها خرج نحو الشرق فزار بلاد ما بين النهرين . ثم قفل راجعا الى بلاد العرب ومنها الى اليمن التي اقلع منها بحرا الى مينسا وسواحل افريقيا الشرقيـــة ثم عاد مرة اخرى للحـــج سنة 1332 م . سالكا هذه المرة طريق عمان والخليج الفارسي . وبعد حجته الثالثة عزم على زيارة بلاد الهند لكن الاقدار وجهته نحو القاهرة ففلسطين فالشام ثم انتقل الى آسيا الصغرى ومن هناك ركب البحر الاسود متوجها نحو بلاد القرم التي كان بها السلطان محمد أوزبك خان المغولي الذي اسلم مع قومه واستقبل ابن بطوطة استقبالا حارا واتاح له الفرصة لينتقل في اقليم الاستبس الروسي ويكتب عنه الكثير وليزور القسطنطينية . ومنها ولج الى خراسان عن طريق خوارزم ليزور بخارى وبلخ وهراة وطوس ومشهـــد ونيسابور ثم اختار جبال الهندكوش متوجها الى كابل حتى دخل بلاد الهند ووصل الى دلهي حيث قربه اليه سلطانها محمد طلعق وأرسله فيما ارسل الى بلاد الصين . سنة 1342 م . وبعد ان زار هذه الجهات الشرقية قفل راجعا الى بلاده بعد ان حج حجته السابعة سنة 1348 م وزار بلاد الاندلس كما تجول في بلاد البحر عبر الصحراء . وخلاصة الحديث ان رحلات ابن بطوطة تستحق الاعجاب والتقدير حيث صور فيها العالم الاسلامي احسن تصويـــر كما امدت معلومات كثيرة عن البلدان النائيـــة الواقعة فيما وراء بلاد الاسلام كشمال سيبيريا وافريقيا الســـوداء وما وراء جبال الهملايا .

1 ـ الجغرافية في عصر الانحطاط :

وبعد كتاب ابن بطوطـــة ومقدمـــة عبد الرحمـــن بن خلـــدون (733 هـ ـ 1332 م ، 809 هـ ـ 1406 م) أخـــذ مصباح علم الجغرافية عند المسلمين يسير نحو الانطفاء اذ ان هذا العصر يعتبر من اسوأ عصور الانحطاط والانحلال في جميع انحاء العالم الاسلامي يقابله عصر المنافسة والنهوض للعالم المسيحي أو الاوروبي . اذ ظل الاوروبيون أكثر من ثلاث قرون من الزمن وذلك فيما بين القرن 10 و 13 ينهلـــون من معارف المسلمين . اما المسلمون في هذه الفترة فقد انقسموا الى احزاب وشيع مما سهل على العدو أخذهم اخذا شديدا . حيث سقطت مدن كثيرة على سواحل ليبيا وفلسطين في ايدي الصليبيين فيما بين

القرنين 11 و 13 ميلادى وأرض فارس
ى يد المغول فى القرن 13 م . وغرناطة
. هى اخر معقل من معاقل المسلمين
بالاندلس سنة 1492 م الموافقه لسنة
التى خرج فيها كولمبس من بشتوبه
لاكتشاف أمريكا . وبعد ان سقطت
مدينه القسطنطينيه فى يد العثمانيين
سنه 857 هـ - 1453 م أخذوا يوسعون
نفوذهم على حساب الدويلات الاسلاميه
من الجهات الجنوبيه وعلى حساب دول
وروبا الشرقيه من الجهات الشماليه
والشمالية الشرقيه وما هو أقل من
ذلك حتى وريث الدوله العثمانية بلدان
حضاره الاسلاميه لكن ويا للاسف
ان هذا الارث لم يكن مصحوبا بتطور
فى الجغرافيه وكان الحضاره الاسلاميه
قد بلغت مرحله من الشيخوخه لم يكن
من السهل اعاده شبابها واردهارها .
اذ بعد سقوط الاندلس ومن قبلها بغداد
ثم استيلاء الاتراك على الحكم بدأت
مجهودات المسلمين فى ميدان التعمير
تقل أو تزول لكن ما وصل اليه المسلمون
خلال سبعه قرون على الاقل لم يندثر بل
هاجر من المسلمين الى غيرهم ليظهر فى
شكل ثوب اخر فى أوروبا . وبعده سنة
الحضاره منذ الازل التى هى عبارة عن
ثوب نسجت خيوطه الانسانيه وهو ثوب
واحد ولكن نسجه وبعاد بعضهم من
انسان لآخر فالاوربيون ورثوا هذا الثوب
فى عهد الاسكندر المقدونى بالخصوص
من اثار الهند والفلك الخصيب ومصر
والمسلمون ورثوه من اليونانيين واليهود
وزادوا عليه حتى نسج شعر مع
مقومات الديمقراطية والديموقراطية وتقول فى
هذا الشأن احوان الصفاء انه من
استطاع الفلسفة اليونانيه والشريعه
العربيه فقد حصل الكمال . ثم ان
الاوروبيين ورثوا هذا الثوب من المسلمين
واستمروا فيه . وابتدعوا فى بعضه
الى ان اصبح وكأنه ملك لهم . والعجيب
ان كل من أراد نسج هذا الثوب بدا
وكأنه لم يكن نسجه . ولعل ما زاد الطين
بله تعصب الاوروبيين لا على المؤلفات
الاسلامية التى بحدها الا مقتبسه من
المكتبات الاوروبية او بورغسة بين
المسلمين ولكن على بلاد الاسلام وادلان
بعضهم الى درجه ان نادت الصلة بعالم
بين الحاضر والماضى . وعمل الرجل
الاوروبى على توجيه المسلم نحو نسيان
شخصيته او ماضيه وحتى صار المسلم
يعتبر له وكأنه لم يك شيئا او كأنها
اضغاث احلام .

فالله يرجوه الصواب وان يعيننا على
استرجاع مجدنا الضائع وما ذلك على
الله بعزيز . فى هذا القرن 15 هجرى
الذى فيه بدأت تظهر علامات النهوض
لعالم الاسلامى بعد التحرر من شر
الاستعمار الاوروبى ونيل الاستقلال .

صـدر أخـيرا :

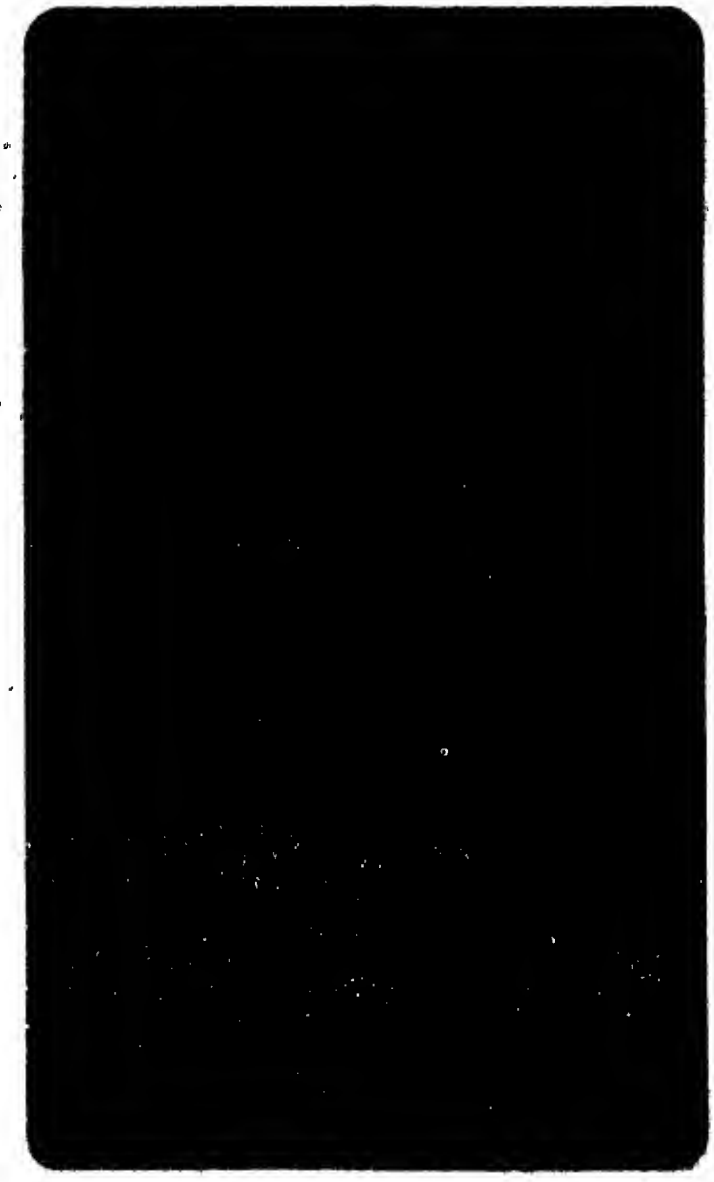

15

أربعة عشر قرنا حافلة من تاريخ الإسلام في إفريقيا والتطورات الجديدة

د. عبد القادر زبادية
أستاذ التاريخ الإفريقي الحديث
جامعة الجزائر

تمهيد

من الحقائق الثابتة ان الاسلام قد وصل الى افريقيا جنوب الصحراء منذ القرن الثامن الميلادى وانتشر منذ ذلك الحين بسرعة هائلة . ويعزو المؤرخون أسباب اقبال الافريقيين على اعتناق الاسلام منذ البداية الى ما تحتويه تعاليمه من مبادىء العدالة والبساطة والمساواة، وهي التقاليد الاجتماعية ذاتها التى تتلاءم والحياة الطبيعية للفرد الافريقى فى العادة . ويذهبون ايضا الى ان الاسلام بالنظر لهذه الوضعية العلمية قد اصبح دينا افريقيا اساسيا ولا توجد منطقة فى افريقيا لم يصلها الاسلام أو لم يكن له تاثير فى ثقافتها (1) .

ومن الحقائق الثابتة كذلك أن الاسلام لم يصل الى افريقيا بحد السيف كما أن نظام العبودية لم تكن أسبابه اسلامية فى يوم من الايام . وقد عاشت افريقيا مع الاسلام ، متفتحت على ثقافة عالمية وارتبطت بعالم كان متطورا الى فترة قريبة جدا . ثم جاءت فترة الاستعمار الاوروبى المباشر فى القارة الافريقية ، فتمخضت عن تطورات جديدة ، هي التى يجب أن تكون موضوع اهتماما هنا .

لا يوجد بلد افريقى يخلو من المسلمين اليوم . وتتراوح نسبتهم باختلاف البلدان فى كامل القارة بين ٥٪ الى ٩٥٪ وللاسلام فى افريقيا تاريخ طويل يمتد على أربعة عشر قرنا كاملة . وقد ساهمت الثقافة الاسلامية فى نقل شعوب القارة من العزلة والوثنية الى الامتزاج فى

(1) A I DM « Islamic Thought and Culture Thier impact on Africa » *The Journal of Muslim world league*, N° 6, March 1974, pp 36 - 39

صف الحضارة العالمية والانخراط فى ديانة التوحيد ، كما ساهمت فى تأسيس الدول وتخطى المفهوم القبلى الضيق لدى الشعوب الافريقية . وهذا قبل أن يعرف الاوروبيون أي شيء عن القارة وشعوبها . وبذلك كان للاسلام مجال السبق فى ايجاد مبدأ توحيد الدول والشعوب والحكومات فى افريقيا وكان المحرك العملى لخلق الوطنية لدى المسلمين الافارقة (2) ·

وليس المهم هنا هو تتبع كل التطورات التاريخية الناصعة للاسلام فى افريقيا، لان هذا ليس جديدا ، ولا طارئا ، وانما الجديد هو ما تمخضت عنه الفترة الاوروبية منذ نهاية القرن التاسع عشر من القضاء على اللغة العربية وادخال الديانة المسيحية ورعايتها وايجاد اتجاهات جديدة فى الفكر الافريقى عن طريق خلق طبقة اجتماعية جديدة ذات ايديولوجية تختلف عن ايديولوجية الاسلاف ورعايتها · فقد قام كل من الانكليز والبرتغاليين والاسبان والالمان والفرنسيين والبلجيكيين بدور متشابه فى هذا الصدد ، وذلك فى كل قطعة احتلوها على أرض افريقيا ، وان اختلفت طريقة استعمارهم الا أن الهدف والنتائج كانت واحدة · واذا كنا لا نستطيع هنا دراسة كل منطقة مستعمرة على حدة تبعا للبلد الاوروبى الذى استعمرها فلنأخذ المناطق التى استعمرها الفرنسيون كمثال فقط . وهذا يعطينا صورة عن التطورات الجديدة بصورة عامة وعن الاساليب العلمية التى اتبعت للوصول الى الاهداف المرسومة لبلوغ تلك التطورات والتمكين لها ·

التأثيرات الجديدة للفرنسيين فى مستعمراتهم الافريقية وأساليبها العملية

1) الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الاسباب التى أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة فى افريقيا الغربية يمكن اعتباره فى صميم الموضوع ، ذلك أنه فى خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المائوية ضعيفة فانه استطاع أن يركن للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيرى بها فى كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية فى افريقيا الغربية والمدارية (3) واذكر بهذه المناسبة أنه فى مؤتمر المؤرخين الافريقيين الذى انعقد فى تم

---

(2) A I Marcel Chailley Histoire de l'Afrique Occidentale Française Paris 1968, p 32-37

(3) عرف عن الاستعمار الفرنسى دائما الاسلوب المباشر فى حكم المستعمرات وفى مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية فى المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب ، كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباط وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة) المزج أو الادماج · Assimilation

راجع : D Bouche Histoire de l'ENS. A O F Universite de Nancy. 1974

ديسمبر من سنة 1975 في ياوندي عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفي افريقيا وخاصة الفرنسية والاستوائية . وكان هناك بحث قدمه احد الاساتذة السيحريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي نحو المناطق الخاضعة للاستعمار الانكليزي . ورغم أن الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المتبعة . الا انه حين انتقل الباحث الى الحديث عن الاسباب المتمثلة في طبيعة الاستعمار الفرنسي من حيث كونه استعمارا مباشرا كان قد صايق الاهالي وخاصة في دواعي المرح Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة . ثار الكثيرون في شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعي قدحا في الاستعمار الفرنسي لصالح الاستعمار الانكليزي .

ويوجد الآن في افريقيا الفرنسية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية . ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية كما هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين .

ويتم تعيين المتخرجين الجدد من الجامعات بافريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقون الاشعار بالمرقبة من طرف الجامعات الفرنسية وبعض المعاهد العليا الفرنسية . ولا يقبل الا عدد محدود من الطلبة الافارقة في المدارس العليا الفرنسية . وهذا يعني ان الطلبة الافارقة الذين يحكمون افريقيا الغربية السابقين في كونهم قد اكتسبوا الثقافة الفرنسية والتربية المسيحية بدرجة كافية (1) . والواقع ان اللغة العربية كانت لغة افريقيا الغربية والمدارس حتى الحرب العالمية الاولى . ولعل اول عمل رسمي لايقاف نهائيا كان هو المرسوم الذي اصدره حاكم افريقيا الغربية في سنة 1911 والقاضي بتحريم التدريس بالعربية في المحاكم منذ ذلك التاريخ (2) .

لقد كان للوجود الفرنسي في سواحل افريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر واكب العمل المنظم ضد وجود الغير وأحلال الفرنسية محلها ابتدا مع بداية القرن العشرين . ويعود للاستاذ جورج هاردي G. Hardy الفضل الكبير في اعطاء الطابع الحقيقي لاهداف التربية والثقافة الفرنسية في افريقيا الغربية . فقد جاء مهتما للتعليم في تلك المستعمرات في ظروف صعبة عرفت بحرب الكونغو الاولى . ووجد عدد الغير لا يفي سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمين الذين يدرسون بها ويعيشون من اقربة في جميع

(1) الاستاذ هاربحريفس Hargrave في تاريخ المستعمرات الفرنسية في افريقيا استنتاجاته التأثر الديني . أنظر كتابه

(2) Circulaire du Gouverneur général [illegible] 5 mai 1911

الظلام حينما يفرض وجود المدرسة في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الاعمال ضد تعليم الافريقيين لان ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظة في المستقبل قد تؤدى الى الفوضى والضرر بالمصالح التي يجنونها من مستعمراتهم، ولكن هاردى وجد من الحكام العامين آذانا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد الشاسعة وأعطى للمعلمين كل المساعدة وراح يختار ذوى الخبرة من بينهم وذوى الجرأة والصبر وقوة العزيمة .. واعتبر هاردى أن تعليم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التي ستربط البلاد نهائيا بفرنسا ، وانه يجب أن يكون عبارة عن فتح أخلاقي وثقافي، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوى معرفة على الشكل الكلاسيكي في أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء متلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا في الاطوار النهائية ، وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية . ويدرس فيه النبات في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وافريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى م هذا التعليم الاولوية لكل ما تحتوى عل فرنسا من ضروب التقدم والرقي (0)

ويرى هاردى أن جميع الخريجين م الافارقة يجب أن يضمن لهم مجال العم حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا ء ذلك فقد عين هاردى ولاول مرة ، معلم افريقيين من بين الخريجين ، وفي سن 1916 أرسل عددا من الخريجين الذين يستعملوا في التعليم الى الدار البيض في المغرب الاقصى حيث هيئت لهم وظائف .

2) المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية م افريقيا الغربية طابعها النهائى من بدايات الحرب العالمية الاولى ، ولك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في مست افريقيا وخاصة في الجزائر ، ومنذ بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعه النهائى في افريقيا الغربية كان في ك البلاد عدد كبير من المدارس العربية قد تأسست في الماضي وبعضها كان ذ شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرسة تمبكتو وجنى اللتين بلغتا درجة الجامع في أيام الاسقيين على الخصوص . ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق هذه المدارس التي انتشرت لها فروع في

(0) Georges Hardy . Une conquête morale, l'enseignement en A.O.F. Paris (A Colin) 1917

عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم ابدا تركها تؤدى دورها كما كانت تعمل في الماضي ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، فقد ركز الفرنسيون اهتمامهم على حلب ابناء الوجهاء والعائلات الشهيرة في المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسي منذ الصغر . اما التعليم في تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردى دواعيه بقوله (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد في غرب افريقيا كما هي الجزائر وتونس والمغرب الاقصى ثقافة اسلامية وذلك يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التي سبقت وجود حضارتنا ، وأيضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسي فقد كان علينا ان نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمي للاسلام واللغة العربية بحيث يكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الاولى وقبول الثانية (7) .

لقد كانت كل مدرسة عربية ـ فرنسية Ecole franco arabe او مدرسة Medersa كما كانت تسمى أيضا ، تؤدى خدمة لانتشار الفرنسية على حساب اللغة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا . ويتحدث هاردى عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ـ عربية . يأخذ فيها اللسان الفرنسي والعلوم الفرنسية بالناصية أكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة وأصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية، وبهذا امكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية ثم يستطرد هاردى الى القول

« ومن ناحية اخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون أصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل يستطيع القول بأنها أصبحت لا تؤدى أكثر من رموز وذكريات في استعمال الزمن ، وقد احتلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة ، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ في برنامج المدارس الفرنسية ـ العربية اكثر من الدور والمكانة التي تحتلها اللغات الاجنبية في الثانويات الفرنسية » (8) .

وبالاضافة الى هذا فقد الحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ـ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردى « لانه يوجد احيانا خلط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الافريقية ، ذلك ان مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطني ، وطلابنا في الغرب الافريقي تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية اقل بكثير من تلك المناسبات التي يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (9) .

---

(7) Hardy, Op Cité, p 108 (8) Ibid, p 110 (9) Ibid

وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم، فهم مساعدو الادارة الفرنسية ى شئون الاهالى وخاصة الحالات ذات لصبغة التقليدية والعائلية . وفى هذه لوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة لتى طبقوها فى شمال افريقيا على ريجي المدارس الفرنسية ـ العربية ، قد عبر هاردى بكل وضوح عنى الدور لخاص لخريجي المدارس الفرنسية ـ العربية كما كانت تستدعيه المصلحة لفرنسية بقوله ·

« ··· وبما أن مدارسنا تستهدف لتصاق الطلبة بالتراب . وتعويدهم على لعمل اليدوى أو تحصير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد الاشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ـ العربية تكون بصورة عامة مترجمين سمسرين قصاة أو كتاب ضبط للمحاكم لاهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية لاهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين ادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من ضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسى راءة وكلاما ، ومن الضرورة كذلك ان كونوا على معرفة جيدة بأغراضنا حضارية ··· » (10) ·

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون فى لجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم فى افريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين أفراد تلك الطبقة وجعلوا تعليم أولادهم وفق المخطط الفرنسى فى المدارس الفرنسية ـ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردى هذه الحقيقة أكثر فيقول

« بما أنه من المفروض أن المدارس الفرنسية ـ العربية لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتلىء الا بالنخبة الاجتماعية ·· وهذا يعني استعمال الطبقات الارستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات فى هذه البلدان الجديدة كضمانات حديدة ··· ومن ناحية أخرى فان المدارس الفرنسية ـ العربية التلاث فى افريقيا العربية انما هي فى الواقع وقبل كل شيء مدارس لابناء وبنات الوجهاء . ان مدرسة تمبكتو التى هي أكثر شبها بمدرسة الجزائر قد أقيمت فى منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالى تستقبل ابناء الامراء والعلماء المشهورين فى حوض النيجر (11) · أما مدرسة بوتليميت (12) التى وصعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (13) فهي تجمع أحفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان

(10) Hardy Loc cite p 111

(11) تقع تمبكتو فى الشمال الشرقى من مالى الحالية ·

(12) فى الجنوب الموريطانى ·

(13) الشيخ سيدنا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل وله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Stewart, The Role of *Skaykh* Sidiyya and the gadiriyya in soutern Mauritar P H D thesis 1970 . Massigon « Bibliothèque d'un marabout, le cheik Sidia » *Revue Africa* 1921

آباؤهم قد لعبوا ادوارا مهمة في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي ... وتعتبر مدرسة سان لويس اكثر أهمية وهي تمتلئ بشروط مماثلة ، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الاولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والسرس والمانديغ والسراكوليين والدمبارا (14) . وهناك طالب على الاقل من ابناء الملوك السابقين في الناحية .. كما تأوي هذه المدرسة الابناء الثلاثة لسلطان وصاي السابق الذين بعد أن امضوا بعض الاشهر في ثانوية الجزائر قدر الحاكم العام لافريقيا الاستوائية الفرنسية أن يعهد بهم الينا (15) وينتهي هاردي الى النتيجة التالية :

« ان هذه المدارس الثلاث بعد أن تحولت وفق أهداف محددة لافريقيا الغربية الفرنسية .. تستحق البقاء وهي الى جانب المدارس الاخرى تكفي لان تهيء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين » (16) .

3) التاريـــــخ :

في سنة 1912 صرح نائب لاليه l'Allier في الجمعية الوطنية الفرنسية السيد Peyronnet بيروني لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales coloniales قائلا « ان هناك مادة أريد أن أرى اختفاءها دون تأسف الا وهي مادة التاريخ ويكفي أن تعوض أثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطي لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا » (17) . وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية في البرامج المخصصة لمدارسهم في افريقيا الغربية بكل دقة . فكانت فكرة هاردي تقتضي تدريس التاريخ وفق الاهداف التي تبرر الوجود والاحتلال الفرنسي للمنطقة بل وتؤدي الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه . ولتجسيم هذه الفكرة يقرر هاردي : المعلم الفرنسي يجب أن يوضع في قسم يتخلله خطوط متشابكة لتجسيم المدفع الذي عياره 75 مم . وذلك هو التاريخ . فان اضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع في تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الاهالي القابلة للخوارق . وعلى حد تعبيره فان تدريس التاريخ في المستعمرات يجب أن يبتعد عن أي تأثير كان قد عرفه ميشلي Michelet (18) .

لقد كانت الادارة الفرنسية في حاجة الى دراسة الاهالي نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم . وقد كان لرؤساء

(14) أسماء للقبائل الكبيرة والهامة في غرب افريقيا .

(15) Hardy, op. cite p. 112

(16) Hardy, op. cite pp. 112-115

(17) Annales coloniales 1912, p. 37

(18) هو أحد أصحاب النظريات الفلسفية المشهورين كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة في كتابة التاريخ .

الاقسام العسكرية chefs des cercles militaires منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذى يجب أن يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من أشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الاسلوب مارتى : Marty وموريس دولافوس Maurice Delafosse

ففى حين كان الاول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسى فيما يكتبه كان الثانى حاكما لاعالى السنغال والنيجر ثم انتصب أستاذا (حجة) فى تاريخ افريقيا الغربية بباريس ·· ووفق طريقهما أصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة الفرنسية بافريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها أحيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (19) · ولا يزال لهذه المدرسة اثرها القوي فى فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب افريقيا الغربية الآن أو الاشراف على رسائلهم أمثال Hubert des Pamps هيردى شامب Eves Personnes وايفى بيرسون فى جامعة باريس ، وتضع هذه المدرسة كاساس الطريقة الاثنولوجية نصب اعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل و تنقلاتها التاريخية بين الشمال والجنو وتفسرها علاقاتها بالعرب أنها كان لا تتجاوز فى نوعيتها العلاقة الاستغلا التجارية فى أبشع صورها وخاصة تجا الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البدا قد قطعت الصلات الانسانية بين افريق الغربية وشمالها · وكونت وحدات خي المهارة (أو الجمال السريعة) لمراقب الحدود وانهاء حركة القوافل القديم وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق التوا وبقيت هذه التوصعية قائمة حتى استقلا كل من شمال افريقيا وغربها ، وانت هذه الحقبة الطويلة التى استمرت حوا نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليد سودانية خاص فى مجال الديانة ، وذلك بالتدخل المباش والتمكين لنظام المريدين فى الطريق التيجانية أن يصبح هو السائد ، أما العناصر التى عارضت وعلى رأسها رجا الطريقة القادرية فقد قضى عليهم بمختل الاساليب ، ومنها العنف

4) الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عص الجهاد فى افريقيا الغربية (20) وقد خضوعها للاحتلال الفرنسى فى اخ

(19) C.F Paul Marty Etudes sur l'Islam et les tribus du Soudan, Paris 1918 ; Maurice Delatosse Les Noirs de l'Afrique, Paris 1921.

(20) عن حركة الجهاد هذه يراجع بصورة خاصة

H.F.C Smith « Anglected theme of west African History » Journal of African Society of Nigeria, vol 2, 1961, p 184 FF

دلت القرن ، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية ، كانت أهدافها

1) ـ اصلاح وضعية المسلمين في بلادهم عن طريق احياء الاسلام في النفوس وتكوين دول حسب مفهوم العقيدة الصحيح .

2) ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

3) ـ ربط صلات قوية مع العالم الاسلامي وخاصة في شمال افريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا أن الخلافات التي رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها اثر عكسي خاصة في مناطق نهري النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال ورعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منذ البداية فعمل احمد الكاي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بأن الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته أحمد الاحتلال الفرنسي أو الانتداب بكل الوسائل

ولما بدأ الفرنسيون في التمادينات من دلك القرن تنفيذ مخططهم التوسعي باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم في سان لويس كان من أشهر من حاربوهم الشيخ ساموري في غينيا بكل تصميم وصراوة . وانشاء دولة مستقلة تشبه الدولة التي كان قد أسسها الامير عبد القادر الجزائري لمواجهة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين . ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين اكثر فتمكنوا من احتلال كامل افريقيا الغربية مع بداية القرن العشرين بفضل السلاح (21) . وقد رفض السكان التجنيد الاجباري رفضا مطلقا في البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في افريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم في شمال افريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامي لديهم من انه لا يجوز التجنيد في جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية انذاك قد قررت وقرر تجنيد ابناء المستعمرات استعدادا الحرب العالمية الاولى ، فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الاهالي ، فاستاجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الاولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فاعطت وعودا بتصليح أوضاع السكان في المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاص الاهالي تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم ارضيته الثقافية على الخط الفرنسي . ولكن كانت لا تزال تقف امامه حواجز الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين السباب الذين

(21) Jean Suret Canal Afrique Noire Paris, 1936 pp 123 87

أخذ ثقافتهم وأراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الاهداف ، ولذلك كانت مطالب الممثلين الافريقيين فى الجمعية الوطنية الفرنسية التى تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الاهالى (أنديجينا) ·

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائرى المعتدل فى الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائرى ، وفان ميقان أبيثى Migan Apithy الذى كان ممثل منطقة الداهوس ـ طوغو (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا أن نقحم انفسنا فيما هو اساسا قضايا الوطن الام ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر) ، تم أراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا (ان الافريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسى فى القضايا التى تهم الجميع ، هذا الجميع الذى نكونه معهم) (22) · وربما يعتبر ميقان أكثر الممثلين من افريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض الممثلين من الشمال الافريقى وزعماء افريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزى الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذا الاستقلال ، وفى غير ذلك فقد الواقعية هي أبرز سمة ارتبط بها نواب الغرب الافريقى فى الجمعية ا الفرنسية (23) · فحينما لوحظ الامتعاض من طرف النواب الفر من مطالبة عباس فرحات بالحك المحلية ضمن الاتحاد الفرنسى فى انبرى Apithy ليخاطب النواب الفر قائلا (بالتاكيد فان بعض رفا طالب بالاستقلال فى اطار الاتح الفرنسى للبلدان التى يمثلونها هذا لا يتعارض مع المبادىء التى قد قبلتموها انتم أنفسكم وأكدتمو أحيان كثيرة) (24) · وحينما تم المشروع الاول للدستور من المنتخبين الفرنسيين لانه كان يتض بعض مبادىء للمساواة بالرغ المستعمرات فان ياسين دبالو ، يمثل غينيا) انه فيما يختص بالاد فان الدستور المقترح قد ادى رضا الرضى الكامل) (25) ·

حينما أعلنت نتائج الانتخابا افريقيا الغربية بعد نهاية الحرب ا الثانية لم يفز بها غير بعض المثق فى المدارس الفرنسية وكان للادارة

---

(22) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب الممثلين الافريقيين الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

Morgenthau Political partie in Franch Speaking west Africa, Oxford 1964.
Mortimer, France and the Africans, London, 1969.

(23) Ibid

(24) A Tayi and Crowder (eds), Historv of west Africa, v 2, London 1964, 664 FF

(25) Journal Officiel, débats 2e session, 18 septembre 1946, p. 474 FF.

دورها على كل حال . ومنطقيا كان يمكن لنائب ان يؤدي دوره في الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الاشكال عبر اللغة الفرنسية . ولقد كان نواب العرب الافريقي حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا . وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب العرب الافريقي جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكي الفرنسي او للحزب الشيوعي الفرنسي . وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس في حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية، ووجدوا في الحزبين الشيوعي والاشتراكي قبولا للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين . ولم يكن من هم نواب العرب الافريقي غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجدوا في البرلمان الفرنسي خطرا واضحا تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار الممثلة للمستعمرات . وهذا حتى يجدوا، كغيرهم، بعض التضامن (26) . ولقد ضمت كتلة النواب لعرب افريقيا الفرنسية انذاك ثمانين مسلمين من مجموع ستة نواب، وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له ابدا علاقة نسبية بالدين . ففي منطقة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحي المتدين والذي لم يعش في السنغال منذ 1928 حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمين غاي . ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الاخرى وهي تمثل اكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت لينسجم هو الآخر مع الوازع الديني . وكان هذا اتجاها جديدا لم تكن لتعرفه افريقيا الغربية على هذه الصورة في سنة 1900 مثلا ولا في السنوات التي بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجباري منذ سنة 1912، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية في فترة ما بين الحربين اخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الذي مثلته نخبة ضئيلة العدد . ولكنها كانت شديدة الاثر لدرجة انها جعلت النخبة القديمة المتمثلة في شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها . والحقيقة ان الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير في انتقاء افراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد، اما المناهضون فقد اكلتهم فترة الجهاد الاولى وقضى على انصارهم وتشتت احفادهم تحت نير الفاقة . وبقي المناصرون الذين ازداد عددهم بفعل التجهيز واعطاء الاولوية في كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا اهداف الادارة مقابل آبهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا في ظلها .

(26) Marcel Chailley Histoire de l'Afrique Occidentale, Paris 1968, pp 474 FF

5) التعليم الديني الفرنسي :

لم يكن في افريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون افارقة، وهذا باستثناء افراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الاهليات في سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الاولى للجاليات المسيحية من الاهالى في عدة مناطق هي .

1) ـ بلدية السنغال (سان لويس، داكار ، كورى ، رونسيكوتياز) ·

2) ـ في الكازا مانس (السنغال الجنوبى) ·

3) ـ في أعالى السنغال والنيجر (أفراد قلائل من قبائل البمبار أو الموسى في سيغو بصورة خاصة) ·

4) ـ بعض الافراد في باقاس بغينيا·

5) ـ في ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) ·

6) ـ في الداهومى (في الجنوب الغربى من ذلك الاقليم) ·

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح في مدة أربعين عاما ، وقد وجدت ثمارها الاولى في المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا (27) · والحقيقة أن الفرنسيين في افريقيا كما في غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرا قول غمبتا Gambetta ذلك السياس الفرنسى الشهير : (ان مناهضة أعما الكنيسة يجب أن لا تكون مادة للتصدير ذلك أن التبشير كان قد منع في فرنس منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنس في المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمد كبيرا . وكانت مدارس المبشريين في افريقيا الغربية قد سبقت الى الوجو قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فق كانت المدارس التبشيرية واستمرت طب عهود الاحتلال تنفق عليها الادا الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذ حسب تعبير هاردى (لانه يكون من غي الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنس العميق الذى يؤديه المبشرون (28) ·

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسى ، ولكنه سمح للبروتستانت أيضا بالعمل ، وكان نسبة الكاثوليك الى البروتيستانت بين الاهالى المتنصرين هي الغالبة منذ البداية · وبالرغم من أن مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (29) ، كانت في ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة (لا فجرى) التي كان قد جربها في الجزائر ، وهي تعتمد

(27) Hardy, op. cit., p. 319.

(28) Ibid, p. 320.

(29) Les écoles des marabouts.

لـ اليتامى واقتناص مناطق المجاعات تصير بعض الافراد من بين المسلمين الهروب بهم او عزلهم من المناطـــق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا الاسلام (30) ، ثم مال المبشرون في هذا الاتجاه الى الاعمال الاجتماعية ممـــا [illegible] مهمتهم للاستقرار والانتشار في جميع المناطق ، وهذه الطريقة هي التي [illegible] يسير عليها المبشرون في افريقيا الغربية ، واغلبهم فرنسيون ، حـــتى [illegible] (31)

[illegible] سخرت الادارة الفرنسية في [illegible] الدين لخدمة اهدافها واستخدمت [illegible] لنشر اللغة الفرنسية واستفادت [illegible] الاسماء التي كان يحصل عليها

الافراد من التعاون مع تلك الادارة القضاء على اللغة العربية وتمكنت في [illegible] من [illegible] من خلق طبقـــات جديدة تدور الى اهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الاخبار السابقة ، [illegible] عمر كبير لا يمكن للمؤرخ أن لا يلاحظ [illegible] التي بذلها الفرنسيون [illegible] واخيرا [illegible] لا [illegible] هذا البحث احاطه بموضوع [illegible] الذي نحن بصدده، [illegible] هو الهدف الذي كتب من [illegible] الموضوع [illegible] الشباب [illegible] لن [illegible] العمل .

[illegible] Marty [illegible] maraboutiques du Sénégal [illegible]

(31) [illegible] من التفاصيل [illegible] طريقة الكاردينال لافيجري [illegible] بصورة خاصة [illegible] 1881

تأملات فلسفيَّة في الذكرى الهجريَّة

د. أحمد بن نعمان

اذا كان الزمان وليد الحركه ، فالحركه لا تدرك الا فى المكان ومن هنا كان ارتباط الزمان بالمكان · وعرف التاريخ لدى الانسان ، وكتب التاريخ عبر الزمان . وقوم المكان عبر الزمان وقوم الزمان عبر المكان ···

وعرف الانسان اللاحق ، ما كان عليه الانسان السابق ، وظل يأمل فى توقان الى تحقيق احسن ما ينبغى ان يكون على ضوء افضل ما كان ···

والزمان ازمنة والمكان امكنة. ··· فأي الامكنة نعنى وبأي الازمنة نعتنى ··

اما المكان فهو العالم الاسلامى ·· وأما الزمان فهو الزمان الهجرى ، أو التاريخ الاسلامى ··· والتاريخ ماض وحاضر ومستقبل . فالمستقبل والحاضر تاريخ بالقوة ، والماضى تاريخ بالفعل ··· فما هو مستقبل اليوم سيصير حاضرا غدا ، وما هو حاضر أمس سيصير ماضيا غدا ··· فلنقس ما هو قائم على ما هو قادم ، وما ولى وفات على ما هو آت ··· فالتاريخ انجاز فى الحياة بالحياة ومن الحياة وللحياة ··· والحياة حركة والحركة فعل ، والفعل المنظم تقدم ، والتقدم قوة ، والقوة بقاء ، والبقاء غايته الخلود ووسيلته وقوامه الاعتدال بين القول ، والفعل ، والعقل ، والعاطفه والدنيا والاخرة · فالانسان مادة وروح وفكر وجسد ··· وكما انه ليس بالخبز وحده يحيا الانسان فليس ـ أيضا ـ بالصوم وحده يقوى الجوعان ، ·· لان الحياة الانسانية السوية ـ كما نعتقد ـ هي عاملان متفاعلان ، متكاملان لدى الفرد فى الجماعة ، ولدى الجماعة

... الأمة . ولدى الامة فى التاريـــخ . ... فى التاريخ فى البقاء . والتاريخ الذى ... هنا . هو التاريخ الهجرى كمـا ...

... الوسطية . وهذا [illegible] فى [illegible] الاسلام هو ميزان التوازن [illegible] ... ولدى [illegible] فى [illegible] بعض المسلمين . فى عصرنا الحاضر . ... فى تاريخ المسلمين [illegible] بالفاجر والثائر ...

ومثلما كان الاسلام معتدلا فى نظرته للانسان . فهو وسط — ايضا — [illegible] الانسان [illegible] ناحية موحدة بين [illegible] الروح والدنيا والآخرة . [illegible] [illegible] روحانيته تجاه المادية التى [illegible] فى الديانة اليهودية بكل وضوح ارنا الله جهرة . فهو معتدل [illegible] تجاه الروحانية التى [illegible] فى الديانة المسيحية بكل وضوح — ايضا — فى (من ضربك على خدك الايسر فأعطه خدك الايمن) و (لا كهنوت فى الاسلام) فكل تقدم فى الحضارة الاسلامية كان سببه الاعتدال . وكل تدهور سببه التطرف والمغالاة فى جانب من جانبى الانسان . دون الآخر ... فاما مادة بلا روح وبلا ايمان . واما روح وايمان بلا مادة وبلا عمل ... وكلا الوضعين غير سليم ...

فالاسلام انتشر فى الآفاق وســــاد اقطار العالم . وشيد الحضارات الراقية فى المشرق والمغرب والاندلس [illegible]

الاعتدال [illegible] وتقهقر [illegible] [illegible] التطرف [illegible] [illegible] الحضارى والادبى ...

[illegible] بالعالم الاسلامى فى [illegible] فى [illegible] [illegible] على الروح والحس [illegible] [illegible] [illegible] هو [illegible] [illegible] فى [illegible] [illegible] [illegible]

[illegible] الى [illegible] فى الحياة [illegible] الأمم والحضارات المعاصرة .

[illegible] [illegible] فى [illegible] [illegible] الاسلامى الذين يحملون اسمه [illegible] تاريخيا وجغرافيا (...)

[illegible] هذا الوسط [illegible] الذى يعيش [illegible] الآن . فى [illegible] الحضارى الذى [illegible] بعض الاحداث [illegible] الحاضر (...) [illegible] الاحفاد [illegible] [illegible] [illegible] الذى كان [illegible] الاساسى للاحتلال الاجنبى الذى [illegible] الاحفاد الأول [illegible] التطرف لدى الاعداء [illegible] — الاعداء) [illegible] البقاء و [illegible] ...

ويشيد حضارته الراقية من خيرات اقطارنا الاسلامية الجامدة الراقدة ..

ولذلك لم يكن جلاء الاحتلال الشرقي، والغربي ، عن الارض الاسلامية ، في بداية نهاية منتصف هذا القرن .. الا بداية مشجعة تنم عن بوادر وعي قوية . بضرورة الاعتدال الذي حقق بعض المنال في الاستقلال ، وما يزال يتطلب المزيد من التعميق في أوساط الاجيال، الحاضرة والقادمة كي يتم التحرر الكامل من مخلفات الانحطاط الحضاري المولد للاحتلال الاستدماري . ولا شك ان بوادر التحرر الكامل موجودة بفضل عودة الوعي الفعال ، ورجوع الحلقة المفقودة في الاعتدال ، الا ان هذا الوعي الفئوي الذي انتشر في بعض الاقطار على يد الثوار لم يصل من الناحية الكمية الى القدر الذي من شأنه ان يعم كل الديار الاسلامية ، وكل شعوبها المستضعفة المتأففة !!

وهكذا نجد أن الاحتلال الاجنبي الذي انحسر عن حل الحقول الاسلامية . لم يخرج بعد من كل العقول الاسلامية ونعتقد أن احتلال الاراضي اقل تأثيرا وخطورة على مستقبل الشعوب المتحررة من احتلال العقول ...

لان احتلال الارض شيء مجسد في الواقع الملموس . وخارج عن ذوات المسلمين المجاهدين المحتلة ارضهم . مما يمكنهم من ادراك خطورته المباشرة عليهم ، ولمس أضراره المادية باليد والعين . قبل الفكر والذهن ، فيحفزهم الجوع والجهاد الاصغر . الى القضاء على العدو الاظهر ... وغالبا ما يتم للمسلمين القضاء عليه في الجولة الاولى بفضل الارادة القوية . ووحدة الصف . ووضوح الهدف ...

اما احتلال العقول الاسلامية (بالذات والروحية المغالية) فانه غير ملموس ولا ينتهي بالضرورة مع تحرير الاراضي في مرحلة الجهاد الاصغر ، والعدو الاظهر ... لانه كما تم متأخرا . فلن يخرج - ان خرج - من كل العقول الا متأخرا ...

وقد بدأ يخرج بفضل وعي الطبيعة الثائرة المثقفة ، ولكن خروجه من عقول كل الفئات المستضعفة ، المتخلفة ليس يسيرا ... لأن احتلال الروح واحتلال الفكر يصيب ذوات الاشخاص انفسهم فيجعلهم رغم الاستقلال يفكرون - دون شعور - بعقلية الاحتلال ، وقد يحققون في انفسهم ، بانفسهم ، من تكريس للتخلف ما يعجز المحتل التقليدي عن تحقيقه فيهم بالطرق الاكراهية التقليدية المباشرة ...

ويصبح القضاء على هذا الاحتلال النوعي الخطير من أعسر مهام الفئة المجاهدة المثقفة لان الخصم في هذه المرحلة من الجهاد الاكبر ، قد يكون هو الحكم (الاحمر ، أو الانور) في ذات الحين (!!) ولكن الانطلاقة موجودة وقوية ، وكما تحقق الاستقلال الاول

بعض الوعي الاسلامي الذي عم ربوع المسلمين ، وانار بعض عقول الغافلين، فنار الطريق امام اللاحقين الصادقين .. كذلك سيكون الوعي الاسلامي مفتاح التحرر للاذهان بعد الابدان والاوطان ... وعلى ضوء ما تم من تحرر للمسلمين في هذا القرن ، يحق لنا ان نتفاءل بمستقبل زاهر للمسلمين ما دام فيهم مؤمنون مجاهدون باليد والقلم ، واللسان ، في ميدان الصراع بين الاديان ، والعقائد السماوية (الخالصة) والارضية (المخلوقية) من اجل التحرر والتحضر ومن اجل المبدأ الاسلامي الفعال في المساواة والاعتدال بين عالم الغيب وعالم الشهادة ، وعالم المادة والانتاج والزيادة وعالم الشهادة والتخلق والعبادة ...

ولا نستبعد ان تتحقق نبوءة (برنارد شو) في ان يعم الدين الاسلامي اقطار العالم الاخرى ، الصغرى منها والكبرى (١١) وتدوم دولته في القرون القادمة ان لم يكن ذلك في نهاية هذا القرن ..

ونعتقد ان الاسلام سيبدأ في الضرب في الارض عمقا ، بعد ان ضرب أفقا ، والعمق والافق بعدان ضروريان متكاملان لبقاء الاسلام قويا في امان، وصالحا لكل زمان ومكان ، كما نص القرآن ، ولعل ما نشهده الان من اعتناق تلقائي وجماعي للاسلام في أوروبا واليابان ، ومن انتشار أفقي في امريكا وافريقيا ومن تعمق في الثورة الجزائرية السابقة الرائدة ، وثورات الافغان ، والباكستان ، وفلسطين ، والصحراء ، والفلبين اللاحقة الصاعدة الصامدة واخرها عملاقة الشعب الامام القاعدة ، المارده ، ذات الابعاد الثورية العالمية والاثار الايجابية ضد الذهنية التواكلية، الداعية للمحافظة ، على المصالح الامبريالية ، والانظمة الرجعية الاقطاعية ..

فتلك الثورات الاسلامية النموذجية هي المفتاح لكل قضية وهي الاساس في القياس لكل افلاس ، والموضح لكل التباس .. واذا عرف السبب بطل العجب ، واذا العجب على بعض المسلمين من العرب الغافلين الجائعين ، الخائفين ، الصابرين على الحرب والكلب واللعب (١١)

وكما وجب الاعتدال بين الدنيا والاخرة في الزمان ، وجب الاعتدال بين العقل والعاطفة في المكان على مستوى الكائن ، الانسان ، فالعقل والمنطق له دوره الفعال كما ان للعاطفة (والايمان بالغيب) دورها ، انصعب العقيدة ، عن المنال بالطعن فيها ارضاءا لطموح ، او جموح العقل ، مع تبدل الاحوال ...

فاذا كان الخالق المصور قد ميز الانسان بقدرات عقلية ، ومنطق جعله اهلا لحمل الامانة فذلك لانه قد خصه بتكليف في مستوى ذلك التشريف ...

ويشيد حضارته الراقية من خيرات اقطارنا الاسلامية الخامدة الراقدة ..

ولذلك لم يكن جلاء الاحتلال الشرقي، والغربي ، عن الارض الاسلامية ، في بداية نهاية منتصف هذا القرن .. الا بداية مشجعة تنم عن بوادر وعي قوية . بضرورة الاعتدال الذي حقق بعض المنال في الاستقلال ، وما يزال يتطلب المزيد من التعميق في أوساط الاجيال، الحاضرة والقادمة كي يتم التحرر الكامل من مخلفات الانحطاط الحضاري المولد للاحتلال الاستدماري . ولا شك ان بوادر التحرر الكامل موجودة بفضل عودة الوعي الفعال ، ورجوع الحلقة المفقودة في الاعتدال ، الا ان هذا الوعي الفتوى الذي انتشر في بعض الاقطار على يد الثوار لم يصل من الناحية الكمية الى القدر الذي من شأنه ان يعم كل الديار الاسلامية ، وكل شعوبها المستضعفة المتأففة ..

وهكذا نجد أن الاحتلال الاجنبي الذي انحسر عن جل الحقول الاسلامية . لم يخرج بعد من كل العقول الاسلامية ونعتقد ان احتلال الاراضي اقل تأثيرا وخطورة على مستقبل الشعوب المتحررة من احتلال العقول ...

لان احتلال الارض شيء محسد في الواقع الملموس . وخارج عن ذوات المسلمين المجاهدين المحتلة أرضهم . مما يمكنهم من ادراك خطورته المباشرة عليهم ، ولمس أضراره المادية باليد والعين ، قبل الفكر والذهن ، فيحفزهم الجوع والجهاد الاصغر . الى القضاء على العدو الاظهر ... وغالبا ما يتم للمسلمين القضاء عليه في الجولة الاولى بفضل الارادة القوية ، ووحدة الصف ، ووضوح الهدف ...

اما احتلال العقول الاسلامية (بالمادة والروحية المغالية) فانه غير ملموس ولا ينتهي بالضرورة مع تحرير الاراضي في مرحلة الجهاد الاصغر ، والعدو الاظهر .. لانه كما تم متأخرا . فلن يخرج – ان خرج – من كل العقول الا متأخرا ...

وقد بدأ يخرج بفضل وعي الطليعة الثائرة المثقفة ، ولكن خروجه من عقول كل الفئات المستضعفة ، المتخلفة ليس يسيرا ... لأن احتلال الروح واحتلال الفكر يصيب ذوات الاشخاص انفسهم فيجعلهم رغم الاستقلال يفكرون – دون شعور – بعقلية الاحتلال ، وقد يحققون في انفسهم ، بأنفسهم ، من تكريس للتخلف ما يعجز المحتل التقليدي عن تحقيقه فيهم بالطرق الاكراهية التقليدية المباشرة ...

ويصبح القضاء على هذا الاحتلال النوعي الخطير من أعسر مهام الفئة المجاهدة المثقفة لأن الخصم في هذه المرحلة من الجهاد الاكبر ، قد يكون هو الحكم (الاحمر ، أو الانور) في ذات الحين (!!) ولكن الانطلاقة موجودة وقوية ، وكما تحقق الاستقلال الاول

بعض الوعي الاسلامي الذي عم ربوع المسلمين ، وانار بعض عقول الغافلين، فسار الطريق امام اللاحقين الصادقين .. كذلك سيكون الوعي الاسلامي مفتاح التحرر للاذهان بعد الابدان والاوطان ... وعلى ضوء ما تم من تحرر للمسلمين في هذا القرن ، يحق لنا ان نتفاءل بمستقبل زاهر للمسلمين ما دام فيهم مؤمنون مجاهدون باليد والعلم . واللسان . في ميدان الصراع بين الاديان . والعقائد السماوية الخالقة ، والارضية (المخلوقية) من اجل التحرر والتحضر . ومن اجل المبدأ الاسلامي الفعال في المساواة والاعتدال بين عالم الغيب وعالم الشهادة . وعالم المادة والانتاج . والزيادة . وعالم الطهارة والتخلق والعبادة ...

ولا نستبعد ان نتحقق نبوءة (برنارد شو) في ان يعم الدين الاسلامي اقطار العالم الاخرى . الصغرى منها والكبرى (١١) وتدون دولته في القرون القادمة ان لم يكن ذلك في نهاية هذا القرن ..

ونعتقد ان الاسلام سيبدأ في الضرب في الارض عمقا ، بعد ان ضرب أفقا . والعمق والافق يعدان ضروريان متكاملان لبقاء الاسلام قويا في امان، وصالحا لكل زمان ومكان ، كما نص القرآن ولعل ما نشهده الآن من اعتناق تلقائي وجماعي للاسلام في أوروبا واليابان . ومن انتشار أفقي في أمريكا وافريقيا، ومن تعمق في الثورة الجزائرية السابقة الرائدة ، وثورات الافغان . والباكستان ، وفلسطين . والصحراء . والفلبين اللاحقة الصاعدة الصامدة وآخرها عملاقة الشعب الامام القاعدة الماردة ، ذات الابعاد التوريه العالمية والآثار الايجابية . ضد الدهشة التواكلية الداعية للمحافظة ، على المصالح الامبريالية ، والانظمة الرجعية الاقطاعية ..

فتلك الثورات الاسلامية النموذجية هي المفتاح لكل قضية . وهي الاساس في القياس لكل افلاس . والموضح لكل التباس ... واذا عرف السبب بطل العجب ، وازداد الغضب على بعض المسلمين ، من العرب الغافلين . الجائعين . الجائعين . الصابرين على الحرب . والكلب واللعب (١١)

وكما وجب الاعتدال بين الدنيا والآخرة ، في الزمان ، وجب الاعتدال بين العقل والعاطفة في المكان على مستوى الكائن . الانسان . فالعقل والمنطق له دوره الفعال كما ان للعاطفة (والايمان بالغيب) دورها لتصعب العقيدة . عن المثال بالطعن فيها ارضاءا لطموح أو جموح العقل . مع تبدل الاحوال ..

فاذا كان الخالق المصور قد ميز الانسان بقدرات عقلية . ومنطق جعله اهلا لحمل الامانة فذلك لانه قد خصه بتكليف في مستوى ذلك التشريف ...

والتكليف هو الامر بفعل الشيء . والنهي عن اتيان آخر لسبب يعلم الله سره ، ولا نعلم نحن الا ظاهره ... غير ان الانسان لما كان يتمتع بهذا الذكاء الذى حقق له انتصارا معتبرا فى عالم المادة والحس قد ظن متفائلا . وطموحا الى استكناه كل شيء محاولا اختراق حجب هذه المادة للنفاذ الى أسرار العالم الغيبى معتمدا فى ذلك على العقل والمنطق محكما اياه فى كل الامور حتى اننا لنلاحظ فى حياتنا اليومية أن أي شخص ـ عاقل ـ كلما اراد ان يقوم بعمل اختيارى حكم عقله ولا يقبله ـ حرا ـ الا بعد اقناع بفائدته العاجلة ، أو الآجلة ...

ولا شك ان تحكيم المنطق فى الشؤون الدنيوية أمر فى غاية الحكمة . الا ان نفس المنطق وحده لا يكفى فى الامور العقائدية الايمانية ، بل لابد فى هذه الاخيرة من وجدان متدفق وعاطفة قوية تكون لها الكلمة الاخيرة عندما يفقد العقل صوابه ، أو توازنه فى عالم الروح والماورائيات ..

وهنا نقف عند موقف العقل من التكاليف السماوية ذلك أنه كثيرا ما يحاول بعضنا ادراك السر أو الغاية من تحريم هذا الشيء او وجوب ذلك ...

ومن ذلك أن يحاول البعض ـ مثلا ـ معرفة السر من وجوب الصلاة والصيام والزكاة والحج ... وتحريم الخمر والزنا والربا والميسر ...

فان من يريد أن يمنطق هذه التكاليف ويحصر فائدتها المادية ، أو المعنوية يكون قد جانب الصواب اذا ادعى ان آلم بكل مقاصدها ، لان المحاولة المنطقية فى ذاتها ، وان كان دافعها مشروعا الا أن لها عواقب خطيرة بالنسبة للكثير من العقول المحدودة الافق ، حيث يرتد المنطق الى نحر المتعبد وسنسوق فيما يلى أمثلة لكل ذلك ولنبدأ بالصلاة .

فعندما نحاول أن نمنطق وجوب الصلاة على المسلم ، فنحصر فائدتها العلمية ، فى الطهارة والرياضة ، كقول البعض بأن الصلاة طهارة للابدان بحيث اغتسال المسلم ، خمس مرات فى اليوم وبالطهارة والنظافة ينجو الجسم من الامراض الكثيرة التى تكون تلك الاوساخ ، سببها المباشر ...

أو ان يقال ـ بحق ـ انها رياضة للنفس ، والبدن ، فتروض النفس وتنشط البدن ، وتقوى نشاط الدورة الدموية ... فاذا حصرنا الغاية من الصلاة فى هذه الفوائد العريضة ، فان المنطق سيعود علينا قائلا :

ما دام المقصود من الصلاة هو النظافة والرياضة البدنية ... فان الرياضيين الذين يتدربون مئات المرات فى اليوم ، وممارسى اليوجا الذين يركزون أذهانهم بعض الساعات فى اليوم وعمال الحمامات (التركية) الذين يغتسلون عشرات المرات فى

اليوم . هؤلاء ـ اذن ـ يسقط عنهم تكليف الصلاة لانهم يقومون بأعمال تفوق ما يقوم به المصلي (المواظب) الذى يصلي خمس مرات فى اليوم ...

فهذا جواب حتمى او استنتاج ضرورى . ينجم عن تحديدنا لغاية الصلاة بهذه الكيفية . والحقيقة ان الغاية الاساسية من وجوب الصلاة وان كانت من اغراضها ما ذكر » اعلى واعمق مما يمكن للعقل الانسانى ان يدرك او يشبه . بدافع الطموح او الغرور ..

اما الصيام فلا يقل حظا عن الصلاة، فى فلسفة الوجوب وحصر الغاية . وكثيرا ما نراه يفلسف من طرف بعض المجتهدين بانه ابتلاء من الله للاغنياء ليتساووا مع الفقراء فى الاحساس بألم الجوع فترق قلوبهم . ويعطفون على الفقراء والمساكين . فيتصدقون عليهم . وبالتالى تتحقق بعض المساواة ويسعد الجميع . لان سعادة الفرد لا تكتمل الا بسعادة المجتمع . الذى يعيش فيه ...

وهنا ايضا يرتد الينا منطقنا فيقول اذا كان الهدف الاساسى من وجوب الصيام هو استعطاف الاغنياء على الفقراء فمن الطبيعى ـ اذن ـ للفقراء الا يصوموا لانهم طوال السنة يشعرون بالجوع ويسبحون فى بحر من الحرمان. يهون أمامه الامساك عن الطعام فى أيام معدودات . أي بمعنى ان الفقراء لا تمسهم الحكمة من وجوب الصيام . لانهم هم محل العطف ومحور الصوم (١٩) . كما قد يأتى متمنطق آخر ويقول لنا فهل من الحتمى ان يكون فى المجتمع المسلم فقراء واغنياء . ليس من الممكن ان يصل المجتمع المسلم الى درجة من التقدم ينتفى معها وجود من يستحق الصدقة . والعطف هذا هو ملاحظ فى المجتمعات الاوروبية المتقدمة ... ..

وان كان هذا هو شأن منطق التكاليف فالمثال نفسه ينسحب على النواهى . والمحرمات فتحريم الخمر نجده يسطق لدى البعض . بانه مضر للجسد، والعقل، ومبذر للاموال ... فهذا صحيح .. ولكن الا نحتمل ان يعترض احد ويقول اذا كان السكر هو سبب تحريم الخمر فانا اشرب كذا وكذا . من زجاجات الخمر . ولا تحرك لى ساكنا فلماذا اعتبر مذنبا . طالما لم أسكر ولم الحق الضرر لا بنفسى ولا بالآخرين . ثم من الناحية المالية . فأنا غني والحمد لله (...) أما من ناحية الصحة فهى تقويني وتفتح شهيتي للاكل . وتدفئني فى البرد . ولا شك ان هذا منطق سليم ومؤكد لقوله تبارك وتعالى « **فيهما اثم كبير ومنافع للناس . واثمهما اكبر من نفعهما** » واحسن جواب للكف عن هذا المنطق هو هذه الآية . التى ترى المنفعة فى الخمر وتقر بوجودها ثم تدعو للكف عنها . باعتبار ان فيها اثما . والاثم شىء معنوى بالدرجة الاولى . وليس

بالضرورة أن يكون ضررا للجسد ، فهو أشبه بالاثم الذى يرتكبه تارك الصلاة ، أو النمام ، أو الراشى ، أو الكذاب ...

اما الزنا فقد لاحظناه يمنطق لدى بعض المجتهدين بأنه حث للناس على الزواج ، وتحمل مسؤولية الاولاد الناتجين عن الزواج ، بخلاف الاولاد الذين ينتجون عن اللقاءات المحرمة ... فهم يولدون مشردين ، ويصبحون عالة على المجتمع ... فهذا ولا شك اجتهاد صائب لتبرير بعض الاسباب الاجتماعية لتحريم الزنا ، أو لمشروعية تعدد الزوجات .. غير أن الخطأ كل الخطأ، أن نحصر السبب كله ، فى هذا التبرير، لان أحد العصاة سيأتى ويقول لنا نعم كان الزنا حرام فى الزمن الماضى، حينما كان الطب متأخرا . اما الآن مع تقدم العلم واكتشاف وسائل الوقاية من الحمل ، ذات المفعول القطعى ، ينتفى سبب تحريم الزنا ، لان اللقاء لا ينتج عنه أي أثر يتعدى نطاق الزانيين ...

والحقيقه انه رغم وجود العديد من الاسباب الاخرى الاجتماعية ، والنفسية، والصحية ، التى تبرر تحريم الزنا الا اننا لا نرى موجبا لذكرها فى هذا المقام لانها كلها فى النهاية ، يمكن ان نجد لمنطقها منطقا مضادا يبطل المبررات التى نوردها ، ونفس الشىء يقال على التكاليف الاخرى أو النواهى ، والمحرمات مثل الربا ، الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به الى آخره الا أن كل ما يمكن أن يصل اليه المجتهدون ، من تبريرات لهذه التكاليف او تلك المحرمات ، فانها ستظل دائما جزئية لا تعدو كونها مظهرا عمليا وفائدة عرضية من فوائد التكاليف فوائد الامتناع عن المعاصى ، لان سر التكاليف لا يعلمه الا المكلف نفسه .

ونحن فى هذه الحالة أشبه ما نكون بالشخص المريض الذى يذهب الى الطبيب ، فيعطيه وصفة دواء ، يصف له فيها أفعل هذا ولا تفعل ذاك ... فمن حق المريض ان يسأل عن مكونات الدواء الذى وصفه له ، وسبب وصفه له ، لان ذلك من احتصاصات الطبيب ولكن اذا صادف المريض ان وجد الدواء حلوا فى مذاقه ، فيظن انه وصف له من اجل ذلك الحلاوة (العارضة) التى قد يكون سبب وصفها ، هو تمرير (مذاق) الدواء الاساسى الصالح للجسد والذى غلف بطبقة من الحلوى ليسهل تجرعه ليس الا ...

وفى الاخير أود ألا يحسبن القارىء ان تناولى لهذا الموضوع هو محاولة صوفية أستهدف من ورائها الحط من قيمة العقل وعبقرية الذكاء الانسانى فانا من الذين يحترمون العقل ويعتمدون عليه كثيرا ، فى نطاق صلاحياته وحدوده الممتدة فى الزمان والمكان ، والمعتمد على القنوات المعرفية المتمثلة فى الحواس الخمس وعلى رأسها البصر

ولكن ليس كل ما لا يرى غير موجود ، وإذا كان من صلاحيات العقل أن يعقل وأن يستنتج ما يمكن أن يوجد وراء الظاهر المحسوس ، فإن الخطأ كل الخطأ أن يدعي معرفة كل ما لا يرى ، أو أن يتصور كل ما يعقل . فالعقل السليم من واجبه أن يقر بأن للوجود إلهاً ، أو قوة نسميها كما يشاء . ولكن خطأ الفاتن هو محاولة تصور حدود وكنه الشيء المعقول ، فذلك لا يأتي إلا بحاسة البصر . والبصر محدود ، محدود محدود .

والخلاصة أن للعقل حدوداً للتعقل ، لا يتجاوزها ، ولا ينبغي أن يستهان بالعقل في حدود إمكانيات التعقل ، ولكنه إذا تجاوز حدود صلاحياته ، ضاع في متاهات الغيب ، وعالم الروح ، التي يقول في حقها خالقها

«ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا» .

ومعنى الآية هنا **وما أوتيتم من العلم** يعني وما أوتيتم من (العقل) إلا قليلا .

ومن ثمة يتعين علينا أن نكمل هنا ذلك النقص (العقلي) بالعاطفة ، وبالتالي وجب التكامل ، والاعتدال في كل شيء حسب المظهر الإسلامي الذي اجتهدنا ، لإظهاره - بقدر المستطاع - في هذه الذكرى العطرة .

الفن الإسلامي
أصوله وخصائصه

الاستاذ صالح بن قربه

لقد وحد الاسلام العرب . وجعل منهم دولة كبيرة فى العصور الوسطى ، امتدت من الهند شرقا الى الاندلس غربا ، وجبال البرانس شمالا . الى المحيط الهندى جنوبا • وقامت على يدى الشعوب الاسلامية على اختلاف اجناسها . من عرب وفرس وروم وترك واقباط وبربر وغيرهم حضارة زاهرة . امتدت فى ربوع الاراضى الاسلامية المترامية الاطراف ، ونشرت اشعاعها الثقافى والفنى الى كثير من بلدان العالم • ولا يخفى علينا أن هذه الحضارة التى اقامها العرب بجميع مظاهرها السياسية والاجتماعية والاقتصادية لم تخلق فجأة بل سبقتها عوامل مختلفة داخلية وخارجية . مهدت امامها السبيل . وامتزج بعضها بالبعض الآخر . فلما جاءت الفتوحات الاسلامية أخذ هذا التمهيد وهذا التفاعل يظهر وينطور مع الايام فنعم بحياة الاستقرار والرخاء وانتشار الامن . نتج عن ذلك مظاهر جديدة-أتيح لها أن يزداد أثرها .

ونمه حقيقة هامه ينبغى ألا نغفلها وهى ان الاسلام لم يتخذ الفنون وسيله لدعوته وانتشاره واداه تعبدية كما فعلت المسيحيه فى فنون المسيحيين واليهودية فى فنون اليهود •

وكما يقول الاستاذ ابراهيم جمعه لقد كانت وسيلة دعوة الاسلام وانتشاره دائما منبعثة من صلب العقيدة . لا تحتاج الى الاستعانه بغير كتاب الله وسنة رسوله • وكان فيها الغناء . وذلك الى جانب قوة الحجة وفصاحه اللسان ونصوع البيان • ظل العرب المسلمون طوال قرنين من الزمان بعد الفتح يمارسون أعمال الولاية والسياسة والامامة والقضاء وغيرها من شؤون رعاية المجتمع الاسلامى فى أمور الدين والدنيا • ويتقاضون من ديوان العطاء

المال القليل الذي يكفي الحاجة حتى حرمهم الخليفة العباسي المأمون (*) من ذلك فاضطرت الغالبية العظمى من العرب المسلمين في البلدان المفتوحة الى النزول في معترك الحياة العامة يمارسون شتى المهن والحرف والصناعات .

ويسهمون في كل الاعمال بقدرات تنفي عنهم صنعة العجز في مجالات الفنون بدعوى شعوبية تقول بأن العرب من الجنس السامي الذي لا يحذق الفنون بخلاف الجنس الآري الذي وهب حذق الفن بالسليقة والطبع . وقد أثبتت الممارسة العملية أن العرب المسلمين لم يكونوا أقل من غيرهم مهارة وخبرة في هذه الميادين وقد برعوا فيها وبرزت منهم جماعات أجادت فنونا قائمة بذاتها وتفوقت فيها تاركة مجالات أخرى لغيرها

مما سبق يتضح ان العرب المسلمين قد انصرفوا عن ممارسة التصوير وتركوه للفرس والهنود والاتراك . واتجهوا الى الخطوط والزخارف . وقد شهد لهم تفوقهم في فنون الخط والزخرفة والفنون التطبيقية بدلا عن تفوقهم في فنون التصوير والنحت . ذلك لأن فن الخط العربي هو أسمى أشكال الفنون الفرعية في الحضارة الاسلامية (1) ولا يمكن ادراك او فهم الفن الاسلامي بدون فهم منزلة ودلالة تقاليد الخط .

ظهور الفن الاسلامي :

يعتبر الفن الاسلامي بجميع فروعه من أعظم وأجمل مظاهر الحضارة الاسلامية شأنا ونتساءل لماذا هذا التقدير كله ؟

والاجابة عن هذا السؤال تكمن في ان الفن الاسلامي يعتبر بحق من أوسع الفنون انتشارا ، وأطولها عمرا مع استثناء الفن الصيني كان مولده في القرن السابع الميلادي عندما شرع النبي صلى الله عليه وسلم في بناء مسجد المدينة المنورة . حيث أنشأ نمطا (2) جديدا في الفن المعماري . اذ اتخذ نموذجا في تصميم المساجد الاسلامية الجامعة فيما بعد .

وظل ينمو ويتطور حتى بلغ أوج عظمته في القرنين السابع والثامن

(*) تولى الخلافة العباسية من سنة 193 هـ الى 218 هـ . واشتهر بتشجيعه للعلم العلماء . وفي عصره ازدهرت حركة الترجمة والنقل .

(1) انظر David James : Islamicart an introduction Hamlyn, London 1974, p 16

(2) رسالة اليونسكو العدد 199 ـ السنة 1978 . ص 39 .

المخروطية (الثالث عشر والرابع عشر
الأندلس) .

... الفن الضعف والفقر لفتى
القرن الخامس عشر الميلادي وذلك
... الفنانون والصناع في العالم
الإسلامي بمصنوعات الفنون الغربية .
... على تقليدها وكانت النتيجة
... أساليب فنية ضعيفة ...
... إن الفن الإسلامي هو ...
... الناس أنفسهم بالاتقان ...
... السرعة في الإنتاج والاقتصاد
في النفقات مظهرا من مظاهر الحياة
الجديدة .

ولا نغرينا في هذا المجال ...
... الفن الإسلامي لم يكن هو ...
... كان للعرب فضل الإسلام ...
... محلي لنا فيما نعرف
... فنون تشكيلية ومعمارية .

لقد عرف العرب المخطاطون في
... الفن ... في قصورهم
... المدن . وإقامة الدور وبناء
... بالإضافة إلى فنون فرعية
... الكتابات المنقوشة التي ما زالت تشهد
على ذلك (3) .

... الفن ... في ... عظمة ...

... على ... الإسلامي ... ورمان
... القديمة ... فرعون و
... والفن المصور
في ...

... الإسلام
في ... الميلادي ...
... في موضوعاته وعمارته
... في
... لا يمكن
... لأن ... العرب
...
... أنه لا يمكن أن
... لأن عدد
... على ... التي
... افريقيا
والأندلس .

... هذا ... بالفن
العربي ... يكون قاصرا فقط
على الفن الإسلامي في المغرب والأندلس .
... الفن الإسلامي الفن
... أيضا

(3) المعالم الأثرية في البلاد العربية ... دالة المعرفة ...
... الثقافية ـ القاهرة 1970 ج 1 ص 197 وما بعدها

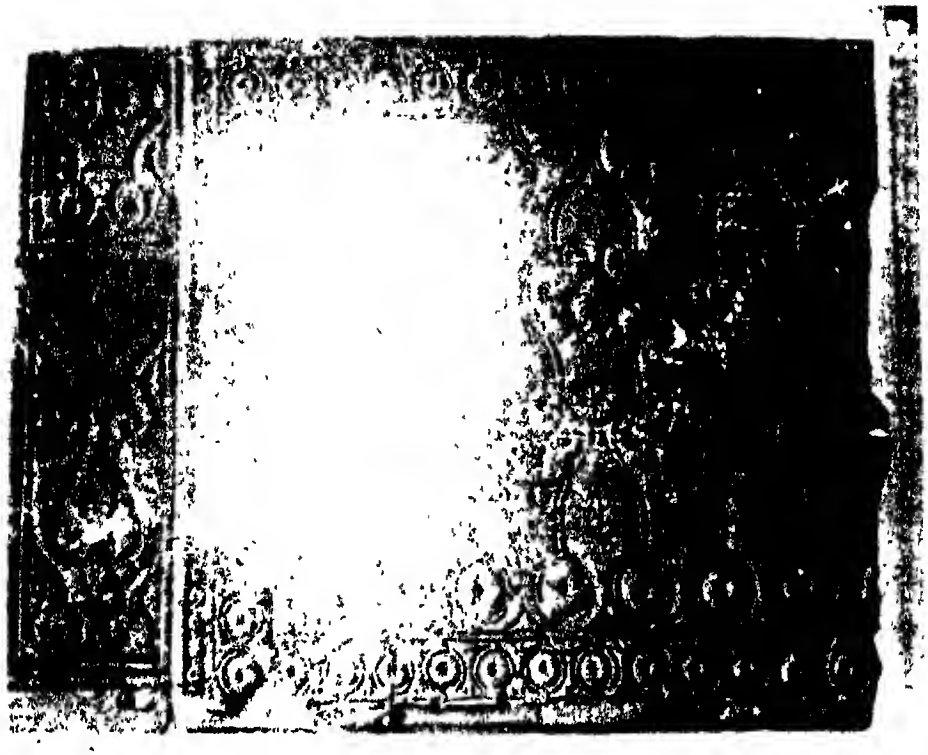

[illegible] المسلمون لا [illegible] الى الرسول صلى الله عليه وسلم . ظاهرة [illegible] وجانبا من جوانب الحضارة .

وخلاصة القول أن هذه التسميات [illegible] التي أعطيت للفن الاسلامي كلها [illegible] اسماء ليست جامعة [illegible] .

ونرى أن الاسم الشامل الجامع الذي [illegible] من خلاله وصف الفنون التي [illegible] وازدهرت في البلاد الاسلامية [illegible] هو الفن الاسلامي ذلك لان [illegible] الاسلامي [illegible] الجهات [illegible] على الرغم من [illegible]

[illegible]

أصول ومصادر الفن الاسلامي :

[illegible]

[illegible] في كتابه [illegible] معروضات [illegible] الاسلام [illegible] في [illegible] مصدر آخر [illegible] كان المسلمون [illegible] فانهم [illegible] العناصر روح الاسلام [illegible]

[illegible]

[illegible] الى [illegible] الاسلامي [illegible] الجمال عمارة [illegible]

(4) نقلا عن [illegible] الاعلى [illegible] العلوم الاجتماعية [illegible] 1968 ص 84 .

(5) حلقة الخط العربي ص 23 .

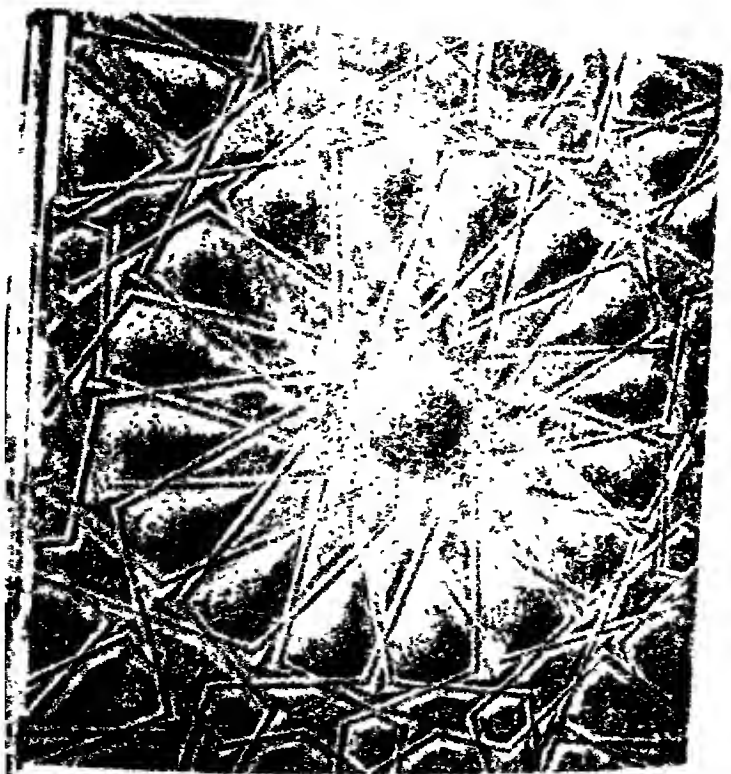

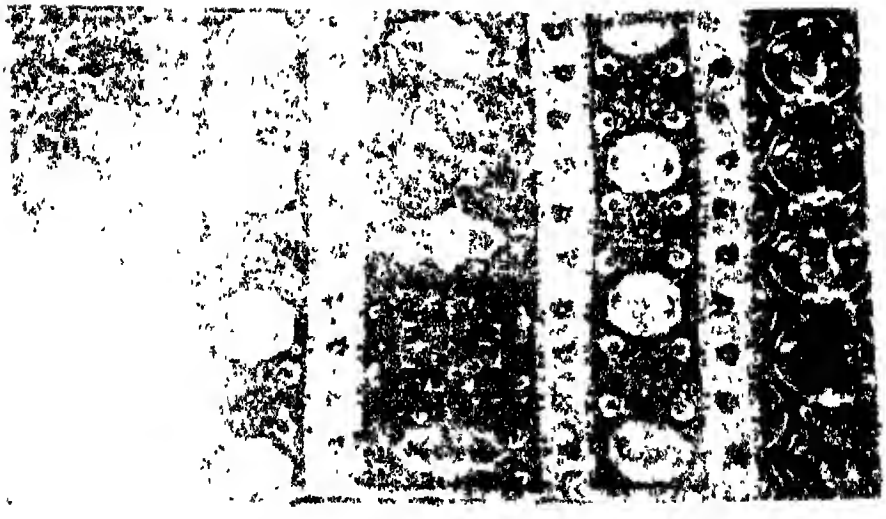

[illegible] التي عرفت فيما بعد [illegible]
[illegible] لمازيكة » .

[illegible] في هذه [illegible] الغالب [illegible] بالفسيفساء والرسوم [illegible] والادمية [illegible] [illegible] ولما آلت اوصاع بلاد [illegible] حوزة الدولة الرومانية منذ [illegible] القرن الثاني قبل الميلاد ثم [illegible] [illegible] وقد ظلت نفس الاساليب [illegible] [illegible] ذلك لان الفن الروماني [illegible] الآخر على أسس من الفن الاغريقي .

[illegible] الطراز العربي الاسلامي [illegible]

[illegible] (8) .

[illegible]

خصائص الفن المسيحي الاول

[illegible]

8) فريد شافعي [illegible] العمارة العربية في مصر الاسلامية [illegible] الهيئة المصرية العامة للتأليف [illegible] 1970 [illegible] ص 101 .

[illegible]

(لوحة ٩)

(لوحة ١٠)

... ذلك عاملا رئيسا ساعد على تطور ... لم يكن له أى تأثير على تخطيط المساجد ... العصر الاسلامى . منذ أول حقبة فى ... تطورها حتى القرن السادس عشر ... الميلادى كما لم يؤثر ذلك النموذج من ... تخطيط الكنائس فى العصر المسيحى ... المبكر ... العصر المتأخر على المساجد الا ... فى العصر العثمانى (9) .

وقد ... الفن الاسلامى ... الزخارف المسيحية المعروفة المحفورة ... فى العاج (10) والمجوهرات وعلى ... [illegible] المخطوطات التى ... [illegible]

[illegible] لان المسلمين ... [illegible] ... فى دمشق ... (11) ... [illegible] ... العصر ... [illegible] ... الاسلامى .

[illegible]

الفن الساسانى فى بلاد ايران والعراق

يعد العصر الساسانى (226 ـ 637 م) ... [illegible]

[illegible] (12) [illegible]

[illegible] 1958 ... 36 ...

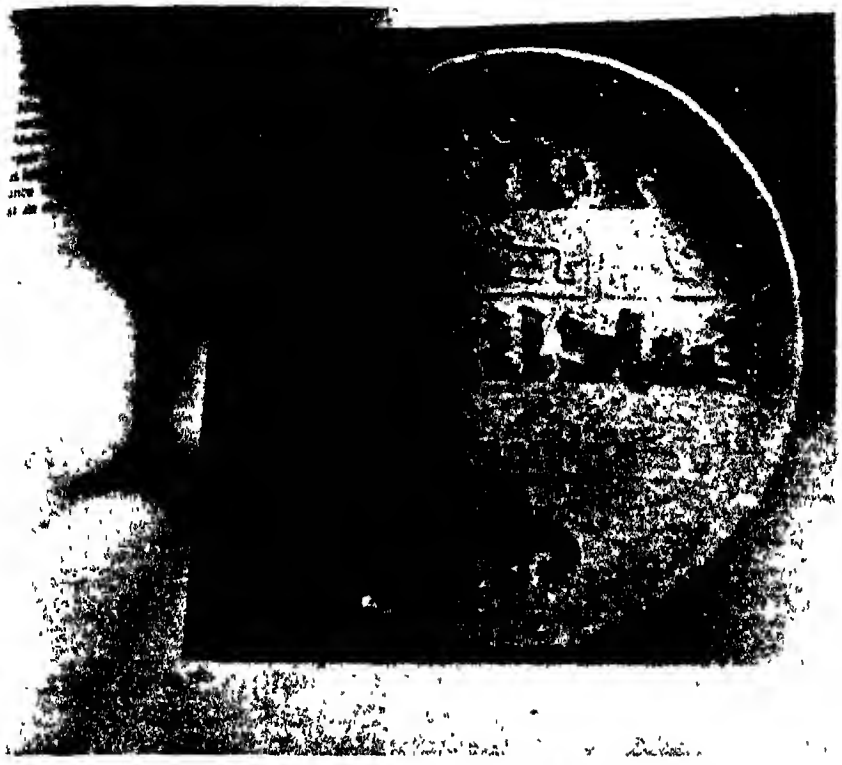

(لوحة 11)

(لوحة 12)

(لوحة 1) ومسجد القيروان ، وعلى ذلك يستطيع القول بالتطور الذى مس العنصر الساسانى الى العنصر الاسلامى فى حدث فى بعض الحالات أن قسس الفنان المسلم شكل المزوحه الساسانيه بدون تحوير • وابتكروا اشكالا جديده مجرده • أدى تطورها تدريجيا الى اسلوب زخرفى اسلامى أصيل •

ومن بين العناصر الزخرفيه التى استمها الفنانون المسلمون أيضا من الفن الساسانى ، الاشجار المحنيه •

ـ الحيوانات المحنطة •

ـ الحيوانات والصور الادميه سواء مستديره او منبعثه الارضيه ، ولكنها فى اطار من الزخارف النباتية •

ـ الحيوانات المتقابله (شكل 5) •

ـ استخدام الفنانين المسلمين للاشكال الادميه فى رسم العناصر الزخرفيه •

ـ رسم المشاهد والاحداث المختلفه مستمدون الموضوع والاسلوب من الفن الساسانى •

وقد تأثرت العمارة الاسلاميه بالعماره الساسانيه ، اذ استمدت العقود

13) فريد شافعى ، المرجع السابق ، ص 173 •

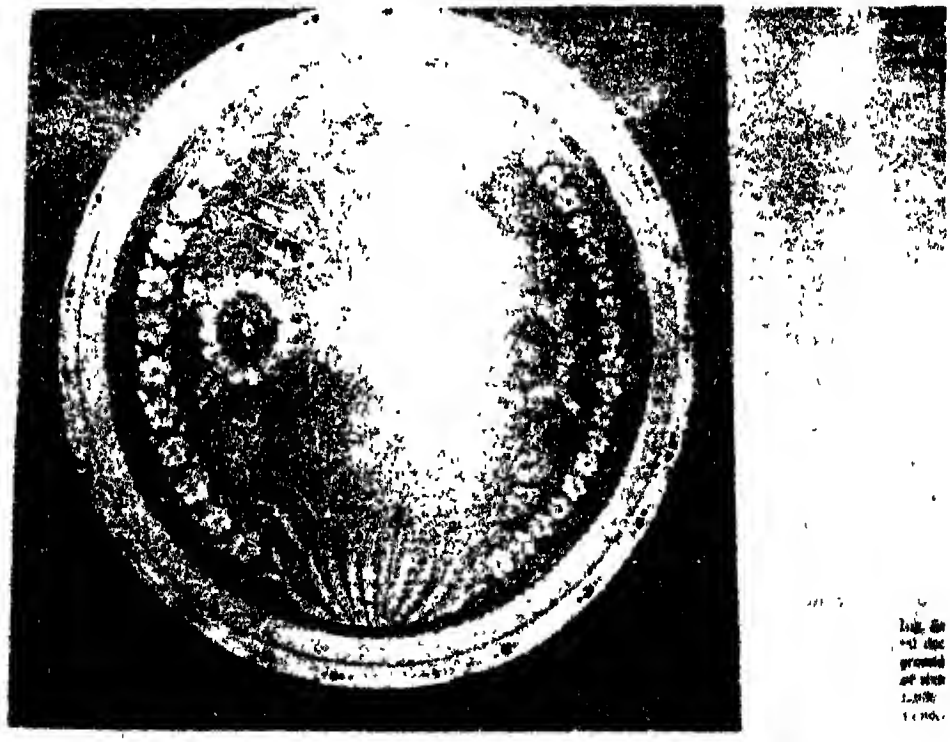

(لوحة ١٤)

يحمل الكثير ·

استخدام الحشوات او الدخلات في
وجهات مرصوصة بجوار بعضها ·

وجود نوع من الفن الاسلامي بالفسطاط
ما زال في الحرف (14) والمنسوجات
والسجاد المعدنية سواء من ناحية
الموضوعات الزخرفية او اشكال الاواني
وغيرها ومن المعروف ذكره ان
الفن الاسلامي الباكر قد اعتمد
على مصادر قبطية وغيرها

الفن القبطي والفن الساساني
يلاحظ استمرار التأثيرات الفنية في
الفن المصري وخاصة ما جاء الى حيث
في الاثار المعمارية المبكرة كالمسجد
في العسكر والمسجد الجامع بدمشق
وواجهته الشهيرة والتصاوير
الجدارية في قصير عمره وكلها ترجع الى
العصر الاموي ·

3) الفن القبطي في مصر :

يمكن تحديد عناصر الفن القبطي
بانها كلمة تطلق على الكنائس
المرعاتية في وادي النيل · لانه الفن
الوحيد الذي كان سائدا في مصر منذ
الفتح العربي لها اى الفترة المسيحية

من 313 م حتى الفتح العربي لمصر سنة
(639 م) (15) ·

وقد ساعد هذا الفن المصري على
وجود مدارس خاصة للفن القبطي
المتأثر بالاساليب الرومانية

وبالرغم من القبطي بانه من صنع
المصري · كان له في الحضارة والادب
والفنون في مصر دخلت المسيحية
ممثلة في الفن الرسمي في الدولة
الرومانية · والقبطي المسيحيون في
مصر · ويقصد بالفن القبطي
الفن الذي انتجه المصريون
المسيحيون ·

كذلك اتجه هذا الفن الى الزخارف
الهندسية والزخارف النباتية التي تتمثل في
اشكال الدوائر والمربعات والمعينات
في الفن القبطي والاغريقي والروماني
والمسيحي فكل واحدا حاملا ·

ـ نوع الاساليب الفنية التي تمثل
مزيج من عناصر الفن الاغريقي
الروماني بالاساطير الكلاسيكية القديمة
رسوم الوجوه ، وزينة الاكانثس الورقي
الفنون الحيوانات المتواجهة والمتدابرة
الاطارات المحلاة بالحشمات ، الخ ··

(14) انظر Marçais, G. L'Art musulman, t. 2, pp. 159-161

(15) تعمت اسماعيل علام ، فنون الشرق الاوسط من العصر الاغريقي حتى الفتح الاسلامي ـ دار المعارف بمصر 1975 ص 79 ـ 80 ·

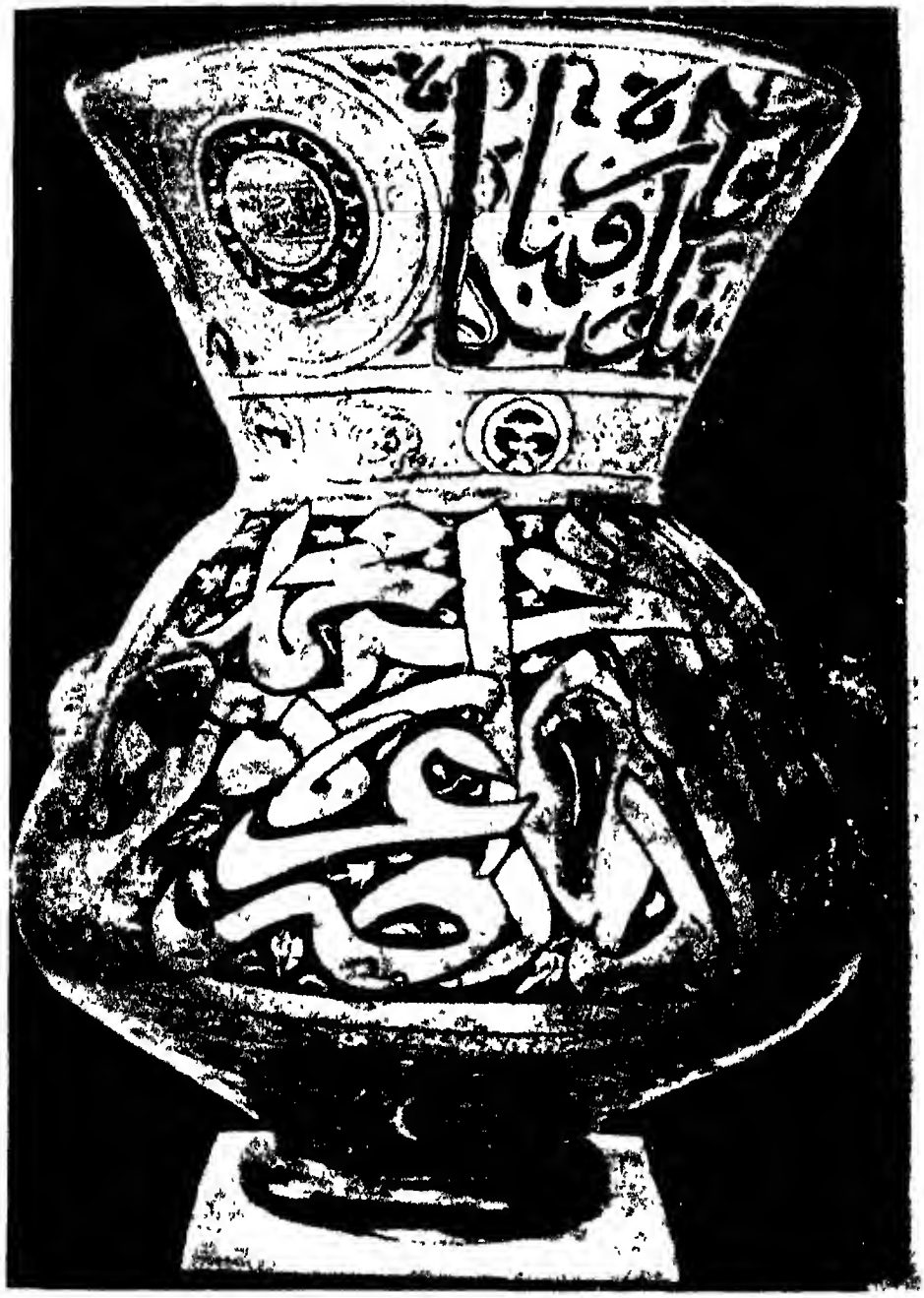

(لوحة 15)

ـ الاشكال على الزخارف المنحوته على الاحجار (16) ، ذات الفروع النباتية ويمكن اعتبارها مرحله انتقال بين الفروع النباتيه الفرعيه من الطبيعه في الفن الاغريقي الروماني وبين الفروع النباتيه المحوره عن الطبيعه في الفن الاسلامي .

والخلاصه التي نخرج بها هي ان الفن القبطي فن طابع زخرفي ، احتفظ بالزخارف النباتية التي ورثها عن الفن الهلنستي ولكنه حورها عن الطبيعه الى حد ما ، فكان بذلك مرحله ممهده الى التحوير الذي بلغ ذروته في الفن الاسلامي وبذلك يكون تاثير الفن القبطي على الفن الاسلامي أقل بكثير من تأثير الفن الفارسي . وانه لفهم نشأة التصوير الاسلامي في مصر ينبغي دراسة الفن القبطي .

1) الفن الهلنيستي البكتيري :

يعرف هذا الفن باسم الفن البكتيري نسبه الى اقليم باكتريا (افغانستان) ، حيث قامت في هذا الاقليم دولة يونانية تأثرت بفتوح الاسكندر الاكبر ، ويعرف كذلك بالفن الاغريقي البوذي .

[illegible] وبعضها ملامح الوجه والحركة والاحساس بالطبيعه . ويظهر التأثير الاغريقي في طريقة رسم الملابس وثنياتها ، ويلاحظ على هذا الفن بعض الصفات الهلنستية في رسوم الحيوانات والطيور ، ولذلك فان الفن القبطي الزخرفي والاسلامي مدين بعدد من زخارفه وعناصره .

2) فن قبائل البدو الرحل في سيناء والواحات :

[illegible] في كثير من الفنون الزخرفية الاسلامية وان الفن الاسلامي تأثر بفنون قبائل البدو الرحل وانه اكتسب عناصر واشكال زخرفية جديدة لم يعرفها الفن المسيحي المصري او الفن الساساني . وتم ذلك بفضل الاتصال بهذه القبائل وبهذه الاشكال الجديدة يمكن حصرها في الآتي :-

1 ـ طريقة الحفر المائل وقد ظهرت في زخارف الخشب والحشب في اوائل العصر العباسي والطولوني بمصر (شكل 4) .

(16) محمد اسماعيل علام ، فنون السرق الاوسط من العصر الاغريقي الى الفتح الاسلامي ص 82 ـ 83 .
ـ حسن الباشا ، في التصوير الاسلامي في مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 ص 25 .

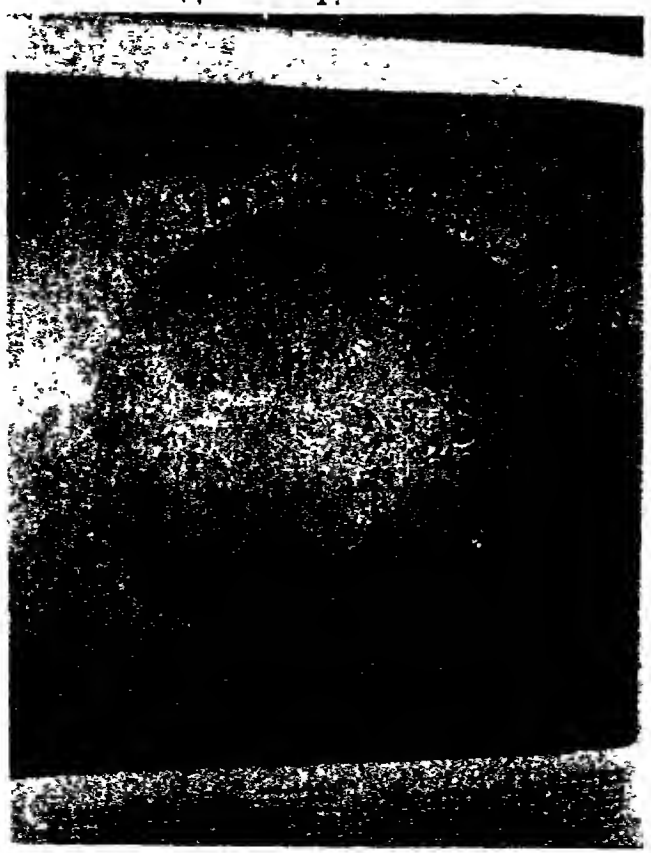

2 ـ ظهور أشكال زخرفية جديـــدة ... ـريعات الهندسيــــة ذوات الاوراق ... ـديده . ويتجلى لنا هذه الزخارف في ... سامراء (لوحة 2) وبعتبر الشرق ... ـطى ووسط آسيا الموطن الاصلي لهذه ... ـريعات الهندسية . وقد عثر عـلى ... ـها في التركستان الصينيــة . ... المحتمل ان تكون هذه الزخارف ... ـدسيه قد اثرت الى حد بعيد في ... زخرفة الارابسك .

هذه هي أبرز الاصول الفنية التي ... ـمنها الفن الاسلامي بعض عناصر ... زخرفية التي صاغهـا وأضفى عليها ... جديدة بشكل موضوعي ... تلك الفنون . حتى يتدرج ... ـا زخرفيا تجديديا .

[illegible]

صر الزخرفة في الفن الاسلامي .

من الثابت تاريخيا . والمعروف ... الفن الاسـلامي قد قـام في أول ... ـه على أنقاض كل مـن الفنين ... الساساني والبيزنطي وهذا ... ـفن في شيء أبدا من ذوق وحمالية ... الاسلامي اذ لا غرابة في ذلك . ... جميع الفنون السابقة . قد قامت على ... على أسس مـن الفنون التي ...

[illegible]

(1) شاخت وبوزورث تراث الاسلام ـ سلسلة عالم المعرفة ـ القسم الثاني ـ ترجمة ... ـوس واحسان صدقي ـ الكويت 1978 . ص 89 .

(2) انظر ... Arts Musulmans Paris 1926 p. ...

بعدها عن صورتها الطبيعية لتحقيق ... بين بعضها و بعض الاحيان لا نستطيع ... ان نستدل على اصل عنصر العناصر ... [illegible] ولم يكتف بهذا فحسب بل ... بعض الكتابة العربية ايضا بعض ... [illegible] ، وكما يقول الاستاذ ابو صالح ... (19) ... بل ركب عنصر العناصر ... او ازواج منها و كثير من الموضوعات ... [illegible] (من كل ...) ... [illegible] في عمله ... [illegible] من عناصر ووحدات ليخرج هذا ... [illegible] في ... [illegible] .

... يتضح لنا ان الطابع المميز ... الفن الاسلامي هو ... طراز الزخارف ... الهندسية والنباتية والكتابية ... على ... الرغم من الدور الذي لعبته الزخارف ... الحيوانية والادمية بدرجة كبيرة الا ان ... دورها لا يمكن مقارنته بما لعبته ... الزخارف النباتية والهندسية والكتابية ... [illegible] لوحة 25) – لوحة 37) .

ويقسم الدكتور فريد شافعي (20) ... تطور العناصر الزخرفية الاسلامية الى ... اربعة مراحل رئيسية هي :

1 – المرحلة الاولى تمتد من القرن ... السابع الميلادي الى القرن التاسع ... الميلادي ... وفي هذه المرحلة الاولى ... [illegible] الزخارف الاسلامية بالعناصر ... [illegible] كبيرا (لوحة ...) .

2 – المرحلة ... [illegible] ... التاسع الى ... [illegible] ... [illegible] .

3 – المرحلة ... [illegible] ... العناصر ... [illegible] ... الميلادي ... [illegible] ... العناصر ... [illegible] ... واسع ... [illegible] ... الزخارف من ... البلاد الاسلامية ... [illegible] ...

4 – المرحلة الرابعة وتبدأ من ... [illegible] ... في القرن التاسع عشر ... الميلادي ... [illegible] ... العناصر ... الطبيعية ... [illegible] ... نتيجة لضعف الحكام وسيطرة الاتراك ... [illegible] ... ظهور النفوذ الاوروبي .

ا) الزخارف النباتية :

تعتبر من ابرز خصائص الزخارف ... الاسلامية التي وجدت عناية خاصة من

(19) الفن الاسلامي أصوله وفلسفته ومدارسه – دار المعارف بمصر 1969 ... 11...

(20) فريد شافعي : الزخارف الكتابية البسيطة في الفن الاسلامي

(لوحة ٢٥)

الفنان في العصر الاسلامي . وهي من أوضح المظاهر التي توضح ابتعاد الفنان المسلم عن محاكاة الطبيعة . ونقلها نقلا حرفيا . واتسمت بالجودة والتنوع منذ بداية العصر الى غاية العصر المملوكي . وهذا النوع من الزخارف وجد على جميع أنواع الفنون التطبيقية ، والعمائر الدينية والمدنية (كالمساجد والاضرحة والسبات ـ والقصور وغيرها) . (انظر اللوحة 36) .

وتميزت خلال القرون الهجرية الاولى بالقرب من الطبيعة ، متأثرة في ذلك بالاساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية . وقد تنوعت هذه الزخارف في الفن الاسلامي لتشمل الاوراق النباتية المختلفة البسيطة والمركبة . والمتعددة الفصوص كالورقة الثلاثية الفصوص (البراسيم) والخماسية الفصوص (العنب) . وكيزان الصنوبر وحبات الرمان . والمراوح النخيلية وانصافها . بالاضافة الى الفروع النباتية المستديرة والمنثنية والحلزونية ، وهي في أغلب الاحيان عناصر زخرفية مجردة كل التجريد .

ويعتبر طراز سامراء في الزخارف الجصية بداية للاسلوب الاسلامي الحقيقي . الذي انتشر بعد ذلك انتشارا واسعا في مختلف انحاء الدولة الاسلامية . وهذا الطراز بمراحله الثلاثة انتقل بدوره الى زخارف الاخشاب وسائر الفنون التطبيقية الاخرى . (لوحة 2) .

وقد بلغ هذا الطراز من الزخارف (الارابسك) درجة رائعة خلال القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي . فلا يكاد يتبين من الفروع والاوراق الا خطوطا منحنية . وقد تظهر بينها زهور ووريقات لها فص او فصان او ثلاثة فصوص . وقد تخرج تلك الغصون من جذع شجرة او ساق أو اناء . وتمتد على هيئة اقواس أو التواءات او حلزونات في اطراء أو تتابع أو تشابك أو تقاطع (21) .

واصبح هذا الاسلوب هو العنصر السائد في الزخارف النباتية على العمائر المغربية (لوحة 25). وكذلك على التحف في العصر المملوكي . الى جانب الزهور التي ازدانت بها تحف هذا العصر كأوراق اللوتس المختلفة القطاعات وغيرها .

ويتعذر في أغلب الاحيان تحليل عناصر زخارف ـ الارابسك ـ وردها الى أصولها الاولى (لوحة 17) .

(21) أبو صالح الالفي : الفن الاسلامي . ص 110 .

(لوحة ٤١)

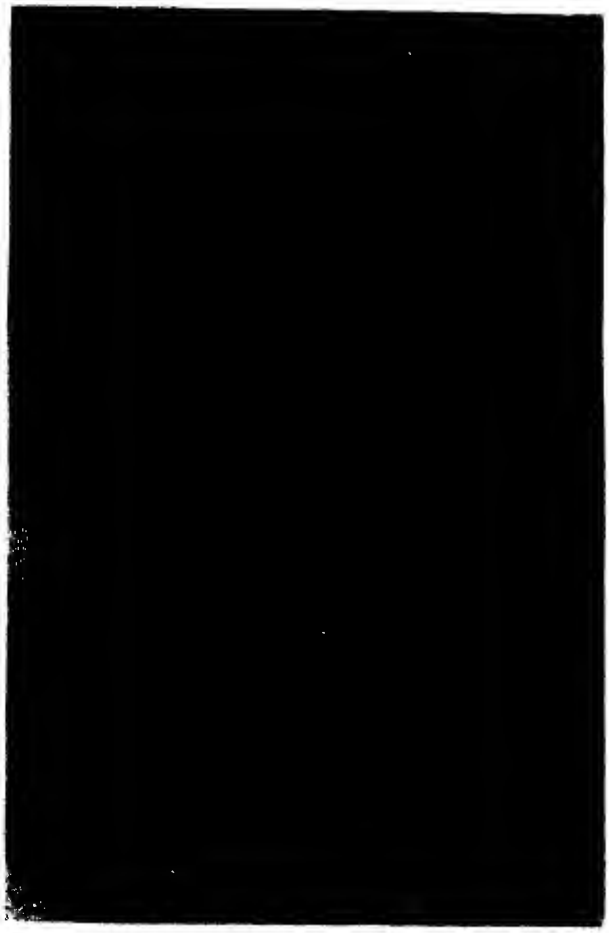

وهذا الطراز يعرف فى الفن الاسلامى باسم (التوريق العربى) (22) . وهو ابتكار اسلامى خالص (23) ، يتألف اساسا من اشكال نباتية عظيمة مرتبة باوضاع مختلفة ، تبعا لقاعدتين جماليتين جديدتين هما

1 ـ التبادل الحركى الموزون .

2 ـ النزوع الى تغطية السطح كله بالزخارف (انظر لوحة 17) .

والظاهر أن هذا الاتجاه الزخرفى . قد بدأ يتغير فى عصر المماليك . اذ بدأ الفنان المسلم يميل ناحية صدق تمثيل الطبيعة . وربما كان ذلك نتيجة للتأثيرات الفنية الصينية التى دخلت فى الفن الاسلامى بحكم العلاقات الحسنة بين سلاطين المماليك وملوك الصين (شكل 8) .

2) الزخارف الهندسية :

عرفت فى الفنون السابقة على الاسلام غير أن وجودها فى الفن الاسلامى اكتسبت أهمية خاصة وشخصية فريدة لا نظير لها فى أى فن من الفنون ، وأصبحت فى كثير من الاحيان العنصر الرئيسى الذى يغطى مساحات كبيرة يلعب فيها الخط الهندسى دورا كالدور الذى يلعبه الخط المنحنى وقد ساعد على انتشارها حب الفنان المسلم الى البعد عن صدق تمثيل الطبيعة حيث وجد فيها ما لا تفيد حريته (لوحة 4) ـ (انظر اللوحة 38) .

وفى هذا الصدد يقول الاستاذ بشر فارس (24) مؤكدا هذه الظاهرة الزخرفية « وكلا النوعين ينفرش على المهاد ويكسو العصاب ، وينبت على الافريز ويتناول العرضى . ويهجم على الفراغ ويبلغ به الهمة أن يتعرج حتى فى الاكسية . تلك النشوة مشت فى الخط تنبئك ان أفق الغيب المستغلق دون المؤمن مشعلة دائمة لذوقه » .

ونظرا لتنوع الزخارف الهندسية فى الفن الاسلامى نرى تقسيمها الى نوعين .

1 ـ الزخارف الهندسية البسيطة كالمثلثات والمربعات والمعينات والاشكال الخماسية (المخمسة) والمسدسة والدوائر وأنصافها . والخطوط الحلزونية والجدائل (شكل 7) .

(22) يعرف هذا النوع من الزخارف عند الغربيين باسم « Arabesque » نسبة الى العرب .

(23) مصطفى الحبيب اقتران الكتابة بالعمارة ـ رسالة اليونسكو ـ العدد 199 . فبراير 1978 ، ص 43 .

(24) بشر فارس سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 ، ص 16 .

(لوحه 23)

(لوحة 24)

2 ـ زخارف هندسية مركبة كالاطباق النجمية وهي سمة من سمات عناصر الزخرفة في الفن الاسلامي ، وقد بدأ ظهور هذا النوع من التحف الخشبية يرجع الى أواخر العصر الفاطمي مثل محراب السيدة رقية ومحراب السيدة نفيسة . وأخذ يتطور ويتيسر انتشارا واسعا خلال العصرين الايوبي والمملوكي على التحف المحلفة (لوحة 4) ـ (لوحة 38) .

ويطبق النجمي يتألف في الوسط من فرض رئيسي يحيط به عدد زوجي من الفروض على أن يحيط به كمداب (أي مجموعة المحصورة بين عدد زوجي من الفروض) مكملة لتمام عدد فروض الفرض الرئيسي (شكل 6) وتستمر حولها الوحدات الأخرى المكملة للطبق نفسه . وقد عبرت هذه الزخارف الهندسية في عدة مصنفات (25) متنوعة في السقوف الخشبية ، والحشوات المحرمة في مسجد أحمد بن طولون .

وفي تكسيات مسجد قايتباي في القاهرة (لوحة 28) . وقد طورت مصر

(26) و مصنف بقرب [illegible] بحرى ـ الثاني عشر الميلادي وبدأ بمقدمة الهندسي وزخارف وأشكاله على وحدات الخشب في الشكل الأخير شكل النجمة [illegible] سيطرة في شمال أوروبية والأندلس في الإمبراطورية والأندلس في أوروبة في أوروبا .

وقد ساد استعمال في زخارف المغرب والأندلس ويتحقق هذا في النماذج المتبقية بالأندلس في مسجد سيدي أبي مدين بالعباد وفي قصر الحمراء بغرناطة بالأندلس . وساد ظهور هذه الأطباق على التحف الخشبية والعاج والعظام والمعادن [illegible] والمصحف الأولى المصاحف بالمغرب [illegible] من أمثلة التي عثر عليها في مصر المصنع لزخرفة المصورة المعمارية الإسلامية . فقد استعمل الفنان المسلم المولع بالتحف من الأشكال المتجاورة والأشكال الهندسية المعقدة (27) . وقد استعملت الفرضيات في جميع أنحاء العالم الإسلامي . وأقدم مثل لها [illegible] توجد في [illegible] (لوحة 27 ـ 30) .

(25) عنها انظر [illegible] Paris 1934 pp 13-14-15

(26) شاحت وبوزوث تراث الإسلام ـ القسم الثاني ـ ص 64 .

(27) انظر : [illegible] l'Art decoratif musulman, pp 23-25

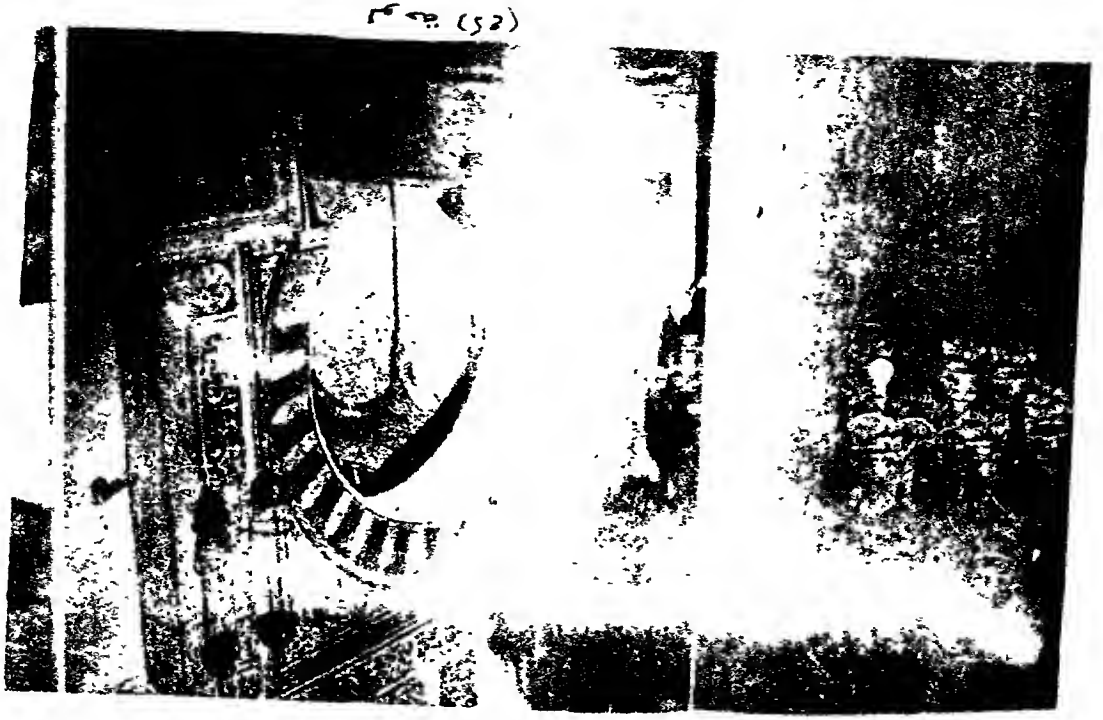

3) الزخارف الكتابية :

يعتبر الخط العربى (28) من أبرز العناصر الفنية التى استعملها الفنان المسلم فى موضوعاته المختلفه . بحيث لا يكاد نجد عملا اسلاميا لا تكون الخط فيه مكانته البارزه .

ولا يوجد فن من الفنون بلغت فيه الكتابه (الخط) دورا رئيسيا مثلما بلغت فى زخارف الفن الاسلامى . وقد وجدت على مختلف الفنون التطبيقيه والعمائر سواء أكانت دينية أم مدنية . وهذا يدل على أن جوهر العقيدة الاسلامية يتمثل فى القرآن الكريم ، وهو كلام الله المنزل على رسوله محمد صلى الله عليه وسلم . والذى سطر بالقلم (ن والقلم وما يسطرون) . بحيث تمثلت فيه قمة العمل الفنى العربى الذى ارتبط بكلام الله سبحانه وتعالى وأصبح الهدف من الكتابة بعض آيات القرآن الكريم أو الادعية ، أو الرجاء أمر لا يكاد يخلو منه عمل فنى أو بناء .

وهكذا يمكن القول بأن الكتابة فى الفن الاسلامى حلت محل الصورة فى الفن المسيحى الغربى (29) .

ويعود الكتابة على الآثار له أهمية خاصه . فهى تحتوى على اسم صاحب التحفه أو مشيد البناء ، أو تاريخه ، السرك بعض الآيات والعبادات الدعائيه الى جانب دورها الزخرفى . ومن ثم تأتى أهميتها فى اعطاء تاريخ ثابت يعتبر وجودها على المبانى والتحف كما تعتبر تاريخ التحف الاخرى اعتمادا على ما هو مكتوب من طراز الخط نفسه . وغالبا ما تحفر هذه الكتابة داخل أشرطة أفقيه أو رأسيه (الشكلان 2 ـ 3) .

ولها طرز مختلفة أهمها الخط الكوفى والنسخى . ومنها الخط الكوفى البسيط الخالى من الزخارف ـ الكوفى المورق ـ الكوفى المزهر أو المشجر الذى يخرج من أطراف حروف سيقان نباتية دقيقة محلاه بالورقات المختلفة الاشكال ومنها ما يقوم على أرضيه نباتية مستغله واحيانا تعقد الكتابه لتصبح ذات طابع زخرفى يصعب قراءته

والكتابة العربية ليست أقل ما يجذب الانظار ويسترعى الانتباه فى العمائر وفى التحف الاسلاميه . فاننا نرى منها فى كثير من الاحيان مجموعات

---

(28) أبو صالح الالفى : الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف بمصر 1968 ، ص 47 .
(29) المرجع السابق .

(لوحة 26)

وحرفة عالية في الجمال والابران .
شكل 1 ـ لوحة 24) . بل هي لا تقل
في هذا المجال عن المجموعات المكونة من
عناصر الفروع البنائية والخطوط
المتداخلة والمتشابكة . ولعل السر في
ذلك كما يقول الاستاذ أحمد أحمد
بدوي (30) « والواقع أن رشاقة
الحروف العربية وأناقة رسمها بأسلوب
الفني ومعاونتها الرائعة على الابتكار بها .
ولا تجد عناء في متابعتها وتفهم ما تنطوي
عليه وما تحتويه من عبارات .. » .

ذلك لان الفن الاسلامي يتسم قبل
كل شيء بصفته الفن الجماعي ، اي الذي
لا ينتمي الى الفرد .

اذ اننا حينما ننظر الى تحفة فنية
اسلامية الطراز لا نفكر في اسم الفنان
الذي ابتدعها ، حيث توجهنا مباشرة الى
المكان الذي صنعت فيه والى العصر الذي
تنتمي اليه . وهذان العنصران ملازمان
لكل انتاج فني اسلامي (31) . والطرز
في الكتابة العربية نوعيها الرئيسيين
« الكوفي والنسخ » من عناصر التحميل
غير المتحمده . فالحروف في المنطق على

حالات الحجر والمعدن والخشب والعاج
وطرق التسطيح تجري على اي سطح من
السطوح وعلى اي شكل من الاشكال
مستقيل ويتطوع لاتخاذ اشكاله
المتنوعة فيها . كما يتحمل بالاشكال في
مظهرها العام فتأتي بسيطة او مركبة
متنوعة في ثراء حسب تنوع وتطور
الحضارة التي تستخدمها وتبتكرها .

وهناك ما يجعل الخط العربي كذلك
على رشاقته من الزخارف النباتية او الشكل
(2) ـ ان الخط العربي فيه الجمع بين
الشكلين معا (32)

ا ـ الاشكال الهندسية التي تتميز بالدقة
والتناسب والاتزان والاحكام والتوازن

ب ـ النباتي المتمثل في الاشكال المتفاوتة من
حيث الرشاقة والانسياب ،
وهذا يجعل الخط العربي يتميز
بالمرونة والحيوية والتكامل الفني
الذي يجعله قابلا للتنوع في الابتكارات

وهناك نوع آخر من الخطوط يجمع
الخط الهندسي والذي يتجلى في الزخارف
الهندسية التي تجري في الخط الكوفي .

(30) احمد أحمد يوسف . الخط العربي واساليبه في العمارة العامة ـ بحث الخط العربي ـ ص 86 .
(31) أحمد أحمد يوسف : المرجع السابق . ص 87 ـ 88 .
(32) أبو صالح الالفي . الخط العربي ووظيفته في الفنون الاسلامية الاخرى ـ حلقة بحث الخط العربي ـ ص . 48 ـ 49 .

(لوحة 28)

وهذا الخط الهندسي يعطي احساسا بالاستقرار والثبات . وقد تنوع استعمال الخط كعنصر زخرفي فاعطى الفن الاسلامي بحكم العلاقات الحسنة للاقاليم الاسلامية شخصية متميزة في اطار الشخصية الاسلامية العامة ، فاستعمال الكتابة في الطراز المغربي الاندلسي يختلف عن استعمالها في الطراز المصري او الايراني او الشامي (لوحة 24) . وصفوة القول ان الخط العربي قد أعار ـ بوصفه الفن العربي الاصيل ـ (33) الى الفنون الاسلامية المختلفة طابعه الجمالي القائم على التناسب بين النقطه والخط (شكل 3) . وانظر كذلك (لوحة 29) .

4) الزخارف الآدمية :

لم تقدر للزخارف الآدمية درجة كبيرة من الانتشار في الفن الاسلامي . والسبب في ذلك هو ما صاحب الفنان نفسه منذ بدايه العصر الاسلامي من آراء مختلفة كالنفور والهروب من مضاهاه خلق الله ، ومن أن المصورين هم اكثر الناس عذابا يوم القيامة .

وليس هناك في القرآن الكريم نص صريح بتحريم تصوير المخلوقات الحيه او عمل التماثيل لها . والآية التي كان يفهم منها خطأ أن التصوير محرم في الاسلام هي قوله تعالى (34) « يا أيها الذين آمنوا انما الخمر والميسر والانصاب والازلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون » .

ولكن الواقع أن المقصود بكلمه (الانصاب) في رأي المفسرين هي الاحجار الكبيرة او الاصنام التي كان العرب يعبدونها ويقدمون لها القرابين . فليس هذه الآيه اذن ما يحرم التصوير او عمل التماثيل . على أن المحدثين يسندون الى الرسول صلى الله عليه وسلم أحاديث تحرم تصوير المخلوقات الحيه (35) (لوحة 5) .

ولكن بعض العلماء في العصر الحديث يرون أن النبي لم يفكر في النهي عن التصوير . وأن التصوير كان مباحا في فجر الاسلام . وأن الاحاديث المنسوبه اليه في هذا الموضوع (36) . وانها في الواقع لا تمثل الا الرأي الذي كان

(33) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربي ، ص . 23 ـ 33 .
(34) سورة المائدة ، آية 92 .
(35) زكي محمد حسن . الفنون الايرانية في العصر الاسلامي ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1940 ، ص 67 .

(لوحة 34)

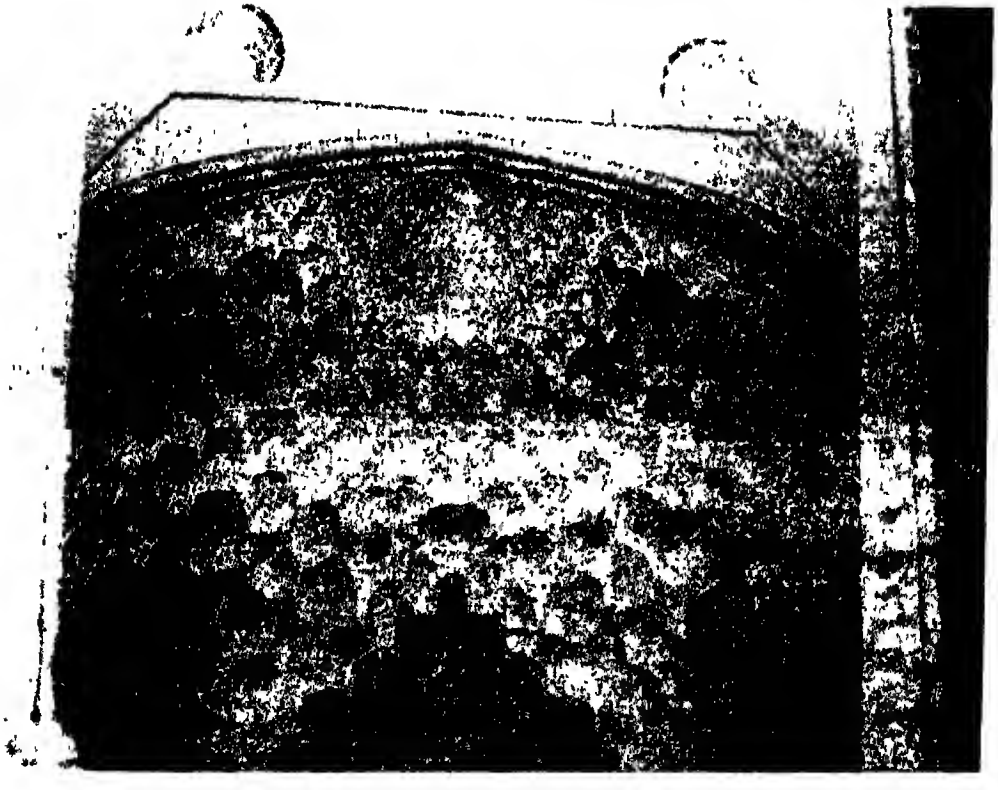

(لوحة 35)

سائدا بين الفقهاء وعلماء الدين في مستهل القرن الثالث الهجري . وهذا كله لم يمنع وجود مشاهد آدمية . بعد ان هدأت حالة الجهاد التي لازمت المسلمين لكي يتفرغوا للجهاد في سبيل الله . وان أغلب الرسوم الآدمية نجدها في المخطوطات والتحف المعدنية والخزف والخشب خلال العصر الفاطمي والمملوكي حيث كانت تزين بموضوعات اجتماعية ودينية (لوحة 12) و (لوحة 13) .

5) الزخارف الحيوانية :

انتشرت الزخارف الحيوانية في الفن الاسلامي بدرجة كبيرة . ذلك لان الفنان لم يجد في هذا النوع ما يقيده . كما هو الحال في طراز الزخارف الآدمية . ولعل اهم ما يميزها في الفن الاسلامي تحويرها الشديد وبعدها عن الطبيعة . وعدم مراعاة النسب التشريحية التي لم يكن يجهلها الفنان بدليل أننا نجده في كثير من الاحيان يرسمها قريبة من نسبها الطبيعية .

وميزها الفنان في كثير من الحالات بأوراق نباتية مختلفة الغصون تتدلى من افواهها ان كانت حيوانات او من منقارها ان كانت طيورا . وزخرف أجسامها في بعض الاحيان بالزخارف النباتية . وتظهر جليا وضوح التأثيرات الساسانية في رسم الحيوانات الا ان وجود الزخارف الحيوانية في الفن الاسلامي كانت ذات طابع زخرفي صرف اذ لم يكن هناك اي مدلول ديني لوجودها كما هو الشأن في الفنون الاخرى خاصة الفن القبطي .

وقد شملت التحف الاسلامية جميع انواع الحيوانات والطيور - كالاسد والفهد . الفيل . الغزال . الذي يعتبر من الرسوم المحببة الى الفنان في هذا العصر بدرجة كبيرة . - الارنب - وجميع اشكال الطيور بأنواعها المختلفة كالطاووس . والنسور الحمام الديك البط العصافير وغيرها .

وقد وجد الفنان المسلم في الحيوانات والطيور المركبة الخرافية تمشيا مع طبيعتها في البعد عن تمثيل الطبيعة . لذلك رسم الكثير من الاشكال الخرافية كالحصان المجنح والنمور . والبراق والعنقاء . غير انها لم يكن لها اي معزى عقائدي . كما هو الحال في الفن الساساني (شكل 5) - (لوحة 5) ورسم كذلك اشكال الحيوانات والطيور ذات الوجوه الآدمية وتتميز هذه الزخارف الاخيرة بالقوة وعنف المظهر لا سيما في

(36) انظر . K. A. C. Creswell Early Muslim Architecture, t. I, p. 269

(لوحة 32)

(لوحة 33)

نقلا عن الاستاذ جورج مارسيه حيث يقول ما نصه . « ان الفنانين المسلمين فى الاندلس . قد اعطوا تعابير فنية واضحه وحدانيه تدل على مهاره وبلوغ النفس الانسانى » (لوحة 22) .

واوضح مثال على روعه الفن الاندلسى المسجد الجامع بقرطبه الذى يعتبر بفصل تصميمه الذاتيه المسجد الوحيد المؤسس فى اسبانيا من وحى الروح المبدعة المتفقه مع الطبيعه . فللتاريخ والفن أن يسعدا به اذ لو كان قد دمر لاحدث فراغا لا سبيل الى سده . فقد احتل بين الآثار الاسبانية المكان السامى . فهو يصور عصور الازدهار الاسبانى التى طل مطلق اشعاعها من الاراضى الاسلاميه (40) (لوحة 22) .

ويتساءل الآن هل كان للفن الاسلامى خصائص عامه تميزه عن الفنون الاخرى ؟ نعم . لقد كان للفن الاسلامى خصائص عامة وفى مقدمتها أنه يمتاز على الفنون الاخرى بكونه فنا زخرفيا فمثل كل شىء صارت الرسوم النباتية والهندسيه والكتابية والحيوانيه والآدمية المحوره عن الطبيعه تزين الجدران وصفحات المخطوطات والادوات التى تستعمل فى الحياة اليومية .

كذلك خلا الفن الاسلامى من وجود التماثيل الكبيره او اللوحات المستقله . لان تصوير الكائنات الحيه أمر مكروه فى الاسلام منذ زمن بعيد ومن المعروف أن القرآن الكريم لم يرد فيه نص صريح ينص على تحريم التصوير و تمثيل التماثيل . وقد سبق الاشاره الى ذلك . ويعتقد أن هذه الكراهيه ليست جزءا من العقيده الاسلامية . ولكنها جاءت نتيجة جهود من التماثيل والصور المشخصه التى قد تذكر العرب الحديث العهد بالاسلام بالعوده الى الاصنام . كما أن أصل هذا الاعتقاد يرجع الى عده أحاديث تنسب الى النبى محمد صلى الله عليه وسلم .

ومع ذلك فان النهى عن التماثيل أى تمثيل الكائنات الحيه بالتصوير او النحت لم يكن يراعى بين سائر الامم الاسلامية . فقد تجاوزتها الامم الاسلامية الغير السامية لا سيما تلك التى كان لها تراث فنى (انظر اللوحات 18 ـ 19 ـ 20) .

لهذا نجد فى التصوير توضيح المخطوطات بالصور اذ نجد كثيرا فى ايران والهند وتركيا ولهذا السبب يمكن تعليل وجود صور المخلوقات الحيه

(40) مانويل جوميث مورنيو . الفن الاسلامى فى اسبانيا ـ ترجمة عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع . طبعة دار الكتاب العربى . القاهرة 1968 . ص 16 .

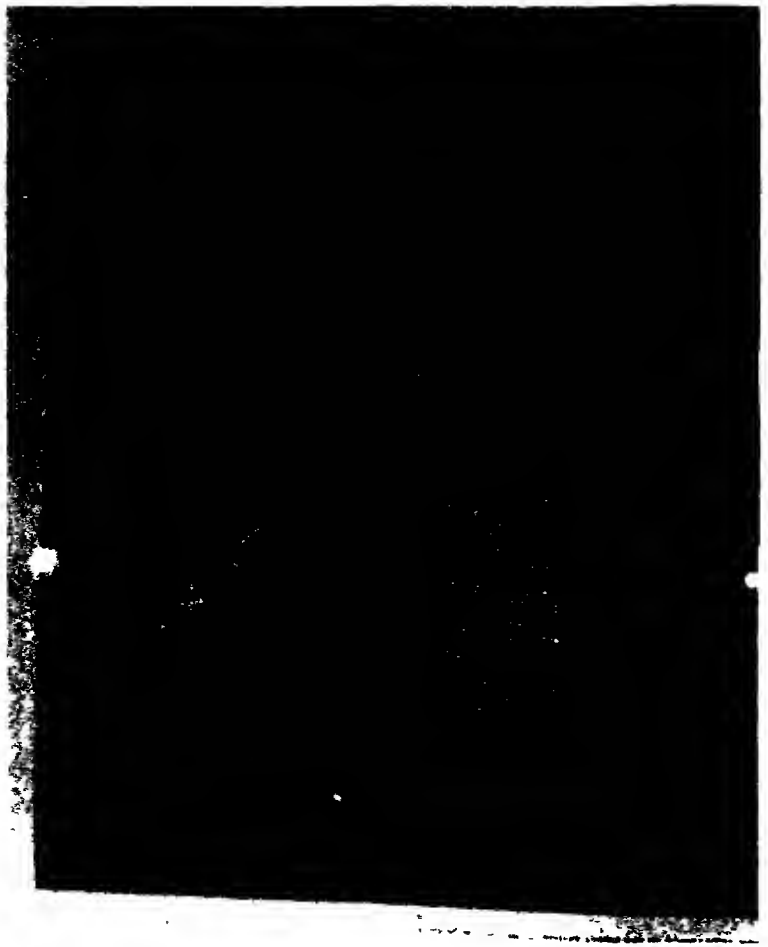

(لوحه 34)

(لوحه 35)

لآدميه والحيوانية فى الخزف الاسلامى فى ايران (لوحة 12) وفى بعض منمنحات العصر الفاطمى (لوحة 18) ·

ومن هنا حدث جدل بين العلماء حول فكره كراهية التصوير فى الاسلام اذ يرى البعض بأن كراهيه التصوير كانت عند فقهاء الدين من سنة وشيعة على حد سواء ، وليس صحيحا ما يزعمه البعض من أن المذهب الشيعى لا يعترف بهذا التحريم · والواقع أن فى كتب الشيعة أحاديث تحرم التصوير ، أو كما يذهب بعض مؤرخى الآثار الاسلامية (41) من أن حكم فقهاء الدين من الشيعه ، هو نفسه حكم أهل السنة فى كراهية التصوير والتماثيل . ثم أن المذهب الشيعى لم يصبح المذهب الرسمى فى ايران (42) قبل قيام الدولة الصفوية فى بداية القرن السادس عشر الميلادى ·

ولكن تحريم الاسلام ، لم يقض على هذا الفن تماما ، ونظره الى تاريخ الفنون الاسلامية تبين بأن الفنانين كانوا فى كثير من الاحيان لا يكترثون بهذا التحريم (43) (انظر لوحة 5) ·

كذلك نجد الهنود والاتراك وهم من السنيين يمارسون فن التصوير ، والتحف المعدنيه والخزفية المزخرفه بأشكال آدميه ·

وكراهيه تقليد الصور الشخصيه كان لها تأثير عميق فى طبيعه الفن الاسلامى ·

ويمكن تلخيص هذا التأثير فى النقاط الآتية

1 ـ صرف الفنانين الى ابتكار انواع أخرى من الزخارف بعيده عن تصوير الطبيعة . وقد افلحوا فى هذا الميدان ، حتى أصبحت العناصر الزخرفيه التى ابتكروها طابعا على فنهم ونسب اليهم كما فى لفظ Arabesque

2 ـ روعى فى زخرفة المساجد وآنيتها والمصاحف استبعاد الكائنات الحية فحلت من الصور والتماثيل التى تستعان بها على شرح العقيده وتوضيح

(41) Arnold (Th) Painting in Islam, Oxford 1928, p. 11.
ـ اتنجنهاوزن : فن التصوير عند العرب ، ص 12 وما بعدها ·
(42) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية فى العصر الاسلامى ، ص 75 ـ 76 ·
(43) مثلا ، فالشعب الايرانى ميال للفن بفطرته وله احساس بالجمال أعمق وأقوى من يستطيع اطفاء جذوته أى عامل خارجى ـ الفنون الايرانية ـ ص 76 ·

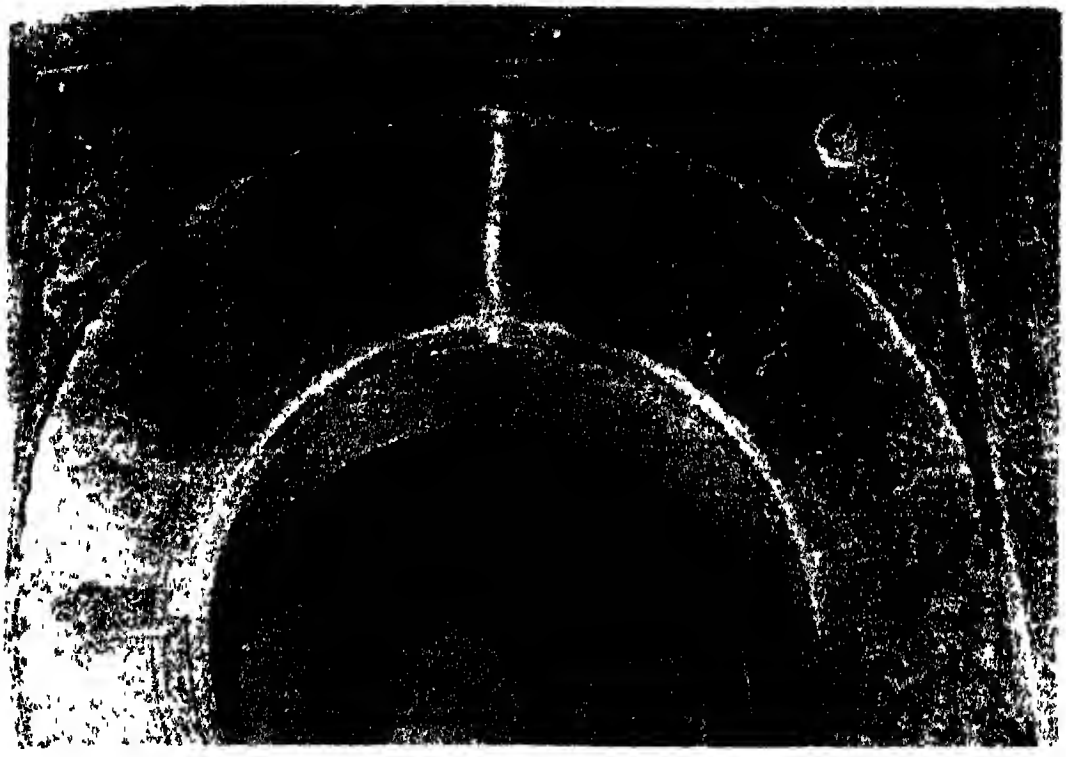

(لوحة 36)

(لوحة 37)

تاريخ الدين ، وحياة أبطاله كما هو موجود في الدين المسيحي .

3 ـ ان الفنون لا تظهر فيها عبقرية النحات ، ذلك لان التماثيل المجسمة لا وجود لها في الفن الاسلامي ، الامر الذي جعل الفنانين ينصرفون الى زخرفة العمائر وتزيين التحف بالرسوم الفنية البديعة .

4 ـ صناعة التصوير التي ازدهرت عند الايرانيين والهنود والاتراك المسلمين ، لم تتعرض للموضوعات الدينية الا نادرا (انظر لوحة 20) . حيث نجد بعض المصورين الذين رسموا صورا للعديد من الاحداث المشهورة في تاريخ الرسل ، بالاضافة الى وجود صور توضيحية لبعض الحوادث في السيرة النبوية الشريفة . ولكن أمثال هذه التصاوير كانت نادرة علاوة على أنها لم تنل رضى علماء الدين وهنا يتجلى لنا الفرق بين الفنون الاسلامية والفنون الغربية . فقد كان المصورون في الغرب على صلة وثيقة بالكنيسة يستلهمونها موضوعاتهم ، ويستمدون منها تشجيعاتهم لذلك غلب على انتاجهم الطابع الديني الى وقت غير محدد . في حين كان المصورون في الاسلام منبوذين من طرف علماء الدين ، لا يمنحونهم أي تعضيد أو تشجيع .

5 ـ غلب منزلة الخطاطين في الاسلام لعنايتهم بكتابة القرآن الكريم . لان فنهم لم يكن مكروها من طرف علماء الدين ويليهم المذهبون من حيث الاهمية الذين زينوا برسومهم الجميلة الهندسية والنباتية صفحات المخطوطات وزاد الاقبال على منتجات هؤلاء الفنانين حتى اولئك الذين لم يتمكنوا من شراء المخطوط ، يقنعون بالحصول على نموذج لخطاط مشهور وارتفعت اثمانها وكانت في الغالب آيات من الذكر الحكيم و أبيات من الشعر . وراح الامراء والاثرياء يقتنون المجموعات الفاخرة التي كان على أغلب هذه النماذج توقيعات الخطاطين (لوحة 16) .

6 ـ معظم الفنانين المسلمين لم يكن لديهم مهارة في الرسوم الحيوانية والآدمية ولم يجهد الفنان نفسه في صدق تمثيل الطبيعة ، بل كانت لديه أساليب اصطلاحية ظلت باقية في أزهى عصور الفن الاسلامي ، اذ نادرا ما نجد العناية بجسم الانسان ونسب الاعضاء وقوة التعبير في الوجوه لتدل على الاحاسيس المختلفة . وان وجدت على يدي قليل من أعاظم المصورين الذين نبغوا في ايران كذلك الرسوم العارية غير معروفة في التصوير الاسلامي .

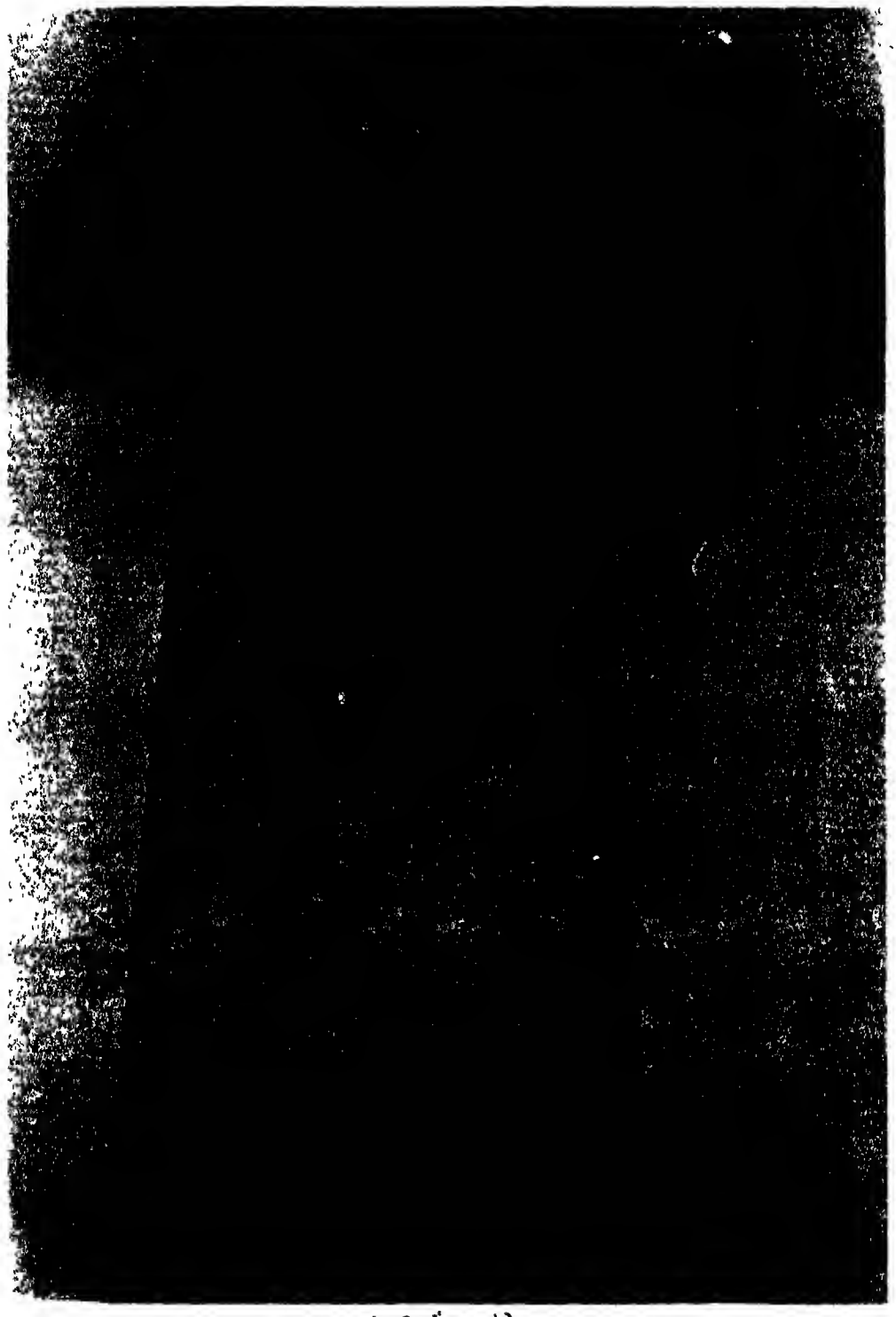

(لوحة 38)

وقوانين المنظور مهملة تماما . لذلك تبدو الصور الفارسية محملة لتشابهها ، واشتراك المصورين في اهمال الظل والضوء ... سم الاشخاص في أوضاع معينة تفقد الروح والحركة ودقة التعبير ورغم ذلك فلها سحرها وجمالها . وهكذا يمكن القول بأن الفنان المسلم لم يصور الانسان أو الحيوان ، بل اتخذ منهما موضوعات زخرفية بحتة .

7 ـ من أبرز خصائص الفن الاسلامي كراهية الفراغ ... تعرف هذه الظاهرة عند العربيين بـ ... الفزع من الفراغ » (لوحة 12 ـ 14) .

يعني أن الفنان المسلم كان يكره أن يترك مساحات دون تغطيتها بالزخارف وازدحام المساحات (المسطحات) بالزخارف يلفت النظر في العمائر (لوحة 29) والتحف وهذا الاتجاه أدى على أية حال الى تكرار الوحدة الزخرفية وتكرار الموضوع الزخرفي (انظر لوحة 4) وتبدو هذه الظاهرة واضحة في المخطوطات وفي سائر التحف الاسلامية (لوحة 8) ـ (لوحة 14) .

8 ـ الزخارف المسطحة

الغالب على الزخارف الاسلامية التسطيح ، ومرد ذلك انصراف الفنانين المسلمين عن التجسيم الى تغطية المساحات برسوم سطحية، ولكن التلوين والتذهيب قد خففا من هذا النقص (انظر اللوحات 19 ـ 12 ـ 13) .

9 ـ البعد عن الطبيعة

يعني ذلك أن عناصر الزخرفة في الفن الاسلامي مستوحاة من الخيال بسبب الكراهية في التصوير . وأدى ذلك الى الاهتمام بالحيوانات الخرافية ، لتجنب الفنان رسم الحيوانات الطبيعية . وتنطبق هذه الظاهرة على الزخارف النباتية المشتقة من الزهرة وغيرها (لوحة 29) .

10 ـ الرسوم التوضيحية (لوحة 12) .

اهتم الفنانون المسلمون ولا سيما الايرانيون والهنود والاتراك بتوضيح بعض الكتب الادبية وتزيين دواوين الشعر بالمنمنمات (44) . ويرجع أقدم ما وصل الينا من مخطوطات موضحة بالصور الى القرن الثاني عشر

(44) المنمنمات : تعني التصوير التصغيري (الصور الصغيرة) في المخطوطات الاسلامية .

شكل (I) الخط الكوفي ذو الأرضية النباتية ودالة على أن
هذه الأرضية المكونة من الفروع النباتية لا تصل بالحروف.
إيران القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي

(عن ابراهيم جمعه)

الميلادى (45) . ومعظم هذه الصور توضيحات لقصص أبى زيد السروجى فى مخطوط من كتاب مقامات الحريرى . وكليلة ودمنة وكتاب الاغانى . والمخطوطات العلمية والكتب التاريخية . وصفوة القول أن توضيح المخطوطات بالصور وتحليلها بالرسوم الملونة كان فى المرتبة الثانية بالنسبة الى كتابتها بالخط الجميل (46) .

11 ـ الكتابة العربية عنصر زخرفى

استعمل الفنان المسلم الحروف العربية . سواء أكانت كوفية أم نسخية . عناصر زخرفية رئيسية . ويعتبر كذلك من أبرز الخصائص المميزة لأى عمل فنى اسلامى . كما تبدو هذه الظاهرة الزخرفية واضحة فى العمائر الاسلامية . وسائر التحف (شكل 1 ، 2) . وتأثرت الوحدات الزخرفية الاسلامية بأشكال الكتابة العربية . وانها لتمتزج أحيانا حروفها بالوحدات الاخرى من نباتية وهندسية وحيوانية حتى يصعب فى بعض الاحيان التمييز بينها (انظر شكل 3) . (لوحة 24) .

12 ـ الفن الاسلامى فن جماعى

معنى ذلك أن الفنان المسلم لم يكن طريقة خاصة أو أسلوبا معينا يميزه عن غيره . وانما كان فى أغلب الاحيان يتبع الطرق المطروقة ويسير على الاساليب الفنية الموروثة . أى أنه لم يبتكر جديدا فى هذا المجال وهذه الصفة التى تفتقر اليها الفنون العربية . والتى تنادى بعض نقاد الغرب بايقاعها وقد كتب عنها أحد مفكريهم (47) « أوسكار وايلد » قائلا « ان المثل الاعلى فى الفن هو أن يظهر الفن ويختفى الفنان » (انظر التوجات 21 ـ 22 ـ 23) وهذه العبارة لها وزنها . مما لا شك فيه أن المعماريين والمصورين والخطاطين والمزوقين والفنانين على اختلاف درجاتهم فى العصور الاسلامية . قد أنتجوا تحفا فنية جميلة بدون أن يودعوها شيئا من خصائص حياتهم التى تلاشت فى سبيل الغرض الاسمى من أجل صالح المجموع (48) . متحدثين الى شعوبهم عن طريق الفن بلغة الجماعة لا الافراد .

(45) لمزيد من التفاصيل حول هذا الموضوع راجع . المخطوطات المرسومة فى العصر العباسى . للدكتور خالد الجادر .
ـ ايتنجنهاوزن . فن التصوير عند العرب .
(46) زكى محمد حسن . الفنون الايرانية . ص 67 .
(47) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 86 .
(48) أحمد أحمد يوسف : نفس المرجع السابق . ص 87 .

13 ـ الفن الاسلامى بعيد عن العاطفة :

لان الفنان المسلم لم يهتم بتصوير المشاعر الانسانية . لذلك لا نجد فى مسحاته ما يثير الشعور أو يبعث على التأثر العميق بخلاف ما نراه فى التصوير الاوروبى لا سيما فى اللوحات التى توضح التضحيات البشرية وغيرها من الموضوعات الاخرى .

وصفوة القول أن الذى جعل الفنان يعمل ذلك هو البعد عن تمثيل الطبيعة .

14 ـ الفن الاسلامى ذو طابع ملكى .

صحيح كان الامراء والحكام المسلمون يعملون من بعض انحاء العالم الاسلامى الى الانحاء الاخرى (49) . ويستدعون الى مقر حكمهم بعض من تمتد شهرتهم من الفنانين الناشئين فى سائر الاقاليم الاسلامية . وكان لهذا أكبر الاثر فى تكييف الطرز المختلفة فى الفنون الاسلامية .

ولكن هناك من يرى بأن الفن الاسلامى فن ملكى بالدرجة الاولى (50) « فالامير هو الذى يرعى الفن ويعضد الفنانين ، الا فى حالات نادرة . فالفنان كان ينفذ ما يطلب منه سواء أكان هذا الطلب يماسه الدين أو الحب والعظمة والابهة اذ كان يعمل حسب رغبة الملك أو السلطان الذى يعيش فى كنفه . وقد نثار هنا نقطه وهى أن الفن الاسلامى فى ارستقراطى سخر الفنان لخدمة الامراء والسلاطين . ولكن يمكن الرد على ذلك بأن هؤلاء الامراء قد شملوا الفنانين بعنايتهم وعطفهم لتحمل مشاقهم وملء قصورهم بالتحف النادرة (لوحة 15) .

15 ـ فى ابتكارى

لم تكن العقيدة الاسلامية تميل الى الاسراف فى الترف . ويدل على ذلك حياة الخلفاء الراشدين . وكان ذلك فى فجر الاسلام . ومع ازدهار الحضارة العربية الاسلامية . والثراء الذى عرفه الخلفاء فى العصور التالية لفجر الاسلام . كان عليها أن تحقق شخصيتها وأن تستمع الناس بأدوات الحياة من ملابس واشياء فاخرة تتناسب مع الثراء الكبير الذى كانوا ينعمون به . ومن هنا نشأ فنون ابتكاريه رائعه . تجسد المبادىء التى ينطوى عليها الدين الاسلامى . وتحقق الثراء الذى تعكس فيه الخلفاء والامراء فابتكر الفنان المسلم الخزف ذى البريق المعدنى . كبديل صالح عن استعمال

49) زكى محمد حسن : الفنون الايرانية . ص 15 .

50) عن هذا الموضوع . انظر : Migeon, G. : L'Art Musulman, Paris 1962, pp 10-11.

حشوة من صناعة العاج تبين خط الثلث المملوكي المحفور فوق أرضية نباتية - مصر القرن 8هـ
الرابع عشر الميلادي

(Archeologia) عن مجلة

(شكل 3)

الاواني الذهبية والفضية . وينطبق ذلك على العمائر الاسلامية . اذ نجد مثلا المحراب محور الاهمية في المسجد ، وكان من الممكن أن يصنع من الذهب . ولكننا نلاحظ بأن المحاريب قد صنعت من الخشب أو الجص . واستطاع الفنان ان يضفي عليها مسحة جماليه تخفف من هذه الخامات الرخيصة (لوحة 9) و اللوحات 10 ـ 11 ـ 25) بالزخارف الدقيقة والالوان الجميلة . وصدق وزير عندما وصف الفن العربي الاسلامي بقوله « ان رسوم الرقش العربي هي سمى الفنون كلها » (51) .

وخلاصه القول التي نختم به هذا الموضوع . هي أن دراسة الفنون الاسلامية في مختلف مراحلها الرمزيه وتطور أشكالها الزخرفيه . وطرقها المختلفه دراسة شيقه تذكر بعظمه الحضاره الاسلاميه ومهاره المسلمين في هذا المجال . ونشير الى ماض مجيد ما زالت آثاره باقية حتى اليوم في الرقعه الاسلاميه الواسعه الممتده من الصين شرقا الى الاندلس غربا . شاهده على ما حققه الاسلام من ازدهار حضاري وفني يستطيل بمرور الاجيال تلو الاجيال .

51) لمزيد من الدراسة راجع :

Nadj Moudin Bammater, Aspects de l'Art Musulman, Lausanne 1946, p. 12

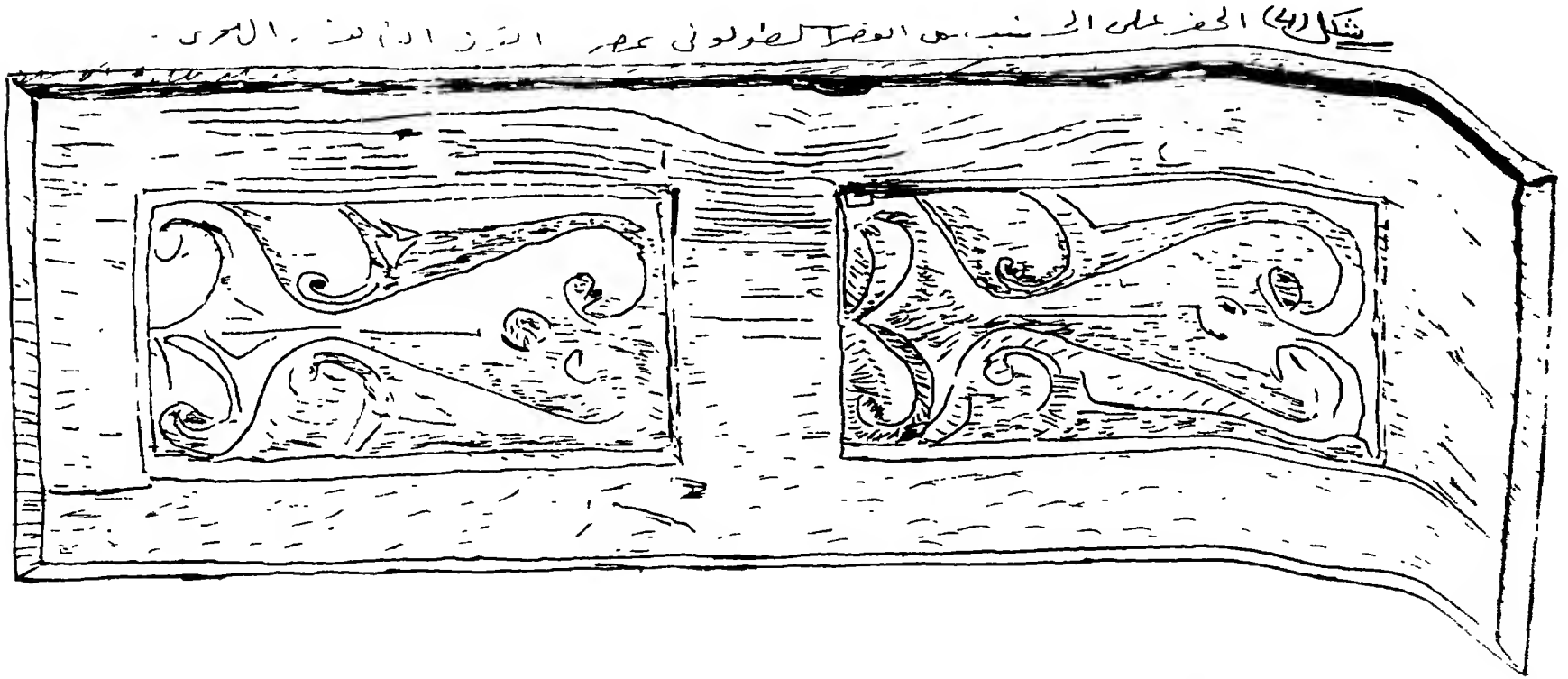

شكل (4) الحفر على الخشب من العصر الطولوني عصر القرن الثالث الهجري .

حيوانان خرافيان متقابلان (التماثل والتناظر)
إيران - القرن (2 هـ - 8 هـ).

(شكل 5)

فهـــرس الصـــور والاشكـــال :

أولا : اللوحـــات :

1) حزء من تفاصيل زخارف واجهة قصر المشتى ـ العصر الاموى (743 ـ 744 م) بالاردن ·

وتمثل هذه اللوحة أهم الامثلة المبكرة للزخارف الاسلامية المحفورة على الجص ، يلاحظ فيها تاثير الاساليب الزخرفية الساسانية والبيزنطية ·

2) حشوة من الجص تمثل الطراز الاول فى زخارف سامراء الجصية ، نفذت الزخرفة بطريقة القالب ـ قوام زخارفها رسوم نباتية كورقة العنب الخماسية التصوير واضح فيها التأثير الساسانى ·

3) قطعة من الجص نفذت زخارفها بطريقة الحفر المائل (المشطوف) وهى عبارة عن رسوم نباتية وهندسية محوره عن الطبيعة ، سامراء ـ القرن التاسع الميلادى ·

4) مصراع باب خشبى ـ مصر ـ القرن الثالث عشر الميلادى وأوائل القرن الرابع عشر الميلادى المطعم بالعاج ·

زخارف هذا المصراع عباره عن أطباق نجمية ذات الاثنا عشر رأسا ، تحيط بها كندة على هيئة مسدسات · تتجلى لنا بدقة فى هذه الكندات زخارف التوريق العربى ، التى تعتبر من أبرز سمات الزخرفة الاسلامية ·

5) حشوه من العاج ـ مصر العصر الفاطمى ـ القرن الثانى عشر الميلادى ·
قوام زخارفها عبارة عن رسوم آدمية وحيوانية وطيور تحيط بها زخارف نباتية وكيزان الصنوبر · نفذت بالحفر الغائر العميق ·

6) تفاصيل زخارف الاطباق النجمية التى تزين الباب المصفح بالبرونز بمسجد السلطان المؤيد ·

7) لوحة تمثل قطعة من نسيج الفساطى ، مملوءة بالاشرطة الزخرفية ـ العريضة منها تحتوى على رسوم هندسية ونباتية وحيوانية محورة عن الطبيعة · والاشرطة الضيقة تحتوى على كتابة مكونة من عبارة مكررة نصها « اليمن والاقبال » ·
مادتها من الحرير المتعدد الالوان ، مصر ـ العصر الفاطمى ـ القرن السادس الهجرى الثانى عشر الميلادى ·

8) غطاء قبر ـ صناعة شمال غرب ايران ـ القرن الثامن الهجرى بمشهد الامام على بالنجف ·

زخارفها مطرزة بعقود متعددة ـ غرزة حشوة مائلة ـ وغرزة الصليب كما استعملت غرزة الفرع ·

9) سلطانية من الخزف الاسلامي بالاندلس ذو البريق المعدني من صناعة مدينة مسية ـ القرن الثامن الهجري ـ الرابع عشر الميلادي · زخارفها زهرة مستطيلة داخل مستطيلات هندسية . أي تمتاز بعنصري الانتظام والتكرار ·

10) زهرية من خزف طراز الحمراء على أسلوب صناعة مالقه ـ القرن الرابع عشر الميلادي · هذا النوع من الخزف يمتاز بان زخارفه أقرب ما تكون الى زخرفة المعادن كما تظهر عليها كتابات نصها « اليمن والاقبال » مكررة ·

11) طبق من الخزف ذو الزخارف المطبوعة بالقالب والطلاء الزجاجي ذي البريق الاحمر . والمتعدد الالوان · صناعة هراة القرن الثالث الهجري ـ التاسع الميلادي ـ العاشر الميلادي ·

قوام زخارف هذا الطبق . رسوم بشرية محورة عن الطبيعة وكتابة كوفية بسيطة نصها يتألف من السعر لابي تمام

لا ـ ياسبن وان طالـــت سلامتـــه اذا استعقب عسر (العقب) يسرا

12) طبق من الخزف السلجوقي ـ صناعة مدينة قاشان ايران ـ 607 هـ ـ 1210 م من عمل سيد شمس الدين الحسني · قوام زخارفه رسوم ادمية وحيوانية ونباتية ·

13) طبق من الخزف القاشاني ـ ايران القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي زخارفه رسوم ادمية ذات السحنة المغوليه تتخللها رسوم نباتية ـ في الوسط رجل على ظهر حمار ·

14) طبق من الخزف التركي ـ صناعة مدينة ازنيك ـ القرن 10 هـ ـ 16 م قوام زخارفه زهرة القرنفل ـ قرن الغزال ـ زهرة الوسن وغيرها واستعمل اللون الازرق والفيروزي والبنفسجي ·

15) مشكاة من الزجاج المموه بالمساء باسم السلطان حسن ـ من انتاج مصر ـ القرن السابع الهجري ـ الثالث عشر الميلادي وعناصر الزخرفة فيها ايضة « الشعور » ـ ورسوم نباتية ـ

16) ورقة من مصحف مكتوبة بالخط الكوفي بحروف دقيقة رفيعة فيها تخطيط هندسي النمط تجري خطوطه الافقية محددة الاسطر في تقسيم يكاد يكون منتظما ويحد في التوزيع نوعا من التوازن العام من حيث التشكيل ويحدد الصفحة اطار من الزخارف المضفره · وخلفية الكتابه قد ملئ بالزخارف النباتيه التي تملأ السطوح

بأكمله في رقة وعذوبة وشفافه (عن أحمد يوسف) (1) ايران القرن الثالث عشر الميلادى ·

17) الصفحة الاولى من كتاب تاريخ الامم والملوك للطبرى ـ صناعة هراة ـ 1469 . عناصر الزخرفة فيها الرقش العربى ·

18) تصوير جدارى ـ بالالوان المائية ـ العصر الماضمى ـ القرن الخامس الهجرى ـ الحادى عشر الميلادى · يمثل شاب جالس وبيده اليمنى كأس ·

19 صورة تمثل ادم وحواء من مخطوط عبد الله بن بختشوع ـ مراغة ايران ـ القرن السابع الهجرى ـ الثالث عشر الميلادى ·

واضح فيها تقاليد المدرسة العربية فى التصوير . التى تمتاز بالتسطيح . والبعد . خلفية التصويرة · الاشجار رسمت بطريقة اصطلاحية ·

20) صورة تمثل سيرة النبى صلى الله عليه وسلم · القسطنطينية ـ القرن الثانى عشر الميلادى . يتجلى فيها صورة الرسول بلباسه الابيض يحيط برأسه هالة نورية

21) قبة الصخرة المقدسة بمدينة القدس شيدها الخليفة الاموى عبد الملك بن مروان عام (72 هـ) 691 ـ 692 م · تعتبر أقدم أثر معمارى باق واحدى روائع الاثر فى العالم الاسلامى ·

22) المسجد الكبير بقرطبة (القرن الثانى الهجرى ـ الثامن الميلادى) ـ وتبدو الصورة محراب المسجد · وأبرز سمة معمارية فريده فى هذا المسجد هى طريقة بناء السقف على أعمدة قصيرة وصعت الواحدة فوق الاخرى · ويسترعى الانتباه كذلك عقوده المفصصة الغنية بالزخارف النباتية ·

23) بهو السباع فى قصر الحمراء ـ عصر بنو نصر فى غرناطة ـ القرن الثامن الهجرى · (755 هـ ـ 1354 م) ـ الرابع عشر الميلادى ·

24) قصر الحمراء بغرناطة ـ القرن الثامن الهجرى ـ تبين لنا هذه الصورة روعة الخط العربى فى الزخرفة وروعة الزخارف النباتية والهندسية ·

25) محراب مسجد سيدى بومدين ـ تلمسان ـ عصر بنى مرين ـ القرن الرابع عشر الميلادى · نلاحظ جمالية ورقة زخارف المحراب النباتية والكتابية ·

26) مدرسة وضريح السلطان قايتباى (القاهرة) القرن التاسع الهجرى ـ الخامس عشر الميلادى ـ نرى فيها المئذنة الرشيقة ذات المقرنصات ·
القبة التى تزدان بالزخارف النباتية والهندسية المتشابكة ·

---

(1) نقلنا هذا الوصف عن الاستاذ أحمد أحمد يوسف ـ حلقة بحث الخط العربى ـ ص 90 ·

27) المدخل المفرض لمدرسه فره طاى ـ قونية عام 1251 م من العصر السلجوقى .

28) واجهة ضريح السلطان قلاوون ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر ميلادى نرى فى هذه الصورة الشبابيك المحرمة ذات الزخارف النحتية .

29) توضح هذه الصورة تفاصيل زخارف مسجد الجمعة من الخارج ـ فى اصفهان ـ القرن 12 . عناصر الزخرفة فى هذا المسجد ـ رسوم بديعة دقيقة . والخط الكوفى هندسى . وهى من الحزف التاشانى . ويعتبر هذا المسجد من أجمل المبانى فى ايران

30) المدخل الرائع لمسجد الشاه عباس باصفهان ـ ايران ـ العصر الصفوى القرن السابع عشر الميلادى .

تحو فى هذه الصورة روعة الزخارف الاسلامية كالمقرنصات المكسية بالحزف القاشانى الالوان المتعددة .

31) ضريح تاج محل ـ اجرا بالهند ـ القرن السابع عشر الميلادى شاد الامبراطور شاهجهان لزوجته ممتاز محل . وهو من أفخم العمائر الاسلامية .

32) جامع السلطان أحمد الاول باسطنبول ـ القرن العاشر عشر الهجرى ـ السابع عشر الميلادى .

33) جامع السليمية بأدرنة . العصر العثمانى ـ شاد السلطان سليم الثانى . القرن العاشر الهجرى ـ السادس عشر الميلادى . تعتبر قبته شاهقة المدنة التركيه التى تشبه القلـــم .

34) سقف كنيسه الكابلا بالبيما فى بالرمو ـ صقليه ـ القرن السادس الهجرى ـ يظهر فيها تأثير الفن الاسلامى .

35) مسجد السلطان حسن بالقاهره ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى .

36) زخارف عقد محراب مسجد سيدى بلحسن ويلاحظ دقة زخارف التوريق العربى Arabesque المفرغة فى الجص . ويعتبر هذا المحراب من روائع المحاريب فى العالم الاسلامى . لانه يمثل الذروة فى تطور الزخارف النحتية على الاطلاق .

37) اوربز من زخارف محراب سيدى بلحسن ويلاحظ اقتران الكتابه العربيه بالزخارف النباتية .

38) مئذنة المسجد الكبير بتلمسان . نلاحظ الزخارف المعمارية المشابكة .

ثـانيا : الاشكـــال :

1) شريط من الخط الكوفى ذو الارضية النباتية • واضح جدا أن المهاد المذكور من الفروع النباتية لا تتصل بالحروف • ايران القرن الرابع الهجرى ـ العاشر الميلادى .

2) افريز من الكتابة النسخية ذات الارضية النباتية ، وهى تكون جزءا من زخرفة مدخل السلطان محمد الناصر بن قلاوون • مصر ـ القرن السابع الثامن الهجريين ـ الثالث عشر ـ الرابع عشر الميلاديين •

3) افريز من العاج ـ يبين جمالية خط الثلث المملوكى ، المحور فوق أرضية نباتية ـ مصر ـ القرن الثامن الهجرى ـ الرابع عشر الميلادى ـ

4) حشوة حشسة ، من العصر الطولونى ـ مصر ـ القـرن الثالث الهجرى ـ التاسع الميلادى •

نلاحظ فيها تأثر طرز سامراء الجصه فى الحفر المشطوف •

5) حيوانان خرافيان متقابلان ـ يعلوهما شريط مـن الكتابـة نصهـا « السلطان المعظم » ـ ايران ـ القرن الخامس ـ الثامن الهجريين •

6) الاطباق النجمية ـ وطريقة تكوينها ـ اشتهر هذا النوع مـن الزخارف المعشق فى مصر ، ثم انتشر منها الى المغرب والاندلس •

7) اشتهر هذا النـوع مـن الزخارف المعمارية المصفرة فى تزيين المآذن فى المغرب والاندلس فى العصور الوسطى وهو عبارة عن معينات متشابكة •

8) حشوة هى جـزء مـن صندوق ـ صناعة ايـران ـ القرن الثامن أو الثانى عشر الهجريين ـ تبين بجلاء الزخارف النباتية القريبة من الطبيعة ، المحفوت على العاج

مـــراجـع البحـــث :

1) أبو صالح الالفى : الفـن الاسلامى أصوله وفلسفته ومدارسه ـ دار المعـارف ـ القاهرة 1965 ـ الخط العربى ووظيفته فى الفنون الاخرى ـ حلقـة بحـث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 .

2) أحمد أحمد يوسف : الخط العربى وأساليبه فى الحياة العامة ـ حلقة بحث الخط العـربى .

3) بشرفارس : سر الزخرفة الاسلامية ـ القاهرة 1952 .

4) حسن الباشا : فـن التصوير الاسلامى فى مصر ـ دار النهضة العربية ـ القاهرة 1973 .

5) حسن الباشا : حلقة بحث الخط العربى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1968 .

6) ديماند : الفنون الزخرفية الاسلامية ـ ترجمة أحمد مـــوسى ـ دار المعـارف ـ القاهرة 1958 .

7) ريتشارد اتينغهاوزن : فن التصوير عند العرب ـ ترجمة . الدكتور عيسى سلمان والدكتور سليم طه التكريتى ـ وزارة الاعلام ـ بغداد 1973 .

8) زكى محمد حسن : الفنـون الايرانية فى العصر الاسلامى ـ دار الكتب المصرية ـ القاهرة 1954 ـ زكى محمد حسن : الفن الاسلامى فى مصر ـ القاهرة 1935 .

9) شاخت وبوزوث : تراث الاسلام ـ القسم الثانى ـ ترجمة حسين مؤنس واحسان ـ عباس ـ الكويت 1978 .

10) علام (نغمت اسماعيل) : فنون الشرق الاوسط من الغزو الاغريقى حتى الفتـح الاسلامى ـ دار المعارف ـ القاهرة 1975 .

11) فريد شافعى : العمارة العربية فى مصر الاسلامية ـ عصر الولاة ـ المجلد الاول الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ القاهرة 1970 .

12) فريد شافعى : الزخارف التأسية البسيطة فى الفن الاسلامى .

13) مانويل جوميث مورينو : الفن الاسلامى فى اسبانيا ترجمة عبد العزيز سالم ولطفى عبد البديع ، دار الكتاب العربى القاهرة 1968 .

14) مصطفى الحبيب : اقتران الكتـابة بالعمارة ـ رسالـة اليونسكو العدد 199 ـ فبراير 1978 .

15) المعالم الاثرية فى البلاد العربية ـ الجزء الاول ـ جامعة الدول العربية ـ الادارة الثقافية ـ القاهرة 1970 .

تتطلب منك بصفتك مسلما ان تعلم حكم شريعتك فيها ... ومنها مثلا وجود الانسان على سطح القمر ، فكيف يجرى على نفسه أحكام دينه فى عبادته ؟ ... الى غير هذا من المحدثات العصرية ... وهذا مما يبعث على تجديد النظر ومراجعة النصوص على ضوء وضعية العصر الحديث ودرسهما دراسة عميقة لحل مشكلات هذه القضايا المتجددة فى كل لحظة وحين ...

وبما أنك ملزم أيها المسلم بحكم الضرورة على مسايرة عصرك وممارسة أو ملابسة هذا الجديد فكان لزاما عليك أن تعلم رأي الدين فى ذلك ، وانى لك ذلك وليس لديك نصوص تطبقها على الحادثة الجديدة ؟ ... فكيف يكون العمل اذا وأنت مضطر للتعامل مع الخلق ؟ ... فمن هنا نرى وجاهة رأي من أبى ورفض القول بغلق باب الاجتهاد فى الدين ، وقال بفتح الباب على مصراعيه (اجتهادا وتجديدا) لكن من حاز شروط الاجتهاد الشرعية كما هي مقررة مفصلة فى مضانها من كتب علم الاصول .

فالاسلام كما تنص عليه أصوله الاصيلة من كتاب وسنة هو دين عملى صالح لكل زمان ومكان ونظام مرن اجتماعى خالد فيجب اجراء قوانينه وجميع أحكامه وفق مقتضى روح العصر فى اطار مبادى الشريعة العامة وقواعدها الصحيحة التى تدعو الى مصالح الناس ودفع الحرج عنهم حسب ما نطق به القرآن : **ما يريد الله ليجعل عليكم من حرج** . (المائدة : 6) . **يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر** . (البقرة : 185) وما جاء فى السنة من قوله صلى الله عليه وسلم :

« يسروا ولا تعسروا ، وبشروا ولا تنفروا » ، فان لنا فى هذا مجالا واسعا والوقت قد حان ، لا سيما وان التطور والتغيير قد لحق كل شىء وأصبحت المدارس فى العالم اليوم تعلم الناس الاستقلال فى التفكير للوصول الى معرفة الاشياء والحكم عليها بأنفسهم بطريق التجربة والقياس ، فالاوضاع نراها كما تراها يا أخى تتغير وتتطور فى كل حين وآن .. فهناك دول وحكومات نشأت وهناك أمم كانت مستعمرة فاستقلت وهناك منظمات وأحزاب سياسية تكونت وجماعات دولية تأسست ، وهيآت حاكمة استبدت ومذاهب فى العقائد والاجتماع قد بدت ، وقوانين ومعاملات حديثة فشت وتقررت ... فليس من المعقول أن يبقى الاسلام مكتوف الايدى منظرا الى هذا التطور الشامل لسائر مناحى الحياة كلها بدون أن يتخذ لنفسه موقفا عمليا يثبت فيه وجوده الضرورى كدين صالحة للسير بهذه الحياة الى الابد وانه بحق هو دين التجديد المستمر مع الزمن كيفما كان الحال الى قيام الساعة .

فان فى ضمن الحديث النبوى الوارد فى التجديد الامر بالتجديد والحث على ذلك وان كانت صيغته هي من باب صيغة الاخبار بالمغيبات ففيه الى ذلك تشويق

الى الاحراز على هذه المنقبة العظيمة، منقبة التجديد ، وهذا من اعلام النبوة .

وفى هذا الصدد جاء فى جريدة الاهرام المصرية (1384/9/27 هـ) سؤال طرح على شيخ الازهر ، يقول السائل

« الى أي حد يمكن تطور الدين تبعا لتطور المجتمع ؟ » فكان الجواب كالتالى :

« ان للدين الاسلامى أحكاما أساسية واحكاما تبعية وفرعية ، والاحكام الاساسية تبقى ما بقى الزمن ولا يجوز فيها التغيير . أما الاحكام الفرعية أو التبعية فهذه تخضع لما يثبت فى الكتاب والسنة ، واذا لم يوجد فى الكتاب أو السنة نص جاز الاجتهاد والاخذ بما يحقق مصلحة المجتمع » . فمعنى هذا ان المسائل الفقهية ما دامت غير قطعية الدلالة فهي قابلة بحكم الشرع نفسه للتجديد والتغيير .

وانطلاقا من حديث أبى هريرة هذا أخذ الفقهاء والمؤرخون فى البحث عن المجددين فى الاسلام سلفا وخلفا ، فقالوا انه كان على رأس المائة الاولى من الهجرة عمر بن عبد العزيز ، وعلى رأس المائة الثانية الشافعى ، والثالثة بن سريج أو الاشعرى ، ذكروا للمائة الرابعة كلا من أبى سهل محمد بن سليمان الصعلوكى والاسفيرايني - أو الباقلانى ، والخامسة الغزالى ، السادسة الفخر الرازى ، والسابعة بن دقيق العيد ، ... وهكذا نجدهم يعددون أسماء المجددين على رأس المائة طيلة الاربعة عشر قرنا التى عاشها الاسلام .

قال بعض شراح هذا الحديث انه لا يلزم أن يكون المبعوث المجدد على رأس المائة رجلا واحدا ، بل قد يتعدد المجددون فى القرن الواحد ، فيكون كل واحد منهم مجددا و ناحية من نواحى هذا الدين ، بحيث يكون كل واحد منهم عاملا فى ميدان خاص من ميادين الحياة العلمية والعملية والدينية ، فان كلمة (من) هنا فى الحديث هي للجمع لا للمفرد كما قال الذهبى ، فكل واحد ينفع بغير ما ينفع به الآخر ، وأقول بأن حمل تأويل هذا الحديث على هذا الوجه هو أولى وأشبه بالحكمة والمعقولية ، ولهذا نرى بعضهم يختلف مع غيره فى ذكر أسماء المجددين وعددهم فى كل قرن ، فمنهم من يضيف أسماء بعض الخلفاء الممتازين كعمر بن عبد العزيز ، وهارون الرشيد ، والخليفة المسترشد ، والمقتدر ، والقادر ، والمأمون وغيرهم ... وفى هذا اشارة منهم الى ان العرض من وجود المجدد هو حدوث جماعة من كبار المشهورين على رأس كل مائة سنة يجددون للناس دينهم ويحفظونه عليهم فى اقطار الارض ، وهذا يرجع الى اختلاف أنظار العلماء فى نوعية التجديد والمجددين .

وقد يوجد المجدد فى أكثر من مائة سنة وقد يكون فى أقل من ذلك . فليس

الإسلام والنهضة الحديثة

الاستاذ عبود علواش
استاذ بجامعة الجزائر

لم يكن الاسلام مجرد عقيدة فحسب تعنى بالعلاقة بين الانسان وربه ، وكيف ينبغى أن تكون هذه العلاقة ·· بل كان الى جانب ذلك شريعة الهية ترسم الطريق وتضع القوانين لبناء مجتمع يسوده العدل ويرفرف عليه الامن والاطمئنان ، ومن هنا كانت له رسالته الحضارية الهامة التى انتقلت بالمسلمين من حياة قلقة مضطربة تمزقها الاهواء والصراعات · وتتحكم فيها القوة الغاشمة ومنطق البقاء للاقوى الى حياة يمثلها القانون ويسيطر عليها منطق العدل والاخوة والمساواة ·

نظر الاسلام الى الانسان نظرة تكريم باعتبار ما ينطوى عليه من طاقات مادية وروحية جبارة وما يشتمل عليه من قدرات واستعدادات تؤهله للسيطرة على الكون واخضاع الطبيعة لصالحه وصالح بنى جنسه فدعاه الى تنمية هذه القدرات بالعلم الدقيق والبحث العميق ، وحثه على امتحان ذلك كله بعقله واستخدامه فى كل ما يحيط به وما يصل اليه من نتائج ·

كما رسم له الخطوط العريضة التى تنظم حياته وعلاقاته الاجتماعية انطلاقا من المجتمع الصغير ـ الاسرة ـ الى المجتمع الكبير ، وترك التفاصيل والجزئيات لاجتهاده وتكييفها طبقا للظروف ومقتضيات الاحوال ـ كل ذلك لعمارة الارض وتحسين سبل العيش والحياة ـ وفى كل ذلك كان الاسلام يحرص على الشورى فى القيادة وانخاد القرار ، والعدالة فى الحكم وتطبيق القانون ، والنزاهة وحسن الاستقامة فى المعاملة والسلوك · وقد أدرك المسلمون الاوائل طبيعة الاسلام ومراميه البعيدة فراحوا يعملون على هديها لوضع اللبنات الاولى لدولة الاسلام العتيدة ، وحضارته الانسانية الشاملة · ولم يستنكف خلفهم من الاستفادة من تجارب الامم والشعوب الاخرى فأخذوا يدرسون ذلك التراث الضخم · ويعملون

على توجيهه وصبغته بالصبغة العربية الاسلامية الجديدة فاثروا بذلك تراثهم وحضارتهم التى استفادت منها الانسانية فوائد كبيرة · وكانت سندا لها عبر نضالها الطويل من أجل الازدهار والتقدم ·

ولكن المسلمين فيما بعد مالوا الى حياه الدعة والخمول ، وانفصلوا عن تلك الحياة المليئة بالعمل الجاد والعطاء المستمر ، فخارت قواهم وتعطل ابداعهم، ورادتهم الصراعات السياسية والفوضى الاجتماعية وكوارث الغزو الاجنبى ضعفا على ضعفهم فاستسلموا لنوم عميق دام ما يقرب من ستة قرون · (1)

الا انه بالرغم من هذه المحن القاسية التى تعرضت لها الامة العربية الاسلامية والاحداث التى نزلت بها فانها لم تستطع القضاء عليها وعلى ما غرسه الاسلام فى نفوسها وما شادته النفوس المؤمنة العاملة بجهدها ودأبها · فقد بقيت تلك الروح الدينية الرباط المقدس الذى يربط بين أبناء هذه الامة المغلوبة على أمرها تلتجىء اليها كلما داهمها خطب فتجد فى كنفها القوة والصمود (2) كما بقيت بعض المؤسسات الاسلامية تؤدى رسالتها فى ضعف الا انها حافظت على تراث هذه الامة من التلاشى والاندثار ومكنت بعض أبنائها من أن يكونوا رسل النهضة والحضارة العربية الاسلامية الحديثة · لقد ادرك بعض رجال العلم والثقافة ممن أنجبتهم تلك المؤسسات ما تتخبط فيه الامة الاسلامية من فقر وجهل وما يسيطر على عقولها من خرافات وشعوذات فاقبلوا يلفتون الانظار الى هذا الواقع المزرى داعين الناس الى الاخذ باسباب العلم والمعرفة والتمسك باهداب الدين والرجوع الى منابعه الصافية البعيدة عن الشعوذات والخرافات التى أصبح السواد الاعظم من المسلمين يعتقد انها من الدين والدين براء منها · (3)

أخذت هذه الافكار تسرى فى المجتمعات الاسلامية بالرغم مما تلاقيه من محاربة الحكام المستبدين ، واتباعهم من رجال الدين الرسميين الا أن الحجر على الافكار الاصلاحية لم يكتب له النجاح · وبدأت آثار هذه الافكار تجد صداها لدى الجماهير وفى كثير من الحركات التى قامت فى مناطق مختلفة من العالم العربى والاسلامى مطالبة بالثورة على الواقع ومحاولة تغييره ·

ولعل اهم هذه الحركات جميعا الحركة الوهابية التى قامت فى الحجاز بزعامة ابن عبد الوهاب · لبست هذه الحركة لباس الدين واتخذت منه نقطة انطلاق لتغيير حالة العالم الاسلامى ·· فدعت للعودة من جديد الى الدين الاسلامى الصحيح ونبذ ما علق به من أوشاب عصور الضعف والانحطاط وما أضافه اليه بعض الدراويش من أدعياء الدين ، كما دعت الى ما ندب اليه هذا الدين من حب للعلم وحث على

طلبه واستعمال للعقل وتكريمه والتحلى بالاخلاق الرفيعة والخلال الكريمة · وبالحملة كانت الحركة الوهابية عودة الى الدين من جديد ومحاولة الانطلاق منه كما انطلق رواد الاسلام الاول لبناء دولة الاسلام ووضع أساس حضارته · وقد أحدثت هذه الحركة هزة عنيفة فى المجتمع العربى الاسلامى وانشراب الناس الى ما تحمله من مبادىء وأفكار وقيم فتأثر كثير منهم بدعوتها الامر الذى دعا العثمانيين الى الاسراع بمحاصرتها ومحاولة القضاء عليها فى مهدها ، لما تشكل من أخطار على الخلافة العثمانية ذاتها وتعرضها للخطر · (4) الا أن الشعور بالتغيير أضحى حديث الناس، والمطالبة بالاصلاح أصبحت الشغل الشاغل لاحرار الفكر خاصة بعد أن تأكد لهم تحفز العرب للانقضاض على العالم الاسلامى بغية التهامه ·

كانت اذا هذه الافكار والدعوات تعمل فى المجتمع الاسلامى وتجد صداها لكبير داخل جماهيره يحدوها الامل فى غيير واقعها واعادة العزة والسيادة لتى حققها الاسلام لها · وذلك قبل أن رى مدافع نابليون وهي تدك مدن مصر الشام لزرع الخراب والدمار بهـا تثبيت دعائم الاستعمار الغربى فيها · من هنا يمكن القول بأن هذه الحركات لافكار التى مهدت لها تعد البداية حقيقية لليقظة الاسلامية ، (5) ما يذهب اليه بعضهم من جعل حملة بليون البداية الحقيقية لعصر النهضة الحديثة ، نظرا لما رافقها من تنظيمات عسكرية وما جهزت به من أسلحة حديثة ، وما صاحبها من علماء وادباء ثم ما أحدثته فى مصر من مؤسسات وتشريعات لم يكن للمصريين عهد به فكانت هذه الاعمال جميعا الصدمة القوية التى أعادت للمسلمين والعرب وعيهم الحقيقى بواقعهم المتخلف ودفعتهم الى التخلص من هذا الواقع عن طريق تبنى أساليب النهضة الاوروبية فى البناء · (6)

اننا لا ننكر دور النهضة الاوروبية وتأثيرها على النهضة العربية الاسلامية الحديثة · لانه ما من نهضة أو حضارة الا وتأثرت بغيرها من النهضات الانسانية واقتبست منها ، كما اننا لا ننكر دور الحملات العسكرية وتأثيراتها عبر التاريخ ، واستفادة المتصارعين من انجازات بعضها فى مختلف المجالات ولكننا نعتقد أن اعطاء هذا القدر من الدعاية للحملة الفرنسية فى تغيير عقلية الامة ، وسرعة اقبالها على منجزات الحضارة الغربية وتمثلها لها دون أن تتقدمها مرحلة من الوعى والاستعداد لقبول التغيير ـ أمر ينطوى على كثير من المبالغة التى لا يقرها واقع التاريخ ، ولا طبيعة المرحلة التى وقعت فيها هذه الحملة ، والاهداف التى قامت من أجلها ·

ذلك ان الحملة الفرنسية كانت كغيرها من الحملات الاستعمارية التوسعية وان حاول قائدها لبوس مسوح الرهبان ،

والتظاهر بالروح الانسانية لانقاذ المصريين من ظلم المماليك والاتراك العثمانيين والقضاء على الجهل والاستغلال اللذين كان يعانى منهما المصريون · وما كان لحملة هذه اهدافها أن تكون فاتحة للنهضة أو بادرة خير يمكن للمصريين الاستفادة منها والاستعانة بها للخروج من تخلفهم · ولعل ما قام به نابليون وجنوده من فضائع ومنكرات بعد ثلاثة اشهر فقط من احتلاله لمصر تدل على مدى نوايا (الطيبة) ، لمصر ، ورسالة التمدن التى يحملها اليها ·

على ان الحملة من ناحية اخرى لم تستمر طويلا بفضل المقاومة الشعبيه لها من جهة والصراع القائم على مناطق النفوذ بين فرنسا وانجلترا من ناحية اخرى الامر الذى لم يمكن هذه الحمله من تثبيت دعائمها وخلق قاعدة صلبة للاستعمار الفرنسى يستطيع بواسطتها احتواء الشعب المصرى ، وتكييفه مع المعطيات الاستعمارية الجديدة وجعل مصر مركزا من مراكز الثقافة الاوروبية الوافدة بحيث تمكن الشعب المصرى من امتلاك أسباب النهضة الاوروبيه الحديثة · (7)

وأخيرا فان اعطاء هذه الحملة ذلك الحجم الواسع والدعوى العريضة انكار سافر لامكانيات الامة الذاتية ، واجهاض للحركات والدعوات التى كانت تنادى بضرورة التغيير والاخذ بأسباب التقدم ، وما من شك فى ان الشعور بالضعف والرغبة الملحة فى الخروج من دائرته يعدان الاساس الحقيقى لظهور اية نهضه ونجاحها · لانهما يدلان على نضج الشعب وتقبله لاي حركة اصلاحية او ثوره اجتماعية · وذلك ما كان يفتقده العالم الاسلامى قبل ظهور هذه الحركات والدعوات ·

ومهما يكن من امر فقد تمكنت هذه الحركات من فرض كثير من الاصلاحات على الدوله العثمانية ولكن هذه الاخيره كانت قد بلغت درجة كبيرة من التدهور والفساد لم تمكنها من مواكبة الاحداث والاخذ بأساليب النهضه الحديثة فى بناء النهضة العربية الاسلامية الشاملة الامر الذى ادى الى سقوطها وانقسام ممتلكاتها من قبل الاستعمار الغربى فى منتصف القرن التاسع عشر وبذلك دخل العالم العربى والاسلامى فى مرحلة جديدة من مراحل تطوره ونضاله ·

أمام هذا التكالب الاستعمارى ، والتهامه لمناطق عديدة من العالم الاسلامى تحرك شعور الامة الدينى والوطنى من جديد وقامت جماعة من المصلحين تدعو الى جمع الكلمة ووحدة الصفوف لمواجهة الغزو الاستعمارى البشع · وكان هؤلاء المصلحون على درجة كبيرة من الوعي والايمان والالمام بالمعطيات الراهنة ومن ثم كانت دعوتهم تتسم بالنشاط الشامل والوعي الكبير · بحث هؤلاء أسباب ضعف العالم الاسلامى

تأخره كما حاولوا استجلاء قـــوة غرب وتقدمه ، ودراسة مختلف الوسائل الطرق لاستعادة أمجاد الامة العربيـة لاسلامية والخروج بها من هذا الضعف لشين ·

كان دعاة الاصلاح فريقين : فريق محور حول جمال الدين الافغانى وتبنى راءه الاصلاحية · وهي آراء تنطلـق رة أخرى من الديـن واستلهـام روح لماضى مع الاخذ بالتطورات العلميـة حديثة التى آتت أكلها فى الغـرب · فريق آخر كان من أولئك الذين أوتـوا صيبا من الثقافة الاوروبية واحتـك عض رجاله احتكاكا مباشرا بالمجتمعات غربية ولمسوا عن كثب حقيقة التطورات ـتى تشهـدهـا تلك المجتمعـات حاولوا تقليدها وبنـاء مجتمعهـم لمتخلف على غرارها · وقد تطرف بعض ن هؤلاء فدعوا الى الانسلاخ من كـل ثر للماضى والارتماء فى أحضان النهضة لاوروبـية وتبـنى مختلف المـبـادىء الاسس التى قامت عليها · (8) الا انه الرغم من هذا الاختلاف فى المنطلـق بعض الوسائل فان نقاط الالتقاء بيـن لفريقين كانت أكثر من نقاط الاختلاف ·

لئن دعا الفريق الاول للانطلاق من لدين واستلهام تراث الماضى فلانـه قدر الدور الذى يلعبه الدين فى بنـاء لمجتمعات وتماسكها والحفاظ عـلى حدتها كما انهم فى دعوتهم هذه لـم نظروا الى الدين فى صورته التى بلغها بان عهود الضعف والانحدار · ومـا الحق به من أفكار وصور لا تتلاءم مع جوهره الاصيل وروحه المتحررة كمـا انهم لم يغمضوا أعينهم على حقيقـة التطورات الغربية والاسباب الكامنـه وراءها ـ وهكذا بعد البحث الدقيـق لاوضاع العالم الاسلامى تمكن هـؤلاء من وضع الايدى عـلى الادواء والعلـل التى كانت السبب فى تقهقره وتخلفـه وجعله فى النهاية لقمة سائغة للغـرب وأطماعـه ·

لقد رأى هؤلاء أن سبب الانتكاسـة التى يعانى منها العالم العربى الاسلامى يكمن فى الاستبداد السياسى والحكـم المطلق الذى يسـخر مقـدرات الامـة لصالحه وصالح الجماعة المحيطة بـه ومن تم نادوا بالعودة الى الشـورى والديموقراطية التى نادى بها الاسلام واحترمها العقلاء كي تتمكن الامة مـن اختيار الرجل المناسب الذى يجسـد آمالها ويحقق مطامحـها وأحلامها فى الحرية والعدالة الاجتماعية فلا تستأثر جماعة بخيرات الوطن · وتنعم بحياة الرفاهية بينما تعيش غالبية المواطنين تكابد آلام البؤس وجحيم الشقاء · وقد لاحظ الكواكبى هذه الظاهرة فى المجتمع الشرقى فندد بها وهاجم الحكومات التى تتجاهل هذه المأساة وتعمل على زيادة تعميقها فقال ساخرا منها : « لقد جعل الدين الاسلامى فى أموال الاغنياء حقا معلوما للفقراء ولكن الحكومات الاسلامية قلبت الاوضاع فصارت تأخذ الاموال من الفقراء وتعطيها للاغنياء » · (9)

كما هاجموا تلك الدعوات التى يلوذ بها الحكام المستبدون من أنهم انما يقومون بممارسة سلطتهم بموجب الحق الالهى الذى منح لهم كي يخدروا الجماعة الاسلامية ويحملوها على قبول سياستهم الجائرة وعدم محاربتها لهم ، ولذلك نجد سعيد البستانى يهاجم هذه الدعوى ويؤكد أن « ما رسح فى عقول الملوك من حق سماوى أعطته لهم العناية الالهية انما هو حق منحته لهم الغلبة ، ، والغلبة لن تكون يوما منحة الهية » · (10) والاستبداد عدو المعرفة والعلم يعمل بكل امكانياته على بقاء الجماهير أسيرة الجهل حتى يسهل عليه حكمها وبالتالى توجيهها كما يشاء ، دون أن تجد مقاومة أو نقدا لاعماله ، ويوضح الكواكبى حقيقة هذه الظاهرة فيؤكد أن الاستبداد لا يعيش « ما لم تكن الرعية تتخبط فى ظلام الجهل ـ فأخوف ما يخافه المستبدون من العلم أن يعرف الناس حقيقة أن الحرية افضل » · (11) ومن هنا نادى هؤلاء المصلحون بفتح مجالات التعليم وتمكين أبناء الامة من حقهم المشروع فيه لانه أساس التكوين وصنع المستقبل ولم يقتصروا فى دعوتهم على التعليم النظرى بل دعوا الى ربط ذلك بالعلوم العملية التى بواسطتها يسيطر الانسان على الطبيعة ويستغل طاقاتها ومواردها لتقدم الامة وازدهارها أسوة بما وصل اليه التعليم فى أوروبا وما نجم عنه من احتراعات وابتكارات فى مجال التقنية والتصنيع ·

ولم يقصروا دعوتهم على تعليم الذكور بل دعوا الى العناية بالمرأة وتعليمها واخراجها من ذلك السياج المحكم الذى ضرب حولها لتصبح مجرد أداة للتفريخ والانتاج بعيدة عن واقع العصر ومتطلبات التربية الحديثة للاحياء وضرب هؤلاء المثل للناس بالمرأة المسلمة فى الماضى والاسهامات التى كانت تسهم بها فى صنع الاجيال · وهى كثير من المعضلات التى يواجهها المجتمع وبذلك لم تختلف عن أخيها الرجل الا فى الحدود الطبيعية ، ولكن عصور الظلام أجبرتها على النزول من مكانتها وفرضت عليها أن تكون « رهينة المحبسين » البيت والجهل · وبذلك شلت نصف طاقة المجتمع · وفشلت التربية البيتية فى صنع الجيل الذى يواكب تطورات الحياة ويكون عضوا فاعلا فيها ·

ولم يغمض هؤلاء أعينهم عن الجمود الفكرى الذى استشرى فى الامة بفعل الجهل من جهة وغلق باب الاجتهاد والحجر على العقول من جهة أخرى فحاربوا هذه الظاهرة المشينة ، وأكد جمال الدين الافغانى أن باب الاجتهاد مفتوح أمام من توفرت فيه شرائطه ملفتا نظر المستنيرين الى ما سببه الجمود الفكرى والعكوف على رأي السابقين ـ رغم تغير الظروف ـ من مآسى التأخر

لانحطاط · ودعا الى حرية العقل ستنباط القوانين التى تتلاءم مع شاكل والظروف الراهنة حتى يتمكن عقل الاسلامى الحديث من الخلق لابداع كما أسهم العقل الاسلامى فى ـاضى ·

وكما تنبه المصلحون الى خطورة ستبداد على العلم والعقل تنبهوا ضا الى خطره على الاخلاق وهي أجدى دعائم الاساسية الهامة فى بناء جتمعات وبقائها ففى ظل الاستبداد وارى الصدق · وتعدم المروءة ، تقبر الشجاعة ، ويشيع الرياء · يقول كواكبى واصفا أدواءه الاجتماعية ه : « يرغم الاخيار منهم على الفة رياء والنفاق ، ويعنى الاشرار على جراء ما فى نفوسهم أمنيز حتى من لانتقاد لان أكثر أعمالهم تبقى مستورة ·يلقى عليها الاستبداد رداء خوف الناس من تبعة الشهادة » · (12)

كانت هذه الآراء الاصلاحية بالرغم من تباين اتجاهات بعض أصحابها واختلافهم فى الوسائل البؤرة التى جمعت حولها كثيرا من رجال الثقافة والفكر ، ومكنت من جلب كثير من الانصار والاتباع فى مناطق مختلفة من العالم الاسلامى فاتسع بذلك نطاق الدعوة الاصلاحية وتغلغل فى أوساط الجماهير فازداد وعيها ، وايمانها حريتها ووحدة مصيرها الامر الذى مكن التلاميذ المتأخرين من استغلال هذا الوعى وتوجيهه لمحاربة الاستبداد والاستعمار والحصول على الاستقلال وارساء دعائم النهضة العربية الاسلامية على أسس من الحرية الحقة التى أصبحت الجماهير هي سيدة مصيرها ، والعدالة الاجتماعية المستنيرة التى تقوم فى ظلها الجماهير باستغلال مواردها الاقتصادية والاستفادة منها فى ايجاد عوامل الرفاهية والتقدم لها ·

وما من شك فان احتكاكها المباشر بالغرب مكنها من الاستفادة الواعية من منجزاته التقنية ومحاولة استخدامها لنموها والخروج من التخلف الذى فرض عليها ، وها هي نتائج تلك الآراء تظهر كواقع ملموس فى حياة هذه الامة وسعيها لامتلاك مختلف أسباب التقدم، ومع مسيرة البناء الحثيثة تبدو لنا مدى قوة تلك الاسس التى وضعها الاسلام وقامت عليها مدنيته · وقدرة تلك الاسس على الاستمرار والفاعلية فى بناء النهضة العربية الاسلامية الحديثة واثرائها . كما أنها كانت من أهم الاسباب فى المحافظة على شخصية هذه الامة ، وعصمتها من الانفصام عن ماضيها ، وعوامل الذوبان التى تعرضت لها · وفى كل هذا دليل حي على مدى مواكبة الاسلام لمختلف التطورات وقدرته على التفاعل مع كل التيارات الحضارية النافعة ، ومدها بكل وسائل التطور والنماء ·

هـوامش البحـــث :

1 ـ الاسلام بين أمسه وغده . د· محمود قاسم ص 32 ـ 54 الانجلو المصرية ـ القاهـــــرة

2 ـ المصدر السابق نفسه ص 160 ـ 162 ·

3 ـ المصدر السابق نفسه ص 32 ـ 34 ·

4 ـ التاريخ الموحد للامة العربية . د· على حسنى الخربوطلى ص 107 المطبعة الثقافية ـ القاهرة 1970 ·

5 ـ المصدر السابق نفسه ص 210 ـ 211 ·

6 ـ د· فيصل السامر · العرب والحضارة الاوروبية ص 44 ـ 46 منشورات وزارة الاعلام ـ بغداد 1977 ·
وانظر أيضا : د· فاروق أبو زيد عصر التنوير · ص 15 ـ 21 بيروت 1078

7 ـ التاريخ الموحد للامة العربية ص 211 ·

8 ـ الاسلام بين أمسه وغده · ص 163 ·

9 ـ رواد النهضة الحديثة · محمد الشرقاوى · ص 64 ـ القاهرة 1060 ·

10 ـ د· فاروق أبو زيد : عصر التنوير · ص 97 ·

11 ـ المصدر السابق نفسه · ص 100 ·

12 ـ المصدر السابق نفسه · ص 100 ·

سيصدر قريبا كتاب :

فى 5 مجلدات (بالعربية)

15

العالم الاسلامى بين مواجهة التحدى والخلق الحضارى

الاستاذ عبد اللطيف عبادة
[illegible]

من قوانين العمران العزيزة على ابن خلدون « ان المغلوب مولع ابدا بالاقتداء بالغالب فى شعاره وزيه ونحلته وسائر أحواله وعوائده » · وساد هذا المنطق الجدلى العالم الاسلامى مدة طويلة من تاريخه المعاصر فتشبه بالغرب فى كيفيات التفكير وكيفيات العمل وفى النظم السياسيه · غير أن تعمق الوعي السياسى والايديولوجى جعل العالم الاسلامى يواجه التحدى الغربى الذى لا يجده على الصعيد المادى والسياسى فحسب بل يجده أيضا على الصعيد العقائدى · واذا اقتضت المواجهة سبقا فانما تقتضى خلق وابداع كيفيات تفكير وكيفيات عمل نوعية نابعة من شخصيته وأصالته · ذلك أن حركة المواجهة ليست حركة سلبية بحتة ترفض ما يرد الى العالم الاسلامى من الغرب بل هي تفاعل واخذ وعطاء ونقد بناء يمهد السبيل الى ايجاد أسلوب حياتى نابع من الشخصية والتاريخ الخاص بالعالم الاسلامى وهي بالاضافه الى ذلك نقد ذاتى اذ البناء يقتضى تنويه الامكانيات الذاتية وصقلها وتنقيتها من الشوائب وانبرارها من حالة الكمون الى حالة الفعل ·

بدأ العالم الاسلامى فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى منذ بزوغ حركة النهضة فى رقعته · وكانت بداية المواجهة فى شكل نقد ذاتى اذ تقتضى حكمة الله العلي القدير انه « **لا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم** » · وكان منطلق المواجهة نابعا من التحدى الحقيقى [illegible] الذى [illegible] الوهن والضعف ·

واحرى بنا ان نقارن العالم الاسلامى فى بداية نهضته بسواه من النهضة فى العالم المسيحى خلال العصور الوسطى على الا نغرب عن

لنا أثناء اجرائنا لهذه المقارنة الابعاد حالية للتحدى التى لا يمكن أن نقول نها الا أنها عملاقة ، والصفات المميزة ل من الايديولوجية المسيحية والعقيدة سلامية ·

كما أنه يجدر بنا أن نعترف بوجود ارق بين مختلف الاقطار الاسلامية ، فى ميدان النقد الذاتى أو فى ميدان خيص الداء ووصف أعراضه أو فى دان مواجهة التحدى أو فى ميدان خلق الحضارى · فحركة النهضة فى كستان تختلف عن حركة النهضة فى غرب الاسلامى · واختلافهما ناتج عن تلاف الظروف والمشاكل · غير ان ذه الفوارق ليست جوهرية الى حد علنا نتكلم عن الاسلام الافريقى الاسلام الايرانى والاسلام الآسيوى كما علو لبعض الانثروبولوجيين من ستشرقين · فالعالم الاسلامى واحد اضيه وبمشاعره وبآماله وهو واحد ق كل ذلك بوحدة الكتاب الذى لم حقه تحريف · وان اختلفت التأويلات ستبقى مجرد تأويلات قد تصمد أمام تاريخ والاجيال أو لا تصمد · وكان لى العالم الاسلامى أن يواجه التحدى لى جميع الجبهات والاصعدة وعلى جه التحديد كان عليه أن يقف بحزم د الغزو العسكرى والهيمنة الاقتصادية لغزو الفكرى وضد تسرب العادات لتقاليد الغربية الى المجتمع الاسلامى، كذا الانحلال الاخلاقى وتفسخ الاواصر ائلية · كما كان لزاما عليه مواجهة مصيره بعزم لا يلين بمواجهة التخلف الاقتصادى والجهل والمرض ·

وقد كان الغرب آنذاك يدافع عن فلسفة عرقية ورجعية مفادها أن العالم صنفان . بدائى ومتحضر ، ديكارتى الاستدلال وخاضع لذهنية ما قبل المنطق . منحرر من ربقة التقاليد والخرافات ومتشبث بها · وهم لا يقفون عند هذا الحد بل يكادون يعتقدون أن هذه الصفات جبلية لا تزول بمفعول جدلية التطور · وينيطون بأنفسهم مهمة تحضير هذه الاقوام « المتوحشة » ·

والتحضير فى نظرهم غاية نبيلة ومهمة أخلاقية تبرز جميع الوسائل اللاأخلاقية التى تبذل لاجل تحقيقه سواء تمثلت فى احتلال الوطن بالقوة أو فى نهب الخيرات أو فى تقويض مقومات شخصية العالم الاسلامى وهويته ·

فى حين أن العالم الاسلامى انقسم فى مواجهة التحدى الحضارى الغربى شيعا وأحزابا : فمنهم دعاة التغريب ومنهم الجموديون الوثوقيون ومنهم دعاة الاصلاح وقادة الثورات · والحق يقال أن كلا من دعاة التغريب والجموديين الوثوقيين يمثلون مواقف سلبية · فدعاة التغريب يرفضون الاعتراف للاسلام ومبادئه بقدرة التلاؤم مع عصرنا الحالى لذلك ينسلخون منها ويتنكرون لها ويتبنون مواقف مستوردة من المادية الجدلية أو من البراجماتية أو من العلمانية أو من شتى الفلسفات الت

لا تنسجم وتراثنا الحضـارى · ويرون أن طريق الخلاص هو طريق التقليـد الاعمى للغرب وأنه أحـرى بالبلـدان الاسلامية أن تشارك الغرب حلو الحياة ومرها · أما الجموديون الوثوقيـون فقد تشبثوا بالماضى ورفضوا التكيـف مع متطلبات العصر · غير أن المتشبثين بالخرافات والاساطير هم أخطر أصناف الجموديين · ذلك أن الجموديين الخلص يقضون بالضرورة وفى يوم من الايـام الى خلق كيفيات تفكير وعمل أصيلـة ووفية لمبادىء الاسلام الحنيفة ·

واما دعاة الاصلاح وقادة الثـورات فقد عمدوا الى تغيير الواقـع بطـرق مختلفة · ففى حين عمد دعاة الاصلاح الى تعليم الجماهيـر الاسلاميـة روح الشريعة الاسلامية والى تزويدها بفكـر نقدى يجعلها تنفض عنها غبار الجمـود والخمول والتواكل والركون الى الحلول السهلة والبدع والخرافات · وعملـوا أيضا على تعميق الـوعي السيـاسى والاجتماعى والاخلاقى لدى الجماهيـر الاسلامية · وأزاحوا الشبهات الـتى اثارتها اقلام أجنبية أو اسلامية حـول الرسول (ص) وصحابته وحول التاريخ والفكر الاسلاميين · وتصدوا بشجاعة لحملات التنصير والمسخ الثقافى ولحظر تعليم الاسلام واللغة التى جاء بهـا · غير أن الاصلاح بدوره اتخذ أشكـالا وصورا اصطبغت بصبغة العصر والمصر الذى ظهر فيه · ومجمل القول أن دعاة الاصلاح ركزوا حركتهم على التربيـة والتعليم والتوعية والوعظ والارشـاد وكان لذلك كله أثره البالغ فى تنبيـه الجماهير الاسلامية من غفوتها ·

أما قادة الثورات فقد قاموا مما عجز عنه رجال الاصلاح والدعوة فحققـوا دعوتهم فى جزء كبير منها اذ عملـوا على تحقيق الاستقلال السياسى واقبلوا على انجاز برامج ومخططات ترمى الى الاستقلال الاقتصادى والرقي الاجتماعى · غير أن المشكلة المطروحة على الثـورات التى ظهرت فى العالم الاسلامى تتمثـل فى مدى تشبثها بأصالتها الاسلاميـة وقيمهـا الروحيـة · وقـد تاهت بعض النظم السياسية فى معصلة شائكة تتمثل فى التوفيق بين النظم السياسية الوضعية وركائز السياسه الاسلامية المنصـوص عليها فى القرآن والسنة النبوية عـلى غرار حركة التوفيـق بيـن الحكمـة والشريعة التى كانت محور تفكير بعض أتباع أرسطو من فلاسفة الاسلام · وقد ادعت نظم أخرى الصفة الاسلامية غير أنها لا تعدو أن تكون سوى خليط بين الليبيرالية والاقطاعية يرتاد قادتهـا كباريهات الغرب ويشترون عماراتـه ويودعون أموالهم الخاصة فى بنوكه · ولقد اثبتت التجربة فعالية الاسلام فى المجال السياسى والاقتصادى والاجتماعى فراح الكثير من المنظرين الليبيراليين والماركسيين يراجعون نظرياتهم ويعترفون للاسلام بثوريته ونجاعته ·

فجارودى Garaudy مفكر شيوعى يعترف للاسلام كعامل ذاتى بمفعوله الكبير فى تفجير الثورات ويستشهد لذلك بالثورات الجزائرية والليبية والايرانية · ذلك أن الثورة بدون عقيدة دينية فى نظره هي ثورة تفتقر الى طابع انسانى · « **فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله** » · واضطر من وراء ذلك الى تصحيح الادعاء الذى صرح به بعض الماركسيين اقتداء بأبى الشيوعية ومؤسسها الاول والقائل بأن الدين عفيون الشعوب · فقال بأن الدين قد يستغل من طرف بعض الحكام لاخضاع الرعية غير انه فى صميمه صرخة المستضعفين ضد قوى الظلم والطغيان · ولا أدل على ذلك فى نظره من حركة طوماس منزر Thomas Munzer

هنا بالذات نرى أنه من الضرورى أن نقف وقفة قصيرة عند أشكال التحدى التى واجهها العالم الاسلامى · لقد اكتست الهجومات ضد الاسلام أشكالا متنوعة متراوحة بين الاحتلال العسكرى للبلدان الاسلامية والغزو الفكرى والايديولوجى : فالاستعمار والامبريالية والصهيونية والصليبية والشيوعية والفرنكفونية والانجلوفونية والبراجماتية والاستشراق والتبشير كلها حاولت أن تحد من عظمة المد الثورى الاسلامى وأن تطفىء نوره **والله متم نوره ولو كره الكافرون** · وهكذا بقي المصلحون والثوار فى جميع أنحاء العالم الاسلامى يرفعون لواء الدعوة والجهاد من أجل تصحيح الاوضاع فى العالم الاسلامى · وان معظم الحركات التحررية التى قامت فى العالم الاسلامى رفعت شعارات اسلامية بحتة وحركتها العقدة الاسلامية السمحة ، ذلك أن الاسلام لا يرضى بالمعبودية لغير الله · ألم يفضل الاسلام المؤمن القوى على المؤمن الضعيف ؟ بل ، ألم يحرض المسلمين على اعداد ما استطاعوا من قوة لاعدائهم ؟

ان الغزو الفكرى هو الذى أغرق العالم الاسلامى الحديث فى مشاكل زائفة ومارس ضغوطا قمعية على طاقاته الابداعية ومبادراته الخلاقة التى يمكن أن تجد حلولا مناسبة للظروف المناسبة من المنظور الاسلامى النقي · وتخبط العالم الاسلامى فى معضلات وهمية أهمها :

ـ هل تحرير المرأة أمر مشروع دينيا ؟ وهل تساوى المرأة الرجل ؟

ـ هل يتنافى الغاء الملكية مع ما ورد فى القرآن والسنة من تعاليم ·

ـ هل يساير الدين روح العصر ؟ وهل يتفق مع العلم ومع هذا النظام السياسى أو ذاك ومع هذه القوانين أو تلك ؟

ـ هل شرع ديننا الحنيف الحدود لعصر ومصر معينين أم شرعها لكل عصر ومصر ؟

ـ هل للمحرمات الاسلامية أساس علمى ؟ وهل يسمح تطبيقها بمواكبة ركب العالم المعاصر ؟

ـ هل يمكن للعالم الاسلامى أن يحل النقائض بين الانتاج الاقتصادى والذهنية الدينية ، بين الحياة الصناعية وممارسة العبادات ؟

وهذه اسئلة كما نرى تندرج فى الاطار التقليدى الذى ابتدعه المسلمون وهو التوفيق بين الحكمة والشريعة ، ويمكن أن نطلق عليه فى الوقت الحالى اسم التوفيق بين الاسلام والنظم الوضعية الحديثة · وكان الاحرى بنا نحن المسلمين أن نفهم مقاصد الاسلام فى كل مجال من المجالات قبل ان نتحدث عن التوفيق ذلك ان النظم الوضعية متناقصه بالضرورة · فهذا يقول بالغاء الملكية وذاك يقول بحمايتها وتقديسها · وهذا يقول بالحرية المطلقة للفرد وذلك يقول بضرورة توجيه الطليعة التوريه للجماهير الواسعة من الشعب · وكان الاحرى بنا أن نعمق المفاهيم الاسلامية قبل ان نحكم عليها او لها ·

وكان ينبغى على المفكرين المسلمين فى نظر الاستاذ مالك بن نبى ، لا يقلدوا كما يفعل العوام · ولا ينبغى ان تشل حركة تفكيرهم ايمانهم وتصديقهم بانه ليس فى الامكان فى ميدان الفكر الاقتصادى الاتيان بابدع مما كان · فالمفكرون السابقون ما هم الا بشر مثلنا لهم محاسنهم ونقائصهم · وعلينا اذن أن نتحذر من الوقوع فى نقائصهم على أنها شر لابد منه كما يقول البعض · فلا يجوز لنا أن نقلد الرأسمالية فى اباحتها ولا المادية الجدلية فى الحد والمهم ان نتوفر الارادة الارادة والثقة بالنفس ومعها نذلل جميع الصعوبات بدون استثناء ·

وكما ينبغى [illegible] ان يتصلوا من المشاكل [illegible] فيهرعون الى ادخال توضيحه [illegible] منها ما ياخذون دون ان يكلفوا [illegible] عداء تعميق مفاهيم الاسلام · وبعد ذلك فمن [illegible] عاطفة الى [illegible] بالدين او حوما [illegible] الجماهير الى [illegible] فلحاول الى [illegible] الكثرة التوفيق [illegible] المسلمون القدامى فقد كثيرا [illegible] من التفكير والرسى بالمدفه

والحل الصحيح يكمن فى [illegible] الحضارى اعنى فى ابداع حلول اصيلة تتماشى وروح الشريعة الاسلامية وتستجيب والاوضاع الحديثة العالم الاسلامى · اذ من الضرورى ابداع حلول لمشاكل الاقتصاد والانتاج والاكتفاء الذاتى من منظور اسلامى · اذ النظم الوضعية تتحمس وتتسى · فاين نحن مما نرى من [illegible] الغاء الملكية والدولة والتخلى عن [illegible] السيوعية ؟ لقد بعد هذا الغاء سوى عبارة عن نظرة طوبوية لا اساس لها من الواقع بعد ان رفضتها كل المجتمعات الشيوعية المعاصرة · واين نحن من مقولة ما كارل الدين افيون الشعوب ، بعد قرن حاروذى عن العقيدة الحقة بانها ليست افيونا كلا ! بل هى حميرة

لتغيير العالم · وكل ضربة توجه ضد هذه العقيدة هي ضربة موجهة ضد الثورة ذاتها » · وأين نحن من أوهام تحرير المرأة فى العالم المعاصر بعد أن أصبحت مجرد بضاعة تعرض زينتها على القاصى والدانى · والاسلام ينص **« ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف »** **« للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن »** · **« ولا يبدين زينتهن الا لبعولتهن أو ··· »** ·

لقد آن الاوان للعالم الاسلامى أن يتحد ويتكتل من أجل بناء الحضارة لاننا فى عصر الاتحاد والتكتل : والعبرة بالبلدان المتقدمة : أمريكا وروسيا والصين والبلدان الغربية التى تسعى بكل الوسائل لتحقيق وحدتها · لماذا نطالب بالوحدة والتكتل ؟ اننا لا نطالب بذلك من أجل الاعتداء بل من أجل ابداع حلول لصالح شعوب العالم الاسلامى ومن أجل الانتصار فى معركة الانتاج ومن أجل تحقيق الاكتفاء الذاتى ومن أجل ضمان عدالة فى المبادلات التجارية وارساء قواعد اقتصاد عالمى جديد · وفى هذا الصدد يقول الاستاذ المرحوم مالك بن نبى : « على المسلمين أن يتخلصوا من الاسباب التى تجعلهم أقل فعالية فى أوجز مدة ممكنة بالطرق التى يفرضها عصر تسريع التاريخ ، وهذا يعنى ، فى مجال الاقتصاد ، أن يوحدوا امكانياتهم وحاجاتهم حتى يحققوا فى أسرع ما يمكن شروط الاكتفاء الذاتى اي الحلقة الاقتصادية التى تستطيع الانغلاق على نفسها ، اذا ما اقتضت الضرورات الداخلية والخارجية ذلك » ·

وأملنا أن يكون مطلع هذا القرن الخامس عشر فاتحة عهد جديد فى ميدان الخلق الحضارى والانتفاضة الحقيقية ضد الحلول الجاهزة التى تتلاءم وطبيعة المجتمع الاسلامى ومطامحه ·

ويحتاج المفكرون المسلمون بهذا الصدد وكذا القادة السياسيون الى شجاعة فكرية هائلة وقوة غزيمة خارقة وثقة بالنفس · **« ان تنصروا الله ينصركم ويثبت أقدامكم »** ·

ان المبادرة التى شرع العالم الاسلامى فيها هامة وخطيرة فى نفس الآن ذلك أنها تهدف الى بناء حياة جديدة فى مستهل القرن الخامس عشر وفى العقدين الاخيرين من القرن العشرين · وانها مهمة عسيرة ونحن نحس أكثر من غيرنا بالمجهودات الجبارة (من الناحية المادية البحتة) التى يتطلبها اللحاق بركب الحضارة واجتياز الهوة التى تفصلنا عن العالم المتطور تكنولوجيا وعلميا عندما يتعلق الامر ببناء السدود وتنظيم المجمعات الصناعية وارساء المؤسسات التقنية وتعميم العلاج والتعليم · غير أننا نحس أقل بالمهمة التى لا تقل خطورة ولا صعوبة عن سابقتها وتنحصر فى المجالين الدينى والايديولوجى · وليس بالامر الهين تعويض خسارة بضعة قرون فى هذين المجالين · اذ يبقى على كاهل المسلمين أن يصيغوا دلالة الدين

في عالم جديد يحتوى على سدود ومجمعات صناعية ومؤسسات تقنية ومؤسسات تضمن التعليم والعلاج للجميع مع ما يتطلبه كل ذلك من مسؤولية · وقد تبدو هاته المهمة عديمة

الاهمية بالنسبة لاناس يعرفون الدين ع
الحياة غير أن الاسلام كما يدرك ذلك
الجميع يهدف الى تطبيق الاوامر
الاخلاقية على الحياة اليومية ويربط بين
الدين والدنيا برباط لا تنفصم عراه ·

هل يصبح العالم الإسلامي كتلة دولية ثالثة في القرن الخامس عشر ؟

الاستاذ سماعيل العربي

يبدو أن انقسام الدول المصنعة الى كتلتين تستقطب كل منهما منطقة جغرافية وتخضع لزعامة خاصة بها ، وتحدد نفوذها اجمالا بميثاق « يالطا » وغيره من الاتفاقيات الصريحة أو الضمنية وتدعم ذلك النفوذ الاسلحة النووية المعقدة يبدو ان هذا الانقسام قد أصبح فى حكم الامر الواقع وهو اذا كان قابلا لتعديلات طفيفة ، فانه غير قادر للنقص على المدى المتوسط ، الا باستعمال القوة فى نطاق واسع . قلنا تعديلات طفيفة ، هذا فيما يتعلق بالمستقبل ، وأما بالنسبة الى الماضى ، فقد وقعت تعديلات جذرية فعلا بتوسع الكتلة الشرقية ، وخصوصا بفقد الكتلة الغربية لمستعمراتها وأراضى ما وراء البحار فى غضون العقد السادس . وهذا التعديل الاخير ، بالضبط ، هو الذى يهمنا فى هذا البحث ولكن لانه اذا كان توسع الكتلة الشرقية لم يكن على حساب البلدان الاسلامية ، لحسن الحظ (اذا استثنينا حالة افغانستان التى لم تتضح بعد كل عناصرها) ، فان التقلص الذى طرأ على الكتلة العربية كان لصالح العالم الاسلامى ، حيث أن المناطق التى تحررت فى افريقيا وآسيا كانت فى معظمها من الاراضى الاسلامية التى تشكل الامبراطورية البريطانية والفرنسية سابقا .

ونحن نقسم فيما يلى ثبتا اجماليا بالبلدان الاسلامية وبعض البلدان غير الاسلامية التى تضم أقلية كبيرة من المسلمين والتى شملتها موجة التحرر الوطنى فى القارتين الافريقية والاسيوية، فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية

اندونسيا (125 مليون) بنغلاديش (77 مليون) باكستان (75 مليون) بورما (1 مليون) ثايلاند (1 مليون) المغرب (نحو 10 مليون) مصر (35 مليون) الهند (80 مليون مسلم) السودان (15 مليون (1) ماليزيا (7 ملايين)

(1) راجع احصاءات اخرى فى مقالة البحاثة Violette Graff فى صحيفة « Le Monde » نشرت تباعا ابتداء من 1 ديسمبر 1970 .

والفلبيين (نحو 3 ملايين) والنيجـــر (4 ملايين) ونيجيريا (63 مليون) ومالى (5 ملايين) وذلك بالاضافة الى البلدان الواقعة على الخليج وسورية (6 ملايين) والعراق (9 ملايين) وافريقيا الشرقية وبلدان افريقيا الغربية · ونحن هنـــا لا ندخـل فى الحسـاب الجمهوريـات الاسلامية فى آسيا الشرقية ، لان وضع احواننا فى هذه المناطق لم يدخل عليـه ، مع الاسف ، أي تغيير ، حيث أن هـــذه المستعمرات كانت روسيا قد تسلطت عليها بالقوة فى عهد القياصرة . ولما قام النظام السوفييتى ادغمهـم واعتبرهـم جـزءا لا يتجزء من الامبراطورية الروسية ·

وكذلك نرى من هذه الاحصـائات غير الكاملة ، ان العالم الاسلامى الذى يشمل أيضا بلداننا لم تفقد قط استقلالها (مثل السعودية وتركيا وايران) والذى تمتد رقعتـه من المحيـط الاطلسى الى المحيط الهادى ويضم نحو مليار نسمـة (أي حوالى ثلث سكان العالم) ، كان من الممكن أن يشكل كتلة دولية ثالثـة منذ الآن ، لو كان توازن القوى الـدولى يقوم على أساس المعايير التقليدية (مثل عدد السكان ، الموقع الجغرافى والقـيم الحضارية والموارد الطبيعية الاولية) بدلا من أن يقوم ـ كما هي الحال ـ على الطاقات الذهنيـة والتطور الصناعى والتقدم التكنولوجى الذى يملكه الدول العظمى

الاساسية للتفوق العسكرى ، وبالتالى فان كثيرا من الاصقار فى سكان العالم الاسلامى (مثل وفى العالم الثالث كله) غير راض مذلول ، سواء فى التقسيـم السياسى أو فى توزيع الخير الدولى فى الوقت الحاضر ·

ولكن حالة التخلف النسبى الـذى يعانى منها العالم الاسلامى الذى يرتبط ارتباطا عضويا ببقية بلدان العالـم الثالث ويشكل عموده الفقرى ، انمـا تمثل مرحلة فى مسيرته التاريخيـة والعقبة الاخيرة فى طريق انطلاقـه ، وسوف يأتى يوم، حتما يرتبط فيه ماضيه المجيد بالمستقبل الذى تشير جميـع الدلائل الى أنه سوف يكون زاهرا اذا توفرت الارادة وصدقت العزيمة ·

تميز العالم الاسلامى فى العالـم الثالث :

ان تسمية العالم الثالث ، تسمية مضللة ، فضلا عن كونها غير منطقية (2) وقد كان العالم الفرنسى ، الفريد صوفى هو الذى اطلقها على مجموعة المناطق المختلفة فى افريقيا واسيا وأمريكـا اللاتينية فى منتصف الخمسينات (1)

فهذا العالم يوحد بينه جميع بلدان العالم الثالث ، وهو تعبير ، منطقـى جغرافيا ويتحدد بالنسبة لجميع البلدان المتبقية فى العالم تقريبا ، فضـلا عن

(2) راجع كتابنا : وحدة الامة العربية والتبعية الاقتصادية ، بيروت ، ... صفحـة 244 وما يليها ·

(1) A. Sauvy : Le Monde Presse Universitaire de France, 1954

كونه متخصص فى انتاج المواد الاولية التى يشتد التنافس بين بعض مناطقه لترويجها · والحقيقة أن هذا العالم الذى لا تجمع بين مختلف شعوبه سوى ظاهرة التخلف الاقتصادى والتكنولوجى، لا يعدو كونه « مخيما اقتصاديا » ضخما يمتد على ثلاث قارات · ومنذ أن وضعت الاسس الاولى لتنظيمه فى باندونج فى سنة 1955 ، والجهود كلها متجهة الى ازالة التناقض بين أطرافه والى محاولة تنسيق مصالحه ولملء الثغرات التى تفصل بين مناطقه الحضارية ، ولكن بدون حظ كبير من النجاح ·

وعلى الرغم من أن جميع المقومات التاريخية (بما فى ذلك الدين والمنزع الحضارى) قد استبعدت من تكوين مجموعة عدم الانحياز كما يتبين ذلك من ميثاق باندونج والاسس التى تقوم عليها جماعة الـ 77 ، فهيكل عدم الانحياز تطغى عليه المتناقضات الى حد تحجب معه الايجابيات ، وانه لمن الحق أن يتساءل المرء عما اذا لم يكن مرجع ما يسود صفوف دول عدم الانحياز من قلة الانسجام بالضبط الى استبعاد كل ما يتجاوز اطار المصالح المادية (اقرا الاقتصادية) من تكوينه :

وبلدان مجموعة عدم الانحياز تسود فى مجموعها كل المذاهب والايديولوجيات المعاصرة وتخضع لنظم للحكم متباينة تتراوح بين الملكية المطلقة والشيوعية . مرورا بالديكتاتورية العسكرية والديموقراطية الليبرالية بمختلف فصائلها · ومن ثم فلا غرو أن تختلف وجهات نظر هذه الدول فى القضايا السياسية العالمية الكبرى · وقد ظهر الشقاق على أحد ما يكون فى عدد من المسائل التى طرحت على بساط البحث فى هفانا ، كان أبرزها قضية الموقف الذى تتخذه المجموعة من نظام كامبوتشيا الجديد · ولكن المثال البارز حاليا هو ذلك الذى يتعلق باختيار عضو جديد لمجلس الامن حيث جرى ما لايقل عن 48 اقتراعا دون نتيجة بين كلومبيا وكوبا قبل أن يضطر الطرفان للتخلى عن السباق ويقع انتخاب المكسيك ·

ومجموعة بلدان عدم الانحياز ليست، كما قد يتبادر الى الذهن لاول وهلة ، « معسكر المستعمرات السابقة » (فان بلدان أمريكا اللاتينية مثلا ، كلها تقع فى يد العنصر الاسبانى الذى استعمر هذه المناطق بعد ما قضى على ثلاث من حضارات الهنود الحمر) ، كما أنها ليست مجمع « البلدان الفقيرة » كما يعتقد البعض (لان بعض أعضائها مثل قطر والكويت والسعودية تتمتع بأعلى دخل فردى فى العالم ، وذلك فى الوقت الذى توجد فيه دول فقيرة حقا – مثل البرتغال واليونان واسبانيا – فى المعسكر الغربى الصناعى) ·

والاديان السائدة فى مجموعة عدم الانحياز تتراوح بين البوذية والالحاد والمسيحية والاسلام ، ولكن الاغلبية

الساحقة فيها ، اذا اعتبرنا عد السكان مقياسا ، تنتمى الى الدين الاسلامى · ولكن كون الاسلام يمثل الديانة السائدة بين سكان هذه المجموعة لا يعنى أن جميع الدول الاسلامية تتمتع بالعصوية فيها ، لان عددا من البلدان الاسلامية لا تنتمى الى عدم الانحياز الذى هو التنظيم الشكلى للعالم الثالث ·

وكذلك يتضح جليا أن مجموعة عدم الانحياز لا يمكن أن تشكل كتلة دولية تقوم على أساس من التفاهم السياسى الا اذا ضمنت لنفسها قاعدة ايديولوجية متكاملة تتميز بها عن الكتلتين الدوليتين المتنافستين · والايديولوجيات بوصفها نظاما للسلوك والتفكير لمجموعة بشرية ما تمتد جذورها فى تاريخ تلك المجموعة، لا يمكن استيرادها او تفصيلها حسب الطلب ، وانما هي تكون ، أو لا تكون ·

ان مجموعة عدم الانحياز انما قامت لكي تواجه محاولات سيطرة الكتلتين وتوسعهما على حساب بلدان العالم الثالث ، وكذلك قامت بدور لا ينكر فى تصفية الاستعمار ، وهي بهذا الاعتبار فكرة ذات محتوى سياسى واضح فى المرحلة الاولى من حياتها · واما فى المرحلة الثانية فانها قد تطورت الى منهجية دولية للسيطرة على العوامل التى تساعد على الخروج من التخلف والاسراع بعملية التنمية ·

ولما كانت دول العالم الثالث تمر كل منها بمرحلة فى التنمية تختلف عن

المرحلة التى تمر بها غيرها بحيث أن بعضها (وهي التى يطلق عليها اسم البلدان الاقل تطورا) لا ، ان فى اطار تركيب هذه المجموعة ، بينما تلعب دول اخرى درجة ما يسمى بمرحلة الانطلاق (مثل المكسيك ومصر) . فان من المهم ان تتعيز مصالح البلدان التى تخرج من حالة التخلف وترتبط بعلاقات جديدة للتعاون فيما بينها ، وبينها وبين الدول الصناعية المتقدمة بصورة تتجاوب مع مصالحها واوضاعها الحديدة ·

وهكذا، فان المقدر الا ينتهى هذا القرن الميلادى حتى يكون عدد مهم من بلدان العالم الثالث قد حقق تقدما ما فى التصنيع لا يقل مستواه عما حققته بعض دول الكتلتين الكبيرتين · وهذا معناه تغير كبير فى رقعة الشطرنج الدولية ستكون له اثار عميقة فى كيان مجموعة عدم الانحياز · والبلدان التى ستصبح متقدمة صناعيا وتكنولوجيا سوف تجد نفسها حتما فى صف الدول الصناعية، فى الوقت الذى لا يقدر فيه البقاء بصفة دائمة فى مجموعة الدول المتخلفة سوى لتلك البلدان التى لا تسمح لها الموارد الطبيعية والبشرية بالتقدم وتكون محكوما عليها بان تعيش على موارد المساعدة الدولية ·

وهنا يطرح سؤال كيف يمكن للعالم الاسلامى فى مجموعه أن يكيف نفسه للتغيرات المنتظرة ؟ فهل يقع بحالة الانقسام التى يعانى منها حاليا وتتوزع

ولائه بين الكتلتين ، أو يتبلور فيه وعي جديد بقيمة الامكانيات العظيمة التى يملكها ويتجه الى اقامة قواعد للتعاون والتكتل لمواجهة الاحداث التى تمس البلدان الاسلامية ؟

ولكن قبل أن نحاول البحث عن عناصر جواب ولو مؤقت لهذا السؤال ، ينبغى أولا أن نسجل حقيقة برزت بقوة فى فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية ، وهي أن الشعارات التى نادى بها رجال مثل جمال الدين الافغانى وشكيب أرسلان ومحمد على جناح ، قد وجدت تجاوبا بين مختلف الفئات الاجتماعية فى العالم الاسلامى وتبلورت الى أمل يلوح فى الافق . صحيح أن هذه المطامح ظلت مكبوتة طيلة ما ينيف عن نصف قرن من الزمن فى عهد الاستعمار ولكنها لم تمت فى النفوس وقد انبعثت بعد زوال الاستعمار ولم تلبث أن تجسمت فى شكل تنظيمات للتعاون ، نذكر منها ، على الخصوص ، اتفاق التعاون الاقليمى الذى عقدته باكستان وايران وتركيا (RCD) فى سنة 1964 ، والسوق العربية المشتركة ومؤتمرات وزراء الاقتصاد المتعددة التى مهدت لتسكين اللجنة الاستشارية الدائمة (4) . وأخيرا مؤتمرات وزراء خارجية الدول الاسلامية والمؤتمر الاسلامى الذى كان من أهم أوجه نشاطه تأسيس بنوك للقروض على أساس المشاركة وبدون فوائد ، كما تقضى الشريعة الاسلامية .

على أنه من المؤسف أن نرى أن عدد المنظمات الاقليمية التى كانت تبشر فى الستينات بأن تكون قواعد للانطلاق فى طريق تكتل اوسع وتعاون أشمل ، لم تثبت أمام التجربة ، فأصبحت الآن كلها تقريبا ، مجرد حركات تاريخية ، حيث ان الصراع الايديولوجى الذى دخل الى العالم الاسلامى ، وخاصة الى العالم العربى ، لم يقض على مؤسسات التعاون الناشئة فحسب ، ولكنه أيضا مس شعور الجماهير الاسلامية التى تمتلئ الرصيد الاعظم لكل محاولة فى المستقبل للتقارب والتكتل بين البلدان الاسلامية .

وأما الجواب عن السؤال الذى طرحناه انفا حول الطريقة التى سيكيف بها العالم الاسلامى نفسه للاحداث والتطورات التى ينتظر أن تقع فى العالم الثالث فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ، فيبدو أنه رهن بتوفر شروط موضوعية وأخرى ذاتية .

١ ـ الشروط الموضوعية

١ ـ والشرط الاول والاساسى من الشروط الموضوعية هو أن تستمر حالة السلام وألا يطرأ حدث خطير فى توازن

(4) بشأن هذه الترتيبات والتكتلات الاقليمية وغيرها ، راجع كتابنا : « التكتل والاندماج الاقتصادى بين البلدان المتطورة » الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر 1974 .

القوى فى العالم ، بحيث تواصل المنظمات الدولية ، وعلى رأسها الامم المتحدة ، نشاطها السياسى والاقتصادى فى ظروف عادية ·

2 ـ عدم قيام تحالف استراتيجى طويل المدى وارتباطات ذات طابع اقتصادى أو سياسى دائم بين أفراد من الدول الاسلامية واحدى الكتلتين الايديولوجيين المتنازعين بحيث تتخطى هويتها الاصلية وتتحلى عن شخصيتها الاسلامية (كما حدث لالبانيا ، مثلا) ·

3 ـ عدم توغل المزيد من ايديولوجيات الكتلتين بين صفوف المسلمين ومقاومة النفوذ الصهيونى والامبريالية العالمية ، وبصفة خاصة ، ذلك الذى يحمله فى طياته نشاط الشركات العملاقة المتعددة الجنسيات ·

4 ـ الالتجاء الى المفاوضات والطرق السلمية لتسوية المشاكل والمنازعات الحالية أو التى ستظهر فى المستقبل ، ومقاومة الاتجاه الذى تبلور فى تجربة التصالح والتعاون المصرى الصهيونى ـ تلك التجربة التى توشك ، ان تحجب ان تفصم العالم العربى والعالم الاسلامى ، بصورة لا تقل خطورة عن الحالة التى واجهها بالعرب التتر ·

5 ـ تبلور روح التضامن والتيسير بين البلدان الاسلامية فى اجراءات وأعمال لتحديد السعوب والاقليات الاسلامية التى تتعرض من اجل حريتها واثبات وجودها ضد التسلط المحلى أو الاجنبى فى افريقيا وآسيا ، ولا سيما الشعب الفلسطينى والمسلمين فى اريتريا والفلبين ·

6 ـ العمل لايجاد مناخ من الثقة المتبادلة لتبادل الخبرات والمساعدات وخصوصا لايجاد الشروط والضمانات الضرورية لاستثمار فائض عوائد النفط فى مشروعات للتنمية فى البلدان الاسلامية على اساس من المشاركة وضمان ربح مشروع ·

ب ـ الشروط الذاتية

ـ لكي يخطو العالم الاسلامى الى الامام فى طريق التفاهم والتعاون الدولى يجب اولا ، ان يسود الوئام والسلام فى كل بلد من بلدان الاسرة الاسلامية · وهذا انما يمكن بتحقيق مبادىء العدالة الاجتماعية وبحسم الفوارق بين الطبقات وخصوصا ، باعتماد نظام الحكم فى الدولة على مبدأ الشورى والذى كان اساسيا للازدهار والانبهار الذى عرفه العالم الاسلامى فى الاحقاب الخالية · وعلى ذلك فمن الضرورى فى الوقت الحاضر ، ان تعتمد هذه الشورى فى طريق استقرار السلام والتنمية فى العالم الاسلامى ، وهذا يتطلب اختيار وتدريب العناصر المؤهلة فى مختلف البلدان الاسلامية ، مما يمكن اختيارها عن طريق انتخابات حقيقية فى ظروف تسمح لكل مواطن بالتعبير عن رأيه بحرية ، وذلك بالاعتماد على الاحزاب السياسية أو الهيئات التى تمثل

الحالات الا منهجية للتخلص من الخصوم والمنافسين والمعارضين ·

ومن جهة أخرى ، فعلى الرغم من أن كثيرا من البلدان الاسلامية تنص دساتيرها على أن الاسلام هو دين الدولة الرسمى ، فان ذلك لم يحل دون سير الحياة العامة على نهج لائكى او شبه لائكى ، فيكون التعامل بالربا (مثلا) صلب النظام الاقتصادى ونغذى الضرائب المباشرة وغير المباشرة على المأكولات والمشروبات المحرمة خزانة الدولة · ولكن الاسوء من كل ذلك ان امريكا اللاتينية التى اشتهرت فى التاريخ بديكتاتورياتها العسكرية قد تخلت عن مكانتها الاولى فى هذا المجال للعالم الاسلامى · فان ما لا يقل عن 15 بلدا اسلاميا (أي بنسبة 39،47٪) من بين الثمانية والثلاثين بلدا ، تحكمها حكومات عسكرية لا دخل للشعب فى اختيارها · واما بقية البلدان الستة عشر الاخرى (بنسبة 42،1٪) ، فهي تحكم بنظم اتوقراطية وبدون دستور على الاطلاق، أو بدستور معطل أو موقوف (5) · واما البلدان الاسلامية التى اعتمدت النظام الجمهورى للحكم (وهي 20 بلدا) . فانها ليست فى معظم الحالات أحسن حظا فى ممارسة الحريات الفردية ، أو هى رعايه المبادىء الاسلامية من الانظمة الملكية ، حيث تنعدم فيها حرية اختيار النواب للبرلمان ، أو ينعدم فيها البرلمان والتمثيل البرلمانى كلية ، بل وكثيرا ما يكون رئيس الجمهورية ملكا غير متوج من حيث يكون مدتحبا مدى الحياة على أن الاتجاه الذى يمش تقدما فى هذا المجال ، هو زوال الملكية المطلقة تدريجيا فى العالم الاسلامى ، حيث انه لم تبق فيه سوى أربعة نظم من هذا النوع (مضاف اليها خمس ملكيات دستورية) ·

وكذلك يبدو لنا أن قيام حكومات على أساس من الشورى والتراضى وبصورة تعبر عن راي الامة وتضمن للحكم الاستمرار والدوام فى كل واحد من البلدان الاسلامية ، أمر جوهرى لكن تعاون وتكتل اقليمى أو دولى اسلامى سواء أكان هذا التكتل اقتصاديا فقط أم سياسيا واقتصاديا ·

2 ـ تنمية التعليم الاسلامى وجعله أساسا لنظام التعليم العمومى ، فى الوقت الذى تنشأ فيه معاهد عليا وجامعات للتخصص فى مختلف فروع الدراسات الاسلامية · وانه لمما يدعو الى الدهشة والحزن العميق أن نلاحظ أن البلدان الاسلامية التى لعب الاسلام دورا كبيرا فى تحريرها قد أهملت معاهد عليا للدراسات الاسلامية بعد استقلالها · ـن ان بعض البلدان قد سارت على النهج الاستعمارى فى مناوءة التعليم الاسلامى واضطهاده ، فاغلقت معاهد وجامعات جليلة ساهمت فى تقدم العلم والمعرفة

(5) راجع احصاءات أخرى فى

A.S Bank Political Handbook of the World, Macgros. Hill Book Company, New-York 1976.

أجيالا طويلة ، وهذا فى الوقت الذى نجد فيه معظم الجامعات فى أوروبا وأمريكا واستراليا تملك كليات او اقساما للدراسات الاسلامية · واذا أراد العالم الاسلامى فيام نهضة اسلامية حقيقية فلابد من أن يكون البحث حجر الزاوية فى التعليم العالى بحيث تعطى الفحوة التى انفتحت عبر القرون · وفى هذا المجال ايضا تلاحظ على سبيل المقارنة ان ما يصدر من الكتب والمجلات والبحوث المتعمقة التى تتناول الاسلام وحضارته فى الغرب أكثر وأعمق مما يصدر فى العالم الاسلامى نفسه · وهذا المثال يبدو لى ملائما كذلك للتذكير وليس للمقارنة ، بأن الكنيسة الكاثوليكية وحدها تملك أكثر من مائة جامعة ومعهد عال للدراسات اللاهوتية ، موزعة فى مختلف أنحاء العالم الكاثوليكى ·

٣ ـ تعتبر الصحافة والاذاعة من اهم الوسائل للتقريب بين الشعوب · وتبادل الصحف والبرامج الاذاعية من شانه ان يغذى عقول المسلمين فى كل مكان بالمعلومات عن مختلف القضايا والمشاكل التى تواجهها الشعوب الاسلامية فى الوقت الذى يكون فيه وسيلة فعالة لتيسير التفاهم والتضامن · ولكن البلدان الاسلامية لا تزال متخلفة فى مضمار الصحافة والاذاعة ، حيث انه لم يحقق الحد الضرورى الذى وضعته اليونسكو لاستهلاك الصحف واجهزة الاذاعة (١٠ صحف و ٥ اجهزة لكل ١٠٠ شخص) سوى بلد واحد فى مضمار الصحف وهو جزر الملديف (Maldives) التى يبلغ عدد سكانها ١٢٠ الف نسمة (١٠٠ كيلو متر مربع) · ان هذا لم يحصل الا مستوى دوريا بسيطا بتراوح بين ٥ ـ ١٠ نسخ لكل مائة شخص سوى ٦ بلدان اسلامية (٦) وبضاف الى ضآلة الكمية رداءة نوع المعلومات وقلة دقة الاخبار ، حيث ان معظم الصحف لا تعدو كونها نشرات حكومية او هى تتعرض للضغط والاضطهاد متى كانت تنطق باسم المعارضة (كما هى الحالة فى مصر الان) ·

٤ ـ تعزيز علاقات التبادل العلمى والثقافى بتفضيل استيراد الاساتذة والمتعاونين المسلمين فى مختلف المجالات ، وتبادل الكتب والافلام والنشرات ، التى تتصل بموضوعات اسلامية ·

٥ ـ العمل لاحياء المنظمات والتكتلات الاقتصادية الاقليمية والشبه الاقليمية القديمة ودعم النواحى التى حققت منها نجاحا ، واستكشاف آفاق جديدة للتعاون الاقتصادى والتقنى ·

٦ ـ تعزيز العلاقات التجارية على الصعيد التفاضلى بين البلدان الاسلامية وتعميم مبدأ البلد الاكثر رعاية

(6) راجع احصاءات اخرى فى كتاب الاحصاء السنوى ، نشر اليونسكو باريس 1978 ·

في العلاقات most favered nation التجارية بصفة عامة ·

7 ـ العمل لمقاومة تيار الافلام السنيمائية والتليفزيونية التى تنتجها بلدان الكتلتين العالميتين المتنافستين ـ تلك الافلام التى تحمل فى طياتها الى جانب الدعاية الايديولوجية أنماطا من التحرر الاخلاقى المخرب لنمط الحياة الثقافية والاجتماعية الاسلامية ، والتى تبدو آثارها الوخيمة أوضح ما تكون فى عقول أطفال المسلمين ، وذلك اما بوضع برنامج لانشاء شركات لانتاج أفلام (ولا سيما الافلام الوثيقية) تعالج موضوعات اسلامية وتصور الحياة العصرية فى البلدان الاسلامية ، أو بتكوين هيئة تتعامل بواسطتها مع الشركات الاجنبية المنتجة للافلام (7) وتفرض عليها المقاييس والشروط التى يجب أن تتوفر فى الافلام التى تنتجها لاستهلاك العالم الاسلامى ·

وهكذا ، فاذا صدقت عزيمة المفكرين والساسة فى مختلف البلدان الاسلامية فى العمل لتحقيق هذه الشروط الحيوية فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى، ووجد العمل تجاوبا فى الرأي العام الاسلامى (وهو أمر لا نشك فيه) ، فان ظروفا موضوعية ستظهر لا محالة لامكان قيام كتلة اسلامية تستقطب العالم الثالث وتعمل للسلام والرخاء ولنشر المثل العليا الاسلامية فى مختلف أصقاع العالم ، واذا كانت الكتلتان الدوليتان اللتان تتقاسمان السيطرة على العالم اليوم قد حققتا توازن القوى بينهما بواسطة « الرادع النووى » وغيره من أسلحة التدمير ، فان الكتلة الاسلامية، كما نتصورها ستضمن بقاءها بفضل سمو مبادىء الاخوة الانسانية والسلام والعدالة التى تمثلها · وفيما عدا ذلك، فان مثل هذا التكتل لا يمكن أن يقوم الا على أساس من الشورى والتعاون والرعاية المتبادلة لصالح الجميع المشروعة ولمصالح البلدان الفقيرة فى العالم الثالث ·

وبعد هذا قد يتساءل القارىء . ما هو نصيب الامل والطموح ، وما هو نصيب الواقع ، وما هو حظ النظرية والاعتبارات العملية فى هذا التصور لقيام تكتل وتعاون اسلامى دولى وثيق فى غضون القرن الخامس عشر الهجرى ؟

نحن نؤمن بان هذا التطور ليس ممكنا فحسب ، بل هو حتمي أيضا اذا أراد المسلمون أن يتعايش الدين الاسلامى بكل أبعاده فى حرية وكرامة مع الاديان والمذاهب السائدة فى الكتلتين اللتين تتصارعان لفرض سيطرتهما الايديولوجية على أكبر رقعة ممكنة من الكرة الارضية · وأحداث أفغانستان وايران تمثل نذرا فى الافق لا يسع المسلمين تجاهلها او الاستهانة بها ·

(7) راجع المحاضرة القيمة التى قدمها الاستاذ محمد الشريف مجاهد أمام الملتقى الثالث عشر للفكر الاسلامى (تمنراست 1979) بعنوان : « التليفيزيون والاطفال فى العالم الاسلامى » ·

الأخلاق والنظم الإسلامية أسس عقيدية وآفاق

د. أحمد عروة

ان الكلام عن الاخلاق والنظم الاسلامية يتطلب من الوقت أكثر مما يمكننا أن نعده له ومن الشروح أطول مما يمكننا أن نتقدم به · لهذا سيكون تعرضنا للموضوع تمهيدا ملخصا أكثر من أن يكون تحليلا معمقا وشاملا ·

كما ان وجهة نظرنا فى هذا البحث ستبتعد شيئا ما عن الطرق التقليدية التى تكتفى برواية الآيات والاحاديث وتصنيفها وشرحها · حيث أننا نحاول أن نخرج ببحث منهجى وتعمق علمى من دون أن يجعلنا ذلك نحيد عن نطاق الوحدة المذهبية التى لا يمكن ان تتناقض فيها معطيات العلوم الموضوعية للطبيعة والكون وتعاليم الرسالة الالهية · وفى ذلك لا تخرج نظرتنا عن الاخلاق الاسلامية ومفاهيمها الاساسية ، سواء من الناحية العقائدية كالايمان بالله ووحدانيته وتصديق الرسالة النبوية ووحدة الايمان والعلم والاعتقاد بأن الله خلق الانسان وفضله وكلفه بالخلافة والامانة ، أو من الناحية التطبيقية كأداء الفرائض الدينية والامتثال بالفضائل الخلقية ·

سنقوم فى القسم الاول بتحليل الدوافع والعوامل التى تؤثر فى سلوك الانسان الحيوى والاجتماعى والمعنوى ·

ثم نعرض الارشادات والتوجيهات التى تدعو الى تفهم الاخلاق الاسلامية وتطبيقها سواء فى السلوك الفردى والاجتماعى أو فى تحديد النظم الدستورية ·

وسنحاول بعد ذلك أن نقدم تقييما نقديا لمدى تأثير التعاليم الخلقية فى الحياة الفردية وفى تاريخ الامة الاسلامية ·

وأخيرا سنقترح بعض المحاور لتفهم التيارات الفكرية المعاصرة ولاكتشاف آفاق جديدة للبحث والعمل ·

1 ـ العوامل العامة التى تتحكم فى سلوك الانسان :

يوجد كما هو معلوم عدة عوامل مشتركة بين الحيوان والانسان تتحكم فى السلوك الطبيعى والنفسى والاجتماعى · لكن البعد العقلى الذى خص به الانسان يجعله حقيقة كائنا حيا يتميز على غيره ، بشعوره الفكرى بالكون الذى يحيط به وبادراكه العقلى وسيطرته الفنية على الطبيعة · وهذا يجعل سلوكه فى نفس الوقت غريزيا ومتعقلا · مقدرا وحرا · محكوما فيه ومسؤولا ·

لهذا فان التمييز المنهجى بين عوامل السلوك الحيوانى والسلوك العقلانى ربما يظهر مصطنعا الا أنه يسمح لنا بتبسيط المشاكل والتعقدات · هذا ما سنظهره فى المعطيات الآتية :

1 ـ ان سلوك الانسان الغريزى البدائى الذى يشترك فيه الانسان والكائنات الحية بما فيها من نباتات وحيوانات يشمل ثلاث وظائف أساسية :

ـ وظيفة غذائية ونفسية يقع بفضلها تبادل مادى وطاقى مع البيئة الخارجية مما يجعل الجسم يحيا وينشط وينمو ·

ـ وظيفة دفاعية مسؤولة عن حماية الجسم من الاصابات المتعلقة بالتنافس الحياتى للكائنات الحية ومن الآفات الطبيعية والحيوانية التى تهدده فى بيئته الحياتية ·

ـ وظيفة تناسلية تضمن بقاء الجنس وتكاثره وتنوعه ·

ان بنية المخ الانسانى وامكانياته الادراكية تجعله يطغى ويتفوق على المستوى الحيوانى حيث تفتح له افاق الاحساس والادراك والاتصال الواعى والمدبر بغيره من الكائنات · فيكتسى سلوك الانسان بذلك آفاقا جديدة يتجه بها فى نفس الوقت نحو الحاجات التى تضمن له الحياة والبقاء والتغلب على الطبيعة بعلمه وعمله والتطلع الى الارتقاء فوق مستوى الانسانية البدائية ·

3 ـ زيادة على ذلك فان الانسان أكثر ما تكون غريزته اجتماعية حيث أن حاجاته ومطامحه مرتبطة بالافراد الذين يكونون معه المجموعة البشرية · ذلك التضامن الحتمى فى حياة ومصير المجتمع ينقص ويزيد فى نفس الوقت من نفوذ ومن حظوظ كل فرد ·

حيث أن طموح الفرد هو فى أن يضمن لنفسه أكبر قسم ممكن من محاصيل الاشتراك بهدف الحصول على أكثر وسائل الحياة والامن والرفاهية · ويؤدى ذلك الى بعض التوازن فى الاكتساب والنفوذ اما بتعادل الطاقات الجسمية والعقلية المتواجدة ، واما بوضع مناهج خلقية أو نظم اجتماعية تحاول تثبيت الاستقرار فى العلاقات بين الناس أو تغييرها اذا دعت الى ذلك ظروف جديدة ·

4 ـ بمجرد ما يتساءل الانسان عن ماهية الكون ومعنى الحياة فانه قد انتزع نوعا ما من السيطرة الغريزية البدائية فينطلق يسعى وراء قيم جمالية وفكرية وروحية أسمى · وهذا التساؤل هو في نفس الوقت بحث عن الحقيقة على مستوى الفكر وبحث عن الحكمة على مستوى السلوك · وبالطبع فان الجواب الذي ينتهي اليه قد يختلف كثيرا مما يشهد عنه تنوع الآراء الفلسفية وتطورها على مدى تاريخ الانسانية · وبصفة عامة قد يمكن لذلك البحث الفلسفي أن يقود الى الشعور بوجود قوة فوق الطبيعة خالقة للكون أو بالاحرى مسيطرة على مصير الانسان · كما يمكن له أن يحجم عن التوغل فيما وراء الطبيعة وأن يقنع بالادراك العقلاني للعالم ·أما العقيدة الاولى فتحاول أن تمتثل للارادة المفترضة للآلهة او للاله، وأما الثانية التي منطقها مادي فانها تستكشف في « جدلية » الطبيعة والمجتمع الانساني قواعد خلقية وتنظيمية تسير العلاقات بين الناس ·

5 ـ في هذا المنعرج الفكري يجد الانسان نفسه في مأزق فلسفي لان علمه لا يمكنه من معرفة ما هو خارج عن نطاق التجربة والاحساس لولا الوحي النبوي الذي يكشف عن غيبيات ما وراء الطبيعة · ذلك هو النبأ الذي تعجز عنه الاستكشافات العلمية والاستلهامات الفلسفية لانه ينبئه بالغيب ويعلمه الايمان بوجود الخالق الاحد ويقص عليه أسرار وأهداف خلقه وخلق الكون · ثم يرشده الى الامتثال بقوانين شرعية وقيم خلقية تضمن له النجاة الابدية · أما بمجرد الايمان فان الانسان يسمو للبعد الروحي الذي يصله بخالقه وأما بضميره وأعماله فانه يلتزم بالوفاء لعهده وهذا معنى كلمة الاسلام ·

2 ـ الاسس العقيدية للاخلاق الاسلامية

1) المصادر :

ان **القران الكريم** يمثل المصدر الاساسي الذي تنبثق منه الاخلاق الاسلامية فقد انزله الله « **هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان** » (البقرة185) والقران هو في نفس الوقت تاكيد لما قبله وتجديد متمم للرسالات الموحدة المتواترة لا سيما منذ نبوءة ابراهيم الخليل « **ملة أبيكم ابراهيم هو سماكم المسلمين من قبل** » (الحج 77) والذي تنسب اليه ديانتي اليهودية والمسيحية · ولم يكن دور **محمد** صلى الله عليه وسلم تلقي وتبليغ الكتاب الكريم فحسب بل وكذلك تعليمه للناس ليطبقوه في مفاهيمهم وسلوكهم ومعاملاتهم وهكذا يتكون المصدر الثاني في **حديث الرسول وسيرته** · كيف لا وقد قال « انما بعثت لاتمم مكارم الاخلاق » بقي للناس الذين تلقوا الرسالة مباشرة أو من بعيد أن يتكفلوها وأن يتعلموها وأن يطبقوها في حياتهم على مجرى الايام وتقلبات التاريخ · ذلك هو « **الاجتهاد** » الذي يمثل المصدر الثالث الذي يقود المؤمنين

فى مفاهيمهم الدينيـة وفى تطبيقهـم للشريعة وفى سلوكهم ومعاملاتهم ·

2) **الاسس** العقيدية أو القواعـد الدينية التي تقوم عليها الاخلاق تكمـن فى المعنى التى تعطيه لوجود الكـون ولمكانة الانسان فى الخلق ولرسالته فى الارض ولمصيره النهائى · ان الفكـر والسلوك عند المؤمن مرتبطان بالفكـرة الاساسية التى تعلن بوجود الله الاحد والخالق المهيمن علما وقـوة عـلى الكائنات · تلك الفكرة التوحيديـة هي أساس الفلسفة الاسلامية وكذلك أساس الاخلاق والنظم · وهي تتمثل فى مستوى الخلق بوحدة المادة والروح التى تنعشها وعلى مستوى الانسان فى خاصيتهـا التى تشترك فيها الحيوانية والعقليـة · وعلى مستوى الاخلاق بالتضامن الوثيق الذى يربط بين الافراد والجماعة وعلى مستوى النظم السياسية فى وحـدة الدين والدولة ·

وفلسفة « **التوحيد** » (UNITE) هاتـه هي كذلك فلسفة « **الكلية** » (TOTALITE) التى تجعل الاخلاق تشمل جميع الافكار والتصرفات الانسانية انطلاقا من القيام بالحاجات الحياتية البسيطة كالاكـل والشرب الى القيام بعبادة الله وذكره · ولابد هنا من التذكير ببعض المفاهيـم الاسلامية :

1) يتركز الدين أساسا على الايمان بالله الواحد الصمد المهيمن على العالم وعلى الزمان · لا تدركه الابصـار ولا العقول ولكنه يدرك كل المخلوقـات بعلمه وبمشيئته وبرحمته التى وسعت كل شيء « **ان الله عالم غيب السموات والارض انه عليم بذات الصـدور** » · (فاطر 38) · « **يخلق ما يشاء وهـو العليم القدير** » (الروم 54) ·

2) الايمان بالوحي النبوى وبرسالة محمد صلى الله عليه وسلم الذى انزل عليه القرآن هدى للناس « **الذين يؤمنون بما انزل اليك وما انزل من قبلك وبالآخرة هم يوقنون** » (البقرة 5) ·

3) ان الله خلق الكون والكائنات وهو وحده يعلم حقيقتها وأنواعها ومصيرها « **ومن آياته خلق السمـوات والارض وما بث فيهما من دابة** (الشورى 29) « **ويعلم ما فى السموات وما فى الارض والله على كل شيء قدير** » (آل عمران 29) ·

4) كل ما فى الكون خاضع لمشيئـة الله ومكلف بعبادته وتقديسه « **يسبح له السموات السبع والارض ومن فيهن وان من شيء الا يسبح بحمـده ولكن لا تفقهون تسبيحهم انه كان حليمـا غفورا** » (الاسراء ـ 44) · هاته العبادة تكتسى بخاصة الادراك والوعي عنـد الانسان العاقل وتكمن فى الايمان بالله وعبادته وذكره وتقديسـه وفى الاداء الواعى والمسؤول لشرعه ولاوامره ·

5) **ان الله قلد الانسان بمسؤولية كبرى** ذات مظهرين متكاملين احداهما الخلافة فى الارض والالتزام بطاعته والثانيـة

مسؤوليته فى تحقيق سعادته الابدية بطاعة الله ·

6) لم تكن حياة الانسان فى الدنيا الا مرحلة فى الوجود ولكنها مرحلة يتحقق فيها مصيره بموجب الايمان والتقوى والعمل الصالح · فتسجل كل أعماله ويحاسب ويجازى عليها يوم البعث · « **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** (الزلزال ـ 7 ـ 8) · « **فاما من ثقلت موازينه فهو فى عيشة راضية واما من خفت موازينه فامه هاوية وما ادراك ما هيه نار حامية** » (القارعة 6 ـ 10) أما الحياة الدنيا فانما هي مرحلة فى وجود الانسان « **خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا** » ولا يعنى فى ذلك انها « وادى الدموع » كما قيل المملوء بالعذاب والشقاء وانما هي وادى الحياة التى تتواجد فيه الافراح والاقراح « **ونبلوكم بالشر والخير فتنة والينا ترجعون** » (الانبياء ـ 21) · هذه الحياة وهذه الكائنات تخضع لسنة الله فى خلقه : يولد الانسان فينمو ويتقوى ثم يهرم ويموت بينما الحياة الحقيقية تلقاه فى النهاية فيسعد أو يشقى حسب ايمانه واعماله ·

7) تتركز الاخلاق الاسلامية على قواعد الحكمة التى تضمن له القوام الحكيم بين البحث عن السعادة المعقولة فى الدنيا والبحث عن السعادة الابدية فى اليوم الآخر وهكذا تشمل الحكمة الاسلامية كلا البعدين من دون أن يكون فى ذلك تناقض أو تناقص · والامتداد الى الحياة الاخروية يستحوذ على الحياة الدنيا من دون أن ينقصها من معانيها ومتطلباتها الا أن الحقيقة الازلية تجعل الدار الآخرة دار البقاء ودار الحياة ودار السعادة · «**والآخرة خير وأبقى**» (الاعلى ـ 17) «**وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) ·

8) ان مسؤولية الانسان فى سلوكه الخلقى منوطة بحريته · الا أن هاته الحرية تهيمن عليها ارادة الله · واذا رأينا من جهة اخرى ان أعمال وافكار الانسان تخضع لعوامل غريزية حياتية ولتاثيرات البيئة الطبيعية وللتراث النسلى وللوسط الثقافى والاجتماعى فان اكتسابه للعقل يجعله يتحكم فى هاته التاثيرات وتتقرر مسؤوليته نتيجة لملكة الاختيار « **وهديناه النجدين**» «**فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر** » (الكهف ـ 29) لكن مصير الانسان ونجاته تحتاج الى الهداية الالهية التى توجهه وتقوده فى طريق الحق والخير · تلك القواعد المختلفة تصور مجملا مبسطا وملخصا للعقيدة الاسلامية وهي بمثابة حبكة نسيج تحاك عليها أعمال الانسان وتسجل ·

3 ـ ما هو المضمون العملى للاخلاق فى الاسلام ؟

ليس فى نيتنا أن نأتى بعرض مفصل للاخلاق فى الاسلام وانما نود أن نوضحه ببعض الامثلة المعبرة عن ذلك ·

1) ان الايمان كما حددنا مبادئه هو أساس الاخلاق ودافعها ومبررها « انما الاعمال بالنيات » (حديث شريف) · وأما الذين يسعون من دون أن يكون الايمان دافعا لسلوكهم فلا قيمة لاعمالهم « **الذين ينفقون أموالهم رئاء الناس ولا يؤمنون بالله ولا باليوم الآخر** » (الناس ـ 38) « **فأولئك أعمالهم كسراب** » (النور ـ 39) أو كما جاء في آية أخرى : « **مثل ما ينفقون في هذه الحياة الدنيا كمثل ريح فيها صر أصابت حرث قوم ظلموا أنفسهم فأهلكته** » (آل عمران ـ 117) ·

2) ان الفضائل التي سميناها أساسية توجد على مستوى الضمير والدافع النفسي ونذكر منها « المرحمة » التي معناها الحب والسخاء والرحمة والاحترام للكائنات وللاشياء ومنها « الصبر » الذي هو تحمل المشاق والشجاعة في مكافحة الشر « **تجده عند المؤمنين الصابرين في البأساء والضراء وحين البأس**» ومنها «الصدق» الذي يعبر عما هو حق وعدل ويقتضي الاخلاص والاستقامة والشرف والكرامة · وبالطبع فان هاته الفضائل تتعارض مع الخصال الذميمة كالبخل والبغضاء والجبن والكبر والكذب ·

3) أما الفضائل العقلية فهي تشتمل من ناحية أولى عن **العقل** الذي نستطيع بمزيته التمييز بين الخير والشر وتفهم أحوال العالم وتسخيرها للاهداف الحياتية ، ومن جهة أخرى عن **العلم** الذي يكتسب بالتجربة والدراسة والبحث · ان العقل والعلم يسمحان للانسان أن يسيطر على الطبيعة ويستخرج ثرواتها الكامنة والبارزة كما يسمح له باكتشاف القوانين التي تسير الكون وبمشاهدة الآيات العظيمة التي تظهر في خلق الله ·

4) ان العمل الفاضل يهدف الى الكمال الذي يحققه الاسلام في حياة الانسان والمجتمع · وهذا الكمال ليس معناه التخلي عن الدنيا بل بالعكس هو التمتع بالحياة في معناها الكامل الذي يجمع بين أبعاد الحياة الحيوانية والاجتماعية والجمالية والفكرية والروحية · وهنا سنعرض بعض المظاهر الاساسية في مكارم الاخلاق :

ـ **أما على المستوى البشري الادنى** فالاخلاق تتمثل في « القوام » حيث أن البحث عن السعادة الدنيوية هو من المطامح الطبيعية والمعقولة الا أن الانسان متعرض الى دواعي متناقضة تتراوح ما بين الغريزة الحيوانية وتطلعات الفكر · والحكمة اذا تقوم على التوازن الذي يعني في نفس الوقت بقاء حياتي وارتقاء نفسي · وهكذا فانها على مستوى الاقتصاد الفردي تستقيم بعيدة عن البخل والاسراف « **والذين اذا انفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما** » (الفرقان ـ 67) ·

وبالعكس فان هاته الفضائل لا تقبل ما هو من شانه أن يضر بصحة الانسان

الجسمية والعقلية والاجتماعية « **قل انما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن** » (الاعراف ـ 33) ·

ـ **وأما على المستوى البشرى المتوسط** فنرى الانسان يتعلق بقيم جمالية ترقية وشرفية تتجاوز حاجياته الحيوانية « **اعلموا انما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر فى الاموال والاولاد** » (الحديد ـ 20) · وكذلك «**زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والانعام والحرث** » (آل عمران ـ 19) والاخلاق هنا تمثل الوازع الحكيم الذى يهدىء الشهوات ويحولها نحو قيم أفضل وأحسن · « **ذلك متاع الدنيا والله عنده حسن المئاب** » (آل عمران ـ 14) ·

ـ **أما على المستوى الفكرى الاعلى** فان الانسان يبحث عن الملذات الجمالية والادبية والفكرية الا أن استجابته لمواهب الفنون والعلوم تخضع لرقابة الحكمة والخلق السامى لان سوء الفهم لهم يؤدى الى الفسوق والفساد · ان التمتع بالجماليات وبالنعم التى سخرها الله لعباده ليست محظورة ولا ممنوعة « **قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق** » (الاعراف ـ 526) بل بالعكس والله يقول « **انا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب** » (الصافات ـ 6) بل جعل الارض مرحبة بالحياة ومزينة بما فيها ففجر ماءها وشق أنهارها ورفع جبالها وملا بحارها « **أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها وأغطش ليلها واخرج ضحاها والارض بعد ذلك دحاها أخرج منها ماءها ومرعاها والجبال أرساها متاعا لكم ولانعامكم** » (النازعات ـ 27 ـ 33) ولكن ليس للانسان ان يعتر بمفاتن الدنيا لانها امتحان يجب أن يخرج منه منتصرا ومفضلا «**انا جعلنا ما على الارض زينة لها لنبلوهم ايهم أحسن عملا**» (الكهف ـ 7) كما أن التعمق والتوسع فى معرفة المخلوقات والكون من شأنهما أن يريدا للايمان أبعادا أسمى ليس هناك علم من العلوم الطبيعية والكونية الا وهو مامور به سواء كان فى الكونيات أو فى الطبيعيات أو فى التشريح أو حتى فى علم الجنين وتطور الكائنات « **أفلم ينظروا فى ملكوت السموات والارض** » (الاعراف ـ 185) ·

« **أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت والى الارض كيف سطحت** (الغاشية ـ 17 ـ 20) ·

« **قل سيروا فى الارض فانظروا كيف بدأ الخلق** » (العنكبوت ـ 20) ·

« **فلينظر الانسان مم خلق** » (الطارق ـ 5) ·

الا أن على الانسان أن يحترز من المغامرة فيما وراء المعقول اذا لم يكن لديه أساس علمى موضوعى أو حقيقة

سبحانه هى « **من الناس من يجادل فى الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير** » · ليس من المعقول اذا أن يوقع الانسان بنفسه فى مخاطر الظن « **وان الظن لا يغنى من الحق شيئا** » (يونس ـ 56) ولا تؤدى به النظريات الخاطئة الا الى الهلاك « **ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولا** » (الاسراء ـ 36) ·

ـ **أما على المستوى الاجتماعى** فأهم ما تشمله الاخلاق يتمثل فى العدالة وحتى على المستوى الجمادى نجد أن الاهداف ترجع الى ضمان السعادة والسلامة الفردية · فاذا كان المجتمع يطالب الفرد بالمشاركة فى تحقيق السعادة والامن والسلام لغيره من الافراد فانها تعطيه من الوسائل ومن ثقافة ومن أمن أكثر مما تأخذه منه · وهاته الاخلاق الاجتماعية التى تربط الناس بعضهم ببعض تظهر على كل مستويات العلاقات الطبيعية والاقتصادية والثقافية والروحية بينما تبقى خاضعة لأمورية التضامن والعدالة · الا أن التنافس بين الناس سواء ساده طابع السلام أو طابع العنف فانه مرتبط بالغريزة البشرية التى من أخطارها أن يتغلب الاقوياء على الضعفاء فيحرمون لهذا كانت الاخلاق بحيث ما هي تكسب السلطة القانونية وعليها تتركز المعاملات الاجتماعية تعلن بأن كل الناس لهم حق فى الحياة والكرامة وانهم كلهم سواسية عند الله وأمام عدالته وأمام رحمته ·

كما انها تؤكد فى الميدان الاقتصادى طابع الاستخلاف فى الملكية وذلك من جهة أن الله وحده « **له ملك السموات والارض** » (الحديد ـ 2) « **وأن ليس للانسان الا ما سعى** » (النجم ـ 38) ·

والامر هو « **آمنوا بالله ورسوله وانفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه** » (الحديد ـ 7) واذا كانت الملكية الخاصة الفردية أو العائلية محمية ومضمونة لانها ثمرة الجهد والعمل فانها من ناحية أخرى تخضع للمراقبة الخلقية والقانونية التى لا تتعدى الى استغلال وظلم الناس بل تعم فوائدها على الناس ولا سيما على الضعفاء منهم · ثم اذا أنفق الانسان مما جعله الله مستخلفا فيه فانه لم يقم بذلك بأداء صدقة اختيارية « وانما هو يؤدى واجبا هو مطالب فيه » · « **وفى أموالهم حق للسائل والمحروم** » (الذاريات) أما الصدقة فتختلف عن الزكاة بطابعها الاختيارى كما تختلف عن الانفاق فى سبيل الله الذى هو مطلوب بالحاح ولكن بدون تحديد قانونى · وبالعكس فان الاخلاق تستنكر التكديس الغير المثمر والاحتكار للاموال « **والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم** » (التوبة ـ 24) وذلك ليس فقط لان الافراط فى كسب الاموال يؤدى الى الكبرياء والاضطهاد « **ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى** » ولكن كذلك لانه من عوامل التزمت التفضيلى

المسيطـــر على المجتمعـــات « **وكذلك ما أرسلنا من قبلك فى قرية من نذير الا قال مترفوها انا وجدنا آباءنا على أمة وانـــا عـــلى آثارهـــم مقتـدون** » (الزخرف ـ 21) · ذلك الاهتمـــام بالعدالة الاجتماعية والانسجام نجـده كذلك على مستوى الاخلاق الجنسيـة (الزوجية) المبنية على أهمية وخطورد **الميثاق** الذى يجمع بين الروجين وعلى **المساواة** بينهما أمام القانون « **ولهـــن مثل الذى عليهن بالمعروف** » وعـــلى المودة « **وجعل بينكم مودة ورحمـــة** » وعلى **الاحترام والتضامن** « **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** » وعلى **التقسيـم** العادل **للمسؤوليات** فى التربية والانفاق وواقعية هاته الاخلاق جعلتها تسمـــح « بغير رضـــا » اذا صـــح التعـبير ، ولا لغرض الا لضمان التلاؤم والاستقرار الاجتماعى بتعديـــد الزوجـات « **وان خفتم الا تقسطوا فى اليتامى فانكحـوا ما طاب لكم من النساء ...** » النساء 2) او بالطلاق اذا نفذت وسائل الصلـــح والمراجعة · وبالعكس فأن الاسلام مثل الديانات الموحدة التى سبقته يحـــرم تحريما قاطعا كل علاقة جنسية تخرج عن نطاق الزوجية الشرعية ·

ان العدالة الاجتماعية تزداد تماسكا بالرابطة الروحية التى تكون الاخوة داخل الامة بمافيها من التضامن المادى والمعنوى ومن الاحترام الشامل والمطلق لتطبيق العدالة للجميع · وهاته العدالة تشمل الامن والممتلكات والشرف والكرامة الانسانية لكل فرد . كما تشمل التعاون المادى والمعنوى المباشـــر او المنظـــم والخدمات الاجتماعية والثقافية .

أما فى مستواها الاعلى فتتمثـــل الاخلاق الاجتماعية فى تشريع وتحفيـز وحماية الرسالة الروحية · فالامـــة الاسلامية تعيش فى البيئة الروحية التى تتجهز فى الشعائر الدينية وتكـمن فى شعور الامة بانها المسئولة عن الرسالة المتمثلة فيها ·

ـ واخيـــرا عـلى المستوى الكونى تتجاوز الاخلاق دائره الانسان والامـة الاسلاميه لتشمل كل المخلوقات · انما هى الميدان السرى لسمو روح المساواه المطلقة عند الله فلا الجـنس ولا اللون ولا المرتبة الاجتماعيـــة ولا الثـــروة كفيلون بان يعطوا لاى كان كرامـــة او حقوقا يتميز بها عن الآخرين اذ لا يميز بين الناس الا درجة الالتزام بالايمان . والمهم فى ذلك ليس التظاهر فى الشعائر اذ « **ليس البر ان تولوا وجوهكم قبـل المشرق والمغـرب . ولكن البر مـن آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين** » (الآيه) ان الفضيلة فى تقوى القلوب وفى العمل الصالح ومحافة الله وفى هاته الفضيلة الحلقية يتفاضـــل الناس درجة عند الله « **يا أيها النـاس انا خلقناكم من ذكر وانثى وجعلناكـــم شعوبا وقبائل لتعارفوا ان اكرمكم عنـد الله اتقاكم ان اللـه عليـــم خبيـــر** » (الحجرات ـ 13) ثم تمتد الفضيلة الى

الاحترام وتقديس الحياة سواء فى العلاقات البشرية « **ولا تقتلوا النفس التى حرم الله الا بالحق** » (الانعام 151) أو على مستوى الكائنات « **وما من دابة فى الارض ولا طائر يطير بجناحيه الا أمم أمثالكم** ... » (الانعام ـ 38) .

واذا كان العنف والقتال والبأس لا ينفصلون عن حياة الانسانية فعلى الانسان أن يواجهها لا كمحنة وابتلاء فحسب « **والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس** » ولكن كذلك كمكروه يجب محاربته والتحرر منه والصبر عليه اذا لزم ذلك .

5 ـ الاسس النظامية التى تتحقق الاخلاق تحت ظلها :

لم تكن النظم الخاصة بالمجتمع الاسلامى محددة شرعيا فى تركيبها وأجهزتها الا أن رسالتها ووظائفها معرفة بوضوح . والاطار الشرعى لهاته النظم على ثلاث مستويات : المصادر الاساسية العقيدية ـ الوظيفة والامتيازات ـ أسس النظام والتسيير .

1) ما هي المصادر العفيدية التى تعتمد عليها الانظمة ؟

« قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : « تركت فيكم ما لو اتبعتموه لن تضلوا من بعدى أبدا كتاب الله وسنتى»

ـ **كتاب الله** هو المنبع الاول والمرجع الاساسى الذى يحمل رسالة الايمان وروح القانون . انه كلام الله الذى يهدى للقيم الخلقية والدينية . أما **السيرة** النبوية فهي تنظم وتطبق عمليا مقتضيات الايمان وحدود الشريعة . ولهذا جمع فى الامر طاعة الله وطاعة الرسول : « **وأطيعوا الله وأطيعوا الرسول** ... » (التغابن ـ 12) « **وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا** » (الحشر ـ 7) . أما ما يميز هذين العنصرين فهو أن الرسول لم يكن الا المسلم الاول والمثل الاول « **وأمرت لان أكون أول المسلمين** » (الزمر ـ 12) كما انه المبلغ المسؤول « **يا أيها الرسول بلغ ما أنزل اليك من ربك وان لم تفعل فما بلغت رسالاته والله يعصمك من الناس ان الله لا يهدى القوم الكافرين** » (المائدة 67) .

وهناك مصدر ثالث مفتوح فى الزمان والمكان وهو **الاجتهاد** الفردى أو الجماعى الذى يواجه بهالمؤمنون المشاكل التى تطرح عليهم مع التمسك بمبادى الشرع . ومسؤولية الامة فى وفائها لرسالة الايمان واحترامها للمبادىء الخلقية ، تفرض وجود نظام جماعى مكلف بالقيام على هذه المبادىء « **ولتكن منكم أمة يدعون الى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون** » (آل عمران (104) ويمكن لنا أن نتصور هاته المنظمة التى تمثل الضمير الدينى والمسؤولية الخلقية للمجتمع والتى تلعب فى نفس الوقت دورا استشاريا وتشريعيا وربما زاجرا للمخالفات ، وتكون سلطتها التى تعتمد على مبدا احترام الاخلاق الاساسية تهيمن على سائر الامة بما فيها الانظمة

الحكومية · وذلك يعنى أن السلطة الحاكمة تخضع للمبادىء الخلقية المفروضة ·

أما على المستوى المركزى فتوجه النظم الحكومية :

انه من الحكمة السامية عدم تجميد نظام الجهاز التنفيذى للسلطة الحكومية أما الدولة التى أسسها الرسول صلى الله عليه وسلم بالمدينة فهي مثل وحيد فى نوعه لانه مرتبط مباشره بالوحي ، ولترسيخ العقيدة فى الناس ولتشييد المجتمع الاسلامى فى ظروف تاريخية غير عادية · وأما السلطة الشبه المطلقة التى سنتها العائلات الملوكية من بعد فقد كانت لا محالة انحراف خطير عن مفاهيم العقيدة ولكن لا ننسى من جهة اخرى أن الحكومات فى تاريخ الاسلام حتى يومنا هذا كانت تحكم باسم الشريعة الاسلامية سواء ابتعدت عنها أو اقتربت منها · ومهما يكن نموذج الدولة الاسلامية فانها تخضع لمبدئين اساسيين : المبدأ الاول هو أن تحكم **بما أمر الله** وأن يلتزم أولو الامر بتطبيق الاخلاق والشريعة الاسلامية وبالدفاع عنها وحماية الاراضى ومصالح الامة الاسلامية · وبقدر ما يتمسكوا بما أمر الله فان لهم أن يطاعوا كما تنص عليه الآية الكريمة : « **يا أيها الذين امنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الامر منكم** » (النساء ـ 59) وبالطبع فان عليهم أن لا يحيدوا عن أمر الله « **ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون** » (المائدة ـ 44) كما انه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » (حديث) ·

المبدأ الثانى هو أنه على الحاكم أن يقتضى مبدأ الشورى « **وأمرهم شورى بينهم** » (الشورى ـ 38) « **فاعف عنهم واستغفر لهم وشاورهم فى الامر فاذا عزمت فتوكل على الله ان الله يحب المتوكلين** (آل عمران ـ 159) · أما كيفية تطبيق مبدأ الشورى الذى يعارض كل ادعاء الاستبداد فى الرأى والامر فهو موضوع دراسة اجتهادية من حق المفكرين والمسؤولين الاسلاميين أن يحددوا اطارها حسب الظروف الاجتماعية والفكرية الراهنة ·

5 ـ الاخلاق والنظم الاسلامية على ساحة التاريخ :

لم يكن من شأن الرسالة الاسلامية أن تجعل من الحياة الدنيا جنة فى الارض ، ولا أن تجعل من كل الناس أولياء الله · وذلك لان الجنة محلها فى الدار الاخرة « **وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون** » (العنكبوت ـ 64) وما الولاء الا الاجتهاد فى الفضيلة والتقوى التى تقرب من الله « **ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون** » (الانفال ـ 34) أما الحياة الدنيا فهي امتحان ينعرض فيه الانسان لدواعى متناقضة للخير وللشر ما بين الحيوانية التى يحملها فى طبيعته والروحانية التى تحرره ·

وفى هذا الامتحان وفى هذا التنافس الخطير من اجل النجاة ليس للافراد والجماعات أن يحققوا نفس النجاح ·

فمنهم من يسعى ونور الله بين يديه ومنهم من « **ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة** » (البقرة ـ 7) وبين هؤلاء وهؤلاء درجات فى الكمال والضلال · الا أننا حين نتكلم عن حضارة الاسلام من الوجهة التاريخية نذكر ان هنالك انتصارات وهزائم وانحطاطا ونهضة · وبالرغم من ازدهار تمدنى امتد عدة قرون واتسع على قارات العالم وشمل مئات الملايين من البشر فالتطور التاريخى للعالم الاسلامى لم يكن متساويا واذا حاولنا أن نتحكم فيه نجد أمامنا نوعين من المسائل : المسألة الاولى ذات طابع فلسفى وهي : هل كان من المفروض على الامة الاسلامية أن تحول البشرية الى مجتمع مثالى مؤمن وعادل وموحد ومزدهر ومتكافىء ؟ من غير شك أنه من حقها أن تحافظ على فضيلتها أحسن مما كان وأن لا تبتعد عما وصفها الله به فى قوله « **كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله** » (آل عمران 110) · لكن الكمال البشرى ليس من طابع الحياة « **ولو شاء الله لجعلكم أمة واحدة ولكن ليبلوكم فيما أتاكم** » (المائدة 48) ·

المسألة الثانية تتعلق بجدلية التاريخ فاذا كانت حوادث الزمان خاضعة لمشيئة الله حيث « **ان الارض لله يورثها من يشاء من عباده** » (الاعراف 128) : فمشيئة الله تقتضى التصرف الواعى والمسؤولية الفعالة للانسان « **ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم** » (الرعد ـ 11) · وحسب هذا المنطق يقول : « **ولقد كتبنا فى الزبور من بعد الذكر أن الارض يرثها عبادي الصالحون** » (الانبياء ـ 105) أما فيما يخص التفهم الموضوعى للعوامل التى تؤثر فى مصير الامم فهي أكثر تعقدا مما هو فى سلوك الافراد كما انه ليس من السهل أن نحدد دور الاقتصاد والبيئة الطبيعية بل وحتى مفعول الغريزة والشهوة والصدفة والارادة والاغلاط ·

ان الموضوعية فى الحكم على التاريخ تنفلت من قبضة الادراك والمعرفة على المستوى الانسانى · لقد حاول ابن خلدون ومن بعده كارل ماركس تحليل بعض العوامل التى تسيطر على تاريخ المجتمعات ولكن فى جدلية التاريخ ما هو حقيقة علمية وما هو تهافت عشوى ولهذا ليس من أدعائنا أن نجعل من فلسفة التاريخ علما موضوعيا بل نكتفى بعرض بعض العوامل السلبية التى كدرت تاريخ العالم الاسلامى وهي ترجع غالبا الى التفاوت الذى طرأ بين مبادىء الاخلاق والشريعة الاسلامية وبين تطبيقها وواقع الحياة · ما هي هاته العوامل ؟

1) تصدع الوحدة العقيدية فى مفهوم الايمان أدى الى اختيارات فردية

واجتماعية اعدمت التوازن فهي تارة تميل نحو تصوف انعزالى رافض لحقائق الحياة وتارة نحو اقتصادية مستحوذة على الحياة ونافية للقيم الخلقية والروحية ·

2) التباعد الذى وقع بين تحمل مستسلم رسالة الايمان وبين التفهم العقلانى للعالم أدى الى تحجر الفكر الدينى فى قالب التزمت الفقهى عوض أن يتفتح لآفاق العلوم الطبيعية والانسانية ·

3) التناقض بين دوافع الشهوات المادية ودواعى الامتناع الروحى كثيرا ما يؤدى على مستوى الافراد الى تغلب الغريزة التى تدعو للشهوات ولحب السلطة وعلى مستوى الاجتماعى الى تلاعب المتناقضات بين مصالح الجماعات والطبقات والاسر المالكة والدول الحاكمة ·

4) كثيرا ما يقع تباعد بين معتقدات الجماهير المؤمنة والمتمسكة بالشعائر الدينية وبين المفاهيم التى تحملها رجالات السياسة الذين لا يعبؤون بحماية الدين واحترام مبادىء الديمقراطية وتطبيق العدالة الاجتماعية ·

5) اذا كان المسلمون قد بادروا فى بادىء الامر بالاقتباس المتفتح والمثمر من الافكار والفلسفات القديمة أو الاجنبية من دون أن تنقص من عقيدتهم أو تلفتهم عن الثقافة الاسلامية فانهم فى العصور الاخيرة لم يتحكموا فى تأثير الافكار المختلفة التى تحملها المدنية الغربية ·

6) النزاعات السياسية العقائدية حملت الوحدة العضوية للعالم الاسلامى تتشتت من دون أن تخفف من خطر التفتت السياسى بروابط التضامن والتعاون بين الدول · وازدادت تلك النزاعات حدة بسبب الهيمنة الاستعمارية وبروز النزاعات القديمة القومية وتنافس الدول العظمى ·

7) كان من شان الاعتداءات الخارجية منذ بداية انتشار الاسلام حتى عصر التوسع الاستعمارى الحديث بما فى ذلك من حروب صليبية وغارات استعمارية أن تعرقل القوة السياسية والاقتصادية والروحية والثقافية فى العالم الاسلامى ·

8) كان فى استمرار أو فى بروز عوائد وعقائد وافكار جاهلية او اجنبية خارجة عن المفاهيم الاسلامية عامل جهل وشعوذة وركود مخالفة للفكر الاسلامى المحرر للعقل ·

9) هنالك عوامل اخرى اقل عمومية تدخلت فى تسلسل الاحداث التاريخية · كخصائص الاقتصاد وطبائع البلدان والاحوال الاجتماعية وحتى التطورات الوبائية التى كانت سببا فى هلاك البشر وتخلف العمران وركود المدنية ·

لم تشمل هاته القائمة كل ما يمكن ان يقال فى هذا الشان واذا كان هذا العرض متشائما نوعا ما فلا يمنعنا من

الحكم بأن الشعوب الاسلامية بقيت مرتبطة بالقيم الاسلامية لا فى العهد الزاهر للمدنية الاسلامية فحسب،ولكن حتى فى المحن المؤلمة التى مرت عليها · لهذا فان أخطر عهد يهدد وجود الامة الاسلامية وقيمها ووحدتها العقيدية ليس عهد الاغارات الوثنية ولا الاعتداءات الصليبية ولا الفتن الداخلية ولا حتى الغزوات الاستعمارية حيث استطاعت فى آخر الامر أن تردها أو تنتصر عليها،وانما هو فى هذا النصف الاخير من القرن العشرين · ذلك التحدى المتعدد الاشكال الذى يقوم به العالم العصرى : تحدى استراتيجى يجعل من العالم الاسلامى عالما ثالثا تتنازع فيه الدول الكبرى للسيطرة السياسية والاقتصادية والعقائدية · تحدى تكنولوجى حيث أن الغلبة القاهرة للغرب تواصل ضغطها وسيطرتها على عالم متخلف كسدت فيه مرافق الاقتصاد والعلم والثقافة منذ قرون عدة · ثم من الناحية الفكرية تحدى فلسفى حيث أن العقائد الالحادية والمادية تتسرب فى ضمائر المسلمين ولا سيما فى النخبة السياسية والفكرية · وأخيرا تحدى اجتماعى حيث ان الامة الاسلامية تتخبط فى تناقضاتها التاريخية الناتجة عن التخلف والتى اظهرت فيها عقليات واختلافات طبقية لا تتماشى ومبادىء العدالة والاخوة ·

6 ـ مفترق الطرق :

يعيش العالم الاسلامى اليوم على ملتقى مزدوج للطرق،حيث ان تطوره الزمنى بين الماضى والمستقبل يلتقى بالتطور المزدوج للعالم الغربى · فمن جهة يخرج العالم الاسلامى من عهد التخلف والاستعمار الطويل مع العزم المنعقد لا لاحياء واثبات قيمه الخاصة فحسب ، وانما كذلك للانطلاق فى عهد التكنولوجية الحديثة · وفى نفس الوقت يصطدم بالغرب المنقسم الى شطرين متعاديين يهدد تنازعهما سلامة العالم وتواجد الامم وحتى حياة البشرية · وكلا المعسكرين يعتمد على فلسفات مادية تتجاهل القيم الروحية،ولا يختلفان الا فى اختياراتها الاجتماعية الاقتصادية فالاول موجه نحو حرية المبادرة والآخر نحو اشتراكية وسائل الانتاج · والعالم الاسلامى يتعرض للضغوط الصريحة أو المخفية لا على المستويات السياسية والاقتصادية والاستراتيجية فحسب،ولكن حتى على مستوى العقيدة والفكر والسلوك الخلقى ·

وهذا الضغط المختلف الاشكال يتمخض عن تيارات فكرية مختلفة تتقارب أو تتصادم،فتثير التناقضات الداخلية فى المجتمع الاسلامى،كما تزرع فيها نفس الاختلافات العقائدية التى تتنافس فى المجتمعات الغربية ومن ضمن هاته التيارات التى لا يسهل تحديدها فى محتواها وفى تطورها وفى تداخلها سنذكر :

I ـ تيار اسلامى فى أعماق الجماهير الغفيرة والذى مع ضعفه فى ميادين الشعور والتعبير والتنظيم يشهد عن

طموح شعبى يهدف لتحقيق الكمالات الاسلامية فى الاخلاق والقوانين والنظم وفى الترقية الاجتماعية والاقتصادية العادلة ٠

2 ـ تيار مناضل ينتسب للسلف الاسلامى ويطالب بحكم ونظام خلقى متمسك بالشرع والتقاليد الاسلامية ٠ ربما أدى به نضاله السياسى وضعف تقييمه لحقائق ومتطلبات العصر الى التطرف والانعزال بالنسبة للجماهير التى من شأنه أن يقودها وبالنسبة للنظم السياسية التى ينكر شرعيتها ٠

3 ـ تيار محافظ يدعى التمسك بالقيم الدينية ويعتمد على المظاهر أكثر مما يعتمد على المعانى.وهو فى الواقع يمثل تخالفا بين الطبقات أو الجماعات الحاكمة والمسيطرة على الاقتصاد وفرقة من رجال الدين المبتعدين لا عن فهم التطورات التى طرأت على الفكر وعلى المعرفة فحسب ولكن حتى عن المحتوى العميق الخلقى والاجتماعى والفكرى فى الاسلام ٠

4 ـ تيار فكرى وسياسى متشبع بالمفاهيم الغربية العصرية ومقتنع بأنه لا توجد حلول خارج المدنية الغربية والديمقراطية من النوع اللبيرالى ٠ أما الدين فلا يكتسى فيه أهمية دولية بل يمكن أن يكون مسألة اختيارات فردية ربما يجوز احترامها ولكن لا يقبل الامتثال لها أو الاعتماد عليها ٠

5 ـ تيار يسارى ينتمى من قريب [illegible] من بعيد للماركسية ٠ له اختيارات [illegible] اجتماعية ٠ يتسامح نوعا ما مع [illegible] محلفات العقائد الدينية ، وربما [illegible] الى ادماج المفاهيم الاسلامية والماركسية بصفة وقتية تتناسب مع ظروف [illegible]

6 ـ دون هذه التيارات الكبرى توجد لا محالة أشكال عديدة من النزاعات العقائدية التى تفرق بينهم تزداد [illegible] مع تداخلها فى التحالفات السياسية الراهنة التى تصطاد الشعوب [illegible] فى شبكة الاستراتيجيات الدولية ٠

ان الازمة الخلقية فى العالم [illegible] تظهر على مستوى النظم الحكومية بمقتضى النزاعات القومية [illegible] استقلالها وشخصيتها ومصالحها الاقتصادية بعامل الاختلافات الكبيرة فى نوعية النظم الدولية التى تتراوح ما بين الاحكام الاقطاعية الى الجمهوريات اللائكية مرورا على الدكتاتورية العسكرية أو المدنية ٠ بما فيها من يمينية أو يسارية ٠

هل يمكن لنا أن نتنبأ أو نتدارك بوضوح ما هي الخطوط الموجهة للتطور فينطلق فى ضوءها العالم الاسلامى طبقا لتعهداته ولرسالته الروحية التى تهدف الى افاق انسانية يسود فيها التقدم والعدل والحرية ٠ انه ليس من كفاءتنا فى اطار هذا البحث التمهيدى أن نتكهن بماذا يحدث فى المستقبل ولا أن نرسم الطرق ولكننا نحاول أن نبرر

الاهداف الاساسية لاستراتجية عامة تحتاج الى استشارات وتقديرات على مستوى أوسع وأكفأ ·

7 ـ في سبيل استراتجية بحث وعمل :

اذا كنا نتكلم بصفتنا مسلمين ومؤمنين بالله وملتزمين بخدمة الاسلام فان هدفنا يكمن في تحقيق الفضائل الخلقية والروحية وهذا يفترض اهدافا عملية نذكر منها :

أولا : تكوين الانسان على مستوى الايمان أي في معرفة الله وحبه وعبادته والعمل بدينه والاقتفاء بسنة رسوله ·

ثانيا : تحقيق الانسان في بعده الحياتي الاجتماعي أي في حقه للحياة الكريمة وللامن وللصحة البدنية وللسعادة النفسية ·

ثالثا : تحقيق الانسان في بعده الخلقي،بما في ذلك من محاسن نفسية وثقافية أساسية ومن فضائل سلوكية في المعاملات الفردية والعائلية والاجتماعية ·

رابعا : تحقيق الانسان في بعده الاجتماعي المبني على مفهوم الاخلاق الاساسية التي تتمثل في الاخوة والمساواة والعدالة والتضامن في النظم التي تضمن احترام هاته الاخلاق وتطبيق القوانين التي تنبعث منها ·

خامسا : تكوين الانسان في أبعاده الادبية والفكرية التي تعطي للحضارة الانسانية محتواها ومفاهيمها الفاضلة ·

سادسا : تكوين الانسان على مستوى الامة التي تسودها علاقات الاخوة الصادقة تلك التي صمدت أمام تحديات الزمان وأنواع العدوان وهي التي توجد بين المسلمين عبر الحدود واللغات والاجناس والحكومات ·

سابعا : تحقيق الانسان في بعده البشري أي في علاقاته مع الشعوب والديانات الاخرى طبقا للمكانة التي خصصها الله للامة الاسلامية « **وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم شهيدا** » (البقرة ـ 143) · هاته الآية الكريمة تعبر على رسالة الاسلام العالمية كعامل توازن بين الامم وسلام بين الشعوب وذلك يتضمن مسؤولية ايجابية للدفاع عن الحقيقة وعن الحق وعن العدالة والحرية في العالم ·

يبقى أن هاته الاهداف الخلقية تتطلب نظما مشروعة وملتزمة بحمايتها وتحقيقها · أما النظام الحكومي فليس من الحكمة أن يتقيد بنموذج متجمد بل عليه أن يتطور حسب الاحوال والزمان والاوضاع الاجتماعية الاقتصادية في كل بلاد · ولكن اذا كانت الاوضاع الراهنة تجعل من الخيال واللامعقول أن نفكر عاجلا في حكومة اسلامية عالمية ، ليست الافكار ولا الاوضاع مستعدة لفرضها · فيبقى الاتحاد هدفا نظاميا أساسيا طبقا للوصية الالهية : « **واعتصموا بحبل الله جميعا**

ولا تفرقوا واذكروا نعمة الله عليكم اذ كنتم أعداء فالف بين قلوبكم فاصبحتم بنعمته اخوانا » (آل عمران – 103) ·

ولا يتمثّل هذا الاتحاد فى علاقات التعاون والتضامن فحسب ولكن فى الاجتهاد الجماعى لتحقيق الاهداف الخلقية فى العدالة الاجتماعية والرفاهية والتقدم والتآخى والسلام بين الامم ·

لا شك وان العقبات التى تقف دون تحقيق هاته الاهداف المثالية كثيرة ومعقدة، منها ما يكمن فى تناقض الطبيعة الانسانية، ومنها ما هو متعلق بالتطور الداخلى الاجتماعى والسياسى والاقتصادى والثقافى فى العالم الاسلامى، ومنها ما يقع على مستوى الروابط التاريخية والاقتصادية والعقائدية والاستراتيجية مع الدول الكبيرة ومع شعوب العالم · وعلى المفكرين المسلمين الاكثر اطلاعا ووعيا والتزاما مهما كان جنسهم أو بلدهم أو لغتهم، ان يتعارفوا وأن يسعوا فى البحث عن أنجح طريق تقود الى مجابهة مشاكل الساعة التى تتخبط فيها · ليست الشعوب الاسلامية فحسب بل كافة الانسانية · لذلك لا يكفى بأن نعلن بوفائنا للاسلام ولا أن نؤذن بشموليته وعبقريته · ان الجهاد الاكبر الذى هو جهاد فى سبيل الاسلام وتزكية الانسان مسؤولية كل مؤمن ، وامتحان متواصل· والتوصل اليه يقتضى أن نتعرف على الاسلام أحسن مما نحن عليه وان نطلع على تطورات العالم المعاصر ، وتنمية المعارف والافكار أكثر مما هو حاصل · وان نوضح الاهداف والمقاصد وان نحدد بموضوعية أهم القضايا ، بعد تقييم الحواجز والعوائق؛ وأن نضع الخطوط الهامة لاستراتجية عامة ، للبحث والعمل على طول امتداد العالم الاسلامى ، وعلى اختلاف أوضاعه · كثيرا ما كانت المساعى مبعثرة او مشلولة والافكار متنافرة أو مشبوهة لكن الاضطرابات التى يشهدها العالم الاسلامى وردود الفعل التى يثيرها، تعبر فى مداها وفى ثباتها عن تلك القوة الفكرية التى ضاق عليها عالم يسوده الظلم والبخل والكذب، وتابى الا أن تتفجر بأنوارها لتضىء العالم بالحق والعدل والسلام ·

هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟

الاستاذ محمد الهادي الحسيني

ها نحن نقف على عتبة القرن الخامس عشر للهجرة المباركة · فهل يلوح في الافق ما يشير الى ان هذا الجيل من المسلمين هو المعني بقوله عز وجل : « **وعد الله الذين امنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الارض كما استخلف الذين من قبلهم . وليمكنن لهم دينهم الذى ارتضى لهم ، وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا . يعبدونني لا يشركون بي شيئا . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون** » ؟ النور الآيـــة ٥٦ ·

لقد طوى المسلمون من القرون أربعة عشر ، ذاقـوا خلالهـا الحلـو والمر ، وعرفوا اليسر والعسر ، وشاهدوا المد والجزر . وتقلبوا بين العز والقهـــر ، وعاشوا الهزيمة والنصر . ومسهم الغنى والفقـــر ·

لقد اقام المسلمون خلال هذه القرون الخالية دولا كثيرة في المشرق والمغرب، في الشمال والجنوب ، وقد لوحـــظ أن هذه الدول كانت أقوى بنيانا ، وأرسى قواعد ، وامتن أوتادا ، وأرهب للاعداء ما حكمت بما أمر الله ، واستمسكـــت بالعروة الوثقى ، وانها كانت أوهن من بيت العنكبوت ما اتخذت الهها هواها ، واستبدلت الذى هو أدنى بالذى هـــو خير ، واتبعت ما تتلو الشياطين ·

كما لوحظ على هذه الدول في أيـام عزها وصولتها ، أن قوتها لم تكن ــ في الاغلب ــ مرتكزة على قوة عتاد ، أو كثرة عدة ، بقدر ما كانت تلك القـــوة مستمدة من مبادىء الاسلام ، ومن تشبث الناس فيها ــ حكاما ومحكومين ــ بحبل الله ، ووقوفهم عند حدود دينه · وكـم من مرة ظن المسلمون ــ عندما اعرضوا عن ذكر الله ــ أنهم أولو قوة ، وأولـــو بأس شديد ، وأعجبتهم كثرتهم ، ولكنهم عند لقائهم بالعدو ولوه الادبار ، وأثاروا

فى وجهه الغبار ، وفضلوا على الاستشهاد الفرار ، واسم يكلل جبينهم الغار · وكم من مرة كانوا ـ المسلمون ـ قلة فى العدد ، محرومين من المدد ، عارية ظهورهم من أي سدد ، وظن عدوهم أن لن ينجو منهم أحد ، فاذا بهم ـ المسلمين ـ يسحقونه سحقا ، ويمحقونه محقا ، ويذيقونه من أمره رهقا ·

وقد خاض المسلمون تحت لواء الاسلام جهادا طويلا مضنيا ضد الدول الطاغية ، كالدولة الساسانية والدولة البيزنطية ، وتصدوا لهجمات ظالمة ، شرسة ، حاقدة كالهجمة الصليبية ، والهجمة المغولية ، والتكالب الاوروبى الذى ابتدأ منذ القرن التاسع للهجرة (الخامس عشر للميلاد) ، وما يزال مستمرا ، متواصلا الى اليوم فى عدة أشكال منها **المفضوح المكشوف ، وهو اليسير ، ومنها المستور الملفوف ، وهو العسير** ·

وقد حاول أعداء الاسلام ـ وما زالوا ـ أن يحطموه من الداخل ، بنشر مذاهب وأفكار ضالة بين المسلمين ، فظهرت السبئية ، والمزدكية والبابكية ، وحركة القرامطة ، والبهائية والقاديانية، ويحاول الآن أعداء الاسلام بشتى الوسائل أن يحطموه باشاعة الداروينية، والفرويدية، والشيوعية ، والماسونية ، والافكار الرأسمالية بين شباب المسلمين ··· وقد تصدى لهؤلاء وأولئك علماء الاسلام، فكشفوا الضلال ، وبينوا الزيف ، وفندوا الادعاءات ، وفضحوا المضللين · وبقي الاسلام نقيا ، صافيا ، وسيبقى زعم كيد الكائدين ، وضلال الضالين المضلين. ألم يعد رب العزة بحفظ هذا الدين عندما قال : **انا نحن نزلنا الذكر وانا له لحافظون** ·· الحجر · الآية ٩ · ألم يخبرنا بأنه لا يمكث فى الارض الا النافع المفيد بقوله « **كذلك يضرب الله الحق والباطل فاما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الارض ···** » ؟ الرعد الآية ١٧ ·

وقد عرف المسلمون خلال الاربعة عشر قرنا الماضية أمراضا فتاكة ، وأدواءا قتالة ، وعللا مهلكة ، كانوا هم السبب فيها ، اذ أن الله جلت قدرته لا يظلم مثقال حبة فى الارض ولا فى السماء ، وقد فعلت فيهم هذه الامراض ـ وما زالت ـ فعلا سيئا ، ولطخت ـ وما زالت ـ صفحات عديدة من تاريخهم ، ومنها

المذهبية · التى فرقت الجمع، وشتتت الصف ، وأهدرت الطاقة ، واضعفت القوة ، وهدت البنيان ، وصار الاسلام ـ نتيجة هذه المذهبية ـ اسلامات ، والدين أديانا ، والاخوة أعداءا ، وأصبحنا اليوم نقرأ الكتب التى تتحدث عن الاسلام السنى ، والاسلام الشيعى ، والاسلام الخارجى · وفى كل اسلام من هذه الاسلامات شيع وفرق يحار فيها العقل ·

التسلطية فى الحكم فقد ابتلي المسلمون ـ قديما وحديثا ـ بكثير من الحكام ، علوا فى الارض وعاثوا

فيها فسادا ، ونبذوا أمر الله « ·· **وشاورهم في الامر** ·· » آل عمران الآية 159 · و « **امرهم شورى بينهم** ·· » الشورى · الآية 35 · أعرضوا عن كل ذلك ، وراحوا يفرضون على المسلمين ـ بالترهيب ـ أحكاما ما أنزل الله بها من سلطان ، وأخذتهم العزة بالاثم ، ودعاهم الشيطان فاستجابوا له · وان منهم لفريقا اسجدوا لهم عباد الله ، وان منهم لمن يطالبون الناس بطاعتهم وهم يعصون الله ، وان منهم لمن يشهدون الله على ما في قلوبهم وهم الد الخصام ، وافتك بالاسلام من أعداء الاسلام ، وان منهم لمن يحلون ما حرم الله ويحرمون ما أحل الله ، وان منهم ·· وان منهم ··

التبذير : وكم أضاع المسلمون ـ وما زالوا ـ حكاما ومحكومين من أموال ، كانت كافية لاخراجهم مما هم فيه من سوء الاحوال ، لو أنفقت في ميادين الخير ومواطن الحلال ، فمنهم من أضاعها في بناء قصور ، ومنهم من بددها في تزيين وزخرفة قبور ، ومنهم من صبها في بطنه في شكل خمور،ومنهم من أحرقها كالبخور في محلات الفجور . ومنهم من صرفها في مهرجانات الفولكلور ، واصفا اياها بالعلمية الثقافية ، رغم « الغايطة والطنبور» ، منهم من تكرم بها على جواسيس اصفا اياهم بالخبراء الاصدقاء ، منهم من كدسها في بنوك الاعداء ، ان منهم من صنع بها مرحاضا من ذهب ، ليفرغ فيه ما يخرج من الامعاء ·

لا شك ان المسلمين في غالبيتهم ، أدركتهم صحوة في أواخر هذا القرن المنصرم ، وزالت عن أعينهم غشاوات وانجلت عن عقولهم ضلالات ، بعد أن كانوا عمي الابصار والبصائر ، فارغي الافئدة ، موبوئي السرائر · وقد جاءت هذه الصحوة ، نتيجة أعمال تلك الصفوة ، من العلماء المجاهدين ذوي النخوة ، في شتى أصقاع العالم الاسلامي ، كجمال الدين الافغاني ، ومحمد عبده ، ومحمد اقبال ، وابن باديس ، والابراهيمي ، وبن نبي ، والمودودي ·· وغيرهم كثير ·

ورغم ذلك فما زال المسلمون بعيدين عن الصورة الحقيقية التي يتحتم عليهم أن يكونوها امتثالا لامر الله ، فهم متفرقون شيعا وأحزابا ، فقراء ، ضعفاء ، جهلاء في حياتهم وسلوكهم ، جاهلين بقدراتهم وامكانياتهم · وان مثلهم كمثل العير تموت ضمأ في البيداء · وفوق ظهورها الماء ، وانهم ليعزفون الدواء ، ولكنهم يفضلون الداء ·

ان المسلمين يملكون كل أسباب العزة ، وكل شروط المنعة ، وكل وسائل السؤدد ، وانهم لفي استطاعتهم أن يكونوا القوة الخيرة ، والقيادة الهادية في هذا العالم الذي يقترب من هاوية ما لها من قرار ، لسيطرة قوى الشر ، وتحكم الطغيان · فما هي هذه الاسباب وهذه الشروط التي منحها الله للمسلمين او قدروها حق قدرها ؟

أولا : الطاقة الروحية المحركة التى يتوفر عليها الاسلام ، وانها لطاقة ربانية جبارة ، قادرة على تجميع وتحريك كل المسلمين فى طريق واحدة، نحو هدف واحد ، هو الاصلاح فى الارض ، واعمارها ، بما يفيد الناس دنيا وآخرة · ولا بديل لهذه الطاقة ، وان ظن قصيرو النظر أن هناك طاقة أخرى يمكن التعويل عليها · وحتى هذه الطاقة البديلة ان حركت ، فانما تحرك لمسافة قصيرة ، ولا تحرك الا للفساد ، وان ظهر لعمي البصائر ، ومزورى الحقائق انها للصلاح · ولنا فى تخبط المسلمين وتذبذبهم فى شتى أقطارهم البرهان الساطع ، والحجة الدامغة على فشل وعجز أية طاقة بديلة عن تحقيق المرغوب ، والوصول بهم الى المطلوب · وكل ما فعلته تلك الطاقة البديلة أنها أسلمت الرقاب ، وسلبت الالباب ، وجلبت ـ بدل الامن ـ الارهاب ، وان مصير المسلمين اليوم ـ نتيجة هذه الطاقة البديلة ـ هو بأيدى قوى أجنبية·

ثانيا الكثرة العددية للمسلمين ، فهم يبلغون اليوم مليار نسمة أو يزيدون، وهم يشكلون بهذا العدد ربع سكان العالم · ولو أن المسلمين مسلمون حقا وصدقا ، وطبقوا أمر الرسول الكريم : « انصر أخاك ظالما أو مظلوما » ـ والمسلمون كلهم مظلومون فى هذا العصر ـ أقول : لو طبقوا ذلك ، لارهبوا وأرعبوا كل طماع فيهم ، متربص بهم ، متآمر عليهم · فقد قدر الخبراء العسكريون أن أية أمة تستطيع أن تحد عشر أبنائها ، وان عشر المليار هو « مائة مليون » · فما ظنكم بجيش تعداده مائة مليون مجاهد ، لا يتحرك لاستعمار ولا يستنفر لاستعباد ، الا يرهب هذا الجيش عدو الله ، الا يقصم ظهر كل معتد أثيم ، اي وربى

ثالثا : الموقع الجغرافى الوسط الذى يتحكم المسلمون بفضله فى مداخل ثلاث قارات، ويشرفون على ممرات مائية هي من هذه القارات كالمفاتيح من جسم الانسان ، ويراقبون ـ بفضله ـ خطوط المواصلات الدولية ـ برا ، وبحرا ، وجوا ـ التى تربط شمال العالم بجنوبه ، وشرقه بغربه · ومع ذلك فالمسلمون أجهل الناس بقيمة هذا الموقع ، وازهدهم فى استغلال هذا الوضع ، بينما تتصارع من أجله كل القوى فى العالم صغيرها والكبير ، وتبذل فى سبيل ذلك الغالى والحقير ·

رابعا : الثروة المادية الضخمة ، التى تحتويها أرضهم من معادن ، ونباتات ، وحيوانات ، وطاقة ، فهم يملكون 13/ من الانتاج العالمى من الارز ، و 10/ من القمح ، و 54/ من المطاط الطبيعى ، و 20/ من القطن ، و 22/ من الفول السودانى ، و 11/ من الابقار ، و 25/ من الاغنام ، و 30/ من الماعز ، و 9/ من الثروة الغابية، و 10/ من قصب السكر ، و 5/ من الحديد ، و 10/ من المنجنيز، و 50/ من القصدير،

و 12٪ من الرصاص ، و 45٪ من معدن الكروم ، و 35٪ من الفوسفات ، و 41٪ من البترون ، و 70٪ من الاحتياطى العالمى من البترون (1) . وان تكلم العالم عن الطاقة الشمسية كبديل للبترون، فللمسلمين من هذه الطاقة نصيب الاسد، وهذا النصيب يكفى لاحراق العالم كله لا لتدفئته فقط .

خامسا : المساحة الارضية الشاسعة، فالمسلمون يسيطرون على مساحة من الارض تبلغ 30،127،609 كيلو متر مربع، وهي مساحة كبيرة جدا ، متنوعة المناخ والتربة ، مما يجعل التكامل الاقتصادى بينهم أمرا ممكنا ، فيستغنون بذلك عن مد اليد ، واستجداء الغير .

ولاعد الى التساؤلات التى استفتحت به هذه الكلمة ، وهو ، هل الى عزة المسلمين من سبيل ؟ .

لقد رأينا رأي العين ، ما يملكه المسلمون فى الوقت الحاضر من امكانيات مادية هائلة ، وثروة بشرية عظيمة ، فما الذي يمنعهم من أن يكونوا أعزة ؟ وما الذى يسد أمامهم سبيل السيادة ؟ الواقع ، أن المسلمين طلبوا العزة ولم يسلكوا سبيلها ، وتمنوا المجد وابتعدوا عن طريقه ، لانه لا عزة، ولا سيادة حقيقية الا بالعودة الصادقة الى ما صلح به أوائل المسلمين ، وهل صلح أمر الاسلاف الا بتمسكهم بالقرآن عقيدة ، وعبادات ، ومعاملات وأخلاقا ؟

قد يظن ظان أننى أدعو الى دولة اسلامية واحدة ، تدير شؤونها حكومة واحدة ، ويتهمنى بالاغراق فى الخيال، والجري وراء السراب . وأطمئن هذا الظان ، بأننى لا أدعو الى دولة اسلامية واحدة ، تسير أمورها حكومة واحدة ، ولكننى أدعو الى أمة اسلامية واحدة ، تطبيقا لامره سبحانه وتعالى : « **ان هذه امتكم أمة واحدة** » الانبياء ، الآية 91 . ومعنى ذلك أن يكون المسلمون يدا واحدة على من يكيد لهم ، ويعتدى على جزء منهم ، وما المانع؟ان يتناصر غيرهم ـ من الشرق الى الغرب ـ على العدوان، ولا يتناصرون هم على رد العدوان ، ايتحالف غيرهم على الظلم ، ولا يتحالفون هم على دفع الظلم ؟ أم ترى لا يجوز للمسلمين ما يجوز لغيرهم ؟ !!

ان العزة لله فلنطلبها منه بسلوك سبيله ، والعودة الى شريعته ، واقامة دينه ، والاعتصام بحبله ، ولن يخلفنا الوعد الذى وعد به ، والعهد الذى أعطاه للمؤمنين من عباده ، وعندئذ يحق لنا أن نسأله النصر ، كما سأله المؤمنون الصادقون من قبلنا : « متى نصر الله » ؟ وسيجيبنا جلت قدرته كما أجاب المؤمنين السابقين « **قل عسى أن يكون قريبا** » .

أما اذا أبينا الا الاستمرار فى طريق الغي ، والعزوف عن سبيل الرشد ، ولم نقم القرآن ، فلسنا على شيء . وسنبقى مذبذبين ، نخوض مع الخائضين،

---

(1) د. صلاح الدين الشامى ، وزين الدين عبد المقصود . جغرافية العالم الاسلامى ، منشأة المعارف ، مصر ، 1974 .

ونلعب مع اللاعبين ، حتى يأتى اللـــه بقوم يحبهم ويحبونه ، وسنخسر الدنيا، ولخسران الآخرة أكـبر ، وسيـــزداد تسلط الاعداء علينا ، ولن تغني عنـــا

كثرتنا شيئا ، وعندئذ سنغص الاناس ندما على ما فرطنا فى جنب الله، وينطبق علينا قول الله عز وجل . « **فلا تلوموني واوموا انفسكم** » ابراهيم . الآية 22 .

الإسلام عامل رئيسي لإثبات الشخصية الجزائرية أمام محاولات الاندماج خلال القرن التاسع عشر

د. ساري الجيلالي

ان أهداف الاحتلال الاستعماري لم تتمثل في الاستيلاء على ثروات البلاد واستغلالها استغلالا محكما وباخفض الاستثمارات فحسب ، بل رمت أيضا الى تحقيق سياسة واسعة النطاق تعتمد قبل كل شيء على استطانة عدد وافر من الاوروبيين الا أن تطبيق هذا المخطط نفسه ظل مرهونا بعامل آخر يضمن وحده وللابد بقاء الهيمنة الفرنسية وسيطرة الحضارة الغربية ، وهذا العامل هو القضاء على العقيدة وبالتالى الحضارة العربية الاسلامية .

وهذا ما يتنافى وتعلق الجماهير بشخصيتهم العريقة ونظرا الى هذه الظاهرة التي انتهجها المقاومات العنيفة والطويلة ضد الغزو الاستعماري ، فان السلطات الحاكمة لجأت الى وسائل خاصه ، غير مباشرة وذات طابع انساني على وجه العموم وهو كل ما جاء فيما سمي بسياسة الاندماج خاصة في منتصف القرن التاسع عشر الميلادي وهي الفترة الحاسمة حيث أن الظروف كانت ملائمة جدا (1) .

والهدف من هذا العرض هو تحليل تلك المحاولات ونتائجها وذلك لابراز دور الاسلام في اثبات شخصيتنا وبفضل هذا التحليل نتوصل أيضا الى بيان علاقات تلك المحاولات في اندلاع ثورة 1871 وبذلك نتأكد لنا في الاخير عبرة هذه الثورة ومكانتها في تاريخنا المعاصر.

(1) من العلم أن معاهدة 4 جوليت 1830 قد نصت على : « ان ممارسة الديانة الاسلامية (المحمدية) تبقى حرة » .

Bulletin Officiel de l'Algérie et des colonies, Alger 1833, N° 1

1) محاولة الادماج بواسطة التعليم الرسمي :

قبل الشروع في تطبيق التعليم الرسمي اتخذت اجراءات خاصة للقضاء تدريجيا على الحضارة والثقافة وكل ما يشخصهما في مختلف المظاهر السوسيو بحيث أنه بعد شهرين فقط من احتلال الجزائر العامة استولت السلطات على الاملاك العقارية التابعة للمساجد ومحلات التعليم وقد تمت العملية بصفة نهائية وشرعية بمقتضى قانون 1851 فأصبحت هكذا المساجد والمؤسسات التابعة لها بدون اعتمادات بل قد دمر منها عدد كبير في مختلف المدن اثر الغزو . ثم بعده بمناسبة فتح طرق جديدة سمر الاحياء وبعد تحويل عدد منها الى كنائس وكنائس ومستشفيات (2) ، مثال العاصمة بلخص وحده هذه العمليات . ففي 1830 بلغ عدد المؤسسات الدينية 176 مؤسسة منها 13 مسجدا كبيرا و 109 مسجدا صغيرا ناهيك عن عدد هام من الزوايا . بينما اصبح العدد لا يفوق الا 48 مؤسسة أي 27.2 / بعد عمليات الدمار والتحويل . وعندما كانت تسير شبكة الاوقاف داخل مدينة الجزائر في أكتوبر 1830 ربع 8000 عمارة .

وليس هناك مبالغة في هذه النسبة اذ ان التعليم الذي كان ملاحظا في تلك الاوساط وخاصة في الاوساط الريفية كما شهد عن ذلك عدة ملاحظين (3) . كان مرتبطا بهذه الاوقاف .

وهذا فان الاستيلاء على هذه الاملاك كان العامل الفعال في القضاء على التعليم وتعميم الامية اضافة الى الحيل التي للاحتلال كما أكد ذلك المعاصرون (4) وما مثال قسنطينة الا برهان قاطع فقد انخفض في عدة المدينة عدد التلاميذ من 600 الى 60 في سنة 1846 وعدد مدارسها من 86 الى 30 (5) .

ففي هذا الاطار شرعت الادارة في اعداد التعليم الرسمي خاصة حينما شعرت بضرورة اعداد العدد الضروري من الموظفين في بعض المبادئ قصد نظام التعليم العام . وهو ذلك التعليم

---

(2) ان المستشفى الاول الذي فتحته السلطات الاستعمارية كان في مسجد في باب عزون . وأما اثناء مأساة 1867 ـ 1868 فقد حولت مساجد الى مستشفيات ولا زالت الى الآن ومنها مسجد شرشال . انظر الصورة في كتابنا :

Le désartre démographique de 1867-68, Alger 1980

(3) ان الدراسة القيمة في هذا الموضوع هو ذلك البحث القيم الذي قامت به الخبيرة المؤرخة :

Y Turin · Affrontements culturels dans l'Algérie coloniale, école, médecine et religion (1830 - 1880), Paris 1971.

(4) التفاصيل والبراهين كثيرة في المصدر السابق الذكر للمؤرخة Y Turin

(5) Ch R Ageron Les Algériens musulmans et la France (1871 - 1919), Paris 1968, T.

ب ...صر في وجود 12 مدرسة في سنة 1862 منها 8 في قطاع الوسط بينما أن عدد المعلمين بلغ 26 وعدد التلاميذ 297 (6) الا أنه سجل في سنه 1856 ـ 1857 : 1200 وهذا الانخفاض راجع الى قلة عدد المعلمين ولذلك انشئت مدرسة لاعداد المعلمين في سنة 1865 مع ضرورة توفير شروط خاصة لاعداد اطارات تحسن معرفة الوسط الجزائري ، ولكن نسبة المسلمين ظل ضئيلا ولم تزد عن الخمس (7) .

واما التعليم الثانوي فقد واجه هو الآخر مشاكل كثيرة وكان يتمثل الى سنة 1865 في مؤسسة واحدة بالعاصمة يوجد بها 104 تلميذا في 1863 مقابل 69 في 1861 بينما أن الهدف كان في 1857 بوقع 150 وهذا الفرق يعود الى البعد بحيث أن العائلات كانت تخشى كث الاخطار التي تنجم عن ذلك من احلا وغير ذلك (8) . والثانوية الثانية فتحت بقسنطينة في 1865 وارتفع عدد التلامذ بها 108 في 1867 وأما الثانوية الثالثة التي تقررت في 1865 بوهران فانها لم تحقق الى في سنة 1870 .

هذا وبالرغم من هذا العدد الضئيل فان التلاميذ لم يجدوا المناصب الكافية والملائمة لهم فقد انضموا الى الادارة والجيش وقد شعروا بتأثر بالغ بالعزلة حينما انقطعوا عن محيطهم وهم في الجيش الفرنسي (9) .

وهكذا يتجلى لنا من وراء هذه الاحصائيات والابعاد لهذا التعليم أنه كان يرمي (10) الى خلق ظروف معينة

---

(7) Rey Goldzeiguer Le Royaume arabe, Alger 1977, p 174
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 320.
Bulletin Officiel du Gouvernement général de l'Algérie. Alger 1865, p. 65.

(8) وقد عبر عن ذلك احد المعنيين بالامر وهو القائد بالحضري بقوله :
« كيف تريدون أن نبعث نحن أهل وهران أبناءنا الى الجزائر فالمسافة طويلة ولا نستطيع أن نتصل بهم مرارا للاشراف على تربيتهم وليتمسكوا بالمبادىء الشريفة . فكل متخرج يصبح منقطعا عنا ، فهو يتعاطى الخمر والزنا وهذا ما يمس بشرفنا وتعاليمنا » حسب ما جاء في تصريح الضابط السامي Lapposset لنابوليون الثالث :
Lappasset : Le général Lappasset par un officier de l'Armée du Rhin, Paris 1898.

(9) وقد جاء في تصريح الضابط علي ابن شريف في 1866 ما يلي :
« كان مواطنونا يرونا بارتياب والفرنسيون يقاطعوننا . وكانت السلطات لا تمنحنا اية رتبة أعلى من رتبة Lieutenant ، وبين عدم الثقة والاحتقار ظلت قلوبنا مملوءة بالحزن والالم »
Ageron : Les Algériens musulmans et la France, 1823

(10) علينا أن نشير أيضا الى أهمية هذه المانوبات فقد ساهمت في تكوين مزدوجي الثقافة (العربية والفرنسية) ومن اشهرهم محمد بن رحال من موالد ندرومة ، انظر بذا الصدد : A. Djegloul : M'Hamed ben Rahal et la question de l'instruction des Algériens Majallat et Tarikh, Alger 1977, p 43.

تكون العامل الفعال لتمهيد السبل لاعداد جيل قابل للاندماج ·

2) محاولة الاندماج الادارى :

بالنسبه Sénatus Consulte (1865) ابعاد خطيرة جدا بحيث أنه كاد يقضي على مستقبل الشخصية الجزائرية الى الابد

أ ـ Sénatus Consulte لـ 14 جوليت 1865

فان نص هذا القانون واضح كل الوضوح (11) وتتضمن فى مضمونه النقط الخطيره وهى تعارض القوانين الفرنسيه للتشريع الاسلامى · وقد جاء فى المادة الاولى .

« ان الجزائرى فرنسى الا انه يبقى خاضعا للقانون الاسلامى » ·

ويمكن منح الجنسيه لا تتمتع بالتمتع بالمواطنة :

« للجزائرى المسلم الحق (يطلب منه) بالتمتع بحقوق المواطن الفرنسى وفى هذه الحالة فهو يخضع الى القوانين المدنيه والسياسيه الفرنسية » ·

وكل هذا يؤكد من جديد محاولة الاندماج بأتم المعنى وبصفة شرعية بحيث أن كل من يتوجه بطلب الا وهو شاعر كل الشعور بالتخلى عن شخصيته واصالته

فكل من [illegible]
[illegible]
[illegible]
والتواقع والمبادىء الاسلامية [illegible]
والانسانيه ؛ هكذا يلتمس اخطار [illegible]
مثل هذا القانون [illegible]
« المملكه العربية » [illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]
[illegible]

ب ـ فشل المحاوله ·

[illegible]
واضحا كل الوضوح نظر الى [illegible]
السكان بعقيدتهم [illegible]
شعر بذلك الوالى العام نفسه [illegible]
« انه يتحتم عليهم ان ينقطعوا عن
انمائهم وان يمروا كتابهم [illegible]
[illegible] ليصبحوا فرنسيين » (13)

11) Bulletin Officiel 1865 p 36
12) Rey Goldzeiguer Le Royaume arabe, Alger 1977, p 314
13) Via Mabon Archives F 80 1810, Aix-En-Provence.

وهكذا وبعد مرور 10 سنوات من صدور قانون 1865 ارتفع عدد الطلبات الى 371 فقط فى سنة 1875 (14) ومن الواضح أن جل هذا العدد خاص بالذين اضطروا بالالتحاق بالجيش وبعض المناصب الادارية ومما يؤكد هذا كله هى الملاحظة التالية فبعدما لاحظت الادارة قلة الراغبين فى المناصب العالية **سمحت** لهم فى ذلك ولم تطلب منهم التخلى عن وضعيتهم الاصلية ·

جـ ـ المحاولات الادارية الاخرى :

بالاضافة الى هذه المحاولات فان السلطات الادارية والعسكرية شرعت فى تخفيض الاطارات الجزائرية التابعة الى القبائل ذات النفوذ والسلطة وذلك للقضاء على كل ما يعبر عن تاريخ الجزائر ومثل هذه الاجراءات تعممت فى منتصف القرن التاسع عشر وخاصة من طرف الجينرالات Devaux, Gastu بالقطاع الشرقى وبالرغم من توصيات نابليون الثالث كما جاء ذلك فى رسالته المشهوره المؤرخة بـ 25 جوان 1865 ·

3) حملة التبشير :

لم تأت هذه الحملة صدفة وا، ظهرت فى ظروف معينة ، وذلك لتوف كل الشروط اللازمة لنجاحها نظرا الى فشل المحاولات السابقة الذكر من جهة ومعارضة السلطات العليا المركزية من جهة أخرى · •

فقد شن هذه الحملة المسؤول عن الكنيسة بالجزائر وهو الكاردنال Lavigerie وذلك فى سنة 1868 أى أثناء المأساة العظمى التى كادت أن تقضى على مستقبل الشعب الجزائرى (15) وبعدما أصبح عدد كبير من اليتامى بدون ملجا ومأوى · ولذا فان الحملة قد اكتست صبغة انسانيه الا أن هدف الكاردنال كان واضحا كل الوضوح كما جاء فى احدى تصريحاته (16) بصدد مستقبل البنامى الذين اشرف على جمعهم فى مؤسسات الابيار وابن عكنون (17) بالعاصمة :

« سوف تنشىء فى السنوات المقبلة نخبة هامة من المستخدمين الصالحين

---

(14) Ageron · Les Algériens musulmans et la France. T. 1, p. 344.

(15) انظر دراستنا المذكورة فى (2) ·

(16) فلقد نشرت هذه الرسالة فى أوروبا فى لغات مختلفة كما أن الجرائد قد خصصت لها اقبالا هاما بالجزائر ·

17) والاسم الصحيح لهذا الحى هو : ابن سحنون ·

يكونون من أنصار مستعمرتنا الفرنسية أي انهم يكونون عربا مسيحيين » .

وفي الواقع أن هذه الحملة كانت الانطلاقة لتحقيق وتدعيم سياسة واسعة النطاق للتنصير بحيث أن العناية الموجهة للبيتامى أصبحت تتوسع وشرع في تطبيقها مباشرة باحدى القرى بمرتفعات الجرجرة لكن السكان قد رفضوها وحاربوها فمنهم من هاجر البلاد ومنهم من تظاهر بالاسواق . ومما أقلق السكان وخاصة الاعيان . هي رسالة الكاردنال التي يمس فيها الدين الحنيف . وقد جاء ما يلي (18) :

« علينا أن ننفذ هذا الشعب وألا نتركه مخيما في قرآنه .. فعلى فرنسا أن تعطيه كل أنا مخطىء أن تسمح له بالتنصير أو أن تطرده الى الفلات بعيدا عن العالم المتمدن .. » .

فكان الرد واضحا ويمكننا أن ندركه بفضل مضمون ما جاء في الرسالة التي وجهها 61 من أعيان الجزائر الى نابليون الثالث :

« ان ما يزيد في المنا وغضبنا ما صمت عليها رسالة الكاردنال بتاريخ 16 ابريل 1868 والمنشورة في الصحف والتي يهاجم فيها عقائدنا ويمس فيها القرآن الذي يشد أساس ديننا . » (19)

وهناك وثيقة أخرى تعبر عن غضب السكان وموقفهم ازاء هذا المشكل الخطير . وهي رسالة ابن علي الشريف وكان قائدا ومنخرطا في احدى الطرق الدينية في نفس الوقت (20) .

« لقد قرأت رسالة الكاردنال المؤرخة يوم 16 ابريل 1866 والتي يبين فيها أنه يريد ان يستبدل القرآن بالانجيل وذلك لانقاذ الشعب العربي . فلقد تركت هذه الرسالة صدمة كبيرة في وسطنا . فانا مسلم وكل مسلمي حقي ألا ويفكرون مثلي فاننا نفضل أن نرى جميع أبنائنا يموتون عوض ان يعتنقوا الدين المسيحي فاننا لا نسمح بأي مساومة في هذا المشكل فلقد تعهدتم بصمته واضحته بحرية العقيدة فاذا تراجعتم عن ذلك فانكم تخلفون الوعد فنتعهد نحن أيضا عن تعهداتنا » .

وهكذا يوضح الى الوالي العام بالنيابة عزم المسلمين عن سخطهم عن هذه المحاولات وبين أنه لا محال للشك

---

18) رسالته المؤرخة يوم 6 ابريل 1868 التي جاءت في عدة مناشير من صحف غير رسمية للكنيسة .

19) ارشيف فرنسية F 80 - 1946

20) ارشيف الولاية العامة بتاريخ 18 ماي 1868 . TEF 33

[illegible] مثل هذه الظروف ؛ بالفعل
[illegible] المناصب الرسمية أخذن تعيين
[illegible] هذا الموقف وطبن من
[illegible] ان يمتنع عن مثل هذه
[illegible] والمهديات .

الخلاصة .

[illegible] المعلومات المقدمة جزء لا يتجزأ
[illegible] المحيط الاستعماري الذي كان لا
يقصر على مفهومه الاقتصادي فقط
بالجزائر بل كان يشمل أيضا المفهوم
الايديولوجي اذ انه كان يتميز عن باقي
المستعمرات الاخرى . وقد ظل يرمي
دائما الى استيطانه واسعه النطاق عبر
اقاليم مختلفة من القطر الجزائري .

[illegible] يعاضد الحموس على
السواحل ويتوغلت عبر أراضي الشمال
[illegible] السلطات في فرض التعليم
الرسمي وكانت مرحلة حاسمة في توسع
[illegible] النظام لنجاح ايديولوجيته .
[illegible] بالتالي للقضاء على ما بقي من ثقافة
[illegible] اسلامية صقيلة . الا أنه بعد تأكد
[illegible] هذه المرحلة لجأت الادارة الى
[illegible] اخرى فأرغمت الطبقة التي
[illegible] تمثل ضرورة الوصل بينها وبين
[illegible] ان تتخلى عن أصالتها وأن
[illegible] بالجنسية الفرنسية فأغلبية

المعنيين بالامر قد قبلوا وامتنعوا
وبالفعل فان النتيجة كانت فادحة بحيث
ان السلطات عدلت عن ذلك وسمحت
لهم أن يشغلوا المناصب العالية بدون
مطالبة الجنسية .

أما المرحلة الثالثة فان لم تأت الا في
ظروف اقتصادية واجتماعية استثنائية
والا في اطار ذي صبغة انسانية ولكن
وحتى في مثل هذه الظروف استطاع
الاعوان وأصحاب النفوذ أن يعبروا
بوضوح وبدون التباس عن موقفهم
وموقف الجماهير وذلك أن كل ما يمس
الدين الحنيف الا ويمس حياتهم قبل كل
شيء . وكيف لا وان هذا الاخير الا وهو
مظهر من مظاهر الاسلام نفسه وبالفعل
يفصل المعالم والحقوق الاسلامية
استطاع السكان أن يثبتوا شرعية
اراضيهم واملاكهم وتعلقهم بلغة الضاد
وتمسكهم بالذكر الحكيم الخالد . وفي
الاخير فان التحليل العميق في المدة
المدروسة يبين انه من بين أسباب ثورة
1871 هو رد الفعل لهذه المحاولات ، فقد
عزم السكان أن يعبروا عن سخطهم
والمهم فعل كل شيء كما وضحنا ذلك
أخيرا في دراسة تتعلق بهذا الموضوع
الهام (21) اذ اننا سنستطيع أن نرد

2) دراسة . الجزائر قبيل اندلاع ثورة 1871 ـ بحث للمركز الوطني للابحاث
ية (1979) .

بسهولة عما كان يسمى بثورة المقراني أو بثوره الشيخ الحداد وكذا ثورة بلاد القبائل . فثورة 1871 كانت ثورة شعبيه جندت فسما كبيرا من القطر الجزائري ، ولم يشارك فيها على وجه العموم الا الاقاليم التي عانت كثيرا من أضرار ومخلفات ثورة 1864 ـ 1866 والتي سجلت بذلك أعلى نسبة من الضحايا في 1867 ـ 1868 وهو القطاع الوهراني

وأما الشيخ الحداد فقد استسلم مع اتباعه بينما أن الجهاد الذي أعلنا عنه في 8 ابريل 1871 قد تواصل بعد ذلك كما أن استشهاد المقراني في 5 ماي من نفس السنة لم يكن نهايه الكفاح بل قد تعمم واشتد كما تشهد عن ذلك استشهاد أثناء لحصات محدودة 2280 شهيد يوم 22 ماي وهم يتسلقون حدار محميه الاربعاء نات براثن . وبعد ذلك توسعت المعارك الى جبال شرشال ثم الحنوب .

واما السيحة الاخيره فانها لا تتمثل فقط في قمع الثائرين واغتصاب املاك كل القبائل التي رفعت لواء الثوره ، بل هناك نتيجه هامه بالرغم من هذا القمع والاغتصاب وهو **تخلي السلطات الرسمية نهائيا** عن كل مغامره تهدف التنصير وكل ما يمس دين الجماهير ولقد تبصر الى هذا كله ذلك الجنرال الذي استدعي خصيصا الى ميدان المعارك بعدما انقطع عن الجزائر بعد اندلاع الحرب الفرنسيه الالمانية في سنه 1870 . وهو الجنرال Lapasset فكانت من أهم خلاصته بعد انتهاء مهمته ما جاء في مراسلته الى وزير الحرب « تسوا لهذا الشعب أنه يحترم دينه » (22) .

بينما أن هذا الجنرال قد كان العامل الفعال في اخماد معركه سيدي الازرق بوادي ميناء ووادي رهيو في 1864 والذي دعا انصاره محاربة الفرنسيين باسم الاسلام (23) .

(22) Le general Lapasset par un ancien offficier de l'armée du Rhin, Paris 1899, 2e édition, T. 2, p. 275

(23) من جملة الوثائق المكتوبة التي وجدت في حثة سيدي الازرق بميدان الشرف هو الكتاب الذي تسلمه من سيدي عبد القادر القادري رئيس جمعية القادرية . انظر المذكور سابقا ، الجزء 2 الصفحة 34 مع ترجمته بالفرنسية . Lapasset صورته في كتاب

لمحات من تاريخ الهجرة النبوية ونبذة من حياة عمر بن الخطاب

الاستاذ علي مرحوم
عضو المجلس التأسيسي سابقا
(الجزائر)

لقد ولت أربعمائة بعد ألف سنة ، من تاريخ الاسلام والمسلمين في هذا العالم . يضاف اليها ثلاث عشرة سنة من حياة الرسالة الاسلامية ، قبل أن تتم هجرتها من مكة الى يترب . وهذه الذكرى التاريخية العظيمة تدعونا اليوم الى أن نعود بأفكارنا وعقولنا الى ذلك الماضي البعيد ، لنلقي نظرة موجزة على بعض العوامل التي صنعت هذا التاريخ العريق ، وعلى العناصر التي أقيم بناؤه الشامخ عليها ، والمؤثرات التي أثرت فيه ، منذ بدء مسيرته ، الى ان استوى قائما على قدميه ، راسخ الدعائم ، متين الجذور في أعماق هذا الوجود ..

منذ سنة ستمائة وعشر للميلاد ، أسرق النور الالهي على هذه الارض ، فأضاء أرجاءها ، وغمر باسعاعه حوانبها فانفسح الظلام ، واستنار الطريق ، وتحلب معالم الهداية لذوي الالباب .. ففي هذا التاريخ اتصلت الارض بالسماء عن طريق الوحي المنزل على رسول الاسلام ، عليه الصلاة والسلام .. وجاءت أول آية من كتاب الله ، ألقى بها الوحي الى رسول الله ، داعيه الى القراءة التي هي سبيل العلم ، الذي هو مفتاح سر الكون ..

« اقرأ باسم ربك الذي خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذي علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم .. » سورة العلق

أجل ! ليس كالعلم هاديا الى معرفة حقيقة الكون ، واكتشاف كنه الوجود ، وادراك حكمة الله في خلقه .. ولله في

---

(1) نص محاضرة ألقيت ببلدة البويرة يوم فاتح محرم 1400 هـ .

حلقه شؤون .. وما نزلت آيات القرآن الكريم الا لتدعم قواعد العلم ، وتحث على طلبه ، وتوجه عقل الانسان الى التفكير فيه ..

« **والراسخون فى العلم يقولون امنا به كل من عند ربنا وما يذكر الا أولوا الالباب** » سورة آل عمران .

ونهض النبى (ص) يدعو الى الله على ضوء ما يتنزل عليه من الآيات البينات .. ولبث ثلاث عشرة سنة يصارع خصوم الرسالة ، ويجاهد أعداء التوحيد بسلاح القرآن وحده . امتثالا لامر ربه .. « **وجاهدهم به جهادا كبيرا ..** » ويبشر بتحرير العقل والفكر من عبادة الاوثان والاصنام .. والخضوع لغير الله . طبقا لما أوحى به اليه ، من تعاليم الدين الجديد الذى جاء لانقاذ هذه البشرية ، مما ظلت تعانيه من ظلم وعبودية ..

« **تعالوا الى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد الا الله . ولا نشرك به شيئا . ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** » . (سورة آل عمران)

وقد لقى الرسول والفئة القليلة التى آمنت به ، وصدقت برسالته ، العنت الشديد ، والاضطهاد العنيف من المشركين وأعداء الدعوة النبوية .. فما وهن محمد (ص) وأصحابه « **لما أصابهم فى سبيل الله ، وما ضعفوا وما استكانوا** » حفاظا على العقيدة التى اعتنقوها ، مؤمنين بها عن وعى لها وادراك لما تنطوى عليه من خير وسعادة وحرية وعزة «ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين»

ولكن المشركين تكالبوا على المؤمنين ، واشتدوا فى عدوانهم عليهم وأذاياتهم لهم .. حمية لجاهليتهم .. وغيرة عمياء على معبوداتهم .. مما أدى الى استشهاد بعض المؤمنين فى سبيل عقيدتهم .. بعد ما نزل بهم من شديد التعذيب ..

وفكر النبى (ص) جديا فى تخليص أصحابه من العذاب الاليم الذى كانوا يتعرضون له ، على يد كفار قريش فى مكة . وكان يحز فى نفسه ويؤلمه أنه لم يكن يومئذ فى مقدوره أن يمنع عنهم ما يحل بهم من الاذى والاعتداء [illegible] يحميهم مما كان يسلط عليهم من سوء الارهاق .. وهو بالمؤمنين رؤوف رحيم وقد اهتدى ـ أخيرا ـ الى طريق الخلاص فاشار على أصحابه بالهجرة الى الحبشة . قائلا لهم

الهجرة الاولى

« لو خرجتم الى أرض الحبشة ، فان بها ملكا لا يظلم عنده أحد .. وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجا مما أنتم فيه .. » . وكانت هذه هى الهجرة

الاولى فى الاسلام ·· وقد ترتبت عنها نتائج عظيمة . فى افادة نشر الدعوة الاسلامية ، وانتصارها على المناهضين لها ··

كان الفوج الاول من المهاجرين الى الحبشة يتكون من أحد عشر رجلا ، وأربع نساء ·· من بينهم عثمان بن عفان وزوجته (رقية) بنت محمد (ص) · وبلغ عدد المهاجرين فى الفوج الثانى نحو ثمانين رجلا وبعض النساء والاطفال من بينهم جعفر ابن أبى طالب ابن عم الرسول (ص) .. لقد وجد هؤلاء الفارون بدينهم وعقيدتهم ، ما كانوا يأملونه من الامن على أنفسهم ، والحرية فى دينهم ، الذى هجروا من أجله ديارهم ، وعزيز أولادهم وأموالهم ·· وصدق فيهم قول الله **«والذين هاجروا فى الله من بعدما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولاجر الآخرة أكبر ··»** ·

وكانت قريش تعلم ماذا سيكون من وراء هذه الهجرة من دعم وقوة للدين الجديد ·· ومن اعداد واستعداد لمهاجمتها فى عقر دارها ·· ولذلك رأت أن لا تدع هؤلاء المهاجرين وشأنهم فى مهجرهم ، بعيدين عن اضطهادها وظلمها فأوفدت الى النجاشى رجلين اثنين من أبرز زعمائها ، محملين بالهدايا الثمينة لبه والى بطارقته ، من رجال دينه ·· سعيا وراء اقناعه باخراج المهاجرين من أرضه ، وتسليمهم الى قومهم الذين فروا بدينهم من فتنتهم ··

وحمل عمرو بن العاص ، وعبد الله ابن أبى ربيعة ، رسولا قريش الى الحبشة وقد بادرا بتقديم الهدايا الى البطارقة أولا ، حتى يكونوا مناصرين لهما فى سعيهما لدى النجاشى · وهما يأملان أن مسعاهما سيحظى لديه بالنجاح ·· ولكن املهما هذا قد باء بالخيبة ، وحاق بهما الفشل والخسران ··· « **ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ·· »** ·

قال الرسولان القرشيان للملك النجاشى ·

« انه قد أوى الى بلدك غلمان منا سفهاء ، فارقوا دين قومهم ، ولم يدخلوا فى دينك ، ولا فى دين أحد من هذه الملل وجاءوا بدين جديد ابتدعوه لا نعرفه نحن ولا انت ·· وقد بعثنا اليك فيهم أشراف قومهم ، لتردهم اليهم ، فهم انصر بهم ، وأعلم بما عابوا عليهم » ·

وأبدى البطارقة المرتشون أقوال الرجلين ، متأثرين بما أخذوه من الهدايا وقالوا « صدقا ـ أيها الملك ـ قومهم أعلم بما عابوا عليهم ، فأسلمهم اليهما ، فيردهم الى قومهم ·· » وقد حاولوا ـ باتفاق مع الرجلين ـ أن يحولوا بين

النجاشي وبين سماع أقوال المهاجرين .. ولكنه أبى أن يسلمهم قبل أن يسمع منهم مقالتهم ، ويتنظر في حقيقة أمرهم - وبعث في طلب ممثليهم ، ولما مثلوا أمامه سألهم أمام أساقفته .

« ما هذا الدين الذي فارقتم فيه قومكم ، ولم تدخلوا في ديني ، ولا في دين أحد من هذه الملل ؟ »

وجاء أبلغ الجواب ، الذي كان فيه فصل الخطاب .. قال جعفر ابن أبي طالب (رضي الله عنه) :

« أيها الملك - كنا قوما أهل جاهلية ، نعبد الاصنام ، ونأكل الميتة ، ونأتي الفواحش ، ونقطع الارحام ، ونسيء الجوار ، ويأكل القوي منا الضعيف .. كنا على ذلك حتى بعث الله الينا رسولا منا ، نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا الى الله لنوحده ونعبده ، ونخلع ما كنا نعبد نحن وآباؤنا من دونه من الحجارة والاوثان .. » .

« وأمرنا بصدق الحديث ، وأداء الامانة ، وصلة الرحم ، وحسن الجوار ، والكف عن المحارم والدماء .. ونهانا عن الفواحش وقول الزور ، وأكل مال اليتيم ، وقذف المحصنات .. وأمرنا أن نعبد الله وحده ، لا نشرك به شيئا .. وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام .. فصدقناه وآمنا به ، واتبعناه على ما جاء به من الله . فعبدنا الله وحده ، فلم نشرك به شيئا . وحرمنا ما حرم علينا واحللنا ما أحل لنا .. فعدا علينا قومنا فعذبونا ، وفتنونا عن ديننا ، ليردونا الى عبادة الاوثان .. وأن نستحل ما كنا نستحل من الخبائث .. فلما قهرونا وظلمونا ، وضيقوا علينا ، وحالوا بيننا وبين ديننا ، خرجنا الى بلادك ، واخترناك على من سواك ، ورغبنا في جوارك ورجونا أن لا نظلم عندك .. » (2) .

ولعلنا نلاحظ أن مقاله جعفر هذه قد جمعت كل ما نسعى أن نجمع - في العصر - من آداب الاسلام وتعاليمه (بعد أن صورت رذائل الجاهلية .) وحوت من سمو الاخلاق ، وكمال الفضائل ، ما لا يصح اسلام فرد أو جماعة ، بدون فقهها ، والعمل بما فيها من حكم وأحكام ولذا جدا لو أن أبناءنا في مدارسهم ، وطلابنا في جامعاتهم ، يدرسون مثل هذه الآثار الاسلامية الرائعة ، من تراث الاسلاف الامجاد .. مما حفلت به أسفار الادب العربي ، والتاريخ الاسلامي .. لو فعلوا ذلك لجاءت منهم لامتهم اجيال صالحة ، تتسم بحس التهذيب ، وكمال

(2) سيرة ابن هشام ، ج 1 ، ص 359 .

الخلق والاستقامة على الطريق . الى بذل الجهد فى خدمة الدين والوطن . وصيانة تراثهما المجيد ..

ونعود ـ بعد هذا الاستطراد ـ الى متابعة مشهد الثبات على المبدا . والدفاع عن العقيدة .. الذى مثله جعفر ابن أبى طالب .. وقد سأله النجاشى ليستخلص الحقيقة :

« هل معك مما جاء به عن الله من شىء . تقرأه على ؟ »

قال جعفر : نعم . وقرأ عليه من أول سورة مريم . الى قوله تعالى :

« فاشارت اليه قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا . قال انى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا . وجعلنى مباركا أينما كنت . وأوصانى بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتى . ولم يجعلنى جبارا شقيا . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت . ويوم أبعث حيا .. »

وتقول الروايات التاريخية . ان الملك وبطارقته قد تأثروا بما سمعوا من الآيات حتى بكوا .. وقال النجاشى : « ان هذا الذى سمعت والذى جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة .. انطلقا ـ والخطاب لرسولى قريش ـ فلا والله لا أسلمهم اليكما أبدا .. »

وهكذا انتصر الحق على الباطل .. بعد أن وقفا موقف الصراع . وحها لوجه فى الميدان ..

« وقل جاء الحق وزهق الباطل ان الباطل كان زهوقا .. »

وقد ردت الهدايا على صاحبيها .. وقال النجاشى : « فوالله ما أخذ الله منى الرشوة حين رد على ملكى . فآخذ الرشوة فيه . وما أطاع الله الناس فى فأطيعهم فيه .. »

وننتهى الى هنا مجمل قصة الهجره الاسلاميه الاولى .. وهى ـ بلا شك ـ لا تخلو من عبر وعظات . لمن يريد أن يعتبر ويتذكر .. « **وما يتذكر الا أولوا الالباب** .. »

وفيها قال شاعر من مهاجرى الحبشه مشوقا بأمنهم واطمئنانهم على دينهم فى دار هجرتهم

« يا راكبا بلغن عنى معلغلة
من كان يرجو بلاغ الله والدين »

« كل امرىء من عباد الله مضطهد
ببطن مكة مقهور ومفتون »

« ايا وجدنا بلاد الله واسعه
تنجى من الذل والمخزاة والهون »

« فلا تقيموا على ذل الحياة وخز
ى فى الممات وعيب غير مأمون » (3)

(3) لاحد مهاجرى الحبشة ـ عبد الله بن الحارث ـ سيرة ابن هشام، ج 1. ص 353.

الهجـرة الكبرى :

وننتقل ـ الآن ـ الى ايراد لمحـات وجيزة عن الهجره الكبرى . وهى ست القصيد من موضوعنا هذا .. ومـوطن القدوة والعبره البليغة .. فلا يزال يوم الهجرة النبوية الكريمة . من مكة المكرمة الى المدينة المنورة . ولـن يزال هـذا الحادث العظيم مصدر الهـام ووحـى . يتلقى منه المسلمون فى أطراف العـالم أروع الدروس وأعمـق المعـانى . فى الحفاظ على أسمى المبادىء . ويستلهمون مـن ذكـراه الدورية الهامات علـوية روحانيه .. تذكرهم بأجل الذكريات فى تاريخهم الدينى والقومى .. وتبعث فى أحيالهم المتعاقبة روح الاعتـزاز بدينهم وعروبتهم . فى هـذا الـوطن الاسلامى الكبير ..

أجل .. تقوم هذه المعانى والمشاعر بخاطر أبناء الامة الاسلامية . وتجلـج بين جوانحهم . كلما عادوا بذاكرتهم الى فجر ذلك العهد البعيد . الذى وقعت فيه قصة تلك الهجره الفريدة مـن نوعها . والوحيدة فى بابها وفى نتائجها وآثارها فى تطـور حياة المسلمين الاولين .. فى مستهل جهادهم المقدس .. من أجـل الدفاع عـن دينهم وعن عقيدتهم . التى كانت أقدس شىء لديهم .. بها يحيون . وعليها يموتون .. ومـن أجلها هجروا الارض والولد والمال الى حمى العـروه المطهره . والفتح المبين .. وتم اللـه نعمته على رسوله وعلى المؤمنين ..

انها ذكـرى جليلـة . يستمد منها الانسان الواعى قوة روحية عالية . فى كفاحه ضد المغيرين على دينه ولغته ووطنه وضد الذين يريدون أن يحولوا بينه وبين الحياة الحرة الكريمة . لتظل منسكبا فى نبع الصلاله . منحبط فى ظلام المهالك ..

ان درس الهجره جدير بأن يقـوى ايمان المسلم . ويجدد معانى الحيـاه العزيزه فى نفسه .. ويجعل أزهـار الامل والرجاء تنمو دوما فى قلبـه .. كيف لا ؟ وهو يشاهد رجلا أعزل مـن كل سلاح . مجردا من كل قوة الا سلاح الحق الذى أرسله الله به .. والا قوة الايمان بعظمة الدعوة التى يدعو اليها . و يجاهد فى سبيلها . ويخاطر بنفسه من أجل ظهورها . يشاهده ينصر على أعدائه ـ رغم قوتهم ـ بعدما الحقوا به وبأصحابه أشد صنوف الاذى .. بل انهم حاولوا قتله .. فلم ينه كل ذلك عن عـزمه . ويستمر فى أداء مهمته . وتبليغ رسالة ربـه الى الناس .. حتى يظفر بالنور . ويظهره اللـه على أعـداء دينـه . فيهزم جميع الشيطان وترغم أنوف أحلاف الشرك .. ويعلو رايـة

التوحيد ، ترفرف فى سمـــاء العـــزة والخلود ·· ويجعل اللـه كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمته هى العليا ، والله عزيز حكيم ··

« ·· كانت الهجرة ـ بمعناها العام ـ وما زالت هروبا من الباطل والمبطلين ، ونجاء بالنفس أو بالعقيدة أو بهما معا ـ فهى فى خلاصتها انهزام يعتذر بالضعف ويلوذ بالقوة ، وفرار بعزيز يخاف عليه ، الى حيث يؤمن عليه · لم يخرج عن هذا المعنى حتى هجـرة الانبياء والصديقين كابراهيم ولوط ·· هاجرا من بابل الى كنعان ولم يرجعا الى بابل من كنعان · اما هجرة محمد وأصحابه فكانت هجرة فـوة كاثرها الباطل المتهافت ، والشرك المتخافت · وعاقها عن امتداد العروق ، وبسوق الافنـان فى أرضها التى فيهـا نبتت ، وجوها الذى فيه تنفست · ثـم طاش ذلك الباطل الطيشة الكبرى وبحث عن حتفه بظلفه · فأخرج تلك القوة الى حيث تزداد قوة ورسوخا · وهذا مـن عجيب صنع اللـه لهذا الديـن القـوى الراسخ ·· » ـ البصائر ـ عدد 14 ـ 17 11 ـ 47 · بقلم ش· الابراهيمى ·

« ·· جاءت النبوة من مكة الى المدينة تعمـل عملها فى جمـع القوتين اللتـين آحالهما التفـــرق ضعفـــا · فجمعت المهاجرين والانصار ·· وكأنما جمعـت عدنان وقحطان فى دار ، يتصافحان على العـروبة ، ويتآخيان عـلى الاســـلام ، ويحييان مـن الاواصر والشوابك مـــا أماتته نـزعة الجاهلية ، ويميتان مـن النعرات المفـــرقة ، مـا كانت تحيبـه المنافرات والمفـاخرات ·· وفى عقـــد التآخى بـين المهاجرين والانصار عنوان ذلك ودليله ·· » (4) ـ المصدر الآنف الذكر ··

كان حادث الهجرة حدا فاصلا بـين عهدين فى تاريخ الاسلام الاول ·· عهد كان المسلمون فية قلة ضعافا · تنالهم يد الطغيان بالعدوان ·· ونحاول صرفهم بالعنف عن دينهم ، وفتنهم فيه · وردهم الى حضيرة الشرك والضلال ·· وعهـد انفشعت فيه سحب الباطل ـ أو كادت ـ وبدا نور الحق يشـع فى الافق ، فبدد ظلمات الشرك ، وبطارد أعوان الجهـــل والضلال · ويفتح على المؤمنين الصابرين أبوابا مـن الآمال ، قـوت فى نفوسهم الرجاء والثقة بنصر الله ·· « **ولينصرن الله من ينصره ان الله لقوى عزيز** » ·

لقـد وجـــد المهاجرون أنفسهم فى المـدينة ، يعيشون بين اخوان لهـم مـن

(4) البصائر ـ عدد 14 خاص بذكرى الهجرة/3 محرم 1367 هـ ·

الانصار ·· آووهم ونصروهم · وقدموا لهم كل ما نفرضه عليهم أخوة الايمان والاسلام ، من كرم الضيافة المتأصلة فى نفوس أبناء العروبة ، منذ أقدم العهود .. والمصرة فى سبيل الدين الحق ··

أذن النبى (ص) لاصحابه بالهجرة الى المدينه ·· وقال لهم · « ان الله تعالى قد جعل لكم اخوانا ودارا تأمنون بها ·· » وخرج المؤمنون فى خفية عن عيون قريش ·· متقاطرين أفرادا على يثرب ·· تاركين وراءهم فى مكة كل ما يملكون من مال ومتاع ·· ولم يصطحبوا معهم غير ايمانهم وعقيدتهم ·· وهذا كل ما تزودوا به لدار هجرتهم ·· وفى شأنهم نزلت الآية القرآنية . « **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم ، يبتغون فضلا من الله ورضوانا ، وينصرون الله ورسوله اولئك هم الصادقون ··** » سورة الحشر

وفى شأن اخوانهم الانصار المستقبلين لهم نزلت هذه الآية الكريمة : « **والذين تبوأوا الدار والايمان من قبلهم يحبون من هاجر اليهم · ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ·· ومن يوق شح نفسه فاولئك هم المفلحون ··** » وكفى بهذا التناء الجميل من الله على الفريقين فى كتابه الكريم ·· وكفى بها اخوة صادقة ، باعثها الايمان ، ومزنها الحب والايثار ··

صافت قريش ذرعا بهذا الخارج على آلهتها ، المستخف بأوثانها وأصنامها ·· ولم تدر مادا تفعل أمام صموده وتصميمه على المضى الى الامام فى سبيل غايته المثلى ·· امتثالا لامر ربه ·· « **فاصدع بما تؤمر وأعرض عن المشركين ··** »

وحاولت أن تساومه فى البدء على تبليغ رسالة الله · فأوفدت الى عمه ابى طالب من يعرض عليه · أنها على استعداد لان تعطيه ما شاء من المال اذا اراد · أو تمنحه ما يحب من الرئاسة عليهم ·· أو غير ذلك مما يرغب فيه ، ويتضاءل أمامه ضعاف النفوس ، حرصا على حظوظ هذه الدنيا ·· على أن يكف عن تسفيه أحلامها ·· وذم معبوداتها ·· وأبلغه عمه ـ فى شىء غير قليل من الاشفاق على نفسه وعلى ابن أخيه ـ ما عرضته قريش عليه ·· فبماذا أجاب رسول الله (ص) عمه ؟ كان جوابا حاسما عبر عنه بقوله « والله يا عمى لو وضعوا الشمس فى يمينى ، والقمر فى يسارى ، على أن أترك هذا الامر حتى يظهره الله أو أهلك دونه ما تركته ·· »

انها عبارة من الادب النبوى وحيزة اللفظ . عميقة المغزى . واضحة الدلالة - خليق بنا أن نتخذ منها قدوتنا فى الثبات على المبادىء الحقة . والدفاع عن القضايا العادلة ·· دون أية مبالاة . بأى نرعب أو ترهب ·· وهكذا باءت قريش بتوقع شرا أكيدا . بعد أن فشلت محاولاتها ·· وأيقنت أن محمدا (ص) لابد أن يلتحق بأصحابه فى المدينة · وأن يكون منهم ومن الانصار قوة فعالة . تعرض تجارتها مع بلاد الشام الى البوار . ووجودها فى مكة نفسها الى الاخطار ·· ولذلك تداعى زعماؤها الى دار ندوتهم ليتدبروا أمرهم. وينظروا فى سوء المصير الذى يترقبهم ·· اذا هم لم يجدوا مخرجا مما هم فيه من هم هذا الرجل . بأية طريقة ··

وقال المؤرخون عن ندوة قريش هذه ما خلاصته :

« لما دخل زعماء قريش الى دار الندوة للمداولة فى أمر النبى (ص) وقف على باب الدار شيخ مهاب ·· قيل عنه : انه الشيطان تمثل لهم فى صورة انسان ·· ورآه القوم فقالوا : من الشيخ ؟ قال : شيخ من أهل نجد . علم بما تواعدتم عليه . فحضر معكم ليسمع ما تقولون ·· وعسى أن لا تعدموا عنده نصحا ورأيا ·· قالوا : أجل ·· ادخل ·· فدخل معهم ·· » قال قائل منهم : نخرجه من بين أظهرنا ·· وننفيه من بلادنا ·· فاذا خرج عنا ·· فوالله ما نبالى اين ذهب ·· ولا حيث وقع ·· اذا غاب عنا . وعرعنا من شأنه . وأقبلنا على شأننا - »

« قال الشيخ النجدى : لا والله ما هذا لكم برأى ·· الم تروا صدق حديثه . وحلاوة منطقة . وغلبته على القلوب بما يأتيه ؟ ووالله لو فعلتم ذلك ما أمنتم أن يحل على حى من أحياء العرب فيغلب عليهم بذلك من قوله وحديثه . حتى يتابعوه عليه ·· ثم يسير بهم اليكم حتى يطأكم فى بلدكم بهم ·· فيأخذ عليكم أمركم من أيديكم ·· ثم يفعل بكم ما يشاء ·· دبروا فيه رأيا غير هذا ·· » - سيرة ابن هشام ج 2 ص 93 .

تضاربت آراء القوم وتعددت ·· فقال أبو جهل : « والله ان لى لرأيا ما أراكم وقعتم على مثله بعد ·· » · قال القوم وما هو يا أبا الحكم ؟ قال :

« أرى أن نأخذ من كل قبيلة شابا فتيا جليدا ·· ثم نعطى كلا منهم سيفا باترا ·· فيعمدوا اليه فيضربوه ضربة رجل واحد ·· فيقتلوه ونستريح منه · فاذا فعلوا ذلك تفرق دمه فى القبائل ·· فلم يقدر بنو عبد مناف (عشيرة الرسول) على حرب قومهم جميعا ·· فرضوا بالدية فيه ·· » ووافق القوم على هذا

الرأى الذى أوحى به الشيطان الى أبى جهل ..

وعلم النبى (ص) بما تآمرت عليه قريش من أمر قتله .. فخرج من بيته فى عصابة من المتآمرين به . وقد عميت أبصارهم عن رؤيته .. وذهب الى بيت أبى بكر الصديق ـ بعد ما أوصى (على ابن أبى طالب) أن ينام فى فراشه . ويرد الودائع التى كانت عنده الى أهلها ـ ثم يلتحق به فى مهجره ..

وحاصر فتيان قريش بيت الرسول (ص) منتظرين خروجه لبقتلوه ـ حسب الخطه المدبره .. ـ ولكنهم باءوا بالحسرة والخسران فيما دبروا .. وما عليه أجمعوا الرأى وتآمروا ..

« **ولا يحيق المكر السيء الا باهله ..** »

وفى وصف مؤامرة قريش هذه نزل قوله عز وجل .

« **واذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ..** » سورة الانفال ..

كان أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) قد استأذن النبى (ص) فى الهجرة كما فعل غيره من المهاجرين السابقين .. ولكن الرسول قال له . « لا تتعجل لعل الله يجعل لك صاحبا .. » ومنذ ذلك اليوم أخذ أبو بكر يعد العده لتلك الهجره التى طال انتظر يومها الموعود بفارغ الصبر . زعيمة فى الخطوه بالصحبه السعيده .. وها ان أمله قد يتحقق فعلا فى الغور بهذه الصحبة الكريمه . المعينه الى قلبه .. وهو بصاحب أفضل الخلق فى هجرته ..

ولما آن أوان الرحيل عن الوطن الحبيب .. وقف النبى (ص) فى اتجاه الكعبه المشرفه . والقى بنظره شامله مستوعبه على أم القرى .. وكأنها بنظره وداع لانتزع حبيب .. وقال

« والله انك لاحب أرض الله الى الله . وانك لاحب أرض الله الى ولولا ان أهلك أخرجونى منك ما خرجت »

وانطلق مع صاحبه فى اتجاه غار ثور ليحتميا فيه عن عيون المطاردين لهما من قريش .. ووقف المتعقبون للصاحبين عند مدخل الغار الذى أواهما . وهموا بالدخول اليه .. لولا ان صدهم عنه ما رأوه من نسيج العنكبوت على مدخله حتى قال ابو بكر « لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا .. » وقد ألم به بعض الخوف ـ لا على نفسه ـ بل على صاحبه .. فطمأنه رسول الله (ص) قائلا له « ما ظنك باثنين الله ثالثهما .. يا أبا بكر .. »

وبعدما لبثا فى مأمنهما ثلاثة أيام ، فى انتظار سكون البحث عنهما ومطاردتهما .. خرجا ـ صحبة دليلهما ـ فى اتجاه المدينة ، فى رعاية الله وحفظه .. وقد خصصت قريش مكافأة هامة لمن يدل عليهما أو يردهما اليها .. وأغرت هذه المكافأة سراقة ابن مالك وطمع أن يفوز بالغنيمة .. فتقلد سلاحه ، وركب فرسه ، وخرج يعدو وراءهما بكل قواه .. وكاد أن يظفر ببغيته فى القاء القبض على المهاجرين أو قتلهما .. وما درى أن الله مانعهما فى حلهما وترحالهما .. ولذلك فقد كبا به حواده كبوة ألقى فيها من على ظهر فرسه ، يتدحرج على الارض ـ قبل أن يدرك ضالته .. ويطير سرافة مما وقع له .. وظن أن الآلهة قد حالت بينه وبين ما يريد .. والله وحده هو الذى عرقل خطواته ، وخيب ما سعى اليه من بغيته .. ورجع بخفى حنين ..

وصور القرآن الكريم قصة خروج النبى وصاحبه من مكة فى طريق هجرتهما وما أحاطهما الله به من نصره وسكينته ، وتأييده لهما بجنوده التى لا ترى .. فقال :

« الا تنصروه فقد نصره الله اذ اخرجه الذين كفروا ثانى اثنين اذ هما فى الغار اذ يقول لصاحبه لا تحزن ان الله معنا . فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها . وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم »
سورة التوبة ..

ونرامت الانباء مبشرة أهل يثرب بالمهاجر العظيم وصاحبه .. فأخذ القوم يخرجون يوميا الى ظاهر المدينة فى انتظارهما .. وبعد رحلة شاقة دامت سبعة أيام متوالية .. حلا ـ فى ظل الامان والاطمئنان ـ بالمدينة .. وكان ذلك فى يوم الاثنين ظهرا .. وقد خلت اثنتا عشرة ليلة من ربيع الاول ، فى السنة الثالثة عشرة للبعثة النبوية ..

وبعد أن أقام النبى (ص) فى (قباء) بضواحى المدينة بضعة أيام . وأسس أثناءها أول مسجد فى الاسلام .. تابع طريقه الى المدينة بين مظاهر التكريم والتعظيم .. من طرف المهاجرين والانصار .. وكان أول عمل قام به هو الشروع فى بناء مسجده ، ثانى الحرمين الشريفين ، ومقر مجتمع المسلمين ..

ومنذ ذلك اليوم التاريخى المشرق بأنوار النبوة ، أصبحت (يثرب) أول مدينة فى العالم ـ وقبل أن يعرف الناس معنى الهجرة السياسية المعهودة اليوم ـ آوت الفارين بدينهم وعقيدتهم من ظلم

الظالمين ، ونفى الباغين .. ولجأ اليها عظام الرجال بمبادئهم الانسانية التى عاش فى ظلها ، وفى عهد ازدهارها وفونها ، عناصر من البشر ، تحت راية الحرية والعدالة الاسلامية ..

أولئك الرجال العظام هم . محمد (ص) وأصحابه الكرام . الذين فارقوا أهلهم وديارهم وأموالهم ، فى سبيل عقيده الحق والواجب ، ورعايه القيم والمثل العليا . التى سعدت بها أمم وشعوب عديدة .. فى حقب التاريخ المديدة .. ليبنوا لنا هذا التاريخ الخالد . الذى نتفيأ ظلاله ، ونفاخر الامم والشعوب بأكرم قرانه ومآثره ..

ـ بداية التاريخ العربى الهجرى :

هذه لمحات مقتضبه من قصة الهجره ، أوردتها على عجل ، دون أن أذهب فيها الى تحليل أو تعليل لما حوته من بالغ الاعتبار .. على أن هناك مسألة هامة جدا ، ترتبط بهذه الهجرة .. أريد أن أقف معكم عندها بعض الوقت .. تلك هى بدايه تاريخنا العمرى الهجرى . الذى حدد بدأه منذ يوم وقوعها .. والرجل الذى اتخذ من تاريخ الهجره النبوية بداية للتاريخ العربى الاسلامى . هو الخليفة الثانى ، امير المؤمنين . عمر ابن الخطاب (رضى الله عنه) فقد هدته عبقريته الفذة ، والهامه ونظره البعيد الى ابتكار هذه الفكره الرشيدة .. فخلد بها ذكرى الهجرة فى سمع الزمن وبصره وخلد لهذه الامه الاسلامية تاريخا عمريا اسلاميا قوميا .. تعتز بذكراه .. وتهتدى بنوره وهداه لان هذا التاريخ ركن ركين من دينها .. وجزء مهم لشخصيتها .. وتعبير فصيح عن وجودها ومميزاتها .. وقد امتد آثاره وتأثيراته فى حياتها الادبية والروحيه والقومية .. طوال هذه المسيرة الزمنية .. التى تعد الفا وأربعمائة من السنين . منذ وقع حادث الهجرة الى الآن .. وسيمتد الى أبد الآبدين ..

ـ حول اهمال التاريخ الهجرى :

ولكن مما يؤسف له شديد الاسف أن هذا التاريخ العربى القومى . قد أهمل استعماله فى الحياة العمليه اليومية لدى الافراد والهيئات والمنظمات . وحتى لدى بعض الحكومات .. ولا يكاد يذكر الآن فى المناهج التعليمية . والحصص الدراسيه .. اثناء تذكر التاريخ الميلادى .. ولذلك ترى المعلمين فى المدارس الابتدائية . والاساتذه فى الثانويات والجامعات . لا يكادون يذكرون تلاميذهم بتاريخهم هذا .. وقد

نجد الكثير من هؤلاء التلاميذ العرب ·· من لا يعرف أسماء شهور السنة الهجرية تماما ·· مع أنها مرتبطة بالاعياد الدينية التي فيها من الحكم والمعاني السامية ، ما لا يجوز جهله أو تجاهله في مجال التربية الاجتماعية والوطنية ··

وقد ارتفعت أصوات ، وأعلنت دعوات مشبوهة ·· ـ قديما وحديثا ـ تدعو الى الاستغناء عن التاريخ الهجرى العربى ، واستبداله بالتاريخ الميلادى ·· (لانه تاريخ عالمى فى زعمهم) · ومثل هذه الدعوات لا يراد منها الخير لديننا وعروبتنا ، لانها شبيهة بالدعوة الى استبدال الحروف العربية بالحروف اللاتينية ·· كما حصل فعلا فى تركيا الكمالية ·· واستبدال اللغة العربية الفصحى باللغة الدارجة ·· والتخلص من التزام تطبيق قواعد النحو فى الكتابة والمحادثة ·· لصعوبتها ـ كما يزعمون ـ وكلها دعوات وشعارات مغرضة ·· لا يهدف أصحابها من وراء بثها بين أبناء الشعوب العربية والاسلامية ، الا لهدف ابعادهم عن أصول دينهم ولغتهم ، ومنابع تاريخهم وقوميتهم · سعيا الى دمجهم وتغريبهم ·· واستلابهم روحيا ومعنويا ·· حتى يغدوا ولا جذور ولا أصالة لهم ··

وقد نبه بعض علمائنا فى الماضى على خطورة هذه المساعى المخربة لشخصية الامة العربية ·· فقد قال الشيخ طاهر الجزائرى (رحمه الله) (5) وكان من كبار علماء الشام ·· وقد سئل عن التاريخ الهجرى : ـ « عجبت لمن يسعون فى أن نهجر التاريخ الهجرى ، ويفاتحوننا فى ذلك ·· كأنهم لا يعلمون أننا نعلم ما يرمون اليه عن بعد ·· ان لكل أمة شعارا اذا تركته طمع فيها ، واستضعف جانبها ·· وربما صارت بعد مدمجة فى غيرها ·· وقد سعى أناس منذ عهد بعيد فى أن يضعفوا ما بقوى أمر الاسلام عموما ، والعرب خصوصا ·· فنجحوا بعض النجاح ·· وطمعوا فى أن يقضوا عليه (يعنى الاسلام) فلم يجدوا أقرب الى ذلك من اضعاف اللغة العربية ·· والسعى فى تبديل خطها ·· والتزهيد فى الكتب التى كتبت به ·· حملوا ذلك دأبهم ودبدنهم ، حتى أثروا فى كثير من أبناء جلدتنا (المنحرفين) ، الذين يظنون أنهم على غاية من الذكاء ·· فكان ما كان مما هو معروف ·· ثم زاد الامر فطمعوا فى تبديل التاريخ الهجرى ·· »

(5) توفى فى سنة 1338 هـ 1920 بدمشق ·

« وليت شعرى ·· كيف بلام المسلم على أن يؤرخ كتابه بالتاريخ الهجرى ·· فهل انقرض التاريخ الهجرى ·؟ وهل يريدون أن ينقرض وأصحابه أحياء ···؟ » (6) ·

أما مؤرخ الجزائر المرحوم الشيخ مبارك الميلى ·· فقال ـ وهو يتحدث عن ذكرياتنا الوطنية ـ : ـ « ومن هذه الذكريات ، التذكير بتاريخنا ، واحياء العمل به ·· فان التاريخ الهلالى الهجرى ، تاريخ عربى اسلامى · وشهوره عربية اسلامية ·· والذكريات التاريخية تجرى من الامم مجرى الشرايين من الافراد ·· فالشعب الاشد اعتبارا فى الحياة الاجتماعية ، هو الشعب الاشد احتفاظا بذكرياته التاريخية ·· وفى العمل بالتاريخ الهلالى رمز الى محافظتنا على صلاتنا بآبائنا الاولين وبرورنا بهم ـ وفى الاستغناء عن التاريخ الميلادى نفور من الاندماج وكراهية للاحتلال الادبى والروحي ، المفضى الى ذلك المسخ الاندماجي ·· »

ويتابع الشيخ الميلى (7) حديثه قائلا :

« وبرحو من كل غيور على الاسلام والعروبة ، مهتم بحياتهما وقيمهما أن يعد عمره بالسنين القمرية ، وأن يدون مذكراته بالسنين القمرية ·· وقد كان أسلافنا يهدا يؤرخون أحاديثهم وأحداثهم ·· ولا يصيق صدرنا لوجود التاريخ الميلادى الى جانب القمرى ·· لانما قوم لا نكره الاجنبى ، ولا نرفض التفاهم معه ·· وانما نرفض الاندماج فيه ونمقت من يكفر جنسه ، ويلتصق بغيره ·· لان جسمه ضعيف فى الحال ، وغيره قوى الآن ·· »

« ولعل فى هذا بيانا لخطتنا ، وهى بكل صراحة وسذاجة العمل لرفع مستوانا الاجتماعى ، فى دائرة الاسلام والعروبة ، من غير كراهية لجنس او مبدا أو شخص ·· الا جنس الظلم ، ومبدا التفوق ، وشخص الظالم والمتفوق ·· » (8)

هذا رأى عالمين جزائريين كبيرين من علماء عصرنا ·· يؤكد على وجوب العمل بالتاريخ الهجرى · ويحذر من عواقب اهماله وعدم العمل به ·· وقد رويته

---

(6) من محاضرة للاستاذ محمد كرد على ، نشرت فى مجلة الشهاب ، ج 10 م 5 ، جمادى 2/1348 هـ ·

(7) ولد سنة 1316 وتوفى سنة 1364 هـ ·

(8) البصائر عدد 90 س 3/6 شوال 1356 هـ ·

لكم لا رتباطه الوثيق بموضوع حديثنا عن قصة تاريخ الهجرة النبوية الشريفة ولاتصاله المتين ببناء شخصيتنا العربية الاسلامية وحضارتها بصفة عامة ..

ـ نبذة من حياة مبتكر التاريخ الهجرى :

ونود أن ننهى هذا العرض بلمحة خاطفة من حياة عمر ابن الخطاب ، مبتكر التاريخ الهجرى .. ترينا مدى آثاره ومآثره فى حياة الاسلام والمسلمين .. منذ اسلامه الى يوم وفاته .. وفيما حوته سيرته وحياته من مواقف خالده ، ومواهب عالية .. جعلته فى مقدمة العباقرة الافذاذ من بنى الانسان . الذين لم يأت الزمن بنظير لهم ، الى يوم الناس هذا . وحسبنا فى ابراز بعض مناقبه ، أن نورد ما أمكن من أقوال أصحابه فيه حيا ومبتا ..

كان عمر رجلا ندر مثله فى الرجال ، وبطلا عظيما ، قل نظيره من الابطال .. نشأ كغالب أترابه مجيدا للفروسية ، منمرسا على الضرب والطعان .. الى جانب فصاحة لسانه ، وجوده بيانه .. ومعرفته التامة بانساب قومه ..

وكان قبل اسلامه من أشد خصوم الدعوة الاسلامية ، وأكثرهم ، ايذاء للمؤمنين بها ، منذ بزوغ فجرها .. ولكنه لم يمض غير قليل من الوقت حتى شرح الله صدره للاسلام .. وأصبح من أعظم أنصاره ، بعد أن ظل بالامس من ألد أعدائه ..

دخل عمر فى الاسلام بعد الهجرة الاولى الى الحبشة . وكان اسلامه استجابة لدعاء النبى له بأن يعز به الاسلام . فقد دعا الله أن يعز الاسلام بأحب الرجلين اليه : عمر ابن الخطاب أو أبى جهل عمر بن هشام .. فكان أحبهما الى الله عمر الفاروق ـ كما سماه الرسول .. اذ أصبح اسلامه فارقا بين الحق والباطل ، وبين ضعف المسلمين الاوائل وقوتهم ..

وقال فيه النبى (ص) : «ان الشيطان ليفرق من عمر .. وما لقيه سالكا فجا الا سلك الشيطان فجا غيره .. » وروى عن ابن عباس أنه قال :

« لما أسلم عمر نزل جبريل عليه السلام . فقال : يا محمد : لقد استبشر أهل السماء باسلام عمر .. » وأخرج البخارى عن عبد الله بن مسعود أنه قال : « ما زلنا أعزة منذ اسلام عمر .. » .

نعم ـ كان عمر شديدا فى الحق ، لا يخشى فى الله لومة لائم .. ذهب الى النبى (ص) وقد رأى المسلمين الاولين يستخفون بصلاتهم من قريش ، حينما

يحين وقتها .. فقال له : السنا على الحق يا رسول الله ؟ قال الرسول : بلى يا عمر .. فخرج من عنده وقد عزم على تحدى قريش ، بأداء شعائر الدين جهارا نهارا .. ومنذ ذلك اليوم صار المسلمون لا يستخفون بصلاتهم ..

وجاء دور عمر فى الهجرة . فقصد الى الكعبة وطاف بها .. ثم صلى ركعتين عند مقام ابراهيم .. وذهب الى مجلس قريش بفناء الكعبه ، متقلدا سيفه .. وقال لهم متحديا اياهم :

« شاهت الوجوه .. لا يرغم الله الا هذه المعاطس .. من أراد أن تثكله أمه . أو ييتم ولده ، أو تترمل زوجته .. فلملقنى وراء هذا الوادى . » ومضى الى سبيله .. دون أن يحرك أحد من قريش ساكنا .. أو يعترضه منهم أحد .. كما فعلوا بغيره من المهاجرين قبله ..

ومنذ وصل عمر الى المدينة ، كان ثالث ثلاثة ـ بعد صاحبيه ـ وضعوا قواعد الدولة الاسلامية ، وأقاموا صرحها على تقوى من الله ورضوان .. لقد شهد عمر المشاهد العظمى كلها مع الرسول .. وكان ملهما فى قوله وفعله .. وان المؤمن لينظر بنور الله .. كما روى عن ابن عمر أن النبى (ص) قال : « ان الله قد جعل الحق على لسان عمر وقلبه .. » .

وروى أيضا : « أنه ما نزل بالناس أمر فقالوا فيه وقولهم .. وقال عمر فيه الا نزل القرآن مؤيدا لقول ورأيه .. » .

وقد عمر شاعر معاصر عن ذلك فقال

« رأيت فى الدين آراء موفقه
فانزل الله قرآنا يزكيها »

وبعد التحاق الرسول بالرفيق الاعلى ، كانت مبادرته حاسمة للخلاف فى سقيفة بنى ساعده .. فى قصة اسناد الخلافه لابى بكر الصديق .. الذى كان أول من أمسك بيد أبى بكر مبايعا له ، مذكرا القوم بفضله وسابقته فى الاسلام . فما كان منهم الا أن توالوا على الاقتداء به .. وقضى بمبادرته تلك على فتنة الخلاف بين المهاجرين والانصار . وحرص وحده الامة من تلك المحنه طافره منصره ..

وهو الذى اشار على ابى بكر بجمع القرآن فى مصحف واحد فى عهد خلافته فتردد ابو بكر فى أول أمره .. لان النبى (ص) لم يفعل ذلك فى حياته . وقال لعمر « كيف أفعل شيئا لم يفعله رسول الله (ص) . فقال عمر «هو والله خير ..» يعنى جمع القرآن ..

قال أبو بكر « ولم يزل عمر يراجعنى .. حتى شرح الله صدرى

لذلك ٠٠ ورايت الذى راى عمر من الخير ٠٠ » ٠

ولما شعر ابو بكر بدنو أجله ، استشار كبار الصحابة فى العهد بالخلافة الى عمر ٠٠ فكلهم قال فيه خيرا ٠ وذكره بما هو أهله من الفضل ٠٠ واستهل عمر خلافته بقوله فى خطابه المنهجى :

« انه والله ما فيكم أحد أقوى عندى من الضعيف ، حتى آخذ الحق له ٠٠ ولا أضعف عندى من القوى ، حتى آخذ الحق منه ٠٠ » ٠

ولعل فى هذه الكلمات الوجيزة ، ما يعطى صورة صادقة عن حفاظ عمر على قواعد العدالة والمساواة فى سياسته.. وتحقيقا لهذا المبدأ الاساسى فى الاسلام.. فقد واصل عمر الجهاد بقسميه الاصغر والاكبر ، فى سبيل الله ، ومن أجل رفع راية الاسلام ، فى مشارق الارض ومغاربها ٠٠ بما قام به من الفتوحات العظيمة ، التى شرع فيها سلفه ، فى الشام ، والعراق ، وفارس ، ومصر ٠٠ حتى فوض عرش كسرى وقيصر ٠٠ وهو لا يزال يرتدى عباءة مرقعة على ظهره ٠٠ بالرغم من كثرة ما كان يجبى اليه من الثمرات والاموال ٠٠

كان عمر يحاسب نفسه قبل أن يحاسب ولاته ٠٠ ونوادره فى محاسبة نفسه كثيرة ٠٠ فأين هو اليوم من يحاسب نفسه كحساب عمر ، من ولاة أمر المسلمين ٠؟ أما ولاته فقد كان يتحرى فى اختيارهم العفة والنزاهة والتقوى ، وصحه العقيدة ٠٠ لكنه كان اذا جمع احدهم مالا ، من أى سبيل ، غير عطائه المفروض له من بيت المال ٠٠ طبق عليه قانون : « من أين لك هذا ٠؟ » فهو أول من وضع هذا القانون ، وطبقه حتى على أولاده ، الذين جمعوا مالا من التجارة٠٠ فقد كان يبعث الى بعض الولاة من يقاسمهم ما استأثروا من الثروات ، لفائدة بيت مال المسلمين ٠٠ وقد طبق ذلك على كبار الصحابة ٠٠ وهم : عمرو ابن العاص ، وسعد ابن أبى وقاص ، وأبو هريرة ، وخالد بن الوليد ٠٠ وغيرهم ٠ ولم يشفع لهؤلاء عند عمر أنهم من السابقين الاولين فى الاسلام ٠ لان عدالة الاسلام لا تميز بين الناس الا بالتقوى ٠٠ « **إن اكرمكم عند الله أتقاكم** » ٠ ولا تعامل الناس على أساس المنصب ، أو المكانة فى الدولة ، أو غيرها من المقاييس ، التى ما أنزل الله بها من سلطان ٠٠ كما يجرى به العمل ، لدى أولى الامر فى هذا الزمان ٠٠

هكذا كان عمر يطبق قانون العدل ، حتى لا يطمع قوى فيما ليس له من

حق ·· ولا ييأس ضعيف من نيل ما له حق فيه ·· على أن أكثر ولاة عمر ، كانوا يتخذون منه اسوتهم فى الزهد والتقشف ·· أما أثرياء المنصب فقليل ما هم ·· حتى ولو كانوا يحتلون أرفع المناصب فى الدولة ·· وهو القائل : « ان الناس ما زالوا على استقامة ، ما استقام لهم قادتهم ·· » ·

ومن آية زهد عمر (رضى الله عنه) أنه أقسم فى عام الرمادة ـ وهو عام مجاعة ـ ألا يذوق سمنا ولا لبنا ولا لحما ·· حتى يكون ذلك فى متناول الناس جميعا ··

ولعمر فى ميدان القتال وصايا حكيمة · تدل على عبقرية نادرة ·· منها وصيته لسعد ابن أبى وقاص · وهو يقود جيوش المسلمين فى فارس ·· وقال فيها :

« أما بعد فانى آمرك ومن معك من الاجناد بتقوى الله على كل حال ·· فان تقوى الله أفضل العدة على العدو ، وأقوى مكيدة فى الحرب ·· وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسا من المعاصى منكم من عدوكم ·· فان ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم ·· وانما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم الله ·· ولولا ذلك لم تكن لنا بهم قوة ·· فان استوينا فى المعصية ، كان لهم الفضل علينا فى القوة ·· وان لم ننصر عليهم بفضلنا ، لم نغلبهم بقوتنا · فلا تعملوا بمعاصى الله وانتم تجاهدون فى سبيل الله ·· » ·

ويوم التحق بربه وقف على ابن ابى طالب على جثمانه وقال

« والله ما على وجه الارض رجل أحب الى أن ألقى الله بصحيفته من هذا المسجى بالثوب ·· » ثم بكى حتى احصلت لحيته بالدموع ··

أما عبد الله بن مسعود فقال فيه

« كان اسلام عمر فتحا ، وكانت هجرته نصرا ، وكانت امامته رحمة ·· ولقد رأينا وما نستطيع أن نصل الى البيت حتى أسلم عمر قاتلهم (يعنى كفار قريش) حتى تركوا سبيلنا ·· » ·

رضى الله عن عمر فقد كان مجموعة من الفضائل الاسلامية تمشى على وجه الارض ·· وألهم أولياء أمور المسلمين القدوة الحسنة به فى عدله ، والسير على سواء سبيله ··

هذا قليل من كثير مما نعتز به من تراثنا وتاريخنا ·· فلنعد اليه ولنتمسك بحبله ، ولنحفظه من الضياع

والاهمال ·· ولنعمل لحماية لغتنا من ما فيه عزتنا ، متحدين متعاونين ، عـ
النلاشى والانحلال · وليكن لنا من عامنا خير البلاد والعباد ··
الهجرى الجديد ، ما يدفعنا الى الجـد « تلـك آمالنـا عسى أن نـراها
والاجتهاد فى العمل ، ويحفزنا الى طلب مثمـرات فى حولنـا ذا الجديد

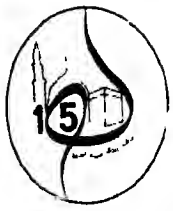

تحية لرأس السنة الهجرية

1400

الاستاذ أحمد بن ذياب

حادي العام هاتها من بعيد ... هبل الشوق للقاء السعيد
وابعث البشريات فى كل قلب ... والاماني غضة كالورود
واحد بالعرب للمعالى حداء ... يستفز الجموع للتشييد
ويقود الشباب للعمل الاسمى ... ويهدى للرشد كل عنيد
واتل من عالم التطور آيا ... من سجلات فجرك المولود
واملا الكون رحمة واخاء ... ونعيما من الرحيم الودود
أيها العام مرحبا بك سمحا ... تتهادى فى محفل التمجيد
خاتم الالف والمئين تباعا ... أربعا فى انسجام عقد نضيد
بينها النير المعالم شرقا ... والمحلى فى الغرب نحم سعود
والعديم النظير فى منجزات ... رائعات فى الموكب المشهود
تتغنى به الربوع مضيا ... فى نهوض ووحدة وصمود
وترى فيه طالعا يتراءى ... حافلا بالمنى · فهل من مزيد ؟
وتباهى به العروبة دعما ... لرقي مخطط ممدود
والجنود الشجعان فى كل صوب ... يتبارون فى البناء العتيد
هل يريدون للسماء سبيلا ؟ ... أم يريدون معبرا للخلود ؟
انهم أقوياء قوة عزم ... واعتصام بما لهم من جهود
يبتغون الحياة هالة مجد ... وهم البدر فى حماها الوطيد

ليعم الرخا وتعلو الاغاريد ... ابتهاجا بسعينا المحمود
أيها العام قد دفعنا خطانا ... فى صراع الوجود دون حدود
وبدأنا نبنى وللعزم حاد ... فى اتحاد العروبة المنشود
نتلقى من كل عام حليفا ... ومجالا للسؤدد المرصود
ننشد الخير للجميع ونسرى ... كالدرارى بين الليالى السود
ونوالى الكفاح فى أي حقل ... من حقول التصنيع والتشييد
فامش يا عهد بيننا مستهاما ... بالمشاريع فى القرى فى البيد
تتقاضى منك الجزائر عهدا ... وتعاطيك صادقات العهود
لتكونن فى الطليعة اقدا ... ما ، وحرصا على المهم الاكيد
لتكونن قدوة فى مساعيها ... سباقا الى المرام البعيد
برجال سنوا المكارم غرا ... للبطولات للفدى للصعود
ونساء أحبب بهن نساء ... مخلصات فى كدحهن المفيد
يتنافسن فى الصلاح فلا يأ ... لون جودا بصالحات الجهود
وشباب تسمو به الهمم العليا ... فيمشى بكل درب رشيد
ويناديه للمروءة صوت ... من صميم الاسلام والتوحيد
يتحرى مجد البلاد وفيا ... للمبادى وللصراط الحميد
يتولى غدا الجزائر منه ... أخلص العاملين للتجديد
وترى فيه من ينحى ويعلى ... كل صرح للمكرمات فريد
يا شبابا ان الجزائر أم ... نعم أم المصاول الصنديد
فأطعها تنل رضاها وتحظى ... بحنان الامومة المعهود
واجعلنها حبيبة القلب والروح ... ومثوى عواطف التمجيد
واعمل الخير ما استطعت فخورا ... بهوى موطن الاباة الصيد
أنت نجم يضىء ليل سرانا ... فى بناء المستقبل الموعود
تتسامى الانظار نحوك فى شو ... ق كشوق المتيم المعمود
لا تقصر فللجزائر دور ... فى مطاوى الايام جد وحيد
فاخطها خطوة العمالق محفو ... فا بعون من الحكيم المجيد
وازرع العلم فى الديار لتجنى ... ثمرات الابداع والتجويد

وابن حصنا للاشتراكية الفضلى ... وصنها بكل بأس شديد
وابعثنها شعبية مزدهاة ... كازدهاء الربيع بين النجود
وارع حق الشهيد فى كل ذكرى ... ذلك الشهم فى الرعيل الفقيد
من تغنت به البطائح والدور ... وشعت به قبور الجدود
واستكانت له المعارك فى القر ... وفى الحر فى ظلال البنود
وغدا صيته العظيم يدوى ... ءء سمع الفضا وملء الوجود
كان للشعب صيحة تتعالى ... بين ساح الفدى كقصف الرعود
وغزت آية الجهاد نفوسا ... حررتها من ذلة وجمود
رددتها المظاهرات شعارا ... جعل الجيش قلعة من حديد
وتلتها الاوانس الحور وردا ... مستعادا منغما كالنشيد
وارتقت بالارواح للملا العلوى ... تبغى عناق كل شهيد
وغدا للشهيد حفلا يضاهى ... حفلات الاعراس ليلة عيد
وتصافى الجميع فى خدمة الواجب ... زلفى للخالق المعبود
طبت يا شعب عنصرا وخصالا ... وسموا بسعيك المحمود
أيها العام خذ علينا عهودا ... من عهود الاحرار دون قيود
أن نظل الحماة للوطن الغا ... لى وللعز والرقي السديد
نعمر الارض كالفراديس أمنا ... وسلاما وروضه للورود
ونصون الاسلام من كل ضيم ... ونجليه فى قشيب البرود
يا بلادى آمنت بالغيب يرعا ... ك ويحدو خطاك بالتأييد
يا بلادى وأنت أنت اذا اشتد ... بك الموج فى الخضم المريد
فالكفاح الكفاح فى كل صوب ... لتفوزى مشكورة أو تسودى
وستبقين ما بقيت رصيدا ... للمعالى : يفوق كل رصيد

البليدة فى غرة محرم 1400

Accession Number
169098
Date 1.1.96

سیصدر قریبا کتاب :

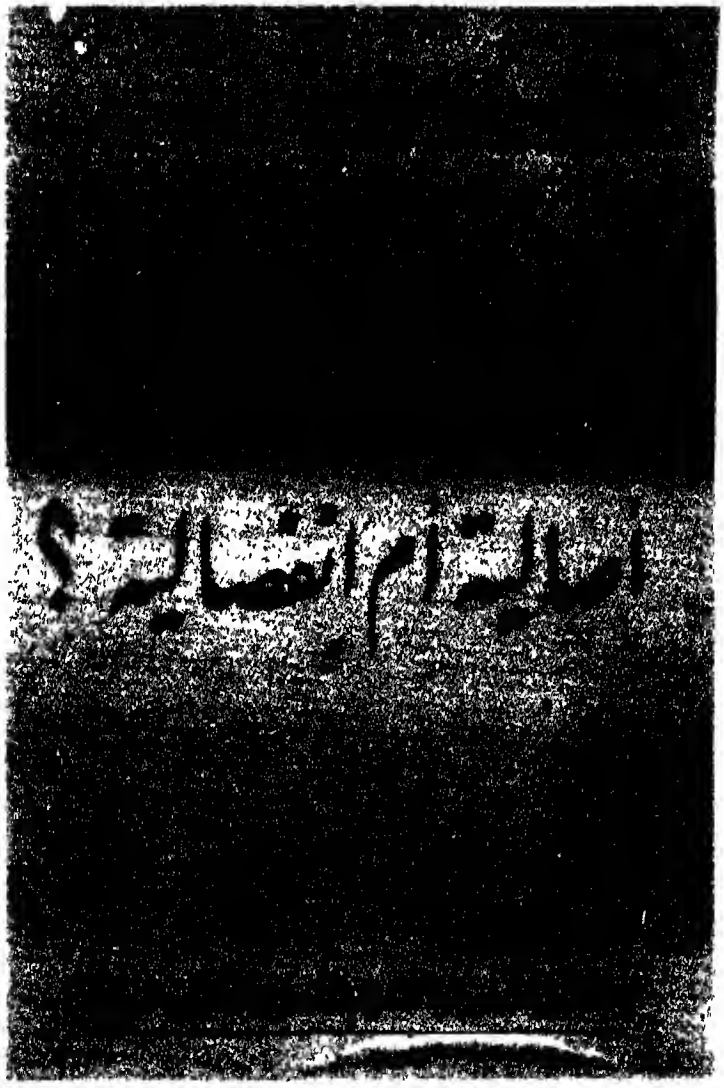
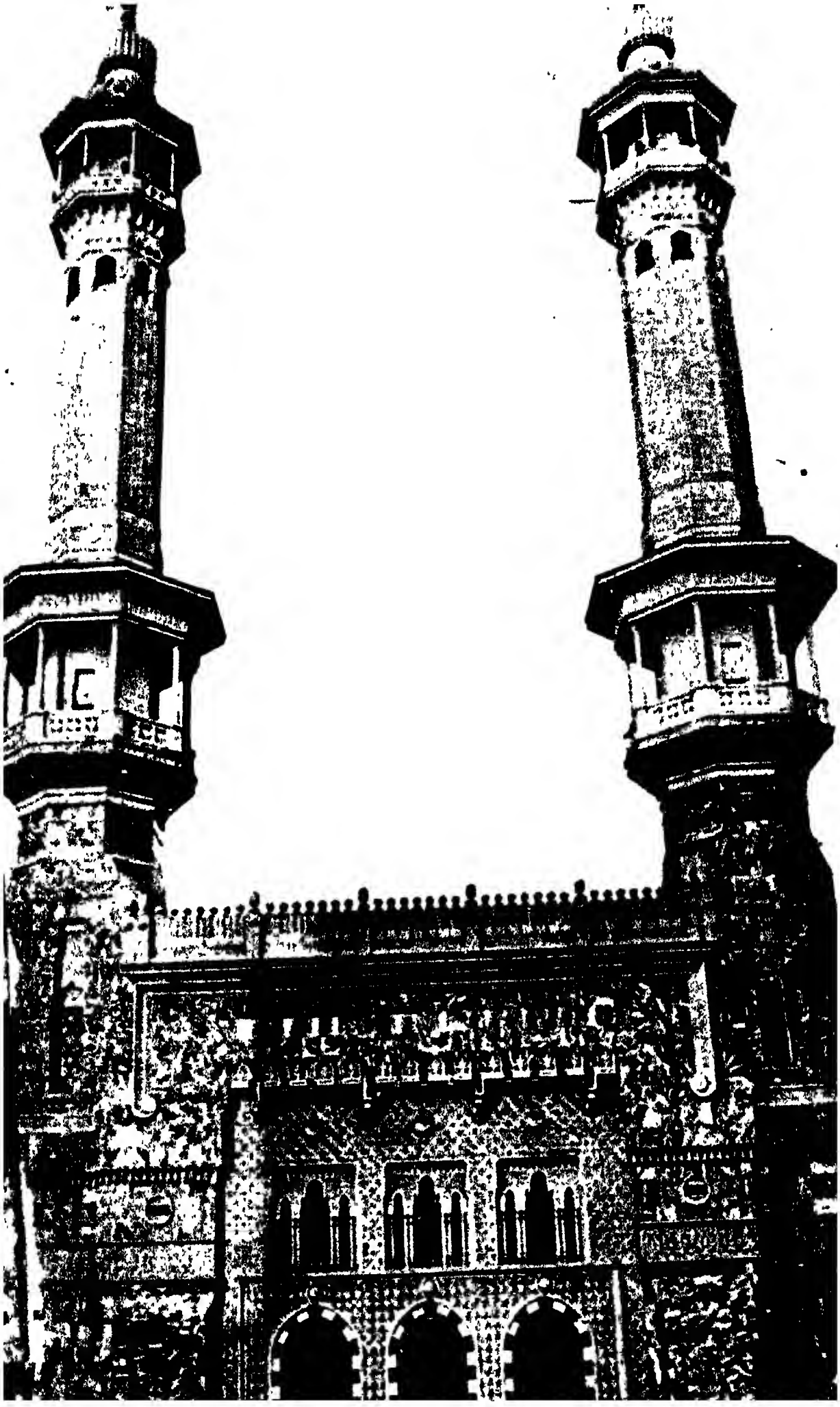
ـ فی مجلدین ـ